شؤون فلسطينية

٣٢

نيسان (ابريل) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٢ — نيسان (ابريل) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين.

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان ، ٢/١ ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٦٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : لوحة « طفولتي في يافا » .

المحتويات

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

لكل شعب يوم لشهدائه . ولكن الشعب الفلسطيني كل ايامه ، على مدار السنة ، ايام شهداء . لانه شعب شهيد ، من ارض شهيدة . ومسيرته نحو النصر ، تلك المسيرة الطويلة التي يزيد عمرها على ثلاثة ارباع القرن ، تحفل بالاستشهاد المتواصل — بل انها تستمر بفضل الاستشهاد المتواصل ، وبه تصمد وبه تتصاعد وبه ستبلغ الهدف .

شهداؤنا في كل عام وكل شهر وكل يوم على مدى السنين ، وفي كل بقعة من فلسطين ومن ارض العرب ، وفي عدد من بقاع الارض الاخرى : سقطوا وهم يستنكرون بناء المستعمرات الصهيونية على ارضهم العربية في مطلع القرن . وسقطوا وهم يقاومون الحكم التركي في محاولة رائدة للاستقلال الكامل . وسقطوا وهم يصطدمون مع الصهيونيين ومع البريطانيين في ثلاثين سنة من الحكم البريطاني الممهد للغزو الصهيوني: في موسم النبي موسى ، وفي حوادث العشرينات التي بلغت ذروتها في نهاية العقد ، وفي حوادث الثلاثينات التي بلغت ذروتها الرائعة في ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ . وسقطوا في الدفاع عن عروبة بلدهم بعد أن قررت الامم المتحدة سلب البلد وتقديمه للاغرباء تكفيراً عن ذنوب الاخرين . وسقطوا امام العدوانات الاسرائيلية المتكررة ، في الخمسينات ، على غزة وخان يونس وغيرهما ، وسقطوا وهم يبدأون عملياتهم الفدائية ضد العدو ، منذ الخمسينات ، في جنوب فلسطين وفي شمالها وفي شرقها . وسقطوا في السموع . وسقطوا في حرب ١٩٦٧ ، متطوعين في قتال ابلوا به بشكل خاص . وسقطوا في عمليات فدائية مختلفة ، وفي بطولات جبارة منذ ١٩٦٥ ، داخل الارض المحتلة وخارجها، برصاص جنود اسرائيليين وبرصاص جنود عرب . وسقطوا في مذابح سبتمبر ٧٠ وبوليو ٧١ في عمان وجرش . وسقطوا في شوارع بيروت ، برصاص معروف ورصاص يهود ، في ابريل ومايو ١٩٧٣ . وسقطوا في اوروبه ، في فرنسه وروما وكوبنهاجن وامستردام وميونخ وغيرها من كبريات المدن . وسقطوا في اعالي الجو وفي اعماق البحار . وسقطوا في حرب رمضان ، في كل الجبهات وفي كل الخنادق والمواقع .

لقد زرع الشهيد الفلسطيني نفسه ، جسدا ودما وروحا ، في كل تربة وفي كل يوم ، وفي كل ظرف وحال ، لتستمر الثورة .

وفي ابريل الماضي ، عندما فقدنا قافلة جديدة من اخواننا ، اقسمنا في هذه المجلة ان نتذكر وان نتعلم وان نقتدي وان نحاول ان نتمم الرسالة ونواصل السعي . ولا تزال « شؤون فلسطينية » ، ولا يزال الشعب الفلسطيني كله ، تلتزم بهذا القسم. فالرسالة، الغالية اكثر من الحياة ، ناقصة بعد . والسعي ، الجهاد ، غير مكتمل بعد . وان كانت « شؤون فلسطينية » تخصص صفحات من هذا العدد لذكرى عدد من الشهداء ، فانها تتذكر شهداءنا ، كل شهدائنا ، في كل صفحة من كل عدد .

ان حبر كلماتنا ، الاسود ، يبدو باهتا امام الخطوط الحمراء من دم شهدائنا التي تلف المكان والزمان ، كل مكان وزمان .

الحضور المسيحي في لاهور

المطران جورج خضر

لم يغب ذكر المسيحيين ودورهم في الدفاع عن فلسطين كلما اجتمع المسلمون . ولكن الحضور الجسدي لن يعوض عنه شيء . وصار هذا ممكنا بسبب من جهود عربية مشتركة ودعوة من الحكومة الباكستانية كريمة احاطتنا بأنبل ما في شعبها من خلق ودماثة وتواضع غريبين . الترحيب بفكرة التمثيل المسيحي بلغ في أعلى مقامات العرب حد الحماس فذهبنا على رجاء تأدية الشهادة وكان زادنا وعد وأضحى الوعد مسعى وجعل ابو عمار المسعى اقتراحا قبلته الهيئة العامة في جلسة الافتتاح فتكلم ، في اليوم التالي ، السيد الياس الرابع بطريرك انطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس حاملا معه المسيحية المشرقية بأسرها .

رافقه كاتب هذه السطور وغسان تويني من كنيسته وكذلك المونسنيور اغناطيوس مارون امين السر لمجلس البطاركة والاساقفة الكاثوليك في لبنان والاستاذ شاكر ابو سليمان رئيس الرابطة المارونية . كلمة الحبر الانطاكي كانت تصوغ الهاما أبعد من اشخاصنا . والحضور بما فيه من وجد كان الشهادة . والاهم ان تنزل الكلمة في قلوب المؤمنين وان يكتشفوا ما تمليه عليهم من مسؤولية التزام . وبالحقيقة كنا حفنة من المسيحيين ، في غير اجتماع ، نتداول قضية القدس ونتقصى فكرة البابا عنها وما بين أيدينا سوى فتات من التصريحات وساعدنا على فهم مرماها اخوان مقربون من رومية ومزودون بوثائق ومقالات واطلاع شخصي جعلتنا نرى ان الفاتيكان لم يبق متمسكا بالتدويل وانه يبغي ضمانات دولية بما لا يتعارض وسيادة وطنية عليها .

ولما قررنا خوض مغامرة لاهور كنا نحمل أحلام الشرق القديم ، احلاما تموج بين الاسكندرية وانطاكية ، تعبر الصحارى والقدس واحتها الكبرى . كنا نتحرق لنقول أمام حفل من الاخوة ما يجيش في صدورنا منذ أن اودعت نفحات من الاباء اردناها للبنين ميراثا . « سجل أنا عربي » أردنا قولها في لاهور والصليب معلق في الاعناق . ففاقت الازاهير وعود البراعم في فترة من التاريخ مباركة . فاذا للاسلام والمسيحية في القدس

كلمة سواء واذا نحن ، امام حشد اسلامي مهيب،متطلعون من خلال فلسطين مستعادة، الى ذلك البهاء الذي سيكلل هاماتنا اذا عشنا معا في مشاركة الحياة النازلة الينا من الحريـــة .

هذه كانت خواطرنا في طريقنا الى لاهور . كيف نرفع قربان فلسطـــين في « أرض الاطهار »* ؟ أيهبنا القدوس نعمة التكلم عن مدينة الحبيب ؟ كان شوقنا الى ذلك مهددا ولكن الثورة الفلسطينية أنقذت الشوق فدخل البطريق مدخل الملوك وحملنا العرب هدية للمسلمين فاقتبلونا أيما اقتبال وكأنهم جعلونا صفحة في تاريخهم او كأن المؤتمر نفســه انقلب حدثا من أحداث النصرانية . وفي كل حال وجدنا انفسنا مع المسلمين حضارة شرقية واحدة قائمة على بساطة العيش ومواصلة القلب للقلب وجمعتنا الفطرة . ولعل المحلل الاجتماعي يقول بل انتماؤكم الى العالم الثالث كان قاسمكم المشترك . هــذا صحيح ولكن في العالم الثالث بركات قد تكون صبغة الله الذي قالت الشعوب المجتمعة انه مبتغاها وذلك بتلاوة مقرىء باكستاني اداها بدون عجمة وبصلاة الجمعة حيث شهدت مئات الالوف من المصلين ان لا اله الا الله وان المستضعفين والاذلة انما الى الله ينتسبون . ومن قدر أن يرى الامور ببساطة كان لا ان يشهد ان انتماءنا للعروبة يعني بلا شك اننا بتماس والاسلام « فان لغتنا تدل علينا » . وهذه صلة ليس فقط لا ننكرها ولكنها اطلالتنا على عالم عظيم نتبادل واياه اعطيات من السماء . ولنــا معه مواقف تحتاج الى نقد وله معنا مواقف سوف يتكشف له ، في صفاء المعرفة ، انــه لا بد له ان ينقذها ايضا . ولكنا ما كنا ، في لاهور ، ذهنيين بقدر ما كنا نتقبل اشــعاعا ونظهر حقيقة اخلاصنا لهذا العالم الاسلامي الكبير بعد ان تجاوزنا كل تحسب ولنا ملء الثقة ان رؤساء المسلمين ووفودهم قرأوا ذلك على وجوهنا مثلما سمعوه بآذانهم . وقد سألنا صحفي اميركي ان كانت لنا ازاء تجمع العالم الاسلامي من مخاوف فجاء وقع سؤاله هجينا ولا سيما ان نفوسنا كانت في حبور بل كنا نهلل ليقظة هذه الامم وليس من يقظة لها ان تسمى كذلك ما لم تقترن بالحق وما لم تقم على ثقافة واسعة وتنعشها نفحة النبوة وتركزها القيم التي اضاءت الانسان منذ سقراط الى يومنا . ولا ريب ان الحضارة الاسلامية القديمة كانت كذلك وان فجوة قد باعدت بينها وبين مسلمي اليوم وهم لذلك واعون . ولا شك ايضا ان الحضارة المسيحية قد تواصلت وقيما خلقية وعقلية أمنت استمراريتها وفعلها وقد اتصلت دار الاسلام ببعض هذه القيم . ولكن الاســتعمار والعنجهية الغربية وما زين للمسلمين انحلال خلق في اوربا والوضع الاجتماعي المتخلف حالت دون التفاعل الخلاق الكامل بين داري الاسلام والمسيحية . غير ان تجربة هذا التفاعل لا مهرب منها ولعل الخطر ان يكتفي العالم الثالث بالوجه الاستهلاكي مــن الحضارة السائدة فيخسر نفسه كما خسرها الغرب ولعل العالم الاسلامي يجد لنفسه صيغة تخوله ان يقبل التقنية قبول الجد والا يغيب عنه وجه ربه . لست أعلم وهذه هي مخاوفي بالنسبة اليه ولا سيما انه انفعالي والمدنية براقة تبهره . ولكني أحيانا ارجو الاعجوبة للقسم الاسلامي من العالم الثالث لعل الله يقيه ، بسبب تأثير القرآن ، عثار « لهو وزينة وافتخار » .

وكنا في وسط تجربة النفط والتجربة تعني اننا تبنينا منطق القوة ، منطق الحضارة الصناعية ، اننا دخلنا في شكل العقل الغربي . قد يكون ذلك لونا من الوان الحتمية وكنت أتمنى لو وجد المسلمون لانفسهم نمط حياة لا يجعل التقنية تتأكلهم. ولعلها المشكلة

---

* هذا معنى اسم باكستان .

الكبرى التي تواجه الانسان المعاصر . اوربا نفسها ، بالنسبة الى اميركا ، اضحت وكأنها بدورها جزء من العالم الثالث . أعلى الغرب اعني الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ــ وكلاهما غرب بالمعنى الحضاري ــ يبدو متفقا على أن يدمج العالم به او ان يسير العالم اليه انتاجا واستهلاكا وفلسفة معيشية. وفي هذا الافق يضيق الفرق بين نظام ونظام وقد باتت الحياة باعماقها الفلسفية واحدة ناهيك عن صور لها تتقارب . كان ، اذا ، تسآلي كيف نعمل ليبقى بالاقل العالم الاسلامي عالما لله ليس فقط كما يتصور أحيانا بعض مفكريه او متأدبيه لمجرد تلاوته للقرآن او ادائه الصلاة والحج ولكن على صعيد الاعماق ، بروح وحق .

نحن في الدنيا الارثوذكسية بتنا جزءا من حضارة الغرب بعد أن حكمت الماركسية بلادنا الكبرى والماركسية ، في تصوري ، حدة الفكر الغربي . والذين يعودون الان الى أحضان الكنيسة في اوروبا الشرقية من الحاد وخبرة مريرة انما يعودون الى الانجيل وتراث الاباء في أبهى عبادة وينفصلون فكريا وثقافيا وعمليا عن المجتمع الشيوعي . والتساؤل الذي لا مفر منه هو هل تعني التقنية المتفاقمة في دنيا الاسلام اعراضا عن حياته الروحية كما حدث في المسيحية هذا وثمة امر ان المسلمين قادرون على احتواء التكنولوجيا وما يلازمها من فلسفة ومسلكية ولا سيما ان العلمنة التي يرفضها الاسلام جزء لا يتجزأ من الحياة التكنولوجية . من ينقذ الله في الاسلام ؟

مرت هذه الفكرة في خاطري وانا ارى التنظيم الاوربي يهيمن على المؤتمر وثقافة اوكسفورد وهارفرد تتخذ وجهها الاسلامي وتجلبب . بارك الله في المسلمين اذا نجحوا حيث اخفقنا .

في فترة بعد حرب تشرين فكرت ان عرب الجزيرة قد يحرقون آبار النفط انقاذا للقدس وانهم مستعدون للعودة الى بداوتهم . لا ازال بعد على هذا الشعور مع أن خوفا ورعدة قد أخذاني وانا أخشى أن نلاعب المال في أيدينا وان نستلذ صداقة الغرب الكبير وتصرعنا اهواؤنا . ولكن الانسان ، في صميم ارتعاده ، لا بد له ان يرجو لهذا العالم الاسلامي المذهل ما يرجوه لخير حبيب بعد ان سمعنا منه كلاما مقدسيا .

« نحن واياكم مقدسيون رجاء وعزما وبذلا » قالها البطريرك وكأنها شرعة بين المسلمين ومسيحيي الشرق جديدة تصوغ عهد عمر صياغة حديثة وفي الشرعة هذه يأتيك الامان من اخلاصك للقدس في مصيرها . صفرونيوس كان يتطلع الى حرية تأتي شعبه الى الابد من المسلمين ولم يطلب من عمر الا اجلاء اليهود عن القدس لانهم كانوا ، قبيل مجيء العرب ، قد ذبحوا عددا من المسيحيين . لجأ المسيحيون الوطنيون الى الفاتح العربي من اضطهاد. القدس ستكون المدينة التي ترمز الى الحرية الدينية واللاعنصرية. ما بعد القدس حرية العالم .

الوفد المسيحي في لاهور تخطى دفعة واحدة ما يسمى بمشكلة الاماكن المقدسة . هذه كانت مشكلة صليبية . « البشر لا الحجر هم الحضور » ذهبت تحولا ــ برنامجا . كل بحث الاماكن ، مبتورا عن المقادسة انفسهم ، حديث القرن التاسع عشر بما كان فيه من جو امتيازات للدول فيما كانت تنهش «الرجل المريض». والاماكن قائمة وحدها، أنصاب والصهيونية تركز عليها لتفصلها عن البحث الشرعي في السكان ومآلهم . المهم

أن ينعتق تراب القدس « بالعدل وللعدل » . البطريرك لم يربط اورشليم بذكرى المسيح الا عبورا وتلميحا ولكنه رأى القدسية . ولا في عدالة القضية ، في فلسطينيتها . وهذا، في اعتقادي ، المساهمة المتميزة التي روادها بين المسيحيين مشارقتهم .

هؤلاء هم أبناء هذه الارض العربية في منبتهم وتراثهم وتطلعاتهم المستقبلية . الانسان اللاصق بالارض هو المعطية الاولى . واما الاماكن المقدسة فيتحدد وضعها اولا بالنسبة الى هذا الانسان الداني اليها من معايشة يومية ومودة . واما القاصي فهاجسه الاول حمايتها او ضمانتها . نبرتنا نحن هذه البشرية المقدسية المؤلفة قلوبها للمجيء بالانسان الجديد الحر . تتلاقى فيه حضاريا ، بصورة لا نستطيع تحديدها بعد ، روافد اليهودية والمسيحية والاسلام . وما يبهج النفس ان البابا بولس قد تجاوز ، في غير تصريح ، اشكالية الاماكن المقدسة حتى القول بحقوق الفلسطينيين . يبقى الرباط العضوي بين القدس وفلسطين الذي جعله الياس الرابع امرا مبينا بقوله : « فلسطينية القدس هي الوجه الانساني والكوني الذي به تطل على العالم » . القدس ، اذ ذاك ، تحمل معنى التجاوز للطابع العبري الحصري المستحدث والمنقطع عمليا الفي سنة . وقد وقف البطريرك الموقف الشمولي المستقبلي اذ الفلسطينية تحتوي اليهودية اذا خلعت الثوب الصهيوني ونهدت الى انسانية الانبياء وتراثها الصوفي . ولعل المؤتمر ، لما تحدث عن الطابع الاسلامي للمدينة ، قصد هذه الاحتوائية . أما الاسلام من حيث هو دين قائم بذاته (اليوم أكملت لكم دينكم ورضيت لكم الاسلام دينا) ، الاسلام بالمعنى الخاص فليس بالواقع — على الصعيد العمراني والاثري — الصبغة الغالبة على المدينة . اما على صعيد البنية السياسية فقد تجاوزت المقاومة المنظار المذهبي وهي — في كل فصائلها — لا طائفية .

نحن مع المسلمين في مخاطبة وجودية في كل الارض نرجو ان يخمرها الود تخميرا طيبا . في المعاصرة وذوق فلسطين يرتسم لهذه المخاطبة محور . وفي طمأنينة الحرية تحلو وتبتسم .

المفاجأة العربية في الحرب الرابعة

المقدم الهيثم الايوبي

« لقد فاجاونا ! لقد أمسكوا بنا ونحن في سراويلنا الداخلية ! لقد امسكونا ونحن في قمة سعادتنا وثقتنا ، عندما كنا نثق بقوتنا اكثر مما ينبغي ، وعندما كنا نعتقد اننا نستطيع ضرب اي عدو في ستة أيام ».

(رفل بنكلر ـــ عل همشمار ٩/١٠/٧٣)

مقدمة

المفاجأة مبدأ اساسي من مبادىء الحرب ، ومحور ترتكز عليه الخطة العسكرية بجميع مستوياتها الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية . وليس في التاريخ العسكري قائد ناجح لم يحاول استغلال المفاجأة لقلب التوازن النفسي داخل معسكر الخصم ، لان قلب هذا التوازن يحدد بداية النصر . وتتحقق المفاجأة عادة بعدة أشكال ، فقد تكون مفاجأة في مكان الضربة الرئيسية (محور الجهد الرئيسي) ، او في زمان هذه الضربة (لحظة بدء العمل) ، او باستخدام سلاح جديد ، او باستخدام سلاح قديم بأسلوب جديد لا يتوقعه الخصم . واذا كان الالمان قد فاجأوا الاتحاد السوفياتي بتاريخ بدء عملية بارباروسا في حزيران ١٩٤١ وفاجأوا الفرنسيين في ايار ١٩٤٠ بمكان الضربة الرئيسية في منطقة الاردين التي قدر الفرنسيون عدم صلاحيتها لهجوم مدرع كبير . فقد فاجأ اليابانيون الاسطول الاميركي في بيرل هاربور (كانون الاول ١٩٤٣) مفاجأة جمعت عاملي الزمان والمكان . واذا كان الحلفاء قد فاجأوا الالمان في الحرب العالمية الاولى باستخدام الدبابات لخرق الخطوط الدفاعية في معركة السوم (١٩١٦) ومعركة كامبري (١٩١٧) ، فقد رد الالمان المفاجأة في الحرب العالمية الثانية عندما استخدموا سلاحا معروفا (الدبابة) بأسلوب جديد هو أسلوب الكتل المدرعة الضخمة (فرق وفيالق) العاملة بتعاون وثيق مع القاذفات المنقضة من طراز شتوكا .

وتعتمد المفاجأة اكثر ما تعتمد على الخدعة ، والسرية ، وسرعة الحركة ، ودقة المعلومات ، ودراسة عقيدة الخصم العسكرية ، والقدرة على فهم عقلية واسلوب محاكمته وطبيعة ردود فعله . ويكمن جوهر كل مفاجأة في القيام بعمل حاسم غير متوقع، بعد دفع العدو الى اتخاذ تدابير يظنها جيدة وملائمة ، ثم يكتشف خلال القتال انها ليست غير ملائمة فحسب ، بل تعرقل القيام بالاعمال المضادة الملائمة ايضا .

وللمفاجأة في الصراع العربي ـــ الاسرائيلي تاريخ حافل يستحق الدراسة . بكثير من العناية ، لانه يجسد في الحقيقة **تباين مفهومين ، وحضارتين ، واسلوبين في التفكير ،** ولقد استخدم الاسرائيليون المفاجأة على نطاق واسع في الحروب الثلاث الاولى (٤٨ ـــ ٥٦ ـــ ٦٧) وفي العمليات المحدودة الانتقامية التي جرت في الفترات الواقعة بين هذه الحروب ، على حين لم يلجأ العرب على المستوى الاستراتيجي الى هذا العامل الفعال اللازم لتحقيق النصر . ففي حرب ١٩٤٨ التي كانت العمليات العربية في بدايتها هجومية،

اعلنت الحكومات العربية بشكل مسبق بأن تاريخ بدء الهجوم سيكون في ١٥ ايار ، ففقدت بذلك المفاجأة بالزمان ثم قامت بالهجوم بشكل جبهي وعلى المحاور المتوقعة ففقدت المفاجأة بالمكان ، دون ان تعوض ذلك بمفاجآت اخرى بنوع السلاح او اساليب استخدامه التي كانت أساليب تقليدية يعرفها العدو . ومارس العدو في هذه الحرب — حتى في مراحلها الدفاعية الاولى — مختلف أساليب المفاجأة ، مستخدما الليل والحركة والمحاور غير المتوقعة لتسديد الضربات المعاكسة . ثم استخدم المفاجأة على نطاق أوسع بعد الهدنة الثانية عندما تحول الى الهجوم . وتمثلت مفاجآته باستخدام الطيران ومجموعات الدبابات (مفاجأة بالسلاح) وباستخدام الليل والمحاور غير المتوقعة وضرب المجنبات (مفاجأة باستخدام السلاح) . وفي حرب ١٩٥٦ انتقلت المفاجأة الى يد العدو الذي حقق المفاجأة بالزمان ، والمفاجأة بحجم القوات ، وساعده على ذلك تواطؤ فرنسا وبريطانيا معه بشكل جعل الجيش المصري يضطر لمجابهة قوات تفوق توقعاته . وعندما توتر الموقف في ايار ١٩٦٧ تصرفت مصر بشكل تظاهري ، واعلنت عن حشد قواتها في سيناء وقطاع غزة ، وحركت القوافل العسكرية عبر القناة في وضح النهار ، على حين استخدم العدو الخدعة الدبلوماسية والعسكرية ، فتظاهر بالضعف والرغبة في الدفاع ليشن الهجوم في لحظة كان المصريون يستعدون خلالها لارسال زكريا محي الدين رئيس الجمهورية الى واشنطن لمقابلة المسؤولين الاميركيين والتباحث معهم حول شروط تخفيف حدة التوتر . واندفع الطيران الاسرائيلي كله لتدمير الطائرات العربية الجاثمة على الارض ، ثم طبق العدو في العمليات البرية في سيناء عددا من المفاجآت التكتيكية (القتال ليلا ، تموين الدبابات المتقدمة بالمحروقات بواسطة الهليكوبتر ، انزال المظليين وراء مواقع المدفعية ، التقدم عبر مناطق رملية يعتبرها المصريون غير صالحة لعبور الاليات ، استخدام القنابل الانزلاقية لتدمير مدارج المطارات ... الخ) .

وفي ٦ تشرين الاول انطلقت القوات المصرية والسورية من مواقع حشدها ، واخترقت خطوط العدو الدفاعية ، محققة بذلك أول مفاجأة استراتيجية عربية في هذا الصراع الذي دام ٢٥ عاما .

وكانت المفاجأة العربية كبيرة أخذت داخل المجتمع والجيش الاسرائيليين حجم « هزة أرضية » مدمرة **وان لم تكن تتمتع بشمولية كشمولية مفاجأة ١٩٦٧** . ولقد زاد من اهميتها انها أصابت مجتمعا « اسبارطيا » متحفزا يقدم ضرورات الامن على كل ما عداها ، ويعيش كقلعة صليبية مزروعة بشكل مفتعل وسط منطقة معادية ترفضه وتكن له عداء صداميا مكشوفا . ويذكر البروفسور يعقوب تلمون استاذ التاريخ المعاصر في الجامعة العبرية وعضو الاكاديمية الاسرائيلية للعلوم : « تمثل امامنا معضلة خطيرة : منذ جيلين وثلاثة أجيال ، عشنا بايمان مشبع بالقلق بأننا محاطون بأعداء هدفهم القضاء علينا ، وأنهم لن يتوانوا عن تحقيق هذا الهدف ابدا . لقد كررنا على مسامعنا الحقيقية المريعة لنا ، وهي أن خسارة في معركة واحدة تعني ، في وضعنا الخاص ، الدمار العام . وكانت اعتبارات الامن هديا لنا حيثما توجهنا وفي كل زمان . وكان كل شيء يخضع لقضية الحياة والموت . واذا ، كيف حدث أن وجدتنا حرب يوم الغفران غير مستعدين وغير متأهبين مع أن دلائل التحذير لم تنقص ؟ »(١) .

لقد كان هناك بالفعل تحذير من الاستخبارات الاسرائيلية والاميركية ، وكانت القوات الاسرائيلية النظامية مستنفرة منذ رأس السنة العبرية ومعركة ١٣ ايلول الجوية ، ومع هذا وقعت المفاجأة بشكل مذهل . واخذت المواقع الاسرائيلية في سيناء وعلى هضبة الجولان على حين غرة ، وفوجئت باندلاع الحرب مفاجأة كاملة . فلقد ذكر الاسير شومي باروخ الذي سقط بيد القوات المصرية في يوم ٦ تشرين الاول عندما ظهر على شاشة

التلفزيون المصري في مساء ٧ تشرين الاول « لقد كانت مفاجأة لنا ان نجد المصريين فوق رؤوسنا » ... « أننا فوجئنا فعلا بالمعركة ولم يدر هذا في تفكيرنا أبدا »(٢).

ويذكر مراسل صحيفة الفيغارو « عند الظهر ــ يوم ٦ تشرين الاول ــ بدأ جنود اسرائيل عند جبهة قناة السويس يتململون بسبب قرار الطوارىء القصوى الذي صدر لهم ، فالهدوء كامل ، والصمت مطبق . ومن غير المعقول ان يبدأ الجيش المصري هجومه عند الظهيرة ... وبدأ الجنود والضباط يتخلون عن مواقعهم ، واخذت اصابعهم تخف عن زناد بنادقهم الموجهة فوهاتها الى... الى لاشيء يتحرك امامهم ! وترك بعضهم مدفعه واخذ يغسل ملابسه. واستلقى البعض الاخر ليرتاح ، او ليكتب خطابا الى أسرته بمناسبة العيد الديني الكبير . اما جنود موقع « دورا » ــ جنوبي مدينة القنيطرة شرق ــ فانهم بدأوا مباراة في كرة القدم لتسلية أنفسهم ، وقتلا للوقت الذي يمر في هدوء وخمول ... وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر كان الجندي الثاني صموئيل يقفز قفزة عالية ليلتقط الكرة قبل أن تخترق شبكة المرمى الذي يحرسه ، واذا به يطلق صرخة عالية « طائرات ! طائرات ! » ... وكانت تمر فوق ملعب كرة القدم ٤ مقاتلات مصرية من طراز ميغ ٢١ على ارتفاع بسيط جدا من سطح الارض ، قادمة من الضفة الغربية القناة ، متجهة الى أعماق سيناء . وقبل ان يعلق أحد من لاعبي الكرة كانت المدفعية المصرية تضرب ضربتها الاولى »(٣).

هكذا بدأت الحرب الشاملة وتمزقت حالة « اللاحرب واللاسلم » وانهارت خطوط وقف القتال الذي نادى وزير الدفاع موشي دايان قبل الحرب بشهرين فقط بضرورة تعزيزها والوقوف عندها « حتى يصبح العرب مستعدين للجلوس معنا الى طاولة السلام »(٤). والتي كان يشعياهو جافيتش قائد القوات الاسرائيلية في سيناء اثناء حرب ١٩٦٧ قد وصفها بأنها « أفضل مواقع على الخطوط الامامية تمتعت بها (اسرائيل) في أي وقت من الناحية العسكرية »(٥).

ويرجع تاريخ اتخاذ القرار العربي بالعودة الى القتال الى مطلع عام ١٩٧٣ . ومن المؤكد ان هذا القرار لم يغب عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ نهاية حرب الاستنزاف (١٩٧٠) ، كما لم يغب عن الرئيسين السادات والاسد منذ تسنمهما منصب رئاسة الجمهورية ، لكن المساعي الدبلوماسية والسياسية كانت تحتل المكانة الرئيسية في جدول افضليات الصراع . وكان انتقال قرار القتال الى المرتبة الاولى يتطلب اعادة بناء الجيشين المصري والسوري ورفع كفاءتهما القتالية ، وخلق الوضع العربي الملائم لحرب شاملة تستخدم فيها كافة الاسلحة العسكرية والاقتصادية ، وظهور وضع دولي ملائم لا يتعارض مع شن القتال لاستعادة الاراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، او خلق الضغط العسكري الذي يحرك الوضع السياسي المستنقع ، ويعيد الحياة الى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي عطلت الولايات المتحدة واسرائيل تنفيذه . ويبدو ان الرئيس السادات اتخذ مثل هذا القرار في عام ١٩٧١ (عام الحسم) ، ثم عدل عنه بعد ظهور متغيرات جديدة . ولكن الفكرة بقيت كامنة تنتظر اللحظة المناسبة . وبقيت المساعي السياسية ــ الدبلوماسية « الوسيلة العربية الاولى » لاستعادة الاراضي المحتلة . ومهما قيل في تهديدات الرئيس السادات بخصوص عام الحسم ، فان من المعتقد ان المتغيرات الجديدة التي منعت الجيش المصري من بدء القتال في هذا العام كانت في الاساس متغيرات دولية ، أعطت الرئيس المصري شيئا من الامل بامكانية الحصول على هدف الحرب عن طريق السياسة .

وكان الاسرائيليون يعرفون ان الضغط الشعبي العربي ، والرغبة في استعادة الاراضي المحتلة والكرامة المهدورة ، ورفع شعار « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة »،

وتشدد السوفيات في مسألة احتلال اراضي الغير بالقوة وعدم استعدادهم للتساهل في هذه المسألة التي يمكن ان تخلق سابقة خطيرة في أماكن اخرى حساسة من العالم ، واتجاه العالم نحو تأييد مبدأ « اعادة الاراضي المحتلة مقابل السلام » عبارة عن عوامل ضاغطة ستدفع مصر وسورية الى الحرب ، **ولكن القادة الاسرائيليين كانوا يرحبون بهذه الحرب بتصريحات يمتزج فيها التبجح بالسخرية** ، فلقد صرح رابين وبارليف وجافيتش وحتى أبا ايبان ، بأن اتخاذ قرار الحرب من قبل العرب يعني « انتحار جيوشهم » ، ولن يؤدي الا الى تعرضهم « لهزيمة محققة » . وصرح ييجال آلون في نهاية عام ١٩٧١ « ان محاولة المصريين عبور القناة سوف تكلفهم خسارة ٧٥ ٪ من قواتهم ، على حين ستجبر باقي القوات على التراجع »(٦) ، ثم عاد بعد ذلك ليؤكد « أنه ليس في استطاعة الجيوش العربية الحصول على دونم واحد من الارض بقوة السلاح »(٧) . ولم يكف دايان عن التهديد في هذا المجال ، حتى أنه أنذر الجيش المصري في منتصف عام ١٩٧٢ بهزيمة كاملة وصرح بأن هذا الجيش « سيجد نفسه في مقبرة كبيرة تتناثر فيها معداته العسكرية في حالة محاولته عبور قناة السويس . وهذا أمر بعيد الاحتمال »(٨) . وبقيت هذه الفكرة سائدة في الاوساط الاسرائيلية حتى عشية الحرب ، ويذكر زئيف شيف المحرر العسكري لصحيفة « هآرتس » : « ان الخوف من ان يفاجىء المصريون اسرائيل بهجوم شامل خوف ضعيف جدا . وعلى الرغم من أن معظم الجيش (المصري) محتشد في منطقة الجبهة ، فان عليه ان يقوم بعمليات مسبقة قبل شن هجوم شامل »(٩) .

ومنذ مطلع عام ١٩٧٣ وصلت الاستعدادات العسكرية المصرية والسورية الى المستوى المطلوب ، وأنهت تدريباتها على الاسلحة والمعدات الحديثة التي زودها بها السوفيات ، وارتفع صوت القوات المسلحة مطالبا بالقتال بعد أن غدا الوضع « لا يحتمل » . ومع هذا تابعت القيادة المصرية المساعي الدبلوماسية . وكانت اخر هذه المحاولات قبل اتخاذ قرار القتال ، هي محاولة شباط ١٩٧٣ عندما قام حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات للامن القومي بجولة شملت لندن وبون وموسكو وواشنطن . وكان اسماعيل يحمل معه تفاصيل خطة دبلوماسية يمكن أن تنهي الازمة بحل سلمي عادل . بيد أن خطاب رئيسة وزراء العدو في نادي الصحافة الامريكي بواشنطن ، واعلان واشنطن تزويد اسرائيل بـ ٤٨ طائرة فانتوم و٤٨ طائرة سكايهوك اكدا عدم جدوى الاستمرار في الخطة الدبلوماسية . وبعد عودة حافظ اسماعيل من جولته بدأ التحول الجذري في الموقف العربي ، واتخذ قرار القتال في مصر وسورية منذ شهر شباط ١٩٧٣(١٠) .

وفي ١٩٧٣/٣/٢٦ صرح الرئيس السادات امام مجلس الشعب ان المعركة هي « الطريق الوحيد » وان الاعداد لها قد بدأ . وبعد أيام أعلن الرئيس السادات نفسه حاكما عسكريا . وفي اليوم الثاني من شهر نيسان عقد اجتماع عسكري موسع للقيادات المصرية . ثم زار الفريق اول احمد اسماعيل وزير الحربية المصري دمشق في ٨ ايار وتلا هذه الزيارة قيام الرئيس السادات بزيارة دمشق في يوم ١٩ من الشهر نفسه ثم في ١٢ من الشهر التالي . وكانت الوفود العسكرية والمبعوثون العسكريون يتنقلون بين القاهرة ودمشق . ولقد أبدت القيادة السورية موافقتها التامة على المشاركة في أية حرب تخوضها مصر . ولكن الخطة النهائية لم تحدد على ما يبدو الا في يوم ١٥ أيلول خلال اجتماع الرئيسين السادات والاسد . وبقيت الخطة سرية حتى الايام الاخيرة ، ولم يطلع عليها سوى القيادات العليا التي بدأت تعد الخطط التفصيلية تحت غطاء الاعداد لمناورات الخريف . وكان موعد بدء العمليات محددا في يوم ٢٦ ايلول ، ثم أجل

حتى الساعة السادسة من يوم ٦ تشرين الاول . وعندما اكتشفت الاستخبارات الاميركية في يوم ٥ تشرين الاول ان الحشود العربية على الحدود تتم بشكل غير عادي، ونقلت الانباء الى الدكتور هنري كيسنجر ، تطابقت المعلومات المتوفرة لدى وزير الخارجية الاميركية مع المعلومات التي وصلته من الحكومة الاسرائيلية بصدد الحشود، فاتصل بوزيري الخارجية المصري والاسرائيلي اللذين كانا في نيويورك ، وطلب منهما ابلاغ حكومتيهما ضرورة ضبط النفس وعدم خرق وقف اطلاق النار . ولقد روت الصاندي تلغراف على لسان كبير مراسليها في الشرق الاوسط ان الرئيس السادات قدم موعد الهجوم ٤ ساعات بعد أن تلقى رسالة وزير الخارجية الاميركي(١١). ولكن رئيس تحرير الاهرام السابق محمد حسنين هيكل اكد ـــ وهو في موقع يسمح له بالاطلاع على المعلومات الصحيحة ـــ ان تقديم موعد الهجوم من الساعة السادسة (آخر ضوء) في يوم ٦ تشرين الاول الى الساعة الثانية بعد الظهر تم في يوم ٣ تشرين الاول لا بعد ذلك التاريخ(١٢). ولقد أدى هذا التقديم دون شك الى حرمان القيادة الاسرائيلية من ٤ ساعات ثمينة في فترة حرجة يحسب فيها الوقت بالدقائق والثواني .

عوامل المفاجأة العربية

لم تقع المفاجأة في الحرب الرابعة عن طريق الصدفة ، بل كانت وليدة تدابير معدة بدقة وعناية . ويمكن أن نذكر هنا بعض هذه التدابير التي سيكشف المستقبل الكثير من خباياها التي تؤكد **ان العرب تعلموا الكثير من هزيمتهم في عام ١٩٦٧ .**

١ ـــ اظهار النوايا السلمية : قدمت القيادة العربية قبيل اندلاع الحرب العديد من الشواهد التي تدل على رغبتها في حل الازمة سلميا ، وتبرهن على انها لم تقطع الامل بعد من امكانية نجاح المساعي الدبلوماسية عن طريق التعاون مع الولايات المتحدة الاميركية . فبالرغم من تصريحات الرئيس السادات المتكررة بضرورة استخدام القوة لاجبار اسرائيل على الانسحاب . وبالرغم من خطابه الحربي في ايار ١٩٧٣ قبيل اجتماع مجلس الامن بناء على طلب مصر لمناقشة الوضع في الشرق الاوسط والذي قال فيه أن مصر «ستكسر حالة اللاحرب واللاسلم. . .في اللحظة التي نجد فيها أنفسنا مستعدين»، فقد بعثت مصر وزير خارجيتها الى الولايات المتحدة في عشية الحرب بمهمة متابعة الجهود الدبلوماسية . وعقدت مع كونسورتيوم اميركي اتفاقا قيمته ٣٤٠ مليون دولار لمد خط انابيب النفط من السويس الى البحر الابيض المتوسط . وخلقت هذه التدابير انطباعا بأن القاهرة تفكر في تدعيم بنائها الاقتصادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ، **وأنها لن تلجأ الى استخدام « الوسيلة العسكرية » لتحقيق اهدافها السياسية طالما أنها لا تزال مؤمنة بامكانات نجاح « الوسائل الاخرى » ، والسياسية بصورة خاصة .**

٢ ـــ السرية الكاملة : حافظت القيادتان المصرية والسورية على سرية التوقيت والتكتيك المتبع حتى بالنسبة للزعماء العرب . ولم يعلم بهذين العاملين سوى الملك فيصل الذي أكد للرئيس السادات استعداد بلاده لوضع كل امكاناتها في خدمة المعركة عندما يبدأ الجيشان المصري والسوري القتال . ولم تبلغ القيادة العراقية بتوقيت المعركة وتكتيكها ، كما لم يبلغ الرئيس القذافي بهما ، رغم اطلاعه على الخطة وعدم موافقته على استراتيجيتها ، ورغم أن ليبيا مرتبطة مع مصر وسورية باتحاد ثلاثي ومرتبطة مع مصر بمشروع وحدة اندماجية . وعندما زار الملك حسين القاهرة في ١٠ ايلول احاطه الرئيس السادات علما بالخطة العامة دون أن يذكر له التوقيت او التكتيك المتبع . ولم تبلغ قيادة الثورة الفلسطينية الا قبل ٢٥ ساعة تقريبا من بدء القتال ، وكان التبليغ نفسه عاما دون تفصيلات .

اما على الصعيد العملياتي والتكتيكي ، فقد بقيت معلومات خطة « بدر » — التي أعدت على أساس خطة مناورات — محصورة في القيادات العليا ، ولم تصل الى قيادات القطعات الكبرى الا قبل ٤٨ ساعة من بدء القتال ، اما قادة القطعات فلم تصلهم المعلومات الا قبل ٢٤ ساعة ، واعطيت المعلومات الى قادة الوحدات الصغرى قبل ساعات من بدء القتال . ويذكر اريك رولو في صحيفة لوموند انه قابل احد عسكريي المدرعات المصريين على مسافة عشرة كيلومترات شرقي الفردان ، وان هذا العسكري اخبره بأنه « حتى اللحظة الاخيرة كان يعتقد انه يشترك في مناورات عادية . وكيف كان للامر أن يكون غير ذلك في عز صيام رمضان ؟ لقد حوفظ على السر تماما . ولم يكن يعرف ساعة الصفر حتى ٤ تشرين الاول سوى اربعة أشخاص : رئيسا مصر وسورية ووزيرا الحربية »(١٣).

٣ — اظهار البرود السياسي ازاء الاتحاد السوفياتي بعد خروج السوفيات من مصر في عام ١٩٧٢ ، رغم استمرار تدفق السلاح السوفياتي على مصر ، ورغم استمرار الخبراء السوفيات في مساعدة المصريين على بناء القوة العسكرية القادرة على الهجوم. ولقد ذهب حاييم هرتزوغ (رئيس الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية السابق والمعلق العسكري باذاعة العدو) الى اعتبار اخراج السوفيات من مصر والضجة الاعلامية التي أحاطت به جزءا من خطة مدبرة ، فلقد صرح في ١٧ تشرين الاول « ان انسحاب السوفيات من مصر قبل ١٥ شهرا لم يكن سوى عملية للتمويه وذر الرماد في عيون الغرب واسرائيل ، وقد نجحت هذه الخطة »(١٤). وقد يكون في قول هرتزوغ بعض المبالغة . ولكن من المؤكد ان تخفيف الوجود السوفياتي في مصر ساعد على انخفاض توتر العسكرية الاسرائيلية ، وجعل المراقبين الغربيين والاسرائيليين يعتقدون بأن القدرة الحربية المصرية قد انخفضت الى حد بعيد وخاصة في سلاح الطيران، ووحدات الرادار، ووحدات الصواريخ أرض — جو المضادة للطائرات ، ووحدات العبور الهندسية .

٤ — شن الهجوم في ذروة مرحلة الوفاق الدولي ، وفي الوقت الذي اعتقد فيه العدو أن العرب سيترددون كثيرا قبل القيام بأي عمل عسكري طالما ان حلفاءهم السوفيات سيحجمون عن دعمهم عند اللزوم **حفاظا على علاقاتهم المتوطدة مع الولايات المتحدة** . ولقد زاد من أهمية هذا الاعتقاد قيام السوفيات بنقل عائلات الخبراء عن طريق البحر والجو قبل ٤٨ ساعة من بدء العمليات ، وتفسير المعلقين الاسرائيليين والغربيين لهذا العمل بأنه اشارة من السوفيات للعرب بأنهم لا يودون التوسط في الشرق الاوسط ، ولا يوافقون على أية مغامرة هجومية غير مضمونة العواقب .

٥ — اختيار يوم الهجوم في عيد الغفران ، حيث تكثر الاجازات في الوحدات النظامية ، وينخفض مستوى الاستنفار على جبهات القتال ، وتصعب التعبئة نظرا لوجود الاسرائيليين في المعابد او في بيوتهم وعدم استماع المتدينين منهم للاذاعة التي تبث عادة اشارة التعبئة . ولقد انتقد بعض المعلقين هذا الاختيار ، نظرا لان خلو الشوارع من السيارات بسبب العيد الديني الذي لا يستخدم فيه الاسرائيليون سياراتهم وبقاء معظم الناس في المعابد او في بيوتهم قد ساعد على حركة السيارات العسكرية والخاصة المستخدمة في عملية التعبئة . ولم يعرض القوافل العسكرية للعرقلة الناجمة عن ازدحام السير على الطرقات .

٦ — اختيار يوم الهجوم في رمضان الذي يعتقد الاسرائيليون ان المصريين يلجأون فيه الى الراحة ، ولا يعقل ان يشنوا فيه قتالا هجوميا يتطلب طاقة بدنية عالية ، وجهدا شاقا لا يحتمله الصائمون .

٧ ــ الاعلان عن بدء تسجيل أسماء العسكريين المصريين الراغبين في اداء فريضة الحــج .

٨ ــ الاستمرار في اعطاء الاجازات للعسكريين العاملين على خطوط وقف القتال او في قطعات الداخل ، ضمن النسب المألوفة في حالات الاستنفار المماثلة .

٩ ــ استغلال حالة التوتر التي سادت على الجبهتــين بعد تهديدات الاسرائيليين لسوريا واتهامها بمساعدة الفدائيين الفلسطينيين الذين قاموا بعملية معسكر شناو في النمسا في آب ١٩٧٣ ، وتزويد الفدائيين الذين اعتقلتهم السلطات الايطالية في أيلول ١٩٧٣ بصواريخ فردية ارض ــ جو (ستريلا) . والعمل تحت غطاء هذه الحالة ومــا أعقبها من استنفار وخاصة بعد معركة ١٣ أيلول الجوية ، **والافادة من الغطاء الاعلامي** لتعبئة القطعات ، وتحريكها من مواقع تمركزها الى مناطق التجمع القريبة مــن خط الانتشار للهجوم . والانتقال بعد ذلك حتى خط الانتشار تحت سمع العدو وبصره .

١٠ ــ عدم اعلان التعبئة العامة قبل الهجوم اعتمادا على وجود قوات عاملة كبيرة العدد كافية لتحقيق التفوق العددي اللازم للهجوم .

١١ ــ عدم استخدام وسائط الدفاع أرض ــ جو الحديثة (صواريخ سام ــ ٦) في الرد على طائرات الاستطلاع الاسرائيلية التي كانت تخترق الاجواء السورية ، وعدم اشتراك هذه الصواريخ في معركة ١٣ أيلول الجوية التي افتعلها الاسرائيليون لمعرفة مستوى جهاز الدفاع الجوي السوري ضد الطائرات ، وتحديد نقاط ضعفه وقوته .

١٢ ــ اجراء الحشد بطريقة مخادعة وفي رابعة النهار . ويذكــر اريك رولو ان القوات المصرية كانت تتحرك نحو القناة في وضح النهار ثم تترك عند خط الهجوم جزءا من جنودها ووسائطها وتعود بجزء فقط لتعطي العدو انطباعا بأن جميع القوات التي تحركت نحو القناة قد عادت بالفعل الى مواقعها الاصلية(١٥).

١٣ ــ نقل الجسور بقطع متفرقة ليلا ، واخفاؤها قرب مناطق العبور على الشاطىء الغربي للقناة .

١٤ ــ تبديل مواقع بطاريات الصواريخ أرض ــ جو في ليلة ٥ ــ ٦ بعد ان قام العدو بطلعات استطلاع جوية في يوم ٥ تشرين الاول . واعتقدت القيادة المصرية ان من المحتمل أن يكون هذا الاستطلاع قد كشف مواقع البطاريات .

١٥ ــ التصرف على جبهة القتال بشكل عادي لا يستثير انتباه رصاد العدو . ولقد كشف اللواء سعد مأمون مساعد وزير الحربية المصري النقاب عن ان القوات المصرية استخدمت ٦٥ خدعة لصرف انظار الاسرائيليين عن حشود مصر ومنها « جعل الجنود يسبحون في قناة السويس كما هي العادة كل يوم ، والتأكد من عــدم ارتداء الجنود لخوذاتهم حتى لحظة بدء المعركة »(١٦).

١٦ ــ اختيار لحظة بدء الهجوم عند آخر ضوء ، ثم تعديل هذا الاختيار كما رأينا وتقديمها الى الساعة الثانية بعد الظهر بدلا من القيام بالهجوم عند أول ضوء او في ساعات الصباح الاولى كما تنص جميع انظمة الخدمة في الميدان . ويبدو أن هذا الاختيار قد خفف من يقظة العدو الى حد بعيد ، لان جنوده الذين أنذروا قبل فترة طويلة ، ومكثوا طوال ساعات الصباح ينتظرون الهجوم العربي ، تهاونوا بعد الظهر ، وانخفض مستوى حذرهم على اعتبار ان القوات العربية لا تهاجم الا مع أول ضوء .

١٧ ــ استخدام الاسلحة المضادة للدبابات (قاذفات الصواريخ ربج ــ ٧) بكثافة عالية داخل قطعات المشاة ، واستخدام مجموعات كبيرة من وحدات الصواريخ الموجهة

المضادة للدبابات والمحمولة على عربات مصفحة . ويذكر زئيف شيف في هذا المجال « ان اكبر المفاجآت في المجال التكتيكي والتقني في حرب يوم الغفران كانت دون أدنى شك الاسلحة المضادة للدبابات التي يملكها العدو . او بشكل أدق : بأيدي مشاته . . . والامر المذهل بصورة خاصة كان كميات الاسلحة هذه ، والكميات التي كانت بأيدي سلاح المشاة المصري بشكل خاص . ومن الواضح ان هذه غلطة فادحة عندما لا يعلم أحد الاطراف بأن عدوه قد أدخل الى وحداته قواذف « ربج — ٧ » بمعدل ٣ قواذف بدلا من قاذف واحد لكل جماعة . وينطبق القول نفسه عندما لا تعرف كميات الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات في وحدات المشاة العادية »(١٧).

١٨ — الاستطلاع الجيد : قام المصريون خلال مرحلة الاعداد للهجوم بعمليات استطلاع طويلة شملت خط بارليف ، وأعماق سيناء ، وقناة السويس نفسها . وكانت الغاية من هذه العمليات معرفة نقاط ضعف العدو ، ومحاور تحركاته المحتملة، وأسلوبه في حماية قناة السويس . ولقد اشتركت في الاستطلاع التكتيكي وحدات من الضفادع البشرية ووحدات صاعقة على حين قامت بالاستطلاع الاستراتيجي في عمق الارض المحتلة وحدات الاستطلاع الجوي المزودة بأجهزة كشف متقدمة ، واجهزة تصوير بالاشعة تحت الحمراء . ولقد استمر الرصد الاستراتيجي بطائرات ميغ — ٢١ حتى اللحظات الاخيرة ، وكانت آخر طلعاته تستهدف كشف تحركات العدو ، والتبديلات التي يحتمل ان يكون قد أدخلها على ترتيبه الدفاعي في الساعات الاخيرة .

وهكذا اجتمعت هذه العوامل كلها مع العوامل النفسية التي سنأتي على ذكرها ، وتحققت المفاجأة بزمان المعركة . كما تحققت الى حد ما بنوع السلاح ، **ولكن المفاجأة الاكبر كانت في الاساليب الجديدة لاستخدام السلاح ، والتطور الكبير الذي أصاب المقاتل العربي ، وتمثل في ارتفاع معنوياته ، وتنامي روحه الصدامية وقدراته القتالية في الهجوم والدفاع ، وقدرته الكاملة على استخدام الاسلحة والمعدات المعقدة بكفاءة جيدة ، ومهارته في تخطيط المعركة بشكل منهجي لا يخلو من الابداع** . ويذكر زئيف شيف انطباعه حول هذه المفاجأة النوعية بقوله « لقد ظننا أن الدبابة تلقي الرعب دائما في سلاح المشاة المواجه لها ، وكانت المفاجأة ان رأينا المصريين يجرؤون على مهاجمة الدبابات . . . وفجأة اتضح لنا ، كما قال أحد الزعماء الاسرائيليين ، ان فلاحي وادي النيل غدوا صيادي دبابات »(١٨). ولقد عبر ايريك شارون عن المفاجأة التي أصابته في اليوم الاول بأن صرح في حديث مع مراسل الاذاعة بتاريخ ٧ تشرين الاول « لقد فوجئت فعلا بالقدرة العسكرية المصرية . بصراحة لم أكن أنتظر أن ينجحوا في عبور القناة » .

ولم تقتصر المفاجأة على القيادات العسكرية والسياسية ، بل شملت المجتمع الاسرائيلي كله ، وكان أثرها داخل المجتمع عنيفا مدمرا لان الانسان الاسرائيلي لم يعد مسبقا لتلقي الصدمة ولم يعبأ نفسيا كما عبيء في الحروب السابقة ، ولم تعمل السلطات الاسرائيلية على رفع التوتر النفسي داخل المجتمع كما فعلت في الاسابيع الثلاثة التي سبقت حرب ١٩٦٧ عندما كانت الاهداف الاسرائيلية الحيوية على مرمى المدفعية العربية . ويذكر مراسل لوموند في اسرائيل الحالة النفسية التي سادت الرأي العام في مساء يوم ٥ تشرين الاول ، عندما اتخذت القيادة الاسرائيلية بعض التدابير الخاصة بتعبئة القوات الاحتياطية عشية يوم الغفران فيقول : « لقد تساءل المواطنون الاسرائيليون : لماذا الغيت اجازات أبنائنا وبناتنا في مثل هذا اليوم ؟ ان قيام الجيش باتخاذ مثل هذا التدبير في يوم الغفران يعني ان هناك أسبابا جدية جدا . ولكن ما هي ؟ هل هي التهديدات السورية ؟ انها لا تبرر اتخاذ تدابير مفرطة . هل هي تحركات المصريين على طول القناة ؟ ان من المتعذر أخذ هذا الامر مأخذ الجد . اننا نعرف جيدا

ان المصريين غير مستعدين للاندفاع في مغامرة عسكرية »(١٩) ولم يكن الاسرائيليون قادرين على اعطاء الاجوبة لهذه الاسئلة التي بقيت معلقة على الشفاه . وعندما اندلعت الحرب في اليوم التالي ، وجاءت الانباء مغايرة للتوقعات ، **ظهر الشرخ داخل مجتمع العدو ، وكان شرخا خطيرا لانه أصاب قناعات وجدانية عميقة .**

جذور المفاجأة :

ان من التبسيط المفرط للامور الاعتقاد بأن التدابير التي اتخذتهـــا القيادات العربية السياسية والاستراتيجية والميدانية كانت وحدها السبب في تحقيق مفاجأة ضخمة بهذا الحجم ، ضد عدو متحفز متعسكر كاسرائيل . ولقد أجمع المراقبون والمحللون في داخل الارض المحتلة وخارجها على **ان العامل الاول الذي ساعد العرب على تحقيق المفاجأة هو : المناخ النفسي الذي ساد اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وتمثل بالغرور المفرط ، والثقة المطلقة بالنفس ، والتهاون الكامل بالعرب ، والاعتماد على عاملي القوة والزمن اللذين يعملان لمصلحة اسرائيل وحدها .**

والحقيقة ان انتصار ١٩٦٧ السهل الذي فاجأ الاسرائيليين انفسهم ، ووقوف القوات المسلحة الاسرائيلية عند حدود جيدة بعيدة عـــن المناطق الحيوية ، وتوقف حـــرب الاستنزاف في عام ١٩٧٠ ، وتناقص حدة عمليات الثورة الفلسطينية بعد التصفية المادية لقواعدها في الاردن (١٩٧٠ ــ ١٩٧١) ، وهبوط الزخم الثوري في غزة (١٩٧٢) ، وخروج السوفيات من مصر (١٩٧٢) ، والنجاح في عمليـــات الردع والانتقام خارج الحدود الاسرائيلية ، وجمود حالة اللاحرب واللاسلم مدة ثلاث سنوات رغم التهديدات العربية باستعادة الاراضي المحتلة بالقوة ، واستمرار الاحتلال الاسرائيلـــي مدة ست سنوات ، وعدم ظهور اية بادرة جدية للتعاون العـــربي ، وتضاؤل اهتمام العـــالم بالصراع العربي ــ الاسرائيلي الذي لم يعد يشكل بؤرة انفجار خطـــرة وخاصة بعد سياسة الوفاق الاميركية ــ السوفياتية ، ووقوف الولايات المتحدة الى جانب اسرائيل القادرة على حماية المصالح الاميركية في الوطن العربي والشرق الاوسط كله ، والدعم الاميركي المطلق لتل أبيب في مجالات التسليح والاقتصاد والدبلوماسية ، كانت عبارة عن العوامل التي خلقت الانطباع بأن اسرائيل « القوية » قادرة على حماية أمنها وتكريس واقع « اللاحرب واللاسلم » الى أمد بعيد ، واستغلال عامـــل الزمن الذي يعمـــل لصالحها ، حتى يخضع العرب للسلم اليهودي ، ويقبلوا الجلوس الى طاولة المفاوضات والمسدس مصوب الى رؤوسهم .

وقبل الحرب بشهر واحد ذكر هلبروك في مجلة American Foreign Policy حديثا نقلته صحيفة لوموند قال فيه : « لم تكن اسرائيل من قبل خلال تاريخها المضطرب تحس بالامن والتفوق العسكري مثلما هي عليه اليوم . وبعد ست سنوات من حرب الايام الستة تبدو الحرب بين اسرائيل وجيرانها أقل احتمالا مما كانت عليه في أيـــة لحظة من ماضيها »(٢٠) .

ووسط هذا الجو سيطر الجنرالات المكللون بأكاليل الغار على مقدرات البلاد ، **ونقلوا مفاهيمهم وأساليبهم الى الحكومة** ، واصبح الامن محور كل نشاطات الحكومة . وظهر مفهوم « الحدود الامنة » لتبرير الاحتفاظ بالاراضي العربيـــة وعرقلة الجهود السلمية **حتى لو قبل العرب بالمفاوضات المباشرة ووقعوا اتفاقية سلام مقابل الارض .** ولقد هاجم البروفيسور يعقوب تلمون هذه السياسة الهروبية أمام احتمالات السلام ، وقال في مقال « حساب النفس » : « هل كان الناطقون باسمنا متبجحين ، وعميانا ، وجهلة ؟ كلا . لقد أرادوا من العالم أن يمنحنا مهلة ، ويصرف نظره عنا ، ويسمح لنا بخلق الحقائق ،

وبوضع العرب والولايات المتحدة والعالم أمام حقائق جديدة » ... « كلما كانت الرغبة في الضم تزداد ، كان علينا اكثر فأكثر ان نؤمن بأنه لا خطر من الخارج . وكلما استمرت الهدنة ، برزت احتمالات الضم . أضف الى ذلك ان الاستيطان والضم صورا بأنهمـــا أدوات لتدعيم الامن ، وبمفهوم معين بديل للحرب وضمان ضدها »(٢١). ثم يتحدث عن المسألة الامنية **التي سيطرت على كل ما عداها من مسائل وخلقت مناخ الاطمئنان الكاذب** فيقول : « بالامكان القول أن الطمأنينة الامنية أصبحت جزءا من عقيدة صوفية ، ومبدأ أساسيا لبرنامج سياسي ، وتحولت في النهاية الى مصلحة راسخة . وقد تغذت هذه الطمأنينة بنبوءة تكامل الوطن ، وكما سبق واشرنا ، بالغطرسة ، وبنظـــرية التفوق المطلق للجيش الاسرائيلي وتخلف العرب الابدي ، وبالمسلمات حول حدود الامن المثالية التي اتيحت لنا . وغذت هذه الطمأنينة من جانبها تلك المسلمات . وكانت لهذه المجموعة من الآراء نتائج بعيدة المدى ومتناقضـــة ظاهريا ، ومضرة حتـــى بتطورات الاوضاع الداخلية »(٢٢).

ويذكر دانييل بلوخ في صحيفة دافار ان الاهتمام الاسرائيلي بوثيقة غاليلي ، والتمسك بها أديا الى **تحويل الانظار عن التطورات الاساسية التي تتم في المنطقة ، كما أديا الى تصلب العالم ضد اسرائيل** . ثم يهاجم الجو العام الذي ساد مناقشة الوثيقة بقوله ان الجميع من « حمائم » و« صقور » كانوا يعتقدون « ان الامور على ما يرام من الناحية العسكرية ، وأنه لا مكان للقلق . ان الجدل الرئيسي لم يكن حول ما اذا كان بامكاننا الاستمرار بالاحتفاظ بالمناطق ، بل حول ما اذا كان هذا ملائما مـــن الناحية السكانية والاخلاقية والسياسية »(٢٣).

ولقد دعم مخططو السياسة الامنية الجديدة ، وأصحاب فكرة الضم الزاحف خارج حدود « الخط الاخضر » أفكارهم بالحجج التالية :

ـــ ان الولايات المتحدة مضطرة لدعم اسرائيل لان استراتيجيتها في المنطقة مبنية على ضرورة الاستناد الى دولة قوية تضمن مصالحها وتقف في وجه التغلغل السوفياتي .

ـــ ان من الممكن مجابهة الضغوط الاميركية بضغوط معاكسة تقوم بها الصهيونية المسيطرة في الولايات المتحدة ضد رئيس يحس بالارض تميل تحت قدميه . « وان اميركا لن تخدم مصلحتها اذا هي رأت في دعمها لاسرائيل دعما لمحتـــاج عليه ان يدفع ثمن المساعدة بالتنازل عن استقلاله وليس انفاقا مجديا للمحافظة على المصالح الحيوية للولايات المتحدة »(٢٤).

ـــ ان من الممكن الضغط على الاتحاد السوفياتي ـــ وخاصة بالنسبة لمسألتي الهجرة ودعم العرب ـــ اذا ما استخدم النفوذ الصهيوني في أمريكا بغية جعل واشنطن تربط الاتفاقات الاقتصادية الاميركية ـــ الروسية بالموقف السياسي السوفياتي من النزاع .

ـــ ان الزمن يلعب لصالح اسرائيل ، فهو يساعد على التقارب مع عرب المناطق ، ويفتت المعسكر العربي ، ويبعده عن الاتحاد السوفياتي ، ويجعل العالم يعترف بالحقائق الجديدة التي يتم خلقها في المناطق المحتلة (بناء مستعمرات خارج الخط الاخضر) . وان مرور الزمن على الاحتلال دون اطلاق نار يعتبر « تسوية جزئية » عملية(٢٥).

ـــ ان من المتعذر على العرب اتباع سياسة نفطية ضاغطة علـــى الغرب ، وعلى الولايات المتحدة بصورة خاصة .

ـــ ان أزمة الطاقة موهومة ولا وجود لها ويمكن للغرب أن يستغني بسهولة عن النفط العربي ، اذا ما قطع العرب نفطهم ـــ وهذا أمر بعيد الاحتمال على كل حال .

— ان الاحتفاظ بالمناطق المحتلة (الضفة وسيناء والجولان) ، واسكانها بمهاجرين جدد ، يضمن لاسرائيل مساحة استراتيجية تخدم أمنها أكثر من أي سلام أو ضمانات دولية . وان « شرم الشيخ بدون سلام أفضل من السلام بدون شرم الشيخ »(٢٦)، وان من الافضل « ان تكون سيناء تحت سيطرة اسرائيل مع طائرات أقل ، مـــن ان تكون مخازننا مليئة بطائرات الفانتوم وسيناء تحت سيطرة مصر »(٢٧).

— ان العرب مصممون على تدمير اسرائيل مهما أبدوا من رغبة في السلام ، وان التساهل معهم يدفعهم الى الجشع والمطالبة بمزيد من التنازلات التي تهدد أمن اسرائيل ووجودها ، والرد الوحيد على جنونهم هو « الضربات المتلاحقة ومزيد من الضربات » لانهم أناس « لا يفهمون سوى لغة القوة » .

— ان القوة العسكرية الاسرائيلية متفوقة بشكل مطلق على القوات المسلحة العربية، نظرا لارتفاع مستواها القيادي والمعنوي والتدريبي ، وامتياز معداتها ، وضخامة قوتها النارية ، واستنادها الى خطوط مثالية على القناة ونهر الاردن ومرتفعات الجولان ، وانه « اذا لم يطرأ تحول جذري في العلاقات مع الولايات المتحدة وبميزان القوى فان اسرائيل تستطيع الصمود في موقفها الحالي على الاقل لغاية نهايـــة السبعينات »(٢٨)، كما ان « باستطاعة اسرائيل ان تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربي مجتمعة ، لاية فترة ممكنة — خمس او عشرين او خمسين سنة — ما دمنا لا نحرم من المعدات اللازمة لدفاعنا »(٢٩).

— ان الثغرة في المستوى العلمي والتكنولوجي بين اسرائيل والدول العربية كبيرة جدا ، وآخذة في الاتساع ، و« ان العرب متأخرون عن اسرائيل في العلوم والتكنولوجيا مائة سنة »(٣٠)، و« ان بقاء اسرائيل ناجم الى حد بعيد عن الفجوة التكنولوجية بين اسرائيل وجاراتها . ولكي نضمن بقاءنا في المستقبل يجب الا نسمح أبدا لهذه الفجوة بأن تصبح أصغر »(٣١).

— ان الخروج من مشكلة وجود الشعب الفلسطيني لا تحل بالاعتراف به كشعب له حقوقه ، بل تحل بتجاهله ، ونفي وجوده ، والمطالبة باندماجه داخل المجتمعات العربية المحيطة باسرائيل .

— ان السياسة الامنية الجديدة حققت الهدوء على الحدود وفي الداخل ، وسمحت بتخفيض مدة الخدمة العسكرية وتخفيض مصروفات الامن والدفاع .

ولقد لاقت هذه الافكار معارضة داخل اسرائيل ، وهوجمت سياسة الاستيطان وراء « الخط الاخضر » ، كما انتقدت سياسة الغطرسة وعرض العضلات واستفزاز العرب والاستهتار بالعالم ، والاختفاء خلف « لاءات الخرطوم الثلاث » لعرقلة أي مسعى سلمي تقوم به الامم المتحدة أو أصدقاء اسرائيل في أوروبا وافريقيا . وكانت حجج المعارضين تقول بأن هذه السياسة تستفز المسلمين الراغبين في تحرير القدس ، كما تستفز دول العالم كله . وان الولايات المتحدة والدول الصناعية بصورة عامة حساسة ازاء أزمة الطاقة التي تتطور بسرعة ، وان الضغط على العرب والاستهانة بمشاعرهم سيدفعانهم الى الوحدة وتقوية الذات لاسترداد الكرامة والارض ، وان ضم عرب المناطق سيضيف الى دولة اسرائيل شعبا معاديا يتزايد بسرعة بالغة ويشكل لغما قابلا للانفجار في كل لحظة ، وان تجاهل الشعب الفلسطيني لا ينفي وجوده بل يحفزه على متابعة النضال والتمسك بهويته، وان الدعم الاميركي المطلق لا يمكن أن يستمر اذا ما تعارضت المصالح الوطنية بشكل جذري مع مصالح اسرائيل ، وان الزمن يلعب لصالح العرب كما يلعب لصالح اسرائيل خاصة وان العرب مقدمون على امتلاك ثروة كبيرة يمكنهم تسخيرها

للتقدم وردم الهوة التكنولوجية والعلمية القائمة حاليا بشكل يحرم اسرائيل من أهم عوامل تفوقها العسكري على العرب ، وان الاحتفاظ بالمناطق والحدود الآمنة لا يضمن الامن في ظروف الحرب الحديثة والاسلحة المتطورة بعيدة المدى ، ولكنه يشكل على العكس دافعا لاندلاع حروب جديدة لا تنتهي .

ولكن هذه الانتقادات لم تلق أذنا صاغية ، وبقي تأثير الجنرالات واسعا ، وتابع الثلاثي مائير — غاليلي — دايان رسم خططهم العدوانية **متجاهلين مسار التطورات المحلية والعالمية** . ولقد أجاد يهوشفاط هركابي في تصوير خلفيات السياسة الاسرائيلية بقوله : « بعد حرب الايام الستة تولد في اسرائيل انطباع خاطىء ، وكأنه بدأت فترة جديدة يكون الصراع السياسي فيها بين الاطراف بمثابة مساومة على شروط تسوية النزاع وشروط التسوية السياسية ، وكان السجال في الواقع مباراة حول من ستلقى عليه مسؤولية استمرار النزاع ومن سيندد به بسببه »(٣٢). وكان من الطبيعي ان ينجم عن هذه الخلفية ، وعن السياسة التي جسدتها وضع نفسي عام وصفه الجنرال أندريه بوفر بقوله : « عانت اسرائيل من داء ، هو داء طبيعي عانينا منه جميعا غداة الحرب العالمية الثانية ، وهو داء المنتصرين الذين يظنون ان الاقدار في صفهم ، وان كل شيء قد اصبح ميسرا لهم » ... « وقد ارتاح الاسرائيليون الى هذا الشعور فلم يحسنوا التمييز بين الوضع الحالي والوضع السابق »(٣٣). **في هذا الوضع « المرضي » ، وبسبب هذا الوضع بالذات فوجىء الاسرائيليون — قيادة وشعبا — وهم في سراويلهم الداخلية .**

المسؤولية !

يقول المثل الفرنسي « الهزيمة يتيمة ولكن النصر له الف اب » . ولكن الشعب الاسرائيلي الذي دفن قتلاه الذين فاق عددهم كل تصوراته ، وبدأ يضمد جراحه النازفة اخذ يبحث خلال الحرب وبعد وقف القتال عن اب لهزيمة التدابير الامنية التي أدت الى وقوع المفاجأة . وأشارت أصابع الاتهام منذ البداية الى ثلاثة اتجاهات : دايان وهيئة أركانه ، الاستخبارات ، الدولة ككل . وتشكلت لجنة « أجرانات » لتحديد الخطأ والمسؤولية .

ولقد بدأ وزير خارجية العدو أبا ايبان الهجوم على دايان غداة اندلاع الحرب ، وأعلن في لوس انجلوس « ان دايان يتحمل مسؤولية فشل اسرائيل في سيناء ، واننا كنا نعيش في وهم الدولة القوية منذ عام ١٩٦٧ » . وما ان وضعت الحرب أوزارها حتى توالت الانتقادات الموجهة الى وزير الدفاع ، وكتب البروفيسور آمنون روبنشتاين عميد كلية الحقوق في جامعة تل أبيب : « ان وزير الدفاع يتحمل مسؤولية كبيرة عن اكبر فشل عرفته اسرائيل في تاريخها . ان كلمة تقصير — كلمة مخيفة ولا معنى لها — لا تلخص فشله . والكلمة الملائمة اكثر هي اهمال كبير ، فلقد أهمل المهمة التي كلف بها : تحمل مسؤولية أمن اسرائيل . لقد أهمل الجيش ولم يهتم بمشكلاته الحيوية . ان كل تنبؤاته المتكررة لم تنفعه وقت الضيق . وعلى العكس فقد أخطأ بصورة مستمرة ، وأدى خطؤه الاساسي — اعوام طويلة من الهدوء في الاوضاع العامة — الى تنويم الجيش والدولة بكاملها . انه لم يعد نفسه ولم يجهز الجيش للحرب . اما الثمن الذي دفعناه مقابل هذا الخطأ فهو اكبر من ان نستطيع وصفه »(٣٤).

ولقد انبرى دايان للدفاع عن نفسه وتخفيف حجم الخطأ الذي ارتكبه في اليوم الرابع للحرب ، عندما صرح أمام رؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية : « هناك أمر واحد مؤكد لم يتم كما كنت أعتقد : قدرتنا على وقف بناء الجسور على القناة . كانت لنا نظرية حول هذا الامر . ولعلي اقول ان نظريتي كانت تتمثل في أنهم سيضطرون الى العمل ليلة كاملة لاقامة جسور . ونستطيع منعهم بواسطة مدرعاتنا . واتضح انه بمساعدة جميع

المعدات التي يملكونها ، وفي الاساس السلاح الفردي ضد الدبابات الذي يعمل على مدى ثلاثة كيلومترات ، والذي يستخدمه آلاف الجنود ، وقد أصيب معظم دباباتنا بهذا الصاروخ الذي يطلقه مصري واحد ، وكانوا متمركزين وراء الحاجز الترابي ولم يتيحوا لدباباتنا المرور ، اتضح من كل هذا ان الامر ليس سهلا ، وقد يكلفنا الاقتراب بالدبابات من القناة لمنع اقامة الجسور ، ثمنا باهظا . قبل ان يتم هذا العمل كنا نفكر في طريقة واحدة ، وفي اثناء العمل اتضح ان الامر يختلف »(٣٥).

ثم أعلن دايان في محاضرة ألقاها في تل أبيب « انني كوزير دفاع لم أقوّم فعالية القدرة القتالية عند العرب ، على الرغم من معرفتي بنوعية الاسلحة التي يملكونها وكميتها والجسور التي جهزت لعبور القناة . ان انواع الاسلحة التي استخدمها العرب في القتال ، هي التي كونت فعاليتهم التي فاقت ما كنت قد قدرته على اساس المعطيات الاستخبارية وما كان لدينا من أرقام » . . . « صحيح اننا لم نتوقع سلفا ، قبل اسبوع أو أسبوعين من يوم الغفران ، أن يشن العرب هجوما كبيرا علينا. ولكن شاهدنا الغيوم المتجمعة ، وزدنا القوات المدرعة في الجبهتين الشمالية والجنوبية ، بأحجام ، قدرت سلفا ــ أنا والجيش ــ بأنها لازمة للصمود حتى يتم تجنيد الاحتياط في جبهة القناة وهضبة الجولان . وافترضنا أن بامكان هذه القوات صد الهجوم العربي حتى تجنيد الاحتياط »(٣٦).

ولم يتوقف دايان أبدا عن محاولة تبرئة نفسه ، والدفاع عن تدابيره الامنية ، والخطط التي جابه بها خطر الحشود العربية ، وتوجيه الاتهامات للقادة المنفذين . ولقد قال في هذا المجال : « صدر امر الاستعداد قبل يوم الغفران ــ قبله بكثير . هذه مشكلة تنفيذ وليست مشكلة تقييم »(٣٧). وعندما سئل عن تجنيد الاحتياط أفاد : « تم تجنيد الاحتياط في اللحظة التي حصل فيها المسؤولون على معلومات بأن الحرب ستنشب ، لا قبل ذلك. لأنهم لم يفترضوا بأن الحرب ستنشب »(٣٨). وتتناقض هذه الاقوال بعضها مع بعض ، وتكذب تصريح وزير الدفاع في يوم ٧٤/٢/٢٨ عندما خطب في مدافن جبل هرتسل في القدس بمناسبة مراسم ذكرى الجندي المجهول ، وقال أمام ٢٠ الفا من عائلات القتلى : « أيها العائلات الثكلى ، ان حرب يوم الغفران كانت أصعب حرب خاضتها دولتنا . وقد فوجئنا بهذه الحرب وهوجمنا بقوات هائلة »(٣٩). كما تكذب كل ما قيل في اسرائيل وفي الصحافة الغربية من ان اسرائيل فوجئت تماما بالهجوم . وهي تؤكد في الوقت نفسه **ان القيادة العسكرية الاسرائيلية فوجئت بطبيعة الهجوم المصري ــ السوري ، وحجمه، وأهدافه ، وامكانات القوات القائمة به ، أكثر من أن تفاجأ بالعملية الهجومية التي علمت بها في وقت متأخر ، فلم تصدق ان العرب يجرأون على شنها ، ولما تأكدت من جدية الامر اتخذت التدابير اللازمة بشكل متأخر .**

ومن الواضح هنا ان الامر الذي لم يثبت في الامتحان هو تقييم دايان وهيئة أركانه لقدرة الخصم ، ولقدرة القوات الاسرائيلية على صد الهجوم والرد عليه ، الامر الذي يعني ان دايان وقيادته **فوجئا جزئيا بالزمان ولكنهما فوجئا بشكل أكبر بطبيعة المهاجمين وأساليب قتالهم ومستوى تدريبهم . وكانت المفاجأة في هذا المجال كبيرة الى الحد الذي جعل انعكاساتها استراتيجية لا تكتيكية ، وعرضت أمن اسرائيل كله للخطر .**

ويلقي زئيف شيف عبء المسؤولية على عاتق الاستخبارات التي عجزت عن فهم التحولات الجذرية داخل المعسكر العربي فيقول في « هآرتس » : « من الممكن جدا أن يكون الخطأ في تقويم الاستخبارات الاسرائيلية عشية حرب يوم الغفران ، ناجما عن استنتاج خاطئ بأن المصريين ما زالوا في الوضع الذي تركناهم عليه في نهاية حرب الاستنزاف ، أي غير مستعدين لحرب شاملة خوفا من ان يهزمهم سلاح الجو

الاسرائيلي . اعتقدنا ان المصريين لن يهاجموا لخوفهم من حـــرب شاملة ، على حين توصل السوريون والمصريون الى استنتاج انهم لن يحققوا أهدافهم في حرب محدودة ، ولذلك كان من الافضل لهم تحدي سلاح الجو الاسرائيلي »(٤٠). وكان زئيف شيف قد اتهم الاستخبارات في يوم ١٠/٢٦ وقال بأن الخطأ لا يعود الى عشية الحرب بل « ان الخطأ بدأ في ٦٧/٦/١١ ، يوم انتهت حرب الايام الستة . ان المفاجأة في علاقات القوى، ومستوى جندي المشاة المصري ، والفعالية المدمرة للسلاح المضاد للدبابات الموجود لدى سلاح المشاة ، لا تحدث فجأة بين راس السنة ويوم الغفران . ان مثل هذه المفاجأة يمكن ان تحدث فقط نتيجة خطأ استمر زمنا طويلا »(٤١).

ولا ينسى زئيف شيف توجيه النقد نحو الفكرة التي شاعت في اسرائيل حول قدرة الجندي العربي على القتال، ويقول بأن الاسرائيليين ينسون ان العربي «حارب أكثر من مرة كما ينبغي »(٤٢). ويؤكد بعد ذلك على المفاجأة التي تحققت على صعيد تقدير الامكانات القتالية للقائد والمقاتل العربي بقوله « لقد لاحظنا تحسنا لدى المقاتل العربي في عـــدة امور . فقد أعطت المخططات الميدانية انطباعا بأنها جيدة واكثر تكاملا مع أنها اتخذت طابعا منهجيا متزمتا . ولوحظ لدى القوات اعداد اكثر عمقا ، ولوحظت التدريبـــات العديدة التي اجتازتها . واقتحمت ــ هذه القوات ــ مجالات لم تمارسها من قبل كالقتال الليلي ، واستخدام الدروع باعداد كبيرة في ساعات الظلام . ولم يعد الليل مجالا يخص المقاتل الاسرائيلي وحده » ... « هكذا كان بالامكان ان نلاحظ ان سيطرة العـــرب التقنية على الاسلحة والوسائل التي يمتلكونها أفضل من الماضي ، ابتداء بالصواريخ على انواعها وانتهاء باستخدام وسائل اخرى . وكانت الروح القتالية أفضل حتى انهـــم اظهروا روح التضحية في عدة حالات »(٤٣).

ولقد هاجم رئيس الاركان دافيد اليعازار الاستخبارات في مقابلة تلفزيونية قال فيها « في هذه المرة كان الانذار قصيرا جدا وغير كاف »(٤٤)، ولكن شبتاي طيفت يرد عليه في هآرتس بقوله « ان جهاز الاستخبارات ما هو الا شريك ، ونظريا شريك صغير ، فـــي التقدير السياسي للوضع الامني . ذلك انه في البحث حول معلومات جهاز الاستخبارات واستنتاجاته تشترك القيادة العامة، ورئيس الاركان، ووزير الدفاع، ورئيس الحكومة، وبعض الوزراء ، واحيانا الحكومة كلها » ... « ان الدولة كلها ، الاحزاب ، اجهزة الاتصال ، ورجال الفكر على انواعهم يشتركون في تقدير الوضع السياسي ، كلنا بـــلا استثناء عرفنا انه منذ عدة سنين يعلن السادات ويقول بأنه سيشن حربا لاعادة المناطق التي اخذت بالقوة ، ومنذ سنين يقوم الاتحاد السوفياتي بتزويد مصر وسورية بأسلحة متطورة وبكميات كبيرة . ومنذ سنين يتدرب الجيش المصري على العبور »(٤٥). ثم ينتقل شبتاي طيفت الى تحديد المسؤولية واتهام وزير الدفاع ورئيس اركانه فيقول: «ان السبب ليس أنهم لم يقدروا المعلومات والحقائق تقديرا صحيحا ، بل لانهم اعتقدوا بأنها قليلة الاهمية بالنسبة لقوة جيش الدفاع الاسرائيلي الجبارة . وهكذا فكلهم بمن فيهم رئيسة الوزراء ووزير الدفاع اعتقدوا ان بدء الحرب من جانب العرب سيكون كـــارثة لهم (للعرب) وعملا جنونيا ، اذ لم يكن لدى اي رجل في اسرائيل شك في ان جيش الدفاع الاسرائيلي يستطيع ان يهزم العرب بأصبع واحد » ... « ليس صحيحا اذن ان نقول ان جهاز الاستخبارات قد تلقى ضربة لانه لم ينذر في الوقت المناسب . فمن جانبه حصل على معلومات تعتبر انذارات كثيرة . الجميع يعرف الان بأنه لم يكن هناك نقص فـــي الانذارات ومن جميع الاطراف » ... « حقيقة ما حدث هو أن رئيس الاركان ووزير الدفاع اعتقدا ان القوة النظامية وحدها تستطيع صد هجوم عربي او على الاقل ايقافه. وان بمقدورها ان توفر وقتا كافيا لتعبئة الاحتياط . وان كان « الانذار قصيرا جدا وغير

كاف » فقد كان هذا على الاكثر نتيجة لعدم مقدرة القوات النظامية على تحقيق الامال التي علقت عليها . واليوم نعرف ان ذلك كان بسبب الثقة المفرطة بالنفس ، والارتياح الذي سببته هذه الثقة »(٤٦).

ويؤكد حاييم بارليف على الفرق بين المعلومات والتحليل في مقابلة خاصة مع دوف بولدشتان ، قال فيها ردا على سؤال عن سبب المفاجأة التي تعرض لهـــا الجيش الاسرائيلي في مطلع الحرب « اولا اريد أن أقول لك ، ان من الضروري في الاستخبارات التمييز بشكل واضح بين المعلومات التي تتدفق ، والتقدير المنبثق عن هذه المعلومات . أقول لك مع كامل المسؤولية بأننا قد عرفنا بتأهب مصر وسورية للقيام ضدنا بحرب ، والمعلومات عن ذلك كانت متوفرة لدينا بكثرة ، انا يقظ لذلك ، ان بين الجماهير اناسا كثيرين يعتقدون بأن هذه الحرب قد سقطت على الاستخبارات بصورة مفاجئة . وانه لم تكن لدينا أية معلومات عن نوايا جيشي مصر وسورية الحربية . هــذا ليس صحيحــا اطلاقا . كانت معلومات كافية تشير الى نية كهذه » ... « ان كل مكاسب السوريين والمصريين في المرحلة الاولى ناجمة عن عدم الانذار الكافي والمفاجأة »(٤٧). ويعود بارليف الى تأكيد هذه الافكار في مقال نشره في صحيفة معاريف تحت عنوان « العبرة مـــن الحرب » ووصف فيه الوضع الذي عاشه الجيش الاسرائيلي خلال الايام الاولى مـــن الحرب الرابعة **بأنه وضع « تعيس »** . ثم قال في تفسير ذلك « ومن الجدير ان نشير الى أن ما أدى الى هذا الوضع ليس عدم وجود معلومات موثوقة . فقد كان بين يدي جيش الدفاع الاسرائيلي كل المعلومات حول قوة العدو ، استعداده ، والوسائل الجديدة التي يمتلكها . أما الخطأ فكان في تقييم المعلومات الموجودة لدى الاستخبارات وليس في انعدام المعلومات الدقيقة والموثوقة » ... « ان نجاحات العدو المفاجئة سواء فـــي سيناء او في هضبة الجولان ، لم تنبع على كل حال من انعدام المعلومات ، او من وجود مفهوم عملياتي غير صحيح لدى جيش الدفاع الاسرائيلي ، او من خطأ في تقدير وتقييم نسبة القوى ، أو من استخدام اسلحة غير معروفة ، او من قدرات غير متوقعة لجيوش مصر وسورية . لقد نجمت هذه النجاحات من حقيقة كون نظام الدفاع لجيش الدفـــاع الاسرائيلي لم يكن في الساعة المصيرية لبداية الحرب بكامل الاستعداد الـــذي يتطلبه خطر حرب شاملة »(٤٨).

ولا تصمد اقوال بارليف أمام المحاكمة السليمة ــ تماما كما لم يصمد خطه المحصن أمام الضربات الصحيحة ــ فهي مليئة بالتناقض الداخلي . انه يقول بأن سبب المفاجأة هو أن نظام الدفاع لم يكن بكامل استعداده . ولكنه لا يعلمنا لماذا لم يكن هذا النظـــام بكامل استعداده . انه لم يكن كذلك ــ وهذا ما يعرفه بارليف جيدا ــ ناجم عن سوء المفهوم العملياتي ، وعن سوء تقدير القيمة القتالية للقوات والاسلحة العربية ، وعـــن سوء تقدير القيمة القتالية لجهاز الدفاع الاسرائيلي والقوات النظامية الاسرائيلية، وعدم تقييم قدرتها الحقيقية على الصد والرد ريثما يتم جمع الاحتياط اللازم لخوض الحرب الشاملة ، وفق المفهوم الاستراتيجي الاسرائيلي الذي يدافع بارليف عنه . **ان عــدم الاستعداد ناجم عن الاعتقاد بأن الاستعداد الموجود كاف** وهذا الاعتقاد الذي لم يصمد للاختبار يؤكد أن المعطيات التي استند اليها لم تكن صحيحة . اي أن تقييـــم نسبـــة القوى ، ومعرفة قدرات الجيوش العربية ، وتقييم قدرات القوات النظاميـــة علـــى الجبهتين كانت كلها خاطئة ــ على عكس ما يدعي ــ الامر الذي جعل الاستنتاجـــات التي بني عليها (المفهوم الامني) غير صحيحة بدليل اندحار القوة النظامية امام الهجوم العربي ، رغم الاعتقاد بأنها قادرة على صده ، وعدم تمكن هذه القوة من اعطاء الاحتياط الوقت الكافي للحشد والانتشار وشن الهجوم المضاد . **ان النتائج الخاطئة لا تنجم الا عن**

مقدمات خاطئة . ولا يمكن اتهام النتائج واعطاء البراءة للمقدمات الا من قبل شخص مثل بارليف غارق حتى الاذنين في صياغة هذه المقدمات .

ويرد رفل بنكلر على ادعاءات بارليف بمعرفة امكانات القوات العربية مسبقا ، فيقول في صحيفة « عل همشمار » بأن الخطأ جاء من سوء تقدير قيمة الجندي العربي والقوات العربية « بالنسبة للقائد كما بالنسبة لاصغر جندي تقف صورة الجندي المصري على غرار ١٩٦٧ (ليس الجندي المصري الذي كان في جرادي وأم قطف بل الجندي الذي ترك حذاءه وهرب) وليس صورة الجندي المصري الذي كان في عام ١٩٤٨ (هذا الجندي الذي كان في المرتفع ٦٩ وفي الحولقات والعوجة) كنا واثقين ان رجل مدرعاتنا افضل واكثر فاعلية من رجل مدرعات العدو ، وان طيارنا أفضل بلا مقارنة من الطيار المصري والسوري ، ونسينا أن الصواريخ المضادة للطائرات قد تعرقل عمله . لم نقدر تقديرات صحيحة النوعية الجديدة الكامنة في الكمية الكبيرة . لقد نسينا ان لقوة الدفع الجماعية نوعية خاصة بها »(٤٩) .

ويذكر رفل بنكلر ان السؤال الاساسي الذي جابهه الجنود والمدنيون في الجبهة وفي الداخل هو : « أين كانت الاستخبارات ؟ تعودنا على أن استخباراتنا هي من بين أفضل الاستخبارات في العالم . اذن ماذا حدث وحال دون ان تنقل الينا هذه الاستخبارات معلومات كاملة عن موعد البدء في الحرب ؟ وكانوا قد اسكتونا دائما بقولهم : بعد ساعات من بدء السادات التفكير بالحرب فاننا سوف نعرف ذلك . سوف نعرف حتى قبل أن تعطى تعليمات باعداد القوات (قبل اوامر التحرك) الى الوحدات . هل كان هذا أقصى حد من التبجح ؟ لماذا لم نكن مستعدين للحرب ؟ لماذا لم نكن مطلعين على خطر الصواريخ المضادة للدبابات التي يحملها الافراد ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »(٥٠) . ويرد بنكلر على هذه التساؤلات بأن الاستخبارات علمت وأعلمت ، ولكن تقييم المعلومات كان خاطئا لان التقييم يتم من قبل بشر يخضعون لافكار قديمة ومفاهيم مسبقة . ولكن الا يحتمل أن يكون السبب كامنا في انشغال الاستخبارات بملاحقة عمليات الفدائيين داخل الارض المحتلة وخارجها ، وانشغال المسؤولين بالمشاكل السياسية الناجمة عن حرب اليهود ، وغرقهم في الهدوء والسعادة الزائفة التي جاءت كنتيجة لنصر عام ١٩٦٧؟ ولهذا كله « أعطت الاستخبارات معقولية منخفضة جدا للحرب »(٥١) . ولكن اذا كانت الاستخبارات العسكرية (الموديعين) قد وقعت في مثل هذا الخطأ الفادح فلماذا لم تصحح أجهزة الاستخبارات الاخرى (الموساد مثلا) هذا الخطأ ؟ ولماذا لم تقدم المعلومات والاستنتاجات الصحيحة ؟ ان الاجابة على ذلك هو أن المناخ النفسي والافكار المسبقة التي سيطرت على « الموديعين » سيطرت في الوقت نفسه على « الموساد » وعلى غيرها من المؤسسات الامنية . وعندما كانت بعض التحليلات تتعارض مع هذا المناخ النفسي كان الاخرون يتهمون اصحابها بالانهزامية والمبالغة ، ويردون عليهم بأن بوسع اسرائيل ان تربح الحرب بلوائين احتياطيين فقط(٥٢) .

ويدافع الجنرال (احتياط) حاييم هيرتسوغ عن الاستخبارات من زاوية نظر اخرى، ويلقي العبء كله على عدم وجود هيئة عليا للامن القومي على غرار مجلس الامن القومي في الولايات المتحدة . وهو يرى ان الاستخبارات غير مسؤولة « فمسؤولية التقدير هي في نهاية الامر مشتركة بين أعلى المراتب العسكرية والسياسية في الدولة »(٥٣) . ولقد وجه هيرتسوغ النقد الى ان عددا من كبار العسكريين (غالبا رئيس الاركان ورئيس شعبة الاستخبارات) كانوا يحضرون بصورة شبه دائمة في اجتماعات الحكومة « وتحول هؤلاء الضباط الى مقدمي تقارير دائمين في لجنة الخارجية والامن في الكنيست »(٥٤) . وأشار الى ان بن غوريون كان يرفض الاعتماد على مصدر استخبارات

واحد « فقد كان يعتقد ان قائد الدولة لا يستطيع الاعتماد على مصدر استخبارات واحد ، لانه مضطر في نهاية الامر الى اتخاذ القرار الحاسم بنفسه ، ولذلك يستحسن ان تكون لديه آراء مختلفة والا يؤمن ايمانا أعمى بأية جهة »(٥٥).

ومهما كانت فداحة خطأ الاستخبارات والقيادة العسكرية ووزير الدفاع ، فان من المستحيل فهم وقوع خطأ كبير بهذا الحجم دون البحث عن مسؤولية الحكومة بل والنظام بكل مؤسساته . ولا يتعلق التقصير هنا في البحث عن المعلومات او تفسيرها ، ولكنه يتعلق أساسا بالجو السياسي الذي خلقته الحكومة داخل البلاد ، والامان الزائف الذي أقنعت الجماهير ونفسها بوجوده ، والتصرف وسط هذا الجو بشكل تجاهل التحولات التي شهدتها المنطقة ، واستفزاز العرب والعالم ، وحرم السياسة الاسرائيلية من أي تعاطف عالمي ، وجعلها مضطرة للعمل ضمن هامش محدد ، هو هامش الدعم السياسي الاميركي وحده .

ويذكر أهارون كوهين أحد المستشرقين البارزين ان التقصير في المجال العسكري يعود أساسا الى خطأ في النظرة السياسية « فمنذ اكثر من ستة أعوام كانت السياسة الاسرائيلية محصنة وراء سور من انعدام المبادرة السياسية ، وغارقة في منطق «القرار بعدم اتخاذ قرار» ، وتناور أساسا « لكسب الوقت » . فقد كان من المسلمات ان « الوقت يعمل لمصلحتنا » وقوبلت مبادرات الاخرين السياسية مثل الدكتور يارينغ ، ورؤساء افريقيا . . . وساسة كبار من أصدقاء اوروبا الغربية — برد حاسم « العرب يعرفون عنواننا »(٥٦).

وفي الوقت الذي عمل به العرب كل ما في وسعهم لبناء قوتهم الذاتية وكسب المناورة السياسية الخارجية وتدعيم التضامن الداخلي كانت الحكومة الاسرائيلية الغارقة في اوهامها ، تتصرف بشكل يضعف المناورة السياسية الخارجية ويزيد حدة الجدل الداخلي ، ويسلم مقاليد البلاد كلها لحفنة من الجنرالات . ويذكر البيان الذي أصدرته منظمة الفهود السود بعد حرب تشرين الاول : « وحتى نشوب الحرب الاخيرة انهمكنا في حربنا اليومية . حربنا لاجل التعليم والسكن والاجور المعقولة . أما الامن فتركناه في أيدي الجهاز . ووثقنا بتصريحاته ، حتى جاءت جيوش العرب فبرهنت — بدمائنا واشلائنا — ان الثقة كانت مخطئة . لذلك جئنا اليوم،بعد احصاء من بقوا ومن سقطوا، كي نطلب الحساب . » . . . « اننا نتهم الجهاز الاسرائيلي ، انه باعماله واهماله قاد الشعب في اسرائيل الى هوة الجحيم . اننا نتهم الجهاز بالافلاس في المجال الذي باسمه وجد مبررا لكل جرائمه وفشله — الامن »(٥٧).

ويذهب البروفيسور يرمياهو يوفال الى أبعد من ذلك فهو يرى بأن كل اسرائيلي مذنب، وان وهم القوة شمل الجميع وخدر المجتمع كله ، وجعله يتصرف تصرف الواثق المطمئن. ولقد كتب البروفيسور يوفال في صحيفة هآرتس بعد الحرب مباشرة « ان التقصير عمليا أعمق وأوسع . تمتد جذوره الى تركيب المجتمع بأسره — أو على الاقل الى الصورة التي اضفاها على نفسه في الفترة الاخيرة — وتنبع مصادرها رأسا من القيادة . واذا كان الجمهور أيضا مذنبا ، فذلك لان القيادة اغرته فاتكل عليها ، ووافق طوال اعوام على أن يتوقف عن انتقادها »(٥٨).

ولقد أدت السياسة الحكومية الاسرائيلية ، وفشل المناورة السياسية الخارجية ، وتضاؤل عرض هامش المناورة الى عجز اسرائيل عن اتخاذ القرار بشن الهجوم الوقائي (الهجوم الاجهاضي المبكر) الذي تعتمد عليه الاستراتيجية الاسرائيلية ونظرية أمن العدو كلها . ولقد غدا من المعروف ان رئيسة الحكومة الاسرائيلية كلفت دايان في مساء

٥ تشرين الاول بالاعداد لهجوم اجهاضي ، وأن رئيس الاركان اليعازر طالب بشن مثل هذا الهجوم في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم ٦ تشرين الاول . ولكــن الحكومة استبعدت مثل هذا الامر « لاسباب سياسية » . ولقد حاولت المجموعة الحاكمة التبجح بأنها كانت على علم بالهجوم ، وكان بوسعها احباطه بهجوم اجهاضي ، ولكنها لم تفعل ذلك حتى لا تبدو امام العالم كمعتدية . وفي مساء ٦ تشرين الاول اعلنت مائير في خطابها الذي وجهته من التلفزيون : « نحن لم نفاجأ بالهجوم المصري والسوري . لقد كــانت المخابرات الاسرائيلية تملك معلومات عن استعداد الدولتين للهجوم . ولذا فقد استعدت للقيام بهجوم مضاد . ولم تشغلها حفلات عيد الغفران عن الحيطة والحذر »(٥٩). ثم كتبت صحيفة عل همشمار في اليوم التالي : كنا على علم بالخطر ، لاننا كنا نعرف أهداف الحشود العسكرية الضخمة على جبهتي السويس والجولان ، ولكن القرار الاسرائيلي بعدم الضرب كان حاسما(٦٠). وذكرت صحيفة دافــار ان اسرائيل « كانت تعلم قبل عشرة أيام ان هناك عدوانا مصريا ــ سوريا سيقع »(٦١). ولكن كل هذه المبررات ، وخاصة المبرر السياسي لا يبرىء الحكومة ولا يعفيها من المسؤولية ، لان عــدم شن الهجوم الاجهاضي « لاسباب سياسية » هو في حد ذاته اعتراف بفشــل السياســة الحكومية التي لم تستطع كسب المناورة الخارجية اللازمة لمثل هذا الهجوم مثلما فعلت في حرب ١٩٦٧ .

ويعيد زئيف شيف عدم قيام اسرائيل بالضربة الوقائية الى سبب اخر ، فهو يرى ان القرار بعدم شن الهجوم الاجهاضي يرجع الى«الشعور الاسرائيلي المعروف بالثقة»(٦٢). وباعتقادنا أن عدم البدء بالهجوم الاجهاضي الذي يتطلب الحشد والمباغتة والظــروف الدولية الملائمة يرجع الى مجموعة اسباب : فهو يرجع **الى عدم توفر المنــاخ الدولي الملائم** ــ وهذا خطأ حكومي ، **والى التأخر في معرفة نوايا العرب الهجومية رغم كشف التحشدات** ــ وهذا خطأ استخبارات ، **والى الجهل بقوة العرب والتــطورات التــي عرفتها جيوشهم** ــ وهذا خطأ استخبارات ايضا ، **والى الاعتقاد بقدرة القوات الموجودة في الجبهة على صد أي هجوم ريثما تتم تعبئة الاحتياط** ــ وهذا خطأ وزير الدفاع وهيئة أركانه ، **والى الشعور المطلق بالثقة** ــ وهذا خطأ عام يشترك فيه الجميع .

دور الاستخبارات الاميركية :

يذكر جون فيني (نيويورك تايمز) ان اسرائيل حصلت قبل الحرب بعام ونصف على صور مفصلة لطرق جديدة تؤدي الى نقطة التقاء هامة على الضفــة الغربية لقنــاة السويس وكشفت الصور معدات سوفياتية لبناء الجسور مجمعة قرب نقاط العبــور المحتملة . وعندما عرضت الصور على الخبراء الاميركيين خرجت التقديرات الاميركية ــ الاسرائيلية بنتيجة واحدة هي « ان عبور القناة على نطاق واسع يمثل تحديا يفوق قدرة الجيش المصري »(٦٣).

ولقد اكد الخبير البريطاني ك. ا. س. تايلر « ان سبب الخطأ في التقدير الذي وقع فيه الخبراء الاستراتيجيون الغربيون يعود الى ضعف في الحساب لا الى ضعف فــي المعرفة الاستراتيجية . فقد اثبتت معارك الجولان وسيناء ان خطر صواريــخ سام (أرض ــ جو) على الطيران الاسرائيلي فاق بكثير كل التقديرات السابقة التي بنيت على ضوء التجارب التي حدثت في فيتنام »(٦٤).

وتحاول الصحافة الغربية التأكيد على ان الاستخبارات الاميركية تعرضت لخطأ قاتل مماثل لخطأ الاستخبارات الاسرائيلية . ويذكر جورج شرمن « ان المخابرات الاميركية تلقت في شهر نيسان الخطة الكاملة للحرب التي تنوي مصر القيام بها . ولكنها وصلت

الى نتيجة ان الموعد المحدد للبدء بالحرب ليس له وجود . وقد اشارت الاوساط العليمة التي نشرت هذه الانباء أن الاستخبارات الاميركية حصلت أيضا على خطة سورية ولكن في شهر أيلول فقط ، قبل أسابيع من بدء الحرب . بيد ان اعتماد حكومة الولايات المتحدة على ملحقيها العسكريين ، واعتماد هؤلاء الملحقين من جانبهم على التقديرات المتشككة الاسرائيلية ، جعل الولايات المتحدة لا تنظر بجدية الى مشاريـــع الحـــرب المصرية والسورية(٦٥) . ولقد قدر الخبراء الاميركيون ــ حسب رأي شرمن ــ « ان مصداقية الهجوم المصري لم تكن في أية مرحلة اكثر من ٤٠ ــ ٦٠ ٪ » ... « ان النظرة الى الوراء تؤكد اننا لم نضلل فقط بالثقة المفرطة من قبل اسرائيل ، بل اننا لم نعرف ايضا كيف أجاد الروس في تعليم المصريين كيفية عدم لفت الانظار »(٦٦) .

وتتظاهر الولايات المتحدة بأن مفاجأة استخباراتها كانت كاملة ، حتى ان وزيـــر الخارجية الاميركية كيسنجر صرح في مؤتمر صحفي عقده في ١٢ تشرين الاول بأنه قد فوجيء تماما بالحرب عندما أوقظ في السادسة صباحا ليعلم بأن الحرب قد اندلعت على نطاق واسع في الشرق الاوسط . واشار الى أنه قد طلب من الاستخبارات الاميركية ثلاث مرات في الاسبوع السابق للحرب مباشرة اجراء تقييم للموقف فكان ردها «مطمئنا» وان الحرب « غير محتملة » رغم جميع « الظواهر المثيرة للقلق » . وعندمـــا سئلت الاستخبارات الاسرائيلية عن رأيها حول الموقف افادت بأنه « ليس هناك أي خطر » . ثم علق كيسنجر على ذلك بأن هذا الراي « يعكس أفدح خطر يمكن ان تقع فيه تقديرات الاستخبارات حين تحاول ان تحشر الحقائق في قوالب من التصورات المسبقة ، وان تجعلها متفقة مع ما سبق توقعه »(٦٧) . ولكن هل يعقل ان تكون الاستخبارات بكل ما تملكه من معدات استطلاع ، ووسائل رصد وتجسس ، قد وقعت في مثل هذا الخطأ ؟ ان هناك من يؤكد هذا الاحتمال ، كما ان هناك من يفضل الاعتقاد **بأن الولايات المتحدة علمت بالاستعدادات الهجومية ، ولم تشأ اعلام اسرائيل عنها في الوقت المناسب ، حتى لا يقوم الجيش الاسرائيلي بضربة وقائية تعقد الموقف وتحرج موقف الولايات المتحدة المضطرة لدعم اسرائيل . « وأنا فضلت اعطاء الفرصة للعرب كيما يضربوا أولا ويحققوا بعض المنجزات التي تعيد اليهم كرامتهم ، وتساعد على خلق المناخ الملائم لبدء مباحثات سلام من موقف التعادل ، شريطة ان لا تكون الضربة قاصمة تؤدي الى انهيـــار دولة اسرائيل »** . ويملك أصحاب الرأيين الحجج التي تدعـــم أفكارهما ، فمـــن منهم على صواب ؟ ان الرد على هذا التساؤل مسألة ثانية .

. . .

والخلاصة ان اسرائيل تعرضت لمفاجأة لاكثر من سبب ، وهناك اكثر من مسؤول عن هذا الخطأ . ولقد جاءها الانذار فلم تصدقه وحرمتها مفاهيمها السابقة مـــن وضوح الرؤية . وعندما ارادت تسديد الضربة الوقائية وجدت نفسها عاجزة عن ذلك لعـــدم توفر الشروط الملائمة لهذه الضربة ، فاكتفت برفع درجة الاستنفـــار وتعبئة الاحتياط بشكل متأخر ، ولكن معلوماتها عن الجيوش العربية وتسليحها لم يفدها كثيرا لانها كانت معلومات تتعلق بالمعدات والقطعات (المادة) لا بمستوى التدريب والمعنويات والقيادة (الروح) ، ونجم عن هذا كله مفاجأة مذهلة ، تشكلت لجنة « اغرانات » على أثرها لكشف التقصيرات وتحديد المسؤولية .

يقول شعار سلاح المهندسين « ان جندي الالغام يخطيء مرة واحدة » . ولكن يبدو من تطورات الاوضاع في اسرائيل ، والانتخابات التي أعادت الى السلطة معظم الحكام الذين فوجئوا بمن فيهم دايان ، ان تدخل السياسة في الجيش **تجعل بوسع القـــادة في المستويات العليا أن يخطئوا أكثر من مرة** ، حتى ولو كان في خططهم دمار لشعبهم . ومن

هنا فاننا لا نستبعد ان نسمع في الايام القليلة المقبلة ان لجنة « اغرانات » أخفت ملفات تحقيقها السرية لتعلن ان المسؤول الوحيد عن المفاجأة هو « حرب ١٩٦٧ » و«البومات» الصور التي ظهرت في اسرائيل بعد هذه الحرب !

---

١ — **هآرتس** ، ١٩٧٢/١١/٣٠ .
٢ — **الفيغارو** ، نقلته المحرر ، ١٩٧٣/١٠/٩ .
٣ — **أخبار اليوم** ، ١٩٧٣/١٠/١٠ .
٤ — **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/٨/١٠ .
٥ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** بالعبرية (ر. أ. أ.) ، ١٩٧٢/١١/٢٢ .
٦ — « **رويتر** » ، ١٩٧١/١٢/٣ .
٧ — « **ر. أ. أ.** » ، ١٩٧٢/١٠/٢٠ .
٨ — « **ر. أ. ا.** » ، ١٩٧٢/٥/٢٦ .
٩ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٥/١٨ .
١٠ — من خطاب وزير الدفاع السوري اللواء الركن مصطفى طلاس في حفلة تسليم الاوسمة للضباط والاعلام التي تمت بتاريخ ١٩٧٤/٣/١٠ في نادي الضباط بدمشق .
١١ — **الصانداي تلغراف** ، نقلته المحرر ، ١٧/ ١٩٧٣/١٠ .
١٢ — **الانوار** ، بصراحة ، ١٩٧٣/١٢/٧ .
١٣ — **لوموند** ، نقلته **النهار** ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
١٤ — **النهار** ، ١٩٧٣/١٠/١٨ ، نقلا عن وكالة أ. ب.
١٥ — **لوموند** ، نقلته **النهار** ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
١٦ — **الانوار** ، ١٩٧٣/١٢/١٢ .
١٧ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٤ .
١٨ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٤ .
١٩ — **لوموند** ، ١٩٧٣/١٠/٩ .
٢٠ — **لوموند** ، ١٩٧٣/١٠/١٧ .
٢١ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .
٢٢ — **المرجع نفسه** .
٢٣ — **دافار** ، ١٩٧٣/١١/١٩ .
٢٤ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .
٢٥ — من حديث موشي دايان مع اذاعة اسرائيل (ر. ا. ا.) ، ١٩٧٢/١٠/٤ .
٢٦ — من تصريح موشي دايان في ١٩٧١/٢/٩ ، نقلته وكالات الانباء .
٢٧ — **معاريف** ، ١٩٧١/٤/١٥ ، من تصريح قائد سلاح الطيران عيزر وايزمن .
٢٨ — من تصريح موشي دايان ، نقلته اذاعة اسرائيل (ر. ا. ا.) ، ١٩٧٣/٣/١٤ .
٢٩ — **نيو ايست ريبورت** ، ١٩٧٢/٥/٧ ، من خطاب اسحاق رابين في مؤتمر اللجنة الاميركية — الاسرائيلية للشؤون العامة .
٣٠ — **دافار** ، ٧١/٤/١١ ، البروفيسور ا. د. برغمان .
٣١ — **جويش اوبزرفر** ، ١٩٧١/١٠/٢٢ ، البروفيسور ا. د. برغمان .
٣٢ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٢ .
٣٣ — **ليست ريبوبليكان** ، ١٩٧٣/١٠/١٣ .
٣٤ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٣ .
٣٥ — **هآرتس** ، ١٩٧٤/٢/١٥ .
٣٦ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٢/٣٠ .
٣٧ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/١١ .
٣٨ — **المرجع نفسه** .
٣٩ — **ر. ا. ا.** ، ١٩٧٤/٢/٢٨ .
٤٠ — **هآرتس** ، ١٩٧٤/٢/٤ .
٤١ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٠/٢٦ .
٤٢ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٠/٣٠ .
٤٣ — **المرجع نفسه** .
٤٤ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢ .
٤٥ — **المرجع نفسه** .
٤٦ — **المرجع نفسه** .
٤٧ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٢ .
٤٨ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٩ .
٤٩ — **عل همشمار** ، ١٩٧٣/١١/١٢ .
٥٠ — **المرجع نفسه** .
٥١ — **المرجع نفسه** .
٥٢ — ذكر بنكلر في **عل همشمار** ١١/١٢ ان يتسحاق بن أهارون اكد ان تقديرات دافيد اليعازار كانت قبل الحرب صحيحة ١٠٠ ٪ وان غيره اكد بأن لواءين فقط يكفيان لكسب الحرب. ثم ذكر بنكلر في عل همشمار ١١/١٤ ان يتسحاق بن أهارون كشف في الولايات المتحدة ان دايان لم يسمح لاليعازار بأن يجند اكثر من لواءين احتياطيين . وان السبب في ذلك يرجع الى تقديرات دايان وبارليف واعتقادهما بأن القوات

الموجودة على الجبهة كافية لصد الهجوم .

٥٣ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .

٥٤ ــ **المرجع نفسه** .

٥٥ ــ **المرجع نفسه** .

٥٦ ــ **عل همشمار** ، ١٩٧٣/١١/٢٥ .

٥٧ ــ **الاتحاد** ، ١٩٧٣/١١/٢٧ .

٥٨ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٨ .

٥٩ ــ ر. أ. أ. ، ١٩٧٣/١٠/٧ .

٦٠ ــ **عل همشمار** ، ١٩٧٣/١٠/٧ .

٦١ ــ **دافار** ، ١٩٧٣/١٠/٧ .

٦٢ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٠/٢٨ .

٦٣ ــ **نيويورك تايمز** ، نقلته الاهرام ، ١١/٤/ ٧٣ .

٦٤ ــ نقلته **الحوادث** ، ١٩٧٣/١٠/١٩ .

٦٥ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٢/٥ .

٦٦ ــ **المرجع نفسه** .

٦٧ ــ **الاهرام** ، ١٩٧٣/١١/٤ .

صدر حديثا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية الكتب العسكرية الاربعة التالية :

١ ــ **القوات الاسرائيلية المحمولة جوا**، لمحمود عزمي (١٧٦ ص، ٣ ل.ل.)

٢ ــ **تمييز الطائرات والمدرعات (١٩٧٤)**، للمقدم الهيثم الايوبي وهشام عبدالله (١٤٦ ص ، ٣ ل.ل.)

٣ ــ **ميزان القوى العربي ــ الاسرائيلي (١٩٧٤)** ، للمقدم الهيثم الايوبي وهشام عبدالله (٢٧٢ ص ، ٤ ل.ل.)

٤ ــ **أسلحة الجيش الاسرائيلي** ، لهشام عبدالله (٣ ل.ل.)

يضاف الى ثمن كل نسخة بدل أجور البريد الجوي ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في اوروبة ، ٢١/٢ ل.ل. في سائر الدول .

أطلب نسختك من مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

قسم التوزيع ، ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت .

الضفة الغربية :
احتلال ، مقاومة ، ونظرة الى المستقبل
(ندوة)

تستضيف مجلة « شؤون فلسطينية » في هذه الندوة ، ثلاثة من قادة العمل الوطني الفلسطيني ، الذين أبعدتهم سلطات الاحتلال الاسرائيلي عن الضفة الغربية بعد حرب تشرين .

وهم : المحامي عبد المحسن ابو ميزر [عضو المجلس الاسلامي الاعلى] .

و : عبد الجواد الصالح [رئيس بلدية البيرة] .

و : عربي عواد [سكرتير اللجنة القيادية للحزب الشيوعي الاردني في الضفة الغربية] .

وقد تناولت الندوة كل جوانب الحياة والصراع في الضفة الغربية المحتلة في الفترة الواقعة ما بين حرب ١٩٦٧ وحرب تشرين ١٩٧٣ ، ونظرة الى المستقبل .

أدار الندوة وأعدها : عيسى الشعيبي .

عيسى الشعيبي : اسهاما من « شؤون فلسطينية » في اثراء الحوار الفلسطيني ، والتزاما منها بالتقاليد الديمقراطية للعمل الوطني الفلسطيني ، استقبلت في عددها الصادر في شباط (فبراير) الماضي عددا من القادة الفلسطينيين ، حيث جرى حوار ايجابي وديمقراطي كان شاهدا جديدا على صحة المناخ السياسي الذي يعيشه عملنا الوطني .

واليوم ، ونحن نستقبل عددا من قادة العمل السياسي الوطني ، الذين عاشوا تحت الاحتلال اكثر من ست سنوات ، وابعدوا قسرا عن الوطن ، نود التأكيد مجددا على ان لقاءنا اليوم هو جزء هام من عملية الحوار الديمقراطي المستمرة التي شهدتها الساحة الفلسطينية . وان اهمية هذا اللقاء تنبع بدرجة أساسية من كونه يجري مع قيادات وطنية خبرت مرارة الاحتلال ، وعاشت عن قرب القضايا اليومية والسياسية لجماهير الضفة الغربية وقطاع غزة .

ونقترح تسهيلا للنقاش أن يندرج الحوار تحت العناوين الرئيسية الثلاثة التالية :

الاول : الاوضاع المعيشية لسكان الضفة والقطاع بكل تفرعاتها الاقتصادية والاجتماعية .

الثاني : المناخات السياسية السائدة في الضفة والقطاع منذ هزيمة حزيران (يونيه)

١٩٦٧ ، وتأثرها بالسياسات الاسرائيلية من جهة والسياسات الاردنية من جهة اخرى ، واثر ذلك على التوجه السياسي العام في الضفة والقطاع .

الثالث : في ضوء حرب تشرين ، كيف تتطلع جماهير الضفة والقطاع الى مستقبلها السياسي :

وتحت العنوان الاول ، فان الاسئلة الاساسية هي :

١ — ألحقت اسرائيل بعد حرب حزيران ، اقتصاد الضفة الغربية وقطاع غزة بالاقتصاد الاسرائيلي . بعد أكثر من ست سنوات فرضت خلالها سلطات الاحتلال سياسات زراعية وصناعية وعمالية معينة . ما هو اثر ذلك على اقتصاد الضفة الغربية والقطاع ؟ وما هو تأثير سياسة « الجسور المفتوحة » مع الضفة الشرقية على اقتصاديات المناطق المحتلة ؟

٢ — لعبت بلديات الضفة والقطاع دورا متميزا وخاصا تحت ظروف الاحتلال القائمة. وكانت بمثابة المرجع الاعلى للسكان من جهة وهمزة الوصل الوحيدة بينهم وبين سلطات الاحتلال من جهة ثانية . فهل يمكن لنا الوقوف على دور هذه المؤسسات البلدية ، ما لها وما عليها ؟ وفي هذا المجال فان تقييم طبيعة ظروف الانتخابات التي جرت في بلديات الضفة خلال النصف الاول من عام ١٩٧٢ ، له جانب كبير من الاهمية .

٣ — كانت الضفة الغربية وقطاع غزة تصدر يوميا قبل حرب تشرين الاول ، الاف العمال الى المعامل والمصانع الاسرائيليه . ما هو تأثير ذلك على مستوى المعيشة في الضفة والقطاع اولا ، وهل اصاب هؤلاء العمال دخلا حقيقيا اكثر ارتفاعا في ظروف التضخم وهبوط قيمة الليرة الاسرائيلية ثانيا ، وما هي تأثيرات حرب تشرين ونداء منظمة التحرير للعمال بالامتناع عن العمل في مصانع ومزارع العدو على سير الحياة الاقتصادية في الضفة من جهة وفي اسرائيل من جهة ثانية ؟

٤ — ظهرت في الضفة الغربية منذ نحو عامين فكرة انشاء جامعة لابناء المناطق المحتلة . وقد سارت هذه الفكرة قدما في الفترة الاخيرة حيث تم شراء مساحات من الارض وجمعت لها الاموال . وقد انقسم الرأي داخل الضفة والقطاع وخارجها على ضرورة او عدم ضرورة هذه الجامعة. وكانت معظم الاراء المؤيدة لانشائها تتناول مخاطر هجرة الشباب وتفريغ الضفة من المثقفين . اما معارضو انشائها فقد ربطوا بينها وبين السياسات التعليمية التي سيفرضها العدو على طلاب الجامعة هذه . ما هو رأيكم في كل ذلك وما هي حسنات ومثالب اقامة مثل هذه الجامعة .

عبد الجواد الصالح : لست في حاجة الى الحديث عن اهمية الاقتصاد في اي وضع لاي مجتمع . وقد وعت سلطات الاحتلال هذا العامل في توجيه حياة الناس ، وساعدها أيضا في تنفيذ سياستها الاقتصادية والاجتماعية الوضع الاجتماعي والسياسي لمجتمع الضفة الغربية من قبل ١٩٦٧ وعدم وجود حركات سياسية منظمة تستطيع ان تقف ضد هذا الاحتلال ، فباشرت في عملية تحييد العمال باتاحة مجالات واسعة جدا من العمل وفي نفس الوقت زيادة أجورهم . وكانت تهدف فيما تهدف اليه ، في رأيي ، تحويل شعبنا الى أقلية من العمال وخاصة غير المهرة . والهدف من وراء هذا التحويل هو أولا : ابعاد الفلاحين عن الارض ، وفك الارتباط العضوي الذي اشتهر به الفلاح الفلسطيني بأرضه ، وتسهيل عملية تفريغ الارض من أهلها . فعندما تصبح الجماهير مرتبطة بالعمل اليومي واذا ما توقفت مجالات العمل وخاصة اذا ما ارتبط هذا التوقف بايجاد فرص للعمل في مناطق عربية مجاورة للارض المحتلة ، وعلى ضوء غلاء المعيشة المرتفع الذي يعاني منه السكان ، يضطر هذا العامل الى الهجرة وترك البلد ، وخاصة ان سلطات

الاحتلال بدأت تمارس سياسات معينة في الزراعة . مثلا في مجال تسويق البرتقال الذي يشكل عنصرا هاما في الانتاج الزراعي في الضفة والقطاع ، لم تقم سلطات الاحتلال بتنظيم تسويقه وبالتالي بدأ المزارعون العرب بالفعل يضطرون الى بيع أجزاء من هذه البيارات لبعضهم البعض حتى يستطيعوا الاستمرار في ادارة هذه المزارع .

وكانت اسرائيل تدعي انها تقوم « بتطوير » الزراعة في المناطق المحتلة . وفي الحقيقة لم يكن دورها يستدعي اجراء تجارب يدفع ثمنها الفلاح الفلسطيني تحت الاحتلال ، على أساس ان الفلاح الاسرائيلي ليس على استعداد لممارسة أية تجارب وتضييع وقتـه وجهده ، بينما الفلاح الفلسطيني يدفع من عرقه وجهده ثمنا لتطبيق مثل تلك التجارب ، اضافة الى ذلك عدم قيام الاحتلال بتطبيق سياسة تسويقية بالنسبة لانتـاج المزارع العربية . فدخل المزارع اقل من متوسط الاجر الذي يحصل عليه العامل .

بالنسبة للصناعة فان اصحاب رؤوس الاموال في الضفة والقطاع انطلقوا في البدء بمشاريع اقتصادية بدون الرجوع الى السلطة لاخذ موافقتها على هـذه المشاريع . واستطاعوا بالفعل انشاء صناعات معينة .

لم تنظر سلطات الاحتلال الى هذه الصناعات بشكل جدي ، فهي لم تعارض قيامها من جهة ولم توفر لها الاسواق من جهة اخرى . وعندما بدأت تنمو هذه الصناعات بدأت سلطات الاحتلال وخاصة بعد أيلول ١٩٧٠ تنظر اليها بمنظار آخر ومن زاوية أخرى . فكانت تحاول ان تحول دون تزويد هذه الصناعات بالمواد الخام كمـا حدث في مصنع الاعلاف في مدينة البيرة ، ولدى المجلس البلدي عدة مذكرات حول هذا الموضوع . وكاد المصنع أن يتوقف عن الانتاج بالفعل وتدنت الطاقة التشغيلية في هذا المصنع من ثلاث ورديات الى وردية واحدة في اليوم لعدم وجود المواد الخام .

بالنسبة لمصانع الادوية أيضا كانت سلطات الاحتلال تحاول حصر استيراد المواد الخام بالتاجر اليهودي وهذا التاجر كان في بعض الاحيان يزود المصنع العربي للادوية بمواد مستحدثة لم تثبت فاعليتها او بمواد انتهت مدة فعاليتها وبالتالي كان يسيء الى الانتاج العربي .

ان عدم معارضة الاحتلال لقيام مثل تلك الصناعات نابعة بالاساس مـن عدم قيام أصحاب هذه المصانع باستشارة السلطات لدى انشائهم لصناعاتهم تلك . هذا من جهة. ومن جهة ثانية فقد كان الاحتلال يؤمل نفسه بتهريب او تسريب الانتاج الاسرائيلي من خلال هذه الصناعات العربية الى الاسواق العربية في الدول المجاورة ولذلك نجد ان المحتل يحاول عرقلة بعض الصناعات التي ترفض تهريب الانتاج الاسرائيلي عن طريقها.

بالنسبة للعمال لي كلمة أخرى فبالرغم من ان اجور العمال كانت مرتفعة نسبيا الى ما كانت عليه قبل عام ١٩٦٧ ، ولكن ارتفاعها هذا بقي في حـدود استغلال الطبقة العاملة العربية وخاصة ان الاحتلال كان يخصم من اجور العمال مبالغ كثيرة جدا لحساب التأمين الاجتماعي والضمان الصحي وغيره . غير ان العمال العرب لم يكونوا يستفيدون من مثل تلك الضمانات . ففي أحد الاجتماعات مع الجنرال ديان أثرت هذا الموضوع ، حيث سألته عن مصير ملايين الليرات التي حسمت من أجور العمال وطالبته باستثمارها في مدارس القرى والمستشفيات وغيرها . وقد وعد ديان بدراسة ذلـك ، ولكنه في الحقيقة لم ينفذ اي شيء في هذا الخصوص ، وهكذا تسجل الحكومة الاسرائيلية على نفسها مرة أخرى ضمن آلاف المرات سرقة العامل العربي الفلسطيني واستغلاله .

اما بالنسبة لسياسة الجسور المفتوحة اقتصاديا ــ اذ ان لي رأيا آخـر يختلف ويتناقض من الناحية السياسية ــ فهي من الناحية الاقتصادية البحتة، ساعدت الصناعات

العربية والانتاج الزراعي العربي في عملية البقاء والاستمرار ، خاصة وان اسرائيل قد حالت دون فتح أسواق لهذه الصناعات في المنطقة المحتلة عام ١٩٤٨ . فوجد الانتاج العربي في الجسور المفتوحة متنفسا اقتصاديا في الاسواق العربية المجاورة وخاصة في الضفة الشرقية .

بالنسبة للبلديات فان الدور الذي لعبته دور ليس من طبيعة ومهام البلديات قبل عام ١٩٦٧ غير ان ظروف الاحتلال فرضت على البلديات وغيرها من قطاعات شعبنا ان تكون ليس فقط مجرد واسطة بين الجماهير وسلطات الاحتلال بل مانعا لقيام العدو بتنفيذ سياساته التوسعية واجراءاته التعسفية الاخرى التي كان يقوم بها . ولم يكن لدينا القوة لوقف اجراءات العدو تلك ولكنا كنا نتخذ أساليب الاحتجاج السلمية وفضح الاجراءات التعسفية للاحتلال .

والحقيقة تقتضي القول ان المجالس البلدية لم تكن على مستوى الاحداث بشكل عام ، وذلك لطبيعة تكوينها الاجتماعي والعائلي . فتجد ان البعض لم يكن بقدرته ادارة البلدية في مثل هذه الظروف فاستطاعت سلطات الاحتلال بالتالي تمرير بعض السياسات على هؤلاء الرؤساء . غير انهم بشكل عام كانوا الصوت المناهض للاحتلال ، وكانوا يقومون بأدوار ايجابية اخرى . ففي بداية الاحتلال كانت البلديات تقوم بالاسهام المادي الايجابي في عملية تغطية تواجد بعض الوطنيين الذين عادوا الى الضفة الغربية بعد وقوعها تحت الاحتلال .

لقد كانت سلطات الاحتلال تحاول دوما أن تجد من يقوم بتنفيذ المخططات الاسرائيلية مثل حكم ذاتي او كيان فلسطيني مرتبط بالاحتلال وجزء منه يتمشى بسياسته .

عيسى الشعيبي : أرجو أن يتاح لي توضيح السؤال . فبعد وقوع الضفة الغربية تحت الاحتلال انهارت كافة المؤسسات الاردنية . بقيت وحدها المؤسسات البلدية قائمة ومتمتعة فيما بعد بصلاحيات ومهام ليست من طبيعة عملها . وفي المرحلة الماضية كثرت الاجتهادات وتضاربت الاراء حول الدور المناط بهذه البلديات . ونستطيع أن نلمس الكثير من الانجازات الايجابية التي قامت بها تلك المؤسسات من خلال المذكرات والعرائض وغيرها . غير انه يظل في الذهن الدور السياسي الذي كانت تريد سلطات الاحتلال لهذه المؤسسات . أولا من خلال تجربتكم كرئيس بلدية، هل يمكن القول أن رؤساء او اعضاء البلديات كانوا مرشحين من قبل الاحتلال لاي دور سياسي في المستقبل ؟ وهل كانوا مؤهلين للقيام بمثل هذا الدور السياسي ؟

عبدالجواد الصالح : مما لا شك فيه ان سلطات الاحتلال كانت دوما تعرض ادوارا سياسية وأحيانا تطرح حلولا سياسية ككيان مرتبط باسرائيل أو ما يسمى بالحكم الذاتي، ولا أدري اكان ذلك الطرح على مستوى جدي ام محاولة للضغط وتهديد الحكومة الاردنية حينا او المقاومة حينا آخر . ولكن يمكن القول بشكل عام ان رؤساء البلديات قد رفضوا القيام بأي دور في مشاريع الاحتلال السياسية . فقد كانت السلطات تعرض دائما القيام بمثل هذه المشاريع خاصة على رؤساء البلديات الكبيرة . وكان جواب رؤساء البلديات دائما هو اننا لم ننتخب للقيام بدور سياسي بل انتخبنا على أساس ان نقوم بواجبات معينة ينص عليها القانون . وكان البعض يرد بصراحة على ذلك باتهام سلطات الاحتلال بأن المشاريع المطروحة لا تتعدى كونها محاولة لتصفية القضية الفلسطينية .

وكانت السلطات المحتلة تضغط على رؤساء البلديات لتقوم مجالسها بتشكيل لجان شبه تمثيلية ، بحجة المشاركة في المسؤولية مع المجالس البلدية في ظل الاحتلال ، لتخريج

مجلس تمثيلي من كل الضفة والقطاع للتحدث سياسيا باسم جماهير شعبنا ، وكان رؤساء المجالس البلدية يرفضون هذا الطرح ، ويعللون رفضهم بأن قيـــادة الشعب الفلسطيني ككل هي منظمة التحرير الفلسطينية .

من ناحية اخرى كانت سلطات الاحتلال تطلب من رؤساء البلديات القيام باتصالات مع الدول العربية سواء لتحقيق اهداف اقتصادية او سياسية . وكان هذا الطلب مصيره الرفض كذلك . صحيح ان هناك شخصا واحدا فقط من رؤساء البلديات سمح لنفسه ان يقوم بدور ناطق سياسي معاد بطبيعته لاهداف شعبنا ، غير انه لم يستطع القيام بأي دور فعلي ، وذلك لان جماهيرنا في الداخل قاومت مثل تلك التوجهات ، الى جانب التأثير السياسي لحركة المقاومة في الخارج على المنحى السياسي العام لسكان الضفة والقطاع.

هناك أدوار لبعض البلديات مارستها منذ الاحتلال تمثلت في ايجاد عمل لعمال المناطق المحتلة . ففي مدينة البيرة على سبيل المثال لا يوجد اي عامل فني يعمل في اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ وحتى الان ، والسبب اننا قمنا بايجاد عمل لهؤلاء العمال سواء أكانوا معلمي بناء او غيره . وكنا نعطيهم في البداية اجرا يوميا مقداره ٤٠ قرشا أردنيا ليضمن لهم الحد الادنى من ضرورات الحياة اليومية ثم زادت امكانياتنا فأخذنا نعطيهم أجورا تساوي أو تزيد عن أجور العمال الذين يعملون حاليا في اسرائيل . وقد خلق هذا الوضع لدى العمال جوا نفسيا يمنعهم من العمل لدى العدو حتى بأجور أعلى .

هناك أدوار أخرى أدتها المؤسسات البلدية تحت ظل الاحتلال منها ما تعلق بالمعتقلين وزيارانهم والدفاع عن حقوقهم ومصالحهم . وقد كنا في بلدية البيرة روادا في هذا المجال تبعتنا بعد ذلك بلديات الضفة الاخرى . لقد كنا باستمرار نفضح الاجراءات التعسفية التي كانت تقوم بها سلطات الاحتلال . واعتقد انكم كنتم تطلعون على مثل هذه النشاطات البلدية اثناء الحرب وبعدها . فسياسة العقاب الجماعي التي كانت تطبقها سلطات الاحتلال كانت تواجه احتجاجا مستمرا من قبل البلديات عن طريق الصحف والعرائض. كذلك في مسألة بيع الاراضي كان لنا دور خاص ايضا . وهناك تجربة شخصية لي مع أهالي قرية « بيت دقو » حيث أراد شخص غير قروي ومن خارج أهالي القرية يملك الف دونم ورثها عن جده من ايام الحكم التركي ويريد بيعها . فجاء سكان القرية ليأخذوا رايي . وعلى الفور قمنا بجمع النقود من أهل القرية واستطعنا في اليوم التالي الحصول على ستة تراكتورات من ست قرى مجاورة حيث بدأوا في حراثة الارض واستصلاحها . وقد شارك جميع أهل القرية في حراثة الارض اطفالا ونساء ورجالا . فقاموا بجمع « النتش » وأشعلوا به الحرائق . وعندما جاء صاحب الارض رد عليه اهالي القرية بأن الارض ملكهم وانهم لا يقرونه في ادعاءاته . وطلب من المختار ان يتحدث معه على فنجان قهوة في البيت غير ان المختار رفض ذلك قائلا : لقد مضى العهد الذي كنا نشرب فيه القهوة معا . وطلب منه مغادرة الارض حفظا على سلامته الشخصية . وبعد أربع ساعات جاء ضابط المخابرات الاسرائيلية محتجا ومتوعدا أهالي القرية الذين أجابوا بأن الارض أرضنا ونحن نفلحها منذ مئات السنين . وهكذا استطاع الفلاحون ان يحرروا أنفسهم بأنفسهم من هذا الاقطاعي وان يحافظوا على الارض ومنع البيع عنها . وقد انتشرت بعد ذلك هذه الحادثة فأخذت القرى المجاورة تحذو حذو قرية « بيت دقو » في مثل هذه الحالات . ولقد وجهت لي السلطات الاسرائيلية المحتلة انذارا نتيجة لنشاطي هذا ، قبل ستة أشهر من ترحيلي وسمته « بالنشاط الاقليمي » ولكنني أجبتها ان هناك أشياء مصيرية لشعبنا لا أستطيع التخلي عن القيام بها وأعتقد ان هذا النشاط كان سببا من أسباب ترحيلي .

هناك أدوار أخرى كثيرة قامت بها البلديات فكان الاحتلال مثلا يضغط على الطلاب

وغيرهم للعمل في مزارعه ومصانعه . فكنا من جانبنا نقوم بالاحتجاج على ذلك ونفضح أساليب السلطة الاحتلالية أمام الصليب الاحمر الدولي وغيره من المؤسسات الانسانية والدولية . لقد انتدبت البلديات نفسها لادوار أخرى اجتماعيـة ، مثل الخلافات بين القرى والحمائل والعائلات او حتى العائلة نفسها بين الزوج والزوجة . فقد كان رؤساء البلديات يتدخلون باصلاح ذات البين في مثل هذه الحالات .

عيسى الشعيبي : يبقى الجزء الثاني من السؤال والمتعلق بظروف وطبيعة الانتخابات البلدية التي أجرتها سلطات الاحتلال في النصف الاول من عام ١٩٧٢ . ما هو تقييمكم لنتائج تلك الانتخابات وكيف استطاع العدو ارغامكم عليها في تلك الفترة التاريخية المحددة وماذا كان يهدف العدو من ورائها ؟

عبد الجواد الصالح : كان هناك من حيث المبدأ اجماع لدى رؤساء واعضاء البلديات على عدم جواز اجراء الانتخابات البلدية في ظل الاحتلال على أساس ان اجراءها هو تكريس للاحتلال ذاته . وقد تصدى بعض رؤساء البلديات بالفعل لمقاومة اجراء الانتخابات . ففي احد الاجتماعات التي حدثت في بيت جالا وضم جميع رؤساء البلديات، أقررنا مبدأ معارضة الانتخابات وقررنا في حالة أصرار سلطات الاحتلال على اجرائها ان لا نرشح أنفسنا . غير ان اسرائيل تحاشيا منها لمواجهة جماعية مع بلديات الضفة الغربية ، قامت باجراء الانتخابات على مرحلتين : الاولى ضمت بلديات المنطقة الشمالية من الضفة والثانية ضمت بلديات المنطقة الجنوبية منها .

شخصيا قمت بجولة شملت جميع بلديات المنطقة الشمالية قبل اجراء الانتخابات وكتبت لاول مرة في ظل الاحتلال مقالا في جريدة « القدس » أعارض فيه الاحتلال وعملية الانتخابات . وفي زياراتي لبلديات الشمال وجدت معارضة اجماعية لاجراء الانتخابات .

في ذلك الوقت كان مطلوبا من المقاومة الفلسطينية ان تتخذ الاجراءات الخاصة بها للحيلولة دون اجراء الانتخابات أي ان تقوم بالضغط مقابل الضغط الشرس الذي كانت تقوم به السلطات المحتلة . فلقد كانت تلك السلطات تحاول أن تثبت في ذهن الناس انها هي الموجودة فقط دون غيرها . فعلى اثـر زياراتي لبلديات الشمال طلبنـي الحاكم العسكري العام وقدم لي انذارا وقال انني لا أريد أن أراك هنا معارضا للانتخابات ، فاذا أردت القيام بذلك فيمكنك أن تذهب الى عمان وان تعارضها من خلال التلفزيون الاردني . اما هنا فنحن الموجودون فقط وما نريده هو الذي يجب ان يحصل .

على ضوء شعور سلطات الاحتلال بمعارضة جماهير الضفة للانتخابات قامت بعدة اجراءات قمعية ضد المواطنين وخاصة في مدينة نابلس اذ كانت ضمن المرحلة الاولى واذا ما نجحت في نابلس فان السلطة لن تجد صعوبة في اجرائها في مدن الضفة الاخرى. فقامت باحتلال مصنع الزيوت في نابلس بحجة ان للحكومة الاردنية حصة فيه كما منعوا السيارات من نقل منتوجات الزيت والصابون وغيرها الى الضفة الشرقية . واعتقلت السلطات حكمت المصري وغيره من المواطنين في عملية تركيز شديد على مدينة نابلس بالذات . لقد كان المطلوب من المقاومة في هذه الحالة أن تتخذ اجراء ما ضد العملاء الذين رشحوا أنفسهم ، أو ان تتخذ موقفا تكتيكيا مختلفا عن الموقف الذي اتخذته من عملية الانتخابات .

وعلى العموم لقد فشلنا في منع اجراء الانتخابات فتمت عملية الانتخابات في نابلس اولا ثم حذت البلديات الاخرى حذوها فيما بعد . وقد ساعد ايضا على فشل مقاطعة الانتخابات الوضع العربي العام ، ووضع المقاومة التي كانت تعاني من ضربة أيلول .

في البيرة ، ادراكا مني لمقاصد العدو السياسية من وراء اجـراء هذه الانتخابات

عارضت محاولات أهالي البيرة لترشيح نفسي مجددا لرئاسة البلدية . غير انه عندما تم فتح باب الترشيح أرسلت سلطات الاحتلال بعض العملاء المعروفين لدى السكان بأنهم عملاء وسيئو الخلق . وعندما ادركت الناس أن أمثال هؤلاء هم من سيتولون شؤون بلدياتهم في المستقبل احتجوا بشدة عليّ شخصيا وتجمع في دار البلدية أكثر من خمسمائة شخص وتستغرب اذا قلت لك انهم بدأوا بالبكاء كالاطفال عندما حاولت الاصرار على موقفي . وحملوني مسؤولية موقفي قائلين ان الموقف السياسي لاي شخص يتجسد في سلوكه المستقبلي ولا يتوقف عند الدخول او عدم الدخول في عملية الانتخابات. وقد حصل هذا في البلديات الاخرى . وجرت الانتخابات .

كان الهدف السياسي الذي سعى اليه الاحتلال من وراء عملية الانتخابات ، ابراز « قيادات » جديدة تقوم بتنفيذ مخططاته التي كانت تتجسد باقامة كيان ذاتي مرتبط بالاحتلال . وكان العدو يواجه الممتنع عن القيام بترشيح نفسه للانتخابات اما بأنه تابع للاردن او انه تابع لحركة المقاومة الفلسطينية .

وبشكل عام فقد خيبت نتائج الانتخابات آمال المحتلين . فجاء معظم رؤساء البلديات ليسوا ممن ترشحوا ودفعوا من قبل الاحتلال . فبعد اجراء الانتخابات بثمانية اشهر تقريبا وبعد أن وضح للاحتلال انه لم يستطع ان يغير شيئا كبيرا في التركيبة البلدية دفع البعض للكتابة في الصحف مطالبين باعادة الانتخابات .

فيما يتعلق بموضوع الجامعة فانه لا بد من القول اولا ان القائمين على هذه الفكرة ليسوا أهلا للثقة ، وهم معروفون سياسيا بأن لهم ارتباطات مشبوهة مما أثار تخوف وحفيظة الوطنيين . اضافة الى ذلك فان التخوف من فرض سياسات تعليمية معينة من قبل سلطات الاحتلال — كما ورد في السؤال — قائم بالفعل . وكان رد الوطنيين على ذلك انه لدينا كلية « بير زيت » التي تقوم بدور ايجابي سواء على الصعيد العلمي او السياسي . وقد عرض المسؤولون في كلية « بير زيت » توسيع مجلس الامناء بضم عناصر أخرى تبعد عنها فكرة « العائلية » . وبالفعل فقد تم في الفترة الاخيرة توسيع مجلس الامناء . وأخذ مجلس الامناء على عاتقه ايجاد سبل مالية لتوسيع الكلية . وخطا المجلس هذا العام خطوة كبيرة بحيث أصبح أي طالب فرصة لان ينهي دراسته في « بير زيت » وان يحصل على بكالوريوس في العلوم . وهناك محاولة لتوسيع الكلية لكي تشمل بالاضافة الى فرع كلية الاداب فروع دراسات أخرى .

ومن المعروف ان كلية « بير زيت » شاركت في الانتفاضة الجماهيرية التي أعقبت عملية ابعادنا ، مما اضطر سلطات الاحتلال الى دخول حرم الكلية وقمع طلابها وأساتذتها ، وبالتالي فضحها لنفسها بنفسها ازاء ادعائها بالحرص على الحرية وعلى العلم والديمقراطية .

عبد المحسن أبو ميزر : اغناء للنقاش ، لي تعليق على موضوع الجامعة بالضفة الغربية . في الواقع كانت الضفة الغربية وما زالت تعاني ازمة كبيرة تجاه توفير المقاعد اللازمة للخريجين الثانويين من ابنائنا في الجامعات العربية . وفكرة وجود جامعة في الضفة الغربية لم تكن جديدة ولا طارئة وانما كان لها دعاتها حتى قبل الاحتلال . وكان الشعور الدائم هو انه يمكن انشاء جامعة في الضفة الغربية تستوعب الخريجين . وهنالك شعور شعبي ورغبة عامة بضرورة انشاء جامعة في الضفة الغربية .

عندما وقع الاحتلال ، وبطبيعة الحال نتيجة الظروف الخاصة التي أصبح يعيش فيها ابناء الضفة الغربية ونتيجة عدم توفر المقاعد الكافية واللازمة لابناء الضفة في الجامعات العربية ، برزت هذه المشكلة بشكل ملح اكثر من السابق. والاحتلال استغل هذا الوضع ولذلك عندما تقدم عدد من الاشخاص وشكلوا لجنة تحضيرية لجامعة تقام في الضفة

وافقت سلطات الاحتلال وراحت تستغل هذا الموضوع سياسيا ودعائيا . عالجت القوى الوطنية هذا الموضوع من خلال النظرة التالية :

لا أحد في الضفة الغربية ضد العلم والتعليم الجامعي . ولكن جميع القوى الوطنية تعارض معارضة شديدة تجيير رغبة الناس في تطوير مؤسساتها التعليمية والارتفاع بها الى المستوى الجامعي بأي شكل من الاشكال . لذلك فان جميع المهتمين بشؤون أبنائنا الخريجين أوصوا بضرورة تطوير المعاهد التعليمية القائمة والمنتشرة في جميع انحاء الضفة الغربية . فمثلا أوصوا بتطوير كلية النجاح في نابلس الى كلية للاداب . وأوصوا بتطوير كلية خضوري الزراعية الى كلية للزراعة . وأوصوا بتطوير مستشفى المقاصد الاسلامية في القدس الى كلية طب ، وأوصوا بتطوير مدرسة رابطة الجامعيين بالخليل الى كلية للآداب أيضا ، بالاضافة الى تطوير كل مؤسسة تعليمية قابلة لان تتطور الى مستوى جامعي . وبهذه الطريقة كان يمكن ان تترك قضية التعليم بيد أربابها .

وبالفعل عرضت هذه التوصيات ضمن مذكرة شاملة على مجلس اتحاد الجامعات العربية . وأقر اتحاد الجامعات هذه التوصيات وبدأ يبحث في الوسائل العملية لوضعها موضع التنفيذ العملي . على الاثر أراد الاحتلال ان يقطع خط الرجعة علـــى طريق المحاولة العربية الوطنية لتطوير المؤسسات التعليمية في الضفة والقطاع والارتقاء بها الى المستوى الجامعي لتسد حاجة شعبنا وخريجينا الى التعليم الجامعي ، فبدأ يجدد استغلال فكرة الجامعة التي تحدث عنها الاخ عبد الجواد الصالح .

كان من اسباب الاعتراض سبب يتمثل في موضوع شهادة الجامعة المقترحة ، فالشرط الاساسي لاي شهادة جامعية لكي تضمن الخريجين من شبابنا وولاءهم لامتهم ووطنهم هو اعتراف الجامعات العربية والدول العربية بها . وحيث ان الجهود التي بذلت من أجل انشاء الجامعة في الضفة الغربية لم تكن بتنسيق مع اتحاد الجامعات العربية ولم تكن بالتنسيق حتى مع الجامعة الاردنية لذلك كان المحذور الكبير هو انه اذا استمر العمل لانشاء هذه الجامعة بمعزل عن الاطراف العربية سيعني ذلك وجود خريجين لا تعترف بشهاداتهم الا اسرائيل وبالتالي يربطون مصلحيا مـــن خلال اعتراف سلطات الاحتلال بشهاداتهم ، بالاحتلال نفسه. وفي هذا خطورة كبيرة جدا على مستقبل شعبنا في الاراضي المحتلة ، السياسي منه وغير السياسي . هذا سبب من أسباب المعارضة . اما السبب الاخر فهو ان شبابنا بالفعل بحاجة الى تعليم جامعي ولكن الاحصاءات العملية والممارسة العملية للاحتلال كانت تتناقض مع الرغبة في انشاء الجامعة ، الامر الذي أكد لكل القوى الوطنية ان استعداد الاحتلال للموافقة على انشاء جامعة لا يراد منه الا الاستغلال السياسي . وأكبر دليل على ذلك هو أن أحد أعضـــاء اللجنة التحضيرية لمشروع الجامعة ومن أسرة التربية والتعليم القى محاضرة أوضح فيها انه من بين ٢٧٦ خريجا من الجامعات العربية تقدموا الى وزارة التربية والتعليم ، لم توافق سلطات الاحتلال الا على توظيف ٤٦ خريجا .

فما هو المقصود اذن من هذه السياسة ؟ المقصود من هذه السياسة هو ان الطالب عندما يتهيأ تعليميا ويحصل على المؤهل الجامعي لا يجد عملا في الضفة مما سيجعله يفكر بالرحيل . ولعل هذا هو الهدف البعيد الذي تسعى اليه سلطات الاحتلال وهو تفريغ الضفة من السكان عن طريق التحاق عائلات الخريجين بالخريجين انفسهم في الاقطار العربية .

في بادىء الامر كانوا يقدمون أذونات (تسهيلات) عمل ولكن مع الزمن يمكن ان تؤدي هذه الاعمال الى نوع من الاستقرار في الخارج .

وسبب آخر من أسباب المعارضة هو ان بعض من تولى الدعوة الى هذه الفكرة أراد

الاستفادة السياسية من ورائها كما ان بعضهم ، ليس من ارباب العلم والتعليم . كما اثيرت علامات استفهام حول طريقة تمويلها وحول طبيعة علاقاتها المستقبلية ومستقبل حامل الشهادة التي تمنحها خاصة وان اتحاد الجامعات العربية يقف منها موقفا سلبيا . وكذلك الاقطار العربية .

يضاف الى ذلك عامل آخر هو ان هذه المحاولة طرحت من قبل بعضهم كرد فعل اقليمي على الجامعة الاردنية في محاولة استغلت حماس بعض الناس في الضفة لخلق هذه الجامعة . ولكن شعبنا بطبعه غير اقليمي ولم تنطل عليه مثل هذه المحاولة وانما كان يقيمها من خلال معاييرها الحقيقية وهي علاقة هذه الجامعة والقائمين عليها في مؤسسات التربية والتعليم وعدم الاستغلال السياسي لرغبة الشعب في تطوير التعليم الى المستوى الجامعي، والحرص على مصادر تمويل هذه الجامعة والحرص على اعتراف الدول العربية بها. وحيث ان كل المقومات هذه لم تكن لتتوفر في مشروع الجامعة المقترح لذلك كان موقف جماهير شعبنا وقواها الوطنية منها سلبيا الامر الذي لم يجعل فكرة الجامعة توضع موضع التنفيذ العملي الى الان .

عربي عواد : ان من أبرز وأخطر مظاهر المخطط الصهيوني الذي مارسه المحتلون الصهاينة منذ الاحتلال الاسرائيلي بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ كان في مجال الاستيطان الصهيوني . اذ قام المحتلون بالاستيلاء على مساحات شاسعة من الارض الفلسطينية الواقعة تحت نير الاحتلال بالاضافة الى الارض العربية الاخرى التي وقعت تحت نير احتلالهم . وتركز هذا الهجوم الاستيطاني بالدرجة الاولى في مدينة القدس العربية حيث صادر المحتلون أكثر من عشرين الف دونم حول مدينـــة القدس وداخلها وأقاموا عليها ضواحي سكنية جديدة سواء أكان في الشمال او الشرق او الجنوب وكذلك في داخلها . وفي الخليل صادروا اكثر من ١٥ الف دونم وبنوا عليها مستوطنة جديدة اسمها « كريات اربع» تمهيدا لتوسيعها بحيث تصبح مدينة كبيرة أطلقوا عليها سلفا اسم «الخليل العليا» على غرار «الناصرة العليا» ـــ وهي المدينة اليهودية التي اقيمت بجوار الناصرة العربية ـــ وامتد هذا المخطط الاستيطاني ليشمل كافة الارض الفلسطينية كما ذكرنا ولا سيما في منطقة الغور حيث بلغت المساحة التي استولوا عليها اكثر من مليون دونم وضعت تحت اشراف شركة « الكرن كايمت » الاسرائيلية . وعمليات الاستيطان هذه كانت تقوم على نهب الارض وتدمير ما عليها من مزارع ومنشآت زراعية . فمثلا دمروا في منطقة الغور العديد من بيارات الحمضيات ومن ماتورات المياه ودور السكن وأقاموا في هذه المنطقة أكثر من ست عشرة مستوطنة . وفي قطاع غزة طبق هذا المخطط الاستيطاني فصودرت عشرات الالاف من الدونمات ومن أبرزها الاراضي الواقعة في مشارف « رفح » حيث طرد أهلها ويزيد عددهم على ستة آلاف واستولى المحتلون الصهاينة على أراضيهم ودمروا ما عليها من منشآت وأقاموا حولها الاسلاك الشائكة .

الى جانب المخطط الاستيطاني هذا هناك سياسة الالحاق الاقتصادي التي تحدث عنها الاخ عبد الجواد صالح . وبودي أن أضيف بعض النقاط حولها :

طيلة سنوات الاحتلال يمارس المحتلون سياسة الالحاق والدمج الاقتصادي بالنسبة لارضنا المحتلة في مختلف مجالات الصناعة والزراعة والتجارة وفي مجال النشاط البنكي وكذلك في مجال تشغيل الايدي العاملة. وساعد المحتلين الصهاينة في تنفيذ هذا المخطط، الضعف الكبير في المستوى الاقتصادي في أرضنا المحتلة وخاصة في الضفة الغربية . وهذا المستوى المتدني ناشىء عن السياسة التي كان يتبعها الحكم الرجعي في الاردن . هذا الحكم الذي يعتمد على المساعدات الاجنبية ويعيش في وضع طفيلي عليها وبالتالي فهو غير معني بأية تنمية اقتصادية في الاردن بوجه عام . يضاف الى ذلك سياسة التمييز

التي كانت تطبق على الضفة الغربية وتمثلت في وضع العراقيل والعقبات امام نشوء أية مؤسسات اقتصادية كالمشاريع او المؤسسات الانتاجية البسيطة . لذلك فقد سهل على المحتلين الصهاينة ان يطبقوا سياسة الدمج الاقتصادي خصوصا وان الاقتصاد الاسرائيلي يعتمد على صناعة حديثة ورؤوس اموال ضخمة تتدفق من الشركات الاحتكارية سواء من الولايات المتحدة الاميركية او اوروبا الغربية ، نتيجة للارتباط الوثيق بين الاقتصاد الاسرائيلي وشركات الاحتكار العالمية .

ومن هنا فقد سهل على الصناعة الاسرائيلية ان تمد نفوذها الى ارضنا المحتلة ولم تستطع صناعتنا البسيطة ان تقف في وجهها . لذلك نشأ العديد من الورشات البسيطة الملحقة بالشركات والمؤسسات الاسرائيلية وبشكل خاص في مجال البناء . مثلا معامل الطوب والبلاط والحجارة ، يضاف الى ذلك العديد من الورشات الملحقة بصناعات الملابس الاسرائيلية ، وكذلك الاحذية والموبيليا وكافة الصناعات الخفيفة التي سهل الحاقها بالشركات والمؤسسات الاسرائيلية . وحملة الالحاق هذه والتبعية، تهيىء المجال للشركات والمؤسسات الاسرائيلية بأن تجني أرباحا طائلة نتيجة رخص الايدي العاملة العربية بالنسبة لاجور الايدي العاملة اليهودية .

وفي مجال الزراعة طبقت نفس السياسة الالحاقية . فزراعتنا التي تستخدم أساليب بدائية بسيطة لم تستطع ان تزاحم الزراعة الاسرائيلية التي تعتمد على الاساليب الحديثة والتي تتمتع بحماية جمركية من سلطات الاحتلال ، الى جانب اساليب الدعم المتعددة التي تقدم لها . وهكذا فنتيجة لسياسة التمييز بالنسبة لزراعتنا ضربت المنتجات الزراعية في الارض المحتلة وهذا أدى الى تعطيل فلاحة مساحات واسعة من الارض المحتلة مما يهيء المجال امام المحتلين للاستيلاء على مساحات واسعة من الاراضي العربيــة .

وفي مجال التجارة ايضا ،فان الارض المحتلة اصبحت سوقا مفتوحة للبضائع الاسرائيلية . حتى الاستيراد من الخارج يتم عن طريق الوكلاء الاسرائيليين . والوكلاء العرب هم أيضا في حالة تبعية . ومن هنا فان المحتلين يجنون ارباحا كبيرة نتيجة للسوق التي فتح امامهم . وتقدر الاحصائيات خصوصا في السنوات السابقة لعام ١٩٧٠ ان ارباح التجار الاسرائيليين من الاسواق العربية تزيد على ٩٠ مليون دولار . والتجار العرب لا يترك لهم الا قسط بسيط من الربح لان حصة الاسد تذهب الى التجار الاسرائيليين .

وأخطر جانب في سياسة الالحاق والدمج الاقتصادي هو تشغيل عشرات الالوف من العمال العرب في المشاريع الاسرائيلية ، بسبب البطالة الواسعة النطاق في ارضنا المحتلة ونتيجة تدني المستوى الاقتصادي فقد استطاعت الصناعة والزراعة الاسرائيلية استيعاب أعداد كبيرة من الايدي العاملة العربية ، والاحصائيات الاسرائيلية الرسمية تقدر عدد العمال العرب الذين يشتغلون مباشرة في المؤسسات الاسرائيلية بما يزيد على ٦٠ ــ ٧٠ الف عامل . واذا اخذنا في الاعتبار العمال الذين يشتغلون في الورشات والمشاغل الملحقة بالاقتصاد الاسرائيلي فأن عدد العمال الذين يشتغلون لحساب الشركات الاسرائيلية يزيد على المئتي الف عامل ويتخذ المحتلون الصهاينة من هذه القضية ، قضية تشغيل العمال العرب في المؤسسات والشركات الاسرائيلية مادة خصبة لدعاياتهم ومزاعمهم بأنهم أمنوا لعمالنا فرص العمل ورفعوا مستوى حياتهم بحيث اصبحوا يعيشون في بحبوحة ! مما أدى ، حسب مزاعمهم ، الى تخدير العمال واضعاف مشاعرهم الوطنية وابعادهم عن ساحة النضال والمقاومة ضد الاحتلال .

ولكن الوقائع تكشف زيف هذه المزاعم وتظهر مدى الاستغلال والتمييز والحرمان

الذي يتعرض له عمالنا الذين تضطرهم الظروف القاسية للعمل في الشركات والمؤسسات الاسرائيليــة .

ان هذه المسألة الهامة لا بد من التعرف على جوانبها المختلفة . فالعمال العــرب يشتغلون بالفعل لمصلحة الاقتصاد الاسرائيلي ولكن يتعرضون لشتى انواع الاستغلال والتمييز والحرمان .

اولا : يشتغل العمال العرب في اعمال غير فنية . ويعمل معظمهم في الزراعة والبناء والصناعات الخفيفة والخدمة في الفنــادق والمطــاعم والمقاهي ، فحسب العقليــة الصهيونية العنصرية المتغطرسة لا يصلح العرب للعمل الا سقائين وحطابين وعتالين وخدما .

ثانيا : يحرم عمالنا من الحقوق التي تنص عليها قوانين العمل المتعارف عليها في العالم كله ، مثل العطل الاسبوعية المدفوعة الاجر والعطل السنوية والتأمين الصحي والضمان الاجتماعي .

ثالثا : يحظر عليهم الانتساب الى النقابات العربية بدعوى أنهم يشتغلون في اسرائيل واختصاص وصلاحية النقابات العربية هو الارض العربية المحتلة .

رابعا :تظهر الاجور تمييزا واضحا بالنسبة للعمال العرب . فيتقاضى العامل العربي اجرا يقل عن ثلثي ما يتقاضاه العامل الاسرائيلي . وهنــاك ارقام تؤكــد علــى هذه الحقيقــة .

خامسا : يتم حسم نسبته ٣٣ ٪ من أجر العامل العربي لصالح الجيش الاسرائيلي والتأمينات الصحية والاجتماعية التي لا يستفيد منها العامل العربي بتاتا .

سادسا :يتعرض العمال العرب الى حالة من الارهاب وكثير من الاهانات علــى أيدي ضباط المخابرات الاسرائيلية الذين ينتشرون في كل مؤسسة اسرائيلية لمراقبــة العمال العرب والتجسس عليهم وارهابهم . وهكذا فأن عمالنا يرزحــون تحت نــير مزدوج : نير سلطات الاحتلال الاسرائيلي وما يمارسه من سياسة عدوانية توسعية استيطانية ضد شعبنا كله ، ونير أصحاب الشركات والمؤسسات الصهيونية ومــا يمارسونه ضد عمالنا من نهب واستغلال وتمييز ، مما يضاعف من حقد عمالنــا على المحتلين الصهاينة ويلهب مشاعرهم الوطنية .

وقد عبر عمالنا عن مواقفهم الوطنية ومقاومتهم للاحتلال في مناسبات كثيرة وشاركوا بنشاط في النضالات التي خاضها شعبنا ، ولكن تبقى امام الحركة الوطنية الفلسطينية في ارضنا المحتلة بقيادة الجبهة الوطنية الفلسطينية رغم تعبئة الطاقات النضالية لعمالنا وتنظيمها وتوحيدها مع باقي فئات شعبنا ، والتصدي لمحاولات الصهاينة التي تستهدف تخدير عمالنا ونشر الميوعة والانحلال بين اوساط الشباب منهم .

بالنسبة لسياسة الجسور المفتوحة فانه لا بد من التعرف على الاسباب التي تدفع سلطات الاحتلال لدعمها وتشجيعها .

عمليا فان سياسة الجسور المفتوحة تمكن البضائع الاسرائيلية من ان تتسرب الى الاسواق العربية . يضاف الى ذلك ان الصهاينة يجنون منها فوائد سياسية لانها عمليا تفسح المجال للصناعات العربية بالذهاب الى الاسواق العربية وهذا يؤدي الى تخدير اصحاب الصناعات العربية وعدم تحريكهم ودفعهم للنضال ضد الاحتلال . كما أن ذلك يترك السوق العربية مفتوحة امام البضائع الاسرائيلية . وهناك احصائيات تبين ان

الانتاج الذي توزعه شركة الزيوت النباتية في الضفة الغربية هو ثلثا ما كانت توزعه قبل الاحتلال في الضفة . وهذا مظهر من مظاهر تطبيق سياسة الدمج الاقتصادي وجعل السوق العربية ملحقا للصناعة الاسرائيلية .

أما في المجال الثقافي ـــ ما دمنا في معرض الحديث عن الجامعة ـــ فـان سياسة الاحتلال تقوم على ضرب التطور الثقافي لشعبنا ودفعه الى مهاوي الجهل . وهـذه السياسة تتمثل في أشكال متعددة منها على سبيل المثال ان الابنيـة المدرسية التـي انشأتها سلطات الاحتلال في هذه السنوات قليلة جدا . وهناك العديد مـن الابنية القديمة التي لا تزال في وضع يهدد سلامة الطلاب. وانهيار جدار مدرسة «عطاره» للبنات في منطقة رام الله على رؤوس الطالبات خير دليل على ذلك . وهناك مدارس عديدة على هذا الوضع في مختلف انحاء الضفة المحتلة .

يضاف الى ذلك ان الرواتب التي تدفع الى المعلمين هي رواتب هزيلة وادنى مـن الرواتب التي يتقاضاها العمال غير الفنيين . مثلا فان معدل الراتب الذي يتقاضـاه المعلم لا يزيد على ٤٠٠ ليرة اسرائيلية شهريا بينما متوسط الاجر الذي يتقاضاه العامل ٦٠٠ ليرة شهريا . هذا الى جانب الصعوبات التي يجدها الخريجون في العمل وضآلة الفرص المتاحة لهم كلها تدفع العديد من الشباب والفتيان الى ترك المقاعد الدراسية في المرحلة الاعدادية والذهاب الى المصانع والورشات الاسرائيلية ضمن السياسة التي تهدف الى تحويل شعبنا كله الى مجموعة من الاجراء والايدي العاملة الجاهلة . وفي الواقع فان احصائيات العديد من المدارس الاعدادية والثانوية تثبت هذه النتيجة .

الى جانب ذلك يسعى المحتلون الى تشويه ثقافتنا . ويظهر ذلك بوضوح في المناهج المدرسية التي يعملون على افراغها من اي محتوى وطني او تقدمي ، ولذلك شطبـت والغيت العديد من المواضيع منها على سبيل المثال موضوع القضية الفلسطينية والثورة الجزائرية حيث الغيتا نهائيا . كذلك شطبت القصائد الوطنية حتى بلغ بهم الامر الى شطب بعض الامثلة التي تبرز المشاعر الوطنية . ففي كتب القواعد نجد ان مثـالا كـ « الخائن محتقر » وضع مكانه « اللص محتقر » لانهم لا يريدون التشهير بالخونة والعمـلاء .

يضاف الى ذلك منعهم اي اتصال ثقافي مع البلاد العربية ، فيحظر دخول المجـلات والصحف والكتب الثقافية العربية الى أرضنا المحتلة . ويسمح فقـط بدخول المجلات الفنيـة .

فيما يتعلق بالسياسة البلدية فقد تحدث عنها الاخ عبد الجواد باسهاب ، الا انه يجب الذكر ان المحتلين حرصوا على تطبيق سياسة معينة منذ أيام الاحتلال الاولى . وهذه السياسة تسعى الى احتواء شعبنا في الارض المحتلة وتدجين وامتصاص نقمته . ولذلك فانهم اعطوا البلديات بالفعل صلاحيات لم تكن لها قبل الاحتلال وذلك من اجل الادعاء بأن الاحتلال يعطي الحرية للمؤسسات المنتخبة من قبل الشعب مع بقاء مصير شعبنا كله في ايديهم سواء على الصعيد الامني او على صعيد السياسة الخارجية . فالمحتلون يريدون ان يشغلوا شعبنا بالامور الثانوية مثل فتح الطرقات والمجاري والكهربـاء والتعليم وادارة الشؤون الصحية وحرمانه من ممارسة القضايا الاساسية المتعلقـة بمصيره السياسي وكيانه وحياته . هذه هي السياسة التي دأب المحتلون على ممارستها وهذا ما يفسر سبب اعطائهم البلديات صلاحيات لم تكن لها من قبل . وكانوا يسعون الى تطوير البلديات لتصبح هيئات ضمن ما يسمى بالحكم الذاتي . وهذه هي احدى الوسائل لربط شعبنا بالاحتلال واضفاء صورة شرعية للتعامل مع الاحتلال . والواقع

ان هذه السياسة فشلت فشلا ذريعا . وعلى سبيل المثال فقد جرت محاولة في صيف عام ١٩٧١ لعقد مؤتمر لرؤساء البلديات في الضفة الغربية ولكن رفضت هذه الفكرة رفضا قاطعا . وعلى هذا الاساس قام الاحتلال باجراء الانتخابات في عام ١٩٧٢ : اولا لاعطاء صورة عن وضع شعبنا في الارض المحتلة بأنه يعيش في ظروف طبيعية وعادية وانه يمارس الانتخابات كأنه لم يكن هناك احتلال . وثانيا عسى ان تكون هذه الانتخابات خطوة الى الحكم الذاتي في ظل الاحتلال الاسرائيلي . لقد جندت ضد الانتخابات البلدية حملة جماهيرية واسعة شاركت فيها مختلف الفئات والهيئات الوطنية وتمثلت في اصدار العديد من المنشورات المناوئة للانتخابات وكتابة الشعارات على الجدران وعقد الاجتماعات وكتابة المقالات في الصحف العلنية .

ومع ان شعبنا لم يتمكن من احباط الانتخابات ومنعها ، نظرا للصعوبة الكبيرة التي كانت قائمة انذاك لضرب حركة المقاومة الفلسطينية واخراجها من الاردن واشتداد السلبيات في الوضع العربي ، الا ان مقاصد المحتلين لتزييف ارادة شعبنا واظهاره بمظهر المستسلم لمشيئتهم المنساق مع مخططاتهم قد فشلت امام نضال شعبنا ومقاومته مما اضطر الصهاينة الى اللجوء لوسائل القمع والارهاب واجراء الانتخابات بقوة السلاح.

وفي المرحلة الثانية من الانتخابات البلدية التي جرت في المنطقة الجنوبية ، وبعدما تبين أن الظروف لا تساعد على مقاطعة الانتخابات واحباطها ، قررت القوى الوطنية المساهمة فيها لانجاح عناصر وطنية ، وتمكنت القوائم الوطنية ان تحرز نجاحا ملموسا في عدد من المجالس البلدية .

عيسى الشعيبي : السؤال الثاني يتعلق بالمناخ السياسي العام في الضفة الغربية وقطاع غزة بين حربي عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ ، وتأثره بالسياسات الاسرائيلية من جهة والسياسات الاردنية من جهة ثانية وفعالية القوى الوطنية ومساهمتها في بلورته ودفعه الى الامام متلائما مع رغبات واماني شعبنا الوطنية .

وفي هذا المجال فانه يمكن طرح الاسئلة التالية :

١ ــ في الفترة التي تلت حرب حزيران مباشرة ، وبعد ضم القطاع العربي من مدينة القدس الى اسرائيل ، قامت حالة جماهيرية احتجاجية على اجراءات الضم عمت سائر مدن الضفة والقطاع اقتربت من حالة العصيان المدني . كيف ساهمت القوى الوطنية في ذلك وما هي الاسباب التي حالت دون تكرار مثل تلك الحالة الوطنية فيما بعد ؟

٢ ــ لجأت اسرائيل الى ممارسة سياسة العقوبات الجماعية وهدم المنازل والاعتقال بالجملة والابعادات ، ردا على عمليات المقاومة في الضفة الغربية وقطاع غزة . فما هو حجم التأثير الذي تركته هذه العمليات على سكان المناطق المحتلة في عملية مواصلة النضال باشكاله المختلفة ضد الاحتلال .

٣ ــ خلقت مجازر ايلول الدموية عام ١٩٧٠ ردة فعل عميقة تجاه نظام الحكم الاردني في الضفة الغربية وقطاع غزة . وتبع ذلك وقف صرف رواتب موظفي المؤسسة الاردنية السابقة في الضفة الغربية . فما هي المظاهر التي يعالج بها نظام الحكم الاردني اثار ردة الفعل تلك في ظل توجهه نحو اعادة سيطرته على الضفة الغربية وقطاع غزة كذلك، وما هي اثار النتائج التي رتبتها مجازر ايلول على العلاقات السياسية وغير السياسية بين الضفتين ؟

عبد المحسن ابو ميزر : فيما يتعلق بالموضوع الثاني المطروح في هذه الندوة ، وفي مجال الاجابة على الاسئلة المقترحة حول هذا الموضوع يمكن الاجابة عليها على النحو التالي :

ان الصهيونية كفكرة وعقيدة تؤمن ان الغزو والفتح سبب من الاسباب التي تؤمن لها النمو والتطور ،ومن اسباب كسب الملكية . . ولعل ذلك ينبع من مفاهيم المرحلة التاريخية التي رافقت الفكرة الصهيونية وهي مرحلة الاستعمار الاستيطاني والالحاقي ومرحلة الحاق المستعمرة بالدولة الفاتحة او الغازية . بالاضافة الى شعور الصهيونية والقادة الصهيونيين بأن الحرب والضم والالحاق هي الوسائل الوحيدة لانشاء وطن صهيوني وايمانهم بأن هذا الوطن لا يمكن ان ينشأ الا بالاستيلاء على ارض الغير . والعقيدة الصهيونية لم تنشأ في وطن لها وانما قام بعض اليهود بنسج هذه العقيدة ومن ثم اخذوا يبحثون لهذه العقيدة عن وطن . وكلنا نعرف المراحل التي مرت بها الفكرة الصهيونية ومراحل الاختيارات والمحاولات التي قاموا بها لشراء وطن لهذه العقيدة .

ان الصهيونية لا تؤمن بالشرعية القانونية لانها لو اعتمدت الشرعية القانونية لما استطاعت انشاء دولة او وطن . وفلسطين هي من الناحية الشرعية والقانونية ملك لاهلها العرب في فلسطين . وعلى ذلك فان تنكر الصهيونية للشرعية القانونية والشرعية الدولية امر ينسجم مع طبيعة هذه الفكرة ومع طبيعة هذه العقيدة ، لاستحالة تنفيذ اهداف الصهيونية من خلال الشرعية القانونية او الشرعية الدولية .

من خلال وعينا لهذه الحقيقة التي تقوم عليها الصهيونية كفكرة وكممارسة يمكن ان نفهم مبادرة اسرائيل الى ضم القدس ، كما يمكننا ان نفهم عمليات الضم والالحاق التي مارستها اسرائيل عام ١٩٤٧ للاراضي العربية التي خصصت بموجب قرار التقسيم الى الدولة العربية التي اقترح اقامتها القرار المذكور .

ان ضم القدس بالنسبة لاسرائيل كان يستهدف : اولا السيطرة والحاق المدينة ذاتها . وثانيا السيطرة على موقع المدينة جغرافيا مما يمكنها من السيطرة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية على اكثر من مدينة القدس . وكلنا يعلم الارتباط العضوي — سواء من الناحية الاقتصادية او الناحية الاجتماعية او الناحية الدينية والسياحية ، بين مدينة القدس ومدينة بيت لحم ومدينة اريحا . وقد شجع اسرائيل على اجراء هذا الضم قلة الكثافة السكانية العربية في المدينة المقدسة . لان عدد العرب بعد ان وقع الاحتلال لم يكن يتعدى ٨٥ الفا . اذ كان قسم من ابناء المدينة في الخارج لطبيعة عمله كما ان وقوع الاحتلال حرم قسما كبيرا اخر من العودة الى المدينة . اضافة الى عملية الهجرة الجزئية من المدينة التي رافقت الحرب .

ان الكثافة السكانية العربية كما لمسنا من خلال تجربتنا في ظل الاحتلال ووعينا على السياسة الصهيونية الاستيطانية ، تشكل رادعا من اهم الروادع للتوسع الاسرائيلي. فلو كان في القدس مثلا عدد من السكان العرب بمئات الالوف لما تجرأت اسرائيل على اعلان ضمها . واسرائيل تحرص على تنفيذ المقولة الصهيونية الرئيسية وهي انها تريد « وطنا بلا شعب » . ولذلك جاء ضم القدس للارض دون السكان ، وحتى الآن لا تعتبر اسرائيل السكان العرب في القدس مواطنين اسرائيليين . ومرارا كانت تعلن على لسان وزير الدفاع موشى ديان وغيره ان وضع السكان العرب في مدينة القدس كوضع الاسبان في فرنسا . . . لان اسرائيل لا تريد سكانا عربا ولا تريد تواجدا عربيا في داخلها يتنامى مع الايام ويتكاثر ليفرض عليها اوضاعا سياسية داخلية تعصف بالمفاهيم الصهيونية التي تسعى الى اقامة دولة يهودية صرفة .

ان القدس تحتل مكانة خاصة في نفوس الشعب العربي والامة العربية والعالم اجمع. وشعبنا في المناطق المحتلة ،وعيا منه على حقه في وطنه وعلى مكانة القدس التاريخية والحضارية والدينية في هذا الوطن ، ووعيا منه على مرامي الضم والالحاق ، اعلن رفضه لضم القدس وجاء رفضه ليسجل اول رد فعل علني تجاه الاحتلال وسياسة الضم

الاسرائيلية. لان اسرائيل خلال الشهر الاول من الاحتلال أعلنت ضم القدس. وكان شعبنا في ذلك الوقت يعيش مرحلة ذهول كنتيجة لما أسفرت عنه حرب حزيران وحجم الاراضي التي تم احتلالها من قبل اسرائيل على مختلف الجبهات . وكان من اسباب هذا التحرك انه بعد اعلان اسرائيل لضمها القدس ، طلبها من دائرة الاوقاف الاسلامية كدائرة قائمة في مدينة القدس قبل الاحتلال ان تعتبر نفسها دائرة تابعة للحكومة الاسرائيلية . ووعيا من المسؤولين على دائرة الاوقاف على خطورة هذا الطلب ، تداعى من تواجد في المدينة المقدسة في ذلك الحين من العناصر القيادية والاجتماعية المسؤولة في ذلك البلد الى اجتماع لدراسة هذا الموضوع . وكان من نتيجة هذه الدراسة ان أعلن رفض هذا الطلب والاحتجاج على ضم المدينة المقدسة العربية وعلى رفض اي اعتراف بهذا الضم. وصدر بيان أعلن تشكيل المجلس الاسلامي الاعلى مستندا الى الشرعية الدولية التي تقضي بأنه لا ولاية لاسرائيل على المدينة المقدسة من زاوية القانون الدولي ، ومن الناحية الدينية لا ولاية لغير المسلم على المسلم . وعليه فان المجلس الاسلامي الاعلى الذي تشكل نتيجة هذا الاجتماع يعتبر نفسه مسؤولا عن دائرة الاوقاف والمحاكم الشرعية وشؤون المقدسات الاسلامية . حسب الفتاوى الشرعية التي تنص على مثل هذه الحالات عبر التاريخ الاسلامي الطويل .

على الاثر ، وبعد تشكيل المجلس الاسلامي الاعلى وصدور بيانه الذي كان اول بيان علني يعلن شجبه للاحتلال وضم القدس ، توالت برقيات التأييد لهذا المجلس من مختلف المؤسسات والهيئات ذات الصفة التمثيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، واعلنت تأييدها لهذا المجلس وللوثيقة التي صدرت عنه والمتضمنة تشكيله ورفضه للاحتلال وضم مدينة القدس .

كان لتشكيل هذا المجلس كمبادرة شعبية جماعية تحدث في الشهر الاول من الاحتلال ، اثر كبير حيث تجاوبت معها الجماهير تجاوبا كاملا تجلى كما ذكرنا في برقيات التأييد وتجلى ايضا بامتناع جميع موظفي الاوقاف والمحاكم الشرعية في القدس والضفة الغربية عن التعامل مع الاحتلال كسلطة شرعية ، ورفضوا اعتبار انفسهم موظفين لدى سلطات الاحتلال ، واعلنوا ارتباطهم الوظيفي بالمجلس الاسلامي الاعلى الذي عرف فيما بعد بالهيئة الاسلامية في القدس . وبذلك استطاع المجلس الاسلامي الاعلى ان يصون دوائر الاوقاف وعقارات الاوقاف ومؤسسات الاوقاف الاسلامية وموظفي الاوقاف وموظفي المحاكم الشرعية في القدس وكافة مدن الضفة الغربية من الخضوع المباشر الى سلطات الاحتلال او الحكم الاسرائيلي . وكان هذا نصرا كبيرا سجله شعبنا لاهميته من الناحية السياسية والعقائدية . فكلنا يعلم ان معظم اراضي فلسطين اراض وقفية وان استيلاء السلطات الاسرائيلية على هذه الاراضي الوقفية يعني استيلاءها على تراب الوطن .

على اثر الضم وعلى اثر صدور هذه الوثيقة بدأ تحرك جماهيري حاولت سلطات الاحتلال ان تخنقه بالارهاب والضغط ، فقامت بنفي اربعة من اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى عن القدس وهم : المحامي ابراهيم بكر حيث كان يعمل مستشارا قانونيا لدائرة الاوقاف في القدس والذي نفي الى مدينة اريحا . والدكتور داوود الحسيني عضو المجلس الذي نفي الى مدينة الخضيرة ، ومحافظ القدس السيد انور الخطيب الذي نفي الى صفد ، وانا شخصيا نفيت الى طبريا . واستمر النفي المقرون بالاقامة الجبرية واثبات الوجود ثلاث مرات يوميا مدة ثلاث أشهر . وقد قامت سلطات الاحتلال بهذا الاجراء في محاولة منها لارهاب الجماهير العربية في القدس ولارهاب اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى والحيلولة دون مواصلتهم الاحتجاج والاعتراض على الضم . غير أن

هذه المحاولات لم تثن شعبنا عن رفض الضم ولم تثنه عن القيام بشتى المحاولات التي قام بها للتعبير عن رأيه وشعوره تجاه الاحتلال وسياسته الالحاقية والاستيطانية . واخذت مقاومته ازاء تلك السياسة اشكالا شتى . ففي الجانب العسكري كانت المنظمات الفدائية بطبيعة الحال تقوم باعمال ضد الاحتلال . اما الجماهير العربية في القدس والمناطق العربية المحتلة فقد واجهت بعد الاحتلال واقعا يتسم بطبيعة الحال بالظروف التي كانت تحيط بالجماهير العربية قبل الاحتلال . وهذه السمة تنبع بالاساس من انه لم يكن الشعب مدربا على استعمال السلاح ، وانه لا توجد تنظيمات حزبية او شعبية سياسية في المناطق المحتلة . لذلك وجدنا من واجبنا في الضفة الغربية ان نحاول انشاء نواة بناء حركة سياسية وطنية في داخل المناطق المحتلة تقوم على رفض الاحتلال ومقاومته بالطرق والاساليب السياسية ، فتأسست في كل مدينة من مدن الضفة الغربية لجان للتوجيه الوطني ، وكان الاساس الذي بنيت عليه هذه اللجان هو تجميع أوسع قاعدة لجماهير شعبنا التي ترفض الاحتلال ولا مصلحة لها باستمراره او بقائه . وأخذنا بالنشاط كمقاومة سلبية من خلال الاحتجاجات والمظاهرات والاضرابات والاعتصامات الجماهيرية والنسائية والطلابية . واعلنت البيانات التي تدعو الى محاولة عرقلة مهمة الاحتلال في القدس والاراضي المحتلة عن طريق عدم تيسير وسائل وأدوات بيد الاحتلال تمكنه من ممارسة سلطاته . فأعلن الطلاب اضرابهم عن المدارس ، وأعلن المعلمون اضرابهم عن التدريس ، والمحامون اضرابهم عن مزاولة مهنة المحاماة . وكنا نعتقد ان هذه المقاومة السلبية يمكن أن تتطور مع الزمن ويمكن ان تشيع من خلال المعارك النضالية التي يخوضها شعبنا جوا من الثقة والتلاحم يمكن من ميلاد حركة سياسية تقوم بنشاط سياسي منظم على مستوى عال يخلق المتاعب للاحتلال ويؤدي دورا سياسيا في خدمة تحرير المناطق المحتلة . الا انه لم يقدر لهذه المقاومة السلبية ان تأخذ مداها الكامل لعدة اسباب أهمها ان اضراب المعلمين واضراب المدارس قد نجحت سلطات الاحتلال نتيجة استغلالها الظروف التي نشأت عن تعطيل المدارس وتواجد الطلاب في الشوارع والطرقات وعدم وجود حركات سياسية تستوعب هذه العناصر من الطلاب في صفوفها ونتيجة ممارسات ضغط قام بها الاحتلال على بعض المؤسسات في المناطق المحتلة سواء أكانت بلدية او غرف تجارية ، الامر الذي أدى الى عودة التدريس وعودة الطلاب الى المدارس . واستمر اضراب المحامين من جهة اخرى حتى الان كمظهر من مظاهر المقاومة السلبية التي بدأت على اثر الاحتلال مباشرة . وبالرغم من ان المرحلة قد تجاوزت هذا الاضراب الا ان القسم الاعظم من المحامين لا زال يرفض العمل أمام المحاكم الاسرائيلية سواء في القدس او في المناطق المحتلة .

ان الانتفاضة الجماهيرية التي أعقبت ضم القدس كانت تعبيرا واستفتاء على رفض سكان القدس والمناطق المحتلة لضم المدينة المقدسة . ولا يترك شعبنا في القدس والمناطق المحتلة مناسبة هامة تمر دون ان يعلن رفضه لسياسة الضم والالحاق ، فهنالك أكثر من اضراب حصل احتجاجا على القوانين الاسرائيلية المتعلقة بالضرائب والمتعلقة بسياسة الضم . وهنالك اضراب حصل عندما حضر مندوب الامين العام للامم المتحدة يحقق في أوضاع المدينة المقدسة . والمجلس الاسلامي لا يترك مناسبة تمر دون ان يندد بالاجراءات التي تقوم بها السلطات الاسرائيلية المحتلة تجاه المقدسات والاعتداء عليها ، وفي كل بياناته يعلن تمسكه بعروبة القدس ورفضه لالحاقها او ضمها لاسرائيل .

ولانعدام الشروط الموضوعية اللازمة لاستمرار هذه الانتفاضة بشكل متواصل ، كان من الطبيعي أن تفتر ثم تشتد . وجميع المحاولات التي كانت اسرائيل تحرص من خلالها على التعبير عن نجاح التعايش السلمي بين العرب والاسرائيليين في القدس لاستغلالها دعائيا ، كان شعبنا لها بالمرصاد وكان يشارك في تحركاته الاحتجاجية التي تفند هذه

المزاعم الاسرائيلية جميع قوى الشعب من طلاب ومحامين ومعلمين وعمال ورجال دين وتجار وملاكين . وكانت كل هذه التحركات تعلن رفضها لضم القدس وسياسة الالحاق التي تمارسها اسرائيل تجاه القدس العربية .

وقبل أن أنهي حديثي حول ما جاء في السؤال الاول أود أن أنوه بأن عدم الاهتمام بالتنظيم السياسي من جانب المقاومة الفلسطينية في داخل المناطق المحتلة ، وضعف ان لم يكن انعدام الدعم العربي لاوضاع شعبنا داخل المناطق المحتلة علـــى نطاق واسع تمكنه من انشاء مؤسسات عربية تعينه في الصمود في وجه الاحتلال والضم ، أيضا كان له أثر على عدم استمرارية الانتفاضة التي نشأت بعد اعلان الضم .

اما في مجال الاجابة على السؤال الثاني والمتعلــق بممارسة سياسات العقوبات الجماعية وهدم المنازل واثر ذلك على شعبنا في المناطق المحتلة ، أود القول بأن المقاومة الجماهيرية بأشكالها المختلفة، سواء العسكرية من خلال المنظمات الفدائية او السياسية من خلال القوى والعناصر الوطنية في داخل المناطق المحتلة ، بدأت كما أشرت منذ اليوم الاول لوقوع الاحتلال . وشعبنا بذلك سجل موقفا رائدا بين الشعوب المناضلة ضد الاحتلال عبر التاريخ ، خاصة اذا ما قورن بالشعوب الاوروبية ابان الغزو الهتلري . فكلنا نعلم أن المقاومة الشعبية أو المقاومة المسلحة لم تبدأ في أوروبا فور وقوع الاحتلال مباشرة وانما بعد مرور فترة ليست قصيرة على وقوعه ، وربما بدأت في اوروبا قبيل غزو النورماندي ، بينما شعبنا في داخل المناطق المحتلة ، مستلهما تاريخه النضالي الطويل ومستلهما تجاربه النضالية الطويلة أيضا وتجارب الامة العربية بأسرها ، تصدى للاحتلال مكافحا بجميع الوسائل التي يملكها منذ اليوم الاول لوقوعه .

واجهت سلطات الاحتلال الاسرائيلي مقاومة شعبنا لوجود الاحتلال واستمراره ، بعقوبات جماعية منها هدم المنازل والاعتقالات بالجملة وسياسات الابعاد الى الضفة الشرقية . ويكفي للتدليل على نوعية هذه العقوبات التعسفية ان اشير الى نموذج وهو أنه اذ ما ألقي القبض مثلا على مواطن يملك قطعة سلاح في بيت لا يملكه هذا المواطن أو أن والد هذا المواطن مستأجره من مالك آخر ، تكون العقوبة هدم هذا المنزل ، دون ان يكون للمالك علم ودون أن يكون لولي أمر هذا المواطن علم بذلك وهو رب الاسرة . وبذلك تؤدي هذه العقوبة الى تشريد الاسرة بالاضافة الى اعتقاله وهدم البيت الذي لا يملكه وانما يملكه مالك لا علم له بكل ما يجري . هذا نوع من العقوبات التعسفية التي كانت تمارس على شعبنا في المناطق المحتلة . ولا شك ان احصائيات كثيرة جدا صدرت في هذا الخصوص تعدد البيوت التي تم هدمها نتيجة لتطبيق مثل هذه العقوبات وهي تعد بالالاف .

أثرت العقوبات الجماعية على المقاومة التي كان يبديها شعبنا ولكنها لم تمنع هذه المقاومة من الاستمرار كما لم تمنع استمرار شعبنا في رفضه للاحتلال ، غير اننـــا لا نستطيع أن نتجاهل الاثر الذي أحدثته هذه العقوبات في الاضعاف من تنامي النهوض الجماهيري ، وخاصة لعدم توفر التنظيمات الشعبية السياسية المدعومة قوميا لمواجهة متطلبات النضال الذي كان يبديه شعبنا في مواجهة المحتل . والى جانب هذه العقوبات لجأت سلطات الاحتلال الى شتى الوسائل التي يمكن أن تنال من معنويات الشعب ومن فاعلية المناضلين مثل التعذيب والاعتقالات الكيفية حتى للابرياء أحيانا في محاولة لخنق هذه المقاومة . ويمكننا ان نقول تلخيصا في معرض الاجابة على السؤال الثاني ، ان اسرائيل لم تنجح في سياستها هذه في الحيلولة دون شعبنا وممارسة رفضه للاحتلال ، لان شعبنا متسلح بماض نضالي طويل وبتاريخ كفاحـــي عريق ومقاومته للاحتـــلال الصهيوني والغزوة الصهيونية لم تكن وليدة احتلال عام ١٩٦٧ فقط وانما تمتد عبـــر

سنين طويلة ، وهو في كل ذلك كان يستلهم الى جانب تجربته النضالية تجارب شعوب الامة العربية التي ينتسب اليها وينتمي اليها وكان يعيش معها ظروفا نضالية ووحدة شعور ومصير نضالي على مر السنين الماضية .

اما فيما يتعلق بالسؤال الثالث فيمكن الاشارة الى ما تركت مجازر أيلول عام ١٩٧٠ من ردة فعل بما يلي :

لا شك ان مجازر أيلول كان لها رد فعل عنيف في الضفة الغربيـــة وقطاع غزة لان شعبنا يشعر بأن ما تعرض له اخوتنا في الضفة الشرقية قد اصابه في الصميم . فكلنا يعلم ان عائلات كثيرة أصيب لها أفراد في الضفة الشرقية ، كما ان ضرب حركة المقاومة قد اثر على معنويات شعبنا في الضفة الغربية وبدأنا نشعر في الضفة الغربية بالمحاولات المستميتة من قبل سلطات الاحتلال لاستغلال ضرب المقاومة في الضفة الشرقية . فأخذ الاحتلال يقارن بين نفسه وبين السلطات في الضفة الشرقية التي قامت بعملية القمع في أيلول ، محاولا الاستفادة واحتواء عواطف جماهير شعبنا في الضفة الغربية . ومجازر أيلول نردنا الى طبيعة الاسباب التي أدت اليها . وفي هذا المجال يمكن ان نقول أن كل مفكر في الضفة الغربية كان يتوقع هذا الصدام في الضفة الشرقية ولم يكن مفاجئا ، وان كان الحجم الذي أخذه الاسلوب المستخدم أكثر مما كان يدور بخلد أي انسان . والسبب في عدم هذه المفاجأة هو ان جميع المفكرين في الضفة الغربية الذين كانوا يراقبون أسلوب الحكم في عمان بعد حزيران كانوا يتوقعون هذا الصدام . فالحكم في عمان لم يتصرف تصرف الحكم الذي ضاع جزء منه او وقع جزء منه تحت الاحتلال وانما ترك المجال في بادىء الامر للفدائيين الفلسطينيين للتواجد والعمل واكتفى الحكم بالاستئثار بعملية الحكم ذاته . وكان من الطبيعي ان وجود سلطتين مسلحتين داخل البلد ، وعدم شمول الحكم وعدم اعتناقه للعمل الفدائي والالتحام والتنسيق معه تنسيقا والتحاما عضويا ان يحدث تناقضا ، خاصة بعد ان تواجدت سلطتان مسلحتان على ارض واحدة ، وكان من الطبيعي ان تحدث بعض السلبيات لدى المقاومة ولكن هذه السلبيات جرى استغلالها على نطاق واسع ، ولكن من الاسباب التي أدت الى ظهور السلبيات هو الاسلوب الذي انتهجه الحكم بعد حرب حزيران. فلو ان الحكم تبنى اسلوب الالتحام مع المقاومة وتجنيد جماهير الشعب في الضفتين وتدريبها على المقاومة ورعايـــة ودعم عمليات المقاومـــة الفلسطينية في الاراضي المحتلة سواء السياسية منهـــا أو العسكرية ، لنشأت رفقة نضالية عميقة واخوة نضالية حالت دون وقوع مجازر أيلول .

ورغم ان الحكم الاردني حـــاول أن يبرر مجازر ايلول بأنهـــا جاءت نتيجة لسلبيات المقاومة ، الا أن شعبنا كان يعي أن ضرب المقاومة وخاصة بالشكل والحجم الذي تما فيه لا يمكن تبريره مهما كانت السلبيات . وشعبنا الذي يعاني من الاحتلال وممارساته القمعية يعي بحسه وممارسته ما كان لتلك المجازر من أثر على نضاله ومعنوياته . وكان لتلك الاعمال أثرها السلبي على الضفتين وعلاقتهما . غير انـــه مهما كانت الظروف والحوادث المؤلمة لا يجوز أن نتجاهل ونحـــن نتحسس طريقنا وتصورنا للمستقبـــل العلاقات الخاصة التي تربط شعبنا في الضفة الغربية مع شعبنـــا في الضفة الشرقية سواء من الناحية الانسانية السكانية أو من الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

لذلك علينا ان ننطلق من تصورنا الى المستقبل من مبدأ توفـــير الارادة الفلسطينية الحرة على التراب الفلسطيني . وهذه الحرية يجب أن يكون منطلقها تحريريا وليس اقليميا وباتجاه تحرير تراب الوطن المحتل وليس هروبا من سلبيات نظام او حكم . ان من علامات الوعي والمسؤولية لتحديد ملامح المستقبل ان يكون تصور هذه الملامح فعلا وليس رد فعل لكي نصون تصرفاتنا وقراراتنا من أي عملية ابتزاز يستفيد منها العدو

المحتل لترابنا المتنكر لحقوقنا وفي مقدمتها حقنا في العودة الى ترابنــا الوطني وتقرير مصيرنا عليه وليس خارجه ، وتصحيح الاخطاء التي لا تنسجم مع تيار التاريخ والتطور التي فرضت على فلسطين والوطن العربي من قبل القوى الامبريالية والصهيونية في العالم .

عربي عواد : كانت مجازر أيلول التي ارتكبها النظام الرجعي في الاردن ضد حركة المقاومة الفلسطينية وضد شعبنا الفلسطيني طعنة في الظهر لنضال شعبنا الفلسطيني في أرضه المحتلة ، لان هذه المجازر الرهيبة واخراج حركة المقاومة من الضفة الشرقية ، كان لها تأثير سلبي كبير على نضال شعبنا في الارض المحتلة وبالتالي فان مجازر أيلول كانت نقطة تفصل بين مرحلتين في نضال شعبنا في الارض المحتلة .

المرحلة الاولى التي تمد عبر السنوات الثلاث من ٦٧ ـــ ١٩٧٠ كانت تتميز بحالة من النهوض والمقاومة المتعددة الاشكال سواء من المقاومة المسلحة أو النضالات السياسية والجماهيرية التي شاركت فيها مختلف الفئات والطبقات الشعبية .

المرحلة الثانية تمتد من عام ٧٠ ـــ ١٩٧٣ حيث حل الجزر محل النهوض الجماهيري وظلت هذه الحالة قائمة حتى حرب تشرين الاول الوطنية التحررية . في هذه المرحلة انتقل شعبنا من حالة الهجوم ضد الاحتلال الى حالة الدفاع . لان المحتلين الصهاينة استغلوا مجازر أيلول وآثارها السلبية السيئة على حماس شعبنا واستعداده للنضال وتمادوا في تنفيذ مخططاتهم التوسعية العدوانية ضد شعبنا في جميع المجالات .

من هنا تصدى شعبنا للرد عليهم والدفاع عن نفسه في حدود الامكانات المتاحة . ومن هنا فان شعبنا يدين مجازر أيلول باعتبارها أدت خدمـــة كبيرة للمحتلين الصهاينـــة وساعدتهم على التغطية على جرائمهم المنكرة التي يرتكبونها ضد شعبنا والتظاهر بمظهر الليبرالية بالمقارنة مع اجراءات النظام الوحشية في الاردن . وكان المحتلون الصهاينة يستثمرون مجازر أيلول للابقاء على احتلالهم وترسيخه .

عيسى الشعيبي : تحت العنوان الثالث والاخير يمكن ادراج الاسئلة التالية :

١ ـــ كيف استقبلت جماهير الضفة والقطاع اخبار حرب تشرين في مراحلها المتعاقبة وكيف تصرفت ازاء ذلك ؟

٢ ـــ ما هي أبرز المظاهر العامة التي تركتها حرب تشرين علــى الضفة والقطاع ، سياسيا واقتصاديا .

٣ ـــ كيف يرى سكان الضفة والقطاع مستقبلهـــم السياسي ومستقبـــل الشعب الفلسطيني بشكل عام ؟

٤ ـــ ما هي الوسائل التي يلجأ اليها النظام الاردني لاعـــادة سيطرته على الضفة الغربية ، وهل العلاقات الاقتصادية عبر الجسور احدى هذه الوسائل ؟ وما هي الحدود العامة لتأثيرات الموقف الاردني المعلن تجاه الضفة الغربية في عملية تشكل المناخ السياسي الراهن هناك ؟

٥ ـــ كيف تنظر جماهير الضفة والقطاع الى مستقبل علاقاتها السياسية والاقتصادية ، اردنيا وعربيا ، في ضوء مواقف الجبهة الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية من جهة ، وكافة المعطيات الجغرافية والسكانية والاقتصادية من جهـــة اخرى . وبهذه المناسبة ، ما هي الاسس التي اعتمدتها القوى الوطنية في عملية تشكيل الجبهة الوطنية وما هي ظروف تشكيلها والقوى المنضوية تحت لوائها ؟

عربي عواد : كانت حرب تشرين مفاجئة بالنسبة لجماهيرنا الفلسطينية لانها جاءت

في ظرف سادت فيه السلبيات في البلاد العربية . ومن هنا فان شعبنا بعد انفجار الحرب أخذ يتابعها باهتمام كبير ولم يستطع أن يستوعب نتائجها بسرعة مع انه قام ضمن امكانياته في المساهمة بالنضال ضد الاحتلال الصهيوني . وتجلى ذلك في انقطاع العمال انقطاعا كاملا عن العمل في المؤسسات الاسرائيلية وكذلك في عدد من اعمال المقاومة الاخرى مثل القاء بعض قنابل المولوتوف على البنوك الاسرائيلية وتعطيل حركة مرور السيارات الاسرائيلية بالقاء المسامير والحجارة في بعض الطرق .

غير ان آثار الحرب في الضفة الغربية برزت بعد نهايتها . فتشكل وضع جديد في أرضنا المحتلة يتميز بحالة من النهوض لان شعبنا لمس نتائج هذه الحرب على الجانب العربي وعلى الجانب الاسرائيلي . فعلى الجانب العربي ثمن شعبنا شجاعة المقاتلين العرب ومقدرتهم القتالية التي وجهت ضربات قاسية للجيش الصهيوني وحطمت اسطورة تفوقه . كما تجلى التضامن العربي اثناء الحرب اذ ساهمت البلدان العربية بأشكال مختلفة فيها .

وفي الجانب الاسرائيلي لمس شعبنا الضربة الكبيرة التي زلزلت الكيان الصهيوني في مختلف المجالات . فضربت فكرة الحدود الآمنة التي كان يتصور الاسرائيليون انها حصن حصين تحميهم وتحمي احتلالهم وتساعد على تنفيذ مشاريع التوسع الصهيوني في الاستيطان والتهويد . هذا الى جانب الضربة السياسية التي حلت بهم والتي تمثلت بالعزلة الخانقة على النطاق العالمي واشتدت بعد الحرب . كذلك الازمة الاقتصادية التي أمسكت بخناق اسرائيل وتعطل قطاع هام من الحياة الاقتصادية وكذلك موجة الغلاء الفاحشة التي يتحمل الآن نتائجها المواطنون اليهود والتي تنسف كل الدعايات الصهيونية عن البحبوحة والرفاهية التي كانوا يتصورون انها ستوفر لهم عن طريق سياسة التوسع والاحتلال والعدوان .

كل ذلك كان له تأثير كبير على موقف جماهيرنا الفلسطينية في الارض المحتلة وحفزهم الى النضال وشحنهم بالثقة والامل لامكانية دحر الاحتلال عن أرضنا المحتلة والحصول على انجاز لشعبنا الفلسطيني . ومن هنا جاء النهوض الوطني الذي تمثل في العديد من اعمال المقاومة المسلحة التي تميزت بالجرأة والاقدام وفي التأييد الجماهيري الواسع لها، وكذلك في النضالات الجماهيرية المتنوعة .

رافق هذا النهوض الوطني الذي شهدته أرضنا المحتلة بعد حرب تشرين ، موقف سياسي تميز في تلاحم شعبنا كله والتفافه حول منظمة التحرير الفلسطينية . وقد تجلى ذلك بعد مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالجزائر ، بحملة تأييد لمقررات المؤتمر وبوجه خاص القرار الذي يؤكد اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. فعلى الاثر أصدرت الجبهة الوطنية الفلسطينية بيانا وزع في الارض المحتلة كلها يدعو الى التفاف شعبنا كله حول منظمة التحرير الفلسطينية . كما أصدر الحزب الشيوعي في الضفة الغربية بيانا مشابها ، وتتابعت البيانات من المنظمات والهيئات الشعبية وفي مقدمتها الهيئة العلمية الاسلامية وتجمع النقابات المهنية الذي يضم نقابات الاطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين واطباء الاسنان واتحاد نقابات العمال واتحاد الطلبة الفلسطيني في الارض المحتلة والهيئات النسائية .

هذا الوضع الجديد نسف كل حسابات المحتلين التي أقاموها في الماضي وكانوا يتصورون انهم خلال سنوات الاحتلال قد روضوا شعبنا الفلسطيني واحتووه ضمن سياستهم وعزلوه عن الشعب الفلسطيني في الخارج ودفعوه وراء قيادات تسير في طريق المساومة والانهزام . ولذلك فقد طار صوابهم بعد هذا النهوض وكشفوا مرة أخرى عن وجههم الارهابي الاسود الذي حاولوا في السنوات الماضية تغطيته بغلالة زائفة من

المزاعم عن الحرية والمعاملة الانسانية لشعبنا في الارض المحتلة . فلجأوا الى سلسلة من الاجراءات الارهابية مثل نسف البيوت والتطويقات في المدن والقرى وتسيير الدوريات العسكرية في شوارع المدن والطرقات والاعتداء على المواطنين في الشوارع . ومن جملة هذه الاجراءات كانت عملية ابعاد المناضلين الثمانية . وكان المحتلون يقصدون من وراء ذلك كله ان يوقفوا هذه الموجة من النهوض التي اجتاحت ارضنا المحتلة بعد الحرب ، ولكن خابت حساباتهم مرة أخرى ، لان هذه الاجراءات ولا سيما ابعاد المناضلين الثمانية كانت بمثابة الشرارة التي الهبت نار المقاومة . ومن هنا فقد اجتاحت الارض المحتلة موجة عارمة من النضالات الجماهيرية التي تجلت في الاعتصامات النسائية والطلابية والاعتصامات والمظاهرات والمذكرات والوفود التي نددت كلها بالاحتلال واكدت كلها على اصرار شعبنا على الخلاص من نير الاحتلال وممارسة حقه في تقرير مصيره .

هذا الوضع الجديد كان من نتائجه ازدياد التفاف شعبنا حول قيادته الممثلة في منظمة التحرير الفلسطينية والتفافه حول الجبهة الوطنية الفلسطينية التي كانت قد نشأت قبل الحرب بقليل ، فازداد انجذاب القوى الوطنية لها مما ادى الى انتشار نفوذها في مختلف ارجاء الارض المحتلة .

وبهذه المناسبة فاننا نلاحظ ان أجهزة الاعلام العربية بوجه عام لم تعط هذا النهوض الوطني الذي اجتاح ارضنا المحتلة حقه من الاهتمام . كما ان بعض منابر المقاومة الفلسطينية لم توله الاهتمام الكافي . وقد لفت نظرنا ان مجلة « شؤون فلسطينية » لم تعط هذا النهوض التغطية المناسبة واقتصر اهتمامها على مجال ضيق جدا لا يتعدى بضعة سطور . وهذا لا يساعد شعبنا الفلسطيني خارج الوطن بالتعرف على ما يجري في الداخل وبالتالي فانه لا يساعد على تلاحم شعبنا الفلسطيني . فمن واجب اجهزة الاعلام التابعة للثورة الفلسطينية كوسيلة لدعم نضال جماهيرنا في الارض المحتلة ان تلقي عليه الاضواء الكافية لان هذا من شأنه أن يقدم خدمة لنضالنا الفلسطيني في البلاد العربية والخارج ويعطي صورة حقيقية مشرقة عن موقف شعبنا ضد الاحتلال رغم مرور سنوات طويلة تميزت بمختلف اساليب القمع والارهاب والرشوة والخداع من جانب الاحتلال .

من ناحية اقتصادية فان الحرب قد زلزلت كافة جوانب المخطط التوسعي الاحتلالي ومنها الجانب الاقتصادي . فأدت اولا الى اضعاف الصلة الاقتصادية بين اسرائيل والارض المحتلة فألغيت الكثير من الصفقات التجارية التي كانت قد تعاقدت عليها المؤسسات الاسرائيلية مع تجار المناطق المحتلة . كما ان الصهاينة انفسهم اخذوا بالتوقف عن الاستمرار في عملية تطبيق الدمج الاقتصادي خاصة فيما يتعلق بانشاء مؤسسات وشركات اسرائيلية على الارض المحتلة . فمن المعروف انه في اوائل العام ١٩٧٣ ، أصدرت الحكومة الاسرائيلية قرارا سمحت بموجبه للشركات والمؤسسات الاسرائيلية ان تقيم لها فروعا على الارض المحتلة ولكنها بعد الحرب لم تقم بتنفيذ هذا القرار لانها أدركت ان الاحتلال مصيره الى الزوال .

وترتبت على الحرب من ناحية أخرى صعوبات كبيرة للحياة الاقتصادية لشعبنا وبرز هذا في الغلاء الفاحش الذي يطحن جماهيرنا الفلسطينية مما ساعد في كشف الوجه الحقيقي للاحتلال وبدد الانطباعات الزائفة عن البحبوحة الاقتصادية والرفاه الذي كان يدعيه الصهاينة في المناطق المحتلة . وتأكد لجماهيرنا ان هذا الاحتلال بالاضافة الى انه ينهب الارض ويهين الكرامة العربية ، يجعل من الحصول على لقمة العيش أمرا صعبا في ظله .

وكان من نتائج الحرب ان طرح المستقبل لجماهيرنا الفلسطينية في الارض المحتلة على

بساط البحث . فبدا واضحا للعيان ان الاحتلال الاسرائيلي زائل لا محالة ومن هنا فقد طرح للبحث مصير شعبنا الفلسطيني في الارض المحتلة ومصير شعبنا الفلسطيني بوجه عام . فقد بحثت هذه القضية على نطاق واسع من خلال الندوات واللقاءات والمحاضرات في مختلف أرجاء الارض المحتلة . ومن خلال ذلك تبلور موقف شعبنا الفلسطيني كله ، جسدته الجبهة الوطنية الفلسطينية في رسائلها المتعددة التي وجهتها الى منظمة التحرير الفلسطينية . ومن الضروري ان يكون واضحا ان شعبنا في الارض المحتلة عندما يتحدث عن مستقبله فهو لا ينظر الى هذا المستقبل بمعزل عن مستقبل الشعب الفلسطيني كله لانه في الحقيقة ، اكد بعد الحرب انه جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني كله . ولذلك فانه ينظر الى المستقبل من زاوية مـا يخص الشعب الفلسطيني كلـه . وعلى هذا الاساس فهو يرى ان نتائج الحرب وما أدت اليه جملة المعطيات الايجابية على النطاق العربي والعالمي كله ، قد أوجدت له امكانية موضوعية لانهاء الاحتلال وممارسة السيادة الوطنية الفلسطينية على الارض التي ينحسر عنها ظل الاحتلال . أي بوضوح امكانية قيام كيان وطني مستقل للشعب الفلسطيني وبالتحديد انشاء دولـة وطنية فلسطينية مستقلة .

ان هذا الهدف الذي يدرك شعبنا انه قد تهيأت الامكانيات لتحقيقه في الظروف الراهنة ليس نهاية المطاف ، بل انه يرى ان انشاء دولة وطنية فلسطينية على الارض الفلسطينية التي ينحسر عنها ظل الاحتلال الاسرائيلي سيهيىء له قاعدة ومنطلقا لمواصلة نضاله من أجل نيل حقوقه الكاملة التي يغتصبها الصهاينة ، لان شعبنا يعـرف ان الحرب قدمت نتائج ايجابية هامة ولكنها رغم ذلك لم تؤد الى توجيه ضربة قاصمة للعدو تمكن شعبنا من نيل حقوقه كاملة . ومن هنا فهو يرى ان لا ضير عليه بل من الواجب ان يستفيد شعبنا الفلسطيني كله من هذه النتائج التي أفرزتها حرب تشرين . وكخطوة على طريقه اللاحقة من اجل نيل حقه الكامل . وشعبنا في الواقع يرى ويلمس من خلال موقف أعدائه الصهاينة كيف ان انجاز هذا الهدف هو ضربة لكل مخططهم الذي تقـوم عليه الحركة الصهيونية . ويظهر هذا في العداء الضاري من جانب الصهيونية لاقامة دولة وطنية فلسطينية . كما تجلى في سيل التصريحات التي أطلقها زعماء الصهاينة وعبروا فيها عن رفضهم القاطع لقيام دولة وطنية فلسطينية ، وتضمن البرنامج الانتخابي لحزب العمل الاسرائيلي الحاكم في الانتخابات الاخيرة بندا خاصا يعلن معارضة الدولة الفلسطينية المستقلة على الارض الفلسطينية .

ويرى شعبنا ان تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يأتي بسهولة وانه ليس نتيجة ميكانيكية لنتائج حرب تشرين ، لان هناك تآمرا متواصلا ومقاومة عنيفة من جانب معسكر الاعداء لمنع شعبنا من انجاز هذين الهدفين وهمـا انهاء الاحتلال واقامـة الدولة الوطنية الفلسطينية ، سواء من جانب الصهاينة او من جانب حكـام الاردن الذيـن لا يزالون مستمرين في تآمرهم لمنع شعبنا من ممارسة حقه في السيادة الوطنية ، ومع هؤلاء وأولئك يقف كذلك المستعمرون الاميركيون نفس الموقف .

ان تحقيق هذين الهدفين يتطلب نضالا متواصلا مليئا بالتضحيات ومن خلال وحدة وطنية فلسطينية تشمل شعبنا الفلسطيني داخل ارضنا المحتلـة وخارجها وتتمثل في اجماع القوى الوطنية الفلسطينية من خلال منظمة التحرير الفلسطينية على تحقيق هذه الاهداف والنضال من أجلها .

وكذلك فان شعبنا يرى اهمية وضرورة استمرار التضامن العربي لتحقيق هـذه الاهداف . وبوجه خاص وحدة الموقف الفلسطيني السوري المصري ومعه بقية الدول

العربية ، والى جانب ذلك استمرار التأييد العالمي وبالدرجة الاولى البلدان الاشتراكية والاتحاد السوفياتي .

ان شعبنا وهو يرى ان مصلحته الوطنية تقتضي في الوقت الحاضر اقامة سيادته الوطنية على ارضه التي يتم تحريرها من نير الاحتلال فان ذلك لا يعني انه قد نفض يديه من الشعب الاردني او انه يسعى الى فصم كل علاقة له بالاردن . ان شعبنا يدرك العلاقة الخاصة التي تربطه بالاردن ، هذه العلاقة التي تتمثل في تواجد قسم كبير من شعبنا على ارض الضفة الشرقية وفي العلاقات الاقتصادية والعلاقات النضالية التي ربطت بين شعبينا خلال العشرات من السنين . ومن هنا فان شعبنا يعمل من اجل صياغة هذه العلاقة على اساس جديد ، على اساس وطني ديمقراطي ، على اساس الاختيار الحر للشعبين الفلسطيني والاردني . ومن اجل ان تتحقق هذه الاهداف فنحن نرى ضرورة اقامة جبهة وطنية في الضفة الشرقية تضم بين صفوفها الفلسطينيين والشرق أردنيين وحدة نضال الشعبين الفلسطيني والاردني ، وتتفق على برنامج وطني يعبر عن مصالح الشعبين الفلسطيني والاردني .

ولا يمكننا ان نغفل وضع نظام الحكم الاردني بعد الحرب ، فمن المعروف ان موقفه المتخاذل خلال الحرب قد عراه وعزله عزلة كبيرة في المجالين العربي والعالمي ، ومع ذلك فان هذا الحكم لا يزال يواصل نهجه في التآمر على شعبنا بأساليب مختلفة منها الرشوات التي يوزعها في الضفة الغربية وكذلك محاولات التآمر مع المحتلين الصهاينة والمستعمرين الاميركيين تحت ستار « فك الارتباط » بين القوات الاسرائيلية والاردنية ، وهذا لا يعدو كونه عملية تسليم واستلام تتم على حساب شعبنا الفلسطيني وتمكن الصهاينة من ابتلاع أجزاء كبيرة من الارض الفلسطينية التي احتلوها بعد ١٩٦٧ وتؤدي الى تصفية قضية شعبنا الفلسطيني تصفية نهائية وطمس وجوده وشخصيته الوطنية المستقلة . ولذلك فان مصلحة شعبنا الفلسطيني في الوقت الراهن أن يبلور موقفا واضحا محددا تلتقي حوله كافة القوى الوطنية الفلسطينية داخل الارض المحتلة وخارجها ومسؤولية تحديد هذا الموقف تقع على عاتق منظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد لشعبنا الفلسطيني ، وتحديد هذا الموقف يساعد على تعبئة شعبنا كله من حوله وضمان التأييد العربي والعالمي له ، وتطرحه على شعبنا الفلسطيني كله من اجل تعبئته حول هذا الهدف ومن اجل ان تضمن له التأييد العربي والعالمي المطلوب .

ان قيام الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة يعتبر نقطة تحول في نضال شعبنا الفلسطيني ضد الاحتلال، لان الجبهة الوطنية بوصفها الاطار التنظيمي والسياسي الذي يضم كل القوى والمنظمات الوطنية ويمثل كافة فئات شعبنا وطبقاته الوطنية ، تمكن شعبنا من تعبئة جميع طاقاته النضالية ضد الاحتلال الاسرائيلي .

وقيام الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة ليس وليد الصدفة او نتيجة الرغبات والتمنيات ، لان الجبهة تعتمد على أسس موضوعية ، فمفهوم الجبهة الوطنية بوجه عام يقوم على اساس وحدة العمل بين طبقات اجتماعية متعددة وما يمثلها من تنظيمات وقوى سياسية وجماهيرية ، تلتقي كلها بحكم مصالحها على تحقيق هدف واحد يخدم مصلحتها كلها .

والنضال ضد الاحتلال الاسرائيلي في سبيل التحرر من نيره ونيل شعبنا الفلسطيني حقه في تقرير مصيره على ارضه هو الهدف الذي تلتقي حوله كل طبقات شعبنا وهيئاته وتنظيماته واحزابه الوطنية ، لان الاحتلال الاسرائيلي عدو لشعبنا كله بكل طبقاته وفئاته ، فهو ينهب الارض العربية ويصادرها ويدمر ما عليها من مزروعات واشجار

وابنية ومنشآت دون ان يميز بين اصحاب الارض فلا يهم اذا كان اصحابها ملاكين كبارا او فلاحين صغارا او متوسطين او اغنياء فالمهم بالنسبة له هو الاستيلاء على الارض العربية وتهويدها وطمس عروبتها وبناء المستوطنات الصهيونية فوقها ، وينطبق نفس الوضع على التجار وأصحاب الصناعات والمؤسسات العربية والعمال والفلاحين والمثقفين ، لانهم جميعا يعانون في ظل الاحتلال من الاستثمار والاستغلال ، هذا بالاضافة الى العامل القومي الذي يحرك شعبنا كله ضمن نير الاحتلال الاجنبي وضد غطرسة الصهاينة وعنصريتهم وتماديهم في امتهان كرامتنا العربية والاعتراض على مقدساتنا .

كل ذلك يدفع شعبنا الى تلاحم صفوفه ، وقد تجسد هذا التلاحم عبر النضالات والمعارك المتعددة التي خاضها شعبنا وساهمت فيها مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية والسياسية ، وتلاقي كبار الملاكين مع الشيوعيين والتجار ونقابات العمال في الدفاع عن الارض العربية التي امتدت اليها يد النهب الصهيونية ، كما جرى في اعتصامات ونضالات أصحاب الارض في منطقة نابلس وفي بلدة السواحرة بجوار القدس وغيرها . كما التقى الشيوعيون مع الهيئة العلمية الاسلامية وباقي قوى شعبنا في الدفاع عن المسجد الاقصى والحرم الابراهيمي، امام اعتداءات الصهاينة على هذه المقدسات ومحاولاتهم السيطرة عليها .

ان كابوس الاحتلال الرابض على صدر شعبنا كله وخطره الذي يتهدد وجودنا ومصيرنا قد أذاب كل الحساسيات وادى الى تلاحم شعبنا بمختلف طبقاته وفئاته الوطنية رغم تباين اتجاهاتها السياسية وانتماءاتها المنظيمية والفكرية . وهذا هو الاساس القوي الثابت الذي تعتمد عليه الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة.

واذا كان قيام الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة قد تأخر حتى منتصف شهر آب سنة ١٩٧٣ فأن ذلك يرجع لعدة أسباب من ابرزها النهج الذي كانت تسير عليه حركة المقاومة الفلسطينية في حصر النضال الوطني الفلسطيني في الكفاح المسلح والاستخفاف بالنضالات السياسية والجماهيرية واعتبارها مجرد ثرثرة وترف ثوري وكذلك عدم الاهتمام الكافي بوحدة الصف الوطني الفلسطيني ، ولكن حركة المقاومة تعلمت من خلال تجاربها وتضحياتها وتوصلت الى الاستنتاج الصحيح بضرورة استخدام كل أشكال النضال ضد اعدائنا الصهاينة وتوحيد كل قوى شعبنا في هذا النضال . وانعكس ذلك في القرار الذي اتخذه المجلس الوطني الذي انعقد في مطلع سنة ١٩٧٣ والذي دعا الى قيام جبهة وطنية فلسطينية في الارض المحتلة .

وعلى الاثر نشطت القوى الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة لانشاء هذه الجبهة فوضع مشروع برنامج لها عرض على مختلف القوى الوطنية والشخصيات وممثلي الهيئات والتنظيمات الجماهيرية وجرت مناقشة طوال ستة شهور ، ثم آخر ونشر في منتصف شهر آب ، وقد ورد في البرنامج التأكيد بأن الجبهة الوطنية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من منظمة التحرير الفلسطينية لان شعبنا الفلسطيني في الارض المحتلة هو جزء من شعبنا الفلسطيني كله .

وقد جاءت الجبهة الوطنية حصيلة لتجارب شعبنا في السنوات الماضية منذ أيام الاحتلال الاولى ، ففي اعقاب عدوان حزيران سنة ١٩٦٧ تشكلت لجان ثورية ضيقة ضمت الشيوعيين والبعثيين والقوميين العرب وبعض القوى الثورية الاولى ثم اتسعت هذه اللجان لتضم ممثلين عن النقابات العمالية والمهنية والهيئات النسائية والغرف التجارية والمجالس البلدية وانضم لها عدد من رجال الملك حسين واصبحت تدعى لجان التوجيه الوطني ، وكانت هذه اللجان علنية او شبه علنية ، واقتصرت في نشاطها على

النضالات المحدودة مثل كتابة المذكرات التي تعلن رفض الاحتلال وتنظيم العرائض والوفود الاجتماعية ضد اجراءات المحتلين التعسفية .

ومع تصاعد موجة النضال ضد الاحتلال تفككت هذه اللجان اذ انسحب من الميدان اعوان الملك ومن على شاكلتهم ، كما ابعد وسجن العديد من العناصر الوطنية المناضلة. وأصبح من الواضح ان مثل هذه اللجان غير صالحة لقيادة النضال الوطني المتصاعد . وهكذا تشكلت جبهة المقاومة الشعبية في الضفة الغربية واخذت بالتعاون مع الجبهة الوطنية المتحدة في قطاع غزة تقود النضالات السياسية والجماهيرية ، ولكن هاتين الجبهتين ظل نطاقهما ضيقا .

وقد استفادت الجبهة الوطنية الفلسطينية من كل هذه التجارب . فجعلت تنظيما سريا مع توسيع نطاقه بحيث يشمل مختلف القوى الوطنية ويقيم له صلات مع المنظمات الجماهيرية والهيئات والشخصيات الوطنية .

وتضم الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة الحزب الشيوعي في الضفة الغربية الذي قام بدور اساسي في بناء الجبهة وفي نضالاتها اللاحقة ، وممثلين عن النقابات والمنظمات الجماهيرية والشخصيات الوطنية وبعض فصائل حركة المقاومة ، وقد أقامت الجبهة لها تنظيمات في المناطق والمدن وهي ماضية في توسيع نطاقها بحيث تشمل كل القوى الوطنية لشعبنا وفي نشر تنظيماتها لتشمل الأرض المحتلة كلها .

عبد المحسن ابو ميزر : لا شك ان لحرب تشرين نتائج عديدة وآثارا بالغة الاهمية تستوجب وعيها من حيث قيمتها او من حيث مدلولاتها واستقصاء آثارها سواء على الجبهة العربية او الجبهة المعادية او الساحة الدولية بوجه عام .

وقد يكون الوقت مبكرا لحصر نتائج حرب تشرين على جبهة العدو لان بعض هذه النتائج ما زال في دور التبلور وبعضها الاخر لم يتم الوعي عليه بالدرجة الكافية والكفيلة بترتيب نتائج محددة واستخلاص استنتاجات تخالف المعتقدات السياسية التي كانت تسود المجتمع الاسرائيلي قبل حرب تشرين المذكورة .

فبالاضافة للنتائج والاثار التي ذكرت هنالك آثار أساسية لا يجوز اهمالها لما لها من أثر على العوامل الفاعلة في النزاع العربي الصهيوني وفي هذا المجال يمكن اضافة الاثار التالية :

اولا — ان حرب تشرين قد قضت والى غير رجعة على التفوق العسكري الاسرائيلي ذلك التفوق الذي خلق قناعات لدى الاسرائيليين قبل حرب تشرين بأن العرب لن تقوم لهم قائمة قبل مرور وقت طويل يمتد الى عشرات السنوات بعد هزيمة ٥ حزيران . وهذه القناعات كانت تنعكس على نظرتهم لانفسهم وللعرب فكانوا يشعرون بفارق حضاري وقتالي بينهم وبين العرب وكانوا يتصرفون بعربدة وغرور من وحي هذه القناعات الخرافية فجاءت حرب تشرين لتهز هذه القناعات من جذورها وبرهنت في جملة ما برهنت عليه ان المقاتل العربي يتمتع بروح وقدرة قتالية عالية لا تقل كفاءة عن القدرة القتالية لدى جيش العدو كما كشفت عن استطاعة المقاتل العربي على استيعاب واستخدام أشد أنواع الاسلحة الحديثة تعقيدا . ومن هنا نشأت معادلة جديدة في الصراع مبنية على تعادل في الكيف وتفوق عربي بالكم . وهذا يطرح مفاهيم جديدة على المجتمع الاسرائيلي تتجلى بأزمة الحجم الحقيقي لاسرائيل بعد أن كانت القناعات السابقة على الحرب تصوره بأكثر من الحجم الحقيقي بعشرات المرات .. فاسرائيل اليوم تعيش ازمة حجم وقدرة كما تعيش أزمة نظرة سوداء الى المستقبل . وهذا يفرض على المسؤولين العرب مضاعفة الوعي والانطلاق في تعاملهم مع الصراع من منطلق

الزام اسرائيل بدفع ثمن السلام للعرب وليس الانطلاق من منطلق دفع ثمن الانسحاب لاسرائيل .

ثانيا : ان حرب تشرين ولاول مرة كسرت طوق الاحتكار الامريكي لقضيــة الشرق الاوسط واصبحت القوتان الاعظم على قدم المساواة من حيث علاقتهما باستمرار او توقف الحرب في الشرق الاوسط ولا شك ان دخول الاتحاد السوفياتي بعد حرب تشرين بهذا الحجم يجب علينا الاستفادة منه وعدم تمكين امريكا من تطويق نتائج حرب تشرين وآثارها على الصعيد الدولي، في ضوء وعي شعبنا في المناطق المحتلة هذه النتائج وفي ضوء وعيه استراتيجية العدو المرحلية وفي ضوء حرصه على الاستفادة من ايجابيــات حرب تشرين يرى شعبنا ملامح المستقبل في اطار المبادىء التالية :

١ ــ الايمان بوحدة الشعب الفلسطيني في داخل المناطق المحتلة وخارجها ، وان هذه الوحدة تفرض وحدة تمثيله ومن هنا أعلن وأكد اعتباره منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا لــه .

٢ ــ الوعي بأن حل التناقض العربي الصهيوني جذريا لــم تتوفر بعــد معطياته فلسطينيا وعربيا ودوليا . وان جو التسوية الذي فرض على المنطقة من خــلال تبني الدولتين الاعظم لمبدأ التسوية السلمية يفرض على الفلسطينيين مضاعفة وعيهم للضوابط التي تميز الحل المرحلي عن الحل التصفوي ، فاذا كانت الظروف الدولية تفرض مناخا معينا لا يساعد على استكمال معركة التحرير فعلى القوى الفلسطينية ان تتبنى برنامجا مرحليا يستوعب ايجابيات حرب تشرين ونضال الشعب الفلسطيني خلال الســنوات العشر الماضية دون تفريط بالحق التاريخي ودون انزلاق في الاعتراف والصلح النهائي .

٣ ــ ان اي حل مرحلي يجب ان يتضمن انسحابا اسرائيليا فعليا من الاراضي المحتلة وان تكون الارادة الفلسطينية على التراب الفلسطيني حرة غير مكبلة او مشلولــة والارادة الفلسطينية الحرة هي وحدها صاحبة الحق في تقرير مصيرها وصياغة علاقاتها بالضفة الشرقية صياغة جديدة آخذة بعين الاعتبار جميع الايجابيات في هذه العلاقات ومبتعدة عن كل المظاهر السلبية .

٤ ــ الاصرار على حق كل اللاجئين في العودة الى مدنهم وقراهم وحقهم في املاكهم وتقرير مصيرهم على ترابطهم الوطني وليس خارجه .

٥ ــ ضمان استمرار النضال لتحرير الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٤٧ .

٦ ــ الحرص على وحدة القوى في الساحة الفلسطينية وضرورة تكريس البرنامج المرحلي من جميع هذه القوى والعناصر الفاعلة او اغلبيتها الساحقة في اطــار المجلس الوطني الفلسطيني .

٧ ــ ضرورة توفير تأييد عربي ملتزم بالبرنامج المرحلي الفلسطيني وبصورة خاصة من دولتي التماس مصر وسوريا من خلال الحرص على وحدة القضية العربية .

٨ ــ ضرورة توفير اكبر تأييد دولي للبرنامج المرحلي الفلسطيني وبصورة خاصــة من الاتحاد السوفياتي ودول عدم الانحياز والدول الاسلامية والدول الافريقية وغيرها من الدول الاسيوية والاميركية .

٩ ــ العمل في مختلف الساحات وعلى جميع المستويات بهدي هذه المبادىء والالتزام بهــا .

هذه ملامح المستقبل كما يتصورها شعبنا في المناطق المحتلة في ضوء ما لمسه ووعاه من نتائج حرب تشرين وآثارها عليه وعلى المجتمع الاسرائيلي والدولي .

هم .. أكثر من الكلمات

محمود درويش

● تلك اللحظة ، لم يكن الشارع شارعا في مدينة . وهذه محاولة وصف :

كان كل شيء ونقيضه .

كان فاصلة تدل على الماء ، وعلى الدم .

وكان ذبابة تأكل الحرف الفاصل بين الموت والحياة ، وبين الوطن والمنفى .

كان مذبحة وحفل زفاف . ولم يكن لوركا عربيا تماما :

« اذا متّ

فدعوا الشرفة مفتوحة .

الطفل يأكل البرتقال .

(من شرفتي أراه)

الفلاح يحصد القمح .

(من شرفتي أسمعه .)

اذا مت

فدعوا الشرفة مفتوحة » .

كنا نسهر ، ونحسبها قصيدة جميلة . وكان الرصاص يمشي في الشارع الآخر . يفتح باب كمال ناصر ، يقتل العصافير في قلبه . ويعود من الباب ذاته ، والشارع ذاته ، والمدينة ذاتها . وكنا نسهر ، ونعتبرها مجرد قصيدة جميلة ، لان لوركا لم يكن عربيا تمامــا .

● اخيرا فعلها ومات . صدّقه الموت لان الموت لا يمزح .

وكان كمال ناصر يبني تابوته مازحا ، ويستكتب مراثيه ضاحكا . وفي أوج الفرح يمضي الى الحسرة .

من أين جاءه هذا الموت قطرة قطرة حتى طفح وغطاه ! . كيف سكنه كل هذه المدة ولم نصدق !.

الموت لا يليق بك يا كمال ، كما لا يليق بفراشة .

كان يصر على انه حامل بالموت . كيف نمت فيه هذه الحاسة ولم نشعر . وهل مات ليقنعنا بأن الحدس ، فيه ، لا يخطىء ! .

● يقفز ، كعادته ، من الدمعة الى الابتسامة . ولا يجد مكانا يربّي فيه قلبه. خلقوا التوتر أولا ، ثم صبوا فيه جسد كمال ناصر .

كان مليئا بالشعر ، وخاليا من القصيدة .

كان طافحا بالوطن ، وخاليا من الارض .

ولو كتب الملاحم الشعرية لانصرف عنها ، لان رياحه لا تتسع لها الحروف .

ولو وصل الى فلسطين لمزقها ، لان الخارطة بموظفيها لا تستوعب هذا الطائر الجامح .

مندفع .. مندفع الى اين ؟

ضيّقهذا الجسد المليء بالرخام والعصافير . والارض اضيق من مسام الجلد الغاضب .

وهو اول من لا يعرف .

حين تفاجئه بسؤال : ماذا تريد ؟ يتوتر التوتر في قبضة يده . ويتحول الى خصلة شعر في ريح . ويقول كلاما غامضا كأنه فلسطين التي ، من شدة ما علموها اللغات ، لم تعد تتقن أية لغة .

● ليست القصيدة بديلا لاي شيء في الكون .

هذا ما يعرفه كل الشعراء . وهذا ما يجهله كل الشعراء .

سأعود الى الشعر ، يقول حين يجلس على كرسي التعب . ولكن ، من يضع المساء على مكتب ويأمره بالذبول !. كان حزينا ومرا لهذا السبب « ضَيعتُ زمان الشعر » . ولم يكن يعرف انه صار عاجزا عن كتابة القصيدة ، لانه تحول كله الى قصيدة ، فكيف يقلّد جماله ! .

● من حدد له هذا الموعد مع الموت ، فراح ينظّم الجنازة ، والمراثي ، ويختبر حزن الاصدقاء ، ويسجل صمته على شريط طويل خوفا من الصوت ؟

هو .. هو الذي حدد هذا الموعد .

حجز مكانا في مركبة الرحيل العائد .

أعد الحقائب والشهادة الصحية والهدايا ، وسافر في الدرجة الاولى .

كان الموت مطرا ، طيلة ذلك العام . وصل الفلسطيني الى كل المواسم الدامية ، ولم يصل الى الحصاد . من يجفف هذا الماء الاحمر لتعرف السنبلة انها نضجت ! .

وكمال ، كعادته ، يبشر ويفجّر . حيوي كشظايا في أوج الانفجار . ورقيق كفراشة تداعب شفة ناعمة .

كيف يتزوج الواقع والحلم على يد هذا الكاهن الثائر ؟. ضيّق المسافة فتلاشت ، ورأى ان فلسطين على أهبة الرحيل من القضية الى الوصول ، ومن البندقية الى المحراث .

كان يسكن تفاصيل الواقع وجوهر الحلم ، ويرى البشاعة زائلة .

يقولون : ضحى بالشعر من أجل الواقع . لا . لم يضح بالشعر . كان يمارسه ، يمشيه ، وكان يطبقه .

كيف يطبق الشعر ؟

مر كمال ناصر من هنا .

ليس الشعر نقيض الواقع . هذا ما يعرفه كل الشعراء ، ويجهله كل الشعراء . فلماذا يضيع كمال ناصر في هذه الثغرة الوهمية بين الشعر والواقع . فيها وجد ذاته ، لانها منطقة التوتر والتمرد والتوحد والتجدد .

● دائم الاحساس بالخسارة والاحباط ، ودائم القناعة بالوصول والتجلي .

هذه العتبة بين الحاضر الطاحن والمطحون ، وبين اليوم الذي يتلوه هي التي كانت تهدم كمال ناصر وتبنيه ، تكسره وتحييه . وهذه هي حيوية الشاعر وصلابة الثائر .

لم أنجز شيئا . . لم أنجز شيئا ـ هكذا كان يصرخ في ليله الشخصي .

ان هذا الاحساس بخسارة اليوم هو مصدر طاقة الثوري من أجل ابداع الغد . وهو الذي يدفعه الى المزيد من المحاولة والتجربة والاندفاع . هذه هي خلية الابداع .

لم تكن فلسطين بعيدة عنه . كانت تتسرب فيه وتتشعب من أخمص قدميه الـى خصلات شعره .

ولم تكن فلسطين غريبة فيه ، لان الحالة الفلسطينية الجديدة بين يديه . كان ناطقا باسم هذه الحالة الجديدة . وما تنشره التفاصيل اليومية من انقباض وارتباك ، أحيانا ، كان يزيد من غنى المذاق الفلسطيني المتصاعد من عملية ابداع فلسطين الجديدة .

كان يشتبك بالقناعات المختلفة او المعادية ليبلور قناعته الفلسطينية .

وكان يخرج من كوابيس الليل الفلسطيني بحلم مصفى .

ومن هنا ، كان ناطقا باسم الحلم الفلسطيني الجديد .

● يسبح في التفاصيل ولا يغرق .

يعرف كل مسامير الصليب ، ولكنه يراه في وحدته وكليته . . حديقة فلسطينية .

كان أحد صانعي الاسم الجميل للوطن ، والصورة الودودة للاشياء .

كان يرسم الشعار ويغنيه ، ويفرح به كطفل .

كبر ، ولم يودّع طفولته ، كان يحملها ويسافر ، فلا يتعب ولا يصدأ .

وهل رأيتم حمامة تحمل مسدسا ؟

كمال ناصر مر من هنا .

وكما كان يربّي طفولته ويدللها ، كان يربي استشهاده ويداعبه .

ذهب الموت الى البحر . . وظل البحر أزرق .

وكان كمال يمشي على حبل غسيل معلق على شرفة بعيدة . سقط الحبل ، وظل كمال يمشي على تلك المسافة .

ولم يكن لوركا عربيا تماما ، ولكنه قال :

« اذا مت

فدعوا الشرفة مفتوحة
الطفل يأكل البرتقاله
(من شرفتي أراه)
الفلاح يحصد القمح
(من شرفتي أراه)
اذا مت
فدعوا الشرفة مفتوحة »

● ذهب الموت الى البحر . وظل البحر أزرق .
فتشوا الموجة ، لا تجدوا شيئا .
فتشوا بيوتكم تجدوا كمال ناصر يلعب .
فتشوا قلوبكم تجدوا فيها الفرح الذي ترك .
وتزحزحوا ، قليلا ، عن الوراء تجدوه امامكم يلعب . بماذا يلعب ؟ بدمه يلعب .
ذهب الموت الى البحر ، وظل البحر أزرق .

بلغ الموت سن الرشد في كمال ، فحمله وطار . وكان الرخام والمطر ينهمران بــلا سبب . صار الموت هو الذي يلعب . وبقي كمال ناصر فينا ، كما هو .

هو .. من ؟ .

ما مر من هنا . انه يمر من هنا . فتشوا عيونكم تجدوا ظله البرتقالي . وافتحوا بطن فلسطين تجدوه يتأهب للولادة .

صار جزءا من الوقت . انظروا الى ساعاتكم تعرفوا ان لكم موعدا معه . وانظروا الى ابوابكم ، او الى اي شارع ، تروه يأتي بلا موعد .

لكن ، هذه المرة ، لا يأتي وحده .
نحن من أمامه ، والقتلة من ورائه .
ولا يعود وحده . نحن من ورائه والقتلة من أمامه .
الى أين يعودون ؟

كان واضحا ان القتلة يعودون الى بيوتنا القديمة ــ الجديدة . ولم يكن واضحا ان شهداءنا يعودون . لقد ظلوا فينا ، يسكنوننا ، لنعود معا .

ولم نكن نعرف ان حرب العودة ، وحرب الدفاع عن العناوين والبحر ستندلع الان ، من هذا الدم الذي جعل الشارع غير الشارع ، والمدينة غير المدينة .

ولكننا كنا نعرف ان دم كمال ناصر ومحمد يوسف النجار وكمال عدوان ورفاقهم لن يذهب الى البحر . سيصب فينا لنحترق . وكنا نعرف ان المدينة تحولت ، بصمتهم ، الى وقت . الان تبدأ حدود فلسطين . من كل بيت تبدأ . من كل صدر تبدأ . من كل صرخة، ومن كل قطرة دم . ليس شهداؤنا أكبر من الكلمات . ولكنهم اكثر من الكلمات .

ما أجملنا شهداء .
وما أقبحنا لاجئين ! .

حول كتابات الشهيد كمال عدوان

منير شفيق

لقد كتب الكثير عن مزايا الشهيد كمال عدوان : الثائر والقائد . ولكنني في هذه الدراسة سأستعرض فكره من خلال كتاباته*. ان دراسة ما كتب مسألة هامة يجب أن تولى كل عناية . فالاطروحات التي تناولتها كتاباته ، هي في الجوهر فكر حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، معادة صياغته كموضوعات نظرية ، ولهذا فان كتابات كمال عدوان جزء رئيسي في تراث فتح الفكري ، ولا يمكن لاحد ان يدرس فكر فتح ان لم يدرس كتابات كمال عدوان .

كان كمال عدوان مقلا في الكتابة . ولكن كان حين يكتب يقدم بحثا مكثفا ، غنيا بالموضوعات ، مطروحا بايجاز ، وبتعبيرات واضحة عليها بصماته الخاصة . فهو ذو عقل رياضي يحول دراسته للواقع والظروف الى موضوعات تأخذ شكل معادلات رياضية يبلغ فيها التجريد حدا قريبا من التجريد في الرياضيات ولكنه تجريد يمس مسائل عينية ملموسة على صورة شعارات سياسية .

اعتمد كمال عدوان في منهجه على رصد الواقع المعطى مباشرة ، ثم الدخول مع من حوله بنقاشات طويلة ، قبل أن يحدد رأيا نهائيا . وكان في اثناء ذلك يقلب ، بصدق ، كل الفكر ، وكل المواقف ، مصمما على الا يحمل أفكارا مسبقة ضد أي موقف او راي ، حتى ولو بدا ، في نقاشه ، عكس ذلك . فقد كان يحرص على ان يكون فكره متوقدا جديدا طازجا عند بحث اي موضوع . ومن هنا فان رجلا يحمل مثل هذا المنهج في البحث والتفكير يجب الا يسجل عليه ما كان يطرح من آراء في اثناء مناقشاته وهو في مرحلة استقصاء حالة مستجدة ، وانما يجب ان يسجل عليه ما كتب فقط . لانه كان يفكر ويناقش ، في مجالسه الخاصة ، بصوت عال فعلا . ولكنه ما كان يكتب ، او يطرح في ندوة معدة للنشر ، الا قناعاته الحقيقية التي تكون قد استقرت وتبلورت في ذهنه . ولهذا فانني اعتبر ان فكر كمال عدوان هو ما طرح في كتاباته ، فهي تراثه الفكري . وهي مواقفه وآراؤه .

قبل تناول الموضوعات التي طرقها الشهيد كمال عدوان لا بد من لفت الانتباه الى ان ما بين ايدينا من اعماله لا يغطيها جميعا ، وربما لا يغطي الا بعضا متواضعا منها . لان معظم ما كتب نشر خلوا من توقيعه ، وباسم حركة فتح ، فضلا عن مقالات لم تنشر ، لسبب او لاخر . كما ان هنالك مجموعة كبيرة من رسائله لم تنشر ولم تجمع ، فضلا عن قصة طويلة (٦٠٠ صفحة بخط يده) لم تنشر ايضا . ولكن ، من ناحية اخرى ، ان ما بين أيدينا من نتاجه الفكري يشكل نماذج يمكن أن يسحب عليها ما بقي من نتاجه غير المعروف ، ولا المنشور .

---

* أعد هذا المقال اساسا كمقدمة لكتاب يحتوي على مجموعة كتابات للشهيد كمال عدوان ، سيصدر عن الاعلام الفلسطيني الموحد والاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين .

تاريخ مرحلة ١٩٤٨ ــ ١٩٧٠

كتب كمال عدوان بمناسبة الذكرى الخامسة لانطلاقة الثورة الفلسطينية ، مقالة في مجلة « الثورة الفلسطينية » عدد ٢٢ ــ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ، أرخ فيها للفترة التاريخية الممتدة بين ١٩٤٨ ــ ١٩٧٠ . واتجه تأريخه لتلك الفترة الى تناول الاوضاع من زاوية ارتباطها بالوعي الفلسطيني ومراحل تطور النضال الفلسطيني . لان ما كان يهم كمال من دراسة التاريخ ليس حشد المعلومات وتسلسل الاحداث من ناحية تغطيتها تغطية شاملة ، وانما كان همه تعميم تجارب مرحلة تاريخية تعميما يصل الى حد التجريد النظري المكثف جدا . وهو بهذا يعطي نموذجا لمنهجه ، ويعطي من جهة اخرى صورة دقيقة لرؤية رجال حركة فتح الاوائل للوضع العربي والفلسطيني خلال الفترة التاريخية المذكورة . كما يؤرخ فيها لمولد حركة فتح ومسيرتها محددا الاهداف العامة والشعارات والاجراءات العملية التي طرحت في كل مرحلة من مراحل تطور الوضع . ولهذا فان هذه الوثيقة تعتبر من الوثائق الهامة في ادبيات الثورة الفلسطينية ستظل مرجعا ومادة للتثقيف لاعضاء حركة فتح وأبناء الشعب الفلسطيني الذين يريدون الاستمرار في الكفاح المسلح حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني .

قسم كمال عدوان ، في مقالته آنفة الذكر ، تلك الفترة التاريخية الى ثلاث مراحل رئيسية : (١) مرحلة ١٩٤٨ ــ ١٩٥٦ ، وقد رآها تتميز بادىء الامر بشيوع « الذهول والحيرة » بين صفوف الجماهير ، ثم بانخراط الشباب العربي الفلسطيني في العمل السياسي والحزبي والعقائدي . ويصف وعي الشباب الفلسطيني في تلك المرحلة قائلا « ولو ان وعيها السياسي لم يصل الى مستوى تتحمل فيه مسؤولية تخطيط واف ومكتمل يشكل الكفاح الفلسطيني في سبيل معركة التحرير ، الا انها تفاعلت مع كل الاحداث والتطورات في الارض العربية على طول الوطن العربي ، وشاركت في كثير منها باندفاع على اعتقاد منها أنها جزء من معركتنا في فلسطين الى درجة جعل التزامها العربي الواسع يشغلها عن التزامها الفلسطيني المحدد . حتى اصبح كل تطور او تغيير تصنعه العناصر النشطة في الوطن العربي محطة انتظار تقف عليها تنطلع الى الامل القادم بعدها » . ولكن الشباب العربي الفلسطيني عاد فاكتشف ان ذلك الطريق لم يحقق اغراضه فبدأت ترتسم علامات استفهام كبيرة تتساءل ... الى أين ؟ وهنا وقعت حرب العدوان الثلاثي وبسقوط غزة في أيدي الاحتلال في اكتوبر ١٩٥٦ بدأت المرحلة الثانية : (٢) حيث خيَّم الاحتلال ، وتوجه رصاص العدو الى صدور الشباب السياسي العقائدي بلا تمييز « فولدت من خلال وحدة الرصاص المرحلة الجديدة في التفكير الفلسطيني وارتفعت شعاراتها تنادي بلقاء فلسطيني عريض ... في وحدة وطنية قوية ... من أجل ثورة مسلحة تحرر الارض » .

ويعتبر كمال عدوان هذه المرحلة بداية مسيرة حركة فتح حيث شاهد عام ١٩٥٨ ولادتها من أجل تحقيق الاهداف التالية :

« ١ ــ تحريك الوجود الفلسطيني ... وبعث الشخصية الفلسطينية محليا ودوليا من خلال المقاتل الفلسطيني الصلب العنيد القادر على تحطيم اسطورة المناعة الاسرائيلية .

« ٢ ــ استقطاب الجماهير الفلسطينية ومن خلفها كل الجماهير العربية في طريق الثورة المسلحة وحشدها فيها لتكون قادرة على : (أ) تجميد حركة نمو الوجود الاسرائيلي الصهيوني (ب) تقطيع هذا الوجود (ج) تصفية الدولة رمز الوجود الصهيوني .

« ٣ ــ اعادة بناء الدولة الفلسطينية على الارض الفلسطينية (حرة وديمقراطية) » .

بيد أن كمال عدوان يرى أن ثمة حدثين تاليين هما انفصال الوحدة بين مصر وسوريا

وانتصار ثورة الجزائر اديا الى تكوين اجماع فلسطيني على سلامة الخط الذي طرحته حركة فتح . وهنا تعددت المنظمات بهذا الاتجاه . ورأت فتح في ذلك اتجاها ايجابيا ، غير ان التعدد سرعان ما اصبح اغراقا للساحة بالتنظيمات . الامر الذي دفع حركة فتح من اجل الخروج من هذا المأزق الى العمل باتجاهين :

« (أ) ان تركز جهدا اكبر في تكثيف قواعدها العسكرية لبدء العمليات بأقرب وقت ممكن .

« (ب) أن تحاول تجميع الجهد الفلسطيني في اطار واحد » . (ولهذا ذهبت حركة فتح الى مؤتمر القدس على امل ان يؤدي ميلاد منظمة التحرير الفلسطينية الى تحقيق الوحدة العريضة) .

ويتابع كمال عدوان تقييمه التاريخي فيرى ان المنظمة كان مقررا لها ان تنحرف عن اهدافها . الامر الذي ابرز خطورة أشد من اغراق الساحة بالتنظيمات . فقررت فتح الاسراع في انطلاقة الكفاح المسلح من أجل الخروج من هذا المأزق الجديد . « أي ان تتصدى لمسؤوليتها باستعادة زمام الموقف وان تقفز من مرحلة التنظيم من أجل الثورة الى مرحلة التنظيم من خلال الثورة ، رغم كل الظروف القاسية والصعبة التي تعيشها الحركة ». وبهذا دخلت المرحلة الثالثة : (٣) مرحلة انطلاقة الكفاح المسلح في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ . وقوبل ذلك من أطراف عديدة بحملات تشكيك واتهام ضد المقاتلين من رجال العاصفة ، وبحملات مطاردة وملاحقة واعتقالات لابناء حركة فتح ، اشتركت فيها عدة دول عربية . ويقول كمال عدوان « استطاعت فتح من خلال قتالها اليومي ان تحطم كل التساؤلات الحائرة والعاجزة والمشككة .. وتقفز عنها .. وتثبت أن العمل داخل الارض المحتلة ممكن ... وان اسطورة المناعة الاسرائيلية ما هي الا خرافة تحطمت تحت ضربات العزم الفلسطيني ، واصبح التمرد المسلح واقعا اكبر من ان يحجز عليه » .

وعندئذ بدأت الساحة تشهد اغراقا شديدا بالتنظيمات التي ترفع شعارات القتـال وتصدر البلاغات العسكرية ، وتهدد الوضع من جديد بالتشوش والبلبلة . الامر الذي حدا بفتح الى رفع شعار « اللقاء فوق ارض المعركة » . وانتهى الفصل الاول من هذه المرحلة باندلاعة حرب حزيران واحتلال العدو بقية اجزاء الارض الفلسطينية وسيناء والمرتفعات السورية (الجولان) .

ويتابع كمال عدوان في تحديد سمات المرحلة التي تلت حرب حزيران ١٩٦٧ فيرى الثورة تدخل مرحلة بناء القواعد المقاتلة تحت الاحتلال لاعلان المقاومة المسلحة وتأجيج المقاومة الشعبية . وبعد ان ارسيت الدعائم الاولى لهذا الاتجاه اصبح من الضروري للثورة ان تعمل باتجاه مواز خارج الارض المحتلة لتنتقل « من قاعدة الحماية في سوريا الى قاعدة الارتكاز في الضفة الشرقية حيث المناعة الطبيعية والجماهير المؤيدة لنا ، وقوانا المسلحة الكافية للدفاع والمواجهة ». ولكن ذلك أدى الى اتساع تحرك القوى المضادة للثورة في الاردن حيث شنت اول هجوم لها على قواعد الارتكاز في مخيم الكرامة في شباط ١٩٦٨ . اما في المقابل فقد أخذ التأييد الجماهيري يتعاظم ، وتتوطد قواعـد الارتكاز . الامر الذي دفع العدو الصهيوني ان يقرر تصفية قواعد الارتكاز بنفسه فشن هجوما على مخيم الكرامة في اذار ١٩٦٨ ، حيث باء بالفشل ، خاصة من ناحية تحقيق الهدف السياسي من الهجوم . وكانت النتيجة نصر الكرامة ، ويؤرخ لها كمال عدوان قائلا : « فكانت معركة الكرامة التي هزم فيها العدو بداية مرحلة جديدة من مراحل حربنا الثورية اي انتقلنا من مرحلة اضرب واهرب الى حرب المواجهة المحدودة » .

يمكن اكمال هذا التحليل التاريخي من وجهة نظر كمال عدوان من خلال مقابلة جرت معه تحت عنوان : « فتح : الميلاد والمسيرة ». حديث مع كمال عدوان منشورة في مجلة شؤون فلسطينية — عدد ١٧ — يناير ١٩٧٣ — ص ٤٥ — ٥٧ ، حيث يحدد فترة ١٩٦٨ — ١٩٧٠ في الاردن كما يلي : « في عام ١٩٦٨ واجهنا اول هجوم اردني علينا في الكرامة وفي ٤ تشرين الثاني ١٩٦٨ واجهنا هجوما اردنيا ثانيا في عمان . كان النظـام الاردني يرى في الثورة تناقضه الرئيسي ... وان لم يكن هو تناقض الثورة الرئيسي . لهذا كان تحليلنا ان الصدام حتمي ولكن متى ومن يبدأه ؟ وما هي العوامل التي تحدد متى . وكان رأينا ان كون الصدام حتميا لا يبيح ان يتم الان . ولا بد من تأجيله بـأي ثمن . من اجل هذا أصبح الهدف المرحلي في الاردن هو اقامة حالة توازن بيننا وبـين النظام المعادي لنا ، أو وضع النظام في موضع المتردد بحيث لا يستطيع ان يتخذ قرار الصدام . وقد نجح هذا التكتيك حتى صدام يونيو ١٩٧٠ الذي عكس حالة التوازن بوضوح . الدليل انه في ١٩٦٨ فرض علينا النظام شروطه ، ١٤ شرطا ، وقبلناها ، في ٧٠/٢/١٠ لم يستطع النظام ان يملي علينا شروطه ، ولم نستطع نحن ان نملي عليه شروطنا ، وفي يونيو ١٩٧٠ أملينا نحن شروطنا » . أما بعد يونيو ١٩٧٠ فيحدد كمال عدوان الصورة قائلا : بعد يونيو ومشروع روجرز حدث ارباك كبير للمسيرة ، اذ دخلت عوامل جديدة : فقد انشقت الساحة الاردنية الفلسطينية ... انشقت الساحة الوطنية من حول عبد الناصر وليس من حول حسين ، لان الخلاف لم يكن حول موقف الملك حسين من مشروع روجرز ، ولكن الخلاف كان حول موقف عبد الناصر . فهل تستطيع ان تقول أننا نستطيع تغيير النظام وقد اختلت معادلة القوة بحيث لم نعد نضمن ان التنظيـم الناصري في الجيش سيقف معنا ؟ موازين القوة التي اعدت سلفا لتشكل حالة التوازن، والتي هي بدورها مرحلة للقفز الى مرحلة جديدة، قد اختلت . كان لا بد اذن من مراجعة للحسابات ولا بد من وضع اي تخطيط مقبل ضمن هذا الاطار . بعد تغيير معادلة القوة كنا في حاجة الى وقت لاعادة ترتيب الامور . ولكن اندفاع النظام المهووس لتفجير الموقف بأي شكل ، وضغط المنظمات الاخرى لمواجهة هذا التفجير بالتحدي والمبارزة ، او الحرج من المنظمات الاخرى ، جعل حجم القرار اكبر من حجم القدرة ، وحال دون استثمار اي عامل زمني وجعل المبارزة تتم ضمن ظروف ومعادلة قوى ما بعد مشروع روجرز » .

قد تكون هنالك ملحوظات على هذا التحليل التاريخي للفترة ١٩٤٨ — ١٩٧٠ ، وقد تكون هذه الفترة التاريخية ، وهي كذلك ، بحاجة الى دراسة تفصيلية مدققة . ولكن موضوعات كمال عدوان حولها تحظى على اهمية كبيرة ، ولا بد من أن تكون في جوهرها دعامة رئيسية لتلك الدراسة التفصيلية المدققة . فكمال عدوان لم يهدف الى أن يكون مؤرخا وانما كان يريد ان يطرح تأريخ تلك المرحلة باتجاه تكوين وعي ثوري للمقاتلين من أجل تحرير فلسطين مدعوما بتنظير تجربة تاريخية لا يمكن الاستغناء عنها سواء بالنسبة للوعي او بالنسبة للثورة الفلسطينية والعربية .

حتمية الثـورة

كان كمال عدوان في حياته العملية ، وكتاباته ، يعطي اهمية عظيمة لدور العامل الذاتي في الثورة ، للقرار السياسي ، للمبادرة ، الى حد قد يتوهم المرء معه انه ينظر الى الثورة كفعل ارادي فقط ، ولا يعطي اهمية للعوامل الموضوعية. ولكن هذه المسألة كانت واضحة له ، وقد عبر عنها ، بشكل لا يقود الى مثل ذلك الوهم . ففي المقـالة المنشورة في مجلة الثورة الفلسطينية (العدد ٢٢ ، يناير ١٩٧٠) ، كتب يقول : « نحن نعرف ان البعض كان يرى في الثورة نوعا من المغامرة ولا يستطيع ان يتصور دور هذه

الثورة في معركة التحرير . . . وما هي امكاناتها ». ويتابع قائلا في الرد على الذين يرون في الثورة نوعا من المغامرة ، قائلا: « نقطة البداية كما نراها نحن . . . ان موضوع الثورة ، بشكل مطلق ، لا خيار لنا فيه ، فهي طريق يفرضها منطق الحوادث والتاريخ . . الذي يسير جيوش الاحتلال والغزو في الماضي ويسير خلفها انتفاضات الثوار المتكررة يؤكد انه لا بد أن يكون في بلدنا ثورة . . . تأتي لتصحح هذا الوضع الشاذ مهما تأخرت عن موعدها . هذا أمر طبيعي يفرض نفسه كحقيقة تاريخية مصيرية لا نقبل حتى ان تناقش . . . ولا تبرر لنا أن نستسلم مزيدا من الوقت بعد هذه الفترة من الاستسلام . . . بقدر ما تملي علينا ان نتحمل مسؤولياتنا بين الشعوب التي تتطلع الى حياة افضل . . وكما كانت ثورات الاحرار في آسيا وافريقيا ستكون ثورتنا قوية ثابتة تفرض وجودها علينا وعلى العالم معنا كما هو التطور الطبيعي للتاريخ . . . ولا نملك بعد هذا الا ان نستجيب لارادة الاله التي يعبر عنها هذا التاريخ ». ثم يعود الى النظر للثورة من هذه الزاوية ايضا في « فتح : الميلاد والمسيرة . حديث مع كمال عدوان » — (شؤون فلسطينية ، عدد ١٧ ، يناير ١٩٧٣) فيستنتج قائلا : « الثورة اذن حتمية تاريخية ،وليست مجرد ارادة فرد او مجموعة من الافراد . . . ارادة الافراد هنا هي الاستجابة لهذه الحتمية التاريخية » . أما من ناحية تقييمه لدور ارادة الافراد فقد وضعها هي الاخرى ضمن فهم علمي للظروف التي يمكن التحرك من خلالها ، وكان لديه مقياس يسميه « اقامة التوازن بين القرار والقدرة » لانه كان يرى ان القرار اذا انفصل عن القدرة المتاحة عند اتخاذ القرار يصبح مغامرة وخطأ لهذا كان يصر على التوازن بين القرار والقدرة . ويصر على مراعاة أربعة شروط : « ١ — ادراك شامل للظروف وعناصر القوى الفاعلة فيها على جانبي الصورة . ٢ — وضوح الرؤيا والتصور لما تريده وسط الظروف ٣ — تخطيط سليم للوسيلة من واقع هذا التصور . ٤ — ضمانات لوفاء الوسيلة باحتياجات الغرض » (فتح في عيدها الخامس — الثورة الفلسطينية عدد ٢٢ ص ١١) . ويقول في « آخر حديث للشهيد كمال عدوان » ، المنشور في شؤون فلسطينية — عدد ٢١ ، تحكم الصراع الخصائص الاساسية التي نتمايز بها اطرافه من هو الذي يريد ان يقود الصراع، ويحاول ان يستثمر امكانياته . ففي المجال الاسرائيلي يحاولون أن يستثمروا خصائصهم ومميزاتهم . ونحن أيضا مطلوب منا أن نستثمر خصائصنا ومميزاتنا ، ولهذا فالطرف الذي يستطيع ان يفرض على الاخر شكل الصراع ، بالتأكيد ، سوف يضمن نتائج الصراع » (ص ٢٩ ، ٣٠) . ويلاحظ هنا فورا ان كمال عدوان وهو يرى الثورة حتمية تاريخية وليست ارادة افراد او مغامرة ، يعطي اهمية خاصة لارادة الافراد في ادارة الصراع وفي التعبير عن الحتمية التاريخية . فهو لا يفهم الحتمية التاريخية فهما ميكانيكيا جامدا بمعنى ان لا دور لارادة الافراد فيها ، او بالاحرى ، للعامل الذاتي . كما أنه لا يرى العامل الذاتي منفلتا من الظروف المعطاة . ولكنه يرفض الاستسلام للظروف المعطاة . لان هنالك الدور الذي يجب أن يلعبه العامل الذاتي في احداث التغيير في الظروف المعطاة . يقول : « بالنسبة لنا ليس هناك شيء اسمه التسليم بالامر الواقع والا لما وجدت فتح . فتح في البداية كانت مائة او مائة وخمسين مناضلا ، ماذا كان يمكننا ان نفعل . ما كنا نسلم بالامر الواقع ، كنا نراهن على ما يجب احداثه لا على ما يمكن احداثه . ما يمكن احداثه ضمن امر واقع شيء ، وما يجب احداثه شيء اخر . (شؤون فلسطينية ، يناير ، ١٩٧٣ — عدد ١٧ ، ص ٤٩) . ان كمال عدوان هنا يطرح قضية نظرية ترد على اولئك الذين يستسلمون لتوازن القوى القائم كما يرد على الذين يفكرون في الواقع من وجهة نظر ما يمكن احداثه ضمن المعطيات القائمة لا ما يجب احداثه ضمن المعطيات القائمة . أي انه يرد على منهج التفكير الاصلاحي . وقد اوضح كمال عدوان هذه المسألة الهامة في مقالته « لا بد من اسقاط عقل التسوية » ، المنشور في مجلة

« فتح » الداخلية (— العدد الاول — العام التاسع — اول كانون الثاني ١٩٧٣ — ص ١٤) ، بقولـه : « **ان العمل الثوري لا بد وان يكون مستندا الى تحليل علمي للواقـع الملموس • والثائر يحلل الواقع ليس بقصد ترتيب الاوضاع على أساس معادلة القوى السائـدة بل من أجل تغيير هذه المعادلة عن طريق فهمه لحركة التاريخ وموازنـات القوى الحقيقية الفاعلة فيه وبناء الاداة التنظيمية المتلكة لارادة القتال القادرة علـى الفعل في الواقع وتغييره** ».وعندما ووجه كمال بالذين يتهمون مثل هذا التفكير باللاواقعية رد قائلاً : « ان الكثيرين يتحدثون عن الواقع والواقعية ، ويطالبوننا بها . ولهؤلاء نقول اننا واقعيون ، ولكن واقعيتنا غير واقعيتهم . هم يرون الواقع مصدرا للتفكير ومنطلقا له فيقعون في اطار العجز ، ويتخاذلون ، نحن نرى في الواقع موضوعا للتفكير ، نفهمه، ونحلله ، لننفعل فيه ، لنغيره ، بخلق حقائق جديدة . والفرق بين العقليتين هو الفرق بين الحركة والجمود . بين التمرد والاستسلام . فرق بين ما يجب ان يكون ، وما يمكن ان يكون » . (شؤون فلسطينية ، يناير ١٩٧٣ — ص ٥٦) .

نظرية الثورة

اذا كان القائد الشهيد كمال عدوان ينظر الى الثورة كحتمية تاريخية ، ويعتبر دور العامل الذاتي مهما جدا باعتباره الاستجابة لهذه الحتمية التاريخية ، فان هذه المسألة بالنسبة له لا تنتهي عند هذا التحديد ، وانما يندفع بهـا الى امام بحيث يعتبر قيـام العامل الذاتي بدوره يشترط اكتشاف نظرية الثورة . ولهذا فهو يطرح السؤال : كيف نعرف نظرية ثورة ما ؟ . ويجيب : « **نظرية أي ثورة هي رؤيتها لواقعها وللقوانـين الخاصة التي تحكم حركة هذا الواقع ، ولمجموع التأثيرات المتبادلة بين هذا الواقـع والواقع المحيط به ، ثم اسلوبها للعمل على ضوء ذلك من أجل التأثير في هـذا الواقع لتغييره الى واقع ارقى ، وتصور عام لصورة ذلك الواقع الارقى الذي تريده الثورة** » . ثم يطرح تطبيقا محددا على هذا المنهج فيقول : « لقد طرحنا التساؤلات الخمسة : ماذا نريد ؟ وكيف .. ؟ وبمن ... ؟ ومن أين ... ؟ ومتى .. ومن خلال الاجابة على هذه التساؤلات توصلنا الى العناصر الاساسية لنظرية فتح : الهدف ، الاستراتيجية ، الادارة (شكلها وطبيعتها) ثم قاعدة انطلاقها (وهذا له اهمية خاصة لدينا نظـرا لخصوصية وضع الثورة الفلسطينية) ، اننا نريد التحرير ... وسيلتنا اليه هي تحريك الوجود الفلسطيني وبعث الشخصية الفلسطينية محليا ودوليـا من خلال المقـاتل الفلسطيني الصلب العنيد القادر على تحطيم اسطورة المناعة الاسرائيلية ... وذلك يتطلب طليعة قادرة على استقطاب الجماهير الفلسطينية ومن خلفها كـل الجماهير العربية في طريق الثورة المسلحة وحشدها فيها لتكون قادرة بها على : (أ) تجميد حركة نمو الوجود الاسرائيلي الصهيوني . (ب) تقطيع هذا الوجود . (ج) تصفية الدولة رمز هذا الوجود ، (د) اعادة بناء الدولة الفلسطينية على الارض الفلسطينية دولـة حرة ديمقراطية . من التساؤلات الخمسة ومن الاجابة عليها ، تكونت نظرية فتح، وهكذا فان نظرية فتح هي وليدة حاجة النضال الفلسطيني ، فلسطينيا وعربيا ». (شؤون فلسطينية — عدد ١٧ —الميلاد والمسيرة — ص ٤٧ — ٤٨) . يلاحظ فورا هنا ان كمال كان رجل تطبيق عملي ، فهو لهذا يدرك أهمية النظرية بالنسبة للممارسة ان الذي يؤكـد على ضرورة اكتشاف نظرية الثورة للبلد المعني ، في المرحلة التاريخية المحددة ،في الظروف المعطاة ، لا يمكن الا ان يكون رجل ممارسة ، وذلك ، لانه يريد ان يمارس فهو يشدد على معرفة نظرية الممارسة . ومن هنا لم يطرح كمال عدوان كل ذلك في موضوعات نظرية عامة وانما انتقل فورا لسحبها على أرض الواقع ، فاعطى مثلا حيا تطبيقيا يحمل اصالة ظاهرة . ولهذا يمكن ان يجد المرء فرقا واضحا بين المنهج الذي يطبقه مناضـل

خلاق ، وبين المنهج الذي يطبقه المقلدون الجامدون . وفي هذا المجال يقول كمال عدوان: « كثيرون يخلطون بين اداة التحليل ونظرية العمل ، هذا الخلط يقودهم الى ادعاء موقف عقائدي دون أن تكون لديهم القدرة على الربط بين اداة التحليل والواقع الخاص ، هذا الربط الذي يشكل في النتيجة نظرية العمل . هناك فارق كبير بين الذي يستخدم اداة التحليل للوصول الى نظرية عمل ، والذي يناضل من أجل اداة التحليل نفسها كهدف بحد ذاته ، ان الاغراق الثقافي الذي شهدته الساحة الفلسطينية ــ العربية منذ عام ١٩٦٨ في اتجاه خاص في شكل نقاش لسلسلة ثورات عالمية ناجحة يمكن أن يشكل بالنسبة لنا دليل تجربة تعاوننا على تفادي اخطاء وتوضيح رؤية ، ولكنها لا يجوز ان تكون بالنسبة لنا وصفة طبيب او معادلة جاهزة للنسخ لا يمكن مناقشتها . كما قال لنا رفاقنا الفياتناميون في لقائنا معهم : « نحن لنا واقع ،ومن خلال هذا الواقع نحن لنا خط » . وفي فلسطين نحن لنا واقع ، ولهذا الواقع خصوصيات لا يمكن الا ان تفرض نفسها على مسيرتنا ، وعلى طبيعة خطنا » . (المصدر السابق ص ٤٨) .

منطلقات الثورة الفلسطينية

ان كل ما كتبه كمال عدوان جاء متماسكا يركز على تكثيف واغناء خمسة منطلقات حددها كقواعد اساسية تنطلق منها الثورة الفلسطينية في مواقفها ومؤسساتها ، وهي ، في الاساس ، منطلقات حركة فتح . وقد صاغها كما يلي :

« اولا : ان اسرائيل قاعدة للاستعمار في المنطقة ، تستنزف جهدها وطاقتها ، وتهدد مستقبل التطور والتغيير فيها ، ولهذا فان الامن القومي يفرض تصفية وجود هذه القاعدة من المنطقة نهائيا لطبيعتها الاستعمارية والعدوانية .

ثانيا : ان الكفاح المسلح من خلال حرب الشعب طويلة الامد هو اسلوب المواجهة الوحيد ، الذي يستطيع ان يستثمر المزايا والخصائص المتوفرة في المنطقة العربية ، وتعبئة الجماهير وحشدها وتمليكها القوة من خلال القتال لتحقيق الانتصار . وهذا يعني اعادة صياغة الانسان العربي .

ثالثا : ان بروز الشخصية الفلسطينية من خلال المقاتل الفلسطيني ، باعتبار الشعب الفلسطيني يمثل حدية التناقض على ساحة الصراع مع الاحتلال الصهيوني ، يشكل ضرورة أساسية لمواجهة الجهد المكثف المضاد الذي يحاول تغييب الشعب الفلسطيني من ساحات الصراع المحلي والدولي . ولهذا فان ابراز الشخصية الفلسطينية من خلال المقاتل الفلسطيني يعيد للقضية ، في الاطار الدولي ، حجمها ووجهها الحقيقي .

رابعا : الشعب الفلسطيني يظل الطليعة لحركة التحرير العربية من اجل تحرير فلسطين .

خامسا :استقلالية الثورة الفلسطينية ، ورفض الوصاية العربية الرسمية شرطان اساسيان للاحتفاظ بالهوية المميزة للثورة عن واقع الانظمة الرسمي مع كل ما يقوده هذا التمايز من حركة التغيير في المنطقة » . (شؤون فلسطينية ، عدد ٢١ ، ص ٣٢) .

لكي ندرك منطلقات الثورة الفلسطينية كما عبر عنها كمال عدوان لا بد من مرور سريع بالخلفية التي تقف وراء الطرح .. انها مسألة اولوية التركيز على قضية تحرير فلسطين ، فهو لا يراها مسألة فلسطينية اقليمية وانما يراها قضية قومية عربية تشكل الطريق الى تحقيق اهداف الثورة العربية ، يقول « قضية النضال العربي من اجل تحرير فلسطين هذه النقطة التي يلومنا بها البعض هي نقطة قوتنا . هذه النقطة هي بداية المدخل القومي للثورة الفلسطينية . كيف ؟ نحن نعتقد بضرورة توظيف كل الجهد العربي لحساب التحرير . كيف يتم هذا ؟ نحن ننادي بالتغيير ننادي بالوحدة . **ولكن لا بد لاية حركة تحرير ولا بد لاية وحدة من قضية ، قضية واحدة ، ولا بد لهذه القضية من طليعة تتبناها** . لو استعرضنا كافة قضايا الوطن العربي المرشحة للنضال من حولها ،

فسنجد هناك قضايا كثيرة متعددة ، في العراق ، في سوريا ، في عدن ، في الخليج ، في مصر ، في الجزائر ، في لبنان . **ولكن ما هي القضية الحدية التي تمثل حدية الصراع ، والقضية المؤهلة لاستقطاب الجميع ؟** » ويجيب « ان قضية فلسطين هي قضية التناقض الحدي مع الاستعمار ومع اسرائيل ، وهي المرشحة لاستقطاب كافة القوى المناضلة ، وكافة الطلائع العربية المناضلة ، وكذلك فان اي عمل ، اي تحرك ، اي بناء ، أي اداة، لا بد لها من بداية ، ولا تستطيع ان تنتظر لتنادي وتستنجد وتستحث اطرافا اخرى لتبدا بدلا منها . لا بد من جهة ما معينة تقوم بالتصدي لهذه المسؤولية ، وتقود النضال من اجلها ، وتشكل محور الاستقطاب . **الجهة المرشحة لهذا هي الجهة ذات التماس المباشر مع هذه القضية بداية . ولكن هذا لا يوقف العمل عندها . ولا يحصر اطاره فيها . ولكنه يعطيها وضع الملزم بحكم تماسه المباشر مع القضية الحدية .** من هنا تتوفر القضية ، تتوفر الطليعة ، وتدور حركة النضال ، وتنعكس اثارها على الجماهير العربية ، فتفرز حالة جماهيرية تتطلع الى التغيير من خلال الطلائع المحلية في كل قطر . ويتم لقاء كافة هذه الطلائع ، حول قضية واحدة ، **في معركة واحدة . فيتم من خلال توحيد للجهد في شكل توحيد للاداة ، بداية من أجل ما نطمح اليه جميعا ،** الوحدة العربية » (شؤون فلسطينية عدد ٢١ ص ٣٨) .

ان هذا الطرح يشكل في جوهره اساسا لكل خلاف نظري وسياسي دار ويدور وسيدور في الساحة الفلسطينية ، وفي الوطن العربي، بين النظرية الثورية في بلادنا وبين النظرية الاصلاحية في المجال الاقتصادي والاقليمي من جهة ، وكذلك بين نظرية التسوية في المجال السياسي والقومي من جهة اخرى . ان الاتجاه الذي يعمل له العدو الصهيوني والامبرياليات العالمية وتلتقي معهما ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، كل القوى التي لها مصلحة في ابقاء التجزئة العربية ، هو القضاء على هذه النظرية الثورية من خلال انهاء حالة الصراع المسلح مع العدو الصهيوني ، وتكريس عقلية التسوية معه ، بأي شكل كانت .

وهنا نجد أنفسنا مع كمال عدوان وهو يحدد وجود نظريتين في تناول موضوع « التناقض الحدي ، بين اطراف الصراع في المنطقة » . وهما « نظرية المجابهة الرسمية، ونظرية المجابهة الجماهيرية التي تطرحها الثورة الفلسطينية » . ويتقدم في مناقشة النظريتين قائلا : « فمن جانبنا ان الوجود الاسرائيلي بالنسبة لنا يشكل حالتين : حالة احتلال استيطاني : انتزاع الارض وافراغها ، والحالة الثانية هي : حالة القاعدة . القاعدة لقوى الاستعمار في المنطقة التي نريد ان تستهلك امكانيات المنطقة ، ان تستنزف امكانيات المنطقة ، وان تشل امكانيات الفعل في اتجاه التطور والتغيير »،... « ومن هنا طرحت النظريتان المختلفتان في المنطقة العربية النظرية التي تقول بتنفيذ قرارات ١٩٤٨ والنظرية التي تقول تصفية الوجود الصهيوني . النظرية الاولى تمثل نظرية الامن الاقليمي ، أي كل دولة عربية تبحث عن أمنها ضمن حدودها ، وترفع فلسطين من الحساب . المهم ان تصل للاتفاق مع الوجود الصهيوني على ترتيبات أمنية لحدودها ، في الاطار الاقليمي . أما النظرية الثانية فتمثل نظرية الامن القومي ، والتي تتبناها الثورة الفلسطينية ، والتي تقول : ان الوجود الاسرائيلي على الارض العربية مهما تضاءل حجمه ، لا يقاس بالكيلومترات ، ولكنه يقاس بوجود القاعدة على أي حجم كان . أي تظل قاعدة مؤهلة لاستنفاذ جهد المنطقة ، وقاعدة لتهديدها ، وللاستعمال ضدها عند الحاجة . من هنا ، حتى تستطيع ان توفر الامن القومي للمواطن العربي لا بد ان يصفى هذا الوجود . هنا نقطة البداية في الخلاف بين نظريتي المجابهة . نظرية الامن القومي التي تدعو لتحرير كامل الارض الفلسطينية بتصفية هذه القاعدة ، ونظرية الامن

الاقليمي التي تدعو للتفاهم مع الاحتلال ، مهما أخذ هذا التفاهم من تسميات، «تسوية»»، « قرار ١٩٤٨ » ، « مشروع روجرز » ، « قرارات الامم المتحدة » ، « قرار مجلس الامن ٢٤٢ » ، « قرار التقسيم » ، ليس المهم التسمية . النتيجة التفاهم مع الاحتلال ، ونعني الاعتراف به » . (شؤون فلسطينية ، عدد ٢١ ، ص ٢٩ ، آخر حديث للشهيد كمال عدوان) .

ان كمال عدوان حين يطرح كل ذلك يدعمه بتحليل مسهب للسمات الخاصة على جانبي الجبهتين اللتين تمثلان حدية الصراع بين طرفي التناقض ، ليؤكد صحة استراتيجية وتكتيك حرب الشعب طويلة الامد في مواجهة العدو (راجع المقالات : « فتح : الميلاد والمسيرة » ، « آخر حديث للشهيد كمال عدوان » ، « فتح في عيدها الخامس ») . وليؤكد على ضرورة محاربة كل الحلول المطروحة التي لا تتضمن تصفية الكيان الصهيوني ، واقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية على كامل التراب الفلسطيني . اي انه كان ضد التسويات السياسية ، فقد كتب قائلا : « الثورة الفلسطينية تضع معادلة : استمرار الثورة يعني لا تسوية ، تمرير التسوية يعني تصفية الثورة الفلسطينية » . وكان يرى في اتجاهات التسويات المطروحة خطرا محدقا بالشعب العربي الفلسطيني : « قرار الحرب لا يكفي ولكن المطلوب تحديد هوية الحرب . في حزيران اسرائيل احتلت الارض ولكن ولدت ارادة شعبنا . واليوم يريدون ان يعيدوا ارضا ليعيدوا شعبنا الى الموت . هذا هو الهدف » . (شؤون فلسطينية ، عدد ٢١ ، ص ٣٤) . وقد رد الشهيد كمال عدوان على الذين هاجموه لرفضه التسويات السياسية واصراره على الكفاح المسلح لتصفية الكيان الصهيوني لاقامة الدولة الديمقراطية ، قائلا : « يرون في ذلك بعدا عن الواقعية ؟ لا .. ان الوجود الصهيوني برغم تفوقه الان جزء من ظاهرة قديمة تحتضر ، ظاهرة الامبريالية والاستعمار .. مشروعنا للدولة الديمقراطية هو جزء من ظاهرة نامية ، جزء من المستقبل .. المستقبل كحتمية تاريخية هو لحركة التحرر العربي .. ودولتنا المتحررة الديمقراطية هي جزء من حركة التحرر العربي .. لذلك نحن نربطها بالنضال المتنامي للجماهير العربية ، ولا يمكن ابدا ان نربطها بأية عملية تسوية آنية فمثل هذه التسوية ستكون ولا شك لصالح من يملك فرض شروطها » . (شؤون فلسطينية ، عدد ١٧ ، ص ٥٦) .

في الواقع ، ان الذي يميز كمال عدوان ، بصورة خاصة ، بالنسبة لرفض التسويات، لا يتأتى من مهاجمته لمختلف أشكال الحلول التي لا تتضمن تصفية الكيان الصهيوني فحسب ، وانما أيضا ، لكونه ، اول من ركز ، على ضرورة اسقاط عقل التسوية ، او عقلية التسوية ، وهذه مسألة لم يكن الكثيرون يلتفتون اليها . أما كمال فقد كان يعتبر ان جذر الخطر كامن في عقلية البحث عن تسوية اكثر مما هو كامن في ما هو مطروح من تسويات . لماذا ؟ لانه كان يرى ان اخطار تلك المشاريع (التسويات) قابلة للدحر او هي غير ممكنة التطبيق في تلك الظروف المعطاة . ولهذا كان خوفه من عقلية التسوية لانها الاساس الذي يدفع الى الترامي على التسويات السياسية . الامر الذي يجعل اسقاط تسوية ما ، ابعادا لخطر محدد ، ولكنه لا يعني اسقاطا لاساس العلة وهي عقلية التسوية . في حين اذا تم التركيز على اسقاط عقلية التسوية يصبح من تحصيل الحاصل سقوط التسويات ليس المطروحة في ذلك الوقت ، فحسب ، وانما ايضا ، ما يمكن أن يتولد عنها ، خاصة ، عند تبدل بعض الظروف التي قد تكون اكثر مؤاتاة . لذا كتب في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ ، في مجلة « فتح » الداخلية مقالا تحت عنوان « لا بد من اسقاط عقل التسوية » ختمها قائلا : « ان الجهد الرئيسي للثورة الفلسطينية يجب ان يتركز الان في العمل لاسقاط العقل العربي الذي يقول بتصفية

الاحتلال بالتفاهم او الاتفاق معه ، والعودة بالعقل العربي من اطار التسوية الى اجواء القتال . ولا بد من خلق سلسلة الحقائق القتالية التي تقود الى هذا ، وتجعله واقعا لا خيار منه ». ووضع في المقال نفسه شعارا قال فيه « لقد حاول اعداء الثورة الفلسطينية وما زالوا ، العمل على اخراج العقل الفلسطيني من اطار الثورة الى متاهات البدائل». ولهذا كان يرى في القتال المسلح جوهرا لا يجوز بأي شكل من الاشكال التخلي عنه ، ويكفي ان تخنق ارادة القتال عند الانسان الفلسطيني حتى يكون ذلك هو الطريق لتصفية الوجود الفلسطيني : يقول : « الوجود الفلسطيني يعني قدرة الفعل الفلسطيني، وقدرة الفعل هي ارادة القتال ، ارادة الرفض والتغييرات عند الانسان الفلسطيني . ومن هنا فان الذين يقفون في الصف المعادي يدركون ان تصفية الوجود الفلسطيني مرهون بخنق ارادة القتال عند الانسان الفلسطيني » .

وبعد ، فان هذا المرور السريع باستعراض افكار الشهيد كمال عدوان من خلال كتاباته ، يشعرنا كم نحن بحاجة ، في هذه الظروف ، ولامد غير قصير قادم ، الى دراسة هذه الكتابات والتعلم منها . من أجل المحافظة على اتجاه الثورة الفلسطينية حتى التحرير الكامل . هذه الثورة التى عاش كمال عدوان من أجلها واستشهد في سبيلها .

صدر حديثا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

كتـــاب

العمل والعمال في المخيم الفلسطيني

بحث ميداني عن مخيم تل الزعتر

بقـــلم

هـــاني منـــدس

والكتاب عبارة عن جهد ميداني قام به المؤلف بي نحو السنتين في المخيم وخارجه حتى خرج بمعلومات وافية تعطينا صورة واضحة عن وضع الفلسطينيين في مخيم تل الزعتر (والذي بدوره يعتبر عينة عن وضع جميع المخيمات في لبنان) . وقد قسم الكاتب مادة الكتاب الى ستة فصول تناولت بالعرض والتحليل (١) السكان والاوضاع الاجتماعية العامة في المخيم . (٢) حجم المؤسسات (٣) توزع العمال الفلسطينيين حسب القطاعات والمهن (٤) القوى العاملة . (٥) قوانين معاملة الفلسطينيين « كأجانب » في لبنان . (٦) السمات العامــة لمهوم واقع العمل النقابي الفلسطيني .

٢١٥ صفحة من القطع الكبير بثماني ليرات لبنانية .
تضاف اليها أجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٫٥٠ ق.ل. في اوروبة ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

أطلبه من مركز الابحاث ــ قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

اراد ان يكون رجلا ... وشريفا

بيان نويهض الحوت

ما اكثر ما كان يحب ، وما أقل ما كان لا يحب .

وقد كان مما لا يحب ... المواعيد .

كان حقا لا يحبها ، ان اعطى صديقا موعدا ، ربما أخلف. كان يحب الزيارات المفاجئة الخاطفة ، وكان لا يترك بيت صديق ، الا ويترك وراءه اطياف ابتسامات على الوجوه .

ولما كان موعده الاكبر ، كان الموعد كما هو يحب المواعيد ، من غير موعد ، فقد جاؤوه في منتصف الليل ، وفي زيارة مفاجئة خاطفة وتركوا رصاصا ودخانا ودماء .

واخذ الهاتف في منزله يرن بالحاح . حتى الثالثة صباحا والهاتف يزعق . اكثر من صديق اتصل بالرقم السري الجديد ليطمئن عليه ، وما أجاب . فقال كل صديق لنفسه — والمدينة متشحة بالظلام وأصداء الرصاص والرعب — لم ينم كمال ناصر في بيته الليلة .

ما مر في بال واحد منهم انه ملقى على أرض بيته ، ما مر في بال واحد منهم انه ما عاد يسمع الهاتف ، وما عاد يبتسم .

خيالات الشر تتراءى للانسان دوما في لحظات القلق العادي ، فكيف يحدث — والقلق عظيم — عكس ما يمكن ان يحدث .

كيف يهدىء كل صديق من روع نفسه — وهو قابع في ركن بيته — ويقول : الحمد لله لم ينم في بيته الليلة .

الرصاص ووجهه ... الصمت المطبق وعيناه ... النهاية المرعبة وابتسامته ... الفوضى الدامية وجسده ... أبعد من كل خيال .

كثيرا ما سمعنا اناسا تقول ، لا نصدق ان فلانا قد مات . ثم يمر الزمن ويصدق الناس .

اما هو ، فما من احد يصدق حتى اليوم — انه مات .

يمر ببالنا في لحظات كثيرة عندما يقرع الباب على غير ميعاد ، ربما كان كمال ناصر . يمر ببالنا في ساعات جدل كثيرة ، لو كان كمال ناصر معنا ، لكان يقول كذا .. لكان يسخر هكذا .

اقوال واقوال اخترعناها ونسبناها اليه منذ ان قالوا لنا انه مات .

نحن كبشر ، نعجز عن تفسير الموت . كل ما نستطيعه ان نحاول الابتعاد عن الكفر، ان نحاول أن نصدق ، وان نهز رؤوسنا مؤمنين او مدعين الايمان .

ولكننا — وامامنا ذكراه الغالية — كيف لا نحبه بعد أن مات اكثر . كيف لا ، وهو لم يدعنا لانفسنا بعد ، لم يتركنا وحدنا بعد ، لنشعر حقا انه مات ، لنحزن حقا .

كان روحا غنية لم نزل نشعر بدفئها من حولنا .

كان حبا للحياة عظيما . كان اخلاصا للانسان عميقا .

كان ايمانا بشعبه وامته لا يتزعزع . كانت ابتسامته ، كان وجوده صورة من صور الوطن .

كثيرون يحدثونك عن الوطن . كثيرون يذكرونك احيانا بالوطن ، بالوطن الدامي المعذب ، بالوطن المشرد الذي نعشقه ، وكلما طال التشرد كلما عشقناه اكثر .

واما هو ، فقد كان حديثه عن التشرد واللجوء والالم والضياع ، يقودك من حيث لا تدري الى ان تحلم بالربيع ، ربيع الليمون ، ربيع فلسطين .

وهذا هو كمال ناصر .

قمة في نفسه على جبل من المعاناة والتمزق .

وقمة اخرى من الامل والايمان العظيم بوطن يستعاد ، بامة عربية واحدة ، تزول فيها الحدود ، تزول قبعة الشرطي المستبد ، ترتفع الهامات المحنية ، ويعبق الافق بنسائم الحرية .

وهذا هو كمال ناصر .

شاعر اصيل ، يتدفق من الاحساس شاعرية فياضة ، فيعشق القلم لفترة من فترات تشرده ، ثم ينسى شعره ، ينسى حبه ، امام جبال الهموم ، امام شعبه المعذب ، فيقتحم العمل السياسي ، يقتحم الغرف المقفلة .

منذ أن كان شابا يافعا وهو يقتحم الغرف المقفلة ، يقتحمها كما يعرف ويشعر ويريد، متخطيا اصول المقترحات السياسية ، واصول الغرف المقفلة .

هو يعرف تلك الاصول ، ولكنه لا يعترف بها ولا يستطيع مجاراتها .

هو يغرق في المبادىء والشعارات ، بينما غيره يغرق في الاحداث اليومية ، وفي الاحاديث اليومية ، فيشعر احيانا بشيء من الغربة ، ويشعرون هم بالدهشة، ويقولون: لا يمكن لكمال ناصر ان يكون سياسيا . وبعضهم يتساءل : اما يكفيه ان يكون شاعرا .

وحده كان يملك الحق ليقرر ماذا يريد ، وماذا كان يمكن ان يكون .

ما اراد كمال ناصر يوما ان يكون المتنبي او شبه المتنبي ، ما اراد ان يكون شاعر العصر .

وما اراد يوما أن يكون غيفارا . قالها بصدق ولكل الناس ، انا لست غيفارا ، انا كمال بطرس ناصر .

لقد أراد شيئا واحدا .

أراد ان يكون رجلا يناضل في سبيل امته وفي سبيل مبادئه بمقدار ما يستطيع . واراد ان يكون شريفا .

لا يدعي النبوءة ولا البطولة .

لا يخوض اوحالا ومستنقعات كي يصل الى ارتفاع هضبة .

حقا ، لقد اراد شيئا واحدا ، ان يكون رجلا مناضلا بمقدار ما يستطيع . وقد برهن حقا على ما أراد . فانتهى الجدال من حول الشاعر والسياسي، او السياسي والشاعر .

وحكم الموت سيد الاحكام .

مات الرجل كمال ناصر .

مات كما يموت الرجال ، اغلى الرجال ... أصدق الرجال ... وأندر الرجال .

الدكتور باسل الكبيسي :

ذلك الفارس الذي لم يترجل

الدكتور أسعد عبد الرحمن

الاذاعة ووكالات الانباء في ٦/٤/١٩٧٤ : « أطلق مجهولان اليوم النار في أحد شوارع باريس على استاذ عراقي هو الدكتور باسل الكبيسي فأردياه قتيلا ... ويعتقد ان للحادث دوافع سياسية » .

وعرفت كيف يكون عليه طعم الموت في الربيع . كيف يطحن ألم الوعي بموت الاعزاء خلايا الدماغ وهي تدرك ، مع نعيق بومة معشعشة في وكالة انباء او مذياع ، أن من دوما شعّت عيناه بحب لا متناه للحياة قد تضي بعد ان مزقت جسده تسع رصاصات أطلقت ... في الظلام ... ومن الخلف !

وينتصب السؤال ، بعد مضي عام كامل ، عملاقا مقهقها : أيهما أكثر مرارة ... الموت ... أم طعمه في حلق الصديق ؟

والى ان نلتقي رصاصة الرحمة ، او تلتقينا ، سنبقى نتساءل :

لماذا الحديث ... بالذات ... عن طعم الموت في الربيع ؟

اله نكهة مختلفة عن مذاقه عندما جاء متسربلا في ثياب لص من السل فنهش صدر طفل نازح ؟

أم لانه يثير التقزز أكثر من وفادته على شكل صاروخ أسقطته طائرة اسرائيلية (أم عربية ، لا فرق) فهبط ... فجأة ... على رأس امرأة وهي تسير في مخيم للنازحين ؟

أم تراه أقل عذوبة من الموت الذي أتى ... متبرجا ... يعتمر عمامة خضراء ... او يرتدي بلوزة سوداء ... أو يتوشح راية حمراء ؟

ولماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

لماذا طالما ان الموت واحد وان تعددت الاسباب ...

ولماذا طالما ان قيمة الشهيد ، في كل زمان ومكان ، واحدة ...

... لماذا الحديث ... بالذات ... عن باسل ؟

لســـببين :

... نقطة ضعف تتعلق بي : —

كونه ، حيا وشهيدا ، أعز الاصدقاء .

... ونقطة قوة تتعلق به : —

كونه واحدا من اولئك الفرسان ... النادرين ... الذين امتطوا الجواد ... وثبتوا عليه ... ولم يترجلوا .

* * *

كان على جواد العمل الوطني الذي امتطى باســل صهوته ان يقفز فــوق حواجز **اضافية** زادت من الاعباء التي تثقل عادة اكتاف العاملين في الحقل الوطني . ولعل أحد اكثر هذه الحواجز ارتفاعا وصعوبة ذلك الممتدة جذوره ، بعيدا ، في أعماق أصــول المنشأ الاجتماعي ــ الاقتصادي المنحدر منه باسل :

فمحمد سعيد ، عميد آل الكبيسي ، واولاده السبعة (باستثناء خامسهم رؤوف) شكلوا القاعدة الصلبة التي استند اليها البناء الاجتماعي ــ الاقتصادي لقرية «كبيسه» (وتقع في الشمال الغربي من مدينة بغداد في لواء الرمادي). في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . وهم بانتمائهم لقبيلة « بو حيدر » (علاوة على كونهم أخوال قبيــلة « البو دريع ») ضمنوا لانفسهم مركز الصدارة الاجتماعية في القرية . ومن الصدارة الاجتماعية الى الصدارة الاقتصادية ، او بالعكس ، تربع جد باسل وأعمامه ، وهم المسكون الرئيسيون بخيوط النشاط التجاري ، على قمة الهرم الاقتصادي ــ الاجتماعي في المنطقة .

ومن ناحية ثانية ، كان عميد آل الكبيسي وابناؤه ، حافظين امناء لتراث القبيلة . ويبدو ان دورة النشاط الاقتصادي التجاري ، التي كانت « كبيسه » احدى حلقاتها البارزة ، نجحت في عزل المثالب القبلية من عدم استقرار وعوز مادي وغزو ، تماما مثلما استطاعت تدعيم مناقبها من فروسية وشجاعة ، استجارة واستخارة بالاضافة الى ديموقراطية « الدواوين » وكرمها*

وفي هذا كله ورود الى أحد ينابيع المؤثرات التي ، طوعا او كرها ، سلبا او ايجابا ، شعوريا او لا شعوريا ، شرب منها باسل . وهذا هو الينبوع البعيد ــ القريب اذ لم تتمزق ، حتى الان ، الوشائج التي تربط بين السلف في قرية « كبيسه » والخلف حيثما كان في بلاد الرافدين .

أما الينبوع الرئيسي الثاني الذي نهل باسل من تأثيراته فهو والده رؤوف الكبيسي الذي كان أول الجسور المتينة الثابتة التي وصلت ما بين فرع العائلة القبلي ــ التجــاري وفرعها الحضري ــ الوظائفي . ففي بغداد ولد رؤوف في العام ١٨٨٦ وانضم ، متأثرا بروح أحداث ١٩٠٨ ، الى « جماعة العربية الفتاة » . ثم عمل ، بعد ان تخرج من الكلية الحربية في اسطنبول ، في العام ١٩١١ ، ضابطا في «جندرمة بغداد»**. وبعدما حارب القوات البريطانية الغازية في العام ١٩١٧ ، التجأ الى سورية والتحق بالحكومة العربية الى جانب الملك فيصل وأصبح قائدا لدرك حلب . وعندما عاد مع الملك الوافد الى العراق في العــام ١٩٢١ ، ارتقى السلم الاداري حتى عين محافظا لمدينــــة « البصرة ». واثر هجومه على بريطانية واتهامها علنا*** بمعاملة العراق « كبقرة حلوب » ، أعيد الى بغداد حيث عين ، بعد فترة ، مديرا عاما لسجونها . وكان رؤوف ، من ناحية الانتماء السياسي ، أحد أبرز انصار ياسين الهاشمي ــ « بسمارك العرب » والقطب الرافض لاية معاهدة من شأنها ربط العراق بالدول الأجنبية .

ضمن اطار هذه الخلفية من التأثيرات ، ولد باسل رؤوف الكبيسي في شباط (فبراير)

---

* وفي هذا المجال لا زال فتح المطعم او المخبز او الفندق على رأس قائمة « المحرمات » في تقاليد قريــة « كبيسه » لما في ذلك من « حرمان » لاهل القرية من استضافة الوافدين ــ الزائرين لها .

** تزوج رؤوف من نظمية صبري ، وهي من عائلة بغدادية عريقة ، في العام ١٩١٣ .

*** كان ذلك في حفل افتتاح ميناء البصرة (١٩٢٩) بحضور الملك فيصل الاول والكولونيل وارد ، مدير الموانىء البريطاني .

١٩٣٣ فجاء ترتيبه الاصغر بعد ثلاث شقيقات وشقيقين . وكان اول ما تفتح عليه وعي باسل ، بحبوحة عيش واضحة والتزام وطني اوضح ووالد شرقي أميل الى الصرامة منه الى الليونة والدة تعوض من الحنان ما قد ينقص ... وتفيض. ومن يعرف الاحياء من افراد عائلة رؤوف الكبيسي ، يلاحظ المزيج الخاص من « التقاليد » المحافظة ــ المحدثة ، الارستقراطية ــ المتواضعة ، العريقة ــ الشعبية التي تؤطر سلوك العائلة ومسلكيتها .

وفي هذا كله ورود لينبوع ثان من المؤثرات التي كان باسل أقرب اليها وأشد التصاقا بها وأكثر عرضة لتأثيراتها .

أما الينبوع الرئيسي الثالث الذي شرب منه باسل ، حتى الثمالة ، وارتوى ، بل وسبح فيه حتى تعبت الحياة ذاتها من حيويته فتخلت عنه ، فهو ينبوع المناخ السياسي العام الذي عايشه ، والهواء السياسي الخاص الذي تنفسه :

فمن جهة ، بدأ باسل رحلة الاربعين عاما التي عاشها من نقطة تقع تقريبا عند منتصف المسافة الزمنية بين حدثين بارزين في تاريخ العراق المعاصر ــ انضمام المملكة العراقية الى « عصبة الامم » في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٢ ، ووفاة مؤسسها الملك فيصل الاول في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣ واعتلاء الملك غازي سدة العرش . واذا كان الحدث الأول قد ثبت صورة العراق دوليا ، فان الحدث الثاني قطع خيوط الوفاق بين الريف والمدينة وعكر صفاء « الميزان المتوازن » الذي حكم علاقات أقطاب السياسيين التقليديين طوال فترة طويلة .

ومن جهة ثانية ، ترافق بدء باسل لدراسته في المرحلة الابتدائية (في « المدرسة المأمونية » الحكومية في العام ١٩٣٩ / ١٩٤٠ ، مع مقتل الملك غازي في نيسان ــ ابريل ١٩٣٩ ومع اندلاع نار الحرب الكونية الثانية في ايلول ــ سبتمبر من العام ذاته . كما بلغت موجة المد القومي العربي ، آنذاك ، احدى أعلى قممها . وكان كل هذا ضمن اطار هيمنة الجيش على مجريات السياسة في البلاد بعد ان بدأ مسلسل الانقلابات العسكرية منذ تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٣٦ وما اعقبه من وفاة ياسين الهاشمي واغتيال جعفر العسكري وتمحور الصراع حول اتجاهين متصادمين : التيار المعادي للاستعمارين البريطاني والافرنسي من جهة والتيار الداعي الى التعاون مع الانجليز من جهة ثانية .

في « المدرسة المأمونية » تلك ، ومنذ سنته الابتدائية الاولى ، ارتدى باسل ، ضمن « نظام الفتوة » ، الثوب الخاكي وأنشد ، قبل ان يتقن فك الاحرف ، اناشيد : « نحن الشباب » ، و « موطني يا موطني » ، و « هيا فتوة للجهاد » . وفي احدى الصور الفريدة ، يظهر باسل وقد اشترك في اول مظاهرة له ، وهو في الصف الثاني الابتدائي ، اثناء حركة الكيلاني في العام ١٩٤١ .

وفي سنوات دراسة باسل الابتدائية ، كانت الخارطة السياسية في البلاد ترسم من جديد تحت وطأة التمخضات التي عاشتها الحركة الوطنية . ففي تلك الفترة صعدت الطبقة المتوسطة الى مسرح الاحداث ــ متأخرة ــ بعد ان افاقت من تنويم مقصود سببته ابرة تخدير قديمة كانت سلطة الانتداب البريطاني قد غرزتها ، على شكل اجراءات اقتصادية ، في جسد الشعب العراقي . وهكذا ظهرت « القوة الجديدة » بشقيها القومي والشيوعي وأجبرت الامير عبد الاله ، « الوصي على العرش » ، على الاعتراف بها والانحناء أمام عاصفتها في العام ١٩٤٥ .

في ذلك العام بالذات ، دوخت باسل دوامة الوضع الطبقي الذي وجد نفسه فيه فخاض احدى معاركه المبكرة مع القوى السلبية الفاعلة في ذلك الوضع ... وكانت ساح القتال على ارض مصر .

اذ بعد ان انهى باسل مرحلة الدراسة الابتدائية ، ابعدته بحبوحة العيش ، في العام ١٩٤٥/١٩٤٦ الى « كلية فكتوريا » في الاسكندرية لمتابعة دراسته. وفي «الغربة»، في السن المبكرة تلك ، بدأت صراعات باسل مع باسل ... وكان لا بد من ايجاد اجوبة لأسئلة كثيرة حائرة ومحيرة :

أيسمح لرياح موقعه الطبقي ان تقود سفينة تحصيله العلمي الى شاطىء المؤسسات الاكاديمية الخاصة بابناء النخبة وعلية القوم ؟ ايسلم صفحة دماغه البيضاء لتلك المؤسسات كي تمسح عنها ما حفرته التأثيرات الوطنية في عائلته وتنقش عليها وشما من الثقافة الاستعمارية الغربية يلازمه الى الابد ويغدو معه « اجنبيا » وسط افراد عائلته وعشيرته وفي وطنه ؟ ثم والمسألة — كما شرحها باسل نفسه في جلسة حميمية — مسألة شعور وليست مسألة قرار فحسب . اذ كيف يستطيع ان يتجاهل حالة الاحتقان التي بدأ يعاني منها ولا يهرب من خطر الاختناق الداهم الذي كان يراه مندفعا — وبسرعة بالغة — باتجاهه ؟ ولماذا يبقى أسير السرب « النخبوي » والقفص «الفكتوري» اللذين « اعتقل » فيهما على يدي « شرطة » المترتبات الناجمة عن الموقع الطبقي الذي لم يختره هو ؟

وكان قرار باسل — وهو في سن لم تكن تؤهله لاتخاذ قرارات — حاسما بوضوحه : لا للعودة الى « كلية فكتوريا » ونعم للمدارس الحكومية ... **وهكذا قطع باسل بعض خيوط شبكة ((العنكبوت الطبقي)) المنسوجة حوله ... ومضى ، معتليا صهوة ((مهر)) عمله الوطني ، سائرا في الاتجاه الصحيح .**

باشر باسل دراسته المتوسطة في « كلية بغداد » في مناخ انفراج اشاعته حكومة توفيق السويدي (١٩٤٦) تحت ضغط « القوة الجديدة الصاعدة » . وقد كان قرار الحكومة في السماح بتشكيل الاحزاب بمثابة نزع سدادة « قمقم » العمل السياسي الشعبي واطلاق سراح « مارد » الطبقات الشعبية بصدارة الطبقة المتوسطة المسيسة. أما فظاظة حكومة أرشد العمري (التي جاءت في حزيران — يونيو ١٩٤٦) فلم تفشل في كسر « زنبرك » العمل السياسي الشعبي فحسب ، بل تورطت في ضغط ذلك « الزنبرك » — مضيفة الى زخمه زخما جديدا — ساعده ، لاحقا ، في الارتداد على السلطة الحاكمة بقوة اشد .

ومنذ نهاية العام ١٩٤٦ ، غدا باسل يتيما . فقد وافت المنية رؤوف الكبيسي في الثامن من كانون الاول (ديسمبر) ولم يكد يطرق باب الستين عاما . ومع ذلك لم يخلف الوالد الراحل وراءه طفلا . فباسل اليافع ، ابن الاربعة عشر ربيعا ، كان قد تخطى مرحلة « الطفل الجاد » (الجاد لدرجة انه لا يذكر — كما ان كل من عرفوه آنذاك لا يذكرون — مروره « بفترة طفولة » واضحة المعالم) الى مرحلة الشاب الرزين الذي لفتت رصانته المبكرة الانظار اليه واثارت الفضول من حوله وكانت محط تندره هو وتفكه مريديه الاقربين في وقت لاحق . كما اصبح واضحا ان شخصية باسل الآخذة بالتشكل النهائي كانت قد مالت بشكل حاسم ، بعد أن نجح في القفز من فوق مرحلة المراهقة ، نحو التأدب الشديد والحياء المرهف والتحلي ، اولا وقبل كل ميزة اخرى ، باخلاق « الفارس العصري » من شجاعة وكرم وشهامة . واما عيوبه البارزة فكانت في حدية هذه

الصفات عنده وفي عبوره ، احيانا ، ذلك الخط الرفيع الذي تتحول وراءه هذه المناقب ، من شدة الافراط فيها ، الى مثالب . هذا على الصعيد الخاص .

أما على الصعيد العام ، فقد كاد العراقيون ان ينسوا ، في الفترة ما بين ١٩٤٦ — ١٩٤٨ ، معنى عبارة « الاستقرار السياسي » . فمع غياب الهدوء من قاموس الحياة اليومية ، اشتدت قوة حضور الاضرابات والمظاهرات وبخاصة في الكليات والمدارس . وكان طبيعيا ومتوقعا ان لا يفوت باسلا ، الطالب في « الثانوية المركزية » ذا الحماس المتفجر ، أي من هذه النشاطات . وفي « الوثبة » (الانتفاضة الشعبية ضد اتفاقية بورتسموث ، في كانون الثاني — يناير ١٩٤٨) اضطر باسل لان يبتعد ، مددا وجيزة ، عن صخب الشارع الى سكون المستشفى حيث كان الاطباء ينتزعون من جسد شقيقه (ياسين) رصاصة من رصاصات السلطة التي مزقت كبده وكادت ان تجفف مـاء الحياة فيه .

واثناء ورود باسل المستمر الى ينبوع العمل السياسي العام ، استطاب مذاق ماء أحد روافده بشكل خاص ... فبدأت رحلة التزامه التنظيمي .

ففي ظل الاجواء السياسية المتقلبة التي تلبدت بها سماء العراق في نهاية الاربعينات ، أنهى باسل دراسته الثانوية وغادر الى الجامعة في لندن. وبعد عام من التمزق الداخلي، تقاذفته فيه تيارات متناقضة ، وبعثت في ذهنه ذكريات معاناته الخاصة في « كليـة فكتوريا » ، عاد الى الوطن والتحق ، في العام ١٩٥١/١٩٥٢ ، بدائرة العلوم السياسية في الجامعة الاميركية في بيروت . وكانت تلك الخطوة منعطفا حاسما اتخذت حيـاة باسل بعده مجراها الجديد :

ففي الجامعة الاميركية ، حيث ازدهرت التجمعات والاحزاب القومية في أعقاب سقوط فلسطين في العام ١٩٤٨ ، التقى باسل مع جورج حبش واصبح ضمن اوائل المنتظمين معه . وبالعمل الدؤوب والانضباط الدقيق — المعروفين عن باسل — أصبح مثالا للملتزم الذي يحتذى ... كما ولمع نجمه ، كقائد طلابي ، بسرعة بالغة .

كانت الازمة الداخلية في العراق ، في هذه الاثناء ، تتفاقم نتيجة لازدياد اسـتفراد « الوصي على العرش » بمقدرات السلطة . وسرعان ما بلغ تدهور الاوضاع نقطـة الانفجار . فكانت « انتفاضة ١٩٥٢ » وما رافقها من دعوة السلطة للجيش لادارة دفة البلاد . وبالفعل شكل رئيس الاركان العراقي ، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ ، حكومة تمكنت من اعادة الامساك بمقاليد الامور لصالح الفئة الحاكمة بعد ان كادت تفلت نهائيا من يدها اثناء الانتفاضة . وبذلك أتيح « للغزل » البريطاني — العراقي ، القائم على قدم وساق ، ان يستمر تمهيدا « لزواجهما » المرتقب وفقا « لعقد » معاهدة الدفاع المشترك التي كانت قيد الاعداد آنذاك .

وضمن موجة المظاهرات الصاخبة التي عمت عددا من البلدان العربية قطعا للطريق على عودة الاستعمار البريطاني « من النافذة بعد ان خرج من الباب » ، اشترك باسل في قيادة المظاهرات العنيفة التي ملأت شوارع بيروت . وقد كانت حصيلة « مكاسبه » الشخصية من تلك الاحداث وافية : جراح في رأسه ، واعتقال في « سجن الرمل » في بيروت ، وانذار بالطرد الفوري من الجامعة اذا ما تكرر « سوء سلوكه » . وقد تبلور الانذار ، اثناء عطلة الصيف ، فطرد باسل وطالبان آخران ، قبل ان تتاح لـه فرصـة الحصول على شهادة جامعية*.

---

* ومما هو جدير بالذكر ان مجموعة باسل هذه كانت اول مجموعة من الطلاب تطرد منذ تأسيس الجامعة .

وبالرغم من «الحصار الاكاديمي» الذي فرض عليه من قبل عدد من مؤسسات التعليم في الولايات المتحدة بسبب « تاريخه السياسي » ، نجح باسل في الالتحاق بجامعة « آدامز ستيت كولدج اوف كولورادو » ، حيث نخرج منها في نهاية ايار (مايو) ١٩٥٦ وتعين في وزارة الخارجية العراقية في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته .

وفي الفترة ما بين قرار الطرد من الجامعة والعودة الى بغداد ، جوبه باسل بالدوامة القديمة الجديدة : ضرورة المفاضلة ، من جديد وبقرار حاسم ، بين ان « يستمتع » — خاصة وانه لم يزل في ربيع عمره ومقتبل صباه — بما يمكن ان توفره له اوضاعه الطبقية من حياة مخملية (وشرط ذلك الاوحد ان يدوس على ضميره ومثاليته فيؤثر الخاص على العام) أو ان يدير ظهره — على صعوبة ذلك — لشلال من الاغراءات المادية والمعنوية التي كانت رهن اشارته . **ولم يكن القرار — المطلوب من باسل اتخاذه — قرارا سهلا .**

اذ عندما يقوم الكادح باختيار طريق الثورة — أساسا تحت تأثير العسف الاقتصادي والسياسي — فانه « ليس لديه ما يخسره غير قيوده » . اما عندما يختار ابن الطبقة البرجوازية **الطريق ذاته** — اساسا تحت تأثير الاحساس بالمسؤولية الانسانية والاندفاع المثالي — فان لديه الكثير ليخسره . ولان استبدال وسادة الحرير بوسادة من الصخر ليس بالامر السهل ، **لم يكن القرار — المطلوب من باسل اتخاذه — قرارا سهلا .**

كذلك فان الصعود من طبقة الى طبقة ، والكثير منا — هذه الايام — يعرف ذلك ، ليس بالمسألة الصعبة . فعندما يفتح الاستعمار — القديم والحديث على حد سواء — خزائنه ، بشكل مباشر او غير مباشر ، يصعب على الكثيرين (« والانسان ، اولا وقبل كل شيء ، انسان » — كما يقولون) « مقاومة » اغراءات الصعود . كما ان مسألة الصعود تبدو أكثر سهولة عندما لا يصبح التعامل مع العدو ضد الوطن « ثمنا » لها . « فالمصاعد » — ذات الاتجاه الواحد ، من اسفل الى أعلى **وفقط** من أسفل الى اعلى — كثيرة . فمن « مصعد » الانتهاز الى « مصعد » مسح الجوخ والتزلف الى « مصعد » لحس المواقف والارتداد عنها . . . القائمة طويلة . أما النزول من طبقة الى طبقة فمسألة مختلفة . مسألة فيها ، وبالمعنى الحرفي ، لون من التعجيز والوان من الاعجاز . **لذلك لم يكن القرار — المطلوب من باسل اتخاذه — قرارا سهلا .**

ولكن فيض المثالية الانسانية والالتزام بالقضية الوطنية العامة عند باسل كان كافيا لجعل الصعب سهلا . . . فكان قراره بالعودة الى العراق من أجل الاسهام في تأسيس فرع سري للقوميين العرب (« حركة القوميين العرب » — لاحقا) . . . **وبهذا قطع باسل ، للمرة الثانية ، خيوطا جديدة من شبكة «العنكبوت الطبقي» المنسوجة حوله . . . واندفع معتليا صهوة جواد العمل الوطني . . . فارسا عصريا مقاتلا بسيف التنظيم الملتزم . . . وساعيا من اجل « الوحدة ، والتحرر ، والثأر » .**

ومنذ اللحظة الاولى التي بدأ فيها باسل رحلة تشكيل التنظيم الجديد ، لازمته صفتان بارزتان : السرية الشديدة والنشاط الدؤوب . وفي حين اقتضت الصفة الاولى تصديه شخصيا لتأدية بعض المهمات الخطرة للغاية ، استوجبت الصفة الثانية الغاء تاما لاية « حياة خاصة » به .

وعندما قامت الوحدة بين مصر وسورية في العام ١٩٥٨ ، تمحور الصراع العربي بشكل حاد فاصبحت الجمهورية العربية المتحدة قطبا في النزاع في حين شكل العراق والاردن قطبه الثاني . واثناء زيارة « الوفد الاردني » للعراق بهدف اقامة دولة وحدة

مضادة ، تحطمت سيارة باسل (يوم الثامن عشر من آذار — مارس ١٩٥٨) وهي في باحة « قصر الزهور » بمتفجرات كانت معدة « لترافق » الوفدين الاردني والعراقي في طائرتهما المسافرة الى عمان في اليوم ذاته *.

اتجهت الانظار ، خاصة أنظار نوري السعيد ، بشك وريبة الى باسل الذي تظاهر ، برباطة جأش خيالية طالما ظهرت في اللحظات الحرجة ، بان لا علم له بالمتفجرات وانه نفسه — « كما يبدو » — كان مستهدفا بها . وكي يزيل كل شك من ذهن المحققين معه وكي يضلل « كلاب الاثر البشرية » التي اطلقت وراءه ولازمته كظله ، موه باسل تحركاته ، بمساعدة أحد أعز اصدقائه ، بالتصرف وكأنه من الرواد الدائمين للبارات وما شابهها . وكانت تلك هي المرة الاولى التي « عرف » فيها باسل ذلك النمط من « حياة الشباب » . على ان ثورة الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، قصرت من عمر « اجازة » باسل الاضطرارية . وبدأ عهد جديد .

وما ان شرعت الثورة بأكل ابناءها واشتد الصراع بين عبد الكريم قاسم ومؤيديه من جهة والتيار القومي من جهة ثانية ، حتى اعتقل باسل ضمن حملة الاعتقالات التي شملت مختلف العناصر القومية في طول العراق وعرضه . وفي وقت لاحق ، اقترن الحكم على باسل « بالسجن لمدة عام واحد » بقرار فصله من وزارة الخارجية منذ نهاية كانون الثاني — شباط ١٩٥٩ .

وقد كان السجن « صومعة » للاستذكار والمراجعة ومناسبة للاجابة على بعض الاسئلة المهمة ولاتخاذ قرارات جديدة . وكان السؤال الاهم : ماذا بعد السجن ؟

مجددا جاء الجواب قاطعا ومتناسبا مع مضاء سكين مثالية باسل وقوة التزامه بالقضية العامة . وبالسكين ذاته قطع باسل مزيدا من خيوط شبكة «العنكبوت الطبقي» المنسوجة حوله . وقرر ، بجراة وتضحية ، ضرورة التوقف عن مزاولة أي عمل أو وظيفة خاصة والتفرغ كليا للعمل القومي الثوري . وهكذا كان :

ففي الفترة ما بين اطلاق سراحه (في نيسان — ابريل ١٩٦٠) وسقوط نظام قاسم (في شباط — فبراير ١٩٦٣) نجح باسل ، ومعه عدد من الرفاق ، في الاستفادة من موجة المد القومي — الناصري التي غمرت العراق ، نجاحا فاق كل تصور سابق . ففي أقل من ثلاثة أعوام ، أصبحت « حركة القوميين العرب » — خاصة بامتداداتها العسكرية في الجيش** — واحدة من القوى الرئيسية في ساحة العمل الوطني وطرفا بارزا من أطراف جبهة « التجمع القومي » التي تم تشكيلها لمقاومة النظام والعمل على اسقاطه . وعندما باشر حزب البعث في محاولة القضاء على حكم قاسم يوم ١٩٦٣/٢/٨ لعب باسل دورا كبيرا في دفع باقي أطراف « التجمع القومي » للمشاركة ، خاصة بعد ان استمرت مقاومة قاسم ومؤيديه حتى مساء اليوم التالي . ولا يزال الكثير من البعثيين والقوميين يذكرون ذلك الدور التحريضي الهام الذي لعبه باسل واثر في الاسراع

---

* كان باسل قد ادخل تلك المتفجرات بنفسه عندما عاد من رحلته الاخيرة لبيروت ودمشق كما نجح في ايصالها الى باحة القصر بحكم عمله في تشريفات الخارجية العراقية .

** ويعود الفضل الاساسي في توسيع شبكة الامتدادات هذه الى باسل بالذات حيث نجح في الاستفادة من علاقات القربى والصداقة التي ربطته بعدد من الضباط القوميين .

في حسم المعركة عند مبنى وزارة الدفاع في التاسع من شباط (فبراير) ١٩٦٣*.

بدات ، في أعقاب سقوط نظام قاسم ، مرحلة العمل العلني بالنسبة للتيار القومي ومن ضمنه « حركة القوميين العرب » وقد أصدرت الحركة ، آنذاك ، صحيفة «الوحدة» وأوكلت مهمة رئاسة تحريرها لباسل .

واثناء قضائه فترة « شهر العسل » في القاهرة ، بعد ان وفق في الزواج من رفيقة قديمة ــ جديدة ، اتهم ، في نهاية ايار (مايو) ١٩٦٣ ، بمحاولة قلب نظام الحــكم الجديد**. وبالاضافة الى الحملة التي شنت عليه وعلى رفاقه ، في الاذاعة والصحف، أعلنت الحكومة العراقية وضع يدها على ممتلكات عائلة الكبيسي المنقولة وغير المنقولة. وتعرضت العائلة ، التي طالما جندها باسل لخدمة الخط القومي الذي كان يدعو اليه ، لظروف غاية في القسوة . واستمر ذلك الى ان اطاح عبد السلام عارف بحكم حزب البعث في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته فرفع الحجز عن ممتلكات العائلة وعاد باسل الى العراق من « منفاه » الاضطراري .

ومع عودته ، بدأ الشهر الاقسى في حياة باسل السياسية بله والاكثر ايلاما في حياته كلها . اذ ان حالة « الاسترخاء » التي تلت نجاح انقلاب عبد السلام عارف دفــعت « قيادة اقليم العراق » ، في غياب الصراعات الخارجية ، الى « التفرغ » لتصفيــة « الحسابات الداخلية » .

ومن لا يعرف كره باسل للكذب ولمختلف الاساليب الملتوية والمناورات التنظيمية ، ومن لا يعرف تمسك باسل بقضايا الضبط والربط التنظيميين ، لن يستطيع ان يفهم قراره الخاص بتجميد نشاطه في التنظيم الى ان يصحح الخطأ .

وعندما اثبتت القيادة عجزها عن فعل ذلك عجز باسل ذاته عن التراجع فتكرس قرار التجميد الذاتي وغادر باسل الى الولايات المتحدة لمتابعة رحلته الاكاديمية التي توقف عند احدى مراحلها ، متفرغا للعمل النضالي القومي ، مدة ثماني سنوات . وجاء قراره هذا في وقت انهالت فيه العروض عليه (من عبد السلام عارف بالذات) لتولي منصب وزير الخارجية أو أي منصب آخر غيره .

وطول السنوات الثماني اللاحقة ، حمل باسل على كتفيه صليب آلامه العامة حيثما ذهب . ولم « يساعده » نجاحه الاكاديمي وحصوله على اجازة الماجستير ، من جامعة هوارد ــ واشنطن في العام ١٩٦٦ ، في اطفاء جذوة حنينه الى حياة النضال السابقة . تماما مثلما لم ينجح نشاطه في « منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا » وغيرها في التعويض عما يفتقده . **وجاءت الحرب ــ الهزيمة في حزيران ــ يونيو ١٩٦٧ . ولم يبق دخان حرائقها ، في الجو الخانق الذي ساد ، أيا من فقاقيع الاكسجين الضروري**

---

* وفي هذا المجال ، تجدر الاشارة الى الاسى والحزن الشديدين اللذين كانا يعتريان باسل كلما مرت في خاطره ، في وقت لاحق ، صورة اقتتال فصائل الحركة الديمقراطية الوطنية (بجناحيها القومي والشيوعي). ذلك الاقتتال الذي كان يصب الماء ، بالمحصلة ، في طاحونة الاعداء المشتركين . وفي أساه وحزنه كان باسل يقف في خندق واحد مع كثير من أعضاء وانصار الطرف الاخر المنافس آنذاك والذين كانوا ، كباسل ورفاقه ، ضحية من ضحايا المرحلة ومفاهيمها .

** ومما يجدر ذكره في هذا المجال ، ان الانفجار في علاقات الاطراف القومية المختلفة (ومن ضمنها جناح حزب البعث الحاكم) كان مرحلة من مراحل تردي العلاقات بين اعضاء جبهة « التجمع القومي » ذلك التردي الذي كان قد بدأ حتى قبل اسقاط قاسم في شباط (فبراير) ١٩٦٣ .

لتنفس باسل في الغربة . فعاد الى الوطن ، تاركا جامعته حيث كان يحضر لنيل شهادة الدكتوراة ، والنار من تحت مرجل حماسه الفوار ، متوقدة .

ولكن حالة الصراع الداخلي التي كانت تعاني منها حركة القوميين العرب ــ بعد ان شاخت مفاهيمها الفكرية والسياسية وتثلمت أسلحتها التنظيمية وتجاوزت المرحلة أساليبها النضالية ــ لم تمكنها من استيعاب طموحات باسل الجديدة . كما ان « التوجه الفلسطيني » لدى معظم من لم يصب « بالتعب الثوري » من قيادات الحركة ، لم يمكنهم ، في ظل اوضاعهم الحرجة ، من الاسهام في وضع المشاريع النضالية الخاصة بباسل موضع التنفيذ . ولما تأكد له ــ خاصة بعد ان عاد البعث للسلطة في العراق ــ ان حصان العمل الوطني الذي كان يراهن عليه يمر في فترة نقاهة تمنعه من الحركة الواسعة النشطة ، قرر ان العام والنصف المنصرمين منذ عودته للوطن يجب ان لا يطولا أكثر . وهكذا عاد ادراجه الى الولايات المتحدة في مطلع العام ١٩٦٩ لمتابعة التحضير للدكتوراة ثم انتقل ، مع بداية العام ١٩٧٠ ، ليحاضر في احدى جامعات كندا تحت ضغط اعتبارات تتعلق بأوضاع مالية غير مريحة كان وعائلته يمران بها .

وكان واضحا ، عندما تجدد لقاؤنا في البرته ــ كندا منذ آب (أغسطس) ١٩٧٠ ، انكباب باسل على مراجعة تجارب الماضي وتنمية قدراته الذاتية تمهيدا لدور ما يلعبه في المستقبل . كما كان واضحا ايضا ان باسلا قد نجح في تطوير وتجديد بعض منطلقاته الفكرية ومفاهيمه السياسية باتجاه اليسار الملتزم بحيثيات الاشتراكية العلمية وبمضامينها والنتائج المترتبة عليها نظريا ونضاليا . وقد ترافق ذلك مع تولي باسل لمسؤوليات تنظيمية قيادية ضمن اطار العمل الخارجي الخاص « بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في امريكا الشمالية .

ولحظة وصل « قطاره » الاكاديمي الى آخر « محطاته » ، قفل باسل عائدا الى الوطن بعد ان أجيز ، في اواخر العام ١٩٧١ ، دكتورا في العلوم السياسية من الجامعة الاميركية في واشنطن . ومنذئذ بدأ باسل يحضر نفسه للقفز من فوق الحاجز الاخير .

وصل باسل الى الوطن والجو السياسي العام يعبق برائحة دخان الهزيمة الذي انعقد ، في غياب حرارة الانتصار وحضور برودة التراجع الثوري ، غيوما وسحبا حجبت شمس الثورة ولبدت سماء المنطقة وانهمرت مطرا من اليأس جرف في اندفاعه الكثيرين . ففي العام ١٩٧٢ ، نجحت معظم النظم العربية في تمزيق تحالفاتها الدولية وتفتيت تضامن معسكرها العربي وتشتيت جبهاتها الداخلية . وكان ذلك كله في أعقاب انزال الستارة على مسرحية « عام الحسم » .

وأما حركة المقاومة الفلسطينية ــ أمل الثوريين العرب ومن ضمنهم باسل ــ فكانت مطرودة وجريحة ومطاردة . وكان جواد « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » ــ وهو موضع رهان باسل المحدد ــ منهكا ومدمى بفعل السياط الذاتية والموضوعية التي انهالت عليه بالضرب المبرح .

وكان الرعب قد ساد وهيمن. فقارب النجاة الذي احتمت فيه بقايا الثورة الفلسطينية غدا عرضة لامواج الهجمة الامبريالية ــ الاسرائيلية ــ الرجعية ، العاتية . وحرب الابادة ــ غير المتكافئة ــ ما عادت خفية . فقد أعلن عنها دق أجراس الاغتيال السياسي طوال المسيرة الجنائزية الموحدة التي حملت اشلاء غسان كنفاني ووائل زعيتر ومحمود الهمشري انطلاقا من بيروت ، مرورا بروما ، وانتهاء بباريس . وغالبا ما كانت جوارح الموت الوافد في الرسائل المتفجرة او الطرود الملغومة تكتفي بتمزيق الوجوه وقضم الاصابع ونقر الاذان وفقء العيون او اقتلاعها .

وكان باسل، بحكم اقترابه من دائرة الموت، يرى كل ذلك فيخشاه، وفي الوقت ذاته، يستمد الشجاعة منه . وكان يتلفت حواليه فيرى تلك الثنائية ــ المتناقضة تحاصره :

ففي اطار عائلته الكبيرة ، رأى القلق على حياته في جميع العيون . وأصر ــ مع ذلك ــ على ان تراث التضحيات الذي تملكه العائلة سيأتي دوما لعونها ومواساتها اذا ما اقتضت الضرورة تضحيات جديدة .

وفي دائرة العائلة الصغيرة ، حقن زوجته بمصل « الوعد الذي قطعته على نفسها عند زواجهما بمساعدته دوما على اعطاء الاولوية للقضية العامة » ليشكل عندهــا « المناعة » اللازمة ضد هجمات « فيروس الضعف الانساني » الذي قد يدفعها ــ كأي امرأة تحب زوجها حبا شديدا ــ لتطالبه بالالتفات الى تناقض الخاص بالعام .

واذا ما سئل : وماذا عن أحمد ويعرب وياسر (أطفاله الثلاثة) ؟ يأتي صوته خفيضا، متقطعا ، ومتهدجا وان قاطعا : وماذا عن فايز وليلى (طفلا الشهيد غسان كنفاني) .

واذا قيل له : الحصان الذي تراهن عليه جامح وخطر !

أجاب ــ ومن أقدر على ترويضه منا ؟

* وماذا عن رفاقك المغامرين ؟

ــ لانهم رفاقي ... لا يجوز تركهم وحدهم .

* سيقتلون أنفسهم بروح المغامرة عندهم .

ــ مهمتي ان أمنعهم من قتل أنفسهم . ان أحميهم من مغامرتهم .

* وماذا ان قتلت اثناء ذلك ؟

ــ وماذا اذا قتلوا وانا مقتنع بأنه كان بامكاني ان أمنع ذلك ؟ اليس الموت أهون ؟

* ولكنها مرحلة هزيمة وتراجع . والعمل الوطني أساسه الاقتناع بجدوى العمل وأدواته وليس استحضارا لعنترة بن شداد .

ــ بل لانها مرحلة هزيمة وتراجع ، نحن بحاجة الى نوع خاص من الفروسية . نحن بحاجة الى الفارس العصري الذي يساهم في درء خطر وقوع الجماهير في مستنقع اليأس او يضيف ، على الاقل ، قطرة الى زيت مشعل أملها ... كي لا ينطفىء . يرصف الطريق ، حصوة حصوة ، من أحل أن يمر الموكب القادم . تماما كمن يزرع اليوم ... ويعرف انه لن يأكل غدا . انه ليس تضحية جيل من أجل جيل قادم . انه مجـرد هدية متواضعة من أفراد في جيل الى جيل آخر قادم .

وأرفق باسل الكلمة بالفعل . فاعتذر ، بعد ان حسم الثنائية المتناقضة تلك ، عن عرض جاءه من جامعة الجزائر ليدرس في كلية الحقوق والعلوم السياسية فيها بدءا من ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٢ . وهكذا قطع باسل آخر خيوط شبكة « العنكبوت الطبقي » المنسوجة من حوله ومضى ، مرة اخرى جديدة ، معتليا صهوة الجواد الوطني ، فارسا عصريا مقاتلا ، هادفا انتزاع الفجر المضيء ... من رحم الهزيمة المعتم .

وفي التاسع من آذار ــ مارس ١٩٧٣ أوفدت « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » باسلا الى باريس في « مهمة خاصة ». وفي السادس من نيسان ــ ابريل ، وبينما كان باسل عائدا ليلا الى فندقه في العاصمة الافرنسية ، أطلق اثنان من عملاء المخابرات الاسرائيلية النار عليه ، في الظلام ، ومن الخلف . فانزرع في جسده تسع من الرصاصات ــ الاوسمة .

... ولحظة هوى الفارس مجندلا على اسفلت ذلك الشارع الباريسي ... نكست قلاع عديدة أعلامها ... وطأطأت جياد كثيرة رؤوسها . وعندما جاءت سيارة الاسعاف لنقل جثة الفارس ، **سمع الكثيرون شهقة أحد المرضين اذ رأى ، تحت حذاء قدم باسل اليسرى ، بقايا أشلاء أشبه ما تكون بأشلاء ... عنكبوت .**

***

وينتصب السؤال، بعد مضي عام كامل، عملاقا مقهقها: أيهما اكثر مرارة: الموت أم طعمه في حلق الصديق؟ وما هم ، الان ، طالما ان الموت ــ الحقيقة المطلقة الاولى ــ قد وقع ... ومرارته ، في حلق من لا زال ينتظر ، مقيمة . ذلك انه يصبح ممكنا الغاء الموت في حالة واحدة ... عندما يكون ممكنا للحقيقة ان تغدو وهما . والى ان يحدث ذلك ، سيبقى طعم الموت في حلق الصديق جرحا دائم التفتح... ينز علقما وحنظلا... الى لحظة يجف معها الجرح ... بفعل « مرهم » الموت ... الاتي .

ثلاث قصائد

عز الدين المناصرة

١ – مرثية سيّدة فلسطينية :

تظل القبيلة تبكيك حتى الشروقْ
وانت على الرمل ضائعة كالرحيق
ومن أين في الصَحَراء سنأتي لكل الأحبّة ...
بالمـاء والرمل . كل القبور هنا تطلب الماء والرمل ...
كل القبور هنا تشتهي ذرّةً من تراب الخليل ...
ويافا وتشتاق أن يرحل القبر من هذه ...
المدن الساكتهْ
ألا تعرفين « سدوم » وضحكتها الباهته
لقد قتلوكِ وان نشرت نعيك الصحف الميّته
فقد قتلوكِ أمام العيون وقالوا بأنّ الحريقْ
يذيب الحديد وتصفرّ منه العروق
لقد كذبوا إنما النار حزنٌ توهج من وردةٍ ...
فانطفت في انتظار الشروق .

* * *

رفرفت كالفراشة حنّت كسرب القطا
زهّرت كالربيعْ
صلبوا أهلها فوق كل الجذوعْ
طفلة انت يا اخت في خاطري والمنافي
هنا تكره الياسمينْ
سوف أرسم فوق ذراعاً سهاماً مثّلمةَ ...

الرأس حتى يجيء حبيبي ... تجفّ الدموعْ
صلبوا أهلها فوق كل الجذوعْ
سوف أسأل كل القبائل قبل الرجوعْ
كم تكون المسافة بين دمشق وباب الخليلْ
كم تكون المسافة بين صراخ الوليد وبين ...
اصفرار العروقْ
كم تكون المسافة بين حلول الظلام وبين الشروقْ
كم تكون المسافة بين المناشير بين الخلايا
وبين أزيز الرصاصْ
كم تكون المسافة بين الرحيل وبين القصاصْ
كم تكون المسافة بين بطاقة « غوث الوكالة » ...
وبين جواز السفر
كم تكون المسافة بين مذابح أهلي وقتل « نيرودا »
ودفن القمر
كم تكون المسافة ... من منكم سيقول الحقيقة للأهل ...
قبل الرجوعْ
كم تكون المسافة من « كفرقاسم » حتى « السموعْ »
آه يا طفلة الموت ... هذا زمان فظيعْ
يجرح الطفل يمتص من دمنـا خضرة النهر والسفح ...
يرتع في ساحل الفقراء يبيع الرضيع لأهل الرضيعْ

* * *

يا عروس البحار على كل شطّ بكت طفلةٌ لرحيل ...
السفائن صاح غريقْ
وسقوك لتنبت صحراؤهم شجراً وبريقْ
نحن من نركل الرمل – لا عاش فينـا النعام –
نحن من نشرب الدمع قبل الطعام وبعد الطعامْ

نحن يا طفلة الموت من يمنحون الردى للعدو
ونطرح للعاشقين السلام .

* * *

غير أنّ لصوص الطريقْ
غضبوا حين صار لنا مطر وبروق
حملوا سيفهم في الظلام وقصّوا شفاهك ...
حتى يكون لهم وحدهم ثمر ورحيقْ
آه يا وردة في الرمال تموت وتبكيك كل القبيلة ...
حتى الشروق .

٢ – اعتذار الى مدينة الزرقاء :

في قلبي آلاف الأشياء
لا أحكيها
إلّا للحيطان الصمّاء
أرفض ان احكيها للسيف المسلولْ
أحكيها لحمام مدينتنا
أرفض ان أحكيها للغول
في قلبي آلاف الأشياء
لا أحكيها
ذلك ان لساني – يا أحبابي – مشلولْ

* * *

جئت اليكم مرّة
اتذكركم ، اعرفكم وجهاً وجها
في وجهي – من منكم يذكر وجهي –
في وجهي كان الفرح وفي عينيّ
واليوم أجيء اليكم والصمت القاتل في شفتيّ
جئت اليكم مرّه

كان الطوفان الأخضر يملؤكم زهوا
والريح تهب على بستان الأجداد
واليوم أجيء إليـكم
والبسمة تنقلب رماد
في قلبي آلاف الأشياء
لا احكيها الا للحيطان الصمّاء .

٣ – وحيدا ذات مساء :

أعيدوا إليّ شفاهي
أعيدوا انتظاراتنا في المحطّات عبر اللهيب
أعيدوا إليّ الحبيب الحبيب
مناديلنا مزّقتها الرياح وأعلامنا في الذرى
أقول وقد سرقوا اللون منها
وناموا على تلّة من صحارى بلادي
أقول وقد صار وجهي حذاءً لهم
ولساني لساني الذي كان أمضى من ...
السيف صار جبالاً من الصمت ... دادا
أراك فتوحش تلك الدروب
أعيدوا إليّ المقاهي التي عرفتني فتىً
ضائعـاً
أعيدوا إليّ بلادي أريد القرى شارعاً
شارعـا
أعيدوا إليّ السماء التي حضنتني
ألوب شوارع كل المدائن – قد طردتني –
وأعبر كل مَدى
فأرجع نحوك ليس بقلبي غير المدُى
أنا الشوق دادا ، أنا الحب دادا
أنا الحزن ... من يحتويني ؟
أنا الصدق ... من يشتريني ؟

النفط
شريان الحياة في اسرائيل

سمير كنعاني

في اسرائيل ايضا قلق على امدادات البلاد من النفط واجراءات احتياطية وترتيبات طوارىء لمواجهة الازمة النفطية التي تعم شتى اقطار المعسكر الغربي هذه الايام ... « فقد أوصت اللجنة الوزارية الاسرائيلية المختصة بموضـــوع الاقتصاد في استهلاك الوقود بتقديم الساعة في اسرائيل ساعة واحدة ابتداء من ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ وذلك للاستفادة من ضوء النهار في توفير الوقود . وقد تبنت اللجنة بعض التدابير الاخرى لتوفير الوقود ، وتشمل هذه فرض نظـــام الحصص في توزيع الكهـــرباء على البيوت ، وفرض نظام لمنع سير السيارات مدة يـــوم واحد في الاسبوع . وقد رفعت الحكومة اسعار بعض المنتجات النفطية ، بما في ذلك البنزيـــن ، بنسبة ٥٠ ٪ »(١). « وينتظر أن تؤدي هذه الاجراءات الى خفض في الاستهلاك الاجمالي للنفط والبالغ ٧ ملايين طن في السنة بحوالي مائتين وخمسين الف طن »(٢).

وقد عادت السلطات الاسرائيلية فرفعت أسعار منتجات النفط مـــرة اخرى بنسبة حوالي ٥٠ ٪ وذلك في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ مما سيزيد مـــن تفاقم حدة مشكلة التضخم المزمنة في الاقتصاد الاسرائيلي .

وقد أراد الحاخم الاكبر في اسرائيـــل عوفديا يوسف أن يكون قدوة في هذا المجال « فطلب من وزارة الاديان تبديل سيارته الفخمة بسيارة أصغر تستهلك نصف كميـــة الوقود التي تستهلكها السيارة الكبيرة . وقد أضاف في الرسالة التي وجهها الى وزارة الاديان بأنه سيوقف سيارته عن العمل يومين في الاسبوع »(٣).

وكانت اذاعة اسرائيل قد نقلت في نشرة انبائها في ١٩٧٣/١١/٢٨ بأنه « طرأ نقص على الوقود في عدد مـــن محطات المحروقات ، وخاصـــة في منطقة تل ابيب والمنطقة الوسطى»(٤) وعللت الاذاعة دواعي هذا النقص بأنه « نابع من صعوبات النقل لان معظم الصهاريج التي تنقل المحروقات مجندة مع جيش الدفاع الاسرائيلي » ، ولم تغفل عن تطمين مواطنيها « بأن مخزون المحروقات في الدولة يكفي لسد كافة الاحتياجات »(٥). بيد ان المراجع المختصة بشؤون النفط في اسرائيل ترى الامر بمنظار أوسع وتضع الازمة النفطية في اطار ازمة الطاقة العامة في المعسكر الغربي ، وبدأت تشخص بأبصارها باتجاه حلول بعيدة المدى . فقد حذر وزير المواصـــلات والاتصالات الاسرائيلي شمعون بيريس مؤخرا في خطاب القاه في المؤتمر العالمي الثالث للمهندسين ومهندسي الاعمار في تل أبيب من المخاطر التي ينطوي عليها افتقار اسرائيل الى مصادر محلية كافية للطاقة وقال : « ان على اسرائيل ان تفتش عن مصادر طاقة جديدة وتطويـــر الطاقة الذرية للاغراض السلمية وذلك لانه ليس لدينا فحم أو نفط ، لكنه يوجد لدينا خبراء في شؤون الطاقة الذرية »(٦). وفي اجتماع في فرع المركز الاداري في حيفا تحدث مديـــر مصافي

التكرير في اسرائيل افيغدور بارتال فقال : « ان ارتفاع اسعار النفط في العالم لن يلغى ، وان الامر يضطر اسرائيل أيضا الى اجراء تغييرات أساسية في طرق العمل واستغلال الطاقة بغية الحيلولة دون حدوث هبوط خطير في مستوى المعيشة » ، ودعا الى « دراسة مستقبل الاستخدام الواسع للسيارات الخاصة والمنتجات البتروكيميائية كالبلاستيك وما الى ذلك »(٧).

وقد شفعت السلطات الاسرائيلية هذه الاحتياطات والاجراءات التي أقرتها بغية الاقتصاد في استهلاك النفط بالقول انها انما تتخذ هذه الاجراءات « **كبادرة تضامن مع البلدان التي تعاني من تخفيض انتاج النفط العربي** »(٨).

وبالاضافة الى حملة الاستعداء الشرسة التي شنتها الدوائر الصهيونية بالتواطؤ مع الدوائر الاستعمارية في المجتمعات الغربية رافعة شعار « الابتزاز السياسي » في وجه الاجراءات المشروعة التي اتخذتها بعض الدول العربية للسيطرة الجزئية على مصادر ثروتها النفطية والتضييق المحدود على أعداء القضايا القومية العربية، نظمت في اسرائيل نفسها حملات عدة « للتضامن » مع بعض البلدان المتواطئة مع اسرائيل والمتضررة من اجراءات الحكومات العربية مثل هولندا . وكالعادة تعطي الهيئات الصهيونية مثل هذه الاعمال صبغة الاثارة الاخبارية ، مثل تنظيم مسيرة بالدراجات تضامنا مع الشعب الهولندي الذي حرم من استخدام السيارات أيام الاحاد أو تناول العشاء على ضوء الشموع الخ ... ورغم كل هذه المظاهر الدعائية التضليلية ، فان الحدثين الاهم على الصعيد النفطي اللذين واجهتهما اسرائيل مؤخرا كانا أولا تدمير بعض منشآت انتاج النفط في حقل بلاعيم الذي تستغله اسرائيل في جنوب غرب سيناء بفعل الغارات الجوية التي شنتها عليها الطائرات المصرية في مستهل أيام حرب تشرين (اكتوبر) الاخيرة ، والحدث الثاني المهم هو توقف شحن النفط الخام من منطقة الخليج الى ميناء ايلات في اسرائيل عبر مضيق باب المندب لمدة اسابيع اثناء حرب تشرين وبعدها مما شل حركة انبوب نقل النفط الممتد من ايلات الى عسقلان على ساحل البحر المتوسط . واذا كانت الانباء التي وردت مؤخرا تشير الى أن « انتاج النفط من حقول سيناء الجنوبية الغربية قد استؤنفت من جديد »(٩)، وذلك باصلاح ما اصابها من دمار بعد توقف اطلاق النار ، كما ان عمليات شحن نفط الخليج العربي الى ميناء ايلات وبالتالي عبر انبوب ايلات — عسقلان قد عادت الى سيرتها الاولى بفضل النجاح الباهر الذي حققه وزير الخارجية الامريكي هنري كيسنجر في بعض العواصم العربية !! فان القلق على موارد اسرائيل النفطية لم يهدأ ، بل تصاعد واستفحل نتيجة ردود الفعل والانعكاسات العميقة التي خلفتها حرب تشرين في المجتمع الاسرائيلي وعلى صعيد أوساط المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة . فقد قذفت هذه الحرب في مهب الريح ليس أحلام التوسعيين الاسرائيليين فحسب ، بل انها هددت أيضا بفقدان شريان حياة اسرائيل الاساسي حاليا والمتمثل في نفط سيناء الذي تستنزف منه اسرائيل سنويا نحو ٥ر٥ مليون طن تسد القسم الاعظم من احتياجات الاستهلاك الاسرائيلي المتصاعد من النفط والذي بلغ مؤخرا زهاء ٧ ملايين طن في السنة أي ما يعادل نحو ١٤٠ الف برميل يوميا .

النفط مصدر الطاقة الاساسي في اسرائيل

النفط والغاز الطبيعي هما مصدر الطاقة الاساسي في اسرائيل ، بل ان اسرائيل تعتمد عليهما اعتمادا كليا في تأمين احتياجاتها الحيوية من الطاقة ، اذ لا يتوفر في اسرائيل الفحم الحجري بكميات تجارية كما انها تفتقر الى مصادر الطاقة المائية سواء من حيث وفرة المياه او المقومات الاخرى لهذه الطاقة ، كما ان اسرائيل لم تحقق حتى الآن نجاحا يذكر في ميدان توليد الطاقة الذرية ، فانشاء محطات الطاقة الذرية يتطلب

استثمارات كبيرة، والحسابات الاجمالية للنفقات والفوائد الخاصة بمحطات توليد الطاقة الذرية تجعلها غير مجدية اقتصاديا بالمقارنة مع تكاليف الحصول على النفط . وتعتمد اسرائيل اعتمادا كاملا على النفط في توليد احتياجاتها المتزايدة من الكهرباء التي تستهلك أغراض الري والزراعة نسبة مرتفعة منها . « فبموجب التقديرات للعـام ١٩٧١ ، تستهلك مشاريع الري والمنشآت المائية ٢١ ٪ من الطاقة الكهربائية المولدة والصناعة ٣٥ ٪ وأغراض الاستخدام المنزلي (تدفئة ، طبخ ، تبريد ، انارة) ٢٧ ٪ والمؤسسات العامة والتجارية ١٧ ٪ »(١٠). وتحتاج اسرائيل الى كميات كبيرة نسبيا مـن النفط لتحريك اسطولها الضخم نسبيا من وسائل النقل والمواصلات البرية والجوية والبحرية، فاسرائيل تسعى الى تأمين الاكتفاء الذاتي في وسائل نقلها الخارجية سواء مـن حيث الطائرات أو البواخر أو ناقلات النفط خشية تعرضها لازمة في هذا الميدان الحيوي في أوقات الطوارىء والازمات نتيجة احجام شركات النقل العالمية عن الاقبال على الموانىء والمطارات الاسرائيلية .

وتجهد اسرائيل منذ سنوات في تطوير صناعة بتروكيماوية متنوعة ، وهي تحتاج لهذا الغرض الى كميات متزايدة من النفط والغاز .

ونتيجة التقدم السريع الذي أخذ يحرزه الاقتصاد الاسرائيلي منذ أواخر عام ١٩٦٧ ، ولا سيما في ميدان الصناعة ، وهو تقدم انعكس في زيادة الصادرات الاسرائيلية زيادة كبيرة معدلها السنوي نحو ٢٥ ٪ ، أخذ استهلاك اسرائيل من المواد البترولية يتزايد بوتيرة عالية نسبيا ، فخلال السنوات التي تلت حزيران ١٩٦٧ « كان استهلاك اسرائيل من النفط يتزايد بنسبة تتراوح بين ١٢ الى ١٣ ٪ سنويا »(١١)، وهذه النسبة تزيد عن ضعف نسبة تزايد الاستهلاك العالمي العام للنفط خلال السنوات العشر الماضية والتي تبلغ نحو ٥ ٪ سنويا . فقد ارتفع استهلاك اسرائيل من النفط مما معدله ٥٦ ألف برميل يوميا في عام ١٩٦٥ الى ما معدله ١٢٨ الف برميل يوميا عام ١٩٧٢ ، وفي العام ١٩٧٣ ارتفع الى حوالي ١٤٠ ألف برميل يوميا أي ما يوازي ٧ ملايين طن سنويا(١٢).

موارد اسرائيل من النفط والغاز الطبيعي

تعتمد اسرائيل في تأمين احتياجاتها من النفط والغاز الطبيعي على ثلاثة مصادر هي :

أولا : حقول النفط والغاز داخل فلسطين المحتلة قبل حزيران ١٩٦٧ : تعود قصة النفط في اسرائيل الى عام ١٩٥٢ حين تم اقـرار قانون البترول الاسرائيلي الذي ينظم الامتيازات البترولية للتنقيب عن النفط . « وقد قامت عدة شركات نفط معظمها تشرف عليها الحكومة بحفر حوالي ٢٥٠ بئرا ابتداء من عام ١٩٥٤ ، غير ان هذه الآبار بما فيها ست آبار حفرت في المناطق المغمورة (البحرية) ازاء الساحل الفلسطيني ، كانت خاوية في غالبيتها »(١٣). والاكتشاف النفطي الوحيد الذي يستحق الذكر الذي تم تحقيقه نتيجة أعمال التنقيب الواسعة هذه هـو حقل حيليتس في النقب الذي تم اكتشافه في عـام ١٩٥٥ . بيد أن انتاج هذا الحقل « قد انخفض في السنوات الاخيرة انخفاضا حادا بحيث بلغ في عام ١٩٧٢ أقل من ١٠٠٠ برميل في اليوم نظير ٤١٦٠ برميلا يوميـا هي ذروة انتاجه في عام ١٩٦٦ . ولم يبق في هذا الحقل من الاحتياطي القابل للاستخلاص سوى ٦ر١ مليون برميل ، وكان في الاصل يبلغ ما مجموعه ١٦ مليون برميل »(١٤). وهذا يعني ان انتاج اسرائيل من النفط من مناطق فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ لا يسد حتى ١ ٪ من احتياجاتها الحالية من النفط البالغة ٧ ملايين طن ، وهذا يبين ليس افتقار اسرائيل الى النفط فحسب ، بل وافتقارها أيضا الى مصادر الطاقة الحيوية عموما مما يجعلها تعتمد في مصادر طاقتها اعتمادا شبه كلي على ما تنهبه من نفط حقول سيناء المحتلة وما تستورده من مناطق الخليج .

اما انتاج الغاز الطبيعي في اسرائيل من المناطق الواقعة داخل حدودها قبل عـــام ١٩٦٧ « فقد بلغ مؤخرا ما يوازي في معدله ٢٢٦٠ برميلا في اليوم من النفط اي ما يعادل نحو ١١٦ الف طن من النفط الخام سنويا . وكان قد عثر على ثلاثة حقول للغاز الطبيعي في منطقة عراد في النقب خلال السنوات ١٩٥٨ الى ١٩٦٠ ، واهم هذه الحقول هو حقل روش زوهر »(١٥) .

وقد تبين مؤخرا انه قد بولغ كثيرا في تقدير كميات الاحتياطي من الغاز الكامن في هذه الحقول ؛ « اذ لم يبق من هذا الاحتياطي الثابت وجوده فيها سوى ٢١ مليون قدم مكعب من أصل ٦٧ مليون قدم مكعب هي مجموع الاحتياطي القابل للاستخلاص الذي كان فيها أساسا »(١٦) . ومعنى ذلك ان هذا الاحتياطي من الغاز الطبيعي المتبقي في هذه الحقول سينضب خلال السنوات القليلة القادمة . وهذا أمر بالغ الاهمية لان اسرائيل تعتمد على هذا الغاز الطبيعي في « تشغيل معامل صناعات التعدين الرئيسية فيها مثل معامل البوتاس والبرومين في سدوم على البحر الميت ومعامل الفوسفات « أورون — ديمونه » في المنطقة الصناعية والتعدينية الهامة في صحراء النقب . وازاء قرب نضوب احتياطي هذه الحقول من الغاز الطبيعي ستضطر معامل الصناعة التعدينية المذكورة الى اللجوء الى النفط بدل الغاز الطبيعي وسيتطلب التحول الـــى النفط استثمارات كبيرة لتعديل اجهزة هذه المعامل ومعداتها »(١٧)، وذلك من شأنه ، بطبيعة الحال ، أن يزيد من أهمية النفط كمصدر طاقة للصناعة الاسرائيلية اذا لم يتم اكتشاف أو تأمين موارد جديدة للغاز الطبيعي في اسرائيل .

وبناء عليه ، فان كميات النفط والغاز الطبيعي المستخرجة من داخل حدود اسرائيل قبل حزيران ١٩٦٧ لا تشكل سوى نسبة ضئيلة جدا من احتياجات اسرائيل واستهلاكها من هاتين المادتين ، وان انتاجها منهما يوشك على النضوب نظـــرا لضآلة الاحتياطي المتبقي منهما . وهذا ما يجعل اسرائيل في حالة مـــن الاعتماد شبه الكلي على مصادر أخرى خارج حدودها قبل حزيران ١٩٦٧ لتأمين احتياجاتها من النفط المصدر الرئيسي والاساسي للطاقة المستخدمة فيها .

ثانيا : حقول النفط في سيناء : لعل من أبرز نتائج هزيمة حزيران ١٩٦٧ هي تحول اسرائيل الى دولة نفطية وذلك باستيلائها على حقول النفط المصرية في سيناء المحتلة التي أخذ انتاجها من النفط يسد معظم احتياجات الاستهلاك الاسرائيلي من هذه المادة الحيوية . أضف الى ذلك ان انتصار اسرائيل في حزيران ١٩٦٧ قد جعلها ممرا رئيسيا لنقل النفط من منابعه الغنية في منطقة الخليج الى أسواقه في أوروبا الغربية ، وذلك بخلق الواقع العسكري والجغرافي والاستراتيجي بصورة عامة لبناء خط انابيب ايلات — عسقلان الضخم وذلك نتيجة اقفال قنـــاة السويس واستتباب الاحتـــلال الاسرائيلي للاراضي المحتلة في حزيران ١٩٦٧ .

ولم ينقض وقت طويل على وقوع حقول النفط في سيناء في قبضة اسرائيل حتى عمدت هذه الى رفع انتاجها بنسبة ملموسة دون ان تراعـــي اعتبارات الاساليب الامثـــل لاستخراج النفط دون ارهاق الآبار واستنزافها مما قد يؤدي الى هدر قسم كبير مـــن الاحتياطي النفطي الكامن فيها ، فقد اتجهت خلال السنوات الاولى من احتلالها الى نهب اكبر كمية تتسنى لها من نفط حقول سيناء قبل أن تؤدي التطورات السياسية والعسكرية في المنطقة الى حرمانها منها ، وكمثال على ذلك ، « زاد ما انتجته اسرائيل من النفط من حقل بلاعيم في عام ١٩٧١ عما كانت تنتجه منه السلطات المصرية قبل احتلال سيناء بمقدار ٥ر١ مليون طن في السنة »(١٨) . وقد بلغ انتاج اسرائيل من النفط في سيناء ذروته في الثلث الاول من عام ١٩٧٢ حيث « بلغ معدل ما استخرجته نحـــو نصف مليون طن

شهريا »(١٩)، أي بمعدل ٦ ملايين طن سنويا ، بينما تشير التقديرات الى « انخفاض هذا الانتاج في عام ١٩٧٣ الى نحو ٥ ملايين طن ، كما يتوقع ان يستمـــر في الانخفاض في المستقبل بنسبة ٧ ٪ في السنة بسبب استنزاف الاحتياطي »(٢٠).

وتعتبر حقول سيناء من أقدم الحقول المنتجة للنفط في مصر . وكانت عمليات التنقيب عن النفط في سيناء قد بدأت عقب الحرب العالمية الثانية . « وتم اكتشاف اول حقل على البر الغربي من سيناء عام ١٩٤٨ وهو حقـــل راس مطارمة . وفي السنوات التالية اكتشفت حقول السدر وعسل ووادي فيران وابو رديس . ويبلغ عـــدد الحقول التي اكتشفت في بر سيناء ٩ حقول تقع جميعها على شاطىء خليج السويس وهي من الشمال الى الجنوب السدر وراس مطارمة وعسل وابو زنيمة وابو رديس ووادي فيران وبلاعيم البري وأكمه وام اليسر »(٢١). وهنالك عدد آخر من الحقول البحرية الواقعة في خليج السويس وأهمها حقول الامل وبلاعيم البحري والمرجان ، وهذا الاخير ما زال اكبر حقول النفط المصرية . ولدى احتلال الاسرائيليين لسيناء عام ١٩٦٧ وقعت في ايديهم جميع الحقول البرية التي كانت تديرها آنذاك « الشركة الشرقيـــة للبترول المصري » والتي تملكها كل من شركة « ايني » الايطالية والمؤسسة المصرية العامة للبترول . وقد عهدت ادارة الاحتلال الاسرائيلي الى شركة « نتيفي نفت » التابعة للجيش الاسرائيلي بادارة هذه الحقول والاشراف عليها بالتعاون مع شركة « ايني » الايطالية المذكورة .

« وحقل بلاعيم الذي نسفت القوات المصرية مرافقه الانتاجية في اول ايام حرب تشرين الماضي يشتمل على ١٠٥ آبار . وكان قد اكتشف في عام ١٩٥٤ ، وبلغ انتاجه في عام ١٩٧٢ معدل ٤٤ ألف برميل يوميا ، وقدر الاحتياطي الثابت المتوفر فيه في نهاية عـــام ١٩٧٢ بحوالي ٢٨٦ مليون برميل . ونفط حقل بلاعيم ثقيل ويبلغ ثقله النوعي ٢٨ درجة حسب مقياس معهد البترول الامريكي ، وهو يستخرج من طبقة منتجة على عمق ٨٥٠٠ قدم »(٢٢).

وتصدر اسرائيل القسم الاعظم من نفط سيناء عن طريق مينـــاء عسقلان بواسطة خطوط أنابيب تلتقي بخط أنابيب ايلات ــ عسقلان الضخم ، وهي تصدره وتستهلك بدلا منه النفط الذي تستورده من منطقة الخليج لان نفط سيناء ، كما أسلفنا ، ثقيل ومن النوعية الرديئة نظرا لكثرة الاملاح والكبريت فيه مما يجعل تكاليف تكريره مرتفعة ، كما انه يتطلب انواعا خاصة من المصافي لا تتوفر في اسرائيل ، اذ ان مصفاة حيفا كانت قد صممت على اساس استخدام النفط العراقي الذي هو أخف بنسبة ملموسة مـــن نفط سيناء . وقد « قدر دخل اسرائيل الصافي من العملات الاجنبية من انتاج النفط في سيناء بخمسين مليون دولار في العام »(٢٣)، وهذا يوازي تقريبا المبلغ الذي تنفقه اسرائيل على ما تستورده من النفط الخام .

ومن جهة اخرى ، منحت السلطات اسرائيل في عام ١٩٦٨ حقوق التنقيب عن النفط في سيناء الى شركة لاميدبار التي تملكها شركة « كينغز ريسورسيز » والتي يملك حصة كبيرة من أسهمها عضو في الحزب الجمهوري الامريكي هـــو السناتور جون كنغ احد اصحاب ملايين النفط في كولورادو، ولكن عمليات شركة « لاميدبار » المذكورة قد تعثرت، اذ حفرت ثلاث آبار تبين انها جميعا جافة(٢٤). وذلك رغم ان هنالك اشارات وتلميحات كثيرة تفيد بأن صحراء سيناء تعوم على بحيرة من النفط . فقد أوردت نشرة «عالم النفط» (١٩٧٣/٦/١٦) « ان خبراء جيولوجيين رفضوا الكشف عن اسمائهم قد أفادوا بأن من المحتمل ان تحتوي منطقة خليج السويس على ١٠٠ مليون طن من النفط ». وقد أكد هذا الامر مردخاي فريدمان المدير السابق لشركة « نتيفي نفت » والذي طرد لضلوعه في عدة عمليات من التلاعب والاختلاس في معدات وممتلكات شركة النفط المصرية ــ الايطالية

المشتركة التي كانت تدير حقول سيناء قبل الاحتلال الاسرائيلي . فقد نسبت صحيفة « الجيروسالم بوست » الى مردخاي فريدمان هذا قوله بأن احتياطي النفط الكامن في خليج السويس وشاطئيه الغربي والشرقي يتيح انتاج مليون طن من البترول يوميا(٢٥). ومهما بدا قول فريدمان هذا مفرطا في التفاؤل ، فان انتاج حتى عشر هذه الكمية يشكل بالنسبة لاسرائيل ثروة ضخمة وموردا كبيرا لمادة استراتيجية بالغة الاهمية تعتمد عليها دورة الحياة اعتمادا شبه كلي .

وحتى بدون هذه التوقعات الكبيرة لزيادة انتاج النفط من سيناء لا يغفل المختصون الاسرائيليون عن مدى أهمية الكميات الحالية من النفط التي يسرقونها من نفط سيناء والتي تتراوح ما بين ٥ الى ٦ ملايين طن في السنة . فعلى سبيل المثـال كتب الياهو سليفتر في صحيفة « هاآرتس » في ١٩٧٣/٢/١٥ يقول : « اننا نعتمد في الحقيقة على نفط سيناء لسد أكثر من ٨٠ ٪ من احتياجات استهلاكنا . ان انتاج اسرائيل لا يغطي أكثر من ٢ ٪ من الاستهلاك ، اما النسبة الباقية وهي ١٨ ٪ فتأتينا عبر مضيق شرم الشيخ . ومن هنا تظهر الاهمية الكبرى للمصادر النفطية في سيناء ، لان استهلاكنا عام ١٩٨٠ سيصل الى ١٤ مليون طن سنويا . ومن هنا تتأكـد ضرورة استمرار تزودنا بالنفط من سيناء وآسيا . وتشكل هذه الضمانة أحد البنود الاكثر أهمية في اية تسوية سلمية قد تتحقق ، وكذلك ، فان لاسرائيل مصلحة حيوية في استمـرار الاستقرار في منطقة استخراج النفط »(٢٦). وقد أوضح أهمية نفط سيناء بالنسبة لاسرائيل بصورة أوضح وأكثر دقة يسرائيل كوزولوف أحد أكبر خبراء النفط في اسرائيل في مقابلة أجرتها معه صحيفة « معاريف » الاسرائيلية فقال انه « لولا النفـط الذي تستخرجه شركة « نتيفي نفت » من حقول سيناء لكانت أزمة الطاقة أشد بما لا يقاس ممـا هو متوقع للولايات المتحدة او دول أوروبا » .وأضاف : « ان كمية النفط المستخرجة من حقول سيناء تبلغ نحو ١٠٠ ألف برميل في اليوم أي زهاء ٥ ملايين طن سنويا . وعندما تكون دولة استهلاكها للنفط ٧ ملايين طن قادرة على تزويد نفسها بنحو ٧٠ ٪ من حاجتها تخف مشكلتها ويتضاءل خطر نشوء أزمة طاقة لديها . وان اعـادة الحقول في سيناء الى المصريين ، دون اتفاقية تضمن الغـاء المقاطعة العربية وتزويد اسرائيل بالنفط خطرة جدا »(٢٧).

لعل هذه الحقائق عن الامكانيات النفطية الكبيرة الكامنة في شبه جزيرة سيناء المحتلة تميط اللثام عن المضامين والمغـازي الحقيقية لادعاءات المسؤولـين الاسرائيليـين وتصريحاتهم المتكررة عن ضرورة توفر « حدود آمنة » لاسرائيل لضمان استتباب السلام بين اسرائيل وجيرانها العرب مبررين بدعوى الحدود الامنـة المزعومة هذه مطامعهم التوسعية في الاراضي العربية المحتلة .

ثالثا : النفط المستورد عبر ميناء ايلات : رغم ان حرب حزيران ١٩٦٧ قـد حـولت اسرائيل الى دولة نفطية باستيلائها على حقول النفط في سيناء ، ورغم ان اسرائيل عمدت الى زيادة انتاج حقول سيناء هذه بنسبة ملموسة ، فان احتياجات اسرائيل المتزايدة الى النفط بعد عام ١٩٦٧ نتيجة ازدهار النمو الاقتصادي فيها قد جعلها بحاجة الى استيراد المزيد من كميات النفط ، لا سيما وان نفط سينـاء ثقيل ومشبع بالشوائب الكبريتيـة والاملاح مما يجعله غير مناسب للتكرير في مصفاة حيفا ، ولذلك فهي تصدر قسما كبيرا منه وتستورد بدلا منه نفطا خفيفا يناسب أجهزة التكرير في مصفاة حيفا ويلبي احتياجات نمط الاستهلاك الاسرائيلي من المنتجات البترولية . والأمر الثابت بشأن مصدر هـذه المستوردات الاسرائيلية من النفط هو انها تأتيها من منطقة الخليج العربي ، وانها تفرغ في اسرائيل عبر ميناء ايلات . ويغلب الظن ان مصدر هذا النفط هو ايران ، وعلى وجه

التحديد شركة النفط الوطنية الايرانية ، وهي مؤسسة نفط حكومية أصبح يحق لهـا بموجب عقودها مع شركات الكونسورتيوم التي تستغل النفط الايراني الحصول على كميات متزايدة من النفط الخام لتتصرف به حسب مشيئتها . ويعتقد ان ايران هي أيضا مصدر النفط الخام الذي يفرغ في ميناء ايلات وينقل منها الى شواطىء البحر المتوسط عبر خط انابيب ايلات ــ عسقلان وذلك ابتداء من مطلع عام ١٩٧٠ . بيد ان المطلع على اوضاع صناعة النفط العالمية وأساليب سير عملياتها يدرك انه يستحيل ان يجزم المرء بأن يكون النفط الذي يشحن من الخليج العربي الى ميناء ايلات الاسرائيلي هو جميعه ايراني ، ذلك ان سلطة الدولة في البلد المنتج للنفط تتوقف عند حدود شحن النفط المنتج فيها في الناقلة في ميناء التصدير حيث يصبح النفط ملك شركة النفط المنتجة له والتي ترتبط بشبكة معقدة من شركات ومؤسسات التوزيع العالمية . وبعبارة اخرى ، انه يستحيل على حكومة البلد المنتج للنفط بموجب ظروف سير عمليات شركات النفط السائدة حاليا ان تضبط وجهة سير ناقلات النفط بعد ان تغادر ميناء التصدير وان تكون علـى يقين بشأن المستقر الاخير للنفط الذي شحن منها ، فقد يفرغ هذا النفط في احد الموانىء ثم يعاد تحميله في ناقلة أخرى ويشحن الى ميناء ايلات او خلافه . ومما يؤكد ان شركات النفط في الخليج ، لا سيما التي تعمل في الاقطار العربية تقوم بعمليـات مريبة في هذا الخصوص السرية التامة والتكتم الشديد الذي تحيط به السلطات الاسرائيلية عمليات شحن النفط الى ميناء ايلات وتفريغه في ذلك الميناء . وبناء على ما تقدم بوسع المرء ان يقول بأنه رغم ان الاحتمال الاكبر هو أن ايران هي المصدر الاساسي للنفط الخام الذي يشحن من منطقة الخليج العربي الى ميناء ايلات الاسرائيلي فانه ليس هنالك ما يؤكد بأن ايران هي المصدر الوحيد ، وليس بالامر المستحيل ولا المستهجن ان تعقد بعض شركات النفط الغربية العاملة في الاقطار العربيـة في الخليج صفقة مع السلطـات الاسرائيلية لنقل جزء من النفط الذي تستخرجه من هذا القطـر العربي او ذاك الى شواطىء البحر المتوسط القريبة من أسواق النفط الاوروبية عبر خط انابيب ايلات ــ عسقلان الضخم ، وذلك على سبيل الاقتصاد في نفقات نقله ولايجاد بديل دائم لقناة السويس المعطلة منذ حرب حزيران ١٩٦٧ .

ومما يؤكد هذه الظنون ان مسألة شحن نفط الخليج الى ميـناء ايلات الاسرائيلي كانت قد بدأت عقب حرب السويس عام ١٩٥٦ . حيث أن من أبرز الثمار التي جنتهـا اسرائيل نتيجة عدوانها ذاك هي فتح مضائق تيران وخليج العقبة (ايلات) أمام الملاحة الاسرائيلية نتيجة وضع قوات طوارىء دولية في موقع شرم الشيخ الاستراتيجي ممـا فتح أمام اسرائيل أبواب التعامل التجاري مع الاقطار الواقعة على شواطىء البحـر الاحمر والخليج العربي وكذلك المحيط الهندي وافريقيا الشرقية وجنوب شرق آسيا .

فأثناء حرب السويس عام ١٩٥٦ عانت اوروبا الغربية من أزمة نفطية خانقة نتيجة تعطل الملاحة في قناة السويس ، وبالتالي تأخر تدفق شحنات الخليج العربي اليهـا . ويومئذ ، ارتفعت أصوات كثيرة في اوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية مطالبة بايجاد بديل لطريق النفط عبر قناة السويس بمد خطوط لانابيب النفط عبـر اسرائيل تصل ميناء ايلات بشواطيء اسرائيل على البحر المتوسط . « وكان أحد رواد هـذه الخطة هارولد لوبل وهو مستشار لمؤسسة راند المختصة بالابحاث الاستشاريـة في أمريكا ، وكان في السابق باحثا في معهد فولك الاقتصادي الاسرائيلي »(٢٨). ولكن يبدو ان الظروف السياسية في المنطقة والاعتبارات الاقتصادية اقتضت ارجاء تنفيذ مثل هذا المخطط الى ظروف مؤاتية بصورة افضل . واستعيض عن هذا المخطط بزيادة طاقـة تخزين النفط في اقطار اوروبا الغربية بحيث يكون لديها مخزونا من النفط يعينها علـى

اجتياز ازمة طويلة نسبيا وكذلك ببناء ناقلات للنفط ضخمة الحجم تقلل من كلفة نقل النفط عبر طريق رأس الرجاء الصالح الطويل . واقتصرت الخطط الاسرائيلية على بناء خط أنابيب صغير قطره ١٦ بوصة طاقته حوالي ٥،٨ ملايين طن من النفط في السنة بين ميناء ايلات وميناء حيفا حيث توجد مصفاة النفط الاسرائيلية وذلك لسد احتياجات الاستهلاك الاسرائيلي فقط . وطويت فكرة جعل البر الاسرائيلي طريقا بديلا لنقل نفط الخليج العربي الى اوروبا بانتظار ظروف اخرى ، وهذا ما تم فعلا ، حيث باشر المسؤولون الاسرائيليون الاعداد لبناء خط أنابيب ايلات ـــ عسقلان الضخم بعد حرب حزيران ١٩٦٧ مباشرة ، وأصبح جاهزا لنقل النفط في مطلع عام ١٩٧٠ ، وبذلك لم تحل مشكلة تموين اسرائيل بالنفط فحسب ، بل أصبحت اسرائيل طريقا رئيسيا لتموين اوروبا الغربية بالنفط مما يزيد من درجة حيوية ترابط المصالح بين الاوساط الاحتكارية في اوروبا الغربية ووجود اسرائيل قوية وقادرة على حماية طريق النفط هذا.

اما قبل ان تفتح امام اسرائيل بوابة البحر الاحمر والخليج وافريقيا وآسيا عقب عدوان السويس عام ١٩٥٦ ، فكانت اسرائيل تلاقي مصاعب شديدة في التمون بالنفط، وكانت تضطر الى استيراده من فنزويلا مما يكلفها غاليا نظرا لارتفاع ثمن النفط الفنزويلي عن ثمن النفط الايراني الرخيص ، وكذلك نظرا لارتفاع كلفة نقل النفط من فنزويلا الى اسرائيل .

وبعبارة موجزة . **لقد فتحت حرب السويس عام ١٩٥٦ امام اسرائيل بوابة مستودع النفط الضخم في منطقة الخليج العربي لتغرف منها ما تحتاج اليه من نفط بكلفة قليلة ، أما حرب حزيرأن ١٩٦٧ فقد حولت اسرائيل الى واحدة من دول النفط ذوات الشأن في الشرق الاوسط باستيلائها على نفط سيناء من جهة ، ولانها أصبحت بفضل خط أنابيب ايلات ـــ عسقلان احدى طرق مرور النفط الرئيسية بين مناطق الانتاج في الخليج والاسواق في اوروبا .**

خطوط انابيب النفط في اسرائيل

يوجد في اسرائيل خطان رئيسيان لنقل النفط الخام اولهما صغير وهو خط ايلات ـــ حيفا وثانيهما هو خط ايلات ـــ عسقلان ، وهو خط عالمي كبير انشىء لتيسير نقل النفط الخام من منابعه في الخليج العربي الى أسواقه في أوروبا ، وكذلك يوجد في اسرائيل عدد آخر من خطوط الانابيب الصغيرة لنقل النفط الخام ومنتجات النفط والغاز الطبيعي . وفيما يلي نبذة عن كل من هذه الخطوط .

اولاً : **خط أنابيب ايلات ـــ حيفا** : وهو خط قطره ١٦ بوصة وطاقته السنوية ٥،٨ مليون طن ، ويبلغ طوله زهاء ٤١١ كيلومترا وقد تم انشاؤه عام ١٩٥٨ بعد أن تم لاسرائيل ما استهدفته من مشاركتها في حملة العدوان الثلاثي البريطاني ـــ الفرنسي ـــ الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ الا وهو فتح خليج العقبة والبحر الاحمر للملاحة الاسرائيلية مما فتح لاسرائيل منفذا الى منابع النفط الغزيرة في منطقة الخليج العربي مثلما فتح أمامها مجالات التصدير والتجارة والاتصال البحري مع منطقة شرق افريقيا وجنوب آسيا . « وقد قامت ببناء هذا الخط شركة « تريكونتيننتال بايب لاينز » وهي متفرعة من شركة نفط باكلي الامريكية ، كما ان عددا آخر من شركات الاستثمار الامريكية ومنها شركة « أمبال » اشترت أيضا أسهما في شركة تريكونتيننتال المذكورة »(٢٩). ويعتبر خط الانابيب هذا ، الذي ما كان بالامكان ان يرى النور لولا فوز اسرائيل بانفتاح خط الملاحة أمامها في خليج العقبة والبحر الاحمر كأحد ثمرات عدوانها عام ١٩٥٦ ، محاولة لتنشيط دور ميناء حيفا السابق للعام ١٩٤٨ كمحطة نفط حيوية .

ويسير خط الانابيب هذا في معظم اجزائه بمحاذاة طريق ايلات ــ بئـر السبـع الجديدة ، ومن بئر السبع الى اسدود على ساحل البحر المتوسط ، ومن أسدود الـى حيفا بمحاذاة الطريق الساحلي .

لقد انشيء هذا الخط ، أساسا ، ليتولى نقل النفط الخام المستورد من مناطق الخليج العربي من ميناء ايلات (العقبة) الى معمل تكرير النفط في حيفا ، بيد انه بعد ان تم في عام ١٩٧٠ تشغيل خط ايلات ــ عسقلان الضخم تم الاستغناء عن الجزء الجنوبي من خط ايلات ــ حيفا في أغراض نقل النفط الخام من ميناء ايلات الى مصفاة حيفا ، وأصبح هذا الجزء الجنوبي (ايلات ــ أسدود) يستخدم في تزويد المصانع الواقعة في جنـوب اسرائيل بزيت الوقود الثقيل والنفط الخام ، بينما أصبحت مصفاة النفط في حيفا تزود بالنفط الخام المستورد عبر ميناء ايلات بواسطة خط أنابيب ايلات ــ عسقلان وذلـك بفضل وصلة بين خط انابيب ايلات ــ عسقلان الضخم هذا والجزء الشمالي من خط ايلات ــ حيفا الصغير ابتداء من ميناء أسدود .

ثانيا : **خط أنابيب ايلات ــ عسقلان** : يمتد هذا الخط من ميناء ايلات (العقبة) على البحر الاحمر الى ميناء عسقلان على البحر الابيض المتوسط ، ويقطع اسرائيل من أقصى جنوبها الى وسط ساحلها المتوسطي ، ويبلغ طوله نحو ١٦٠ ميـلا (٢٥٤ كيلومترا) وقطره ٤٢ بوصة . وهو يعتبر خط نفط عالمي اكثر منه خطا محليا لان الغرض من انشائه هو المساهمة في حل مشكلة تزويد اوروبا الغربية بنفط الخليج العربي بعد اقفال قناة السويس نتيجة حرب حزيران عام ١٩٦٧ . وقد بدأ الاسرائيليون يخططون لانشاء هذا الخط بعد انتصارهم في حرب حزيران ١٩٦٧ بأمد قصير ذلك أن التفكير بانشاء مثل هذا الخط انما يعود الى عام ١٩٥٦ يوم أن اقفلت قناة السويس نتيجة العدوان الثلاثي على مصر ، وما رافق ذلك من نسف خطوط نقل النفط الممتدة من حقول النفط العراقي في كركوك عبر سوريا مما عرض اقطار اوروبا الغربية الى ازمة نفط خانقة نظرا لانها لم تكن مستعدة آنئذ لمثل هذا الانقطاع ، اذ ان طاقة مرافق تخزين النفط فيها كانت ضئيلة لا تكفي لسد احتياجاتها الا لاسابيع قليلة وهو الامر الذي تداركته فيما بعد فزادت طاقة التخزين لديها بحيث أصبحت حاليا تكفي احتياجاتها لاكثر من شهرين ، ومـن المقرر حسب خطط منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ان تصبح هذه الطاقة قبل نهاية عام ١٩٧٤ تكفي احتياجات استهلاكها الطبيعي لمدة ثلاثة شهور على الاقل .

« لقد تم انشاء خط ايلات ــ عسقلان هذا وبوشر نقل النفط فيه بطاقة أولية مقدارها نحو أربعمائة الف برميل يوميا في شهر شباط (فبراير) عام ١٩٧٠ ، وقد بلغت تكاليف انشائه ١١٣ مليون دولار »(٣٠).

لقد كان الغرض الاساسي من انشاء وتنفيذ مشروع خط أنابيب ايلات ــ عسقلان هو هدف سياسي بالدرجة الاولى أكثر منه تجاري ، الا وهو التقليل من أهمية قنـاة السويس وتخفيف الضغوط الدولية ، ولا سيما الاوروبية ، على اسرائيل لفتحها . بيد أن نجاح الحكومة الاسرائيلية في زيادة طاقة ضخ النفط في هذا الانبوب خلال فترة وجيزة نسبيا من حوالي اربعمائة الف برميل يوميا في شباط (فبراير) ١٩٧٠ الى نحو تسعمائة الف برميل يوميا (٤٥ مليون طن سنويا) في أواسط عام ١٩٧٣ قد جعل من خط الانابيب هذا مشروعا مربحا من الناحية التجارية أيضا « ينافس الان وفي المستقبل كلا من قناة السويس وخط سومد المعتزم انشاؤه فيمصر من شاطيء خليج السويس الىالاسكندرية، وهو الخط الذي اختارت الحكومة المصرية ان تعهد ببنائه الى شركة بكتل الامريكية بكلفة ٣٩٧،٦ مليون دولار وعقدت اتفاقا بهذا الشأن مع الشركة الامريكية المذكورة قبـل نشوب حرب اكتوبر بخمسة أيام فقط . وخط سومد هذا الذي أصبح قيد التنفيذ الان

سيتألف من خطين ضخمين قطر الواحد منهما ٤٢ بوصة وطوله ٢١٠ أميال (حوالي ٣٤٠ كيلومترا) ، ومن المقرر ان يبدأ تشغيله في نهاية عام ١٩٧٥ بطاقة اولية مقدارها ٤٠ مليون طن في السنة (٨٠٠٠٠٠ برميل / يوميا) ترتفع الى ٨٠ مليون طن / سنويا في منتصف عام ١٩٧٦ مع امكانية حدوث زيادة أخيرة في طاقته لتصل الى ١١٠ ملايين طن في السنة ، وهذه الكمية تساوي تقريبا طاقة جميع أنابيب نقل النفط التي تصب في موانىء شرق البحر الابيض المتوسط بما فيها خط أنابيب ايلات ــ عسقلان ، علما بأن مجموع ما شحن عبر قناة السويس من النفط خلال آخر سنة كاملة من تشغيلها قبل اقفالها في حرب حزيران ١٩٦٧ قد بلغ ١٦٧ مليون طن »(٣١).

ان خط انابيب نفط ايلات ــ عسقلان لم يبلغ اقصى مداه بعد ، اذ يمكن تشغيلــه بطاقته القصوى المقررة ومقدارها ٦٠ مليون طن سنويا (بمعدل ١،٢ مليون برميل / يوميا) بتوفر أمرين اثنين **اولهما** اقامة المزيد من محطات الضخ ومرافــق التخزيــن والتحميل في ميناء ايلات وايضا في ميناء عسقلان الذي يصب فيه هذا الانبوب. و**ثانيهما** هو التعاقد مع الجهات المعنية على نقل المزيد من نفط الخليج العربي عبر هذا الخط . وتوفر اسرائيل الظروف الملائمة لتحقيق مثل هذه التعاقدات الخفية لنقل نفط الخليــج العربي بضرب نطاق محكم من السرية والكتمان على كل ما يتعلق بعمليات نقل النفط في هذا الخط . وقد أصدرت الحكومة الاسرائيلية لهذه الغاية قانونا « حظرت بموجبه نشر أية معلومات عن الناقلات التي تدخل الموانىء الاسرائيلية او تخرج منها »(٣٢). ولا ريب ان الحكومة الاسرائيلية ستتمكن ، بفضل السرية التي تحيط بها عمليات شحن النفــط بواسطة خط ايلات ــ عسقلان ، من ايجاد الزبائن اللازمين لرفع طاقة نقل هــــذا الانبوب الى حدها الاقصى وهو ٦٠ مليون طن ، وليس من الضروري ان يقتصر هؤلاء الزبائن على شركة النفط الوطنية الايرانية وشركات النفط المستقلة الصغيرة الاخرى العاملة في ايران ، بل من الممكن جدا ان يشمل شركات النفط الغربية ولا سيما الامريكية المساهمة في الكونسورتيوم الذي يستغل النفط الايراني ، ومعظم شركات النفط هذه لها مصالح نفطية واسعة في بلدان النفط العربية .

ان جزءا من النفط المستورد عبر ميناء ايلات والذي ينقل بواسطة خط ايــلات ــ عسقلان يتم تحويله الى مصفاة حيفا لتكريره للاستعمال المحلي بواسطة الجزء الشمالي (أسدود ــ حيفا) من خط ايلات ــ حيفا المشار اليه آنفا . ومن جهة اخرى ، يلتقي بخط ايلات ــ عسقلان خط نفط صغير يفرغ فيه النفط المستخرج مــن حقول سيناء فيصدر قسم منه من ميناء عسقلان كما يتم نقل القسم الاخر لتكريره في مصفاة حيفــا بواسطة الجزء الشمالي (اسدود ــ حيفا) من خط ايلات حيفا .

ان طريق ايلات ــ عسقلان لم يعد فقط ممرا لنقل النفط الخام من منابعه في الخليج العربي الى اسواقه في اوروبا ، بل أصبح في السنوات الاخيرة طريق ترانزيت عالمي هام لنقل البضائع والسلع والمواد الخام من بلدان افريقيا الشرقية الى اوروبا وبالعكس وذلك نتيجة اقفال قناة السويس . « وقد اقيم هذا الجسر البري منذ ثلاثة أعوام ، وتولت اقامته شركة « كيدم » المتفرعة من شركة « تسيم » للملاحة الاسرائيلية . ولم يصل هذا الجسر البري في مستوى تشغيله ونشاطه المستوى الذي يخوله ان يكون بديلا لقناة السوكس المقفلة ... وفي افضل الاوقات ، نقل بواسطة هذا الجسر نحو ستين الف طن من البضائع في العام بين اوروبا وشرق افريقيا ... واستمر الجسر في العمل ، وكانت هناك فكرة لتوسيعه قبل حرب « يوم الغفران » ، ولكن بعد اغلاق مضائق باب المندب اغلق الجسر تلقائيا كذلك ... والان توجد رغبة في احياء الجسر ، بل وحتى توسيعه » ... هذا ما اوردته اذاعة اسرائيل عن هذا الجسر البري (ر.أ.أ.

في ١٩٧٤/١/٨). وهذا جميعه انما يبين الى أي مدى سينافس خط ايلات ــ البحر المتوسط المركز الاستراتيجي للاقطار العربية المجاورة مصر ولبنان وسوريا اذا ما بقي خليج العقبة والبحر الاحمر مفتوحا امام الملاحة الاسرائيلية واذا ما بقيت البواخر والناقلات الاسرائيلية تسرح وتمرح عبر مضيق باب المندب ايضا .

ثالثا : **خط أنابيب حيفا ــ تل ابيب** : وهو خط صغير قطره ٨ بوصات ويمتد على الساحل الفلسطيني بين المدينتين بطول ٥٨ ميلا (نحو ٩٠ كيلومترا) ، ومهمته نقل منتجات النفط المكررة في مصفاة حيفا الى المجمع الصناعي والسكاني والعمراني في مدينة تل ابيب وجوارها وطاقته نحو نصف مليون طن سنويا .

رابعا : **خط انابيب حيلتس ــ أسدود** : وهو ينقل النفط الخام المستخرج من حقل حيلتس والحقول المجاورة له الى ميناء أسدود حيث يتصل بخط أيلات ــ حيفا . ويبلغ طول هذا الخط ١٤ كيلومترا وقطره ثماني بوصات .

خامسا : **خط انابيب روش زوهر ــ سدوم** : وهو خط مهمته نقل الغاز الطبيعي المستخرج من حقل روش زوهر الى منطقة سدوم لتشغيل معامل الصناعات التعدينية والبوتاس القائمة هناك ، وهو يسير في خط مستقيم بين المنطقتين ، وطوله حوالي ٢٩ كيلومترا وقطره ٦ بوصات ، وطاقته السنوية ما يعادل ٦٠ الف طن من النفط .

سادسا : **خط أنابيب روش زوهر ــ ديمونة ــ أورون** : مهمة هذا الخط نقل الغاز الطبيعي من حقل روش زوهر والحقول المجاورة الى منطقة الصناعات التعدينية الهامة في النقب في المناطق المجاورة لديمونة وأورون ، ويمتد هذا الخط باتجاه جنوبي غربي حتى ديمونة ومنها الى اورون ، وطوله حوالي ٤٠ كيلومترا ، وقطره ٦ بوصات .

سابعا : **خط أنابيب روش زوهر ــ أسدود** : ينقل هذا الخط الغاز الطبيعي للمصانع ومحطة الكهرباء في أسدود ، ويبلغ طوله ١٢٠ كيلومترا وقطره ٦ بوصات .

موانيء النفط في اسرائيل

بعد تشغيل خط أنابيب ايلات ــ عسقلان أصبح اهم مينائين للنفط في اسرائيل هما ميناء ايلات وميناء عسقلان بعد أن كان ميناء حيفا قبل عام ١٩٥٨ هو الميناء النفطي المهم في اسرائيل بالاضافة الى انه كان وما يزال هو الميناء التجاري الاهم من حيث حركة البضائع غير النفطية فيه سواء الصادرات الاسرائيلية الى اوروبا وامريكا او الواردات الاسرائيلية من هذه البلدان .

وقد طورت اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ مرافق التفريغ والتحميل وارصفة استقبال السفن وناقلات النفط في ميناء ايلات تطويرا هاما بحيث « أصبحت فيه أرصفة استقبال لناقلات النفط عميقة المياه تستطيع ان تستوعب ناقلات ضخمة جدا تصل حمولتها الى ٣٥٠ الف طن »(٣٣).

أما ميناء عسقلان فقد انشأت فيه اسرائيل مرافق رسو عائمة تستطيع ان تستقبل حاليا في آن واحد ناقلتين للنفط حمولة الواحدة منهما ١٥٠ الف طن ، وكذلك ناقلتين اخريين حمولة الواحدة منهما ٨٠ الف طن . وهذا يناسب نمط تجارة النفط العالمية تماما ، فالاربح حاليا هو نقل النفط من منابعه في الخليج بواسطة الناقلات الضخمة العملاقة حيث تتوفر هناك مرافق لشحن مثل هذه الناقلات بالنفط ولذلك زود ميناء ايلات بمرافق لاستقبال مثل هذه الناقلات العملاقة (٣٥٠ الف طن) ، أما موانيء أقطار اوروبا الغربية المستهلكة للنفط فمعظمها مياهها ضحلة لا تستطيع استقبال الناقلات الضخمة كما لا تتوفر فيها مرافق لتفريغ مثل هذه الناقلات ، ولذلك

زود ميناء عسقلان بمرافق ارساء وشحن للناقلات التي لا تتجاوز حمولتها ١٥٠ الـف طن وهي تساوي تقريبا اكبر الناقلات التي تستطيع معظم موانىء اوروبا استقبالها .

وبطبيعة الحال ، ما زال ميناء حيفا يعتبر أحـد الموانىء النفطية في اسرائيـل ، ولكنه الان يصدر كميات محدودة من منتجات النفط بعد أن كان في الماضي المستورد للنفط الخام من فنزويلا وغيرها .

مصافي النفط في اسرائيل

غنمت اسرائيل بين ما غنمته من اراضي وممتلكات وخيرات الشعب الفلسطينـي نتيجة المؤامرة الاستعمارية ـ الصهيونية ـ الرجعية العربية عام ١٩٤٨ معمل تكرير النفط في حيفا الذي كان في طليعة مصافي النفط التي انشئت في المنطقة العربية وذلك لتزويد قوات الاحتلال الاستعماري البريطاني باحتياجاتها من منتجـات النفط اذ أن فلسطين زمن الانتداب البريطاني كانت مقر القيادة العامة لقوات الاستعمار البريطاني في منطقة الشرق الاوسط بأكملها . وكانت مصفاة حيفا تزود بالنفط الخام من خـط انابيب النفط الوارد من حقول النفط في كركوك العراق . وبعد قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ توقف ضخ النفط في خط الانابيب المذكور فأصبحت مصفاة حيفا تزود بالنفط الخام مـن فنزويلا وغيرها بكلفة عالية نسبيا الى ان تم انشاء خط ايلات ـ حيفا عام ١٩٥٨ المذكور انفا ، فأصبحت مصفاة حيفا تزود بالنفط الخام الرخيص من منابعه الغزيرة في الخليج العربي اثر انفتاح سبل الملاحة امامها في خليج العقبة والبحر الاحمر . وبعد حزيران ١٩٦٧ أصبحت حيفا تزود بالنفط الخام من مصدرين أحدهما حقول النفط المصرية المحتلة في سيناء والثاني خط انابيب ايلات ـ عسقلان بواسطة وصلة انابيب تصله عند ميناء أسدود بالجزء الشمالي من خط انابيب ايلات ـ حيفا . وقد قام الاسرائيليون بتوسيع وتحديث مصفاة حيفا بحيث أصبحت طاقتها الاجمالية السنوية حوالي ستة ملايين طن في السنة اي بمعدل ١٢٠،٠٠٠ برميل يوميا .

ومن جهة اخرى قام الاسرائيليون في السنوات الاخيرة ببناء مصفاة ثانية للنفط في ميناء أسدود على ساحل البحر المتوسط ، وقد تم تشغيل هذه المصفاة في شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٧٣ بطاقة اجمالية مقدارها ٨٠،٠٠٠ برميل يوميا أي حوالي اربعـة ملايين طن سنويا وبذلك ارتفعت طاقة تكرير النفط المتوفرة لدى اسرائيل ، الى حوالي عشرة ملايين طن سنويا اي ما يعادل ٢٠٠،٠٠٠ برميل يوميا ، بفائض عن احتياجات اسرائيل مقداره ٦٠٠٠٠ برميل يوميا (٣ ملايين طن سنويا) مما جعل اسرائيل دولة مصدرة للنفط لمدة سنوات قادمة ومما يوفر لاسرائيل فائضا في طاقة تكرير النفـط لمدة من الزمن .

المخزون الاسرائيلي من النفط

ان الحديث عن طاقة تكرير النفط لدى اسرائيل يستدعي الحديث عن سعة مرافق تخزين المنتجات النفطية لديها . وخلال اكتوبر وبعدها أشارت مصادر اسرائيليـة رسمية عدة مرات الى انه لا داعي لاي قلق من حدوث نقص في أصناف الوقود النفطي في اسرائيل لان لديها مخزونا كبيرا جدا من هذه المواد يكفي احتياجاتها لمدة طويلة، ورغم أن السلطات الاسرائيلية تعتبر أية معلومات عن مخزونها النفطي من أسرار الامن التي تتكتم حولها تكتما شديدا ، فان التصريحات الرسمية الاسرائيلية التطمينية حول توفر مخزون كبير من المواد النفطية في اسرائيل قد لا تكون مجانبة للصواب لان القيـادة الاسرائيلية تدرك قبل اية جهة اخرى مدى سياساتها العدوانية التوسعية وابعادهـا وبالتالي تولي أمور توفير كميات كبيرة من معظم المواد الحيوية الضرورية لتنفيذ هـذه

السياسات ، وفي طليعتها النفط ، اهتمامها الاول ، بالاضافة الى التخطيط الشامل لجميع مرافق البلاد بما فيها الابنية وخطوط المواصلات الخ . . . وفق هذه الاعتبارات . بيد أن هذا لا يعني استحالة خنق اسرائيل نفطيا ، فان ذلك ممكن اذا ما حرمت اولا من حقول النفط المصرية في سيناء المحتلة ثم حرمت من التزود بالنفط من الخليج العربي سواء باقفال مداخل خليج العقبة في وجه الناقلات التي تقصدها او باقفال مضيق باب المندب امام هذه الناقلات ، واذا اضيف الى ذلك اتباع البلدان العربية المنتجة للنفط سياسة صارمة في مقاطعة كل دولة او شركة او جهة تعمل على او تساعد في تزويد اسرائيل بالنفط بصورة مباشرة او غير مباشرة وهذا يقتضي أول ما يقتضي بطبيعة الحال، أن تتم لهذه الاقطار العربية المنتجة للنفط السيطرة الفعلية على النفط المنتج فيها بدل ان يكون بتصرف شركات النفط الاحتكارية ، كما هو عليه الحال الان مما يجعل من المستحيل تتبع خطوط سيره وبالتالي تسربه الى اسرائيل بصورة مباشرة او غير مباشرة .

النفط هاجس اسرائيل الدائم

لعل الطرفة التي روتها غولده مئير للمستشار الالماني الغربي فيلي برانت اثناء زيارته لاسرائيل العام الماضي بقولها « اننا (الاسرائيليون) ان غفرنا لموسى كل شيء فلن نغفر له انه شاء ان يقودنا في هذه المنطقة الغزيرة بالنفط ليستقر بنا في البقعة الوحيدة من هذه المنطقة التي لا نفط فيها » ، لعلها قد عبرت بذلك بصورة مازحة عن الهاجس الذي يعتمل في نفوس المسؤولين الاسرائيليين بصورة دائمة وهو افتقار ارض فلسطين الى كميات هامة من النفط . فقد أولت السلطات الاسرائيلية ، منذ مطلع الخمسينات ، أمور التنقيب عن النفط في أرض فلسطين المحتلة أقصى اهتمامها ، وفتحت الابواب واسعة أمام شركات النفط الاجنبية والمحلية للقيام بعمليات التنقيب ، كما ان الحكومة الاسرائيلية ذاتها انفقت على مثل هذه العمليات ، منذ اقرار قانون البترول الاسرائيلي عام ١٩٥٢ ، مبلغ ٢٥ مليون جنيه استرليني ، بيد أنها لم تجن من ثمار هذه المجهودات من النفط والغاز الطبيعي الا كميات محدودة لم تتجاوز قيمتها الاجمالية ١٨ مليون جنيه استرليني »(٣٤).

وقد أفاض الصحفي الاسرائيلي « يوفيل اليتسور » في شرح هذا الامر في صحيفة « معاريف »(٣٥) فقال : « ان الشركات الاجنبية توقفت عن التنقيب في اسرائيل بعد أن أنفقت شركة « بلكو » الامريكية ١١ مليون دولار ، كما ان شركة « ليبيدوت » ، وهي الشركة الوحيدة التي تعمل في اسرائيل برؤوس اموال اميركية حفرت سبع آبار دون ان تصل الى أي دليل يبشر بوجود النفط . وقد تم خلال السنوات الثماني عشرة الماضية حفر ١٣٤ بئرا جافة استثمر فيها ١٥٠ مليون ليرة اسرائيلية، فكانت النتيجة هي الوصول الى الاستنتاج المؤلم بأن اسرائيل هي دولة غير نفطية » .

بيد ان حرب حزيران عام ١٩٦٧ كانت بمثابة نقطة تحول هامة على الصعيد النفطي في اسرائيل ، اذ حولت اسرائيل الى دولة نفطية تنتج من حقول سيناء المحتلة ما يكفي معظم احتياجاتها من النفط ، كما ان جملة نتائج هذه الحرب ، ومن بينها اقفال قناة السويس ، قد خلقت الظروف الملائمة لانشاء خط انابيب ايلات ــ عسقلان الضخم مما جعل اسرائيل ممرا عالميا هاما في تجارة النفط الدولية مما زاد من أهمية الدواعي السياسية والاقتصادية للدعم الغربي الاستعماري والاحتكاري للوجود الاسرائيلي .

وازاء هذا الواقع السياسي والاقتصادي والنفطي الجديد مضت اسرائيل قدما ، بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، في خططها النفطية فبنت مصفاة نفط ثانية في أسدود بدأ

تشغيلها في حزيران (يونيو) الماضي ، كذلك افتتح وزير المالية الاسرائيلي بنحاس سابير في الاسبوع الاول من الشهر ذاته ، وبمناسبة الذكرى السادسة لحرب حزيران، « معهد علوم البترول الاسرائيلي » في « رامات ابيب » من اجل اعداد وتأهيل الكفاءات البشرية المتخصصة في ميدان صناعة النفط . وفي هذه المناسبة أعلن الدكتور تسفي دينشتاين نائب وزير المالية الاسرائيلي والمسؤول عن شؤون النفط ان « عائدات قطاع النفط في اسرائيل الواردة للخزينة الاسرائيلية قد أصبحت تزيد على ثلاثة آلاف مليون ليرة اسرائيلية كما ان عدد العاملين في قطاع النفط في اسرائيل قد أصبح زهاء سبعة آلاف شخص »(٣٦) . وقد بين « ميناحيم حين » عميد معهد البترول الاسرائيلي ان هيئة التدريس فيه ستتألف من نواة قوامها نحو اربعين الى خمسين محاضرا متخصصا بشؤون النفط وان مباني هذا المعهد قد كلفت ٦ر١ مليون ليرة اسرائيلية منها ٤٠٠ الف دولار تبرعات امريكية (أي معظم المبلغ) ، كذلك فانهم يعتزمون اصدار اول قاموس بمصطلحات النفط باللغة العبرية »(٣٧) . ومن جهة أخرى ، قدرت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية حجم الاستثمارات المالية المقررة لتطوير الصناعات البتروكيميائية في اسرائيل خلال السنوات العشر القادمة بحوالي ٤٠٠ مليون دولار(٣٨) .

ولم تيأس الجهات الاسرائيلية المعنية بعد من العثور على النفط في الاراضي الواقعة داخل حدود اسرائيل قبل حزيران ١٩٦٧ ، وقد عبرت « الجيروسالم بوست » عن هذه الامال قائلة(٣٩) : « ان الجيولوجيين الاسرائيليين مقتنعون بأن في اسرائيل ، بغض النظر عن سيناء ، كميات كبيرة من النفط ما زالت تنتظر من يكتشفها (من ضمنها منطقة رفح باستثناء سيناء ذاتها) ، ولكن اكتشافها يحتاج الى استثمار مالي كبير . واستخلصت ندوة حول النفط عقدت قبل شهرين على ان التنقيب يكلف على الاقل ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية في السنة لحفر ٢٠ بئرا تجريبية » . واضافت الجيروسالم بوست قائلة : « ان مراجع دولية مختلفة تؤيد اصرار الجيولوجيين المحليين على وجود البترول في هذا البلد . وقد لام البروفيسور لويس ويكس ، الذي قد يكون اكبر مرجع في الولايات المتحدة في هذا الشأن ، حكومة اسرائيل على تخبطها في التنقيب عن النفط . وأصر على ان في هذا البلد (اسرائيل) ما لا يقل عن ٧٠ مليون طن من النفط (ومثلها من الغاز) ، اما أعلى تقدير وضعه البروفيسور ويكس فهو ٣٠٠ مليون طن، ولكن حتى تقديره الادنى يغطي احتياجات اسرائيل ، بمعدل استهلاكها الحالي ، مدة عشر سنوات . ولم يدخل البروفيسور ويكس في تقديره الاحتياطي المحتمل في خارج حدود اسرائيل قبل عام ١٩٦٧ »(٤٠) .

وانسجاما مع هذا الاتجاه « أحال معهد البترول الاسرائيلي في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ الى وزارة المالية الاسرائيلية برنامجا للتنقيب عن النفط مدته خمس سنوات يقضي بتوظيف ١٠ ملايين جنيه استرليني والقيام بحفر آبار اختبارية في مناطق مختلفة من اسرائيل وشمالي سيناء »(٤١) . وكتب مراسل « الفاينتشيال تايمز » في تل ابيب حول خطة التنقيب الخمسية هذه يقول(٤٢) : « ان بعض مناطق البلاد قد جرى التنقيب عن النفط فيها بصورة جيدة ، وان لم تحفر فيها آبار اختبارية ، بينما هنالك مناطق اخرى كان نصيبها التجاهل التام . وتعطي توصيات اللجنة الاولوية في التنقيب الى مناطق السهل الساحلي الممتد من شمال سيناء الى مدينة قيصرية في وسط ساحل اسرائيل ، ومن حيفا الى الحدود اللبنانية شمالا . وجعلت في المرتبة الثانية من حيث الاهمية مناطق الجليل السفلى ، وحلت اخيرة في سلم الاولويات مناطق جبال القدس والسامرة (نابلس) ومناطق الجليل الاعلى ومرتفعات الجولان » .

فترى هل سيعثر الاسرائيليون ، بموجب برنامج التنقيب الواسع هذا ، على ما يمنون به أنفسهم من مكامن نفط غزيرة لعل غولده مئير تغفر لموسى انه قاد العبرانيين

من مصر ليستوطنوا في أرض كنعان — وهي البقعة الوحيدة في هذه المنطقة التي بدا حتى الان انها خالية من النفط حسبما مازحت غولده مئير حليفها المستشار الالماني الغربي فيلي برانت اثناء زيارته لاسرائيل العام الماضي ؟!

---

١ — نشرة « **عالم النفط** » في ١٩٧٣/١١/٢٤ .
٢ — مجلة «**النفط**» «بتروليوم بريس سيرفيس»، عدد كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ .
٣ — نشرة « **رصد اذاعة اسرائيل** » (مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية) ، العدد (٤٠٥) في ١٩٧٣/١٢/٢٣ .
٤ — **المصدر السابق** ، العدد (٤٠٢) في ٢٩/ ١٩٧٣/١١ .
٥ — **المصدر ذاته** .
٦ — **المصدر السابق** ، العدد (٤٢٢) في ٢٢/ ١٩٧٣/١٢ .
٧ — **المصدر السابق** ، العدد (٤١٧) في ١٧/ ١٩٧٣/١٢ .
٨ — مجلة **النفط** « بتروليوم بريس سيرفيس » ، عدد كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ .
٩ — مجلة **النفط** « بتروليوم بريس سيرفيس »، عدد كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ .
١٠ — « **دور النفط في الاقتصاد الاسرائيلي** » ، تقرير أعده « مجلس التخطيط » بمنظمة التحرير الفلسطينية .
١١ — **المصدر ذاته** .
١٢ — مجلة **النفط** « بتروليوم بريس سيرفيس » ، عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ .
١٣ — **المصدر ذاته** .
١٤ — **المصدر ذاته** .
١٥ — **المصدر ذاته** .
١٦ — **المصدر ذاته** .
١٧ — مجلة Israel Economist ، حزيران ١٩٧١ ، ص ١٨٦ .
١٨ — مجلة « **الحوادث** »، اللبنانية ، في ٩/٧/ ١٩٧٣ .
١٩ — صحيفة « **دافار** » في ١٩٧٢/٩/٢٠ .
٢٠ — مجلة **النفط** « بتروليوم بريس سيرفيس » ، عدد تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .
٢١ — نشرة « **عالم النفط** » في ١٩٧٣/١٠/١٣ .
٢٢ — **المصدر ذاته** .
٢٣ — صحيفة « **دافار** » في ١٩٧٢/١/١٢ .
٢٤ — صحيفة « **جيروسالم بوست** » ، انظر صحيفة « **القبس** » الكويتية في ١٩٧٣/٧/١٩ .
٢٥ — **المصدر ذاته** .
٢٦ — صحيفة « **هاآرتس** » في ١٩٧٣/٢/١٥ . انظر مجلة « **الحوادث** » اللبنانية في ٩/٧/ ١٩٧٣ .
٢٧ — نشرة « **عالم النفط** » في ١٩٧٣/٩/١٥ نقلا عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية .
٢٨ — لاري لوك وود « الامبريالية والاقتصاد الاسرائيلي » ، مجلة « **شؤون فلسطينية** » ، العدد ٢٠ ، ص ٩٥ .
٢٩ — **المصدر ذاته** .
٣٠ — الدكتور سعيد حمود ، مجلة « **شؤون فلسطينية** » ، العدد ٢٢ ، حزيران ١٩٧٣ .
٣١ — مجلة **النفط** « بتروليوم بريس سيرفيس » ، عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، ص ٩ .
٣٢ — Petroleum Intelligence **Weekly**, March 23, 1970.
٣٣ — مجلة **النفط** « بتروليوم بريس سيرفيس » ، عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، ص ٩ .
٣٤ — **المصدر ذاته** .
٣٥ — صحيفة « **معاريف** » الاسرائيلية في ٩/٢٩/ ١٩٧٢ .
٣٦ — مجلة «**الحوادث**» اللبنانية في ١٩٧٣/٩/٧.
٣٧ — **المصدر ذاته** .
٣٨ — **المصدر ذاته** .
٣٩ — حسبما أوردت صحيفة « **القبس** » الكويتية في ١٩٧٣/٧/١٩ .
٤٠ — **المرجع ذاته** .
٤١ — مجلة **النفط** «بتروليوم بريس سيرفيس»، عدد تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .
٤٢ — صحيفة « **الفاينانشال تايمز** » البريطانية في ١٩٧٣/٩/٦ .

الصناعة الجوية الاسرائيلية

الرائد الطيار حسين عويضه

قبل تكوين دولة اسرائيل وخلال الفترة التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ جهدت الوكالة اليهودية للحصول على معدات وآلات للصناعة الحربية(١). فبعد انتهاء الحرب اضطرت مصانع عديدة للاسلحة في الولايات المتحدة الى اقفال ابوابها. واستغلت الوكالة اليهودية الظروف الحرجة التي كانت تمر بها هذه المصانع، وقامت بشراء كميات ضخمة من آلاتها ومعداتها بأبخس الاثمان وعملت على تهريبها الى فلسطين بمعرفة بعض المسؤولين البريطانيين من موظفي الانتداب ممن كانوا يتعاطفون مع الحركة الصهيونية. وعند وصولها الى فلسطين كانت تنقل باشراف الوكالة اليهودية لتوضع في أماكن سرية حتى تكون جاهزة لمباشرة انتاجها وقت الحاجة(٢) وفعلا تم لها ذلك. فقد باشرت هذه المصانع عملها في انتاج السلاح لسد حاجة المسلحين اليهود منه بعد انتهاء الانتداب وجلاء الجيش البريطاني عن فلسطين. وكان الهدف الاساسي هو تأمين السلاح لمواجهة احتمالات الموقف، خاصة وان النزاع العربي — الصهيوني أخذ يتجه نحو الصدام المسلح وهكذا تأسست نواة الصناعات الحربية في اسرائيل.

ومنذ البداية، انصب اهتمام المسؤولين في الوكالة اليهودية — والمسؤولين الاسرائيليين من بعدهم — على تطوير هذه الصناعات ومدها بالخبراء ودعمها بالطاقات والامكانات. لقد أدركت الوكالة اليهودية ان صراعها مع العرب سيطول ولن يحسمه الا تفوقها عسكريا واقتصاديا وتقنيا، خاصة وانها دولة فرضت على المنطقة عبر سلسلة طويلة من المؤامرات وبقوة السلاح. ولقد وجدت اسرائيل نفسها ملزمة بحشد كافة طاقاتها وامكاناتها وتسخيرها للمحافظة على وجودها طالما بقي الصراع قائما. وكان الرفض العربي عاملا أساسيا دفعها لرصد آلاف الملايين من الدولارات لتدعيم مشاريعها العسكرية وصناعاتها الحربية وجعلها بالتالي تتحول الى ترسانة حربية في منطقة الشرق الاوسط. وكانت أهم العوامل التي فرضت على اسرائيل انتاج السلاح العوامل الثلاثة التالية:

أولا — عامل استراتيجي له علاقة مباشرة بأوضاعها العسكرية في المنطقة. فاسرائيل تدرك انها وجدت بالقوة في منطقة غريبة معادية لها. يضاف الى ذلك انها دولة تبغي التوسع على حساب أبناء المنطقة. وهي تحمل في جعبتها مشروعا ضخما لاقامة دولة تمتد من النيل الى الفرات. ومن المؤكد ان دولة تتبنى مثل هذه السياسة وتلك الاستراتيجية بحاجة ماسة الى جيش قوي يحقق لها أهدافها التوسعية، وتحتاج الجيوش عادة الى مصادر ثابتة ومضمونة للسلاح. وان اية قوة في العالم لا تأخذ في حساباتها هذا الاعتبار لا يمكن ان تملك القدرة على التحرك في الوقت والمكان المناسبين. ولا تقاس قوة الدول عسكريا بكمية السلاح الذي تملكه او بنوعيته بل بقدرتها على تأمين مصادر ثابتة للسلاح بالكميات المطلوبة والنوعية المرغوبة مع الذخيرة والعتاد. ان ارخص واضمن واسهل طريقة لتحقيق ذلك هي انتاج السلاح محليا ليكون في متناول اليد عند الطلب وفي الاوقات الصعبة والحرجة. يحتاج الجيش الاسرائيلي، الكبير حجما

بالنسبة الى تعداد السكان ، الى كميات هائلة ونوعيات معينة من السلاح للقيام بمسؤولياته الكبيرة . ودولة يسود التوتر حدودها ، بفعل واقعها الاستعماري وأهدافها التوسعية وسياستها العدوانية ، تحتاج الى أموال وامكانات ضخمة ترصدها للمجهود الحربي . ومثل هذه المسؤوليات تجبر المسؤولين الاسرائيليين على ايجاد مخرج لهذه المسألة الهامة دون الحاجة الى الاعتماد على مصادر خارجية لتأمين الحصول على السلاح لقواتها المسلحة بصورة مستمرة .

ثانيا ــ عامل سياسي : ان الحصول على السلاح من اي مصدر خارجي ، ومهما كان صديقا ، لا يمكن أن يتم بالسهولة التي يعتقدها البعض . فهناك عوامل كثيرة تتحكم بهذا الامر . فالدول المنتجة للسلاح كثيراً ما تخضع لظروف معينة تفرض عليها في بعض الحالات منع تصديره الى أية جهة كانت ، كما تفرض عليها في حالات أخرى تحديد قيود على شحنه لاعتبارات سياسية او اقتصادية . وأكبر مثل على ذلك الحظر الفرنسي الذي فرض على تزويد اسرائيل بالسلاح . كما ان الحصول على السلاح يصبح في حالات كثيرة وسيلة للضغط السياسي يمارس بحق الدولة المبتاعة مما يضطرها في ظروف عدة للتصرف على نحو يتعارض مع مصالحها الوطنية ، تصل في بعض الحالات الى حد اعطاء بعض التنازلات السياسية او الاقتصادية او الاقليمية . ان انتاج السلاح أصبح في يومنا هذا ضرورة ملحة للتخلص والتحرر من مزاجات الدول المنتجة وميولها ومواقفها . لهذا أصبحت مسألة اقامة صناعة محلية لانتاج السلاح بالنسبة لاسرائيل مع الزمن أمرا على غاية من الاهمية .

ثالثا ــ عامل اقتصادي ، تقاس قوة الدولة اقتصاديا بمدى قدرتها على الاكتفاء ذاتيا وبكمية الانتاج الذي يتوفر لديها لتصديره الى الخارج ليدر عليها كميات من العملات الصعبة . وتكون الدولة قوية اقتصاديا عندما تزيد صادراتها على وارداتها . وفي يومنا هذا أصبحت تجارة السلاح وسيلة مربحة للدول المنتجة . وينوء اقتصاد كثير من الدول تحت ثقل الديون التي نجمت عن شرائها لكميات هائلة من السلاح للدفاع عن حدودها الاقليمية . ومع الزمن رفعت الدول المنتجة ثمن السلاح وفي حالات عدة فرضت دفع قيمته نقدا وبالعملات الصعبة . لهذا رأت دول عديدة في العالم ان من مصلحتها انتاج السلاح محليا لتخفف عن اقتصادها اعباء الدفع بالعملات الصعبة .

تسعى اسرائيل لان تصبح قوة اقتصادية رئيسية في المنطقة وهي بانتاجها للسلاح محليا تهدف الى توفير مبالغ طائلة من العملات الصعبة حتى تعزز بها ميزان مدفوعاتها . وهي حالة ستعطيها القدرة على توجيه جزء من هذه المبالغ نحو المشاريع الاقتصادية الرئيسية .

ظلت اسرائيل ترسل مبعوثيها الى الخارج في محاولة منها للحصول على السلاح ووسائل انتاجه(٢) . ومنذ بداية الصراع اعتبرت اسرائيل نفسها في تنافس مستمر مع العرب خاصة في الميادين التقنية وانتاج السلاح . كان عليها أن تضع أساسا صلبا لصناعتها العسكرية وان تعي كل خطوة تخطوها في هذا المجال . ولهذا رأت ان تستفيد من دول أخرى متقدمة في هذا الميدان مثل فرنسا وبريطانيا والسويد .

لم تبن اسرائيل استراتيجيتها في مجال امتلاك السلاح والحصول عليه على أساس حاجتها منه قياسا لحجمها أو لامكاناتها أو لطاقتها البشرية . فالدول عادة تقوم ببناء قواتها المسلحة على اساس امكاناتها الاقتصادية وحجم طاقتها البشرية وقدرتها وامكانيتها على انتاج السلاح والحصول عليه لكن اسرائيل ضربت بهذه القاعدة عرض الحائط ، وراحت تبني قواتها المسلحة وتتوسع في صناعة الاسلحة وتحصل على الاجود منها من تلك المتوفرة في الاسواق العالمية بشكل يفوق امكاناتها وقدرتها كدولة صغيرة

ويزيد عما تستطيع طاقتها البشرية استيعابه . ولهذا نراها تعتمد على المتطوعين من ذوي الاختصاص والفنيين في الخارج وتسعى بلا انقطاع للحصول على القروض والمساعدات والمنح المالية وتجبر دولا كالولايات المتحدة والمانيا الغربية على دفع ثمن السلاح لها الذي تحصل عليه من دول اخرى(٤) انها لا تنظر الى امكاناتها وطاقاتها عندما تبحث قدرتها الحربية ومشاريعها العسكرية . انما تأخذ بعين الاعتبار حجم وامكانات أعدائها وتحاول على هذا الاساس مجاراتهم . وبالتالي تبني استعداداتها العسكرية على هذا الاساس وهي سياسة جنونية باهظة التكاليف لا تقدر على تحملها اي دولة في العالم*، ووضع كهذا لن يستمر طويلا ولا بد لاسرائيل أن تعيد النظر فيه في يوم من الايام وتكون وقتها مجبرة على العودة الى الاوضاع الطبيعية والى حجمها الطبيعي كغيرها من الدول . ان هذه السياسة التي تنتهجها تعتبر بحد ذاتها مغامرة محسوبة لكنها تظل محفوفة بالمخاطر .

رات اسرائيل اذا أن تمضي قدما في انشاء صناعة جوية خاصة بها لاعتبارات استراتيجية عسكرية واقتصادية وسياسية(٥) ولقد واجهت هذه الصناعة الناشئة — منذ البداية — المتاعب والصعاب، الادارية والتقنية والمالية . نجم عن ذلك أن انقسم راي المسؤولين فيها الى قسمين : قسم يرى انه بامكان دولة كاسرائيل — صغيرة ومحدودة الموارد والامكانات — أن تتحمل تقنيا وماليا اعباء صناعة جوية تقام في البلاد. وقسم آخر كان يرى صعوبة تحقيق ذلك لاعتبارات كثيرة منها المالي والتقني(٦) ولاسباب أخرى لها علاقة بامكانات اسرائيل قياسا للدول العملاقة المسيطرة على هذه الصناعة عالميا .

استمدت هذه الصناعة خبرتها من الخبراء والمهندسين المختصين في حقل الطيران من اليهود الذين وفدوا الى البلاد في سنة ١٩٤٨ والذين يحملون الجنسية الاميركية وجنسيات عدد من الدول الاوروبية . وهكذا تجمع لدى هذه الصناعة الناشئة وفي فترة وجيزة للغاية عدد لا يستهان به من ذوي الخبرة والاختصاص في حقل الصناعة الجوية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وجدت مصانع كثيرة في الولايات المتحدة طريقها الى اسرائيل بمن فيها من العمال والخبراء اليهود(٧). فالقادة الاسرائيليون كانوا في زيارات مستمرة لاوروبا واميركا بحثا عن هذه المصانع والخبرات . ولقد اتبعت معهم شتى انواع المغريات والوسائل لاقناعهم بالسفر الى اسرائيل(٨). ومن ناحية اخرى أرسلت هذه الصناعة الى الخارج العديد من الشباب للتخصص في مجال صناعة وانتاج الطائرات الحربية والمعدات والتجهيزات الجوية وللاطلاع على أحدث الاساليب والطرق الادارية والفنية المتبعة في هذه الصناعة .

كانت ممارسات ونشاطات وأهداف القيادة الجوية الاسرائيلية والمشرفين على الصناعة باستمرار تتسم بالجرأة والحنكة والدراية بالامور . فهذه القيادة كانت تتبع سياسة عملية لتقليل اعتمادها على المصادر الخارجية . وكانت تؤمن ان طبيعة أوضاعها تفرض عليها مبدأ السيطرة التامة على وسائل انتاجها لتسخيرها للمجهود الحربي . وكانت متحمسة لترى صناعتها الجوية الناشئة وقد تطورت وخطت خطوات حثية نحو الامام . وهي لم تترك بابا الا وطرقته ولم تترك دولة متقدمة علميا الا وطلبت مساعداتها ولم تترك صناعة جوية الا وتعاملت معها من أجل توفير المال والخبرات والامكانات والطاقات والوسائل التقنية لهذه الصناعة الناشئة .

---

* ان حرب تشرين الاول ١٩٧٣ لاكبر مثل على ذلك . وجدت اسرائيل نفسها مضطرة الى طلب العون بعد وقت قصير من بدء الحرب من الولايات المتحدة التي لبت النداء بسخاء .

في مطلع عام ١٩٥١ اتم فريق من التقنيين والخبراء اليهـود ممن يحملون الجنسية الاميركية اصلاح عدد من طائرات «الموسكيتو» في الولايات المتحدة وهي طائرات مروحية بريطانية الصنع قاذفة مقاتلة لعبت دورا هاما وبارزا في الحرب العالمية الثانية . وبعد اعدادها للطيران كانت تطير الى اسرائيل عن طريق القطب الشمالي لتقصير مدى رحلتها بسبب طول الرحلة(٩) .

وفي عام ١٩٥٤ بوشر باقامة البناء الاول لهذه الصناعة قرب مطار اللد(١٠). ومنذ البداية كان الهدف انتاج احدث الطائرات والمعدات والتجهيزات الجوية لمجاراة احدث وأحسن الصناعات الجوية في العالم . ومنذ تأسيسها سعت للحصول على كافة المعدات الضرورية ، وقامت بشراء مجموعات كاملة مـن الآلات الضرورية لاصلاح الطائرات وصيانتها . وفي عام ١٩٥٥ أقيم المصنع ليبدأ بالعمل بكامل طاقته الانتاجية(١١) وبدأت هذه الصناعة تعمل لمساعدة سلاح الجو على التخلص من مصروفات كثيرة كان يقوم بدفعها لجهات خارجية لقاء قيامها باجراء أعمال الصيانة والاصلاح .

ظل سلاح الجو يرسل محركاته وطائراته الى فرنسا حتى عام ١٩٥٦ لاصلاحها وعمل عمرة شاملة لها . ولقاء ذلك كانت تدفع مبالغ طائلة ، هذا عدا عن الوقت الذي كان يستغرقه شحن القطع من الخارج والى البلاد . كانت عملية ارسال محرك طائرة الى فرنسا لعمل صيانة شاملة عليه واعادته الى البلاد تكلف حوالي (٦٠٠٠) دولار(١٢). ولكن مع مرور الوقت ومع زيادة قدرة هذه الصناعة وامكاناتها الفنية صار بمقدورها ان تجري عمرة شاملة على المحركات على اختلاف انواعها في ورشاتها المحلية . وهو عامل وفر على السلاح الجوي الاسرائيلي أموالا طائلة فضلا عن كسب الوقت في تجهيز هذه المحركات واعدادها للعمل. وضمنت هذه الصناعة للسلاح الجوي امكانية استخدام طائراته لاطول مدة ممكنة وحتى اطول مما تسمح به الشركة المنتجة . بالاضافة الى انها أمنت له فرصة للاستفادة من الطائرات القديمة واستخدامها بعـد اجراء التعديلات والاصلاحات الضرورية عليها*.

اقامت هذه الصناعة علاقات قوية مع صناعة الطائرات في فرنسا وتبادلت مع هذه الشركات الخبرات في شتى المجالات التي لهـا علاقة بالابحاث والصناعات الجوية . وارسلت الخبراء للعمل في مصانع الطائرات الفرنسية . واقامت الصناعـة الجوية الاسرائيلية مع مرور الوقت علاقات قوية مع مؤسسة « داسو » التي تعتبر أهم واضخم وانشط هذه الصناعات في فرنسا .

قررت الصناعة الجوية في اسرائيل في عام ١٩٥٦ انتاج اول طائرة تدريب نفاثة من طراز « فوجا ماجستير » ، على ان يتم انتاجها في اسرائيـل لحساب السلاح الجوي الاسرائيلي وذلك بعد شراء امتياز صنعها محليا من شركة « بوتيه » الفرنسية المنتجة لها بعد نقل المصانع الخاصة بانتاجها الى اسرائيل**. ولقد أنتجت اسرائيل من هذه

---

* بالرغم من قدم طائرة « الاوريغان » وهي طائرة من صنع فرنسي انتجت لاول مرة في اوائل الخمسينات لا زالت هذه الطائرة تعمل في السلاح الجوي الاسرائيلي وتستخدم لاغراض التدريب وفي العمليات القتالية التي تسمح بها ظروف المعركة(١٣).

** تعتبر طائرة «الفوجا ماجستير» من طائرات التدريب النفاث الجيدة نسبيا حيث يجري عليها التدريب النفاث الابتدائي والمتقدم . وينهي عليها الطيار تدريبه حتى يصل الى مستوى يؤهله للانتقال الى الطائرات النفاثة المقاتلة، وفي السلاح الجوي الاسرائيلي ينتقل الطيار الاسرائيلي بعد الانتهاء من مرحلة الطيران على طائرات « الفوجا ماجستير » للطيران على طائرات « اوريغان » او « المستير ٤ أ » لاتمام دورة قتال كاملة عليها حتى يصبح في مستوى طيار جاهز للقتال .

الطائرة حتى عام ١٩٧٣ حوالي ١٠٠ طائرة كما باعت منها للخارج الى عدد من الدول الافريقية والاسيوية(١٤). وأجرت اسرائيل تعديلات عديدة على هذه الطائرة بحيث صار بالامكان استخدامها كطائرة للهجوم الارضي . ولعبت هذه الطائرة دورا هاما على طول الجبهة الاردنية في حرب حزيران ١٩٦٧ ، في الوقت الذي كانت فيه بقية الطائرات منهمكة في قصف الاهداف التكتيكية على الجبهتين السورية والمصرية . وقادها في تلك الفترة طيارون من الاحتياط من الذين قدموا من خارج اسرائيل والتحقوا بالسلاح الجوي . لقد أفادت هذه الصناعة كثيرا من التعاون المثمر الذي أقامته مع الشركات والمؤسسات الجوية في فرنسا . كانت هذه الشركات تعاملها على اساس من التكافؤ والمساواة وظلت طول الوقت تمدها بالمعلومات والخبرة ووضعت كافة امكاناتها في متناول الخبراء والفنيين الاسرائيليين الملحقين بها على اساس التدرب والاطلاع على أحدث الطرق والوسائل الفنية المتبعة في هذه الشركات .

وعملت هذه الصناعة بالتعاون مع « جهاز تطوير وسائل الحرب في اسرائيل » على تطوير كافة اجهزتها ومعداتها الجوية ووضعها في خدمة القوات الجوية . ان « جهاز تطوير وسائل الحرب » في اسرائيل هو اعلى جهاز علمي في الدولة ومن مسؤولياته الاشراف على كافة المؤسسات الصناعية والورش والمعامل المنتشرة في الدولة ، والتي تزود الجيش والطيران والبحرية بأحسن المعدات والتجهيزات القتالية . ان المهمة الاساسية لهذا الجهاز بالاضافة الى الاشراف هي وضع الدراسات والتحاليل وتحديد المشاكل والنواقص في كافة أسلحة القوات المسلحة . كما يقوم هذا الجهاز بالتعاون مع الاقسام والمصانع والمؤسسات المختصة باجراء التجارب على النماذج في كافة مراحلها ثم يقوم باجراء التعديلات والتحسينات الضرورية على السلاح ومن ثم يشرف على انتاجه . ان مسؤولية هذا الجهاز مهمة للغاية اذ انه يراعي في جميع المراحل ان يظل المستوى التقني في المستوى المطلوب . ان هذا الجهاز يعمل بالتعاون مع الصناعة الجوية في اسرائيل على انتاج انواع معينة من القنابل الجوية والمواد المتفجرة بالاضافة الى أجهزة الاتصال والرادار الدقيقة(١٥) .

أسست الصناعة الجوية في اسرائيل عام ١٩٥٣ تحت اسم « شركة بيديك لانتاج الطائرات » ثم جرى تسميتها بـ « الصناعة الجوية الاسرائيلية » في ١٩٦٧/٤/١ . وتقسم هذه الصناعة الى (١٤) قسما ، أهمها الاقسام الرئيسية الأربعة التالية(١٦):

١ ــ قسم الطائرات والمحركات . وهو القسم المختص بصيانة الطائرات والمحركات والكشف عليها كما يقوم هذا القسم باجراء عمرة كاملة لهياكل الطائرات والمحركات . بدءا من طائرات « بايبر كاب » وحتى طائرات « بوينغ ٧٠٧ » ويشمل ذلك الطائرات النفاثة المقاتلة ، وطائرات المواصلات ، وطائرات الهليوكبتر . كما يقع ضمن اختصاص هذا القسم كافة الاجزاء والاجهزة المتفرعة عن هياكل الطائرات والمحركات ، بما في ذلك « دورة الهايدروليك » و« دورة الوقود » و« دورة الهواء الضغوط » وقطع الغيار بشكل عام . ان اختصاص هذا القسم فيما يتعلق باجراء عمرة شاملة ينحصر فقط بالطائرات والمحركات الغربية المنتجة في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة . وتلحق بهذا القسم « حجرة تجارب » يتم فيها اجراء التجارب على المحركات النفاثة بأنواعها من تلك التي تبلغ قوتها (٥٠٠) رطل وحتى (٥٠٫٠٠٠ رطل) .

٢ ــ قسم صناعة الطائرات : ان العمل الرئيسي لهذا القسم هو انتاج الطائرات وتجميعها . وقد قام القسم فعلا على تجميع وانتاج طائرة « الفوجا ماجستير » وطائرة « عرفة » وطائرة « جب كومودور ــ وست وند » . كما قام باجراء تعديلات رئيسية على طائرات « ستراتو كروز » وطائرات اخرى .

٣ ـ قسم الهندسة . ان مسؤولية هذا القسم هي في وضع التصاميم والخطط للانتاج واجراء التعديلات على كافة الطائرات والمحركات ، وقد شارك مشاركة فعالة في انتاج طائرة « عرفه » واجراء التعديلات على طائرة « ستراتوكروزر » ، بحيث صار بالامكان الاستفادة منها في النقل وفي مهام تزويد الطائرات بالوقود في الجو .

٤ ـ قسم الادوات الالكترونية . وهو القسم المختص بالاجهزة الدقيقة وكافة اشكال اجهزة الاتصال اللاسلكي والرادار والمعدات الالكترونية الدقيقة . وهو القسم المسؤول عن انتاج رادار « التا » Elta المستخدم في عدة مطارات اسرائيلية ومنها مطاري اللد وحيفا .

هذه هي الاقسام الرئيسية التي تتكون منها الصناعة الجوية الاسرائيلية ، وتتفرع عنها عدة فروع ثانوية ، منها فرع الادوات الكهربائية وفرع اجهزة مقاومة الحريق ، والفرع المختص بانتاج الاغطية الشفافة لمقصورة الطيار (Conopy) ، والفرع المختص بانتاج اجهزة التوجيه للصواريخ الموجهة ، وغيرها من الفروع التي لها علاقة بالطائرات والمحركات والصواريخ والاعتدة والقنابل الجوية .

لقد وضعت الصناعة الجوية باكورة افكارها في مضمار تجميع وانتاج الطائرات النفاثة في ٧ تموز ١٩٦٠ حيث أتمت تجميع النموذج الاول من طائرة « الفوجا ماجستير » وقامت بتسليمها الى سلاح الجو الاسرائيلي . وفي فترة قصيرة تطورت هذه الصناعة واتسعت رقعة الارض التي تحتلها وبلغت اليوم مساحتها (٣ ملايين قدم مربع) وزادت ابنيتها ومنشآتها وارتفع عدد مستخدميها حتى بلغ اليوم حوالي ١٣ الف خبير ومهندس وفني وعامل(١٧) . ومن المهام التي أخذت تتولاها مهمة تصليح وصيانة واجراء عمرة شاملة على الطائرات والمحركات(١٨) بالاضافة الى انتاج عدة انواع من الطائرات بترخيص من الشركات المالكة . وامتد نشاطها حتى شمل انتاج معدات واجهـزة رادار وصواريخ موجهة سطح ـ سطح نوع «جابرييل» وصواريخ موجهة جو ـ جو نوع «شفرير»(١٩) .

تعاونت على انتاج الصاروخ الموجه نوع « جابرييل » في البداية الصناعة الجويـة الاسرائيلية وصناعات جوية فرنسية لحساب الحكومة الاسرائيلية . ولقـد ساعدت الخبرة المتوفرة لدى الخبراء الفرنسيين على دفع المشروع الى الامـام ، واستفادت الصناعة الجوية الاسرائيلية كثيرا من الخبراء الفرنسيين والامكانات الفنية التي قدمها الجانب الفرنسي لدعم المشروع . ولكن المشروع تعرض لهزة عنيفة وذلك في أعقـاب فرض الحظر الفرنسي على تصدير السلاح الى اسرائيل . وعليه توقف الجانب الفرنسي عن تقديم اية مساعدة او مشورة تتعلق بتطوير المشروع ولم يعد المشروع يهم الجانب الفرنسي بشيء . لهذا تأخر انتاج الصاروخ حتى اوائل السبعينات عندما اعلنت اسرائيل الانتهاء من تطوير وانتاج الصاروخ . وفيما بعد اعلنت عن اجراء تجارب ناجحة عليـه واماطت اللثام عن نواياها باستخدامه على نطاق واسع في البحرية الاسرائيلية وتزويد عدد من الزوارق السريعة التي تملكها البحرية الاسرائيلية به ، وانها تتوقـع ترويجه بالخارج ليستخدم من قبل عدد من السفن الحربية والغواصات العائدة الى عشـر دول أجنبية(٢٠) .

وهناك صاروخ موجه آخر نجحت هذه الصناعة على تطويره وانتاجه وهو صاروخ « شفرير » جو ـ جو وقد تم انتاجه لحساب السلاح الجوي الاسرائيلي ليعمل مـع الطائرات المعترضة والمقاتلة . وفعلا جرى تزويد سلاح الجو الاسرائيلي به واستخدم في حرب الاستنزاف التي شنتها اسرائيل ضد مصر ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ حيث جرت تجربته من قبل طائرات « الميراج ٣ س » واعطى نتائج مشجعة(٢١) بعد ذلك باشرت قيـادة السلاح تزويد طائرات « الميراج » بهذا الصاروخ كبديل لصاروخ « ماترا » الافرنسي

الذي شمله الحظر(٢٢) وبدأ الطيران يستخدمه منذ بداية عـــام ١٩٧٢ كسلاح اساسي مضاد للطائرات في الجو . وتتوقع قيـــادة السلاح الجوي الاسرائيلي تعميم استخدامه في المستقبل على كافة طائراتها المعترضة المقاتلة الافرنسية والاميركية على حد سواء ليحل بدل الصواريخ « سايدوايندر » و « سبارو » الاميركيـــة لكن الخبراء في الجـــو يستبعدون ذلك لان انتاج الصاروخ لا زال في مراحله الاولى بالاضافة الى أن الكمية المنتجة منه لا تغطي الطلبيات المتزايدة لهذه الصواريخ وستظل اسرائيل على ضوء مشاريعها العسكرية الحالية بحاجة الى العديد من هذه الصواريخ الاجنبية الموجهـــة جو ـــ جو .

واكبر دليل على ذلك ما حصل في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ حيث تطلبت الاوضاع العسكرية الحصول على اعداد كبيرة من هذه الصواريخ لسد احتياجات المعركة . ثم لم يأت دليل واحد يثبت ان الطائرات الاسرائيلية استخدمت مثل هذه الصواريخ فـــي المعارك الجوية الاخيرة . ولو كانت اسرائيل فعلا استخدمت هذه الصواريخ في المعركة وأعطت نتائج مشجعة كما روجت اجهزة اعلامها في السابق ـــ لما اضطرت في وسط المعركة الى ارسال طائرات شركة « العال » الى الولايات المتحدة الى قاعدة «أوشيفا» الجوية التابعة لسلاح البحرية الاميركية القريبة من مدينة تورفولك في ولاية فرجينيـــا لاحضار أعداد ضخمة من صواريخ « سايدوايندر » و « ســـبارو » ولكانت اكتفت بما لديها وما تنتجه صناعتها الجوية . ان هذا لاكبر دليل على أن انتاج الصاروخ لا زال في مراحله الاولى وربما كانت اسرائيل تواجه مشاكل في جهاز التوجيه وعليه يصـــير الصاروخ غير جاهز للاستخدام على نطاق واسع كما روجت اجهزة اعلامهـــا . ان المشكلة الاساسية التي تواجه الشركات المنتجة للصواريخ الموجهة عموما تكمـــن في أجهزة توجيهها . وهناك شواهد كثيرة على ذلك ، والمعروف لدى الجميع ان الشركات العالمية المنتجة لهذه الصواريخ انتجت الكثير من الصواريخ الموجهة لكن القليل منهـــا ثبتت فعاليته وجرى تعميم استخدامه . وصرفت هذه الشركات مبالغ طائلة في هـــذا المضمار . واضطرت دول كثيرة الى الاقلاع عن انتاج الصواريخ الموجهة محليا لتفادي المصاريف الباهظة . واكتفت بشراء الكميات التي تحتاجها طائراتها من مصادر خارجية مثل بريطانيا والمانيا الغربية واليابان وهي دول صناعية متقدمة وغنية تملك صناعـــة جوية متقدمة قادرة على انتاج احسن الصواريخ . لكنها تعتمد في هذا المجـــال على المصادر الاميركية . واسرائيل لن تكون احسن حالا .

ان حرب تشرين كشفت وستكشف عن الكثير من نقاط الضعف الكامنة في الجـــانب الاسرائيلي ، مما في ذلك الصناعة العسكرية ، وستظهر لنا المؤسسة العســـكرية الاسرائيلية على حقيقتها . لقد غطت اجهزة الاعلام في الماضي الكثير مـــن النواحي السلبية الموجودة في الاجهزة العسكرية وحاولت باستمرار التأثير نفسيا على المواطنين العرب لايهامهم بقدرة وقوة هذه المؤسسة العسكرية . عن طريق الدعاية المبالغ فيها. والتمجيد المستمر بقدراتها وامكاناتها .

وتواجه هذه الصناعة ايضا مشاكل عديدة في تصنيع مادة الاغلفة الشفافة التـــي تستخدم اغطية لمقصورة الطيار في الطائرات المقاتلة (Conopy) .كانت اسرائيل حتى عام ١٩٦٧ تحصل على هذه الاغطية من مصادر فرنسية . ولقد حاولت بعد فرض الحظر انتاجها محليا . الا ان مصادر اجنبية كشفت في ذلك الوقت ان صناعة هـــذه الاغطية في اسرائيل تواجه مشاكل صعبة الحل . فالمادة التي تصنع منها هذه الاغطية محليا لا تنطبق على المواصفات الفنية المطلوبة . فالمشكلة الرئيسية تكمن في أن هـــذه الاغطية الشفافة المصنعة محليا لا تكون صافية ونقية كما هو مطلوب بحيث تعطي الطيار

مجالا جيدا للرؤية . كما ثبت انها في الارتفاعات الشاهقة تخلق مشاكل عديدة للطيار اهمها تكون طبقة ضبابية تؤدي الى انعدام الرؤية . ان هذه الاغطية الشفافة التي تستخدم اغطية لمقصورة الطيار والتي تصنع محليا تستخدم فقط على طائرات « الفوجا ماجستير » المخصصة للتدريب النفاث الابتدائي والمتقدم . وهذه الطائرات لا تحتاج كثيرا للطيران أكثر من ارتفاع ٢٠،٠٠٠ — ٢٥،٠٠٠ قدم . وذلك يحد من مشكلة تكون الضباب على غطاء مقصورة الطيار والواجهة التي امامه .

حصلت اسرائيل في حوالي عام ١٩٦٤ على (٩) طائرات نقل اميركية ضخمة من طراز « بوينغ ستراتوكروزر ٣٧٧ » من ذوات الطابقين من بين الاف الطائرات الخردة المتروكة في صحراء اريزونا وصحراء نيفادا في الولايات المتحدة . وبعد اجراء الاصلاحات الضرورية عليها تم نقلها الى اسرائيل . ادخلت هذه الطائرات حال وصولها الى حظائر الطائرات العائدة للصناعة الجوية الاسرائيلية في مطار اللد ، واجريت عليها عدة تعديلات واصلاحات وتم تحويلها الى طائرات معدة للنقل العسكري ولحمل المظليين . شاركت في حرب حزيران ١٩٦٧ على نقل قوات المظليين بحيث القت بهم خلف خطوط القوات المصرية في ممر متلا وممر الجدي. بعد أن قلت الاهمية الموجهة الىسلاح المظليين بعد حرب حزيران وظهور القوات المحمولة جوا بطائرات الهليكوبتر حولت اسرائيل عددا من هذه الطائرات واعدتها لمهمة تزويد الطائرات المقاتلة بالوقود اثناء تحليقها في الجو ، بدون الحاجة للتزود بالوقود على الارض . والهدف من ذلك اعطاء الطائرات المقاتلة الاسرائيلية فرصة للتحليق في الجو لمدة اطول مما تسمح به مدة طيران الطائرات في الحالات الاعتيادية . ويمكن استخدام الطائرات في مثل هذه الحالات على أساس دوريات استطلاع بعيد المدى او دوريات قتال تحلق في الجو اطول مدة ممكنة . ان طائرات « سكايهوك » و« الفانتوم » هي الطائرات الوحيدة الموجودة في السلاح الجوي الاسرائيلي المزودة بجهاز خاص للتزود بالوقود اثناء التحليق في الجو .

وتضمن هذه الطريقة للطائرات الاسرائيلية مدى أبعد ومدة للطيران أطول من المعتاد وتعطيها القدرة على مهاجمة أهداف استراتيجية بعيدة داخل الاراضي العربية . وهو ما تحتاجه الطائرات الاسرائيلية للقيام بالمهام الملقاة على عاتقها خاصة وان الاهداف الاستراتيجية العربية منتشرة على مساحات شاسعة من الاراضي .

ان تفكير القائمين على هذه الصناعة في اسرائيل لا ينحصر بالنواحي العسكرية وما تحتاجه الترسانة الحربية من طائرات وقطع تبديل وخدمات مختلفة فحسب بل بدأ ينصب ايضا على الجوانب التجارية التي تستطيع ان تؤمن لهذه الصناعة ارباحا لا بأس بها تستطيع التقليل الى حد ما من النفقات المالية الباهظة التي تتحملها هذه الصناعة . لقد اتجهت هذه الصناعة في اوائل الستينات الى انتاج طائرات النقل التجاري . ووضعت في برنامجها امكانية بيع عدد منها الى دول أجنبية . وهي خطوة بامكانها ان تساعد على تحمل عبء النفقات الهائلة التي تصرف في مجالات الابحاث وانتاج المعدات والاجهزة الجوية المختلفة لتلبية احتياجات المؤسسة العسكرية الاسرائيلية وبرامجها الواسعة. وعلى ضوء اتصالاتها مع الدول المتقدمة صناعيا تمكنت الصناعة الجوية الاسرائيلية من عقد اتفاق مع شركة « ايرو كوماندر » الاميركية تمكنت بموجبه من شراء امتياز تجميع وانتاج هذه الطائرة محليا في مصانعها . وكنتيجة لهذا الاتفاق نقلت الاجزاء الرئيسية للمصنع وهياكل الطائرات التي كانت الشركة قد انتهت من صنعها الى اسرائيل . وباشرت الصناعة الجوية الاسرائيلية الانتاج في الحال . وحلق في الجو في عام ١٩٧٠ النموذج الاول من هذا الطراز ، واستمر الانتاج بعد ذلك بمعدل طائرتين في الشهر . واعلنت الصناعة الجوية الاسرائيلية في ايلول ١٩٧٣ انها ستضاعف انتاجها من طائرات « الكومودور » اعتبارا من نهاية الشهر ليصل انتاجها الى ٤ طائرات في الشهر(٢٣).

لقد درست الصناعة الجوية الاسرائيلية مسألة انتاج الطائرات التجارية الصغيرة بعناية فائقة ، وشملت دراستها الاسواق الاميركية بشكل خاص ، فهي كصناعة ناشئة صغيرة محدودة الامكانات لا تستطيع التفكير بالمشاريع الضخمة — أي انتاج الطائرات الكبيرة ذات المدى البعيد . فهناك دول كثيرة تتنافس في هذا المضمار اقوى منها ماليا واكثر خبرة في مجال الصناعات الجوية فضلا عن أن لكل منها سوقها الخاص بها . لذا كان على اسرائيل ان تفكر بطريقة اخرى مختلفة تماما ، فطالما ان معظم الدول المنتجة للطائرات تتنافس في مضمار انتاج الطائرات الكبيرة فلماذا لا يكون اتجاهها نحو انتاج طائرات النقل الصغيرة محدودة المدى . ورأت اسرائيل ان تصنيع مثل هذه الطائرات يناسبها ويتمشى مع امكاناتها المحدودة فضلا عن ان الاقبال في العالم أصبح شديدا على مثل هذه الطائرات وخاصة في أسواق الولايات المتحدة . لهذا وقع اختيارها على طائرة « جت كوماندر »* هذه الطائرة التي تتسع لـ (١٠) ركاب والمخصصة لنقل مديري المؤسسات والشركات ورجال الاعمال الهامين(٢٤). باشرت اسرائيل انتاجها لهذه الطائرة وتعاقدت على بيع اعداد منها في الولايات المتحدة واوروبا . وأوكلت مسؤولية بيع اول ٩٦ طائرة منها في اوروبا والولايات المتحدة الى شركة (كومودور لمبيع الطائرات النفاثة) الاميركية واسندت مسؤوليات صيانتها لشركة « كومودور المساهمة للطيران »(٢٥) أطلقت اسرائيل عليها اسم (كومودور جت ١١٢٣ — وست وند) بعد أن أدخلت تعديلات على النموذج الاصلي رقم (١١/٢١) الذي توصلت الشركة الاميركية الى انتاجه قبل بيع المشروع**.

كانت الصناعة الجوية الاسرائيلية ماضية في صنع طائرة (عرفة ١٠١) في نفس الوقتالذي كانت تتفاوض فيه لشراء امتياز طائرة (الكوماندر) المذكورة اعلاه . وتعتبر طائرة (عرفة) اول طائرة يتم صنعها وتطويرها وانتاجها في اسرائيل . تتسع هذه الطائرة لعشرين راكبا (٢٠) . وهي مزودة بمحركين طوربينيين . نوع (برات اندوتني ب ت ٦ آ — ٣٤) قوة كل منها (٧٨٣) حصانا . تستخدم اسرائيل هذا النوع في النقل الداخلي وتعمل على الخطوط الداخلية لشركة (أركيا) وهي الوحيدة المختصة في النقل الداخلي في اسرائيل . وقد أوصى السلاح الجوي الاسرائيلي على انتاج نموذج معدل من هذه الطائرة وفعلا انتجت الشركة النموذج العسكري الذي عرف (بعرفة ٢٠١) وهذا النموذج اطول من النوع الاول ولقد ادخلت عليه تحسينات وتعديلات كثيرة بحيث امكن تسليحه بالرشاشات والقنابل وتم تسليح هذا النوع الجديد برشاشين عيار (٥٠٠ انش) جرى تثبيت رشاش على كل جانب ورشاش ثالث من العيار نفسه جرى تثبيته في مؤخرة الطائرة . كما جرى تثبيت حاملتين للقنابل زنة الواحدة ٦٠٠ رطل (٢٧٢ كغ) او حاضنتين تحمل كل واحدة ستة صواريخ عيار (٨٢) ملم . انها ستستخدم كطائرة دورية لحراسة الشواطىء ومقاومة السفن الحربية والغواصات

---

* طائرة « جت كوماندر » هي نفسها طائرة « كومودور جت ١١٢٣ وست أند » . ان تسميتها عندما كانت تنتج في اميركا قبل بيع امتياز تجميعها لاسرائيل كان « جت كوماندر » لكن الصناعة الجوية الاسرائيلية غيرت الاسم وأطلقت عليها اسم « كومودور جت وست وند » واعطتها رقم ١١٢٣ بعد ان باشرت في انتاجها محليا .

** علم مؤخرا ان الصناعة الجوية الاسرائيلية وقعت عقدا مع شركة (اتلنتيك افييشن) الاميركية لتسويق هذه الطائرة ان مدة العقد هو أربع سنوات يعطي الشركة الحق بتسويقها في كندا والولايات المتحدة . يبلغ سعر الطائرة الواحدة مليون دولار(٢٦).

ولمراقبة النشاطات البحرية في البحر(٢٧). ان اسرائيل قررت استخدامها لتدعيم الطائرات البرمائية نوع (كاتلينا) الاميركية القديمة التي تعمل مع البحرية الاسرائيلية لمراقبة الشواطىء ومقاومة السفن والغواصات . ان طائرة (عرفة — ٢٠١) تتسع لـ (٢٣) جنديا بكامل تجهيزاتهم القتالية او لـ (١٦) مظليا مع مراقبين او لـ (٨) نقالات للجرحى مع امكانية لجلوس ثلاثة جنود جرحى(٢٨). ان معدل انتاج هذه الطائرة وصل الى طائرتين في الشهر الا انه أعلن في شهر ايلول ١٩٧٣ الماضي ان معدل الانتاج سيتضاعف ليصل الى (٤) طائرات في الشهر الواحد مع الافضلية للطراز العسكري . لقد تعاقدت هذه الصناعة الجوية مع شركات في امريكا ومع حكومات في دول اميركا اللاتينية ودول اميركا الوسطى لبيعها عددا من هذه الطائرات ، كان اخرها الاعلان الذي أصدره السلاح الجوي المكسيكي بأنه قرر شراء (٥) طائرات من نوع (عرفة) بقيمة ٥٠٠ الف دولار للطائرة الواحدة(٢٩). وفي الوقت نفسه ، أعلنت مجلة (افييشن ويك) الاميركية المختصة بحقل الطيران ان الحكومة الاسرائيلية تجري مفاوضات مع الحكومة المكسيكية لبناء مركز مشترك لصيانة الطائرات في خليج يوكاتان في المكسيك(٣٠).

وبدأت هذه الصناعة الجوية منذ مدة طويلة بجمع وتطوير وانتاج طائرة مقاتلة نفاثة أسرع من الصوت لحسابها الخاص لاستخدامها في السلاح الجوي الاسرائيلي . اطلقت عليها اسم « سوبر ميراج » . وفيما بعد ذكرت مصادر موثوقة ان اسرائيل اطلقت عليها اسم (باراك) . ان اسرائيل في صنعها لهذه الطائرة استعانت بالمعلومات والخبرة التقنية التي حصلت عليها من شركة « داسو » الفرنسية عندما كانت العلاقات مع فرنسا طبيعية ومتينة . وما حصلت عليه من معلومات فنية عن طائرة « الميراج » عن طريق الخبير اليهودي الاصل ، السويسري الجنسية الموظف في مصانع تجميع طائرات الميراج السويسرية الذي قدم مخططات تصاميم صنع « الميراج » الكاملة ، اثر تلقيه رشوة ضخمة من الملحق العسكري الاسرائيلي في بيرن بلغت (٢٠٠) الف دولار نتج عن ذلك طرد الملحق العسكري وحدوث أزمة في العلاقات السويسرية الاسرائيلية*.

استمرت الصناعة الجوية في جهودها لتصنيع وانتاج طائرة (الباراك) بسرية تامة ولا يعرف المستوى الذي قطعته في هذا المجال . ولم يصدر عن الجانب الاسرائيلي ما يثبت توصل الصناعة الجوية الى انتاج طائرة نفاثة مقاتلة أسرع من الصوت . ولم يصدر عن السلاح الجوي الاسرائيلي ما يشير الى ذلك . لقد ذكرت عدة مصادر أجنبية ان اسرائيل توصلت الى انتاج طائرة « السوبر ميراج » او « الباراك » كما اسمتها هذه المصادر** قيل الكثير عن هذه الطائرة الا انه لا يوجد دليل مادي واحد يشير الى

---

* كانت الحكومة السويسرية قد وقعت اتفاقا في أوائل الستينات مع شركة « داسو » الفرنسية يحصل بموجبه السلاح الجوي السويسري على (٢٤) طائرة من نوع « ميراج ٣ س » من صنع فرنسي . وكاجراء لاحق يقضي الاتفاق على ان تقيم سويسرا في أراضيها مصنعا لتجميع وانتاج (٣٦) طائرة من نفس الطراز وقطع الغيار لها . يسمح الاتفاق استخدام هذه الطائرات من قبل السلاح الجوي السويسري فقط ولا يحق للحكومة السويسرية بيعها لدولة اخرى(٣١).

** ذكرت مصادر اميركية ناطقة بلسان القوات المسلحة الاميركية انه جرى تزويد سلاح الجو الاسرائيلي بـ (٢٤) طائرة من نوع « باراك » من انتاج الصناعة الجوية في اسرائيل . وتضيف هذه المصادر قائلة ان هذه الصناعة تنتج طائرتين كل شهر منذ مطلع عام ١٩٧١ . وتضيف هذه المصادر قائلة ، ان هذه الطائرة قادرة على حمل (٦) اطنان من المواد المتفجرة . وتبلغ سرعتها (٢ر٥) ماك والطائرة مزيج من طراز (فانتوم — وميراج) مزودة بمحرك من انتاج (جنرال الكتريك) وسيكون بمقدور الصناعة الجوية الاسرائيلية من انتاج محركات لطائرات الفانتوم في غضون ٢ — ٤ سنوات(٣٢).

نجاح الصناعة الجوية الاسرائيلية في انتاج هذا الطراز . تشترك اسرائيل كل عام في معرض باريس الجوي ومعرض « فارنبره » الجوي في بريطانيا وتعرض فيها جميع منتجاتها الجوية . لقد عرضت في معرض باريس الجوي الذي تم في صيف عام ١٩٧٣ المعروضات التالية (١) طائرة (عرفة) ، (٢) طائرة (كوماندر جت — ويست وند ١١٢٣) ، (٣) اجهزة رادار « التا » ، (٤) صاروخ « جابرييل » ، (٥) مدافع متحركة عيار (٢٠ ملم) ، (٥) طائرة فوجا ماجستير . وغير ذلك من المعدات والتجهيزات الجوية التي تنتجها محليا . لكنها لم تعرض طائرة « باراك » ولا الصاروخ « شفرير » . لقد جندت كافة طاقاتها وامكاناتها وارسلت العديد من رجالاتها البارزين — من عسكريين ومدنيين — الى فرنسا والدول الاوروبية الغربية في محاولة منها للتأثير على فرنسا واقناعها بتسليم الى ٥٠ طائرة « ميراج ٥ » التي تعاقدت على شرائها ودفعت ثمنها (٥٠) مليون دولار قبل صدور قرار الحظر الفرنسي الشهير ولكنها لم تتسلمها وعندما فشلت بالحصول على « الميراج » من فرنسا حاولت طرق ابواب الدول التي تستخدمها في اسلحتها الجوية مثل بلجيكا واستراليا ودولة جنوب افريقيا وسويسرا علها تستطيع مساعدتها وعندما فشلت جهودها هذه كلها اتجهت شطر السوق السوداء علها تستطيع الحصول على ما تريده عن طريقها . لقد ذكرت مصادر اسرائيلية ان الصناعة الجوية في اسرائيل استطاعت تهريب اجزاء لطائرة (الميراج ٥) من فرنسا وانها استطاعت تجميع (١٨) طائرة منها الحقت بالسلاح الجوي وهي تعمل حاليا في الاسراب العاملة* (٢٣)ولغاية الان لم يأت دليل واحد يشير الى نجاح اسرائيل بانتاج طائرة « باراك » أو غيرها من الطائرات المقاتلة النفاثة الاسرع من الصوت . تظل هذه الاخبار او المعلومات مجرد تكهنات واقاويل لا تستند الى اي دليل مادي . على اي حال من الصعب القول فيما اذا كانت اسرائيل ستنجح في جهودها هذه أم لا . ولن يؤيد هذه المصادر في ادعاءاتها الا تحليق النموذج الاول منها في الجو .

لقد تردد الحديث والكلام عن القنبلة التي استخدمتها الطائرات الاسرائيلية ضد مدارج المطارات المصرية في حرب حزيران ١٩٦٧ . واطلقت اسرائيل عليها اسم « قنبلة تدمير المدارج » وادعت انها من تصميمها وصنعها . بيد ان مجلتا « فلايت » البريطانية ومجلة «افياسيون» الفرنسية ذكرتا في أعدادهما التي صدرت في كانون الاول ١٩٦٧ ان القنبلة صممت وطورت في مصانع شركة « ماترا » الفرنسية(٢٤) وذكرت مصادر فرنسية اخرى ان شركة « ماترا » هي التي طورت القنبلة التي يبلغ وزنها ٢٠٠ كيلوغرام وتم تحسين هذه القنبلة وانتاجها بعد ذلك في اسرائيل(٢٥) واعتبرت الشركة الفرنسية انتاجها لجهاز التوقيف الذي يوقف اندفاع القنبلة نحو الارض بعد رميها من الطائرة بمثابة انتصار كبير حققته التكنولوجيا الفرنسية . وفي كانون الاول ١٩٦٧ أبرزت شركة « ماترا » رسوما وصورا للقنبلة أوضحت خلالها كيفية عمل القنبلة منذ قذفها من الطائرة وحتى اتمام التفجير على عمق متر ونصف من سطح المدرج(٢٦) واضافت المصادر نفسها ان البريطانيين والاميركيين والسويديين لم يتوصلوا بعد الى انتاج هذه القنبلة الفعالة ضد مدارج المطارات .

ويزن جهاز التوقيف حوالي (٢٣) كغ ، ويركب على القنبلة ويشتمل على مظلة بالاضافة الى الاجهزة الاخرى التي تقوم بعملية التشغيل مع عدد من الصواريخ التي

---

* خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ذكرت مصادر عسكرية مصرية عن ظهور طائرات نوع (ميراج) تختلف عن تلك التي يستخدمها السلاح الجوي الاسرائيلي وذكرت هذه المصادر انها تابعة لدولة جنوب افريقيا . لا يوجد أدلة عن هويتها الاصلية ، ولكن ربما تكون من طائرات (الميراج ٥) التي أفادت المصادر ان اسرائيل انتهت من تجميعها .

تعمل عمل الفرامل (الشكائم) الهوائية بعد رمي القنبلة من الطائرة واخرى تعمل على دفع القنبلة باتجاه المدرج لتخترق طبقة الاسفلت وتستقر على عمق متر ونصف وبعد ذلك تنفجر لتحدث التخريب المطلوب(٣٧).

ولم تكذب اسرائيل شركة « ماترا » ولم تعترف بأنها استخدمت قنابل من صنع اسرائيلي فرنسي مشترك . وبالمقابل لم تعلن الشركة المذكورة انها هي التي زودت السلاح الجوي الاسرائيلي بها في حرب حزيران ١٩٦٧ . ان القنبلة لم تستخدم في حرب تشرين الاخيرة مما يدل على ان الصناعة الجوية الاسرائيلية لم تتوصل الى صنع الاجهزة الدقيقة في القنبلة وعلى الاخص جهاز التوقيف وانها ليست بحوزتها الان . وان صح هذا يثبت اقوال شركة « ماترا » ويؤيدها . ويثبت ان اسرائيل كانت قد حصلت على القنبلة من مصادر فرنسية في عام ١٩٦٧ .

لقد توسعت نشاطات واعمال الصناعة الجوية الاسرائيلية ، وطرقت ابواب مختلف الدول المتقدمة صناعية سعيا وراء المعرفة والخبرة واستثمار الاموال . انها تحاول ان تمد اصابعها في كل اتجاه وركن في العالم . فهي نفاوض حكومة المكسيك لاقامة مركز مشترك لصيانة الطائرات في الاراضي المكسيكية(٣٨). وتحاول اسرائيل الافادة من دول اميركا اللاتينية التي لا زالت متخلفة في مجال الصناعة الجوية ، وتعتمد على الولايات المتحدة في مجال الطيران والصناعة الجوية . ان هذه الدول تستعمل طائرات النقل الصغيرة على نطاق واسع في حقل النقل الداخلي نظرا لعدم توفر المطارات الكبيرة القادرة على استقبال طائرات النقل الكبيرة وذلك بسبب صعوبة الارض (كثرة الجبال والوديان والانهر والغابات) من جهة وقلة الاموال والامكانات والخبرة من جهة ثانية . وتلجأ اسرائيل الى الاساليب التالية : اولا ترويج طائراتها (عرفة) و(ويست وند) في أسواق اميركا اللاتينية . ثانيا : السيطرة فنيا وعلميا في مجال الصناعة الجوية في اميركا الوسطى واللاتينية . ثالثا : الاستفادة ماليا وهو الهدف الاساسي لكل جهودها . رابعا : الاستفادة دعاويا بحيث يصبح اسم اسرائيل على كل لسان كما فعلت في افريقيا . طرقت هذه الصناعة مجالا آخر هذه المرة في اوروبا وفي بلجيكا . لقد سعت الصناعة الجوية الاسرائيلية منذ مدة طويلة لدى الحكومة البلجيكية بأن تسمح لها اقامة مصنع للطائرات والصواريخ والآلات الالكترونية على ان يتم تشغيله بالتعاون فيما بينهما . ووافقت الحكومة البلجيكية في البداية على الفكرة ووقعت اتفاقا مع الصناعة الجوية الاسرائيلية يقضي باستثمار ١٦ مليون دولار في هذا المشروع ، على ان تقدم اسرائيل الخبرة الفنية والتكنولوجية بينما تسمح الحكومة البلجيكية ببناء المصنع على اراضيها وتقدم التسهيلات المطلوبة . وكان من المفروض ان يسهم هذا المصنع في بناء طائرات (عرفة) وانتاج صواريخ « جبرييل » الموجهة وباعمال فحص الطائرات وصيانتها وانتاج المعدات الدقيقة الالكترونية . وأشارت التقديرات الاولية الى ان المصنع ــ الذي كان من المتوقع ان يقام بالقرب من مدينة (لييج) البلجيكية ــ سيوفر العمل لنحو (١٠،٠٠٠) عشرة آلاف عامل(٣٩) لكن الحكومة البلجيكية قررت مؤخرا وعلى ضوء نتائج حرب تشرين الاول ١٩٧٣ الغاء الاتفاق نهائيا وذلك في محاولة لتحسين علاقاتها مع الدول العربية .

ان الصناعة الجوية ماضية في برامجها وابحاثها . فهي بالاضافة الى كل هذه النشاطات تسعى الان الى تطوير محرك صاروخي يعمل بالوقود السائل والوقود الصلب في آن واحد . وسيستخدم في مضمار الصواريخ الموجهة . وان العلماء الاسرائيليين يطورون الان صاروخا موجها من الارض للارض يبلغ مداه (٣٠٠) ميل(٤٠). كما يقوم قسم الخدمات الجوية التابع للصناعة الجوية بالاعمال التالية : (١) اجراء التعديلات على الطائرات حسب الطلب (٢) اجراء عمرة شاملة على الطائرات

والمحركات الغربية الصنع . ان هذا المركز يعتبر واحدا من اكبر المراكز المرخص لها في العالم للقيام بأعمال الصيانة والاصلاحات الرئيسية للطائرات المدنية والعسكرية(٤١).

ان قيمة انتاج الصناعات الحربية في اسرائيل في هذه السنة بلغت مليارا و ٨٠٠ مليون ليرة اسرائيلية بزيادة اضعاف ما كانت عليه في سنة ١٩٦٧ . كما وصلت صادرات اسرائيل من هذه الصناعات ٩٠ مليون دولار مقابل (١٠) ملايين دولار في سنة١٩٦٧(٤٢).

وتحاول اسرائيل في مضمار الصناعة الجوية اتباع نفس النهج الذي سارت عليه السويد والوصول الى مستواها في حقل انتاج الطائرات الحربية وقطع التبديل والصواريخ الموجهة . ان الغالبية العظمى من العاملين في الصناعة الجوية الاسرائيلية هم من اليهود ومن مواليد اسرائيل واكثرهم تم تدريبهم في مركز هذه الصناعة او في السلاح الجوي الاسرائيلي .

ان حرب تشرين سيكون لها أثر كبير على هذه الصناعة . ومما لا شك فيه ان ابقاء الحدود ساخنة سيحرم هذه الصناعة الكثير من الاموال التي كان من المفروض ان ترصد لها لتوجهها الدولة للقوات المسلحة ولمواجهة مضاعفات الحرب والمعطيات الجديدة التي طرأت على الوضع العسكري بعد حرب تشرين . فهي ستكون بحاجة الى مزيد من الاسلحة المتطورة والحديثة باهظة الثمن لقواتها المسلحة البرية والجوية والبحرية لترفع من مستواها القتالي لمجاراة الاسلحة الحديثة التي استخدمها العرب في الحرب الاخيرة. وتقف هذه الصناعة الان أمام منعطف خطير . وسيكون أمامها اتخاذ القرار التاريخي الخطير ، فاما ان تزيد من التوسع والانتاج وهذا سيعني صرف الاموال على تطوير اسلحة بامكانها الحصول على احسن واحدث منها من الولايات المتحدة واما ان تتجه نحو تجميد نشاطاتها وابحاثها ولو لفترة بانتظار ما سيأتي . سنحتاج المعارك المقبلة الى اسلحة متطورة وحديثة ومضمونة وبصورة مستعجلة ، لذا فلن يكون أمام اسرائيل الا الحصول عليها ، لكن ذلك لن يكون من انتاجها .

ومهما حاولت الصناعة الجوية الاسرائيلية من زيادة الانتاج وتوسيع العلاقة بالدول الاخرى فلن تستطيع مجاراة الدول العملاقة الصناعية في مجال تصنيع وانتاج الطائرات. وعندما توقف اميركا مدها بالمساعدات والهبات والقروض عندها لن يستطيع احد ان يتكهن ماذا سيكون عليه مصير هذه الصناعة وصناعات اسرائيلية اخرى .

الحواشي :

١ — **مقلاع داود** (النسخة العبرية) ، شمعون بيريز ، دار فيدنفيرد ونيكلسون للنشر — القدس سنة ١٩٧٠ ، ص ١٩ .
٢ — المصدر نفسه ، ص ٨٧ .
٣ — المصدر نفسه ، ص ١٩ .
٤ — المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
٥ — المصدر نفسه ، ص ٨٨ .
٦ — المصدر نفسه ، ص ٩١ .
٧ — المصدر نفسه ، ص ٨٧ .
٨ — المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .
٩ — المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .
١٠ — المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .
١١ — المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .
١٢ — المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .
١٣ — المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .
١٤ — **نشرة معهد الدراسات الاستراتيجي** لعام ١٩٦٩ .
١٥ — **موسوعة جينز للطائرات** لعام ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، ص ٩٨ .
١٦ — جريدة **معاريف** الاسرائيلية ، تاريخ ٢٧/٧/١٩٧٠ .
١٧ — مجلة **افيشن ويك** ، تاريخ ١٩/٣/١٩٧٢ ، ص ١٣٨ .
١٨ — المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

١٩ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** ، مركز الابحاث الفلسطيني ، (ر. أ. أ.) ، عدد ٢٢٥ ، تاريخ ١٩٧٣/٥/١٧ .

٢٠ — (ر. أ. أ.) ، عدد ٢٣١ ، تاريخ ٢٤/١٩٧٣/٥ .

٢١ — (ر. أ. أ.) ، الاعداد ١٩٤ — ١٩٥ — ١٩٦ ، تاريخ ٢٦ ، ٢٧ ، ١٩٧٣/٣/٢٨ .

٢٢ — المصدر نفسه .

٢٣ — (ر. أ. أ.) ، عدد ٣٦ ، تاريخ ١١/١٩٧٢/٩ .

٢٤ — **موسوعة جينز للطائرات** لسنة ٧٢—١٩٧٣، ص ١١٣ .

٢٥ — (ر. أ. أ.) ، عدد ٣٦ ، تاريخ ١١/١٩٧٢/٩ .

٢٦ — (ر. أ. أ.) ، عدد ٣٦ ، تاريخ ١١/١٩٧٢/٩ .

٢٧ — **كتاب تمييز الطائرات** ، وليام غرين ، لسنة ١٩٧٣ ، ص ١٢٤ .

٢٨ — المصدر نفسه ، ص ١٢٤ .

٢٩ — (ر. أ. أ.) ، ملحق عدد ٢١٨ ، تاريخ ١٩٧٣/٤/٢٥ .

٣٠ — مجلة **افييشن ويك** ، تاريخ ١٩٧٣/٣/١٩ ، ص ١٨٣ .

٣١ — **موسوعة جينز للطائرات** لسنة ٧٢—١٩٧٣، ص ٥٠ .

٣٢ — (ر. أ. أ.) ، عدد ١١٥ ، تاريخ ١٥/١٢/١٩٧٢ .

٣٣ — (ر. أ. أ.) ، ملحق عدد ١٨٥ ، تاريخ ١٩٧٣/٣/١٤ .

٣٤ — **انشاء وتطوير سلاح الطيران الاسرائيلي** ، زئيف شيف وآخرون ، مترجم عن العبرية ، دار العودة ، بيروت ، تاريخ ١٩٧٢ ، ص ١٣٨ .

٣٥ — المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

٣٦ — المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

٣٧ — المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

٣٨ — مجلة **افييشن ويك** ، تاريخ ١٩٧٣/٣/١٩ ، ص ١٨٣ .

٣٩ — (ر. أ. أ.) ، عدد ١٦٦ ، تاريخ ٢٠/١٩٧٣/١٠ .

٤٠ — (ر. أ. أ.) ، عدد ١٨٥ ، تاريخ ١٤/١٩٧٣/٣ .

٤١ — مجلة **افييشن ويك** ، تاريخ ١٩٧٣/٣/١٩ ، ص ١٣٨ .

٤٢ — (ر. أ. أ.) ، عدد ٢٩ ، تاريخ ١/١٩٧٢/٩ .

صدر حديثا عن مركز الابحاث

اليوميات الفلسطينية

المجلد الخامس عشر

من ١/١/١٩٧٢ الى ٣٠/٦/١٩٧٢

والمجلد عبارة عن وصف موجز ودقيق لما يحصل في العالم مما له علاقة مباشرة بقضية فلسطين ، او ما يقال او يكتب عنها ،يوما بعد يوم ، مهما كان نوع الفعل وأيا كان مصدره. وهو ملحق بفهرسين مفصلين (واحد للاعلام وآخر للموضوعات) وبجدول بعمليات المقاومة الفلسطينية .

سعر النسخة ٢٠ ل.ل. تضاف اليها أجور البريد الجوي :
٢ ل.ل. في العالم العربي ، ٤ ل.ل. في اوروبة ، ٨ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من مركز الابحاث : قسم التوزيع
ص. ب ١٦٩١ — بيروت

معتقل الجفر الصحراوي : صورة حية للصمود واصرار على متابعة النضال

غازي الخليلي

لا يجافي أي مؤرخ الحقيقة ، اذا اختصر تاريخ الاردن المعاصر بالحديث عن السجون والمعتقلات بشكل خاص وعن القمع والارهـاب الذي مارسته ، ولا زالت تمارسه ، السلطة الحاكمة في الاردن بشكل عام . فتاريخ هذه السلطة ، هو القمع والاضطهاد للحركة الوطنية ولكل الجماهير . وقل أن تجد انسانا عاش في الاردن لم يعان من عنف هذه السلطة واضطهادها . والحديث عن القمع ومعتقلات الارهاب في الاردن ، حديث يطول ، لانه يشمل حقبة تاريخية تمتد لما يزيد عن ربع قرن ، ولذلك سأحاول التركيز في حديثي هنا ، بالحديث عن معتقل الجفر الصحراوي ، خلال السنوات الثلاث الماضية التي أعقبت مجازر أيلول ، حيث كنت أحد نزلائه ، مستندا في كل ما انقله على تجربتي الخاصة ، وعلى ملاحظاتي ومشاهداتي الشخصية بشكل رئيسي ، لانقل صورة حية عن مناضلي شعبنا في هذا المعتقل ، الذي بات يشكل جزءا من تاريخهم ، وجانبا أساسيا من حياتهم النضالية .

وحتى تتحدد الصورة في ذهن أي قارىء ، عن هذا المعتقل ، والدور الذي يلعبه في مخطط السلطة القمعي ، لا بد من الحديث في البداية وبشكل عام عن وضع السجون في الاردن .

اذا استثنينا السنوات الثلاث المجيدة (٦٧ — ٧٠) التي عاشتها جماهيرنا في الاردن بنهوض المقاومة الفلسطينية المسلحة ، هذه السنوات التي تحررت فيها جماهير شعبنا من قبضة أجهزة القمع ، وبنت خلالها سلطتها الشعبية متخطية سلطة هذه الاجهزة ، وكذلك اذا استثنينا فترات النهوض الجماهيري التي عاشتها الحـركة الوطنية خلال الربع قرن الاخير ، فانه يمكن القول ، ان جماهير شعبنا ، خارج هذا الزمن المحدد كانت تعيش في سجن كبير ، كانت تعيش حالة اضطهاد وقمع يومي مستمرين، حركتها مراقبة، خطواتها ملاحقة ، أي تحرك ولو بسيط تشعر منه السلطة أنه مضاد لها ، يقمع ، وبكل قوة ، قيود من كل نوع ولون تمارس ، قيود على العمل ، قيود على السفر ، قيود على المعاملات الرسمية ، قيود على التنقل الداخلي ... الخ . العنف يمتد ليشمل المدرسة والمعمل والشارع ، وحتى البيت .. وبالتالي فانه لم يكن يشكل فارقا كبيرا الانتقال من هذا السجن الكبير الى السجن الصغير ذي الجدران الاربعة والضيقة ، استمرار للعنف وللاضطهاد ، وان اتخذ طابعا فرديا ، وبشكل يختلف — نسبيا — . وقد عبر عن هذا الشعور الكثيرون من ذوي المعتقلين اثناء زيارتهم لهم بقولهم : « ما نواجهه في الخارج لا يختلف كثيرا عما تواجهونه هنا ، بل انتم « المعتقلين » في بعض الحالات ، تعيشون بشكل أفضل منا ، فنحن « الزوار » نشعر بخوف مستمر ، وباللااطمئنان المستمر .. ملاحقات يومية ، ومداهمات ليلية ، واضطهاد وامتهان للكرامة كل يوم » ولقد كانوا صادقين في احساسهم ، وفي كلامهم .

السجون والمعتقلات في الاردن

في الاردن ثلاثة سجون ومعتقلات رئيسية كبيرة هي : السجن المركزي، سجن الزرقاء العسكري ، معتقل الجفر الصحراوي . بالاضافة الى زنازين الاعتقال التابعة للمخابرات العامة والاستخبارات العسكرية ، والسجون الفرعية الموجودة في كـل مدينة وهي « سجون » العقبة ، معان ، الطفيله ، الكرك ، الزرقاء ، السلط ، جرش ، عجلون ، اربد . هذا بالاضافة الى انه في حالات الاعتقالات الواسعة ، فان كل مخفر شرطة ، ومكتب أمن وقائي او مخابرات ، وكل ثكنة ومركز كتيبة عسكرية ، يتحول الى مركز للاعتقال والتعذيب .

السجن المركزي : يقع شرقي عمان ، على طريق عمان ــ الزرقاء ، وهو بالاساس سجن مدني ، أي للقضايا المدنية ، الا انه يستخدم للمعتقلين السياسيين ايضا . قبل ان يتحول الى سجن كان عبارة عن اسطبل للخيل . يتسع في الاحوال العادية لحوالي (٨٠٠) سجين الا انه في الفترة التي أعقبت معارك أيلول كان يتواجد به حوالي ١٥٠٠ سجين ومعتقل في اغلب الاحيان . ملحق به في الطابق العلوي ، سجن صغير للنساء .

يتألف السجن المركزي من الاقسام التالية : أ ــ الادخال ، عبارة عن ثلاث غرف في مقدمة السجن ، مفصولة عن ساحة السجن الرئيسية ، يستخدم لعزل بعض المساجين، وللقادمين الجدد . ب ــ شبك تحتاني ، به (١٧) غرفة ، وملحق به ساحة « للفورة » . ج ــ شبك فوقاني ، به (١٥) غرفه وشبك للزنازن ، ملحق به ساحة « للفورة » . د ــ شبك العسكريين : ثلاث غرف ، للعسكريين المحكومين . هـ ــ شبك الموقوفين : (٦) غرف ، للموقوفين اداريا ، والذين لم تصدر بحقهم أحكام . و ــ المعتقل (١٠ غرف) للمعتقلين السياسيين ، ويمكن فصله عن ساحة السجن الرئيسيــة . ز ــ الزنازن الافرادية ، ١٢ زنزانة افرادية . ح ــ شبك الخلايا ، وهو عبارة عن مجموعة من الغرف الصغيرة على شكل زنازن ، الا أنها جيدة التهوية ونظيفة ، وهي مخصصة للمسجونين ذوي المكانة الخاصة . ط ــ القبو : عبارة عن غرفة مستطيلة بطول ١٠ امتار ، تحت الارض وبدون تهوية يستخدم للذين تعاقبهم ادارة السجن ، مثبت في ارضيته مجموعة من الحلقات ، يربط اليها السجين المعاقب ، حتى لا يتحرك ، ويحرم السجين المعاقب من الغطاء ، وترمى بين قدميه اوساخ ذات رائحة كريهة ، في كثير من الحالات . كان اسلوب العقاب هذا يستخدم بكثرة ضد المعتقلين الذين تشعر بخطورتهم ادارة السجن ، في محاولة منها لاهانتهم وقهر ارادتهم .

سجن الزرقاء العسكري : يقع في مدينة الزرقاء، داخل ثكنة عسكرية. وهو بالاساس للعسكريين ، الا انه يستخدم للمعتقلين السياسيين مدنيين وعسكريين . تشرف عليه قيادة الجيش . ويخضع لنظام عسكري صارم جدا . يتكون من مجموعة من البركسات، ومجموعتين من الزنازن الافرادية ، كل مجموعة حوالي ٣٠ زنزانة ، يتسع لحوالي ٦٠٠ معتقل ، الا أنه كان يتواجد به ما يزيد عن ١٠٠٠ معتقل في أغلب الاحيان .

معتقل الجفر الصحراوي : وهو من المعتقلات الاساسية ، والمخصصة للمعتقلين السياسيين . يقع في وسط الصحراء ، جنوب شرقي معان ، ويبعد عنها حوالي ٦٠ كم ، يتصل بمعان بطريق اسفلتي . والجفر بالاساس كان مخفرا أماميا متقدما في طــرف الصحراء ، وهو من جملة المخافر التي بناها الضابط البريطاني جلوب عــلى أطراف الصحراء في الاردن ، من أجل السيطرة على طرق التهريب الصحراوية ، ولتكون وسيلة اتصال مع البدو ، ولا يزال البناء القديم لهذا المخفر قائما ، وهو بناء حجري مبني على طريقة بناء القلاع في العصور الوسطى، ويستخدم هذا البناء الان مبنى للادارة، ومهاجع للجنود ، وبطرفيه برجان عاليان للمراقبة . يعود استخدام الجفر كمعتقل سياسي الى

مطلع الخمسينات ، حيث كان يعتبر منفى سياسيا ، وكان في البداية عبارة عن بعض الخيام وبركسات الزينكو ، وفي أوائل الستينات بنيت مجموعة البركسات من الباطون الصب ، بحيث أصبح عدد البركسات المستخدمة الان ١٥ بركسا بالاضافة الى مجموعتين من الزنازن كل مجموعة عشر زنازن . هذا بالاضافة الى مجموعة من بركسات الزينكو المتروكة الان، والتي كانت مخصصة للشيوعيين في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات.

يتألف معتقل الجفر من الاقسام التالية : أ ـــ بركسات الاعتقال ، الصالح منها ١٥ بركسا ، وهي على نوعين بركسات باطون صب ، او سقف زينكو مع جدران باطون صب . وكل بركس عبارة عن وحدة اعتقال قائمة بذاتها مفصولة عن البركسات الاخرى، ولا يسمح بالاتصال بين بركس وآخر . والبركس يتألف من مساحة من الارض بطول يتراوح بين ٢٥ ـــ ٣٠ م ، وبعرض ١٢ ـــ ١٥ م ، محاطة بسور بارتفاع ٣ ـــ ٤ م ، يعلوه شبك عادي بارتفاع مترين ، أما الاسوار التي تطل على الخارج ، وليس كحاجز بين البركسات ، فهي بارتفاع لا يقل عن ٦ م ، يعلوها شبك كثيف مع قطع من الزجاج مثبتة على طول السور من أعلى ، لمنع التسلق عليه . وفي وسط هذه الساحة يقوم بناء بطول ١٨ م وبعرض ٧ م ، يغلق بباب حديدي وفي كل بركس دورة مياه . ١٢ من هذه البركسات مخصصة للمعتقلين السياسيين . أما البركسات الاخرى (١ ، ٦ ، ١٤) فهي للمحكومين بقضايا مدنية أو تجسس . يتسع كل بركس في الاحوال العادية لحوالي ٥٠ معتقلا ، الا أنه مرت فترات كان عدد أي بركس لا يقل عن ١٢٠ معتقلا . ب ـــ الزنازن الافرادية ، يوجد مجموعتان للزنازن ، كل مجموعة عبارة عن عشر زنازن ، وكل زنزانة بطول ٥ر٢ م، وعرض ٥ر١ م، تقريبا، تستخدم هذه الزنازن للعزل والحبس الانفرادي، وكوسيلة عقاب ، وفي الاحوال العادية تستخدم كأي بركس آخر . ج ـــ بالاضافة الى الزنازن ، يوجد بركس زينكو صغير ، يستخدم للعزل والعقاب ، بالاضافة الى قبو تحت الارض ، يستخدم في حالات العقاب الشديد . د ـــ وفي مواجهة المعتقل ، تقع ساحة واسعة ، أطلق عليها المعتقلون اسم « الساحة الحمراء » لانها حمراء فعلا لكثرة الدماء التي نزفت عليها ، وعمليات التعذيب التي كانت تجري على رمالها ـــ سنأتي على ذكر ذلك لاحقا ـــ .

تاريخ المعتقل هو تأريخ للحركة الوطنية : ان تاريخ الحركة الوطنية في الاردن منذ بداية الخمسينات ، يتواكب مع تاريخ هذا المعتقل الرهيب . ففي مطلع الخمسينات وأمام اشتداد عمليات القمع ، ونطور أجهزة القمع والارهاب الاردنية ، شهد الجفر أول موجات من المعتقلين في الوقت الذي لم يكن يضم سوى بعض الخيام وبعض بركسات الزينكو ، كان في ذلك الوقت عبارة عن منفى يقع في قلب الصحراء ، لا يصله أي انسان الا المعتقلين وقوى الامن المشرفة عليه ، ومع ازدياد عمليات القمع والاعتقالات الكيفية، وبشكل خاص في الفترة التي أعقبت الاطاحة بحكومة سليمان النابلسي في نيسان ١٩٥٧ ، ازداد عدد المعتقلين بشكل كبير ، وكان معظمهم مـــن الشيوعيين والبعثيين والقوميين العرب بالاضافة الى مجموعة من الضباط الوطنيين آنذاك . وفي بداية العام ١٩٦٢ ، انخفض عدد المعتقلين الى حوالي ٣٦٠ معتقلا معظمهم من الشيوعيين ، خصصت لهم البركسات المتهدمة الان ، بالاضافة الى بركس ١ ، ٢ ، ٣ . وقد استمر هؤلاء في المعتقل حتى منتصف عام ١٩٦٥ ، حيث تم الافراج عن كل المعتقلين السياسيين بموجب عفو عام ، باستثناء المعتقلين من الفدائيين ، وكان معظمهم من حركة فتح ، وكانت غالبيتهم في السجن المركزي وفي سجن الزرقاء العسكري .

وفي نيسان ١٩٦٦ ، شهد الاردن موجة اعتقالات واسعة جديدة شملت كـــل القوى الوطنية ، وقد ازدادت حدة الاعتقالات واتسعت بشكل كبير مع موجة الاضطرابات التي

عمت كل مدن الاردن في اعقاب حوادث السموع في أواخر عام ١٩٦٦ . وقد بلغ عدد المعتقلين في الجفر ألفا ونيفا ، اضافة الى المعتقلين الكثيرين في السجون الاخرى .

واستمر المعتقل يستقبل المعتقلين حتى هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، حيث افرج بعد الهزيمة عن جميع المعتقلين ، واغلق معتقل الجفر لاول مرة في تاريخه واستمر اغلاقه مدة ثلاث سنوات ، هي السنوات الثلاث الجيدة (٦٧ — ٧٠) لنهوض المقاومة الفلسطينية ولحركة الجماهير الوطنية في الاردن . ومنذ مجازر أيلول ١٩٧٠ ، أعيد فتح المعتقل ، ليعيش مرحلة جديدة من تاريخه، تعتبر أقسى المراحل التي عاشها هذا المعتقل واصعبها حتى الان ، هذه المرحلة التي لا تزال ممتدة حتى الان ، ولم تنته بعد .

الحراسات داخل المعتقل : ان القوة التي تشرف على حراسة المعتقل ليست كبيرة ذلك ان وجوده وسط الصحراء يعطيه مناعة طبيعية ويجعل محاولة أي هرب منه محاولة محفوفة بالمخاطر . وفي كل تاريخ المعتقل الرهيب لم تجر الا محاولتا هرب ، الاولى حوالي العام ١٩٥٨ ، قام بها ثلاثة من المحكومين مدى الحياة بقضايا التجسس ، الا ان محاولتهم فشلت ، وتم القاء القبض عليهم ، وهم تائهون وسط الصحراء . اما المحاولة الثانية فقد جرت في اوائل العام الماضي ١٩٧٣ وقام بها احد المعتقلين ، الا انه فشل والقي القبض عليه غير بعيد عن المعتقل مسافة ٤ كم . ويقدر مجموع الحراسات بحوالي ١٥٠ نفرا منهم ٤٠ من قوات البادية ، مهمتهم الحراسات الخارجية ، وحوالي سرية (٨٠ — ١٠٠) من قوات الامن العام (وهي من القوات التي تم تحويلها من الجيش الى الامن العام بعد معارك أيلول ١٩٧٠) ومهمة هذه السرية الحراسات الداخلية — الابراج ومداخل البركسات . ثم مجموعة من افراد الشرطة ، مهمتها الاشراف الاداري . بعد أيلول ١٩٧٠ ، كان المعتقل خاضعا لقيادة الجيش مباشرة ، وبه قوة البادية فقط ، وفي منتصف العام ١٩٧١ استعين بمجموعة من الشرطة للمعاونة في الادارة الا انه منذ منتصف ١٩٧٢ ، أصبح تابعا لمديرية السجون العامة ، ويخضع لمديرية الشرطة . وتتوزع الحراسات في أبراج عالية حول المعتقل وبين البركسات ، كل برج يتواجد به جندي ، وفي الاحوال غير العادية يتضاعف الى اثنين . بالاضافة الى ذلك هناك حراسات المداخل الى البركسات ، ثم حراسات متجولة بين البركسات . يتعرض الداخل أو الخارج من المعتقل الى ثلاث عمليات تفتيش : عند المدخل الرئيسي للمعتقل ، وعند المدخل الداخلي الرئيسي الداخلي للمعتقل ، وعند مدخل البركس ، كذلك فانه عند الخروج من البركس والعودة اليه (للزيارة او للعيادة) تجري عملية تفتيش دقيقة خوفا من نقل أي اغراض ممنوعة ، او اية أوراق مكتوبة من بركس لآخر .

سنوات ثلاث رهيبة ، ولكنها مفعمة بالنضال : في الثلث الاخير من أيلول عام ١٩٧٠ ، فتح الجفر أبوابه لاستقبال اول دفعة من المعتقلين ، ليبدأ مرحلة جديدة من تاريخه الطويل . كان معظم القادمين الاوائل من مدينة الزرقاء ، ثم بدأت الموجات تتوالي ، حتى امتلأ الجفر بما يزيد عن ١٠٠٠ معتقل . كانت البركسات مغطاة بالرمال ، لا توجد بطانيات ، المياه مقطوعة .. وبقي المعتقلون لاكثر من يومين بدون غطاء وبدون طعام . وعندما تم توقيع اتفاقية القاهرة — عمان ، بين السلطة الاردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، كان من أحد بنودها الافراج عن جميع المعتقلين لدى السلطات الاردنية.. الا أنها لم تفرج عن معتقلي الجفر الا بعد مضي ما يزيد عن ثلاثة اشهر ، ولم تطلق سراحهم جميعهم ، بل أبقت قسما منهم ، ولدى قدوم وفد من لجنة الوساطة العربية الى معتقل الجفر للافراج عن الباقين ، لم تجد أحدا ، لان السلطات كانت قد نقلتهم بعيدا عن المعتقل في قلب الصحراء ، حيث باتوا ليلتهم في العراء ، وقد بقي قسم من هؤلاء ، ولم يفرج عنهم الا في العفو الاخير . لقد كانت رحلة رهيبة ، وأياما عصيبة ،

امتدت من ذلك الوقت ولا تزال مستمرة حتى الان . ولم تكن هذه السنوات الثلاث الماضية (أيلول ١٩٧٠ ــ ايلول ١٩٧٣) ذات طابع واحد، او على وتيرة واحدة ، اذ عاش المعتقلون خلالها اوضاعا تتفاوت في شدتها من آن لآخر ، ولذا سأحاول ان اميز هذه الفترات ، والتي يمكن تقسيمها الى خمس فترات رئيسية :

الفترة الاولى (من ايلول ١٩٧٠ ــ آب ١٩٧١) : تعتبر هذه الفترة من أقسى الفترات التي شهدها معتقل الجفر في كل تاريخه الطويل ، لقد كانت فترة قاسية الى درجة كبيرة جداً . . القمع والاضطهاد والتعذيب ، من كل الالوان كانت تمارس بكل سادية ، كانت تمارس يوميا وبشكل دائم ، ناهيك بسياسة التجويع ومحاولات قهر النفس واذلالها . انها ايام لن تزول ذكراها من مخيلة اي معتقل عاشها ، وان أسماء الجلادين (أمثال العتوم ، والشاويش سعود ، وماجد الطفيلـــي ، وابو فيصل ، وابو عماد وغيرهم) ستظل تذكرها جماهيرنا رمزا للاضطهاد والارهاب .

انني مهما حاولت ، لن استطيع أن اوفي هذه الفترة حقها مـــن الشرح والتوضيح ، فالصورة تبقى ناقصة ، لانها قد تصل أحيانا الى درجة الخيال . لأبدأ القصة ، مـــن البداية ، من بداية الوصول الى الجفر والدخول الى البركس ، كان المعتقل في هذه الفترة تحت اشراف قوات البادية وقوات من الجيش الاردني ، وكانت هذه القوات معبأة بالحقد والضغينة ، على كل شيء يمت بصلة الى العمل الفدائـــي ، لم يكونوا سوى مجموعة من الاغبياء اعماهم الحقد . لدى وصول اي سيـــارة او كميون يقل فدائيين معتقلين الى مدخل المعتقل ، تتخذ قوات البادية وضعا استعداديا امام الادارة ، بأن تصف جميعها في صفين متقابلين ، وهي مسلحة بالعصي الغليظة ، المقطوعة من أغصان الشجر الكبيرة ، او بالكرابيج واسلاك التليفون المجدولة ، وبالبنادق ذات الحـــراب المشرعة ، تصف السيارة بحيث يكون بابها الخلفي في مواجهة هذا الصف ، ثم يفتح الباب ، ويدفع المعتقلون دفعا باتجاه الفجوة بين الصفين ، او داخل « قوس النصر ! » كما كان يسمى ، وهنا تنهال الضربات من كل جانب وبكل الاتجاهات ، وعلى كل الجسم، تخرج من هذا القوس لتواجهك مجموعة اخرى تلتف حول دائرة في وسط الساحة ، وتصل الى هناك ، لتدور حول الدائرة ، ركضا والضربات تلاحقك وتنهال عليك ، والويل لمن يسقط على الارض ، لانه لن يرحم . وتستمر الحفلة : « حفلة الاستقبال » مدة تزيد عن ساعة ، او تمتد ساعتين حسب المزاج ، والنشوة ، ثم يطلب من الجميع الركض باتجاه البركس . أي بركس ؟ والى أين ؟ لا تدري ، ولكن الضربات المنهالة عليك تدلك على الطريق . الامور لم تنته عند هذا الحد ، فعلى مدخل البركس ينتظرك كمين، ما ان تطل حتى تنهال عليك الضربات ، لترافقك في الدخول الى البركس . . وعندما تصبح داخل البركس ، تنتهي مراسيم حفلة الاستقبال ! على طريقة الهنود الحمر ، كما تظهر في الافلام الاميركية . . النتيجة ، الكل مصاب ، اضلاع مكسرة ، جروح تنزف ولا تستطيع مداواتها ، لان الخروج الى العيادة ، يعني التعرض الى عملية مـــن النوع نفسه ، وبالتالي ، الافضل تدبير أمر الجروح والكسور بأي طريقة الا الخروج للعيادة . ولذا فان جروح الكثيرين كانت لا تندمل ، ومع عدم النظافة ، لعدم توفر الماء ، فان الدود كان ينتشر حول الجرح . ولم تكن مثل هذه الاعمال الوحشية بدون ضحايا ، فأكثر من معتقل قد استشهد من جراء الضرب بهذه الطريقة المجنونة . ومعظم المعتقلين يتحدثون عن ان أكثر من عشرة قد استشهدوا ودفنوا في رمال الصحراء ، وشاهدت حادثة استشهاد احد المعتقلين داخل البركس ، حيث دخل الى البركس والدم ينزف من مؤخرة رأسه ، واستمر النزيف ولم يتوقف ، وليس من علاج ، النتيجة ، توفي بعد ساعة ، نقل على اثرها من البركس . . . الى حفرة في جوف الصحراء . بعد ان تنتهي « حفلة الاستقبال »

هذه ، تبدأ رحلة العذاب اليومي ، ففي اليوم التالي ، تأتي البادية الى كل بركس على حدة ، وتطلب من القادمين الجدد الخروج الى الساحة ، وهناك تكرر العملية السابقة نفسها ، وتستمر لاكثر من اسبوع ، حيث ان الجدد يصبحون قدماء بقدوم معتقلين جدد آخرين . بالاضافة الى ذلك ، فانه بين فترة واخرى ، كل اسبوع او اقل ، يمر مدير المعتقل على البركسات ، ويخرج اي بركس يريد — حسب مزاجه — الى الساحة ، في ساعات الظهيرة ، حيث تكون الرمال كالجمر ، ويطلب من الجميع الدوران حول الدائرة ، وتكون من حولهم قوات البادية بعصيها وكرابيجها ، وتبدأ الحفلة ، ساعة ، ساعتين حتى يشبع رغبته وساديته ، وقد تتكرر العملية في اليوم لاكثر من مرة . ومن هنا ، فقد أطلق المعتقلون على هذه الساحة اسم « الساحة الحمراء » . ان كــل جندي يتمتع بصلاحيات مطلقة ، لتعذيب أي كان من المعتقلين هكذا وبدون سبب ، ولذلك فمن الامور المألوفة ان يأتي أي جندي الى البركس ، وينظر في الجميع ، ويخرج مــن يشاء الى الساحة ، او يضربه على مرأى من الجميع ، على يديه ورجليه ، او على كل انحاء جسمه هكذا لمجرد اشباع رغبة ذاتية . وفي صباح كل يوم ، وعند فتح أبواب البركسات ، يطلب من الجميع الخروج ، والركض حول البركس ، مع السياط التي تلهب ظهر الجميع أثناء الركض . وتمارس العملية نفسها عند استلام وجبات الطعام ، وهي عبارة عن وجبتين « لا تغني ولا تسمن من جوع » الاولى حوالي العاشرة صباحا عبارة عن قطعة خبز لا تزن اكثر من خمسين غراما ، وكوب شاي بارد . والثانية حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر ، وهي عبارة عن قطعة خبز كالاولى ، مع حبات من الرز مخلوطة بالمرق . والويل لمن لا يصف بانتظام ، والويل لمن يتذمر او يشكو من قلة الاكل ، عندها لن ينقذه منقذ. ولا يقتصر الامر عند هذا الحد ، فبالرغم من انه يوجد دورة مياه في كل بركس ، وبالرغم من وجود بئر ارتوازي يوزع على كل البركسات ، فان الماء كان يقطع باستمرار ، وتوزع المياه بالقطارة ، بمعدل كوب واحد في اليوم لكل معتقل . اما الصابون ، فكان محرما ، وهذا أدى الى انتشار الاوساخ والقاذورات وانتشار القمل بكثرة داخل البركسات . أما البرد ، فكان العدو الدائم للمعتقلين ، لانه لا البسة لديهم تقيهم البرد ، فأي كنزة جيدة ، او بنطلون او جاكيت ، على اي معتقل ، بامكان أي جندي أن يطلب مصادرته ، ويأخذه بكل بساطة . . اما الساعات والفلوس ، او خاتم الخطبة مثلا ، فهذه كانت تسرق عند الدخول فورا .

بالاضافة الى ذلك ، فانه في هذه الفترة ، كانت تسيطر أجواء التحقيق ، وكانت بين فترة وأخرى تأتي لجان من المخابرات العامة الى المعتقــل ، وبالتالي ، فان الحيـــاة السياسية كانت شبه معدومة في هذه الفترة .

لقد كانت هذه الفترة ، من أقسى واصعب ما شاهده المعتقلون طيلة السنوات الثلاث الماضية ، كما كانت من أقسى الفترات التي مرت على الجفر . فالجوع كان سائدا ومنتشرا الى درجة الموت . ان الحصول على قطعة خبز زيادة في بعض الاحيان ، يعتبر بمثابة « عيد » . والكل كان يشكو من الدوخة ، وكم من واحد وقع على الارض من كثرة الجوع وقلة الغذاء . لقد كانت حالة تجويع وارهاب لم تشهدها حتى معسكرات النازية. الا أن الضغط مهما اشتد ، والارهاب مهما كان عنيفا ، والجوع مهما كان مؤثرا . . ان كل ذلك لم يوقف النضال ، ولذا فقد أثار المعتقلون ضجة كبيرة حول كل هذه الاعمال ، وبدأوا يطالبون بايقافها ، ومعاملتهم معاملة معتقلين سياسيين . ونتيجة الضجة ، وشيوع حالات الموت والتشويه الكثيرة لدى أوساط واسعة ، فقــد أوقفت « حفلات الاستقبال » ومنع الضرب الا اثناء التحقيق ، كما منعت البادية من الدخول الى داخل البركسات ، واعطيت صلاحية الاشراف الاداري الى أفراد من الشرطة . وكان ذلك في

اوائل آب ١٩٧١ ... وانتهت هذه الفترة ، ولم تكن لتنتهي بدون نضال وبدون تضحيات . ولتبدأ الفترة الثانية .

الفترة الثانية (آب ٧١ — الى نهاية العام ٧١) : ان ما يميز هذه الفترة هو غياب عمليات التعذيب والضرب الكيفية ، واكتساب المعتقلين نفسا جديدا جعلهم اقدر على النضال من أجل تحسين أوضاعهم ومنع تدخلات الادارة من شرطة وغيرهم في شؤونهم ، وكذلك النضال من أجل زيادة وجبات الطعام وجبة أخرى ، وعدم قطع المياه . الا انه بالرغم من نضالات المعتقلين ، فقد استمرت السياسات السابقة من حيث اقتصار وجبات الطعام على وجبتين فقط وبكميات قليلة ، واستمرار الحالة الصحية السيئة ، وفقدان الطبابة ، ومنع الزيارات ، ومنع المراسلات مع الاهل ، مع استمرار قطع المياه من آن لآخر . وفي هذه الفترة ، وبشكل خاص في أواخر تموز ، قدمت أفواج المقاتلين المعتقلين من الاحراج ، فقفز عدد المعتقلين الى ما يزيد عن ١٥٠٠ معتقل ، وهذا الوضع ولد مشكلات من نمط جديد .. الاكتظاظ مع الحر الشديد ، مع فقدان الماء والصابون ، زاد من وطأة القمل وتراكم الاوساخ ، مما أوجد حالة صحية سيئة جدا . كذلك فقد شهدت هذه الفترة تزايد عمليات التحقيق التي تتم في المعتقل ، حيث كانت باستمرار تتواجد لجان من المخابرات العامة او الاستخبارات العسكرية تقوم بمهمة التحقيق ، واجراء فرز تنظيمي ، وكذلك فرز الحالات التي تتطلب استدعاء للمخابرات العامة لاجراء المزيد من التحقيق . الا انه خلال هذه الفترة، تزايدت نضالات المعتقلين واحتجاجاتهم طلبا لتحسين أوضاعهم ، واعطائهم حقوقهم كمعتقلين سياسيين . وقد أدت هذه النضالات في النهاية الى الحصول على بعض من الحقوق ، مما أرسى ملامح فترة جديدة ، كان يطلق عليها المعتقلون « الفترة الفضية » الا أنها لم تدم أكثر من أربعة شهور ... حيث أعقبتها عملية قمع رهيبة .

الفترة الثالثة (من أوائل عام ٧٢ — ١٩٧٢/٥/٧) : في أواخر عام ٧١ ، وأوائل ٧٢ ، بدأت تفد الى معتقل الجفر مجموعات كبيرة من الفدائيين المحكومين ، وكانت اول مجموعة تزيد عن ٢٠٠ محكوم تم نقلهم في قافلة واحدة من السجن المركزي الى معتقل الجفر ، وأذكر تلك الليلة ، حيث سهر — تقريبا — جميع من في سجن المحطة ، وفي حوالي الساعة الثالثة صباحا نودي على الاسماء ، وخلال ساعتين كان الجميع في الكميونات ، كل اثنين بقيد واحد ، وطيلة الطريق التي امتدت لاكثر من ست ساعات ، كانت الاناشيد الوطنية والثورية ، تنطلق من كل الكميونات ، كانت ساعات حافلة ، الوجوه كلها يعلوها الهزء ، وتعلوها البسمات ، فالجفر كان يسمى « مصنع الرجال » ، وليس « مقبرة الرجال » كما كانت تدعي السلطة العميلة . ان قدوم هذه الدفعات الجديدة من المحكومين ، أرخى حياة جديدة ونشطة داخل المعتقل ، كانت لحظات رائعة، عندما يلتقي الاخوة والرفاق ، بعد افتراق ، لا يعرفون عن بعضهم شيئا ، ثم يلتقون . العناق والدردشات ، والاحاديث الطويلة ، والاسئلة الكثيرة تتردد هنا وهناك . ولذلك وفي ضوء النضالات السابقة ، ومع اشتداد العزائم بقدوم المحكومين تمكن المعتقلون من انتزاع بعض من حقوقهم ، منها السماح بمراسلة الاهل باشراف ادارة السجن ومن خلالها ، والسماح لذوي المعتقلين بزيارة معتقليهم بعد الحصول على تصريح من المخابرات العامة للموقوفين ، ومن مديرية الامن العام للمحكومين ، وكانت أول الزيارات مع بداية عيد الاضحى ، كانت قليلة ، الا أنها كانت ذات مدلولات لا يمكن التقليل منها . ومع الزيارات اصبح بالامكان معرفة ما يدور في الخارج ، أصبح بالامكان الحصول على أغطية والبسة ، وكذلك على بعض التموين . كذلك ، فقد زيدت وجبات الطعام الى ثلاث ، بالرغم من انها بقيت على حالها من حيث القيمة الغذائية ونوعية الطعام .. وكان يتم التعويض عن ذلك ، بأن سمح للمعتقلين بابتياع المعلبات والدخان من دكان المعتقل .

الا ان أهم مطلب تم تحقيقه في هذه الفترة ، هو السماح بادخال بريموس الى كل بركس، وبالتالي أصبح بالأمكان تسخين الماء للحمام ، وأصبح بالامكان تحسين الطعام باعادة طبخه من جديد ، اضافة الى ان حالات قطع المياه خفت ، ومع توفـر المياه الساخنة والصابون ، تم تنظيف المعتقل وتطهيره من القمل ، وقامت حملة نظافة عامـة في كل المعتقل . الا ان ما تم تحصيله ، يعد قليلا بالنسبة الى الحقوق الاخرى مثل : تحسين الاوضاع الصحية والعناية الطبية بالمعتقلين . تحسين وضع الطعام والاشراف المباشر على تصنيعه من قبل المعتقلين ، وكذلك الاشراف المباشر من قبلهم على استلامه منعا وايقافا لعملية نهبه من قبل ادارة السجن . جعل الزيارات مفتوحـة وبدون تصاريح مسبقة ، اسوة بباقي السجون في الاردن . الاشراف مـن قبل المعتقلين علـى دكان المعتقل . السماح بادخال الجرائد والمجلات والكتب ، وكذلك السماح براديو لكـل بركس . وقف اي عمليات اهانة او تعذيب ، ومعاملة المعتقلين كأسرى حرب . فتح الاشباك او السماح بزيارة البركسات . فتح مدرسة لتعليـم الاميين ، يشرف عليهـا المعتقلون . اقامة ملاعب كرة طائرة وكرة سلة . محاكمة الموقوفين ، اذ كان هناك ما يثبت ادانتهم واطلاق سراحهم . ايقاف المحاكمات الصورية ، واعطاء كل متهم حقـه الكامل في الدفاع عن نفسه .

ان تحقيق هذه المطالب يتطلب نضالا شاقا ، ولا يمكن تحقيقها الا باضراب شامل وعام في كل سجون الاردن . ولذا فقد جرى العمل من أجل التحضير لهذا الاضراب .. وتم الاتصال بين معتقل الجفر والسجن المركزي وكذلك مع بعض السجون الاخرى من اجل الاضراب . الا ان حصول بعض الظروف الخاصة بمعتقل الجفر ، دفعت بتعجيل الاعلان عن الاضراب ، وكان ذلك في النصف الاول من آذار ١٩٧٢ ، وقد استمر الاضراب مدة يومين ، تشكلت في ضوئه لجنة من المعتقلين ، انيطت بها مهمة الاتصال بالادارة والتحدث باسم كل المعتقل . وقد تم تحقيق بعض المطالب منها السماح بادخال الجرائد والمجلات، ابداء بعض المرونة في زيارة البركسات ، مجيء طبيب صحة وطبيب أسنان كل اسبوعين مرة ، الاهتمام بالحالات المرضية الطارئة وتحويلها الى المستشفى ، عدم اهانة الزوار أو المس بكرامتهم ، اما بالنسبة للمطالب الاخرى فقد تم الاتفاق على بحثها مع الجهات المختصة . وفي ضوء اضراب الجفر ، فقد قام اضراب آخـر في السجن المركزي يوم ٧٢/٣/١٩ حيث تجمع المعتقلون في ساحة السجن ، وهتفوا للثورة ، وحددوا مطالبهم ، وقدموها لادارة السجن بواسطة لجنة شكلوها من قبلهم ، وقد تم تحقيق بعض المطالب كما حصل في معتقل الجفر بالاضافة الى طرد الشرطة الذين يسيئون معاملة المعتقلين ومنهم ماجد الطفيلي المشهور بحقده على العمل الفدائي . أما المطاليب الاخرى ، فقد وعدت ادارة السجن بدراستها مع الجهات المختصة .

كان واضحا ، ان تحقيق كل المطالب دفعة واحدة أمر مستحيل ، وبالتالي فقد كان التكتيك الذي اتبع هو الحصول على بعض الحقوق وتكريسها ، ومن ثم متابعة النضال للحصول على الحقوق الاخرى . وبعد عملية الاضراب هذه ، قام وفد من الصليب الاحمر بزيارة معتقل الجفر ، الا ان ادارة المعتقل رفضت للجنة شكلها المعتقلون مقابلة الوفد ، مما أدى الى تجدد الاضراب من جديد احتجاجا على موقف الادارة . الا انه على ضوء مماطلة الادارة وتلكئها في تحقيق المطالب الاخرى التي وعدت بتنفيذها ، جرى التهيئة لاضراب جديد عام وشامل مع الاستفادة من التجربة الماضية ، بحيث يكون الاضراب في وقت واحد في كل السجون . الا أن مديرية السجون العامة، بالتنسيق مع ادارة المعتقل، وادارة السجن المركزي اذ شعرت بما يرتب ـــ على ما يبدو ـــ قامت باجراء حركـة تنقلات واسعة بين المعتقلين، وقامت بنقل قيادات المعتقل المعروفة الى المخابرات العامة حيث تعرضت لعمليات تعذيب مجددة . كذلك فقد نقلت ادارة السجن المركزي بعضا من

القيادات البارزة في السجن ، الى معتقل الجفر ، حيث تم وضعهم في زنازن افرادية ، كما نقلت بعضا آخر الى سجن الزرقاء العسكري ، حيث تعرضوا هناك لعمليات تعذيب قاسية ، ومن العسكري نقلوا مجددا الى المخابرات العامة، حيث استمر تعذيبهم هناك.

ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل كشرت كل اجهزة القمع عن انيابها ، وبدأت تعد لحملة قمع وارهاب تشمل كل السجون في الاردن ، وبشكل خاص معتقل الجفر والسجن المركزي ، فقد تم استدعاء سرية من الامن العام لكل من معتقل الجفر والسجن المركزي، اختيروا من العناصر الحاقدة ، وتم تعبئتهم بشكل أكبر ضد الفدائيين ، استعدادا للقيام بأوسع عملية قمع وتفتيش داخل المعتقل والسجن المركزي . وكان ذلك صباح يوم السبت الموافق ٧٢/٥/٧ .

الفترة الرابعة (من ٧٢/٥/٧ ــ الى نهاية العام ٧٢) : تمتاز هذه الفترة باشتداد عمليات القمع والارهاب في الاشهر الثلاثة الاولى والعودة الى أجواء الفترة الاولى ــ نسبيا ــ ، وحرمان المعتقلين من معظم حقوقهم التي انتزعوها بنضالهم خلال الفترة الماضية ، الا أنه بعد مضي هذه الشهور الاولى ، وبسبب النضالات التي خاضها المعتقلون حفاظا على حقوقهم ، فقد بدأت تخف الوطأة شيئا فشيئا ، وتمكن المعتقلون من انتزاع بعض من حقوقهم المسلوبة .

وسأتحدث هنا بشيء من التفصيل ، عما جرى في معتقل الجفر ، وسأبدأ من اليوم الاول . ففي صباح السبت الموافق ٧٢/٥/٧ ، شهد المعتقل أوسع عملية قمع وتفتيش جرت خلال السنوات الثلاث الماضية . فقد تم وصول سرية الامن العام التي ذكرتها الى المعتقل ليلا ، بعد أن عبئت بالكامل ضد الفدائيين ، وتم تسليحها بالعصي والكرابيج واسلاك التليفون المجدولة . وفي الصباح لم تفتح الاشباك . وهذا معناه تفتيش عام . وتم تشكيل لجنتين ، كل لجنة على رأسها ضابط ومعه لا يقل عن عشرين جنديا مع ملحقاتهم من البادية والشرطة ، وبدأ التفتيش ، كل بركس لوحده . وكانت العملية كالتالي :

يفتح باب البركس ، ويطلب من الجميع الخروج بسرعة مع اخراج كل الاغراض ، ويكون هذا الطلب مصحوبا بالكلمات البذيئة والشتائم ، وما أن يبدأ المعتقلون في الخروج ، حتى تنهال عليهم العصي والضربات من كل جانب ، بعد ذلك يطلب من الجميع التجمع مع اغراضهم في طرف من ساحة البركس ، ثم ينادي الضابط المشرف على بعض الاسماء ، يطلب منها الدخول الى البركس فردا فردا لتضرب بشدة كشكل من اشكال التأديب والارهاب للاخرين . بعد ذلك يطلب من كل معتقل ان يحتفظ فقط بملابسه الخاصة ، وبالبطانيات والبرش* المعطاة له من قبل ادارة السجن، وما دون ذلك يصادر جميعه سواء كان حرامات ام فرش ، وصودرت البريموسات ، والكاسات والملاعق والطناجر والصحون والشاي والسكر وكل المواد الغذائية الموجودة ، التي اشتراها المعتقلون من حسابهم .

أمام هذه التصرفات الفاشية ، كان لا بد من رد لان عدم الرد معناه العودة الى أجواء القمع والارهاب التي رافقت الفترة الاولى ، وهذا يعني خطوة كبيرة جدا الى الوراء ، ومن الصعب بعدها انهاض المعتقل من جديد . لذلك كان لا بد من رد ، لايقاف عمليات الضرب والتعذيب على الاقل . ولذا ، فقد كان اول رد من بركس ١٢ . حيث

---

* البرش : عبارة عن بطانيات قديمة تقطع وتجدل ، ثم تربط ببعضها بعرض ٦٠ سم ، وطول ١٧٠ سم ، تستخدم بدلا من الفراش .

انه في الوقت الذي فتح فيه باب البركس ، خرج كل المعتقلين بسرعة وهم يهتفون بصوت واحد « الموت ولا المذلة » ثم راسا تناول البعض منهم الحجارة ، والبعض الاخر انتزع بعض العصي من الجنود ، وحصلت معركة ، مما أدى الى هرب الجنود ، وتمت ملاحقتهم حتى باب الادارة . وقد تجاوبت بقية البركسات مع بركس ١٢ وبدأت الهتافات تدوي في كل المعتقل « الموت ولا المذلة ، ثورة ، حتى النصر » لقد قامت انتفاضة فعلا . وللسيطرة على الوضع قامت قوات الامن العام بأطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع على البركسات وبأطلاق الرصاص ارهابا ، وكاد الامر ان يتحول الى مجزرة . ولقد رفض المعتقلون الاذعان لاي امر الا باستدعاء الضابط المسؤول والتباحث معه في الامر ، وفعلا حضر يصحبه الجنود الهاربون ، وقد طلب منه ان يقتصر الامر على التفتيش فقط ، بدون اهانات او ضرب ، والا فان الجميع مستعدون للموت ، وفعلا فقد استكملت عمليات التفتيش دون ضرب او اهانات ، لم يكن لهذه الانتفاضة تأثير مباشر فقط ، بل كان لها تأثير على كل العملية القمعية بذاتها ، ذلك أن الهدف من هذه العملية القمعية أن تأخذ مداها الكامل ، وان تعود بالمعتقل خطوة كبيرة الى الوراء ، بالهيمنة الكاملة لقوات البادية والامن العام ، وبسيادة عمليات الضرب والجلد اليومية ، الا ان الانتفاضة التي تولدت عنها ، وضعت حدا لها ، وجعلتها ضمن حدود معينة ، واذا كانت « العملية القمعية » قد أدت الى سلب المعتقلين الكثير من حقوقهم (حيث انهم لا يملكون القوة لفرض ما يريدون) فان « الانتفاضة » حالت دون العودة الى الفترة الاولى .

لقد استمرت حالة القمع هذه ترخي ذيولها لفترة امتدت حوالي ثلاثة شهور ، فقد تقلصت الزيارات، ومنع الشاي ، كما منع شراء أي حاجيات من دكان المعتقل، بالاضافة الى سيطرة جو من الارهاب النسبي ، ساعد في انتشاره الاستدعاء المستمر للكثيرين الى المخابرات العامة والتحقيق معهم حول ما تم وما يجري في المعتقل . الا أن النضال لا يتوقف ، وبالتالي ، فقد ازداد المعتقلون تجربة بمواجهة الادارة،ولما كان القيام بأضراب، أمرا غير ممكن في ظل الوضع النفسي السائد في المعتقل فقد اخذ النضال الاشكال التالية :

١ ــ تقوية التضامن العام بين جميع المعتقلين ، وشد النفوس الضعيفة ، ورفع المعنويات بشكل عام ، والتهيئة خلال الفترة القادمة لاضراب عام وطويل ، يضع حدا لكل الاعمال الفاشية . ولاستعادة الحقوق المسلوبة .

٢ ــ اختيار مجموعات من المعتقلين الموثوقين جدا للقيام بنشاط بين افراد سرية الامن العام ، لكسب العناصر المضللة منهم ، وتنفيس تعبئتهم ، بوضع الحقائق امامهم والتأثير عليهم ، وقد أعطت هذه السياسة ثمارها ، وانعكست بقيام العديد منهم بتقديم خدمات للمعتقلين مثل تهريب الاغراض المنوعة « من شاي وسكر ومجلات وراديوات» مما اضطر ادارة المعتقل الى تغيير السرية ، واتباع خطة بتغييرها مرة كل شهر .

٣ ــ التفتيش عن مجالات لتعويض ما فقد ، فالممنوعات تعوض بالتهريب ، ومصادرة البريموسات ، تعوض بالبحث عن مصادر نيران اخرى . وفعلا استعيض عن البريموس بصنع بريموس « جفراوي » نسبة الى الجفر ، وهو عبارة عن علبتين ، كبيرة وصغيرة، تثقب الصغيرة من جميع جوانبها ويلف حول نصفها الاسفل « خرق » او قطعة قماش مبللة بالدهن ، وتوضع في داخل العلبة الكبيرة التي تثقب ايضا من جوانبها وهذه تعطي لهبا ، يساعد في تسخين الطعام ، او صنع ابريق من الشاي او غيره . .

كما استعيض عن البريموس ، باستعمال فتات الخبز المتبقي بعد تنشيفه كوقود ، ثم بصنع ما يشبه « الكور » للنفخ على النار ، وقد تم تنظيم هذه العملية في كل بركس

سواء « البريموس الجفراوي » او الكور ، وبالتالي فقد استعيض عن البريموس بشكل كامل . وقد حاولت ادارة المعتقل ، منع استخدام المعتقلين للخبز كوقود ، بمصادرة الخبز المتبقي ، وبمصادرة كل العلب التي تقع تحت يدها ، الا انها كانت غير قادرة ، بحيث أصبح الامر في النهاية حقا مكتسبا لا يمكن انتزاعه .

في ضوء هذه السياسة بدأت تتفكك اجواء الارهاب شيئا ، ومن خلال النضال تمكن المعتقلون من انتزاع بعض من حقوقهم ، كشراء حاجيات تموينية من الدكان وتوسيع اطار هذه الحاجيات لتشمل المعلبات وكذلك ادخال الجرائد والمجلات المسموح بدخولها للاردن ، بالاضافة الى احضار حرامات او فرشات مع الزوار ، أما المطالب الاساسية فقد ظلت معلقة بانتظار الاضراب .

وفي الربع الاخير من عام ١٩٧٢ ، خصص الصليب الاحمر في الاردن ، باصا كل يوم جمعة لنقل ذوي المعتقلين الىالجفر على نفقته الخاصة، وقد أفاد ذلك المعتقلين وذويهم. لانه بذلك تم توفير مبالغ كثيرة ، حيث ان اجرة اي تاكسي من عمان للجفر كانت لا تقل عن عشر دنانير .

الفترة الخامسة (من بداية عام ٧٣ الى العفو العام ٧٣/٩/٢٠) : قبل العفو الاخير كان ما تبقى في معتقل الجفر لا يتجاوز ٧٥٠ معتقلا ومحكوما ، واذا استثنينا منهم بحدود ١٠٠ من المحكومين المدنيين (قضايا مدنية وتجسس) فيكون مجموع ما تبقى من الفدائيين ٦٥٠ معتقلا ومحكوما ، يضاف اليهم حوالي ٣٥٠ اخرين كانوا موجودين في السجون الاخرى ، فيكون مجموع الفدائيين المعتقلين قبل العفو الاخير حوالي الالف ، خرج منهم بعد العفو ٩٥٧ وبقي بحدود ٣٠ فدائيا لا يزالون في السجن حتى الان ، وقد استثني هؤلاء من العفو بدعوى انهم متهمون بجرائم قتل .

امتازت هذه الفترة ، بسيطرة جو من الهدوء النسبي على المعتقل ، وبسيادة حالة من الاستقرار النسبي في عدد المعتقلين ، ولم يخل الامر من بعض الاضرابات الجزئية والاعمال الاحتجاجية على تصرفات الادارة ومضايقتها للمعتقلين فقد كانت ادارة المعتقل، تحاول في بعض الحالات العودة الى جو من التشديد وممارسة الارهاب ، او سلب المعتقلين بعضا من حقوقهم المكتسبة ، كمنع الجرائد والمجلات والتضييق في الزيارات وبأصدار قوائم جديدة بالممنوعات ، منع الدخان مرة ، او منع ادخال المعلبات الى المعتقل .. كل هذه الاساليب كانت تقاوم من قبل المعتلقين بالاضراب الجزئي ، او الامتناع عن استلام وجبات الطعام ، او رفع المذكرات الاحتجاجية . كذلك فقد امتازت هذه الفترة بتنشيط الحياة السياسية داخل المعتقل ، بشكل افضل من أي فترة مضى، وبارتفاع معنويات المعتقلين بشكل ملحوظ وليس ادل على ذلك ، أنه يوم اصدار العفو الاخير ، جاءت بعثة التليفزيون الاردني الى المعتقل ، مع ضابط من المخابرات ، وطلب من المعتقلين « ان يرقصوا او يغنوا، لتصويرهم » ، الا ان الجميع رفض، بالرغم من كل التهديدات ، وعادت البعثة « بخفي حنين » . وكذلك ، فأنه عند نقل المعتقلين بعد العفو عنهم ، من الجفر الى عمان ، فقد كانوا طيلة الطريق يهزجون وينشدون الاناشيد الثورية . كانت النفوس معبأة ، ومعنويات الجميع عالية، بالرغم من السجن والعذاب.

أساليب الادارة في اختراق المعتقل والحصول على المعلومات :

من أخطر القضايا التي يواجهها المعتقلون في اي معتقل ، هي محاولات ادارة المعتقل، التعرف على ما يجري في الداخل ، والحصول على معلومات بهذا الشأن ، سواء في ما يتعلق بالممنوعات ، او بالنشاط السياسي ، او محاولات الاضراب والتمرد ، اضافة الى أن الادارة يهمها معرفة وتحديد العناصر القيادية ومجمل نشاطاتها، حتى تعزلها وتبعدها عن المعتقل ، اذا رأت ضرورة لذلك . ويمكن تحديد وسائل جمع المعلومات هذه بما يلي:

١ ــ زرع العملاء بشراء ضعاف النفوس او استخدام بعض المساجين المدنيين بالتغلغل او التواجد في بركسات المعتقلين السياسيين .

٢ ــ التنصت والاستماع الى ما يجري داخل البركس ، وذلك بالكمون خلف الابواب او تحت الشبابيك ، بعد ادخال المعتقلين في المساء .

٣ ــ اجراءات التفتيش الفجائية من آن لآخر والتي تأخذ شكل « الكبسة » .

٤ ــ محاولة الحصول على الاخبار والمعلومات من الافراد الذين يعملون في المطبخ او العيادة . ولمقاومة هذه الاساليب ، فقد كان المعتقلون يتخذون اجراءات مضادة منها:

١ ــ رفض المساجين المدنيين بالتواجد في بركسات المعتقلين السياسيين ، وعزلهم في بركسات خاصة بهم ، ولا سيما ان معظم هؤلاء من الذين يتاجرون بالحشيشة او متهمين بقضايا تجسسية ، بالاضافة الى ان المشكوك فيهم ، يتم ابعادهم من داخل بركسات المعتقلين ، بأزعاجهم وجعل حياتهم لا تطاق في البركس ، وبمعاقبتهم في بعض الاحيان .

٢ ــ وبالنسبة لعمليات الانصات والاستماع ، فكانت تتم مقاومتها ، بوضع حراسات مراقبة على الباب من الداخل ، يراقب كل داخل لساحة البركس ، ويعطي انذارا في حال انفتاح الباب فجأة ، مما يعطي مجالا لتخبئة الاغراض الممنوعة .

٣ ــ اية عرائض او استدعاءات مرفوعة للادارة من قبل أي معتقل ، كان يتم مراقبتها من قبل شخص في كل بركس ، وهو الذي يقوم بتسليمها الى الشرطي المناوب، وذلك خوفا من ارسال معلومات عن البركس الى الادارة عن هذا الطريق ، في حال وجود شخص ما يتعامل مع الادارة وغير مكشوف لدى البركس .

٤ ــ ان يتم اختيار العناصر التي تعمل في العيادة او المطبخ .. الخ ، من العناصر الموثوقة والمعروفة بصلابتها ، وادخال اي عنصر يشك في سلوكه .

٥ ــ وضع عناصر تكون قريبة من الادارة مهمتها ، الحصول على المعلومات التي تصل للادارة سواء من خارج المعتقل او من داخله .

بهذه الاجراءات كان المعتقلون يبطلون كل اساليب الادارة بشكل جيد ، وعمليات التفتيش الفجائية ، كانت تفقد عنصر المفاجأة في اغلب الاحيان لان المعتقلين كانوا يعملون بها قبل تنفيذها بفترة كافية .

التفتيش داخل المعتقل : المقصود بالتفتيش داخل المعتقل ، هو عمليات التفتيش التي تتم بين فترة واخرى من قبل ادارة المعتقل ، بهدف مصادرة الممنوعات من راديو وكتب .. الخ وبهدف خلق جو ارهابي مستمر ، وابقاء المعتقلين في حالة خوف دائم حتى تشل نشاطاتهم السياسية وغيرها ، وتجهد الادارة ان تكون عمليات التفتيش فجائية لضمان فعاليتها . والتفتيش على نوعين : أ ــ عمليات تفتيش تقوم بها ادارة المعتقل وعلى مسؤوليتها ، ومثل هذه العمليات تكون جزئية لا تشمل كل المعتقل ، بل بعض البركسات ، بناء على اخبارية بوجود ممنوعات او غيره ، او لارهاب بركس معين لانه يضايق الادارة ، وهذا النوع يتكرر باستمرار وعلى ضوء الظروف . ب ــ عمليات تفتيش تقررها المديرية العامة للسجون اما بتنسيب من ادارة المعتقل ، او من جهة امنية ما ، كالمخابرات العامة ، أو من قبل ادارة السجون نفسها ، ومثل هذه العمليات تكون عادة كل ثلاثة شهور او ستة ، وتشمل كل المعتقل ، وتتم بوجود لجنة مشرفة تشكلها المديرية العامة للسجون . وفي الحالتين ، تتم عملية التفتيش في كل بركس على حدة ، وتكون الاشباك مغلقة ، وفي العادة تكون اما في الصباح وقبل فتح الاشباك ،

او في المساء بعد غلق الاشباك ، لضمان اكبر قدر من المفاجأة . وتجري عملية التفتيش بخروج الجميع الى ساحة البركس مع كل الاغراض الموجودة في الداخل . وتقــوم اللجنة المسؤولة بتفتيش داخل البركس اولا فوق الشبابيك ، خلف مواسير المياه ، في دورة المياه ، وفي كل مكان يخطر بالبال تقريبا ، ثم يتم بعد ذلك تفتيش كل شخص واغراضه بشكل فردي ، وعند الانتهاء من تفتيشه يدخل الى البركس وهكذا دواليك . الا ان المعتقلين وفي ضوء تجربتهم الخاصة ، كانت لديهم وسائلهم الكثيرة لاخفاء كــل الممنوعات من الراديو والبريموس وحتى ننكة الكاز ، الى الكتاب والنشرة ... الخ . ومعظم عمليات التفتيش التي جرت في معتقل الجفر ، وكانت كثيرة جدا ، لم تؤد الــى نتائج ملحوظة ، الا مرة واحدة ،حيث صودر حوالي ١٧ راديو ، وكان ذلك ان اللجنة المشرفة اتبعت اسلوبا جديدا ، حيث قامت اول مرة بتفتيش عادي ، ثم بعد اسبوع رجعت اثناء الليل ، وبدأت عملية تفتيش واسعة ودقيقة جدا ، مما ادى بها الى ان تحصل على بعض الممنوعات .

الناحية الغذائية والتموينية : شكلت الناحية الغذائية والتموينية ، قضية اساسية في معتقل الجفر ، فالزيارات كانت قليلة لبعد المعتقل ، ولان اي زيارة تكلف كثيرا ، اضافة الى ان تصاريح الزيارات للمعتقل لا يمكن الحصول عليها بسهولة ، كل ذلك جعــل المعتقلين في الجفر ، يعتمدون في غذائهم اليومي على وجبات المعتقل ، في حين ان مثل هذه المشكلة لا تبرز في السجون الاخرى القريبه من العمران ، فالزيارات اليها اسبوعية وبدون تصاريح ، مما يجعل المعتقلين فيها لا يعتمدون على وجبات السجن أما في الجفر فالامر يختلف . ومن هنا ، فان هذه القضية ، شكلت قضية أساسية في صراع المعتقلين مع ادارة المعتقل ، فبالاضافة الى ان الكميات المقررة قليلة ولا تكاد تسد الحد الادنى من الحاجات اليومية ، فانها كانت تسرق وتنهب ، والكميات المقرر صرفها يوميا لكل معتقل كما وردت في صيغة التعهد بين مديرية السجون والمتعهد هي : ٤ غرامات شاي ، ٣٠ غرام سكر ، ٩٠ غرام رز ، ١٥٠ غرام خضرة ، ١٠٠ غرام لحمة (ثلاث مرات فــي الاسبوع) ٧٥٠ غرام خبز ، ١٥ غرام زيتون او حلاوة طحينية ، فلقة صابون كــل اسبوعين . ان هذه الكمية المقرر صرفها بالرغم من عدم كفايتها ــ باستثناء الخبز ، فلم يكن يصل نصفها ، لان ادارة السجن بالاتفاق مع المتعهد كانت تسرق معظمها ، اضافة الى ان ما يصل للمعتقل يكون من اردأ الانواع وارخصها . فالخبز لا يصــل منه يوميا ٤٠٠ غرام ، وفي الفترة الاولى كان لا يوزع اكثر من ١٠٠ غرام ، اما الصابون فنادرا ما يوزع ، واضافة الى ذلك فأن طبخ الطعام كان سيئا جدا ، ولا يتوفر فيه الحد الادنى من النظافة . ولذا فقد كان المعتقلون باستمرار يطالبون فيما يتعلق بهذا الموضوع بالاتي : (١) زيادة الكميات المقرر صرفها يوميا ، وان لم يكن بالامكان ، فعلى الاقــل عدم نهبها ، والسماح للمعتقلين بابتياع حاجتهم من المواد الغذائية لسد النقص . (٢) تشكيل لجنة من قبل المعتقلين أنفسهم وباختيارهم ، للاشراف على استلام الارزاق حتى لا تنهب . (٣) تشكيل لجنة من قبل المعتقلين للاشراف على المطبخ وطبخ الطعام وتأمين نظافتــه .

لقد كانت ادارة المعتقل تعارض بشدة اجراءات من هذا النوع . لانها تسلبها مصدر دخل اساسي كل شهر . وفي بعض الحالات كان المعتقلون يفرضون مطالبهم ، الا ان الادارة سرعان ما تخترقها ، وتخلق قصة جديدة .

الصحة العامة والطبابة : شكل هذا الموضوع قضية أساسية ، تفوق كل القضايــا الاخرى من حيث الاهمية ، ولم تكن هذه القضية تخص معتقل الجفر وحده ، بل كانت تخص كل المعتقلين في كل سجون الاردن ، الا انها كانت تكتسب اهمية في الجفر ، بحكم

بعده عن اي مركز طبي ، ومن هنا فقد شكلت هذه القضية نقطة صدام أساسية مع ادارة المعتقل في كل الفترات .

فمن الناحية النظرية ، يوجد عيادة في المعتقل ، يشرف عليها ممرض من الجنود ، ويجب أن يتوفر فيها جميع العلاجات الاساسية ، كذلك يجب ان تتم زيارة كل من طبيب الصحة وطبيب الاسنان مرة كل اسبوعين ، بالاضافة الى الاهتمام بالحالات الطارئة وتحويلها الى المستشفى . **أما عمليا** ، فقد كانت الامور على نقيض ذلك تماما ، ففي الفترة الاولى والثانية اي طوال العام ٧١ ، واواخر العام ٧٠ ، لم يكن متوفرا أية عناية صحية ، والعيادة من النادر جدا ان يتوفر بها اسبرو ، والمجروح اذا وجد من يخيط له جرحه فبأبرة خياطة عادية وبخيط نايلون ، اما الطبيب فلم يكن يعرف باب المعتقل ، وقد علق احد الضباط المسؤولين على هذا الوضع بقوله : « انتم عهدة مستهلكة ، فما حاجتكم الى الطبيب ، اننا ننتظر موتكم ولا نريد معالجتكم !! » أما في الفترات اللاحقة فقد تحسنت الامور ــ نسبيا ــ الا انها ظلت أدنى من الحد الادنى المطلوب بكثير . فالعيادة لا تصلها العلاجات ، لانها كانت تسرق وتباع قبل أن تصل الى المعتقل والادوية المتوفرة هي الحبوب المهدئة من « ريمين ونوفالجين وكودبين » والاعتياد على هذه الحبوب قد يؤدي الى الاعتياد على تعاطي المخدرات ، وعلى ما يبدو ان هذا ما كانت تريده السلطة .

اما زيارة الطبيب فقد كانت على المزاج ، يأتي كل شهرين كل ثلاثة على كيفه ، ولا يمكث لاكثر من ساعة ، وطبيب الاسنان كان نادرا ما يأتي ، والعلاج الوحيد لديه القلع او الحبوب المهدئة . ولذلك كان المعتقلون يطورون علاجات خاصة بهم لمعالجة وجع أسنانهم ، فكان « محلول الشبه » و« محلول تبغ الهيشة » من العلاجات السائدة في المعتقل لمقاومة وجع الاسنان .

اما الحالات الطارئة والتي تستدعي العلاج السريع او الانتقال الى المستشفى ، فلا تلقى أية عناية ملحوظة ، واثنان من المعتقلين توفيا ، لانه لم يجر نقلهم الى المستشفى بالسرعة اللازمة ، احدهم اصيب بنوبة قلبية وتأخر نقله لاكثر من ثلاث ساعت فمات ، والاخر أصيب بحالة مرضية مفاجئة ، تأخر نقله للمستشفى لاكثر من يومين ، فمات أيضا . اما الحالات التي تستدعي عمليات مثل البواسير او غيرها ، فكانت تهمل وتترك للزمن . اما يقاوم جسم الانسان او يموت ، او يستعصي مرضه .

وليت الامر وقف عند هذا الحد ، فقد كانت الادارة تصادر اي أدوية خاصة يوصي عليها المعتقلون مع زوارهم ، بدعوى انها تريد التأكد منها من قبل الطبيب ! بالاضافة الى ذلك ، فان الادارة كانت لا تساعد المعتقلين في النظافة العامة ، فكانت تحرمهم من المبيدات الحشرية ومبيدات الذباب ، اضافة الى الحرمان من الماء الساخن والصابون في الفترات الاولى ، مما أدى الى انتشار الامراض الجلدية بكثرة .. وأمام خطورة الحالة ، وتحت الضغط والالحاح المستمرين ، فقد وافقت ادارة المعتقل على عزل المصابين ، ومعالجتهم بسرعة ، الا ان فترة العزل لم تدم الا قليلا ، والعلاج كان جزئيا وغير مجدي ، وعلى حد قول احد المعتقلين : لقد كتب علينا ان نتناول طعامنا مع الذباب والرمال ومع استنشاق الروائح الكريهة . ولقد كان صادقا الى حد كبير في كلامه .. فالطعام كان يوزع على البركسات في سطول مكشوفة ، ومع الرمال التي يثيرها « الطوز الصحراوي » كانت تمتلىء السطول بالرمال ، أما الذباب فقد كانت لا تخلو منه وجبة طعام .

الحياة السياسية داخل المعتقل : ما كان السجن او الاعتقال ليوقف نضال مناضل ، أو يمنعه عن متابعة مهماته النضالية بنفس القوة والفعالية كأنه خارج السجن . ذلك

ان السجن يتيح فرصة قد لا تتوفر في الخارج ، وهي وجود مجموعات مجربة ومن قوى مختلفة ، في تماس مباشر مع بعضها ، وفي حياة يومية مشتركة ، مما يخلق جوا من التفاعل ، يعطيه السجن ، والوجود في مواجهة جهاز قمعي بشكل يومي وملموس ، طابعا خاصا لا يتوفر في الخارج ، ومن هنا ، فان النضال ومتابعته من داخل السجن ان لم يكن يفوق النضال خارجه ، فانه يوازيه في الاهمية . فالسجن الذي تريد منه قوى القمع الفاشية ، ان يكون وسيلة للعزل والبعد عن التأثير في الجماهير ، فانه يشد من الصلة مع الجماهير ، ويخلق حالة من التعاطف اكبر واشد في تأثيرهـــا بين السجين والجماهير ، والسجن الذي يراد منه ان يكون قهرا للارادة ، يـــزود المناضل ، اي مناضل ، بتجربة ثمينة ، وباختبار للذات وقدرتها على الاحتمال والصبر والمواجهة . ان السجن هو ايضا اختبار للارادة ، ولعمق الالتصاق بالقضية الوطنية . انه رؤيا جديدة، تضع المناضل ، اي مناضل ، امام صور وأوضاع جديدة ، لا يواجهها في حياته العادية ونضاله اليومي ، يواجهها في السجن بنفسه ، ويختبرها بنفسه ، ولذا فانها تكتسب اهمية خاصة لديه ، تكسب قناعاته صلابة ومتانة .

ان مواجهة قوى القمع بشكل مباشر ويومي، تعني دائما ــ باستثناء ضعاف النفوس، باستثناء أصحاب الارادات الميتة والمنهارة ــ تصليب الذات ، تصليب المنطلقـــات ، واكسابها المزيد من الوضوح ، المزيد من البلورة .

ان فترة السجن تمثل في حياة كل مناضل ، حالة قائمة بذاتها ، يكون لها فعل وتأثير مباشران على حياته القادمة ، وعلى مستقبله النضالي . ومن هذه الزاوية بالذات فان الحركات الوطنية تعطي للسجن أهمية خاصة ، لانها بالسجن ومن خلاله ، تكتشف صدق عناصرها ، تكتشف صلابتهم وقوة ارادتهم ، وقدرتهم على المواجهـــة والصمود . ان القيادات الوطنية في معظمها ، بنت نفسها وعمقت ارتباطها بالقضية خلال السجن ، فالسجن مصنع للرجال ، للمناضلين ، وليس غريبا ان يسمي الفرنسيون سجن « كون سين » في فيتنام ، بجامعة « هوشي منه » فمن هذا السجن كان يتخرج أصلب المناضلين، وفي هذا السجن كان يتحول الناس العاديون الى مناضلين صلبين ، وعنيدين في نضـالهم. ولذا ليس غريبا ان يكون معتقل الجفر ، الجامعة الوطنية لشعبنا ، فالجفر الذي ارادت منه الفاشية الاردنية أن يكون مكانا لقتل الارادة ، واذلالا للنفس ، تحول الى مشعل للنضال لا تنطفىء جذوته ابدا ، تحول الى قلعة للصمود ، والى مدرسة لتربية الكادرات الوطنية وتخريجها . ففي داخله كانت تصقل النفوس ، وتقوى العزائـــم ، وتصلب الارادات ، وتترسخ القناعات بالقضية الوطنية والنضال من أجلها .

ان زمن السجن لم يكن زمنا ضائعا ، والسنوات الثلاث التي مضت على المعتقلين في معتقل الجفر وسجون الاردن الاخرى ، لم تكن خارج الزمن ، كانت سنوات نضال وبناء ثوري . فبالاضافة الى الخبرات المستفادة في مواجهة قوى القمع والفاشية والنضال من اجل انتزاع الحقوق بالاضرابات وغيرها ، فقد أضافوا الى خبراتهم الســـابقة خبرات جديدة ، نموا من ثقافاتهم ، وارتقوا بحالتهم النضالية ، وزادوا من تجاربهم .

لم يكن المعتقلون داخل الجفر ــ بالرغم من انه منفى ــ بعيدين عن الحياة السياسية والجو السياسي في الخارج ، كانوا يواكبون نشاطات المقاومة، ويتابعون اخبار الحركات الوطنية العربية ونضالاتها ، وأخبار القوى الوطنية الثورية في العالم . كانت الحياة السياسية جزءا مهما في النشاط اليومي لكل معتقل ، فقد شكل النشاط السياسي اليومي جانبا هاما وأساسيا جدا من تفكير القيادات والكوادر المعتقلة ، ومن تفكـــير جمهرة المعتقلين ، ولم يكن هذا النشاط متروكا للمزاج او للمبادرة الذاتية المحضة ، بل كان مبرمجا ، وله أهدافه المحددة ، في شد مجموع المعتقلين وترسيخ تضامنهم ، في تصليب

مواقفهم ، في الارتقاء بقدرتهم على الاحتمال والصمود ، في الارتقاء بوعيهم السياسي والفكري ويمكن تحديد أهم مجالات هذا النشاط السياسي اليومي بما يلي :

١ ــ البناء الذاتي بصقل النفس ومحاربة العادات والمسلكيات الخاطئة : ان وجود مجموعات كبيرة من المعتقلين في تماس يومي مباشر مع بعضهم ، يخلق احيــانا بعض الاشكالات ، فالسجن والتفكير بالاهل والاولاد والزوجة .. الخ ، يخلق حالات مــن النرفزة والنزق والضيق ، أو الضجر ، ولذا فان اي اشكالات كانت تعالج بطول نفس ، ومن خلال التربية الثورية ، وبالنضال لاقتلاع العادات والمسلكيات الخاطئة والمكتسبة من خارج السجن ... لقد كان يتم التركيز على هذه الامور في الندوات ، وفي الجلسات النقدية التي كانت تعتقد بين حين وآخر ، مما كان يساعد كثيراً على الاقلاع عن العادات والمسلكيات الخاطئة ، وتكريس عادات ومسلكيات جديدة ، تنمــي روح التعــاون والتضامن ، وروح التفكير بالجماعة ، والنظرة المسؤولة والواعية للامور . لقد كان يتم التركيز في هذه الندوات واللقاءات سواء بمحاضرات أو بدردشات ومناقشات عامة . عن معنى وجودنا في المعتقل ؟ ماذا تهدف السلطة من وجودنا هنا ؟ كيف نمنعها من قهر ارادتنا ؟ كيف نعالج مشاكلنا وبأي روح يجب ان نعالجها ؟ ما هي أخطاؤنا ؟ النقد والنقد الذاتي وأهميته في معالجة الاخطاء . ان مواضيع كهذه ، كانت تترك آثارا واضحة على جمهرة المعتقلين ، وكانت تساعد في الارتقاء بأوضاع كل معتقل ، وبصقل ذاته .

٢ ــ تنمية روح التضامن بين جميع المعتقلين من كل التنظيمات ، بالتأكيد على الانتماء الى القضية الوطنية الواحدة ، والجبهة الوطنية التي تأتلف فيها كل القوى الوطنية ، ذلك ان ادارة المعتقل كان يهمها جدا أن تلعب على أي تعارض او اي خلاف قد يحصل بين أي تنظيم وتنظيم ، وكانت على استعداد لالتقاط أي خلاف ولو بسيط يحدث داخل المعتقل ، لتعميقه والاستفادة منه ، ولذلك كانت الشعارات الاساسية المرفوعة داخل المعتقل حول هذا الموضوع : ابعدوا الادارة عن التدخل في مشاكلنا، حاربوا أي اتجاهات للتفرقة بين المعتقلين ، نموا الوحدة الوطنية وكرسوها في كل مجالات عملكم . لقد كان لمثل هذه الشعارات ، والنضال الدؤوب لغرسها بين جميع المعتقلين اثر كبير في الحفاظ على وحدة المعتقل النضالية في مواجهة قمع الادارة ، وفي الحفاظ على وحدة كل القوى الوطنية وتعاونها .

٣ ــ البناء السياسي والايديولوجي بشكل يومي ومستمر : اذا استثنينا الفترة الاولى من حياة المعتقل ، والتي كانت حالة استثنائية اضافة الى ان الكثيريــن كانوا جددا وتنقصهم التجربة ، فان الفترات اللاحقة ، وبشكل خاص ابتداء من عام ٧٢ ، قد شهدت اهتماما بالبناء السياسي والايديولوجي للمعتقلين للارتقاء بوعيهم وبقدرتهم النضالية . وقد تمثل ذلك في النواحي التالية : أ ــ تدريس بعض الكتب التي كانت تهرب الى داخل السجن ، اضافة الى الابحاث التي كانت تكتب وتدرس . ب ــ قراءة المجلات والجرائد من قبل كل معتقل ، ومناقشة وتحليل الموضوعات الرئيسية فيها في لقاءات وجلسات جماعية للبركس . ج ــ اصدار نشرة رصد اذاعي يومي في كل بركس ، بالرغم من ان الراديوات كانت ممنوعة . الا انه كان يتم تهريبها ، ولم يخل بركس من راديو في أي فترة ، وكان يتم اعداد النشرة ، من قبل شخص يكلف بها ، وفي المساء اما تقرأ على البركس أو توزع لقراءتها فرديا ، وبعد الانتهاء منها تحرق . وكل اسبوع تعقد جلسة عامة للبركس ، يناقش خلالها اهم خبر أو حدث سياسي خلال الاسبوع . د ــ عقد ندوات سياسية لمجموع البركس بين فترة واخرى ، لتحليــل الاوضاع السياسية ، ومناقشة أهم القضايا التي تواجهها حركة المقاومة ، ومتابعة نشاطاتها ، ومواقفها . هـ ــ تشكيل لجنة ثقافية في كل بركس ، مهمتها الاشراف على النشاط الثقافي بشكل عام،

وعقد الندوات ، وترتيب حفلات سمر بين فترة وأخرى ، وعـرض بعض التمثيليات الوطنية التي كان يؤلفها المعتقلون . اضافة الى اعداد كتابات عن التعريف بالتاريخ الوطني الفلسطيني ، واحياء بعض جوانب من التراث الشعبي الفلسطيني ــ حسب الممكن ــ وكان يتم ذلك ، أحيانا ، بعقد ندوات يحكي المشتركون فيها عـن قراهم او بلادهم وعن عاداتها وتقاليدها في الافراح وغيرها، وعن أهم الاغنيات والمواويل الشعبية السائدة الخ . .

٤ ــ تنمية الشعور الوطني والارتباط بالقضية ، باحياء المناسبات الوطنية والقومية، فلم تكن تمر مناسبة وطنية او قومية الا ويجري احياؤها مهما كانت الظروف ، وكان ذلك يتم في كل البركسات وفي وقت واحد ، من هذه المناسبات : ذكرى الكرامة ، ذكرى ١٧ أيلول ، ذكرى ١٥ أيار ، ذكرى ٥ حزيران ، ذكرى انطلاقة فتح . وخلال عملية الاحياء هذه كان يتم استعراض كثير من القضايا الوطنية ومناقشتها . كذلك كان يجري دائما تأبين الشهداء الذين تعدمهم السلطة ، والاحتفال بذكـرى استشهادهم . أو الذيـن استشهدوا في الخارج ، وخلال الاحداث التي تتعرض لهـا حركة المقاومة ، تكـون البركسات كخلية النحل ، تتابع الاخبار وتناقشها . ففي أثناء أحداث أيار ٧٣ في لبنان ، كانت البركسات في حالة غليان كبيرة ، تتابع كل الاخبار ، ولدى انتهاء الاحداث ، عقدت ندوات في كل بركس ، لتحليل الاحداث ومناقشتها .

٥ ــ تنمية الاتصالات والتعاون بين جميع القوى الوطنية داخل المعتقل وفي جميع البركسات . .

بالرغم من ان ادارة المعتقل ، كانت حريصة جدا على منع اتصال البركسات بعضها ببعض ، وابقاء معتقلي كل بركس معزولين كليا عن المعتقلين في البركسات الاخرى ، الا ان الاسوار العالية ، والقيود الشديدة ، لم تمنع المعتقلين مـن الاتصال ببعضهم ، فقطعوا الاسلاك ، وتقفزوا من فوق الاسوار العالية للاتصال ببعضهم البعض ، لعقد المباحثات والمناقشات المشتركة حول قضايا المعتقل وقضـايا الثورة . ولهذا فقد كان المعتقل يعيش حياة نضالية مشتركة ويحدد مواقف محددة وواحدة ، وباتفاق الجميع في كل البركسات ، وما كان أي بركس لينفرد في موقف ، وقبل اتخاذ اي موقف كان يعرض ويناقش مع جميع القوى في كل البركسات ، ويتم الاتفاق بكل روح أخوية ورفاقية ، مما يؤدي الى تقوية التضامن والتعاون بين الجميع ، ويجعل من المعتقل وحدة واحدة في مواجهة الادارة .

لقد كان المعتقل يمثل صورة نضالية حية ومشرقة . كان المعتقلـون يعيشون مع اخوانهم ورفاقهم في الخارج ، يتابعون أحداث الثورة ، ويعيشـون معها بكل حواسهم ، لقد كانوا في قلب المعركة فعلا ، ولم يكونوا بعيدين عنها .

الحياة اليومية وتنظيم العمل اليومي داخل البركس : بالاضافة الى تنظيم العمل داخل المعتقل بمجموعه ، وتنظيم الاتصالات بين جميع البركسات وجميع القوى داخلها ، فقد كان من المفروض من كل بركس ان ينظم شؤونه الخاصة ، وحياته اليومية ، ولا سيما في ظل وجود عدد ليس بالقليل في كل بركس ، مهما قل فلن يقل عن ٥٠ معتقلا في أدنى الحالات . وبالرغم من وجود فروقات نسبية ، في تنظيم الحياة اليومية بين بركس وآخر، الا انه يمكن القول ان هناك خطوطا عامة كانت تشترك بها جميع البركسات ، والتي يمكن ايجازها بالتالي :

أ ــ يوجد في كل بركس شخص منتخب من قبل البركس يدعى « الشاويش » مهمته الاشراف على النظافة العامة داخل البركس ، بالاضافة الى مهمة الاشراف على استلام

وجبات الطعام من الادارة وتوزيعها على المعتقلين ويكون بمثابة صلة الوصل بين الادارة والمعتقل .

ب — في كل بركس كانت تختار لجنة مهمتها تأمين الجرائد والمجلات وتوزيعها بانتظام على الجميع داخل البركس ، كذلك من مهامها النظر في أي مخالفات ادارية او مسلكية تضر بأمن البركس وسير عمله اليومي ، وكان من حقها فرض عقوبات انضباطية على أي مخالف مثل القيام بخدمة عامة في البركس (تنظيف او غيره) .

ج — النظافة كانت يومية وبالدور ، وكان البركس ينظف مرتين صباحا ومساء ، في الصباح تطوى الابراش وينظف تحتها ، وكذلك في المساء . كما تنظف الساحة الخارجية من الاوساخ . وفي كل شهر تجري عملية تنظيف عامة يشترك بها الجميع ، حيث يغسل البركس بالصابون ، وتخرج كل الاغراض الى الساحة ، تشمس البطانيات وتنظف من الغبار .

د — النشاط الرياضي يوميا « لمن يرغب » حيث يجري النهوض صباحا في الساعة السابعة ، ويتشكل طابور رياضي في كل بركس يستمر لمدة ساعة ، ويشتمل على ركض لمدة نصف ساعة ، ثم القيام بمجموعة من التمارين الرياضية باشراف مدرب يعين في كل بركس . ان النشاط الرياضي بالنسبة للسجين من الامور الهامة ، لانه يقضي على الترهل والكسل والخمول الذهني .

هـ — النشاط الزراعي ، مع توفر المياه ، قام المعتقلون في كل بركس بزراعة بعض الخضار وعدد من الاشجار الحرجية في أطراف ساحة البركس ، وبالرغم من ان ادارة المعتقل كانت تحارب هذه العادة بتخريب المزروعات ، الا ان المعتقلين كانوا يعاودون الزراعية ويجلبون البذور مع زوارهم . وبالرغم من عدم توفر آلات لحرث الارض ونكشها ، فقد كان يستعاض عنها بطرف « ميسورة » او بزاوية حديدية حادة الخ .. لقد كانت الزراعة تجلب المتعة والسرور الى نفوس الجميع .. لانها توحي بالعمران والحياة في وسط صحراء مجدبة .

لقد كانت السنوات الثلاث الماضية من تاريخ هذا المعتقل ، سنوات خصب وحياة ، تجلت فيها كل اصالة شعبنا ، في قدرته على الاحتمال والصبر والعطاء ، في قدرته على مواجهة التحديات والتمسك بقضيته الوطنية . وما كانت سياسات القهر والاذلال لتوقف مسيرة الجماهير ، او تحد من اصرارها على متابعة النضال . وان أروع مثال على ذلك هو استقبال جماهير شعبنا لابنائهم القادمين من معتقل الجفر بعد العفو الاخير (٩/٢٠/ ٧٣) فما ان وصلت السيارات التي تقل معتقلي الجفر الى مشارف مخيم الوحدات ، حتى خرجت جماهير المخيم نساء وشبابا وأطفالا الى اطراف المخيم، مصفقة ومرحبة بعودتهم، ورافعة قبضاتها في الهواء علامة التحدي والاصرار . وعلى مدخل السجن المركزي كان يحتشد ما يزيد عن ١٥ ألفا من جماهير شعبنا بانتظار أبنائهم ، وما أن وصلت السيارات حتى اختلطت زغاريد النسوة بالاناشيد الوطنية ، وبالهتاف للثورة ، وبالدموع ...

كانت صورة رائعة وحية عن صمود هذا الشعب ، لا يمكن ان تمحى من الاذهان .

فردان ودير ياسين : الجريمتان والنتائج

الدكتور نبيل علي شعث

في الساعات الاولى من فجر الثلاثاء العاشر من نيسان ١٩٧٣ .. منذ عام مضى .. قام العدو الاسرائيلي بتنفيذ عملية الفردان داخل مدينة بيروت ، وقد استهدف العدو بعمليته هذه اغتيال قيادات الثورة الفلسطينية وقد تركزت هجمة العدو على بنايتين في شارع صغير متفرع من شارع الفردان في بيروت ، وعلى حي الفاكهاني حيث مكاتب قيادات الثورة الفلسطينية . وبالرغم من كل عناصر المباغتة والتمويه التي استخدمها العدو فقد لقي مقاومة من كل هدف هاجمه ، وفي عملية التصدي له استشهد القادة كمال ناصر عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والناطق الرسمي باسم الثورة الفلسطينية وكمال عدوان عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) والمسئول عن قطاع الوطن المحتل ، ومحمد يوسف النجار (ابو يوسف) عضو اللجنة المركزية لحركة فتح وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيس اللجنة السياسية العليا للفلسطينيين في لبنان ، وكذلك استشهد عدد من مناضلي الجبهة الشعبية الديمقراطية وفتح وبعض من المناضلين اللبنانيين وعدد من المواطنين السوريين وبعض رجال الامن اللبنانيين ، كما استشهدت زوجة الشهيد ابو يوسف .

وقد قاوم الشهيد كمال عدوان المهاجمين بمدفعه الرشاش وقاومهم الشهيد كمال ناصر بمسدسه الصغير فأوقعا خسائر بالمهاجمين المتفوقين عددا وعدة وتصدت الشهيدة ام يوسف للقتلة الذين أصابوا زوجها المناضل الذي قاوم المهاجمين فصرعوها بنيرانهم ، ووجهوا عشرات الطلقات الى فم الشهيد كمال ناصر حقدا وتشفيا بشاعر الثورة والناطق باسمها ، وقاومهم رجال الثورة في الفاكهاني واوقعوا بهم خسائر كان اهمها قائد العملية الارهابية ، فحمل الباقون قتلاهم وجرحاهم لينسحبوا عبر البحر والجو بالهليكوبترات بعد تحقيق اهدافهم المباشرة ..

وفي فجر التاسع من نيسان ١٩٤٨ قبل جريمة الفردان بخمس وعشرين سنة تماما (اعلن بعد عملية الفردان انها تأخرت يوما واحدا لاعتبارات متعلقة بالاحوال الجوية) هاجم العدو الاسرائيلي قرية دير ياسين العربية الفلسطينية (احدى ضواحي القدس) ، وبعد قتال مرير قاومت فيه القرية مهاجميها الذين يتفوقون عليها عددا وعدة وكان قتالا ضاريا استمر ساعات طويلة ، احتل المهاجمون القرية ، وفتكوا بمن فيها ودمروا بيوتها وقتلوا ٢٤٥ رجلا وطفلا وامرأة من سكانها وشوهوا اجسادهم ثم حملوا اعدادا من الناجين ليعرضوهم على سيارات مكشوفة في شوارع القدس الجديدة ثم قتلوا ٢٥ آخرين منهم في كسارة تقع بين القرية ومستعمرة جفعات شاؤول . ثم انسحبوا بعد تحقيق اهدافهم المباشرة ...

جريمتا الفردان ودير ياسين قام بهما العدو الاسرائيلي ... تفصلهما خمس وعشرين سنة ... يربطهما هدف واحد أساسي : ارهاب الشعب الفلسطيني وتيئيسه وتحطيم

مقاومته وتهجيره عن ارضه ... جريمتان داميتان تتشابهان في الاهداف والظروف وان كانتا تختلفان اختلافا بينا في النتائج والاثار ...

وفي ذكرى شهداء العمليتين لا بد لنا من القاء نظرة للوراء لمقارنة الاهداف والنتائج لاستخلاص الدروس الهامة التي يجب على شعبنا وثورتنا الاستفادة منها في هذه المرحلة الهامة من تاريخه ...

جريمة دير ياسين :

كان موعد اتمام الانسحاب البريطاني يقترب بسرعة ، والتعبئة الصهيونية الشاملة تصل ذروتها وشحنات الاسلحة تتدفق على العدو من الخارج ومن الداخل (من « سلب » المعسكرات البريطانية) ، وأصبح هدف انشاء الوطن القومي اليهودي وشيك التحقيق ، ولذلك كان لا بد من فرض الوجود الصهيوني على أكبر رقعة من ارض فلسطين . ولكن ذلك كان يستلزم تفريغ الارض من سكانها وطردهم الى خارجها ، وكان هذا هو بالاساس هدف خطة دال (دالت) الصهيونية . ولكن الامور لم تكن تسير كلها باتجاه ما يريده العدو، فلقد كان مستوطنوه في القدس يخضعون للحصار العربي(١)، وكان الكفاح المسلح الفلسطيني يتصاعد في كل مكان . وقد ادى ذلك الى تراجع الولايات المتحدة وهيئة الامم المتحدة في آذار ١٩٤٨ عن محاولة فرض قرار التقسيم بالقوة والمطالبة باعادة النظر فيه لتؤخذ حقوق الشعب الفلسطيني ورغباته في الاعتبار .

وفي الايام القليلة التي سبقت المذبحة كانت هناك معركة طاحنة تجري في القسطل على بعد كيلومترين ونصف من دير ياسين يقودها البطل الشهيد عبد القادر الحسيني ، الذي انتصر فيها وسقط شهيدا في ١٩٤٨/٤/٨ .

وبالرغم من نزوح اعداد قليلة من الفلسطينيين في ذلك الوقت الا ان الغالبية العظمى من ابناء الشعب الفلسطيني كانت متمسكة بأرضها مصممة على الاحتفاظ بها بالرغم من كل الصعوبات ، فجاءت مذبحة دير ياسين لتجسد المخطط الصهيوني لارهاب الشعب الفلسطيني وتيئيسه توطئة لتهجيره من وطنه حتى يمكن استلام أكبر رقعة من ارض فلسطين خالية من سكانها وجاهزة للتهويد عند اتمام الانسحاب البريطاني واعلان قيام دولة اسرائيل . وقد كانت دير ياسين هدفا مثاليا فهي قرية عربية صغيرة (٧٧٥ نسمة) محاطة بأحياء القدس اليهودية وبمستعمرات صهيونية يزيد سكانها عن المائة والخمسين الفا(٢) وهي نتيجة لوضعها هذا لم تستطع القيام بأية عمليات عسكرية ضد القوات الصهيونية المحيطة بها(٣)، وكان كل ما تملكه القرية من سلاح هو ٦٠ بندقية ورشاشين برن و ٤ ستن وذخائر تكفي ساعات قليلة من القتال المستمر . ولذلك فان الهجوم المباغت عليها من قوى مشتركة للارجون (اتسل) والليحي (سترن) والبالماخ (هاجاناه) بأسلحة مختلفة ومصفحات كان يستهدف تحقيق انتصار سريع تعقبه مذبحة رهيبة يمكن استخدام نتائجها في ارهاب سكان المدن والقرى الاخرى لاقتلاعهم منها(٤). وقد حدث هذا فعلا في حيفا التي سقطت بعد مذبحة دير ياسين باثني عشر يوما (٤٨/٤/٢١) ثم في الهجوم على يافا في ٤/٢٥ والذي ادى الى سقوطها في ٥/١٢ بعد ان هجرها معظم سكانها ، ثم في تهجير سكان الجليل والشمال الفلسطيني كله(٥).

واضاف الصهاينة الى ما استخدموه في دير ياسين تكتيكات رعب جديدة تمثلت في قنابل البراميل وقنابل الهاونات ومكبرات الصوت وأصوات الرعب والاشاعات المفزعة بالراديو(٦) وكرروا استعراضات الاسرى ونسف البيوت واحراقها بسكانها الاحياء والقتل بالجملة . والخلاف الذي نشأ حول جريمة دير ياسين والذي انفجر مرة اخرى في الذكرى الرابعة والعشرين للمذبحة سنة ١٩٧٢ ، يتركز في الظاهر حول مسؤولية

الارجون تزفاي لئومي (اتسل) و (الليحي) عن المذبحة ومدى مسؤولية الهاجاناه فيها(٧). وهي قضية فرعية سبق النقاش حولها . والذي لا شك فيه ان القيادة الصهيونية كانت على علم كامل بالمذبحة كما لا شك في ان قوات البالماخ شاركت في احتلال القرية ، وكذلك شارك الجدناع في دفن جثث ضحاياها ، ثم استثمرت القيادة الصهيونية نتائجها في حملة الرعب والتهجير اللاحقة(٨). كما يختلف المؤرخون الصهاينة حول عدد القتلى وطريقة قتلهم والاهداف من استعراض الاسرى في حي محانيه يهودا وزخرون يوسف بالقدس الجديدة ثم عدد الذين قتلوا منهم لاحقا في الكساره الواقعة بين دير ياسين وجفعات شاؤول(٩).

ان الخلاف الحاد بين مؤرخي الارهاب الاسرائيليين حول جريمة دير ياسين يكشف الكثير عن حقيقة التوجه الصهيوني الماضي والمعاصر نحو الشعب الفلسطيني ، فهو يدور حول اثر عملية دير ياسين على العرب ومدى أضرارها بسمعة الصهيونية ، فكتاب الهاجاناه والوكالة اليهودية يصرون على ان عملياتهم هم المنبثقة من الخطة دالت هي التي سببت الهروب الكبير للعرب من مدنهم وقراهم وليس مذبحة دير ياسين وان الآثار السلبية للمذبحة على سمعة الصهيونية كانت أكبر من سلبيات مذابح الهاجاناه التي بقيت مستورة عن الرأي العام العالمي .

وتركز جماعة الاتسل في دعايتها على ان دير ياسين كانت اول عملية من نوعها وانها هي التي سببت هروب الفلسطينيين وانها العامل النفسي الحاسم الذي غير تاريخ فلسطين(١٠) ، ولكن جماعة الليحي الذين شاركوا في المذبحة يتفاخرون بمذابح سابقة لهم في لفتا الفوقا والتحتا وفي الشيخ بدر وحتى في بيت دجن(١١) ويكررون الادعاء بأن دورهم في الجريمة كان هو الاساس في انزال الخوف المميت بالعرب وتحطيم معنوياتهم ثم في تسهيل احتلال طبريا وحيفا وعشرات القرى العربية الاخرى . بينما يدعي رجال الهاجاناه انهم كانوا هم السابقين وعملياتهم هي التي كانت ذات الاثر الاكبر .

ويتهم مئير بيعيل رجال اتسل وليحي بالقيام « بمذبحة مخزية » لسكان دير ياسين بعد خروج رجال البالماخ منها(١٢) « رجال ، نساء ، شيوخ ، أطفال دون تمييز قتلوا بواسطة ايقافهم الى الحيطان والزوايا داخل البيوت » ، ويدعي ان هنالك شهادات مصورة لكل ما حدث ، كما انه يدعي وجود هذه الشهادات المصورة « لمسيرة النصر » في القدس وللقتل الجماعي في الكسارات . ويتصارع المؤرخون الارهابيون الان حول مدى الشذوذ في الجرائم المرتكبة خلال مخطط التهجير والارهاب ، فيندد اريه يتسحاقي بجنود البالماخ « اولئك المقاتلين الذين ثقفوا بتشديد على طهارة السلاح العبري » ويشرح كيف تمت مذبحة بلد الشيخ في ٣٠ — ١٩٧٤/١٢/٣١ على يد الكتيبة الاولى للبالماخ ولواء كرميلي ، ثم كيف قامت الكتيبة الثالثة للبالماخ بعملية سعسع التي ترتب عنها تفجير البيوت على سكانها وقتل ٦٠ عربيا معظمهم من النساء والاطفال(١٣) ، ثم يستفيض في شرح مذبحة اللد ١٩٤٨/٧/١٢ التي قتل البالماخ فيها ٢٥٠ عربيا وطردوا بقية سكانها وسكان الرملة وهي العملية التي يتحمل دايان مسؤوليتها مباشرة .

ويرى بيعيل مؤرخ البالماخ ان الفرق بين المذابح لم يكن في الهدف او النتيجة وانما بأن القتل والنهب تم في دير ياسين دون مبرر كاف وان الاعداد التي قتلت في دير ياسين هي أكبر مما قتل حتى في اللد ، واخيرا ان جيش الدفاع الاسرائيلي عندما كان يعلم عن شذوذ ما كان الامر يرفق بتأنيب ضمير ، وان النهب الذي كانت تقوم به قوات البالماخ كان اجباريا . بينما اختارت اتسل الذبح والنهب ولم تصب بأي ندم او تأنيب ضمير(١٤).

ويختلف المؤرخون الارهابيون حول المقاومة التي قامت بها القرية فيدعي مؤرخو البالماخ ان رجال الاتسل (الارجون) بالغوا فيها لتبرير مذابحهم ، ولكن الواضح من

شهادات الجميع ان دفاعات القرية اكتشفت الهجوم الصهيوني قبل بدايته وان العملية تأخرت ساعات طويلة نتيجة للدفاع الباسل الذي قامت به القرية وان المهاجمين اضطروا للاستنجاد بالبالماخ لمساندتهم بالهاونات لاسكات نيران المدافعين ، وان أحد قادة العملية يهودا سغل (يفتاح) قد قتل اثناء الهجوم ، وان خمسة على الاقل من المهاجمين قد قتلوا وجرح اربعون(١٥). ولكن عارف العارف يتحدث عن مقاومة بطولية من بيت لبيت وعن خسائر اسرائيلية لا تقل عن مائة قتيل وجريح(١٦) ، ويؤكد ان القرية لم تستسلم الا بعد نفاد ذخيرتها بالكامل وتأخر القرى المحيطة بها ورجال جيش الانقاذ وقوة البوليس الفلسطيني — بل والصليب الاحمر — عن نجدتها .

لم يكن هناك تكافؤ في القوى بين المهاجمين والمدافعين ولكن سكان دير ياسين لم يخنعوا ولم يقبلوا بالاستسلام دون مقاومة . ولقد كان لانشغال المقاتلين في القرى المجاورة في معركة القسطل أثر كبير وكذلك كان لاستشهاد عبد القادر الحسيني في اليوم السابق للمذبحة اثر مزلزل للمعنويات ، توجه نتيجة له عشرات المقاتلين للقدس لتشييع الجنازة تاركين المنطقة فارغة دون دفاعات كافية .

ولكن حالة التفكك التي اصابت المقاومة الفلسطينية بعد القسطل تضاعفت بالاعلان عن مذبحة دير ياسين ، وظلت آثار الجريمة وما تلاها من عمليات تسبب رعبا كبيرا مكن الصهاينة من تحقيق اهدافهم في الارهاب والتهجير . كانت الجماهير الفلسطينية تتصرف دون حركة ثورية منظمة ودون قيادة موحدة واعية . كانت الجماهير الفلسطينية ضائعة ملتاعة لا تجد نصيرا ، تواجه جلادا ارهابيا مصمما يعمل تحت قيادة موحدة ببرنامج عمل واضح لاستيطان الارض واقتلاع سكانها . وكانت الانظمة العربية عاجزة خانعة ولم يكن هناك قوى عربية جماهيرية منظمة قادرة على الوقوف الى جانب الجماهير الفلسطينية . وكان ما يجري في فلسطين معزولا عن الرأي العام العالمي لا يراه الا من خلال طروحات الصهيونية وحلفائهم . وكذلك فقد استمر الاقتلاع الصهيوني للشعب الفلسطيني دون معارضة من أحد وانتهت حرب الـ ١٩٤٨/١٩٤٩ والصهاينة يحتلون ٨٠٪ من الارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني يعاني من الاحتلال والنزوح والشتات في خيم الذل واللجوء ... حتى توفرت الظروف لنشوء الحركة الثورية الفلسطينية المعاصرة .

جريمة الفردان(١٧)

كانت الشهور الستة السابقة لجريمة الفردان هي شهور الانطلاقة الجديدة للثورة الفلسطينية بعد مذبحة الاردن ، وتميزت بتصاعد الكفاح المسلح والنضال السياسي في داخل الوطن المحتل وخارجه . فقد عادت عمليات الداخل خصوصا في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ الى معدل عملية واحدة في اليوم على الاقل وتحسنت نوعية العمليات وتزايدت جرأتها واعتمادها على قواعد الداخل وعلى السلاح المصنوع في المنازل او المنتزع من العدو . وازداد احساس العدو بها وبخطرها ، وقاتلت قوات الثورة ببسالة ضد الجيش الاسرائيلي في غزواته المتعددة على جنوب لبنان والقرى اللبنانية ، وخصوصا معركة الايام الاربعة في العرقوب ومعركة الاربعين ساعة في القطاع الاوسط من الجنوب اللبناني، كما تصاعدت عمليات الخارج بعد عملية ميونيخ وازداد تأثيرها في الداخل. وباعدام ذيب المربيطي ومحاولة اغتيال الشوا انهارت محاولة العدو لضم المخيمات للاحياء في قطاع غزة وتجمدت لجان المخيمات والاحياء وفشلت سياسة خلق القيادات المحلية البديلة للثورة الفلسطينية . ونشبت معركة ضارية في غزة استشهد على اثرها جيفارا غزة واثنان من رفاقه من أبطال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في القطاع ، فألهبت حس الجماهير واستنهضتها لاستمرار النضال . وتصاعد الدور السياسي للثورة الفلسطينية

في الداخل والخارج وازداد نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية بعد زيارة قيادتها لبلغاريا والمانيا الشرقية وبعد تدخلها لحل مشكلة الحدود الكويتية ــ العراقية ، وتمت الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية وقررت الانتقال الى العمل القاعدي لدعم الثورة ، واعتمد المجلس الوطني الفلسطيني في اول العام ١٩٧٣ برنامج العمل السياسي ونتج عنه المزيد من التلاحم التنظيمي داخل صفوف الثورة وتحول اللقاء بين فتح والجبهة الشعبية الى عمل جبهوي قاعدي هام خصوصا في الساحة اللبنانية .

وفي نفس الفترة استمرت مسيرة العمل باسم الحلول السياسية التي كانت نتيجتها الوحيدة تكريس الامر الواقع وتصاعد الدعم الامريكي غير المحدود للعدو الصهيوني وتجمد القتال على كافة الجبهات العربية خارج جبهة الثورة الفلسطينية وتصاعدت وتيرة الاستيطان اليهودي « وخلق الحقائق الجديدة » في الوطن المحتل ، وبات واضحا للعدو ان الثورة الفلسطينية تشكل العقبة الرئيسية امام تحقيق أهدافه ولذلك فقد وجه كل جهوده لحربها ومحاولة تصفيتها ، وفي حديث لدافيد اليعازر لجريدة معاريف في ١٩٧٢/١١/٣ كرر عبارة ابادة الفدائيين وتصفيتهم عدة مرات وقال : « انني أعطي المعركة المباشرة ضد المخربين وابادتهم ، تشويش نمط حياتهم الافضلية في سلم الاولويات » ، واضاف « يجب ان نحارب مستهدفين تقليص تأثير المخربين على جميع التطورات في الشرق الاوسط ، وانا أريد الا يكون المخربون عنصرا ذا وزن في أية خطوة سياسية في الشرق الاوسط وان لا يكونوا هم ممثلي الفلسطينيين وان لا يكون لهم تأثير حاسم على احتمالات السلام في المنطقة وعلى التسويات لتأمين قواعد حياة وان كانت غير واردة في اتفاقات سلام كاملة وموقعة وعلى الاتصالات مع الدول العربية وعلى احتمالات استمرار وقف اطلاق النار »(١٨) .

لقد كانت أجهزة حكومة العدو تعمل بجد ولكن دون جدوى لتحقيق أهداف اليعازر وشكلت مجموعات العمليات الخاصة (تفيكيديم ميوحاديم) وعين الجنرال الاحتياطي أهارون ياريف رئيسا للاستخبارات العسكرية (موديعين تسفائي) ثم مستشارا خاصا لرئيسة الحكومة الاسرائيلية لهذا الغرض نفسه . (وقد تبين بعد حرب تشرين ان أجهزة استخبارات العدو كانت منشغلة بتتبع قيادات وكوادر الثورة الفلسطينية لدرجة عطلتها عن متابعة ما يجري على الجبهة المصرية والسورية) . . . ولقد عملت أجهزة الارهاب الصهيونية هذه بالتعاون مع المخابرات المركزية الامريكية (التي شكلت بدورها جهازا خاصا لمتابعة قوات الثورة واناطت رئاسته بأرمان ماير سفيرها السابق في لبنان) ومع المخابرات الاردنية . وقام عملاء الثالوث بعمليات ارهابية عديدة ضد كوادر وقوات الثورة نتج عنها استشهاد وائل زعيتر في روما ٧٢/١٠/١٦ ، محمود الهمشري في باريس ٧٣/١/٩ وحسين ابو الخير في قبرص ٧٣/١/٢٥ والدكتور باسل الكبيسي في باريس ٧٣/٤/٦ وهذا طبعا بعد العمليات الارهابية التي استهدفت قبل ذلك بشهور الشهيد غسان كنفاني والتي أصابت العديد من كوادر الثورة بالطرود والرسائل الناسفة . كما ان قوات العدو استمرت في اغارتها على قوات الثورة في جنوب لبنان وسوريا ، ثم قامت في ٢/٢١ بهجوم ارهابي آخر على مخيمي نهر البارد والبداوي في شمال لبنان . ولكن أثر هذه العمليات كان مضادا للاهداف الاسرائيلية ، اذ انه زاد من تصلب الثورة وكوادرها ومن اهتمامها بالقضايا الامنية مما ترتب عنه كشف بعض شبكات المخابرات الاردنية ، كما ادى الى مصرع العملاء الاسرائيليين الهامين في اوروبا وامريكا .

وباقتراب ايار والاحتفالات بذكرى خمس وعشرين سنة على انشاء دولة العدو ازدادت خشيته من قيام الثورة بعمليات هامة تشكل تصعيدا رئيسيا لعملها في الارض

المحتلة مما يستنهض جماهير الداخل ويعبىء قواها المختلفة ، خصوصا وقد شهدت الارض المحتلة تناميا في مشاركة طوائف الشعب المختلفة في الكفاح المسلح فاكتشفت خلايا درزية مقاتلة وعناصر يهودية تناضل من خلال الجبهة الحمراء واستمر نضال الكاثوليك تحت شعار العودة لاقرت وكفربرعم ، وازدادت الاعتقالات في اوساط فلسطينيي المثلث والجليل في الارض المحتلة سنة ١٩٤٨ . كما ان استمرار العمليات الخارجية وآخرها عملية الخرطوم التي اثارت غضب وفزع الحكومة الامريكية سببت ذعرا كبيرا في اوساط العدو الصهيوني .

وبتنامي علاقات الثورة مع القوى الجماهيرية اللبنانية والعربية أصبح من الضروري توجيه ضربة جديدة الى لبنان ولقوات الثورة فيها لانضاج صراع جديد بين السلطة اللبنانية والثورة الفلسطينية ، وقد تم ذلك في المخطط الصهيوني بالاستفراد بلبنان دون خوف من أي ردع عربي مناسب .

في هذه الظروف ولهذه الاسباب خطط العدو لعملية الفردان . . . في ذكرى دير ياسين . وانضج نيسان الجريمتين الارهابيتين فتوافق موعدهما .

العقل المخطط واحد ، الفكر الصهيوني الارهابي واحد والهدف واحد : احباط مقاومة الشعب الفلسطيني ، ابعاده عن ارضه وثورته وتيئيسه من استمرار النضال . ولكن التفاخر والمديح بالعملية الاجرامية الجديدة لا يخفيه أحد هذه المرة كما اختفت أخبار دير ياسين . ودايان يعتبر جريمة الفردان « اللؤلؤة مع ال التعريف في تاريخ الكوماندو الاسرائيلي »(١٩) . ويظهر أوري افنيري على حقيقته الارهابية العنصرية بتشبيهه عملية الفردان بعملية هرقل الذي قتل الافعى « هيدرا » ذات مئة الراس التي قطعها واحدا بعد واحد . « لكن هرقل كان كلما قطع رأسا يحرق الرقبة النابت عليها منعا لانباتها راسا جديدة »(٢٠) . وتعود جولدا مئير لتتفاخر « بطهارة الجندي الاسرائيلي وطهارة سلاحه » تماما كما تفاخرت بعمليات اللد والرملة وبلد الشيخ سعسع . . . وترددت عبارات الحقد العديدة من كل قادة العدو . . .

رد الفعل الفلسطيني والعربي

اختلف رد الفعل لآثار جريمة الفردان اختلافا كاملا عن رد الفعل الفلسطيني لجريمة دير ياسين . . . وبدلا من تصريحات الخوف والرعب والاسى، وبدلا من الفرار والرحيل، وبدلا من التشرذم والاضمحلال الذي لحق دير ياسين ، يرتفع التحدي ويثور مرجل الغضب وتنهض الجماهير تصعد العنف الثوري في داخل الوطن وخارجه نتيجة للفردان . ففي بيروت تندلع المظاهرات وتسقط الحكومة وتسير جنازة نصف المليون تخترق المدينة وتسيطر عليها وهي ترفع شعارات « الثورة مستمرة » وتمتلىء شوارع بيروت بصور الشهداء وبكلماتهم الاخيرة (لا زلت أسمع كلمات الشهيد كمال عدوان متحديا طروحات اليأس والاستسلام بقوله : أعيش بأماني أصنعها حقائق . . . ويعيشون بيأسهم فيستسلمون) وتنفجر غضبة الجماهير العربية في كل مكان وقد أحست بأن أجهزة الارهاب الصهيونية الفاشية قد دخلت كل بيت عربي وحاولت قتل كل مناضل عربي . . . وكل أم عربية ، لقد قام التنظيم الثوري الفلسطيني « فتح » بالتحالف مع الفصائل الثورية الفلسطينية الاخرى والقوى الوطنية اللبنانية بدوره في تنظيم وتعبئة الجماهير التي شاركت في موكب الشهداء في بيروت ، ولكن الغضبة العفوية العارمة للجماهير اللبنانية كان لها الدور الرئيسي في التحرك الذي حدث . لقد كانت غضبة أشبه بتلك التي حدثت في يومي ٩ و١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ نتيجة لحرب حزيران . لقد أحست الجماهير انها انتهكت وان كل آمالها وتطلعاتها قد هددت وانها قد طعنت في شرفها وكرامتها طعنة دامية .

وقد ادركت الجماهير الغاضبة ان الرد الوحيد هو «كلنا فدائية»، وتقوم الجنازات في الوطن المحتل لتهتف تحت علم فلسطين « يا اللي استشهدوا جوا بيروت ... دم الثوار عمرو ما يفوت » ولتهتف « بلادي بلادي بلادي ، انت ثورة على الاعادي » .

لم تشهد الضفة الغربية استنهاضا لنضالية الجماهير منذ ١٩٦٩ كما شهدت بعد جريمة الفردان . لقد كشفت المظاهرات والاضرابات والجنازات والعصيان المدني الكامل عن فشل كل محاولات اسرائيل اخضاع الانسان الفلسطيني لاحتلالها وتطويعه وشقه عن أخوته في الخارج وعن ثورته المسلحة ، وكشفت زيف وخداع «التجربة الاسرائيلية» واحبطت كل أهداف الارهاب الصهيونية . وقام قادة العدو باعادة تقييم للعملية وصرح سابير بأن ردود الفعل الغاضبة كانت مفعمة بالكراهية لاسرائيل وجيشها(٢١).

ورأى اليعازر في نشر صورة كمال ناصر في صحف الضفة الغربية وما رافقها من تعزية « وهو الذي يدعو الى تدمير أسس دولة اسرائيل أمرا له مغزاه بالنسبة الينا ، انه يعني ان الموقف العربي التقليدي الذي يدعو الى العمل من أجل تصفية اسرائيل لا يزال مقبولا من عدد كبير من العرب »(٢٢)...

وعلى صعيد الثورة الفلسطينية فبالرغم من الاسى والحزن العميق الذي أصاب قياداتها وكوادرها وعناصرها لفقد الشهداء البررة فان هذا الحزن تحول الى مزيد من الاصرار على الصمود والتحدي والاستمرار في النضال المسلح ضد العدو لتحرير التراب الوطني الفلسطيني وللقضاء على الارهاب الصهيوني من جذوره ، وتحول الى مزيد من الالتحام مع الجماهير وهو ما مكن الثورة الفلسطينية من الصمود في محنة ايار التي لحقت الفردان ونتجت عنها . كما تحول الى مزيد من التوحد بين الثورة وجماهير الوطن المحتل والى تصاعد وتيرة النضال في الداخل وتنامي قدراتها ، كما ان ذلك كله ضاعف من الضغوط على كافة الانظمة والقوى العربية من أجل العودة للنضال المسلح ضد العدو ومنعه من الاستفراد بالثورة الفلسطينية في لبنان وهو ما ادى في النهاية الى اندلاع حرب رمضان الوطنية في تشرين ١٩٧٣ ، وكشفت العملية وآثارها عن مشاركة المخابرات المركزية الامريكية وعن التحالف الامريكي — الاسرائيلي في أبشع صوره وأبرزت فشل المحاولات التصفوية والحلول السياسية المطروحة على المنطقة .

دير ياسين والفردان : مقارنة

هناك العديد من أوجه الشبه بين الجريمتين . فالمخطط لهما واحد والاهداف الاساسية واحدة (مع اختلاف الاهداف التكتيكية المباشرة) ، والظروف المحيطة بالجريمتين تتشابه الى حد كبير . فلقد استهدف العدو في العمليتين ضرب مقاومة الشعب الفلسطيني وارهابه في فترة تصاعدت فيها مقاومته . واستخدم العدو المباغتة لضرب أهداف مدنية لا تكافؤ في القوى بينها وبين المهاجمين ، واراد العدو في الحالتين اثبات طول الذراع الاسرائيلية الارهابية لاستخدام ذلك في حربه النفسية ضد الشعب الفلسطيني ، واستفرد العدو بالشعب الفلسطيني وثورته في الحالتين مطمئنا الى انعدام الردع من الانظمة العربية المحيطة (انصل بن جوريون بالملك عبدالله بعد مذبحة دير ياسين مستنكرا العملية حتى لا يتراجع عن اتفاقه مع الوكالة اليهودية فلم يتراجع)، ولقد حدثت مقاومة عنيفة ضد المهاجمين في الحالتين بالرغم من المباغتة وعدم تكافؤ القوى . فلماذا اختلفت النتائج ؟

لقد كان الشعب الفلسطيني في عام ١٩٤٨ وهو على أرضه يشكو من تشتت قواه وتشرذم قياداته وتناثرها(٢٣) ، ولم تكن هناك حركة ثورية ذات تنظيم جماهيري وبرنامج سياسي واضح ، فلقد ترتب على ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ وما أعقبها من قمع ونفي وتشتيت

وتشرذم واغتيالات تفتت القيادة وتدهور الحركة الثورية الفلسطينية . ولم يكن لمقاومة الشعب الفلسطيني حليف حقيقي واحد بين الانظمة العربية ، ولم يكن هناك أطر ثورية وطنية عربية قادرة على الضغط والتحريك للمشاركة في الثورة . وكان هناك الاستعمار البريطاني يسلم المواقع والاسلحة للعدو وينفذ عهوده معه للاستيلاء على فلسطين .

وفي عام ١٩٧٣ وبالرغم من بعض المظاهر السلبية داخل الثورة الفلسطينية وانخفاض الحس الامني بين قياداتها وعدم اكتمال الوحدة بين فصائلها وانقسام الشعب الفلسطيني الى مجموعات بعضها داخل الوطن تحت الاحتلال الصهيوني وبعضها في الشتات خارجه ، وبالرغم من استبدال العدو البريطاني بالعدو الامريكي الاكثر قوة وعدة ، الا ان الوضع كان مختلفا الى حد كبير . فالجماهير الفلسطينية التي حملت السلاح وقاتلت به تعلمت من تجربة الـ ١٩٤٨ الا تتخلى عنه أبدا ، وتعلمت ان تراجعها وهروبها هذه المرة سيعني ضياع الوطن الى الابد . لم تعد الجماهير الفلسطينية قادرة على الهروب أو راغبة فيه ، فمواجهة العدو قدرها ومسؤوليتها ، وهي مسؤولية تتحملها عن الارض العربية كلها ولا لفلسطين وحدها . ولذلك فان غضبة الجماهير في الداخل والخارج كانت تعبيرا عن ارادة النضال هذه بكل معانيها .

لقد خرجت الحركة الثورية الفلسطينية بتجارب وخبرات عديدة صلبت من عودها وزادت من قدرتها على استمرار النضال ولقد كان في صلابة الجماهير دفعا لها على المزيد من الصلابة والصمود . وفي عام ١٩٧٣ كان التحام الجماهير الفلسطينية بالجماهير العربية الاخرى — خصوصا في لبنان — يتميز بشكل واضح عن الوضع عام ١٩٤٨ ، لقد أدت خبرة تسع سنوات من الكفاح المسلح الى تبلور ارادة الجماهير حول الثورة والى ادراكها ان تخليها عن أهدافها واستراتيجيتها وتنظيمها سوف يؤدي الى تكرار مأساة الـ ١٩٤٨ وهو ما عبرت هذه الجماهير بتحركها عن رفضه .

في عام ١٩٧٣ بعد الفردان ، كان هناك حركة ثورية وتنظيم ثوري وهو ما لم يكن موجودا عام ١٩٤٨ بعد مذبحة دير ياسين . وهي حركة تمكنت — بالرغم من نقائصها العديدة — من تنظيم وتعبئة وتسليح الجماهير واستنفارها بعد الجريمة ، كما تمكنت من اعلام الانسان العربي في كل مكان بالجريمة وابعادها ، واستطاعت بعد وقوعها ، الوقوف بصلابة امام الهجمة العسكرية التي لحقتها في لبنان مستفيدة من المد الجماهيري الذي نتج عنها .

وفي خلال السنة التي أعقبت الجريمة قاتلت الجيوش العربية في تشرين فقطعت الذراع الصهيونية وسقطت اسطورة التفوق الاسرائيلية وتغيرت موازين القوى العربية — الصهيونية ، واستخدم سلاح النفط العربي فغير موازين القوى العربية — الامريكية — الاوروبية ، واستعاد الانسان العربي ثقته بنفسه وبقوته ، وتكرس اعتراف شعوب العالم بالثورة الفلسطينية المجسدة في منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة شرعية وحيدة للشعب الفلسطيني ، وتأكد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على أرضه ، وازداد اصراره على استعادة وطنه ودحر الاستعمار الصهيوني عليه وانشاء الدولة الديمقراطية الفلسطينية على كامل التراب الفلسطيني المحرر . وتأكد للجماهير العربية صدق منطلقات الثورة الفلسطينية وفعالية اسلوبها في الكفاح ، وتصاعد التأييد العالمي لها .

واليوم في ذكرى الفردان ودير ياسين ، ليس لنا الا ان نحيي نضال الشهداء البررة ، ونكبر تضحيتهم وبطولتهم ، ونعاهدهم على استمرار الثورة لاستكمال ما قدموا حياتهم من أجله .

وللاخوة كمال عدوان وكمال ناصر ومحمد النجار ... دمعة حب وتقدير ووفاء .

الحواشي :

١ — كان الماء والوقود والاغذية مقطوعة عن القدس الجديدة وعن الجامعة العبرية ومستشفى هداسا . أنظر عارف العارف ، **النكبـــة** ، ص ١٧٠ .

٢ — مونتفيوري الجديدة ، بيت فيفان ، جفعات شاؤول ، يافنتوف ، بيت هاكيرم ، موتزا ، عارف العارف ، **المصدر السابق** ، ١٧١ .

٣ — يقال ان هناك اتفاق جنلمان كان قد اجري بين مختار القرية ومختار جفعات شــــاؤول المجاورة لضمان عدم الاعتداء بين القريتين ، **المصدر السابق** ، ص ١٧١ .

٤ — **المصدر السابق** ، انظر ايضا أرســـكن تشلدرز : « الرغبة الخرساء » في كتاب ابراهيم ابو لغد ، **تهويد فلسطين** ، مركز الابحـــاث الفلسطيني ، ١٩٧٣ ، خصوصا صفحات ١٩٧ — ٢١٥ .

٥ — أرسكين تشلدرز ، **المصدر السابق** .
أنظر ايضا ارسكين تشلدرز :
«The Other Exodus»
في كتاب وليد الخالدي
«From Haven to Conquest»
مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٧١.

٦ — **الرغبة الخرساء** : ٢٠٤ — ٢٠٩ ، أنظر ايضا Arthur Koestler, *Promise and Fulfillment,* N. Y. 1949.
ص ١٦٠ ، كذلك مقالة جاك دي رينير مندوب الصليب الاحمر الدولي فى كتاب وليد الخالدي السابق الذكر .

٧ — في سلسلة من المقالات نشرة **يديعوت أحرونوت** في ١٩٧٢/٤/٤ و١٩٧٢/٤/١٤ ، وترجمها اخيرا للعربية قسم الدراسات الاسرائيلية بمركـــز الابحاث الفلسطيني .

٨ — انظر مقالات **يديعوت أحرونوت** سابقة الذكر، أنظر ايضا كتاب مناحيم بيجن The Revolt ، نيويورك ١٩٥١ (١٦٢ — ١٦٥) يدعي ايلان كفير (نقلا عن العقيد مئير بيل) في يديعوت أحرونوت ١٩٧٢/٤/٤ ، ان قائد الهاجاناه اقترح احتلال الشيخ جراح او شعفاط او مالونيا بدلا من دير ياسين . وان كان لا بد من دير ياسين فالهجوم عليها لاحتلالها والاحتفاظ بها وليس فقط لذبح أهلها .

٩ — **المصدر نفسه** .

١٠ — آرثر كوستلر ، الكتاب السابق الذكر ، أنظر ايضا مناحيم بيجن The Revolt السابق الذكر ، أنظر ايضا كتاب كيمش ، *Seven Fallen Pillars* ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

١١ — شهادة يوشع زطلر قائد ليحي في القدس — **يديعوت أحرونوت** ١٩٧٢/٤/٤ .

١٢ — مقالة مئير بيعيل في **يديعوت أحرونوت** ١٩٧٢/٤/١٤ ، ص ١٧ .

١٣ — مقالة آريه يتسحاقي ، **يديعوت أحرونوت** ١٩٧٢/٤/١٤ ، ص ١٧ .

١٤ — مقالة بيعيل **السابقة الذكر**، نفس الصفحة.

١٥ — مقالة ايلان كفير ، **يديعوت أحرونـــوت** ١٩٧٢/٤/٤ ، ص ٢ .

١٦ — عارف العارف ، **النكبة** ، ص ١٧٢،١٧٣.

١٧ — ما زالت المصادر التي تتحدث عن تفاصيل العملية متوفرة ولذلك فلن نتحدث عنها بالاسهاب الذي شرحنا فيه جريمة دير ياسين ، أنظر مجلة **شؤون فلسطينية** العدد ٢١ (ايــار ١٩٧٣) والعدد ٢٢ (حزيران ١٩٧٣) .

١٨ — أنظر شهريات مجلة **شؤون فلسطينيـــة** وتقاريرها الخاصة للاعداد ١٨ — ١٢ ، ١٩٧٢، ١٩٧٣ .

١٩ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٤/١١ .

٢٠ — **هعولام هزي** ، ١٩٧٣/٤/١٦ ، أنظر أيضا عدد مجلة « **شؤون فلسطينية** » رقم ٢١ (ايار ١٩٧٣) والذي احتوى تحليلا لعملية الفردان والعدد ٢٢ (حزيران ١٩٧٣) الذي احتوى رصدا لاثارها ، ونتائجها .

٢١ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٤/١٣ .

٢٢ — **النهـــار** ، ١٩٧٣/٤/٢٠ .

٢٣ — كان هناك حول دير ياسين وبالقرب منها قوات الجهاد المقدس ، وجيش الانقاذ وحراس الحرم الشريف ومتطوعو القدس والبدو ورجالات القرى ، ولم يكن يجمع هذه القوى كلها أي رابط تنظيمي جبهوي .

يسار المانية الاتحادية
وحركة تضامنه مع الثورة الفلسطينية

فاطمة ابو القاسم

هذه محاولة لتحديد مواقف وحركة تضامن القوى اليسارية والاحزاب والمنظمات والجماعات التقدمية الاخرى العاملة على الساحة السياسية في المانيا الاتحـادية في الثورة الفلسطينية . نسميها محاولة لان المعلومات المتوافرة لدينا لا تعطينا الفرصة المتكاملة لتحديد مواقف تحليلية دقيقة لهذه القوى من الثورة الفلسطينية . حيث ان عمرها السياسي بدأ بشكل واضح عام ١٩٧٠ . فقد كانت تعاني في السابق وفي معظم البلاد الاوروبية حالة من الركود والانقسام الى أن بدأت نشاطها الفعال عام ١٩٧٢ وظهر بين صفوفها اهتمام بالثورة الفلسطينية وتطور ذلك فيما بعد الى عمل تضـامن منظم معها وهذه القوى هي :

اولا : لجان نصرة فلسطين: يقارب تعدادها الاثنتي عشرة لجنة منتشرة في انحاء المانيا الاتحادية . أسست هذه اللجان بعد النصر الذي حققته الثورة الفلسطينية في الكرامة وبداية العام ١٩٦٩ واستمرت في نشاطها السياسي مع بعض فترات التوقف (بعـد مجازر ايلول وبعد حظر نشاط اتحادات طلبة وعمال فلسطين) وكان الجزء الاكبر من اعضاء هذه اللجان في البداية من الطلبة الملتزمين ببعض المنظمات والاحزاب اليسارية واقتصر نشاط بعضهم السياسي على المساهمة في نشاط لجان نصرة فلسطين سياسيا وقد التحق بصفوف هذه اللجان فيما بعد بعض العمال والاطباء والمحامين والصحافيين الا ان نشاط هذه الفئات يكاد يكون مرتبطا بمواقف ووقائع سياسية خاصة .

ثانيا : الحزب الالماني الشيوعي (DKP) : وقد حظر نشاط هذا الحزب الذي كان يحمل اسم حزب المانيا الشيوعي (KPD) عام ١٩٥٦ لاعتباره مضادا للنظـام الا ان كوادر هذا الحزب ناضلت عبر ١٢ سنة لرفع الحظر الى أن أصبحوا عام ١٩٦٨ قادرين على التأثير لرفع قرار الحظر والسماح لهم بالعمل العلني تحت اسم الحزب الالمانـي الشيوعي (DKP) . وقد فاز الحزب في الانتخابات العامة عام ١٩٦٨ بالتحالف مع قوى تقدمية أخرى بما يقارب ٤ ٪ من مجمل الاصوات .

ويعتبر هذا الحزب الحزب الشيوعي السوفياتي بأنه الحزب القائد للحركة الشيوعية العالمية ويقيم تبعا لذلك علاقات وثيقة مع جميع الاحزاب الشيوعية الموالية للاتحـاد السوفياتي . كما يناضل على الصعيد العالمي من أجل تخفيف النزعة العسكرية وحدة التوتر وتحقيق التعايش السلمي ، اما على الصعيد المحلي فانه يناضل عبر الطريقـة البرلمانية لاقامة المجتمع الاشتراكي واستيلاء الشغيلة على وسائل الانتاج . هذا وتتمثل قواعد الحزب الاساسية في النقابات العمالية على العكس من حزب المانيا الشيوعـي (KPD) وبذا يحصل على ٥٠ ٪ من مجمل الاصوات في بعض المناطق العمالية . ويعتبر هذا الحزب القيادة الصينية بانها قيادة انحرفت عن الخط الماركسي اللينيني ويندد

بحملاتها ضد الاتحاد السوفياتي ويتهمها بتهديد السلام العالمي ، ومن هنا ينبع تصوره لاهم واجباته الامية والتي تتركز في محاربة ما يسميه بالسياسة الانقسامية للقيادة الصينية ويهاجم وبنفس العنف المجموعات الماوية في المانيا الاتحادية. ويقدر عدد اعضائه بحوالي ٣٠ الف عضو ويصدر صحيفة مركزية تدعى « اونزي تسايت » ويحمل هذا الحزب في برلين الغربية اسم (الاتحاد الاشتراكي في برلين الغربية) «SEW» .

وهناك احزاب عدة صغيرة تقف مواقف قريبة مثل : العمال الشباب الاشتراكي الالماني (SDAJ) الى جانب رابطة الطلبة الماركسيين — شبارتكوس (MSB - SPARTAKUS)

ثالثا : حزب المانيا الشيوعي (KPD) : اسس هذا الحزب عام ١٩٧٠ ومعظم اعضائه من الطلبة ويتبنى خط القيادة الصينية وانصاره من العمال والطلبة وتقدر الصحافة البورجوازية عدد اعضائه ما بين ٥—١٥ الف عضو . وبرغم ان العمل العلني مصرح به لهذا الحزب الا انه لم يشترك حتى الان في الانتخابات العامة بسبب ادعاء السلطة بانه لم يستوف الشروط القانونية الضرورية .

أما هدفه المعلن فهو احياء تراث الحزب الشيوعي ايام « روزا لوكسمبورج » ولهذا الحزب منظمات متفرعة عنه اهمها : — رابطة الشبان الشيوعيين (KJV) :واعضاؤها من العمال الشبان والتلاميذ ؛ — رابطة الطلبة الشيوعيين (KSV) ، — منظمة النقابات الحمراء (RGO) .

ويعتبر هؤلاء جميعا ان مجتمعات الصين الشعبية والبانيا وفيتنام الديموقراطية وكوريا الديموقراطية الشعبية هي المجتمعات الاشتراكية الحقيقية ويتبنون مبدأ الثورة المسلحة لتحقيق دكتاتورية البروليتاريا ويعتبرون بروليتارية المانيا الاتحادية الوحيدة المتناقضة مع البورجوازية الاحتكارية الحاكمة وانها الطبقة الوحيدة المرشحة عبر نضالها التحرري لقيادة فئات الشغيلة الاخرى على درب الثورة .

ويعتبر حزب المانيا الشيوعي (KPD) الحزب الالماني الشيوعي (DKP) حزبا معاديا للطبقة العاملة ويتهمه بالتعاون مع النظام في محاولته لطمس وتشويه حقيقة التناقض بين البروليتاريا والبورجوازية الاحتكارية الحاكمة .

ومن هنا فان النضال ضد التحريفيين والامبرياليية والاشتراكية معادل تماما لديه للنضال ضد الرأسمالية والامبريالية ومن هنا ينبع المعادي للاتحاد السوفياتي والذي ظهر جليا في نشراته ومجلاته وبياناته . ونراه يهاجم الامبريالية الاشتراكية بشكل أشد من مهاجمته للامبريالية العالمية .

رابعا : الرابطة المعادية للامبريالية (LIGA GEGEN DEN IMPERIALISMUS) : اسست في تموز ١٩٧١ وبدعم من حزب المانيا الشيوعي وتعتبر نفسها حركة جماهيرية مضادة للامبريالية وتهدف الى تحقيق الوحدة بين الجماهير المضطهدة والمستعبدة عبر النضال ضد الامبريالية ومن اهم اهدافها : النضال المستمر ضد الامبريالية وعملائها ، دعم حركات التحرر الوطني والحركات الاشتراكية للعمال عبر التوعية والاعلام ، تنظيم الدعم المعادي وبشكل خاص لحركات التحرر الوطني ، العمل المشترك مع المنظمات العالمية المناهضة للامبريالية . وتقف هذه الرابطة موقف العداء من الاتحاد السوفياتي وتهاجم الحزب الالماني الشيوعي بشدة .

ولقد قامت بجولات دراسية في كل من الصين الشعبية والبانيا وتعتبر بأن الدعم الحقيقي للشعوب ضد الامبريالية يأتي عبر الصين الشعبية والبانيا وفيتنام الديموقراطية وكوريا الديموقراطية الشعبية وذلك لمقدرتهم على تجنيد كافة امكانياتهم لدعم حركات التحرر العالمية . وتعتبر بأن حرب الشعب طويلة الامد هي الطريق الوحيد لتحقيق النصر

عبر الامبريالية وعملائها ولتحقيق السلام والاشتراكية . وان انتصار شعوب الهند الصينية لهو الدليل القاطع على صحة هذه النظرية .

وتصدر هذه الرابطة نشرة شهرية تدعى « التضامن العالمي » . وتتميز هذه المنظمة بديناميكيتها وقد ظهر ذلك جليا في دعمها لنضال شعب فيتنام وشعوب انجولا وموزامبيق وغينيا بيساو .

خامسا : حزب المانيا الشيوعي الماركسي اللينيني (KPD - ML): اسست خليته الاولى عام ١٩٦٨ وتدعى الجريدة الناطقة بلسانه « روتر مورجن » .

ـــ حزب المانيا الشيوعي الماركسي اللينيني ـــ بوخوم «KPD - ML - BOCHUM» اسس هذا الحزب في جامعة بوخوم عام ١٩٧٠ وتدعى الجريدة الناطقة بلسانه « روتي فاني » .

ـــ حزب المانيا الشيوعي الماركسي اللينيني ـــ الطريق الثوري «KPD - ML - REVULOTIONARER WEG» وهو فرع انشق عن الحزب الام في بوخوم .

وتأخذ الاحزاب الماركسية اللينينية على عاتقها مسؤولية اعادة احياء حزب المانيا الشيوعي الذي حظر نشاطه هتلر عام ١٩٣٣ . ويعتبرون دكتاتورية البروليتاريا أساسا للسلطة السياسية وان العنف الثوري هو ضرورة تاريخية ، ويدعمون الخط الصيني . ومعظم اعضائهم ومؤيديهم من الطلبة وينحصر نشاطهم في معظم الاحيان في مناطق محددة .

سادسا : رابطة الطلبة الالمان (VDS) : وهي المنظمة الطلابية الكبرى وتضم ما يقارب النصف مليون من الطلبة ويتركز نضالها في اطار المشاكل الطلابية مثل جعل الجامعات اكثر ديموقراطية وتوفير المعونات الدراسية واصلاح نظام التربية والتعليم. ويشترك فيها المنظمات الطلابية التالية : رابطة الطلبة الجامعيين الاشتراكيين الديموقراطيين (SHB) ؛ الشبان الاشتراكيون (شبيبة الحزب الحاكم) (JUSOS) ؛ رابطة الطلبة الماركسيين ـــ شبارتكوس (MSB - SPARTAKUS) .

سابعا : رابطة الطلبة الجامعيين الاشتراكيين الديموقراطيين (SHB) :وهي مجموعة انشقت عن SDS (الطلبة الالمان الاشتراكيين والذين كانوا حتى حل تنظيمهم عام ١٩٧٠ من اقوى المجموعات السياسية الطلابية) واتخذت لنفسها هذا الاسم عام ١٩٦١ وقد دعمت هذه الرابطة في البداية من قبل الحزب الاشتراكي الديموقراطي (الحاكم حاليا). الا انه حظر عليها تسمية نفسها بالاشتراكيين الديموقراطيين باعتبارهم من اليسار المتطرف .

ثامنا : رابطة الطلبة الماركسيين ـــ شبارتكوس (MSB - SPARTAKUS) : وتوجد أهم قواعدهم وانشطها في الجامعات ويمثلون خط الحزب الالماني الشيوعي (DKP) .

تاسعا : الشبان الاشتراكيون (JUSOS) : وهم اعضاء في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الحاكم وتقع اعمارهم ما دون ٣٥ عاما وبالرغم من أن الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية في اوروبا الغربية تدعم اسرائيل وتقيم علاقات حميمة مع الهستدروت الا ان توجه الشباب الاشتراكي الديموقراطي كان واضحا في دعم الثورة الفلسطينية . وقد كان هذا التنظيم نشطا في حركة دعمه لفيتنام الا انه بالامكان ان تستحوذ فلسطين على المكان الاول من اهتمام هذه الشبيبة .

ويتبنون على صعيد النضال الداخلي توسيع رقعة التأميمات الموجهة بشكل خاص

ضد الاحتكارات الكبرى والذي لا يعني في واقعه تهديدا لحركة الاقتصاد الراسمالية وتمثيل العمال في المصانع وتحقيق تمثيل الطلبة في الجامعات واصلاح النظام التعليمي والغاء امتحانات القبول في الجامعات . ويطالبون الحكومة بدعم مـادي ومعنوي لحركات التحرر وبشكل خاص الافريقية منها وعدم الاعتراف بحكومتي تشيلي واليونان العسكريتين .

وبالرغم من أن الطرح السياسي للجناح اليساري في (JUSOS) شتاموكاب (STAMUKAP) يشابهه الطرح السياسي للحزب الالماني الشيوعي (DKP) الا ان مطالبهم اكثر تطرفا من مطالب غالبية اعضاء التنظيم وفي عام ١٩٧٣ اتجه الكثيرون منهم الى الانتماء للحزب الالماني الشيوعي .

عاشرا : جمعية الطلبة البروتستانت (SEG) : بدأت الجمعية في دعم القضية الثورية للشعب العربي الفلسطيني عبر اتصالات فردية وشخصية مع الاتحاد العـام للطلبة الفلسطينيين والاتحاد العام لعمال فلسطين واخذ الدعم الذي كان موجها في البداية لصالح حركة فتح يتجه فيما بعد الى منظمة التحرير الفلسطينية بعد دخول جميع المنظمـات الفدائية الفلسطينية المقاتلة فيها .

لقد تبلور دعم هذه المنظمات والاحزاب التقدمية بشكل واضح بعد عملية المدينـة الاولومبية في ميونخ وقد عاشت حركة الدعم هذه فترة من الخمول وخاصة بعد مذابح ايلول عام ١٩٧٠ الى ان بدأت طبيعة الامور والتناقضات تظهر . وظهر جليا كذلك ما يجب عمله وكانت هناك محاولات من هذه القوى التقدمية وبشكل خاص من قبل لجان نصرة فلسطين لتكوين لجنة وطنية المانية لنصرة الثورة الفلسطينية خاصة بعد دخـول جميع المنظمات الفلسطينية المقاتلة الى منظمة التحرير الفلسطينية في منتصف العـام ١٩٧٢ وصدور البرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ومن اهم المشاكل التي تقابل حركة الدعم والتضامن مع الثورة الفلسطينية في المانيا الاتحادية والتي تعيق تكوين لجنة او جبهة موحدة لنصرة هذه الثورة هو الخلاف القائم والحاد بين القوى التقدمية الموالية للصين الشعبية وتلك الموالية للاتحاد السوفياتي فهم يرفضون العمل مبدئيا في اطار واحد .

هذا الى جانب كون اللجان الموالية لاتجاه الصين الشعبية تعاني من بعض المشاكل فيما بينها ولا تجد الحد الادنى من البرامج الموحدة لعملها في دعم الثورة الفلسطينية .

وبين هاتين المجموعتين تجد لجان نصرة فلسطين نفسها مضطرة للتعامل تارة مع هذه وتارة مع تلك الجماعات وتتعرض لاختلاف في وجهات النظر بين صفوفها ايضا .

ان الاساس في دعم تلك القوى التقدمية الالمانية للثورة الفلسطينية هو اعتبارها بأن نضال الثورة الفلسطينية هو نضال ضد الامبريالية العالمية وتشكل جزءا مـن حركة التحرر العالمية وبأنه الحل الوحيد لاعادة الحقوق الشرعية وحق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني واقامة الدولة الديموقراطية التقدمية على ارض فلسطين والـذي يشكل أساسا استراتيجيا لدى الثورة الفلسطينية . انهم يتفقون مع الفلسطينيين بان دولة فلسطينية ديموقراطية تقدمية لا يمكنها ان تنمو وتتطور في اطار طوق من الدول العربية الرجعية وبان الشعب العربي الفلسطيني لا يستطيع تحقيق هدفه الا بالعمل مع جميع الجماهير العربية لتحقيق المجتمع العربي التقدمي الموحد .

ويعتبرون ان نضال الشعوب العربية مرتبط بنضال شعوب العالم الثالث وهـذا مرتبط بدوره بنضال التقدميين المعادين للامبريالية في الدول الراسمالية . وقد شكلت

بعض هذه القوى التقدمية لجانا لنصرة الثورة العربية في ظفار قبل ان يقوموا بتأسيس لجان نصرة فلسطين .

ومن بين القوى المساهمة كانت الرابطة المعادية للامبريالية التي سبق لها أن اسست لجان لنصرة فيتنام وانجولا وموزنبيق وغينيا بيساو وجنوب افريقيا وامريكا اللاتينية . وعبر التجربة في دعم نضال الشعب الفيتنامي ضد الامبريالية الامريكية اخذت هذه القوى زمام المبادرة وبدعم من الحزب الالماني الشيوعي أسست اللجنة المناهضة للامبريالية لدعم نضال شعوب افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية حيث يعمل الكثير من اعضاء الحزب الالماني الشيوعي .

وبعد الدعوة لعقد مؤتمر السلام والعدل للشرق الاوسط في بولونيا — ايطاليا في ايار ١٩٧٣ نظمت اللجنة المناهضة للامبريالية ولدعم نضال شعوب افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية على أساس قرار مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ نظمت مهرجانا عالميا في بون تحت عنوان « من أجل السلام والعدل في الشرق الاوسط » في ١٥ حزيران ١٩٧٣ . وتعتبر هذه اللجنة ان هذا القرار يتفق مع تصورها لحل مشكلة الشرق الاوسط وبالتالي يتفق مع تصور الحزب الالماني الشيوعي لحل المشكلة نفسها .

وقد شارك في هذا المهرجان السفراء العرب المعتمدون في بون ووفود الجامعة العربية وممثلون عن الصحافة والاذاعة والتلفزيون وممثلون عن الجماعات والمنظمات الالمانية المناهضة للامبريالية الى جانب اسرائيليين معادين للدولة الصهيونية ويهود مناهضين للصهيونية مثل عضو اللجنة الاسرائيلية لتحقيق السلام العادل بين اسرائيل والشعوب العربية الدكتور وولف ارلش والكاتب اليهودي المعروف بعدائه للصهيونية اريش فريد .

ويعتبر هذا المهرجان من اهم اعمال الحزب الالماني الشيوعي وقد دفع مهرجان الشبيبة والطلبة في برلين الشرقية في تموز ١٩٧٣ هذا الحزب ولجنة نصرة فلسطين الموالية له الى نقطة متقدمة على طريق دعم الثورة الفلسطينية حيث التقت شبيبة هذا الحزب واللجنة مع شبيبة الثورة الفلسطينية في برلين واجريت معهم اللقاءات وجرت بينهم النقاشات المطولة مما دعاهم كما يبدو لتشديد العمل لدعم الثورة الفلسطينية .

ولجنة نصرة فلسطين الموالية للحزب الالماني الشيوعي تتكون من « الحزب الالماني الشيوعي » + « رابطة الطلبة الماركسيين — شبارتكوس » ولا ينسب نشاط اعضائها السياسي الى الحزب الا ان خطهم السياسي متفق مع الخط السياسي للحزب الالماني الشيوعي تجاه القضية الفلسطينية . وهذا يعني بأن لجميع دول الشرق الاوسط الحق في العيش في سلام وحرية بما فيها اسرائيل .

ان الحل المنطقي والصحيح في نظرهم للقضية الفلسطينية هو الحل الذي يعتمد على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الصادر عام ١٩٦٧ وعندما يتطرق الحزب الالماني الشيوعي (DKP) للتحدث عن الثورة الفلسطينية فانهم يتحدثون عن النضال العادل للشعب العربي الفلسطيني لتحقيق حقوقه الوطنية المشروعة الا انه لا يتطرق اطلاقا للحديث عن حرب التحرير الشعبية طويلة الامد .

وعبر فهمهم لتحقيق سلطة البروليتاريا في المانيا الاتحادية بالطرق البرلمانية وبأنه ليس من الضروري للشعوب المضطهدة والتي تقاسي من الاحتلال الاجنبي في العالم الثالث استخدام العنف الثوري وحرب التحرير الشعبية طويلة الامد طريقا وحيدا لتحقيق الحقوق الوطنية لتلك الشعوب . ومن هنا يفهم دعمهم المطلق واللانهائي للجبهة الوطنية بقيادة الليندي في التشيلي .

وتنطلق مجموعة « شبارتكوس » من نفس المفهوم الا انه ظهر مؤخرا في نشراتها العبارة التالية : « انه يحق لمنظمة التحرير الفلسطينية ان تناضل بجميع الوسائل والطرق الممكنة لتحرير الوطن الفلسطيني والحصول على الحقوق الوطنية والتاريخية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني » . وتتميز « شبارتكوس » بالديناميكية على لجنة نصرة فلسطين والعاملة في ميونخ وذلك لامتلاكها قاعدة واسعة في معظم الجامعات في المانيا الاتحادية .

أما الحزب الالماني الشيوعي (DKP) فيعتمد في نضاله من اجل فلسطين على المؤتمرات والقرارات وبذلك يكون مبتعدا عن الجماهير العمالية والمثقفين في المانيا الاتحادية . وقد اعتمد الحزب اثناء الحرب الاخيرة وبعدها على مضاعفة نشاطه ودعمه للثورة الفلسطينية عبر المقالات والنداءات والاستنكارات للموقف الاسرائيلي المتعنت وهو اليوم يدعم وبكل قوة المؤتمر المنعقد حاليا في جنيف ويعتبره محاولة لحل التناقض الاساسي في منطقة الشرق الاوسط .

وقد قال هربرت ميس الامين العام الجديد للحزب في مؤتمر الحزب العام والذي انعقد في ١٩٧٣/١١/٢ فيما يخص الشرق الاوسط : « اننا ندين السياسة العدوانية الاسرائيلية وندين استهتارها بقرارات الامم المتحدة كما ندين عدم احترامها لحق الشعب العربي في الاستقلال الوطني . اننا نعتقد بأن الحل السلمي النهائي يتطلب الانسحاب التام للقوات الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة واحترام حقوق الدول في هذه المنطقة بما فيها حقوق الشعب الفلسطيني . اننا ندعم نضال الشعوب العربية العادل ضد الامبريالية وندعم نضال الشيوعيين العرب والاسرائيليين ». (صحيفة Neues Deutschland بتاريخ ١٩٧٣/١١/٣) .

لقد بدأ كل من حزب المانيا الشيوعي (KPD) والرابطة المعادية للامبريالية بالعمل بشكل اكثر فعالية خاصة بعد عملية المدينة الاولومبية في ميونخ وكان دعم الرابطة منصبا أساسا على دعم حركات التحرر الافريقية كما وانه كان لديهم لجان دعم وصداقة مع كل من الصين الشعبية والبانيا وقاموا بجولات دراسية متعددة لالبانيا وتبادلوا الزيارات الدراسية مع كل من حركة تحرر موزنبيق (فريليمو) وحركة تحرير انجولا (MPLA) وحركة تحرير غينيا بيساو (PAIGC) .

وقد عمل كلاهما مع لجان نصرة فلسطين واشتركوا في اللقاءات والنقاشات والمحاضرات والمظاهرات لصالح الثورة الفلسطينية وقاموا بنشاط واسع بعد حظر اتحادي طلبة وعمال فلسطين الا انهم في الحقيقة اكتشفوا مؤخرا بأنه ليس لديهم معلومات عن حقيقة الوضع والتناقضات في منطقة الشرق الاوسط وللتغلب على هذا النقص اسسوا لجنة جديدة لنصرة فلسطين أسموها « لجنة دعم شعوب الشرق الادنى والاوسط » واصدروا اولى نشراتهم المركزية تحت اسم « التحرير » بتاريخ ١٩٧٣/١١/١٧ ومن اهم الواجبات التي تشعر هذه اللجنة بأنه يجب عليها انجازها هي:

— دعم نضال هذه الشعوب ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية وايضاح ذلك للجماهير في المانيا الاتحادية .

— تنظيم جمع التبرعات المادية والعينية .

— كشف السياسة الامبريالية للدول الكبرى حتى يتم عزل الامبريالية الامريكية وتبديد الاوهام المتعلقة بسياسة الاتحاد السوفياتي اذ أن سياسته تقوم في منطقة الشرق الاوسط على :

— التنافس مع الامبريالية الامريكية حيث يكون ذلك ممكنا وذلك عبر عزل الولايات

المتحدة الامريكية من جهة والتعامل مع الولايات المتحدة الامريكية من جهة اخرى حيث يكون ذلك ضروريا ليمكنهم المشاركة في اقتسام الغنائم مع الامبريالية .

ــ محاربة سياسة الحكومة الالمانية الاتحادية عبر محاربتهم لنظام التعويضات الالمانية لاسرائيل .

ــ دعم نضال الانظمة العربية اذا كان موجها ضد الامبريالية والصهيونية .

ــ النضال ضد ارهاب الدولة الموجهة ضد نشاط المنظمات العربية المعادية للامبريالية في المانيا الاتحادية .

وتعلن هذه اللجنة بانها على استعداد للتعامل مع كل المجموعات في المانيا الاتحادية والتي تلتقي معها على الحد الادنى في برنامجها السياسي .

الا ان مثل هذا اللقاء على صعيد الممارسة لم يتم وذلك بسبب طبيعة فهم الاطراف المعنية للصراع والتناقض القائم . فان حزب المانيا الشيوعي يعتبر بأن تناقضه مع الحزب الالماني الشيوعي تناقض عدائي مما يشكل اضعافا للنضال . فالقوى الرئيسية هي الحزب الالماني الشيوعي + مجموعة شبارتكوس من جانب وحزب المانيا الشيوعي + الرابطة المعادية للامبريالية في الجانب الاخر .

ان العمل مع الحزب الالماني الشيوعي غير وارد بالنسبة لحزب المانيا الشيوعي . هذا ما جاء في برنامج الحزب في مؤتمره الرابع . فلقد اشتركت الشبيبة الاشتراكية (JUSOS) مؤخرا وبشكل جزئي مع حركة التضامن لدعم الثورة الفلسطينية وقد اصدر مؤتمر الشبيبة المنعقد في اذار ١٩٧٣ بيانا خاصا حول الشرق الاوسط ندد فيه بالعدوان الاسرائيلي وطالب بسحب جميع القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ والاعتراف باستقلال وشرعية جميع دول المنطقة بما فيها اسرائيل .

وقد قرروا بعد مؤتمر الشبيبة والطلبة في برلين الشرقية عام ١٩٧٣ بأن يقوموا بجمع المعلومات والتوعية عن القضية الفلسطينية . ان نشاط الشبيبة الاشتراكية محدود ومحلي ويتركز في ميونخ بالعمل مع مجموعة « شبارتكوس » ومع لجنة نصرة فلسطين الموالية لحزب المانيا الشيوعي . ويمكن للمرء ان يلاحظ بأن اوسع نشاط لهذه المجموعة في هامبورج حيث أن بعض أعضاء الهيئة الادارية لديهم دراية تامة وعميقة بالمشكلة الفلسطينية والشرق الاوسط ويعملون مع لجنة نصرة فلسطين في المدينة . الا انهم لا يزالون غير قادرين على تثبيت سياسة موالية لفلسطين من الحزب الاشتراكي الديموقراطي الحاكم .

وقد أصدرت هذه المجموعة في هامبورج في تشرين الثاني ١٩٧٣ بالتعاون مع لجنة نصرة فلسطين كتيبا خاصا من ٣٠ صفحة تحت عنوان « اسرائيل في المناطق المحتلة » ونشر في مجلة افريقيا اليوم (AFRIKA HEUTE) ويحتوي هذا الكتيب على تمهيد تاريخي عن القضية الفلسطينية وتقرير البعثة الخاصة التابعة للامم المتحدة لتفقد الممارسات الاسرائيلية بخصوص حقوق الانسان في المناطق المحتلة .

وهذه المجلة « افريقيا اليوم » من افضل المجلات السياسية والثقافية في المانيا الاتحادية والتي تتعرض لمشاكل العالم الثالث وحركات تحرره وتصدر شهريا عن « الجمعية الالمانية الافريقية » . وقد خفض البرلمان الالماني حديثا ميزانية هذه الجمعية لاسباب سياسية باعتبارها انحرفت عن اتجاه اليسار . وكان اقتراح تخفيض ميزانيتها قد قدم من قبل حزب المعارضة « الاتحاد المسيحي الديموقراطي » بسبب « عدائها القذر لاسرائيل » وتعتبر المعارضة دعم هذه الجمعية لهو « فضيحة في حد ذاته » .

وقد طبع من العدد المذكور للمجلة ٢٠ الف نسخة في حين ان العدد العادي لا يتجاوز ١٠٠٠ نسخة .

وتوجد هناك مجموعة سياسية اخـرى يجب ان لا نهملها وهـي « جمعية الطلبة البروتستانت » التي قامت بنشاط كبير بعد عملية المدينة الاولمبية في ميونيخ من تنظيم وتمويل القضايا الخاصة بابعاد الطلبة الفلسطينيين والعرب من اراضي المانيا الاتحادية وتعاقدت مع محامين للدفاع عن الطلبة المهددين بالابعاد وتحاول الان تجنيد القوى ليتم رفع الحظر عن نشاط الاتحادات الفلسطينية هناك .

ونتيجة لجهود قوى الثورة الفلسطينية لتوحيد قناعاتها السياسية بضرورة اعطـاء فلسطين الان المكان الاول في الصراع الدائر ضد الامبريالية بعد تحقيق الشعب الفيتنامي الانتصار العظيم على الامبريالية الامريكية وتمريغ أنفها في الوحل ازداد نشاط حركات التعاطف والدعم للثورة الفلسطينية في المانيا الاتحادية عام ١٩٧٣ وظهرت ضرورة خلق وحدة بين هذه الحركات على اساس الحد الادنى للبرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ولهَذا الهدف عقد مؤتمر لنصرة فلسطين في ١٩٧٣/١١/١٧ في بون اشترك فيه ٥٠٠ من العاملين في لجان نصرة فلسطين وكانت معظم المنظمات الآنفة الذكر ممثلة في هذا المؤتمر . وقد خرج هذا المؤتمر بنتيجة مؤداها بأنه يصعب تحقيق وحـدة العمل بين القوى الداعمة والمؤيدة للثورة الفلسطينية وذلك للاسباب التالية :

أولا : التناقض الموجود بين الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي والذي يعكس نفسه على الساحة الالمانية الغربية بين صفوف تلك القوات والذي يظهر جليا مـن مواقفها السياسية .

ثانيا : الخلاف في الراي حول اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشـعب الفلسطيني . فجزء من هذه القوى المجتمعة يرى بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد والشرعي للشعب العربي الفلسطيني ولهذا يجب الالتزام ببرنامجهـا السياسي كحد ادنى . بينما ترى جماعات أخرى بأنه من الضروري مناقشة الخلافات الايديولوجية داخل صفوف الثورة الفلسطينية .

الا انه أمكن تحقيق بعض النجاح بالمقارنة مع التجارب السابقة حيث أمكن خلق جو من التقارب بين اللجان والاحزاب والمجموعات الدائمة للثورة الفلسطينية وكان محور الصراع والخلاف الاساسي بينهم هو كيفية دعم الثورة الفلسطينية ومناصرتها بطريقة أكثر فعالية وتأثيرا .

وقد دعا المجلس الاتحادي لجماعة « شبارتكوس » لجان نصرة فلسطين الى لقـاء آخر لاستكمال النقاش حول برنامج للعمل .

ومن هنا نخلص للقول بأن طبيعة الصراع في المنطقة العربية تفرز القوى المناهضة للثورة والقوى الحليفة لها . وبنظرة شاملة نرى ان القوى الاساسية التي تدعم الثورة هي القوى التقدمية والاحزاب والمنظمات الاشتراكية بينما يظهر العداء لهذه الثورة واضحا من قبل القوى المرتبطة بالامبريالية .

فكلما ازداد تنظيمنا صلابة وتطورت قدراتنا واصبحنا اكثر فعالية ووحدة كلما أصبحت القوى المناصرة والمؤيدة لنا اقوى نشاطا واعمق تأثيرا وكلما ازدادت الجبهات وضوحا ليس فقط جبهة الاعداء بل ايضا جبهة الاصدقاء .

مراجعات

الدكتور كامل ابو جابر ، **نظام دولة اسرائيل ــ اطار القرار السياسي** ،
(معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣)

قسم المؤلف الكتاب الى سبعة فصول ، وتعرض في الفصل الاول للصهيونية واسرائيل والصهيونية الحديثة ، والحركة الصهيونية واسرائيل ، واسرائيل والمنظمة الصهيونية . وتعرض في الفصل الثاني للكيان الاسرائيلي والدستور ، وتعرض في الفصل الثالث لقانون الانتقال والسلطة التنفيذية ورئيس الدولة والوزارة وكيفية تشكيل الوزارة والخصائص الرئيسية للحكومات الاسرائيلية ، وتعرض في الفصل الرابع للكنيست ، وتعرض في الفصل الخامس للسلطة القضائية وتناول في الفصل السادس الاحزاب الاسرائيلية ، واحتوى الفصل السابع على نظرة موجزة لوضع الاقلية العربية . ويذهب المؤلف الى ان هذه الدراسة حاولت ان تبين كيفية اتخاذ القرارات السياسية الرئيسية في اسرائيل . ويعد موضوع هذه الدراسة من الموضوعات الهامة بالنسبة لصانع القرار السياسي العربي وذلك في التخطيط وتقدير الموقف والتنفيذ .

ولنا ملاحظات على معالجة هذا الموضوع نوجزها فيما يلي :

اولا : الدراسة عبارة عن تجميع لمجموعة من المعلومات ، وتكثر من النقل عن المؤلفين العرب والاجانب بشكل ملفت للنظر ، ولم تصل الى نتائج جديدة ، وتذهب الى انها حاولت ان تبين كيفية اتخاذ القرارات السياسية الرئيسية في اسرائيل ، ولكنها لم تعالج ذلك في اطار واضح ، وكل ما قامت به عبارة عن شرح لعدد من المؤسسات بشكل منفصل ، لكنها لم تقدم بشكل واضح كيفية صناعة القرار السياسي . ولم توضح لنا مفهوم القرار السياسي ، ولا نجد عرضا لدور المؤسسة العسكرية ، او تركيزا على دور كبار السن ، والهستدروت .. الخ ، ولا يوجد مثال او امثلة لاسماء الاشخاص الذين يصنعون القرار السياسي، ومن هنا فان عنوان الكتاب لم يتمش مع مضمونه.

ثانيا : يلاحظ على الكاتب انه يستعمل كلمة « دولة » اسرائيل بمناسبة وغير مناسبة وبشكل مكرر ، ويقول في ص ٢٣ « ان اسرائيل قامت على اساس ديني قومي » . والواقع ان الدين كان واجهة لعوامل اخرى سياسية واجتماعية وغيرها ، كما ان صفة القومية غير متوفرة هنا ، وذلك لان اسرائيل قامت ضمن ما قامت على اساس تجمع مجموعة من الافراد يشتركون في الصفة الصهيونية وينتمون الى قوميات مختلفة .

ثالثا : يستنتج الكاتب ص ٤٧ ان المشكلة الدينية بكل ابعادها السياسية والحضارية كانت العقبة الرئيسية في طريق تدوين الدستور، والواقع ان العوامل السياسية والاقتصادية الخاصة بالوجود والتوسع الاسرائيلي والهجرة والاستحواذ على اراضي الغير قد عرقلت تدوين الدستور . كما ان وجود الدستور يمكن ان يعد قيدا على الحركة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين لا سيما انها كانت في مرحلة البداية .

رابعا : عندما تعرض الكاتب للاحزاب الاسرائيلية ، لم يأخذ في اعتباره بعض التطورات الخاصة باندماج بعض الاحزاب .

على ان هذه الملاحظات لا تقلل من الجهد الذي بذل في اعداد الكتاب ، ودراسة بعض المؤسسات الاسرائيلية المشكلة للنظام السياسي في وقت تدور فيه معركة متعددة الجوانب ضد الاستعمار الاستيطاني في فلسطين ، ومن هنا تبرز أهمية

الجهود المختلفة التي تساهم في توضيح حقيقة المجابهة العربية الاسرائيلية ، وما يرتبط بها من قضايا ، وان كنا نلتمس للكاتب العذر على اساس ان هذا الكتاب مدرسي وموجه للطلاب ، وأعد في عجالة ، مما يبين ان الطبعات القادمة ستكون أكثر عمقا واضافة في مجال دراسة صناعة القرار السياسي في اسرائيل .

محمد علي العويني

« الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ٦ــ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ »
عدد خاص من مجلة السياسة الدولية (يناير ١٩٧٤)

خصصت مجلة « السياسة الدولية » التي تصدر مرة كل ثلاثة أشهر عن دار الاهرام في القاهرة عددها الاخير لمعالجة « حرب اكتوبر » على الصعيد العربي والدولي . وقد احتوى العدد على مقالات وابحاث ووثائق وتحليلات تهم المواطن العربي سواء كان قارئا عاديا او باحثا متخصصا او سياسيا يهمه الاطلاع على البحث العلمي للاستفادة منه في اتخاذ القرار او اعلامي يرغب في الاطلاع على اتجاهات الرأي العام في بلاده او خارجها . من هذه الزاوية قدم العدد المذكور المعلومات والافكار لاوسع دائرة ممكنة من القراء والمهتمين . فالقراءة الاولى للعدد كافية لاظهار المجهود الضخم الذي كان وراء اختيار الابحاث واعدادها وتبويبها، ولكننا هنا لسنا بصدد استعراض الايجابيات الكثيرة التي يمكن اكتشافها في هذا المجهود ، فقراء « السياسة الدولية » يدركون المكان الذي تحتله هذه المجلة على ساحة الفكر السياسي العربي ولكننا هنا في صدد اجراء تقييم عام لمحتويات العدد الاخير الذي تم اعداده وتقديمه في فترة تاريخية ربما تكون من أهم الفترات التي يمر فيها العالم العربي في هذا القرن . ان محتوى اكثر المقالات يشير الى ان كتابتها قد تمت اثناء اندلاع المعركة العسكرية التي شهدتها الجبهة المصرية والسورية وما تلاها من تحركات سياسية واقتصادية عربية ودولية . ولهذا فانه لا بد هنا من الاشارة الى الصعوبات التي تواجه أي بحث سياسي يحاول معالجة ازمة سياسية لا زالت قائمة ومستمرة حيث ان البحث لا يمكنه حصر العوامل المتغيرة التي تؤثر على سير الازمة وحيث يمكن للتطورات ان تبطل مفعول وتلغي مصداقية الاستنتاج النظري . كما انه لا بد من الاشارة الى ان « السياسة الدولية » مع اتساع مجال تخصصها اضطرت في هذا العدد الى الاكتفاء بمعالجة مسألة النزاع العربي ــ الاسرائيلي ضمن اطار محدد هو حرب اكتوبر ونتائجها فسقطت في فخ الاختيار بين ما هو أهم وما هو مهم مما قيد الى حد بعيد الافق التاريخي الذي كان يمكن للباحث ان يسرح فيه لدعم أفكاره وقناعاته . ان هذا التقييم ينظر الى العدد ككل متكامل ولكن اختلاف المواضيع وتنوعها قد فرض عليه نوعا من التركيز والاشارة الى بعض المقالات بشكل خاص .

الانطباع الاول لدى قراءة العدد هو انطباع شكلي ومتعلق بالتركيب السياسي لاشخاص المساهمين بالابحاث فقد اقتصرت هذه الابحاث على الاساتذة والباحثين المصريين مما صبغ العدد بطابع «مصري» . ومع ان هذا الطابع لم يؤثر على عروبة المضمون الا ان الخلفية الثقافية الخاصة التي هيمنت على هذا المضمون جعلته يقدم صورة غير كاملة عن الاراء السياسية المختلفة في العالم العربي حول حرب اكتوبر . ان مشكلة «اقليمية» المجلات العربية المتخصصة مشكلة تعاني منها مجمل الحياة الثقافية العربية حيث لا زالت درجة التفاعل الفكري العربي مرتبطة بالموقع الجغرافي (مكان الصدور) والالتصاق المحلي (مكان الاقامة) لمصدر المقال .

والان يجدر بنا ان نسأل ماذا قدم عدد « السياسة الدولية » الاخير وكيف قدمه ؟

البحث الاول كتبه د. اسماعيل مقلد حول « استراتيجية السادات والعمل العربي المشترك » وقد استعرض البحث الايجابيات التي حققتها هذه الاستراتيجية على الصعيد العسكري والدبلوماسي العربي والدولي ، وقد اثار البحث تساؤلات هامة

حول غياب القدرة العربية الاقتصادية عن ساحة التحرك برغم الدور الذي لعبته حتى الان وكذلك غياب منظمات الثورة الفلسطينية عن الساحة الاردنية وعدم فعالية الجبهة الشرقية ورغم هذه التساؤلات فقد استنتج الكاتب بان العرب قد اثبتوا في حرب اكتوبر « انهم كتلة دولية ذات وزن سياسي واقتصادي » وأكد ضرورة استمرار الاجراءات العربية الضاغطة على المصالح الامريكية والغربية وضرورة تطوير أجهزة الجامعة العربية مما يضمن تغيير ملامحها الجامدة (ص ١٩) . ثم حدد الكاتب ملامح الاستراتيجية العربية على المدى البعيد بحيث تشمل اقامة مؤسسة عربية لتخطيط السياسة البترولية وانشاء صندوق للطوارىء القومية وانشاء جهاز عسكري عربي لدراسة احتياجات العرب للاسلحة وتحديد أنواعها وتنسيق استعمالها . ان بحث الدكتور مقلد كان استعراضيا حيث بدأ بتقديم المعلومات وانتهى بتقديم النصائح وهو بجانب كلمة العدد التي كتبها الدكتور بطرس غالي يمكن اعتباره كلمة عدد اضافية وموسعة حيث طغت محتوياته على باقي الابحاث مما برر تصدره هذه الابحاث .

في بحث تابع تعرضت الباحثة نبيهة الاصفهاني « لتحرك المقاومة الفلسطينية في ازمة الشرق الاوسط » ، وكان هذا البحث هو المقال الوحيد الذي احتواه العدد عن المقاومة الفلسطينية دار البحث حول المعلومات العامة والمعروفة عن المقاومة ودورها الخاص في الحفاظ على الجو النفسي الضروري ولكن البحث وقع في اخطاء احصائية هامة مثل عدد اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية عام ١٩٥٤ حيث حددها البحث بـ ١٨٠ الفا بينما كان العدد الصحيح اذا شملنا اللاجئين في الاردن يتعدى ٧٠٠ الف .

لقد احتوى العدد على عدد من الابحاث التي نزلت تحت باب « المحور الاقتصادي » وتعرضت هذه الابحاث للنواحي القانونية التي تدعم الحق العربي في استعمال « سلاح البترول » ودور هذا السلاح في تحقيق الاهداف العربية السياسية (استرجاع الاراضي المحتلة) والاقتصادية (التنمية والتعمير) . لقد طرحت الصحافة العربية موضوع البترول العربي وازمة النفط العالمية بشكل موسع وكاشف ولم تشهده الصحافة العربية حول موضوع آخر من قبل وقد كانت مساهمة عدد « السياسة الدولية » في هذا المجال مساهمة حاولت تقديم هذا الموضوع في محتواه القانوني الدولي فوجد القارىء فيه مادة لم يجدها في الصحافة الدارجة .

احتوى باب « الاعلام والحرب النفسية » على عدة اطروحات ذات قيمة بعيدة المدى ولكنه افتقد الى دراسة حول طريقة استعراض الحرب في الصحافة واجهزة الاعلام الاسرائيلية . وقدم رجاء البنا تقييما وافيا «لنجاح الاعلام العربي داخليا وقصوره خارجيا » اثناء الحرب ولكن الاسباب التي قدمها لفشل الاعلام في الخارج كانت اسبابا غير كافية لتبرير هذا الفشل وغير مستمدة من أي دراسة ميدانية موضوعية لهذا الاعلام .

وفي باب « الجبهة الداخلية الاسرائيلية » استعرض عدد من الباحثين بعض نواحي الضعف والقوة في المجتمع الاسرائيلي ولكن هذه المعلومات لم تكن كافية لاشباع القارىء المتخصص وكان هذه المعلومات لم تكن كافية لاشباع القارىء المتخصص وكان يمكن في هذا البحث الاستعانة بمصادر الترجمات الاسبوعية والشهرية للصحافة والاذاعة الاسرائيلية التي تنشرها مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الابحاث الفلسطيني في بيروت .

وفي باب « التحرك الدولي » قدم العدد عرضا وافيا لردود الفعل الدولية اثناء وبعد الحرب وقد ضم الباب بعض المواضيع الجديدة التي لم يسبق للباحثين العرب التطرق اليها باسهاب مثل « السياسة الصينية تجاه النزاع » وربما يكون أفضل مثال على هذه المواضيع البحث الذي كتبه الدكتور بطرس غالي تحت باب « الوضع بعد اتفاق السلام » واختار له عنوان «رؤية استطلاعية لما بعد اتفاق السلام » . ان هذه الرؤيا تعتبر محاولة جريئة لاستقصاء معالم النزاع العربي الاسرائيلي بعد احلال السلام الدولي بكل شروطه ومتطلباته وقد اثبتت هذه المحاولة بأن العقل العربي بدأ يستطيع عبور حواجز زمنية ونفسية كان من الصعب عليه عبورها وهو رازح تحت وطأة الانتكاسات القومية والاقليمية خلال نصف القرن الماضي من صراعه مع الصهيونية .

بعد هذا التقييم العام لا بد من التساؤل ما هو مضمون العدد سياسيا وفنيا : ـــ

سياسيا : اجمعت الابحاث بأن حرب اكتوبر ١٩٧٣ قد أجرت تغييرات جذرية على المعادلات الدولية والاقليمية التي ظلت قائمة في المنطقة منذ عام ١٩٤٨ وان هذه الحرب كانت نقطة تحـول في نوع وحجم التعامل السياسي والاقتصادي بين العالم العربي وباقي العـالم بتكتلاته وتحالفاته المختلفة وان هذا التحول يسير في اتجاه ايجابي بالنسبة للمجموعة العربية وكذلك بالنسبة لعلاقة العالم الثالث بالدول الصناعية .

وفنيا : احتوى العدد على عدد كبير نسـبيا من الاخطاء المطبعية ، اما قسم الوثائق فلم يحتو مثلا على وثيقة قرارات مؤتمر القمة العـربي (٢٨ نوفمبر ١٩٧٣) ولا وثيقة قرارات مؤتمـر وزراء النفط العرب (١٨ اكتوبر ١٩٧٣) وان كانت بعض الابحاث قد اشارت الى هذه القرارات. وبجانب الحجم النسبي الضئيل الذي خصصه البحث للمقاومة الفلسطينية ووضع السكان العرب تحت الاحتلال فان العدد افتقد ايضا الى بـاب خاص بالصحافة واجهزة الاعلام الاسرائيلية ومع الاعتراف بالصعوبات الخاصة بامكانية ملاحقة هذه الاجهزة سواء داخل اسرائيل او خارجها الا انه كان يجدر بمجلة متخصصة تصدر عن أكبر دار نشر في العالم العربي ان تعير هذا الموضوع أهمية أكثر خاصة في مجال التحليل . أما الوثـائق العسكرية التي احتواها العدد قد قدمت عرضا وافيا للبيانات العسكرية عن سير المعارك عـلى الجبهة المصرية والجبهة السورية ولم يحتو على البيانات الخاصة بعمليات المقاومة الفلسطينية . وكذلك قسم المجلات الدولية اعتمد اعتمادا كليا على « الموند دبلوماتيك » ولم يحتو على أي مقالات تمثل آراء باحثين من دول غير فرنسا او امريكا كما انه أهمل اهمالا كليا صحافة الكتلة الاشتراكية والتي يكاد القارىء العربي لا يسمع او يقرأ عنها شـيئا .

بقي كلمة اخيرة ، العدد يجب الحكم عليه ككل كما قلنا في مطلع التقييم وهنا يجب القول بأن العدد يعتبر مرجعا رئيسيا للفكر العربي السياسي وانفعالاته مع الاحداث ونظرته قريبة وبعيدة المدى اليها فهو عدة كتب في كتاب وعدة مراجع في مرجع ومن هنا تنبع أهميته الاصيلة التي جعلته موضع هذه الدراسة .

د. عدنان العمد

N. A. Rose : **The Gentile Zionists - A Study in Anglo-Zionist Diplomacy, 1929 - 1939,**
(Frank Cass : London, 1973).

تقع الفترة التي يكتب عنها روز (وهو استاذ محاضر في العلاقات الدولية بالجامعة العبرية) مؤلف كتاب « الصهيونيون غير اليهود » مـا بين ١٩٢٩ و ١٩٣٩ ، كما ان مسرح الاحداث هو اوربا الغربية وليس الشرق الاوسط . ويذكر المؤلف في مقدمته انه سيكتفـي ببحث النشـاط السياسي للصهيونيين غير اليهود. اما تحليل جذور الصهيونية غير اليهودية وتفسير دوافعها ، فسيتركها خارج نطاق كتابه . فالكتاب اذن هو سرد للجهود التي بذلها حاييم وايزمن وغـيره من قادة الحـركة الصهيونية لدى الحكومة البريطانية طوال عشر سنوات من أجل اقناعها بالتسليم بمطالب اليهود في اقامة دولة لهم بفلسطـين ضد رغبة السكان العرب الذين قضوا جزءا كبيرا مـن هذه الفترة نفسها في انتفاضات ضد تهويد بلادهم . ولا شك ان القصة التي يرويها روز مثيرة جدا ، وان كانت بحكم الضرورة لا تتضمن الحقائق كلها . فالمراجع البريطانية المنشورة لا يمكن ان تحتوي على جميع اسرار هذا الفصل المخجل من التاريخ البريطاني، مثلما لا يمكن للمراجع الصهيونية (كارشيف وايزمن والارشيف الصهيوني المركزي) ان تشتمل على تفصيل صريح للاساليب التي لجأت اليها الحركة الصهيونية من اجل التأثير على الساسة الانكليز . فهذه الاساليب المغلفة بالسرية العظمى لا زالت ملكا للتاريخ الذي لم يسجـل ، باعتبار ان الحـركة الصهيونية ما فتئت تلجأ اليها في الضغط والاكراه

والترغيب . الا ان روز يفتح لنا النافذة بعض الشيء لننال لمحات من جهاز التأثير الصهيوني اثناء دورانه المستمر . فمع ان الاسرار التي يقدمها لنا في كتابه ليست كثيرة ، الا انها قد تصبح يوما ما الحافز للمؤرخين غير الصهيونيين ليسجلوا تاريخا أكثر صراحة وشمولا لنشاط الصهيونية غير اليهودية في العالم .

ان روز لا يريد تحليل الصهيونية غير اليهودية او تفسير دوافعها ، ومع ذلك فانه عندما ينسب الى سمطس ، احد زعماء الكومنولث البريطاني قبل الحرب العالمية الثانية قوله انه لا توجد امبراطورية في العالم بوسعها ان تظلم اليهود (« انظروا ما حل بروسيا من كوارث رهيبة بسبب ذلك ») فانه يزيح الستار قليلا عن الخوف الذي يكمن في قلوب الكثيرين من ساسة اوربا وامريكا بسبب النفوذ اليهودي القوي في دولهم . ولعل هذا الخوف هو احد العوامل الرئيسية في دفعهم للعمل من اجل المصلحة الصهيونية . فان روز يتحدث مثلا عن استعداء الصهيونيين لامريكا ضد بريطانيا، ففي بداية تشرين الاول ١٩٣٨ قرر وايزمن ان يعبىء القوى المساندة للحركة الصهيونية في الولايات المتحدة . وما ان حل منتصف ذلك الشهر حتى كانت وزارة الخارجية الامريكية قد استلمت ٦٥ الف برقية تطالبها بالتدخل والضغط على الحكومة البريطانية ، فأوعزت الى سفيرها في لندن ، جوزف كندي (والد الرئيس كندي) ان يبلغ المسؤولين الانكليز قلق حكومته من تحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين . وقبل ذلك ، كان رمزي مكدونالد رئيس وزراء بريطانيا في بداية الثلاثينات يشتكي لدى وايزمن من تصرفات اليهود الامريكان الذين اخذوا في الاضرار بمصالح بريطانيا .

ولم تقتصر مهارة جهاز التعبئة الصهيوني على تجنيد التأييد بين اليهود انفسهم ، اذ يروي روز كيف تمكنت المنظمة الصهيونية خلال ايام معدودة من جمع تواقيع عدد من ابرز الساسة البريطانيين على رسالة نشرت في التايمز اللندنية تدافع عن وجهة النظر الصهيونية وتفسرها وتبررها . وكان ظهور هذه الرسائل على صفحات الجرائد البريطانية يعتمد على التوقيت الدقيق ، ويأتي في اوقات تقف فيها الحكومة البريطانية مترددة بين الموافقة على طلبات الوكالة اليهودية ورفضها ، فكانت هذه الرسائل التي تحمل تواقيع الزعماء الكبار تفصل الموضوع وتنهي التردد لصالح الصهيونيين .

وكانت حملات الضغط الصهيوني تقوم على صعيدين : الصعيد الاول هو الدبلوماسي حيث يقوم وايزمن وبقية الزعماء الصهيونيين بالاتصال بكبار الساسة في العالم لتحقيق مطالبهم . اما الصعيد الثاني فهو « الضغط الشعبي اليهودي » الذي كان يرافق الجهود الدبلوماسية بالصيحات المتشنجة . فكان وايزمن يشير دائما الى الاصوات اليهودية الصاخبة اثناء مفاوضاته ليؤكد للطرف الاخر بأنه واقع تحت ضغط شعبي لا يرحم ، وبأنه اذا لم ينل مطالبه ، فانه سيسقط من مركزه وسيحل محله المتطرفون الذين يصعب التفاهم معهم . هذا التكتيك كان يحقق النجاح في احيان كثيرة ، لا سيما وان وايزمن كان يبرر هذا الهيجان بأنه التعبير التلقائي لاستنكار الشعب اليهودي ، وانه حتى امبراطورية عظمى كالامبراطورية البريطانية لا يمكنها ان تنكث بوعدها امام هذا الشلال المتدفق من الاستنكار . كما كان يقول : اني طالما دافعت عن اجراءات الحكومة البريطانية امام قومي وواجهت عاصفة غضبهم بسبب أمور لا يمكن لاحد ان يعتبرني مسؤولا عنها . ولما كان وايزمن قد اقنع الانكليز بأنه زعيم يهودي معتدل يمكن التفاهم معه، فان تهديده الدائم بالاستقالة كان يتيح له الحصول على تنازلات من الحكومة البريطانية في كثير من الحالات . على انه يجب الملاحظة بأن استماتة الزعماء الصهيونيين في نيل المكاسب لحركتهم تعود في قدر كبير لخوفهم من السقوط من مراكزهم في حالة الفشل . فالمنافسة بين زعماء الحركة كانت مستعرة على الدوام ، وما كان يغفر لاحد فشله في مهمة انيطت به ، مهما كان نجاحه كبيرا في السابق . حتى وايزمن نفسه ، اشهر زعيم صهيوني في عصره ، ذاق مرارة الهزيمة احدى المرات عندما أسقط من مركزه . ولذا فانه عندما استرجع مكانه بعد ذلك ، اخذ يضاعف من جهوده ليمحي اثر اخفاقه .

وقد استغل الصهيونيون علاقات القرابة بين الساسة البريطانيين لاغراضهم الخاصة . فأثناء ترؤس رمزي مكدونالد للوزارة ، تمكن وايزمن من تقوية علاقاته مع ابنه مالكولم وجعله همزة وصل بينه وبين ابيه . ويدافع روز عن استغلال علاقات القرابة ، نافيا عنها صفة المكيافيلية ومحاولا ان

يقنع القارىء بأن خدمات مكدونالد الابن للحـــركة الصهيونية كانت نابعة مـــن عطفه عليها . ومن الجدير بالذكر ان « صداقة » وايزمن مع مالكولم مكدونالد شهدت نهاية عنيفة بعد ذلك بسنوات . فان مالكولم الذي اصبح وزيرا بدوره فوجىء بأن طلبات الصهيونيين لا تنتهي وبأنها في الواقـــع مضادة للمصلحة البريطانية . ثم اخيرا وقع اللقاء المهين بينه وبـــين وايزمن . ولنستمع الى رواية وايزمن لهذا الحادث : في نهاية لقاء تم بين وايزمن ورئيس الوزراء شمبرلين ومالكولم مكدونالد ، دعا الاخير وايزمن الى العشاء في بيته ، فأجابه الزعيم الصهيوني بأنه لم يأت الى لندن من اجل ان يحضر حفلات العشاء ! الا ان مالكولم يصر ، فيوافق وايزمن بعد تمنع . وفي حفلة العشاء يتكهرب الجو بين الرجلين ، فيقول مالكولم : اني اعرف بأن اليهود اصبحوا يصفونني بالجبن والنفاق . فيجيبه وايزمن : انني لم اطلق عليك صفة الجبن ابدا (الا انه لم ينف صفـــة النفاق عنه) . وتنتهي « الصداقة » بين الرجلين .

ان القارىء لا يمكن الا ان يستغرب مدى التخاذل الذي يصل اليه وزير بريطاني في عهد بلغت فيه الامبراطورية البريطانية اوجها ، وذلك امام رجل لا يمثل دولة ولا يمتلك حقـــا في المطالبة بشيء . صحيح ان رواية وايزمـــن قد تكون كاذبة مـــن أساسها ، الا اني ارجح صحتهـــا باعتبار ان مالكولم مكدونالد وغيره من الساسة البريطانيين ذوي الميول الصهيونيـــة كانوا مدينين للمنظمـــة الصهيونية بأشياء كثيرة لا يمكن لمؤرخ صهيوني مثل روز ان يحددها . كانت « عينهم قد انكسرت » اذا جاز لنا ان نستعمل هذا التعبـــير العامي ولذا استحقوا احتقار الصهيونيين ، واستحقوا رمـــي الصهيونيين لهم في سلة القمامة مثل حبة ليمون استخرج منها عصيرها . ولم يكن مالكولم هـــو السياسي الوحيـــد الذي استنفد اغراضه لـــدى اليهود . فان ولتر اليوت الذي ذكر روز انه كان يغذي وايزمن بالمعلومات السرية التي يحصل عليها من اجتماعات مجلس الوزراء ، اليوت هذا فقد هو الاخر مكانته لدى الصهيونيين بعد ان افتضح أمره بين المسؤولين الانكليـــز الذين اخـــذوا في حجب المعلومات عنه . فكتبت المسز دغديل ، الموالية للصهيونيين ، رسالة الى شيرتوك قالت فيها : ان اليوت يعتبر فائدته لنا قد انتهت . فلن يستشيره احد بعد الان ولن يكون بعد اليوم جزءا من الحلقة الداخلية التي تسوي الامور .

وكان الصهيونيون غير اليهود قد اصبحوا محط سخرية الصحف البريطانية لتكالبهم على خدمـــة الحركة الصهيونية ، فنشرت الرسوم الكاريكاتورية التي يظهر فيها اورمز بي غور ، وزير المستعمرات ، في جيب وايزمن . ومع ذلك ، لم تثبط هذه السمعة السيئة من مدى تذللهم ، اذ يكتب روز انهم كانوا في كثير من الاحيان يستبقون الحركة الصهيونية في مطالبها ويتنوقون عليها في التطرف . الا ان احد الساسة البريطانيين لم يغرب عن ذهنه مقدار البلف في التكتيك الصهيوني فقال : ان اليهود لا يقبلون منك « لا » عندما تقولها للمرة الاولى . ولكنهم عندما يأتون اليك في المرة الثانية وتقول لهم : لا ، اللعنة عليكم ، عند ذلك يقبلون ذلك منك .

ان دراسة روز تستحق الاهتمام حتى ولو لم تكن تاريخا كاملا لنشاط الصهيونيين غير اليهود فـــي بريطانيا ، كما انها تزود الباحث ببعض المعلومات عن اتصالات وايزمن بعدد من زعماء اوربا والشرق الاوسط ، وبينهم ليون بلوم ، رئيس وزراء فرنسا اليهودي ، وكمال اتاتورك وبنيتو موسوليني . ولن يستغرب القارىء كثـــيرا عندما يقرأ في هذا الكتاب بأن شاغل الصهيونيين منذ الثلاثينات كان تأسيس دولة يهودية تقع ضمن حدود آمنة يمكن الدفاع عنها ، او ان احد الساسة البريطانيين الموالين للصهيونية تنبأ بأن الدولة اليهودية التي ستقام في فلسطين ستلعب نفس الدور الذي لعبته منطقة الستر في شمال ارلنده ، وهي المنطقة التي ملأها البريطانيون بالمهاجرين من بلادهم ليحتفظوا بموقع قدم في ارلنده المكافحة من أجل حريتهـــا واستقلالها .

الا ان هذه كلها هي معلومات هامشية ولا بد ان يأتي اليوم الذي يرى النور فيه كتاب يحتوي على تاريخ شامل صريح لنشاط الصهيونية غـــير اليهودية في العالم ، وهذا الكتاب لا يمكن ان يؤلفه صهيوني مثل روز .

ف. المنصور

H. Abdel Hadi, M. El-Labadi, N. Paech, B. Sommer, H. Weingartz,
BRD, Israel und die Palästinenser: Eine Fallstudie zur Ausländerpolitik.
(Pahl - Rugenstein Verlag, Köln 1973).

بعد حوادث ميونخ ، عندما احتلت جماعة من منظمة أيلول الاسود جناح الفريق الاسرائيلي في مدينة الالعاب الاولمبية ، وقتلت ١٥ شخصا ، بدأ اضطهاد الفلسطينيين في جمهورية المانيا الاتحادية. ففي اكتوبر ١٩٧٢ كان ما لا يقل عن ٢٥٠ طالبا وعاملا فلسطينيا قد طردوا من البلاد ، كما ألغيت شرعية اتحاد طلبة فلسطين واتحاد عمال فلسطين. وادعت حكومة المانيا الاتحادية ان اضطهاد الفلسطينيين انما هو جزء من محاربة الارهاب الدولي ، وكان هذا الادعاء مصحوبا بحملة دعائية ضد العرب .

وقصة طرد الطلبة والعمال الفلسطينيين من ألمانيا ، والغاء شرعية اتحاد طلبة فلسطين واتحاد عمال فلسطين هو موضوع هذا الكتاب الذي الف بعد سنة واحدة من حوادث ميونخ ، وعنوانه « جمهورية المانيا الاتحادية واسرائيل والفلسطينيون دراسة في معاملة الاجانب » . والكتاب لا يناقش هذه الاحداث ، ولا يعطينا دراسة مصحوبة بالوثائق عن قرارات اضطهاد العرب والفلسطينيين ، ولو ان بعضها موجود في فهرست الكتاب . انه عبارة عن محاولة تحليلية لاضطهاد الطلبة والعمال الفلسطينيين واعلان عدم شرعية اتحاد طلبة واتحاد عمال فلسطين في المانيا الاتحادية كتبرير لسياسة هذه الدولة في معاملتها للاجانب بشكل عام . وبالرغم من اعتراف المؤلفين بأن اضطهاد الفلسطينيين في المانيا هو حالة شاذة، الا أنهم يدعون بأن تطبيق هذه السياسة المتشددة في معاملة الفلسطينيين باعتبارهم أجانب في البلاد ، يوضح مصلحة بلادهم وسياستها في معاملة الاجانب بوجه عام وفي قراراتها بطردهم من البلاد في الحالات الاعتيادية .

ويؤكد مؤلفو الكتاب ان حوادث ميونخ لم تكن — كما تدعي حكومة المانيا الاتحادية — السبب الرئيسي في طرد الطلاب والعمال الفلسطينيين واعلان عدم شرعية منظماتهم ، ولكن السبب في هذا كله هو ان هذه الحوادث جعلت تطبيق هذه القوانين السياسية في معاملة الاجانب ، والتي كان من المنطقي تطبيقها من قبل ، جعلته سهلا ومقبولا في نفس الوقت .

وطبقا للتشريعات الالمانية الاتحادية بخصوص الاجانب ، فان الاجنبي شرعيا لا يحق له البقاء في المانيا الاتحادية حتى اذا كان يعيش فيها لمدة طويلة . ومسموح لهذا الاجنبي ان يبقى فيها لفترة محدودة من الوقت . ويمكن طرده في أي وقت اذا كان وجوده فيها يتعارض — كما في القانون — مع مصالح الدولة .

يبحث الفصلان الاول والثاني في هذه المصالح حيث يكشفانها على طبيعتها الرأسمالية والاستعمارية . فالفصل الاول يناقش العلاقات الخاصة التي تربط بين اسرائيل وجمهورية المانيا الاتحادية كعامل حاسم في موقف حكومة المانيا والرأي العام الالماني العدائي للفلسطينيين .

ومن الواضح الجلي في هذا الكتاب ان هناك تعاونا تقليديا بين الحركة الصهيونية والاستعمار الالماني والذي بدأ في أوائل سنة ١٨٩٨ حين اجتمع هرتزل بأمبراطور المانيا في ذلك الوقت طالبا تأييد ومساندة الامبراطورية الالمانية للاستيطان الصهيوني في فلسطين . ولقد تعاون الصهيونيون مع هتلر وسياسته المعادية للسامية ، فلقد حبب هتلر فكرة نزوح اليهود الى فلسطين حتى أنه سمح لهم بنقل أجزاء من رأسمالهم الى فلسطين بواسطة منظمة بلطرو الصهيونية . ولقد استمر هذا التعاون الصهيوني النازي بعد سقوط هتلر على شكل دفع تعويضات لليهود ولدولة اسرائيل ، وبالاضافة الى ما يسمى تعويضات جرائم الحرب التي لا تزال تدفع للدولة الاسرائيلية هناك مساعدات عينية تقدمها دولة المانيا الاتحادية الى اسرائيل . من هذه المساعدات ما هو عسكري ومنها ما هو على شكل معونات اقتصادية او تعاون في المجال العلمي او الفني ، ومنها ما هو على شكل استثمارات لرؤوس الاموال أو أفضلية في التجارة الخارجية . ولهذا فاعلان عدم شرعية اتحاد طلبة فلسطين

واتحاد عمال فلسطين في المانيا الاتحادية ما هو الا شكل آخر من أشكال التعاون بين اسرائيل والمانيا الاتحادية . انه طمس الدعاية المضادة للصهيونية التي حمل لواءها اتحاد طلاب فلسطين في المانيا . وفي الحقيقة فان هذه التفرقة العنصرية والاضطهاد ضد الفلسطينيين وضد أولئك الذين يؤيدون قضيتهم كان موجودا في المانيا الاتحادية قبل وقوع حوادث ميونخ بوقت طويل . ففي بداية عام ١٩٦٩ وحين تظاهر عدد من الطلاب الفلسطينيين وأصدقائهم الالمان ضد المحاضرات التي كان يلقيها سفير اسرائيل آشر بن ناثان في جامعات همبورغ وفرانكفورت ونجحوا في تحويل هذه المحاضرات لمناقشة الثورة الفلسطينية طلعت صحف المانيا الغربية بعناوين تنادي بابعاد وطرد المخربين الفلسطينيين وعناوين تتهم أصدقاءهم الالمان بأنهم دعاة لحركة ضد السامية .

ويناقش الفصل الثاني ابعاد الطلبة الفلسطينيين واعلان لا شرعية اتحاد الطلبة واتحاد العمال الفلسطينيين كمثل تؤديه تشريعات المانيا الغربية في كونها عوامل سياسية واجتماعية في معاملة الاجانب وطردهم . وبالرغم ان هذه التشريعات سنت لتطبيقها على جميع الاجانب في المانيا الاتحادية الا أنها لم تطبق الا على أولئك الفقراء اي الثلاثة ملايين أجنبي من عامل وطالب فرضت عليهم ظروفهم المحلية ان يذهبوا الى طلب العلم في الخارج .

ويشارك جزء لا يستهان به من هؤلاء الطلاب والعمال الاجانب في الصراع الطبقي وبالحركة المضادة للاستعمار في المانيا الاتحادية . ولقد أصبح من الواضح أن هذه التشريعات التي سنت لمعاملة الاجانب استعملها المسؤولون الالمان لقتل ودفن هذه النشاطات . وفي نفس الوقت فان اضطهاد القوى التقدمية واليسار الالماني يزداد يوما بعد يوم . ومن هنا فاضطهاد الطلاب والعمال الاجانب بمن فيهم الفلسطينيون ، واضطهاد القوى التقدمية الالمانية يهدف الى حماية المصالح الاستعمارية والرأسمالية لالمانيا الاتحادية في البلاد .

ويبحث الفصل الثالث في وجهة نظر صحف المانيا الغربية وتعليقها على حوادث ميونخ والاضطهاد الذي تبعه . ويرينا الكتاب ان الصحف الالمانية قد ساندت وبقوة عقائدية السلطات الحكومية الالمانية . ويؤكد المؤلف ان الصحف اللبرالية فشلت فشلا ذريعا في انتقادها للتفرقة والمقاييس غير الشرعية ضد الفلسطينيين مبيناكيف ان هذه الصحف دائمة الانهماك في ما يمس مصالح اسرائيل .

ويتابع المؤلف مناقشته في الفصل التالي التقرير الذي قدمه رئيس اتحاد طلبة فلسطين في المانيا الاتحادية عن أهداف ونشاطات اتحاد الطلبة والعمال الفلسطينيين هناك . فهذه الاهداف والنشاطات ترمي من ناحية الى تنبيه الشعور العام نحو الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومن ناحية أخرى تنظيم الطلاب والعمال الفلسطينيين وتوعيتهم حتى يبقوا على اتصال مستمر مع كفاح شعبهم ومساعدتهم لحل جميع المشاكل التي يلاقونها في بلد كالمانيا الاتحادية . وفي الفصل الاخير يحاول المؤلفون تقييم ردة الفعل في صفوف حركة التقدميين والناهضين للاستعمار من خلال مواقفهم من الاضطهادات وعمليات الابعاد ، فقد كان واضحا ان اتحاد طلبة وعمال فلسطين ومن خلال نشاطاتهم قد استقطبوا حولهم العديد من الاصدقاء الالمان التقدميين ، هؤلاء الاصدقاء الذين احتجوا بشدة ضد اضطهاد وابعاد الفلسطينيين وعبروا عن مساندتهم ووقوفهم مع الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة . وعلى ما يبدو فلقد فشلت سلطات المانيا الاتحادية في تدمير هذه المساندة للشعب الفلسطيني بل على العكس فان صداقة القوى التقدمية في المانيا للفلسطينيين قد ازدادت عن ذي قبل .

وجدير بالذكر ان مؤلفي الكتاب، وهم فلسطينيان وثلاثة ألمان ، قد عملوا لفترة طويلة في مساندة الشعب الفلسطيني في المانيا الاتحادية . وناشر الكتاب هو عضو من اعضاء القوى التقدمية ، وقد فشلت محاولة نشر الكتاب على نطاق واسع ولذلك فان هذا الكتاب لن يصل الا الى هذه القوى التقدمية في جمهورية المانيا الاتحادية .

مراجعة اخرى لكتاب اميل توما ، **جذور القضية الفلسطينية**
(مركز الابحاث في م.ت.ف.، بيروت ١٩٧٣).

هل كتابة التاريخ الفلسطيني ترف اكاديمي ، كما أصر احد الاصدقاء على القول ؟ هل الاهتمام بالماضي ، أقصد بحركة الشعب التاريخية ، هو لا اهتمام في اولويات النضال على الجبهة الثقافية ، بل السياسية ؟

شخصيا، أعتبر كتابة التاريخ، وعلى الخصوص تاريخ فلسطين ، مهمة نضالية راهنة ، بل وأشد مباشرة من كثير من القضايا الاخرى . ويجب ان اؤكد — بادىء الامر — ان المساهمة في مناقشة القضايا اليومية لحركة التحرر العربية ، والفلسطينية بخاصة ، مهمة يجب أن نضعها جميعا نصب عيوننا . ولكن من قال ان كتابة التاريخ ليست مساهمة مباشرة في القضايا الراهنة ؟ وليس شعب فلسطين ، بالرغم من مختلف الخصائص التي تميزه وتحدد هويته المتفردة ، بخارج عن المقولات العامة التي تحكم حركة الشعوب وتطورها . ان عملية اعادة كتابة التاريخ الفلسطيني تمس بشكل وثيق القضايا المعاصرة الملحة ، فمن خلال تحديد الدروس المستفادة للخبرة الشعبية الفلسطينية عبر مسيرة نضاله الطويلة ، بالاضافة الى الاسترشاد بخبرات الشعوب وبالاستفادة من الارث الثوري الانساني ، تستطيع حركتنا المعاصرة ان تجتاز مراحلها المتتابعة بنجاح كبير .

التأريخ (كتابة التاريخ) الموضوعي هو التأريخ السوسيولوجي : الكشف عن المكونات البنيوية للاحداث التاريخية ، المكونات الفعلية لحركة الواقع الاجتماعي ، وتفاعلات هذا الواقع في الزمان والمكان ، الحدث السياسي لا يمثل نفسه من ثمة ، انه يمثل حركة شعب ما في منطقة ما ، في مرحلة ما ، في عصر ما . بلغة اخرى ، التأريخ ليس سردا قصصيا للاحداث ، انه **اعادة تشكيل للواقع الاجتماعي** في جملة تفاعلاته وتعقيداته ، التاريخ بالتالي لا يصنعه شخص سياسي فحسب، يصنعه شعب ضمن ظرف محدد ومرحلة محددة . وبالنسبة لشعب فلسطين، جرت احداثه التاريخية ضمن مرحلة صعود الامبريالية عالميا : سيطرتها المباشرة على ثلاثة ارباع المعمورة ، واعادة تكوينها الفعلية للبناء الاجتماعي لكل المجتمعات التي سميت اخيرا بلدان العالم الثالث ، ورسمها حتى لمسار التطور لهذه البلدان ومن هنا ، فلقد كانت المهمة النضالية اكبر من الحجم الحقيقي للقوى الذاتية لشعب فلسطين ، هذه القوى المحدودة لشعب مستعمر ، متخلف ، يواجه اضطهادا مثلثا (ان صح التعبير) وليس مضاعفا فحسب (الامبريالية البريطانية ، والصهيونية ، ثم التخلف الاجتماعي نفسه) .

قد يقول بعضهم ، ما لكم وهذا التركيز على التاريخ ؟ ان مئات الكتب والدراسات التي نشرت وتنشر باستمرار لم تترك مجالا لمستزيد . ومع ان هذا القول يبدو موضوعيا للوهة الاولى ، بيد أنه في الحقيقة لا ينطوي الا على الصورة فحسب . ان عشرات الكتب الهامة عن القضية الفلسطينية قد جعلت مجال البحث أرحب وأقل خطأ ونقصا . ولكن الا يعتقد القارىء معي ، ويشعر ، ان التاريخ الفلسطيني بحاجة لكشف مستمر ، اذ كلما كشفنا عن جانب غامض من هذا التاريخ ، اكتشفنا بآن واحد نقصا كبيرا في هذا التاريخ نفسه . ثم من قال ان التاريخ الفلسطيني قد تمت كتابته حتى هذه اللحظة ؟ ان المحاولات والكتابات ، التي يثير بعضها الاعجاب لدرجة كبيرة ، ستكون جملة محاولات وكشوف كمية ستضاف الى بعضها ، وسترشد وستسهل العمل القادم ، التالي ، عن التاريخ الفلسطيني : العمل الذي ينبغي ان يضطلع بأدائه حلقة بحث ومجموعة من الدارسين ، لان الكتابة الموضوعية للتاريخ تستلزم العودة الى المكونات والمسببات : الاصول الاقتصادية — الاجتماعية للاحداث ، وعلاقاتها الجدلية المتشابكة عبر تطور هذه الاحداث نفسها ، وكذلك عبر تفاعلها بالدول المحيطة ، وبالمنطقة ، وبالعالم . بالاضافة الى التسلح بنظرية ترشده تهديه سواء السبيل . ومن هذا المنظور ، مسألة التأريخ هي **مسألة المنهج** المستخدم . اننا لا نستطيع ان نزعم ان كل كتاب تناول الحوادث الماضية بالسرد وبالتحليل غدا كتابا تاريخيا . البحث التاريخي ، الذي يستحق بنظرنا هذه التسمية ، هو البحث الذي يكشف الاسباب

العميقة للاحداث التاريخية ، من خلال موقعهما في حركة التطور التاريخي ، ودورها في هذه الحركة . ومع انني انجزت كتابا حول التاريخ الفلسطيني الحديث ، معتمدا على امكانياتي ووسائلي العلمية المتواضعة والمحدودة ، فانني اعتقد ، ان كتابة التاريخ ، أتصد التاريخ الموضوعي ، ليست عملية فردية ، انها مهمة جماعية يشرف على انجازها « عقل جماعي » — ان صح القول — وقد كنت اقترحت في مقال سابق ان يتولى مركز الابحاث هذه المهمة .

تعود الجذور الحقيقية لـ «العقدة الفلسطينية» الى الحملة النابوليونية التي تمثل بالنسبة لتاريخ الصراع في الوطن العربي « نقطة تحول في سياسة الكولونيالية البريطانية ، فقد بدأت بعدها سلسلة « اتفاقاتها » مع امراء ومشايخ ولايات سواحل شبه الجزيرة العربية » حتى دفعت محاولة محمد علي وولده ابراهيم في اقامة الدولة العربية الكبيرة في مصر وسوريا الطبيعية ، والتهديد الذي مثلته هذه المحاولة للاطماع الامبريالية ، بالاضافة الى حفر قناة السويس فيما بعد ، دفعت الكولونيالية البريطانية على ان تلتقي بالصهيونية « من قبل ان تولد الحركة الصهيونية بحوالي نصف قرن ، فمنذ عام ١٨٤٠ اقترح بالمرستون ، وزير خارجية بريطانية ، الهجرة الى فلسطين « حتى تصون انجلترة سوريا لنفسها » . وقد لعبت التجارة دورا بالغ الاهمية في موقف بريطانيا من يهود الشرق : كتب جورج بردنغ « ان التجار اليهود الاجانب في دمشق هم الفئة الاغنى بين التجار » ، وأضاف ، ان اكثر البيوتات التجارية تتاجر مع بريطانية . ص ١٢ .

(ملاحظة ، يغفل المؤلف الدور الكبير الذي لعبه الصراع الانجليزي — الفرنسي في لعب ورقة الصهيونية في الشرق العربي) .

في الفصل الثاني « ملاحظة على مرحلة ما قبل الصهيونية » يؤكد الدكتور توما مجددا تلك المقولة الماركسية القائلة ان اليهود لم يكونوا « طبقة واحدة بل طبقات ، مثلها في ذلك مثل سائر المجتمعات ، الا أنها كانت تقوم عادة حول نواة تجارية — مالية وتؤلف طائفة انعزالية بسبب نظام الفيتوات » ، ص ٢٦ ، ولم يكن الاضطهاد في العصور الوسطى مقتصرا على اليهود فحسب ، فلقد نفذ الاقطاعيون في ذلك الوقت « مذابح دينية ذهب ضحيتها أبناء الاقليات النصرانية في اوروبا (البروتستانت في فرنسا والكاثوليك في بريطانيا) » ص ٢٨ . وقد حطم انتصار الثورة البورجوازية في اوروبا جدران الفيتوات ، وفتح الطريق امام الاندماج والانعتاق اليهودي : الاندماج الاقتصادي الاجتماعي والثقافي ، « ونتيجة التطور غير المتعادل بين اقطار اوروبية كان من الطبيعي ان تتفاوت عملية انعتاق اليهود واندماجهم » ص٣٦ . وتجدر الاشارة الى ان اللاسامية ايديولوجية معاصرة تختلف عن معاداة اليهود في القرون الوسطى (نشأت ، كما يقول المؤرخون في سبعينات القرن التاسع عشر) « وشاعت بين الفئات المتوسطة التي كانت قلقة بحكم عدم استقرار اوضاعها الاجتماعية » ص ٣٨ . وليس من الصدفة ان تنشأ الحركة الصهيونية في حقبة تحول الرأسمالية الى امبريالية . فلقد رافق ظهور الامبريالية والبحث عن مناطق النفوذ ظهور اللاسامية . وبذلك التقى الصهيونيون واللاساميون على ارضية واحدة ومثّلا وجها العملة : معاداة اندماج اليهود وانعتاقهم والبحث عن وطن لهم خارج القارة .

ويعود اختيار المنظمة الصهيونية فلسطين الى عاملين : اولا ، نشوء ظروف تساوقت فيها مصالح الامبريالية البريطانية والصهيونية ، وثانيا ، اكتشاف الصهيونيين انه من الاسهل استنفار جماهير الطوائف اليهودية لبناء وطن قومي في فلسطين بسبب اقترانها بالدين اليهودي . وبذلك لم تجد الصهيونية قاسما مشتركا لها مع الاشتراكية العلمية ، بل كان اصطدامها مباشرا بها على طول الخط ، وسعت الى جذب اليهود من الحركات الثورية وتخريبها .

وردا على المزاعم الصهيونية ، يبين المؤلف ان الاحتكاك الاول مع العرب الفلسطينيين كان عدائيا : شراء الاراضي من الاقطاعيين العرب سبب تصادمات بين الفلاحين العرب الذين كانوا يستغلونها وبين المهاجرين الجدد ، وقد كانت المعارك عنيفة . أكد أهرون كوهين ان المستعمرات الصهيونية الاولى اقيمت بعد اجلاء الفلاحين العرب عنوة . لقد استهدف العنف الصهيوني اجبار المواطن العربي على الاستسلام ، من حيث ان الصهيونية مثلت صورة للمجتمع العربي بأسره ،

وبهذا لم يكن الاستيطان الاستعماري الصهيوني معاديا للاقطاعيين العرب ، كما يدعي زعماء الصهاينة زورا وبهتانا ، بل للفلاحين والعمال العرب ، ولكل افراد الشعب العربي .

ومن المؤكد ان بريطانيا حين أصدرت الوعد أخذت في عين الاعتبار ممكنات **استخدام الصهيونية** في مواجهة حركة التحرر القومي العربية التي كانت قد بدأت تتبلور بوضوح وتتحول الى حركة ذات جذور في سورية الطبيعية والعراق وغيرها . ويؤكد ذلك ابراهام ليون ساخر بقوله ان المناداة بفيصل ملكا على سورية عام ١٩٢٠ جعلت وعد بلفور حقيقة (من حيث ان النهوض الكبير في حركة التحرر القومي العربية دفع بالامبريالية الى السعي للجم هذا النهوض وايقافه ثم انهائه) . ويجب ان نضيف الى هذا الاعتبار السابق ، اعتبارا اخر دفع بريطانيا الى اصدار الوعد ، يستهدف ، كما قال كريستوفر سايكس ، ابعاد اليهود الروس عن الحركة الثورية والحزب البولشفي الروسي . ولا جدال في ان الوعد البلفوري الشهير قد استهدف تحقيق امرين استراتيجيين اثنين :

الاول ، وضع الحركة الصهيونية في وجه حركة التحرر القومي العربية .

والثاني ، مقاومة الحركات الثورية والنظام الثوري في روسيا بخاصة ، واوروبا بشكل عام .

ولقد ادرك الاحرار العرب هذه الاغراض ، وقاوموا الصهيونية منذ أوائل عهدها بالمنطقة ، ويبرز المؤلف في هذا الصدد حقيقة هامة حين يؤكد ان بعض المؤرخين يقعون في خطأ ، معرض احيانا، حين يقولون ان بدء الكفاح العربي هو اصطدامات العرب واليهود في نيسان ١٩٢٠ . ففي « الحقيقة ان بداية المعركة كانت في رفض الحركة القومية العربية الموحدة في سورية الطبيعية الاحتلال ووعد بلفور ومطامع الصهيونية » ص ١١٠ ، وذلك منذ السنوات الاولى للقرن العشرين ، بيد أن الاحتلال البريطاني للعراق وفلسطين ، وسقوط حكومة فيصل في دمشق ، حسم الموقف ، وجزأ النضال العربي بشكل عام .

امتازت العشرينات بالميزات التالية : ١ — تقسيم فلسطين (سورية الجنوبية) الى شرق الاردن وفلسطين . ولقد قرر استثناء شرقي الاردن من فلسطين درجة مقاومة العرب ، على عكس ما يزعمه الصهيونيون . ٢ — نمو السكان . ٣ — الهجرة . ٤ — تأسيس الهستدروت وتشكيل الحاميات العمالية الصهيونية . ٥ — الاستيطان الزراعي . ٦ — تأسيس الهاجناه . ٧ — التصنيع .

ولذلك كان اصطدام الصهيونية مع الشعب العربي محتوما . لكن يجب ان ندرك ان رجحان كفة الصهيونية في الصراع ، بالاضافة الى الفروق الجوهرية بين الحركة القومية العربية المنضاضة تنظيميا وايديولوجيا ، والحركة الصهيونية المنظمة تنظيما عاليا ، يعود سببه كذلك الى ظروف تأييد الامبريالية البريطانية والحركة الصهيونية عالميا . وقد لعبت السلطات البريطانية دورا هاما في توطيد مواقع الاقطاعيين على رأس الحركة القومية العربية : عينت بريطانيا الحاج أمين الحسيني مفتيا على القدس ورئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى في العام ١٩٢٢ .

وفي معرض تفسيره لاتجاهات الحركة الوطنية الفلسطينية وتناقضاتها وانقسامها بين مجلسية (أكثرية) ومعارضة (أقلية) ، يؤكد الدكتور توما ان السبب العميق يرجع الى انه طالما كان الفلاحون هم قوى الثورة في المستعمرات ، وكان التجار اميل للمهادنة « أمكننا فهم الظروف التي جعلت المجلسيين ، لاتصالهم بالفلاحين ، يظهرون اكثر عداء للامبريالية البريطانية . ودفعت المعارضين الى مهادنة الامبريالية البريطانية » ص ١٥٠ . ولذلك ، فان البورجوازية الصناعية ، التي كانت جنينية عند بداية الانتداب ، وتطورت ببطء هائل تحت المظلة البريطانية ولم تتمكن من الوصول الى مراكز القيادة في الحركة القومية العربية ، او على الاصح ، لم تصل الى مراكز **الحسم** في القيادة . ومنذ اواخر العشرينات ، تفاقمت التناقضات ، وبلغت الحركة الوطنية العربية شأوا عاليا في مقاومتها ، فقد زادت الصهيونية عدد الفلاحين العرب المعدمين : بلغوا سنة ١٩٣٠ ٢٩٫٤ بالمئة من مجموع الفلاحين حسب التقارير البريطانية ، وقد زاد من شعور النقمة ، شعور البورجوازية العربية الناشئة بالخطر على مصالحها من جراء النشاط المتزايد الذي تقوم به البورجوازية اليهودية المدعمة من قبل مؤسسات احتكارية وحكومية، ومن قبل استيراد رؤوس اموال من الخارج. وفي معرض تقييمه لهبة البراق (١٩٢٩) يبين الدكتور توما ان

الصراع ، ليس صراعا طائفيا كما يزعم مؤرخو الصهيونية ، بل هو صراع « ناجم عن التناقض بين الوطن القومي اليهودي ومطالب الحركة العربية القومية بالاستقلال » ص ١٧٦ . كما يفند بشكل صحيح الزعم الصهيوني المضلل للرأي العام الاوروبي والقائل ان الصهيونية قامت بعملية اصلاح زراعي في فلسطين عن طريق ضرب الاقطاع وتناقضاتها معه ، فالواقع ان « الاقطاعية كانت حليفة الصهيونية لانها توافقت مصالحها مع مصالح الصهيونيين . فالاقطاعيون ارادوا بيع اراضيهم والتخلص من المزارعين وحقوتهم المعروفة ، والصهيونيون اشتروا هذه الاراضي وشردوا الفلاحين » ص ١٨١ — ١٨٢ .

منذ الثلاثينات ، بدأ المناخ السياسي في فلسطين يتغير نتيجة عوامل موضوعية وذاتية . وهذه العوامل الموضوعية هي :

١ — النمو البطيء للبورجوازية العربية .

٢ — استمرار اجلاء الفلاحين .

٣ — نمو الطبقة العاملة العربية (سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر العمال العرب) . وقد ساعدت هذه العوامل الموضوعية على تنمية العوامل الذاتية التالية : ١ — تحركت قوى وطنية جديدة (مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني الاول ٤ كانون الثاني ١٩٣٢ ، تشكيل حزب الاستقلال « الذي نجح فكريا بدون ان يحقق انجازات تنظيمية » ص ١٩٨ . ٢ — ساعدتها على الرؤية الصحيحة . ٣ — وبدأت هذه القوى تنتظم واضفت الطابع الديني للحركة .

وبذلك أخذ التمايز يتشكل في الحركة القومية العربية ، فالعناصر الاقطاعية أخذت تميل الى زيادة التعاون مع الامبريالية البريطانية، والعناصر القومية الاخرى التي اخذت تميل الى مجابهة الامبريالية البريطانية وطرحت برنامج الاستقلال .

ولقد تجلت فكرة الوحدة العربية في اشتراك وفود واشخاص من الاقطار المجاورة في النضال الوطني الفلسطيني ، وكذلك حين تأسست سائر الاحزاب تدعو في برامجها الى وحدة فلسطين بالاقطار المجاورة : الحزب العربي الفلسطيني ، حزب الاصلاح ، حزب الكتلة الوطنية . ولقد وجدت بريطانيا ، بعد هذا النهوض في الحركة الوطنية ، ان تشديد الاحتراب بين العرب والصهيونية هو أفضل سبيل لاحكام قبضتها وسيطرتها ، لذلك كان عليها ان تساعد على تهيئة الظروف لتنفيذ البرنامج الصهيوني « بحيث يكون التوازن ممكنا بين الطرفين » ص ٢١٤ . بتقديري، يبدو في هذا الكلام قليل من التعسف ، فبريطانيا ، كما بين المؤلف ، هي التي خلقت التناقض بين العرب والصهيونية منذ بداية الغزو ، وهي التي استخدمت التناقض لصالحها . ولم تعمل على تحقيق نوع من التوازن بين العرب والصهيونية ، بل كانت خططها المرحلية في الثلاثينات السعي لتجميد حالة الصعود الثوري الجماهيري. والواقع ان الحزب الشيوعي الفلسطيني ظل في تلك الفترة غريبا عن الجماهير وبعيدا عنها ، بسبب من ان « قوة الحزب في القطاع اليهودي » ص ٢٠٧ ، ولان برنامج الحزب ، كان ينطلق في ذلك الوقت من معالجة الامر الواقع . ولو اخذ الحزب ببرنامج الجماهير العربية: الاستقلال وديمقراطية فلسطين، لكان تأثيره بين الجماهير العربية الفلسطينية اقوى وأشد فعالية ، والا لماذا اضطر الحزب الى خوض معركتي تعريب ثم انشقاق (العام ١٩٤٣) ؟

اجتاحت الوطن العربي في الثلاثينات موجة ثورية معادية للامبريالية ، وقد تميزت هذه الموجة بالعنف : اضراب ١٩٣٦ في سورية واجبار فرنسا على التفاوض والاتفاق على معاهدة . المعاهدة المصرية (١٩٣٦) بعد الغليان العام . كما « أدى عدوان ايطاليا على الحبشة الى تحويل التجارة العالمية عن المنطقة الى حد ما ، الامر الذي شدد أزمة العمل في فلسطين » ص ٢١٩ . كما أدت نتائج التوتر الدولي الى تقليص الاعتمادات في فلسطين ، مما ادى الى اضعاف وتيرة البناء والى ابطاء في صناعة مواد البناء . لقد عمقت هذه العوامل الازمة ولكنها لم تسببها : المسبب هي الامبريالية البريطانية والبرنامج الصهيوني .

وقد زاد من حدة الازمة كذلك ، ازدياد اهمية فلسطين في الاستراتيجية البريطانية ، ويؤكد ذلك سايد بوثام أحد دعاة الصهيونية ، حين يقول ان اهمية فلسطين قد تضاعفت خلال الحرب الثانية . فعلى ضوء العوامل الدولية المستجدة (احتلال ايطاليا للحبشة) ، كان يجب تحويل فلسطين الى معسكر » ص ٢٥١ ، كما ان « تطوير الطيران يجعل فلسطين صلة الوصل الطبيعية في شبكة المواصلات الجوية المدنية بين الشرق والغرب » ص ٢٥١ .

منذ فصله الخامس عشر (فترة الحرب العالمية الثانية) يقف مؤلفنا ، في بعض المواضع ، مواقف **متناقضة** الى حد ما ، فتارة يتحدث عن جماهير اليهود والشعب اليهودي ، وكأن هناك خلف هذه الكلمات تصورا (قد يكون سببه كون المؤلف يقيم في اسرائيل) لشعب يهودي فلسطيني ؟! ، وتارة اخرى يتحدث عن « حقوق الشعب اليهودي في فلسطين » (!!) ص ٣٠٠ ، وعن ان فلسطين « قطر ثنائي القومية يعيش فيه شعبان : العربي واليهودي » ص ٢٨٥ . بل من يستطيع تفسير هذه الفترة « اندلاع الحرب العالمية الثانية أسهم في وقف الطلقات الاخيرة التي حاولت بها الرجعية العربية ، المتساوقة مع النازية ، الابقاء على وضع ثوري معاد لبريطانيا في فلسطين » ص ٢٨٢ .

ملاحظات اخيرة : لا يتسع المجال ههنا لمناقشة مختلف قضايا كتابنا الراهن . لكنني أعتقد انه تجب الاشارة الى النقاط التالية :

اولا ، بدا واضحا ان الخمسة الاولى (الفصول المتعلقة بالصهيونية) هي الفصول الاكثر تركيزا في الكتاب . ففيها يلمس القارىء هذا الجهد الاضافي المبذول لتفسير التوجهات الامبريالية — الصهيونية للمنطقة ، حيث نجح المؤلف الى حد بعيد في العودة بنا الى جوهر الموضوع ، كما بينا في الصفحات السابقة .

ثانيا ، وهذه النقطة تشمل الفصول الخمسة الاولى ايضا . فبالرغم من كون الكتاب امتاز بعمق التحليل ، لكن **الطابع** السياسي **والتحليل السياسي طغيا** على الكتاب ، ولم يتم التعمق في دراسة الجانب السوسيولوجي : خلفية الاحداث. وقد كان الكاتب يستطيع ذلك ، وخاصة كونه يتسلح بالفكر العلمي ومن كبار مثقفيه ومتنوريه .

ثالثا ، تبدو فقرات قليلة في الكتاب يحاول فيها الدكتور توما ان يدافع عن نفسه فيها : عن تاريخه السياسي . اذ بالرغم من كونه من كبار الثائرين على الجمود العقائدي ، ومن المناضلين في سبيل تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني . الا انه لا يتطرق الى تلك الممارسات الخاطئة التي ثار ضدها شخصيا عبر تاريخه الوطني الحافل . هنا تجدر الاشارة الى كتابات د. توما نفسه عن الوحدة العربية وحركة التحرر العربية ، التي تعد من اهم الدراسات في هذا المجال ، وحيث يبدو فيها واضحا ، كما قال الاستاذ علوش بحق ، انه من القيادات الشيوعية العربية القليلة التي امتازت بهذه النظرة النفاذة الى مسألة التحرر في المنطقة .

رابعا ، تبقى مسألتان هامتان للغاية . هل هناك شعب « يهودي » في فلسطين قبل الانتداب، بل منذ الثلاثينات ؟ هذه مسألة يجدر التوقف عندها والتأني حيالها كثيرا لان الموقف منها يجر نتائج سياسية بالغة الخطورة . فالقول بوجود الشعب اليهودي ، حتى من ناحية نظرية ، يؤدي الى القبول بالعدو الصهيوني . نحن لا ندعو الى دولة ثنائية القومية عربية — « يهودية » ، نحن ندعو الى دولة ديمقراطية ضمن المنطقة العربية . ان الحل الاخير للقضية الفلسطينية لن يتم بمعزل عن حركة التحرر القومي العربية وليس بعيدا عن **آفاق النضال التحرري العربي** . ان المقدمات النظرية التي يطرحها المؤلف نفسه ليست بعيدة عن هذا الفهم . ومع ذلك فهو لا يطرحها صراحة؟! قد يكون السبب كونه يقيم تحت القبضة الصهيونية (على كل ، ان موضوع الشعب اليهودي (واطروحة القومية الاسرائيلية ؟!) بحاجة لنقاش مستفيض) .

خامسا ، تظل مسألة الاعتراف بانشاء دولة اسرائيل التي يختتم المؤلف كتابه عندها ، بعد أن يشرح ملابساتها . في تقديري ان المؤلف نفسه غير مقتنع بها ، من خلال موقفه العملي سنة ١٩٤٨ ، وان ضرورات سياسية معينة هي التي دفعته الى كتابة ذلك ، ويستطيع القارىء ان يلمس ذلك عبر سطور الكتاب .

سادسا ، نجح المؤلف في العودة بالاهتمام الامبريالي بالصهيونية منذ حملة محمد علي على سوريا . وهذه نتيجة منطقية لتفكير علمي كتفكيره. فمن خلال ايمانه بوحدة الامة العربية ، وبالبعد العربي لحل القضية الفلسطينية ، استطاع د. توما التوصل الى جوهر الموضوع : الصهيونية أداة امبريالية ضد تحرر الامة العربية ووحدتها وتقدمها . وبذلك استطيع ان ازعم ان المؤلف يستطيع ان يقود مقدماته الصائبة على نفس الطريق الذي سلكه لينتهي الى نتائجها المنطقية .

اخيرا . الكتاب وثيقة سياسية وثقافية هامة . يجدر اقتناؤه .

محمد حافظ يعقوب

ثقافة

التجربة الجماعية تتكون شعرا

ليست فلسطين حيزا مكانيا. انها تتجاوز الامكنة لتصير زمنا عربيا . لكن محمود درويش لا يمسك بالزمن العربي بوصفه تتابعا للحظات تجري ، او بوصفه خطا تطوريا متماسكا . فلا مكان لتتابعية الماضي ولتشنج الحاضر او لافق المستقبل . يعتقل درويش الزمن لحظة انفجاره ، لذلك يقيم زمنا من طبيعة خاصة . زمن الولادة التي تتحلق حول آلام المخاض ، وتتكثف في لحظة الانفجار . يستحيل الزمن العربي لحظة انفجار واحدة، داخل تداعيات الصراع ، ليتجاوز الافق المسدود عبر اختراقه مباشرة ، من ضمن قدرة اللغة على رسم لحظة الموت داخل هذا الافق الذي ينفجر .

في « يوميات الحزن العادي »(*) نتعايش مع نمط جديد من الكتابة الابداعية . فنحن لسنا أمام قصائد نثر . ولسنا كذلك امام مجموعة من الذكريات او القصص القصيرة . والكتاب ليس مجموعة مقالات متفرقة . انه سياق . لوحة واحدة يخترقها سهم الحزن من أقصاها الى أقصاها ، وحين يرتطم السهم بوسط اللوحة ــ السياق ، ينفجر السهم وتتناثر الالوان . أمام هذا المنطق الداخلي تعجز الكتابة عن ملاحقة السياق . فتستريح على اطراف الانفجار لتحاول كتابة مقدمات تحليلية تعتقد انها قادرة على الايصال من خلال التحليل . لكنها تعجز عن ان تتشكل وسط اللوحة، فتقيم تداعياتها على الاطراف ، وترسم لنا خطا كاملا للزمن العادي الذي يتحرك على جوانب انفجار « الحزن العادي » .

عندما ترسم الكتابة زمنا جديدا ، فان التعامل معها يخرج عن دائرة الرجع المباشر . فالرجع المباشر ، يستطيع في أفضل حالاته ان يرسم أفقا يحكمه منطق عادي . الانفعال منطق عادي . لذلك يعجز التحليل عن التواصل مع نصوص تغش . عندما نتصفح الكتاب نشعر اننا أمام هذا الدق القديم على الباب الفلسطيني . لكننا عندما ننتهي من قراءته ، نعود من جديد مهملين أطراف اللوحة. مهملين الدق القديم الذي يلبس ثيابا موضوعية . لنعود فنعيش مع لحظات الانفجار وحدها . الكتابة التحليلية التي صاغها درويش على اطراف الاحزان تسير متمهلة ، تبقى مخلصة للعنوان « فصول ومقالات وخواطر عن تجربة المؤلف في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، وعن بعض جوانب الصراع العربي الاسرائيلي ، حتى الفترة التي سبقت حرب السادس من اكتوبر ١٩٧٣ » . نتوقف عن القراءة. ثم ماذا . كتابة تشبه التحليل تذكرنا بأن ما يجري على ارض فلسطين هو الدماء . تشهد عن حالة العربي فيما هي تروي حكايات « كفرقاسم ». تحمل حقائبها وتسافر في « حالة الانتظار » . تتوقف في « أقرت » و« كفربرعم » . تنتهي من القراءة . دق على الباب الفلسطيني . شهادة حية وواقعية . وثيقة اتهام . ثم تفتح الكتاب من جديد . تقرأ وسط اللوحة . هذه ليست كتابة . انها مسامير . محمود درويش يلم المسامير عن الارض ويزرعها على الورق ، فتنغرس المسامير في العيون ويتلون الكتاب بالدماء . يتساقط الانفعال وتبقى اللحظة الشعرية . حوار بألسنة متعددة

(*) محمود درويش ، **يوميات الحزن العادي** ، مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية والمؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت، كانون الاول ١٩٧٣ .

وبمتكلم واحد . لحظة فلحظة ، ينفجر العربي في اسرائيل وينزف شعرا . لا يصرخ . البكاء لا مكان له هنا . الساحة خالية لا تحتلها سوى اللحظة الشعرية . ويبدأ محمود درويش رحلته الجديدة .

الارض والغناء القديم : ما هي الارض : « أعثر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة الى كلمات تجعلني في حوار مع البلد البعيد . نصير لغة قابلة للتجسيد » . الارض هي لحظة لقاء الاشياء جميعها . ليست مكانا نلتف حوله . « ان الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الابيض المتوسط مع خاصرة الكرمل ، تنتهي بولادة بحيرة طبريا . وهناك بحر سموه البحر الميت لانه ينبغي ان يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملة . ومن كثرة ما ازدحم الجليل الاعلى بالغابات ، كان لا بد ان تبرهن القدس على ان الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة . هذا هو وطني » . تصبح الارض لحظة لقاء . لا مكان فيها للتأملات. الحوار الوحيد الممكن هو حوار استنطاق الارض . فالحزن يأتي من مسام الجلد . وعناق شجرة التوت بصير ممكنا . « فالقمر لم يسقط في البئر » . الاشجار التي يزرعها هذا الحوار على جوانب الكلمات ، تخرج وحدها حاملة شيئا يقع بين الحقد والحب . يوحدهما . هذا الشيء الذي نسميه القتال ، يصبح هنا اسما جديدا للارض . فالتجربة التي توحد شعبا بأسره هي اعمق من مجرد لحظة حنين . انها انغراس كامل . « لا بد واننا كنا اشجارا في البداية »، كما يقول سيفيريس في مذكراته . نحن هنا لا نرجع الى الماضي. فاللحظة التي تتجمع نقطة نقطة تتحول الى بحر عميق ، يحمل الكثافة الكاملة . « ليست الصحراء اكبر من الزنزانة دائما » . ندخل من الوطن المعاناة الى الوطن الحقيقة اليومية . فترتفع « اليوميات » لتصلنا بأكثر التفاصيل دقة . نتوقف . ثم ندخل لنفاجأ بهذه التفاصيل . فلغة الحوار ولغة المعاناة ، تستمد الوانها من الارض . الحوار — العداء ، مع العدو الذي يواجهه العربي كل يوم في اسرائيل ، يصبح خنجرا يلمع نصله ويجرح بحقد ، ينغرس داخل اللحم وداخل العصب ، فتنحني اللغة ، ويتحول الحوار تدريجيا من لحظات شعرية تمسك بالواقع وتجعله يتخبط بين يدي القمع :

« انحني يا حبيبتي ، ريثما تمر العاصفة .

— من شدة الانحناء صار ظهري علامة استفهام فمتى تجيب ؟

[المحقق يدير اسطوانة عليها تصفيق كثير] »

الى لغة حوار عادية تعبر من خلال عين تتجول في الذاكرة لتلتقط اكثر الممارسات بساطة ودلالات. يلعب المخاطب دور وضع الاطر العامة لعلاقة تتحرك ببطء . تتلفت الى الزوايا اليومية . ثم يأتي المتكلم في بعض الاحيان ليرفع اصبعا اتهاميا مليئا بالسخرية الحاقدة التي تسمح للتتابع بأن يتحول من مجرد لحظات ترصف وراء بعضها ، الى أزمنة متداخلة . الحوار العادي يأخذ هنا معان جديدة. انه انشداد . الكلمة تتحول الى سؤال . والاجوبة لا تزال بعيدة . لذلك حين « يلقون عليك القبض وانت ترتكب الحلم » لا تتعجب . تفكر بالاجابة على أسئلة المحقق . وتصيغ حلمك من جديد على شكل نداء يتخاطب مع الارض. وحين يرتفع المخاطب في نهاية هذا الفصل ، فانه يتحول من شكل فني ، كنت تعتقد انه يحقق مسافة ما بين الكتابة والكاتب الى اتهام صريح.« تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج انسانيتك . هكذا تصبح شجرة او حجرا او اي شيء في الطبيعة ». في هذا الحوار، يتحقق بعد الكتابة . انها ممارسة. ليس الادب مجرد لوحة تلصق . انه بعد ، يستطيع ان يحقق انفصال النص عن كاتبه ، ليصبح هذا النص كيانا قائما في ذاته . لكن درويش لا يذهب الى هذا الحد ، يحقق الانفصال بينه وبين النص عبر اللجوء الى الحوار المباشر . ثم لا يترك للنص حرية الكينونة في ذاته . النص يكون فنيا او لا يكون ابدا . فيتحول النص من مجرد لحظة فنية تتكون ببطء او ترتفع بصوت عال الى حياة جديدة تتغلغل في الاعصاب وتقيم هناك . هكذا تستطيع الشهادة التحول من شهادة سلبية الى شهادة ايجابية . من تحليل سريع الى شعر يمد يديه ليحيط بالتجربة كاملة وفي اكثر لحظاتها التفاتا الى الجسد .

في ديوانه الاخير « أحبك أو لا أحبك » استطاع محمود درويش ان يقفز بالتحلق الفلسطيني حول الارض ، من البعد القروي الذي يجد في الارض رحما ، الى بعد بلا فضاء . فالارض تتحول الى لاجئة في جراح اللاجىء . وهو هنا يتابع . يتابع

هذا المنظور ليصل الى لحظة تندفــع فيها هذه العلاقة نحو الاندماج الكامل . هنا يصبح التمييز الفعلي بين العنصرين اللذين يشكلان طرفي العلاقة مستحيلا . وتتحول الارض الى علامة .

الفرح ... عندما يخون : عندما نبــدأ بقراءة تلك المقاطع المرتمة التي وضعت تحت هذا العنوان في الكتاب ، نمسك بأنفسنا حتى لا ننفجر . الحقد الذي لم نتعلمه جيدا الا على الاجساد المكوية . الا داخل الحروب . يخرج هنا من جديد ، ليحمل وضعا للحظة الهزيمة داخل انشداد كامل فــي الموت . تمشي الهزيمة على الاجساد ببطء شديد . تتحرك ببطء شديد تمسك بالخناق وتعلمنـــــا بــأن الــدموع حقــيرة . لــذلك تتنــــاوب المقدمات والنتــائج عــلى صياغة حــلم مرعب . يأتي الحوار المنطقي ، ليعلم استحالة الحوار . التحضير للحرب يجري بطيئا وبهدوء . الحالة تصبح اقترابا من الانفجار . « وتسألك امك ، ان تعتني بسلامتك . والمصير ــ كل المصير يأخذ شكل طلقة » . يرتفع الصوت الفلسطيني ليجيب على صوت النداء الذي يرتفع « لو وقفت على الاهرام وقذفت حجرا على فلسطين لوصل عصفورا ». يأتي الجواب الجماعي هذه المرة : « مزقونا فتكاثرنا لاجئين . شيء في الداخل وشيء في الخارج » . وتأتي اللحظة . يتحرر النص هنا من التصاقــه الشديد بحالة العرب في اسرائيل قبل الحرب ، ليصبح تكثيفا للقهر القومي الذي نعانيه منذ تتالت الهزائم . منذ اكتشف الاوروبي الرأسمالــي ان بامكانه امتطاء صهوة تاريخنا بعنف دموي . يتكثف التاريخ الحديث كله ، حتى تصبح فلسطين نقطة تقاطعه التي ندخلها . واجسادنا ممتلئة بالجراح .

« هكذا ابتدأ كل شيء
وهكذا انتهى كل شيء » .

عندما التقى « حامد » في رواية « ما تبقى لكم » بالاسرائيلي لم يحاوره . اكتشف ان اللغة الوحيدة الممكنة هي لغة القتال حتى النهاية . لكن الاطار الذي فرض على هذا « الفرح الذي يخون » ، سمح بحوار ، من نوع جــديد . حوار الجــلاد والضحية قبل تنفيذ الحكم . لذلك نحس ونحن نقرأ هذا الفصل بحاجة الى تمزيق اي شيء . فحوار الجلاد والضحية ، يأخذ حجم الموت ، الهادىء البطيء . ثم تأتي الهزيمة . يولد في ظلامها ضوء المقاومة كامكان . نشعر بالانفجار يدخل عميقــا تحت جلودنا . وعندما نحاول الصراخ يكون محمود درويش قد سبقنا اليــه . « ادخل الفرح .. وانفجر !.. » يأخذ هذا المسار نفس الحــركة السابقة ، لكنه حين يلتقط الزوايا الموضوعية ويقوم بوضعها داخل منظار الانتظار الفاجع الذي نعلم نتائجه سلفا ، فانه يحول معايشة النص من ترقب للنتائج الى تفتيق للجراح نقطة نقطة . ونحن نعلم الى اين سيصل النص بنا . فالانتظار الذي نعيشه انتظار مخادع، انه معايشة للحظات تتتالى. حتى نصل الى نتيجة هي الوحيدة الممكنة داخل الحالة . « ادخل الفرح .. وانفجر !.. »

صلاة من اجل المدن : هذه المرة لا يخــون الفرح . غير انه لا يأتي مجانيا . يأتي الفرح على ابواب المدن المصلوبة على النار ، ينكسر النثر. التعبير صار مستحيلا عن حالة تتداخل بالقدرة من دون كلام . فيأتي الشعر ، ليقوم بدور القذيفة التي تصير مجرد نقطة بين ايدينا قبل ان تتحول الى حرائق تشتعل على مساحات شاسعة. الشعر هنا ليس لغة للمخاطبة . انه لغــة الداخل . القدس تتحول الى عالم غريب : « دخلتها مختبئا بالشجاعة ، خائفا من الشجاعة » . وتتداخــل العلاقة مع مدينة واحدة لتمتد في توجع يأخذ شكل الحقائق المعطاة . لكننا نكتشف ان هذه الحقائق ليست سوى رصفا لحالات الاوجاع التي تنتــاب المدن . ثم ينقض النص دفعة واحدة على التقسيم البطيء للصور والطلال ، ويخرج الهجوم من بين اصابع الشاعر « تهجم على باعة الصحف وبقايا الاثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلبات المستوردة ، وقد تعلموا لغة الغزاة في ليلة واحدة. تهجم عليهم في نشوة انتحار . تأخذ اشياءهم ، وتصيح تصيح بأعلى صمت : من يشتري صــدر تاريخي وظهر تاريخي وعورة تاريخي بلحظة انتصار واحدة ؟! ثم تبتسم للغزاة » . الدخول الــى القدس ، يصبح دخولا الى التاريخ ، ليس من باب الاثار او من باب الصلاة . بل مــن باب الفعل التاريخي الذي ينتظر . وحــين يتساءل درويش عن هذا البدء ، يكتشف « في البدء لم يكن الفعل ، ولم تكن الكلمة، في البدء كانت الهزيمة». هكذا تخــرج القدس مــن « المساء البطيء والبرتقالي » ، لنكتشف اننا لم نكن داخل لحظة الصلاة من اجل القدس ، بل كانت القدس ، داخل

الهزيمة ، تعيد اكتشاف نفسها واكتشاف تاريخها. وان صوت الشعر يدخل المدينة ، لا ليبحث عنها ، بل ليكتشف صورة جديدة لغزة التي تقاتل . عندما يصل درويش الى لحظة « الصمت من اجل غزة »، فانه يتخلى عن التركيب الشعـري ، ليدخل في الشعر الحي . هذا الشعر الذي كانت قصيدة « الخروج من ساحل المتوسط » ، لافتته الاولى يصبح هنا شهادة حية من اجل غزة . وقفة على باب المدينة للتعلم من دروسها . هنا يأخذ النص شكل المقال ، دون ان يتخلى عن الصور الشعرية المتلاحقة التي تعطيه القدرة على الاحاطة بالحالة، دون اعادة انتاجها شعرا . اي ان غزة تبقى في هذا النص عارية قدر الامكان ، لتثبت من خلال فاعليتها وحدها قدرتها على ان تكون محطة ومدرسة فعلية للنضال الذي لا نراه سوى ممارسة واقعية. « لان الزمن في غزة ليس عنصرا محايدا . انه لا يدفع الناس الى برودة التأمل ، ولكنه يدفعهم الى الانفجار والارتطام بالحقيقة » . العناصر الطبيعية التي وقف الشعر عندها طويلا ، لينقل فلسطين مأساة او تكونا ثوريا تصبح هنا فعلا يصنع تاريخه بنفسه ، « لانها برتقال ملغوم ، واطفـال بدون طفولة ، وشيوخ بلا شيخوخة ، ونساء بلا رغبات. لانها كذلك ، فهي اجملنا واصفانا واغنانا واكثرنا جدارة بالحب » .

فلسطين كما هي : على ابواب « ميونيخ » يقف الشعر ليروي حكاية فلسطين للعالم ، كما هي هذه الحكاية . لا كما يريدونها . ولكن الحكاية حين تريد الوصول الى هذا « العالـم » ، فانها لا تستطيع ان تأخذ شكلا موضوعيا . ترتطم بحقائقه. تدمرها . تشير الى الواقع في اكثر صوره عريا . يجمع درويش الحالة ويجعلها تخرج كالبراكين التي لا تتوقف . على اية ارض نقف .

« ــ لماذا نوقظ العالم من النوم !

ــ هذا ليس صوتي هذا صوت ارتطام جثتي بالارض » .

حتى جثتنا ، لا يسمح لها بأن تحدث اصوات ارتطامها بالارض . لذلك حين تأتي اللغة لتنقل هذا الصوت ، فانها تصطدم بعجز اللغات عن حمل هذا الواقع على رؤوس الكلمات . فتأتي الكتابة ، محمولة على جميع محاور الانفجار . تركيب لا يقف على منخفض الا لينتقل الـى رابية مرتفعة . وحين يصل الى قمة البركان ، يخرج الحقد هذه المرة عاريا ، يرفع صوته . « ليست فلسطين ارضا ــ ايها السادة القضاة . لقـد صارت فلسطين اجسادا تتحـرك ... تنتقل في شوارع العالم ، وتغني اغنية الموت ، لان المسيح الجديد ترجل عن الصليب . امتشق عصا وخرج من فلسطين ! » هـذه المعايشة الفريدة التـي يسجلها هـذا النص ، لا تتوقف عنـد الصور المتراكمة ، بل تحول هذه الصور الى نسيج فني داخل شروط الحـركة والفعل . مـن هنا يأتي النص ، ليحمل كثافة شعرية ، واحتراقا نثريا . أي يتوحد بالموقف ــ الحالة كاسرا جميع القواعد المتعارف ، ليصل الى مخاطبة نادرة مع ما يسمى بالرأي العام العالمي . تبقى هذه المخاطبة مشروطة بالآخر الذي تتوجه اليه . لذلك يأتي النص ، لا ليحمل فلسطين كما هي في الواقع ، بل ليضيء جانبا جديدا من هذا العذاب الذي تسميه اللغـة الشعرية فلسطين . الغربة عن هذا العالم ، تؤكد الجانب الآخر من الواقع . الالفة ، التوحد ، مع الارض وجراحاتها . فالتجربة هنـا تتحول الى استكمال دائري ، لا يمكن الخروج منه الا بتفجير الواقع . فالدائرة التي ترسمها هذه النصوص ، تحمل من داخلها خروجا منها ، يبدأ عند ارتطام « الجثة بالارض » .

نكتشف داخل هـذا المدى الشعري في تجربة درويش الجديدة القدرة على الوصول الى القضية. من داخل التجربة الثورية . يأتي الشعر هنا ، خروجا للكلمات التي تتمرد على معانيها وتتواصل في حركة التفاف واسعة ، مشكلة لوحة شاسعة الاطراف ، ينغرس في داخلها وقع اقدام المرحلة المتبلة . خروج الكلمات من قواميسها في هـذا الامتداد الشعري ، يصل الى اغناء ما اصطلحنا على تسميته بوسط السياق ــ اللوحة ، وتحويله الى محطة للانفجار الذي يميز صوته في تداعيات الانفعال القادرة دائما على دمج الصور في بنيتها هي وليس الوقوع في تشريط تداعي الصور الذي يتحكم بالانفعال في الكثير من ادبنا المعاصر . فتجربة درويش تمنح المدى الذي تقف أمامه قدرة علـى الحركة بحرية اكبر على مشارف الانهار العميقة التي ترفد بحـر خصوصية التجربة الفلسطينيـة الدموي ، هذا البحر الذي يبـرز صاخبا ومليئا بالقدرة على صياغة امواجه .

حين توقفنا في هذا التحليل السريع امام وسط اللوحة . فاننا أهملنا الاطراف — « التحليلات » — بشكل مقصود . فهذه « التحليلات » التي تحمل نفسا شعريا كذلك ، لا تستطيع ان تقف هنا بين دفتي هذا الحزن . انها في حيز آخر ، لانها لا تستطيع تلقي جموح التجربة الادبية الصاخبة المتفجرة داخل النصوص الاخرى .

نخرج من قراءة درويش وقد جرحتنا الكلمات .

يبتسم ناقد خبيث : يسمح هذا الكتاب باشراف اولي على سيكولوجية الشاعر ، لانه يكشف جانبا من طفولته . يجيب ناقد آخر : هذا نثر جميل ويحمل تجربة . كلا . فعندما استطاع درويش الوصول الى الكلمة — الفعل ، فانه لم يقدم مؤشرات سيكولوجية او يكتب نثرا جميلا . لقد وصل الى ابواب التجربة الجماعية وابتدأ يكتب شيئا هو اشبه بالشعر الذي يتكون داخل حوار من نوع خاص .

العصافير تبني اعشاشها بين الاصابع

في « العصافير تبني أعشاشها بين الاصابع »* نقف امام توتر لحظات المسيرة نحو جسد الارض . قدم المرأة والكرسي والطبيب والمرض تتحول دفعة واحدة من رموز او شخصيات يراد بها اغناء النبرة الشعرية ، الى لحظة لقاء واحدة ، تمحي فيها الفواصل والنقاط وتتداخل الرؤيا لتخرج منها اغاني التمرد الممتزج بمحطات مرجعية عند التقاء القدم بالارض . هكذا لا يفسر الشعر الواقع ، يعيد انتاجه داخل حقل الرؤيا من موقع متحرك في اكثر مفاصله بروزا ليتحول هذا الموقع داخل القصيدة نقطة في تبلور التعبير عن لحظات اللقاء الموجعة بين الشعر والواقع الاجتماعي . لذلك حين يلجأ معين بسيسو الى الشخصيات الرمزية لينقل لنا اوجاع لقاء الارض ، فانه لا يسقط في الفخ الرمزي ، يتجاوزه في هذا الصوت الواحد الذي يلف القصيدة من داخلها ، ليصبح لهذا الصوت حواراته الخاصة .

المحاولة هي كتابة قصيدة ممسرحة . قام الشاعر بتقطيع قصيدته الى خمس لوحات ، وابرز من داخل هذه اللوحات صوتا دمويا يتكون استعدادا للقاء القدم بالارض . فالساق الملفوفة بالاربطة البيضاء التي عليها يسلط الضوء منذ المشهد الاول لا بد ان تصل الى الارض التي تتوق اليها . الى جانب هذا الصوت يقف عالم من الاشياء والعلاقات الانسانية — الساعة — الكرسي — الطبيب — المرض . يتحرك هذا العالم لوحة خلفية تسمح لصوت المرأة بالتنوع والتحول في مواجهة سلسلة طويلة من الصراعات والعقبات . المكان بأشيائه يصنع للقصيدة حدودا في الحيز الذي تتحرك ضمنه. فهي تتشكل داخل اطار محدد وواضح . لذلك يأتي الشعر ليتجاوز صرامة العلاقة المسرحية ولينطلق من هذا الحيز الضيق ليطال المناطق الاساسية في جسد التجربة الفلسطينية المعاصرة . فالشعر لا يتوقف عند الحدود الظاهرة من هذه الشخصيات — الرموز . انه يتأكد في العلاقات الداخلية التي لا تستطيع التشكيلية المسرحية التي وضعها بسيسو لقصيدته ان تنقلها . لذلك تتأسس التجربة في داخل الشعر ، وينتقل الصوت الواحد بين أكثر من شخصية في المسرحية . فهو حين يبدأ مع صوت المرأة المريضة يصل الى ذروته الحقيقية مع صوت الطبيب في المقطع الثاني من المشهد الخامس . هنا نصل الى الشعر كاملا ، ويرتفع الصوت في هدوئه لينساب داخل حركة تحولات هي من أجمل ما كتب في شعرنا المعاصر . الشعر لا يبحث عن الصورة ، يخرج مرسلا ، لكن الالتفاتات « العفوية » — كان الفقراء يقولون قلب الارض يدق — تجعل لهذا الصوت المرسل نبرة شعرية صافية . فالتجاوز من منطق الشعر للمساحة التي تحتلها علاقات الشخصيات ببعضها يؤدي في نهاية القصيدة الى اكتشاف هام وهو ان الشخصيات هي صوت واحد في تحولاته . اما لماذا اختار بسيسو شكل القصيدة المسرحة ما دمنا سنصل

---

* معين بسيسو : **العصافير تبني أعشاشها بين الاصابع** في شؤون فلسطينية ، العدد ٢٩ ، كانون الثاني ١٩٧٤ .

الى صوت الشاعر الذي يتقمص تماوجات الاوجاع الثورية ليصل الـى قصيدة متعددة الحركات . الجواب على هذا التساؤل ليس سهلا . لاننا امام عمل مركب وبالغ التعقيد . لكننا نستطيع ان نلاحظ بعض العلامات التي تستطيـع ان تشير الـى الجواب . فالاختيار المسرحي يضبط الحيز الذي تتحرك عليه القصيدة . اي ان الضوابط تأتي من بنية خارجة عن الشعر ، لكنها هي الاخرى تفتح أفقا ما يزال جديدا في شعرنا المعاصر . هذا الافق يحتاج الى ضوابطه الخاصة ، لذلك تساهم هذه القصيدة في تأسيس هذه الضوابط . وهذا الاختيار يجعل من عملية تداخل الاصوات المتعددة في الرؤيا الفنية الواحدة ، واضحا . اي ان تداخل هذه الاصوات يفتـرض تجديدا في بنيـة القصيـدة « الدراميـة » . غير ان الشـعر هنـا يتجاوز هذه المهمة عبـر اللجوء الى الشكـل المسرحي ، ويجعل همه منصبا على التقاط مفاصل التجربة في غنائية دموية دائنة ، لا تنصاع لقواعد جاهزة داخل التحول في القصيدة . ويؤدي هذا الاختيار اخيرا الى حركة تحولات في الحيز الخارجي تسمح لتحولات الصوت الشعري بحرية كبيرة في الحركة .

العلاقات الواضحة والرؤيـا المعقدة : تبدو علاقات الاصوات في هذه القصيدة واضحة . اي ان اللجوء الى الرموز يؤدي الى الوصول الى ثوابت . يتحرك الشعر بين هذه الثوابت ليلتقط رموز الاشياء — الساعة — او الثوابت المرجعية — الارض ، القدم ، القطن — ويقوم باعادة اعطائها مداليلها من جديد . لذلك تتعقد الرؤيا وهي تلتقط الاعماق التي تصل اليها من خلال هذه الشبكة من العلاقات . يتحرك الحوار ضمن تقطيع في المشاهد — اللوحات — ليؤدي مهمة الربط بين جزئيات الحركة ، وليتبع تغيرات الحيز المكاني او انعطافات الحوار الصراعي . الحركة واضحة اذن . تنتقل عبر رسمها البياني ضمن ثلاث دوائر: ١ — الحوار الصراعي بين المرأة والمرض والطبيب . يأخذ هذا الحوار اشكالا متعددة ، فهو ينتقل من التأملات امام الجرح التي يقوم بهـا صوت المرأة الـى « الكولاج » الذي يقطع النفس الشعري ، ليشكل مرجعا واقعيا يغني الحركة باعادتها الى الاطـار الذي انطلقت منه . اي ان اصوات الميكروفونات التي ترتفع تقوم هنا بدور شـد مفاصل الحركة واعطائها اوتارا واقعية ، تعزف عليها التحولات ألحانها الهادئة المفاجئة لتذكر بضرورة تجاوز الاطار الرمزي للعلاقات :

« من طائر نورس فوق البحر الميت لعصافير الجولان

عصا موسى ستشق البحر الان ... »

حتى يتم الوصول الـى الوقوف أمام الفعـل التاريخي . يأخذ هذا الوقوف أشكالا متعددة ، فهو توجع امام الواقع الذي نقف امامه :

« الدمعة فوق الخد
كانت دمعة
وتفحمت الدنعة صارت شامة
الكأس يدي والقدم العنقود
والجسد زجاجة
كيف وصلت الى هذي الزنزانة ؟ »

بنساب هذا التوجع من التشابيه المباشرة الى الصور المتلاحقة التي تستطيع ان تتوقف امـام الواقع . فالجسد حين يصير زجاجة حقيقية يرتفع السؤال الاخير . فالسؤال هنا لا ينتظر جوابا ، انه سؤال عن داخل الوقوف امام الفعـل دون تحقيقه . دون الخروج عن الدائرة المغلقة . لذلك يأتي الجواب على هذا السؤال تساؤلا يحمل علامة التأكيد الشرطية « لو في يدها ، عود من كبريت احرقت الشمس » . لكنها لا تحرق الشمس « فالدم الذي لا يتوقف في الشريان » يحمل دائما مواقف رفضية . لذلك يأخذ الرأس حجمه الحقيقـي في علاقته مع القدم داخل المستشفى . ليس « كرقاص الساعة » . انه يحمل موقفا . وهذا الموقف لا بد أن يتاكد . وحين تطفأ الانوار على نهاية اللوحة الثالثة ، ننتظر الفعل .

٢ — تقطع الاربطة التي تعيق حركة ساق المرأة. هنا نصل الى حوار داخلي في اصوات متعددة . تحاور المرأة المسيح والاعداء وذاتهـا في وقت واحد . ويتم هذا الحوار من داخل حركة بالغة الغنى فالصوت ينتقل من مستوى الى آخر بعفوية بالغة حتى نصل الى تداخل هذه المستويات جميعا

في الصوت الواحد . ويلعب التكرار هنا دورا بالغ الاثر ، لانه يسمح بوقفة قبل تلاحق الانفاس والمشاعر . نبدأ بلهجة تقريرية « لا يد — من اهوى — فوق يدي » داخل هذه اللهجة يأتي الايقاع من التقطيع الصوتي ومن قافية الخد — الرعد ، التي تتطلب وقفة بانتظار بداية أخرى . هنا تأتي الجملة الشعرية التي تتكرر اربع مرات لتؤدي الى معنى واحد في تنويعاته المختلفة . فالتكرار يذكرنا دائما بأن الحالة التي نقف أمامها لم تنته ، بل انها تستكمل في تلوينات مختلفة تؤدي الى الموقف :

« من علقني فوق الخشبة ، فوق الارض . كان يخاف فلو لمست قدمي الارض . فستتبعني الارض. والفقراء يصيرون ملوك الارض » .

الارض هي الكلمة التي تتكرر في هذا المقطع الشعري هذا العدد من المرات . وهي حين تدخل جملة شعرية واحدة تقوم بتقطيعها وابراز النقطة المحورية التي عليها ومن اجلها يجري الصراع . لكن هذا التكرار يؤدي في الواقع الى اغناء ايقاعي يسمح للجملة الشعرية بتجاوز القافية بمعناها التقليدي . فالايقاع يتوالد داخل التجربة الشعرية الحقيقية وليس على اطرافها في القوافي المنتقاة بعناية . ويسمح تكرار الجملة الشعرية الاساسية للموقف بالتطور فهو يبدأ وصفيا ثم ينتقل الى ابواب الفعل « من ينزلني من فوق الخشبة هو ابني » . ليصل الى المسيرة . فالصليب الذي ننزل منه نحوله الى اجراس نعلقها في رجل المرأة — المسيح ، لتبدأ الينابيع في الانفجار . تتم هذه اللحظة الشعرية من خلال تكرار كلمة اخرى — التفاحة — فالتفاحة تتحول هنا عن رمزها الاسطوري الديني لتعطي للعلاقات شكل التواصل داخل العطاء . فالمسيح يعطي التفاحة ثم ينزل من الخشبة . وحركة هذا العطاء حين تتكرر ، فانها تتكرر من اكثر من موقع . المسيح يعطي التفاحة وهو معلق على الخشبة . هذا التنويع في المواقف يجعل للحركة بداية حقيقية ممكنة . لذلك حين تأتي الكرسي لتصلب المرأة عليها من جديد ، يرتفع الصوت نفسه ليصرخ « لا ... ساقي مجدافي ، قدمي الزورق » . وهنا يتحول الحوار الداخلي الى صراع . فالاصوات المتعددة التي تميز الموقف امام الخشبة تتحول في المقطع الاول من المشهد

الخامس الى حوار عنيف بين الرموز الثلاثة التي تتشكل منها القصيدة . تجلس المرأة مرغمة على الكرسي . وتستمع الى حوار على مستويين مختلفين — المرض (يجسد هنا ارادة الطبيب) ينتشي بانتصاراته ويفرض شروطه . فهو سائق الكرسي لذلك يستطيع ان يفعل ما يشاء : تتوقف القصيدة هنا عند أدق التفاصيل اليومية في تقريرية مباشرة تلعب دور المقدمة . فلا يكاد المرض ينتهي من تعداد ما تحويه جيوبه حتى ننتقل الى المستوى الاخر :

« اما انا فسأجمع شوك الارض وعشب الارض، وزهر الارض ، وأنسج جورب » .

فنكون هنا نستكمل مقومات حركة واحدة . فالموقف الذي يتحول في تداعيات لحظتين شعريتين يستدير على لحظة ترقب وتجاوز . نتخطي جمود اللحظة على القمع الذي تواجه به ارادة الوقوف على الارض ، لا يكون الا من داخل اطار تكسير علاقات القمع نفسها . فالمرأة حين تحاول النهوض وهي تصرخ « قدمي علمي » فانها تستجمع تاريخها في لحظة واحدة امام التقدم . فمجرد وضع القدم على الارض ولو مرة واحدة يحمل معنى التجاوز داخل بنية القصيدة .

٣ — حين يبدأ المقطع الثاني من اللوحة الخامسة ، تبدأ مقدمات الفعل . هنا يتحول صوت الطبيب ليلتقي بصوت المرأة . بل ليصبح الصوت نفسه حاملا تاريخا تكمن داخله القدرة على التخطي :

« انك لم تر ابدا تلك المرأة عريانة .
لم ترها غير امرأة من قطن .
لم ترها امرأة من ماء .
حين المرأة تعشق ، تنسكب على الارض كنهر .
النهر يصير بحيرة .
والاصبع مجداف
والفم زورق » .

حين يرتفع الصوت هنا، فانه يحمل توالدا طويل النفس . فالمقطع الثاني بأسره هو وقوف امام المرأة وامام تاريخ « الارض التي يدق قلبها » لذلك حين نصل الى التحولات التي يحملها هذا المقطع الشعري ، فان هذه التحولات تبقى حاملة سمة

الوقوف طويلا امام الظاهرة . فالوقوف لا يتداخل معها ليحيلها الى شظايا من الانفعالات . انه يسير ببطء شديد ينتقل من العرض الشعري الى الوصف بالتشابيه — « تنسكب على الارض .. » — التي تستحيل الى تحولات ضمن فعل — صارت — اي ان الصيرورة واعية او بتعبير ادق ان الشعر يقف امام ظاهرة الصيرورة ليتحاور معها ولينقلها داخل الحوار . هكذا يبقى صوت الطبيب رجعا لصوت المرأة يلتحم بها دون ان يصبح جزءا عضويا منها . فالمرأة التي « ستخيط الجورب من عشب الارض » تدخل دائرة تحولات الارض والاشياء . من هنـا تصبح عملية تداخل الاصوات ضمن الصوت الواحد المؤتلف في لحظة شعرية عملية واضحة . وحين تستحيل المرأة أشجارا فانها تنتقل بين البساتين لتتداخل مع الارض ولتلتحم بها . لذلك حين نصل الى المقطع الثالث ، فاننا نصل الى الفعل نفسه الذي يصير اكثر تعقيدا فالحيـز المسرحي الذي تستخدمه القصيدة لم يعـد بسيطا وواضحا . أصبح جزءا من لعبة الاضواء والستارة والتقدم تتحفز للوصول الى الارض :

« ماذا يفصل قدمي عن الارض ؟

لو شريان حبيبي ... حبل ، يفصلني عن هذي الارض .

فسأقطع شريان حبيبي ... اقطعه بالاسنان ».

وتبدأ التداعيات التاريخية تتداخل مع الواقع. هنا يتوقف الارسال الشعري لنعود الى «الكولاج» الذي يقطعه كما في المشهد الاول ، لنصل الى جمل شعرية قصيرة لا تشكل فقط اطارا مرجعيا « من بابلو نيرودا ... » بل لتضعنا في اللحظة التي ستؤدي الى تجاوز الاطارات السابقة التي تمنع اللقاء . فتضع المرأة قدمها على الارض ونكتشف سويا مائدة الفقراء :

— « هي ذي الارض

مائدة الفقراء

يا قدمي كوني فاكهة الارض ، على مائـدة الفقراء » .

يقطع هذا التداخل الحميمي في التحولات العميقة تعدد الاصوات التي لا تلبث ان تختفي لنكتشف مع جرس الانذار صوت استعادة لحظة العناق التي كانت مضمدة في ثنايا التحولات التي أوصلت الى هنا . ولنكتشف كيـف تعشش العصافير بـين الاصابع . فالمسيرة التي قطعها الصوت الشعري استطاعت من داخل ثوابت العلاقات الواضحة ، ان تتوغل عميقا داخل الرؤيا الشعرية ليكتشف ان لغة الاعماق هي التي تعطي الابعاد الحقيقية للغة الظاهرات . وان الشعر يستطيع ان يلعب دورا داخل المستوى الثقافي بوصفـه طليعة تغيير . فعلاقات الاشياء حين تخضع للغـة الشعرية في كشوفاتها تصبح اكثر قابلية على التحول .

الشعر والامتداد : يمتد الصوت الشعري داخل قصيدة معين بسيسو ليصل عبر النبرة الخاصة التي يستخرجها هذا الشاعر من لغته ورموزه الى توتر من نوع خاص . فنحن لا نقف امام ضجيج حارق من الصور المتلاحقة التي تنقل التجربة . اننا أمام جمل شعرية هادئة ، تجري بشكل عفوي حتى نشعر في بعض اللحظات ان التقريرية بدأت تقربنا من النثر . لكن الانعطافات المفاجئة والوديان التي هي جزء من هذه التقريرية تقوم بنقل الجملة الشعرية الى الشعر الصافي في اكثر الاحيان . أي ان الامتداد العميق في هذه اللغة الشعرية يسمح للاشياء بأن تقف الى جانب بعضها لحظة ثم تبدأ في التداخل فتتوتر النبرة وتشحن الجملة بالايحاءات التي تجعل من القصيدة حالة كاملة تتداخل فيها الاصوات ويبقى في خلفية اللوحة صوت واحد يشد اليه جميع الالوان لتتشكل القصيدة امتدادا للفعل الحارق الذي مثلته وتمثله فلسطين فـي ثقافتنا العربية .

لكننا حين نصر على اطلاق تسمية القصيدة « المسرحة » على هذا النص الشعري . فاننا ننطلق من ضرورة التمييز بين المستويات المختلفة للتجربة الادبية — الفنية . فالمسرح بوصفه اساسا فن الخشبة لا يستطيع ان يتوقف عنـد الصوت الواحد الا لكي يمده داخل لعبـة لها قواعـدها الخاصة . من هنا يستطيع الشعر ان يتحول الى نص مسرحي — مع محافظته على جميع خصائصه الشعرية — اذا استطاع ضمن مسار آخر ان يدخل الخشبة ويعطيها عمقا متوترا . لذلك تستطيع القصيدة « الدرامية » ان تتحـول الى مشروع عرض مسرحي دون ان تفقد خصائصها . لكنها تبقى قصيدة حتى يتم هـذا التحول في الواقع . عندها لا بد من مناقشتها من منظور آخر يختلف كليا عن المنظور الذي عالجناها به . فماذا كانت

مادة الشعر الاساسية هي اللغــة . فان مــادة الممارسة المسرحية هي التعبير الجماعي من موقع الحركة التي تدخل فيها عناصر عديدة . وبهذا تبطل اللغة ان تكون هي العنصر الاساسي . غــير ان استخدام اللغة الشعرية في تعبير مسرحي يستطيع ان يمد مادة المسرح لتطال ارضا جديدة .

يستطيع الشعر ان يقــول الكثير . فهو حين يرتفع ليشد مفاصل التجربة الثورية في كثافته . يكون قد استطاع ان يوحد كثافتين في عملية واحدة وبهذا المعنى فهو ليس مجرد رجع او صدى للثورة. انه جزء منها . كشوفه ومعاناته هي جزء مركزي من معاناتها التاريخية . والقــدم التي ترتطــم بالارض ، تصل اليها مع الاصرار على القتال . فالتوق الفلسطيني الى الارض كان دائما ممارسة قتال .

طائر الوحدات
واسئلة الشعر

بعد ان روى « الولد الفلسطيني » حكايتــه الاولى ، يعود اليوم ليستنطق « طائر الوحدات » حكايات النضال الفلسطيني ، ضمن اصرار على متابعة الخط الذي ابتدأ منذ المجموعة الشعرية السابقة . فحين يقف احمد دحبور على مشارف الاحزان العربية ، فانه يقف على الارض المليئة بالحزن المقيم الذي زرعه في مجموعته السابقة . لكنه حين يتابع الخط الذي رسمه ، فانه يطــور بعض العناصر ويهمل الاخرى ، في سبيل الوصول الى نبرة شعرية مشحونة بالتوتر الفاجع ، قادرة على التقاط اللحظة الانفعالية زمن تفجرها . غير ان الوصول الى هذا الهدف ، يمر داخل دائرة الانتاج الفني ، في سلسلة من المواقف التي تتشكل داخل القصائد لتؤلف لوحة واحدة تؤكد نفسها من خلال اصرارها على التعبير عن موقف سياسي — طبقي محدد — الفقراء — كما يكتب دحبور . وفي اللجوء الى الصور المفاجئة التي تحدث توترا في النص الشعري ، فتجعله صدى مــن المواقف لانفجار الكلمة الشعرية عبر اللجوء الى الصور . فينساب هذا الصدى انسيابا متفجرا ، ينقــل الفجيعة ، يمتد بها ، او يضيــق مساحتها الى حدود رومانسية يشتد فيها الصراخ مع خفوت شديد في القدرة على البقاء في ذروة اللحظة الفنية .

الافادة التي تقود الى كربلاء : يفتح احمد دحبور مجموعته الشعرية بقصيدة يسميهــا « الافادة » تضعنا في الاطار العام للتجربة الشعرية . يقدم اوراق اعتماده الى الوطن من موقع طبقي واضح. المسألة لم تعد كما في قصيدة درويش التي تحمل نفس العنوان مسألة تأكيد الذات القومية . انها مسألة تأكيد لمن يستطيع ان يصل الى هذه الذات القومية ومن لا يريد هذا الوصول . لذلك تتوتر القصيدة داخل وزنين مختلفين يلعبان دور الصوت والصدى . أي ان تأكيد الذات هنا هي عمليــة هجومية ودافئة في الوقت نفسه . انها الحقد والفرح الطبقيين . لذلك يخدم ايقاع القصيدة موقفها الاولي . اي انه يتشكل من داخل الموقف نفسه ليؤدي الى تداعيات في الصور تقود الى تفجير اللحظة والوقوف عند حافة التكامل في العــودة المباشرة الى الصدى :

« — النهر يصير بساطا للفقراء متى يورد
— الجوع
— الله لا يعبد »

ثم ننتقل مع « جبل المحامــل » الى الايقاع الشعبي عبر اللجوء الى الاغاني الشعبية وتضمينها داخل النص . والتضمين هنا يحمل معنى جديدا لانه لا يقف عند حدود استعارة النص الشعبي ، بل يحاول مد هذه الاستعارة لتصل الــى صلب القصيدة نفسها وتصبح جزءا من انتاج الشاعر . لكن الموقف من التراث الشعبي يبقى أسير الفهم الرومانسي ، اي انه لا يتعامل مع هذا التراث بشكل نقدي . وهذا يعود الى الواقع الفلسطيني المشتت — الممزق ، الذي هو بحاجة الى هذا التراث لتضميد بعض جراحاته على المستوى الفني. غير ان هذا الامتداد الرومانسي يصل الى ذروته

— احمد دحبور : **طائر الوحدات** ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى ، تشرين الثاني ١٩٧٣.

مع قصيدة « صفحة من كتاب الاغوار » حيث يتوقف انفجار الصور ، لنعود الى حوار تشبه بنائيته بناء القصة القصيرة ذات العنصر الواحد . أي يبقى الشعر خارج النص . ويتحرك النص لينقل لنا رسالة محددة الملامح ، لا تسمح بأي محاولة للدخول . انها تفترض الاندماج الكامل ، حتى يصبح لهذا البعد الرومانسي قدرة على الايصال . أي ان الغرق في عملية اجتماعية محددة ، لا يمكن ان يحافظ على النبرة المتوترة التي طالعتنا بها القصيدة الاولى اذا لم يستطع الشعر ان يبتعد قليلا ليضع نفسه ضمن دائرة التعقيد الكبير في الواقع الاجتماعي . « فمجاهد المحمول على الاهداب » هو لحظة بالغة التوتر في تاريخنا المعاصر ، لان شهداء أيلول كرسوا قطيعة كاملة ، لا نستطيع نقلها الى المستوى الفني دون ان نصل نحن كذلك الى العيش داخل هذه القطيعة ايديولوجيا وفنيا .

نعود في قصيدة « الجذر » الى الجو المشحون الذي غرسه السياب في تربتنا الشعرية . فالتفجع من موقع طرح الاسئلة ثم الانتقال الى مرحلة وصف الحالة من داخلها عبر المناداة على مدى شعري طويل ، تذكر بالسياب في مناداته وفي تكومه حول « جيكور » ، لكننا هنا في موقف الرفض الكامل ، لذلك يرتفع الصوت الشعري :

« يقول ما يفهم
الثورة الثورة حتى الحياة » .

يجد هذا الامتداد تتابعه في « نخلة عمان » حيث نرى « وطنا يتدحرج في خوذة واسعة » .

وفي التأكيد الشرطي الذي يتحول داخل الطبيعة، جاعلا منها شاهدا على تحولاته :

« وان أحرقوني ..
تقمصت نارا
وتشهد هذا الرياح » .

وعندما تقف نخلة عمان او تنحني امتدادا الى الوطن فاننا نعود الى ادوات التشبيه لتصبح صلة بين صورتين ولتسمح لكل واحدة بأخذ مداها. ففي قصيدة « عيني يا عيني يا وطني » يستوقفنا هذا الاستعمال الفني في تركيب صورتين داخل زمن شعري واحد . لكن الصورة تبقى قصيرة النفس لانها حين ترطم بالتشبيه فانها تتوقف عن الامتداد لتؤدي دلالة محددة وواضحة :

« — ان اخرج منك ، فكالدمعة
ماء ..
أو ايذانا بالماء » .

هذا التركيب يضع نفسه ضمن انشداد بالغ الحرارة نحو الوطن . فالشعر الفلسطيني المعاصر داخل الارض المحتلة او خارجها يتأسس ارتباطا بالارض ، والوطن يصبح مجموعة من الدلالات المتعددة ، لذلك حين ترتفع في هذا الشعر صيحة الحنين الى الوطن، فانها تؤدي معان كثيرة يلخصها الوطن بوصفه الارض التي من أجلها تسقط الدماء في هذه الكربلاء الجديدة . ودحبور حين يصل الى « كربلاء » فانه لا يصل الى الرمز التاريخي من أجل استعماله كمرجع ثقافي فقط . أي ان الرمز التاريخي لا يشكل هنا مجرد لحظة لاشارة تساعد القصيدة على النمو اعتمادا على هذا المسبق الثقافي . لكن دحبور يحاول ان يتداخل مع المأساة التاريخية ليبني من داخلها حركة جديدة ، تتجاوز المرجع الثقافي وهي تقف على ارضه . يفسح المجال هنا للصوت الواحد الذي يتناوبه تياران : — البعد عن الواقع من خلال علامات من داخل هذا الواقع (النخيل — الماء — الدم) هذا البعد هو الذي يسمح للصورة المفاجئة بالتغلب على النبرة الخطابية :

« ودخلت في موتي وحيدا استحيل
وطنا ، فمذبحة ، فغربة
وأتيت تسبقني يداي » .

من داخل هذا الموت تأتي استحالة سحق ارادة القتال « وتبادلوا رأسي فلم يركب على عنق » . هذا البعد عن الواقع المباشر لا يلبث ان يتداخل مع التيار الآخر الشديد الالتصاق بالممارسة السياسية . لذلك يرفع الشعر اصبعه ليتهم « دنانير النخيل » . أي ان الممارسة الفنية من داخل هذا الاطار الرمزي الذي تسمح به مأساة كربلاء ، لا تلبث ان تلتفت الى الواقع ولو بشكل سريع لتشكل الاساس الذي عليه يقف هذا الرمز. لذلك يأتي الصوت الواحد ليعطي شحنة خطابية وليدفع القصيدة نحو الغاء جميع امكانيات الاتجاهات المتعددة في داخلها . فالفهم السياسي

المباشر هو الاساس في هذه التجربة والممارسة الفنية هي انعكاس لهذه الممارسة السياسية على شكل رجع مباشر .

اسئلة طائر الوحدات :

« يطرح طائر الوحدات أسئلة
فينقسم الرجال الى دموع .. او رجال » .

قبل ان يطرح طائر الوحدات أسئلته ينغرس في التراث الشعبي ، ليقيم من داخله تداعيات معاصرة . فمن داخل ايقاع الدبكة يخرج الواقع المأساوي . تداخل الخطوات مع الواقع . ويلف الايقاع الجميع . لتصبح الدبكة رقصة جماعية حول المأساة ، وسهما يشير الى طريق تجاوزها .

« هوذا منديل الثورة
والدبكة ذروة روعتها ان تبدأ بين الالغام »

من داخل الايقاع تخرج صورة القسام منتصرا أو شهيدا ، ويرتفع الصوت الشعبي في نهاية هذه « الرسالة الشخصية جدا » ليصف بصوت مأساوي الواقع . ثم ينتقل الى تحرير « بيان الفقراء » فنكتشف الوطن « المضيء حتى البكاء » . وتنحاز الى الصور التي تتكوم حول حركة الفعل الذي يعطيها نفسا ايحائيا وتصنفها داخل الحركة في تحولاتها وليس جمودا . أي ان الصور المتتابعة لا تعطي هي الحركة . فالحركة هي للانفعال . للارادة . اما الصور فتتشكل حول الحركة لتضيء جوانبها ولتصل بنا الى الرسم « بالنار الصريحة » ونحن نتلو بيان الفقراء .

غير ان الموقف الوصفي في قصيدة « عرسان للمرأة الصعبة » يذكر في بدايته بالموقف الوصفي الخارجي الذي يسميه نزار قباني الشعر السياسي. اي ان الوصف المباشر من داخل قصر الامير يؤدي الى الوقوع في تقديرية رمزية — منديل البكارة . لكن القصيدة لا تتوقف عند هذه الحدود . انها تفتح الباب الثوري نحو الوصول الى الولادة رغم صعوبتها مخيفا « تنظمنا مع النار » وتفتح الافق امام النخلة الواقفة على النهر كي تصل عبر دعوتها « الى الكلمة التي حذفتها الرقابة » الى احراق المرحلة :

« لم تحن ساعتي بعد ، لكني احرق المرحلة
جرعة من جنون وحلم ،
فأعبر من فسحة بين رأسي ومقصلة ،
لاوسوس في الناس ،
أدعو الى الماء والنار ،
والماء والنار ثانية
ثم ينقسم الخلق بي ،
فجموع تجيء
وأخرى تؤكد لي ان رأسي يستعجل المقصلة » .

نصل هنا من خلال هذا الجموح الى لحظة الاسئلة الصعبة . فطائر الوحدات حين يقذف بأسئلته ، فانه يقف داخل العملية الثورية ليؤكد على قدرة تجاوز المرحلة عمقا في التزام أكثر عنفا . لذلك تدخل عناصر الطبيعة لتتشكل في علاقاتها ببعضها من خلال نقطة التقاطع النضالية افتراضية تجد جوابها في خاتمة الاسئلة. فالمناضل الفلسطيني مطلوب في كل حدود وهو يتحرك بين حدين من الحزن العربي والفرح الفوري . الافتراضية التي تصبح تقديرية محدودة جدا في خاتمة القصيدة ، تصل بنا الى لحظة يتكثف فيها الحزن . فالاشياء الواضحة « حتى الذبح » ، تقود خطى الشعر الى الطوفان كما انها تقود العملية الثورية نفسها التي ينخرط فيها هذا الشعر انخراطا واعيا الى اعادة تأكيد نفسها والوصول الى مستوى اكثر خطرا وخطورة .

الوطن رؤيا متحركة : حين يتأسس الشعر الفلسطيني حول الوطن ، يؤكد في الوقت ذاته على انتمائه الى الشعر العربي المعاصر . فهو يشارك في بناء قواعد هذا الشعر عبر التجاوز . وفي وسط الشعراء الفلسطينيين الشباب . دحبور والمناصرة — على وجه محدد ، يبرز حنين جارف الى الوطن، ومحاولة لاستخلاص دروس فنية من خلال معايشة الالم الكبير الذي تختزنه ثورة الشعب الفلسطيني. لذلك تأتي التجريبية خافتة ويبقى لفح الاصرار على المباشرة كبيرا ، لانه يؤكد على الفعل الثوري بشكل يومي . هكذا تأتي القصيدة في صوت رومانسي واحد . وتلخص التجربة الجماهيرية في اكثر نقاطها حرارة . ففي « طائر الوحدات » تأكيدات جازمة على هذا الاصرار . غير أنه يحمل في المقابل تصورات اولية للمسار الذي يستطيع هذا الشعر ان يتطور في داخله . فمحاولة دمج الاوزان ، والوصول الى الصورة الشعرية الجديدة والمفاجئة ، وربط النداءات بالاسئلة وبالافتراضية التقريرية ، تستطيع اذا اتسعت لتستوعب أبعادا

متعددة ان تقود هذا الشعر الى قدرة تجريبية من منظار ثوري عملي وداخل المستوى الايديولوجي . فحين يؤكد الشعر على التصاقه بالتجربة النضالية الجماهيرية، يستطيع ان يصل الى التجاوز الثوري لشروط مفاصل البناء الشعري التقليدي داخل الشعر الحديث . — التشابيه — الصور غير الخارجة من تتابع الانفعال ، التتابعية التي يفرضها منطق وصل المقاطع الشعرية بمسامير من خارجها (اللجوء الى العطف والتداعي غير المترابط) . غير ان كل هذا لا يستطيع التحقق خارج تجربة حقيقية حارقة تقدمها الحركة الثورية الفلسطينية بوصفها علامة ممارستنا السياسية والفكرية بشكل رئيسي .

طائر الوحدات ، لا يتوقف عن طرح اسئلته . وهو حين يطرحها يستفزنا على الاجابة . لذلك يأتي الشعر ليس كانعكاس مباشر عن الواقع ، بل كمساهم ولو بصفة غير مركزية في بناء تصور ثوري عن مستقبلنا . وهنا على وجه الخصوص تكمن اهمية هذه المجموعة ، بوصفها مشروعا يتكون في الداخل ، وليس على اطراف الالتزام بمعناه الشامل والعميق . فالتجربة تصلنا حارة والاسئلة تتوالد من داخل الاجوبة التي نكتشفها . من هنا يصبح الشعر سؤالا كبيرا ، سالبا ايجابيا اذا أردنا ، ومن هنا ايضا تصبح اهمية التجاوز الفنية أكثر وضوحا ، لان الشعر يطرح اسئلته ضمن العملية الفنية . من شرفتها يقف ليمتد الى الحركة العملية في أكثر روافدها جماهيرية . لذلك يطرح الشعر اسئلته كذلك حول قدرته على التجاوز كبناء فني .

الخروج الى عراء الهزيمة

الجواب المباشر على هزيمة حزيران كان خروجا الى العراء . محاولة للبحث عن نقاط ارتكاز خارج الدائرة اليومية . في الصحراء حيث نرمي كل شيء ونحاول ان نتداخل مع زمن آخر . ان تصير جزءا من حركة تراجع نفسها وتريد ان تعود الى الدخول من جديد في مسار ثوري تغيري . جواب سهيل ادريس في مجموعته القصصية القصيرة «العراء»* هو محاولة الدخول في ما يسميه « زمن الهزيمة والنصر » اي تلمس الاجوبة من خلال الممارسة السياسية النضالية . لذلك تدخل هذه المجموعة في سياق الادب الذي ينسج نفسه حول المسألة الفلسطينية بوصفها حركة تغيير ثورية . أي ان هذه القصص حين تنطلق من الهزيمة لا تتوقف عندها بل تحاول ان تكون مرآة تعكس واقعا يتحول . واقع الهزيمة التي تتحول الى ثورة ... في القصص السبع التي تضمنها هذه المجموعة شريط كتابي واحد . أي انها تؤسس نفسها داخل الواقع الاجتماعي — السياسي . تلتقط بعض لحظاته ، تعيد تركيبه ضمن زمن عادي ومألوف تتابع فيه الحركة البنائية .

التاريخ — الهزيمة — المقاومة : في القصص الخمس الاولى ، محاولة لالتقاط لحظات من النضال الفلسطيني . « الليل والاسلاك » و« زمن الهزيمة والنصر » تنتقلان لوحات من النضال الفلسطيني قبل الهزيمة . واذا كانت « الليل والاسلاك » تحمل في بنائيتها مبرر التقاطها للحظة واحدة — الهرب من الارض المحتلة والعودة اليها — ضمن سياق الموقف السيكولوجي العاطفي السياسي . فان القصة الثانية ، وهي جزء من رواية توقف المؤلف عن كتابتها بعد الهزيمة ، لا تستطيع ان تحمل موقفا متكاملا . فهي مجرد لوحة من لوحات النضال الفلسطيني قبل هزيمة ١٩٤٨ . وتحاول « العراء » نقل الصدمة المباشرة التي أحدثتها الهزيمة . الجو مثقل بالحمى وبعدم القدرة على الرؤية الواضحة وخط التوازي بين حياة المثقف وحياة المقاتل يرسم الاطار العام لهذه التجربة . ثم ننتقل في « شيخ الكرامة » و« العبور » الى لوحتين من نضال المقاومة الفلسطينية . الاثر الثوري لمعركة الكرامة والاصرار على القتال بعد مذابح ايلول . ينقطع هذا الخط في القصتين

* سهيل ادريس : **العراء** ، دار الاداب ، بيروت، الطبعة الاولى ، كانون الثاني ١٩٧٤ .

الاخيرتين « القراءة في العيون المغمضة » و« نكهة خاصة » لنعود الى اجواء قريبة جدا من اجـواء السيرة الذاتية الموضوعة في قالب قصصي التي عودنا عليها سهيل ادريس في رواياته الثلاث .

تنظر هذه المجموعة الى النضال الفلسطيني في تتابعه التاريخي . فالخط الذي يربط القصة الاولى بالقصة الخامسة هو خط مستقيم لا تعرجات فيه . وقصة « العراء » حين تتعـرج وتحمل التواءات عنيفة في هذا الخط فانها تحافظ على السمة العامة. فالتعرج هنا ليس وليد ارادة ذاتية او فنية ، انه انعكاس مباشر للواقع ، للضياع والمهانة والذل بعد هزيمة مفاجئة « صاعقة » سقطت فجاة « ولم يقل لها شيئا ، بل قال لنفسه ان المرء اعجز من ان ينفي الصاعقة حين تنقض عليه » . ثم يتابع الخط حركته الاولى في القصتين الاخيرتين . ان مصدر هذا الخط هو موقف فني واقعي . لكـن الواقعية تؤخذ هنا في اكثر معانيها كلاسيكية . فالقصة هي تعبير عن الواقع . تتعامل معه بشكل مباشر وتقوم بتصويره مـن منظور ايديولوجـي تقدمي . هنا علامة التشديد هي لهذا المنظور مع محاولة لتجاوز الاطار التتابعي التاريخي عبـر اللجوء الى سيكولوجية ابطال القصص ووضعها ضمن شريط الذكريات . فيقوم هذا الشريط بعملية مزدوجة : ــ يضع القصة في اطار واقعي حياتي، فنحن هنا امام شخصيات حقيقية تتصدى لمهمات تاريخية ، ولسنا أمام مهمات تاريخية فقط ــ كما يستحسن الخط القصصي بقدرة على الحركة غير المتوقعة . فتجربة بطلة « الليل والاسلاك » مـع ابرهيم لا تتوقف عند حدود التجربة النضالية ، بل تمتد لتشمل بعدا انسانيا يعطي هذه التجربة قدرتها على الاستمرار ضمن توتر انساني عميق يفرضه منطق العلاقات الانسانية .

تعطي علامة التشديد الواقعية لهذه القصص مذاقا خاصا . فهي لا تستطيع الانفجار ، والتوتر فيها يبقى خافتا ، لذلك فانها حين تلجأ الى البناء الواقعي فانما تنقل موقفا فنيا متكاملا ، لا يلغي التجربة الابداعية ولكنه يضعها في حيز ايديولوجي ظاهر . ينقل الينا البناء القصصي تجربة واحدة . نحن دائما في مستويين فنيين : **السرد** الذي يضم البناء القصصي اليه ، راسما اطاراته الاساسية. انه الخلفية والمساحة التي تتحرك فيها الشخصيات لذلك يحمل السرد نبرة تقديرية ، يجمد الموقف للحظات قليلة ثم يترك الحدث يتشكل ببطء ضمن حوار هو جزء من المقدمـة السردية لانه يأتي ليؤكدها وليعطيها بعدا واقعيا . ثم يأتي **شريط الذكريات** ليشكل زمنا آخر يتداخل مع زمن القصة. انه ماضي الماضي الذي تحمله الحركة القصصية . يؤدي هذا الماضي دورا هاما ، لانه يقوم بالكشف السيكولوجـي أي يتصـدى لاستنطـاق هـذه الشخصيات في تاريخها وفي نوازعها الاساسية . فيتحول العمل القصصي مع تشابك هذين المستويين الى صفحة مستوية ، الى تراكم حدثي يقوم بكل أمانة بنقل الاختيار الايديولوجي على بساط واقعي.

يقود هذا الاستعراض الاولي للبنية القصصية في هذه المجموعة الى طرح مجموعة من الاسئلة :ــ

البناء الفني والانعكاس : تلخص قصة «العراء» البناء الفني عند سهيل ادريس بشكل مكثف . فهي تنطلق من شريط غير واقعي ــ الجندي ــ يلعب هذا المشهد الدور الكلاسيكي الذي تلعبه المقدمة السينمائية . أي انه يضعنا في الجو العام . القمع ــ الذل . ثم ننتقل الى جو واقعي يومي . يدخل بطل القصة الى مكتبه تعطيه سلوى الصحف الاجنبية التي تحمل صورا ذليلة عن حرب حزيران يحس بالضيق ويقرر الذهاب الى شاطىء البحر . هنا يدخل العامل السردي المزوج بالحوار ليرسم لنا الاطار الذي تدور القصة في ظلاله . بعد ذلك يبدأ الكابوس البطل وحيدا في الصحراء ، يرمي الترانزسـتور ، رمز الاعـلام العربي . هنا نبدأ بالسرد المشحون المتوتر وننتقل الى شريط الذكريات الى غسان المقاتل الذي انقطعت اخباره . اما القسم الاخير فيحمل لنا عودة الى الواقع ، لنكتشف ان هذه الرحلة الى الصحراء كانت حمى أصيب بها البطل لتسمح له ان يكفر عن ذنوبه « فأغمض عينيه من جديد ، فرحا ، حزينا . أحزنه الا يحفظ الفارق في التشبيه ، مرة اخرى . ان يقرن بغسان ، ان تشبه رحلته التافهة برحلته الكبيرة العظيمة . ولكنه مع ذلك ، لم يتمالك الا ان يستشعر بعض العزاء : أن يكون قادرا الان على ان يتصور تلك الرحلة ولو تصورا » . يقود هذا البناء الفني الى النظر الى موضوع انعكاس الواقع على الادب انعكاسا غير مباشر ، انه يمر هنا بتجربة وبرسالة ايديولوجية . والقضيتان أي التجربة والرسالة ، هما وحدة فنية تقود الى

التأكيد على اولوية الواقع من جهة وقدرة الادب على رسم هذا الواقع ضمن مفهوم اعادة انتاجه بأدوات من داخله . لذلك تبقى « العـراء » على مستوى الصدمة المباشرة وهي حين تحاول ان تتجاوز واقع الهزيمة بالثورة عليه — الخـروج الى الصحراء — فانها تعود لتكتشف الواقـع اليومي ، المرأة والاولاد وغسان وتفرض استحالة التجاوز عن منطق الانعكاس المباشر .

الواقع النضالي : في « شيخ الكرامـــة » و « العبور » محاولة لتجاوز هذه الاستحالة من داخل الممارسة النضالية. ترسم لنا هاتان القصتان خط تطور المقاومة . في الاولى نكتشف عمق تغلغل الروح القتالية في الجماهير من خلال شيخ الكرامة الذي التحق بالمقاتلين . وفي الثانية نعيش مع الاصرار على القتال بعد مذابح الاردن . فالفدائي وسط النهر يرفض تسليم نفسه الى العدو ويقرر العودة الى القتال . وقال في نفسه فجأة « المعذرة ايها الرفاق سأخونكم هذه المرة . ثم استدرك قائلا : بل الان فقط لا اخونكم . ان قدري هو ان اقاتل ابدا ، حتى وحيدا . ثم ذكر ابنه فقال له : اكبر بسرعة يا وليد . واستدار على نفسه ، وعاد الى ارض الاخوة ، الاعداء ». البناء الذي رأيناه في قصة « العراء » يعود هنا مع بعض التعديلات ومع غياب كامل للجانب اللاواعي الذي فرضتــه الهزيمة ساخنة . غير ان شخصية الشيخ عطا في « شيخ الكرامة » تستحق وقفة خاصة لانهـــا استطاعت ان تحمل كثافة ايحائية . فالقصة تنطلق هنا من شخصية جامحة . انها الشخصية الشعبية بامتياز . فالشيخ عطا حين يعطي نفسه للمقاومة فانه يعطي بغير حساب . تتكون ردات فعله من داخل احساس شعبي بالغ الحساسية الثورية . لذلك استطاعت هذه القصة ان تتجاوز الاطار المرسوم في المجموعة سامحة لافق من نوع آخر بالبروز . انه الصوت الشعبي الذي ينتصب صادقا وقادرا على الاقناع . وهو واقعي بمقدار ما هو الواقع سيرورة ديناميكية لا تجمد عند لحظة .

تنقل لنا هذه التجربة الفلسطينية اطارا تاريخيا محدد الملامح . فهي شهادة على ولادة مرحلة جديدة . لكن هذه الشهادة حين تحصر نفسها في هذه الاشكالية البنائية فانها تجد نفسها مجبرة على ملاحقة التطور الزمني ولا تستطيع ان تشارك في تأسيس زمن فني جديد هو التعبير الفني عن مسار جديد يطمح عمليا الى تدمير الزمن القديم . هذا لا ينفي حقيقة خط التطور . لكنه يخضع هذا الخط لعملية نقدية هي جزء لا يتجزأ من الانتاج الادبي بشكل عام .

العيون المغمضة والتجربة الشخصيــة : في القصتين الاخيرتين ، نكتشف الزمن الشخـصي الحميم . ننتقل بالتجربة الى اطار آخر . شخصي في ملمحه الاولي وقادر في التحليل الاخير عـلى الوصول الى اعتقال لحظة انسانية كاملة . واذا كانت « نكهة خاصة » تغرق في الجو العائلي ويقودها هذا الغرق الى رومانسية مباشرة ، فان « القراءة في العيون المغمضة » تؤكد على قدرة هذا الادب الى الوصول الى ومضة انسانية تلخص واقعا كاملا . نبـدأ القصة بعودة الى الماضي القريب (فلاش باك) . وتنتهي بالواقع الكامــل « حين قبل زوجته ، تلك الليلة ، ظل مغمض العينين . وفي تلك الليلة لم تطلب منـــه ان يفتحهما » . وبين هذين الحدين ننتقل بين السرد والحوار والذكريات . لنصل الى استحالة المغامرة التي ارادها البطل . وهو حين يعود هنا الى استعمال صيغة الغائب ، فانه يفسح مجالا امام الحركة كي تصبح أكثر التصاقا بالموضوع . ويأتي خيط التأملات الذي يمنع الخيالات من الاسترسال جاعلا لها حدا واقعيا. هنا تصل التجربة القصصية الى ذروتها . فمعالم الاشياء يصبح عالم علاقات « وفي الغرفة ، لم يقل انها غرفة جميلة ، فأومأت برأسها، وطلبت منه سيكارة ، فأشعل لها واحدة، واخرى له »... يبقى العالم الذي تفتحه هذه القصة عالما يتحرك ببطء وحذر على ارض ثابتة . أي انه حين يصر على التجربة « الذاتية » ويؤكد على التركيب البسيط لهذه التجربة ، فانه لا يستطيع ان يواكب حركة البحث عن الواقع من داخل علاقته البسيطة التي تفتح افاقا واسعة كما في قصص كنفـــاني القصيرة . أو مذاق الحلم الذي افتتحه زكريا تامر ليقود الواقع الى مستقبله .

اللغة — الايصال : في لغة هذه القصص بساطة وتشدد . أي ان البساطة تحاول هنا ان تغلق الحوار وتجعله الاكثر قربا من اللغة المحكية . أما لماذا عدم استعمال اللغة المحكية ؟ فان الجواب يأتي من سياق القصص نفسها التي تحافظ على تبعيد خاص يأتي من حركتها نفسها ، التي تأتي

ببطء شديد لتدعم السرد والذكريات . ان قصص ادريس حين تؤكد على اولوية السرد والتأملات وتعطيها البعد الاولي في بناء القصة اللغوي ، فانها تكون بذلك قد قللت فاعلية الحوار الى الدرجة التي يصبح فيها بغير حاجة الى استعمال الحرارة المباشرة التي تعطيها اللغة العامية . لذلك لا نفتقد هذه اللغة ، واذا افتقدناها تكون لم ندخل بعد في عالم سهيل ادريس ولا نزال في تشريط استعمال اللغة المحكية على نطاق واسع لا سيما على يد الادباء المصريين . اما التشدد اللغوي فهو في الاصرار على استعمال كلمات بعيدة عن اللغة المحكية في السرد . لذلك تستوقفنا بعض هذه الكلمات لانها تحدث نتوءا في السياق . « رأيته يغض » او « على جاري عادته » غير ان هذه التعابير لا تفرض نفسها على الكتاب . تبقى هامشية . ومن جهة اخرى نكتشف محاولات جادة للوصول الى لغة بسيطة قدر الامكان تستطيع ان تحمل التجربة الفنية وتداخل فيها . اللغة هنا تريد الايصال . تؤخذ كما هي لتنقل تجربة موضوعة على شكل قصة . أي ان العمل على اللغة لا يستغرق جهد المؤلف الذي ينصرف لدراسة الحركة في العلاقات الاجتماعية . من هنا تأتي اللغة منبسطة ولا تحمل تعرجات التجربة وهمومها الا بهدف ايصالها كاملة . اذا اخذنا قصة « العبور » على سبيل المثال فاننا نجد الدور الكبير الذي يلعبه حرف « الواو » فاتصال المقاطع ببعضها يتم بواسطة حرف العطف الذي يحمل هنا معنى تتابعيا . أي ان الاستمرار على نفس الشحنة يؤدي الى اللجوء هنا الى استمرارية كاملة . رغم ان التجربة في القصة تستطيع كسر هذا التتابع . فهي أكثر تجاربنا النضالية مأساوية ودلالات . لكن المحافظة على سياق واحد يؤدي الى خاتمة محددة سلفا بشكل ايديولوجي . من هنا تفتقد اللغة تفجرها لتصبح اداة ، مجرد أداة . وبهذا المعنى تكون « العراء » استمرارا للخط الذي انتهجه سهيل ادريس في حياته الادبية . التزام قومي مباشر وانغراس داخل المسألة الوطنية في سبيل الوصول الى ادب يعبر مباشرة عن مشاكلنا المباشرة .

الياس خوري

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

« الضمير »

قصة الشهيد كمال ناصر

بقلم

هالة سلام

وسلوى الخالدي

٣٢ صفحة باللغة الانجليزية مقرونة بالصور عن الشهيد كمال ناصر : الانسان ، المناضل ، الشاعر .

سعر النسخة ٢ ل.ل.

يضاف اليها أجور البريد الجوي : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في اوروبة ، ٢½ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع .

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

نقاط التقاء في الحوار الفلسطيني : لم تشهد الساحة الفلسطينية في تاريخها حوارا اكثر ديموقراطية ومسؤولية مما شهدته في المرحلة التي اعقبت حرب تشرين الاول . وبالتأكيد فأن ديموقراطية الحوار قد اخصبت الافكار من خلال التعارض والمحصلة وصولا الى الافضل ، كما ان مسؤولية الحوار نبعت من حيث ان موضوعاته لم تعد تمس هامش القضية وانما هي في الصميم منها ، فقد تراجع الى الخلف ترف النقاش وأصبح الجدل في المصير والمستقبل حرصا من الاطراف جميعها وبلا استثناء على المصير والمستقبل . ونقتبس الاخ ابو عمار (في القاهرة ٣ اذار) : « ان الثورة الفلسطينية التزمت منذ البداية مبدأ الحوار الديموقراطي في اتخاذ القرارات وسنواصل الحوار حتى نصل الى قرار بالاجماع » . غير أن السؤال الذي يطرح بعد هذه الفسحة الواسعة من الحوار الى اي مدى تمكنت الاراء به ان تصل الى نقاط التقاء . وبطبيعة الحال لا يفترض هذا السؤال أن تكون الاراء قد **تطابقت** ، ولكن يفترض تأكيدا ان تكون قد توصلت الى **نقاط تماس** فيما بينها والا فان أي حوار يكون ضربا من العبث الترفي ما دامت الاطراف المتحاورة فيه غير قادرة على أن تجعل الخطوط المتوازية تتماس في مفاصل رئيسية بشكل تراكمها الكمي تطورا في نوعية المواقف تقود من خلال عملية الوعي الفاعل لمعطيات المرحلة الى حالة ارقى في الفهم والممارسة معا . ويمكن التأكيد هنا أن الحوار الفلسطيني قد أدى حتى الان مهمته الرئيسية ، او الجزء الاكبر منها ، في ايجاد بقع مشتركة تماست فيها الاراء بل اكثر من ذلك التقت عليها . واي نظرة موضوعية تسقط من حسابها التشنج الذي بدا أحيانا ، ستتوصل الى التعرف على نقاط التماس بل نقاط الالتقاء .

وسنحاول هنا ان نلتقط من الحوار الدائر الان هذه النقاط . وقبل ان نفعل ذلك نشير الى ان الاطر التنظيمية التي تم فيها الحوار الفلسطيني في الشهر الفائت كانت اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية . فقد عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعين لها (١٢ و١٥ شباط) والمجلس المركزي عقد اجتماعا (١٦ شباط) . وذكرت « وفا » انه كان من المقرر ان يتم في هذا الاجتماع مناقشة مسودة ورقة العمل التي تم الاتفاق عليها بين عدد من المنظمات الفلسطينية [فتح والصاعقة والجبهة الديموقراطية] ، غير ان اللجنة التنفيذية قررت في الاجتماع الذي عقدته يوم ٢/١٥ في بيروت تأجيل بحث ورقة العمل بناء على طلب جبهة التحرير العربية والجبهة الشعبية لاعطائهما الفرصة لدراسة ورقة العمل . وأوردت « وفا » في وقت لاحق (٢/١٧) تصريحا للاخ خالد الفاهوم ، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني ، قال فيه ان مناقشة مسودة ورقة العمل قد تأجلت لاتاحة المزيد من الوقت للحوار الديموقراطي للوصول الى موقف موحد من جميع فصائل المقاومة. وذكرت « وفا » ان المجلس المركزي سيواصل اجتماعاته خلال العشرة ايام القادمة . وقد علقت « فلسطين الثورة » (٢/٢٠) على تأجيل اجتماعات المجلس المركزي بأن هذا التأجيل كان « عملا بالاصول الديموقراطية المتبعة في الساحة الفلسطينية من اجل ان يصدر القرار الفلسطيني بالاجماع وليس فقط بالاغلبية المطلقة » . وقد تقدمت الجبهة الشعبية فيما بعد بورقة عمل اخرى .

بعد هذه الاشارة نحاول التقاط نقاط التماس :

١ ـ الهدف الاستراتيجي للنضال الفلسطيني : هناك اجماع على أن الهدف الاستراتيجي للنضال

الفلسطيني هو اقامة دولة ديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني . أكد ذلك — في الشهر الماضي — الاخ ابو عمار اكثر من مرة (في الكويت — « وفا » ٢/٢٠ وفي القاهرة — « وفا » ٢/١٨) : « ان الثورة الفلسطينية لن تتخلى عن اهدافها المعلنة الثابتة بوجوب التحرير الكامل واقامة الدولة الديموقراطية على ارض فلسطين » . وقد تضمنت هذه الحقيقة ورقة العمل التي طرحتها فتح والصاعقة والديموقراطية : « الهدف الاستراتيجي العام : تحرير فلسطين من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني واقامة الدولة الديموقراطية الفلسطينية على كامل التراب الفلسطيني وعودة جميع المواطنين الفلسطينيين الى وطنهم وممارسة حق تقرير المصير والسيادة الوطنية الكاملة » . كذلك فأن ورقة العمل التي قدمها الجبهة الشعبية اعتبرت محورا استراتيجيا « مواصلة تعبئة وتنظيم كل طاقات شعبنا داخل الوطن وخارجه في حرب شعبية طويلة المدى من أجل التحرير الشامل واقامة المجتمع والدولة الديموقراطيتين ضمن اطار مطامح الامة العربية في التحرير القومي والوحدة الشاملة » .

٢ — **السلطة الوطنية على الاراضي الفلسطينية المستعادة :** على الرغم من ان هذه المسألة شغلت الحيز الاوسع في الحوار الا انه يبدو ان هناك تماسا في الاراء ازاءها — « كل ارض فلسطينية ينسحب منها الاسرائيليون سنقيم فوقها دولة فلسطينية » (الاخ ابو أياد في تونس ٣/٥) ، كذلك تؤيد الجبهة الشعبية «اقامة السلطة الوطنية على اي جزء محرر من ارض فلسطين بل أننا نناضل من أجل ذلك » (الاخ بسام ابو شريف لصحيفة « النهار » ٢/١٢) . وقد جاءت ورقتا العمل لتؤكدا ذلك . ففتح والصاعقة والديموقراطية تجعل احد الاهداف الانية والمباشرة للنضال الفلسطيني «انتزاع حق الشعب الفلسطيني العادل والمشروع بقيادة منظمة التحرير في تقرير مصيره بنفسه وحقه في الاستقلال الوطني والسيادة التامة في الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها » وورقة عمل الجبهة الشعبية تعتبر ان احدى المهام المرحلية « فرض سيادة الشعب العربي الفلسطيني على أي ارض فلسطينية يتم تحريرها ليتابع شعبنا من خلالها القتال والكفاح المسلح والنضال السياسي الجماهيري المرتبط به لتحرير الاجزاء الاخرى » .

ويتعلق بهذا الشأن ان اقامة هذه السلطة الوطنية على الارض الفلسطينية المحررة هي حصيلة نضال ، او بتعبير الاخ ابو عمار (وفا ٢/٢٠) « ان استعادة الضفة الغربية هي ثمار النضال الفلسطيني الطويل وليس نتيجة تنازل العدو عنها » . وقد كتبت « فلسطين الثورة » (٢/٢٧) بهذا المعنى « ان تصوير ممارسة شعبنا لسيادته الوطنية واقامة كيان وطني مستقل فوق ارض فلسطين على أنها هبة ومنحة من الامبريالية وليس ثمرة نضال الشعب الفلسطيني هو جهل فاضح بحقائق الوضع الجديد بعد حرب تشرين » . وقد قرنت ورقة العمل الثلاثية في الاهداف الانية والمباشرة **للنضال الفلسطيني** بين « **طرد الاحتلال واجبار العدو** على الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة » وبين « **انتزاع** حق الشعب الفلسطيني ... في السيادة التامة في الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها » . اما ورقة عمل الجبهة الشعبية فقد نظرت الى هذا الشأن من زاوية اخرى تلتقي في محصلتها مع الزاوية الاولى ، فقد أكدت الورقة « ان اي سلطة فلسطينية تقوم على أي قطعة ارض فلسطينية نتيجة التسوية السياسية القائمة على قرار مجلس الامن ٢٤٢ و٣٣٨ لا يمكن الا ان تكون سلطة رجعية ومستسلمة وعلى منظمة التحرير الفلسطينية الا تعترف بها كسلطة ممثلة للنضال الفلسطيني ». واوضحت « الهدف » (٣/٩) هذه الزاوية بقولها « ان تحقيق هذا الشعار المرحلي [اقامة السلطة الثورية على اي جزء محرر من أرض فلسطين] لا يمكن ان يكون في ردهات جنيف ولا يمكن ان يكون في ظل ميزان القوى القائمة الان ولا يمكن ان يتم في ظل مجرى التسوية الحالي ، بل أن هذا الشعار المرحلي يتطلب نضالا سياسيا جماهيريا ونضالا عسكريا يضمن لنا اقامة مثل هذه السلطة دون المساس بحقوقنا في متابعة النضال من اجل تحرير ارضنا الفلسطينية » . ويتطابق هذا الى حد بعيد مع ما ذكره الاخ ابو لطف (في الكويت — « وفا » ٢/١٨) : « نحن نعارض أية تسوية على أساس القرار ٢٤٢ ولسنا في اطار مؤتمر جنيف طالما انه يقوم على منطق ومنطوق هذا القرار وسوف نسعى فعلا للحيلولة دون وقوع تسوية على هذا الاساس الذي ينتقص من حقوق شعبنا ». ويتعلق بهذا الشأن كذلك مسألة رفض التنازلات

مقابل السلطة الوطنية فوق الارض الفلسطينية المحررة . وقد حدد ابو عمار (القاهرة ٣ اذار) ما يلي : « ١ — لا تنازل عن الحق التاريخي لشعبنا في ارضه ووطنه . ٢ — لا تفريط بحقوق الشعب الفلسطيني . ٣ — لا صلح مع اسرائيل . ٤ — لا اعتراف باسرائيل . ٥ — استمرار البندقية الفلسطينية مشرعة في وجه العدو لانها الاساس ». وكتبت « فلسطين الثورة » (٢/٢٧) « ان الثورة ترفض وبشكل قاطع الربط بين ممارسة شعبنا لسيادته الوطنية فوق ارضه وبين الاعتراف بالعدو » . وكتبت « الهدف » (٣/٩) « ان النضال لتحقيق شعار مرحلي مثل اقامة السلطة الثورية على جزء من ترابنا لا يمكن ان يتم بتسليم بنادقنا وتوقيعنا على اتفاقية جنيف » .

٣ — **الحكومة الفلسطينية في المنفى** : حتى الان هناك اتفاق على استبعاد فكرة حكومة المنفى الفلسطينية . رفض الاخ ابو أياد هذه الفكرة (في الكويت « النهار » ٢/١٢) كما اوضح الاخ ابو لطف (« وفا » ٢/٢٨) انه « لا داعي لمثل هذه الحكومة في الوقت الحاضر . فنحن لدينا كمنظمة تحرير وثيقة رسمية بكوننا الممثلين الشرعيين للشعب الفلسطيني من الدول العربية والحلقة تتسع دوليا . وصرح الاخ بسام ابو شريف (« النهار » ٢/١٢) بأن الجبهة تعارض تأليف مثل هذه الحكومة في الوقت الراهن .

٤ — **قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢** : تجمع فصائل الثورة على رفض هذا القرار . ورقة العمل الثلاثية أكدت على « الاستمرار في رفض قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ الذي لا يلبي الحد الادنى لمطالب الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة والذي يتنكر لوجود الشعب الفلسطيني وحقوقه السياسية وينظر الى قضية شعبنا على أنها مشكلة لاجئين بينما هي قضية شعب وارضه التي شرد منها » . كذلك رفضت ورقة عمل الجبهة الشعبية هذا القرار ، وكتبت « الهدف » (٣/٩) « ان وحدة الموقف الفلسطيني يجب ان تقوم على أساس الرفض القاطع لقرار ٢٤٢ الذي يعالج الوضع الناشىء بعد هزيمة حزيران ، وعلى أساس الرفض القاطع لمؤتمر جنيف التصفوي على أساس القرار ٢٤٢ » .

٥ — **عودة النظام الهاشمي** : هذه المسألة هي نقيض اقامة السلطة الوطنية على الارض الفلسطينية المستعادة ، ومن هنا فأن الاتفاق على اقامة السلطة الوطنية في الضفة الغربية بعد استعادتها تستتبع ضمنا رفض عودة الحكم الهاشمي اليها . لخص الاخ ابو اياد هذا الموقف بقوله « لا نقبل ان يحكم الملك حسين اي قطعة من ترابنا حتى ولو كانت صغيرة » . كذلك أكدت ورقة العمل التي قدمتها المنظمات الثلاث « رفض عودة السلطة الهاشمية الى أية ارض فلسطينية يزول عنها الاحتلال » . ويرتبط بهذه المسألة الموقف من النظام نفسه وتتفق ورقتا العمل بالنسبة لهذا الموقف.فالورقة الاولى تؤكد «مواصلة النضال مع الجماهير والقوى الوطنية في الاردن لتصفية النظام الهاشمي العميل وتجديد الوحدة الفلسطينية الاردنية على اسس وطنية ديموقراطية » والورقة الثانية تقول « المباشرة بالعمل الجاد والمدروس لاقامة الجبهة الوطنية الاردنية — الفلسطينية ، ومواصلة النضال ضد النظام الهاشمي العميل لاسقاطه واقامة الحكم الوطني الديموقراطي الذي يسهل متابعة القتال لتحرير فلسطين » .

وبجانب ذلك ، فأن هناك اجماعا تاما على ضرورة الوحدة الوطنية الفلسطينية وحتميتها . وبالتأكيد فان ثمة نقاط التقاء اخرى غير ما ذكر ، الا ان ابرز هذه النقاط التي ذكرت تشير بوضوح الى امكانية القرار الفلسطيني الموحد الذي يلتقي عليه الجميع ضمن الحوار الديموقراطي المسؤول .

محادثات ابو عمار — غروميكو : جاءت زيارة وزير الخارجية السوفياتي الى المنطقة في الشهر الماضي وسط تكهنات دارت حول ان القصد من الزيارة كان في الاساس ارساء معادل لمسعى الوزير كيسنجر الهادف الى الخروج بتسوية شرق اوسطية تحمل ملامحها البصمات الاميركية ، فقد ظهر حتى الان ان كيسنجر هو فارس الحلبة الحريص على طبع حوافر حصانه على وجه التسوية . ومن المؤكد ان مثل هذا المعادل يستوجب تصليب مواقف اطراف النزاع العربية التي لم تنجرف في مضمار الشكل الاميركي من التسوية، كي تكون هذه الاطراف — حتى في وجود تسوية — قادرة على فرض ارادتها بما يمنع اصطباغ التسوية باللون الاميركي الفاضح . من هنا كان الاهتمام بزيارة غروميكو الى دمشق بتحديد،

فسوريا استطاعت ان تقاوم حتى الان الرضوخ لشكل التسوية الاميركي. وتكتسب محادثات الوزير غروميكو مع الاخ ابو عمار (تم ذلك في اجتماعين الاول في القاهرة ٣/٣ والثاني في دمشق ٣/٧) اهمية خاصة اذا نظر اليها من واقع ان الثورة الفلسطينية هي الاقدر على القيام بدور هذا المعادل الذي يضع حدا للانحراف نحو وهدة الطأطأة لاتجاهات التسوية الاميركية السمات والوقوف في وجهها من اجل الخروج بحل يضمن « الممكن الاقصى » ضمن موازين القوى العربية والدولية ومعطيات مرحلة ما بعد تشرين . وكان واضحا ان ابلاغ مصر باعتراف الاتحاد السوفياتي بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني (جاء ذلك في أثناء محادثات غروميكو واسماعيل فهمي في القاهرة ، واعلن عنها الوزير فهمي نفسه يوم ٣/٥) خطوة متقدمة من الجانب السوفياتي لتدعيم هذا المعادل الذي تعزز كذلك بمحادثات ابو عمار — غروميكو . ولكي لا تغمط الثورة حقها ينبغي التأكيد هنا ان الاعتراف السوفياتي بالمنظمة — وهو شكل من الاعتراف الواقعي — ما كان ليحدث لو لم تكن المنظمة بقادرة على المحافظة على احقيتها في تمثيل الشعب الفلسطيني، كما ان محادثات ابو عمار — غروميكو كانت اشارة واضحة الى ان الثورة مؤهلة لان تقف في وجه الشكل الاميركي من التسوية ، ولان تمثل الثقل الاساسي في كفة مزان القوى المرجحة لتحقيق « الممكن الاقصى » لمصلحة قوى التحرر العربية والعالمية كذلك .

وعلى الرغم من أن المصادر الفلسطينية لم تكشف تفاصيل ما تم في محادثات ابو عمار — غروميكو الا ان الانباء الصحافية ذكرت ان محادثات دمشق تناولت الاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وقد أكد غروميكو للاخ ابو عمار ان موسكو تعترف بالمنظمة ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، كذلك تناولت زيارة الاخ ابو عمار لموسكو وقد كرر غروميكو الدعوة التي وجهها الى ابو عمار في القاهرة وان الزيارة هذه المرة ستكون زيارة رسمية — اى بدعوة من الحكومة السوفياتية — وليس شبه رسمية اي بدعوة من لجنة التضامن الافرو — اسيوي كما في السابق ، وايضا ضرورة اتخاذ موقف محدد خصوصا في ما يتعلق بمصير الضفة الغربية وغزة .

العلاقات الفلسطينية — اللبنانية : مرت العلاقات الفلسطينية — اللبنانية في الاشهر التي اعقبت حرب تشرين الاول في واحدة من أدق مراحلها واكثرها مدعاة للمعالجة بمنتهى الحرص والمسؤولية من جانب الثورة . وقد تأتت دقة المرحلة من واقع ان الثورة كانت حريصة على تجنب أي افتعال لاي معركة جانبية تقعد بها من مواصلة نضالها السياسي الذي شمل العالم كله تقريبا من أجل اثبات حقها في تمثيل الشعب الفلسطيني واهليتها لذلك ، وكذلك من اجل ان يكون لها الوجود السياسي الفاعل في ما يطرح عليها ومن حولها ما قضايا تمس صميم القضية الفلسطينية ومستقبل الشعب الفلسطيني . مقابل حرص الثورة هذا كان هناك تعمد مخطط له من جانب اسرائيل على دفع الامور في لبنان باتجاه توتير العلاقات الفلسطينية — اللبنانية بالضرب على اكثر اوتارها حساسية نعني تشديد العمليات العدوانية الانتقامية والاستفزازية على قرى منطقة الجنوب اللبناني اذ أصبحت هذه العمليات في الاونة الاخيرة الخبز اليومي لسكان الجنوب . وكان القصد واضحا من وراء تلك العمليات التي اصبحت تشكل ركيزة أساسية في الاستراتيجية الاسرائيلية في مواجهتها الثورة الفلسطينية تتمثل في تحريض السلطة على الثورة وكهدف ابعد تعريب تصفية الثورة . وخلال الشهر الماضي قامت القيادة السياسية للثورة بجهود كبيرة لتطويق هذه الركيزة في الاستراتيجية الاسرائيلية وشل مفعولها ومنع تأثيراتها. وقد قاد الاخ ابو عمار نفسه هذه الجهود اعلانا منه عن ادراك الثورة لخطورة هذه الركيزة . وقد عقد الاخ ابو عمار اجتماعا في منزل وزير الداخلية اللبناني حضره عدد من المسؤولين عن شؤون الامن في لبنان لبحث الوضع على الحدود . وعلى الرغم من حرص القيادة السياسية للثورة على تطويق اي مضاعفات تؤثر في العلاقة الفلسطينية — اللبنانية ، فيبدو أن ثمة جهات في السلطة كان حرصها على ذلك أقل من حرص الطرف الفلسطيني . وقد تمثل ذلك في حملة على « العناصر غير المنضبطة » في المقاومة التي حملت مسؤولية الاعتداءات الاسرائيلية ، وقد اتخذت هذه الحملة ذريعة لها عمليات نادرة قامت بها احدى الفصائل الفلسطينية على مقربة من الحدود اللبنانية ، غير انه كان

واضحا ان هذه العمليات النادرة لم تكن تستحق الضجة التي قامت بها اسرائيل التي لم يكن ينقصها الحجة والذريعة لشن اعتداءاتها على الجنوب . كذلك فقد اعيد العزف من جديد على نغمة الغاء اتفاق القاهرة الذي يحكم العلاقة الفلسطينية — اللبنانية (جرى ذلك في اقتراحات اثارها بعض النواب في جلسة النواب يوم ٢/١٢) ، كذلك ترددت انباء كثيرة عن حملة اعتقالات تقوم بها السلطة ومداهمات واسعة النطاق ضد انصار الثورة الفلسطينية شملت قرى علما الشعب والخيام والمجيدية وكفر كلا وكفر حمام وراشيا الوادي (صحيفة « اللواء » ٢/٢٦) كما اعتقلت قوات الامن ثلاثة من انصار الثورة في منطقة عين عنوب بجبل لبنان وداهمت مجموعة من البيوت (« وفا » ٢/٢٥) . وفي الوقت نفسه حشدت السلطات الاسرائيلية قوات كثيفة على طول الحدود الجنوبية من لبنان (« المحرر » ٢/٢٦) . غير ان قيادة المقاومة استطاعت بكثير من ضبط النفس ان تتجاوز الاستفزاز فتم عدد من اللقاءات بين المسؤولين الفلسطينيين واللبنانيين لتطويق كل ذلك . ومن ابرز هذه اللقاءات الاجتماع الذي عقد بين اللجنة السياسية العليا للفلسطينيين في لبنان ومسؤولي الامن اللبناني يوم ٢/٢٨ حيث جرى في الاجتماع « بحث حالة الامن وضرورة التعاون بين السلطة وحركة المقاومة . كما طرح موضوع المداهمات والملاحقات التي قامت بها السلطة وعلى نطاق واسع في الاونة الاخيرة والتي تناولت بعض عناصر المقاومة واعضاء الثورة الفلسطينية » (« وفا » ٢/٢٨) كذلك عقد رئيس الحكومة اللبنانية ووزراء منطقة الجنوب الدكتور نزيه البزري والدكتور علي الخليل والسيد فهمي شاهين اجتماعا في يوم ٣/٩ في فندق الكارلتون مع ممثلي المقاومة الاخوة زهير محسن وفاروق القدومي وتوفيق الصفدي وابو الزعيم وكمال البقاعي وقد ذكرت « النهار » (٣/١٠) ان من جملة ما بحث في الاجتماع ان المجتمعين عادوا الى نصوص الاتفاقات المعقودة بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية والتي تحدد اماكن وجود الفدائيين في منطقة الجنوب وضرورة التقيد بهذه الاتفاقات . وقد ادلى الرئيس الصلح بتصريح عقب الاجتماع قال فيه « تأكد لنا مرة اخرى تشدد المقاومة في منع العمل من داخل الاراضي اللبنانية خصوصا ان الظروف السياسية الداخلية والخارجية والعربية تتطلب هذا الموقف » .

النضال المطلبي : في الاشهر الاخيرة شهدت المخيمات الفلسطينية في لبنان حركة ناشطة باتجاه تحسين اوضاعها والزام وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين بتقديم خدمات اوفى واكثر انسانية . وقد تجسمت هذه الحركة الناشطة بالاضرابات التي قام بها السكان وبحركات الاعتصام التي شاركت فيها قطاعات مهنية فلسطينية اسفرت دائما عن وعود بعد مماطلة ، واحيانا نادرة عن تحقيق بعض هذه الوعود تحقيقا جزئيا . وضمن المسار نفسه كانت الحركة التي قامت بها نقابة المهن الطبية الفلسطينية — عمال وكالة الغوث ، في الشهر الفائت والتي ابتدأت باصدار بيان شخصت فيه النقابة الاوضاع الصحية للاجئين الفلسطينيين وخدمات الوكالة التي تقدمها في هذا الصدد من جهة والاوضاع المهنية لعمال المهن الطبية في الوكالة من جهة اخرى . وقد ذكر البيان ان ميزانية القسم الطبي في الوكالة لا تتجاوز نسبة ١٥ ٪ من ميزانية الوكالة العامة ، بينما تدهب بقية الميزانية هدرا والقسم الاكبر منها « يدفع رواتب للموظفين الاجانب وسفريات ومصروفات مزاجية » . وقال البيان ان خدمات الوكالة الطبية التي تقدمها لـ ... ٣٥٠ فلسطيني في لبنان لا تكفي لاكثر من ... ٥٠ فقط ، اذ أن ... ٢٠ انسان لهم طبيب واحد فقط ، ونوعية الادوية السيئة لا تتعدى الدولار الواحد كل ثلاثة أشهر للشخص الواحد ، وميزانية الاشعة لا تتعدى ٥٠ ليرة لبنانية لكل ... ١٠ شخص في الشهر . اما اوضاع المستخدمين المهنية فقد ذكر البيان عنها ان معظم العاملين في القسم لا يزالون يتقاضون رواتب أقل من الحد الادنى للاجور المقررة في وزارة العمل منذ اكثر من عشر سنوات ، مع أن بعض العاملين في هذا القسم قد أتموا دورات تدريبية بناء على توصية من الوكالة ولكنهم لم ينالوا الزيادة التي ينالها متمو هذه الدورات ، كما ان بعض العاملين يحملون مؤهلات علمية ومهنية تعترف بها الوكالة والدولة الا انهم يتقاضون اقل بكثير مما يتقاضى حملة المؤهلات نفسها في الاقسام الاخرى ، وهناك أيضا بعض الدرجات التشجيعية التي تأتي دوريا والتي يستفيد القسم بجزء قليل منها توزع حسب الوساطة والمحسوبية والرشوة .

وهذه الصورة المعتمة دفعت العاملين في قطاع الخدمات الصحية الى مطالبة استمرت شهرين بتحسين الاوضاع ، غير أن المفاوضات والاتصالات مع مسؤولي الوكالة اسفرت عن مماطلة بلا نتائج . وقد ذكر بيان اخر للنقابة نفسها ان الوكالة ما زالت « تمعن في سياستها المعهودة بتجاهل الاحتياجات الصحية البديهية لجماهير شعبنا في المخيمات ، وما زالت تضرب عرض الحائط بكافة الطلبات المحقة التي وجهت اليها من جماهيرنا ومن العاملين فيما يسمى خدماتها الطبية على حد سواء » . وحدد البيان مطاليب النقابة بما يلي : « ● طبيب يومي ثابت في كل مخيم ● فتح عيادات في اماكن تواجد ابناء شعبنا التي لا يوجد فيها عيادات ● مضاعفة الميزانية للادوية وتحسين نوعيتها ● مضاعفة الميزانية لتصوير الاشعة ● التعاقد مع مستشفيات الولادة في كل منطقة ● تغيير بعض المستشفيات المتعامل معها حاليا نظرا لمعاملتها السيئة للمرضى ● الاجر العادل والحق لعمل مستخدمي الخدمات الطبية » . والملاحظ ، وهو ما يجب ان يقدر عاليا ، ان النقابة قرنت مطاليب منتسبيها المهنية بالارتقاء بالخدمات المقدمة الى جماهير الشعب الفلسطيني ، وهذا الاقتران الذي هو خطوة متقدمة في النضال المطلبي يجعل المطاليب تتعدى نطاقها الفئوي لتصبح مطاليب شعبية عامة واهدافا للنضال للجماهير المعنية بها كافة . وقد تحقق ذلك عندما فشلت المفاوضات بين النقابة والوكالة فبدأ موظفو وعمال الخدمات الطبية في الوكالة الاضراب والاعتصام منذ ٣/٤ في مكاتب الوكالة في عين الحلوة وطرابلس وبعلبك وبيروت . وقد كان لهذه الخطوة صدى ووقع في اوساط جماهير المخيمات فقد التقى المضربون مع مجموعات من اللجان الشعبية الفلسطينية في المخيمات التي اكدت تأييدها للاضراب ، كذلك بدأت حملة شعبية في المخيمات لتوضيح عدالة القضية التي يدافع عنها العاملون في الخدمات الطبية (« وفا » ٣/٧) وقد أكدت اللجان الشعبية تضامنها مع موظفي الخدمات الطبية واجتمعت وفود عنها مع مسؤولي الوكالة واكدوا لهم مساندتهم للمطاليب المشروعة لهؤلاء الموظفين واعلنت هذه الوفود عن استعدادها لمشاركة المضربين في اعتصامهم كخطوة تصعيدية في وجه ممارسات مسؤولي الوكالة (وفا ٣/٩) . بجانب ذلك نهجت الاتحادات الفلسطينية النهج نفسه الذي نهجته اللجان الشعبية فقد انضم الى المضربين في الشمال موظفو الخدمات العامة واتحادا المعلمين والعمال الفلسطينيين . واكثر من ذلك فقد حفز الاضراب والمطاليب التي توحد فيها « الخاص والعام » الى تشديد النضال المطلبي على اصعدة اخرى تتكامل مع صعيد الخدمات الطبية . ففي ٣/٩ وزعت الاتحادات الشعبية الفلسطينية في صور بيانا استنكرت فيه « المؤامرة التصفوية التي تستهدف الشعب الفلسطيني » كما نددت « باعمال وكالة الغوث في المجالات التربوية والتي تهدف الى حرمان الطلاب من الكتب والمناهج الوطنية » .

هذا وقد استمر الاضراب والاعتصام حتى كتابة هذا التقرير ١٥ اذار دون ان يتمكن المضربون من نيل حقوقهم على الرغم من انهم هددوا بتصعيد الاضراب ليشمل قطاعات اوسع من سكان المخيمات .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

النظام الاردني في مواجهة رياح التسوية

استحوذت احداث التمرد العسكري في الجيش الاردني التي وقعت في بداية الشهر الماضي على اهتمام المراقبين السياسيين ، وذلك لما اثارته من تساؤلات حول الدوافع الحقيقية لحركة الجيش ، وما يمكن ان تحمله من مدلولات سياسية ضمن اطار التسوية المطروح . وكان من الواضح منذ البداية ان السلطات الاردنية لم توفق في اخراج ما جرى على انه « تحرك عفوي مطلبي » قام به عدد محدود من الجنود لتحسين اوضاعهم المعيشية ، ففي الوقت الذي حاولت فيه مصادر السلطة حصر القضية ضمن هذا الاطار فانها لم تنف بشكل قاطع احتمال وجود دوافع اخرى لحالة العصيان وترك وزير الاعلام الاردني عدنان ابوعوده — في حديثه لمجلة الصياد اللبنانية — الباب مفتوحا أمام مزيد من التكهنات « في انتظار ما يمكن ان تسفر عنه نتائج التحقيق » (مجلة الصياد ١٤ شباط ١٩٧٤) .

ان تصريحات الملك حسين التي جاءت بعد اضطراره لقطع زيارته المتوقعة الى الولايات المتحدة وعودته الى عمان ازالت كثيرا من الاوهام حول هذه المسألة فقد أعلن في اليوم الاول لوصوله « ان ما حدث استهدف بالحقيقة أكثر مما أعلن عنه وانه استغل من قبل بعض الاطراف للقيام بتغييرات في البلد » (النهار ٧٤/٢/١٢) . ولم يكن من قبيل المصادفة بالطبع تركيز الملك في احاديثه خلال تلك اللقاءات المكثفة واليومية مع أجهزة الحكم المدنية والعسكرية على مستقبل الضفة الغربية وتمثيل الفلسطينيين ووحدة الشعب الاردني التي غدت على حد تعبيره « حقيقة وطنية خارقة » (الدستور الاردنية ٧٤/٢/١٥) . الى ان اتهم الملك حركة المقاومة بالتدبير لتلك الاحداث تمهيدا لتدخل مسلح وذلك في خطابه الذي القاه أمام مجلس الامة في ١٤ شباط (فبراير) . واوردت وكالة الاسوشيتدبرس نبأ من عمان نسبته الى مصادر مطلعة جاء فيه ان الملك اتهم منظمة فتح بوضع خطط لاغتياله واغتيال عدد من كبار الضباط بحيث تعم الفوضى الجيش وتشله بعد عملية الاغتيال وتقوم خلايا فتح السرية بتنظيم التظاهرات في الشوارع (انترناشنال هيرالد تريبيون ٢/١٥/ ٧٤) . ويبدو ان هذا النبأ قد سربته مصادر النظام تسريبا فقد ذكره الملك في لقاء خاص مع عدد من النواب والمسؤولين المدنيين ولم ينشر عنه شيء في التلفزيون او في الصحف الاردنية . وبغض النظر عن صحة ادعاءات النظام هنا وما يمكن ان يكون قد رمى اليه ، فان ذلك الموقف يكشف بجلاء الهوية « السياسية » لتحرك الجيش واستبعاد ان تكون تلك المطالب المعيشية هي الدافع الاساسي والمحرك لحالة التمرد وان اتخذت هذا الطابع ظاهريا في محاولة لاستمالة العدد الاكبر من الجنود وضباط الصف ولتوفير التغطية الكافية في تسريب مطالب سياسية محددة هدف اليها محركو التمرد .

ليس ذلك جديدا فقد سيق الجيش في الاردن على الدوام في العمل تحت عناوين مضللة وغير صحيحة — كمحاربة الشيوعية وانهاء التسلط الفلسطيني — وكان من السهل هنا ايضا ان يستخدم الجيش لخدمة اغراض غير مرئية من قبل الجنود وضباط الصف والقطاع الاكبر من الضباط، وبالطبع كان بامكان مدبري التمرد العسكري ان يضعوا ما يشاؤون من الطلبات بعد خروج الجيش من الثكنات وكانت المصادر الصحفية قد تناقلت العديد من تلك الطلبات الا انه يمكن استكشاف الاتجاهات الحقيقية لحركة التمرد بالنظر الى مطالب أساسية ذات مدلول سياسي معين توضح ماهية الصراع القائم بين أجنحة النظام وعلاقته بالتسوية المطروحة وبمصير الفلسطينيين .

بعد ايلول ١٩٧٠ اتضحت معالم اتجاه جديد داخل السلطة يتزعمه الامير حسن شقيق الملك ووضع فلسفته الاولى وصفي التل الذي كان يدعو الى شعار عبر عنه فيما بعد بضرورة « أردنة الاردن » والترجمة العملية لهذا الشعار تعني :

اولا : رفض الاقليات غير الشرق اردنية وابعادها عن المسرح السياسي بعد ان لعب بعضها ولا يزال ادوارا هامة في تاريخ النظام وذلك كنتيجة لتلك الاحساسات الشوفينية والاقليمية

الحادة التي تمخضت عنها مذابح ايلول ٧٠ .

ثانيا : استتبع ذلك طرح فكرة التخلي عن مناطحة الفلسطينيين في تقرير مصير الضفة الغربية بعد ان جرى الحديث عن تسوية وشيكة غير مأمونة قد تطيح برأس النظام .

ثالثا : احكام قبضة النظام على السلطة وقيامه بتحسين الاوضاع الاقتصادية بانتهاج خط التنمية القائم على فرض مزيد من هيمنة الدولة وتدخلها في الحياة الاقتصادية وهو ما اصطلحت مصادر السلطة على تسميته « بالاختيار الثالث » أي الاختيار الواقع بين النظام الرأسمالي الحر والاختيار الاشتراكي .

رابعا : الارتباط بالامبريالية وفق مفاهيم وصيغ أكثر صلابة وذلك على النمط الكاوكي في جنوب فيتنام حيث تعدو مصادر القوة الذاتية « للنظام العميل » وقدرته على ان يلعب دورا حيويا في المنطقة من شأنها ان تعيد التوازن في علاقته بالدوائر الامبريالية وتطغي عليها شيء من الندية والحاجة المتبادلة .

ان تلك المطالب التي انصبت على ضرورة اجراء بعض التعديلات في القيادة السياسية والعسكرية وتشكيل حكومة عسكرية هي الاكثر دلالة على الاتجاه السالف الذي حاول اصحابه بحركة التمرد تشكيل ضاغط قوي على الملك للرضوخ لتلك الطلبات ، وهذا ما يفسر عدم وقوع صدامات مسلحة بين الوحدات العسكرية وعدم اختيار الملك اسلوب العنف بالسيطرة على التمرد بل آثر الفصل بين المطالب المعيشية للجنود والاهداف السياسية للتمرد ، فتحرك بسرعة باتجاه تلك المطالب المعيشية محاولا تلبيتها ليكسب ورقة رابحة من يد خصومه ، بعد ان جرى استخدام تلك المطالب بحذق نتيجة الازمة الاقتصادية الخانقة واوضاع الفساد ، وارتفاع تكاليف المعيشة في البلد ، فقام الملك بعدة خطوات على هذا الصعيد منها :

١ ــ عقد الاجتماعات اليومية مع كبار مسؤولي الدولة والجيش وزيارته لكافة الوحدات والاسلحة والتحدث الى افرادها .

٢ ــ اقرار الزيادة الفورية لكافة مراتب القوات المسلحة في الجيش والامن العام وقد حمل هذا الخزينة مبلغ مليون و٨٠٠ الف دينار في ميزانية سنة ٧٤ .

٣ ــ الاعلان عن انشاء وزارة تموين عهدت مسؤوليتها الى صادق الشرع ــ الضابط السابق ــ واتخذت بعض الاجراءات لتأمين وجود المواد الغذائية الاساسية في الاسواق كالسكر ، الرز ، الطحين ، واللحم باسعار معقولة .

٤ ــ الاتفاق مع الحكومة الرومانية لاجراء البحث عن البترول في الاردن بعد ان ذكر الملك بأن « جميع التقارير تبشر بوجود البترول وان كافة الطاقات والموارد الطبيعية من الواجب استخدامها لرفاهية المواطنين » ! (الدستور الاردنية ٢٢ شباط ٧٤) .

من جهة اخرى فقد كان أمام الملك لمواجهة حركة التمرد القيام بجملة تعديلات في القيادة العسكرية تستهدف تعزيز وضعه . ومن الواضح انه مهد الى ذلك بالادعاء بان حركة المقاومة كانت وراء احداث الزرقاء وذلك ليعطي لنفسه التغطية الكافية لضرب خصومه السياسيين فجرى تسريح عدد من كبار الضباط واحالتهم على التقاعد شملت مساعدي رئيس هيئة الاركان للعمليات والادارة اللواء سليمان تندح واللواء محمد الحاج حسن واعلن الملك عن تعيينات جديدة في ضوء تنظيم جديد للقيادة العامة للقوات المسلحة منها : تعيين اللواء الركن محمد ادريس مساعدا لرئيس هيئة الاركان العامة للعمليات ، اللواء الركن ابراهيم ايوب مساعدا للادارة، الزعيم الركن راكان عناد الجازي مساعدا للقوى البشرية ، والزعيم الركن عبد الهادي المجالي مساعدا للتخطيط (الدستور الاردنية ٧٤/٢/٢٦). هذا في الوقت الذي جرى فيه دعم لكل من رئيس هيئة الاركان الشريف زيد ورئيس الوزراء زيد الرفاعي اللذين طالب المتمردون باقصائهما ، فمنح الملك وساما رفيعا للشريف زيد « تقديرا لجهوده في تحديث الجيش » ، وتراجع الحديث عن احتمال اجراء تعديل وزاري برئاسة حمد الفرحان او بهجت التلهوني .

*

في ظل تلك الاحداث التي شهدتها الاردن صدرت الارادة الملكية بالموافقة على قانون ميزانية الدولة لعام ٧٤ في ١٢ شباط (فبراير) بعد ان جرى اقرارها من قبل مجلس الاعيان والنواب وقد بلغت الواردات المقدرة في الميزانية ١٥٣ مليونا و٦٧ الف دينار والنفقات ١٦٥ مليون و٦٦٧ الف دينار أي

بعجز ظاهر قدره ١٢ مليون و٦٠٠ الف دينار . وثمة ملاحظات يمكن تسجيلها والوقوف عند مؤشراتها السياسية في الميزانية الاردنية الجديدة :

١ — زيادة الاعتماد على مصادر التمويل الخارجي . فمن مجموع الواردات كانت حصة المساعدات المالية والفنية الخارجية والقروض والمساعدات الاقتصادية ما يوازي ٩٧،٠٦٧،٠٠٠ أي ما يقارب ثلثي مواردها العامة (الحرية ٦٦١ ٧٤/٣/١١) وتبلغ حصة الموارد الاتية من مصادر عربية ٢٦،٦٥ مليون بما فيها قيمة المساعدة الكويتية التي أعيدت خلال حرب تشرين (اكتوبر) والبالغة ١٢،٦٥ مليون دينار .

وتغطي الدوائر الامبريالية والرجعية في المنطقة مصادر التمويل الاخرى كالولايات المتحدة التي تقدر مساهمتها بـ ٢١ مليون دينار علاوة على بعض انواع المساعدات الاميركية التي يصعب ادخالها ضمن بنود الميزانية كالمساعدات العسكرية. وكذا قروض وكالة الانماء الدولي ومؤسسة الانماء التي توازي ١٢ مليون دينار وقروض المانيا الغربية وايران التي وقعت هي الاخرى اتفاقا بقرض الى الاردن بمبلغ ثمانية ملايين دولار في نهاية العام الماضي (العمل اللبنانية ١٩٧٤/١٢/١٨) .

٢ — ان الميزانية لا تستند على مصادر دخل مؤكدة ومن المتوقع لذلك ان يزيد العجز عن ١٢،٦٠٠،٠٠٠ الواردة فيها ، وبالطبع سيجري تغطية هذا العجز بمزيد من القروض والتمويل الخارجي كما صرح بذلك ذوقان الهنداوي وزير المالية الاردني (سكتش لبانون ٧٤/٢/١).

٣ — ان الضرائب غير المباشرة لا زالت تمثل النصيب الاكبر من الواردات المحلية وهذا يعني الحاق مزيد من الضرر بذوي الدخل المحدود من سواد الشعب .

٤ — اما اتجاهات الانفاق فتوضح الى حد بعيد المرامي السياسية التي تحكم حركة النظام في هذه المرحلة فهو من جهة قد أعاد دفع المبالغ المخصصة كرواتب للموظفين في الضفة الغربية (١٨ مليون دينار) عدا عن تقديمه تسهيلات اضافية اخرى بالعبور على الجسور والضرائب وذلك في محاولة للسعي لشراء ولاءات الفلسطينيين وتمشيا مع تلك السياسة الجديدة للنظام بعد حرب تشرين (اكتوبر) التي سمتها صحيفة هآرتس الاسرائيلية سياسة « ابتسم للضفة الغربية » .

ثم ان جانبا من تلك النفقات ستخصص لمشاريع التوطين المقترحة للفلسطينيين في مناطق الاغوار ، وكان شمعون بريس — وزير المواصلات الاسرائيلي — قد صرح في ايلول (سبتمبر) الماضي ان حكومته تسعى لتنفيذ مشروع لاعادة توطين اللاجئين يكون بديلا لخدمات وكالة الغوث وينفذ برعاية اسرائيلية. واقترح بيريس تحويل ميزانية الوكالة المخصصة للضفة الغربية وقطاع غزة الى الاردن وقال ان الاقتراح قدم الى الاردن عن طريق نيويورك ولاقى استحسان الاوساط الاردنية (جيروزاليم بوست ٧٣/٩/٢٢) وصرح يورغن فيشنابسكي الامين العام للحزب الاشتراكي الديمقراطي في المانيا الغربية اثناء زيارة له في الاراضي المحتلة الشهر الماضي بأن الملك حسين مستعد لتوطين اللاجئين الفلسطينيين (الثورة العراقية ٧٤/٢/١٤).

من جهة ثانية فقد اوضحت اوجه الانفاق الحكومي زيادة ملحوظة في ميزانية الدفاع على حساب الرفاهية العام للشعب ورغم سعي النظام الحثيث للصلح مع اسرائيل فبلغت النفقات الجارية للجيش بـ ٤٣،٦٠٠،٠٠٠ دينار والامن العام بـ ٦،٥٥٠،٠٠٠ دينار علما بأن الميزانية جاءت خلوا من اشكال المساعدة العسكرية غير المنظورة والمسجلة . وكان رئيس الاركان الاردني قد زار الولايات المتحدة قبيل عيد الميلاد على رأس وفد عسكري بغرض توسيع الجيش وتعزيز أسلحته وكشف الملك النقاب عن ان الحكومة الاردنية قد وضعت برنامجا للتسلح قيمته مليار و٧٥ مليون دولار موزعا على اربع سنوات يشمل تزويد القوات المسلحة بالصواريخ المضادة للدبابات والطائرات المقاتلة والقواعد الجوية ومحطات الرادار (النهار ٧٤/٢/١٤) بينما تحدثت صحيفة سكتش لبانون عن برنامج آخر بلغت قيمته ٤٥٠ مليون دولار يرمي الى زيادة الجيش الاردني بحجم فرقتين مدرعتين وثلاث فرق آلية محمولة . وتطوير سلاحه الجوي بتزويده بسربين من الطائرات المقاتلة طراز FSE المقاتلة وطائرات هيلوكبتر مسلحة من طراز HUYE ورغم عدم تأكيد استجابة الولايات المتحدة للطلبات الاردنية فان تلك الارقام تعكس طموح النظام واصراره على لعب دور الاداة الامبريالية في المنطقة . ومن الملاحظ ان قيمة المساعدة المقررة لكل من اسرائيل والاردن قد استثنيت من المبدأ

العام في التخفيض من قيمة المساعدات الاجنبية الذي أقره مجلس الشيوخ الامريكي في نهاية العام الماضي (سكتش لبانون ٧٤/٢/٢٢)، وعلق المراقبون في حينه بأن الاردن لا يزال يعتبر عاملا مهما جدا للاستقرار في الشرق الاوسط (المحرر ٧٤/١/١١) . لقد استخدمت تلك المساعدات الاميركية للاردن على الدوام لتغطية المساعدات الهائلة المقدمة الى اسرائيل ونالت اسرائيل لوحدها ٢،٥ مليار دولار بين الخمسة المليارات المقررة للمساعدات الخارجية ولم يمنع ذلك عددا من اعضاء الكنيست الاسرائيلي عن التقدم باقتراح للاحتجاج على الولايات المتحدة في نهاية الشهر الماضي لورود انباء عن تزويدها الاردن بصواريخ تاو TOW المضادة للدبابات (نشرة الرصد ٧٤/٢/٢٠) .

*

جاءت احتمالات التسوية السياسية اخيرا لتدفع النظام الاردني الى تحرك سياسي نشيط في محاولة لاستثمار وتوظيف كافة النتائج التي يمكن ان تتمخض عنها التسوية . وبادر النظام الى تقديم مشروع « لفك الارتباط » مع الاسرائيليين في محاولة لقطع الطريق على الثورة الفلسطينية وتناقلت الانباء في بداية شباط (فبراير) الماضي انباء مشروع اردني قدم الى الحكومة الاسرائيلية بواسطة وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر ويقضي المشروع باخلاء الاسرائيليين لمواقعهم في الضفة الغربية لمسافة ١٢ — ١٥ ميلا غرب النهر بحيث توضع الاراضي التي ينسحبمنها الاسرائيليون تحت الادارة المدنية الاردنية (النهار ٧٤/٢/٢). لكن الحديث عن مصير الضفة الغربية لم يكن ليستقبل بالحماس على ما يبدو من طرف الاسرائيليين او الاميركيين قبل الوصول الى صيغة اتفاق على الجبهة السورية . حيث يمكن ذلك الملك من دخول التسوية بصورة أقوى ويمنحه المبرر الكافي للاعلان عن مشاريعه .

على صعيد آخر فان تلك النجاحات السياسية التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية باعتبار انها الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين والتي جاء آخرها في قرارات مؤتمر القمة الرباعي في الجزائر ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور خلال الشهر الماضي لم تغير بعد من الموقف الرسمي الاردني تجاه قضية تمثيل الفلسطينيين التي لا زال يعتبر نفسه شريكا فيها ولم يغير من ذلك موقف الوفد الاردني الى لاهور وعدم اعتراضه على الفقرات الخاصة باعتبار منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين اذ اعلن عدنان ابو عوده — وزير الاعلام الاردني — في اليوم التالي « ان ليس هناك ثمة جديد في موقف الاردن » (الديلي ستار ٧٤/٢/٢٢) . بينما تجاهلت الصحف الاردنية القرار المتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية في عرضها للبيان الختامي للمؤتمر .

ان النظام الاردني في سعيه لدعم مواقعه والالتفاف حول قضية تمثيل الفلسطينيين يحاول جاهدا الاختفاء وراء شعارات « العمل العربي الواحد » و« ضرورات تنسيق الموقف العربي » وقام الملك لهذا الغرض بجملة جولات عربية في الاونة الاخيرة او اوفد مبعوثين خاصين كانت آخرها زيارة بهجت التلهوني — رئيس الديوان الملكي — وعبد المنعم الرفاعي — مستشار الملك للشؤون الدولية — هذا الشهر الى كل من سوريا ولبنان ، بينما يزمع الملك القيام بجولة جديدة بعد عودته من وشنطن .

ان ذلك الحديث الذي اجراه الرئيس السوري حافظ الاسد مع مجلة الصياد اللبنانية في بداية هذا الشهر يوضح خيبة الامل الاردنية رغم ذلك التحرك الواسع فقد اوضح الرئيس الاسد في اول اشارة رسمية سورية لموقف الاردن خلال الحرب الى ان الاردن رفض باصرار الاشتراك في الحرب بفتح جبهته مع اسرائيل رغم الظروف المؤاتية الى ذلك « وانه قام بارسال تلك القوات الى الاراضى السورية من قبيل رفع العتب ليس الا » (مجلة الصياد ٧٤/٣/٥) .

الملك من ناحية اخرى يرى ان التفاهم مع قيادة العمل الفلسطيني انهاء لمشاكله في هذه المرحلة وقد ذكرت مصادر المقاومة الفلسطينية والسلطة الاردنية كلاهما انه قد جرت عدة محاولات من طرف النظام بهذا الاتجاه بايفاد عدد من المبعوثين الخاصين والعرب وقد يكون الرئيس الروماني تشاوشيسكو قد ساهم في تلك المحاولات اثناء زيارته الى المنطقة في الشهر الماضي الا ان تلك المحاولات قد ووجهت بالرفض من طرف المقاومة على ما يبدو . وقد انصبت تخمينات المراقبين

السياسيين الى احتمال اتخاذ الملك موقفا جديدا بعد زيارته الحالية الى واشنطن ، وكانت وكالة اسوشيتدبرس قد ذكرت في رسالة لها من عمان في ٢٧ شباط (فبراير) الماضي ان الملك حسين قد يتخلى عن محاولته لفرض سيطرته على الضفة الغربية وقدرت ان نقطة التحول الجديد في السياسة الاردنية ستأتي مع زيارة كيسنجر الاخيرة الى الاردن التي جاءت في الثالث من هذا الشهر ، الا ان ذلك لم يتم ونفى رئيس الوزراء الاردني زيد الرفاعي نفيا قاطعا تلك الانباء (النهار ٢/٢٨/ ٧٤) ومن الجدير بالذكر ان العلاقات الاردنية — الاميركية كانت مثارا لنقاش طويل طيلة الفترة الاخيرة بعد ان اثار تقرير لصحيفة النهار اللبنانية من عمان في الثامن عشر من الشهر الماضي الشكوك حول تلك العلاقة . وصدرت في عمان في الوقت نفسه بعض الايحاءات في اعتبار ما جرى داخل الجيش من اضطرابات في الزرقاء انه قد جاء بتأثير من الولايات المتحدة لاضعاف موقف الملك حسين في محادثاته مع نيكسون . وان الولايات المتحدة تمارس ضغطا على الملك لاقامة الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية المحتلة بعد انسحاب الاسرائيليين ورغم النفي الرسمي لتلك الانباء والتصريحات التي أطلقت عقب زيارة كيسنجر عن « العلاقات الممتازة » وعن التقاء وجهات النظر الاردنية — الاميركية (الدستور الاردنية ٢/١٩ ، ٧٤/٣/٤) الا انه سيظل من الواضح ان تسوية ما ستأخذ بعين الاعتبار حقوق الفلسطينيين ومن الامور الاكثر قبولا ان يتم ذلك على حساب نظام الملك وليس على حساب اسرائيل كما أفصح بذلك كيسنجر نفسه في الخريف الماضي امام المصمودي وزير الخارجية التونسي آنذاك (البلاغ ٢/٢٥/ ٧٤) .

سيظل ذلك بالطبع مرهونا في التصور الشامل للتسوية وصيغتها النهائية التي هي بالتالي محصلة لحسابات القوى والتوازنات في المنطقة وقد جاءت انباء واشنطن الاخيرة لتؤكد عزم الدوائر الامبريالية على استمرار الدفع بالنظام الاردني للاضطلاع بدوره الخاص في المنطقة ، فنقلت وكالة « اليونايتدبرس » عن مصادر عسكرية في وشنطن « ان الملك حسين تلقى تأكيدات من مستويات رفيعة بأن المساعدات العسكرية الاميركية لبلاده ستستمر » ويأمل الملك في الحصول على قاذفات مطاردة من طراز ف — ٥ ودبابات مزودة بمحرك ديزل وأكدت المصادر الاميركية ان تكاليف هذه العملية تبلغ ٤٠٠ مليون دولار .

وذكر الملك بوضوح كاف — في حديث خاص مع صحيفة النيويورك تايمس — « ان تلك المساعدة ضرورية كي يصبح في امكانه مواجهة تطورات الوضع ، وانه في ذلك لا يفكر في اسرائيل فحسب، بل في سوريا والعراق ايضا » (النهار ٧٤/٣/١٦)، هذا بينما كشف مراسل الشؤون العسكرية في صحيفة « ستار نيوز » المسائية الصادرة في واشنطن المزيد من التفاصيل حول حجم المساعدة الاميركية العسكرية الى الاردن وأبعادها السياسية (نشرة الرصد ٧٤/٣/١٤) .

قد يكون من شأن تلك الانباء الاخيرة ان تردنا في التحليل الى الفحص بعناية في ملامح ذلك الدور المطروح على النظام القائم في الاردن في ظل التسوية السياسية . والى ربط ذلك ميكانيكيا بحدود دائرة الفعل والتأثير للثورة الفلسطينية في هذه المرحلة الدقيقة .

عباس مراد

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

كان أهم تطور دولي على صعيد القضية الفلسطينية في الشهر الماضي استمرار المساعي الامريكية لتحقيق اتفاق فك الارتباط العسكري على جبهة الجولان . ويذكر القارىء انه عند اتمام المفاوضات حول اتفاقية فك الارتباط العسكري على جبهة قناة السويس صرح كل من الرئيس السادات والدكتور كيسنجر بأن سياسة بلاده ملتزمة التزاما قويا بتحقيق اتفاق مشابه على الجبهة السورية . وبعد البدء بعملية تنفيذ فك الارتباط في مصر توجت الجهود الامريكية (والمصرية معها) نحو العمل على الوصول الى نتائج مشابهة في سوريا . ودخلت هذه المساعي مرحلتها الجدية في الاسبوع الثاني من شهر شباط حيث انعقد مؤتمر قمة عربي مصغر في الجزائر (٧٤/٢/١٢) ضم الملك فيصل والرؤساء أنور السادات وحافظ الاسد وهواري بومدين . بحث اجتماع القمة ثلاثة مواضيع رئيسية هي : ١ — قضية رفع الحظر العربي على شحن النفط الى الولايات المتحدة وهو مطلب كان الرئيس السادات يضغط باتجاه تحقيقه منذ ان تم التوصل الى اتفاق فك الارتباط المصري الاسرائيلي . كذلك كانت الولايات المتحدة تلح باستمرار على الزعماء العرب المعنيين كي يعملوا على رفع الحظر . وكما هو معروف أخذت السعودية تميل الى موقف مصر بينما وقفت دول عربية اخرى (ليبيا والجزائر بصورة رئيسية) موقف المعارض لرفع الحظر قبل تحقيق نتائج ملموسة في جبهة الجولان . ٢ — قضية فصل القوات في جبهة الجولان . ٣ — قضية تمثيل الشعب الفلسطيني في مؤتمر جنيف للسلام . وتمخضت القمة العربية المصغرة عن خطوتين هامتين : اولا صدور بيان مشترك أكد الاجماع التام بين الرؤساء حول القضايا التي بحثت ودعا الى الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة والى ضمان حقوق الشعب الفلسطيني في ارضه ووطنه . ثانيا اتخاذ قرار بايفاد وزير خارجية مصر (اسماعيل فهمي) ووزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية (عمر السقاف) الى واشنطن في مهمة مشتركة . وبالفعل غادر الوزيران الجزائر باتجاه العاصمة الامريكية فور انتهاء المؤتمر وهما يحملان رسالة من الزعماء العرب الاربعة الى الرئيس نيكسون . وقد ترددت انباء تقول ان الوزيرين العربيين حملا معهما مشروعا سوريا لفصل القوات. وفي واشنطن أجرى الوزيران محادثات مطولة مع كيسنجر والرئيس نيكسون تناولت موضوع فصل القوات في جبهة الجولان واحتمالات رفع الحظر عن شحن النفط العربي الى امريكا او تخفيفه . وعلى اثر انتهاء المقابلة مع الرئيس الامريكي صرح نيكسون بأن وزير خارجيته سيقوم بجولة جديدة في عواصم الشرق الاوسط لاجراء محادثات مع المسؤولين المعنيين بهدف الوصول الى اتفاق حول فصل القوات العسكرية الاسرائيلية — السورية . كما وصف مباحثاته مع الوزيرين العربيين بانها كانت « بناءة جدا » . وشدد نيكسون في تصريحه على ان هدف كل الحكومات المعنية بأزمة الشرق الاوسط ليس مجرد تحقيق تسوية مؤقتة بل ايجاد سلام دائم مع عودة العلاقات الطبيعية الدبلوماسية والاقتصادية بين البلدان المعنية . كذلك أعلن فهمي بأنه « مسرور جدا لاستمرار الولايات المتحدة في العمل من أجل سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط » وشكر امريكا على جهودها ومساهماتها الفعالة في تحقيق فك الارتباط على جبهة السويس كما رحب بقرار نيكسون بارسال وزير خارجيته الى المنطقة من جديد لاجراء اتصالات بين سوريا واسرائيل . وترددت انباء تقول بان من أهداف رحلة كيسنجر التمهيد لزيارة سيقوم بها نيكسون نفسه الى بعض عواصم دول الشرق الاوسط وكانت مصادر مسؤولة في البيت الابيض قد أعلنت ان الرئيس نيكسون يرغب في القيام بجولة في المنطقة بعد جولته الاوروبية المقررة في شهر نيسان . وأضافت هذه المصادر ان الرئيس الامريكي يريد من الذهاب الى الشرق الاوسط ابراز الدور الذي قام به في مساعي التسوية السلمية . وبالنسبة لاهمية النتائج التي أسفرت عنها هذه الزيارة لواشنطن ذكرت مراجع امريكية مطلعة ان الولايات المتحدة كانت قد قررت تجميد مساعيها لحل ازمة الشرق الاوسط بسبب استمرار الحظر النفطي عنها ، الا ان مبعوثي القمة العربية المصغرة قد « نجحا » في اقناع الرئيس نيكسون بالعودة عن قرار التجميد . كما ترددت انباء ان القمة

العربية قررت رفع حظر النفط قريبا على ان يعاد فرضه طبقا لنوعية التسوية التي تبذلها امريكا في تحقيق التسوية في المنطقة . وكان من نتائج الزيارة ايضا ، على ما يبدو ، عدم لجوء نيكسون الى « لهجة التهديد والتحذير » في كلامه عن أزمة الشرق الاوسط وذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده على اثر انتهاء زيارة الوزيرين العربيين اذ أبدى الرئيس الامريكي شيئا من الليونة في لهجته قياسا الى التهديدات التي كان يطلقها هو ووزير خارجيته في السابق . الا انه عاد الى تأكيد الموقف الامريكي الداعي الى الفصل بين ما يجري على جبهة المفاوضات العربية الاسرائيلية من ناحية وبين مسألة رفع الحظر النفطي العربي . وألح نيكسون الى ان استمرار الحظر لا بد وان يبطىء الجهود الامريكية المبذولة لتحقيق التسوية .

في ٢٦ شباط بدأ كيسنجر زيارته للمنطقة التي شملت دمشق والقاهرة والرياض وعمان وتل ابيب. كانت اول محطة له هي دمشق حيث اجرى محادثات مطولة مع الرئيس الاسد ثم انتقل بعدها الى تل ابيب ثم عاد الى دمشق مرة ثانية . وقد أسفرت هذه التنقلات والمحادثات عن النتائج الهامة التالية : ١ ـ نقل كيسنجر لقائمة بأسماء الاسرى الاسرائيليين في سوريا الى تل ابيب وسماح السلطات السورية لممثلي الصليب الاحمر الدولي بزيارة الاسرى . وقد ذكرت مصادر سورية ان الرئيس الاسد تلقى بالمقابل وعودا حازمة من الوزير الامريكي بالعمل على اقناع اسرائيل بضرورة الانسحاب من الجولان المحتلة . ٢ ـ أخذ كيسنجر علما بوجهة النظر السورية حول موضوع فصل القوات ونقلها الى الحكومة الاسرائيلية . وذكرت مصادر مطلعة ان سوريا تصر على ان يشمل الانسحاب الاسرائيلي في عملية فصل القوات مدينة القنيطرة . ٣ ـ نقل كيسنجر الى الرئيس الاسد مقترحات اسرائيلية حول فصل القوات رفضتها سوريا لانها لا تدعو الى انسحاب القوات الاسرائيلية الا من المناطق المحتلة في حرب اكتوبر ١٩٧٣ . ٤ ـ موافقة كل من سوريا واسرائيل على ارسال مندوبين عسكريين ودبلوماسيين الى واشنطن في المستقبل القريب للتفاوض من خلال كيسنجر حول المرحلة الاولى من فصل القوات في مرتفعات الجولان . وقد أعلن نيكسون في مؤتمر صحفي عقده في ٧ آذار قبول اسرائيل وسوريا ارسال ممثلين عن كل منهما الى واشنطن للبحث في الموضوع المذكور وأكد بهذه المناسبة التزام بلاده باستخدام أقصى ما عندها من نفوذ لدى سوريا واسرائيل لتحقيق فصل القوات في الجولان في أسرع وقت ممكن على اساس عادل ومنصف لكلا الطرفين على حد تعبير نيكسون . وقد ترددت انباء صحفية منسوبة الى مصادر دبلوماسية في القاهرة ان الاتحاد السوفياتي اقترح اجراء محادثات فصل القوات السورية الاسرائيلية في اطار لجنة عسكرية تابعة لمؤتمر السلام في جنيف حيث سيكون من الممكن للاتحاد السوفييتي مشاركة امريكا في الاشراف على المحادثات . الا انه يبدو ان كيسنجر نجح في اقناع المسؤولين السوريين بأفضلية عقد هذه المحادثات في واشنطن وتحت اشرافه هو فقط . فاذا نجحت هذه المحادثات ستنتقل عندئذ الى مؤتمر السلام في جنيف .

وفي القاهرة أجرى الوزير الامريكي محادثات مع الرئيس السادات ادت الى اعلان استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة. وأعلن السادات بهذه المناسبة دعوته الرئيس نيكسون لزيارة مصر . وجاءت الدعوة في مؤتمر صحفي امتدح فيه السادات جهود كيسنجر التي « لا تكل في البحث عن السلام » ووجه عبره نصيحة الى الرئيس حافظ الاسد « بأن يعطي فرصة للدكتور كيسنجر كي يستطيع العمل على تحقيق في سوريا ما حققه في الجبهة المصرية » ، كما أشاد بالموقف الايجابي الجديد للولايات المتحدة من ازمة الشرق الاوسط معتبرا اعادة العلاقات الدبلوماسية فاتحة عهد من الصداقة المتينة بين البلدين . واشار الى ان المرحلة الثانية من مؤتمر جنيف تتوقف على نجاح فك الارتباط على الجبهة السورية وانه لا يمكن الحديث عن السلام في جنيف بدون الفلسطينيين . وقد حضر كيسنجر ، برفقة وزير خارجية مصر الاحتفال برفع العلم على السفارة الامريكية . وصرح كيسنجر بهذه المناسبة بأن بلاده ستعمل مع مصر من أجل اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ومن اجل تحقيق التقدم والاستقرار في المنطقة . كما أكد رغبة بلاده « في ان يعلم اصدقاؤنا المصريون على ان حكومة الولايات المتحدة ملتزمة بالعمل على تحسين العلاقات بين البلدين بصورة مطردة ، وعلى تدعيم اواصر الصداقة بينهما » . واختتم الوزير الامريكي

رحلته في المنطقة بزيارة للاردن حيث قابل الملـك حسين وبحث معه في موضوعين رئيسيين: العلاقات الامريكية الاردنية وجهود امريكا للوصول الـى تسوية سلمية في المنطقة . وذكرت مصادر مطلعة ان كيسنجر أكد للملك بأنه لن يتم اتخاذ ايـة قرارات تتعلق بالاردن بدون الرجوع سلفا الى السلطات الاردنية ، ووصف كيسنجر محادثاته في الاردن بأنها «ودية كالعادة وتعكس الصداقة القائمة بين البلدين » كما اشار الى ان الاتفاق كان كاملا في وجهات النظر حول الموضوعات التي تناولتها المحادثات . وأكد ان العلاقات بين البلدين ممتازة. كذلك اشار رئيس الوزراء الاردني (زيد الرفاعي) الى الاتفاق التام الذي توصل اليه الجانبان في المباحثات .

وعلى اثر انتهاء جولة كيسنجر صرح مسؤول امريكي ومقرب جدا من وزير الخارجية بأنه لم يعد هناك مبرر لاستمرار حظر النفط العربي على الولايات المتحدة بعد دخول سوريا في المساعي الرامية الى تحقيق السلام في المنطقة . أي ان الحكومة الامريكية تعتبر ان تقدما ملموسا قد تم احرازه باتجاه فك الارتباط العسكري في جبهة الجولان وذلك بجهودها ، مما يعني ضرورة مقابلة العرب لهذه الجهود بالمثل .

أمـا بالنسبة للنشاط الدبلوماسي السـوفياتي حول ازمة الشرق الاوسط هذا الشهر فقد اتخذ شكل عدة زيارات قام بها وزير خارجيته — اندريه غروميكو — هدفها اجراء مباحثات مع كبـار المسؤولين المعنيين حول التطورات التي طرأت على الوضع في المنطقة . كانت زيارته الاولى لفرنسا في النصف الثاني من شهر شباط حيث أكد مـن جديد الموقف السوفياتي ازاء النزاع العـربي الاسرائيلي ، مشددا على انه لا بديل لجلاء القوات الاسرائيلية عن كل الاراضي العربية المحتلة من أجل احلال السلام في المنطقة . كما دعا الى الفصل بين القوات السورية والاسرائيلية وجلاء الاخيرة عن كل الاراضي السورية المحتلة . وأكد ان بلاده تؤيد اشتراك سوريا في مؤتمر جنيف للسلام . وفي اواخر شهر شباط قام غروميكو بزيارة مزدوجة الى دمشق على رأس وفد رسمي حيث أجرى محادثات مطولة مع الرئيس حـافظ الاسد تناولت اخر التطورات في الشرق الاوسط وموضوع فصل القوات على جبهة الجولان . وفي اول آذار سافر الوزير السوفياتي الى القاهرة حيث قابل الرئيس السادات ثم عاد مباشرة الى سوريا . وفي دمشق تناولت محادثاته قضايا تدعيم علاقات التعاون بين البلدين والتأكيد عـلى ان مصلحة البلاد العربية تتمثل في تسوية يضمنهـا الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة معا لا امريكا لوحدها . وترددت انباء تفيد ان الرئيس السادات طلب من غروميكو اقناع السلطات السورية بالتحلي بمزيد من الواقعية والصبر فيما يتعلق بمسألة فك الارتباط على جبهة الجولان . وعلى اثر انتهاء زيارته الثانية لدمشق صدر بيان مشترك أعرب عن الارتياح لتطوير العلاقات الثنائية بين البلدين . وأكد موقفهما الثابت بأنه لا يمكن احلال سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط الا على اساس الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق القومية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني . كما شدد البيان على ان اي اتفاق حول سحب القوات يجب ان يعتبر الخطوة الاولى على طريق سحب القوات الاسرائيلية سحبا كاملا من كل الاراضي العربية المحتلة على اساس مواعيد محددة سلفا (جدول زمني للانسحاب) باعتبار ان مثل هذا الاجراء هو جزء لا يتجزأ من التسوية العامة للازمة في المنطقة . كذلك أكد البيان حق سوريا الشرعي في استخدام كافـة الاساليب الفعالة لتحرير اراضيها المحتلة وأهمية اشتراك الاتحاد السوفياتي في الجهود الراميـة الى اقامة السلام في المنطقة وفي كل المراحل التي ستمر فيها عملية التسوية .

أما في القاهرة فقد أعلن الرئيس السادات بمناسبة استقباله لغروميكو انه جدد الدعوة الى الزعيم السوفياتي بريجنيف لزيارة مصر ، وانه تلقى رسالة من القيادة السوفياتية سيرد عليها حالا . ووصف غروميكو محادثاته في مصر بأنها كانت مفيدة جدا . وأكد ما قاله الرئيس السادات بأن الاتفاق بينهما كان تاما حول كل نقطة تطرق اليها البحث . وبهذه المناسبـة أعلن وزيـر الخارجية المصري انه كان واضحا خلال المحادثات مع غروميكو بأن الاتحاد السوفياتي يعتبر منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وان المحادثات تناولت الضمانـات الضرورية لحقوق الشعب الفلسطيني . وعلى اثر

انتهاء الزيارة صدر بيان مشترك أكد ان البلدين يعتبران اتفاق فصل القوات على جبهة السويس خطوة اولى في طريق التسوية الشاملة لازمة الشرق الاوسط . وشدد على ضرورة اشتراك الاتحاد السوفياتي في كل مراحل تسوية الازمة وفي لجان العمل التي أنشأها مؤتمر جنيف . كما أشار الى ضرورة الاشتراك الفلسطيني في محادثات السلام في جنيف . وجدير بالملاحظة انه على الرغم من اشارة البيان المشترك الى تطوير روابط الصداقة والتعاون بين البلدين يبدو ان الاتحاد السوفياتي غير مرتاح على الاطلاق للسيطرة التي حصلت عليها الولايات المتحدة في تسيير جهود التسوية السلمية حتى الان . كما ان الاتحاد السوفياتي قلق ازاء التقارب المصري الامريكي السريع والشديد. وقد ظهر هذا واضحا في الخطاب الذي القاه غروميكو في القاهرة حيث حذر العرب من نوايا الولايات المتحدة قائلا ان « خصوم السلام العادل في الشرق الاوسط يريدون استبدال التسوية الحقيقية للنزاع بمختلف أشكال ما يسمى بالحلول الجزئية لو استطاعوا الى ذلك سبيلا ». وبين الوزير السوفياتي في كلامه ان هؤلاء يريدون فصل الدول العربية عن حلفائها وبث الشقاق بينهما ، ولذلك دعا مصر الى تحسين علاقاتها بالاتحاد السوفياتي وترسيخ التلاحم بين البلدين بدون ان يؤثر ذلك بصورة سلبية على أي طرف ثالث (أي الولايات المتحدة) . وفي كلامه عن العلاقات المصرية السوفياتية حذر بأنه لا يجوز التحرك الى الوراء بل يجب استخدام كل الامكانات المتاحة للتقدم الى الامام . وتعهد بان تسير بلاده بهذا الاتجاه قائلا انه « اذا فعلت مصر كذلك فان صداقتنا لن تكون أقل صلابة من قاعدة الاهرام المصرية المشهورة » . وجاء تعبير آخر عن هذا القلق السوفياتي في تعليق وزعته وكالة انباء نوفوستي (٥ آذار ١٩٧٤) تحت عنوان يفسر نفسه بنفسه وهو « يجب على الدول العربية ان تبقى حذرة . الولايات المتحدة لا تهتم مطلقا بالسلم في الشرق الادنى بل همها الوحيد هو تأمين الاستقرار على خطوط فك ارتباط القوات ورفع حظر النفط العربي » . وبين المقال ان السياسة السوفياتية ستكون اكثر تحركا في المنطقة بعد اتمام عملية فك الارتباط على الجبهة السورية لانها ترى ان السياسة الامريكية لا تهدف الى أكثر من تحقيق فك الارتباط هذا . وعلى الجانب المصري فقد نشرت صحيفة « أخبار اليوم » مقالا لرئيس تحريرها (٣ آذار) انتقد فيه معاهدة الصداقة والتعاون المصرية السوفياتية قائلا « ان الكثيرين يعتبرون ان هذه المعاهدة لم تعد مفيدة خصوصا بعد التفاهم بين واشنطن وموسكو » . وشدد على ان مصر تتبع سياسة توازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وذكرت مصادر دبلوماسية مطلعة ان غروميكو عرض على الزعيمين مساعدات طويلة الاجل ودعما سياسيا كاملا بهدف التخفيف من الاتجاه الموالي للولايات المتحدة الذي يتصاعد في المنطقة .



قام الزعيم الروماني تشاوشسكو بجولة على بعض البلدان العربية في ١٣ شباط شملت ليبيا ولبنان وسوريا والعراق . وكانت أول عاصمة زارها الرئيس الروماني هي طرابلس حيث تباحث مع الرئيس القذافي في العلاقات الثنائية بين البلدين وقضايا النفط وتطورات الوضع في الشرق الاوسط. وقد اغتنم القذافي هذه الفرصة لتوجيه النقد الى السياسة الرومانية بسبب عدم قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل، ولكونها الدولة الشيوعية الوحيدة التي ما زالت تقيم مثل هذه العلاقات . وشدد تشاوشسكو في خطابه على التعاون بين البلدين ومطالبة بلاده بضرورة احلال السلام العادل في المنطقة العربية مما يعني الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة وحل مشكلة الشعب الفلسطيني باعطائه حق تقرير مصيره بنفسه . كما اجتمع الرئيس الروماني الى ممثل الثورة الفلسطينية في ليبيا . وفي لبنان أعلن الرئيس الروماني انه من الضروري اقامة دولة فلسطينية في المنطقة كجزء من التسوية السلمية للنزاع وأكد ان سياسة رومانيا لا يمكن ان تتفق أبدا مع السيطرة على اراضي الاخرين بالقوة مشددا على ضرورة انسحاب اسرائيل من كافة الاراضي العربية المحتلة . كما بين ان بلده ترحب باتفاق فصل القوات على جبهة السويس باعتباره خطوة اولى على طريق الانسحاب الاسرائيلي المذكور . واثناء وجوده في بيروت قابل تشاوشسكو ياسر عرفات على رأس وفد يمثل المقاومة الفلسطينية . وقد أكد تشاوشسكو للوفد ان بلاده تدعو الى الانسحاب الاسرائيلي الكامل

وتطالب بتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومنحه حق تقرير المصير .

بعد لبنان زار الزعيم الروماني دمشق حيث اجرى محادثات مع الرئيس حافظ الاسد وقد وصف مصدر سوري مأذون هذه الزيارة بأنها تمثل « حدثا ذا اهمية خاصة بالنسبة الى مستقبل العلاقات المتنامية بين سوريا ورومانيا وبالنسبة الى مساهمة رومانيا في المساعي المبذولة من اجل التفاهم والتعاون الدوليين لمصلحة قضية السلام في الشرق الاوسط والامن في العالم . » وتناولت المحادثات في دمشق العلاقات الثنائية بين البلدين وقضية فصل القوات في جبهة الجولان . وصدر بيان مشترك اكد على اتفاق البلدين على أنه لا يمكن تحقيق سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط الا بانسحاب القوات الاسرائيلية الشامل من كل الاراضي العربية المحتلة وبحل عادل لمشكلة الشعب الفلسطيني . كما أشار البيان الى انه يجب اعتبار اتفاق الفصل بين القوات في جبهة قناة السويس خطوة اولية على طريق السلام العادل والدائم . كما دعا الى تدعيم الجهود وتنسيقها بين كل الدول والقوى التقدمية من أجل تشكيل جبهة عريضة متحدة للتصدي لضغوط الامبريالية وتحقيق الحرية والسلام في العالم .

أنهى تشاوتشسكو جولته العربية في بغداد حيث جدد الدعوة للرئيس العراقي لزيارة رومانيا وتناولت المحادثات مع الرئيس البكر وجهات نظر البلدين في القضايا التي تهمهما . وجرى ذلك « في جو من الصراحة والاخلاص » . ولم يصدر اي بيان مشترك عن الزيارة .

*

على صعيد دول اوروبا الغربية كان اهم تطور هذا الشهر الموقف الذي اتخذته فرنسا في مؤتمر الطاقة المنعقد في واشنطن في اواخر الاسبوع الثاني من شباط بدعوة من حكومة الولايات المتحدة . وقد اشتركت في هذا المؤتمر ١٣ دولة رئيسية من الدول المستهلكة للنفط ضمت بينها كندا واليابان. وحضر ممثلون عن الاسرة الاقتصادية الاوروبية ومنظمة التعاون الاقتصادي والانماء . ومن المعروف ان الولايات المتحدة ضغطت بشدة على عدد كبير من الدول الصناعية من اجل تشكيل كتلة مجابهة لمواجهة الدول المصدرة للنفط وخاصة الدول العربية . وكان هدف عقد هذا المؤتمر وضع استراتيجية تضمن للدول الصناعية القدرة على مواجهة طاقة الدول المصدرة المتزايدة على التحكم بنفطها وبأسعاره . لذلك هاجم كيسنجر في خطابه الافتتاحي رفع اسعار النفط الخام والاتفاقات الثنائية بين عدد من الدول الاوروبية المستهلكة والدول المنتجة لتأمين حاجات الدول من النفط . وقد عمل الموقف الفرنسي المعارض والمستقل الى امثال المؤتمر والسياسة الامريكية الكامنة خلفه. فقد بين وزير الخارجية الفرنسي جوبير ان هدف كيسنجر هو الاعداد لمجابهة كبرى مع الدول المنتجة باشراف الولايات المتحدة . وقد تضمن خطاب جوبير المؤتمر النقاط الهامة التالية :

(١) النقد الشديد لفكرة انشاء تكتل عالمي يضم الدول المستهلكة للطاقة لانه سيؤدي الى مواجهة شاملة مع الدول المنتجة .

(٢) رفض فكرة انشاء نظام استشاري يعمل بين اوروبا الغربية والدول المستهلكة الكبيرة الاخرى والمقصود هنا الولايات المتحدة وكندا واليابان .

(٣) التأكيد على أن التعاون بين المستهلكين الاوروبيين والدول المنتجة وخاصة العربية سيحل المشاكل المطروحة .

(٤) تبني الاقتراح الجزائري الداعي الى عقد دورة للجمعية العمومية للامم المتحدة لمعالجة مشاكل الطاقة .

(٥) الدفاع عن الاتصالات والاتفاقات الثنائية بين الدول الاوروبية المستهلكة والدول النفطية المنتجة في الشرق الاوسط مع رفض الحجج القائلة بأن مثل هذه الخطوات تستدعي اللوم او تعرض التماسك الدولي للخطر .

(٦) وصف المؤتمر بأنه « تجمع غير شرعي » باعتباره يضم الولايات المتحدة وكندا وهما من اكبر الدول المنتجة للنفط بينما يفترض في المؤتمر أن يكون للدول المستهلكة في الاساس .

وقد لفت خطاب المندوب الايطالي الانظار لدعوته الى التعاون المخلص بين الدول المستهلكة للنفط والمنتجة له وتحذيره من أية مجابهة بينهما .

وعلى أثر انتهاء المؤتمر صدر بيان مشترك كان اهم ما فيه الاعلان عن انشاء مجموعة للتنسيق وظيفتها الاعداد لمؤتمر مقبل يضم الدول المستهلكة والمنتجة . وتضمن البيان تحفظات رسمية فرنسية دعاها جوبير بأنها معارضة رسمية فرنسية لخط المؤتمر .

صادق جلال العظم

تقرير خاص :

مؤتمر القمة الاسلامي الثاني والقضية الفلسطينية

انهى مؤتمر القمة الاسلامي الثاني المنعقد في لاهور اعماله في الرابع والعشرين من فبراير الماضي على المستوى المطلوب في مجال تدعيم القضية الفلسطينية وتعزيز كفاح الشعب الفلسطيني ، والاعتراف الفعلي بمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ونضاله المشروع .

واذا كان المؤتمر الرابع لدول عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر قد اعتبر تجاوزا نوعيا للمؤتمرات السابقة ازاء القضية الفلسطينية ، فان مؤتمر لاهور الاسلامي لا يقل عنه اهمية او خطورة بالنظر لموضوع ومستوى وشمول المقررات الصادرة عنه من جهة، والتأييد الدولي العام الذي حظي به المؤتمر ولا سيما من الصين الشعبية والصحافة السوفياتية الرسمية من جهة اخرى ، فضلا عن محاولات الولايات المتحدة الامريكية في الحيلولة دون التعرض لها في القرارات او الاعلان السياسي بالادانة او الشجب بسبب مساندتها ودعمها المستمر للكيان الصهيوني وعدائها للقضية الفلسطينية والعربية .

ومما لا شك فيه ان ما وصل اليه المؤتمر كان نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلتها الوفود العربية والصديقة مع الوفد الفلسطيني ، خلال جلسات المؤتمر وخارجها .

الدور الفلسطيني في المؤتمر

دعيت منظمة التحرير الفلسطينية لحضور المؤتمر ممارسة بذلك حقها كاملا في تمثيل الشعب الفلسطيني كغيرها من الدول الاعضاء ، وذلك على غير ما كانت تتمتع به في المؤتمرات الاسلامية السابقة من عضوية محدودة . ففي المؤتمر الاسلامي الاول الذي انعقد بالرباط عام ١٩٦٩ دعي الاخ رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية لحضور المؤتمر كضيف بمبادرة من الملك الحسن الثاني رئيس المؤتمر .

كما حضرت المنظمة جميع مؤتمرات وزراء الخارجية ما بين مؤتمر الرباط ومؤتمر لاهور بصفتها عضوا مراقبا ، الا ان الصفة التمثيلية في المؤتمر الاخير قد اختلفت بحيث منح وفد المنظمة حقوق العضو الكامل دون الاشارة الى ذلك في نص معين وبذلك فقد وضعت (فلسطين) ضمن الدول المشاركة في المؤتمر بينما افرد الاعلان السياسي فقرة خاصة للاعضاء المراقبين واخرى للضيوف لم تكن المنظمة من بينهم . وعلى هذا الاساس شارك الوفد باعمال المؤتمر مشاركة فعالة في مختلف اللجان والهيئات بدءا بلجنة الصياغة المصغرة وحتى مؤتمر القمة، واللقاءات الهامة التي اجراها الاخ ابو عمار رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة ورئيس الوفد مع رؤساء الدول مما كان له الاثر البالغ في صياغة القرارات النهائية ، مرورا بلجنة الصياغة العربية ، ولجنة الصياغة الكبرى ، ولجنة كبار المسؤولين التي اضطلعت بالتحضير لمؤتمر وزراء الخارجية ، ومؤتمر وزراء الخارجية ، فضلا عن مشاركته ضمن لجنة المساعي الحميدة التي حملت قرار المؤتمر الى بنجلاديش بدعوتها لحضور المؤتمر .

ففي لجنة كبار المسؤولين التحضيرية لعب الوفد دورا هاما في تعديل تسمية الموضوع الرئيسي الذي سيعرض على الملوك والرؤساء ، فلقد جاء في ورقة العمل الباكستانية المقدمة الى هذه اللجنة : « ان رؤساء الدول والحكومات سيتناولون في المقام الاول ، الوضع في الشرق الاوسط واستعادة حقوق المسلمين في القدس » الامر الذي حمل وفدنا على طلب تعديل هذه التسمية بحيث تصبح (الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية) ، وقد أيد هذا التعديل كل من الجزائر وليبيا والباكستان وموريتانيا والصومال وتركيا ، باعتبار ان القضية الفلسطينية هي جوهر مشكلة الشرق الاوسط ، ولقد اثار هذا التعديل بعضا من النقاش بحيث استقر الرأي في النهاية على أن تكون التسمية « الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية وتمسك المسلمين القوي بمدينة القدس وعزم حكوماتهم الاكيد على العمل من اجل تحريرها » . كما اثارت ورقة العمل الباكستانية امام وفدنا قضية اخرى تتعلق بتمثيل المنظمة في المؤتمر حيث ورد تحت موضوع تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية ما يلي : — (طلب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الاشتراك في

مؤتمر القمة، وعلى وزراء الخارجية طبقا للقواعد السابقة البت في هذا الطلب) .

ولقد اعترض وفدنا على هذا النص وطلب تعديله لكونه يجانب الحقيقة ، فتمثيل المنظمة في المؤتمرات السابقة كان أمرا تلقائيا بصفتها عضو في هــذه المؤتمرات ، ولم يطلب رئيس المنظمة الاشتراك في هذا المؤتمر . وبناء على ذلك جرى تعديل الفقرة المذكورة بحيث اصبحت (وجهت الدعوة الى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مؤتمــر القمة الاسلامي الثاني) .

في اطار لجنة الصياغة : حمل الوفد الفلسطيني معه الى المؤتمر مشروع قرار خاص بالقضيــة الفلسطينية كان من أبرز عناصره ، الاعتــراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ونضاله المشروع ، والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره علــى أرضه ، وحقه في الكفاح المسلح من اجل تحريرها، وقطع علاقات الدول الاسلامية بالكيان الصهيوني على جميع المستويات ، وادانة الولايات المتحــدة الامريكية لمواقفها العدائية ازاء القضية الفلسطينية وتدعيمها لاسرائيل . كما كان الوفد السوري قد تقدم للمؤتمر بمشروع قرار شامل للموقف في الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية ، مما جعل لجنــة الصياغة تعتبر المشروعين أساسا للبحث بهــدف الخروج بمشروع موحد ، الامر الذي استدعــى تشكيل لجنة صياغة مصغرة كان لاشتراك وفدنا فيها الاثر البالغ في تأكيد العنــاصر الاساسيــة الواردة بمشروعه الخاص ضمن المشروع الموحد .

الكواليس بين لجنة الصياغة ومؤتمــر وزراء الخارجية : اتضح من خلال الاتصالات التي جرت بين الوفود وكان محورها الوفد الباكستاني ان هناك عدة دول تعترض على بعض فقرات مشروع القرار الذي فرغت منه لجنة الصياغة المصغرة ، وبالتحديد ما يتعلق بقطع العلاقات مــع اسرائيل وتوقيف شحنات النفط الى كل مــن البرتغــال وروديسيا وجنوب افريقيا ، وادانة الولايــات المتحدة الامريكية ولقد جرت محاولات عدة لاسقاط هذه الفقرات من مشروع القرار قبل عرضه على لجنة الصياغة الكبرى ومؤتمر وزراء الخارجية ، الا ان وفدنا الذي لعب ادوارا هامة في الجلسات الرسمية في مختلف مستويات المؤتمر قد قام بدور لا يقل اهمية عن ذلك في الكواليس والاتصالات الخاصة من أجل تثبيت وعدم اسقاط اي فقرة أساسية من الفقرات المذكورة او حتى مجــرد التغيير في الاسلوب بحيث يبدو اكثر ليونة .

ونتيجة لذلك فقد وصــل مشروع القرار الــى مؤتمر وزراء الخارجية مكتملا كما وضعتــه لجنة الصياغة المصغرة .

مواقف الدول تجاه القرار

اتخذت بعض الدول مواقف منفعلة باديء الامر تجاه الفقرات المتعلقة بقطع العلاقات مع العدو الصهيوني وايقاف شحنات النفط الى البرتغــال وروديسيا وجنوب افريقيا ، وأبرز هذه الدول هي ايران التي أعلنت في اجتماع خاص عقد للبحث بهذا الموضوع حضرته اندونيسيا ، انها ترفض ان يتضمن القرار الصادر عن المؤتمر فقرات تعتبــر تدخلا في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء الامــر الذي يتعارض مع الميثاق الاسلامي للمؤتمر ، وان قضية العلاقات بين ايران واسرائيل هي من صميم السياسة الايرانية العليا الخاصة . اما بالنسبة لايقاف شحنات النفط عن بعض الدول العنصريــة والاستعمارية ، فان ذلك لا يخضــع للسياسة الايرانية بل انه من طبيعة عمل الشركات التــي تتسلم النفط الايراني وتتولى توزيعه ، ولهذا فان ايران تتحفظ الان على هذه الفقرات وستجد نفسها مضطرة لتعليق عضويتها في المؤتمر الاسلامي اذا ما كان هناك اصرار على ابقاء هذه الفقرات فــي مشروع القرار ، ومن هنا جاء موقف اندونيسيا المتضامن مع ايران ، والذي عبر عنه مندوبها في نفس الاجتماع حيث أعلن انه قدم الى المؤتمر ومعه تعليمات من حكومته بأن يعــاضد أي قرار من شأنه تعزيز وحدة المسلمين وترابطهم والحيلولة دون اي قرار ينال من هذه الاهداف ولهذا فان اندونيسيا سترفض اي قرار يعرض المؤتمــر او وحدة المسلمين الى الاهتزاز .

ولقد خلقت هذه المواقف اجواء متعارضة فــي المؤتمر حرصت الباكستان كدولة مضيفة علــى تطويقها وحصرها بكل جهد أملا في انجاح المؤتمر.

واذا كان الاعتراض على قطع العلاقات مــع الكيان الصهيوني وايقاف شحنات النفط جاء من بعض الدول غير العربية فان الاعتراض على ادانة الولايات المتحدة الامريكية كان من بعض الــدول

العربية والباكستان . فلقد أعلن وزير خارجية باكستان وهو رئيس مؤتمر وزراء الخارجية في جلسة المؤتمر المخصصة لدراسة مشروع القرار المرفوع من لجنة الصياغة له ان بعضا من الدول العربية والباكستان قد عقدوا اجتماعا يوم أمس وقرروا حذف كلمة الولايات المتحدة الامريكية من معرض الادانة بحيث تصبح الفقرة عامة دون أي تحديد . وهنا أعلن عن ذلك الاجتماع وعن الوفود التي حضرته ، وهي السعودية ، مصر ، سوريا، الجزائر ، الباكستان . وهنا اخذ الكلمة الاخ ابو اللطف رئيس الدائرة السياسية ورئيس وفدنا لمؤتمر وزراء الخارجية ، حيث وضح معنى ضرورة النص على ادانة الولايات المتحدة الامريكية ، وسبب اصرار الوفد الفلسطيني على بقائها بكلمة شديدة وقوية ،مطالبا المؤتمر بالموافقة على ذلك، مما حمل وزير خارجية المملكة العربية السعودية على الاستغراب من طرح الموضوع بهذه الطريقة، اذ أن قرارا لم يتخذ بالامس حول هذا الموضوع، كما استغرب ممثل الجزائر ذلك أيضا حيث أعلن ان الجزائر هي الوحيدة التي أصرت على بقاء ادانة الولايات المتحدة الامريكية بالتحديد في الاجتماع المذكور .

هذا ولقد وضع موقف الاخ ابو اللطف المدعم من الجزائر وموريتانيا والصومال واليمن الديمقراطية وبعض الدول الاخرى المؤتمر امام خيار وحيد ، هو قبول النص كما ورد في مشروع القرار .

ويبدو ان جهود الباكستان قد أفلحت في اقناع كل من ايران وتركيا واندونيسيا باللجوء الى اسلوب اخر في مجابهة الفقرات المعترض عليها يختلف عن ذلك الاسلوب الذي اشيع في الاجتماع الخاص . وبهذا كان تعقيب كل من ايران وتركيا على القرار بعد اقراره في مؤتمر وزراء الخارجية انهما يتحفظان على الفقرات المذكورة وسوف يوضحان موقف بلديهما الصريح برسائل خاصة ومنفردة الى الامانة العامة وهكذا قبل القرار في مؤتمر وزراء الخارجية متضمنا النصوص الاساسية التي وضعها الوفد الفلسطيني .

القرارات

قرار حول الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية

ان مؤتمر القمة الاسلامي الثاني المنعقد في لاهور في الفترة ما بين ٢٢ — ٢٤ فبراير ١٩٧٤ (٢٩ محرم الى صفر ١٣٩٤) ، **اذ يذكر بالاعلان** الصادر عن مؤتمر رؤساء دول وحكومات البلدان الاسلامية المنعقد في الرباط بين ٩ — ١٢ رجب ١٣٨٩ الموافق في ٢٢ — ٢٥ ايلول ١٩٦٩ والقرارات السابقة للمؤتمرات الاسلامية لوزراء الخارجية الخاصة بقضية فلسطين وازمة الشرق الاوسط **ومنطلقا** من مبادىء واحكام ميثاق المؤتمر الاسلامي وميثاق الامم المتحدة مسجلا بالتقدير والاعتزاز التضحيات البطولية التي تقدمها الشعب الفلسطيني ودول المواجهة العربية في مواجهة المعتدي الصهيوني ، **وبعد** ان بحث التطورات الاخيرة في الشرق الاوسط والموقف الخطير الناجم عن استمرار اسرائيل في احتلالها لاراضي تابعة لثلاث دول عربية شقيقة اعضاء في منظمة المؤتمر الاسلامي واستمرار اغتصاب اراضي فلسطين وتشريد شعبها ،

واذ يعتبر ان هذا الموقف يشكل انتهاكا لميثاق الامم المتحدة وخرقا لقراراتها وللاعلان العالمي لحقوق الانسان ويهدد السلام والامن الدوليين اكبر تهديد ،

ومؤكدا ان استيلاء اسرائيل على الاراضي العربية عن طريق الحرب واستخدام القوة امر لا يمكن قبوله على الاطلاق ويشكل انتهاكا صارخا لاهداف ومبادىء الامم المتحدة وتهديدا بالغا للسلام العالمي كما يشكل تهديدا خطيرا لامن وسلامة وسيادة الدول العربية ،

ومؤكدا من جديد شرعة كفاح شعب فلسطين ضد الاستعمار الصهيوني العنصري ومن اجل استرداد حقوقه الوطنية الكاملة وفي مقدمتها حقه في العودة الى دياره وتقرير مصيره بنفسه ،

اذ يعبر عن عميق قلقه لاستمرار اسرائيل في تهويد مدينة القدس وتغيير معالمها البشرية والدينية والتاريخية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية انتهاكا لقرارات الامم المتحدة الصادرة بهذا الشأن واحكام اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ ،

واذ يعتبر ان مساندة الدول الاعضاء في المؤتمر الاسلامي شقيقاتها الدول العربية في نضالها من اجل استعادة جميع اراضيها المحتلة والحقوق الوطنية المشروعة لشعب فلسطين هو واجب يحتمه التضامن الاسلامي . وان هذا التضامن يجب ان يعبر عنه بطرق عملية فعالة ،

واذ يعرب عن يقينه ان الدعـم العسكـري والاقتصادي والسياسي والادبي الذي تقدمه بعض الدول وبالاخص الولايات المتحدة الامريكية لاسرائيل يمكنها من مواصلة تنفيذ سياستهـا العدوانيـة وترسيخ احتلالها للاراضي العربية ،

واذ يعتبر ان الاحتفاظ بعلاقات مع اسرائيل في المجـالات السياسيـة والاقتصادية والتجاريـة والمواصلات وغيرها يساعد على ترسيخ احتلالها والامعان في تنفيذ سياستها التوسعية ،

١ ــ يقرر ما يلي :

أ ــ المساندة الكاملة والفعالة لمصر وسوريا والاردن والشعب الفلسطيني في نضالهم المشروع لاسترجاع جميع اراضيهم المحتلة بكافة الوسائل ،

ب ــ العمل في كافة المجالات لحمل اسرائيل على الانسحاب الفوري غير المشروط من جميـع الاراضي العربية التي تم احتلالها منذ حزيـران (يونيو) ١٩٦٧ . كما تتعهد الدول الاعضـاء باتخاذ كافة الاجراءات المناسبة من اجل تحقيـق هذا الانسحاب ،

٢ ــ **يطالب** جميع الدول مساندة شعب فلسطين بكافة الوسائل في نضاله ضد الاستعمار الصهيوني العنصري الاستيطاني لاستعادة حقوقه الوطنيـة كاملة ويؤكد ان استعادة هذه الحقوق يشكل شرطا أساسيا لاقامة سلام عادل ودائم ،

٣ ــ **يؤكد مجددا** ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطينـي ونضاله المشروع .

٤ ــ **يطلب** الى الدول الاعضاء التي لم يتم فتح مكاتب للمنظمة فيها بعد تيسير ذلك تنفيذا لمقررات المؤتمرات الاسلامية السابقة .

٥ ــ **يعلن** صلة المسلمين القوية بمدينة القدس الشريفة وعزم حكوماتهم الاكيد على العمل مـن أجل تحريرها واعادة السيـادة العربية اليهـا واصرارهم على ان لا تكون القدس موضع مساومة او تنـازلات .

٦ ــ **يدين** انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسـان في الاراضي العربية المحتلة ورفضها تطبيق اتفاقية جنيف لسنة ١٩٤٩ الخاصة بحماية المدنيين وقت الحرب ، وسياستها في تهويد طبيعة الاراضـي المحتلة ذاتها وشخصيتها الثقافية ويعتبر أن مثل هذه الاعمال والممارسات جرائم حـرب وتحـد للانسانية جمعاء .

٧ ــ **يعتبر** ان جميع التدابير التي اتخذتهـا اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة لتغيير معالمها البشرية والجغرافية والاجتمـاعية والثقـافية والاقتصادية بما في ذلك التدابير التـي استهدفت ضم وتهويد مدينة القدس الشريفة هي لاغية وباطلة ولا يمكن الاعتراف بها او بنتائجها ،

٨ ــ **يدين** جميع الدول التـي تقدم الدعـم العسكري والاقتصادي والبشري لاسرائيل ويطالبها بالكف عن ذلك في الحال ،

٩ ــ **يحيي** المبادرات البناءة التي قامت بها الدول الافريقية الشقيقة اعضاء منظمة الوحدة الافريقية وغيرها من الدول الصديقة من حيث تأييد الحق العربي وقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل .

١٠ ــ **يدعو** الدول الاعضاء في المؤتمر الاسلامي الى مواصلة تأييدها للقضايا الافريقية ومعاضدتها في كفاحها ضد الاستعمار والنظم العنصرية خاصة في روديسيا وجنوب افريقيا والمستعمرات البرتغالية وانهاء جميع اشكال التعاون والتعامل مع هـذه النظم وعلى وجه الخصوص حظر كافة شحنات النفط ومنع اي خروج على تلك القاعدة ،

١١ ــ **يطالب** الدول الاعضاء التي لا تزال لها علاقات مع اسرائيل بأن تقطع هذه العلاقات فورا في كافة المجالات تدعيما للتضامن الاسلامي .

١٢ ــ **يطالب** ممثلي سائر الدول الاعضاء بتنسيق انشطتها في المحافل الدولية بما يكفل تنفيذ هـذه القرارات .

١٣ ــ **يطلب** الى الامين العـام للمؤتمـر الاسلامي متابعة تنفيذ هذه القرارات ورفع تقرير عنها الى المؤتمر ..

ونظرا للمكانة الخاصة لمدينة القدس الشريفة في نفوس الشعوب الاسلامية وشعب باكستان بشكل خاص فقد طلب وفد باكستان ان ينفرد المؤتمر بقرار خاص بمدينة القدس مراعاة لذلك ، وعلى هذا الاساس فقد اقر المؤتمر القرار التالي بخصوص مدينة القدس الشريفة .

قرار بخصوص القدس :

ان مؤتمر القمة الاسلامي الثاني :

ــ **اذ يؤكد من جديد** التزامه بالقرارات الصادرة عن مؤتمر القمة الاول والقرارات الصادرة عـن المـؤتمرات الاسلامية السابقة لوزراء الخـارجية بشأن مدينة القدس الشريفة .

— **واذ يذكر** مرة اخرى بالصلة العميقة الجذور التي تربط المسلمين بالقدس اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .

— **واذ يعتبر** ان استمرار احتلال اسرائيل للقدس ومحاولاتها ضمها وتهويدها متحدية بذلك قرارات مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة فضلا عما حدث في ظل احتلالها من اعمال تخريب وتدنيس للاماكن المقدسة — أدى الى تفاقم التوترات في الشرق الاوسط وأثار استياء الشعوب في كافة ارجاء العالم .

— **واذ يدرك** ضرورة حماية القيم الروحية والمعنوية التي تمثلها الاماكن المقدسة في مدينة القدس الشريفة .

— **واذ يسجل** القرارات الصادرة عن الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٢٢٥٣ (ES-V) ورقم ٢٢٥٤ (ES-V) وعن مجلس الامن رقم ٢٥٠ (١٩٦٨) ، ٢٥١ (١٩٦٨) ، ٢٦٧ (١٩٦٩) ، ٢٧١ (١٩٦٩) ، ٢٩٨ (١٩٧١) بشأن القدس وخاصة بالقرار رقم ٢٥٢ (١٩٦٨) التي تنص صراحة على مبدأ عدم جواز اكتساب الارض باستخدام القوة .

١ — **يدين** التدابير التي تتخذها اسرائيل لتهويد مدينة القدس الشريفة ورفضها الامتثال لقرارات الجمعية العامة ومجلس الامن التي تطالب بالغاء كافة الاجراءات المؤدية الى ضم مدينة القدس الشريفة لاسرائيل او تغيير الطابع الديني والتاريخي للقدس واعتبار هذه التدابير والاجراءات لاغية وكأنها لم تكن .

٢ — **يطالب** بانسحاب اسرائيل الفوري من مدينة القدس الشريفة .

٣ — **يعلن** ان اعادة السيادة العربية الى القدس يعد شرطا رئيسيا ولازما لاي حل في الشرق الاوسط وان اي حل لا يعيد هذا الوضع الى سابق عهده لن تتقبله البلدان الاسلامية كما أنه يرفض أية محاولة لتدويلها .

٤ — **يقرر** مواصلة الجهاد في سبيل تحرير مدينة القدس الشريفة وصيانة مقدساتها ، ويصر على الا تكون موضعا لاية مساومة او تنازلات كما يرحب بأية جهود ودية تخدم ذلك .

موقف الاردن والتحفظ المزمن

أعلن احمد طوقان رئيس وفد الاردن لدى مؤتمر وزراء الخارجية تحفظه على الفقرة الثالثة من القرار الخاص بالشرق الاوسط والقضية الفلسطينية ، وهي الفقرة المتعلقة بتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني ونضاله المشروع . الا ان تحفظه هذا جاء بعد اعلان قبول القرار فقرة فقرة ككل من قبل رئيس المؤتمر حيث اعتبر اي حديث حول القرار او احدى فقراته خرقا للنظام في المؤتمر ، وهكذا سقط التحفظ الاردني عندما تمكن الوفد الاردني من اعلانه في هذا المؤتمر بينما بقي حبرا على ورق عندما لم يتمكن الوفد نفسه من اعلانه في مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر .

ملاحظة اخيرة

تعتبر القرارات التي اقرتها الدول الاسلامية في مؤتمرها الثاني للقمة هي الاولى من نوعها على مستوى هذا التجمع الدولي ، اذ أن مؤتمر القمة الاول الذي عقد عام ١٩٦٩ بالرباط لم تصدر عنه قرارات خلافا للاعلان السياسي . وبهذا يعتبر مؤتمر القمة الاخير هو مؤتمر القمة الاول الذي اصدر قرارات الى جانب الاعلان السياسي العام.

أظهرت قرارات المؤتمر الاخير تماسك مواقف الدول الاسلامية شبه الموحدة ازاء القضية الفلسطينية والعربية لدرجة انها تعتبر نقلة نوعية هامة اذا ما قورنت بقرارات مؤتمرات وزراء الخارجية الاربعة السابقة لهذا المؤتمر . يضاف الى هذا ان القيمة العملية لهذه القرارات ستبقى محدودة الفعالية ما لم تسع كافة الاطراف المعنية على حد سواء الى تطبيقها والخروج بها من دائرة التعهد الى تنفيذ التعهد بعينه . وهو الامر الذي يحتاج الى متابعة ومثابرة تحت أي شكل من أشكال الاتصال سواء من خلال علاقات الدول الاسلامية بالامانة العامة او من خلال الاتصالات الثنائية بين الدول وبعضها البعض .

كما يتطلب ذلك من منظمة التحرير الفلسطينية ان تسعى باستمرار الى تذكير وحث وزراء الخارجية للدول الاسلامية كلما التقوا في مؤتمراتهم وعند اجتماعهم القادم قريبا بضرورة وضع جميع المقررات السابقة والمقررات الاخيرة موضع التنفيذ.

الدكتور نبيل الرملاوي

(٤) المناطق المحتلة

اعادة صرف رواتب الموظفين

بعد حرب تشرين الاول ، وفي غمرة التحرك الواسع للنظام الاردني لاعادة سيطرته على الضفة الغربية المحتلة ، قوي الاتجاه المؤيد لاعادة صرف رواتب موظفي الادارة الاردنية في الضفة المحتلة، في محاولة من النظام لخلق تيار مؤيد لعودته الى الضفة مسلحا بمصالح مادية ثابتة . ففي ١٩٧٤/٢/٧ نشرت جريدة الدستور الاردنية ان « اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة » قررت اعادة صرف رواتب الموظفين الذين عادوا الى الضفة الغربية بموجب جمع شمل العائلات واوقفت رواتبهم بعد تاريخ ١٩٧١/٨/١٠ والذين عادوا بعد هذا التاريخ اعتبارا من تاريخ اعادة صرف رواتب موظفي الضفة الغربية .

وخطت الحكومة الاردنية بعد ذلك خطوة اخرى في مجال توسيع دائرة من يشملهم قرار اعادة صرف الرواتب . فنشرت جريدة الشعب التي تصدر في الضفة المحتلة انه بناء على التوصية المرفوعة من وزير الداخلية الاردني للشؤون البلدية والقروية ، حول رواتب موظفي امانة القدس التي جرى تجميدها بعد شهر آب ١٩٦٧ ، وافق رئيس الوزراء الاردني على اعادة صرف رواتب موظفي امانة القدس ممن ظلوا في عملهم لاداء خدمات عامة للسكان العرب (الشعب ٧٣/٢/١١) .

وكانت فكرة اعادة الرواتب لموظفي البلديات في الضفة الغربية قد بدأت في نهاية العام الماضي — خاصة بعد حرب تشرين — غير ان « المكتب التنفيذي لشؤون الارض المحتلة » والتابع لرئاسة الوزراء الاردنية ، رفض ذلك استنادا الى قرار « اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة » رقم ٧٣ الصادر بتاريخ ١٩٧٣/١/١٠ . وكان قد جاء في هذا القرار — وفيما يتعلق باوضاع موظفي امانة القدس — النص التالي : « بغض النظر عن أي قرار او قانون سابق يعتبر جميع موظفي امانة القدس الذين عملوا لدى بلدية القدس الاسرائيلية معزولين عن عملهم لدى تلك البلدية وبأثر رجعي ولا يستحق اي منهم اي مبلغ كراتب او اجر او تقاعد » .

وكان موظفو الامانة قد زاولوا عملهم بناء على طلب من أمين القدس واعضاء الامانة بعد حرب حزيران مباشرة وذلك بناء على تعليمات خطية من رئيس الوزراء الاردني في ذلك الوقت سعد جمعة. وقد جاء في هذه التعليمات المؤرخة في شهر آب ١٩٦٧ — حول الموظفين العرب بما فيهم موظفي البلديات وامانة القدس — انهم جزء من الجهاز الاداري الاردني . وقد اذيع هذا الامر من اذاعة عمان عدة مرات في حينه . وقالت صحيفة الشعب التي اوردت تلك التفاصيل ان راديو عمان كان قد أذاع تعليمات سعد جمعة على النحو التالي : « كافة الموظفين الذين يتولون العمل في توفير الخدمات العامة للموظفين الاردنيين في الضفة الغربية ، لا بأس من تعاونهم .. شرط ان لا يسيء ذلك الى وحدة الكيان الاردني او الى خدمة اي غرض سياسي لاسرائيل » .

غير أن قرار الحكومة الاردنية الاخير القاضي بصرف رواتب موظفي امانة القدس جاء على أساس ان الحكومة لم تتخذ اجراءات ضد « موظفيها » العاملين في اجهزة مختلفة بالقدس . ولذلك فليس هناك فرق من حيث المبدأ بين هؤلاء وبين موظفي الامانة ، فكلهم يخضع لقوانين وانظمة وضعتها الحكومة الاردنية نفسها . (الشعب ٧٤/٢/١١) .

ومرة اخرى ذكرت « الشعب » في عددها الصادر بتاريخ ٢/٢٦ ، ان الحكومة الاردنية اصدرت تعليمات لمواطني الضفة الغربية الذين يعملون في الدوائر الحكومية في الاردن بأنه سيجري صرف راتب اي موظف يتم جمع شمله بواسطة اهله او اقاربه من اجل العودة الى الضفة الغربية . وقالت « الشعب » ان صرف راتب الموظف الذي يجمع شمله سيستمر سواء عاد لمزاولة عمله في الضفة الشرقية او الضفة الغربية (الشعب ٧٤/٢/٢٦) .

بعد ذلك أصدرت « اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة » عدة قرارات تتعلق برواتب موظفي الضفة الغربية تحت القرار رقم ١٠٩ ومؤرخ في ١٩٧٤/١/٣١ . ومن بينها :

١ — صرف علاوة غلاء معيشة بمعدل ٥٠ بالمئة

من الراتب الاساسي لكل موظف مصنف او غير مصنف ، او موظف بعقد او مؤقت قبل ١/٦/١٩٦٧ ، ويتقاضى راتبا من الحكومة الاردنية ولا يتقاضى راتبا من سلطات الاحتلال . وشمل هذا القرار كافة الموظفين ممن اعتقلوا من قبل الاحتلال او انهيت خدماتهم لاسباب امنية بعد ١٩٦٧/٦/١.

٢ — عدم صرف العلاوة لاي موظف مصنف ، بعقد او بغيره ، اذا ما استقال من عمله او انقطع عنه بعد ١٩٧٤/١/١ ما لم تكن الاستقالة او الانقطاع ناشئين عن حالة تقتضيها « المصلحة العامة ». والمكتب التنفيذي لشؤون الارض المحتلة هو الجهة التي تحدد معنى المصلحة العامة لدى نشوئها .

٣ — صرف الراتب التعاقدي للموظفين الذين يعملون مع سلطات الاحتلال في الضفة الغربية[!!] (الشعب ١٩٧٤/٢/٢٧) .

الا ان صدور مثل تلك القرارات — كانت الصحف الاردنية قد نشرتها من قبل — لم يعن ان الحكومة الاردنية قد باشرت بالفعل صرف رواتب موظفي الضفة الغربية . فقد نشرت جريدة القدس يوم ٢/٢٨ ، ان الاشخاص الذين فوضهم عدد من موظفي الضفة قبض رواتبهم قد ذهبوا الى عمان وعادوا منها دون أن يتمكنوا من الحصول على الرواتب . وقال هؤلاء لدى عودتهم الى الضفة انهم أبلغوا ان اوامر الصرف لم تصل الى الوزارات المختصة ، في حين ان زيد الرفاعي رئيس الحكومة كان قد ابلغهم انه قد وقع اذونات الصرف وحولها الى الوزارات ذات العلاقة . وقالت « القدس » ان الوفد الذي توجه الى عمان ، وهو يتألف من بعض اعضاء المجالس البلدية في الضفة ، ما زال يدرس في عمان صرف راتب اضافي لموظفي المجالس البلدية (القدس ٧٤/٢/٢٨) .

اثارت هذه التوجهات من قبل الحكومة الاردنية تحركا بين قطاعات الموظفين الذين كانوا يتقاضون رواتبهم من عمان حتى شهر اب ١٩٧١ . فقالت « الشعب » ان وفدا يمثل مختلف قطاعات الموظفين سيقابل رئيس بلدية نابلس الحاج معزوز المصري ويسلمه مذكرة لايصالها الى عمان ، تتعلق بالرواتب وعلاوات المعيشة (الشعب ٧٤/٢/٢٨) .

اما وفد البلديات الذي توجه الى عمان فقد عاد منها يوم ٧٤/٣/٢ ، بعد أن وعده طاهر المصري (وزير الارض المحتلة) بدرس موضوع ادراج موظفي بلديات الضفة في سجلات الحكومة اسوة بغيرهم من الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم من الاردن . وقال أحد اعضاء الوفد — تحسين الفارس — ان الصرف سيبدأ اعتبارا من ٣/١٥/ ٧٤ ، وسيصرف الراتب الاساسي دون علاوات او غلاء معيشة (الشعب ٧٤/٣/٥) .

تحرك النظام الاردني ازاء الضفة الغربية

لم تكن اعادة صرف رواتب موظفي المؤسسة الاردنية السابقة في الضفة الغربية هدفا بحد ذاته . فمن المعروف ان اجراءات الحكومة الاردنية وممارستها السياسة كافة — سواء على صعيد العلاقة مع الضفة الغربية او غيرها — محكومة منذ العام ١٩٦٧ بمسألة اعادة فرض هيمنة النظام الاردني مجددا على الضفة المحتلة والحاق الشعب الفلسطيني وتبديده مرة اخرى . غير أن النظام الاردني ذاته يدرك الى اي مدى تصطدم رغبته هذه برفض الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وخارجها لكافة أشكال عودته السياسية الى الارض الفلسطينية . لذلك فقد حاول عن طريق اعادة صرف الرواتب شراء الولاء السياسي لسكان الضفة الغربية . وعلى هامش هذا الاجراء قام وما يزال بعدة مناورات سياسية ، ودفع بالعديد من المتعاونين معه لجس نبض سكان الضفة حول توجهات النظام الاردني تلك . فذكرت صحيفة الشعب في عددها الصادر يوم ٢/٢٧ ، ان مصدرا مطلعا صرح لدى عودته من عمان مؤخرا بأن الحكومة الاردنية ، أعدت مسودة بطاقة «استفتاء» لجميع الفلسطينيين داخل الاراضي العربية المحتلة في الضفة والقطاع » وجميع الاماكن التي يتواجد فيها فلسطينيون لمعرفة رأيهم بالنسبة لمصير الاراضي العربية الفلسطينية المحتلة » . وقالت « الشعب » ان بطاقة الاستفتاء تتضمن السؤالين التاليين وان الاجابة عليهما هي بنعم او لا ، كما يلي :

١ — الانضمام الى الاردن ، اي العودة الى المملكة الاردنية الهاشمية .

٢ — أ — اقامة دولة فلسطينية مستقلة ومنفردة .

ب — اقامة دولة فلسطينية تتحد فدراليا مع الاردن .

واضافت الصحيفة ان الحكومة الاردنية قامت باستدعاء عدد من الاشخاص من الضفة والقطاع الى عمان للبحث معها في هذا الصدد . وقالت الصحيفة ان الغاية من هذا « الاستفتاء » مجابهة دول الجامعة العربية والرأي العـام العربي ، بالقول ان نسبة الذين يريدون العودة الـى الاردن هم كذا بالمئة من السكان ، في محاولة غير مباشرة للرد على مؤتمر القمة العربي ومؤتمر القمـة الاسلامي « وتطويق التحرك الفلسطيني في ممثليه الشرعيين المعترف بهم فلسطينيا وعربيا واسلاميا ودوليا وهم منظمة التحرير الفلسطينية » (الشعب ٧٤/٢/٢٧) .

من جهة اخرى ذكرت « الشعب » ان الحكومة الاردنية قامت مؤخرا باستدعاء الاعضاء القدامى في المجلس الوطني الفلسطيني واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية المتواجدين في عمان ، الى مكتب رئيس الحكومة زيد الرفاعي حيث ابلغوا عدم موافقة الحكومة على سفر اي منهم لحضور جلسات المجلس الوطني الفلسطيني . وهددوا بأنه اذا خالف احدهم هذا الخط « فانه يعتبر خارجا على المواطنية الاردنية وعليه ان يتحمل النتائـج المترتبة على عمله هذا » (الشعب ٧٤/٣/٦) .

وتحت عنوان بارز في صدر صفحتها الاولى قالت « الشعب » انها علمت استنادا الى مصـادر خاصة ، ان الحكومة الاردنيـة سوف تتخذ ثلاثة قرارات هامة هي :

١ ـ الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة شرعية ووحيدة للشعب الفلسطيني وفقا لما جاء في قراري مؤتمر قمة الجزائر وقمة لاهور .

٢ ـ حل ما يسمى بالاتحاد الوطني الاردني .

٣ ـ اعلان سحب مشروع المملكـة العربية المتحدة الذي ينص على اقامة قطرين احـدهما فلسطيني والاخر أردني .

وقالت « الشعب » انـه عقب اعلان هـذه القرارات ستتم « تغييرات هامة في بنية الدولة (الاردن) واجهزتها وقيام تنسيق عربـي يخرج الاردن من عزلته ، وقد تستتبعه مصالحة بشكل ما مع منظمة التحرير ، علـى ان يكون قـرار الاعتراف هذا سابقا للجلسة القادمـة للمجلس الوطني الفلسطينـي ، حيث سيبحث في موضوع (ورقة العمل) التي باتت في حكم التجاوب الاخوي في كثير من بنودها والتي تنطـوي على الشخصية الفلسطينية المستقلة ممثلـة في منظمة التحريـر الفلسطينية » (الشعب ١٩٧٤/٣/٧) .

وكانت « الشعب » قد نشرت في عدد سابق لها عدة اخبار وملاحظات حول التحرك الاردني ازاء الضفة الغربية ، من ابرزها :

١ ـ ملاحظة ان الاذاعة الاردنية قد درجت على تسمية القضية الفلسطينية باسم القضية العربية، بعد صدور قراري مؤتمـري القمـة العربـي والاسلامي .

٢ ـ اوكل الى احد المتعاونين مع الحكـم الاردني في الضفة الغربية توزيع مبلغ خمسة آلاف دينار اردني لشراء الضمائر والولاء السياسي . فكانت النتيجة ان احتفظ بمبلغ الفي دينار ووزع الباقي على ١٢ شخصا (الشعب ٧٤/٣/١) .

اضراب المعتقلين في سجون الاحتلال :

في الاول من اذار (مارس) ١٩٧٤ ، اضرب سجناء سجن نابلس عن مقابلة ذويهم او التحدث اليهم ، احتجاجا على معاملة سلطات الاحتلال لهم في السجون . ولم يكن هذا الاضراب هو الاول من نوعه من قبل السجناء الفلسطينيين في سجون الاحتلال . وكانت اضراباتهم تحدث دائما ردود فعل واسعة وتثير تحركات شعبية لدى جماهير المناطق العربية المحتلة . وكانت المجالس البلدية في الضفة الغربية تتحمل قسطا كبيرا في الدفاع عن حقوق ومطالب السجناء ، عـن طريق المذكرات والعرائض الاحتجاجية الى سلطات الاحتلال .

عقب اعلان سجناء سجن نابلس عن اضرابهم هذه المرة ، قام الحاج معزوز المصري بتقديم طلب الى الحاكم العسكري العام للضفة الغربية لتحديد موعد لمقابلة السجناء والتعرف على مطاليبهم . وبعد ذلك قدمت الهيئات النسائية وعدد من امهات المعتقلين في سجون نابلس وعسقلان وبيت ليد وبئر السبع ، مذكرة احتجاج الى موشيه ديان والحاكم العسكري العام جاء فيها : « نطالب نحن الموقعين على هذه المذكرة بالامور التالية :

١ ـ الكف عـن ممارسة تلـك الاجـراءات والاساليب المتبعة في التحقيق مع المعتقلين ، بموجب المادة ٣٧ من وثيقة جنيف التي تحظر ايقاع الاذى

في روح او جسد السجين السياسي، واطلاق سراح الشباب الذين لم تثبت اية بينات ضدهم ليعودوا الى اتمام دراساتهم واعمالهم .

٢ ــ تحقيق مطالب السجناء الاساسية بتحسين الاوضاع والمعاملة الانسانية وخاصة في سجن بئر السبع الذي مضى على اضرابهم فيه حوالي سبعة شهور ولم يروا اهلهم ، احتجاجا على المعاملة التي تتنافى مع مبادىء حقوق الانسان والمعاملة الخاصة بالسجناء السياسيين .

٣ ــ تخفيض الاحكام بصورة عامة عمن قضوا مددا طويلة في السجون واطلاق سراح المرضى والمصابين بعلل دائمة .

٤ ــ يطالب الموقعون على المذكرة باصرار ، الحكومة الاسرائيلية بالموافقة على السماح للجنة دولية للتحقيق عما يجري داخل السجون في الاراضي المحتلة .. والكف عما يمس الانسان وشرائع الحق والعدل في العالم » (الشعب ٧٤/٣/٣) .

وفي ٣/٥ نشرت « الشعب » نص مذكرة موقعة من عدد كبير من المهندسين والاطباء والصيادلة والشخصيات الوطنية ، تطالب الحاكم العسكري العام ولجنة حقوق الانسان والصليب الاحمر الدولي وهيئة الامم المتحدة ، بالعمل على اطلاق سراح المعتقلين الموجودين الان بالسجون الاسرائيلية . وجاء في المذكرة « نحن الموقعون ادناه مواطنو الارض المحتلة نرفع صوتنا مطالبين باطلاق سراح المعتقلين من ابنائنا في السجون الاسرائيلية ، ونهيب بالضمير العالمي ولجنة حقوق الانسان وجميع المؤسسات الانسانية العمل على اطلاق سراحهم لما يعانون من سوء معاملة » .

من جهة اخرى ذكرت بعض الصحف الاسرائيلية يوم ٣/٦ ، ان المعتقلين العرب في سجن « شطة » وعددهم ٦٠ شخصا بعثوا بمذكرة جماعية الى يوسف تامير رئيس اللجنة البرلمانية للشؤون الداخلية يطالبون فيها توجيه الامر الى ادارة السجن ، بفصل المساجين اليهود عن العرب . وتقول تلك الصحف ان المذكرة قد هربت من السجن بواسطة ذوي المعتقلين وارسلت بالبريد المسجل من مدينة الناصرة . ومما يذكر ان تعليمات ادارة السجن تقضي بمنع المساجين من ارسال رسائل جماعية (الشعب ٧٤/٣/٧) .

ومن الجدير بالذكر ان اضراب سجناء سجن نابلس امتد في وقت قصير الى معظم السجون في الارض المحتلة وخاصة في بئر السبع وعسقلان ، احتجاجا على سوء المعاملة وعدم العناية الطبية. وقد جاءت هذه الاضرابات بعد ان تقدم ٤ آلاف سجين في نابلس بمذكرة الى ادارة السجن في منتصف شهر شباط (فبراير) الماضي . الا ان مماطلة الادارة دفعتهم الى اعلان الاضراب في الاول من آذار (مارس) ، ثم تتالت اضرابات المساجين العرب في السجون الاسرائيلية. وتقول « الشعب » ان اضراب السجناء قد تقرر تنفيذه على مراحل ، فيمتنعون خلال المرحلة الاولى عن العمل ، وفي المرحلة الثانية عن الحلاقة وفي الثالثة عن « الفورة » ، أما المرحلة الرابعة فتكون الاضراب عن الطعام . اما الموقوفون وعددهم ١٥٠ موقوفا فلم يشتركوا في الاضراب لانهم لا يعملون ، الا انهم قرروا التضامن مع السجناء بالامتناع عن مقابلة ذويهم (الشعب ٧٤/٣/٦) .

وقد خصصت « الشعب » افتتاحية عددها الصادر يوم ٣/٤ ، للتعليق على اضراب السجناء والمذكرات المرفوعة الى سلطات الاحتلال من قبل الهيئات النسائية وغيرها للمطالبة بلجنة دولية تقوم بالتحقيق فيما يجري داخل السجون في الاراضي المحتلة. فتقول الصحيفة ان اسرائيل لم تقم بخطوة واحدة فيما يتعلق بالاوضاع داخل المناطق المحتلة ، تشير الى نواياها « السلمية » . ثم تتساءل « الشعب » : ماذا يمنع السلطات من اعادة من شردتهم الحرب عام ١٩٦٧ ، وأولئك الذين أبعدتهم قسرا بعد حزيران وتشرين ، والافراج عن الذين أنهوا مدة حكمهم ، او الذين لم تثبت ضدهم اية تهمة ، وبتحسين اوضاع السجون والمساجين ، والغاء الاعتقال الاداري والاحتفاظ بالناس على ذمة التحقيق ، او تلك الاحكام الغريبة التي تؤبد الانسان اكثر من حياة واحدة ؟

الغموض ما زال يحيط باختفاء صاحب « الفجر »

بعد شهر كامل على اختفاء الصحفي الفلسطيني يوسف نصر، وجهت شقيقته السيدة عفاف العجلوني رسالة مفتوحة عبر جريدة الفجر الى النظام الاردني . وقالت الرسالة التي نشرت يوم ٣/٦ : « لا تزال الاردن ــ ملكا وحكومة ومخابرات ــ تلتزم الصمت ازاء حادث اختفاء شقيقي صاحب ــ الفجر ــ رغم كل الاتهامات التي وجهت لنظام

عمان في الداخل والخارج ، وكونه متواطئا هو وعملاؤه في الضفة الغربية في حادث اختفاء شقيقي يوسف » .

وظلت الشرطة الاسرائيلية حتى منتصف شهر آذار (مارس) تواصل التحقيق في قضية اختفاء صاحب « الفجر » ، رغم انها لم تفصح عن نتائج التحقيقات الواسعة التي أجرتها حتى الان في قضية صاحب الفجر .

ومن جهة اخرى ظلت السلطات الاردنية ملتزمة الصمت ازاء ما وجه اليها من اتهامات بخصوص تورطها في قضية اختفاء السيد يوسف نصر . ومن بين الجهات التي أشارت باصبع الاتهام الى عمان، اذاعة صوت الثورة الفلسطينية من القاهرة ، واذاعة بغداد ودمشق وبعض الصحف العربية الاخرى .

وكان آخر اتهام لحكومة عمان ما نشرته مجلة الصياد اللبنانية في عددها الصادر يوم ٢/٢٨ والذي جاء فيه ان صاحب جريدة الفجر الاسبوعية التي تصدر في شرقي القدس قد ظهر في عمان . ونسبت « الصياد » الى مصادر فلسطينية عليمة قولها ان الاستخبارات الاسرائيلية هي التي ابعدت السيد نصر الى الاردن بتسهيل من الشيخ الجعبري رئيس بلدية الخليل .

ومن أجل التوصل الى حقيقة مصير يوسف نصر، بعد أن عجزت الشرطة الاسرائيلية عن الكشف عن مصيره ، ظلت اسرة السيد نصر تعلن طوال شهر شباط (فبراير) الماضي عن مكافأة مقدارها ٢٥ الف ليرة اسرائيلية لمن يدلي بمعلومات تساعد في الكشف عن مصير يوسف . وفي شهر آذار (مارس) رفعت المكافأة الى مئة ألف ليرة اسرائيلية .

والى جانب حملة الاستنكار والغضب التي شملت اوساطا واسعة في الاراضي العربية المحتلة، طلبت السيدة عفاف العجلوني مقابلة القنصل الاميركي العام في القدس وذلك لمقابلة وزير الخارجية الاميركية كيسنجر لدى وصوله القدس ، وتشرح له قضية اختفاء شقيقها . وقد وعد القنصل الاميركي السيدة عجلوني بأن ينقل رغبتها الى كيسنجر لدى وصوله القدس (الشعب ، الفجر ٧٤/٢/٢٧) .

وفي الاول من آذار أدلت شقيقة نصر بتصريحات الى مراسلين اذاعيين ، احدهما اميركي والاخر هولندي طالبت فيها مختطفي يوسف بالافراج عنه (الفجر ٧٤/٣/٢) .

وعلقت جريدة الفجر في عددها الصادر يوم ٢/٢٧ ، على اختفاء يوسف نصر ، فوصفت حادث الاختفاء بأنه « جزء من المخطط الهاشمي الذي يستهدف النيل من صلابة وعزم شعبنا في معركته ضد سفاحي عمان ، اعداء القضية الفلسطينية ، وليس من شك ايضا بأن أعوان عمان التقليديين ، هم الادوات التي خطط النظام الهاشمي لتحقيق أيلول اسود في المناطق المحتلة ، على أيديهم . وليس من شك ايضا ان تغاضي السلطات الاسرائيلية عن زلم عمان ، هو الذي شجعهم وسيشجعهم على التمادي في العمل بحرية تامة لتنفذ أوامر اسيادهم في عمان » .

وفي كلمة اخرى وجهتها السيدة عجلوني الى السلطات الاسرائيلية عبر جريدة الفجر يوم ٣/٦ ، تساءلت عمن هو المسؤول عن حياة الناس في المناطق المحتلة وقالت : « هل هم الاسرائيليون الذين يتحملون مسؤولية المحافظة على سلامة الناس ؟ أم هو ملك عمان بطريقته غير المباشرة ؟ أم لعلهم الوجهاء التقليديون في المناطق المحتلة الذين يرتشون من مليكهم في عمان ويقدمون له ما يطلبه منهم من خدمات ومهمات ؟ هل هم زعماء « البلطجية » الذين يتحملون مسؤولية ما يجري في المناطق المحتلة ويقررون مصائر الناس ؟.. » .

وكانت آخر التطورات في حادث اختفاء يوسف نصر هو الخبر الذي نقلته وكالة رويتر من القدس ونشرته جريدة النهار اللبنانية يوم ٣/١٤ ، وجاء فيه ان احدى محاكم الصلح في القدس أمرت بتوقيف السيد جميل حمد رئيس تحرير صحيفة الفجر لمدة تسعة ايام ، والسيد باسم حنانيا وهو كيميائي لمدة سبعة ايام ، لاستجوابهما حول حادث اختفاء السيد يوسف نصر صاحب « الفجر » . وقالت رويتر ان الرجلين ابلغا المحكمة انهما لا يعرفان اي شيء عن اختفاء يوسف نصر . واستندت الشرطة في توقيفها للسيد حمد بأن علاقاته مع صاحب الفجر كانت متوترة في الفترة الاخيرة بسبب من مطالبة نصر ان يعرض عليه حمد كل شيء يكتبه قبل نشره . غير ان حمد نفى ذلك وقال انه عرض على نصر مكاتب اضافية في مبنى يملكه قبل ايام

قليلة من اختفائه . واعترف حمد بأنه كان قرب منزل صاحب الفجر ليلة اختطافه ، بعد ساعات قليلة من مرافقته له الى البيت ولكنه نفى ان يكون حاول الدخول الى بيته . وقال انه لاحظ سيارة تتبعه وخشي ان يضرب ، اذ كان قد تلقى تهديدا بأن ذلك قد يحدث ، لذلك اضطر الى الهرب .

تهديدات نيكسون تسبق كيسنجر الى المنطقة

عشية الجولة الرابعة لوزير الخارجية الاميركية على عواصم دول المنطقة ، في أواخر شهر شباط (فبراير) الماضي ، أعلن الرئيس الاميركي نيكسون ان سعي الولايات المتحدة لاقرار تسوية سياسية لازمة الشرق الاوسط قد يتأثر باستمرار حظر النفط العربي الى الولايات المتحدة .

أثار هذا الاعلان الاميركي المبطن بالتهديد والابتزاز ردود فعل واضحة في صحف الضفة الغربية تمثلت بالهجوم على السياسات الاميركية ازاء الشعوب العربية والتشكيك بأهداف زيارة الوزير الاميركي كيسنجر .

فقالت صحيفة القدس تحت عنوان « تهديدات نيكسون » ان تصريحات الرئيس الاميركي تلك « تثير الريبة في النفس العربية وتدعو الى القلق». ثم تتساءل الصحيفة باستغراب عن بواعث تلك التهديدات قائلة : « ان اميركا تملك الى حد ما مفتاح الحل لازمة الشرق الاوسط انطلاقا من كونها الدولة الوحيدة في العالم التي تستطيع اقناع اسرائيل بالسير قدما نحو اتفاقية لفصل القوات على الجبهة السورية » . وتختتم « القدس » تعليقها بالقول ان التباطؤ في اجراء محادثات السلام الذي يهدد به نيكسون « يدعم المخاوف التي تبديها بعض الدول العربية ، والقائمة على أساس ان اميركا لم ولن تغير من سياستها المعهودة ازاء هذه المنطقة » (٧٤/٢/٢٧) .

وحول تهديدات نيكسون تلك قالت صحيفة « الشعب » : « والغريب ان يأتي تصريح الرئيس الاميركي هذا عشية قيام وزير خارجيته لسوريا بالذات للبحث فيما يسمى بالفصل بين القوات ، وفي اعقاب اختتام المؤتمر الاسلامي الثاني اجتماعه في لاهور » . ثم تقول ان من شأن ذلك التهديد نسف مهمة كيسنجر من أساسها ، « او الايحاء لاطراف عربية ان عليهم أن يسعفوا كيسنجر بالضغط بشكل ما ، على القطر العربي السوري ليكون سلسا لينا ، وبالتالي الايحاء من جديد بأن المنطقة العربية اصبحت من شؤون (الامبراطورية الاميركية) في عهد اضعف امبراطور في الولايات المتحدة وفي العالم » . (الشعب ٧٤/٢/٢٧) .

اما صحيفة الفجر فقد تناولت مهمة الوزير الاميركي قائلة : « وبعدم الثقة بنوايا الولايات المتحدة ، فاننا نرى في هذا التركيز الاميركي المكثف على قضية فصل القوات ، اشارة واضحة من جانب السياسة الاميركية ، لتحقيق اتفاقيات لفصل القوات ، تحمل في طبيعتها صفات التسوية الجزئية التي تعيد أزمة الشرق الاوسط الى المرحلة التي أعقبت حرب السويس في سنة ١٩٥٦ » . وتضيف ان محاولات كيسنجر تلك « لن تنطلي على احد طالما ان الجماهير العربية وجميع القوى المحبة للسلام والمعادية للاستعمار تدرك هذه الايام أكثر من أي وقت مضى ، بأن ازمة الشرق الاوسط ... هي نتيجة حتمية لما حل للشعب الفلسطيني من تشريد وحرمان له من ممارسة حقه في تقرير مصيره فوق تراب وطنه » (الفجر ٧٤/٢/٢٧) .

وكانت « الشعب » قد تناولت زيارة كيسنجر الرابعة لعواصم المنطقة متسائلة « هل نيكسون مهما يتلبس به من مسوح السلام العالمي والوفاق الدولي ، يختلف في شيء عن سيىء الذكر سلفه جونسون ، او سلف آخر كان اسمه ترومان ؟ ثم ، أيختلف كيسنجر عن سابقه روجرز الا في اتباع الاسلوب الاكثر نعومة لمصلحة اسرائيل ، وكلاهما فارس من فرسانها ، وداعية من دعاتها ؟ » . وأضافت ان اعطاء الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره هو « المفتاح الوحيد لاي حل يقوم على الحق والعدل حتى يفهمه الاخرون فيعملون به ويلجأون اليه ، ولا بد انه آت ، واقرب مما يتصورون » (الشعب ٧٤/٢/٢٦) .

اما صحيفة « القدس » فقد طرحت على هامش زيارة كيسنجر مسألة مستقبل الشعب الفلسطيني ودوره في جنيف وقالت : « لقد لوحظ ان بعض المنظمات الفلسطينية بدأت تنتهج الواقعية وتلمح الى انها ستشترك في مؤتمر السلام الدولي ، وذلك بعد ان توصلت الى قناعة بأن الوقت قد حان ليحتل الشعب الفلسطيني مكانه الطبيعي وليؤكد ان له صوتا بل حقا أساسيا ولا شك ان السلبية لن تفيد ... وهذا ما علمتنا اياه مراحل وتطورات القضية الفلسطينية عبر تاريخها المشحون بالالام

التي عانى منها الفلسطينيون الذيـن لا يزالون يعيشون في ضياع » (القدس ٧٤/٢/٢٨) .

وعادت « القدس » لتقييم زيارة كيسنجر بعد مغادرته عواصم المنطقة قائلة انه حقق هدفين هما:

الاول تمثل في « كسر الجمود الذي ساد الموقف في الشرق الاوسط » واخراج الازمة من « الطريق المسدود الذي كانت تقف فيه » .

والثاني تمثل في تسليم اسرائيل قائمة بأسماء الاسرى الاسرائيليين الموجودين في سوريا « الامر الذي وضع حدا لهذه المشكلة التي كانت في رأي اسرائيل عقبة رئيسيـة تعترض امكانية اجـراء مفاوضات بين البلدين للفصـل بين القوات » . وتضيف الصحيفة الى ذلك بأن كيسنجر سعى خلال زيارته الى تحقيق هدف ثالث هو رفع حظر البترول العربي عن الولايات المتحدة « ومن المنتظـر ان يحصل كيسنجر على نتائج مشجعة بهذا الخصوص» (القدس ٧٤/٣/٣) .

وكانت « القدس » نفسها قد أشادت بانجاز آخر حققه كيسنجر خلال زيارته ، وهو استئناف العلاقات الدبلوماسيـة بين بلاده والقاهـرة . وقالت « ان هذه الخطوة ستعجل في استئناف مؤتمر السلام الدولي ... وتمكين هذا المؤتمر من تحقيق تسوية سلمية شاملة لازمة الشرق الاوسط » . وفي ختام تعليقها حبذت الصحيفة اعادة العلاقات العربية مع الولايات المتحدة دفعة واحدة (القدس ٧٤/٣/١) .

اما صحيفة « الشعب » فقد علقت على زيارة كيسنجر باجراء مقارنـة بين سياسات اميركـا وسياسات الاتحاد السوفيـاتي بمناسبة زيـارة غروميكو الى المنطقة في الفترة نفسها . وقالت ان « اختبار النوايا كشعار جديد تطرحه الامبريالية الاميركية ، شعار ابتزازي لا يقوم على اي اسـاس من حسن النوايا ... وفي هـذا الخضم المليء بالشكوك تحدث زيارة غروميكو ... زيارة الصديق الذي لا يريد لاصدقائه عدم الانزلاق او (الاندلاق) وراء السراب الاميركي ، وليثبت لكـل المشككين والمرجفين ان اميركا ليست وحدها في الميدان » . (الشعب ٧٤/٣/١) .

وعقب اختتام غروميكو زيارته للعواصم العربية، وصدور البيان السوري ـــ السوفياتي المشترك ، لم يفت « الشعب » الاشادة بدور الصداقـة العربية ـــ السوفياتيـة ، وفضـح السياسات الاميركية تجاه الشعوب العربية بالمقابل . فقالت ان الصداقة العربية ـــ السوفياتية التي مضى عليها عشرون عاما « تزداد رسوخا وتتصاعد دعما وبنيـانا بـل اثبتت الاحداث خلالها ، بكل ما انطوت عليه عبرها ، انها علاقات النضال المشترك والخندق الواحد ضـد الاستعمار والامبرياليـة والعدوان ... ان الصداقة العربية السوفياتية صداقة عمر ، وصداقة نضال مشترك ، بل هي صداقة وضعها العرب (استراتيجية) لمستقبل العلاقات والتعامل ، بعد ان اثبتت فاعليتها في ميادين سياسية وعسكرية واقتصاديـة ... وان قياسا عادلا واحدا فيما فعلته روسيا من اجلنا ، وما فعلته اميركا ضدنا ، لا يمكن لاي منصف في الدنيا الا ان يتبين الخيـط الاسود من الخيـط الابيض ، والصادق من المخادع ، والصديق من العدو ». وأشادت « الشعب » بالموقف السوفياتي من الشعب الفلسطيني الذي تمثل في « البـادرة الحكيمة التي قام بها غروميكو في القاهرة تجـاه الشعب الفلسطيني مـن حيث اعتبار الاتحـاد السوفياتي منظمة التحرير الفلسطينية الممثـل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » (الشعب ٧٤/٣/٦) .

الازمة الوزارية الاسرائيلية

عكست صحف الضفة الغربية وجهة نظر خاصة ازاء تعقد مفاوضات الاحزاب والكتل الاسرائيلية لتشكيل الحكومة الجديدة . وخصت بالتعليق ما اسفرت عنه المفاوضات من تخلي غولدا مائير عن تكليفها القيام بمهمة تأليف الحكومة ثم عودتها عن ذلك . فطرحت صحيفة « الشعب » تساؤلا خاصا بالعرب الذين يعيشون تحت الاحتلال وهو : « هل هذا الذي يجري تحت ستارة الحكم في اسرائيل حقيقة اسمها أزمة ام انه نوع من التمثيل اسمه مسرحية ؟ » . وتجيب « الشعب » على ذلك بأن ما يجري في اسرائيل هو مسرحية مكشوفة (٧٤/٢/٢٨) .

اما صحيفة « القدس » فقد طرحت على هامش الازمة الوزارية الاسرائيلية سؤالا عن « مصير السلام » الذي لا يزال ينتظر اشارة العودة الى هذه المنطقة المضطربة من العالم » . وفي معرض ذلك تتوصل « القدس » الى استنتاج يقول بأنه

لا يوجد زعيم اسرائيلي يقبل على خطوة الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ولا توجد حكومة تقبل حتى الاعلان عن نيتها التخلي عن هذه الاراضي او الدخول في مفاوضات سلام مع الدول العربية على أساس الالتزام بالانسحاب (القدس ٧٤/٣/٥) .

وعادت صحيفة « الشعب » في تعليق آخر لها لتصف الازمة الوزارية في اسرائيل بأنها « أزمة في العقلية » قائلة « ان الحزب الحاكم في اسرائيل بكل ما يحفل به من تناقضات لن يستطيع مجابهة التحديات المفروضة والتي لن يقدر رأي تالف على مواجهتها ، لانها تعني نسف كل المفاهيم السابقة وبالتالي نسف البنية ذات الجذور المتأصلة في ايديولوجية كل حزب وهي المزيد من التوسع ، لا المزيد من التراجع او الانسحاب » . وفي هذا الصدد تقول الصحيفة : « ونعتقد ان لا الانتخابات الجديدة ، ولا القديمة ، ولا التجمع وحده ، او كل الاطراف الاخرى معه ، قادرة على فعل شيء ايجابي ما لم تكن لدى هذه السلطات او الحكام الجرأة على الجهر بالحقيقة وتوعية الشعب الاسرائيلي واقناعه بأن ما فات من الامال مات ، وان عليهم قبول المتغيرات الجديدة على أسس من عدالة حقوق الاخرين ، والاعتراف بها ، والقبول او الانصياع لها » (الشعب ٧٤/٣/٥).

وبعد اعلان التشكيل الوزاري في اسرائيل عادت « الشعب » للتعليق على الموضوع نفسه قائلة ان « اسرائيل تتخبط منذ زلزال تشرين في ورطة داخلية » . وربطت بين ما ادعته اسرائيل من انتشار الجيش السوري على الجبهة الشمالية وبين الاستفزازات الايرانية على حدود العراق من جهة وبين الضغط على اطراف التشكيل الحكومي لانهاء مفاوضاتهم وتشكيل الحكومة تحت ستار « الحاجة الامنية » . وفي هذا الصدد اشادت الصحيفة بالموقف الوطني والقومي للقطر السوري ، والموقف السعودي « المتصلب » في مسألة حظر النفط الى الولايات المتحدة والموقف المصري الذي بات هو الاخر يهدد اهداف اسرائيل البعيدة رغم « اللين والمسايرة » التي اتسم بهما (الشعب ٧٤/٣/٧).

عيسى الشعيبي

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني

١٩٠٠ — ١٩٧٠

بقلم

عنان العامري

١٦٠ صفحة من القطع الكبير بست ليرات لبنانية ،
يضاف اليها أجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبة ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع .

ص.ب ١٦٩١ — بيروت .

(٥) اسرائيليات

من اعلان افلاس مشروع الدولة الى بدء .. الفصل الثاني

في زاويته الاسبوعية الساخرة « عندنا ... »، كتب الصحافي الاسرائيلي ، وعضو هيئة تحرير جريدة « معاريف » شالوم روزنفلد يقول : « ان من اخطر نتائج الحرب الاخيرة ، ان جميع مقالات الصحف عندنا تبدأ بكلمات : ان من اخطر نتائج الحرب الاخيرة ... » .

ولعل في قول روزنفلد هذا ، ما يصور بدقة ، الى حد بعيد ، اكتظاظ صحف العدو بمقالات لوم وانتقاد ومهاجمة سلطات اسرائيل العسكرية والسياسية ، بل وانتقاد الاتجاهات العامة للرأي العام الاسرائيلي ، وللاسرائيليين عموما ، وبشكل خاص في مرحلة ما بين الحربين : حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب تشرين ١٩٧٣ ، وامتداد ذلك الى نقد الذات ، وتعمقه الى درجة تشبيههم له بالمازوشية — تعذيب النفس .

وما حفلت به صحف العدو ، يتطابق الى حد بعيد مع مشاعر وقناعات الاسرائيليين . فقد كتب الياهو سلفطر (هآرتس ٧٤/٢/٦) في عرض له لنتائج استفتاء للرأي العام ، اجراه احد معاهد الابحاث هناك ، انه « كلما ابتعدنا عن الحرب تزايد احساس الجمهور بأن العرب حققوا فعلا مكاسب مهمة ، خاصة في المجال السياسي . اذ بعد وقف اطلاق النار مباشرة ، اعتقد نحو ٢٠ ٪ فقط ان العرب حققوا « مكاسب كبيرة » ، اما الان فتصل نسبة هؤلاء الى ٤٤ ٪ » .

وزاد افرايم كيشون في معاريف يوم ٧٤/٢/٢٢ على ما قاله سلفطر حين اكد « ان خطأ قيادتنا العسكرية والسياسية ، كان كبيرا الى درجة ان الجمهور ، وحتى الان ، لم يستوعب ابعاده . ان هذه القيادة لم تفاجأ ، وكانت عمليا واثقة من انه حتى في حال حدوث مفاجأة كاملة ، نستطيع ابادة الجيوش العربية الغازية خلال بضعة ايام . هذه هي الحقيقة . وليس هناك اية دولة ديموقراطية في العالم ما كان — على ضوء هذا الخطأ المرعب — ليستقيل فيها على الاقل وزير الدفاع ، ورئيس هيئة الاركان العامة ، ورئيس فرع الاستخبارات العسكرية ، تاركين الخيار للجمهور في قبول استقالاتهم او رفضها . ولكن الجمهور المرهق لدينا على ما يبدو هو الذي سيستقيل ويحال على المعاش ، وهذا هو الخطر الاكبر الذي تواجهه الدولة » .

وبرغم العنف الذي اتسمت به غالبية مقالات الصحف الاسرائيلية في الاشهر الثلاثة الاولى التي تلت شهر الحرب ، فان هذه تبدو مقالات معتدلة اذا ما قورنت بمقالات شهر شباط (فبراير) الماضي .

والتفسير الاقرب الى العقل لهذه الظاهرة ، هو ان صحافيي العدو — او غالبيتهم المطلقة على الاقل — كانوا يكتبون خلال شهر تشرين الثاني تحت تأثير اعتبارين : الاول — حرصهم على معنويات الاسرائيليين التي انهارت الى اسفل الدركات من جراء هول الصدمة التي واجهتهم وعرت جيشهم وقادتهم ، والثاني — ما قاموا به من تضخيم ونفخ لعملية الخرق عند منطقة الدفرسوار و« التمركز في افريقيا » وظلوا يرددونها الى درجة انهم صدقوها على ما يبدو .

ثم ، وقبل ان يكتشف هؤلاء عدم فائدة وعدم صلاحية اي غطاء في حجب الحقيقة عن النفس وعن القراء ، كانت حكومة العدو قد أعلنت عن تشكيل لجنة التحقيق (لجنة اغرنات) للتحقيق في التقصيرات ، وارتفع ضجيج معركة الانتخابات التي تمت في اليوم الاخير من السنة الماضية .

ولقد ساعد الاعلان عن تشكيل « لجنة اغرنات » وبدء هذه عملها ، في كم افواه العديد من الناقمين، تحت شعار ان اللجنة تبحث وتحقق ، ولا مجال لتوزيع التهم قبل الاطلاع على نتائج التحقيق . وكذلك فان معركة الانتخابات، وما رافقها — بشكل خاص — من مصلحة متبادلة بين دايان والتكتل اليميني « ليكود » في « عدم الاعتداء » ، واقتصار توجيه ليكود للاتهامات الى « القيادة » بشكل عام وتسمية بعض الضباط مثل العازار وغونين — غير المرشحين في الانتخابات — وسكوت دايان في

المقابل عن مخالفات وتجاوزات الجنرال اريك شارون ، قد أثرت هي الاخرى في الاتهامات والنقد ضمن دائرة ضيقة القطر قدر الامكان .

وبمجيء وزير الخارجية الاميركي كيسنجر — في جولته الاولى بين اسوان وتل ابيب — و« قبول » اسرائيل « الانسحاب من افريقيا » ، بل وبدئها الانسحاب قبل يوم من الموعد الذي حدد له ، تبين للاسرائيليين حقيقة تفاهة « الخرق » الذي قاده شارون ، وشكل — تجاوزا ، وعبر حملة دعائية واسعة — شيئا ما موازيا لعملية العبور المصري لقناة السويس بطولها واختراق الجيش السوري خط دفاع جيش الاحتلال على هضبة الجولان وتوغله داخل هذا الخط في ايام الحرب الاولى الى بعد راوح بين ١٠ و١٥ كيلومترا على حد قول دايان لرؤساء تحرير الصحف الاسرائيلية يوم ١٠/٩/ ١٩٧٣ ، وكما نشر في تلك الصحف يوم ٢/١٥/ ١٩٧٤ .

وقبل ان تبدأ « قنابل » دايان وكتلة رافي ، والحزب الديني الوطني « مندال » في التفجر على طريق غولدا مئير لتشكيل حكومتها الجديدة ، ازداد عنف الحملة التي قادها المراسلون العسكريون لصحف العدو ، ضد الناطق العسكري الاسرائيلي، والسياسة الاعلامية عموما — لم تكن قد استحدثت بعد وزارة اعلام — وضد وزارة ووزير الدفاع والرقابة العسكرية على الصحف الاسرائيلية — المفروضة منذ اغتصاب فلسطين سنة ١٩٤٨ —، ولم تخفف من حدة هذه الحملة الاجتماعات المتعددة التي عقدت لهذا الغرض ، وشارك دايان وغيره فيها .

ولقد وصل تضايق الناطق الرسمي بلسان جيش الاحتلال ذروته ، عندما طلب الى الصحف عدم نشر رسائل الجنود ، وهدد الجنود الذين يكتبون الى الصحف ، الامر الذي كشفته هآرتس ، وهاجمته في افتتاحية خصصتها له (يوم ٧٤/٢/١٢)، قالت فيها « ان الناطق الجديد بلسان جيش الدفاع الاسرائيلي العميد ثاني افرايم فورن استدعى اليه هذا الاسبوع المسؤولين عن زوايا رسائل الجنود الذين يكتبون حول مواضيع مختلفة الى هيئات تحرير الصحف . ولم يكن فورن ينوي بحث كيفية توجيه مطالب الجنود الى العنوان العسكري الملائم لازالة المصاعب وحل الاشكالات التي يشكو منها الجنود . ويبدو ان فورن يقصد عمليا الغاء زوايا رسائل الجنود . بل ان حديثه تضمن أكثر من تهديد موجه الى اولئك الجنود الذين يعربون عن مشاعرهم عبر الصحف . ومن اجل ذلك استند فورن الى امر عسكري قديم يمنع العسكريون بموجبه من نشر أي شيء كان في الصحف دون أخذ اذن مسبق بذلك من قادتهم » .

وتابعت هآرتس : « ان من يطلب من الناطق بلسان جيش الدفاع الاسرائيلي التصرف بناء على هذا الامر ، انما يعمل بموجب اوامر قديمة لا تتلاءم مع الواقع الجديد الذي اصبح قائما بعد حرب يوم الغفران . ان شيئا ما حدث في جيش الدفاع الاسرائيلي وفي اسرائيل ، ومن يحاول اعادة العجلة الى الوراء مصيره الفشل . وان احدى عبر الحرب هي ان جيش الدفاع الاسرائيلي لم يكن مكشوفا للنقد بما فيه الكفاية ، ولو ان هذه الرسائل كانت قد نشرت قبل الحرب ، ربما كانت القيادة العليا اكثر تنبها لما يحدث ازاء بعض هذه المواضيع » .

وردا على الزعم بأن نشر مثل هذه الرسائل يعرض « أمن الدولة » للخطر ، أنهت هآرتس افتتاحيتها بالقول : « ان الصحافة لا تنوي عبر هذه الرسائل تعريض أمن الدولة للخطر . وان كل واحدة من هذه الرسائل تراقب من قبل الرقابة العسكرية ، وتمحى منها الاسرار العسكرية . وهؤلاء الذين يخشون رسائل الجنود يثيرون شكا بأنهم ينوون معالجة مشاكل الجنود دون ان يكون ذلك تحت انظار الجمهور . وان كم أفواه الجنود والصحافة تزيد من الشائعات ، الاخذة في الازدياد حتى بدون هذه الواسطة ... » .

اما الذروة الاعلى التي وصلتها — حتى الان — المواجهة بين الصحف والجهات العسكرية الرسمية ذات العلاقة بالاعلام ، فقد كانت يوم ٧٤/٢/١٥ ، حين نشرت هآرتس في اطار بعنوان « الرقابة العسكرية شطبت » ، داخل مقال لمراسلها العسكري زئيف شيف : « ان مقاطع كثيرة من هذا المقال ، تتطرق الى مسألة نظرة جنود ووحدات الى العهدة ، ومسألة النقص في العهدة الشخصية — نشرت اشياء شبيهة بها من قبل — قد شطبتها الرقابة العسكرية لاسباب لم تقتنع بها هيئة التحرير » ، وازدادت في هذه الفترة ايضا

المساحات البيضاء داخل المقالات ، وهي المساحات التي تتضمن المقاطع المحذوفة بأمر الرقابة العسكرية .

وازاء هذه الحملة العنيفة ، وعرض القيادة الاسرائيلية في صورة رجل مترهل عاجز ، والمجتمع ككل في حالة انحلال وانحطاط ، بدأت تنتشر في الصحف الاسرائيلية مقالات تهاجم تلك الصحف ، كما تهاجم الصحافيين ، وكان أبرز تلك المقالات ، مقالا ليأير بورلا في معاريف يوم ٧٤/٢/٤ ، تحت عنوان « بيع بالمزاد العلني — اوكازيون » دعا فيه الى اغلاق « مشروع الدولة » وبيعها او الامتناع عن قراءة الصحف الاسرائيلية ، وقال فيه : « لقد قرأت صحيفتين صباحيتين وصحيفتين مسائيتين ، ولم أر فيها أية نقطة ضوء ، كل تعليقاتها سوداوية ... وما دام الامر كذلك فلنبع الدولة ، ما الغرابة في ذلك ؟ كل مشروع يفشل يعلن عن افلاسه ، ومن ثم بيعه ، ولقد فشل مشروعنا فهيا بنا نغلقه ونبيعه ، لمن ؟ لجورج حبش !.. اذا كان ذلك لا يعجبكم فاننا نبيعه الى الامم المتحدة ... » وبعد استمرار كتابته في هذا الاتجاه ، يستشهد ببعض ما قاله الصحافيون والمعلقون الاسرائيليون ، وعندما يتساءل عما اذا كان اقتراحه هذا مقبولا او مرفوضا يتوصل الى نتيجة ان الخيار الاخر غير البيع ، هو عدم قراءة الصحف الاسرائيلية .

ولقد كان هذا الجدل والنقد والرد عبر صفحات الصحف الاسرائيلية ، واحدا من ثلاثة مواضيع رئيسية شغلت تلك الصحف . والموضوعان الاخران هما : تعثر محاولات مئير تشكيل حكومة جديدة (انظر حول هذا الموضوع مقالا في مكان آخر من هذا الباب ، ومسألة الفصل بين القوات على جبهة الجولان .

على صعيد تشكيل الحكومة — باختصار شديد — يمكن ملاحظة التجمع حول قطبين ، يطالب اولهما — وهو الذي تتزعمه مئير ويضم اعضاء مباي سابقا و « المعتدلون » في حزب العمل وحزب مبام والحزب الشيوعي « راكاح » (بتحفظ واضح عبر عنه في اعلان للحزب نشره في يديعوت احرونوت يوم ٧٤/٣/١) ومؤكد — بتشكيل حكومة ائتلافية لا تضم اليمين المتطرف المتمثل في « ليكود » ، ويطالب الثاني — الذي يتزعمه تكتل « ليكود » ويضم المفدال ورافي سابقا — بتشكيل حكومة « تكتل وطني » على غرار الحكومة التي تم تشكيلها عشية حرب حزيران ١٩٦٧ . ومن اوضح من عرض الاحتمالات ازاء تشكيل أي من الحكومتين — قبل تشكيل الحكومة الجديدة — المعلق الاسرائيلي بولس في مقال بعنوان « مطلوب ائتلاف مقلص » في هآرتس عدد يوم ٧٤/٢/١٥ ، قال فيه : « ... وفي حال تشكيل حكومة تكتل وطني ، فانه اذا كان مندوبو الليكود هم الذين سيحددون النغمة داخلها ، فانها — أي الحكومة — ستقود الدولة نحو تعقيدات لا يكون مخرج منها الا عن طريق حرب او استسلام تام لما تفرضه الدولتان العظميان . واذا كان « التجمع العمالي » هو الذي سيحدد الاتجاه ، فان الليكود سيخرج من الحكومة كما خرج منها في تموز (يوليو) ١٩٧٠ » — يقصد في آب (اغسطس) حين خرج « غاحال » ، الكتلة الكبرى في الليكود ، من حكومة التكتل الوطني احتجاجا على قبول الحكومة لمشروع روجرز الذي انهى حرب الاستنزاف على جبهة القناة — .

على عتبة الفصل الثاني !

نصل بعد هذا الى مسألة الفصل بين القوات السورية وقوات الاحتلال وما رافق هذه المناقشة من تطرق الى مسألة الصراع العالمي ، والعلاقات مع اميركا ، والمصاعب الخاصة على طريق التسوية .

جميع الرسميين الاسرائيليين — من غولدا مئير الى ابا ايبن الى موشي دايان وغيرهم — والغالبية العظمى من المعلقين والصحافيين الاسرائيليين ينطلقون من قاعدة التأكيد على ان اسرائيل لن تنسحب من هضبة الجولان ، وانها اذا ما ساومت فانها قد ترضى بالانسحاب في القطاع الشمالي من جبهة الجولان الى خط ما داخل الثغرة التي فتحها جيش الاحتلال في ذلك القطاع .

ولقد اوضحت مئير هذا الموقف خلال شهر شباط أكثر من مرة منها مثلا خطابها في اجتماع للمشتركين في دورة خاصة للجنة التنفيذية الصهيونية في القدس يوم ١٩٧٤/٢/١٩ . واوضح دايان الموقف ذاته قبل مئير (هآرتس ٧٤/٢/١٥) .

وربط بعض المعلقين الاسرائيليين بين الموقف الذي يجب على اسرائيل اتخاذه ازاء مسألة الفصل بين القوات في الجولان والذي تستطيع اتخاذه من

ناحية ، وبين انعكاسات الوضع العالمي والصراع العالمي على الوضع في الشرق الاوسط وعلى اسرائيل بوجه خاص من ناحية ثانية .

وبعد عرض ومعالجة قضية النفط ورفع اسعاره وحظره ودور الاتحاد السوفياتي في تشجيع الدول المنتجة للنفط ودعم مواقفها ومطالبها وسياستها ، يقول المعلق الاسرائيلي شفايتسر في مقال بعنوان « ميدان صراع الدول العظمى » (هآرتس ١٥/٢/٧٤) : « ان اسرائيل مثل أية دولة اخرى تستورد النفط ، معنية بتخفيض اسعاره . الا انه ليس هناك شك في ان كل تسوية يتفق عليها بين الاميركيين (والغرب عموما) وبين الدول العربية المنتجة للنفط ستكون منطوية على الدفع بعملية اسرائيلية : ان اعلان الرئيس نيكسون حول مسألة رفع حظر النفط عن الولايات المتحدة، وربط ذلك بالتصريح بأن بلاده تعمل من أجل تنفيذ « كامل » لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، يشير الى الفهم الاميركي بالنسبة للعلاقة بين الصراع الاسرائيلي العربي وبين ازمة النفط ، كما ان استمرار الوضع على ما هو عليه في هذا المجال ، وفي ظل تأكيد التواجد السوفياتي في المنطقة ، وازدياد خطر الحرب فيها ، ان كل ذلك لا يبشر بالخير » .

ويتابع شفايتسر : « والنصيحة الوحيدة التي نستطيع ان نسديها لانفسنا في هذه الظروف ، تنطلق من حقيقة ان المنطقة قد أصبحت ، واكثر مما كانت عليه في أية مرحلة سابقة ، ميدان صراع الدول العظمى . **انهذهالحقيقة تلزمنا بالالتصاق بالولايات المتحدة ، الى أقصى حد ممكن ، ورغم الثمن الذي سيطلب منا دفعه . ان التواجد في العقد المقبل في الشرق الاوسط (وربما في مناطق اخرى من العالم) سيكون أصعب مما كان يمكن توقعه من قبل ، وقد يكون التواجد من دون سند اصعب مما يمكن تحمله .**

وقد أعرب المعلق الاسرائيلي موشي جاك ، عن اعتراضه على « استعداد اسرائيل للتنازل » لان ذلك سيزيد من قوة الضغط على اسرائيل ، وتحت عنوان « المسيرة الى دمشق » (معاريف ٢٢/٢/٧٤) ، منتقدا سياسة الحكومة ، اذ « بينما كنا خلال الاسابيع الماضية ، ومع الاسف ، منشغلين في البحث عن معادلات لـ « من هو اليهودي ؟ » تداخل لدينا تحديد « ما هي السياسة. والنقاشات المنهكة للقوى التي دارت حول تشكيل الحكومة مكنت المندوبين العرب من جعل موضوع الفصل بين القوات علما يوحد الدول العربية ، دول النفط ، الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة... » وبعد ان يقول جاك ان مرحلة البحث عن صيغة لفصل القوات مع سوريا، أصعب من تلك السابقة، فصل القوات مع مصر ، يصل جاك الى القول : « المسألة لا تختزل فقط في حقيقة ان معادلة الفصل بين القوات ليست الا اسما مرادفا للانسحاب . لا الارض ولا الكيلومترات التي سنضطر الى الانسحاب منها هي التي ستقرر الامور ، بل ان ما يقرر هو حقيقة ان المباحثات مع الدول العربية ستتم داخل اناء ضغط يسخن على لهيب النفط ، واناء الضغط هذا هو الذي أدى ، والان بالذات، حيث تتخذ اسرائيل موقفا أكثر اعتدالا بكثير من الماضي ، الى ان دولا أكثر تتنكر لها وتبتعد عنها : ايطاليا واليابان ، دول افريقيا وبريطانيا ، هذه الدول التي رفضت في السابق قبول التفسير العربي للقرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن ، حين كانت تبدو المباحثات بين اسرائيل والدول العربية بعيدا جدا ، تستسلم الان بالذات ، وفي أوج المباحثات ، الى الضغط العربي وتقبل تفسير الدول العربية لمسألة الانسحاب الاسرائيلي » .

ويستخلص جاك من ذلك « ان اللين ليس علاجا سحريا لمنع الضغط ، ويجب ان نضع هذا الامر نصب أعيننا ونحن ندخل المرحلة الثانية ».

وقد عاد الكاتب نفسه الى موضوع الفصل بين القوات السورية وقوات الاحتلال بعد بدء كيسنجر جولته الثانية ، وتسليمه لاسرائيل قائمة باسماء أسراها لدى السوريين ، واعرب جاك عن اعتقاده في احتمال ان تكون مرحلة المباحثات الاولى لفصل القوات مع سوريا هي الاخيرة ، وقال « ... ان سوريا تريد ان تصل الى القنيطرة قبل ان تبدأ المباحثات مع اسرائيل ، حيث انها تريد احراز الحد الاقصى من المباحثات التي تريد ان تعطي فيها الحد الادنى . الا ان اسرائيل تعرف أن من الصعب رؤية مرحلة ثانية من المباحثات مع سوريا في المستقبل القريب ، ولهذا فان اسرائيل ملزمة بالاهتمام في ان تحصل في هذه المباحثات ، أي في المرحلة الاولى — التي يمكن ان تكون الاخيرة أيضا — على الحد الاقصى من الضمانات للابتعاد

عن الحرب ولضمان أمنها » (معاريف ١/٣/٧٤).

وفي اليوم ذاته (١/٣/٧٤) كتب ارييل غيناي في يديعوت احرونوت ، مقالا عن « المصاعب على طريق الاتفاق مع سوريا » ، حذر فيه من الوقوع في خطأ الاعتقاد بسهولة « تخطي العقبات الكثيرة التي ستتراكم في المباحثات مع دمشق » استنادا الى ما أحرزه كيسنجر في مسألة قائمة الاسرى الاسرائيليين .

وقال غيناي : « ان مجرد حقيقة النظر الى تسليم قائمة الاسرى وموافقة دمشق على التباحث مع اسرائيل حول الفصل بين القوات على انها نجاح على طريق تحسين الوضع في المنطقة ، وعلى انها نجاح جديد وهام للدكتور كيسنجر ، تشير الى حجم المصاعب المتراكمة على طريق المباحثات مع دمشق » .

وفي استعراضه « للمصاعب الاساسية التي قد تنتصب في الطريق المؤدي الى السلام » يعدد غيناي ثلاث نقاط :

« في أي اطار اقليمي يتوجب ان يتم الفصل بين القوات ؟ في اعتقاد اسرائيل يجب ان يتم الفصل في اطار المناطق التي احتلت في حرب يوم الغفران ، ويتوجب ان يمر الخط الجديد الذي يفصل بين القوات في القطاع الشمالي داخل الثغرة التي احتلت في اكتوبر ٧٣ .

ويرى السوريون الامر بصورة مختلفة تماما . وهم يعتقدون انهم بموافقتهم على التباحث مع اسرائيل ، فانهم يكونون قد قاموا بتنازل هام للغاية . ودمشق غير مستعدة اطلاقا للقبول بامكانية عدم عودة كل منطقة الثغرة اليها . واضافة لذلك، فانها تريد ان يعاد اليها في اطار اتفاقية الفصل بين القوات جزء ما من هضبة الجولان التي احتلت في حرب الايام الستة ، وبشكل خاص ان يعاد اليها ما تبقى من مدينة القنيطرة ... ».

« ان مسألة جبل الشيخ ستثير مشاكل خطيرة . وليس هناك شك في ان السوريين سيتشددون في المطالبة باعادة الموقعين على جبل الشيخ — الموقعين اللذين احتلهما جيش الدفاع الاسرائيلي في الايام الاخيرة من الحرب . وحول هذا الموضوع، يصعب الاعتقاد ان تتنازل اسرائيل ، في حين انها قد تكون مستعدة للنظر في اخلاء احد الموقعين شريطة ان لا يتمركز السوريون فيها ، وانما رجال قوات الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة » .

« بشكل عام ، فان منطقة الجولان ، حتى تلك التي احتلت في حرب يوم الغفران لا تلائمها قرارات بسيطة مثل الانسحاب المحدود على طول الخط الى مواقع جديدة . بدل ذلك يجب ان تجرى مساومة : تلة مقابل تلة ، تلة مقابل تلة ، موقع استراتيجي مقابل موقع استراتيجي ، على اساس مبدأ التبادل، هذا المبدأ الذي لا يتحمس السوريون له . ومع ذلك فان هذا هو المبدأ القادر ربما على ارضاء — الى حد ما — اسرائيل وسوريا . وربما كان بالامكان التنازل عن موقع ما في الجبهة ، وخاصة في الجنوب ، حيث لم تتحرك الخطوط هناك عمليا منذ حرب الايام الستة، مقابل فوائد لاسرائيل في قطاع آخر من الجبهة ... » .

وعن مسألة عودة سكان هضبة الجولان البالغ عددهم حوالي ١٧٠ الف نسمة والذين لجأوا منذ حرب حزيران الى مناطق داخل سوريا ، يقول غيناي انه « في حين يمكن بحث في اعادة لاجئي الحرب الاخيرة الى المناطق التي نستولي عليها ، فانه لا تجوز الموافقة على عودة لاجئي حرب الايام الستة ، لان عودتهم هي أشبه ما تكون بتنازل من قبلنا عن الهضبة » .

يبقى ان نقول ، ونحن على عتبة بدء المفاوضات من أجل الفصل بين القوات السورية وقوات الاحتلال ، ان حرب تشرين قد ادخلت الى القاموس السياسي لاسرائيل كلمات عديدة أبرزها «التقصير»، واعادت الروح الى كلمات عديدة أبرزها « الانسحاب » .

عماد شقور

عصا « الامن » السحرية تشكل الحكومة الاسرائيلية !!
استمرار الجهود لحل مشكلة من هو اليهودي

على اثر رفض المفدال لاقتراح عضو الكنيست حاييم تسادوك (العمل) بخصوص قضية من هو اليهودي ، وبعد ان خفضت المدة التي وردت في الاقتراح الى سنة (أنظر : شؤون فلسطينية ص ٢١٧) ، تقدم المعراخ باقتراح جديد جاء فيه ان وزير الداخلية يستطيع في العام الذي ستعمل فيه اللجنة الوزارية ، على حل المشكلة ، ان يمنع تسجيل المشكوك في يهوديتهم ، في دفاتر النفوس ، كما قضى الاقتراح باحالة القضايا المختلف عليها الى حين اتخاذ اللجنة قرارا اما الى وزير الداخلية او الى الحاخامين الاكبرين . لكن نظرا لرفض الاحرار المستقلين لهذا الاقتراح ، ادخل عليه المعراخ بعض التعديلات ، حيث جاء في الاقتراح المعدل بان تبحث لجنة وزارية قضية التهويد ، وتتخذ قرارها خلال عام . والفرق بين هذه الصيغة والصيغ السابقة ، هو انه لم يذكر فيها مع من ستتشاور اللجنة الوزارية (كما جاء في اقتراح تسادوك الاول) ، كما لم يذكر فيها كيف سيتصرفون في قضايا التهويد المختلف عليها الى ان تتخذ اللجنة الوزارية قراراتها .

تعقيدات جديدة

ونظرا لان كافة هذه الاقتراحات لا تنص على تعديل قانون العودة ، فان المفدال بدا مترددا في اتخاذ قرار بهذا الخصوص ، خوفا من ان يؤدي مثل هذا القرار ـ وبالذات اذا كان لصالح قبول المشاركة في الائتلاف ـ الى شق الحزب وخروج كتلة الشباب منه . لذلك ارتأى الحزب طرح الموضوع على الحاخامين الرئيسيين الحاخام شلومو جورين والحاخام عوفاديا يوسف . بالاضافة الى الاتصال بالزعيم الروحي للمفدال الحاخام سولوفيتشيك المقيم في بوسطن في الولايات المتحدة . لقد ادت خطوة المفدال هذه الى نقل الصراع الى الجاليات اليهودية في الخارج ، حيث بدأت ممارسة الضغوط من التيارات الدينية الثلاث الارثوذكس ، المحافظين ، والاصلاحيين . ومن الجدير بالذكر ان في اسرائيل اثنين وعشرين جماعة تابعة «للكنس الموحدة» التي تضم اليهود المحافظين والاصلاحيين ولا يوجد لحاخامي هذه الكنس اية مكانة قانونية ولا يستطيعون اجراء عقود زواج . ووزارة الاديان تتنكر لهم . وقد أعرب الحاخام سولوفيتشيك عن معارضته لاقتراح المعراخ حول التهويد : « ان موضوع التهويد طبقا للاصول الدينية أمر نهائي ، وان وجهة نظري واضحة وثابتة في هذا الموضوع » (ر. أ. أ. ٧٤/٢/١٩ عدد رقم ٤٦٥) . اما مجلس الحاخامين الاعلى الذي دعي بناء على طلب من الحاخام الاكبر شلومو جورين للنظر في موضوع التهويد ، فقد أصدر بيانا جاء فيه : « دون تعديل القانون بواسطة التشريع او بواسطة أي مرسوم مناسب ، يقر بأن أي تهويد لا يكون طبقا للشريعة، لا يعمل به ، فان المجلس لا يستطيع ان يوصي المفدال بالاشتراك في الحكومة » (ر.أ.أ. ٢٠/٢/ ٧٤ ملحق ٤٦٧) . ونتيجة لهذا بدأت حملة من التيارات اليهودية المحافظة والاصلاحية للضغط من ناحيتها لضمان عدم رضوخ المعراخ وبقية الشركاء الائتلافيين لشروط المفدال ، وبصدور قرار مجلس الحاخامين الاعلى بات واضحا جدا ان المفدال لن يدخل الى الائتلاف وان الحزب قد تورط بتوجهه هذا نحو الحاخامين ، وعلى اثر الجدل الذي ثار قبل وبعد التوجه الى الحاخامين داخل المفدال ، وبالذات حول طابع قرار الحاخامين ؛ هل استشاري او الزامي ، قال سكرتير المفدال : « الحقيقة اننا لم نطلب اصدار قرار من مجلس الحاخامين الاعلى ، بل دعونا الحاخامين الرئيسيين للحصول على رأيهما الشخصي . ولكن بعد ان تصرف المجلس هكذا ، واصدر قرارا ، فمن المؤكد ان الامر أصبح يلزمنا ونحن نوافق عليه . حيث نعتبر هذه المؤسسة بمثابة المؤسسة العليا التي توجه اليهود المتدينين (ر.أ.أ. ـ ٧٤/٢/٢١ ، ملحق ٤٦٨) .

ولكن على الرغم من هذا القرار ، ومن تمسك بعض الجهات المتطرفة داخل المفدال به ، وبشكل خاص كتلة الشباب التي يتزعمها عضوا الكنيست زفولون هامر وبن مئير ، فان بعض الكتل الاخرى لم تر في القرار نهاية للحوار مع المعراخ ونهاية لامكانيات التوصل الى تسوية ما حول الموضوع ، لذلك استمرت الجهود لايجاد مخرج للمفدال من هذه الورطة . ففي اجتماع عقد بين الوزير سابير

من جهة وبين الوزير بورج وعضو الكنيست يتسحاق رافائيل من جهة اخرى ، تقدم سابير باقتراح نيابة عن المعراخ ، يقضي بالغاء بند القومية من تذكرة الهوية لمدة عام ، على ان تجتمع خلاله لجنة وزارية خاصة لدرس الحلول لمشكلة « من هو اليهودي » عن طريق القانون . لكن سكرتير الحزب وممثلي الشباب رفضوا هذا الاقتراح ، بينما اعتبره سائر الاعضاء مخرجا لائقا يضمن عدم تسجيل أي شخص ان لم يكن يهوديا ، كيهودي ، في سجلات النفوس. لكن نظرا للمعارضة تبلور اقتراح داخل المفدال ينادي بان يقتصر تطبيق المرسوم المذكور في اقتراح المعراخ على المهاجرين الجدد الذين سيصلون الى البلاد خلال مدة عام ، أي العام الذي ستجتمع فيه اللجنة الوزارية . لكن مئير رفضت التعديل واقترحت ان تعلن في الكنيست، ان وزير الداخلية، احاطها علما ، بأنه حتى الان لم يسجل من ليس يهوديا كيهودي وان الوضع سيستمر كذلك لمدة عام ، لغاية ايجاد حل قانوني متفق عليه لقضية « من هو اليهودي » . وهذه القضية التي كانت تحتل الصدارة في المفاوضات الائتلافية ، يمكن تلخيصها بما يلي : لقد وردت قضية من هو اليهودي في القوانين الاسرائيلية على صعيدين : الاول في المحاكم الدينية بالنسبة للزواج والطلاق ، والثاني في قضايا الهجرة وقانون العودة ، وقانون تسجيل الشخص يهوديا في قيد النفوس . وبالنسبة لمن هو اليهودي في قضايا الزواج والطلاق ، يعالج هذا الموضوع الحاخامان الرئيسيان وذلك حسب الشريعة . وكون الشخص قد سجل في قيد النفوس يهوديا ، لا أهمية له في هذه الناحية . أما بالنسبة للقوانين المدنية ، كقانون العودة وقانون قيد النفوس ، ففي أعقاب قضية « شافيت » (رائد في البحرية الاسرائيلية ، متزوج من مسيحية تحمل الجنسية البريطانية ، رفضت وزارة الداخلية سنة ١٩٦٩ تسجيل أبنائه كيهود) المشهورة ، عدل القانون قبل اربعة اعوام ، وحدد للمرة الاولى التعريف القانوني لليهودي ، والتحديد هو انه « من ولد لأم يهودية او تهود » . ولقد أقر المفدال هذا القانون في حينه ، معتبرا اياه انجازا كبيرا . ومشكلة التهويد في حقيقتها مشكلة خارجية ، ومطلب المفدال اليوم لاضافة جملة « حسب الشريعة » الى القانون ، يهدف الى الحيلولة دون الاعتراف بالتهويد الذي يجريه الحاخامون الاصلاحيون والمحافظون .

وازاء هذا الموقف المتصلب الذي وقفه المفدال اخذت فكرة تشكيل حكومة اقلية تجد مزيدا من المؤيدين لها في اوساط حزب العمل ، واصبح واضحا ان تعنت المفدال في قضية من هو اليهودي يهدف الى تحقيق هدف سياسي وهو اقامة حكومة طوارىء وطنية ، حيث ابدى بعض زعمائه أكثر من مرة استعدادهم للتنازل في قضية من هو اليهودي اذا وافق المعراخ على تشكيل حكومة طوارىء وطنية .

ورغم رفض حزب العمل القاطع لمطلبي المفدال سواء بالنسبة لتعديل القانون او بالنسبة لاقامة حكومة طوارىء وطنية ، فان الحزب لم يكف عن المحاولات لايجاد مخرج للازمة كما رأينا في بداية هذا العرض ، او لضمان امتناع المفدال عن حجب الثقة عن الحكومة على الاقل . وقد أعرب عن هذا الاتجاه سكرتير حزب العمل في تصريح له ، عقب فيه على قرار المفدال ومجلس الحاخامين الاعلى : « لقد تأسفنا لدى سماعنا قرار المفدال. وقد بذلنا جهودا صادقة ومستمرة للتوصل الى اتفاق مع المفدال ولتشكيل حكومة على غرار الائتلاف السابق ... واضاف يادلين : « يجب على مجلس الحاخامين الاعلى اعادة النظر في قراره . واذا لم يتبدل قراره فسنقترح على المفدال الاقتراح السابق نفسه وهو البحث عن حل قانوني متفق عليه حول قضية « من هو اليهودي » ، الامر الذي سنفعله حتى لو كانوا خارج الحكومة . ويعتمد اقتراحنا على ثلاثة مبادىء : اولا ، تبقى الحقائب شاغرة لفترة معينة وتحت رعاية وزراء آخرين لغاية انضمام المفدال . ثانيا ، في هذه الفترة لن يكون المفدال في المعارضة . ثالثا ، تبذل جهود في تلك الفترة للبحث عن حل كما قررنا ان نفعل لو انضم المفدال الى الحكومة » (ر.أ.أ. ٧٤/٢/٢١ ، ملحق ٤٦٨) .

لكن عضو الكنيست يتسحاق رافائيل أكد ان عدم مشاركة حزبه في الحكومة يعني انه سيكون في المعارضة وسيعمل كما ينبغي العمل كمعارضة.

مئير تعلن تشكيل حكومة اقلية

في غمرة هذا الجو لم يكن امام مئير سوى تشكيل حكومة اقلية اذا أخذنا بعين الاعتبار موقفها المبدئي والرافض لفكرة اقامة حكومة تكتل

وطني او اعادة الانتخابات . وبالفعل فبعـــد مقابلتها لرئيس الدولة في ٧٤/٢/٢٠ لاطلاعه على نتيجة الاستشارات الائتلافية ، اعلنت في بيـــان لها أمام الصحفيين انها أبلغت الرئيس ان بامكانها تأليف حكومة تعتمد على ائتلاف بين المعـــراخ وكتلتي الاحرار المستقلين والنواب العرب ، بعد أن استبعدت حركة حقوق المواطن . وجاء في بيان مئير ايضا أنها ستبقي الحقائب الوزارية التـــي خصصتها للمفدال شاغرة ريثما تحل مشكلة من هو اليهودي ، واكدت مئير ان حكومتها ستعتمد على أصوات ٥٨ نائبا . واعلنت مئير انها طلبت امهالها اسبوعا لكي تسمي الوزراء وتوزع الحقائب الوزارية ، وقد وافق رئيس الدولة على طلبها هذا .

لقد كان باستطاعة مئير أن تطلب منحها ثلاثة اسابيع اخرى للاستمرار في مهمتها لتشكيل حكومة او ان تتخلى عنها وتعيد التكليف الـــى رئيس الدولة ، الذي يحق له ان يلقي على عاتق مرشح اخر سواء من المعارضة او من المعراخ مهمـــة تشكيل الحكومة . لكن جولدا مئير ارادت بقرارها هذا ، فرض الامر الواقع على شركائها الائتلافيين المحتملين ، وبالذات المفدال ، ومن ناحية ثانية قطع الطريق على مطلب اقامة حكومة تكتل وطني، ذلك المطلب الذي اخذ يطرح كمخرج للازمة ، ليس من المفدال فقط ، بل أيضا من كتلة « رافي » في حزب العمل .

ردود الفعـــل

لم يكن اعلان جولدا مئير تشكيل حكومة اقلية مفاجأة للمراقبين لتطورات الاحداث السياسيـــة والمفاوضات الائتلافية ، وقد تضاربت الاراء حول صلاحية وامكانيـــة مثل هذه الحكومـــة بالقيـــام بمتطلبات المرحلة الراهنة . وكانت المواقف تتوزع بين مؤيد لها بتحفظ وبين معارض . وقد عبر عـــن الرأي الاول بروفيسور شلومو افينيري حيث قال : « يبدو لي أن حكومة أقلية كهذه تستطيع ان تحظى بثقة الشعب ، لكن الامر يتعلق بتركيب الحكومة ، فاذا ظهرت اكبر كتلة في الكنيست اي كتلة المعراخ، في الصورة نفسها التي ظهرت فيها الحكومـــة السابقة ، فأن الثقة بين الجمهور كما يتراءى لي ستكون ضئيلة ، ولذا فعلى المعراخ ان يضع في الاماكن الاساسية وجوها جديدة ، واعني بذلك أشخاصا مثل رابين وايبن والون .. » « راا — ٧٠/٢/٢٣ ملحق ٤٧٠) . وافينيري هنا لا يتحدث كما هو واضح من كلامه عن الثقة البرلمانية . بالحكومة وعن امكانيات عملها وقدرتها على اتخاذ قرارات ، بل عن الثقة الشعبية كما يراها هو . وهو في نظرته هذه التي نادى بها يشكل استمرارا لبعض اتجاهات الرأي العام الاسرائيلي التي طالبت في اعقاب حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ بتغييرات في القيادة السياسية للمعراخ وبالرجال صانعي القرار في المرحلـــة المقبلة . ولكن على الرغم من ذلك ، يصعب القول ، ان هذا الاتجاه ، رغم انه لاقى دعما وتأييدا داخل حزب العمـــل نفسه ، قد أصبح من القوة بحيث يفرض التغيير ، وذلك بسبب بنية حزب العمل « الائتلافية » ، حيث ان اخطار الانشقاق قائمة في مثـــل هذه الحالة ، هذا اذا افترضنا جدلا ان القوى المطالبة بالتغيير داخل حزب العمل ، هي اصلا موحـــدة الرأي حول هذه الضرورة وقادرة عليه فعلا .

اما بروفيسور رؤبين يارون فقد عبر عـــن وجهة نظر معارضة لوجهة نظر بروفيســور افينيري حيث قال : « ... السؤال الاساسي هو هذا : هـــل ستكون لهذا الشعب الذي يعيش في هذه الدولة، ثقة بهذه الحكومة ؟ ليس لدي ادنى شك في أن الجواب على هذا السؤال سلبي ، واعتقد ان عدم اشتراك المفدال في الحكومة كان نقطة تحول. فبعد حرب يوم الغفران بدأ الحديث عن فقـــدان الثقة بالحكومة . وعندما لا تكون ثقة في الداخل فلا يمكن ان تكون ثقة في الخارج . لقد قال زميلي شلومو افينيري ان الون وايبن جديدان لكونهما لم يشتركا في اتخاذ القرارات، ولا اريد ان ادخل هنا بالتفاصيل ، ولكنني اعتقد أن هذا تقدير خاطىء فاحدهما كان نائب رئيسة الحكومة ووضع مشروعا يتعلق بالضفة الغربية واجتمع مع الملـــك حسين ولذا لا يمكن ان نقول انه شخصيـــة جديدة في الحكومة » واضاف يارون : « السؤال هو : ما هو خط الحكومة الذي يتوجب اتباعه ؟ اذا كـــان المطلوب هو اتخاذ قرارات دون أن نسأل عن مدى سلامة هذه القرارات ، فان حكومـــة الاقليـــة باستطاعتها اتخاذ قرارات كهذه ، ولكن هذا ليس الاساس، كما انتأليف الحكومة ليس هو الموضوع، بل الامر الاساسي هو — في رأينا — انه ينبغـــي التمعن جيدا في اتخاذ القـــرارات في الظـــروف الحالية . وهكذا فأن من المؤكد ان تحظى حكومة

التكتل الوطني بثقة اكبر من جانب الجمهور » (رأا — ٧٤/٢/٢٣ ملحق ٤٧٠) .

أما المؤيدون لحكومة الاقلية كمخرج للوضع الذي وصلت اليه المفاوضات الائتلافية ، فانهم لا يخفون شكهم في امكانية استمرار مثل هذه الحكومة ، وقد عبرت جولدا مئير نفسها عن ذلك في اجتماع للجنة المركزية لحزب العمل حيث قالت: « لا استطيع ان اضمن كم ستصمد حكومة الاقلية. من المحتمل ان تنتهي بسرعة ، وعندئذ ستجري انتخابات ومن المحتمل ان تصمد فترة طويلة » (دافار ٧٤/٢/٢٥ نشرة م. د. ف. العدد الخامس اذار ١٩٧٤) .

أما المعارضة اليمينية فان غالبية الناطقين باسمها قد أعربت عن شكها في امكان حكومة الاقلية من اكمال عامها الاول . وصرح احدهم بقوله « سوف نكمن للحكومة وراء كل زاوية ، وسنبذل كل ما في وسعنا لاسقاطها » .

لكن الذي حال دون تشكيل حكومة الاقلية ، لم يكن في الواقع المعارضة اليمينية ، بل اليمين داخل حزب العمل المتمثل بشكل اساسي في كتلة «رافي». وموقف كتلة « رافي » والوزيرين دايان وبيرس من تشكيل حكومة اقلية ، رغم انهما وكتلتهما أعلنا اكثر من مرة عن استمرارهما في دعم جولدا مئير اذا ما شكلت حكومة اقلية ، هو الذي حال بالفعل دون مجرد اعلان التشكيلة الوزارية لحكومة الاقلية . فرفض دايان وبيرس المشاركة في الوزارة ، وضع جولدا مئير امام مأزق حرج ووضع علامة استفهام كبرة على وحدة الحزب وعلى السلطة العمالية . واذا كان لدى جولدا مئير شك في استمرارية حكومة الاقلية حتى لو شارك دايان فيها ، فانها بالطبع متأكدة ان لا قيام لمثل هذه الحكومة دون دايان وكتلته . ومن ناحية اخرى فان ذهاب دايان ، الذي ربما كان سيلاقي ترحيبا لدى المابام وبعض فئات حزب العمل ، لم يكن يعني بالنسبة لجولدا نهاية المطاف ، فالانتقادات وان كانت تركزت بشكل اساسي على دايان وسياسته ،فان جولدا مئير ، لم تكن لتجرؤ على التضحية بدايان . لعلمها ان الامر لن يتوقف عند حد اقالة او استقالة دايان . وكان واضحا منذ توقف القتال ان جولدا قررت دعم دايان حتى النهاية عندما اعلنت عندما طالب شابيرا وزير العدل السابق باقالة دايان ، انها ما زالت تضع ثقتها به كوزير للدفاع ، ودفاعها عن دايان هو في حقيقته دفاع عن النفس ، الى جانب الاعتبارات الاخرى الفئوية .

وهكذا فان موقف دايان وبيرس كان بمثابة دق أول مسمار في نعش حكومة الاقلية . والسؤال الذي يطرح نفسه ، بعد كل المناقشات التي جرت داخل حزب العمل والمحاولات التي بذلت لثني دايان وبيرس عن موقفهما هو هل كان دايان بموقفه هذا يسعى الى اجبار حزب العمل على تشكيل حكومة تكتل وطني او اجراء انتخابات جديدة كما كان يبدو من تصريحاته ؟ وما مدى علاقة ذلك بالصراع الذي كان يخوضه ضد مناوئيه داخل الحزب .

تكتيك ناجح

في الحقيقة ان موقف دايان الرافض للمشاركة في حكومة اقلية واقتراحه تشكيل حكومة تكتل وطني او اجراء انتخابات جديدة ، كان ردا على الحملات التي شنت ضده داخل حزب العمل والتجمع العمالي وخارجه بتشجيع من خصومه (حملة اشكنازي) . وكان هذا الموقف في مجمله عبارة عن تكتيك ناجح واستغلال ذكي للاوضاع السياسية والحزبية . واذا كان السبيل امام دايان لاستعادة هيبته الشعبية بواسطة اثبات نفسه عسكريا ليس في اطار الممكن الان ، فان تعزيز مواقعه داخل الحزب واخماده لاصوات مناوئيه سيساعده في تطف ثمار « الحرب الدبلوماسية » الدائرة الان بعد أن عجز في الحرب الفعلية ، ومن ثم استعادة شعبيته كمنقذ للدولة ومحافظ على مصالح اسرائيل الحيوية في الصراع السياسي الحالي . وقد عبر حجاي ايشد عن اخطار خروج دايان من الحكومة فقال : « ... كما يمكن أن يتسبب خروج دايان [من الحكومة] في اضعاف مركزها دوليا ، والاضرار ضررا بالغا بقدرتها على المساومة ومصداقيتها تجاه الخارج ، لانه سيكون اسهل كثيرا على الاميركيين، او على جهات دولية معادية، ان تدعي من الان فصاعدا بأن الحكومة الاسرائيلية لا تمتلك القدرة على الحسم، والقاعدة الجماهيرية والبرلمانية ، الكافية ، وبالتالي لا مبرر لانتظارها بينما هي تتخبط في وزنها للامور » (دافار ٢/٢٤/ ٧٤ نشرة م. د. ف ، العدد الخامس ٣/١/ ١٩٧٤) .

وقد وجد دايان في نتائج الانتخابات وما آلت اليه المفاوضات الائتلافية فرصته السانحة لبدء الهجوم لاستعادة مواقعه وتعزيزها ، وللرد على خصومه. وبالنسبة لدايان فان المخرجين اللذين طرحهما للخروج من الازمة كانا يصبان في طاحونة هدفه الرئيسي والاولي وهو اجبار الحزب مجددا على التأكيد على الثقة به وبالتالي تنفيذ بعض المطالب التي تقدم بها ، مثل الغاء الكتل داخل الحزب ، اعداد نظام داخلي لمناسبة الانتخابات لمؤتمر الحزب ومؤسساته في اواخر هذا العام ، تشكيل قيادة جماعية ، والبحث في سياسة وسائط الاعلام التابعة للحزب . ومن الجدير بالذكر ، ان نشير الى ان دايان في جميع خطواته وتصريحاته كان حريصا جدا على عدم المساس بجولدا مئير ، ولذلك من الخطأ الظن ان دايان قد بدأ معركة الوراثة الان . وكتب يوئيل ماركوس (هآرتس ٧٤/٢/٢٠) عن قرار دايان ودوافعه : « لا أنصح أحدا بأن يقبل بيان دايان كخطوة نهائية . فهذا القاء قفاز من جانب وزير الدفاع . اي ، بداية معركة سياسية معقدة قد تتحول ، خلال الاشهر المقبلة الى كرة من الثلج . فقد اوضح دايان ... انه لا يعتزم اعتزال الحياة السياسية » . واضاف ماركوس :ماذا يريد دايان ان يحقق ؟

« اولا ، من الجائز الجزم ان خطوة دايان ليست موجهة ضد جولدا مئير . فقد ذكر ، في المدة الاخيرة ، انه يحترم السيدة مئير اكثر من أية شخصية اسرائيلية منذ بن جوريون ... وهي بالمقابل ، تعتبر دايان الرجل الوحيد في حزبها القادر على مواجهة الولايات المتحدة خلال الاشهر القريبة المقبلة ...

« ان الدافع الاساسي ، بحسب تقديري ، ينبع من حقيقة ان النقد الفتاك ضده في حزبه اوصله الى حيرة بالنسبة الى السؤال حول ما اذا كان حزبه يقف وراءه ... ولم يعد واضحا لدايان ما اذا كان فعلا يمثل المعراخ ... وهذه هي ، كما يبدو ، الخلفية لخطوته » . واختتم ماركوس مقاله بالقول : « لا شك في أن وزير الدفاع اقدم على مجازفة محسوبة . ولكن هذه لا تتلاءم مع المشكلة التي سيواجهها المعراخ : هل يستطيع المعراخ ان يقدم على مجازفة محسوبة [بالمقابل] بالتخلي عن دايان وانصاره ؟ » (نشرة م. د. ف ، العدد الخامس ١٩٧٤/٣/١) .

تطورات مثيرة

جاء اعلان جولدا مئير عن قرارها بالتخلي عن مهمة تشكيل الحكومة تتويجا لتطورات الاحداث السياسية والحزبية داخل اسرائيل . وبينما وجد اليمين في ذلك ضالته ، نحو المشاركة في الحكم ، معتبرا قرار مئير ازالة للعقبة التي كانت تقف امام تشكيل حكومة تكتل وطني ، فان قادة حزب العمل والتجمع العمالي باستثناء كتلة « رافي » اصيبوا بما يمكن تسميته « هستيريا استرضاء جولدا » فالشخصيات والوفود لم تنفك عن التوجه اليها منذ اعلانها عن تخليها في ٧٤/٣/٥ وحتى عدولها عن قرارها . والى جانب ذلك فقد سارعت اللجنة المركزية للحزب بعقد اجتماع طارىء لبحث الاوضاع المتردية التي وصل اليها الحزب بقراري دايان وجولدا . وقد استمر الاجتماع مدة سبع ساعات متواصلة . وعلى الرغم من التوتر الذي ساد الجلسة فقد حاول جميع المتحدثين الحفاظ على هدوئهم لتحاشي الصدام مع اعضاء الكتل الاخرى. واوضح سكرتير الحزب ان الامر مصيري بالنسبة للدولة والحزب . وقد كان واضحا للجميع ان امكانية عدول جولدا عن قرارها ترتبط الى حد ما بتغيير اعضاء « رافي » لمواقفهم التي اكثروا من التحدث حولها ، وبشكل أساسي حول الدعوة الى اقامة حكومة تكتل وطني او اعادة الانتخابات. وقد جرى التصويت في اللجنة على ثلاثة أمور :

١ — دعوة جولدا للعدول عن قرارها ، وقد أيدت اللجنة المركزية هذا المطلب باغلبية ساحقة وامتناع اربعة أعضاء ليسوا من اعضاء رافي .

٢ — كما وأيدت الاغلبية في اللجنة المركزية ، وبامتناع ٤٥ عضوا ومعارضة سبعة اعضاء تأليف حكومة اقلية .

٣ — اما البند الذي يدعو دايان وبيرس للعودة عن قرارها فقد اقر بالاجماع .

وفي كلمته امام اللجنة المركزية عاد دايان واعلن تأييده لفكرة اقامة حكومة طوارىء وطنية ، لكنه قال انه لن يقدم اقتراحا كهذا الى اللجنة المركزية، في الوقت الذي تعارض فيه جولدا مئير هذا الامر ، ولكونه يعتقد انه يتوجب على جولدا مئير ان ترئس الحكومة ، فانه يؤثر بقاء جولدا على تشكيل حكومة طوارىء . لكنه أكد انه لن يشارك في حكومة اقلية . وفي مساء نفس اليوم (٧٤/٣/٥)

الذي صدرت فيه قرارات اللجنة المركزية لحزب العمل ، عقدت الحكومة المنتهية جلسة خاصة لمعالجة شؤون الامن ، صدر على أثرها بيانان عن مكتب رئيسة الحكومة ، يفيد الاول منهما ان مئير استجابت لطلب لجنة الحزب المركزية، وقررت استكمال مساعيها لتأليف الحكومة ، وان الوزيرين دايان وبيرس قد استجابا لطلب مئير بالانضمام للحكومة المقبلة .

الامن او « البقرة المقدسة »

وما عجزت عنه كافة محاولات الاقناع والتفاهم والقرارات الحزبية التي تتطلب نوعا من الانضباط الحزبي ، قدرت عليه تلك العصا السحرية ، التي طالما استغلت في السياسة الاسرائيلية على كافة الاصعدة . واكتشاف حالة التوتر «المفاجيء» على جبهة الجولان من قبل وزير الدفاع وغيره من المسؤولين ما هو الا محاولة للحفاظ على ماء الوجه ، بعد ان وصلت الاوضاع الى نقطة اللاعودة واصبح من شبه المؤكد ان مئير ستستجيب لدعوة اللجنة المركزية وتشكل حكومة اقلية اذا ما اصر المفدال على موقفه . وهناك مراقبون يرون احتمال دخول عنصر او قوة من خارج المنطقة في عملية التعجيل بتشكيل الحكومة الاسرائيلية ، وهذه القوة (الولايات المتحدة) ، هي بذاتها المصدر الذي استقيت منه المعلومات حول التوتر « المفاجيء » على الحدود السورية .

أما وزير المواصلات شمعون بيرس (رافي) فقد شرح تطورات الاحداث التي ادت الى استجابته والوزير دايان بقوله : « في الواقع اننا كنا نعتقد مساء أمس (٧٤/٣/٥) ولغاية الساعة العاشرة ليلا ، اننا لن نشترك في الحكومة ، ولكن خلال جلسة الحكومة اتضحت لنا امور لم نكن ندركها من قبل ، وكذلك وصلت معلومات خلال الجلسة لم نكن ندركها في السابق ، وهكذا اتخذنا قرارا في تلك اللحظة بالذات على ضوء الوضع الجديد ، وبعد انتهاء الجلسة ذهبنا الى جولدا مئير وقلنا لها اننا سنشترك في الحكومة المقبلة » (رأا — ١٩٧٤/٣/٦ عدد ٤٧٦ ص ١٣٨) .

وتماشيا مع هذا الجو قام دايان بزيارة وتفقد المواقع الاسرائيلية في الجولان للوقوف على مدى الاستعدادات الاسرائيلية ، ولاضفاء مزيد من الجدية على المخرج الذي تم التوصل اليه لايجاد حل للازمة الائتلافية والوزارية .

وعلى أثر صدور البيانين الانفين عن مكتب رئيسة الوزراء مساء ٧٤/٣/٥ تقرر عقد جلسة مشتركة ظهر يوم الاربعاء ١٩٧٤/٣/٦ بين مئير وممثلي المفدال في نطاق استكمال مئير لجهودها لتشكيل حكومة جديدة. وقد تبين في تصريحات زعماء المفدال ان النية تتجه نحو ايجاد مخرج ايضا لمسألة انضمامهم للائتلاف ، ائتلافا لمصلحة البلد العليا!!

وفي جلسة ادارة المفدال التي عقدت يوم ١٩٧٤/٣/٦ . والتي استمرت قرابة الخمس ساعات ، حسم الموضوع الامني كافة التحفظات على انضمام المفدال للحكومة وكانت نتيجة الاقتراع رغم « الحمى الامنية » غير مشجعة فقد أيد الانضمام ٣٠ عضوا وعارضه سبعة عشر وامتنع اربعة عن التصويت . وعلى اثر ذلك ابلغ الوزير حزاني جولدا مئير بقرار المفدال .

وفي مساء نفس اليوم (١٩٧٤/٣/٦) الذي اتخذت فيه ادارة المفدال قرارها بالانضمام للحكومة، ذهبت جولدا مئير الى مقر رئيس الدولة لتعلمه بأنها اتمت عملية اقامة الائتلاف وتشكيل الوزارة ، وبأنها ستتقدم الى الكنيست لطرح الثقة على ضوء بيانها السياسي الذي ستعلن فيه عن خطوط سياستها الاساسية .

وفي ١٩٧٤/٣/٧ اقرت اللجنة المركزية للمفدال قرار ادارة الحزب بالانضمام للحكومة بأغلبية ٩٣ مقابل ٦٩ عضوا وامتناع تسعة اعضاء عن التصويت . ومن المعلوم ان عدد اعضاء اللجنة المركزية للمفدال يبلغ مئتي عضو . وقد اثارت نتائج الاقتراع تساؤلا حول احتمالات انشقاق الحزب على نفسه نتيجة لموقف كتلة الشباب المتطرفة وممثلي المستوطنات التابعة للمفدال ، او على الاقل احتمال امتناع ممثلي الاتجاه الرافض للانضمام عن التصويت الى جانب الحكومة عن طرح الثقة ، وهذا ما حدث بالفعل ، حيث امتنع عضوا الكنيست زفولون هامر وبن مئير عن التصويت اثناء طرح الثقة بالحكومة .

تشكيل الحكومة ... وفوزها بالثقة

تشكلت الحكومة الحالية من اثنين وعشرين وزيرا (منهم ثلاثة وزراء دولة) بالاضافة الى رئيسة الوزراء . وقد جاء هذا العدد الكبير من الوزراء خلافا للرغبة السابقة في دمج بعض

الوزارات ذات الاختصاصات المتقاربة ، ونتيجة للضغوط الائتلافية الناجمة عن رغبة كل حزب في زيادة عدد ممثليه في الوزارة استجابة للصراعات الداخلية فيه حول المناصب الوزارية . وبعد مداولات ومباحثات مضنية تم التوصل الى تشكيل الحكومة على النحو التالي : ١٧ وزيرا للتجمع العمالي بما فيهم رئيسة الوزراء ومنصب وزير بلا وزارة ، وتتوزع بين الكتل المؤلفة للتجمع العمالي وحزب العمل على النحو التالي : ١١ وزيرا لكتلة المباي في حزب العمل ، بما فيهم رئيسة الوزراء، وزيران لكتلة رافي ووزيران لاحدوت هعفودا (أحدهما وزير بلا وزارة) . ومن أصل السبعة عشر وزيرا للتجمع العمالي هناك وزيران للمابام فقط ، وما زال المابام يطالب بحقيبة ثالثة .

أما على صعيد الاحزاب المشتركة في الائتلاف، فقد حصل الاحرار المستقلون على وزارتين (احداهما لوزير بلا وزارة) ، والمفدال على اربعة وزارات احداهما لوزير بلا وزارة . ومن الجدير بالذكر ان نشير هنا الى بعض الملاحظات التي وردت في نشرة رصد اذاعة اسرائيل في مقابلة مع دكتور شيفاح فايس المحاضر في جامعة حيفا حول التركيبة الحكومية ، اعمار اعضائها ، الوظائف التي اشغلوها في السابق ، خبراتهم وغيرها من الامور . يقول فايس : « بالمقارنة مع الحكومات في الغرب ، تتميز الحكومة في اسرائيل بسن الوزراء المرتفع نسبيا فنحو ١٨ ٪ من الوزراء قد عبروا سن السبعين وهو سن مرتفع ، ونحو ٢٨ ٪ من الوزراء قد عبروا سن الستين، وفقط ١٨ ٪ من بينهم هم اقل من سن الخمسين سنة . وسائر الوزراء بين الخمسين والستين عاما . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا معدل مرتفع نسبيا . ويضيف دكتور فايس حول اهتمامات واختصاصات اعضاء الحكومة فيقول : « ثمة مجموعة بارزة جدا وهي مجموعة الوزراء ذوي الماضي العسكري ، فنحو ٥٠ ٪ من الوزراء اي ١٢ وزيرا ذوو ماض عسكري ، منهم ثلاثة برتبة لواء وعميدان ، واثنان عملا في منصب مدير عام وزارة الدفاع ، وواحد كان رئيسا للجنة الخارجية والامن . وباختصار فان هذه مجموعة بارزة جدا. كذلك ثمة مجموعة الخبراء في الزراعة ، فعلى الاقل ثلاثة وزراء هم ليس فقط يمثلون قطاعات زراعية، بل هم زراعيون ، وعلى هذا الاساس يظهر ضعف المجموعة الادارية والاقتصادية . ومن المعلوم ان احد المواضيع الاكثر اهمية التي ستواجه هذه الحكومة في المستقبل القريب هي تنمية الاقتصاد الاسرائيلي ، واعتقد ان هذا طاقم ضعيف جدا . (رأآ — ١٩٧٤/٣/١٠ — عدد ٤٨٢ ص ٢٢٣) .

وفي معرض تقديمها للحكومة امام الكنيست يوم ١٩٧٤/٣/١٠ اشارت جولدا مئير الى خطوط حكومتها السياسية بالنسبة لبعض القضايا .وقالت مئير ان حكومتها قامت على اساس سياسة محددة ترى هدفها الرئيسي ، العمل من اجل السلام مع كل دولة من الدول المجاورة ، وان السلام مهمته ان يضمن لاسرائيل حدودا قابلة للدفاع ، وتطور دون أية مضايقات ، ذلك السلام الذي يضع حدا للحروب ، ويمكن جميع الدول في المنطقة من توجيه مواردها وطاقاتها الى مجالات البناء والانتاج والرفاهية . ومن اجل تحقيق هذا الهدف ، ستكون جهود الحكومة موجهة لايجاد الفرص والاحتمالات الممكنة في مؤتمر السلام الذي افتتح في جنيف .

اما بالنسبة للمفاوضات مع الاردن فقالت مئير : « ان الحكومة ستجري مفاوضات مع الاردن ، وستتخذ قرارات في كل مرحلة من مراحل المفاوضات، ولكن لن يكون هناك اتفاق سلام مع الاردن ، اذا كان يقتضي التنازل الاقليمي عن اجزاء الضفة الغربية قبل ان نسأل الشعب رايه في انتخابات جديدة ، اذا ما طلب احد الاحزاب المشتركة في الائتلاف هذا الطلب » (المقصود المفدال) .

أما بالنسبة لهضبة الجولان فعادت مئير وكررت نفس المواقف الاسرائيلية السابقة الرافضة للانسحاب من الهضبة ، مؤكدة ان اسرائيل على استعداد لعقد اتفاق لفك التحام القوات مع سوريا على أساس الانسحاب من المنطقة المحتلة في حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ فقط .

ومن موضوع الامن انتقلت مئير الى الشؤون الداخلية ، فقالت : « سيكون مقلقا جدا اذا وافقنا على العودة الى الحياة الاعتيادية التي كنا نحياها بالامس . يجب ان تتجسد في جميع مؤسسات الدولة وقطاعاتها الدروس والعبر التي استخلصناها من التجربة والاسباب ونتائج الحرب » .

وفي رد بيجن زعيم المعارضة على بيان جولدا

مئير وجه كلامه اليها مباشرة منتقدا الاسلوب الذي تم فيه تشكيل هذه الحكومة ، من اعتذار مئير الى عودتها بعد اقل من ٢٤ ساعة . ومشيرا الى ان مئير جعلت بتصرفاتها موضوع رئيس حكومة اسرائيل مثارا للسخرية والمهزلة . ثم تساءل بيجن: « ان السؤال الكبير يطرح في كل بيت في اسرائيل. الى أين نحن نسير ؟ والى أين سنصل ؟ لقد وعدتم ان تأتوا بالسلام ، واليوم تعلنون ان الحرب قد تنشب في أية لحظة ، حرب في الشمال . وانتم انفسكم تضيفون انه اذا وقع اطلاق نار في الشمال ، فان هناك أساسا لتوقع تجدد النيران في الجنوب ، ولربما في الشرق ايضا . هذه ظاهرة طبيعية ، بعد كل حرب تعدوننا بالسلام ، وبعد كل وعد كهذا من قبلكم نواجه حربا جديدة » (رأا — ٧٤/٣/١٠ عدد ٤٨٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧) .

وبعد انتهاء كلمات اعضاء الكنيست الممثلين للكتل المختلفة جرى التصويت على الثقة بالحكومة ففازت بها بأغلبية ٦٢ صوتا ضد ٤٦ صوتا (مجموع اصوات اليمين بالاضافة الى اصوات راكاح وحركة شوليت الوني) . بينما امتنع تسعة اعضاء عن التصويت : اثنان من حزب العمل واثنان من المفدال والاعضاء الخمسة للجبهة التوراتية . ويبدو أن ثلاثة من اعضاء الكنيست لم يكونوا حاضرين للجلسة .

هاني عبدالله

صدر مؤخرا عن مركز الابحاث

كتاب

الدور السياسي للجيش الاردني

١٩٢١ — ١٩٧٣

بقلم

عباس مراد

١٦٦ صفحة من القطع الكبير بخمس ليرات لبنانية ، تضاف اليها اجور البريد الجوي :

١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبه ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

(٦) القضية الفلسطينية عسكريا

فصل القوات في الجولان

في الرابع من آذار ١٩٧٤ انتهت عملية فصل القوات على الجبهة المصرية ، وأخذت القوات المصرية والاسرائيلية مواقعها المحددة في الاتفاق الموقع عند الكيلو ١٠١ في يوم ١٩٧٤/١/١٨ ، واحتلت قوات الطوارىء الدولية مواقعها في المنطقة المحايدة الفاصلة بين الطرفين ، وبدأت تمارس مراقبة المناطق التي ينطبق عليها شرط خفض القوات . ولم يبق من آثار حرب تشرين الاول سوى مسألتي فصل القوات على الجبهة السورية، ورفع حظر النفط عن الولايات المتحدة وهولندة والدول التي تقدم المساعدة لاسرائيل .

وعندما كانت عملية فصل القوات تجري بانتظام ودون حوادث على الجبهة المصرية، كانت المحاولات تبذل لفصل القوات على الجبهة السورية تمهيدا لرفع حظر النفط ، والبدء بمباحثات جنيف . وكان الشرط الاسرائيلي واضحا جازما : وهو الشرط الذي كرره المسؤولون الاسرائيليون اكثر من مرة، وعاد وزير خارجية العدو ابا ايبان ليذكره في الكنيست في جلسة يوم الثلاثاء ٢/١٩ عندما أكد « ان الحكومة الاسرائيلية لم تجر حتى الان مفاوضات مباشرة او غير مباشرة مع سورية حول موضوع فصل القوات ، وانها لم تنقل اية مقترحات او مشاريع او افكار بهذا الصدد الى أية حكومة ، لا في الشرق الاوسط ولا خارجه ، ... وان موقفها لا يقبل التأويل وهو عدم اجراء اتصالات مع سورية في الوقت الذي لم يقدم فيه السوريون لوائح بأسماء الاسرى ، ولم يسمحوا لممثلي الصليب الاحمر بزيارتهم » (رصد اذاعة اسرائيل ر.ا.ا. ١٩٧٤/٢/٢٠) .

وكانت الولايات المتحدة الراغبة في تحقيق انجاز على الجبهة السورية مماثل لانجازها على الجبهة المصرية تضغط على اسرائيل بشكل مباشر ، وتضغط على سوريا — عن طريق مصر والاتحاد السوفياتي والسعودية . ويعتبر عدد كبير من المراقبين العالميين أن رفض الولايات المتحدة « في الوقت الحاضر » تزويد اسرائيل بعشرين طائرة هليكوبتر متطورة من طراز « كوبرا » وبقاذفات صواريخ بعيدة المدى ، وبصواريخ « لانس » نوعا من هذا الضغط . ولقد أشار موشي دايان في جلسة اعضاء كتلة رافي الى هذا الضغط ، بشكل خفي ، في ليلة ٢/٢٠ عندما قال : « انه يتوجب على الحكومة الجديدة ان تهتم بالقضايا الملحة وهي تزايد قوة العرب، والاحتمالات لايجاد تسوية سلمية مع جيراننا بقوة الولايات المتحدة السياسية » . (ر. ا. ا. ٧٤/٢/٢١) .

وكان من الواضح خلال فترة الضغوط ان اسرائيل مرتاحة لما يجري على الجبهة المصرية . فلقد سمحت لها عملية فصل القوات وانتهاء حرب الاستنزاف بتسريح ٥٠ ٪ من المجندين ، وأعلن وزير الدفاع امام اعضاء اللجنة التنفيذية الصهيونية المجتمعين في القدس (٧٤/٢/٢٠) انه سيتم تسريح ٢٥ ٪ غيرهم بعد شهرين . وان فتح قناة السويس واعادة بناء مدن القناة بعد عدة اشهر ستعطي اسرائيل « فرصة تاريخية للتوصل الى تسوية مع مصر » .

واتجهت الانظار خلال هذه الفترة نحو واشنطن التي قررت ارسال كيسنجر ليقوم بمحاولة لفصل القوات . ولكن كيسنجر نفسه كان غير متفائل هذه المرة . ولقد نقلت الاوساط السياسية الاميركية ان كيسنجر يفضل ان يرسل بدلا عنه جوزيف سيسكو او السفير بانكر المكلف بتمثيل الولايات المتحدة في مباحثات جنيف ، لاعتقاده بأن الجو لم يصبح بعد ملائما لفصل القوات ، بيد ان ضغط الرئيس نيكسون الراغب في تحقيق انجاز يدعم مركزه سيجعل كيسنجر مضطرا الى تنفيذ المهمة بنفسه . ولقد ذكرت صحيفة **المونيتور** الاميركية « ان السوريين غير مستعدين لفصل القوات ، اي الانسحاب الى خطوط عشية يوم الغفران ، وهم يؤكدون ان هذا الانسحاب سيكون مجرد خطوة اولى » (المونيتور ١٩٧٤/٢/٢١) . ولقد لاحظ المراقبون قبل وصول كيسنجر ان الموقف السوري ازداد تصلبا بعد صدور قرارات المؤتمر الاسلامي في لاهور بتاريخ ٢/٢٤ التي تندد باسرائيل والدول التي تؤيدها ، وتدعو الى انسحاب اسرائيل غير المشروط من جميع المناطق العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ ، واعادة السيادة العربية على القدس .

ولم يكن هناك من يعتقد بأن المباحثات مع سورية ستكون سهلة ، فلقد ذكرت صحيفة **معاريف**

(٧٤/٢/٢٥) انه « حتى لو سلمت سورية لائحة بأسماء الاسرى ، وسمحت لممثلي الصليب الاحمر بزيارتهم ، فان الطريق لفصل القوات معها لن تكون سهلة » . وكان وزير الدفاع موشي دايان قد صرح في جامعة بارايلان بتاريخ ٢/١٤ انه لا يتوقع ان يتم الاتفاق مع سورية كما تم مع مصر ، وان من المحتمل التوصل الى اعادة النظر بشكل عميق في العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية ، ولكنه لا يتوقع مثل هذا الامر مع سورية « التي لن تقبل بالسلام مع اسرائيل الا اذ سلمتها اسرائيل ميناء حيفا . لذا فان الوجود الاسرائيلي في الجولان ضرورة استراتيجية بالنسبة الى اسرائيل » (**فيغارو** ١٩٧٤/٢/١٥) .

واخيرا وصل كيسنجر الى سورية في يوم ٢/٢٦ واجتمع بالمسؤولين السوريين فور وصوله ، وكان قد صرح في مطار لندن قبيل سفره الى سورية « انه يأمل ان يتم التوصل الى بدء محادثات سلمية واستئناف مؤتمر جنيف » . ولكن غولدا مائير قطعت عليه سبيل تفاؤله عندما صرحت بأن اسرائيل مصممة على ضم الجولان . الامر الذي دفع الدبلوماسي الاميركي سكوتس الى التأكيد في دمشق بأن الولايات المتحدة لا تشارك رئيسة الحكومة الاسرائيلية في موقفها بأن تكون الجولان جزءا لا يتجزأ من اسرائيل ، و« ان هذا التصريح قد احرج الولايات المتحدة » . وبدلا من ان تتراجع اسرائيل عن موقفها المتعنت هذا « حتى لا تحرج الولايات المتحدة !! » قال سفير اسرائيل في اميركا سيمحا دينيتس فور وصوله الى مطار اللد في ٢/٢٦ « لا اعتقد ان التصريح قد احرج الولايات المتحدة ، فان الولايات المتحدة تعد اكثر من ٢٠٠ مليون نسمة ، واعتقد ان البعض قد احرج . ولكن لا يمكن القول ان التصريح قد احرج الولايات المتحدة، واعتقد ان موقف اسرائيل من هضبة الجولان معلوم جيدا في الولايات المتحدة منذ مدة طويلة . **ويتوجب** على العالم ان يعتاد على الامر » (ر. ا. ا. ٧٤/٢/٢٧) . وكان استقبال صحيفة يديعوت احرونوت لوزير الخارجية الاميركية غير ودي تماما. فلقد اتهمته بأن له دورا في الازمة التي تجتازها اسرائيل « اذ انه يمارس علينا ضغطا شديدا . وعلى الرغم من ان هذا الضغط يمارس برقة ، فان الشعب يحس به في اسرائيل ... وينبغي على الدكتور كيسنجر ان يتوقف قليلا ، وينظر الى اين يدفع دولتنا » (**يديعوت احرونوت** ٧٤/٢/٢٦).

واستمرت محادثات كيسنجر مع القادة السوريين طوال ليلة ٢٦ شباط وصباح ٢٧ ، ثم توجه في اليوم نفسه الى اسرائيل حاملا معه قائمة بأسماء ٦٥ اسيرا ، ووعدا بامكانية زيارتهم من قبل الصليب الاحمر في مطلع آذار . ولقد صرح وزير الخارجية الاميركية فور وصوله الى مطار اللد « انه لمس في دمشق تقدما حسنا في بعض المواضيع التي تهم اسرائيل كثيرا » وان محادثاته في اسرائيل « ستجري بروح الصداقة وبدافع الاخلاص كما جرت محادثات فصل القوات مع مصر » وانه يأمل ان تكون هذه المحادثات ناجحة .

وبدأت جولة مباحثات كيسنجر مع الاسرائيليين بغية بلورة مشروع لفصل القوات مقابل حصولهم على قائمة الاسرى . وفي يوم ٢/٢٨ توجه كيسنجر الى القاهرة بزيارة قصيرة ، ثم عاد الى اسرائيل في يوم الجمعة ٣/١ ليحمل الى السوريين المشروع الاسرائيلي لفصل القوات . وفي يوم ٣/٢ غادر كيسنجر دمشق متوجها الى الرياض وعمان . ولقد ذكرت الصحافة الاميركية ، التي كانت تستقي معلوماتها من مراسليها الذين رافقوا وزير الخارجية الاميركي ، ان المشروع الاسرائيلي تضمن النقاط التالية (حسبما ذكر في نيويورك تايمز) :

ـ تنسحب اسرائيل من المنطقة التي احتلتها في حرب ١٩٧٣ .

ـ ترابط في هذه المنطقة قوات الطوارىء الدولية .

ـ تستلم قوات الطوارىء الدولية موقعين احتلتهما اسرائيل على جبل الشيخ في حرب تشرين الاول .

ـ يتم تبادل الاسرى .

ـ يسمح الاسرائيليون بعودة ١٨ الف شخص من سكان القرى المحتلة في حرب ١٩٧٣ الى اراضيهم .

ورفض الجانب السوري المقترحات التي حملها كيسنجر . وكان قد اعلم وزير الخارجية الاميركي مسبقا ان الذهاب الى جنيف ، مرهون بالنقاط التالية (حسبما ذكر في **فيغارو** ١٩٧٤/٢/٢٨) :

ـ ان تنسحب اسرائيل الى ما وراء الخط البنفسجي بعدة كيلومترات .

— ان يتم اخلاء القنيطرة ، حتى لو بقيت مؤقتا في المنطقة الفاصلة التي ستحتلها قوات الطوارىء الدولية .

— ان تعيد اسرائيل الى الجولان ٧٠ الف شخص من نازحي ١٩٦٧ .

— ان تعتبر مسألة تبادل الاسرى من ضمن الامور التي سيتم التباحث عليها خلال مؤتمر السلام .

— ان يسبق جميع التدابير السابقة تعهد اسرائيلي باخلاء الجولان واعطاء الشعب الفلسطيني حقه المشروع .

ولقد كان سفر كيسنجر من المنطقة ، والاعلان عن اجراء مباحثات سورية — اسرائيلية غير مباشرة في واشنطن بعد اسبوعين ، دليلا واضحا على تباعد وجهات النظر ، وصعوبة التقريب بينها، خاصة وان السوريين متشددون بالنسبة الى مسألة القنيطرة ، والزعماء الاسرائيليين متورطون اكثر مما ينبغي بتصريحات حول عدم التنازل عن الجولان وخاصة بعد بناء ١٨ مستوطنة في الهضبة المحتلة . بالاضافة الى ان زيارة كيسنجر جاءت في وقت كانت الحكومة الاسرائيلية تعيش خلاله أزمة حادة ، تجلت في فشل مائير في تشكيل الوزارة (بسبب موقف « المفدال » من مسألة « من هو اليهودي » واعتذار دايان وبيريز عن الاشتراك في الحكم باسم « رافي » بعد تعرضهما لانتقادات حزبهما التي انصبت على أخطائهما ومسؤوليتهما في حرب تشرين الاول ١٩٧٣) .

وفي ٤ آذار ، وبعد هدوء دام ١٢ يوما (منذ ٢٠ شباط) جرى اشتباك عنيف في مرتفعات الجولان ، عندما دفع العدو بوحدة هندسية لتحسين مواقعه الامامية في القطاع الجنوبي (منطقتي تل فرس والرفيد) فتصدت له المدفعية السورية ، وألحقت به عددا من الخسائر . (النهار ٣/٥/ ٧٤) . ويبدو ان التوتر على الجبهة السورية أفاد الحكومة الاسرائيلية وساعد على حل الازمة الوزارية ، فلقد عاد دايان وبيريز عن موقفهما وقررا المشاركة في الوزارة ، ووافق « المفدال » على المشاركة بأربعة وزراء ، وتم كل ذلك باسم « الوضع الامني الجديد » و« التوتر على الحدود السورية » .

ولقد فسر الاسرائيليون الاستعدادات السورية لشن هجوم يحرر المناطق المحتلة في حرب ١٩٧٣ بأنها ناجمة عن الضغط الحزبي والشعبي والعسكري في سورية باتجاه القتال ، ورغبة السوريين في دفع مصر الى القتال وايقاف التوجه المصري السريع نحو الولايات المتحدة . بالاضافة الى الدعم الذي قدمه غروميكو خلال زيارته الاخيرة لدمشق .

ويدعي الاسرائيليون ان مصدر المعلومات التي جاءتهم عن استعدادات سورية الهجومية هو الولايات المتحدة ومصادر الاستخبارات الاسرائيلية. ولكن المعارضة في اسرائيل نظرت الى الامر من زاوية اخرى ، ورأت ان « المفدال » و« المعراخ » وجدا الحل لمعضلاتهما وللتخلص من تعهداتهما ، وذلك عن طريق الاختفاء وراء اخبار الحشود السورية والوضع الامني ، وان الحشود السورية موجودة منذ حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، وهي مستنفرة بشكل دائم ، ومستعدة للقيام بالهجوم في كل لحظة . وانه بالرغم من ضرورة الحذر واليقظة، وخاصة بعد مفاجأة تشرين الاول ، فانه ليس هناك ما يبرر هذه الضجة المفتعلة حول الوضع الامني الجديد . ومن اطرف التعليقات الساخرة بالحكومة قول **معاريف** (٧٤/٣/٧) بأنه « يسود انطباع بأن السيدة مائير ليست هي التي ألفت الحكومة ، بل الرئيس السوري بمساعدة وزير الخارجية السوفياتي ! » .

ولقد كذبت سورية ادعاءات اسرائيل ، واعلنت في ٣/٦ ان الاسرائيليين « يخلقون حجة لغزو سورية » ... و« ان سورية مقتنعة بأن اسرائيل لم تتخل عن سياستها التوسعية تجاه الدول العربية » (١٩٧٤/٣/٧) . وقالت وكالة **تاس** (٣/٧) ان الانباء الاسرائيلية عن تصعيد حدة التوتر في الجولان « ليست الا استفزازا من جانب اسرائيل » .

وأكد هذا التكذيب مراسل الاذاعة الاسرائيلية روني دان الذي نقل عن احد المستوطنين في هضبة الجولان قوله في ٧ آذار « ان الوضع متوتر في تل ابيب والقدس اكثر مما هو متوتر هنا اليوم في هضبة الجولان » (ر. ا. ا. عدد ٤٨٠) .

وبالرغم من كل هذه التأكيدات فان في اسرائيل انطباعا بأن من الضروري تعلم درس تشرين الاول، وأخذ كل اشارات الانذار مأخذ الجد . كما ان الرأي السائد (خارج المعارضة) يؤكد بأن زيارة

غروميكو لدمشق والبيان المشترك السوفياتي — السوري ، الذي يحذر من انفجار قريب في الشرق الاوسط ، قد دعما موقف سورية ودفعاها الى التشدد وتطبيق الاسلوب الفيتنامي في المفاوضات « وهو التفاوض في الوقت الذي تكون فيه الاشتباكات مستمرة على الجبهة » (**جيروزليم بوست** ١٩٧٤/٣/٨) .

ولقد جرى بالفعل اشتباك في يوم ٨ آذار اشتركت فيه المدفعية والدبابات ووحدات الصواريخ المضادة للدبابات . وأعلن الناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية في واشنطن ان الوضع في الجولان«دقيق وغير مستقر، واننا نراقبه عن كثب».

والحقيقة ان الولايات المتحدة راغبة في تهدئة الوضع في الجولان لان رفع حظر النفط مرتبط على ما يبدو بفصل القوات في الجولان ، وان كانت هناك دول عربية تضغط لرفع الحظر قبل فصل القوات ، وتكرر هذه الدول حجة كيسنجر ، التي نقلها مسؤول اميركي كبير ومقرب جدا من وزير الخارجية عندما قال « بأنه لم يعد هناك مبرر لاستمرار حظر الدول العربية تصدير النفط الى الولايات المتحدة نظرا لدخول سورية الان في المساعي الرامية الى تحقيق السلام في الشرق الاوسط » (**نيويورك تايمز** ٧٤/٣/٥) .

والان ، وبعد هذا العرض للوضع على جبهة الجولان والمساعي التي بذلت حتى الان لفصل القوات لا بد من القاء نظرة تحليلية على الموقف . لقد ذكرت مائير في بيانها الوزاري الذي القته امام الكنيست في يوم ٣/١٠ « لقد ابلغنا دمشق عن طريق كيسنجر اننا سنتقدم بخطة تفصيلية للفصل بين القوات بعد تشكيل الحكومة الجديدة بأسبوعين ونحن على استعداد لان نبعث بمندوب مأذون الى واشنطن لهذا الغرض » (**رويتر** ٣/١٠) . فماذا يمكن ان يتضمن هذا المشروع الجديد التي ستتقدم به الحكومة الاسرائيلية بعد أن انتهت ازمتها وتثبتت اقدامها على الارض بشكل أفضل ؟ ان من المحتمل ان يتضمن بعض التنازلات . ولكن سورية حازمة بالنسبة الى مسألة الانسحاب ، ولقد عبر الرئيس الاسد عن ذلك في خطابه الذي ألقاه في ٨ آذار بمناسبة الذكرى الحادية عشرة لقيام ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ عندما قال بأن الحرب مع اسرائيل لم تنته ، ولن تنتهي بالنسبة الى سورية ما لم تتحرر الارض العربية بكاملها ، ثم قال مذكرا المسؤولين الاسرائيليين « الذين يدعون ان مرتفعات الجولان السورية جزء من اسرائيل بأن فلسطين ليست جزءا من الوطن العربي فحسب ، بل هي الجزء الاساسي من جنوب سورية » (**المحرر** ٣/٩) فهل ستعرض اسرائيل انسحابا جزئيا ؟ ان خطوة كهذه يمكن ان تؤدي الى تخفيف حدة التوتر والسير بالازمة خطوة الى أمام ، ولكن حتى يتم ذلك — ولا يحتمل ان يتم قبل مطلع شهر نيسان — فان الوضع يبقى متوترا .

وينجم توتر الوضع الى حد بعيد عن شكوك الطرفين المتجابهين ، وتداخل الجبهات ، وقوة الضغوط الداخلية المناوئة للتساهل في سورية واسرائيل ، ورغبة الطرفين في الذهاب الى المفاوضات **تحت ظلال الحراب** . وبالرغم من كل محاولات التهدئة فان من المحتمل اندلاع القتال على الجبهة السورية . ان المسؤولين الاسرائيليين يدعون بأن قواتهم مستعدة لهذا القتال . ولكنهم لا يحددون فيما اذا كانوا ينوون القتال هجوميا ام دفاعيا ، ولا يذكرون كيف تنسجم اقوالهم حول القتال مع قيامهم في الوقت نفسه بتسريح الاحتياط. ويذكر المراقبون ان القتال سيكون في حالة اندلاعه شرسا وصعبا ، فلقد اعاد السوريون تسليح جيشهم الذي غدا اقوى مما كان عليه في تشرين الاول . وهم متحصنون في مواقع جيدة على حين يقف الاسرائيليون مكشوفين داخل جيب ضيق . ويقول المعلق العسكري الاسرائيلي يعقوب ايريز عند الحديث عن منطقة الجيب « لا تتمتع هذه المنطقة بعمق استراتيجي ، لذا يستطيع السوريون استخدامها في حرب استنزاف « بقطرات » من قذائف المدافع والهاونات» (ملحق**معاريف**٧٤/٢/٨).

والاسرائيليون حساسون ازاء حرب الاستنزاف، وحساسون اكثر ازاء الخسائر البشرية التي تسببها . ويدخل قادة العدو في حساباتهم معنويات قواتهم التي ستكون في هذا القتال منخفضة ، لان جنودهم سيتساءلون : لماذا نقاتل في هذا الجيب الذي سنتخلى عنه كما صرحت رئيسة الوزراء ؟ ولماذا نموت في ربع الساعة الاخير طالما ان مباحثات فصل القوات ستجري خلال اسابيع في واشنطن ؟ على حين ستكون معنويات القطعات السورية مرتفعة ، لانها ستشارك في حرب تحريرية لجزء من تراب الوطن .

ويراهن الاسرائيليون على أن الضغط الاميركي سيخف الى حد ما ويغدو اقل الحاحا بعد رفع حظر البترول العربي في اذار، وعلى ان سورية ستبقى وحدها في الميدان ، لان تحرشات ايران المتكررة (في النصف الاول من آذار) ، والتي لا يستبعد ان تكون مخططة ومرسومة في واشنطن ستمنع الجيش العراقي من الانتقال من العمق الاستراتيجي الى العمق العملياتي للمشاركة في القتال ، كما فعل في حرب ١٩٧٣ . كما ان القوات المصرية البرية ستجد نفسها عاجزة عن المشاركة في القتال نظرا لوجود قوات الطوارىء الدولية أمامها . ومن المعروف ان قوات الطوارىء ستمارس مهمتها (وفق قرار انشائها) حتى ٢٤ نيسان الا اذا قرر مجلس الامن تمديد هذه المهمة . وهذا يعني ان كل تقدم بري مصري قبل ٢٤ نيسان سيصطدم بقوات الطوارىء التي صرح قائدها الجنرال انسيو سيلاسفو في ٧ آذار « ان قواته في صحراء سيناء، والمرابطة بين الجيشين المصري والاسرائيلي مستعدة للقتل للمحافظة على وقف اطلاق النار » (**النهار** ٣/٩) . وبالرغم من ان قوة الطوارىء المسلحة بالرشاشات والاسلحة الخفيفة ، والمحرومة من اية اسلحة ثقيلة لا تشكل قوة قتالية فعلية ، فان قوتها نابعة من وضعها الدولي ، ومن قوة الدول التي بعثت بها (ايرلندة ، بيرو ، السويد ، اندونيسيا ، السنغال ، فنلندة) ، ومن قوة مجلس الامن الذي حدد لها مهمتها ، والمضاعفات الخطيرة التي يمكن ان تنجم عن الاعتداء عليها . لذا فان القتال المصري الوحيد الممكن في حالة اندلاع الحرب على الجبهة السورية هو القصف بالصواريخ بعيدة المدى ، والقتال الجوي والقتال البحري .

وهناك عامل جديد لا يمكن لاسرائيل ان تنساه قبل الاندفاع في اية مغامرة جديدة ، وهو وجود صواريخ ارض — ارض « فروغ » في مصر وسورية ، ووجود صواريخ ارض — ارض بعيدة المدى « سكود » في مصر واحتمال وجود عدد منها في سورية ، وقدرة هذه الصواريخ على ابطال تأثير الردع الجوي الاسرائيلي بسلاح الطيران المتفوق . ويذكر المعلق الاسرائيلي زئيف شيف بأن « ادخال هذه الصواريخ [الى المنطقة] ادى الى اختلال التوازن الاستراتيجي بين الاطراف [المتنازعة] واحدى النتائج ، هي ان اسرائيل نقدت قدرة الردع التي حققتها ، في الاساس ، سلاحها الجوي المتفوق ، وان الردع الاسرائيلي توازن مع الردع العربي المضاد » ... « ان قرار عدم استخدام هذا الاسلوب [الغارات الجوية في عمق الاراضي المصرية] لم يكن نابعا من رادع أخلاقي ، والبرهان على ذلك هو اننا استخدمنا هذا الاسلوب ضد الشريك الاصغر — سورية . وبكلمات اخرى ، ان الذراع الاستراتيجية الاسرائيلية [سلاح الجو] كانت مقيدة في عملياتها ضد العدو الاساسي [مصر] » (**هآرتس** ٧٤/٧/٤ — نشرة م. د. ف. ٧٤/٣/١) . وكتب مئير كوهن عن وسائل مقاومة صواريخ سكود وقال انه لا توجد وسيلة لاسقاط الصاروخ او التشويش عليه بعد انطلاقه من قاعدته . ولا توجد وسيلة للحصول على انذار مسبق عن اطلاقه (**هآرتس** ٧٤/١/١٧ — نشرة م. د. ف ٧٤/٣/١) .

لقد كان هذا في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ . اما الان ، وقد امتلك الشريك الاصغر — على ما يبدو — عددا من صواريخ « سكود » بالاضافة الى صواريخ « فروغ » ، فان القيادة الاسرائيلية ستفكر مليا قبل استخدام سلاحها الجوي لضرب اهداف حيوية او مدنية في عمق الاراضي السورية ، خاصة وان تجربتها مع صواريخ « فروغ » كانت أليمة جدا . ولقد عبر وزير الاسكان زئيف شيف عن هذه التجربة عندما أعلن « ان ٧٦٠ منزلا في مجدال هاعيمك قد تضررت نتيجة لانفجار صواريخ « فروغ » التي اطلقت على المستوطنة في السادس من تشرين الاول » . (ر.١٠١٠. عدد ٤٧٩ ، ١٩٧٤/٣/٧) .

ان « المفاوضات المسلحة » اسلوب متبع وممكن، ويستطيع السوريون تطبيقه بنجاح (على غرار ضربة ١٣ آذار التي دمرت كمينا اسرائيليا وعددا من المعدات والاسلحة ، والضربات المتعاقبة التي استمرت طوال النصف الثاني من شهر آذار وشملت قطاعات جبهة الجولان كلها) طالما ان قوات السوريين البرية متحصنة دفاعيا بشكل جيد ، وطالما ان شبكة صواريخهم الموجهة ارض — جو قادرة على حماية اجوائهم ، وطالما ان بطاريات صواريخ ارض — ارض قادرة على ابطال تأثير الردع الجوي المعادي ، وطالما ان عدوهم حساس للخسائر البشرية التي تتراكم يوما بعد يوم ، لتشكل في النهاية رقما كبيرا لا قبل له به .

المقدم الهيثم الايوبي

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٢/١٦ — ١٩٧٤/٣/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٢/١٦	٧٠٠٠	اسدود(١)	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير المختبر الرئيسي تدميرا تاما في مصفاة البترول وتدمير عدد من الخزانات وجزء كبير من معمل التكرير واشتعال النيران في المصفاة	—	—	—	رقم ٧٤/٣٢	٢/١٦
٢	٢/ ٤		بين طولكرم — ارتاح	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل	غيرمحدد		تدمير احدى آليات العدو	—	—	—	رقم ٧٤/٣٣	٢/١٦
٣	٢/ ٨	١٩٠٣٠	طولكرم — ارتاح	قصف	صواريخ	غيرمحدد		اصابة مستعمرة ستعوز غربي قرية ارتاح	—	—	—	رقم ٧٤/٣٤	٢/١٧
٤	٢/١٨	٣٠٤٠	نهاريا	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير جزء من مطعم هانتوم واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٣٥	٢/١٨
٥	٢/١٨	٢٠٠٠	تنيفوت/بيت ليد	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير قسطل مياه	—	—	—	رقم ٧٤/٣٦	٢/١٩
٦	٢/١٨	١٨٠٠٠	بيت جبرين	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير مضخة مياه الواقعة شرق البلدة	—	—	—	رقم ٧٤/٣٧	٢/١٩
٧	٢/٢٣	٢٠٣٠	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء من مقهى براك واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٣٨	٢/٢٣
٨	٢/٢١	—	القدس	اقتحام	—	١	—	اقتحام منزل الضابط يساخر بن داميد وقتله	—	—	—	رقم ٧٤/٣٩	٢/٢٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٩ —	٢/٢٦	١٥٠٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اصابة مدرج حائط المبكى بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٤٠	٢/٢٧
١٠ —	٢/٢٦	١٨٠٠٠	يافا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء كبير من سوق الخضار المركزي	—	—	—	رقم ٧٤/٤١	٢/٢٧
١١ —	٢/٢٧	١٢٠٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اصابة باص بأضرار واصابة عدد من افراد العدو	—	—	—	رقم ٧٤/٤٢	٢/٢٨
١٢ —	٢/٢٨	١٩٠٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء من مبنى يسكنه يعقوب مدير خزينة الدخل	—	—	—	رقم ٧٤/٤٣	٣/١
١٣ —	٣/ ٣	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اصابة أحد المصارف بشارع عمر المختار بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٤٤	٣/٤
١٤ —	٣/ ٣	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اصابة احد الباصات في ساحة فلسطين بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٤٥	٣/٤
١٥ —	٣/ ٣	٣٠٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير جزء من مبنى واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٤٦	٣/٥
١٦ —	٢/٢٨	—	بين عنبتا ونابلس	هجوم	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل طاقمها	—	—	—	رقم ٧٤/٤٧	٣/٥
١٧ —	٢/ ٥	٢١٠٠٠	مستعمرة ماعوز هاتيكار/وادي عربة	قصف	قذائف صاروخية ومدافع الهاون	غيرمحدد	اصابة المستعمرة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٤٨	٣/٦
١٨ —	٢/١٤	—	مستعمرة عين ياهاف	تفجير	حقل الغام	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٤٨	٣/٦
١٩ —	١/ ٨	—	وادي الجيب المشيشن	تفجير	الغــام	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٤٨	٣/٦
٢٠ —	٢/ ٤	—	محطة سكة الحديد — سنافور/غزة	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة اتوبيس عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٤٩	٣/٧

٢١ — ٢/١٥	—	شارع عمر المختار/غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة جيب عسكرية وقتل من فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٤٩	٣/٧
٢٢ — ٣/ ٤	—	مزلقان الصايغ/ خان يونس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة فولكس فاجن تابعة لرجال المخابرات	—	—	—	رقم ٧٤/٤٩	٣/٧
٢٣ — ٢/٢٨	—	ظهرة الشيخ محمد/خان يونس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	١	—	اعطاب سيارة جيب عسكرية وقتل سائقها	—	—	—	رقم ٧٤/٥٠	٣/٨
٢٤ — ٣/١٣	٢٢٤٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير مكتب العمل في شارع الزهراء واشعال النيران فيه	—	—	—	رقم ٧٤/٥٢	٣/١٤

---

١ — اعترف العدو بنشوب حريق في المصفاة ادى الى تدمير المختبر . راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل عدد ٤٦٣ ص٣٣٦٣ بتاريخ ١٩٧٤/٢/١٦ .

— تصدر البلاغات العسكرية عن القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٢/١٦ — ١٩٧٤/٣/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١	٢/١٥	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	١	تفجير عبوة في سيارة اتوبيس	—	—	—	ن. عدد٤٦٢ ص٣٣٤٩	٢/١٥
٢	٢/١٨	—	نهاريا	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اصابة مطعم « فانتوم » بأضرار	—	—	—	ن. عدد٤٦٤ ص٣٣٨٦	٢/١٨
٣	٢/١٨	٢٤٠٠	تنولوت/بيت ليد	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	اصابة مشروع المياه القطري بأضرار	—	—	—	ن. عدد٤٦٥ ص٣٤٠٨	٢/١٩
٤	٢/١٨	—	الخليل	تفجير	الغـام	—	—	—	٢	—	—	ن. عدد٤٦٦ ص٣٤٤٠	٢/٢٠
٥	١٩٧٣/١٢/٢١		نابلس	—	—	١	—	تصفية الجندي ايلي لوبو	—	—	—	ن. عدد٤٦٧ ص٣٤٧٥	٢/٢١
٦	٢/٢٥	—	حرفا/المنطقة الشمالية	قصف	اسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد٤٧١ ص٣٥٧٧	٢/٢٦
٧	٢/٢٧	١٣٤٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	١	اصابة باص بأضرار	—	—	—	ن. عدد٤٧٣ ص٣٦٣٥	٢/٢٨

ن — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

صدر حديثا عن مركز الابحاث الكتب
الانجليزية الثلاثة التالية

1 — **Jerusalem at the United Nations,** by Dr. George J. Tomeh (79 pages, 2 L.L.)

2 — **Palestine and Israel, The Civil Rights Configuration,** by Ray L. Cleveland (22 pages, 1 L.L.)

3 — **P. L. O. The Representative of the Palestinians,** by Isam Sakhnini, (31 pages, 1 L.L.)

يضاف الى ثمن كل نسخة بدل أجور البريد الجوي : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في أوروبا ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول

اطلبها من مركز الابحاث — قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

صدر حديثاً

٦ تشرين بين التسوية والتحرير

الدكتور الياس فرح

هذا الكتاب ، الذي هو اول كتاب يصدر بالعربية عن نتائج حرب ٦ تشرين ، يضع هذه الاخيرة ضمن اطارها الحي كحلقة في سلسلة مراحل الثورة العربية ، رابطا المواقف الظرفية التي رافقت المعركة بالخط الاستراتيجي العام للنضال العربي ، كاشفا الفواصل الرئيسية بين طريق التحرير وطريق التسوية السلمية .

دار الطليعة للطباعة والنشر ش.م.ل.

بيروت — ص.ب : ١٨١٣

صدرت حديثا
عن المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

الموسوعة السياسية

إشراف :
د. عبدالوهاب الكيالي
كامل زهيري

تشتمل هذه الموسوعة على:

* ١٨٧٥ بندا .
* ٨٠٠ اصطلاح سياسي.
* ٥٤٠ شخصية .
* ٢٠٠ دولة ووحـدة سياسية .
* ١٥٠ حزبا ومنظمة .
* ٤٠ جدولا احصائيا .
* ٢٠ وثيقة سياسية .

* فهرس انكليزي — عربي وفرنسي — عربي يشتمل على كل المصطلحات السياسية مع ترجمتها الى العربية .

العـدد الاول من :

قضايا عربية

نيسـان ١٩٧٤

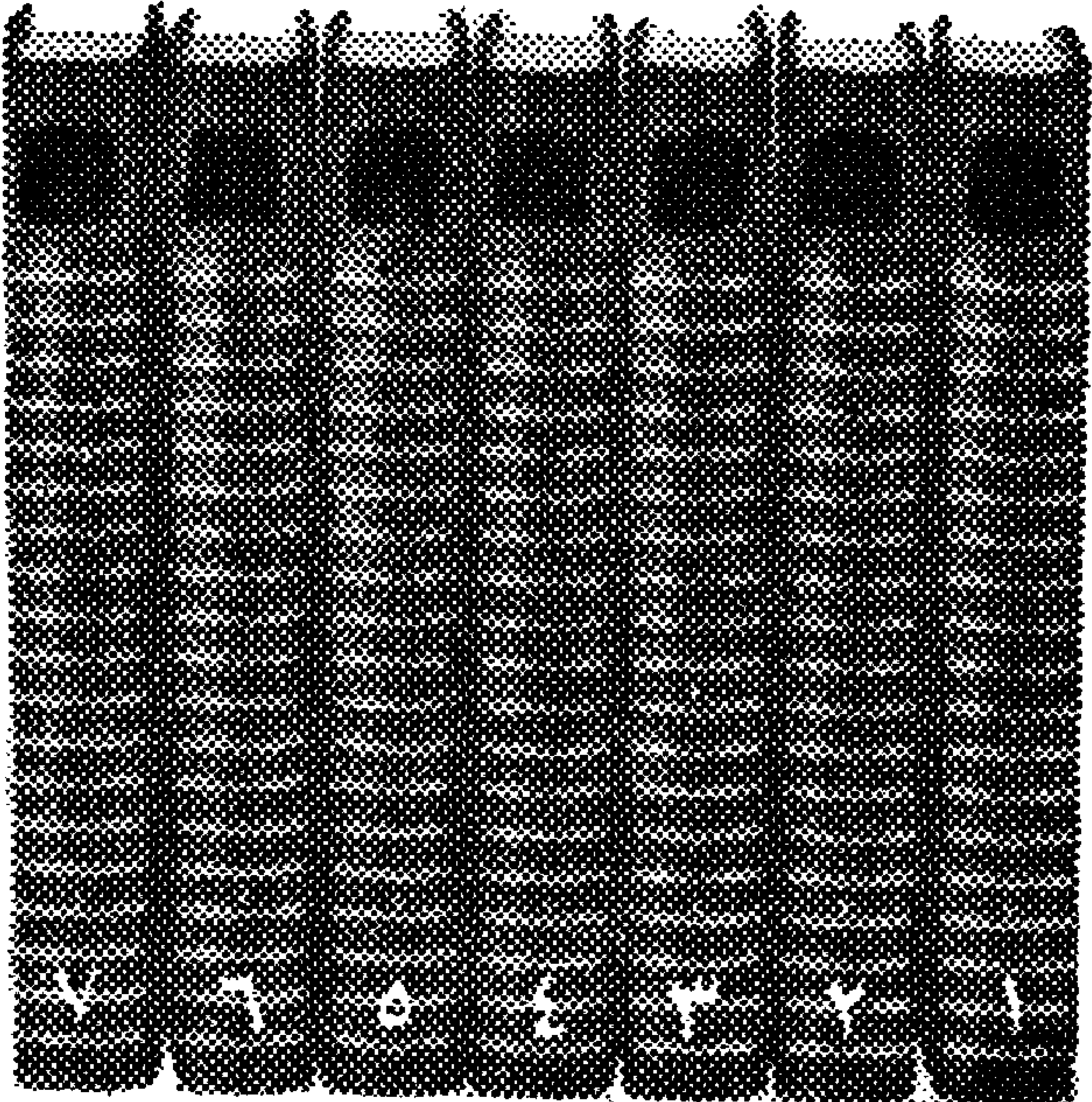
هيئة التحرير : د. عبد العزيز الاهواني ، د. عبدالله عبدالدايم
د. محمد عطاالله ، د. منيف الرزاز ، د. احسان عباس ،
محمد عماره ، رجاء النقاش ، د. وليد خـوري ، د. انور
عبد الملك .

رئيس التحرير : د. عبد الوهاب الكيالي .

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات العربية التقدمية تعالج الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والعلمية في الوطن العربي من خلال نظرة مستقبلية وبروح البحث العلمي .

صدر المجلد السنوي السابع من

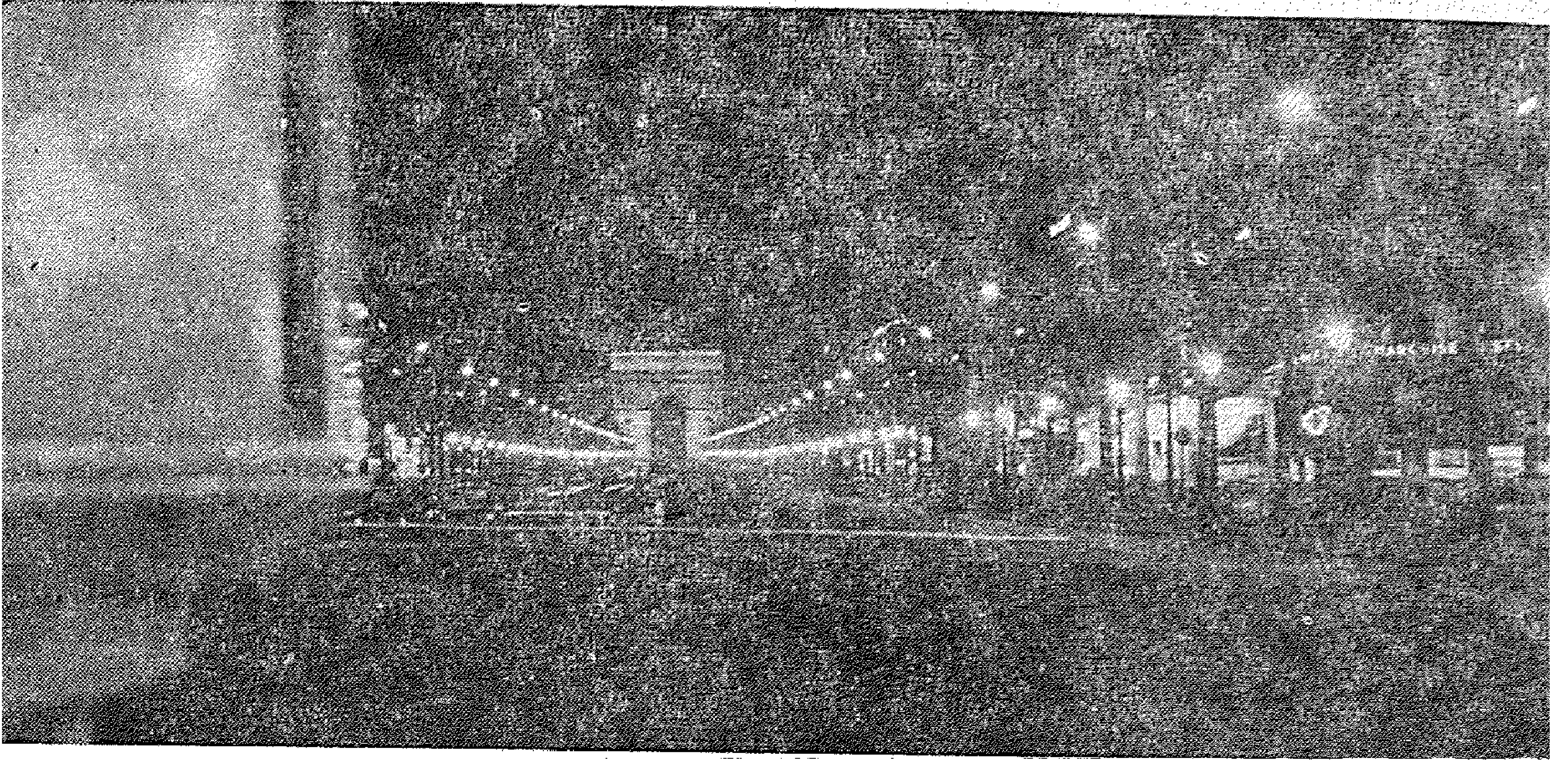
السياسة الدولية



- مرجع علمي للعاملين في الحقل السياسي والدبلوماسي والإعلامي .
- المجلد مزود بفهرس تحليلي وفهرس للمعاهدات والاتفاقات الدولية .
- ١٠٠٠ صفحة ... الثمن ١٠٠ قرش
- يطلب من قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام ومكتبة الأهرام بشارع محمد فريد والمكتبات الكبرى في الوطن العربي
- يضم الأعداد ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ الصادرة خلال عام ١٩٧١

رئيس التحرير
د. بطرس بطرس غالي

مدير التحرير
د. عبد الملك عودة

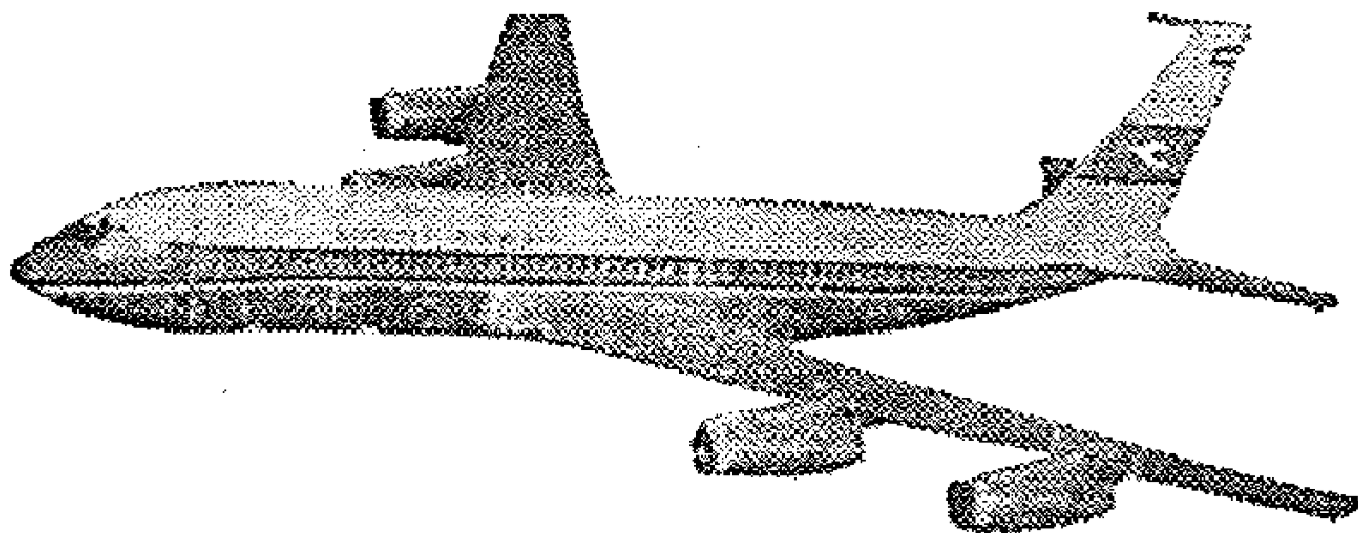


رحلات يوميّة من الكويت والخليج العربي إلى عواصم أوروبّا الرئيسيّة



الثلاثاء: الكويت - اثينا - جنيف - لندن الساعة ١١,٣٠
الأربعاء: الكويت - لندن بدون توقف الساعة ١٥,٠٠
الخميس: الكويت - روما - فرنكفورت - لندن الساعة ١١,٣٠
الجمعة: الكويت - روما - باريس - لندن الساعة ١١,٣٠
السبت: الكويت - اثينا - فرنكفورت - لندن الساعة ١١,٣٠
الأحد: الكويت - روما - باريس - لندن الساعة ١١,٣٠

سافروا بطائرات الخطوط الجويّة الكويتية واجعلوا رحلاتكم سهلة ممتعة بمشاهدة العروض السينمائية التي أصبحت تقدم خلال جميع الرحلات، وذلك علاوة على الموسيقى المنوعة التي يمكنكم الاستماع إليها على ٦ أقنية مختلفة.



الخطوط الجوية الكويتية

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 55, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ١/٢ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٣٣

ايار (مايو) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٣ — ايار (مايو) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين.

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٩٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : لوحة « اليد الخضراء »
بريشة الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

المحتويات

---

١٣٣ **مراجعات** : الدور السياسي للجيش الاردني ١٩٢١ ـ ١٩٧٣ ، غـــازي الخليلي . دفتر الثقافة العربية الحديثة ، الياس خوري . المآسي المعاصرة والمصير العربي ، ماجد نعمه .

١٤٩ **مناقشات** : الغطرسة الاسرائيلية : جذورها وابعادها ، خالد القشطيني. تعقيب من مؤلف ، معين أحمد محمود .

١٥٦ **تقارير** : (١) قضية احمد بوشيكي ، آني كنفاني . (٢) منـــير الريس ، المناضل الذي خسرناه ، حسين ابو النمل. (٣) كيسنجر والولايات المتحدة والنزاع العربي الاسرائيلي ، الدكتور عودة ابو ردينة . (٤) بومبيـــدو « العربي » ، داود تلحمي . (٥) يهود كندا ، دراسة سكانية ، الدكتور مطاع غميان . (٦) الانتخابات البريطانية واسرائيل ، خ.ق.

١٨١ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . مع ملحق « عملية كريات شمونة » ، الرائد الطيار حسين عويضه . (٢) القضية الفلسطينية دوليا ، صادق جلال العظم . (٣) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٤) اسرائيليات ، عماد شقور وهاني عبدالله . (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، المقدم الهيثم الايوبي. مع ملحق «أبعاد استقالة يسرائيل تال»، هشام عبدالله . جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٣/١٦ ــ ٤/١٥/ ١٩٧٤ ، غازي خورشيد .

شؤون فلسطينية

الحوار الفلسطيني مستمر ...

ولعل استمرار هذا الحوار حول القضايا المتعلقة بالمصير الفلسطيني هو أحد المظاهر الساطعة لقدرة الفكر الثوري على مواجهة التحديات .

هل نحن على مفترق طرق ؟

هل نحن أمام مرحلة خطيرة ؟

هل نحن أمام حل أم تسوية أم تصفية ؟

أسئلة كثيرة كثيرة تطرح في ميدان العمل والفكر الفلسطيني ، ليس من السهل الاجابة عليها بيقين . ان تنوع الاجتهادات ينطلق من حرص اطراف الحوار على الثورة واستمرارها وعلى الوحدة الوطنية الفلسطينية ، ومكانة العمل الفلسطيني في حركة التحرر العربية .

وان تنوع الاجتهادات لا يعكس ازمة في الحياة السياسية الفلسطينية ، ولكنه دليل يقظة والتزام بالثورة ومبادئها .

وان تنوع الاجتهادات في ساحة الحوار لا يجب ان يقود احدا الى الشك في التزام هذا الفريق او ذاك . ان نختلف في الرأي ليس معناه اننا نختلف حول جوهر الثورة وحول حقنا التاريخي في فلسطين .

وان تنوع الاجتهادات اثراء للفكر ومساهمة في اتخاذ القرار الفلسطيني المسؤول والملتزم .

ويؤسفنا ان نسجل ، هنا ، ان الانصراف عن جدية المناقشة والحوار الى التصنيف والشك هو دليل بؤس فكري وليس خدمة لقضية فلسطين والثورة .

ليس الفلسطينيون الثوريون فريقين : فريق يسمى « ضد » ، وفريق يسمى « مع » . ان هذا التصنيف بمثابة تضييق الخناق على العقل وعلى الاجتهاد . مع ماذا ؟ وضد ماذا ؟

ان كل فرد في حركة المقاومة الفلسطينية « مع » الثورة واهدافها . وكل فرد في حركة المقاومة « ضد » تصفية الثورة والقضية .

من هنا نبدأ .

وكل تصنيف مستمد من تفاصيل المناقشة وتصورات الحل هو عبارة عن ارهاب فكري وكسل .

وان « شؤون فلسطينية » الملتزمة بالثورة ، حريصة على ان تكون منبرا لكل الاجتهادات الفكرية التي يتوصل اليها العقل الفلسطيني . انها تقدم صفحاتها للفكر المسؤول ، ولاطلاع جماهيرنا الفلسطينية العربية على كل الوان الاجتهادات المتفقة كلها على القضايا المبدئية ، والمتنوعة في النظر الى المرحلة والمستقبل . وهي ترفض ان تحشر في خانات التصنيف الضيقة .

انها منبر الفكر الفلسطيني الملتزم بالثورة واهدافها .

من دروس حرب تشرين :
الاسرائيليون يعيدون النظر

صبري جريس

تسود اسرائيل ، منذ انتهاء حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، حرب « يـوم الغفران » ، موجة من الانتقادات المختلفة الموجهة لكافة نواحي الحياة هناك . وهذه الانتقادات التي تزداد حدة من يوم لآخر ، والتي يبدو انها لم تصل الى قمتها بعد لا تترك ناحية الا وتتعرض لها ، ابتداء بأسس النظام الاسرائيلي ، مرورا بالنظرية الصهيونية والمفاهيم الامنية والقيم الاجتماعية وانتهاء بأسلوب التفكير وطرق المعيشـة . ويلاحظ ايضا ، من ناحية ثانية ، ان دائرة المنتقدين آخذة في الاتساع لتشمل داخلها فئات عديدة، من مختلف طبقات الشعب وتمتد حتى الى داخل المؤسسة الحاكمة. ان موجة الانتقادات هذه ، التي فجرتها هزيمة اسرائيل في حرب تشرين تركز بكثافة على السلبيات التي تسود النظام الاسرائيلي ، من وجهة نظر المنتقدين بالطبع ، وتتجه الى طرح الحلول لها ولكنها لا تخلو — في نفس الوقت — من اتجاهات لاعادة النظر في المشـاكل التي تواجهها اسرائيل وتقديم الاقتراحات لحلها . ولئن كان من قبيل التسرع استخلاص مواقف نهائية مما قيل حتى الان ، وحملة الانتقادات لا تزال على اشدها ، فان هذا لا يمنعنا من محاولة الوقوف على تلك الاتجاهات التي استحدثت حتى الان ، من خـلال تتبعنا للاراء التي يطرحها الاسرائيليون والحلول التي يقترحونها لمواجهة المشاكل التي تجابههم ، في محاولة للاطلاع على المواقف الجديدة والعبر التي استخلصها الاسرائيليون حتى الان نتيجة لحرب تشرين .

« التقصير »

من الواضح ان السبب الرئيسي للتطورات التي نشهدها حاليا ، وحالة الغليان التي تسود المجتمع الاسرائيلي وبروز العديد من حركات الاحتجاج الداعية الى اعادة النظر في العديد من نواحي الحياة في اسرائيل ، وخاصة اسس النظام الاسرائيلي السياسية ، هو ما اصطلح على تسميته في اسرائيل بـ « تقصير » (« محدال ») السلطات هناك ، او اخفاقها ، في ادارة حرب تشرين ، الذي أسفر عن خسائر فادحة لحقت بأسرائيل من جراء تلك الحرب ، تمثلت في آلاف القتلى والجرحى وتدهور الاوضـاع الاقتصادية مـن جهة وضعضعة موقف اسرائيل السياسي ، مع ما سيترتب على ذلك مـن نتائج على المدى الطويل ، من جهة اخرى . وعلى الرغم مما قيل وسيقال حول هذا الموضوع ، داخل اسرائيل وخارجها ، فمن الواضح الان ، استنادا الى مصادر اسرائيلية موثوقة ، ان ذلك « التقصير » كان عبارة عن سلسلة من الاخطاء وقعت بها القيادة الاسرائيلية على الصعيدين السياسي والعسكري ، كانت نتيجتها ان حرب تشرين فاجأت الاسرائيليين وهم غير مستعدين لخوضها . اما الخطأ المباشر الذي أدى الى « التقصير » فكان اخفاق المخابرات العسكرية الاسرائيلية في الوصول الى تقويم صحيح للتحركات العسـكرية

على الجبهتين المصرية والسورية ، خلال الايام العشرة التي سبقت وقوع الحرب ، واعتبار تلك التحركات مناورات عسكرية عادية لا تنم عن استعداد لخوض حرب(١)، وبالتالي تقديم هذا التفسير للحكومة الاسرائيلية ، التي اخذت به من جهتها وركنت الى الهدوء لدرجة وجدت من المناسب معها عدم مناقشة الموضوع في جلساتها التي عقدت خلال الاسبوع الذي سبق الحرب(٢) او حتى عرضه على لجنة الخارجية والامن في الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي(٣). وقد ترتب على هذا الوضع عدم تنبيه الجيش او اصدار الاوامر له للاستعداد للقتال ثم الامتناع عن دعوة قوات الاحتياط للخدمة ، وهي القوات التي لا بد لاسرائيل من الاعتماد عليها اذا ارادت خوض معركة شاملة او شبه شاملة مع العرب ، والقيام بذلك في آخر لحظة ، صبيحة يوم اندلاع الحرب بالذات(٤)، بحيث اضطرت القوات الاسرائيلية الى مواجهة القوات العربية المهاجمة بقوات عسكرية قليلة نسبيا ، عدة وعددا ، مما الحق بتلك القوات اضرارا كبيرة . كذلك اتضح ان « التقصير » شمل ايضا عدم استعداد الجيش الاسرائيلي للقتال لفترة طويلة ، اذ ظهر ان الذخيرة التي كان يختزنها لم تكن كافية للاستمرار في القتال مدة اسبوعين ، وكادت تنفد والمعارك لا تزال على أشدها ، لولا ان سارعت امريكا الى انقاذ الموقف وتزويد اسرائيل بالذخائر والاعتدة بواسطة جسر جوي ، خلال أيام القتال .

تضعضع هيبة العسكر

كانت النتيجة الاولى والمباشرة لحرب تشرين تضعضع هيبة العسكر الاسرائيلي بشكل لا عهد للعسكرية الاسرائيلية به . والواضح ان الهزيمة التي لحقت بالجيش الاسرائيلي وان كانت محدودة ، ذلك الجيش الذي أحيط بهالة من العظمة خلال ما يقارب من ربع قرن من الزمن كانت السبب في ذلك ، بالاضافة الى ان توجيه ضربات مؤلمة الى جيش دولة تعتبر سياسة القوة احدى اركان كيانها لا بد ان يكون له تأثيره . غير انه مما يلفت النظر ان الجنرالات الاسرائيليين انفسهم هم الذين ساهموا في الانتقاص من كرامتهم ، أكثر من أية جهة اخرى ، عندما بادروا الى نشر غسيلهم على الملأ في أول فرصة سنحت لهم . فمع ايقاف اطلاق النار ، راح اولئك الجنرالات يوجهون التهم لبعضهم البعض ، وكل منهم يحمل الاخر مسؤولية الفشل في الحرب بصورة علنية ، وكان اول المنتقدين العميد اريئيل شارون ، قائد عملية العبور الاسرائيلية غربي قناة السويس الذي حمل رئيس الاركان ، اللواء دافيد العازار والعميد شموئيل غونين ، قائد المنطقة الجنوبية ، مسؤولية الفشل في الحرب مطالبا باستقالتهما ، منتقدا في نفس الوقت أساليب التفكير والتخطيط العسكري منذ تولى حاييم بارليف رئاسة اركان الجيش الاسرائيلي ، بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وقد اثارت هذه الاتهامات استياء بارليف الذي انبرى للرد عليها ، وللدفاع عن زميليه العازار وغونين ، معلنا — وهو يشير ضمنا الى شارون — ان الجيش الاسرائيلي يستطيع الاستغناء عن خدمات ضباط الاحتياط السياسيين(٥)، مما دفع شارون الى الاعلان ان ضباط الجيش الاسرائيلي المؤهلين لخوض المعارك يعدون على اصابع اليد الواحدة(٦). وهذا القول وان كان لا يخلو من غرور يلازم شارون منذ قيادته للوحدة ١٠١ الاسرائيلية، سيئة الصيت ، في اوائل الخمسينات لا يخلو ايضا، كما يبدو ، من الصحة اذ ان الجيش الاسرائيلي اضطر ، كما نعلم ، الى ارجاع عدد من كبار ضباط الاحتياط ، أمثال بارليف وشارون وغافيش وهود وغيرهم ، الى الخدمة الفعلية للاستعانة بهم اثناء القتال . ولم تتوقف الاتهامات المتبادلة عند هذا الحد ، اذ ان شارون وسعها ليكشف النقاب عن خلافات بينه وبين العميد يسرائيل طال ، نائب رئيس الاركان الاسرائيلي الذي استقال مؤخرا من منصبه ، من جهة وبين بارليف وباقي كبار الضباط في الجيش الاسرائيلي من جهة اخرى حول انسب الطرق للدفاع عن سيناء ،

موضحا ان عدم قبول رأيه بشأن اتباع طرق الدفاع المتحرك ، ثم بناء خط بارليف الذي لم يستطع صد الهجوم المصري ، كلف اسرائيل خسائر في الارواح كانت في غنى عنها بالاضافة الى ملايين الليرات التي صرفت لاقامة التحصينات هناك(٧) . كذلك كان من بين الانتقادات التي وجهت للجيش الاسرائيلي ان تعيينات قادته اصبحت تتأثر باعتبارات سياسية ، دون الاعتماد على الكفاءة فقط ، وهي الانتقادات التي صادق عليها يتسحاق رابين ، أحد رؤساء الاركان السابقين بقوله ان هناك علاقة بين تعيين كبار الضباط في الجيش وبين آرائهم السياسية(٨) ، اي انه لا أمل للضابط غير المقرب من التجمع العمالي الحاكم بالوصول الى المناصب الحساسة او العليا في الجيش .

ولئن كانت الانتقادات التي اوردناها تعبر في نهاية الامر عن آراء قائليها وتكشف عن بعض النواحي السلبية التي يعاني منها الجيش الاسرائيلي ، فقد جاء التقرير الاولي الذي أصدرته لجنة اغرانات ، المكلفة بالتحقيق في اسباب التقصير في الحرب ، ليكشف عن اخطاء فادحة ارتكبتها قيادة الجيش الاسرائيلي خلال حرب تشرين ، وليساهم — ضمنا — في المس بكفاءات تلك القيادات بشكل خطير . ويتضح من المعلومات الواردة في التقرير ان سبب التقصير في الحرب ، على الجبهة المصرية على الاقل ، كان الاهمال في تحذير الجيش والتقليل من أهمية التحركات المصرية لدرجة ان القوات الاسرائيلية لم توزع بالشكل الملائم على الجبهة رغم وجود خطة عسكرية اسرائيلية معدة لمواجهة احتمال هجوم شامل على امتداد القناة(٩) . أما بالنسبة للمخابرات العسكرية الاسرائيلية فقد أدانها التقرير بأخطر ما يمكن ان يدان به جهاز مخابرات ، اذ اتضح ان سبب اخفاقها لم يكن في عدم الحصول على المعلومات وانما في عجزها عن تقويم تلك المعلومات واستنتاج النتائج الصحيحة منها(١٠) ، وبالتالي تقديم مشورة غير واقعية للقيادة الاسرائيلية . ولقد كانت تلك الاخطاء هي الاسباب التي دفعت لجنة التحقيق الى التوصية بابعاد رئيس الاركان ، العازار ، وقائد المنطقة الجنوبية ، غونين ورئيس المخابرات العسكرية ، العميد الياهو زعيرا وبعض كبار معاونيه عن مناصبهم في الجيش .

نقد ... ونقد ذاتي

ان الرأي العام الاسرائيلي ، على أية حال ، لم يكن بحاجة الى البينات التي تقدم بها تقرير لجنة التحقيق ، والذي جاء بمثابة تأييد للشكوك التي ثارت لديه منذ ان اتضح له ، في مرحلة مبكرة وحتى قبل أن ينتهي القتال ، ان الحرب سارت على عكس الطريقة التي توقعها الاسرائيليون . ومع انكشاف مدى الخسائر التي لحقت باسرائيل ، تدريجيا ، ونشوء تلك الظروف السياسية الجديدة بعد الحرب ، التي اتضح معها ان السياسة الاسرائيلية تجاه العالم العربي عامة والمناطق المحتلة خاصة لا يمكن ان تبقى على ما كانت عليه ، راحت حملات الانتقاد الموجهة ضد تلك السياسة والمرفقة بالدعوة لاعادة النظر فيها وفي العديد من نواحي الحياة واساليب العمل وأسس النظام السياسي في اسرائيل تزداد من يوم لاخر . لقد تركزت حملات الانتقاد في البداية ضد موشي دايان وسياسته ، ومن ورائه ضمنا غولده مئير ، باعتباره الشخص الذي أثر على مسيرة السياسة الاسرائيلية ورسم خطوطها العريضة ، واحيانا تفاصيلها ، أكثر من أي جهة اسرائيلية اخرى ، وذلك منذ حرب ١٩٦٧ وحتى اليوم . أما خلاصة تلك الانتقادات فهي ان دايان هو المسؤول مباشرة ، وقبل أي شخص آخر ، عن الفشل الذي منيت به اسرائيل على الصعيدين ، السياسي والعسكري . فهو الذي كان وراء تصلب المواقف الاسرائيلية واتباع سياسة الامر الواقع ، متجها لضم المناطق المحتلة الى اسرائيل فعمل على عرقلة أي اتجاه لايجاد تسوية مع العرب ونشر بين الاسرائيليين شعور الاستخفاف بهم وبقدرتهم على مقارعة اسرائيل ، مما بث في نفوس زعماء اسرائيل وشعبها شعور

بالطمأنينة لم يكن في محله مكنهم من اعفاء انفسهم حتى من محاولة التفتيش عن طريق لحل مشاكل المنطقة ، وذلك في نفس الوقت الذي لم يتخذ فيه الاحتياطات الكافية لمجابهة أية تطورات مفاجئة، اذا اتضح ان افتراضاته كانت غير صحيحة(١١). ومن هنا تشعبت الانتقادات وتعمقت ، فنرى مثلا ان حاييم هرتسوغ ، المعلق العسكري الاسرائيلي والرئيس السابق للمخابرات العسكرية الاسرائيلية ، ينتقد تسييس الجيش والسماح لكبار الضباط بالانتقال بسهولة من الجيش الى الحياة السياسية ، مما أدى الى تفشي روح عدم الانضباط بينهم(١٢). وفي مناسبة اخرى عاد هرتسوغ وحذر من كون المخابرات العسكرية هي التي تقرر لوحدها بالنسبة للمشاكل الامنية التي تجابهها اسرائيل ، لدرجة ان ممثلين عنها يشتركون في معظم جلسات الحكومة الاسرائيلية ، مما يمكنها بالتالي من التأثير بصورة مباشرة على اتخاذ القرارات السياسية(١٣)، مطالبا بأن تهتم أكثر من جهة اسرائيلية بمثل تلك القضايا لتجنب الوقوع في الخطأ ، قدر الامكان . أما يحزكئيل درور ، استاذ ادارة عامة في الجامعة العبرية ، فيوجه نقده الى السياسيين واسلوب الحياة السياسية في اسرائيل ، وخاصة مركز وطريقة عمل لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، معلنا ان التخطيط منعدم في اسرائيل ومطالبا باقامة مؤسسات خاصة لذلك(١٤)، ثم زاد على ذلك مطالبته باقامة مجلس أمن قومي يعالج المشاكل الامنية والسياسية التي تواجه اسرائيل(١٥). أما موشيه بن – زئيف ، المستشار القضائي للحكومة الاسرائيلية سابقا فيتفق مع درور من ان لجنة الخارجية والامن هي التي تتحمل المسؤولية الرئيسية لما حدث خلال الحرب وقبلها ويطالب بتنشيطها لكي تستطيع القيام بمهامها(١٦). كذلك يتفق دان طولكونسكي ، القائد السابق لسلاح الجو الاسرائيلي ، مع درور على ان التخطيط يكاد يكون منعدما في اسرائيل ، معلنا انه ينقص الدولة وقادتها اتباع أساليب التفكير والعمل الحديثة(١٧)، بينما يرحب متتياهو بيليد باقامة قسم التخطيط في الجيش الاسرائيلي ، الذي أنشيء بعد الحرب ، معلنا ان الجيش كان بحاجة الى اتخاذ مثل هذه الخطوة منذ فترة بعيدة(١٨). وفي مناسبة اخرى عاد بيليد وذكر ان ادارة شؤون الامن التي كانت أيام بن غوريون متعلقة به لوحده ، تغيرت أيام اشكول وأصبحت أكثر ديمقراطية ، ولكنها عادت متعلقة بدايان شخصيا منذ توليه منصب وزير الدفاع ، بحيث أصبح هو حلقة الوصل الوحيدة بين الحكومة والجيش(١٩)، مع كل ما يترتب على هذا الوضع من أخطار .

ويستمر الاسرائيليون في توجيه الانتقادات للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ولانفسهم ، فيعلن العقيد (احتياط) مئير باعيل ، الذي انتخب فيما بعد عضوا في الكنيست ، ان الجيش الاسرائيلي بأسره بحاجة الى عملية ترميم شاملة ، تشمل تنظيمه ونظريته العسكرية ومفاهيمه السياسية(٢٠)، بينما يرى يرمياهو يوفال ، استاذ فلسفة في الجامعة العبرية ، ان سياسة الاوهام التي اتبعها الثلاثي دايان – مئير – غليلي واستخفافهم بالعرب هي سبب الازمات التي تتعرض لها اسرائيل ، مؤكدا ان الاحداث تظهر ان المصريين تعلموا من الاخطاء التي وقعوا فيها في الماضي بينما تصرف الاسرائيليون على عكس ذلك(٢١)، في حين يعتقد زميله أمنون روبنشتاين ، عميد كلية الحقوق في جامعة تل ابيب ، ان سياسة الضم التدريجي للمناطق المحتلة ، التي اتبعها دايان وفرضها على الحكومة الاسرائيلية هي السبب المباشر للهزيمة التي لحقت باسرائيل لانها ركزت على الصراع مع الفلسطينيين ، حسب المقاييس الضيقة التي اتبعت خلال حوادث ١٩٣٦ – ١٩٣٩ وصرفت انظار الاسرائيليين عن تتبع نشاط التحالف العربي – السوفييتي الذي نشط في العمل ضد مصالح اسرائيل منذ ١٩٦٧(٢٢). كذلك يؤكد روبنشتاين ان دايان هو المسؤول عن أكبر « تقصير » عرفته اسرائيل في تاريخها ، فهو الذي سيس الجيش وأضعف من قدرته القتالية وخدر الاسرائيليين باقناعهم ان السياسة التي اتبعها مضمونة

النتائج ، وعليه ان يتحمل مسؤولية فشله(٢٣). أما مئير عميت ، الرئيس السابق « للموساد » ، المؤسسة المركزية للمخابرات والامن ، فيرى أن الاسرائيليين بأسرهم قد أخطأوا لاستخفافهم بالعرب وبقدرتهم على مجابهة اسرائيل ، داعيا الى تبديل القيادات الاسرائيلية ، الرسمية والحزبية ، بأسرع وقت ممكن باعتبارها المسؤولة عن تخدير الشعب وعن الهزائم التي لحقت باسرائيل(٢٤). غير ان اكثر ما يلفت النظر في حملة النقد والنقد الذاتي هذه هو موقف العميد عيزر وايزمان ، القائد السابق لسلاح الجو الاسرائيلي ورئيس قسم العمليات خلال حرب ١٩٦٧ . ووايزمان هذا ، الذي يعتبر الشخصية الرئيسية التي ساهمت في اقامة سلاح الجو الاسرائيلي باعتباره يد اسرائيل الطويلة في تعاملها مع الدول العربية ، كان من اكثر الجنرالات الاسرائيليين غرورا وأشدهم استخفافا بقدرة العرب والانسان العربي على مجابهة « السوبرمان » الاسرائيلي ، خاصة اذا كان من طياري وايزمان . وهو — على حد علمنا — كان اول من ارسى « تقاليد » اطلاق التصريحات المستخفة بالعرب والتي تنم عن احتقار شديد لهم ، تلك « التقاليد » التي درج عليها العديد من الزعماء الاسرائيليين فيما بعد ، خاصة منذ حرب ١٩٦٧ . ويبدو ان نتائج حرب تشرين قد فعلت فعلها لدى وايزمان ، ففي مقابلة صحفية أجريت معه بعد حوالي الاسبوعين من انتهاء الحرب أعلن ان سبب الهزيمة الاسرائيلية هو أننا لم نفكر ولم نحلل قبل الحرب بما فيه الكفاية ، معترفا انه هو ايضا ساهم في سياسة عدم الاكتراث التي سادت في اسرائيل بواسطة التصريحات التي كان يطلقها من حين لاخر ومؤكدا انه ، على ضوء ما حدث ، لا بد للقوتين السياسيتين الرئيسيتين في اسرائيل ، التجمع العمالي والتكتل اليميني ، من اعادة النظر في كافة مواقفهم السياسية(٢٥). وفي تعليق لاحق له على اتفاقية فصل القوات مع مصر ، اعلن وايزمان انه ، خلافا لموقفه في الماضي ، يؤيد مثل هذه الاتفاقية « لان جيش اسرائيل لم يخض حرب تشرين (اكتوبر) كما توقعنا منه ان يخوضها » مما ادى الى « تقويض معنوية الجمهور وحدوث انخفاض هام في ثقته بالجيش وقيادته العليا » مؤكدا ان الاسرائيليين بحاجة الى رفع معنوياتهم والى « قيادة عسكرية بعيدة النظر ، ايمان قوي بقدرة القيادة المدنية والعسكرية ، ثقة كبيرة بجيش اسرائيل وقدرته، اقتصاد قوي ومساعدات دولية — سياسية واقتصادية وعسكرية »(٢٦).

ان الاسرائيليين لم يكتفوا بحملات النقد التي استعرضناها والجهات التي وجهت لها، اذ يبدو انهم وسعوا دائرة انتقاداتهم لتشمل كل من خيب أملهم او ساهم فيتضليلهم، وبالتالي هزيمتهم ، على الصعيدين الفكري والعملي ، فقد لوحظ ان نقدا مريرا كان من نصيب المستشرقين ، او من يعرفون بالخبراء في الشؤون العربية في اسرائيل . وكان العديد من اولئك المستشرقين قد نشطوا بشكل خاص بعد حرب ١٩٦٧ في وصف حالة الضياع التي سادت العالم العربي ، بحسب رأيهم ، نتيجة للهزيمة التي لحقت به في تلك الحرب مبدين اهتماما مبالغا به بالظواهر السلبية والهاشمية التي برزت في المجتمعات العربية ، وبشكل يمكن ان يستنتج منه انه لن تقوم قائمة للعرب بعد اليوم . ولكن يبدو ان نتائج حرب تشرين قد خيبت آمالهم ، مثلهم مثل الكثيرين من الاسرائيليين ، بحيث انه ما أن بدأ الحديث عن امكانات الوصول الى تسوية ما مع العالم العربي، حتى راحوا يحذرون من نوايا العرب ويشككون في امكانات عقد أية تسوية معهم . ولم يمر أكثر من اسبوع على ايقاف القتال حتى كان أحد اولئك المستشرقين ، يهوشفاط هركابي ، وهو رئيس سابق للمخابرات العسكرية الاسرائيلية ، يدرس حاليا العلاقات الدولية ، ويحلو له — لسبب ما — الحديث عما يسميه « اللاسامية » العربية ، يحذر من ان العرب لا يزالون عند موقفهم الداعي الى ابادة اسرائيل ولهذا فانهم يسعون الى اضعافها تمهيدا لتحقيق اهدافهم تلك ، مضيفا ان الاسرائيليين ، بالانتقادات التي وجهوها الى حكومتهم

قد ساهموا في تقديم المساعدة للعرب(٢٧). وفي مقالة لاحقة اضاف هركابي ان الاسرائيليين قد فوجئوا بالحرب لانهم لم يدركوا ان العرب لا يزالون يريدون ابادتهم(٢٨). أما زميله شمعون شامير ، رئيس معهد شيلواح للدراسات الشرقية في جامعة تل أبيب ، فقد أعلن ان الدافع لدى العرب للقضاء على اسرائيل لا يزال قائما ، لانهم لا يريدون دولة اقلية يهودية في المنطقة(٢٩)، وان مصالح مصر في العالم العربي تدفعها الى عدم ترك القضية الفلسطينية(٣٠)، بينما يعتقد مستشرق ثالث ، وهو موشيه ماعوز ، مدير معهد دراسات شعب فلسطين والعلاقات العربية الاسرائيلية في القدس ان العرب لا يزالون ينوون القضاء على الاسرائيليين ، ان كان ذلك باستعمال القوة او بالطرق السياسية(٣١)، في حين أعلن رابع ، وهو موشيه شارون ، محاضر في التاريخ الاسلامي ان العرب يريدون القضاء على اسرائيل بسبب احلامهم في اقامة الامبراطورية العربية(٣٢). وقد اثارت هذه الاراء ، كما أشرنا انتقادات لاذعة ، اذ وصف أحد الاساتذة الجامعيين ، يورام فريدلاندر ، زملاءه المستشرقين بأنهم عاطفيون ولا يهتمون بالظواهر التـــي لا تتجانس مع نظرتهم السياسية(٣٣)، بينما أعلن ناحوم غولدمان ، الرئيس السابق للمنظمـــة الصهيونية العالمية ورئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، انه لا يشـــك من ان آراء اولئك المستشرقين ومعلوماتهم غير صحيحة(٣٤)، في حين هاجم كاتب آخر « المستشرقين الهواة والمحترفين » الذين تحدثوا عن الاعتدال وخيبة الامل لدى العرب(٣٥)، وذلك في نفس الوقت الذي نصح فيه صحفي آخر الخبراء في الشؤون العربية ، الذين « يعرفون العرب من الكتب » او الذين يشهدون على خبرتهم بقولهم : « ولدت في العراق ، وانا أفـــهم العرب » بالتفتيش عن عمل آخر(٣٦).

وتجدر الاشارة هنا في نهاية هذا العرض المقتضب لحملات الانتقاد التي ثارت فـــي اسرائيل عقب حرب تشرين ، ان تلك الحملات قد مست الجيش والمستشرقين قبـــل غيرهم ، رغم التقدير الذي يكنه الاسرائيليون لهاتين « المؤسستين » لما لهما من علاقة مباشرة بمفاهيم الامن الاسرائيلية تجاه العرب ، ولربما كان هذا بالذات هو السبب في اشتداد حملات الانتقاد تجاههما . بقي لنا ان نراقب تأثير هذا « التقصير » الذي وقع فيه الجيش والمستشرقون على المواقف الاسرائيلية في المستقبل .

مفاهيم أمن وسلام جديدة ؟

ان ردود الفعل الاسرائيلية على حرب تشرين ونتائجها لم تقتصر على الانتقادات التي أشرنا لها وانما تعدت ذلك لتتطرق الى اعادة النظر في المشاكل التي تجابهها اسرائيل ، خاصة في مجالي الامن والعلاقات مع العرب ، وطرح الحلول لها . ويلاحظ ان تغييرات تلفت النظر قد طرأت على المواقف الاسرائيلية ، الرسمية والشعبية ، من هذه الناحية ابرزها اختفاء الاراء المتعنتة الداعية الى الاصرار على المطالبة بما يسمى حدودا آمنة بمفهوم ضم أكبر مساحة ممكنة من الاراضي المحتلة الى اسرائيل ، للوصول الى تسوية مع العرب والاستعاضة عن ذلك بالمطالبة بمناطق مجردة من السلاح بعد الانسحاب منها او القبول بالاضافة الى ذلك بضمانات دولية ، من جهة ، وكذلك عدم الاصرار على مطالبة العرب باقامة سلام فوري دائم مع اسرائيل ، بكل معنى الكلمة ، والدعوة الى الاكتفاء بتسويات سلمية تستمر وقتا غير قصير ، الى ان يصبح بالامكان اقامة ســـلام دائم ، من جهة اخرى . يضاف الى ذلك ظهور نغمة جديدة لدى بعض الاسرائيليين تدعو الى عدم الاستخفاف بالعرب والى تقدير موقف اسرائيل وامكاناتها دوليا بشكل واقعي .

ان ما ذكرناه لا يعني ، بالطبع ، ان تغييرات جذرية قد طرأت على مواقف الاسرائيليين وآرائهم بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي ، وانما القصد هو التنويه بان التوجه نحو

اعادة النظر في تلك المواقف واضح للغاية . ونعود مرة اخرى لعرض بعض الاراء التي طرحت في هذا الصدد ، فوزير الخارجية الاسرائيلي ، ابا ايبن ، يعتقد مثلا ان اسرائيل لا تستطيع ان تتصرف سنة ١٩٧٤ ، بعد حرب تشرين ، بنفس الطريقة التي اعتادت عليها منذ حرب ١٩٦٧ ، أي بالوقوف موقف المتفرج من العروض التي تقدم لحل مشكلة الشرق الاوسط والاكتفاء باعلان عدم موافقتها عليها(٣٧)، بينما يعلن زميله ، الوزير باريليف ، ان اسرائيل ستنسحب في نهاية الامر الى حدود آمنة معقولة ، حتى وان لم تقم بينها وبين الدول العربية في الوقت الحاضر علاقات سلام كتلك القائمة ، مثلا ، بين فرنسا وبلجيكا(٣٨)، في حين يعلن وزير اسرائيلي ثالث ، جدعون هاوزنر من الاحرار المستقلين انه قد اتضح ، بعد الحرب ، بأن احتفاظ اسرائيل بالمناطق المحتلة ليس الا وهما كبيرا ، ولهذا يقترح تقديم تنازلات اقليمية على مراحل ، يوضح العرب خلالها عن نيتهم في التعايش مع اسرائيل ، وذلك بعد نزع السلاح من المناطق التي ينسحب الاسرائيليون منها(٣٩). كذلك فان هذا هو رأي الوزير موشيه كول ، زعيم الاحرار المستقلين ، الذين يعتقد انه لن يكون سلام مع العرب دون التنازل عن جزء كبير من المناطق المحتلة ، وذلك بعد نزع السلاح منها(٤٠)، بينما يعلن الوزير شمعون بيريس ، من كتلة رافي ، ان ثقة العرب بقدرتهم على ضرب اسرائيل عسكريا قد زادت بعد حرب تشرين ، ولهذا ينبغي السعي الى فك ارتباط القوات مع سوريا بسرعة ، مثل مصر ، وعدم التمسك بالمواقف المحددة مسبقا(٤١). اما الوزير السابق موشيه كرمل ، أحد زعماء احدوت هعفوداه فيرى انه لا بد من الانسحاب مقابل السلام ، وان السلام لا يمكن ان يتم الا على مراحل ، بعد سنين طويلة من العداء بين العرب واسرائيل(٤٢)، في حين يوافقه مئير يعري ، زعيم مبام المتقاعد ، على هذا الرأي مطالبا بنزع السلاح من المناطق التي ستنسحب اسرائيل منها(٤٣). وردا على هذه الاراء ، نرى ان مناحم بيغن ، زعيم التكتل اليميني المتطرف ، يندب حظ اسرائيل التي زالت مصداقيتها ، بسبب تراجع قادتها عن مواقفهم المعلنة من حين لآخر ، مبديا أسفه لان شعار « لا خيار » (« أين بريراه ») الذي كان في السابق حافزا لحمل الاسرائيليين على الصمود ، أصبح الان يستعمل لتبرير التراجع عن المواقف السابقة ، والاتجاه نحو الانكماش ، مقترحا العمل على تجنيد اصدقاء اسرائيل في الولايات المتحدة للضغط على الحكومة الامريكية وحملها على الوقوف بثبات الى جانب اسرائيل(٤٤)، في حين يعلن شريكه في التكتل ، زعيم حزب الاحرار اليميلخ ريملط ، انه مستعد للتفاوض بشأن الانسحاب من المناطق ، منكرا ان حزبه كان من الداعين الى عدم التنازل عن أي شبر من الارض(٤٥)، بينما يكتفي زميلهما، عضو الكنيست يورام اريدور ، بالاعلان على انه من الخطأ الاعتقاد ان السلام قريب ، وليس صحيحا ان التنازلات الاقليمية تقربه(٤٦).

يلاحظ ايضا ان الاراء التي اشرنا لها لم تبق وقفا على الزعماء او الرسميين ، فمئير عميت ، مثلا ، يعتقد ايضا انه ينبغي التخلي عن السياسة المتصلبة الداعية الى الاحتفاظ بالمناطق المحتلة ويقترح اجراء استفتاء وطلب تفويض من الشعب لاتباع سياسة جديدة(٤٧)، بينما يعلن شلومو افينيري ، استاذ علوم سياسية ، ان الاحتفاظ بالارض لا يعني بالضرورة سلاما وانه لا بد ان تمر المنطقة في فترة من الهدوء قبل حلول السلام(٤٨). أما عضو الكنيست مئير باعيل فيرى ان العالم العربي، بمساحاته الشاسعة وموارده الطبيعية الضخمة وملايين سكانه « كبير علينا » ، ولن تستطيع اسرائيل فرض ارادتها عليه حتى ولو بلغ عدد سكانها ٨ ـــ ١٠ ملايين نسمة وانه لا بد من الانسحاب من المناطق مقابل السلام(٤٩)، بينما يعلن الصحفي بوعز عفرون ان اسرائيل لا تستطيع اقامة امبراطورية في الشرق الاوسط ، بعد ان فشلت سياسة القوة العسكرية التي

اعتمدت عليها وبقي الاسرائيليون صغارا ومتخوفين جدا في تفكيرهم ، رغم الانتصار الذي احرزوه في حرب حزيران ١٩٦٧(٥٠). اما يهودا غوفهيلف ، المحرر السابق لصحيفة دافار الهستدروتية ، شبه الرسمية ، وأحد « منظري » الفكرة الصهيونية بمفهوم الجناح العمالي لها ، فيرى ان اسرائيل تستطيع العيش في كونفدرالية مع العالم العربي المتعدد الجنسيات(٥١). بينما يتفق معه عفرون على ان العالم العربي غير متجانس وتستطيع اسرائيل ان تجد مكانا فيه ، مضيفا ان اولئك الاسرائيليين الذين يدعون بوجود حالة من العداء الابدي بيننا وبين العرب لا يريدون ان تنتهي الحرب لكي يستطيعوا تحقيق الاهداف القومية كما يفهمونها(٥٢). أما دافيد هوروفيتش ، محافظ بنك اسرائيل سابقا ، فيرى ان سياسة اقامة المستوطنات في المناطق المحتلة لن تساعد اسرائيل على الاحتفاظ بتلك المناطق وانه على اسرائيل ، ان تسقط هذا الاسلوب ، الذي اتبعته طويلا ، من حساباتها(٥٣). ويضيف هوروفيتش انه لا يرى ضيرا في قبول اسرائيل بضمانات دولية ، اذ ان هناك دولا عديدة في العالم ، منها مثلا الدول الاوروبية الاعضاء في حلف الاطلسي ، تعيش في ظل ضمانات دولية لامنها(٥٤).

الموقف من الفلسطينيين

حدث بعد الحرب تحول في الموقف الاسرائيلي ، على الصعيد الرسمي على الاقل ، من الفلسطينيين وحقوقهم ايضا . وهذا التحول ، وان لم يكن جذريا ، مثله مثل الموقف من السلام ومستقبل العلاقات مع العالم العربي ، يختلف بشكل واضح عن الموقف الذي كان سائدا قبل الحرب .

تلخص الموقف الاسرائيلي ، او على الاصح موقف التجمع العمالي الحاكم ، تجاه العالم العربي والمناطق المحتلة قبل الحرب في البرنامج المعروف باسم « وثيقة غليلي » ، الذي وضع قبيل الانتخابات للكنيست الثامن ، حيث كان من المقرر ان تجري في نهاية تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ولكنها تأجلت الى ما بعد ذلك بشهرين بسبب الحرب . ان نظرة اولية الى تلك الوثيقة تظهر انها جاءت لتعبر عن المواقف الاسرائيلية الاكثر تصلبا ، وتظهر ان الغلبة في الصراع الداخلي الدائر في التجمع كانت للصقور ، اذ انها تتحدث عن تقوية الوجود الاسرائيلي في المناطق المحتلة وزيادة ارتباطها الاقتصادي باسرائيل واقامة المزيد من المستوطنات اليهودية في تلك المناطق(٥٥). أما بعد الحرب فقد تم صياغة وثيقة جديدة ، أطلق عليها اسم المبادىء الاربعة عشر ، جاء ثمانية منها تحت عنوان « السعي للسلام »(٥٦)، يعتبر احدها (البند ١٠) ولاول مرة في تاريخ الجناح العمالي الصهيوني بمثابة « اعتراف » بوجود الفلسطينيين ، مؤكدا ان هناك مجالا لدولة واحدة الى الشرق من اسرائيل تضم الفلسطينيين والاردنيين ، يستطيع ان يجد العرب الفلسطينيون تعبيرا عن أنفسهم فيها ، موضحا ان اسرائيل تعارض قيام دولة فلسطينية مستقلة غربي نهر الاردن ، أي في الضفة الغربية وقطاع غزة .

لقد قيل الكثير حول موقف حزب العمل بعد اصدار برنامجه الاخير ، وحول اذا ما كانت تلك « المبادىء » تلغي وثيقة غليلي أم انها تعتبر مكملة لها . فالوزير يعقوب شمشون شابيرا ، مثلا ، الذي استقال من الحكومة الاسرائيلية السابقة احتجاجا على بقاء دايان وزيرا للدفاع فيها سارع الى انتقاد تلك « المبادىء » بسخرية ، معلنا ان تغير الوضع الراهن هو الذي فرضها على الحزب(٥٧)، بينما تحمس زميله ،وزيرالخارجية ابا ايبن فأعلن انه يعتقد ان البرنامج الجديد انتصار للحمائم داخل حزب العمل ، مؤكدا انه يعتبر نفسه واحدا منهم(٥٨). كذلك وجدت داخل التجمع العمالي فئات فاق حماسها حماس ايبن ، لدرجة ان بعضهم حذر الناخبين خلال المعركة الانتخابية الاخيرة من نتائج

التصويت للتكتل اليميني الذي ، على عكس التجمع العمالي ، لا يعترف « بحقوق الفلسطينيين وأمانيهم »(٥٩).

اضافة الى ما ذكرنا ، تنبغي الاشارة الى ان مختلف المتحدثين الاسرائيليين الرسميين يصرون منذ اقرار البرنامج الاخير على الاعلان عن معارضة اسرائيل اقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهو ما يفسر وكأنه تصلب في الموقف الاسرائيلي او تراجع عن المواقف السابقة . غير ان نظرة اشمل الى هذا الموضوع تظهر ان تغييرا ما طرأ على الموقف الاسرائيلي الرسمي ، بحيث ان المشكلة لا تنحصر الان في « الاعتراف » بوجود الفلسطينيين او عدم الاعتراف بهم ، اذ ان هذه الناحية قد حسمت في صالح « الاعتراف » بهم ، وانما في اتقاء شرهم ، ان جاز التعبير ، وعلى الاخص في المستقبل . ويفسر متحدثون اسرائيليون « معتمدون » ، منهم الوزير شلومو هيليل ، المسؤول من قبل الحكومة عن المناطق المحتلة سر الاصرار الاسرائيلي على ابقاء الفلسطينيين تابعين للاردن او لدولة فلسطينية — اردنية مشتركة ، بقولهم ان دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة تستطيع ، بصعوبة ، تأمين معيشة السكان الذين يقطنون تلك المناطق حاليا ولكنها لا تستطيع حل مشاكل الفلسطينيين بأسرهم ، خاصة اولئك الذين يعيشون خارج الاردن(٦٠). ولهذا لا بد لمثل هذه الدولة ان تتوسع في المستقبل ، اذا ما ارادت بالفعل حل المشكلة الفلسطينية ، واسرائيل تفضل — بالطبع — ان يكون التوسع نحو الشرق ، ومن هنا اصرارها على حل يبقي على ضفتي الاردن متحدتين ، حتى يجد الفلسطينيون متنفسا لهم في الضفة الشرقية . ويؤكد هيليل انه في مثل هذه الحالة يستطيع سكان تلك الدولة الفلسطينية — الاردنية اقامة نظام الحكم الذي يرتأونه(٦١). ويلاحظ ايضا ان هذا هو التفسير الذي يقدمه زميل هيليل ، الوزير حاييم بارليف(٦٢)، في حين يؤكد ايضا الوزير موشي كول ، زعيم الاحرار المستقلين ، ان حل مشكلة الفلسطينيين يجب ان يتم في اطار الاتفاق مع الاردن(٦٣)، ولنفس الاسباب التي اشار اليها زميلاه السابقان ، بينما تعلن شولاميت ألوني ، رئيسة قائمة الحقوق المدنية انها تحبذ فلسفة يغئال ألون الامنية وتؤيد حق تقرير المصير للفلسطينيين(٦٤). وهذه الاراء ، وهي لا تقتصر على الاشخاص الذين أشرنا لهم وانما تمثل تيارا قائما بحد ذاته لم تكن ، على أية حال ، غريبة على الساحة الاسرائيلية حتى قبل نشوب الحرب ، وكل ما حدث هو ان الحرب قوت من مراكز أصحابها وزادت اقتناعهم بها .

ان ما سبق وقدمناه من انتقادات وآراء طرحت في اسرائيل ، بعد حرب تشرين وكنتيجة مباشرة لها ، والدعوات الى اعادة النظر في مختلف نواحي الحياة في اسرائيل عامة والسياسة الاسرائيلية الامنية والخارجية خاصة ، لا تمثل الا جزءا من تيار آخذ في الاتساع من يوم لآخر . ويبدو انه كلما ابتعدنا عن فترة الحرب ، تزداد وتتعمق ردود الفعل على نتائجها، ان كان ذلك متمثلا في استفحال الازمة السياسية داخل اسرائيل او انتقال الاسرائيليين من القول الى العمل وتنظيم حركات الاحتجاج والمعارضة ضد قادتهم ونظام حكمهم . ولا شك اننا سنشاهد المزيد من النشاط في هذه المجالات ، في المستقبل القريب او البعيد ، فالكلمة الاخيرة في هزيمة تشرين ومضاعفاتها لم تقل بعد في اسرائيل .

---

١ — انظر تقرير لجنة اغرانات ، بشأن التحقيق في نتائج حرب تشرين ، **معاريف** ، ١٩٧٤/٤/٣.

٢ — من مقابلتين للوزيرين سابير وشابيرا مع **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٣/١١/١٦ .

٣ — حاييم تسادق، رئيس لجنة الخارجية والامن، في مقابلتين مع **دافار** ، ١٩٧٣/١١/١٢ ،

ويديعوت أحرونوت ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .
٤ ــ انظر الملاحظة (١) أعلاه .
٥ ــ مقابلة مع **يديعوت أحرونوت**، ١٩٧٤/١/١١.
٦ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٤/١/٢٥ .
٧ ــ **المصدر نفسه** .
٨ ــ مقابلة مع **يديعوت أحرونوت**، ١٩٧٤/٢/١.
٩ ــ أنظر الملاحظة (١) اعلاه .
١٠ ــ **المصدر نفسه** .
١١ ــ أنظر ، مثلا ، مقالات بنكوآدار في **حوتام** ، ٢٣ و١٩٧٣/١١/٣٠ ويعقوب طلمون في **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٣٠ و١٩٧٣/١٢/٧ ، وحانوخ برطوف في **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٢٦ .
١٢ ــ أنظر مقالته في **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .
١٣ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .
١٤ ــ انظر مقالتيه في **هآرتس** ، ١٩ و١٩٧٣/١١/٢٠ .
١٥ ــ **دافار** ، ١٩٧٤/١/١٤ .
١٦ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٢/٢٤ .
١٧ ــ من مقالة في **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٢/٤ .
١٨ ــ من مقالة في **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/١٦ .
١٩ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
٢٠ ــ أنظر مقالته في **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١١/٦ .
٢١ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٠ .
٢٢ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .
٢٣ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .
٢٤ ــ من مقالة في **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٩ .
٢٥ ــ مقابلة مع **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٢ .
٢٦ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٤/١/٢١ .
٢٧ ــ أنظر ، مثلا ، مقالتيه في **معاريف** ، ١ و١٩٧٣/١١/٢ .
٢٨ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١٢/١٤ .
٢٩ ــ أنظر مقالته في **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٤/١/٢٥ .
٣٠ ــ **المصدر نفسه** .
٣١ ــ **معاريف** ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .
٣٢ ــ **معاريف** ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
٣٣ ــ مقابلة مع **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .
٣٤ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٤/١/١١ .
٣٥ ــ **دافار** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .
٣٦ ــ أهرون جينغ في **دافار** ، ١٩٧٣/١٢/١٠ .
٣٧ ــ في مقابلة مع **معاريف** ، ١٩٧٣/١٢/٢٨ .
٣٨ ــ في مقابلة مع **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٤/١/١١ .
٣٩ ــ **هآرتس** ، ١٩٧٣/١٢/١٤ .
٤٠ ــ انظر مقابلاته مع **معاريف** ، ١٩٧٣/١٢/٢١ **ويديعوت احرونوت** ، ١٩٧٣/١٢/٢٦ وعل **هامشمار** ، ١٩٧٤/١/١١ .
٤١ ــ في مقابلة مع **دافار** ، ١٩٧٤/٢/٨ .
٤٢ ــ أنظر مقالتيه في **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٣/١٢/١٦ **ودافار** ، ١٩٧٣/١٢/٢٦ .
٤٣ ــ **عل هامشمار** ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .
٤٤ ــ من مقالة في **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٤/١/١٨ .
٤٥ ــ من مقابلة مع ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٤/١/١٨ .
٤٦ ــ **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١٢/٩ .
٤٧ ــ **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٩ .
٤٨ ــ **معاريف** ، ١٩٧٤/١/١٨ .
٤٩ ــ **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١١/٥ .
٥٠ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١١/٤ .
٥١ ــ **دافار** ، ١٩٧٣/١٢/٧ .
٥٢ ــ **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١/٢٥ .
٥٣ ــ **دافار** ، ١٩٧٣/١٢/١٤ .
٥٤ ــ **المصدر نفسه** .
٥٥ ــ كما نشرتها **دافار** ، ١٩٧٣/٨/١٦ .
٥٦ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١١/٢٩ .
٥٧ ــ **معاريف** ، ١٩٧٣/١٢/٧ .
٥٨ ــ **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .
٥٩ ــ من بيان دعاية انتخابية للتجمع ، نشر في **عل هامشمار** ، ١٩٧٣/١٢/١٤ .
٦٠ ــ أنظر مقابلته مع **معاريف** ، ١٩٧٣/١٢/٧ .
٦١ ــ **المصدر نفسه** .
٦٢ ــ **عل هامشمار** ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .
٦٣ ــ **يديعوت أحرونوت** ، ١٩٧٣/١١/٢٦ .
٦٤ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٣/١٢/٢٤ .

أبو يوسف : حياته ، مسؤلياته ومعتقداته السياسية

بيان نويهض الحوت

عندمـــا يرحل القادة السياسيون عن هذه الدنيا ، يكـــون العزاء لذويهم ورفاقهم وشعوبهم ، أنهم لا بد وان يكونوا قد تركوا وراءهم ارثا من الكتابات والتصريحـــات والخطابات ، بحيث يسهل على الكتاب والباحثين ان يؤرخوا سير حياتهم ، وان يخلدوا افكارهم .

أحيانا . . . كلما كثرت هذه الكتابات والتصريحات ، كلما كان جمعها ونشرها أصعب، ذلك أن القائد السياسي لم يكن يخاطب التاريخ او الاجيال القادمة في كل كلمة قالها ، وفي كل موقف تبناه . القائد السياسي هو الرجل الذي يتكلم — عادة عندما يتكلم — عن امور الساعة ، ويعلق على آخر الاحداث السياسية ، فكثيرا ما تصدر عنه اقوال لم تكن لتصلح الا لاحاديث صحفية عابرة ، وبالتالي لاستهلاك آني ، ومثل على ذلك ، ان يكون في كلامه دبلوماسية مرنة لا تفصح تماما عما تريد ، او أن يكون هناك تغطية لموقف دولة ما او فئة ما ، وقد فرضت عليه الظروف النضالية والمصلحة الثورية تلك التغطية ، فلجمت لسانه عن قول الحقيقة كاملة في ذلك الموقف وتلك الساعة .

وعلى العكس من صعوبة كثرة الكلام بالنسبة للباحثين تكون قلته . السياسي كثيرا ما يتمنى في حياته ان يقول اشياء واشياء ، وان يفصح عن أسرار واسرار ، ولكنه لا يستطيع فعل ذلك عندما لا يكون من المصلحة الثورية بشيء ان يفصح عن تلك الاشياء وتلك الاسرار ، فيبقى محتفظا بما يعرفه لنفسه ، ومنتظرا قدوم احداث او زمن يمكنه من الحديث . الا ان الزمن قد يفاجئه ، فتغتال حياة هذا القائد بضع رصاصات . تنهي حياته ، وتنهي الاشياء والاسرار معه .

وتزداد الصعوبة اكثر فأكثر . حين يكون القائد السياسي قليل الكلام ، لا بسبب الظروف السياسية وحدها ، وانما ايضا بسبب انغماسه في المسؤوليات النضالية ، الشاملة منها واليومية ، الى درجة ينسى فيها مشكلاته الخاصة ، كما ينسى مشكلات التاريخ والمؤرخين . هو لا يفكر الا بانتصارات جزئية يحققها على طريق النصر البعيد. وهذا القائد الحقيقي لا يفكر بنفسه على الاطلاق وهو على قيد الحياة ، فكيف يفكـــر بنفسه ان هي غادرتها الحياة . كيف يفكر لماذا سيكتب عنه ، كيف يفكر بمن سيكتب عنه ، وماذا يهمه من كل هذا أصلا ، واهدافه الحقيقية هي استمرارية النضال من أجل النضال لا من اجل الخلود .

هذا النوع الثالث من القادة السياسيين ، يجعل مهمة تسجيل حياته وافكاره امام الباحث أو المؤرخ مهمة شاقة الى أبعد الحدود . والصعوبة والخوف في الا يكون هناك في ارثه المحدود ، والمبعثر هنا وهناك ، ما يكفي ضمانة للحفاظ على فكره السياسي ، وعلى جوهر معتقداته ، وعلى معدن شخصيته .

الى هذا النوع الثالث من القادة السياسيين ينتمي القائد الشهيد . والمناضل الكبير « أبو يوسف » واسمه المعروف عنه « ابو يوسف » أكبر بكثير من القابه ومناصبه، اكبر من حياته ، وأكبر من استشهاده . عرفه الناس ويعرفونه « بابي يوسف » . هم يكتفون بذلك ، فقد أصبح الاسم رمزا .

ان تاريخ النضال الفلسطيني المسلح الذي عشناه ونعيشه في هذه السنوات ، عندما يكتب غدا ، وعندما يكتب بجهد ودقة وامانة ، سيظهر اسم « ابي يوسف » من بين القادة الذين كانوا حقا قادة ، والذين تفخر الامة العربية — لا ابناء فلسطين وحدهم — بميلاده وحياته واستشهاده .

لقد أجريت حديثا مع القائد ابي يوسف قبل استشهاده بحوالي خمسة اشهـر . وبالتحديد في بيروت : ٢١ نوفمبر : ١٩٧٢ م. مـن الساعة السادسة الى الثـامنة والنصف مساء .

القيمة التاريخية لهذا الحديث في أنه لم يكن حديثا صحفيا عابرا ، كان حديثا الهدف من ورائه دراسة علمية وموضوعية للفكر السياسي لقادة المقاومة . وهذه الدراسة التي لم تصدر بعد ، كان جميع القادة الذين قابلتهم يعرفون طبيعتها ، ويعرفون أن الحديث اولا وقبل كل شيء لن ينشر الا بعد مرور سنوات ، ومن خلال دراسة شاملة لقيادة المقاومة ، ولذلك فالصراحة كانت الاساس .

أحيانا ، كان بعضهم يؤكد على عدم نشر جزء معين من حديثهم — ولو بعد سنوات كما هو المفروض — وانا كنت أقدر هذه الثقة التي منحوني اياها ، وسوف ابر بوعدي لهؤلاء ، الا اذا عادوا هم انفسهم واقروا « رفع الحماية » . وهنا أود أن اسجل بكل أمانة ان الاخ « أبا يوسف » كان من الذين لم يترددوا لحظة في الاجابة على أي سؤال. واكثر من ذلك ، كان من القلائل الذين تحدثوا عن امور على غاية من الاهمية ، مـن تلقاء أنفسهم .

واليوم ، وقد مضى على رحيل القائد الشهيد « أبي يوسف » عام كامل ، رأيت من واجبي ان أنشر قسما من حديثه وآرائه ومعتقداته السياسية ، كما أنشر سيرة حياته كما رواها لي بنفسه . ولن احذف من حديثه سوى الاجابات التي لا تكتمل فائدتها الا حين نشرها ضمن اجابات الرفاق الاخرين .

حيـاته

ولد محمد يوسف النجار في قرية « يبنى » في فلسطين عام ١٩٣١ . وقد عاش في قريته طالبا حتى الصف السابع الابتدائي . فانتقل الى كلية الثقافة وتخرج منهـا عام ١٩٤٦ ، ثم عاد الى قريته مدرسا . ولم يطل به المقام اكثر من عام واحد حتى حلت النكبة ، فهاجر مع ذويه الى غزة ، وهناك مارس التعليم أيضا ولغاية عام ١٩٥٦ .

ينتمي « أبو يوسف » الى عائلة قروية ، ولكن عائلته كانت كبيرة العدد ، وتحسب لها بقية العائلات حسابا ، فقد كانت هي اقوى العائلات في المنطقة . وسر القـوة التي تمتعت بها عائلته لم تنتج عن مال وفير ، ولا جاه كبير ، أو حسب ونسب ، سر القوة كان في تعداد العائلة كما في اندفاعها الوطني وتضحياتها ، لقد كانت قوة سياسيـة بمفهوم القوى والتحركات السياسية في القرى ، اثناء الانتداب البريطاني .

من الحوادث التي لا ينساها محمد النجار وقد كان صغيرا ، دخول الانكليز الـى قريته « يبنى » ، وتفتيشهم بيوت العائلة والقرية بيتا بيتا بحثا عن عمه وابيه ، ويا ويل البيت الذي لا يفتش ، فهذه دلالة على خيانة اهل البيت . لم ينس محمد الصغير — وقد

كبر وأصبح مناضلا وقائدا ـــ هذه الصورة . لقد حددت له منذ طفولته انتماءه الـــى شعب معذب ومظلوم . أبوه لم يلق عليه تعليمات في الوطنية وحب الجهاد ، وقد كان في غنى عن ذلك . عائلته كلها ، قريته كلها ، فلسطين كلها ، كانت تغلي حقدا علـــى الصهيونية والانكليز ؛ فكان « ابو يوسف » ابن القرية المناضلة نتاجا طبيعيا لبيئته ، ومثلا من الاف الامثلة التي عاشها حقا أبناء جيله .

الا ان « أبا يوسف » لم ينس صورة الجنود الانكليز منتشرين في « يبنى » ، ولـــم ينقطع عن النضال ، واعني بالنضال هنا ، النضال الشامل فكرا وروحا وعمـــلا ، والنضال الخاضع بطبيعة الحال الى الظروف المحيطة به والامكانيات المطروحة امامه .

عاش محمد النجار مع ذويه في معسكر للاجئين في رفح منذ عام ١٩٤٨ الى عـــام ١٩٥٦ . وهنـــاك لم يعش آلام شعبه واحزانها فحسب ، كان هو جزءا من تلك الآلام والاحزان . والانسانية العظيمة التي تحلى بها «أبو يوسف» لم تجعله يحمل من ذكريات حياته في المخيم مجرد صور الحقد والمرارة ، وبالتالي ، لم تجعله يصنف الذين عاشوا في المخيمات درجة فوق الذين لم يعيشوا فيها . ولم يكن يفاخر أصلا بتلك المرحلة مـــن حياته كما يفعل الاخرون او بعضهم ، وكأنهم في حياتهم تلك ، وفي صبرهم عليها مكرهين، قد أدوا قسطهم الى العلا ، ودفعوا ضريبة النضال كاملة .

ان هذا النوع والاسلوب في التفكير بعيد كل البعد عن طبيعة « ابي يوسف » . هو من النوع الذي لا تؤثر عليه تصنيفات الناس الاجتماعية والطبقية. ومعتقداته الوطنية لا تفرق بين فلسطيني وفلسطيني الا بالنضال .

عندما كان شابا في فلسطين ، كان يتقد وطنية وحماسا وشبابا ، ولم يضره للحظة ، ولم يفكر للحظة بنقص في نفسه لكونه لا ينتمي الى العائلات ذات الوجاهة ، والتي كانت مسيطرة على مقاليد القيادة السياسية يومذاك .

وعندما أصبح معلما ولاجئا في معسكر للاجئين ، وعندما أصبحت المسألة معكوسة ، واصبح الانتماء الفلسطيني الى المخيم هو الانتمـــاء المشرف والمفضـــل ، وأصبحت « العائلية » ذكرى من ذكريات التاريخ القريب ، لم يشعر للحظة بالفخر والاستعلاء على الآخرين . ان قيمة الانسان الحقيقية برأيه هي في اعماله ، وامـــا العائلية والظروف الاجتماعية مثلا ، فليست مجالا لا للشعور بالنقص ، ولا للمباهاة .

وتزوج محمد النجار في غزة ، وانجب في حياته ستة ابناء ، وقد تحدث عنهم جميعا بحنان ابوي كبير ، الا ان سعادته الكبرى كانت عندما تحدث عن ابنته الكبرى «حكمت»، وقد أصبحت تلميذة جامعية .

ولم تكن غزة هي المسرح الاول لحياته السياسية ، فهو لما كان في السادسة عشرة ، كان سكرتيرا لمنظمة النجادة ، كما كان سكرتيرا لنادي الاتحاد في قريته « يبنى » .

وفي عام ١٩٥١ انتمى الى « الاخوان المسلمين » ، وبقي معهم لغاية عام ١٩٥٨ ، وقد كان مسؤولا في قطاع غزة .

اعتقل « ابو يوسف » لاول مرة ولمدة أربعة أشهر في عـــام ١٩٥٤ في غزة ، وكان السبب انه طالب بالتجنيد الاجباري في احدى المظاهرات . وبقي في غزة حتى العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، اذ اضطر الى الخروج من القطاع على الرغم منه ، فقد منع من العمل ، فاضطر الى السفر بواسطة مركب شراعي . وصل الى عمان وبقي فيها بضعة اشهر ، ثم انتقل الى الخليج العربي ، حيث عمل استاذا في وزارة المعارف في قطر طوال عشر سنوات متواصلة ، من عام ١٩٥٧ ـــ ١٩٦٧ .

وكان من الطبيعي ان يفكر « ابو يوسف » ورفاقه بتشكيل نواة عمل فلسطيني ، الا ان هذا لم يرق « للاخوان المسلمين » ، ففصلوه بعد ان اشتغل « فلسطينيا » .

ومنذ عام ١٩٦٧ تفرغ كليا للنضال في حركة « فتح » ، لقد اصبحت الحركة تحتاج الى تفرغ القادة والمخلصين من ابنائها ، وبقي حتى استشهاده في ليلة فردان ، ليلة ٩ ــ ١٠ نيسان ١٩٧٣ ، بقي كما كان منذ بداية انتمائه للحركة ، مناضلا مؤمنا ، لا تزعزع ارادته تقلبات الاحداث .

من مميزات « ابي يوسف » انه لم يجعل من النظريات الثورية ، والسياسية عامة ، هاجسا من هواجس حياته . لم يكن يهمه ابدا ان يلقب بالمفكــر المبدع ، او صاحب النظريات العبقرية . كان همه الاوحد استمرارية النضال ، وتجميع كل القوى على طريق النضال .

ان سيرة حياته ، نضاله ، علاقاته مع الرسميين من الملوك والرؤساء والمسؤولين العرب ، علاقاته مع العناصر والافراد من المقاتلين ، كلها تشهد بأنه كان مــن القادة القلائل الذين اتقنوا المعادلة الثورية الصعبة ، ما بين الفكر والممارسة .

واما عن محاولات اغتياله ، فلم تكن محاولة فردان هي الوحيدة . لقد تعرض « ابو يوسف » لاكثر من محاولة اغتيال . وقد كان من المفروض ان تكون احدى هذه المحاولات في اليوم الذي تمت فيه هذه المقابلة ، الا انه كان قد اكتشف خبرها مقدما ، فأرسل كمينا للمجرمين بالقرب من فندق الريفيير١،تمكن من القبض على المجرمين بالحيلة . وقد نشرت الصحف في اليوم التالي نبأ هذه المحاولة الفاشلة . وان تدلنا هذه الحادثة على شيء ، فتدلنا على رباطة جأش المناضل والمسؤول . كان بامكانه الغاء موعــد المقابلة مثلا او تأجيله ، ولكنه لم يفعل ذلك ، ولم يحدثني على الاطلاق عما يجري قرب الريفيير١ في تلك الساعة ، الا عندما سألته عن تعرضه خلال حياته للاعتداء او الاغتيال .

الا ان المحاولة التي لا يمكنه ان يتحدث عنها لاي انسان ، فهي محاولة فردان . هذه المحاولة الآثمة قد نجحت . اضافت الى سجل شهدائنا شهيدا وشهيدة . رحلت عنا « ام يوسف » ، ورحل « ابو يوسف » ، ولكن هذا القائد الحديدي الاعصاب والارادة لم يترك وراءه فراغا كما يعتقد البعض . لقد ترك « ابو يوسف » لامته العربية التي آمن بها ثلاثة اشياء :

ــ ترك لها سيرة حياته ، وهي نموذج للانسان العربي الفلسطيني المناضل بايمان وارادة جبارة ، وكأنها ارادة شعب بأسره ، لا ارادة فرد واحد .

ــ ترك لها آثارا فكرية ، من تصريحات ومقابلات ومحاضرات وندوات في المخيمات. ان هذه الاثار وان تكون محدودة بالنسبة الى قائد كأبي يوسف ، الا انها كافية ــ كما اتصور ــ لانصاف هذا الرجل الذي كانت قيمة فكره السياسي اعمق بكثير مما يتصور البعض .

ــ ترك لها اعمالا سياسية جبارة ، كان لها الاثر الفعال في تطوير حركة المقاومة الفلسطينية ، انما لن يقدر لهذه الاعمال ان يكتب عنها ، الا بعد مرور الزمن الطويل ، وذلك لعلاقتها بالاحياء من ابناء الثورة ، كما لعلاقتها بحياة هذه الثورة .

مسؤولياته السياسية

من ايجابيات ثورتنا انها بطبيعة نشأتها وتكوينها ومسيرتها قد قضت على الالقاب والمناصب ، كما قضت على الحواجز ما بين القادة والافراد المقاتلين . لذلك فنحن هنا نسجل المواقع الثورية التي احتلها « ابو يوسف » ، ونسجلها بالطبع كمسؤوليات ، لا كألقاب .

هو أحد المؤسسين الاوائل في حركة « فتح » .

هو أحد الذين كانوا الى جانب القائد العام للثورة الفلسطينية الاخ « أبي عمار » منذ البداية ، وحتى ليلة استشهاده . وقد روى الاخ « أبو عمار » في ذكرى فردان ، لاصدقاء كانوا من حوله، ان «ابا يوسف»كان من الذين وقفوا الى جانبه وبدون اي تردد فيلحظات القرار الحاسم ، قرار البدء بالكفاح المسلح في اليوم الاول من عام ١٩٦٥ . لقد كان البعض مترددا وقلقا بالنسبة لخطورة الحدث المقبل ، واما « ابو يوسف » فكان من الذين لم يعرفوا التردد في حياتهم .

كان يقرر وينفذ . لا يتكلم ولا يدعي . ذلك الرجل هو « أبو يوسف » .

مسؤولياته النضالية والرسمية كانت :

عضو اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية .

عضو اللجنة المركزية في حركة « فتح » .

ورئيس اللجنة السياسية لشؤون الفلسطينيين في لبنان .

تلك هي المسؤوليات الرسمية ، واما غير الرسمية ، فهي المسؤوليات الجسام التي ما آن الاوان للحديث عنها ، وهي التي من أجلها تسلل الى بيته في الظلام هؤلاء القتلة المجرمون .

كان الاعداء يعرفون عن « أبي يوسف » ، أكثر مما كان ابناء شعبه يعرفون .

أضواء على معتقداته السياسية

● أية التسميات أفضل برأيك للنضال الفلسطيني المسلح الذي نعيشه اليوم ؟ عمل فدائي ؟ أم حركة مقاومة ؟ أم ثورة ؟

ـــ أفضل برأيي « حركة المقاومة » لا الثورة . والسبب ان الظروف التي تعيشها المقاومة الفلسطينية لا تتوافر فيها شروط الثورة ومعانيها ، ثم هناك الظروف الموضوعية التي تحدد من الاساس طبيعة المقاومة . ان شعبنا عاش معظمه في الخارج منذ عام ١٩٤٨ ، وبعد عام ١٩٦٧ أصبح جزء كبير منه تحت الاحتلال المباشر . لا شك في ان هذا الاحتلال يحتاج الى مقاومة على كافة المستويات ، ولكنه في الداخل نظرا لتشبث العدو ، وعدم امكانية اشعال جماهيرنا في الداخل لتلتقي مع حركة المقاومة في الخارج ، يجعلنا نفضل تسمية حركة المقاومة ، وهذا معناه الاعتراف بالحقيقة ، خاصة وانه في المفهوم التعبيري اذا اردنا ان نفرق ، فكلمة « حركة المقاومة » تعني ان هذه الحركة فيما لو أجهضت او تعثرت ، فبالامكان ان تنهض بعد ان تكبو وبالامكان ان تتطور . ومن هنا اختارت حركة « فتح » ان تكون حركة التحرير . نحن قصدنا ذلك ، لم نسمها جبهة مثلا ، او كتائب ، او ثورة ، لقد ارادت « فتح » منذ البداية ان تكرس كلمة « الحركة » لتكون الحركة متطورة وقادرة على الاستيعاب .

و « فتح » عندما انطلقت كانت تعي تماما ومن خلال الوضع العربي الممزق ، ومن خلال انشغال الساحة الفلسطينية بمجموعة احزاب تتجاذب فيما بينها الولاء الفلسطيني ، ان المرحلة القادمة هي مرحلة تحرير وطني ، لا مجال فيها لطرح ايديولوجيات معينة .

و « فتح » فهمت منذ البداية طبيعة العدو الصهيوني ومخططاته ، وما يبنيه وفق هذه المخططات ليكرس وجوده ويحفظ بقاءه فترة طويلة من عمر التاريخ . (وبالمناسبة أقول هنا ان اليهود يقولون ان شعب فلسطين قد انتهى ، هكذا يقولون) ، نحن وعينا هذا

ووعينا ان صراعنا مع الصهيونية العالمية ممثلة في اسرائيل لا بد وان يطول أجله ، وقد يتعدى هذا الصراع عمر جيلنا الحاضر . نحن مؤمنون بهذا .

● ما هي الاهداف الاستراتيجية لحركة المقاومة برأيك ؟

ـــ التحرير الكامل هو الهدف الاساسي لنا على المدى البعيد . لذلك حينما طرحنا « الدولة الديمقراطية » كان القصد هو اننا راغبون فيما لو انصاع العدو الاسرائيلي الى ان نعيش في اطار الدولة الديمقراطية . وفي الوقت ذاته نريد ان يشعر المواطن الاسرائيلي ان هذه الارض التي اخذها بالقوة ليبني عليها مستقبله ومستقبل ابنائه ليس من السهل ان يحافظ عليها ، يجب ان يظل يشعر بان هذه الارض ليست ملكا خالصا له ، وان هناك من ينازعه عليها على مر السنين ، بمعنى آخر اردنا من وراء طرح هذا الشعار ان يبقى العدو في حالة قلق وحرب أعصاب .

يختلف الحال طبعا ان نحن ازددنا قوة ومقدرة ونضالا ، فالعدو حينئذ يضطر الى الخضوع لمنطقنا .

● ما هي الاهداف السياسية المرحلية برايك ؟

ـــ في ظروف حركة المقاومة الفلسطينية التي نعيشها اليوم ، لا يمكن ان نطرح أهدافا سياسية مرحلية ، لان ظروف الشعب الفلسطيني واوضاع القضية الفلسطينية وما يحيط بها من اوضاع ذاتية وعربية ودولية تختلف جذريا عن كل حركات التحرر التي عرفناها .

ان الاهداف المرحلية يمكن ان تطرح اذا كان هناك بوادر معينة في الافق النضالي تدل على ان شيئا ما سيحدث في التركيبة السياسية والعسكرية والاجتماعية في معسكر الخصم ، وهذا ما حصل في ايام الحرب الجزائرية والفيتنامية .

ويجب ان يظل الهدف السياسي لمرحلة النضال الفلسطيني واضحا حتى لا تتميع الامور ويبدأ الوهن في صفوف المناضلين . فاذا انصاعت القوى الثورية الى شعارات براقة تلهت عن هدفها الاساسي وهو التحرير او اقامة الحكم الواحد على ارض فلسطين بعيدا عن العصبية الطائفية ، أي اقامة الدولة الديمقراطية ، اذا حصل ذلك نكون قد انتقلنا الى مرحلة الضياع السياسي والوهن .

● ما هي أهم الدوافع التي تحرك الانسان الفلسطيني برايك للثورة ؟

ـــ الوطن هو أغلى ما في الوجود ، لانه هو الوجود . أعني ان الانسان بدون وطن لا قيمة له ولا اعتبار له على الصعيدين الانساني والاجتماعي .

الانسان الفلسطيني انسان جاد ونشيط ، وعلى الرغم مما توفر للكثيرين من الامكانات الحياتية الجيدة ، على الرغم من ذلك ، فقد التف هؤلاء كما التف سواهم من ابناء فلسطين حول الثورة . ذلك لان حياة التشرد ، اي حياة عدم الانتماء الوطني والسياسي لم ترق لاي فلسطيني مهما جمع حوله من ثروة أو جاه بعد النكبة .

والانسان الفلسطيني بطبعه مناضل ، فقد عرف الثورات منذ فترة بعيدة ، منذ أن حل الاستعمار البريطاني في وطنه عام ١٩١٨ . والتاريخ يشهد على ان المظاهرات من اجل الوحدة العربية كانت في فلسطين قبل كثير من البلدان العربية .

وبالنسبة الي ، فانا أعتبر ان الشعب الفلسطيني لديه من الطاقات الكثير ، وانه سيظل يواصل المقاومة مهما وضع امامه من عراقيل ، لان الحرية تعيش في أعماقه ،

وهي تعتبر مطلبا تاريخيا لا يمكن ان يتنازل عنه . وهذا ما نلمسه في أجيالنا الصاعدة واحفادنا الصغار .

● الى اي مدى تؤمن بالعنف في اسلوب المقاومة ؟

ـــ حين يكون الصراع من أجل البقاء ومن أجل ان نكون او لا نكون ، فالعنف شيء اساسي ، واستراتيجية ثابتة ضد العدو حتى يعترف بحقنا ، او يركع أمام قوتنا للوصول الى حقنا .

ولقد مارس عدونا العنف بشتى الوانه فكيف لا نمارسه نحن . العدو مارس العنف فاحتل أرضنا وشردنا ، ونحن سنمارس العنف في كل مكان حتى نعود الى أرضنا .

ان كلمة المقاومة بحد ذاتها تعني كل شيء . وأما اذا لم تكن مقاومة الغاصب والمحتل والمعتدي متسمة بالعنف ، فهل كنا نسميها مقاومة ؟؟

● ما هي الاسباب لعدم وحدة العمل الفدائي ؟

ـــ هذا السؤال أصبح محيرا وداعيا الى الارتباك في آن واحد . ولكن قبل ان نطرح هذا السؤال ونجيب عليه يجب ان نعرف ما هو العمل الفدائي وكيف نشأ .

في رايي ان العمل الفدائي ما لم يكن منشأه وفكره فلسطيني الوجه وعربي العمق ، لا يمكن ان نسميه عملا فدائيا . هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الساحة الفلسطينية تعيش في حالة ارتباك . لان التداخلات العربية من خلال حالة التناقض فيما بينها أغرقت الساحة الفلسطينية بتنظيمات ذات ولاءات متعددة لهذه الانظمة . ومن هنا كان الصراع داخل التنظيمات نفسها ، انه انعكاس لصراع الانظمة التي تشدها هنا وهناك .

ان المفهوم الفلسطيني الذي أطلقته « فتح » لم يكن القصد منه ابعاد الشعوب العربية عن المشاركة، بل ابقاء الساحة الفلسطينية بعيدة عن حالة التناقض العربي الواضحة. وقد طرحنا شعار التعاون من خلال مرحلة التحرر الوطني وابقاء الافكار والايديولوجيات جانبا في هذه المرحلة . ويا حبذا لو سارت الامور كما بدأنا عام ١٩٦٥ حين التفت كل جماهير الامة العربية نحو فكرة الكفاح والتحرر.

● كيف تصنف العلاقات بين فصائل المقاومة حاليا ؟

ـــ العلاقات بين الفصائل لا اعتبرها علاقات سليمة لان الذاتية التنظيمية لا زالت تسيطر والكل يبحث عن مواقع أقوى لتنظيمه داخل الساحة الفلسطينية . وهذا شيء يقود الى الدمار والتخلف وضعف المواجهة مع الاعداء .

● الى اي مدرسة ايديولوجية تصنف افكارك السياسية ؟

ـــ أنا أعتبر نفسي انسانا وطنيا هدفه تحرير الانسان الفلسطيني كانسان ليحيا حياة انسانية ، وليعود الى وطنه من خلال حرب التحرير الطويلة الامد .

وان اية افكار تطرح في الساحة الفلسطينية لست ضدها ، الا انني ارى ان السير في متاهات الافكار وصراعاتها سيؤدي الى عرقلة المسيرة لعدة عوامل فلسطينية وعربية .

ومن هنا فانا مع مرحلة التحرر الوطني . ان الوطنيين الشرفاء جميعا هم شركاء في عملية التحرير دون اي تصنيف لهذا او ذاك ، ومن هنا فانا انسان وطني فلسطيني عربي .

● الى اي مدى تعتبر ان قيادة المقاومة الحالية تعبر عن ارادة الشعب الفلسطيني ؟

ـــ صحيح ان فصائل حركة المقاومة تمثل ارادة القتال ، وتمثل قطاعا هاما من الشعب الفلسطيني ، الا انه في رأيي الخاص يجب ان تكون القيادة الحالية لمنظمة التحرير الفلسطينية أكثر جدية وتمثيلاً للشعب ، ويجب أخذ عدد من القيادات الوطنية الفلسطينية غير الملتزمة بالتنظيمات الفدائية حتى يشاركوا في مستقبل المسيرة وتحقيق أهداف الشعب .

● ما هو تقييمك للعلاقات بين قيادة المقاومة وحكومات الدول العربية المجاورة لفلسطين ؟

ـــ بالنسبة لمصر كانت العلاقات ولا زالت تسير على مبدأ الثقة والتعاون ، وضمن امكانات خاصة بعد عام ١٩٦٧ . ونحن نرى ان منطق القتال وعدم ترك العدو يهدأ او يستقر خلال فترة الاحتلال منطق سليم ، ولذلك نحن كنا دائما مع منطق حرب الاستنزاف حتى ساعة التحرير الكامل .

بالنسبة لسوريا نعتبر ان موقفها الجغرافي هام جدا ، وتاريخ الانطلاقة يؤكد ذلك ، وهي بالنسبة الينا أهم من مصر لانها في قلب الاحداث أكثر من القاهرة .

الاردن معروف موقفنا منه فهو مرتبط ارتباطا جذريا بالاستعمار ، ولا يمكن ان يكون سليما الا اذا تخلص الشعب من الحكام الاردنيين الانهزاميين الحاقدين على شعبنا .

بالنسبة الى لبنان ، ظروفه الطائفية واوضاعه الاجتماعية وامكاناته المحدودة والصراعات الداخلية فيه ، تجعلنا نعيش معه في حالة ارباك دائم ، والمهم ان يظل لنا موقع قدم فيه من أجل مستقبل الثورة .

● كيف كانت علاقات المقاومة الفلسطينية بالرئيس جمال عبد الناصر ؟

ـــ كانت العلاقات منسجمة وجيدة الى حين وفاته . ولا شك في ان خسارته كانت لها آثار على الساحة الفلسطينية لما كان يتمتع به من امكانات ، ومن مركز عربي على المستوى الرسمي والشعبي .

وفي الواقع انه حصل شيء من الفتور بعد مشروع روجرز ، ولكنني على ما أذكر انه قبيل وفاته اعترف بان مشروع روجرز كان مؤامرة امريكية قصد منها شق الساحة الفلسطينية والعربية .

والمسيرة الفلسطينية حين بدأت تشعر ان جمال عبد الناصر يقف منها موقف التأييد ، أعطاها هذا دفعا وتقدما ، نظرا لثقتها به .

● كيف تصنف حركة المقاومة الفلسطينية بالنسبة الى حركة التحرر العالمية ؟

ـــ أية حركة نضال لا بد في النهاية من ان تنتهي الى مفهوم تقدمي ، لان الذين يناضلون ، يناضلون من أجل هدف موجه ضد الاستعمار والاحتكار والتسلط . ومن هنا كانت « فتح » وما زالت تقول ، ان التحرير اولا ، وبعد ذلك لا بد وان تقودنا مرحلة النصر الى العيش في اطار تقدمي وطني يعيش المنتصرون فيه حياة عدالة جادة . وان كل الشرفاء في العالم لا بد وان ينشأ بينهم وبين حركات التحرر صلات ود واخاء وتعاون لانهم متساوون في الحقوق والواجبات من الداخل او الخارج .

والمناضلون دائما هم ابناء الشعب ، ولذلك لن يتخلوا عن آمال الشعب واهدافه ، وهم بهذا شركاء لكل قوى التحرر في الهدف والمصير .

● ما هو تقييمك لعلاقات حركة المقاومة بالدول الاتية : الاتحاد السوفياتي والدول

الاشتراكية ـــ الصين الشعبية ـــ الولايات المتحدة الاميركية ـــ اوروبا الغربية ـــ دول العالم الثالث ؟

ـــ لا شك في ان الاتحاد السوفياتي صديق للامة العربية ، ولا يوجد بينه وبين امريكا اي وجه للشبه او المقارنة ، فهذا صديق ، وامريكا عدو سافر لنا ولامتنا . نقطة الخلاف بين حركة المقاومة والسوفيات انهم لا يؤمنون بازالة اسرائيل ، وانهم مع قرار مجلس الامن ، وهذا واضح من سياستهم ، الا ان التعاون في هذه المرحلة قائم ، ونحن مع تعزيز العلاقات وتطويرها .

الصين الشعبية موقفها مشرف وواضح وثوري حقيقي .

اوروبا الغربية يسيطر عليها الصهيونيون ، وكل دولة تتصرف على حدة من خلال مصالحها المرتبطة بالعرب ، ومثل على ذلك الموقف الفرنسي الايجابي الى حد ما .

وأما دول العالم الثالث ، فهي قسمان ، قسم يفهمنا جيداً ، ويقف معنا بقدر امكاناته، وقسم ينظر الى الصراع على أنه يجب ان يحل وديا ، وان اسرائيل يجب ان تبقى ، وهذا موجود في الدول الافريقية خاصة .

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب بعنوان

PALESTINIAN LEADERS DISCUSS :
THE NEW CHALLENGES
FOR THE RESISTANCE

والكتاب عبارة عن ندوة عقدها قادة المقاومة الفلسطينية (الدكتور جورج حبش ، نايف حواتمه ، ابو اياد ، زهير محسن وشفيق الحوت) لمجلة « شؤون فلسطينية » ترجمها المركز الى الانجليزية لتكون مادة دسمة الى القراء غير العرب عن فكر المقاومة لتحديات المرحلة الراهنة .

٧٤ صفحة بثلاث ليرات لبنانية ، يضاف اليها اجور البريد الجوي : ٥٠ ق. ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في اوروبة ، ٢٥٠ ق. ل. في سائر الدول .

اطلب نسخك من مركز الابحاث ـــ قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ ـــ بيروت .

الشعب الفلسطيني : والحقوق القومية المشروعة

ناجي علوش

ظل الشعب الفلسطيني ، منذ النكبة وحتى وقت قريب منسيا على الصعيد الرسمي العالمي . وكانت قضيته منذ النكبة قضية لاجئين . ان الامم المتحدة التي اتخذت قرار التقسيم ، وقراري العودة والتعويض تجاهلت ما اتخذته من قرارات . وحين حدث عدوان حزيران سنة ١٩٦٧ ، وعادت الامم المتحدة الى مناقشة القضية مجددا ، واتخذ مجلس الامن قراره رقم ٢٤٢ ، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، لم يذكر من القضية غير اللاجئين .

والآن نجد البيانات الرسمية المختلفة من بيان نيكسون ـ برجينيف الى بيان دول السوق الاوروبية المشتركة تتحدث عن مصالح الشعب الفلسطيني تارة ، وعن حقوقه المشروعة طورا . كما اننا نجد ان هناك من أخذ يتحدث عن حقوق راهنة وحقوق تاريخية ، أو حقوق تاريخية ومكاسب مرحلية وطنية ، فما هي قضية الحقوق القومية للشعب الفلسطيني ؟

ان علينا لكي نجيب على هذا السؤال أن نناقش المسائل التالية :

١ ـ مسألة الحقوق القومية في الثورة القومية البرجوازية ، وسوف نستشهد هنا تحديدا بالثورتين الاميركية والفرنسية .

٢ ـ مسألة الحقوق القومية في الثورة البروليتارية . وسنناقش هنا نظرية الحقوق القومية من وجهة النظر الماركسية ـ اللينينية .

٣ ـ مسألة الحقوق القومية في المؤسسات والاتفاقات الدولية .

٤ ـ مسألة الحقوق القومية في الثورة الفلسطينية .

وهدف هذه المناقشة العامة أن نصل الى تحديد علمي لمضمون الحقوق القومية عموما ، ولهذا المضمون في القضية الفلسطينية تحديدا . ويرمي ذلك الى جلاء الملابسات المحيطة بالقضية الفلسطينية حاليا ، والى بلورة نظرة علمية وثورية يهتدى بها في المعركة القائمة ، والتي سوف تستمر ما زال الوجود الصهيوني الاحتلالي قائما .

ويجدر بنا ان نشير الى ان هذه المناقشة ستأخذ حقيقتين بعين الاعتبار :

الاولى : ان نظرية الحقوق القومية ، قد نمت وتكاملت عبر صراعات القرون الثلاثة الماضية ، وأن هذه الصراعات تؤكد اليوم حقائق كانت تبدو قبل قرنين أشبه ما تكون بالاحلام .

الثانية : اننا نناقش هذه القضية على ضوء حقائق النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى ضوء التوازن النووي بين الدولتين العظميين من جهة وانهيار موضوعة

المعسكرين ، وبروز قوى عالمية جديدة واتجاه الدول نحو الاستقلال والامم نحو التحرر والشعوب نحو الثورة .

١ ـ الحقوق القومية في الثورة القومية البرجوازية

كانت أوروبا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، قد أخذت تضيق بقيودها . كانت المؤسسات الاقطاعية قد أصبحت قيودا تكبل نمو قوى الانتاج الجديدة وأعجز من أن تفي بحاجات أوروبه في عهد الفتوح والسيطرة على العالم . وكانت البرجوازية تطمح الى عالم جديد يضمن مصالحها ومطامحها .

وأخذ الفكر يعبر عن هذه التطلعات . ولما كان الوضع القائم آنذاك يصادر حرية الانسان : يحرمه من أن يفكر بحرية ، ويمنعه من أن يكون له رأي في اختيار دولته ، فقد اتجه الفكر الى معالجة هاتين القضيتين .

فالفكر يجب ان يكون حرا ، وبذلك يستطيع ان يستخدم كل امكانيــاته استخداما سليما . يقول كانت Kant في هذا المجال : « يجب ان يكون الانسان حرا ليتعلم كيف يستخدم امكانياته بطريقة حرة ومفيدة »(١) .

ولكن الحرية لا تعني ان يكون للانسان حق ان يفكر فقط . انها تعني ان يشارك في اختيار الطريقة التي يحكم بها . وكانت أوروبه ممزقة بين دول اقطاعية صغيرة ودول امبراطورية تتجاوز حدود القوميات ، وكان لا بد من أن ينتهي التمزق الداخلي ، وان تسقط اشكال الدولة الامبراطورية القديمة . ولهذا كانت الدولة القومية هي الحل . يقول مل: « من الشروط الضرورية بصورة عامة للنظم الحرة ان تنسجم حدود الحكومات انسجاما كاملا مع حدود القوميات »(٢) .

ويقول لينين في أطروحته ، الثورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير المصير : ان مطلب حق تقرير المصير أثارته البرجوازية الصغيرة في البدء في القرنين السابع عشر والثامن عشر(٣) .

وقد انعكست فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر في بيان الاستقلال الاميركي . ويركز بيان الاستقلال الاميركي على حقائق ثلاث :

الاولى : « ان جميع الناس قد ولدوا متساوين ، وان الخالق قد أنعم عليهم بحقوق معينة لا يمكن انكارها ، وان من بين هذه حق الحياة ، وحق التمتع بالحرية ، وحق البحث عن السعادة » .

الثانية : ان الحصول على هذه الحقوق يتطلب : « ان تقام الحكومات لخدمة الناس على أن تستمد سلطاتها العادلة من تعاون المحكومين وموافقتهم » .

الثالثة : « وكلما اصبح اي شكل من أشكال الحكومة مصدر خطر على هذه الاهداف، فمن حق الناس أن يغيروا هذه الحكومة أو أن يلغوا وجودها الغاء ، ومن حقهم ان يقيموا حكومة جديدة على أسس من المبادىء المعينة ، وان ينظموا سلطاتها بطريقة خاصة بحيث تبدو لهم هذه المبادىء وتلك الطريقة قادرة على تأمين سلامتهم وتحقيق سعادتهم »(٤) .

ولن نخوض كثيرا في بحث الفلسفة السياسية للثورة الاميركية . يكفي أن نقول انها جاءت اليهم عن طريق « لوك وهارنجتون وغيرهما من الكتاب الانجليز في القرن السابع عشر »(٥) أكثر مما جاءت اليهم عن طريق المفكرين الفرنسيين أو الالمان .

ان الثورة الاميركية هذه التي كانت صدى للثورة السياسية في أوروبه ، وكانت مفعمة

« بفلسفة العصر » ، كانت أيضا أول هزة للامبراطورية البريطانية ، ولنظام الاستعمار في عنفوانه . لقد أكدت هذه الثورة (« حق المقاومة » الذي أكده المفكرون)(٦).

وتكمن أهمية الثورة الاميركية في ناحيتين :

الاولى : انها أكدت في « بيان الاستقلال » أهم المبادىء التي دعا لها الفلاسفة الاحرار خلال قرن من الزمان .

الثانية : انها أكدت مع ذلك حق الشعوب في الاستقلال القومي وفي مقاومة الاحتلال.

ويجدر بنا هنا أن ننقل فقرة من خطاب لتوماس جيفرسون ، ألقـــاه في ٢٤ حزيران ١٨٢٦ يقول فيها : « لعله (أي بيان الاستقلال) ان يكون للعالم ، ما اعتقد انه سيكون ــ لبعض الاجزاء في القريب ولبعضها الآخر فيما بعد ، ولكن للكل في النهاية ــ علامة هبوب الناس لتحطيم الاغلال التي دفعهم الجهل والايمان بالخرافات الى تقييد انفسهم بها ، والاستمتاع بسعادة الحكم الذاتي وأمنه »(٧). ان جيفرسون هنا يقول ما قاله مفكرو أوروبه الاحرار من قبل . انه لا يريد التحرر والحكم الذاتي للولايات المتحدة الاميركية فقط ، انه يريدهما للعالم كله .

ولكن الثورة الاميركية لم تهز العالم القديم كما هزته الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ . لقد كانت اميركا الشمالية من أطراف الامبراطورية البريطانية ، ولم تكن آنذاك قاعدة صناعية أو أداة تأثير خارجي ، بسبب بعدها من جهة ، وقصور وسائل المواصلات ، ولانها لم تكن تمثل آنذاك قوة على الصعيد العالمي . اما الثورة الفرنسية فقد قامت وسط أوروبه ، وفي فرنسا بالذات ، احدى قوى اوروبه الاساسية . وكانت فرنسا مهد حركة فكرية وسياسية قوية ، ترفض العالم القديم كله وتطرح مفاهيم حياة جديدة .

وعندما قامت الثورة اعلنت بيان حقوق الانسان والمواطن ، ومن أهم ما جاء في هذا البيان :

« وبناء عليه فان المجلس الوطني يقر ويعلن . . . الحقوق التالية للانسان والمواطن :

١ ــ يولد الناس ويظلون أحرارا ومتساوين في الحقوق . ويمكن أن تقوم الامتيازات الاجتماعية على أساس المصلحة العامة فقط .

٢ ــ ان هدف كل مؤسسة سياسية ان تحافظ على حقوق الانسان الطبيعية التي لا تبطل ، وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والامن ومقاومة الاضطهاد .

٣ ــ ان مبدأ السيادة كلها يقع بالضرورة في الامة . ولا تستطيع اية هيئة او فرد ان يمارس السلطة ، اذا لم تأخذ أصولها من الامة .

٤ ــ وتكون الحرية في أن يتاح لك أن تعمل كل ما لا يؤذي الآخرين . . .

٦ ــ ان القانون هو تعبير عن الارادة العامة . ويحق لكل المواطنين ان يشاركوا شخصيا ، أو بواسطة ممثليهم في وضعه . . .

١٠ ــ لا يجوز أن يضايق أحد بسبب افكاره ، حتى بسبب افكاره الدينية ، شريطة الا يزعج اعلانها النظام العام الذي يقيمه القانون .

١١ ــ ان التبادل الحر للافكار والآراء واحد من اغلى حقوق الانسان .

١٧ ــ لان الملكية حق مقدس لا يمس ، فلا يجوز أن يحرم منها احد ، الا عندما تقتضي الحاجة العامة ، المعلنة عــن طريق القانون ، والتي تجعل ذلــك ضروريا ضرورة صريحة . . . »(٨).

ان هذا البيان يعلن حقوق المواطن ، وسيادة الامة ، كما لم يعلنها بيان الاستقلال الاميركي . وتبعت هذا البيان بيانات . فقد أعلن سنة ١٧٩٠ ان الثورة تدين كل حروب الغزو والاستعمار(٩) . وبحث المجلس الوطني في الثامن عشر من أيار (مايو) سنة ١٧٩٠ مسودة بيان دمج جزئيا في مرسوم السابع والعشرين من الشهر نفسه وفي دستور سنة ١٧٩١ جاء فيه : « ان الشعوب والدول ، باعتبارها أفرادا ، تتمتع بنفس الحقوق الطبيعية ، وتخضع لنفس قواعد العدالة » (المادة الثانية) . وجاء في دستور سنة ١٧٩١ : « ان الامة الفرنسية تندد بكل حروب الغزو ، وسوف لا تستخدم قواتها أبدا ضد حرية أي شعب »(١٠) .

وهكذا اكدت الثورة الفرنسية حقوق الافراد وحقــوق الامم . وأكدت للامم حقوق الافراد في الحرية والمساواة والاخاء . ولكنها أكدت الى جانب ذلك وحدة فرنسا غير القابلة للانقسام ولذلك قرر المؤتمر الوطني المنعقد في ١٧٩٢/٩/٢٥ ان « الجمهورية الفرنسية واحدة غير قابلة للانقسام » . كما قرر في ١٧٩٢/١٢/١٦ : « حكم الموت ضد كل من يحاول : أن يمس وحدة الجمهورية الفرنسية أو أن يقتطع مــن صلبها أجزاء ليلحقها بأرض أجنبية »(١١) .

واذا كان للمواطنين حق اختيار حكومتهم واسقاطها ، فان مــن حقهم ان ينفصلوا عنها ، وأن ينتموا الى دولة أخرى . فالسيادة ليست لامة دون أخرى ، والامم متساوية، ولذلك فانها تملك الحقوق ذاتها . وعندما طــرح نائب من الراين الادنى على المؤتمر الوطني الذي خلف الجمعية التشريعية في أواخر سنة ١٧٩٢ سؤالا حول موقف فرنسا من حماية مدينة مايانس Mayence صعد مارا الى المنبر قائلا : « انكم باعلانكم سيادة الامة الفرنسية ، فانكم تعترفون بالتالي بسيادة جميع الامم الاخرى . لقد حررتم جيرانكم من الطغيان ، فلا تتخلوا عنهم حين يرتمون في احضانكم »(١٢) .

وشهدت اوروبه بعد الثورة الفرنسية صراعا دمويا طويلا بين اباطرة اوروبه من جهة ، وبين اباطرة أوروبه وشعوبها من جهة أخرى . فلم تمض سنوات على الثورة الفرنسية حتى كانت جيوشها تغزو أوروبه ، وتشتبك لا مع الاباطرة فحسب كما هي الحال مع بريطانيا والنمسا وروسيا بل مع الشعوب ايضا كما هي الحال مع اسبانيا وبلجيكا والمجر وبروسيا . وما تلبث الولايات المتحدة ان تؤيد حرب الاستقلال في اميركا الجنوبية ، مؤيدة « شرعية انفصالها » .

وعندما هب الشعب اليوناني مناضلا من أجل استقلاله أيده الرأي العام الاوروبي ، وسانده مفكرون كبار من مثل شاتوبريان ولورد بايرون . وكان حق الشعب « ... في أن يقيم لنفسه اطاره الفردي الذي يتمشى مع ارادة حيــاته الجماعية » ... « من المبادىء الحيوية التي تحرك حرب تحرير اليونانيين والاحلاف التي تساند قضيتهم »(١٣) .

وقامت ثورات ١٨٤٨ في أوروبه فهزت العروش والاباطرة ، وفرضت الدساتير ، ولكنها لم تغير من تكوين أوروبه القومي .

ولذلك ظل مفكرو أوروبه وقادة الحركات القومية يطرحون قضية حــق الشعوب باستقلالها ، وتعود فرنسا سنة ١٨٤٨ الى اعلاء صوتها . ان لا مارتين وزير الخارجية يؤكد في بيان خاص : « اما وساعة انبثاق بعض القوميات في اوروبه ، او في غيرها ، قد دقتها العناية الالهية ، فانه اذا عانت سويسرا حليفتنا المخلصة الضغط او التهديد ، واذا تعرضت الدويلات الايطالية المستقلة للغزو ، واذا أقيمت العقبات او القيود في وجه تطورها الداخلي ، واذا ما انكر عليها احد ، بقوة السلاح ، حقها في أن تتحالف فيما بينها من أجل «اقامة وطن ايطالي» ، فان الجمهورية الفرنسية تجد من حقها ان تتسلح لتحمي هذه « الحركات الشرعية » حركات نمو الشعوب وحركات قومياتها » .

أما ماتزيني القائد القومي الايطالي فيؤكد (« ان لكل امة السيادة «Signoria» على نفسها وعلى كل أرضها . ويتيح لها هذا الحق ان تقيم وتنظم وتختار لنفسها الحكومة الملائمة لحاجاتها ، كما يتيح لها هذا الحق الحرية في أن تتحول « من أمة الى دولة»)(١٤).

وعاشت أوروبه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تصارع في اتجاهين : السيادة الشعبية من جهة والدولة القومية من جهة اخرى . ولقد توحدت رومانيا وايطاليا والمانيا ما بين ١٨٥٩ و١٨٧١ . كما قوضت الحركات القومية ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الامبراطوريتين « الالهيتين » : امبراطورية آل هابسبورغ وسلطنة بني عثمان . واخذت الصراعات الطبقية والتحررية تزداد اتساعا وعنفا في هذه المرحلة .

الا أن أوروبه ، التي شهدت كل هذه الصراعات القومية والتحررية ، كانت تتحول بعد وحدة اقطارها القومية ونهضتها العلمية والاقتصادية الى أداة غزو واستعمار . أوروبه الامبراطورية تعود الى المسرح العالمي في زي جديد ، وبقوى جديدة .

وهكذا نجد أن الثورة القومية البرجوازية طرحت مبادىء السيادة الشعبية والحقوق القومية ، ولكنها بالمقابل أوجدت سيطرة البرجوازية المستغلة في الداخل ، وسيطرتها على المستعمرات في الخارج . لقد طرحت افكارا «مثالية» ، ناضلت من اجلها الجماهير الشعبية ، وقدم العمال والفلاحون والبرجوازية الصغيرة تضحيات كبيرة من اجلها . ولكنها أقامت دولا تدوس هذه الافكار « المثالية » .

ولكن هذه الافكار ظلت تتفاعل في أوساط الجماهير ، ويناضل من أجلها المفكرون ، ويتغنى بها الشعراء . وكانت هذه الأفكار تنتقل الى المستعمرات حيث تتفاعل مع جماهير مسحوقة تتطلع الى مستقبل جديد زاهر ، فتقوم الانتفاضات والثورات .

٢ ــ الحقوق القومية في الماركسية ــ اللينينية

سنحاول هنا أن نلخص المفاهيم الاساسية للماركسية ــ اللينينية في هذه القضية . وسوف لا نخوض في التطبيق السوفياتي لحق تقرير المصير ، وان كنا سنعرض لمسألة حق تقرير المصير ، كما برزت في السياسة الخارجية السوفياتية .

وهناك ثلاث مراحل يجب التعرض لها :

الاولى : مرحلة ماركس وانجلز (١٨٤٨ ــ ١٨٩٨) :

لقد أيد ماركس وانجلز حق الشعوب المضطهدة في اقامة حكوماتها المستقلة . وكان تأييدهما واضحا وقويا لحقوق الشعبين الايطالي والايرلندي . كما أيد ماركس وانجلز الحقوق القومية لشعوب المستعمرات . وكان ماركس يرى « ان تحرر ايرلندا ليس ، بالنسبة للبروليتاريا ، مسألة عدالة مجردة او عاطفة انسانية ، ولكنه الشرط الاول لتحرر البروليتاريا الاجتماعي » .

واخضع ماركس وانجلز قضية الانفصال لــ : « ... المصالح الشاملة للنضال من أجل الديمقراطية ، وانتصار الثورة البروليتارية » ولذلك عارضا حركات « الشعوب الرجعية » مثل التشيك والسلاف الجنوبيين لان القيصرية كانت تستفيد من هذه الحركات لخدمة أغراضها .

ولم تحذ القيادات الانتهازية في الاممية الثانية حذو المعلمين الكبيرين ، بل القت على قضية تقرير المصير غشاوات النسيان . وقد اعتبر لينين ان قرار حق تقرير المصير الذي اتخذه مؤتمر الاممية الثانية في لندن غير مناسب : لانه لا يؤكد على الجوهر السياسي لمطلب حق تقرير المصير او مضمونه الطبقي ، وتبعيته لنضال البروليتاريا الثوري المباشر

من اجل اسقاط الراسمالية » . ولم تثر القرارات التي اتخذت حول المسألة الكولونيالية في مؤتمرات الاممية الثانية سنة ١٩٠٠ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٧ ، قضية الشعوب في حق تقرير مصيرها(١٥) . وما كان متوقعا ان يصدر عن الاممية الثانية « موقف محكم ومعقول » من القضايا القومية لان الاحزاب المشاركة فيها « ذات انتماء شوفي »(١٦) .

الثانية : مرحلة لينين ١٨٩٨ — ١٩٢٤ . وقد اعطى لينين لهذه المسألة جهدا كبيرا ، وسد كثير من الثغرات التي تركها ماركس وانجلز وغيره قبله .

وكان لينين يؤكد على ما يلي :

أولا : ان لكل أمة الحق في تقرير مصيرها .

ثانيا : ان حق تقرير المصير يعني حق الانفصال ، وحق اختيار طبيعة العلاقة بين أمة وأخرى .

ثالثا : ان الاشتراكيين الديمقراطيين في البلاد الكبيرة يجب ان يكونوا ملزمين بواجب النضال ضد كل أشكال الاضطهاد .

رابعا : ان الاتحاد بين الدول يجب ان يتم طوعا ، وان حق تقرير المصير ، لا يعني الانفصال بالضرورة .

وقد أخضع لينين حق تقرير المصير للعاملين اللذين أخضعه لهما ماركس وانجلز . وكان لينين يقول : « نحن نقف الى جانب التمرد القومي » . ويضيف : « بيد اننا لسنا الى جانب كل تمرد ، ولسنا بشكل خاص الى جانب تمرد الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة في العام ١٨٦٣ »(١٧) .

واذا كان لينين قد أولى القضية القومية عموما اهتماما كبيرا ، فانه أولى أيضا قضية حركة التحرر الوطني في الشرق اهتماما مماثلا ، وحدد الدور التقدمي الذي تلعبه الحركات القومية لا في البلدان الاوروبية فحسب ، بل في المستعمرات ايضا(١٨) .

المرحلة الثالثة : المرحلة التالية لقيام الدولة السوفياتية وحتى الآن : لن يكون سهلا ايجاز وقائع هذه المرحلة ، ولذلك فاننا سنقدم بعض الامثلة فقط، ما دامت القضية ليست قضية الموقف الماركسي من قضية حق تقرير المصير .

ضم بيان حقوق شعوب روسيا وبيان حقوق الشعوب الكادحة والمستغلة مبدأ حق تقرير المصير . وقد جاء في البيان الاول « ان الحكومة السوفياتية ، تنفيذا لقرارات مؤتمري السوفياتات الاول والثاني حول حق الامم في تقرير مصيرها ، مصممة على ان تجعل المبادىء التالية أساس السياسة القومية :

١ — مساواة شعوب روسيا وسيادتها .

٢ — حق شعوب روسيا في تقرير المصير ، حتى الانفصال واقامة الدول المستقلة .

٣ — الغاء كل القيود والامتيازات القومية والدينية .

٤ — التطور الحر للاقليات القومية والجماعات الاثنية القاطنة في اراضي روسية»(١٩) .

وانسجاما مع هذه المبادىء قدم الوفد السوفياتي الى صلح برست ليتوفسك المقترحات الستة التالية :

« ١ — لا تهاون مع الحاق الاراضي التي تم الاستيلاء عليها خلال الحرب . والقوات التي تحتلها تسحب في أقرب وقت ممكن .

٢ — ان الاستقلال السياسي للامم التي حرمت منه خلال الحرب الحاضرة يستعاد كاملا .

٣ — ان الجماعات القومية التي لم تكن تتمتع بالاستقلال السياسي قبل الحرب، تعطى الامكانية لتقرر بحرية التحاقها لهذه الدولة أو تلك او قيام دولتها المستقلة بواسطة الاستفتاء . ويجب ان ينظم الاستفتاء على أساس ان يؤمن حرية التعبير الكاملة للسكان كلهم في أرض معينة ، بما في ذلك اللاجئين .

٤ — تؤمن حقوق الاقليات على الاراضي التي تقطنها قوميات متعددة ، بتشريعات خاصة تؤمن لهم الاستقلال الثقافي والقومي ، والاستقلال الاداري ، اذا كان ذلك ممكنا في الواقع .

٥ — . . .

٦ — تحل المسائل الكولونيالية طبقا للمواد الاربع الاولى »(٢٠).

وقد وضع دستور سنة ١٩٣٦ قيودا على قضية الانفصال تتلخص في التالي : ١ — ان تكون الجمهورية المطالبة بحق الانفصال حدودية ، ٢ — ان تكون القومية ذات العلاقة قومية الاكثرية في الجمهورية ، ٣ — يجب الا تكون الجمهورية صغيرة العدد جدا من حيث السكان(٢١).

ولقد استعرض الكاتب السوفياتي ج. ستارشنكو هذه المسألة على الصورة التالية : انها :

« أولا : تعلن حق تقرير المصير لكل الشعوب والامم دون استثناء .

« ثانيا : انها تعتبر حق تقرير المصير ، لا باعتباره حقا للاستقلال الذاتي او الاستقلال الذاتي الثقافي ، ولكن باعتباره حقا لاقامة دولة منفصلة .

« ثالثا : انها تنطلق لا من الحاجة الى الانفصال ، بل من الاهلية للانفصال ، مخضعة هذه المسألة للقضية الاساسية — النضال من اجل انجاز الاهداف الطبقية للطبقة العاملة ، النضال من اجل الاشتراكية .

« رابعا : انها تثير مسألة المساواة بين الامم ، لا الشكلية (الرسمية) بل مسألة المساواة الواقعية (في ميادين الاقتصاد والثقافة) »(٢٢).

ولحق تقرير المصير مجالان خارجي وداخلي . فعلى الصعيد الخارجي انه يعني :

أ — الانفصال وتكوين دولة مستقلة .

ب — الانفصال والانضمام الى دولة أخرى .

ج — البقاء ضمن دولة باعتباره عضوا فيدراليا ، او ذا حكم ذاتي .

ويعني حق تقرير المصير بالنسبة للشعب في الميدان الداخلي :

أ — كيف يكون نظامه السياسي والاجتماعي .

ب — ان ينظم موارده الطبيعية وان يدير اقتصاده بحرية .

ج — ان يقرر كل القضايا الداخلية الاخرى، فيما يتعلق بالثقافة والدين الخ . . .(٢٣).

٣ — الحقوق القومية في المؤسسات والاتفاقات الدولية

كانت الحرب العالمية الاولى صراعا بين القوى العظمى في أوروبه على السيطرة ومناطق النفوذ . ولكن الامم كانت تطمح الى التحرر ، وتأمل أن تنتهي الحرب بالحرية

والسلام لكل المضطهدين . وحين قامت ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ اعلنت الاتفاقات السرية التي كانت روسيا القيصرية على علم بها ، والتي كانت تتعلق باقتسام مناطق النفوذ ، ومنها بلادنا .

قاد هذا الوضع كله قادة الدول المتصارعة ، الى تغطية مواقفهم باعلان تبنيهم حق تقرير المصير . وكان الاتحاد السوفياتي قد أعلن مباديء في حق تقرير المصير ، وادان سياسة النهب والغزو . اما الولايات المتحدة الاميركية فقد أعلنت على لسان رئيسها ولسن المباديء الاربعة عشر التي وقفت الى جانب حق تقرير المصير . كان ولسن رجلا ليبراليا ، وكان موقفه مع ذلك موقفا شخصيا اكثر منه موقف اميركي ، ومع ذلك فقد كان هذا الموقف معبرا عن طموح الولايات المتحدة لوراثة الاستعمار القديم، من خلال تحريض الشعوب المستعمرة ضد الاحتلال والوصاية . قال ولسن في خطاب القاه يوم الثاني من كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ : « اني اقترح أن أي شعب او امة أخرى ، وان كل شعب يجب ان يترك وحاله ليقرر سياسته بنفسه، كما يقرر طريق تقدمه دون عائق او تهيب أو وجل ، ويسير الشعب الصغير بخطى متساوية مع الكبير القوي » . واضاف ولسن في خطاب القاه بعد فترة وجيزة (١١ شباط ١٩١٨) أمام الكونغرس الاميركي : « ان تقرير المصير لم يعد مجرد تعبير . لقد اصبح تقرير المصير مبدأ يفرض العمل به ، ولا يمكن أن يتجاهله الساسة الا على مسؤوليتهم » . ولم يشذ لويد جورج في تصريحاته عن هذا الخط ، فأعلن ترحيبه بمبدأ تقرير المصير قائلا : « ان هناك ثلاثة أسس للسلام الدائم ... احدهما حل مشاكل الاراضي على اساس حق تقرير المصير »(٢٤).

ولكن قضية تقرير المصير تحولت الى قضية نهب واقتسام غنائم في مؤتمر باريس . وهو ما وصفه لينين قائلا : « انها الحالة الاولى في التاريخ العالمي للسطو والعبودية والاخضاع والفقر والجوع المحمية بالشرعية »(٢٥).

وفي مؤتمر الصلح أقر نظام الانتداب ، وادخل في هيكل ميثاق عصبة الامم ، وفرض على بلادنا ، ومن ضمنها فلسطين .

لقد كرست اتفاقات الصلح اقتسام مناطق النفوذ بين الدول المنتصرة ، كما أن ميثاق عصبة الامم كرس هذا الواقع من خلال نظام الانتداب . ولم يشر ميثاق عصبة الامم الى حق تقرير المصير بل اكتفى في المادة ٢٣ « بالتعهد باستخلاص المساواة في المعاملة بين جميع السكان الذين يقطنون الاراضي (المستعمرة) و« النظر في صالح وتطوير هذه الشعوب » . وجاء ميثاق هيئة الامم المتحدة ، فألزم الاعضاء « بمنح الحكم المستقل » لهذه الشعوب(٢٦). ومع ذلك فقد ظلت الدول الامبريالية فارضة سلطتها على الكثير من بلدان اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . وظلت الشعوب تقاوم وتناضل . وكان شعبنا العربي من هذه الشعوب .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، فاصطدمت القوى الامبريالية فيما بينها ، وشنت المانيا الهتلرية حربا واسعة على الاتحاد السوفياتي ، ثم ما لبثت الولايات المتحدة الاميركية ان دخلت الحرب . وقد انهكت هذه الحرب الدول المتصارعة ، فهزمت المانيا الهتلرية وايطاليا واليابان هزيمة ساحقة ، وضعفت فرنسا وبريطانيا ، بينما قويت الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي .

وساعدت ظروف هذه الحرب بعض الشعوب على انجاز استقلالها الوطني . فهزيمة اليابان ، وعجز الدول الامبريالية عن التدخل المباشر الواسع ، وقوة الاتحاد السوفياتي آنذاك ومساندته ادت كلها الى انتصار نضال الشعوب في الصين وكورية وفياتنام . ولكن التدخل الاميركي والحليف في كورية والفرنسي في فياتنام قادا الى اشتعال

الحرب من جديد ، والى اقامة نظامين رجعيين عميلين . واقعين تحت السيطرة المباشرة للامبرياليتين الاميركية والفرنسية . ولقد استقلت بعض الدول ايضا في آسيا وافريقيا. ولكن معظم الشعوب ظلت تناضل ضد بقايا الاستعمار القديم ومحاولات الاستعمار الجديد للتسلل والسيطرة . ولقد استقلت معظم شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ما بين ١٩٤٥ و١٩٧٠ ، وانتهت سيطرة الاستعمار القديم تقريبا ، ولكن الاستعمار الجديد ما زالت له مواقع نفوذه وسيطرته ، وما زالت الشعوب تناضل ضد محاولات الاستعمار الجديد للتسلل والسيطرة ، وضد مواقعه .

٤ ـ شعبنا وحقوقه القومية المشروعة

احتلت القوات البريطانية فلسطين سنة ١٩١٧ ، ورفعت بريطانيا مشروع الانتداب على فلسطين في الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٩٢٢ ، فلم توافق العصبة عليه حتى التاسع والعشرين من ايلول سنة ١٩٢٣ .

ودمجت الحكومة البريطانية وعد بلفور بصك الانتداب على فلسطين ، فكرسته عصبة الامم ، كما كرست المادة الثانية من الصك ان من واجب الدولة المنتدبة « ان تهيىء في البلاد من الاحوال السياسية والادارية والاقتصادية ما يضمن انشاء الوطن القومي اليهودي »(٢٧).

واذا كان الاحتلال البريطاني مخالفا لابسط حقوق الانسان التي ناضلت الامم المتحدة من أجلها ، فان وعد بلفور اعتداء على بديهيات أقرتها كل المواثيق الممثلة لمطامح الانسان في التحرر والتقدم منذ الثورة الاميركية .

ومع ذلك قام واقع جديد في فلسطين يختلف عما كانت عليه الحال في كل المستعمرات والبلاد الواقعة تحت الانتداب . ذلك ان فلسطين أصبحت تواجه مشكلتين : الاولى مشكلة الاستعمار الذي احتل البلاد واخضعها لسطوته . الثانية : مشكلة الوعد الذي يعد اخلاطا من الناس في كل انحاء الارض بدولة في فلسطين على حساب شعبها .

وعلى الرغم من كل ما اثير قانونيا حول وعد بلفور . من أنه « ... لا ينص على اي التزام قانوني مهما كان نوعه »(٢٨)، فانه قاد البلاد تدريجيا ، وفي ظل انتداب الدولة صاحبة الوعد ، الى قيام دولة صهيونية محتلة .

وجاءت سنة ١٩٤٧ ، فقررت هيئة الامم المتحدة تقسيم فلسطين الى دولتين يربط بينهما اتحاد اقتصادي(٢٩). ولم يشر القرار المذكور الى حقوق الشعب الفلسطيني القومية ، ولا الى حق تقرير المصير . ولقد قامت دولة الاحتلال الصهيوني بعد ذلك ، لا على المساحة التي حددها القرار ، بل على ما يقارب ثمانين بالمائة من أرض فلسطين كلها . واخضع ما تبقى من فلسطين للنظام الاردني في الضفة الغربية ، واتبع للادارة المصرية في غزة .

وأصدرت هيئة الامم المتحدة في الحادي عشر من كانون الاول ١٩٤٨ قرارا بانشاء لجنة توفيق ، كان من مهمتها : « ... اتخاذ التدابير بغية معاونة الحكومات والسلطات المعنية لاحراز تسوية نهائية لجميع المسائل المعلقة بينهم »(٣٠). ولم يشر القرار لغير العودة « في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين بالعودة الى بيوتهم والعيش بسلام مع جيرانهم ووجوب وضع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة الى بيوتهم ، وعن كل مفقود او مصاب بضرر ... » ، وهكذا بدأت الامم المتحدة رحلتها في طمس الحقوق القومية للشعب الفلسطيني . وقبلت اسرائيل عضوا في الامم المتحدة بتاريخ ١١ ايار (مايو) ١٩٤٩ ، على أساس « ... ان اسرائيل دولة محبة للسلام راضية بالالتزامات الواردة في الميثاق ، قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات ، وراغبة في ذلك » .

واكتفت الامم المتحدة بالاشارة ... « الى قراريها الصادرين في ٢٩ تشرين الثـاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، وفي ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، و... بالتصريحـات وبالايضاحات التي صدرت عن ممثل حكومة اسرائيل ، امام اللجنة السياسية المؤقتة فيما يتعلق بتطبيق القرارات المذكورة ... »(٣١).

ولكن دولة الاحتلال الصهيوني التي قامت على انقاض الوجود السياسي والاجتماعي والاقتصادي لشعبنا ، لم تكن مستعدة لقبول حتى قرارات الامم المتحدة . وتحـول الشعب الفلسطيني الى شعب من المشردين والخاضعين للاحتلال الصهيوني والسلطة الاردنية ، او الملحقين بالادارة المصرية في غزة . وأصبحت القضية في الامم المتحـدة وخارجها قضية لاجئين ، المطلوب اعادتهم او تعويضهم او اغاثتهم ، ولكن دون اي شيء اخر . وظل الامر كذلك الى سنة ١٩٧٠ ، عندما اتخذت الامم المتحدة قرارهـا رقم ٢٦٤٩ تاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ . والذي جاء فيه :

« ٥ ــ تدين (اي الامم المتحدة) تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير علـى الشعوب المعترف لها بذلك الحق ، وخصوصا شعوب افريقيا الجنوبية وفلسطين » وقد اكد القرار المذكور ما يلي :

« ١ ــ تؤكد (اي الامم المتحدة) شرعية نضال الشعـوب الخـاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية ، والمعترف بحقها في تقرير المصير ، لكي تستعيد ذلك الحق بأية وسيلة في متناولها .

« ٢ ــ تعترف للشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية ، في ممارستهـا الشرعية لحقها في تقرير المصير ، في البحث عن جميع انواع المعونة المعنويـة والمادية وتلقيها ، بموجب قرارات الامم المتحدة وروح ميثاق الامم المتحدة .

« ٣ ــ تدعو جميع الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية ، الى الاعتراف بذلك الحق واحترامه وفقا للمواثيق الدولية ومبادىء ميثاق الامم المتحدة وروحه .

« ٤ ــ تعتبر ان الاستيلاء على الاراضي والاحتفاظ بها يتنافى مع حق شعب تلـك الاراضي في تقرير المصير ، لا يمكن قبوله ، ويشكل خرقا فاحشا للميثاق »(٣٢).

وعادت الامم المتحدة فأصدرت قرارا في الثامن من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ جاء فيه أن الامم المتحدة :

« ١ ــ تعترف لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير المصير ، وفقـا لميثاق الامم المتحدة .

« ٢ ــ وتعلن ان الاحترام التام لحقوق شعب فلسطين غير القابلة للتصرف هو عنصر لا غنى عنه في اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط »(٣٣).

وعادت هيئة الامم المتحدة فأكدت ما ذكرناه في قرارها المرقم ٢٧٨٧ المؤرخ ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١(٣٤).

ومع ذلك فان الامم المتحدة عادت بعد حرب السادس من تشرين الى المطالبة بتنفيذ قرارها رقم ٢٤٢ الذي لا يعطي الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره .

وهكذا نعود الى دوامة الامم المتحدة .

ان الامم المتحدة اعطت نفسها الحق عام ١٩٤٧ باصدار قرار التقسيم الـذي يقسم ارض فلسطين الى دولتين ، ويعطي « الشرعية » لقيام دولة صهيونية على ارضها .

ومع ان عصبة الامم لا حق لها بفرض الانتداب ، فقد فرض الانتداب على فلسطين . وما حدث بشأن اقرار الانتداب سنة ١٩٢٢ على فلسطين ، حصل سنة ١٩٤٧ باقـرار التقسيـم .

ان قرار التقسيم باطل ، لانه يتعارض مع الحقوق القومية المشروعة للشعب الفلسطيني . ولقد ناقش ذلك قانونيا اكثر من مؤلف نذكر منهم هنري كتن في محاضرته: تقسيم فلسطين من الوجهة الحقوقية(٢٥)، وحسين جميل في كتابه : « بطلان الاسس التي اقيم عليها وجود اسرائيل »(٢٦). ولذلك فاننا سوف لا نناقش هنا هذه القضية ، ولكننا نود ان نقول بأن عصبة الامم التي كانت تمثل الدول الكبرى والاستعمارية بعـد الحرب العالمية الاولى كانت تتنكر لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها . وهذا ما حدث بالنسبة لشعب فلسطين من بين شعوب كثيرة اخرى . وما فعلته الامم المتحدة سنـة ١٩٤٧ ليس الا استمرارا لما فعلته العصبة . انه انكار حق شعبنا في تقرير مصيره ، واعطاء الشرعية الدولية لاحتلال ارضه .

وتحاول الامم المتحدة اليوم ان تطبق القرار رقم ٢٤٢ الذي لا يعترف اصلا بوجـود الشعب الفلسطيني . كما أن هناك محاولات تجري لاقناع شعبنا بأن حقوقه القومية المشروعة تتلخص في قرارات سنة ١٩٤٧ . كما ان هناك محاولات اخرى تحاول ان تقنع شعبنا بأن حقوقه القومية المشروعة هي الحقوق الممكنة في مرحلة تاريخية معينة ، وهي الان حقوقه في الضفة الغربية وغزة .وهناك حقوق تاريخية واخرى راهنة . ان هذه الاطروحة باطلة اساسا لان الحق لا يتجزأ ، الى ما هو تاريخي وما هو راهن ، وخاصة اذا كان من الحقوق القومية .

أما ما نريد قوله الان فهو ان الامم المتحدة ، ابتداء من العصبة وحتى اليوم ، ظلت محصلة قوى الدول الكبري ، وانها لذلك ظلت تخضع الحقوق القومية لكل الشعـوب لمصالح القوى المسيطرة عليها . ولقد جعل هذا اطروحاتها النظرية تختلف كثيرا عن حصيلة تدخلاتها العملية ، وعن ممارسات اعضائها والكبار منهم خاصة .

ولقد اثبتت التجارب خلال الخمسين سنة الماضية ان الذي يحسم قضايـا تحرر الشعوب ، هو قوتها الذاتية اولا ، والمساندة التي تأتيها خارج الامم المتحدة ثانيا . هكذا انتزعت الشعوب حقوقها القومية في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ولم يتحرر شعب واحد عن طريق الامم المتحدة . وحيث تدخلت الامم المتحدة تدخلا مباشرا حصلت مآس مرة ، كما هي الحال في فلسطين مثلا ، وفي الكونغو . ولم تكن قرارات التأييد او الادانة التي تصدرها الامم المتحدة اكثر من قرارات ذات تأثير معنوي محدود . أن الامم المتحدة لم تستطع حتى الان انتجبر دولة الاحتلال الصهيوني على تنفيذ قرار واحد من قراراتها الكثيرة الخاصة بفلسطين .

ان شعبنا يدرك هذه الحقيقة جيدا .

ولقد كان موقف شعبنا من حقوقه القومية واضحا منذ البدء ، وتجلى خلال المراحل المختلفة بمواقف واضحة وسليمة .

ففي المرحلة الاولى : ١٨٩٧ ـــ ١٩١٧ ـــ وقف شعبنا ضد هذه الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، باعتبار ان هذه الهجرة ستقود الى الهلاك والفناء .

وسنورد هنا بعض ابيات للشاعر الاديب اسعاف النشاشيبي حول هذه القضية كتبها سنة ١٩٠٩ ، يقول الشاعر :

ان الاستعمـــار قـد جـاز المـدى — دون ان يعدوه عـن سـير عـــداء
ان هـــذا الـداء قـد أمسى عيـاء — فتلافـــوه سريعـــا بالـــدواء
انهـــا اوطـانكم فاستيقظـــوا — لا تبيعوهـا لقـــوم دخـــلاء
كيـف ترجـــون حيـــاة بعدهـــا — ونعيمـا وهنـــاء وصفـــاء
فاعلمـوا يـــا قـــوم أن تعلمـوا — ان عتبـــاكم هـــلاك وفنـــاء(٣٧)

ومن أجل مقاومة بيع الاراضي للصهيونيين نظمت العرائض وتحركت الوفود ، وكتبت الصحف . والذي يراجع صحف هذه المرحلة يلمس هذه الحقيقة بوضوح . ويكفي ان نشير هنا الى صحيفة الكرمل لصاحبها : نجيب نصار(٣٨) . وكانت التعبئة السياسية ، في هذه المرحلة تسير في اتجاهين : اولهما : الضغط على السلطات العثمانية لمنع الهجـرة الصهيونية الدائمة ، ولمنع بيع الاراضي في فلسطين ، ثانيهما : استخدام كل وسائـل التأثير المعنوي لاقناع الشعب بخطورة بيع الاراضي للصهيونيين .

اما في المرحلة الثانية ١٩١٧ ــ ١٩٤٧ ، فقد ركز شعبنا نضاله على ما يلي :

١ ــ مقاومة السياسة البريطانية في فلسطين ، سياسة الاحتلال ووعد بلفور وصك الانتداب .

٢ ــ مقاومة السياسة الصهيونية في فلسطين ، وهي سياسة الهجرة والتوســع الاستيطاني وبناء « الوطن القومي اليهودي » .

وكانت مطالب الشعب الفلسطيني واضحة كل الوضوح :

١ ــ المحافظة على عروبة فلسطين مهما كلف الامر .

٢ ــ قيام حكومة وطنية ، مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخب اعضاءه الشعب، ويكون جميع المواطنين فيها متساوين أمام القانون .

وقد رفضت كل محاولات التقسيم ، حتى قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، وكان الاستقلال الوطني والمحافظة على وحدة الاراضي الفلسطينية وعروبتها مطالب لا تتحـــول ولا تتبـــدل(٣٩) .

واكد شعبنا في المرحلة الثالثة (١٩٤٨ ــ ١٩٧٣) مواقفه في المرحلتين السابقتين ، على الرغم من ان الظروف تغيرت . لقد قامت دولة الاحتلال الصهيوني على ما يقارب ثمانين بالمائة من اراضي فلسطين ، وشرد شعبنا من معظم الاراضي التي احتلتها قوات الاحتلال الصهيوني ، واخضع ما تبقى منه للقمع والاضطهاد في الضفة الغربية وغزة . ومع ذلك ظل شعبنا مصرا على رفض قرارات الامم المتحدة ، وعلى مقاومتها . ودفع شعبنا من سنة ١٩٤٩ الى سنة ١٩٦٥ تضحيات كبيرة من اجل المحافظة على القضية حية ، ومنع القوى العالمية والعربية من تصفيتها .

وانطلقت ثورتنا سنة ١٩٦٥ ، في الاول من كانون الثاني ، مجددة العزم على تحرير الارض كاملة ، متحدية قوات الاحتلال الصهيوني والقوى العربية المضادة للثورة . ولقد خيب شعبنا بانتفاضته آمال كل الذين ظنوه انهار واستسلم .

وحين وقعت حرب حزيران ، وتوسع العدو الصهيوني محتلا اراض جديدة ، هب شعبنا الى السلاح مؤكدا عزمه واصراره على مواصلة الكفاح . ولم يعر أي اهتمام للامم المتحدة ومجلس الامن والقرار رقم ٢٤٢ ، لانه كان يعرف ان النضال وحده هو طريق الخلاص ، وهو طريق تكريس حق تقرير مصيره على ارضه محررة وكاملة .

ولقد استعاد شعبنا بنضاله المجيد اعتراف العالم بوجوده وبحقوقه : كما نال احترام العالم بعد أن كان لا يثير شفقته .

ولكن « العالم » ما زال غير متفق على مضمون حقوق شعبنا ، فهي بالنسبة للامم المتحدة والدول العظمى والدول الاوروبية تتمثل في « حل » يكون في أحسن الاحوال على جزء من الاراضي الفلسطينية ، ولكن ضمن تسوية دولية تضمن المحافظة على الكيان الصهيوني المحتل الذي قام باغتصاب الاراضي الفلسطينية وانتهاك كل الحقوق القومية والانسانية لشعبنا .

وبالنسبة للامم المتحدة فان قراراتها العديدة جعلت حقوق الشعب الفلسطيني تتراوح بين التقسيم ، اي قيام دولة فلسطينية على جزء من التراب الفلسطيني ودولة احتلال صهيوني على الجزء الباقي ، وبين تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، وبينهما يقف قرارها بضرورة منح حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني (١٩٧٠) .

ولكن شعبنا ظل مصرا دائما ان حقوقه القومية تعني :

١ ــ المحافظة على وحدة اراضيه .

٢ ــ المحافظة على عروبتها ، وعلى كونها جزءا من الوطن العربي .

٣ ــ رفض فكرة اقامة وطن قومي صهيوني عليها ، ومقاومة كل محاولات الاستيطان الصهيوني لفرض وجوده بالقوة او الاقناع ، أو اية وسائل اخرى .

٤ ــ المطالبة بالاستقلال الوطني ، وبحق اقامة المؤسسات الدستورية المعبرة عن مطامح الشعب .

٥ ــ مقاومة الحلول التي تنتقص من الحقوق القومية ، سيان في مجال المحافظة على البلاد وعروبتها او مجال وجود حد ادنى من السيادة الوطنية والاستقلال الوطني يكفل بقاء البلاد موحدة عربية ، ويسقط فكرة الوطن القومي الصهيوني . وعندما قام هذا الوطن رفض كل مشروع يكرسه او يعطيه الشرعية .

ان موقف شعبنا هذا ينسجم مع مبدأ حق الامم في تقرير مصيرها ، في حين تقوم فكرة حصر حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على جزء من وطنه فقط على انتهاك هذا المبدأ الذي ينص على حق الشعب في تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني . اما من الجهة الاخرى فان هناك انتهاكا آخر لمبدأ حق تقرير المصير ، وهو التدخل الدولي الخارجي في هذه المسألة من خلال فرض تسوية واتفاقية دوليتين ، مع ان مبدأ حق تقرير المصير يشترط ان يقرر الشعب مصيره على أرضه دون أي تدخل خارجي . وهذا الشرط دفعت الشعوب ثمنه غاليا ، وكرسته من خلال التضحيات الكبيرة .

ولقد ظل شعبنا خلال نضاله الطويل حذرا من سياسة التسويات البريطانية او الدولية ، لانه كان يدرك خطورة هذه السياسة على حقوقه ومستقبله . ولم يكن شعبنا يجهل ان هذه التسويات تفرض واقعا له قوته المادية والمعنوية . وما زال شعبنا يدرك هذه الحقيقة . ولعل تقسيم الوطن العربي الى دول أحسن مثل ملموس على خطورة الواقع المادي الذي ينجم عن التسويات الدولية .

ان نظريات الحقوق القومية قد وضعت لمجابهة ظروف الاحتلال الخارجي او الطغيان الداخلي ، او الاثنين معا ، ولمواجهة مشاكل العلاقات القومية في الامبراطوريات المتعددة القوميات مثل روسيا القيصرية . وليس ما حل بفلسطين من ضمن هذه الحالات . انه يمثل وضعا آخر ، وحالة اخرى : هي حالة طرد شعب من وطنه واحلال « شعب » آخر مكانه بالقوة ، وحرمان هذا الشعب ، لا من حقوقه القومية فحسب ، بل من ابسط

حقوق الانسان . ان نظريات الحقوق القومية لم تناقش هـذه المسألة ، بل ناقشت الحالات الاقل بشاعة : الاحتلال والطغيان والالحاق الخ . . .

ولقد أدانت الاممية الثالثة الحركة الصهيونية سنة ١٩٢٢ على اعتبار انها تسعى لاقامة دولتها على حساب شعب آخر(٤٠). ولكن هذه القضية لم تناقش ، ولم تعط من الاهتمام بعض ما تستحق . ثم ان الموافقة على قرار التقسيم لا تنسجم مع هذا المبدأ . ذلك ان قرار التقسيم حاول ان يعطي الاحتلال شرعية دولية وما زال الدفاع عن وجود دولة الاحتلال الصهيوني متناقضا مع أبسط المبادىء التي طرحتهـا الثورتان القومية والبرولتارية . واذا كان الاحتلال مرفوضا ومتعارضا مع حق تقرير المصير فكيف يكون الاحلال مقبولا ومنسجما مع حق تقرير المصير ؟

ان الاحلال هو أبشع أشكال الاحتلال ، وهو يتضمن لا انهاء حرية الشعب وحقه في تقرير مصيره فحسب ، بل انهاء وجوده ايضا . والاحلال لا يتم الا بالقوة ، ولا يستطيع أن يبقى الا بالقوة ما دام الشعب الذي تعرض له موجودا ، وعليه فان مقاومة الاحلال وتصفيته لا تتمان الا بالقوة . الصراع المسلح هنا هو الاساس في هذه المعادلة . وهكذا يصبح حق الشعب في أن يقاتل لاستعادة أرضه جزءا أساسيا من حقوقه . واذا كان تحديد الحدود القومية واختيار شكل الدولة هو أساس النظرية القومية البرجوازية ، وتقرير حق الانفصال ورفض الالحاق وتقرير حق الشعوب في تقرير مصيرها دون تدخل خارجي هو جوهر النظرية اللينينية في هذا المجال ، فان انهاء الاحلال ، اي تدمير الوجود الصهيوني وعودة الوجود القومي الاصلي الى فلسطين هو جوهر حـق تقرير المصير مطبقا على وضع مثل وضعنا .

---

١ — حسين علي الحبيشي : **تقـرير المصير** ، دراسة مقارنة ، دار الكاتب العربي ، ص ١٣ .

٢ — **المرجع السابق** ، ص ١٥ .

٣ — G. Starushenko, *The Principle of National Self Determination In Soviet Foreign Policy*, Moscow, p. 32.

٤ — دان ليسي : **الثورة الاميركية ، دوافعها ومغزاها** ، ترجمة سامي ناشد ، الناشر سجل العرب ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

٥ — **المرجع السابق** ، الجـزء الثاني ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

٦ — د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق : **دراسات في القومية مع هيكل نظرية تفسيرية في القومية العربية** : دار الفكر العربي . تحرر الشعوب في علاقتـه بفكرة القوميـات ، م. ردسلوب ، ص ٤٤ .

٧ — هانز كوهن : **عصر القومية** ، ترجمة عبد الرحمن صدقي ، ص ١٣ .

٨ — A. J. Grant, and H. Temperly, *Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries* 1789 - 1950.
الطبعة التاسعة ، ص ٢٣ .

٩ — حسين علي الحبيشي : **المرجع السابق** ، ص ٣٣ .

١٠ — G. Starushenko, *Ibid*, p. 32 - 33.

١١ — البير سول : **تاريخ الثـورة الفرنسية : دوافعها الفكريـة والطبيعية والاقتصاديـة** ، منشورات عويدات ، ص ٢٤٨ .

١٢ — د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق : **المرجع السابق** ، ص ٤٥ .

١٣ — **المرجع السابق** ، ص ٤٩ — ٥٠ .

١٤ —**المرجع السابق** ، ص ٥١ — ٥٢ .

١٥ — G. Starushenko, *Ibid.*, p.p. 39 - 42.

١٦ — هوراس ديفيس : **المرجع السابق** ، ص ١٧١ .

١٧ — **المرجع السابـق** ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ٢٣٠ — ٢٣١ .

١٨ — ستيوارت شرام وهيلين كارير دنكوس : **الماركسية — اللينينية امام مشاكل الثورة في العالم غير الاوروبي** : دار الحقيقـة ، ص ٢٥ — ٦٤ .

١٩ — G. Starushenko, *Ibid.*, p. 94.

٢٠ — *Ibid.*, p.p. 120 - 121.

٢١ — *Ibid.*, p. 102.

٢٢ — *Ibid.*, p.p. 50 - 51.

٢٣ — *Ibid.*, p.p. 193, 180.

٢٤ — حسين علي الحبيشي : **المرجع السابق** ، ص ٧٣ — ٧٤ — ٧٥ .

٢٥ — G. Starushenko. *Ibid.*, p. 137.

٢٦ — حسين علي الحبيشي : **المرجع السابق** ، ص ٨٥ .

٢٧ — دراسات فلسطينية ، المجلد رقم ١ ، **فلسطين تحت الانتداب (١٩٢٠ — ١٩٤٨)** ، سامي هداوي ، ص ٢٣ — ٢٤ .

٢٨ — **المرجع السابق** ، ص ٨٦ .

٢٩ — **قرارات الامم المتحدة حول فلسطين (١٩٤٧ — ١٩٧٢)** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص ٤ — ١٣ .

٣٠ —**المرجع السابق** ، ص ١٥ .

٣١ — **المرجع السابق** ، ص ١٧ .

٣٢ — **المرجع السابق** ، ص ٨٨ .

٣٣ — **المرجع السابق** ، ص ٩٠ .

٣٤ — **المرجع السابق** ، ص ٩٣ .

٣٥ — هنري كتن : **تقسيم فلسطين من الوجهة الحقوقية** ، ترجمة نجاة قصاب حسن، منشورات نقابة المحامين في دمشق .

٣٦ — حسين جميل : **بطلان الاسس التي اقيم عليها وجود اسرائيل** .

٣٧ — خليل بيدس : **النفائس العصرية** ، السنة الثانية ، المجلد الثاني ١٩٠٩ ، ص ٥٧٦ — ٥٧٧ .

٣٨ — نجيب نصار : **الكرمل** ، حيفا ، ١٩٠٨ — ١٩١٤ .

٣٩ — **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨ — ١٩٣٩)** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، جمع وتصنيف الدكتور عبد الوهاب كيالي .

٤٠ — ناجي علوش : **الماركسية والمسالة اليهودية** ، دار الطليعة .

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية

(١٨٨٢ — ١٩٤٨)

بقلم

ناجي علوش

٢٩٣ صفحة بأربع ليرات لبنانية ، تضاف اليها اجور البريد الجوي : ٥٠ ق. ل. في العالم العربي ، ١ ل. ل. في اوروبا ، ٢٥٠ ق. ل. في سائر الدول .

اطلبه من مركز الابحاث — قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت .

المقاومة الفلسطينية ومهامها الوطنية الكفاحية الراهنة

سعيد جواد

حركة التحرر الفلسطينية معنية تماما بالدرس الذي تسجله هذه الموضوعة ... « ان هذا الحزب [الاشتراكيين الثوريين] ، قد رفض بعناد (او قل الاصح انه لم يستطع) ان يفهم ضرورة اجراء حساب موضوعي دقيق للقوى الطبقية وللنسب فيما بينها ، قبل مباشرة أي عمل سياسي » .

« لينين ١٩٢٠ »

في تعليقه على الحوار* يلخص محمود درويش جوهر الموضوع : « ليس الضمير الفلسطيني موضع المناقشة ، انما قدرة العقل الفلسطيني على الخروج من مرحلة الى اخرى باحسن الاجتهادات الممكنة على طريق تحقيق اهدافه المشروعة » وبصياغه أكثر تحديدا : ان الحقوق والاماني الوطنية الشرعية والتاريخية ، والاهداف الاستراتيجية البعيدة للثورة الوطنية والتي هي خلفية الضمير الفلسطيني ومعين منابعه الضاربة في عمق تراب الوطن ، غير قابلة للنقاش على الاطلاق ، ولا يملك احدا أيا كان مناقشة حتميتها التاريخية ، او امكانات تحقيقها او الاجتهاد فيها وهي ليست موضوع حوار الندوة او اي حوار آخر .

ان قيادة المقاومة ، وقيادة حركة التحرر الفلسطينية ، والعقل الفلسطيني عمومـا ، أمام ضرورة ومهمة تكثيف المحاكمات العقلية المرتكزة على التحليل الموضوعي لعناصر الواقع وحقائقه وتعيين طبيعة القوى المحركة فيها والمؤثرة ، الظاهرة والكامنة ، الرئيسية والثانوية ، ودور كل منهما في عملية الصراع . وبالضبط **القوى الفاعلة** التي تتشكل منها ادوات الانتقال من مرحلة كفاحية الى مرحلة كفاحية ارقى ، والى مواقع أكثر ثباتا ، تساعد في امتلاك وسائل نضالية اكثر فاعلية وملاءمة .

هذه المحاكمات للواقع ، والمواجهة الجريئة لحقائقه الموضوعية ، هي التي تمكن بالنتيجة حركة التحرر الفلسطينية من توظيف العناصر الايجابية في الصراع التي خلقتها حرب تشرين لتغيير معطيات الواقع القائم ولخدمة الاهداف الوطنية الراهنة التي تمكن **فعلا** خطوة بعد اخرى ومرحلة بعد مرحلة من تحقيق الاماني والاهداف الوطنية الشاملة ، بعد أن تتمكن من المساهمة في انضاج شروط وعناصر قواها المادية المحركة.

لقد شكلت وقائع وحقائق حرب تشرين وتحديات ما بعدها ، والاجتهادات المختلفة التي نتجت عنها سببا لعقد ندوة قيادة المقاومة وأساسا للحوار والمداخلات التي ساعدت في النتيجة على تقريب وجهات النظر المختلفة ، وذلك بتكثيف عناصر منطلقاتها المشتركة،

---

* ترتكز هذه المقالة على الندوة التي عقدها قادة المقاومة الفلسطينية ونشرت في « شؤون فلسطينية » العدد ٣٠ .

ومحاصرة الاجتهادات المختلف عليها ، وترسيبها او دفعها الى الوراء ، ان ما ترتب ويترتب عليها من الاستنتاجات السياسية المشتركة لمواجهة المعضلات الراهنة التي تتصدى لها حركة التحرر الفلسطينية ، يشكل خطوة عريضة على طريق الوحدة الفكرية والسياسية الكفاحية بين مختلف فصائل حركة المقاومة ، والتي هي بلا شك **السلاح الامضى والمجرب والاكثر فاعلية** في هذه المرحلة من الصراع .

ولكي يمكن الربط بين التشخيصات المختلفة للظواهر المتعددة التي اعطتها الحرب او فتحت احتمالاتها وتناولها الحوار ، يجب فحص وتحليل تلك الظواهر واستكشاف **الارضية التي تنتمي اليها** . وعندها فقط يمكن الانتقال الى تعيين **النتائج السياسية الجوهرية المشتركة** التي تترتب عليها . ومن ثم الاشكال الكفاحية الي تستلزمها . وهو ما يمكن بالتالي من التعرف على الافاق التي تتحرك باتجاهها .

اولا : تحليل وتقييم معطيات وحقائق حرب تشرين :

لقد بات من الواضح ان الحقائق الموضوعية والمعطيات التي خلقتها حرب تشرين سواء ما اصبح منها واقعا قائما، او ما هو في طور التفاعل، في المجتمع العربي او في دوراتها العالمية ، او تأثيراتها في مواقع الاهتزاز التي خلقتها المعارك في «مجتمع ودولة» اسرائيل لم تستكمل بعد أشكالها النهائية بل هي متفاعلة ابدا . ومن استقراء حوار الندوة ، وخلفياتها ، يتأكد ان هناك وعيا وفهما مشتركا لاهمية تشخيص تلك المعطيات ودراستها وتحليلها وبالتالي استخلاص النتائج السياسية والكفاحية المترتبة عليها .

يلخص نايف حواتمه في مداخلته ابرز وقائع الحرب **وافعلها تاثيرا** في عناصر الصراع الموضوعية **الراهنة** والمباشرة كالتالي «شبه التوازن العسكري العربي الاسرائيلي ، هز نظرية الامن الاسرائيلية الحاق ضربات موجعة بالقوى الحية العسكرية الاسرائيليةوآلات الحرب العسكرية الاسرائيلية الامبريالية ، دخول الجيوش العربية في قتال حديث حي وفعلي وبروز امكانية استخدام الاسلحة الحديثة بفعالية ، بروز دور السلاح بيد العرب ... شبه الانتفاضة الشعبية الشاملة في الاراضي الفلسطينية المحتلة ضد الاحتلال الصهيوني ... استخدام سلاح النفط ضمن الحدود التي استخدم بها ، حالة عالمية ضاغطة باتجاه حل مشكلة الصراع العربي ــ الاسرائيلي . » [شؤون فلسطينية عدد ٣١] اضافة الى جملة التغييرات الايجابية العالمية لصالح العرب باتجاه تطبيق القرارات الدولية .

ان اهمية تشخيص هذه الحقائق والوقائع* تنبع من كونها ذات تأثيرات وفاعلية **مباشرة** في معضلات الصراع ، كونها قد خلقت شروطا موضوعية لصالح حركة التحرر العربية والفلسطينية. ولكن من بين ما خلقته ايضا ضغطها «باتجاه تسوية يمكن انتحقق انسحابات من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ » . من هنا فان قادة فصائل المقاومة قد اتخذوا من هذه الوقائع ذات **الفعل المباشر** في الصراع اساسا للحوار لتحليل الشروط العينية لمرحلة ما بعد تشرين ، وتعيين المهام الكفاحية الراهنة لحركة التحرر الفلسطينية. تلك المهام التي يمكن النضال من أجلها من توظيف العناصر الايجابية التي خلقتها الحرب في خدمة المهام الوطنية المباشرة والاستراتيجية ، ومواجهة تحديات عناصر التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية ومحاورها .

اما جورج حبش فيتناول ظواهر ومؤشرات اخرى ، ويشدد عليها ، وكما هي عندما يتقدم الحوار نتائج واجتهادات متعارضة في بعض منها مع نتائج واجتهادات قادة

---

* اضافة الى تعيين اهمية المؤشرات العامة ودورها في تفاعل الوقائع والحقائق ذات التأثير المباشر في الصراع .

الفصائل الاخرى . ولكن ارتباطها بالمعضلات التاريخية نفسها والمنطلقات اياها هي السمة العامة والثابتة التي تميزها . ومن هنا فان محاولة الحرث في العمـق وتحليل الموضوعات الرئيسية في الحوار يساعد على تعيين **الارضية المشتـركة** بين التحليل الموضوعي العلمي ، وتحليلات قيادة فصائل المقاومة وتصورات وآراء جورج حبش ، في محاولة جادة لمحاصرة تعارض الاجتهادات الذي لا يرتكز علـى أسس موضوعيـة وتصفيته . عندها يمكن الوصول الى تحديد دقيق للعناصر الاساسية والثابتة والملموسة التي ترتكز عليها المهمات الكفاحية الوطنية المرحلية ، تبعا لمعطيات الحرب وفي مواجهة تحدياتها .

وقبل أن نبدأ بمناقشة « تصوراته » وتشخيصاته وآرائه ، لا بد من ان نثبت قاعدة تصلح كأساس مشترك للحوار بين كل الوطنيين والثوريين ، وقد اقترحها حبش في سياق حديثه والقائلة بـ « ان الحوار الطويل والصبور والموضوعي ممكن » واعتقد انه ممكن، لكي يمكن الوصول الى استنتاجات سياسية وكفاحية مشتركة .

١ ـ معطيات حرب تشرين . أ ـ حول صحة المشروع الصهيوني : يقول جـورج حبش ان « حرب تشرين رسمت لاول مرة علامة سؤال ، ولو صغيرة جدا ، في ذهن الجماهير العربية حول صحة المشروع الصهيوني من أساسه » وكذلك « علامات الاسئلة الصغرى التي بدأت ترتسم داخل المجتمع الاسرائيلـي نفسه حول صحـة المشروع الصهيوني من أساسه » ثم يستشهد بمجموعة من الاسئلة التي طرحت من قبل فريق من الطلاب اليهود بعد الحرب ، من نوع « هل هذه مثلا أرضنا » و« هل قضيتنا عادلة وحقة » و« ألم نحقق اهدافنا على حساب ومطامح شعب آخر » [ص ٥١] . هذه التساؤلات المهمة جدا ، والمؤشرات التي ظهرت فعلا خلال الحرب وبعدها ، هل يكفي الوقوف عندها بهذه الصيغ العمومية ، وهل يمكن علـى أساسها صياغة مهمـات وسياسات مرحلية مباشرة . ان ما يهم حركة التحرر الفلسطينية واية حركة وطنية وديمقراطية ثورية ، وهي بصدد تحديد طبيعة مرحلة معينة تمر بها وصياغة مهماتها الكفاحية ، على ضوء معطيات الواقع ، كمعطيات تشرين ، هو ان تحدد وبالضبط : الحقائق والوقائع العسكرية والسياسية والاقتصادية في قوى وجبهات المواجهة العربية ـ الاسرائيلية الامبريالية ، وقوى ومؤشرات الصراع والواقع الدولي وما تمثله فعلا من قوى فاعلة ومؤثرة بشكل مباشر في معضلات الصراع المباشرة*.

هذا التحديد لفعل الوقائع والحقائق المباشرة ، هو الذي يمكن من تحديد البرامج والسياسات الفلسطينية التي تساعد على ترجمة القناعات الجديدة في صفوف الجماهير العربية والفلسطينية وبلورتها حول مهمات كفاحية وطنية محددة ، « تكسر » احـلام اسرائيل « التاريخية » وتثبت خطأها بالواقع والملموس ، وتحول بالنتيجة دون جهود القيادات الاسرائيلية لامتصاص واستيعاب تساؤلات الاسرائيليين وتشكيكاتهم المتزايدة . هذه البرامج والسياسات هي التي تؤدي الى ترجمة التساؤلات والتشكيكات في صفوف الاسرائيليين الى برامج وسياسات اسرائيلية تراجعيـة و« واقعية » تتمحور حولها القوى السياسية والاجتماعية لتصاغ بالتالي في وثائق جديدة تقوم على انقاض وثيقة الاربعة عشر بندا ، كما هي بدورها نقضت « وثيقة غاليلي » الحالمة . وفي الوقت الذي تتصدى فيه برامج وسياسات اسرائيل « الجديدة والمعدلة » لمواجهة برامج وسياسات

---

* الى جانب ذلك معنية باستشرافها للافاق المستقبلية التي سوف تؤول اليها التساؤلات والمؤشرات العامة (علامات الاستفهام) على المدى الوسيط والبعيد ، وكيفية توظيفها في البرامج الكفاحية المرحلية لتجسيدها وانتظامها في خدمة المهمات الكفاحية الاستراتيجية .

المهمات الكفاحية المرحلية لحركة التحرر الفلسطينية ، عندما تصبح معبرة عـن قوى موضوعية مؤثرة بشكل مباشر وفاعل في عمليـة الصراع ، اي احدى قوى الصراع الفاعلة ، عندها يكون من الصعب ، بل من المستحيل القضاء عليها ، او اقصاءها ، او تجاوز واقعها الموضوعي الذي يكون قد اكتسب شرعية دولية هـي ثمرة شرعيتـه الكفاحية ، عربيا ودوليا وموضوعيا بالنسبة لاسرائيل .

ان هذا التجسيد والتطور الموضوعي لتساؤلات الجماهير العربيـة والفلسطينية وقناعاتها ، وتشكيك الاسرائيليين واهتزاز قناعاتهم بمرتكـزات اسرائيل وسياسـة حكامهم ، يفرض بالنتيجة على برامج وسياسات الكتل والاحزاب الرئيسية المؤثـرة فيهـا وبالتالي سياسة الحكومة الرسمية كمحصلة لتوازن القوى ، تراجعـات متتالية لصالح حركة التحرر الفلسطينية ، تصب في خدمة اهدافها الوطنية ، وتمكن من اجبار اسرائيل على التراجع، وانجازها فعلا ، وهذا ما يسرع بالنتيجة في عملية الانتقال الى مواقع ومرحلة متقدمة في الصراع .

ب ـ استعدادات الجماهير العربية للعطاء بهدف تحرير فلسطين : « استعدادات جماهيرنا من المغرب حتى شرق الجزيرة العربية ، استعداداتها العالية جدا للعطاء من أجل هذا الهدف ، هدف تحرير جزء من الارض العربية ، هدف تحرير فلسطين » [ص ١٦] . الجماهير العربية والفلسطينية بمجموعها تتشكل منها حركة التحرر العربية والديمقراطية . وحرب تشرين أكدت ان استعدادات الجماهير للعطاء مهما بلغت درجتها لا تستطيع التحليق خارج القوانين التي تحكم مواقع وأدوار جناحي حركة التحرر العربية في الثورة الوطنية الديمقراطية والثورة الاشتراكية ، والتصدي لكل من مهمتي الحرب الوطنية وحرب الشعب الطويلة الامد . وبالرغم من الشروط الشديدة الخصوصية التي تجعل من المسألة الفلسطينية على رأس مهمات جناحي الحركة ومواجهـة اسرائيل وتربط عضويا بمعضلات الثورتين الوطنية والاشتراكية ، فان الحرب الاخيرة قد أكدت موضوعات ودروس لتمييز المهام الكفاحية وخصائص مراحلها . ان الدروس التي أكدتها الحرب لا يجوز على الاطلاق اغفالها في مرحلة مواجهة نتائج الحـرب وتحدياتها او في مراحل الصراع اللاحقة التي فتحت الحرب آفاقها . لان اغفالها ، او القفز من فوقها **لا يلغي وجودها** ، وتجاوز دروسها لا يمكن أبدا أن يساعد على توضيح الرؤيا . من هنا فان القول باستعدادات الجماهير العربية العالية للعطاء من أجل هدف تحرير الارض العربية وهدف تحرير فلسطين هو قول يفهـم منه : اولا ، ان المسألة هـي مسألة استعدادات وقناعات فحسب . ثانيا : استعدادها [الجماهير العربية] لانجاز هدفين، يرتبطان بمرحلتين تاريخيتين*، ويتصدى لانجازهما جناحا حركة التحرر العربية بقيادتين مختلفتين في الطبيعة والبرامج والمهمات والاشكال الكفاحية ، دون تحديدات وفواصل تاريخية ، ودون تحليل لطبيعة العلاقة بين الجماهير وتعبيراتها وقياداتها الطبقية .

لقد خاضت حركة التحرر بقيادتها الوطنية الرسمية (الانظمة) حربا وطنية محدودة بهدف معلن هو « تحرير الارض العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ » ، وتوقفت الحرب قبل أن تتمكن من انجاز هدفها المعلن . امـا الحركة الديمقراطيـة والثورية (العربية والفلسطينية) والتي هي فحسب التي تتمكن من التصدي لانجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية الناجز ، وتوفير شروط الحرب الشعبية الطويلة الامد وخوضها

---

* لا مجال هنا لمناقشة تداخل مهام الثورتين . الا ان الحرب قد اكدت ، ان القيادة الوطنية لا تستطيع حتى انجاز حرب وطنية ناجزة . وهذا التأكيد هو الوجه الثاني لعدم قدرتها على انجاز مهمات الثورة الوطنية الاخرى ، الاقتصادية والسياسية .

حتى اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على كل التراب الفلسطيني ، فان موازين القوى الوطنية والطبقية الراهنة لم تمكنها من قيادة الثورة والحرب .

لقد أكدت وقائع الحرب الاخيرة ومسيرتها بشكل قاطع ، ان استعدادات الجماهير العربية والفلسطينية العالية للعطاء ، وبرامج الثورة الفلسطينية للتحرير الكامل القائمة على أساس المراهنة على تحويل الحرب الوطنية الى حرب شعبية طويلة الامد، **لا يمكن ان يغير شيئا من طبيعة الحرب الوطنية** التي تخوضها القيادات الوطنية لحركة التحرر العربية (الانظمة) بل حتى التأثير في حدودها وأهدافها المحدودة . من هنا فان هدف التحرير الكامل يرتبط بتوفير شروط قيام واستمرار الحرب الشعبية الطويلة الامد ، وهو هدف لا يمكن انجازه الا بنمو القوى الطبقية المحركة لاستراتيجية حرب التحرير الشعبية العربية كأداة لتحقيقه . أي نمو القوى الطبقية المحركة للثورة العربية ، جناحا حركة التحرر العربية ، وتصديها لقيادة وانجاز مهام الثورتين المتداخلة .

وبالرغم من قناعات الجماهير ونواياها ، واستعداداتها العالية للعطاء والقتال ، فان **قيادة الحرب** (المصرية بشكل خاص) هي التـــي قادت الحرب ، **وحكمت وتحكمت في مسارها** ، طبقا لما تعنيه طبيعتها الطبقية وبرامجها العسكرية والاقتصادية والسياسية. ولا يزال دورها رئيسيا وحاسما في التعامل مع نتائجها وتحدياتها .

هذه القيادة الوطنيـــة لا تستطيع التعبير عـــن قناعات الجماهـــير ولا تستوعب استعداداتها ، بل **ومنعتها** باصرار من المساهمة في التحضـــير للحرب ، او الاشتراك بالقتال فيها . وبعد أن اوقفت الحرب المحدودة ، دون تحقيق اهدافها ، بدأت التحرك باتجاه تسوية سياسية على أساس القرار ٢٤٢ وبالاعلان عن المراهنة على تطويره تجاه المسألة الفلسطينية . اما قيادات الحركة الديمقراطية والثورية التي تعبر برامجها عن قناعات الجماهير وطموحاتها الكاملة ، وهي المعنية باستيعاب استعداداتها وتعبئتها وترجمتها في مهمات كفاحية استراتيجية ومرحلية ، بينها خوض الحرب والصراع الى نهايته ، هذه القيادات لم تمكنها درجات التطور وموازين القوى الوطنية والطبقية من استلام السلطة السياسية والتصدي لمهام الثورة وقيادة الحرب . ومن هنا وتبعا لشروط هذه المرحلة فهي تناضل على اساس ما هو مشترك مع القيادات الوطنية ، وتأييدها في حدود برنامج تحقيق الانسحاب الاسرائيلي الكامل غير المشروط مـــن الاراضي العربية والفلسطينية وانتزاع الحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطينـــي دون التزامات واشتراطات من جهة **والتصدي** لتراجعاتها وتقليصها او ايقافها . وكل خطوة تراجعية للانظمة الوطنية على هذا الطريق تفتح آفاق معارك وطنية وطبقية متصاعدة .

اما حركة التحرر الفلسطينية بقيادتها الوطنية **ونواتاتها** الديمقراطية فهي ليست معنية فقط ، بتعيين أهميـــة مؤشرات القناعـــات الجديدة في صفوف الجماهـــير العربيـــة واستعداداتها العالية للعطاء وتحليل ومتابعة أثرها وفاعليتها في عناصر الصراع مع اسرائيل في المديين البعيد والمتوسط ، بل وبالضبط بما يمكن **ترجمته الى واقع موضوعي فاعل** ومباشر في الصراع ، وبالنضال المشترك وعلى أرضية برنامـــج كفاحي مرحلي مشترك للتعامل مع معطيات تشرين الايجابية والتصدي لتحدياتها .

جـ ـــ الوحدة الوطنية العربية والفلسطينية من خلال التصادم المسلح مع العدو :

« أفرزت حرب تشرين كيف أن الوحدة الوطنية العربية والفلسطينية تتم بشكل متين ، ومتين جدا ، من خلال حالة التصادم بحده الاعلى ، التصادم المسلح مع هـــذا العدو الغاصب » [ص ١٦] . هذه الحقيقة الثابتة ، ماذا يعني كونها احدى معطيات تشرين. وكيف يمكن أن تكون احدى الادوات لتوظيف النتائج الايجابية للحـــرب لصالح حركة التحرر العربية والفلسطينية وفي مواجهة تحدياتها .

ــ **الوحدة الوطنية الفلسطينية والعربية**: ان الحقيقة التي سجلتها حرب تشرين بهذا الصدد هي : بالرغم من الوحدة الوطنية العربية والفلسطينية التي تمت بمتانة ، واشتراك حركة المقاومة في الحرب منذ انطلاقها وبكل طاقاتها فان فاعلية الوحدة الوطنية الفلسطينية ومن خلال المساهمة في الحرب **لم تتمكن** على الاطلاق من التأثير الفاعل في **مسيرة** الحرب **وقرار استمرارها او توقفها** . ذلك ان الوزن العسكري والسياسي والاقتصادي للحرب هو في **قبضة** قيادتها الوطنية وبالاخص قيادتها المصرية . اما فاعلية الوحدة الوطنية العربية في الحرب ، فان الجبهة الوطنية لم تتمكن من أن تطرح برنامجا عسكريا واقتصاديا وسياسيا مشتركا يمكن من التأثير في طبيعة الحرب ويتجاوز آفاق قيادتها المصرية المتحكمة ، بل بقيت قياداتها محكومة بالقيادة الرسمية للدولة والحرب ، وبالرغم من الثقل العسكري والاقتصادي لمساهمة سوريا والعراق في الحرب فقد ظلت أسيرة برنامج قيادتها المصرية طيلة الثمانية عشر يوما ، بل ان القيادة المصرية سارعت الى قطع الطريق على المحاولات الجدية السورية ــ العراقية لزيادة الوزن العسكري للقيادة العراقية ــ السورية وفاعليتها . [اعلان السادات لمبادرة السلام في السادس عشر من تشرين] .

د ــ **التغيرات على الصعيد الدولي** : ان أهم تغيير على الصعيد العالمي هو « انتقال الامبريالية اجمالا والامبريالية الاميركية بشكل خاص من موقع الى آخر فيما يتعلق بموقفها ازاء الصراع العربي الاسرائيلي ، ضمن حدود » وكونها حريصة على تطويق نتائج الحرب فهي « حريصة على عملية التسوية في ظل ميزان القوى القائم الان والذي حصل بعد تشرين ، والذي ، وان كان قد تغير عما كان عليه ميزان القوى قبل حرب تشرين ، فان هذا التغيير تم ضمن حدود ، حدود جعلت الامبريالية مضطرة ان تقف أمام التسوية ، مضطرة بالضغط النسبي على اسرائيل بشيء من التنازلات ، ولكن ضمن صيغة معينة في تقديرها انها تضمن الى حد كبير ، تأمين مصالح الامبريالية بشكل كامل ، وتأمين الوجود الصهيوني بشكل مضمون » [ص ١٦]. هذا التشخيص العام لتأثير معطيات الحرب على السياسة الاميركية واسرائيل يحتاج الى ترجمة محددة للتغييرات العملية في برامج وسياسات الولايات المتحدة واسرائيل وانعكاساتها على العلاقة بينهما، لكي يمكن تحدد المهمات النضالية التي تمكن من دفع تلك التغييرات والتنازلات ، مهما كانت صغيرة ومحدودة ، الى اقصاها وتوظيفها في خدمة حركة التحرر العربية والفلسطينية في الصراع المستمر ضد اسرائيل وامريكا .

اولا : « انتقال الامبريالية **من موقع الى آخر** » ، من اين والى اين بالضبط ، من أي موقع امبريالي الى أي موقع امبريالي آخر **معاد** لحركة التحرر العربية . عمليا من اية سياسة تجاه معضلات الصراع المباشرة والبعيدة وبالاخص معضلة الاراضي العربية والفلسطينية المحلتة في العام ٦٧ . **ثانيا** : حدود التغيير في ميزان القوى بماذا تتمثل وما هي مظاهرها وفاعليتها . تلك الحدود التي جعلت الولايات المتحدة **مضطرة** ان تقف امام التسوية [طيلة ٦ أعوام كانت تعرقلها وتشجع اسرائيل على البقاء في الارض العربية] **ومضطرة بالضغط النسبي لشيء من التنازلات** ، ان المقاومة الفلسطينية معنية تماما بمعرفة حقيقة هذه التنازلات وطبيعة الضغط النسبي ، و« تكييف » الاستراتيجية الاميركية بعد تشرين . **ثالثا** : هل الارادة الاميركية الاسرائيلية [**ونفترض وحدتهما هنا**] هي الوحيدة في الصراع ، ام انها تتحرك في مقابل وفي مواجهة ارادات عربية وفلسطينية وعالمية تقدمية . والاخيرة تتحرك باتجاه اجبار اسرائيل على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية . وهذا ما يجعل سياسة الولايات المتحدة واسرائيل

ليست بالضرورة سياسات **قابلة للتطبيق** تماما ، وتتحكم فيها بالصيغ والاشكال التي ترسمها وغير قابلة للتراجع . الارادات العربية والفلسطينية هـي تعبير عن قـوى عسكرية واقتصادية وسياسية موضوعية وقائمة وفاعلة في الصراع ، ويشكل الردع العربي العسكري بعد تشرين ، والمواجهة القتالية وامكانات استئناف القتال أهم عناصر الكبح والتصدي لارادة اميركا واسرائيل الكلية القدرة قبل تشرين. بالرغم من التراجعات العربية التي اضعفت فاعلية هذه العناصر . ان حركة التحرر الوطني الفلسطينية، واي حركة وطنية وثورية معنية بمعرفة جميع التغييرات النسبية في سياسات أعدائها ، مهما كانت صغيرة ، مهما كانت كاملة ، وتفحصها **بالمجهر** التحليلي والسياسي ، معنية بتعيين حقيقة التعارض النسبي بين مصالح اميركا واسرائيل وبالتالي في سياستهما . بمعنى : الترجمة السياسية والعسكرية والاقتصادية **للضغوط** التي يمكن ان تسلطها اميركا على اسرائيل **وحقيقتها** ، وطبيعة التغيير في دور اسرائيل في الاستراتيجية الاميركية بعـد تشرين ، وما يترتب على ذلك من ترجمات سياسية للعلاقات المستقبلية بين اسرائيل واميركا [بالطبع ضمن حدود] . ما هي ترجمة « الصيغة المعنيـة في تقديرها [أي اميركا] التي تضمن تأمين مصالحها والوجود الصهيوني بشكل مضمون » . وما هو الفرق بين هذه الصيغة والسياسة الاميركية لضمان مصالحها ووجود **وأمن اسرائيل** قبل تشرين . ماذا تعني صيغة « الوجود الصهيوني بشكل مضمـون » أي وجود هـو المقصود . وجود قبل حزيران ٦٧ . ام وجود بعد حزيران التوسعي أم بينهما . ان الفرق بين اشكال **الوجود المضمون** في عناصر السياسة العملية لاميركا ينعكس على معضلات الصراع التاريخية والمباشرة ويستلزم سياسات عربية وفلسطينية ملائمـة لمواجهته .

الولايات المتحدة في انتقالها من موقع الى آخر واتخاذ سياستها مظاهر « الضغط النسبي على اسرائيل » انما تحاول تكييف عناصر استراتيجيتها تجاه اسرائيل بعـد تشرين وبالتالي تجاه معضلات الصراع العربي — الاسرائيلي . (بالطبع ضمن حدود يجب حسابها بدقة) ، تراهن كما هي ايديولوجيتها ومصالحها على امتصاص وقائع حرب تشرين بعد سحب عناصر التفجير في الصراع ، ومن ثم معاودة الهجوم ثانية ضد حركة التحرر العربية والفلسطينية من مواقع جديدة . وحركة التحرر الفلسطينية هي الاخرى من منطلقاتها وأهدافها الوطنية تراهن على امكانية توظيف عنـاصر الحرب الايجابية لاكتساب مواقع مرحلية [محاصرة اسرائيل في حدود ٤ حزيران ٦٧] لمعاودة الصراع والهجوم ضد اسرائيل واميركا . ان اميركا بانتقالها من موقع الى آخر ، من سياسة الى اخرى [« مكيفة » على اساس تطبيق القرار ٢٤٢] **تضطر** الى ان تترك واسرائيل منطقة فراغ ، لم تكن تتخلى عنها مطلقا بل تشرين . وتراهن بالمقابل على **اعادة توازن** سياستها (النفوذ السياسي والاقتصادي في المنطقة) لتعاود الهجوم ثانية . حركة التحرر الفلسطينية معنية بالنضال بمختلف اشكاله **لاحتلال منطقة التراجع** ، والتمترس فيها ، لكي يمكن منع اسرائيل والولايات المتحدة من العودة اليها ومعاودة الهجوم من مواقعها أولا ، وتحصين موقع متقدم لمعاودة الصراع والهجوم منه .

هـ — حدود المرحلية الاسرائيلية ووثيقة الاربعة عشر بندا : « لو اخذنا وثيقة الاربعة عشر بندا ماذا نجد ، الرؤيا واضحة جدا ، طبعا ستبقى الصورة متحركة وتسـتطيع القيادة الاسرائيلية ، مثلها مثل اي قيادة ان تتحرك في طريقة ترجمة هذه الوثيقة ، لكن ضمن حدود معينة ، لا تستطيع أن تتجاوزها » [ص ١٧ — ١٨] . اولا ، ماذا عـن المقارنة مع « وثيقة غاليلي » التي كانت برنامجا لفرض الاحتلال كأمر واقع على أساس «حقائق دايان الجديدة» . وهل ان استبدالها بالوثيقة الجديدة هو مجرد رغبة اسرائيلية

في تجديدها ، أم مناورة او لعبة انتخابية لمواجهة مشكلات طارئة ؟. ان وقائع وحقائق تشرين **الحادة الفعل** هي التي فرضت نفسها بقوة على القيادة الاسرائيلية لاقرار هذه الوثيقة ، والغاء وثيقة القضم والضم مكرهة ومرغمة . [وبالطبع جاء اقرارها نتيجة اختلال في التوازن داخل حزب العمل ضد وثيقة غاليلي وهو انعكـــاس للاختلالات في اسرائيل] . وايضا عن الوثيقة : « ستبقى الصورة متحركة » مـــاذا يعني ذلك ؟ اذا كان المقصود بالصورة وقائع الحرب وتطوراتها داخل اسرائيل فان القيادة الاسرائيلية بالتأكيد تحاول ما استطاعت ايقاف تفاعلاتها اولا واستيعاب وامتصاص بعضا مـــن الوقائع والحقائق ثانيا . ولكن القيادة الاسرائيلية هل ستبقى بتركيبتها نفسها ، واذا بقيت هل تستطيع ان تحافظ على السياسة اياها امام التطورات التي يمكن ان تستجد ، وهل تتمكن ان تتحكم في سياستها كما كانت بعد حزيران وقبل تشرين لكي تترجم الوثيقة كما تريد*. ثم ان تحافظ على ترجمة « لا تستطيع تجاوزها » أي تستطيع المحافظة على الصيغة التي تريدها « ضمن حدود معينة » . الوجه الثاني للتفاعلات داخل اسرائيل ، وهو مضاعفات وحقائق الحرب في المجتمع العربي وجبهات المواجهة وفعل السياسات العالمية بالضغط على اسرائيل ، هل يمكن للقيادة ان تتحكم فيها ، أي في تأثيراتها ، « ضمن حدود » كما كانت تضع سياساتها وبرامجها موضع التطبيق قبل تشرين ، دون الاكتراث لاي قرارات وسياسات عالمية ، ودون الاهتمام لكل ما يحدث في الجبهـــات العربية [لانه لم يكن هناك ما يشكل خطرا عليها] . اننا معنيون **بكسر غموض هـــذه الصيغة (وتلفعها)** التي تكررت مرارا صيغة «ضمن حدود» لكي يمكن التعرف وبالضبط على ما هو داخلها أي « ضمن الحدود » تلك . ان حركة التحرر الفلسطينية معنية بتحليل جوهر المراجعة الاسرائيلية في وثيقة الاربعة عشر بندا لحزب العمل ، وجملة المراجعات بالنسبة لجميع الكتل والاحزاب ، وترجماتها الى برامج وسياسات محددة تجاه المعضلات الراهنة التي هي اطار الصراع المباشر ، والتاريخية موضوع الصراع العربي الاسرائيلي الطويل .

الوثيقة تطرح لاول مرة منذ حزيران ٦٧ : مسألة « حدود ترتكز على حـــل اقليمي وسط» وتتحدث عن « دولة اردنية فلسطينية يمكن للهوية الذاتية للفلسطينيين والاردنيين ان تعبر عن نفسها ». وتعلن «رفضها لقيام دولة فلسطينية منفردة غربي نهر الاردن». ان الوثيقة في الوقت الذي تحاول فيه الاستجابة لحقائق الحرب وما بعدها ، تتعمـــد الغموض لاسباب داخلية وانتخابية واضحة . الا ان **ما يهمنا في التحليل وبشكل اساسي هو** : ١ ـــ كونها لا تستطيع انكار الواقع الموضوعي بعد تشرين وتتحدث عن « قبـــول حل اقليمي وسط » بدلا من وثيقة الضم وفرض الامر الواقع قبل الحرب . ٢ ـــ حديثها عن الهوية الذاتية للفلسطينيين ، هو اجابة **ملتوية ومكابرة** على حضور واقع فلسطيني موضوعي فرض من خلال القتال وصمود المقاومة وترسخ بوقائع تشرين . ٣ ـــ رفضها لدولة فلسطينية منفردة هو محاولة لتعبئة الاسرائيليين ، وكسب التأييد الاميركي لمواجهة احتمالات ان تفرض حركة التحرر الفلسطينية واقع حضورها العسكري والسياسي بتصفية ادعاءات النظام الاردني في الضفة الغربية وممارسة حق تقرير المصير . الا ان ابرز ما يميز الوثيقة هو صيغتها العامة ، والتي تراهن قيادة حزب العمل على المناورة في تفسيرها وتنفيذها ، لكن وقائع ما بعد الحرب لا تعطيها الحرية المنفردة لذلك . بل يمكن لاتجاه الصراع ان ينقض الوثيقة ويحرقها ، كما حرق مقاتلو ٦ تشرين ومدافعهم

---

* اذا كان يمكن الجزم بأن القيادة الاسرائيلية « تستطيع » ان تترجم كما تريد ، فلماذا لم تبق على « وثيقة غاليلي » وتترجمها كما تريد . اما كونها «تتنازل ضمن حدود » فان التنازل ليس رغبة إسرائيلية وبالتالي فان التحكم فيه ليس ارادة اسرائيلية منفردة ، وبشكل خاص بعد حرب تشرين .

وثيقة غاليلي . ثم ماذا عن المؤشرات الاخرى : زيادة اصوات التجمع اليميني (ليكود) في الانتخابات وانخفاض أصوات المعراخ. هل هو مؤشر لاتجاه الاسرائيليين نحو سياسة التمسك بالاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ١٩٦٧ والاستعداد لمواجهة الحروب من أجلها ؟ أم انها تعكس اهتزاز ثقة الاسرائيليين بسياسات المعراخ . واهتزاز الثقة هل هو بسبب الفشل في تحقيق « السلام » قبل الحرب ؟ أم بسبب مجريات حرب تشرين ووقائعها . وفي مسألة التصويت على « فك التحام القوات مع مصر »، ماذا يعني تأييد الاسرائيليين للاتفاقية بأكثر من تأييدهم للمعراخ في الانتخابات وانحياز أصوات من التجمع اليميني لتأييد الاتفاقية . الا يعني ذلك خوفهم من شبح الحرب، واستعدادهم لتراجعات كبيرة خاصة اذا استطاع العرب الاستمرار في حالة الحرب، التي لم يكن حتى التفكير بها واردا قبل الحرب .

لقد حدد حواتمة وقادة الفصائل الاخرى بصيغ مختلفة التأثيرات والنتائج الفعلية المباشرة التي هزت المرتكزات العسكرية والسياسية لاسرائيل . وكونها دفعت بامكانات صعود « تسوية ما » في المنطقة أي امكانية اضطرار اسرائيل الى صيغة للانسحابات من الاراضي العربية ، وهذا يعني امكانية اضطرار القيادة الاسرائيلية الى المراجعة الشاملة لبرامجها وسياساتها تجاه معضلات الصراع المباشرة وعلى اساس الواقع الموضوعي الجديد . ويعني ايضا : ان وثيقة الاربعة عشر بندا* بالنسبة لوثيقة غاليلي، لا تعكس الا بشكل اولي ، فاعلية وقائع الحرب ودورها في ارغام اسرائيل على مراجعة سياساتها . ان تحديد الوقائع الفعلية المباشرة ، وامكانات استمرار المواجهة القتالية العربية ، او الاستنزاف ، او التهديد بجولة اخرى ، هو الذي يحدد مسار وثيقة الاربعة عشر بندا ومنحى المؤشرات السياسية الاخرى وآفاق التطور اللاحق .

ــ اما اهتزاز نظرية الامن الاسرائيلي فان ذلك يعني : اهتزاز التفوق العسكري المطلق وانهيار موضوعة الحدود الطبيعية الامنة. وسقوط نظرية «وقائع دايان الجديدة» لضم الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة عام ٦٧ كأمر واقع . ان تحليل هذه الوقائع وتفاعلاتها هو الذي يمكن من حساب الآماد الفعلية التي تتحرك باتجاهها برامج المراجعة الاسرائيلية . والذي يمكن تماما بمختلف اشكال الكفاح المسلح والانتفاضي والسياسي من ارغام اسرائيل على التراجع من موقع الى آخر ، **حتى آخر موقع** يمكن ارغامها على التراجع نحوه في هذه المرحلة ، وفي ظل موازين القوى القائم والذي يمكن تحريكه نحو اختلالات جديدة ضد اسرائيل ، وتوظيفه لانجاز الاهداف الوطنية المرحلية وفي خدمة الاهداف التاريخية . اما الصيغة القائلة بان القيادة الاسرائيلية تتحرك لـ « ترجمة الوثيقة ضمن حدود معينة ولا تستطيع تجاوزها » فهي لا تفسر شيئا من حقيقة التغيرات التي احدثتها الحرب في اسرائيل ولا تساعد على تعيين المهمات الكفاحية الراهنة للثورة .

و ــ **النتائج المترتبة على تعيين وتحليل معطيات تشرين** : يخلص جورج حبش من تشخيصه لمعطيات الحرب واهميتها الى القول « ضروري جدا أن نرى هذه المتغيرات ، ولا نستطيع ان نكون علميين وثوريين ونستفيد من تجاربنا الا بعد ان نعترف بها ونؤكد عليها ، وتصبح موضع تثقيف ثوري للقيادات وللكوادر وللجماهير الفلسطينية والعربية» [ص ١٩] . هل المتغيرات هي نظريات ومفاهيم للتثقيف الثوري فحسب ؟ أم انها

---

* ان الوثيقة هي برنامج سياسي لاوسع تكتل عمالي في اسرائيل ، وهي تمثل في خطوطها العامة القاسم المشترك لاتجاهات الرأي العام الاسرائيلي تجاه مشكلات الصراع ، ومن هنا اهمية تسجيلها للتغيرات في حدودها الراهنة ذات الافاق البعيدة .

تمثل حقائق ووقائع تفعل فعلها في البرامج والسياسات والمواقف تجاه معضلات الصراع طبقا لموازين القوى المتحركة . وحركة المقاومة معنية بالتدقيق **بفعل** كل واقعة وحقيقة من تلك المعطيات والمتغيرات على برامج وسياسات العدو واميركا . الفعل المباشر على معضلات الصراع الراهنة . وبعد مناقشة المعطيات المتقدمة يخلص جورج حبش الى تساؤل واجابة في آن « ما هو تأثيرها على استراتيجية وتكتيك العمل الفلسطيني ؟ . . . أكدت بوضوح تام ان هدف الثورة الفلسطينية . . . هو هدف قابل للتحقيق ، قابل للتحقيق فعلا . . .وتأثير هذه المتغيرات على استراتيجية العمل الفلسطيني هو انها تثبت صحة استراتيجية العمل الفلسطيني ، وعلى رأسها الشعار الاساسي وهو المجتمع الديمقراطي في ارض فلسطين » [ص ١٩] . هذه الاستنتاجات العامة تجعل المؤشرات ذات الافاق التاريخية التي تؤثر في عناصر الصراع في الآماد المتوسطة والبعيدة بديلا عن المؤشرات ذات الفعل المباشر والراهن ، وتفعل مثل المؤشرات العامة اياها على الواقع القائم . وبالتالي ما يمنع تعيين تأثير المتغيرات على معضلات الصراع الراهنة التي تخوضها حركة التحرر الفلسطينية . فالقول بأن هدف الثورة ، التحرير الكامل ، « هدف قابل للتحقيق فعلا » . هو كالقول بان انتصار ثورة اكتوبر قد أكد امكانية انتصار الثورة العالمية وان هدف سيادة الاشتراكية في العالم **قابل للتحقيق فعلا** عام ١٩١٧، وبالتالي فلا حاجة لتحديد أية مهمات ثورية للحركات الثورية في العالم، غير الهدف الاستراتيجي ، تحقيق الاشتراكية في جميع اركان الارض .

ان هدف الثورة الفلسطينية ، وهدف كل حركة تحرير وطني تخوض حربا وطنية عادلة ، هو هدف مشروع ، **وقابل للتحقيق فعلا** من وجهة النظر التاريخية والعلمية . ولكن هذه الحقيقة النظرية تتحول الى **حقيقة موضوعية قائمة فعلا** عندما تتمكن الثورة من تعبئة وقيادة جميع القوى التي يمكن ان تساهم في الصراع وتحسمه في النهاية لمصلحتها ضد قوى الثورة المضادة ، عبر **مراحل** متعددة **وتعرجات ومحطات** مختلفة . من هنا فان حرب تشرين لم تثبت ان هدف التحرير قابل للتحقيق ، لان ذلك **ثابت** قبلها ، **منذ انطلاق الثورة** . بل ان الامكانية كامنة أصلا في التناحر العدائي بين الاستعمار الاستيطاني الاجلائي وشعب فلسطين . حرب تشرين **رسخت وبرهنت** على هذه القابلية . ولكنها ايضا ، وهذا هو المهم لتحليل المعطيات الراهنة ، **اثبتت** امكانية هزيمة الجيش الاسرائيلي **فعلا وعيانيا** وامكانية تحقيق انتصارات عسكرية ضده ، **وأكدت** امكانية حصول تغييرات نسبية في موازين القوى لصالح حركة التحرر العربية والفلسطينية ضد القوى المعادية لها اسرائيل واميركا . وهذه الوقائع مكنت الثورة الفلسطينية ولاول مرة من ان تضع لها مهمات كفاحية وطنية **قابلة للتحقيق** لمحطات متقدمة على طريق استمرار الصراع الطويل نحو الهدف الاستراتيجي القابل للتحقيق أصلا .

أما كون المعطيات تثبت «صحة استراتيجية العمل الفلسطيني وعلى رأسها **الشعار***
الاساسي وهو المجتمع الديمقراطي في ارض فلسطين » [ص ١٩] فهذا الاستنتاج يستوجب بعض التحديدات : اولا : هل ان هدف المجتمع الديمقراطي في ارض فلسطين هو « شعار » أم هدف كفاحي استراتيجي لحركة التحرر الفلسطينية [وهل لا يوجد فرق بين الهدف الاستراتيجي والشعار] التي بدأت كفاحا مسلحا على طريق تطويره

---

* الشعار هو صياغة وتكثيف سياسي يتصدى لمعالجة معضلة سياسية قائمة في مرحلة او شوط من أشواط الصراع بهدف تعبئة القوى على اساسه لتغيير موازين القوى وانجاز المهمة المحددة . وحين الفشل في تغيير موازين القوى وانجاز مهمة الشعار يرتد الى الوراء ليتقدم آخر اكثر ملائمة وتعبيرا عن موازين القوى والامكانات القائمة .

الى حرب شعبية فلسطينية طويلة الامد وبالمراهنة على طريق امكانية اشعال حرب تحرير عربية طويلة الامد تكسر التفوق الاسرائيلي وتدحر التحالف الاميركي — الاسرائيلي الرجعي . هذه العملية التاريخية المعقدة التي يرتبط تحقيقها بنمو قوى اجتماعية مختلفة وتوفر شروط موضوعية محددة تحكمها قوانين حركة التحرر العربية والديمقراطية الثورية . وحرب تشرين التي هي صراع مأخوذ الى آخر أشكاله الدموية . خاضتها حركة التحرر العربية الوطنية بقيادتها الرسمية (الانظمة) وبشروط محددة قد أعطت نتائج محددة ومن **الطينة اياها** . من هنا فان حرب تشرين قد اثبتت ان هدف تحرير فلسطين هو هدف استراتيجي بعيد الامد . وليس شعارا ابدا . ان حرب تشرين بهذا المعنى الموضوعي لها ولنتائجها ، قد اكدت فعلا صحة العمل الفلسطيني وهدف المجتمع الديمقراطي بالواقع الموضوعي الذي خلقته ، الواقع الذي يمكن الثورة من انجاز أهداف ومهمات مرحلية ، الواقع الذي يعكس التغيير النسبي في موازين القوى والذي يمكن من اجبار العدو على التراجع لصالح حركة التحرر الفلسطينية ولصالح الهدف النضالي الاستراتيجي هدف تحقيق المجتمع الديمقراطي .

ان الاستنتاجات « صحة استراتيجية العمل الفلسطيني » ، و « هدف التحرير قابل للتحقيق فعلا » هي النتيجة المنطقية لطريقة اعتماد المؤشرات والظواهر العامة لتحليل معطيات تشرين مؤشرات علامات الاستفهام حول « صحة المشروع الصهيوني من أساسه » او « قناعات الجماهير واستعداداتها العالية للعطاء ... من أجل التحرير الكامل . بالنتيجة، المؤشرات والاستنتاجات، المقدمات والنتائج لا تمكن ابدا من صياغة المهمات الوطنية الكفاحية التي تتصدى للتعامل مع معطيات تشرين وتواجه تحدياتها . وهذا السياق في التشخيص والاستنتاج هو الذي جعل جورج حبش يخلص الى اجتهادات واستنتاجات مغايرة لما توصل اليه قادة الفصائل الاخرى بصيغ مختلفة ...

ولكي يمكن دراسة شروط وعناصر العلاقة العضوية بين المهمات الكفاحية المرحلية والاهداف الاستراتيجية التاريخية ، وايجاد المدخل الصحيح والضروري لمناقشة الاجتهادات والاراء حول المرحلية ، والحلقة المركزية ، والسلطة الوطنية والبرنامج القتالي ، لا بد من تحليل لعناصر التسوية الاميركية الاسرائيلية ، والبرامج المختلفة للتسويات من وجهة النظر العربية والسوفياتية . وطبيعة القوى المحركة والفاعلة من الصراع وقدرتها على مواجهة التسوية والتحديات والفعل المباشر في الصراع للتصدي لمحاور التسوية الاميركية تجاه المسألة الفلسطينية في معضلاتها التاريخية والراهنة .

ثانيا : التسوية السياسية والقوى الفاعلة فيها والموقف الفلسطيني الوطني الفاعل في الصراع .

لقد بات من المؤكد ان حرب تشرين قد خلقت توازنات عسكرية وسياسية واقتصادية جديدة ، دفعت بالانظمة العربية التي قادت الحرب الى الاقتناع بالمراهنة على تطبيق القرار ٢٤٢ لتنظيم انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ وتعديلا في بنوده الخاصة بالمسألة الفلسطينية ، مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ، ربما أبعد من ذلك ، وتحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية واشتراطات اسرائيلية كما تسعى اسرائيل والولايات المتحدة .

الا ان تحليل طبيعة الحقائق التي خلقتها الحرب ، وتفاعلاتها عربيا ودوليا واسرائيليا يؤكد ان **لا تسوية جاهزة** . ولا يمكن **حساب نموذج ما للتسوية** في صورتها النهائية ، سواء كما تريد الولايات المتحدة او اسرائيل ، او كما هو البرنامج العربي للانسحاب الكامل ، او كما هو البرنامج السوفياتي الذي يعلن التزامه بقرارات الامم المتحدة .

ذلك لان التفاعلات التي خلقتها الحرب لا زالت مستمرة والصراع يدور بين محاولات الولايات المتحدة واسرائيل التي تتصدى لفرض شروط تسوية اميركية ـ اسرائيلية ، وبين الانظمة العربية (سورية) وحركة المقاومة التي تناضل من أجل تحقيق الانسحاب الكامل غير المشروط. وبما ان السياستين الاميركية والاسرائيلية ليستا وحدهما في الصراع، فان أية تسوية شاملة هي نتاج لصراع قوى وبرامج متناقضة ومتصارعة اميركيــة ـ اسرائيلية ، مقابل فلسطين عربية سوفياتية ، وتتخذ أشكال صراع مختلفة عسكرية واقتصادية وسياسية . وبقدر ما تتمكن حركة التحرر العربية والفلسطينية من توظيف عناصر الحرب الايجابية ، ومن بينها واهمها امكانات **استئناف القتال** ، تتمكن من توفير شروط وعناصر انسحابات اسرائيلية غير مشروطة ، وفرض عناصر برنامجها الوطني ، وبالحدود المشتركة التي يمكن توظيف البرنامج السوفياتي فيها . [مرحليا على اساس قرارات الامم المتحدة وترسيب الموقف تجاه قرار ٤٧ حتى تحقيق اختلال عالمي واقليمي واسع في موازين القوى] ، يمكن ان تفرض نفسها على أية تطبيقات للقرار ٢٤٢ وربطها وثيقا بقرارات الامم المتحدة الاخرى المتعلقة بالمسألة الفلسطينية . وبالنتيجة فان أية انسحابات اسرائيلية من المناطق العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ ، وايــة انجازات وطنية فلسطينية ستأخذ طابع محصلة قوى متصارعة . والقوى التي تستطيع توظيف عناصر الحرب في خدمة برامجها هي التي تتمكن من ان تترك عناصر ومواد برامجها على اية صيغ للحلول الاقليمية عربيا وفلسطينيا .

في تحليله لقضية التسوية ينطلق نايف حواتمه من ان القيادة المصرية « استهدفت اخراج ازمة الصراع العربي الاسرائيلي من حالة اللاحرب واللاسلم لتوليد فرص جديدة تمكن من الوصول الى تسوية سياسية على ارضية القرار ٢٤٢ مطورا في جانبـــه الفلسطيني ، [ص ٧] . وفي تحليله لمفهوم التسوية يتوصل الى ان «هناك تسوية اميركية اسرائيلية هاشمية » . مقابل هذا ، هناك فهم متباين للتسوية . فهم مصري معلن يمكن ان يتراجع الى تسوية ثنائية في حالة تعقيد الامور ، وسوري يؤكد على الاعــتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بذات الوقت، وموقف سوفياتي يقوم على الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني كما هي قرارات الامم المتحدة ، [ص ٨] .

وبالحوار المتداخل يتوصل قادة المقاومة الاخرون الى التحليل اياه ، كمدخل لصياغة البرنامج المرحلي للمهام الوطنية الكفاحية الذي تناضل حركة المقاومة الفلسطينية على اساسه بالتحالف وبمختلف اشكال الكفاح الثوري ، مع برامج الانسحاب العربية على أساس ما هو مشترك ، لاجبار العدو على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ والفوز بالحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطيني.

أما جورج حبش فان له اراء وتصورات واستنتاجات اخرى ايضا .

١ ـ **« المؤامرة الموضوعة »** : يؤكد اولا على ضرورة التمييز بين البرنامج المرحلي للثورة وبين « مؤامرة موضوعة الان لتصفية الثورة الفلسطينية » [ص ٤٨] ومن ثم يتوصل الى ان « التحليل السليم لهذه المؤامرة التي تستهدف الثورة الفلسطينية ليس فقط من قبل اميركــا نطرح كل المواقف بوضوح علــى صعيــد دولــي ، نطــرح كــل المواقف بوضــوح كمــا هــي قــائمة علــى صعيــد عربي » [ص ٤٩] . ان التاريخ ليس سلسلة حلقــات من المــؤامرات المتواصلــة ، بــل هــو صراع طبقات ومصالح معبرا عنها في برامج وسياسات تتخذ اشكالا مختلفة بدائية او متقدمة تبعا لطبيعة درجات تطور المجتمع . بهذا المعنى « فالمؤامرة » ليست ، لغزا او سرا او ارادة الشيطان او الاله ، بل هي الاشكال السياسية التطبيقية لمعضلات الصراع ، والتي تمثل صراع قوى وبرامج وسياسات متعاكسة ومتناقضة ، وتتخذ اشكالا مختلفة

في التنفيذ حسب طبيعة كل قوة من القوى ووسائلها وادواتها في الصراع . والمؤامرة لم تبدأ بعد تشرين بل بدأت مع نهاية القرن الماضي وبداية النشاط الصهيوني وتداخله مع صعود الامبريالية العالمية . والمؤامرة بعد تشرين ترتيبا على ذلك واستمرارا للسياسة الصهيونية والامبريالية تعني : الاشكال والتطبيقات التي تحاول الولايات المتحـــــدة واسرائيل ان تترجم بها سياساتها ، الاميركية « المكيفة » والاسرائيلية « المعدلة » وتفرضها تجاه معضلات الصراع العربية والفلسطينية كبؤرة واساس لمعضلات الصراع العربي الاسرائيلي ، وعلى ضوء حقائق ووقائع الحرب، وبما يضمن مصالح الاولى وامن وأهداف الثانية . هذه الترجمة لمفهوم المؤامرة هو الذي يفسر لنا جوهر « المؤامرة الجديدة» ودراسة وتحليل عناصرها الاساسية.وبدون هذا التحليل لا يمكن على الاطلاق معرفة طبيعة التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية ، وتحديد البرامج والسياسات العربية والفلسطينية لمواجهتها ، وترجمة حلقاتها الكفاحية المرحلية التي تمكن فعلا من احباطها.

ان الصيغة القائلة : « بأن المؤامرة « الموضوعية » ليس من قبل امريكا ، بل نطرح كل المواقف بوضوح على صعيد دولي ... وعلى صعيد عربي » . هي صيغة تخلط بين أهداف متناقضة وسياسات متعارضة وتطبيقات متعاكسة ومختلفة وان كانت تأخذ في بعض من تطبيقاتها تداخلا تجاه المعضلات . ان الحديث عن التسوية كمؤامرة بشكل مطلق وكأنها وحدة كلية ، انما يشمل جميع عناصر التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية ، كما يشمل البرامج العربية (السوري والمصري) والسوفياتي والتي تتحرك جميعهـــا على ارضية القرار ٢٤٢ (اي جميع الاطراف) وتفسيراته المتداخلة والمتقاطعة التي تعكس سياسات الاطراف وتنصب جميعها على معضلات الصراع اياها... الانسحابات ووجهها الثاني ضمان امن اسرائيل ومصالح اميركا . ان هذا الاجتهاد لا يعين ابدا طبيعة كل من هذه القوى المتصارعة العربية والعالمية واهدافها المتميزة ، والمظاهر العسكرية والاقتصادية والسياسية لكل منهما التي ترافق عملية التسوية (بوجهيها الانسحابات والضمانات) وتترتب عليها ، اضافة الى الاساليب والاشكال التي تستخدمها وبالتالي التطبيقات العينية النهائية التي تتخذها . وفي التحليل الاخير فان اجتهاد المؤامرة لا يمكنه التمييز الدقيق والضروري بين مواقع الاعداء الامبرياليين والاسرائيليين وبين مواقع الحلفاء والاصدقاء الاقرب والابعد ، والقوى الاكثر بعدا التي يمكن ان توظف سياساتها ومواقفها في خدمة حركة التحرر العربية والفلسطينية .

وبصيغ متفرقة نجد استنتاجات أخرى تدور حول **الارادة الدولية** الهادفة الى فرض التسوية . وبعد أن يتحدث جورج حبش عن وجهة نظر السوفيات يخلص الـــى القول « فلنقل ، الارادة الدولية التي تشعر انه ليس في مصلحتها استمرار هذا التوتر وهذا الصراع بهذا الشكل في المنطقة ... هذه القوى الدولية التي تريـــد أن تدفع باتجاه التسوية السياسية » [ص ١٧] . هذا الاستنتاج يفترض انعدام اي دور للبرنامج العربي والفلسطيني . ويمزج بين السياسات والمواقف المتعارضة ، ولا يساعد بالنتيجة على معرفة الحدود الفاصلة بين موقف وآخر وسياسة وأخرى تجاه التسوية ، (أي معضلات الانسحاب الاسرائيلي في سياسة القوى التقدمية في العالم وأمـــن اسرائيل ومصالح اميركا في برامج اميركا واسرائيل) وبالتالي تسمية الحـــدود المشتركة بـــين البرامج العربية والموقف السوفياتي وبينها وبين برنامج الحد الادنى للثورة الفلسطينية التي هي بصدد صياغته لمواجهة نتائج الحرب والتصدي لعناصر التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية .

وابعد من ذلك وبكلمات اكثر وضوحا ، نجد التساؤل التالي والاجابة عليـــه حول الموقف السوفياتي على الوجه التالي : ما هي وجهة النظر السوفياتية ؟ يجيب جورج

حبش « السوفيات أصدقاء ولهم وجهة نظر معينة في قرار ٢٤٢ ، هل ميزان القوى مضافا الى وجهة نظر السوفيات تمكننا . . . من ان نصل الى هدف سلطة وطنية ديمقراطية فلسطينية ثم انسحاب كامل من الاراضي العربية ، بدون اعتراف ، بدون صلح ، بدون حدود آمنة ، بدون مناطق مجردة من السلاح ، بدون قوات دولية ، بدون كل هذه الضمانات ؟ جوابي كلا » . قبل كل شيء يجب التخلص من التباس ربما يعتقد انه بسيط ، وهو : هل ان وجهة نظر السوفيات خارج ميزان القوى ، ام بالضبط هي تعبير عن ميزان القوى العالمي وانعكاسها على الميزان الاقليمي الذي يكون فيه الموقف السوفياتي حاسما عالميا ويمكن ان يكون فعالا اقليميا طبقا للاشكال التي تتخذها العلاقات العربية الفلسطينية ــ السوفياتية . ثم نبدأ بالمواصفات : هذه المواصفات المطلوبة كلية الصحة ، والشروط مشروعة تماما وتقدمية تماما ، ولا يمكن لاي وطني تقدمي الا ان يحددها بدقة ويناضل بحزم لتحقيقها . ولكن **تصورها** شيء وعملية **انجازها** شيء آخر تماما . ان عملية تحقيقها هي عملية صراع شائكة ومعقدة . والاتحاد السوفياتي واي قوة تقدمية في العالم لا يمكن ان تقول بامكانات تحقيقها وفي صورة محددة ، مسبقا ، ان ما هو ثوري وصحيح وممكن ، هو تحديد **الميل العام** للتطور على ضوء موازين القوى القائمة **ودرجة واتجاه تغيرها لصالح حركة التحرر العربية من خلال الصراع** . وترتيبا على هذا الميل العام تحدد المهمات الكفاحية المرحلية وتصاغ البرامج السياسية التي تعين اشكال الكفاح وشعاراته لتعبئة الجماهير العربية والفلسطينية للنضال من اجلها وبالتضامن مع الحركة التقدمية العالمية . وحينما لا تتمكن حركة التحرر العربية والفلسطينية من انجازها وتصل الى طريق مسدود ، تكون عندها قادرة تماما خطوة بعد اخرى على **التحول** نحو مهمات كفاحية اخرى محافظة على جميع تحالفاتها العالمية ومطورة اشكالها الكفاحية ، حتى تصل الى موازين قوى جديدة وتحالفات جديدة تدفع باتجاهها سقوط بعض المراهنات العربية او نجاح المراهنات العربية والفلسطينية الاخرى .

أما الاستنتاج القائل كلا ؟ أي لا يمكن تحقيق المواصفات والاشتراطات المتقدمة والذي يقوم على افتراض ثبات موازين القوى القائم . هذا الاستنتاج يفترض فيه ، ويستلزم وصوله الى تحليل وتقدير مغاير لخصائص المرحلة وطبيعة القوى ، وبالتالي **اشتقاق** مهمات كفاحية محددة أخرى تعبر عن وجود قوى موضوعية مادية تتصدى لانجازها على أساس برنامج كفاحي مشترك واشكال كفاحية ممكنة موضوعيا ، لتعبئة وتحريك جميع القوى العربية والفلسطينية على اساسه لتحقيق تغيرات نسبية في موازين القوى القائمة [وهذا سنأتي على دراسته لاحقا] . ولكن الاسترسال في متابعة تحليل الموقف السوفياتي يصل بنا الى رأي مغاير تماما « لو كان الحد الاعلى لمؤتمر جنيف ان تنتصر وجهة النظر السوفياتية ، فوجهة النظر السوفياتية في فهمها لموضوع التسوية العادلة . . وجهة نظرهم ان تبقى اسرائيل » [ص ٢١] . ان معنى هذا الكلام بكل وضوح هو : ان وجهة النظر السوفياتية القائمة على تطبيق قرارات الامم المتحدة بخصوص المسألة الفلسطينية بشكل خاص ، حتى لو انتصرت « كاحتمال » يضعه يضعه جورج حبش ، فليس هناك اي اساس كفاحي مشترك ممكن معها ، لمواجهة عناصر التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية ، وللحفاظ على نتائج حرب تشرين والتصدي لمحاولات اسرائيل واميركا لاغتيالها . [في مكان آخر الموقف السوفياتي جزء من التسوية الدولية بمفهومها العام . الارادة الدولية أو المؤامرة] . بسبب من كون الاتحاد السوفياتي « وجهة نظرهم ان

تبقى اسرائيل »*. [اي اسرائيل عام ٤٧ وفق القرارات الدولية في هذه المرحلة] .

هذه النتيجة التي يصل اليها هي وليدة التحليل الاساسي الذي اعتمده وهو « ان تأثير معطيات تشرين أكدت بوضوح تام ان هدف الثورة الفلسطينية ... انما هو قابل للتحقق قابل للتحقيق فعلا . وان نقول للاصدقاء السوفيات « من منطلق الصداقة » « ان تأثير المتغيرات على استراتيجية العمل هو انها تثبت صحـــة استراتيجية العمل الفلسطيني وعلى رأسها الشعار الاساسي وهو المجتمع الديمقراطي في ارض فلسطين » معنى ذلك اننا نقدم تحليلات نظرية عائمة ، كمراهنات تاريخية لا يختلف اثنـــان على منطلقاتها النظرية من حيث الجوهر ، كما هي حتمية سيادة الاشتراكية في العالم . ولكن الاجتهادات التي تعني الثورة ، تدور حـــول امكانات الوصول اليها عبـــر الصراعات التاريخية ومحطاتها . هذه الاستنتاجات والمراهنات تقود بالنتيجة الى **عدم وجود اي أساس كفاحي** مشترك لمواجهة وقائع سياسة اميركية اسرائيلية **راهنة قيد التنفيذ تتحرك ساعة بعد اخرى** ضد مصالح الشعوب العربية، فاعلة ومؤثرة في جميع معضلات الصراع ، وبالاخص الفلسطينية منها .

وبالرغم من اهمية التحالف مع الحركة التقدمية العالمية [العامل الخارجي] الا ان تأثير هذا العامل يبقى مرتبطا بقدرة الحركة الوطنية والتقدمية على الاستفادة منه . وبعد الحديث عن الارادة الدولية ينتقل الى ارادة اسرائيل « ومدى استعداد اسرائيل التنازل عن الصورة التي حلمت بها بعد انتصارها الشهير في حزيران » [ص ١٩] . وبعد أن يقارن بين مدى تلك التنازلات المفترضة وبين ما هو « مقبول من الوضع العربي الرسمي المتحكم في التسوية » [ص ١٩] ، يخلص الى نتيجة تقول « سيكون هناك عقبة ... انا لا اقول انها عقبة لا تذلل » ويربط هذا الاستنتاج بالتساؤل التالي « لو كان هناك اتفاق سوفياتي اميركي تفصيلي حول كيفية تطبيق قـــرار ٢٤٢ لكانت العقبة الاولى بسيطة وممكن تذليلها » اما العقبة الثـــانية فهي حسب رأيه « حد مـــن التناقض بين الصيغة الاميركية مقابل الصيغة السوفياتية حول كيفية تنفيذ القرار ٢٤٢ » [ص ١٨] . نتساءل بدورنا عـــن اولا « مدى استعداد اسرائيـــل للتنازل هل ان استعدادها وحدوده او عدمه منوط بموقفها وسياستها هي والولايات المتحدة كما كان قبل تشرين ؟ قبل الحرب كانت سياستها تحتمي بالتفوق العسكري المطلق ، وتعكس الاحتلال الفاضح في موازين القوى لصالحها واميركا ، حتى في ظل ذلك الاحتلال كانت ترطم سياستها التي تعين « استعداداتها » بجدار من ارادة الصمود العربية السلبية [الانظمة] التي كانت حتى في تراجعاتها تجاه اسرائيل **تقف عند حدود محرمة وخطرة** لم تستطع تجاوزها بفعل الرقابة الجماهيرية العربية الصارمة (المصرية خصوصا) .

---

* ان مسألة ان تبقى اسرائيل في حدود ٤٧ ام لا تبقى هي مسألة تاريخية لا يستطيع السوفيات او اية قوة في العالم التحكم فيها او التمسك بسياسة ثابتة تجاهها . ان استمرارية عناصر الصراع الموضوعية هي الوحيدة التي ستحسمها . والتحالف بين حركة المقاومة والاتحاد السوفياتي منذ عام ٦٩ [بشكل فعال] وحتى الان يقوم على الموقف السوفياتي اياه تجاه حدود اسرائيل لعام ٤٧ . وحبش ايضا يقول بامكانية تطور الموقف السوفياتي ولكنه يستخدم هذا الاستنتاج للوصول الى عدم وجود ارضية لبرنامج عربي فلسطيني سوفياتي مشترك في هذه المرحلة ... معنى ذلك يجب الانتظار حتى تقوى الثورة الفلسطينية والعربية « ما لم تقو الثورة الفلسطينية والعربية وتحدث تغيرات في وجهة النظر السوفياتية » ، طبقا لمعطيات الصراع . لا اعتقد ان الابتعاد عن الموقف السوفياتي وعدم ايجاد اساس مشترك مرحلي ، لا يقوي الثورة العربية والفلسطينية على الاطلاق . بل العكس هو الصحيح تماما . [الابتعاد في هذه المرحلة امـــا حسب النموذج المصري او الانعزالية التصفوية] .

بعد تشرين « مدى التنازل » تمليه موازين القوى العالمية والاقليمية علـى اسرائيل وطاقات زخم الجبهات العربية للمواجهة المباشرة . اما مسألة الربط بين حلمها الشهير بعد حزيران ومدى استعدادها للتنازل فالمقارنة هنا لا تجوز على الاطلاق . لان المسألة اذا كانت مرتبطة بأحلام اسرائيل فهي ليست اقل من النيل الى الفرات . وهي أحلام على كل حال خارج موازين القوى التي تحكم عناصر الصراع والتي **لا تحابي** احلام احد من الاطراف . **ثانيا** : المقارنة بين مدى التنازل وبين ما هو مقبول من الوضع العربي الرسمي المتحكم في التسوية . هذه المقارنة تحتاج الى كثير من التفسير والوقوف عندها. وأعتقد انها تستأهل هذا الوقوف . ماذا يعني ما هو مقبول على خارطة الاوطان العربية والفلسطينية . [بالطبع الارض الفلسطينية لم تعد قرارا عربيا بعد الانتصارات التي أحرزتها منظمة التحرير ضد الرجعية الاردنية ، بل هو حق المنظمة فحسب] . مصر وسوريا رسميا : الالتزام ببرنامج « الانسحاب الاسرائيلي حتى حدود الرابع من حزيران ٦٧ وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني». والاخيرة مرتبطة بقرار فلسطيني معترف به رسميا من الانظمة العربية، وفرض عمليا على العالم.من هنا يصبح تراجع الانظمة خارج حدود هذا البرنامج مسألة لا يمكن الاقدام عليها بسهولة، ومغامرة الانظمة بتجاوزها يخلخل تماسكها [أي تركيبتها الطبقية] ويفجر طاقـات الجماهير العربيـة والفلسطينية ويرتب عليها مواقف وسياسات جديدة ، بعد ان يخلق ظروفا موضوعية جديدة في عناصر الصراع مع العدو . **ثالثا** : ما معنى القول بأن التناقض بين برنامج الانسحاب الاسرائيلي والعربي (المصري والسوري) « عقبة لا أقول انها لا تذلل » بأي معنى كونها لا تذلل ؟ ان مصالح الشعوب العربية تكمن في النضال من أجل تذليل هذه العقبة الاسرائيلية ، اي فرض البرنامج المصري السوري وبالاخص السوري وتوظيف البرنامج السوفياتي في خدمته وكنس الاحتلال والفـوز بالحقوق الوطنيـة للشعب الفلسطيني.وتذليل هذه العقبة لا يمكن ان يكون الا بالنضال **المشترك** مع البرامج الوطنية السورية المصرية ، وبالنضال **ضدها** لايقاف تراجعاتها من مواقع المساهمة في الصراع وعلى أساس البرنامج الكفاحي المشترك . اما القول بأنه « لو كان هناك اتفاق سوفياتي اميركي تفصيلي حول كيفية تطبيق قرار ٢٤٢ ، لكانت العقبة الاولى عقبة بسيطة وممكن تذليلها » هو قول لا يوضح ابدا ما يعنيه. لا اعتقد انه يمكن القول بأن الاتحاد السوفياتي بعقد « اتفاقات تفصيلية » او اتفاقات عامة حول قضايا الشعوب ومن وراء ظهرها . وقد نفى رسميا بشدة ان تكون مثل هذه الاتفاقات . وحتى لو افترضنا ان هناك اتفاقا مع اميركا حول المنطقة ، فان صيغته لا تكون غير التزام اميركي تجاه الاتحاد السوفياتي فرضت طبيعته موازين القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية وابعاده، خلال الحرب وعند وقف اطلاق النار ، باتجاه التزام اميركي بالضغط على اسرائيل لتطبق القرار ٢٤٢ الذي ينظم الانسحابات حتى حدود ٤ حزيران ٦٧ ، ومعبرا عن ، او قريبا من التفسير السوفياتي للقرار ٢٤٢ وقرارات الامم المتحدة تجاه المسألة الفلسطينية كما هو موقفه الرسمي . ولا يمكن ان يكون مثل هذا « الاتفاق » ضد مصلحـة الشعوب العربية . وبسبب من المصلحة المشتركة بين الاتحاد السوفياتي والشعوب العربية في مناهضة الامبريالية الاميركية **وايقاف هجمتها** في المنطقة العربية ؛ فان السوفيات يعملون على المساهمة في تحقيق الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية عن طريق تدعيم نضال الشعوب العربية لتحقيق هذا الهدف وضمان الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني . وحينما لا يكون هناك « اتفاق » سوفياتي اميركي ، فان السوفيات معنيون بتدعيم نضال الشعوب العربية لخلق شروط وامكانات ارغام اسرائيل واميركا على تطبيق القرار ٢٤٢ بالصيغة السوفياتية وحل المسألة الفلسطينية كما هـو موقفهم الذي ابلغوه لقيـادة المقاومة وفقا للقرارات الدولية وبالاخص قرار ٤٧ . البرنامج السوفياتي اذن يشكل

عقبة في وجه التسوية (الانسحابات الكاملة وحقوق شعب فلسطين) بسبب تعارضه مع البرنامج الاميركي . اذن اين تقف حركة التحرر العربية والفلسطينية من هذه العقبة ؟ هل تنتظر او تتمنى ان ينتصر التصلب الاسرائيلي برفض الانسحاب الكامل وتراجع وجهة النظر السوفياتية ، وهذا لا يكون الا باختلال جديد في ميزان القوى ضد حركة التحرر العربية . ام انها ، حركة التحرر العربية ، معنية تماما **بتذليلها** ، خاصة حينما تحجم بعض الانظمة العربية عن الاستمرار في المواجهة القتالية ، ناهيك عـــن خوض حرب جديدة ، اي تذليل العقبة بالنضال الحازم لاجبار اسرائيل على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ .

ــ العقبة الثانية : « حد من التناقض بين الصيغة الاميركية مقابل الصيغة السوفياتية حول كيفية تنفيذ القرار ٢٤٢ » [ص ١٨] هذا الحد المعين من التناقض **الصغير جدا على الورق هو كبير جدا على تراب الارض العربية والفلسطينية.** هذا الحد من التعارض الا يستوجب تعيين حدوده وأهميته ومدى علاقته وتداخله مع البرنامج الوطني السوري والمصري للانسحاب الكامل غير المشروط . وبالتالي امكانات مساهمته في الكفاح لازالة كابوس الاحتلال عن الاراضي العربية والفلسطينية . هذه العقبة من جانب اميركا والتي هي عقبة اميركية ــ اسرائيلية في طريق الانسحابات الكاملة طبقا للمشروع السوفياتي والتي تعكس الحد المعين من التناقض ، اين تقف حركة التحـــرر العربية والثـــورة الفلسطينية منها . هل هي معنية بالمساهمة في الصراع لتذليلها لصالح حركة التحرر العربية والفلسطينية . ام حسابها الى جانب العقبة الاسرائيلية الاولى للمراهنة على عرقلة الانسحابات طبقا لقرارات الامم المتحدة كما هو البرنامج السوفياتي والعربي ، « كأساس موضوعي لتجدد الحرب وصمود الثورة الفلسطينية علـــى طريق الحرب العربية الفلسطينية الشعبية الطويلة الامد ، حتى التحرير الكامل ؟؟ » .

ان المراهنة على هذه الموضوعة حتى اذا كانت صحيحة نظريا، فهي لا يمكن أن تكون كذلك ما دامت تعول على العقبات التي تضعها اسرائيل واميركا في وجه البرنامج العربي والسوفياتي للانسحاب الكامل ، وبالتالي لا يمكن توفير الشروط المادية لامكاناتها على أساس القول « بالعمل الثوري الفلسطيني والعربي الى جـــانب العقبات » لاحبـــاط التسوية بمفهومها الكلي العام « المؤامرة » . ان القول بهـــذا الشكل من « الاحباط للتسوية » لا يستند الى الحقائق الموضوعية لقوانين الصراع والتغيير الاجتماعي ، لان تذليل العقبة لصالح اميركا واسرائيل ، وتمكنها من **الافلات** من جميع عناصر الضغط والحصار والتصدي الذي ولدته حرب تشرين ، لا يعني البتة بعد ظروف الحرب العودة نحو حالة اللاسلم واللاحرب ، وعودة مأزق الانظمة الوطنية الحاد فيهـــا . بل تعني تحديدا ان تتمكن اسرائيل واميركا من فرض عراقيلها ، [بعد أن تكون المقاومة قـــد حشرت نفسها في زوايا الانعزال والكمون بانتظار نتائج التصلب الاميركي الاسرائيلي] وهو يعني بالضرورة انها استطاعت احداث اختلال جديد في موازين القوى لصالحها ، وأعادت التوازن لعناصر سياستها التي افتقدته خلال الحرب وبعدها . وبالنتيجة فهي لا توظفه من اجل الرجوع نحو حالة اللاحرب واللاسلم ، بل في خدمة « حل ما لمعضلات الارض العربية المحتلة وانهاء المواجهة العسكرية » وحل ما للمسألة الفلسطينية طبقا لترجمات برنامج التسوية الاميركية الاسرائيلية في صيغته النهائية المعدلة ، وعندها تبدأ بالمبادرة والهجوم لمطاردة الثورة الفلسطينية وهي في « معاقل » زوايا انعزاليتها ، بعد تقديم حل « كسيح » للمعضلات الفلسطينية يكون للاردن والرجعية العربية دور رئيسي في تنفيذه ، لتتربع اميركا على عرش مواقعها الجديدة في المنطقة وبالاستناد الى مواقع وأدوار رجعية فعالة . وبالطبع ان هذا هو احتمال فحسب لان الجماهير الفلسطينية

التي تعاني من كابوس الاحتلال المطبق على انفاسها « هي التي تحرك التاريخ » وتساهم في صنعه (كما يعترف بذلك جورج حبش ايضا) . وقيادة حركة التحـــرر الفلسطينية **لا تمزح و« لا تلعب بالنار » بل تقاتل وتناضل فيها** ، و« لا تستنكف » عن المســاهمة الايجابية الثورية في الصراع . ولو حصل الاحتمال افتراضا بسبب انجرار قيادة المقاومة الى « مطبات » تاريخية يراد دفعها نحوها ، فلا يكون ذلك الا مؤقتا نسبيا من وجهــة النظر التاريخية ، حتى تتمكن حركة التحرر العربية والفلسطينية من الانطلاق ثانية ، ولكن ذلك سوف يلحق ، بالتأكيد ، ضررا بالغا بحركة التحرر العربية الفلسطينية بشكل خاص ، بسبب مصادرته للمكاسب والانجازات الوطنية التي حققتها الثورة الفلسطينية لفترة تاريخية طويلة . ان مصلحة الثورة الفلسطينية تكمن بالتأكيد في **وضع العقبة تلو الاخرى** في وجه التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية بالنضال ضد حلقاتها الخاصة بالمسألة الفلسطينية ، عن طريق برنامج مهمات وطنية مرحلية ، والمساهمة الايجابية في الصراع، ووضع هذه العقبات ، عمليا ، هو تذليل وكسر للعقبات الاميركية الاسرائيلية (الاولى والثانية) لعرقلة تطبيق البرنامج العربي والسوفياتي للانسحاب الكامل غير المشروط . وهذه العملية المعقدة ، يكون دونها القتال العربي الاستنـــزافي والفلسطيني المـــرير واحتمالات الدورة الخامسة للحرب الشاملة .

بعد حديثه عن العقبات يخلص حبش الى استنتاج نهائي لمواجهة « التسوية » يصوره على الشكل التالي « لو ربطنا العقبة الاولى بالعقبة الثانية ، ثم اضفنا الى ذلك وهذا مسؤولية العمل الثوري الفلسطيني والعربي ــ العامل الذاتي ــ هنا لا استطيع ان اخرج باستنتاج ان التسوية ستكون حتمية مائة بالمائة وان المعارضة لهــا بدون اي جدوى » [ص ١٨] .

أولا : هذا الاستنتاج يقوم على اساس وضع العمل الثوري الفلسطيني والعربي الى جانب العقبات في طريق البرامج العربية والسوفياتيــة (أي العقبات الاسرائيليــة والاميركية) ، خارج التسوية ، وفي مواجهتها . اي ضد وفي مواجهة ، هكذا يفهم من الصيغة ، التسوية بجميع صيغها ، سواء بمحاورها الاميركية ــ الاسرائيلية او برامج معارضتها العربية (السورية والمصرية) والسوفياتية . بمعنى آخر في مواجهة التسوية الاميركية ــ الاسرائيلية وفي الوقت **اياه** في مواجهة البرامج العربية والسوفياتية دون ايجاد اي أساس موضوعي مشترك ، وفي اي حدود ، معها ، عند التصدي للسياسة الاميركية ــ الاسرائيلية وعناصر تسويتها التي تحاول فرضها ضد وعلى حساب البرامج العربية للانسحاب الكامل التي يدعمها الاتحاد السوفياتي . فالعمل العربي والفلسطيني الثوري ويسميه ــ العامل الذاتي ــ وبالاعتماد على العقبات الاميركية الاسرائيلية في وجه البرامج العربية والسوفياتية ، تشكل ، في رايه ، الارضية والقوى الكفاحية التي تستطيع ان تواجه جميع برامج التسوية . وقد سبق مناقشتنا للعقبات وطبيعتها . أما العمل العربي والفلسطيني الثوري ــ العامل الذاتي ــ والذي يعنيــه بالطبع ، هو الجناح الديمقراطي والثوري في حركة التحرر العربية . هــذا « العمل » العربــي والفلسطيني له شروطه الموضوعية والذاتية التي هي شروط ومميزات وطبيعة حركة التحرر العربية عموما له قوانينه وشروط حركته الموضوعية والذاتية كما تقدم في سياق التحليل ، ودورها اي ــ حركة التحرر الديمقراطية والثورية ــ في قيادة الثورة الوطنية والحرب كان حبيسا لقيادة الانظمة التي تقود الثورة الوطنية والحرب ، ضمن الجبهات الوطنية . وبالطبع ان حدود دورها هي تعبير عن وزنها العسكري والسياسي، **والشروط**

الموضوعية* التي تحكم تطورها بشكل عام ، والتي عينت قبل ذلك وزنهـا السياسي وتأثيرها في قيادة الثورة الوطنية ، ودورها التـي اتضحت حدوده في الحرب الوطنية المحدودة **يشير** تماما **ويعين** دورها في توظيف نتائج الحرب الايجابية لصالح حركة التحرر العربية ، ومواجهة تحديات ما بعدها . وهذا ما يتوقف على قدرتها الموضوعية على صياغة برنامج ديمقراطي ثوري مستقل عن القيادات الوطنيـة ، وامكانات ترجمته العملية والفاعلة في الصراع **فعلا** لتجاوز برنامج الانظمة الوطنية او محاصرته . **أو** في حالة عدم نضوج الشروط الموضوعية للتصدي لمهمات هذا البرنامج الكفاحية بالتعارض والتضاد مع القيادات الوطنية ، وهو امتداد لصياغة علاقاتها ومواقفها تجـاه برامج التصدي لمهمات الثورة الوطنية [على طريق رأسمالية دولة اداتها شريحة برجوازية صغيرة] . فان الحركة الديمقراطية والثورة معنية بايجاد وصياغة **برنامج الحد الادنى** والمشترك مع الانظمة الوطنية المتقدمة بشكل خاص (سوريا والعراق) على اساس مهمات مرحلية كفاحية لمواجهة عناصر التسوية الاميركية الاسرائيلية .

٢ ــ **جنيف عنوان المرحلة** : بعد الحديث عن التسوية ، ومواجهتها ينتقل الى مؤتمر جنيف باعتباره « عنوان المرحلة القادمة على صعيد المواقف والبرمجة ؟ » . « يتصور » مرة أخرى . يتصور التسوية الاميركية الاسرائيلية الهاشمية مقابل برامج الانسحاب العربية (المصرية والسورية) والسوفياتية في المؤتمر على الوجه التالي : « عمليا امام مؤتمر يستهدف التسوية بالطرق السياسية ، سيبدأ بوجهة النظر الاميركية الاسرائيلية الهاشمية ، مقابل وجهة النظر العربية ــ المقصود الرسمية ــ السوفياتية . فلنتصور عادة ماذا يحدث في مؤتمرات من هذا النوع . خطوة من هنا ، ثم خطوة من هنا ، ثم خطوة من هنا ، ثم خطوة من هنا ، الى ان نصل الى نقطة مشتركة ، الا تستطيع ان ترى هذه النقطة على ضوء ميزان القوى ؟ » [ص ٢٠] . ان هذا الافتراض يعتبر ان جميع القوى المساهمة في الصراع هي في **حالة سكون** (ميزان القوى **القائم الان** كما يسميه) في الموازين العالمية ، والاقليمية ، والعربية ، والفلسطينية ــ الاردنية ــ والفلسطينية الوطنية [أي الوزن السياسي الذي يمكن ان تصل اليه حركة التحرر الفلسطينية في معركتها ضد الرجعية الاردنية والعناصر العميلة لها المهادنة لاسرائيل] ستكون كما تشير عناصر التسوية النهائية خاصة ، في حلقتها الخاصة بالمسألة الفلسطينية ، هي كما عليه **الان** وبالضبط. (٢) وهو قبل ذلك لم يقل لنا اين هي نقطة البداية في جميع المشاريع المتقابلة والمتقاطعة . هل هي الرسمية المعلنة ، ام هي مواقع نسب الموازين الفعلية للقوى المادية الفاعلة. (٣) ما هي بالضبط نسب الموازين الفعلية الفاعلة في الصراع عالميا ، واقليميا ، وعربيا ، وفلسطينيا . (٤) ما هو المقصود بـ « نقطة من هنا ، ونقطة من هنا » بالنسبة لحدود هامش المناورة والتراجع المحدود بالنسبة للانظمة الوطنية ، حيث لا تملك ، ولا تستطيع التنازل عن شبر واحد من أرض الوطن ، لان ذلك من شأنه ان يعطي طابعا جديدا للصراع ، اي تنازل النظام الوطني عن برنامج الحد الادنى ، وهو ما يهز تركيبة ذلك النظام اياها ، وما يؤدي بالنتيجة الى حسم الصراع داخلها وبأي اتجاه كان طبقا لنسب وموازين القوى داخل تركيبتها في كل قطـر عربي ، فان ذلك سيخلق شروطا كفاحية جديدة امام الحركة الديمقراطية والثوريـة ويحشد طاقـات

---

* الى جانب سياساتها التي لم تمكنها من فرض واقع موضوعي او صياغة علاقات تزيد دورها الاقتصادي والسياسي وتمكنها من تعبئة الجماهير العربية على اساس برنامج كفاحي مستقل عن سقف برامج القيادات الوطنية . وهذا ما جعلها تعجز عن ان تعبىء الجماهير خلال الحرب على اساس هذا البرنامج المستقل ، وبالتالي اضعف دورها في اي تأثير جدي في مسيرتها .

جماهيرية واسعة وفعالة ضد التسوية ، اضافة لذلك ، الحدود الصارمة الاخرى التي تقيد الانظمة بالنسبة للمسألة الفلسطينية ، حيث لا يمكن لاي نظام عربي ان يقرر اي شيء في المؤتمر نيابة عن الشعب الفلسطيني وممثله الشرعي الوحيد [الا اذا افترضنا ان منظمة التحرير انساقت الى « الاستنكاف » عن المساهمة الايجابية في الصراع ، ومن ميادين الكفاح الاساسية ، و« كمنت » حتى تفشل التسوية ، لتبدأ الثورة من جديد] . وبالنتيجة فان الانظمة في جنيف لا يمكن ان تكون حريتها مطلقة او كبيرة في التحرك باتجاه « نقطة من هنا ، ونقطة من هنا » ، عندما تتمكن حركة التحـــرر الفلسطينية وقيادتها منظمة التحرير ان تفرض حضورها والشعب الفلسطيني موضوعيا وعمليا وشرعيا وفي جميع ميادين القتال والنضال ، وهي على هذا الطريق . من هنا تنبع الاهمية القصوى لصياغة برنامج المهمات الكفاحية المرحلية لحركة التحرر الفلسطينية الذي يمكنها مـــن المساهمة الفعلية في عملية الصراع لاحداث تغييرات نسبية جديدة في موازيـــن القوى الفلسطينية ــ العربية والفلسطينية ــ الاردنية ، وبالضرورة تنعكس على الموازين الاقليمية والعالمية وتتبادل التأثير معها . وهذا البرنامج هو الذي يمكنها من التحالف الثابت والفعال مع الانظمة الوطنية المتقدمة (الصامدة عند برامجها للتسوية او الرافضة لها) ومع الجماهير العربية من خلال تعبيرات الحركة الديمقراطية والثورية وبالنتيجة التمكن من **فصم وتعطيل** الحلقة الاساسية في التسوية الاميركية الاسرائيلية التي تتعامل مع المسألة الفلسطينية وتنصب على معضلاتها . وهو ما **يخلق** بالتالي امكانات **التأثير او التغير** في عناصر مرتكزاتها وحلقاتها تجاه معضلات الانسحاب من الاراضي العربية ومظاهره ، حيث مواقع تصدي حركة التحرر الوطنية (فصائلها المتقدمة) ، ومواقع الحركة الديمقراطية والثورية ، لفتح صراعات طبقية واسعة في وجه مظاهر التسوية الاميركية واجهاضها .

ثالثا : مواجهة التسوية والمهام الوطنية الكفاحية الراهنة :

يتوصل قادة فصائل المقاومة ، بعد تحليل الوقائع والحقائق **الفاعلـــة** في معضلات الصراع **المباشرة** ، الى تحديد المهام الوطنية الكفاحية وبرامجها القتالية لمواجهة تحديات ما بعد الحرب ، والتصدي لعناصر التسوية الاميركية لاحبـــاط محورها تجاه المسألة الفلسطينية على الوجه التالي : « من مواقع الرفض الثوري الملموس . . . لا للاحتلال ، لا لمشروع المملكة المتحدة ، لا لعودة قوات الملك ، النضال من اجل تقرير المصير واقامة السلطة الوطنية المستقلة » [حواتمه ٣٨] . وفي تحديد طبيعة الرفض وعلاقته بالدور الفلسطيني المستقل يقول ابو اياد « لا بد من تجسيد الرفض على ارضية فعلا من موقف وطني واحد بحيث لا يسلم هذا الرفض القضية مرة اخرى الى الانظمة العربية » . وفي ترجمة هذا الرفض الى مهمات كفاحية وطنية مرحلية فلا بد مـــن « ان يسمع صوت الشعب الفلسطيني في قضاياه ، والا تركت لآخرين ، اعتقد انهم تاريخيا مسؤولون عن استمرار النكبة واستمرار تكبيل الشعب الفلسطيني ومنعه من التعبير عن نفسه يرفض الاحتلال بموقف عملي » [ص ٥٧] . ولكي يمكن التصدي للمهام الكفاحية الراهنة وتكريس الدور الفلسطيني المستقل ، فلا بد من برنامج كفاحي مرحلي « يجيب على القضايا الراهنة ويتمسك بالحق التاريخي وبالقضايا الآجلة والبعيدة المدى » . وأهمية هذا البرنامج هي كونه يواجه المعضلات العينية المباشرة ، ويمكن من تعبئة الجماهير وتوحيدها للنضال من اجل انجازها . « ومثل هذا الموقف الفلسطينـــي الموحد ضمن برنامج مرحلي يزيد من التفاف الجماهير العربية حولنا لانـــه يتناول الامور المبدئيـــة والتاريخية والمرحلية ، ويجعل حركة التحرر العالمية أيضا تشعر انها أمام ثورة جادة تريد ان تواجه مشاكلها الراهنة والتاريخية بحلول واقعية وثورية » [ص ٢٧] . هذا

التحليل يقود بالضرورة الى حقيقة كون النضال من اجل السلطة الوطنية هو تجسيد لمهمات كفاحية مرحلية ، وان « هناك مطلبا لاقامة السلطة الوطنية على قطعة من الارض الفلسطينية ، وهو مطلب نضالي ، وهو مطلب صعب » [ابو اياد ص ٢٦] . وبما ان مهمة تشييد السلطة الوطنية مرتبطة بمعضلات الكفاح من اجل اجبار العدو على الانسحاب من جزء من الارض الفلسطينية وتتويجا لها ، وهي معالجة ومواجهة ثورية للمشكلات التي يواجهها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال في الضفة الغربية والقطاع ، فان « مسألة السعي لانشاء السلطة الوطنية الفلسطينية هي مسألة من صلب العمل السياسي والوطني لاي حركة مسؤولة ، ان اي حركة ثورية ، اي ثورة لا بد ان تسعى الى انشاء السلطة » [ص ٤٥ زهير محسن] . هذه التشخيصات والتحليلات المشتركة تدور حول محاور اساسية يمكن تلخيصها ، بـ : تعيين المهمات الكفاحية المرحلية ، النضال من أجل اقامة السلطة الوطنية ، تحديد البرامج الكفاحية التي تمكن من الفوز بها . اما جورج حبش الذي ينطلق من تشخيصات مختلفة لمعطيات تشرين ، ويتميز « بتصور » خاص للتسوية ، فقد توصل الى نتائج مغايرة عن ما توصل اليه قادة المقاومة الآخرون .

١ ـــ **المرحلية** : يقول في المرحلية « ان موضوع المرحلية ، موضوع وارد ، وموضوع علمي ، وموضوع شروع » [ص ١٩] هذا التأكيد لا يأخذ اهمية الا بالترجمة العملية لقضية المرحلية وكيفية التعامل بهذه الصيغة لمواجهة الخصائص المتميزة لما بعد تشرين .

٢ ـــ **الفصل بين المرحلية والمؤامرة** : يؤكد جورج حبش على « ضرورة الفصل والتمييز الواضح والدقيق جدا بين اي برنامج مرحلي تريد ان تستخرجه الثورة الفلسطينية الان ، لتلافي ، فلنقل ، خطأ سابق وقعت به ... بين هذا الموضوع وبين مؤامرة موضوعة الآن لتصفية القضية الفلسطينية » [ص ٤٨] . هذا البرنامج ، هل «تستخرجه» الثورة من «عندياتها»، «وتصورات» قادتها، ام يقوم على تحليل الوقائع والحقائق الجديدة والملموسة ، وما تفرضه على الاعداء من سياسات مختلفة لمواجهتها . وما تتطلبه بالنسبة للثورة لكي تتمكن من توظيف تلك المعطيات في خدمتها ومواجهة تحديات ما بعد الحرب ، وبالتالي تحديات السياسة الاميركية ـــ الاسرائيلية . هل المؤامرة شيء آخر غير برامج السياسات الاميركية والاسرائيلية لما بعد الحرب . وبالطبع فهي ليست « موضوعة الآن » بصيغة جاهزة ، انما هي نوايا واهداف وخطط اميركية اسرائيلية متحركة ومتغيرة ابدا طبقا لوقائع الصراع وامكانات حركة التحرر العربية والفلسطينية في التصدي لها .

ب ـــ **برنامج المجلس الوطني الحادي عشر** : ان البرنامج « يحمل ادانة واضحة وصارخة للقرار ٢٤٢ ، يحمل ادانة واضحة لاي تسويات تصفوية ، يحمل ادانة واضحة وصارخة لاقامة اي دولة على جزء من التراب الفلسطيني في ظل المعطيات التي انعقد فيها المجلس الوطني الحادي عشر » [ص ٤٩] . البرنامج صيغ في ظل معطيات ما قبل تشرين اذن ؟ هل الحرب لم تفعل شيئا ؟ هل المعطيات قائمة كما هي عند انعقاد المجلس؟ ماذا عن مؤشرات ، وحقائق الحرب وما بعدها ؟ الصيغة الثانية تجيب على « طريقتها » على هذه التساؤلات « بعد ذلك كانت حرب تشرين ، وبعد حرب تشرين أتى مؤتمر جنيف ، وعند مؤتمر جنيف ، شهدت الساحة الفلسطينية موضوع « ضرورة الواقعية » وموضوع « مللنا كلمة لا » . ان المواد التي شيدت عليها نتائج الحوار ومسألة المرحلية وصياغة المهمات الكفاحية الراهنة، مبنية على معطيات ووقائع حرب تشرين، كما تحدث جورج حبش عن بعض منها كـ «انتقال الامبريالية من موقع الى آخر» وقول دايان للدفاع عن قبول وقف اطلاق النار « القبضاي يتفضل » . وايضا نحن لا نستطيع ان نواصل

الحرب دون الاعتماد على اميركا ، دون اوثق العلاقات مع اميركا » . هذه الوقائع الى جانب ما خلقته الحرب من وقائع عربية واسرائيلية وعالمية ، وليس « مللنا كلمة لا » و« ضرورة الواقعية » هي التي شكلت منطلقا للحوار وأساسا لتحليل طبيعة المرحلة . الا أن ما هو أكيد وثابت ، ان اية حلول للمسألة الفلسطينية على اساس القرار ٢٤٢ وفي ظل الاختلال الفاضح في ميزان القوى لصالح العدو واميركا قبل الحرب كان يمكن ان تكون حلولا **تصفوية قطعا** . وحتى بعد تشرين ، فان أية حلول ، ما لم تكن مرتكزة على أساس تحقيق برنامج المهمات الوطنية الكفاحية الراهنة هي حلول **تصفوية أيضا** . من هنا فان حقائق ووقائع الحرب التي عينت وفرضت مهمات كفاحية مرحلية وعلى أساس برنامج كفاحي متعدد الاشكال النضالية ، تستلزم بالضرورة احداث **تطوير ايجابي** في برنامج المجلس الوطني الحادي عشر ، يستجيب لمعطيات الحرب ومتغيرات ما بعدها . هذا التطوير بالذات هو الذي يجعل المنطلقات الاستراتيجية تبعا لمتغيرات الصراع ، تكتسب حيوية وديناميكية ، وتمتلك أدوات كفاحية مرحلية فعالة على طريق الصراع الطويل مع العدو . وهو ما يجنب تلك المنطلقات ، في ظل متغيرات ما بعد الحرب ، من ان تتحول الى **صيغ نظرية عامة** ، لا تعرف لها **ترجمات كفاحية مرحلية** ، ولا ترتكز على قوى مادية فعلية محركة للثورة ومساهمة في عملية الصراع المباشر .

٢ ــ **الحلقة المركزية** : في معالجة هذه المسألة يقول جورج حبش « علينا ان نميز فعلا بين رؤيتنا لهذه الحلقة المركزية ، وبين ما هو مطروح دوليا من قبل اميركا بالذات ، او فلنقل ، من قبل القوى المعادية ، او من قبل المجتمع الدولي » . هذا المنطلق يفترض ان الحلقة المركزية هي « مشاريع جاهزة » تطرحها اميركا او اسرائيل او القوى المعادية او المجتمع الدولي (بما فيه الاتحاد السوفياتي بالطبع) ، وهذا ما يتطلب مواجهتها كوحدة واحدة باعتبارها « تسوية يطرحها المجتمع الدولي » . اما موضوع هذه الحلقة فيعتقد جورج حبش بأن « الحل المطروح من محصلة القوى الدولية هو موضوع كيان فلسطيني او دولة على جزء من الارض الفلسطينية » [ص ٥٠] . كما تقدم ليس هناك « حل جاهز مطروح » ، بل سياسات وبرامج متعارضة ومتناقضة ومتصارعة . وهذه الصيغة لم توضح ما اذا كانت حلول البرامج العربية « وحلقاتها المركزية » جزءا من القوى الدولية أم خارجها ، وما هو دورها ، أو تأثيرها وفاعليتها في « المحصلة الدولية » من خلال تصديها لتحقيق برامجها الوطنية للانسحاب الاسرائيلي الكامل كما هو البرنامج السوري تحديدا .وحتى تستكمل وتقدم «هدية» الكيان الفلسطيني من القوى الدولية كما يفهم من هذا الراي ، ما هي مهمات الثورة الوطنية الكفاحية وفعلها المباشر في عناصر الصراع على امتداد مرحلية « جهد » القوى الدولية .

ــ **حلقتنا الخاصة بنا** : « ليس من الضرورة ان تكون الحلقة المركزية في هذه الفترة متشابكة مع الحلقة المركزية المطروحة على صعيد دولي » [ص ٥٢] . وهذا الكلام يعني اننا يجب ان نحدد الحلقة المركزية وفقا لرغباتنا وتصوراتنا الذاتية ، وليس وفقا لتحليل عناصر المعضلات اياها التي تحاول السياسات الامريكية ــ الاسرائيلية والعالمية التصدي لها . واذا كانت المهمات المرحلية للثورة الفلسطينية تشكل حلقة مركزية بالنسبة لها ، فهي ليست كذلك بالنسبة للسياسات العربية أو السوفياتية ، أو سياسات اميركا واسرائيل . انها تشكل فحسب ، برامج متعارضة ومتصارعة لمواجهة معضلة واحدة. تلك البرامج التي ترتكز على منطلقات متباينة وتحليلات مختلفة لمعضلات الصراع . ولكنها **ترتكز** في النهاية على **موازين القوى الفعلية القائمة عند التطبيق** لكي تأخذ أشكالها النهائية . ثم لماذا لا تكون حلقتنا المركزية ، أي مهماتنا الكفاحية الراهنة ، متداخلة ومتشابكة فعلا ، بل ان ذلك مهمة نضالية يجب العمل من أجلها ، مع البرامج الكفاحية

العربية أو مع البرنامج السوفياتي تجاه مشكلات الصراع الفلسطينية . ان تحديد **أرضية التداخل والتشابك بين** الحلقة المركزية الفلسطينية وبرامج الانسحاب العربية من جهة وبينها وبين حلقة البرنامج السوفياتي والقوى الدولية المعارضة للسياسة الاميركية — الاسرائيلية ، تجاه المعضلات الفلسطينية المرحلية ، هذه الارضية هي التي تعين على تحديد عناصر **المساحة المشتركة** بين البرنامج الفلسطيني والبرامج العربية والسوفياتية.

— **بنود الحلقة المركزية** : في البحث عن استقلالية الحلقة المركزية « وتفردها » يتوصل جورج حبش الى القول بأنه « يمكن ان تكون الحلقة المركزية « من بندين رئيسيين » **الاول** : مقاومة الاحتلال الاسرائيلي حتى يجلو بالقوة . **والثاني** في الحلقة المركزية : اسقاط النظام العميل الرجعي في الاردن عن طريق الجبهة الوطنية الاردنية » [ص ٥٠] . ان القول بالنضال على اساس حلقة مركزية ذات محورين ، او حلقتين مركزيتين في آن معا ، هو قول لا يمكن ان يكون صحيحا ، الا اذا كان ميداني الكفاح اللذين تتصدى لهما الثورة عبر الحلقتين (او البندان في الحلقة الواحدة) يشكلان ساحة كفاحية واحدة متداخلة ومترابطة بشكل عضوي . بمعنى ان تكون القوى في كل منهما من طبيعة واحدة ، أي القوى المضادة للثورة في معسكر واحد . والقوى الوطنية والديمقراطية في مواجهتها وفي استقطاب واضح المعالم والحدود . كما يجب ان تكون الشروط الاساسية للكفاح، للانتفاض والثورة في الميدانين واحدة ، اي : ● عجز القوى الحاكمة والمعادية للثورة وبدرجات مختلفة عن الاستمرار في الحكم ● وصول الحركة الوطنية والديمقراطية في كلا الميدانين الى استراتيجية موحدة واشكال كفاحية متداخلة تؤثر بعضها في البعض . بمعنى ان تواجه في الميدانين مهام كفاحية من طبيعة واحدة ● الازمة العامة التي تحكم البنية الداخلية للقوى المناهضة للثورة في كلا الميدانين. اما بالنسبة للشروط الشديدة الخصوصية المميزة للنضال في كل من ميداني الكفاح في الضفة الغربية وغزة ، تحت الاحتلال من جهة ، والاردن من جهة ثانية ، فان تعيين حلقة مركزية تشكل بؤرة يتحلق ويتكثف حولها النضال في كل واحد من هذين الميدانين في مرحلة معينة او في شوط معين بالذات مسألة ترتبط بخصائص كل مرحلة نضالية بالنسبة لكل ميدان . (الاردن على امتداد ٦٩ حتى ايلول ٧٠ ، الضفة الغربية وغزة منذ حرب تشرين لاجلاء الاحتلال واقامة السلطة الوطنية) .

اما القول بأكثر من حلقة او اكثر من بند للحلقة ، بالنسبة لحركة التحرر الفلسطينية على اساس القول بـ « اننا مطالبون بأن نحدد هدفا مرحليا لمليون وربع المليون فلسطيني داخل الارض المحتلة ، وايضا مطالبون بأن نحدد هدفا مرحليا واضحا لحوالي مليون فلسطيني في الضفة الشرقية فان الاسترسال في هذا الراي الى نهايته المنطقية ، يوصلنا الى الحلقة الخامسة عشرة ، او « البند الخامس عشر للحلقة المركزية » . اذا كانت ميادين الكفاح مختلفة ومتعددة فهذا لا يعني أن لكل ميدان حلقة مركزية . انها أشكال كفاحية مختلفة ومتنوعة ضمن استراتيجية واحدة . ولا بد من ان يكون في كل مرحلة كفاحية او فصل منها **اولوية خاصة** او استثنائية لاحد ميادين الصراع ضمن استراتيجية الثورة العامة، حيث يكون ذلك الميدان **بؤرة تكثيف عناصر الصراع** وذات اولوية حاسمة. تلك هي بالضبط الحلقة المركزية ذات **البند الواحد** . ان عدم تكثيف النضال في حلقة مركزية واحدة ، يؤدي الى تشتيت القوى ، اي قوى الثورة ، وبعثرتها ، ويفقد الثورة عناصر ومقومات حالة **ازمة ثورية** لا يمكن عودة شروطها « تحت الطلب » (كما هو بالنسبة لضياع فرصة الازمة الثورية في الاردن عام ٧٠) . ان النجاح في انجاز اية حلقة مركزية في اي ميدان تنعكس مباشرة على الصراع في الميادين الاخرى ويوظف في خدمة الحلقة المركزية التالية .

(٣) **السلطة الوطنية:** في الجواب على السؤال الخاص بمستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ يقول جورج حبش « الفخ في هذا السؤال أن نقول انه ممكن ان ينتج عن مؤتمر جنيف سلطة وطنية فلسطينية ، لا يمكن ان تنسحب اسرائيل في ظل ميزان القوى القائم الا بحالتين قوة رجعية أو قوة مستسلمة » [ص ٢٤] . هذا الاستنتاج يفترض ان مؤتمر جنيف هو الذي يقرر وليس معطيات وعناصر الصراع وموازين القوى. ويعتبر ان ميزان القوى **القائم الآن** سيبقى كما هو عندما يمكن ان تتشكل عناصر تسوية ما . وبالتالي فهو يغفل الامكانات النضالية العربية والفلسطينية التي تمكن من فرض عناصر برامج الانسحاب غير المشروط العربية والفلسطينية وما يعكسه ذلك من تغيرات نسبية في موازين القوى . اما القول بمعادلة « سلطة رجعية او مستسلمة » فهي معادلة تعجز عن تفسير حركة الواقع وجدليته بشكل كامل . فالتعديل النسبي في الميزان الوطني الفلسطيني ، بسبب موقف الملك من الحرب مقابل اشتراك المقاومة الفعال فيها (جبهة ثالثة) وانتصارات مؤتمري الجزائر ولاهور ، قد جعل موازين القوى **غير ما هي عليه قبل الحرب ، وغير ما هي عليه بعد وقف اطلاق النار** ، وبالتالي تعذر امكانيـــة عودة الرجعية الاردنية على أساس مشروع المملكة المتحدة . وحينما نقول بعودة الرجعية الاردنية ، فمعنى ذلك ان اختلالا جديدا في موازين القوى ضد حركة التحرر الفلسطينية لا بد أن يحصل قبل أن تتمكن الرجعية الاردنية أو العناصر الفلسطينية العميلة من التحكم بمصير الشعب والوطن ، والنضال الحازم من اجل طرد الاحتلال وتقريـــر المصير هو الذي **يحصن** ضد مثل هذا الارتداد . اما الوجه الثاني للمعادلة ، والقائل بالانسحاب لـــ « سلطة استسلامية » فهو الآخر يقوم على افتراض محاصرة حـــركة المقاومة ، وتصفية محتواها الكفاحي والجماهيري ، وافراغها من آخر شحناتها الوطنية . ومن هنا فان أي موقف فلسطيني أو سياسة فلسطينية تضع نفسها خارج برنامج المهمات الوطنية الكفاحية الراهنة مهمات النضال من أجل اجلاء الاحتلال بالقوة وبمختلف اشكال الكفاح واقامة السلطة الوطنية فانما يعمل وتعمل على : **عزل** جزء من جماهير الثورة الفلسطينية **مؤقتا** عن الاشتراك الفعال في الصراع . **تصديع** الوحدة الوطنية الفلسطينية التي هي الاداة الفعالة لانجاز المهام الوطنية . **المساهمة** دون وعي ، في **خلق الارضية** التي يمكن أن تساعد عناصر السياسة الاميركية والاسرائيلية على النفاذ من **مساماتها** . هذا الاحتمال الذي يمكن ان تتطور باتجاهه عناصر الصراع هـــو الذي تراهن عليه اسرائيل واميركا ، وهو الذي يمكن من اضعاف منظمة التحرير ومحاصرتها ، وعزلها عن قاعدتها الجماهيرية وافراغها من شحناتها الوطنية ، آنذاك فقط يكون الانسحاب لقوة « رجعية او مستسلمة » في ظل اختلال جديد في مصلحة اسرائيل واميركا . وليس كما **هو قائم الان**. او ما يمكن ان يتطور اليه بالنضال على اساس البرنامج الكفاحي المرحلي.

(٤) **البرامج القتالية : العربية والفلسطينية :**

في حديثه عن البرنامج القتالي الفلسطيني يقول جورج حبش : « الحل المطروح اذن برنامج قتالي يمكن أن يتم ارتكازا الى موقف موحد يمكن أن تتخذه المقاومة ويلتحم فعلا بالموقف السوري ، وعندما يلتحم بالموقف السوري يبدأ نشاطنا لنضع العراق أمـــام مسؤولياته والجزائر أمام مسؤولياتها » [ص ٥٣] . وحـــول التصدي لمؤتمر جنيف وبرنامج الانظمة المشاركة فيه او التي على طريقه يقول بأن « البديل لمؤتمر جنيف ، استمرار النضال السياسي والاقتصادي والعسكري لتغيير ميزان القوى ، اذن فلنبدأ نشاطاتنا العربية والدولية على هذا الاساس » [ص ٢٤] .

لا يمكن لاي وطني وتقدمي عربي ، الا أن يعلن اتفاقه الكامل حول اهمية البرنامج القتالي للمقاومة ، وضرورة **التحامه** بالموقف السوري ، واستمرار النضال العسكري

والاقتصادي والسياسي كبديل لمؤتمر جنيف . الا اننا يجب ان نفحص بدقة طبيعة برنامج الانظمة وحدوده ، ومرتكزات برنامج المقاومة وامكانياته الفعلية ، وبالتالي العلاقة التي تربط بين البرنامجين والحدود الكفاحية المشتركة فيهما .

٢ ــ **البرنامج القتالي ، السوري ، العراقي ، الجزائري** : رغم التباين النسبي في طبيعة كل منهما ، فان ما هو ثابت ومشترك ، هو برنامجهما ودورهما في الحرب الوطنية المحدودة . ومنذ موافقة سوريا على القرار ٣٣٨ وبالتالي ٢٤٢ فان برنامج النظام السوري الرسمي المعلن هو السير على طريق تسوية سياسية على اساس الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني*. وطبيعة النظام السوري وتركيبه الطبقي هي التي تعين طبيعة هذا البرنامج ، وهي التي تتحكم في مساره وآفاقه . الا ان هذه الطبيعة والحدود ، لا تعني على الاطلاق ان المقاومة لا تستطيع التأثير فيه لمصلحة برنامجها وتوظيف عناصر البرنامج العراقي والموقف الجزائري في خدمته . وقبل تعيين هذا الدور يجب ان نحدد بدقة هل ان « استمرار النضال الاقتصادي والسياسي والعسكري » [المقصود هنا الانظمة العربية عموما] هي مهمات لحركة التحرر الفلسطينية وبرنامجها وبالتالي قرار للقيادة الفلسطينية . بمعنى هل ان قيادة المقاومة هي قيادة لحركة التحرر العربية ، وقواها الوطنية هي قوى حركة التحرر العربية ، أم ان عليها ان تتصدى للوظيفة التاريخية لحركة التحرر العربية بالنيابة عنها . لقد تحدث ابو اياد عن هذه المسألة بوضوح « يجب أن نتواضع ونقول اننا جزء من حركة التحرر العربي ، وجزء من حركة التحرر العالمي ». ومن هذا المنطلق الذي يحدد طبيعة حركة التحرر الفلسطينية ودورها كيف يمكن تعيين تأثير برنامجها القتالي وقرارها في البرنامج السوري وعلى طريق « استمرار النضال العسكري والاقتصادي والسياسي » وتوظيف الموقف الجزائري والعراقي .

ان تحديد طبيعة البرنامج السوري وآفاقه ، وتعيين المهام الكفاحية الوطنية لحركة المقاومة هو الذي يمكن من تحديد طبيعة **المعارك المجيدة والعظيمة الاهمية** في جبهة الجولان ، وان ادراك آفاقها **التكتيكية الضاغطة** ضمن الموافقة على ٢٤٢ ، هو الذي يمكن من ايجاد حدود وأسس **البرنامج القتالي السوري الفلسطيني المشترك البرنامج** الذي يمكن من الاستجابة لجميع عناصر التغيير في معضلات الصراع ، في الجهة العربية او الاسرائيلية باتجاه تغيرات في موازين القوى بل هو الذي يمكن من تصعيد المواجهة العسكرية ويترافق معها ، حتى آفاقها القصوى باتجاه حرب عربية اسرائيلية شاملة عندها يكون العراق والجزائر فعلا أمام مسؤوليتهما . اذا كانت هذه طبيعة البرنامج السوري وحدوده ، فما هو البرنامج الكفاحي للمقاومة الذي يمكن من دفعه الى أقصى آفاقه .

ب ــ **البرنامج القتالي للمقاومة والتحامه بالموقف السوري** : يقول جورج حبش « الحل المطروح اذن برنامج قتالي يمكن أن يتم ارتكازا الى موقف موحد يمكن ان تتخذه المقاومة » ولم يحدد بعد ذلك طبيعة هذا البرنامج ومهماته المرحلية الراهنة التي يمكن للبرنامج أن **يلتحم** على اساسها **فعلا** بالموقف السوري كما تقدم . ان ما اورده في سياق تحليله لمعطيات تشرين وأثرها على استراتيجية وتكتيك العمل الفلسطيني ، تأكيده على أنها ، أي المعطيات ، قد أكدت بوضوح « ان هدف الثورة « قابل للتحقيق فعلا » ، وأكدت « صحة استراتيجية العمل الفلسطيني . . . وعلى رأسها الشعار الاساسي : المجتمع

* التصريحات الرسمية الاخيرة تقول بـ « الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني » دون تحديد الفرق بينها وبين الحقوق الوطنية الراهنة .

الديمقراطي في أرض فلسطين » . وهذا الاستنتاج يعني أن برنامج المقاومة هو برنامج الاستراتيجية العامة وأهدافها التاريخية . فكيف يمكن على اساس هذا التأكيد للاستراتيجية **الالتحام** بالموقف السوري كما تقدم الحديث عن أرضيته وآفاقه ، ووضع الجزائر والعراق أمام مسؤوليتهما . هنا يجب أن نسأل ونحدد : هل تخوض المقاومة حربا وطنية ام حربا شعبية فلسطينية طويلة الامد ، بالتأكيد وكما هي منطلقاتها الاستراتيجية وطبيعة الصراع ، والكفاحات المسلحة التي خاضتها قبل تشرين جعلها على طريق حرب الشعب الطويلة الامد ، ولكن استمرارها في السير على هذا الطريق ، وكما أكدته دروس الحرب بوضوح مرتبط بثبات بعلاقتها العضوية بحركة التحرر العربية ، وموقف فصائلها الوطنية والديمقراطية تجاه اشكال الصراع ومواقعها ووزنها ودورها في التأثير والفاعلية فيه . . حرب وطنية ام شعبية طويلة الامد ، ام « انهاء للمواجهة » .

وهنا يتقدم السؤال : ما هي القوانين التي تحكم حركة التحرر الفلسطينية بعد الحرب وفي حالة «انهاء المواجهة» التي تسير الانظمة الوطنية على طريقه . بأي شروط، وبأي برنامج قتالي يمكن استمرار القتال وتطويره « لردم مرحلة الفراغ » (الكمون حسب بعض التعبيرات العربية) ، بين «انهاء المواجهة» [وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية هو انهاء مواجهة جزئي] وبين بداية نمو وصعود شروط وامكانات تصدي الحركة الديمقراطية والثورية العربية لقيادة الثورة والحرب . في الاجابة على هذه التساؤلات ، تكمن معرفة طبيعة وامكانات البرنامج القتالي للمقاومة الفلسطينية .

بعد مناقشة الاجتهادات المختلفة بصدد التسوية ، آن لنا ان نستحضر الموضوعة الاساس التي تشكل **المنطلق المشترك** بين أي تحليل موضوعي ، وتشخيصات وتحليل قيادة المقاومة وما هو أساسي في اجتهادات جورج حبش وهي القائلة بالنضال من اجل «منع وعرقلة التسوية ، او في ان تتخذ أشكالا مختلفة عن الشكل والاشكال المطروحة». وبما انه ليس هناك اشكالا جاهزة مطروحة كما تقدم فان المسألة هي مسألة صراع وتغييرات نسبية مستمرة في موازين القوى العالمية والاقليمية والعربية والفلسطينية هي التي تفرض في النهاية أشكال الانسحابات الاسرائيلية غير المشروطة .

هذه الموضوعة **المشتركة** تتخذ ترجماتها العملية ، في التصدي للتسوية الاميركية — الاسرائيلية على أساسها ، عبر **برنامج عربي — فلسطيني مشترك** يتمكن من توظيف الموقف والبرنامج السوفياتي في خدمته ، ويمكن من الربط الوثيق بين **الحد الاقصى للبرنامج العربي** والحد الادنى للبرنامج الفلسطيني والذي يتخذ محاوره تحديدا — تحقيق الانسحاب غير المشروط من الاراضي المصرية والسورية والفلسطينية دون ترتيب اي التزامات واشتراطات — النضال المشترك مع حدود برنامج الانظمة العربية المتقدمة (العراق وسوريا والجزائر بشكل خاص) لمنع عودة الملك، وتوفير شروط ممارسة تقرير المصير، وتأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية المستقلة. ان النضال على أساس هذا البرنامج **المسلح** والانتفاضي والسياسي، عربيا، مواجهة قتالية، استنزاف، احتمالات جولة جديدة، وفلسطينيا، تعبئة الجماهير الفلسطينية في اطر سياسية وطنية عريضة ، وتنمية وتنشيط العمليات العسكرية في الضفة الغربية والقطاع ، هذا البرنامج الكفاحي هو الذي يمكن **فعلا** من التصدي لعناصر التسوية الاميركية وجعلها تتخذ «اشكالا جديدة مختلفة عن الاشكال المطروحة.» وهو **الاداة** الكفاحية لصقل وتصليب الوحدة الوطنية الفلسطينية ، في مرحلة مواجهة الهجمة الاميركية السياسية ، **وتأسيس الرافعة التاريخية** كأداة انتقال من مرحلة كفاحية الى أخرى في مسيرة حركة التحرر الوطنية وعلى طريق الصراع الطويل مع العدو والامبريالية الاميركية .

الشرق الاوسط في خطط نيكسون وكيسنجر

الدكتور نصير عاروري
و
الدكتور أحمد طربين

ان العالم الذي يرمقه ويتصوره كل من نيكسون وكيسنجر هو عالم خماسي القوى ، يتألف من مراكز القوى الرئيسية التالية : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين واليابان واوروبة الغربية . فبالنسبة لهما ، يوجد علاقة من نوع ما تنظم مراكز هذه القوى بحيث أن كلا منها يقيد تحرك الاخر .

لقد قدم كيسنجر الاطار الفكري لمفاهيم نيكسون ومثله ، وبنى تحليله على الاعتراف بان توازن القوى الذي اوجدته الحرب العالمية الثانية لم يعد له وجود . اذ يوجد توازن جديد للقوى يقوم الان على أساس وفاق دولي يتوازن فيه مركز كل دولة مع الاخرى على نحو مشابه لما ساد اوروبة عشية مؤتمر فيينا (١٨١٥) ، وقد فهم مترنيخ وتاليران ، اللذان لعبا دورا رئيسيا في بناء الاستقرار العالمي عشية الحروب النابوليونية ، ضرورة منع أية دولة من ان تغدو سيطرتها بالغة الاتساع في اوروبة . وكانت البديهية الاولى لديهما هي : « تطبيق مبدأ التضامن والتوازن واتحاد جهود الدول الكبرى ضد تفوق واحدة منها » .

لقد أوجد مؤتمر فيينا عالما يقوم على اساس مبدأ « الشرعية » المقدس من قبل الدول الكبرى المحافظة . فلقد وحدت هذه الدول الخمس (روسية وبروسية وفرنسة وانجلترة والنمسة) جهودها في محاولة مشتركة لقمع حركات التحرر والتمرد . وكانت مغامرتهم ذات نزعة محافظة رجعية مكنتهم من العمل كمجموعة متوافقة لفرض ارادتهم على الدول الاخرى التي تتحدى نظامهم القائم . ان القرن التاسع عشر مشابه للقرن الذي يتحسس مشاكله نيكسون وكيسنجر ، هو عالم الائتلافات المتحولة المتقلبة وبعض الاحلاف المتشابكة المتداخلة .

ان احلاف ما بعد الحرب العالمية الثانية التي تشمل الناتو والساتو والانزوس والسانتو بدأت تظهر وكأنها أقل فائدة في مراعاة « المصالح القومية » الامريكية مما كانت عليه في الماضي . ويفترض مبدأ نيكسون ان الاحلاف المتشابكة لا تتفق مع مفهوم وفاق الدول الذي لا بد أن تتحول وتتقلب فيه الائتلافات . فضلا عن أن مثل هذه الاحلاف يقصد بها تحديد حرية صانعي القرارات الامريكية واعاقة مرونتهم . وبدلا منها ، يقوم مبدأ نيكسون على أساس الحاجة لوضع شبكة احلاف غير رسمية وغير مكتوبة تجتمع كلها على صعيد واحد في مختلف انحاء العالم ، وتمتد مجموعة دولها الموالية للغرب من تايوان وفيتنام الجنوبية في الشرق الاقصى حتى البرتغال على المحيط الاطلسي . وتشمل هذه المجموعة كمبودية وتايلاند وباكستان واثيوبية وايران واسرائيل واليونان . ومن الجدير بالذكر أن واشنطون تأمل في أن يتاح لبعض الدول العربية ان تنضم الى هذه المجموعة بعد قيام تسوية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي .

ان مبدأ نيكسون وكيسنجر الذي يوكل الى بعض الدول القيام بمهام حربية معينة نيابة عن الولايات المتحدة لخدمة اهداف السياسة الامريكية ، يرمي الى تحقيق هذه الاهداف بارخص السبل وانجعها . فهو لا يقلص التزامات الولايات المتحدة في الخارج ، بل على العكس ، يضاعفها باستخدام التكنولوجية والمساعدات المادية للحصول على اقصى حد من النتائج . لقد افصح الرئيس نيكسون عن مبدئه الهادىء في رسالته عن الوضع العالمي لعام ١٩٧١ بقوله ان امريكة لا يمكنها ان تزود حلفاءها بالمال والرجال والتجهيزات ، وبالتالي ينبغي ان تعتمد الولايات المتحدة على « الشركاء » اي الدول المنابة ، لقمع الثورة الاشتراكية لكي يسود « السلام والامن » في العالم . وجدير بالذكر ان عبارة « السلام والامن » على النمط الامريكي تساوي كلمة «الوضع الراهن». ولا يهم بالنسبة لنيكسون وكيسنجر ما اذا كان الوضع الراهن هو عادل ام لا ، ففي نظرهما يكفي ان يكون نعته « شرعيا » ، ويجب اعادته والحفاظ عليه بمعونة الدول المنابة . لقد ابلغ نيكسون احد محرري صحيفة **نيويورك تايمز** ، س. ل. سالزبرغر اثناء مقابلة بينهما تمت عام ١٩٧٠ ، « ... كما بينت في شرحي الاول لمبدأ نيكسون ، يتجه فكرنا الى خلق وضع في تلك البلدان التي نرتبط معها بالتزامات ، يوجب عليها ان تعتمد علينا لتزويدها بالأنبوب والماء ، اذا كانت على استعداد لخوض غمار الحرب » . اما رجال المطافىء المكلفون باخماد نيران الثورات الاجتماعية فتقدمهم الدول المنابة .

وبحسب ما يراه نيكسون وكيسنجر ، يمكن ، بل ينبغي ، انهاء الحرب الباردة ضمن اطار خفض الوجود الامريكي ورفع دور الدول المنابة . لقد تحولت المنافسة بين الدول الكبرى في الفترة المعاصرة من الميدان الاوروبي الى الحلبة الاسيوية . ففي الصراعات الناشبة في غربي آسية (١٩٦٧ و١٩٧٣) اقتربت الدولتان الاكبر من حافة الحرب ، ولكنهما وافقتا على عدم التورط فيها . وفي غضون الحرب الهندية ــ الباكستانية في جنوب آسية (١٩٧١) قامت الصين والولايات المتحدة بمناورات ضد الهند والاتحاد السوفييتي يقصد منها التخويف والخديعة ، ولكن لم تلبث ان تهاوت بانهيار الباكستان. وفي جنوب شرق آسية ، التمست الولايات المتحدة معونة الصين لدفع فيتنام الشمالية والاتحاد السوفييتي نحو موقف اقل صلابة ، فتحقق لها ذلك . وفي النهاية فرضت التسوية اعتبارات توازن القوى في الشرق الاقصى ، والنزاع الصيني ــ السوفييتي ، وادراك الولايات المتحدة بانها لا يمكنها ان تحقق نصرا عسكريا في فيتنام . ووافقت الدول الكبرى الثلاث ، وكل منها كانت تتخوف من الاخرى ، على وضع نهاية للحرب في الهند الصينية عام ١٩٧٣ .

وجدير بالملاحظة ان نفوذ وسياسات الدول الكبرى الثلاث كان ملموسا في جميع المناطق الآسيوية الثلاث (جنوب شرق آسية وجنوب آسية وغرب آسية) ؛ وكانت سياسات الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة تتسم بالعداء الصريح المتبادل ، وكل من الدولتين كانت تساند احد المتحاربين على النحو الذي كان يجري في حروب البلقان قبيل الحرب العالمية الاولى ؛ ولعبت الصين في هذه المناطق الثلاث كلها دورها الخاص في مناهضة الدولتين الاكبر والتأرجح بينهما ؛ وكانت الدول الكبرى في كل من هذه المناطق الثلاث تحول موقفها وتشكله بغض النظر عن التزاماتها العقائدية .

وكل هذا كان لا بد أن يغير نظام الاحلاف العسكرية لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . فالدول الصغرى ، ولا سيما الدول الخاضعة للنفوذ الامريكي ، مقتنعة الان ، اكثر من أي وقت مضى ، بان ما تدعوه واشنطن بترتيبات « الامن الاقليمي » ، تبدو غير مواتية لضمان سلامة هذه الدول التي بدأت تشكك في جدوى التعهدات والالتزامات

الامريكية نحوها في وقت لا تكون فيه الاولوية للالتزامات العقائدية ، وفي ظروف عالمية قائمة تحض على تجاهل مصالح الدول الصغرى والتضحية بمصالحها على مذبح الوفاق الدولي . فايران مثلا لا ترتاح لموقف الولايات المتحدة ازاء باكستان الذي بدا اثناء الحرب مع الهند (١٩٧١) وهو موقف مائع ، برغم ارتباط باكستان مع الولايات المتحدة بحلفين متعددي الاطراف (الحلف المركزي وحلف جنوب شرق آسية) وبمعاهدة ثنائية .. كما أن الاردن قد فقد الضفة الغربية التي تضم نصف سكانه تقريبا برغم التصريحات الامريكية الجلية بالحفاظ على الوضع الراهن في المنطقة ، وفق البيان الثلاثي الصادر عام ١٩٥٠ من جانب الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة ، الذي أعيد تأكيده مرارا في مناسبات متعددة ، آخرها قبيل اربع وعشرين ساعة فقط من عدوان اسرائيل المباشر على الدول العربية عام ١٩٦٧ ، وبرغم البيانات الرسمية الامريكية بالمحافظة على سلامة الاراضي الاردنية واستقلالها السياسي اللذين وضعا في حينه (١٩٥٧) بانهما على اعظم جانب من « الاهمية الحيوية للمصلحة الامريكية القومية ». ولا مراء في ان تايوان تشعر ايضا بأن حقوقها قد اهدرت لصالح الوفاق الامريكي — الصيني الذي برز مؤخرا . وثمة تخوف متزايد في بعض الاوساط الاسرائيلية من امكان تعرض اسرائيل لضغوط امريكية ، تهدف للحصول على بعض التنازلات من اجل الوصول الى تسوية .

ولا بد أن نتساءل هنا ، ماذا يعني مبدأ كيسنجر ونيكسون بالنسبة لمستقبل الشرق الاوسط ؟

اتضح بعد التوصل الى تسوية للحرب التي قامت في منطقة جنوب آسية ومنطقة جنوب شرق آسية ، بأن الحرب الباردة التي طالما احتدمت هناك ، قد اوشكت على نهايتها ، وانه لا بد من أن تقوم الدول الكبرى بعمل مماثل في منطقة غربي آسية (الشرق الاوسط) ذات الاهمية الحيوية الاكبر ، في مسعى لانهاء الحرب الباردة في القارة الآسيوية برمتها . ولكن على النقيض مما جرى في منطقة جنوب آسية ومنطقة جنوب شرق آسية ، حيث اشتركت دولتان او اكثر من الدول الكبرى في اقرار مشاكل الحرب والسلام ، فان غياب الدولتين الشيوعيتين الاعظم (الصين والاتحاد السوفييتي) جزئيا من مسرح الاحداث في الشرق الاوسط يبدو امرا واضحا وان كان يدعو للحيرة والتساؤل . فها هوذا كيسنجر يتنقل طائرا بين القاهرة وتل ابيب ودمشق وعمان ، في مسعى يبدو وكأنه لا يتصل « بالتوسط » فقط بين العرب والصهاينة ، وانما أيضا بين العرب أنفسهم . ان الدور الامريكي البارز في الشرق الاوسط لا بد أن يجعل الكثيرين يتساءلون ما اذا كانت هناك دولة عظمى واحدة فقط تتحكم في قضايا المنطقة ، بعكس مناطق العالم الاخرى . ومن الجدير بالذكر ان مجلة لونوفيل اوبزيرفاتور الفرنسية اوردت نقاشا حول خطة قصد بها انزال مئات المظليين في مناطق انتاج النفط بالشرق الاوسط ، في حالة تهديد العرب بحظر ضخ النفط الى الغرب . وقالت المجلة ان السفن الحربية الامريكية سوف تفرض حصارا على الموانىء الرئيسية في منطقة الخليج العربي، وتقوم القاذفات الامريكية الضخمة من طراز (ب — ٥٢) بانزال قوات امريكية او ايرانية او اسرائيلية في المناطق المذكورة . واستطردت المجلة تقول انه في مثل هذا الظرف كان يتوقع ان يستخدم الرئيس نيكسون الخط الهاتفي الساخن للاتصال مع الزعيم السوفييتي ليونيد بريجنيف ، لحثه على عدم التدخل وفقا للتفاهم الضمني الذي توصلا اليه عام ١٩٧٣ في آخر اجتماع قمة بينهما في واشنطون ، والذي اقتضى ان تكون منطقة الخليج العربي الغنية بالنفط « مقصورة على الولايات المتحدة » .

وبما ان حقائق السياسة الدولية في السبعينات لا تسمح بتدخل الدول الكبرى المباشر

في الحروب المحلية ، فقد اصبحت الولايات المتحدة المصدر الرئيسي والمزود الاساسي بالتجهيزات الضرورية لقمع الحركات الثورية في بلدان العالـم الثالث . وبذلك تغدو طائرات الفانتوم وبقية القدرات التكنولوجية بديلا عـن التدخل العسكري الامريكـي المباشر في منطقة الشرق الاوسط . وقد عبر الجنرال اسحق رابين ، سفير اسرائيل السابق في واشنطون عن هذه الظاهرة الجديدة في اجتماع عقده المركـز الاسرائيلي للادارة في تل ابيب (٢٠ يوليه ١٩٧٣) ، قال فيه : « لقد زودنا الامريكيون بالاسلحة لكي نستخدمها **وقت الضرورة** ». وقد عرف « الضرورة » بانها تشمل الوضع الذي يقرر فيه العرب جديا ان يوقفوا ضخ النفط الى الغرب . وقال ان حكومـة نيكسون سوف لن تنحني أمام التهديد وما سماه بالابتزاز . واضاف يقول : « هناك شعور متزايد ومتبلور في أوساط الشعب الامريكي ، بأنه حين تدعو الحاجة القصوى [وقف ضخ النفط] يوجد ما يبرر السيطرة على مصادر النفط بالقوة من جانب العالم المتمدن » . وواضح ان ما يعنيه رابين هو : ما دام استخدام القوات الامريكية البرية غـير وارد في الظـروف الحاضرة ، فانه يتوجب تنفيذ مهمة ما يسمى بالعالم المتمدن ، على يد الجيش الاسرائيلي (كتعبير على مفهوم الانابة في مبدأ نيكسون وكيسنجر) .

وقد تحدث جنرال اسرائيلي بارز آخر هو أريك شارون ، عن امكان غزو اسرائيلي للشرق الاوسط بأكمله ، فقد نقلت جريدة يديعوت احرونوت عنه قوله (٢٦يوليه ١٩٧٣): « بمقدورنا غزو المنطقة من بغداد الى الجزائر » ، وأضافت الجريدة انه حين سئل شارون عن عواقب صدور قرار امريكي ممكن بوقف تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم ، اجاب : « من العبث ان نفكر بأن الامريكيين سيفرضون أي حظر ضدنا ، لانه لا شيء بالنسبة للامريكيين أهم من وجود اسرائيل قوية . ان قواتنا المسلحة تتفوق على جميع قوات البلدان الاوروبية ، وبمستطاع اسرائيل ان تجتاح بقواتها المنطقـة الممتدة بين الخرطوم وبغداد والجزائر في بحر أسبوع واحد » . ولكن احداث حرب اكتوبر برهنت ان شارون كان على خطأ مبين ، غير ان المهم في ملاحظاته وملاحظات رابين انها تؤكد توثق علاقة الوكالة والانابة التي وجدت بين اسرائيل والولايات المتحدة منذ ايام حكومة جونسون . لقد افترضت واشنطن آنذاك بأن الجمهورية العربية المتحدة كانت تشكل التهديد الرئيسي للمصالح الامريكية في الشرق الاوسط ، باعتبارها كانت ملتزمة بتحقيق شكل من اشكال التوحيد العربي والتحويل الاشتراكي .

وقد بحثت لجنة فرعية في الكونغرس الامريكي موضوع « السلام في الشرق الاوسط » وتوصلت فيه الى الاستنتاج عام ١٩٦٧ بأن الجمهورية العربية المتحدة تشكل « اكبر عائق نحو السلام » . وحث بعض ذوي النفوذ من اعضاء الكونغرس مثل السناتور جوزف كلارك والقادة العسكريين مثل الجنرال ماكسويل تيلور على انحياز اعظم الى اسرائيل باعتبارها الترس الحامي للمصلحة الامريكية وحصنا ضد الشيوعية . وانه لامر ذو مغزى ان السناتور وليم فولبرايت وصف موقف اسرائيل عام ١٩٧٣ بأنه يلجأ الى « التضليل بالتخويف الشيوعي » .

ان الصلة الواشجة بين الولايات المتحدة واسرائيل قد اتضحت بجلاء خلال الزيارة التي قامت بها غولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل الى الولايات المتحدة في سبتمبر ١٩٦٩، وناقشت فيها مع الرئيس نيكسون ، طبقا لما نشرته الصحف الامريكية امكانية تأسيس حلف عسكري يضم الولايات المتحدة وتركيه وايران واثيوبيه واسرائيل ، ويكون غرضه دعم الجناح الجنوبي لحلف ناتو ومقاومة وجود الوحدات البحرية السوفييتية في البحر المتوسط . ولكن مبدأ نيكسون وكيسنجر لا يشجع اشتراك الدول الصغرى في أحلاف رسمية، لانه ينطلق من مقدرة بعض البلدان في مناطق مختارة من العالم ورغبتها في القيام

بدور الشرطي تحت اشراف وتوجيه الادارة المركزية للشرطة في واشنطن . ان مثل هذه البلدان هي بمثابة « الشركاء » في الجهود التي تغذيها الولايات المتحـدة لقمع الثورات الاجتماعية واستعادة الاستقرار في العالم . فالمبدأ الجديد الموجه « للشراكة » يفترض ان التدخل الامريكي من جانب واحد هو باهظ التكاليف ومستنكر في الداخل والخارج على حد سواء . ولو طبق هذا المبدأ على الشرق الاوسط ، فانه يعني ان اسرائيل التي ضمن لها ريتشارد نيكسون حين كان مرشحا للرئاسة « تفوقا تكنولوجيا وعسكريا ملحوظا » على جميع جاراتها العربية مجتمعة ، قد دفع بها الى موضع التسلط الذي يمكنها من خلق احوال مواتية لمصالح الولايات المتحدة واسرائيل كليهما . وقد وضح نيكسون في رسالته الاولى حول « الوضع العالمي » هذا التصور بقوله : « الآخرون لديهم الان المقدرة والمسؤولية لمعالجة النزاعات المحلية التي ربما كانت تتطلب تدخلنا في السابق ». وقد كتب ماكس فرانكل في صحيفة نيويورك تايمز (٢٤ ديسمبر ١٩٦٩) ان حكومة نيكسون ظلت « منحازة بقوة الى متطلبات أمن اسرائيل وتفوقها العسكري في الشرق الاوسط ، **لان قوة اسرائيل فقط هي التي تستطيع ان تردع الهجوم وتمنع الدعوة لتدخل أمريكي مباشر »** . وبما ان حقائق توازن القوى العالمية تمنع تدخل الدول الكبرى في الحروب المحلية ، فان هذه الدول قد قصرت نفسها على القيام بدور المزود بالسلاح المطلوب لابقاء التوازن في صالحها . وفي ضوء هذا السياق يمكن فهم حرب حزيـران (يونيه ١٩٦٧) التي كان يقصد منها انجاز الاهداف التي لم تحققها حملة سيناء قبل عشر سنوات، أي رسم حدود طبيعية اكثر مسايرة لمطامع الفئات التوسعية والعسكرية في اسرائيل ، وفرض المعاهدات على المغلوبين ، والحل النهائي لمشكلة فلسطين .

وبالنسبة للولايات المتحدة ، كان المقصود من تلك الحرب اخضاع النظام الناصري وانهاء جهوده الرامية الى توحيد العالم العربي وتحـرير اقتصاده مـن السيطـرة الاستعمارية . وكان يجب ان يشن الهجوم الرئيسي على مصر وسوريه بمعونة محلية ، ليس من الدول العربية المحافظة ، وانما من اسرائيل ، اذ أصبحت اسرائيل تدريجيا تشكل حجر الزاوية في سياسة الولايات المتحدة في المنطقة . ذلك ان الدول العربية المحافظة بدات تظهر وكأنها حليف أقل قابلية للحياة مما اعتادت أن تكونه في الخمسينات. فالثورة العراقية عام ١٩٥٨ وعزلة الاسرة الهاشمية وثورة اليمن عام ١٩٦٢ ، اجبرت صانعي القرارات الامريكية أن ينظروا الى اسرائيل باعتبارها الحصن الحامي الوحيد للمصالح الامريكية في المنطقة . وقد تعزز هذا الاتجاه بميـل وزارة الدفاع الامريكية (البنتاغون) الى تعريف اسرائيل القوية عسكرية ومعادلتها بمصالح ومتطلبات الامن الامريكي . ان هزيمة مصر وسورية في حرب حزيران وما أعقبها من بروز دول عربية محافظة كالعربية السعودية الى مقام الصدارة في الشؤون العربية ، قد استشهد به باعتباره توكيدا لاتجاه البنتاغون الداعي الى ضرورة الاعتماد على اسرائيل والتركيز عليها بوصفها شرطي المنطقة . وعلى الرغم من ان الهجوم علـى مصر واشتراكيتها العربية لم يورط القوات الامريكية بشكل مباشر في الحرب ، الا ان حرب حزيران قد أسفرت عن نتائج ومكاسب مرغوب فيها ليس فقط من جانب اسرائيل ، وانما ايضا من جانب الولايات المتحدة . أي هزيمة الناصرية كقـوة ذات امكانات ضخمة في العـالم العربي . وهذه الحقيقة كان قد أكدها رئيس وزراء اسرائيل السابق ليفي اشكول ، عندما أبلغ مجلة **النيوزويك** (١٧ فبراير ١٩٦٨) : ان قيمة اسرائيل بالنسبة للغرب في هذا الجزء من العالم تتجاوز فيما أتنبأ ، كل حد بالقياس الى حجمها . سوف تكون جسرا حقيقيا بين القارات الثلاث ، وسوف يشعر العالم الحر بالامتنان الشديد ، ليس فقط لبقاء اسرائيل على قيد الحياة ، وانما لمتابعة نموها ضمن حدود آمنة ومضمونة .

ونتج عن حرب حزيران خلق علاقة واشجة بين الولايات المتحدة واسرائيل ملائمة

لتحقيق أهداف متبادلة وبأقل تكلفة للبلدين كليهما . ولهذا السبب فان الولايات المتحدة قد خصت اسرائيل بأكبر من بيوع الاسلحة المخصوصة (اي غير المطروحة لاستخدام الآخرين) ، وبذلك أصبحت اسرائيل مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بمصالح الولايات المتحدة الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة .

ومجمل القول ان اسرائيل برزت من حرب حزيران باعتبارها رجل الشرطة الامريكي في الشرق الاوسط ، واقوى دولة عسكرية في المنطقة متحصنة بين مرتفعات الجولان والبحر الاحمر . وبهذا الوصف يمكن الاعتماد عليها لتقديم القوة الرئيسية ضد التهديدات الثورية **للوضع الراهن** في المنطقة . ولنذكر ان المواجهة بين قوات الملك حسين والفدائيين الفلسطينيين في شهري يونيه وسبتمبر ١٩٧٠ كشفت عن هذه العلاقة الوثيقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، ذلك ان الوحدات الامريكية المحمولة جوا والمنطلقة من الاسطول السادس الامريكي بدأت بالاتجاه نحو شرقي البحر المتوسط في الوقت الذي أعلنت فيه اسرائيل استعدادها للتدخل في حالة انتصار الفلسطينيين على الملك حسين (تصريح موشي دايان في ١٢ يونيه ١٩٧٠) . وظهر ان الولايات المتحدة واسرائيل اقتربتا كثيرا من الموافقة على خطة توجه بموجبها اسرائيل ضربات جوية ضد الدبابات السورية ، في حين تزود الولايات المتحدة اسرائيل بالحماية من الاسطول السادس في حال تدخل مصر او الاتحاد السوفياتي .

والخلاصة ان حرب حزيران اكملت تحويل اسرائيل الى راس جسر حقيقي للولايات المتحدة في واحدة من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم — دولة حامية مهيأة لشل عمليات التحرر من الاستعمار في عالم ينظر الى التحرر باعتباره حتمية تاريخية .

واذا تساءلنا الى اي مدى غيرت حرب اكتوبر الوضع السياسي العسكري في الشرق الاوسط ، فالجواب على ذلك يبقى رهنا بتطور أحداث المنطقة مستقبلا . ومع هذا فهنالك شيء واضح : ان الاهداف الامريكية في الشرق الاوسط ، وتتضمن العلاقة الخاصة مع اسرائيل ، ظلت ثابتة على الرغم من ان صانعي القرارات السياسية في الولايات المتحدة وبعض البلدان العربية ينفون ذلك . ومهما حصل من تغييرات فانها لا تعدو كونها تغييرات سطحية . اما طبيعة السياسة الامريكية في المنطقة فلم تتغير ابدا ولم يطرأ عليها اي تعديل . ولكن يبدو ان الوسيلة التي وضعتها الولايات المتحدة لتحقيق هذه الاهداف ، بتوجيه هنري كيسنجر ، قد تغيرت . ويكمن نبوغ كيسنجر خاصة في ادراكه لمتطلبات التاريخ المعاصر . وأحدها هو رفع العوائق الاساسية من طريق التفاهم مع الاتحاد السوفييتي . فبعد فيتنام ، وشبه القارة الهندية ، هنالك الشرق الاوسط (برميل البارود على حد تعبير نيكسون) الذي ينبغي ابطال مفعوله ، وازالة عوائق « السلام » من سبيله . وانها لحقيقة معروفة تماما ، ان حرب اكتوبر قد أسفرت عن بيئة اكثر ملاءمة من الوجهة النفسية للمفاوضات التي ينشدها كيسنجر مما وجد قبل الحرب. ولذلك فقد كان بمقدوره ان ينفذ اتفاقية الفصل بين القوات على قناة السويس، كمقدمة لمؤتمر السلام المزمع عقده في جنيف فيما بعد . لقد نجح كيسنجر حيث اخفق سلفه وليم روجرز ، وربما يعزى ذلك الى حقيقة ان أسلوب كيسنجر الذي يمثل دمج استخدام القوة والدبلوماسية ، كان أكثر حذقا من أسلوب سلفه ، فقد استطاع ان يقنع العرب بقبول الشروط التي كانوا قد رفضوها قبل حرب اكتوبر .

أبو عجيلة في ثلاث معارك

محمود عزمي

مقدمة :

اتخذت الاستراتيجية العربية العليا ، منذ اتفاقيات هدنة ١٩٤٩ ، سياسة الدفاع السلبي تجاه اسرائيل بهدف المحافظة على الوضع القائم ومحاولة منعها من تحقيق مزيد من التوسع قدر الامكان . ولذلك لم تعدّ القوات المسلحة العربيـــة ، خاصة في دول المواجهة المباشرة ، اعدادا هجوميا أو حتى للدفاع الديناميكي المتحرك القـــادر على امتصاص الضربة الاولى ، والانتقال الى الهجوم المضاد ، في حالة اقدام اسرائيل على الهجوم لتحقيق مزيد من التوسع، ولم تحشد او تجهز خطط حشد وتعبئة ملائمة وسريعة لكل طاقات وموارد هذه الدول البشرية والاقتصادية والمعنوية في كل مـــرة من مرات احتدام الصراع مع العدو الاسرائيلي الى حد الاشتباك المسلح الشامل واسع النطاق ، سواء في حربي ١٩٥٦ أو ١٩٦٧ أو في حرب الاستنزاف عامي ٦٩ — ١٩٧٠ .

ونتيجة لذلك كانت المبادرة الهجومية دائما في أيدي اسرائيل عقب حرب ١٩٤٨ ، بل في الواقع منذ انتقال الجيش الاسرائيلي الى مرحلة الهجوم المضاد خلال الحرب المذكورة التي بدأت في تشرين الاول (اكتوبر) ، حتى حرب ١٩٦٧ ، وهي المبادرة التي كانت تطلق عليها في الكتابات الاستراتيجية الاسرائيلية تسمية « الهجوم المضاد الاجهاضي » . ولذلك كانت اسرائيل تحقق خلال هذه الحروب ليس فقط تفوقا كيفيا عسكريا ، وانما أيضا تفوقا في حجم القوة البشرية المحشودة والمستخدمة في كل هذه الحروب .

ثم جاءت حرب ١٩٧٣ بتغير ضخم وجديد يتمثل أساسا في انتقال العرب الى الهجوم الاستراتيجي لاول مرة منذ ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ ، وفي اطار ظروف محلية ودولية مختلفة تماما عما كان عليه الحال عام ١٩٤٨ ، ابرزها على المستوى المحلي تحـــرر الارادات العربية السياسية من السيطرة الامبريالية المباشرة التي كانت مفروضة عليها وخاصة في فترة ١٩٤٨ — ١٩٥٦ ، وأهمها على المستوى الدولي اختلاف مصادر السلاح الذي تحصل عليه الاطراف المشتركة في الصراع ، ففي عـــام ١٩٤٨ كانت الامبريالية والدول الغربية عموما هي مصدر تسليح كل من الطرفين المتصارعين وفي عام ١٩٧٣ كانت الامبريالية موردة للسلاح الاسرائيلي فحسب ، على حين ان دول المواجهة العربية الراديكالية كانت معتمدة بالكامل على السلاح السوفييتي .

وادى هذا التغير في الظروف المحلية والدولية التي جرى في ظلها الصراع عام ١٩٧٣ الى اتخاذ الاستراتيجية الهجومية العربية ، رغـــم محدودية أهدافهـــا الاستراتيجية السياسية والعسكرية ، ابعادا مختلفة تماما في آثارها أو نتائجها على حركة الصراع العربي — الاسرائيلي .

على ان هذا التحول الاستراتيجي الجديد الذي يفتتح بداية مرحلة جديدة في الصراع العربي ضد العدو الصهيوني لا يمنع ، بل يحتم ، ضرورة دراسة نتائج الاستراتيجية الدفاعية السلبية العربية في التطبيقات العسكرية المختلفة لهذه الاستراتيجية العليا خلال

حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ واستخلاص الدروس والخبرات التاريخية اللازمة منها. وفي هذا الصدد توفر المعارك التي دارت حول « أبو عجيلة » في القطاع الاوسط من سيناء قرب الحدود المصرية — الفلسطينية مادة موضوعية هامة تجسد مغزى انتهاج الاستراتيجية العربية في الماضي لموقف الدفاع السلبي في مواجهة الاستراتيجية الهجومية الاسرائيلية .

الموقع الجغرافي

« أبو عجيلة »* قرية صحراوية صغيرة بها بئر ماء وقليل من المنازل الصغيرة المبنية بالطوب اللبن وجسر يمر فوق وادي العريش وعلى مقربة منها سد لتجميع مياه الامطار. وهي تقع على مسافة نحو ١٨٠ كيلومترا شرقي « الاسماعيلية » ونحو ٤٥ كيلومترا الى الجنوب الشرقي من « العريش » ، وتفصلها عن حدود فلسطين المحتلة نحو ٣٢ كيلومترا تجاه الشرق . ويلتقي عندها الطريق الرئيسي الاوسط في سيناء والممتد من الاسماعيلية حتى « العوجة » في الارض المحتلة بالطريق المؤدي الى العريش شمالا ، كما تلتقي على مقربة منها طرق فرعية مؤدية الى « القسيمة » في الجنوب الشرقي و« بير الحسنة » في الجنوب الغربي ومن ثم الى « نخل » وممر « ميتلا » على الطريق الجنوبي . لذا تعتبر أبو عجيلة مفتاحا رئيسيا لطرق الاقتراب والمواصلات في شرق سيناء كله ومن يسيطر عليها يستطيع أن يهدد جناح كل من الطريقين الشمالي والجنوبي لسيناء فضلا عن سيطرته على الطريق الاوسط المؤدي مباشرة الى القناة . ونتيجة لذلك اكتسبت « أبو عجيلة » أهمية عسكرية خاصة في مسرح العمليات الحربية البرية التي دارت بين مصر واسرائيل في حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . وتشكل دراسة المعارك التي دارت عندها خلال هذه الحروب الثلاث جانبا هاما من دراسة أساليب القتال في الصراع العربي — الاسرائيلي المسلح .

« أبو عجيلة » في معارك ١٩٤٨

توازن القوى والموقف الاستراتيجي : نمت قوة اسرائيل العسكرية نموا كبيرا في الفترة من ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى ١٥ اكتوبر من العام نفسه ، أي منذ أن بدأت الجيوش العربية عملياتها الهجومية ضدها الى أن بدأت القوات الاسرائيلية تتحول الى الهجوم المضاد العام على مختلف الجبهات . وهناك احصائية مقارنة لقوتهما في كلتا الفترتين بصورة تقريبية تشمل بعض عناصر قوتها وهي توضح هذه الحقيقة التي كان لها أثرها الواضح على العمليات في المرحلة الاخيرة من الحرب والتي جرت خلالها المعارك في قطاع « أبو عجيلة » :

البيان[1]	١٥ مايو ١٩٤٨	١٢ اكتوبر ١٩٤٨
رجال	٣٥،٠٠٠	٨٠،٠٠٠
مدافع	٤	٢٥٠
هاون ١٢٠ مم	—	١٢
هاون ٦ بوصة	—	٣٣
هاون ٣ بوصة	١٠٥	٣٨٩

* تسمى أحيانا في بعض الكتابات او الخرائط العربية أبو عويقلة ولكن ابو عجيلة هو الاسم الاكثر شيوعا واستعمالا .

هـاون ٢ بوصـة	٦٨٢	٦١٨
هاون دافيدكا (محلي)	١٦	٢٢
« بيات » وبنادق مضادة للدبابات	٧٥	٦٧٥
رشـاشـات	١،٥٥٠	٧،٥٥٠
بنـادق	٢٢،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
رشاشات قصيرة	١١،٠٠٠	٢١،٣٠٠

كما زادت قوتها من المصفحات والدبابات وتشكل نتيجة لهذا اللواء المدرع الثامن ، وأصبح لدى سلاح الطيران الاسرائيلي أسراب من المقاتلات من أنواع « مسر شميت ١٠٩ » و« سبيتفاير » وقاذفات قنابل ذات أربعة محركات من طراز «ب ١٧» الامريكية. كما أصبح للاسطول الاسرائيلي زوارق طوربيد وسفن حربية اخرى . وفي الوقت نفسه لم تزد قوة الجيوش العربية تقريبا خلال الفترة المذكورة ولم تصل اليهـا اية اسلحة جديدة . ونتيجة لهذا بدأ الجيش الاسرائيلي هجوما مضادا عاما في الجبهة الجنوبية ضد القوات المصرية يوم ١٥ تشرين اول (اكتوبر) عرف باسم عملية « الضربات العشر » أسفرت في ٢٢ تشرين اول (اكتوبر) عن تطويق لواء مصري كامل في جيب « الفالوجا ــ عراق المنشية » وانسحاب القوات المصرية من « أسدود » و« المجدل » وسقوط « بير السبع » وانعزال قوات قطاع « الخليل ــ بيت لحم » عن بقية الجبهة المصرية .

وفي بداية كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ كانت القوات المصريـة (بخلاف القوات الموجودة في الفالوجا وتقدر بنحو ٤٠٠٠ جندي والقوات الموجودة في الخليل وبيت لحم وتقدر بنحو ٢٠٠٠ جندي) موزعة على محورين رئيسيين الاول في المنطقة الساحلية المتدة من رفح الى غزة ويبلغ طوله نحو ٣٥ كيلومترا ، والثاني في المنطقة المتدة داخل صحراء النقب من العوجة الى العسلوج ويبلغ طوله نحو ٤٠ كيلومترا . وقد حشدت القيادة المصرية (برئاسة اللواء فؤاد صادق) لواءي مشاة تعززهما وحدات من المدفعية وكتيبة دبابات خفيفة في قطاع « رفح ــ غــزة » ، ولواء مشاة في قطاع « العوجة ــ العسلوج »، كما وزعت وحدات أخرى على طريق « العوجة ــ رفح » على طول الحدود المصرية ، ووحدات أخرى في القاعدة الادارية الرئيسية في « العريش » وفي «ابو عجيلة» التي اعتبرت قاعدة فرعية لقوات النقب .

وكانت القوات المصرية تعاني في بداية كانون أول (ديسمبر) ١٩٤٨ نقصا خطيرا في الاسلحة والذخائر والعربات الصالحة للسير في الرمال ، اذ لم يكن لديها مثلا من المدافع المضادة للدبابات سوى ٤٠ مدفعا عيار ٦ رطل ونحو ٢٠ مدفعا عيار ٢ رطل ولا يزيد عدد القذائف الموجدة لكل مدفع عن ٥٠ قذيفة تقريبا ! على حين كان طول الجبهة المطلوب تغطيتها بنيران المدفعية المضادة للدبابات يبلغ نحو ١٤٠ كيلومتــرا من « غزة » الى « العسلوج » مرورا « برفح » و« العوجة » وتصلح معظمها لسير المدرعات . ولم يكن لديها من مدفعية الميدان سوى كتيبة واحدة تضم ٢٤ مدفعا عيار ٢٥ رطلا مع عدد محدود نسبيا من القذائف . فضلا عن ١٢ مدفعا آخر عيار ٣ر٧ بوصة لكل مدفع منها نحو ٤٥ قذيفة فقط !

اما بالنسبة للمدرعات فلم يكن لديها منها سوى كتيبة من الدبابات الخفيفة « م ٢٢ لوكست» المسلحة بمدفع عيار ٣٧ مم التي كانت كثيرا ما تتعطل عن السير اثناء العمليات بسبب ضعف بطارياتها الكهربائية ، فضلا عن ٢١ عربة مدرعة قديمة من طراز « همبر ٣ ، ٤ » الانجليزية الصنع وبعض حمالات البرن التي ركب على بعضها قاذف لهب فكانت هي المفاجأة الفنية الوحيدة للقوات الاسرائيلية في معركة استرداد « التبة ٨٦ » . أما في

مجال الطيران فلم يكن هناك سوى نحو ٢٠ طائرة مقاتلة قديمة من طراز « سبيتفاير مارك ٩ » وعدد ضئيل من قاذفات القنابل ذات الاربعة محركات البريطانية القديمة من طراز « استرلينج » ، وكان لدى هذه القوة الجوية مطاران فقط في سيناء ، احدهما في « العريش » والآخر تحت الانشاء والتجهيز في « بير الحمة » علـــى الطريق الاوسط الرئيسي. وهذا فضلا عن قلة ذخيرة الاسلحة الصغيرة والهاون والنقص في عدد الالغام.

عملية « عين » : عقب انتهاء عملية « الضربات العشر » وجهت القيادة الاسرائيلية جهدها ضد قوات جيش الانقاذ في « الجليل » حيث قامت بهجوم مضاد عام هناك عرف بعملية « حيرام » استغرق تنفيذه الفترة من ٢٨ الى ٣١ تشرين أول (اكتوبر) ١٩٤٨ وانتهى بانسحاب جيش الانقاذ من الجليل الاعلى وتوقفه عن المشاركة في الحرب كقوة فعالة . وبذلك أصبح في وسعها التفرغ تماما لتصفية الموقف في الجبهة المصرية نظرا لان بقية الجيوش العربية كانت قد كفت عن المساهمة في القتال ضد القوات الاسرائيلية . ونتيجة لذلك عقدت القيادة الاسرائيلية العليا اجتماعا يوم ١٠ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ لبحث خطط العمليات الجديدة ضد الجيش المصري لتصفية وجوده العسكري في صحراء النقب وقطاع غزة وجيب الفالوجا كنتيجة مترتبة على ذلك . وأصدر الجنرال « يغال يادين » مدير العمليات برئاسة الاركان في اليوم نفســه بالاستعداد لتنفيذ هذه العمليات الجديدة على أن تنتهي هذه الاستعدادات في ١٦ كانون اول (ديسمبر) وأطلق على الامر المذكور « عملية عين » (وتعني حرف أ في اللغة العبرية التي تبدأ به أسماء كل من العوجة والعسلوج وغزة بالعبرية والتي اعتبر الاستيلاء عليها هو هدف العملية) . وعقب انتهاء اجتماع القيادة الاسرائيلية المشار اليه عمل « بن جوريون من أجل التأكد بأن الملك عبدالله لن يتدخل اثناء العملية ، بواسطة التلويح امام عينيه باحتمال عقد اتفاقية سلام »(٢) وبناء على ذلك أرسل « موشي ديان » برسالة الى الملك في اليوم نفسه سلمت اليه من خلال المقدم « عبدالله التل » وبدأت على أثرهـــا مفاوضات سرية بين الطرفين لهذا الغرض . مثل الجانب الاسرائيلي فيها « الياهو ساسون » يعاونه « موشي ديان » ومثل الجانب الاردني « شوكت الساطي باشا » يعاونه « عبدالله التل » ، وقد دارت المفاوضات حول عقد هدنة دائمة واجلاء القوات العراقية والمصرية من القطاع الذي توجد فيه قوات شرق الاردن في فلسطين واتفق على مواصلة الاجتماعات في ٣٠ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ . وهكذا تأكد « بن جوريون » من عدم تدخل قوات الفيلق العربي اثناء عملية « عين » . وقد حشدت القيادة الجنوبية لهذه العملية ٥ الوية يبلغ عددها نحو ١٥ الف جندي ، كانت تضم اللواء الثامن المدرع والوية المشاة «الكسندروني» و« الجولاني » و« هنيجف » و« هارئيل » ، وعهدت الى العقيد « ايغال آلون » (الذي سبق أن قاد « عملية الضربات العشر » في تشرين اول (اكتوبر)) بقيادة العملية التي تقرر أن تبدأ ليلة ٢٢ ــ ٢٣ ديسمبر ١٩٤٨ . وقامت الخطة العامة للعملية على أساس توجيه الضربة الرئيسية على الجناح الشرقي « العوجة ــ العسلوج » بعد تثبيت قوات الجناح الغربي « رفح ــ غزة » بهجمات مخادعة تهدد خطوط المواصلات في منتصفه وتخلق انطباعا بأن هناك محاولة لخلق « فالوجا » اخرى في « غزة » ، ثم الاندفاع في غارة سريعة الى داخل « سيناء » تجاه « ابو عجيلة » وتهديد القاعدة الادارية الرئيسية في العريش مع احداث حالة من الاضطراب في الطريق الاوسط تجاه مطار « بير الحمة » وبذلك تجبر القيادة المصرية على سحب قواتها من الجناح الغربي في قطاع غزة . وقد استندت الخطة في فكرتها العامة ، من حيث اختيار المحور الصحراوي الداخلي كمحور تقدم رئيسي بعد تضليل العدو بأن المحور الساحلي هو المحور المقصود ، على خطة الجنرال « اللنبي »البريطاني عام ١٩١٧ ضد الاتراك مع اختلاف اتجاه زحف « آلون » بطبيعة الحال عن اتجاه زحف « اللنبي » العكسي داخل فلسطين(٣).

وقام اختيار الجنرال « يادين » لاتجاه الضربة الرئيسية علـى اساس ان المواقع المصرية الدفاعية في قطاع غزة اكثر قوة سواء من حيث زيادة وتركيز القوات الموجودة بها عن تلك الموجودة في قطاع « العوجة ـ العسلوج » او من حيث احتمائها بالمنطقة الساحلية المليئة بأشجار البرتقال ومختلف النباتات الاخرى ووجود الكثافة السكانية العالية فيها وعدم تعرض القوات المقاتلة فيها لمشكلات جوهرية تتعلق بامدادها بالمـاء والمؤن ، ولذلك فان الهجمات الاسرائيلية عليها ستكون جبهوية مباشرة تنتج عنها خسائر شديدة وهي في النهاية ليست مضمونة النتائج(٤). اما في القطاع الصحراوي الشرقي فالقوات المصرية أقل قوة وتتركز في مجموعة مواقع منعزلة على طول الطريق الاسفلتي واذا ما قطعت خطوط مواصلاتها ستضطر الى الانسحاب بسرعة لقلة او انعدام المياه وصعوبة تموينها بالمؤن والذخيرة. ولكن حتى في القطاع الشرقي كانت الهجمات بالمواجهة على المواقع على طول الطريق الممتد من « بير السبع » جنوبا حتى « العوجة » غـير مأمونة العواقب نظرا لاحتمال صمود المواقع فترة كافية لحين نقل قوة من الاحتياطي الذي نجح اللواء « صادق » في تجهيزه في « رفح » بقوة لواء كامل خاصة انه « ثبت ان المصريين يستطيعون وبسرعة نقل قوات من الشرق الى الغرب ، اذ نقلت كتيبة مـن العوجة الى قطاع « أساف » وتدخلت في العمليات خلال ٢٤ ساعة »(٤) (خلال عملية الضربات العشر) . هذا فضلا عن ان « كل تجارب الجيش الاسرائيلي في الحرب حتى الان كانت تدل على ان احتلال المواقع المصرية المنظمة للدفاع انما هي عمليات صعبة للغاية . لقد كانت انتصارات جيش الدفاع الاسرائيلي حتى الآن تتميز أساسا بالمفاجأة وتقوم على الحركة والتكتيك وليس على أفضلية ايجاد قوة هجوم خرق »(٤). ولذلك قررت القيادة الجنوبية البحث عن درب صحراوي يصلح لسـير المدرعات يؤدي الـى « العوجة » لمهاجمتها فجأة من الشمال الشرقي على مجنبة الطريق والاستيلاء عليها وبذلك تعزل « العسلوج » ويمكن ان تسقط بهجمات من المجنبة عبر الصحراء بالطريقة نفسها . وقد اكتشف رجال الاستطلاع بمعونة بعض الباحثين في الآثار والتاريخ طريقا رومانيا قديما تغطيه الرمال يمتد من « بير السبع » حتى « العوجة » تقريبا ، وبدأ رجال سلاح الهندسة في اصلاحه اثناء الليل في هدوء شديد طوال الايام السابقة للهجوم وتركت الكيلومترات الاخيرة منه لليوم الاخير حتى تتحقق المفاجأة نظرا لان العمل كان سيجري على بعد كيلومترين تقريبا من المواقع المصرية الموزعة علـى الطريق الاسفلتي . وقد وزعت مهام تنفيذ خطة « عملية عين » على الاسلحة والوحدات المختلفة كالآتي :

١ ـ يقوم السلاح الجوي الاسرائيلي فجر يوم ٢٢ كانون أول (ديسمبر) بقصف مطار « العريش » و« رفح » و« خان يونس » و« الفالوجا » .

٢ ـ يحكم لواء الكسندروني السيطرة على جيب الفالوجا .

٣ ـ تقوم كتيبة من لواء جولاني باحتلال التبة ٨٦ المشرفة على طريق رفح ـ غزة الساحلي ليلة ٢٢ ـ ٢٣ ديسمبر ويشرع سلاح المهندسين في استكمال اصلاح طريق العوجة خلال الظلام .

٤ ـ تقوم كتيبتان من لواء «هنيجف» بقطع الطريق بين العوجة والعسلوج والضغط على العسلوج لاحتلالها وذلك خلال ليل ٢٤ ـ ٢٥ ديسمبر ، وفي الوقت نفسه تقوم قوة من لواء « هارئيل » بقطع طريق « رفح ـ العوجة » قرب « رفح » .

٥ ـ يقوم اللواء المدرع الثامن وكتيبة من لواء « هارئيل » بمهاجمة « العوجة » عبر الطريق الرومانية فجر يوم ٢٥ ديسمبر ويواصلان التقدم بعد احتلال « العوجة » نحو « ابو عجيلة » داخل سيناء(٥).

وقد سار تنفيذ العملية وفقا للخطط الموضوع لها فبدأ الطيران هجومه وقصفت القلاع الطائرة ب ١٧ مهابط مطار العريش كما أغارت طائرات أخرى على رفح وخان يونس والفالوجا . ثم قامت المدفعية من عيار ٧٥ مم بعد ظهر يوم ٢٢ ديسمبر بقصف ازعاجي لقطاع غزة بأكمله لتغطية الهجوم المزمع القيام به على التبة ٨٦ . ونفذ هجوم مضلل آخر على قرية « عبسان » ثم هوجمت التبة ٨٦ خلال الليل واحتلت بواسطة كتيبة مشاة من الجولاني ، الا أن القوات المصرية سارعت في صباح اليوم التالي بشن هجوم معاكس استخدمت فيه دبابات « لوكست » وقاذفات اللهب واستردت التبة مرة اخرى بعد ان كبدت الكتيبة الاسرائيلية خسائر فادحة . وكان نائب قائد الكتيبة بين القتلى الذين سقطوا بكثرة اثناء انسحاب الكتيبة(٦). وخلال هذا قصفت غزة من البحر ايضا لزيادة شد انتباه القيادة المصرية الى جدية العمليات الاسرائيلية الهجومية في هذا القطاع وخطورتها . وفي ليلة ٢٥ — ٢٦ ديسمبر بدأت الهجمات في الشرق متأخرة ٢٤ ساعة عن الموعد المحدد لها بسبب الامطار والسيول التي نزلت فجأة قبل ساعة الصفر . وبعد معارك عنيفة دارت عند « العوجة » وعند النقط الدفاعية الموزعة على الطريق بينها وبين العسلوج تخللتها هجمات معاكسة مصرية محلية سقطت المواقع الدفاعية على الطريق الى « العسلوج » وسقط قائدها شهيدا ومعه ١٦ من جنوده وعزلت حامية « العسلوج » فصدرت لها الاوامر بالانسحاب خلال الصحراء خلف سلسلة الجبال الشرقية تجاه « العوجة » وسيناء ، ثم سقطت « العوجة » نفسها تحت ضغط هجوم المدرعات والطيران ظهر يوم ٢٧ ديسمبر(٧). وهكذا فتح طريق العسلوج — العوجة امام بقية القوة الاسرائيلية التي تقدمت بسياراتها من « بير السبع » .

الاستيلاء على أبو عجيلة : في أثناء المعارك الدائرة في قطاع العوجة قامت وحدة كوماندوز اسرائيلية أنزلت بحرا يوم ٢٧ ديسمبر بنسف خط السكة الحديدية والطريق الساحلي على مسافة ٦٠٠ متر في ٤٨ موضعا بين « رفح » و« العريش »(٨). كما زرعت الالغام بواسطة قوة من لواء « هارئيل » على طريق « رفح — العوجة » وواصل لواء الجولاني مناوشاته في المنطقة القريبة من التبة ٨٦ وذلك لارباك القيادة المصرية قدر المستطاع لتأمين الاغارة الخاطفة في عمق سيناء ، التي بدأت في الساعة الثانية ظهر يوم ٢٨ ديسمبر بواسطة وحدات اللواء المدرع الثامن تعززها كتيبة مشاة من لواء «هارئيل» التي تقدمت من العوجة فوق الطريق الاسفلتي مستخدمة آلياتها الاصلية وآليات مصرية وقعت في أيدي اللواء الاسرائيلي في « العوجة » ، ولذلك اختلط الامر على طائرات اسرائيلية شاهدت القافلة الاسرائيلية في الطريق بين « العوجة » و« ابو عجيلة » واطلقت عليها النار فقتل جندي اسرائيلي وأصيب آخر ولم ينقذ الموقف سوى رفع العلم الاسرائيلي بسرعة فوق احدى المركبات . وبعد ساعتين ونصف الساعة من الخروج من العوجة مرت فيها القافلة المدرعة الميكانيكية بين كثبان الرمال المحيطة بالطريق نحو ابو عجيلة من الشمال المعروفة بمكسر الفناجيل وجبل « ضلفة » في الجنوب تحت حماية مظلة من مقاتلات السلاح الجوي الاسرائيلي اصطدمت قوة الاستطلاع التي تتقدم الرتل المدرع برصاص وقذائف مضادة للدبابات من المدافعين الذين أقاموا على عجل مواقع دفاعية مرتجلة على بعد ١٢ كيلومترا الى الشرق من ابو عجيلة ، فأصيبت احدى الجنزرات بقذيفة واخذت النيران تشتعل فيها فحاولت بقية المصفحات الالتفاف حول الموقع المصري الا أنها غاصت في الرمال الناعمة ، فأرسلت مدافع الهاون عيار ١٢٠ مم لمساندة الكتيبة الامامية المهاجمة ثم غربت الشمس وحل الظلام . وأخذت المدفعية والهاونات تقصف المواقع الدفاعية المصرية المقامة على يمين الطريق تعاونها نيران فصيلة من عربات الجيب المسلحة . وتحت هذه التغطية تسللت سرية من المشاة من جهة اليسار الى المرتفعات القريبة الى أن وصلت الى مؤخرة المواقع المصرية وهاجمتها

من الخلف الا أن الفصيلة الاولى منها أصيبت بخسائر كبيرة فكفت عـن الهجوم ، ثم استأنفت فصيلة ثانية الهجوم وتقدمت نحو الطريق تحت حماية نيران المدفعية والهاونات التي واصلت قصفها من المواجهة أي من اتجاه الشرق ، فاضطرت القوة المصرية الى الانسحاب بسياراتها وخلفت وراءها بعض الاسلحــة المضادة للدبابات والعــربات المصابة . وقد استمرت عملية تطهير المواقع تماما حتى منتصف الليل . وفي الفجر دخلت وحدة الاستطلاع الاسرائيلية الى « أبو عجيلة » فوجدتها خالية من القوات المصرية التي واصلت انسحابها تجاه « العريش » ودخلت بقية وحدات اللواء المدرع البلدة وتوزعت حولها في تشكيل دفاعي ، وعثرت القوة الاسرائيلية اثر ذلك على معسكر اعتقال في مكان قريب من « ابو عجيلة » به معتقلون سياسيون مصريون وطنيون كانت حكومة النقراشي قد اعتقلتهم هناك . ويقول « دان كيرزمان » في كتابه « الحرب العربية ــ الاسرائيلية الاولى » ان متطوعي الاخوان المسلمين قد اشتركوا في القتــال ببسالة خلال معارك القطاع الشرقي وانهم ساهموا في انشاء الخط الدفاعي السريع الذي اصطدمت بــه القوات الاسرائيلية عند مشارف « ابو عجيلة »(٩).

وقد وصل « آلون » الى « ابو عجيلة » عقب سقوطها بوقت قصير في عربة جيب من مقر قيادته في « بير سبع » وبصحبته ضابط آخر يسمى « اسحق رابين » (الذي تولى رئاسة الاركان خلال حرب ١٩٦٧) وأصدر أمرا باستمرار التقدم نحو « العريش » وان تقوم وحدة خفيفة أخرى بالتقدم غربا حتى مطار « بير الحمة » . وفي الساعة الحادية عشرة تقريبا من صباح اليوم نفسه انتظم الرتل الزاحف نحــو العريش على الطريق مكونا من كتيبة مدرعة في المقدمة ثم أركان اللواء المدرع المدرع ثم كتيبة المشاة الميكانيكية فيما عدا جزء منها استمر في « ابو عجيلة » ، وقبل أن يتحــرك الرتل هاجمته قاذفة مصرية ذات اربعة محركات والقت عليه بعض القنابل وتكررت هذه الاغارة خمس مرات خلال النهار بعد ذلك كما تروي المصادر الاسرائيلية التي لا تشير الى الخسائــر التي لحقت القوة المتقدمة نحو العريش نتيجة لهذه الغارات الجوية المصرية(١٠).

ثم تحرك الرتل الزاحف باتجاه العريش في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا ، ووصل الى مطار العريش الذي يبعد نحو ١٥ كيلومترا عنها في الساعة الثالثة مساء فوجده خاليا من القوات ، وعلى مسافة ١٣ كيلومترا تقريبا من المدينة اصطدمت الكتيبة المدرعة بكتيبة مشاة مصرية تخندقت في مواقع على كلا جانبي الطريق تعززها مدافع مضادة للدبابات وأمكن للاخيرة أن تدمر الدبابة التي كانت تتقدم الهجوم وتوقف الهجوم ، ثم انسحبت القوة الاسرائيلية مرة أخرى نحو « أبو عجيلة » فوصلتها صباح يوم ٣٠ ديسمبر . وفي الوقت نفسه استطاعت حامية مطار « بير الحمة » ان تصد هجوما ليليا قامت به القوة الاسرائيلية الخفيفة الزاحفة نحوه وكانت مؤلفة من فصيلتي جيب وفصيلة في سيارات كبيرة . وقد انسحبت هذه القوة أيضا الى « أبو عجيلة » ، كما قامت دوريات اسرائيلية بمهاجمة « القسيمة » جنوب شرق « أبو عجيلــة » وأسرت بعض الجنود المصريين هناك وكانوا ضمن الذين انسحبوا من « العسلوج » عبر الصحراء . وواصلت طائرات السلاح الجوي المصري قصف القوة الاسرائيلية المتمركزة في « ابو عجيلة » طوال يوم ٣٠ ديسمبر وأوقعت بها خسائر عدة . وتقول المصادر الاسرائيلية ان حالة الآليات المجنزرة الفنية أصبحت لا تسمح بمواصلة العملية مما اضطر القيادة الاسرائيلية الى سحب القوة من « ابو عجيلة » واعادتها الى قاعدتها الاصلية في « بير سبع »(١١).

وفي يوم ٣١ ديسمبر تقدمت وحدات مصرية من الكتيبة التاسعة مشاة تعززها كتيبة دبابات « لوكست » ومدفعية ميدان ومضادة للدبابات نحو « بير الحفن » جنوب العريش فطهرتها من الالغام التي تركتها فيها القوات الاسرائيلية قبــل انسحابها ، ثم واصلت

تقدمها الى « أبو عجيلة » ودخلتها دون قتال بعد أن أزالت الالغـــام الموضوعة حولها أيضا . وهكذا انتهت معركة « ابو عجيلة » عام ١٩٤٨ ، وقـــد كانت تالية في الاهمية وقتئذ لمعركة « العوجة » نظرا لان الاخيرة كانت النقطة الاكثر تقدما حينئذ أما « ابو عجيلة » فلم تكن تمثل حتى ذلك الوقت سوى قاعدة ادارية فرعية لقطاع « العوجة ــ العسلوج » . وبعد انتهاء الحرب وتوقيع اتفاقية الهدنة الدائمة في « رودس » بين مصر واسرائيل يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، اتفق على جعل « العوجة » منطقة مجردة من السلاح (الا أن اسرائيل احتلتها بعد ذلك) وأصبحت « أبو عجيلــة » بوابة سيناء الوسطى الرئيسية واكتسبت أهميتها الاستراتيجية المعروفة بعد ذلك في حربي ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .

معركة أبو عجيلة عام ١٩٥٦

توازن القوى عشية المعركة : كان للقيادة الشرقية المصرية في سيناء قبل تأميم القناة فرقتا مشاة هما الفرقة الثانية والثالثة ووحدات من سلاح الحدود ، ومجموعة مدرعة (المجموعة الاولى المدرعة) وتدعمها مجموعـــة لواء مشاة اعتبرتهما بمثابة احتياطي عملياتي ، يعززه احتياطي استراتيجي مرابط في منطقة القناة مكون من المجموعة الثانية المدرعة ومجموعة اللواء الرابع مشاة فضلا عن مجموعة اللواء الاول مشاة الموجودة بالقاهرة . وقد اعتبرت القيادة الشرقية منطقة ابو عجيلة أولى المناطق الحيوية في سيناء التي يجري فيها استخدام الاحتياطي العملياتي المدرع حال وقوع هجوم اسرائيلي هناك للحيلولة دون تطويق موقع « أبو عجيلة ــ أم قطف » من الجنوب والوصول الى الطريق الاوسط أو لصد المدرعات الاسرائيلية التي قد تنجح في اختراق موقع «أم قطف» الدفاعي في هجوم بالمواجهة . وعقب تأميم القناة وبدء اتضاح النوايا العدوانية لكل من بريطانيا وفرنسا ضد مصر ، قامت القيادة المصرية العامة بتركيز قواتها الرئيسية في منطقة القناة مع تشكيل احتياطي استراتيجي في منطقة القاهرة لمواجهة احتمال حدوث غـــزو عن طريق منطقة الاسكندرية ، وأدى ذلك الى سحب المجموعة الاولى المدرعة ومجموعة لواء المشاة التي تدعمها من سيناء الى منطقة القناة وسحب المجموعة المدرعة الثانية الى منطقة القاهرة ، ثم سحبت الفرقة الثانية مشاة أيضا من سيناء الى منطقـــة القناة ووحدات فرعية اخرى ، وانتقلت القيادة الشرقية نفسها مـــن جبل لبنى الى منطقـــة الاسماعيلية وأبقت في العريش مركز قيادة امامي صغير الحجم ، وذلك بعد أن اسندت اليها مهام الاشراف على الدفاع في منطقة القناة التي كانت تتولاها أصلا قيادة منطقة القناة وشرق الدلتا .وكانت النتيجة أن اصبحت القوات المصرية الموجودة في سيناء وقطاع غزة يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ عندما بدأ الهجوم الاسرائيلي المفاجىء علـــى « الكونتلا » واسقاط كتيبة من المظليين في « ميتلا » مكونة من الوحدات التالية :

١ ــ اللواء الخامس مشاة ويتألف من كتيبتين وتدعمه كتيبة من مدفعية الميدان وكتيبة مدرعة وكتيبة حرس حدود فلسطين للدفاع عن منطقة رفح .

٢ ــ اللواء ٨٦ واللواء ٨٧ حرس حدود فلسطين واللواء ٢٦ حرس وطني في قطاع غزة وتدعمها كتيبة غير كاملة من الهاون الثقيل .

٣ ــ اللواء السادس مشاة ويتألف من كتيبتين وتدعمه كتيبة مـــن مدفعية الميدان وكتيبة مشاة احتياط عدا سريتين وكتيبة حرس وطني في منطقة ابو عجيلة والقسيمة وسريتان من المدفعية المضادة للدبابات ذاتية الحركة .

٤ ــ اللواء الرابع مشاة ويتألف من ثلاث كتائب وتدعمه كتيبة من مدفعية الميدان وكتيبة مدرعة عدا سريتا مشاة احتياط في منطقة العريش .

٥ ــ اللواء ٩٩ مشاة احتياط في منطقة جبل لبنى .

٦ ــ بقيت وحدات القطاع الجنوبي من سيناء كما كانت من قبل ، أي كتيبة محمولة من حرس الحدود وكتيبتا حرس وطني .

وقد كانت قوات القطاع الشمالي والاوسط من سيناء تتبع قيادة الفرقة الثالثة مشاة ومقرها بالعريش وكانت تتبعها ايضا كتيبة مدفعية مضادة للدبابات ذاتية الحركة وكتيبة مدفعية خفيفة مضادة للطائرات وكتيبة مدفعية ساحلية وكتيبة مهندسين وكتيبة اشارة ووحدات صغيرة أخرى من المدفعية بمختلف انواعها ووحدات ادارية .

هذا وقد حشدت القيادة الاسرائيلية العسكرية الجنوبية عشية هجومها يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ الذي اطلق عليه اسم « عملية قادش » القوات التالية : (وتشمل احتياطي القيادة الجنوبية) ٣٥ كتيبة مشاة (تشمل المشاة المحمولة والميكانيكية والمظليين) . ٣٥ كتيبة مدفعية (تشمل مدفعية الميدان والهاون الثقيل والمدفعية المتوسطة) . ١٠ر٦ كتيبة دبابات . وهذا فضلا عن بعض كتائب الناحـــال والوحدات الفرعية والاداريـــة المختلفة التي لن ندخلها في مقارنة القوى المتضادة . واذا استبعدنا كتـــائب الحرس الوطني والاحتياط وحرس حدود فلسطين التي كانت كلها تشكيلات شبه عسكرية ناقصة التسليح والتدريب من ضمن حساب القوة المصرية واستبعدنا ايضا كتائب الناحال (التي لم نحصها) من حساب القوة الاسرائيلية يصبح جدول ميزان القوى العام كالآتي :

البيـــــان	قوات مصرية	قوات اسرائيلية	المقارنة
كتيبـــة مشاة	٨	٣٥	١ : ٤،٥
كتيبـــة دبابات	٢	١٠،٦	١ : ٥،٣
كتيبة مدفعيـــة	٣،٥	٣٥	١ : ١٠

اما على المحور الاوسط في قطاع « أبو عجيلة ــ القسيمة » حيث تركـــز المجهود الرئيسي للهجوم الاسرائيلي بعد أن افتتحت الحملة بهجوم ثانوي مخادع في المحـــور الجنوبي فقد حشدت القيادة الاسرائيلية الوحدات التالية(١٢):

١ ــ مجموعة اللواء الرابع مشاة وتضم ٣ كتائب مشاة وكتيبة مدفعية ميدان وكتيبة مدفعية متوسطة وكتيبة هاون ثقيل .

٢ ــ مجموعة اللواء السابع المدرع وتضم كتيبتي دبابات خفيفة (آ م اكس ١٣) وكتيبة دبابات متوسطة (سوبر شيرمان) وكتيبة مشاة ميكانيكية وكتيبة مشاة محمولة وكتيبة مدفعية ميدان .

٣ ــ مجموعة اللواء ٣٧ المدرع وتضم كتيبة دبابـــات متوسطة (سوبر شيرمـــان وشيرمان) وكتيبة دبابات خفيفة (آ م اكس ١٣) وكتيبة مشاة ميكانيكية وسرية مهندسي اقتحام .

٤ ــ مجموعة مدفعية معاونة وتضم ٣ كتائب مدفعية ميدان وكتيبة مدفعية متوسطة.

هذا فضلا عن كتيبة مهندسي اقتحام اخرى مستقلة ، وتخضع هذه الوحدات لقيادة مجموعة قتالية موحدة هي مجموعة العمليات رقم ٣٨ ، كما حشدت القيادة الجنوبية مجموعة اللواء العاشر مشاة كاحتياطي قريب لمجموعة العمليات المذكورة ، وكان يضم ثلاث كتائب مشاة محمولة وكتيبتي مدفعية ميدان وكتيبة مدفعية متوسطة وكتيبة هاون ثقيل وكتيبتي ناحال .

وبذلك أصبح ميزان القوى بين الطرفين على المحور الاوسط في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ على النحو الآتي :

البيان(*)	قوات مصرية	قوات اسرائيلية	المقارنة
كتيبـــة مشاة	٢	٩	١ : ٤،٥
كتيبـــة دبابات	٢/٣	٥	١ : ٧،٥
كتيبـــة مدفعية	١	١٢	١ : ١٢

توزيع القوة المصرية : كانت القوة المصرية المدافعة عن قطاع «أبو عجيلة ـــ القسيمة» موزعة على النحو التالي :

١ ـــ الكتيبة ١٨ مشاة والكتيبة ٢٨٩ مشاة احتياط عدا سرية كانتا في استحكامات ميدانية في الموقع الدفاعي الرئيسي في المنطقة عند « ام قطف » والممتد بين جبل «ضلفة» في الجنوب والكثبان الرملية في الشمال المسماة « مكسر الفناجيل » . وتدعمها الكتيبة الثالثة مدفعية ميدان (نحو ٢٤ مدفعا ٢٥ رطل) التي تمركزت عند وادي « شيحان » قرب سفح جبل ضلفة بحيث تستطيع أن تساند بنيرانها موقع « أم قطف » وموقع « سد الروافعة » الذي يليه في العمق قرب قرية « ابو عجيلة » كما كانت تعززها السرية ٧٨ مدفعية مضادة للدبابات ذاتية الحركة (٦ مدافع عيار ١٧ رطل Archers) فضلا عن بعض المدافع المضادة للدبابات العادية من عيار ٥٧ مم .

٢ ـــ الكتيبة ١٧ مشاة عدا سرية تدعمها السرية ٩٤ مدفعية مضادة للدبابات ذاتية الحركة كانت ترابط في مواقع دفاعية عند سد الروافعة في وادي العريش على مبعدة نحو ٣ كيلومترات الى الجنوب الشرقي من « أبو عجيلة » كاحتياطي عام ومن هناك كانت تستطيع القيام بضربة معاكسة نحو ممر « الضيقة » الواقع بين جبل « ضلفة » وجبل « الحلال » تجاه الجنوب الغربي في حال هجوم قوات اسرائيلية زاحفة من القسيمة للالتفاف حول « أبو عجيلة » .

٣ ـــ سرية من الكتيبة ١٧ مشاة عدا فصيلة ومعها عربة مسلحة جيب مـــن سرية الاستطلاع عند « رأس أم مطامر » الواقعة بين جبل « الابيض » وجبل « أم هريبة » على الطريق الممتد بين « القسيمة » ـــ التي تبعد نحو ٣٠ كيلومترا الى الجنوب الشرقي من « ابو عجيلة » ـــ وممر « الضيقة » .

٤ ـــ كتيبة من الحرس الوطني حول القسيمة وعند طرق الاقتراب المؤدية اليها في وادي الصبحة .

٥ ـــ فصيلة من السرية التابعة للكتيبة ١٧ مشاة في نقطة انذار أمامية قرب الحدود الى الشمال الشرقي من القسيمة عند سفح جبل « العمرو » تساندها في المؤخرة وحدتا جيب مسلح استطلاع على كلا جانبي « الصبحة » كما كانت توجد نقطة انذار اخرى من ثلاث سيارات حدود عند « ام بسيس » قرب الحدود شرق « أم قطف » . ووحدة من الكتيبة ٢٨٩ احتياط عند « التل ٢٠٩ » الواقع عند المدخل الجنوبي لموقع « أم قطف »

* استبعدت كتائب الناحال من الجانب الاسرائيلي الذي ادخل احتياطيه التريب في حساب المقارنة ، وبالمقابل استبعدت كتائب الاحتياط والحرس الوطني من الجانب المصري وذلك باعتبار أنها هي والناحال تعتبران تشكيلات شبه عسكرية متدنية التدريب والتسليح ، وادخلت كتائب الهاون الثقيل ضمن المدفعية ، كما ادخلت المدافع المضادة للدبابات ذاتية الحركة ضمن الدبابات لدى الجانب المصري .

بين سفح جبل « ضلفة » الشرقي وجبل « الوجير » حيث يمتد طريق فرعي من « أم قطف » الى « القسيمة » عبر مضيق « رأس ام مطامر » .

بدء العمليات الحربية : بدأ الهجوم الاسرائيلي في هذا القطـــاع في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف ليلة ٣٠ اكتوبر بتقدم سرية استطلاع مجموعة اللواء الـــرابع مشاة نحو منطقة جبل « الصبحة » الى الشمال الشرقي من « القسيمة » وتلتها كتيبة مشاة من اللواء عقب تأكدها من خلو نقط الانذار من الوحدات المصرية التي ابلغت القيادة عن التقدم الاسرائيلي ثم تراجعت الى القسيمة ، ثم واصلت الكتيبة الاسرائيلية تقدمها نحو القسيمة بعد أن أزالت وحدة من المهندسين بعض الالغام التي كانت على جانب الطريق ، ودار قتال بالاسلحة الخفيفة بين القوة المهاجمة والمواقع التي تحمي طرق الاقتراب على مسافة ٦ كيلومترات تقريبا الى الشمال الشرقي من القسيمة تكبد فيه المهـــاجمون بعض الخسائر واوقفتهم نـــيران الرشاشات عدة مـــرات كما دمرت الالغام عند أحد المواقع مصفحتين نصف مجنزرتين تـــابعتين لسرية الاستطلاع(١٣). ثم طلب قائد اللواء الاسرائيلي معونة الدبابات ومدفعية الميـــدان فأرسلت اليه كتيبة دبابات من اللواء السابع المدرع وسرية من مدافع الميدان (٢٥ رطل) وبعد قتال عنيف عند مشارف « القسيمة » وداخلها ايضا حيث أزالت الدبابات جزءا كبيرا من منازلها القليلة لتقضي على القناصة المصريين المتحصنين بهـــا . سقطت القسيمة في السابعة صباحا وانسحبت بقية القوة المصرية نحو « أبو عجيلة » فأمر قائد اللواء الاسرائيلي بمطاردة القوة المصرية ولكن دون التورط في الاشتباك مع موقع « أم قطف » . ويقول « موشي ديان » في مذكراتهأن الخسائر الاسرائيلية في « القسيمة » كانت ٤ قتلى و٣٦ جريحا وان المصريين فقدوا ٤٥ قتيلا و٣٧٠ جريحا وأسيرا(١٤). وعلى اثر ذلك دخل اللواء السابع المدرع الى القسيمة حيث تمركز هناك في حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحا . هذا وقد تم استخدام المدرعات من جانب القيادة الجنوبية خلافا لاوامر «ديان» المسبقة التي كانت تقضي بعدم استخدامها قبل يوم ٣١ اكتوبر وهو اليوم المحدد لتوجيه الانذار البريطاني ــ الفرنسي لمصر المتفق عليه في معاهدة سيفر السرية ، نظرا لان هذه القيادة كانت تبغي سرعة الافادة من المفاجأة وانعدام توازن القوى بين الجانبين وتحتل اكبر قدر ممكن من المواقع المصرية ، الامر الذي دعـــا ديان الى التوجه بسرعة الى « القسيمة » لبحث الموقف على الطبيعة ، وعندما وصل الى هناك أنب قائد المنطقة الجنوبية على مخالفته الاوامر ولكن المدرعات كانت قد دخلت الاراضي المصرية وتوجهت كتيبة منها لمطاردة القوات المصرية المنسحبة حتى مشارف « أم قطف » ، الا ان الكتيبة المدرعة فهمت من خلال اللاسلكي الامر بطريقة خاطئة واعتقدت ان عليها مهاجمة الموقع من اتجاه الجنوب في الممر الواقع بين جبل الوجير وجبل ضلفة، وقد بدأت الكتيبة هجومها في الساعة ٣٠ر١٢ ظهر يوم ٣٠ اكتوبر وبعد ثلاث ساعات من القتال العنيف حول التل ٢٠٩ فشل الهجوم في تحقيق أهدافه وانسحبت الكتيبة لتعيد تنظيم نفسها بعد أن فقدت ٤ دبابات « سوبر شيرمان »(١٥). ويصف « ديان » هذا الفشل فيقول « لقد قوبل الهجوم بمقاومة قوية ونيران دقيقة مضادة للدبابات من مدافـــع « آرشر » المتخندقة بصورة جيدة »(١٦).

الالتفاف حول موقع « أم قطف » : ويقول ديان في يوميـــاته عن حملـــة سينـــاء ان تدخل المدرعات الاسرائيلية المبكر ادى لزيادة فاعلية الردود المصرية المضادة مما أدى لاستخدام الطيران في المعركة من جانب القيادة المصرية في توقيت مبكر عما كانت القيادة الاسرائيلية تريده (أي قبل التدخل الانجلو ــ فرنسي) ولذلك أمـــر « ديان » اللواء السابع المدرع بمواصلة التقدم ما دام قد تورط فعلا في المعركة، الا أن قائد اللواء المذكور كرر عدة مرات بانه « لا يستطيع ان يحتل أم قطف بواسطة القوة المتاحة له بدون تكبد

خسائر فادحة »(١٧) ولذلك امره « ديان » بتركها جانبا والزحف من الجنوب حولهـا للاتجاه بعد ذلك غربا تجاه قناة السويس على محوري « جبل لبنى » و« بير الحسنة » « لانه من غير المتوقع أن تبدي جميع المواقع المصرية مقاومة شديدة . وسوف تكون هناك نقاط ضعيفة ، وعندما تصبح الجبهة بأكملها مفتوحة وتجد المواقع التي تبدي مقاومة شديدة نفسها مطوقة ومعزولة سيكون التغلب على مثل هذه المواقع أمرا أكثر سهولة منه الآن . وعلى اية حال ، فان القوات الانجلو ـ فرنسية ستبدأ غدا في الفجر (يقصد يوم أول نوفمبر) قصف المطارات المصرية ، ومن المفترض ، اننا سنكون بعد ذلك قادرين على تحقيق أهدافنا بسهولة أكبر »(١٧).

وقد قامت سرية استطلاع اللواء السابع المدرع بعد ظهر اليوم نفسه بالزحف نحو ممر « الضيقة » الواقع على مسافة ١٥ كيلومترا الى الغرب تقريبا من القسيمة فقامت قوة مصرية هناك بنسف جسر يقع عند المدخل الجنوبي للممر وانسحبت شمالا وبعد ذلك استطاعت سرية الاستطلاع الاسرائيلية أن تشق طريقها داخل الممر الى أن وصلت الى نهايته في الرابعة والربع بعد الظهر حيث تخندقت هناك لحماية الممر بينما تدفقت الدبابات خلاله آتية من القسيمة خلال الليل . هذا وقد اصيب قائد اللواء السادس مشاة المصري بجراح خلال القتال الذي دار اثناء النهار عند « التل ٢٠٩ » وهو يقود هجوما معاكسا هناك بواسطة سرية من سرايا الكتيبة ١٧ التي سحبت من سد الروافعة لتعزيز الموقف في « أم قطف » وقد نقل الى القاهرة بعد ذلك وحل محله قائد الكتيبة ١٢ مشاة التي أرسلت بعد الظهر من العريش لتدعيم اللواء السادس في منطقة ابو عجيلة وحلت محل سرايا الكتيبة ١٧ الثلاث التي سبق لها أن تحركت الـى « أم قطف » لصد الهجـوم الاسرائيلي الفاشل على « التل ٢٠٩ » . وكانت الكتيبة ١٢ هذه معززة باربعة مدافع مضادة للدبابات ذاتية الحركة وبطارية مدفعية ميدان(١٨).

وقامت طائرة اسرائيلية خلال الليل بينما كانت الدبابات الاسرائيلية لا تزال تتحرك بصعوبة داخل ممر الضيقة بالتحليق فوق موقع « أم قطف » وأخذت تلقي منشورات وتردد بواسطة مكبرات صوت مركبة فيها للقوات المصرية بأنها اصبحت مطوقة بالدبابات من المؤخرة وان الاتصالات مع العريش قد قطعت وان المقاومة اصبحت أمرا غير مجدي ولذلك على المدافعين أن يستسلموا وسوف يعودون الى بيوتهم مرة اخرى عقب انتهاء الحرب(١٨). وكان الرد المصري هو اطلاق صليات مـن رصاص الرشاشات صـوب الطائرة التي عادت مرة أخرى في الفجر وكررت الفعل نفسـه وتلقت الرد نفسه مرة اخرى .

وبعد ظهر اليوم نفسه تحرك اللواء العاشر مشاة الاسرائيلي (الاحتياطي القريب) من العوجة تجاه « أم قطف » من جهة الشرق واحتل نقطة الانذار المصرية عنـد « أم بسيس » التي انسحبت قوتها عبر رمال « مكسر الفناجيل » صوب الموقع الرئيسي في « أم قطف » . وقد كانت خطة « ديان » تقضي بأن تهاجم دبابات اللواء السابع المدرع « ابو عجيلة » من الغرب بعد أن تجتاز ممر الضيقة خلال الليل وعلى اثر ذلك تهاجم مواقع « سد الروافعة » و« أم قطف » من الغرب أيضا بينما يهاجم اللواء العاشر مشاة « أم قطف » من الشرق وان يتم هذا الهجوم المشترك في التاسعة من صباح يـوم ٣١ اكتوبر .

وخلال ليلة ونهار ٣٠ اكتوبر كانت وحدات احتياطي القيـادة الشرقية الموجودة في منطقة القناة تتحرك نحو سيناء عبر قناة السويس ولكن مع مراعاة عدم توقف عمليات الملاحة فيها بسبب عبور القوات حتى لا تتخذ بريطانيا وفرنسا من هذا حجة للتدخل العسكري ، فأخذت مجموعة اللواء الثاني مشاة تتحرك على الطـريق الجنوبي نحو

المدخل الشرقي لممر « ميتلا » لمواجهة لواء المظليين الاسرائيليين رقم ٢٠٢ الذي هبطت كتيبة منه هناك ، واخذت المجموعة الاولى المدرعة تتحرك على الطريق الاوسط نحو « ابو عجيلة » ، واخذت مجموعة اللواء الاول مشاة تتحرك على الطريق الشمالي نحو « العريش » . الا أن التقيد بحركة الملاحة في القناة ادى الى سير عمليات عبور القوات ببطء ولذلك وصلت كتيبة الاستطلاع التابعة للمجموعة الاولى المدرعة الى «بير جفجافة» (في منتصف الطريق تقريبا نحو أبو عجيلة) في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٣٠ اكتوبر وفي السادسة من مساء اليوم نفسه قدمت بريطانيا وفرنسا انذارهما الى كل من مصر واسرائيل بأن تسحب كل منهما قواتها الى مسافة عشرة أميال بعيدا عن القناة ضمانا لحرية الملاحة في خلال ١٢ ساعة ! وفي الساعة السابعة والنصف من مساء يوم ٣١ اكتوبر بدأت الطائرات البريطانية والفرنسية تقصف المطارات المصرية بعد أن رفضت مصر الانذار وقبلته اسرائيل !

ورغم تلقي الحكومة المصرية الانذار الانجلو ــ فرنسي مساء يوم ٣٠ اكتوبر الا أن الاحتياطي الاستراتيجي المدرع استمر في عبوره قناة السويس اثناء الليل ، وعند فجر يوم ٣١ اكتوبر كانت المجموعة الثانية المدرعة قد أتمت عبورها القناة حيث تابعت تقدمها نحو « بير جفجافة » ، بينما كانت المجموعة الاولى المدرعة قد واصلت تقدمها حتى وصلت الى « بير الحمة » التي تبعد نحو ٣٧ كيلومترا عن « ابو عجيلة » ، وكذلك وصلت مجموعة اللواء الاول مشاة تدعمها بعض الدبابات والمصفحات والمدفعية الى « مصفق » على الطريق الشمالي قرب « العريش » رغم النشاط الجوي المعادي طوال النهار ، الا ان ذلك لم يمنع القوات من مواصلة السير رغم بعض الخسائر التي لحقت المركبات نظرا لتواجد الطيران المصري فوق ساحة العمليات وقيامه بنحو ١٠٠ طلعة طيران خلال هذا اليوم واسقاطه ٤ طائرات للعدو(١٩).

هذا وقد قامت كتيبة دبابات خفيفة « آ م اكس ١٣ » من اللواء السابع المدرع الاسرائيلي بالتقدم صوب « بير الحسنة » عبر الطريق الممتد اليها من المدخل الجنوبي لممر « الضيقة » واحتلها في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم ٣١ اكتوبر بعد معركة قصيرة غير متكافئة مع سرية من سلاح الحدود، وقد هاجمت الطائرات المصرية الدبابات الاسرائيلية اثناء اقترابها من « بير الحسنة » ، ثم تقدمت الكتيبة الاسرائيلية بعد ذلك الى الشمال لتقيم كمينا على الطريق الاوسط قرب جبل لبنى الذي يقع على مبعدة نحو ٢٠ كيلومترا الى الشمال من « بير الحسنة » لاعاقة تقدم المجموعة الاولى المدرعة نحو « ابو عجيلة » . وفي الوقت نفسه رابطت وحدات اللواء الرابع مشاة في « القسيمة » عدا كتيبة ارسلت الى « نخل » في الجنوب لتحل محل احدى كتائب لواء المظلات الاسرائيلي ٢٠٢ . تلك كانت هي صورة التحركات المصرية والاسرائيلية المحيطة بقوات « ابو عجيلة » التي تعرضت في الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ٣١ اكتوبر لهجوم من بقية اللواء السابع المدرع الذي يضم كتيبة دبابات سوبر شيرمان واخرى « آ م اكس ١٣ » وكتيبة مشاة ميكانيكية (محمولة في مصفحات نصف جنزير) وكتيبة مشاة محمولة في عربات ، والذي زحف الى قرية « ابو عجيلة » نفسها من الغرب على الطريق الرئيسي بعد ان اجتاز ممر « الضيقة » بصعوبة خلال الليل نتيجة عمليات النسف المصرية ، ولم تكن القوة المصرية المدافعة عن القرية نفسها كبيرة ولكنها قاتلت بشجاعة في مواجهة القوة الاسرائيلية المتفوقة الى حد أن مجموعة منها تقدر بنحو ٦٠ جنديا أخذت تتحرك بجانب الطريق وتطلق قذائف مدافع البازوكا التي تحملها صوب الدبابات الاسرائيلية من مسافة ٥٠ مترا فقط فقامت كتيبة المشاة الاسرائيلية الميكانيكية بالاشتباك مع هذه القوة المصرية وقتلت العديد من جنودها البواسل(٢٠). ويصف

« ديان » المعركة عند قرية « أبو عجيلة » فيقول « لقد حسمت المعركة عندما وصلت الدبابات ونصف المجنزرات الى داخل المواقع رغم ان بعض المدافعين استمروا في ابداء شجاعة كبيرة ، الى حد اطلاق مدافعهم البازوكا وهـم يواجهون الدبابات واقفين في العراء »(٢١). وفي السابعة الا ربع صباحا سقطت قرية أبو عجيلة في ايدي المهاجمين ، الذين تعرضوا على الفور لنيران شديدة من كتيبة مدفعية الميدان المصرية المتمركزة في وادي « شيحان » عند سفح جبل « ضلفة » ، الامر الذي اضطر كتيبة المشاة الميكانيكية الى التنقل من مكان لآخر وسط الكثبان الرملية طوال فترة القصف لتقلل مـن نسبة اصابتها . وفي حوالي التاسعة صباحا تعرضت القوة الاسرائيلية لهجوم معاكس من جانب قوة مصرية زاحفة من العريش مؤلفـة من وحدات مـن الكتيبة العاشرة مشاة وسريتي دبابات « شيرمان » وبعض المدافع المضادة للدبابات ذاتيـة الحركة ودارت معركة شديدة الى الشمال الغربي من « أبو عجيلة » عند قرية « أولاد علي » ، وقد صد الهجوم ، ولكن القوة المصرية عادت وكررت هجومها المعاكس مرتين بعد ذلك ، وقد ساهم الطيران الاسرائيلي في صد الهجمة الثالثة والاخيرة ملحقا بعض الخسائر بالعربات مما اضطر القوة الى الانسحاب الى « بير الحفن » جنوب « العريش » . ويقول «ديان» ان القوة المصرية فقدت في هذه الهجمات ٤ مدافع مضادة للدبابات ذاتية الحركة و٣٧ قتيلا(٢٢).

وفي الوقت نفسه قامت وحدات من اللواء العاشر مشاة تعززها كتيبة دبابات بمحاولة اختراق دفاعات « أم قطف » من المواجهة في حوالي الساعة التاسعة صباحا بعد أن زحفت من موقع « أم بسيس » الذي احتلته في مساء اليوم السابق ولكن الهجوم فشل وارتدت القوات الاسرائيلية في حالة من الاضطراب بعد أن صدتها نيران المدافع المصرية المضادة للدبابات ومدافع الميدان والهاون ودمرت عددا مـن المصفحات نصف جنزيـر ومركبات سرية الاستطلاع . ويعزو الكاتب البريطاني « ادجار بالانس » فشل الهجوم الى افتقاد الاسرائيليين للمدفعية والمدرعات لمساندة الهجوم(٢٣)، ولكن « موشي ديان » يقول بصدد هذا الهجوم « لقد كان لدى القيادة الجنوبية كل القوة اللازمة لكي تباشر هذه المعركة بنجاح وذلك من مشاة ، ومدرعات ، ومدفعية وما الى ذلك . ولكن التصرف العسكري المفترض تنفيذه لم يتم . ولم يطبق الهجوم خطة متكاملة تستطيع ان تستوعب في المعركة كل القوى الموضوعة لهذه العملية »(٢٤).

محاولات احتلال « أم قطف » : في حوالي الساعة الخامسة من مساء يوم ٣١ اكتوبر بدأت وحدات من كتيبة دبابات السوبر شيرمان التابعة للواء السابع المدرع تعاونها وحدات من كتيبة المشاة الميكانيكية تهاجم موقع « سد الروافعة » الواقع على مبعدة ٣ كيلومترات الى الجنوب الشرقي من « ابو عجيلة » الذي كانت تدافع عنه سرية مشاة مصرية واحدة بقيادة ملازم اول تعززها ثمانية مدافع مضادة للدبابات ذاتيـة الحركة وستة مدافع أخرى من عيار ٥٧ مم وثلاثة مدافع مضادة للطائرات عيار ٣٠مم استخدمت ضد الدبابات وستة مدافع ميدان ٢٥ رطل.وقد انقسمت الدبابات الاسرائيلية الـى قسمين قسم منها ارتقى ارضا مرتفعة وعمل كمدفعية والقسم الاخر زحف في شكـل كماشة تحاول الالتفاف حول الموقع ومعه وحدات المشاة الميكانيكية في المصفحات نصف جنزير، وقد اطلق عليهم المصريون النار الشديدة من مسافة ١٠٠٠ متر تقريبا واصابوا عددا كبيرا منها باصابات مختلفة وسقطت بعض الدبابات نتيجة لذلك في وادي العريش المجاور، وحاولت الدبابات التي تعمل كمدفعية مساندة التقدم للاشتراك في الهجوم الا ان النيران المصرية اضطرتها للعودة السريعة الى موقعها السابق(٢٥). وغربت الشمس وعاود العدو الهجوم في الظلام وما أن اخترقت دباباته ومصفحاته حاجز الاسلاك الشائكة

المحيطة بالموقع حتى دمرت ثلاث مصفحات نصف جنزير بنيران المدافع المضادة للدبابات، ودار قتال عنيف في الظلام وتعرضت الدبابات الاسرائيلية لنيران مدفعية الدبابات الاسرائيلية الرابضة فوق الارض المرتفعة وفشل الهجوم ثم انسحبت القوة الاسرائيلية لاعادة التنظيم عند منتصف الليل وبلغت جملة خسائرها ٨٠ اصابة بين قتيل وجريح وتدمير ٨ دبابات و٦ مصفحات نصف جنزير بخلاف الدبابات والمصفحات التي عطلت أو أصيبت اصابات خفيفة نسبيا(٢٥).

وفي الوقت نفسه قام اللواء العاشر مشاة بهجوم من جهة الشرق على موقع « ام قطف » بواسطة كتيبتين في حوالي السادسة مساء استمر حتى منتصف الليل ودون ان يحقق أي نتيجة اذ وقعت أحدى الكتيبتين تحت نيران رشاشات موقع أمامي مصري يبعد نحو كيلومترين عن الموقع الرئيسي لم يكن يعرف عن وجوده أي شيء من قبل ولم يسبق له أن فتح النار في هجوم الصباح الفاشل . ولم تستطع هذه الكتيبة ان تقتحم الموقع الامامي المصري الذي لم يكن به سوى ٤ رشاشات متوسطة خلال الليل ، وانما انتظرت حتى الصباح حيث أمكن لها بمساندة المدفعية أن تسكت نيران الموقع وتحتله في الحادية عشرة صباحا يوم ١ نوفمبر . واضطرت الكتيبة الاخرى الى الانسحاب والعودة الى مواقعها الاصلية بسبب شدة نيران المواقع المصرية بعد ان تكبدت اكثر من ٥٠ قتيلا وجريحا .

اما في الغرب فقد عاودت الكتيبة المدرعة الاسرائيلية التقدم نحو موقع « سد الروافعة » فوجدته خاليا في حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحا بعد أن تراجعت القوة التي كانت فيه الى الموقع الرئيسي في « أم قطف » اثناء الليل عقب فشل الاقتحام الاسرائيلي للموقع .

هذا ويذكر « كينيت لوف » ان الجنود الاسرائيليين ارتكبوا اثناء يوم ٣١ اكتوبر خلال هجماتهم الفاشلة على موقع « الروافعة » جريمة بربرية بشعة للتأثير على معنويات المصريين بأن قاموا بقطع الاعضاء التناسلية لاثنين من سائقي الشاحنات المصريين الذين أسروهم عند « ابو عجيلة » وارسلوهما الى الموقع المصري حيث ماتا هناك على الفور(٢٦) وادى ذلك الى زيادة صلابة المدافعين في قتالهم على خلاف ما كانوا يتوقعون.

هذا وقد قتل قائد اللواء ٣٧ المدرع الاسرائيلي اثناء الهجوم على « ام قطف » من جهة الشرق وذلك حين دخلت عربته المصفحة داخل نطاق المواقع المصرية بمفردها نتيجة تورط باقي المصفحات داخل حقل الغام قريب ، وقد أطلقت على العربة نيران شديدة من الاسلحة الصغيرة فقتل القائد وعدد من ضباطه قبل أن يبادر سائق العربة وينسحب مسرعا الى الخطوط الاسرائيلية مرة أخرى .

وهكذا فشلت كافة محاولات اختراق موقع « أم قطف » رغم القصف المدفعي والجوي المتصل خلال يومي ٣١ اكتوبر و١ نوفمبر . وفي هذه الاثناء أصدرت القيادة المصرية العامة أمرا بالانسحاب من سيناء لمواجهة الغزو المرتقب من جانب بريطانيا وفرنسا ، وبدأت الوحدات المدرعة تنسحب من سيناء ليلة ٣١ اكتوبر/١ نوفمبر في الواحدة بعد منتصف الليل ، وفي الخامسة من مساء يوم ١ نوفمبر تلقى قائد موقع « أم قطف » المقدم « سعد الدين متولي » (قائد الكتيبة ١٢ مشاة أصلا) أمرا بالانسحاب خلال الليل نحو العريش التي تبعد نحو ٥٥ كيلومترا الى الشمال الغربي ، فقام بعقد اجتماع لقادة الوحدات وشرح لهم الموقف من حيث نقص الماء والطعام والذخيرة التي أصبحت غير متوفرة للمدفعية الا في حدود ٦ قذائف لكل مدفع وأنه لم يصبح هناك سوى ٢٠٠ جالون من الماء لحوالي ٤٠٠٠ رجل محاصرين داخل الموقع ثم اخبرهم بأمر الانسحاب وجرى تنظيم خطة الانسحاب بحيث يتم سحب القوات في ثلاث مجموعات على التوالي خلال

الليل ابتداء من الساعة السادسة والنصف حتى السابعة والنصف عـــن طريق كثبان الرمال الشمالية المعروفة باسم « مكسر الفناجيل » على أن تبقى سرية مشاة واحدة حتى الفجر لتغطية الانسحاب ومعها وحدة مدفعية تطلق عدة قذائف خلال الليل بحيث يتم التظاهر بأن هناك محاولة من جانب الحامية للقيام بهجوم معاكس تجاه « ابو عجيلة ». وبالفعل قامت وحدة من المشاة والمدافع ذاتية الحركة بمهاجمـــة القوات الاسرائيلية المرابطة الى الغرب من « أم قطف » و« شيحان » خلال الليل . وفي الوقت نفسه قامت الحامية اثناء دوي هذه المعركة واطلاق نيران المدافع المتقطع طوال الليل بتدمير الاسلحة الثقيلة والعربات المتبقية لديها، بينما المجموعات الثلاث تقوم بالتسلل عبر الكثبان الرملية الكثيفة في « مكسر الفناجيل » وقد وصلت الكتيبة ١٨ مشاة الى العريش بصورة شبه منظمة ومن هناك واصلت انسحابها مع قوات رفح والعريش نحو قناة السويس . وفي صباح اليوم التالي ٢ نوفمبر بعث قائد احدى كتائب اللواء السابع المدرع الاسرائيلي باثنين من الاسرى المصريين في عربة جيب تحمل علما أبيض في الساعة الحادية عشرة والنصف الى حامية موقع « أم قطف » يطلب منها تسليم نفسها في موعـــد لا يتعدى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه ! وفي الوقت نفســـه لاحظ طيارو الطائـــرات الاسرائيلية التي كانت تحلق فوق الموقع لقصفه بالقنابل أن الحركة ساكنة تماما فيه ، كما أرسلت قيادة اللواء السابع والثلاثين المدرع وحدة من الدبابات نحـــو الموقع من ناحية « القسيمة » لاستطلاع الموقف فيه ، وحين اجتازت الدبابات قمة تلال شيحان في طريقها الى الوادي لتلتقي بقوات اللواء المدرع السابع في الغرب أطلقت عليها دبابات هذا اللواء النار على اعتقاد انها دبابات مصرية تحاول اختراق نطاق الحصار بالقوة كرد على الانذار بالتسليم وأصيبت احدى دبابات اللـــواء ٣٧ بالفعل ثم توقف الضرب بعد تدخل طياري المقاتلات الذين لاحظوا الخطأ من الجو وقاموا بلفت نظر قائد كتيبة دبابات الواء السابع الى خطئه باشارات معينة(٢٧). وتعكس كل هذه التصرفات الاسرائيلية مدى كفاءة ودقة تنفيذ خطة الانسحاب المصرية من جيب « أم قطف » المحاصر ، بعد أن صمدت الحامية المؤلفة من ثلاث كتائب مشاة (١٧ ، ١٨ ، ١٢) تعززها كتيبة مدفعية ميدان واقل من كتيبة مدافع ذاتية الحركة في وجه هجوم لوائين مدرعين ولوائي مشاة في ظل دعم جوي قوي لمدة تزيد عن ثلاثة ايام وفي اطار ظروف استراتيجية عامة غير ملائمة خاصة عقب بدء التدخل الانجلو ـــ فرنسي وهكذا احتلت القوات الاسرائيلية موقع « أم قطف » الخالي من مدافعيه ظهر يوم ٢ نوفمبر ، وانتهت بذلك معركة قطاع «أبو عجيلة» عام ١٩٥٦ .

الدروس المستفادة : كتب « موشي ديان » معلقا على معركة « ابو عجيلة » من زاوية أخطاء القيادة الاسرائيلية في أسلوب ادارة المعركة فقال « كان الخطأ الاساسي في قتالنا أنه جرى بشكل غير منظم وبعمليات ذات حجم صغير . ففي البداية ، يوم ٣٠ اكتوبر ، قامت وحدة من اللواء السابع بمهاجمة « أم شيحان » ، ثم وقع هجوم على « أم قطف » بواسطة اللوائين العاشر والسابع والثلاثين . وفي كلا الهجومين لم تركـــز الوحدات المهاجمة قوتها وتلقي كامل ثقلها في القتال . . . ان غلطتنا تكمن في أننا لم نحشد كـــل القوات المتاحة لنا في هذه الجبهة والتي كان يمكن ان تخصص لهذا الواجب من اجل القيام بهجوم مشترك منسق . وان اللوم عن هذه الاخطاء تتحمله المستويات القيادية العليا أكثر مما تتحمله الوحدات المقاتلة ، أي تتحمله القيادة الجنوبية والقيادة العامة ورئيس الاركان (أنا شخصيا) »(٢٨).

هذا وقال « ديان » بصدد أسلوب قتال القوات المصرية « لقد قاتلت القوات المصرية بصورة جيدة خلال مرحلة قتالها الثابت . فطالما كان يطلب منهـــا استخدام اسلحتها المتخندقة مسبقا في مواقع ثابتة ـــ مدافع مضادة للدبابـــات ومدافع ميدان ومضادة

للطائرات ــ فانها كانت تقوم بذلك بشكل آلي ، وعلى نحو دقيق وفعال . ولكن هذا لم يكن حالها حينما كان عليها ترك مواقعها المتخندقة أو حينما كانت تقوم بتغيير خططها . وهي غالبا لا تباشر هجمات مضادة ، وحين كانت تقوم بذلك فان اداءها كان قليل البراعة الى حد كبير »(٢٨). ويعتقد « ديان » ان تنظيم الدفاع المصري عن سيناء الذي قام على اساس اعتبار المناطق الدفاعية المشيدة في « ابو عجيلة » و« رفح » خطوطا أو حواجز مانعة للتقدم عبر المحورين الاوسط والشمالي في سيناء ، قد تضمن تقديرا مبالغا فيه لمدى القوة الدفاعية لهذه المواقع ، ذلك لان المناطق الدفاعية ذات المهـام والطبيعة المماثلة في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية كانت تحيط بها نطاقات واسعة من حقول الالغام والدشم (المعاقل) المشيدة بالاسمنت المسلح وتزود بكميات هائلة من الاسلحة المضادة للدبابات والمدفعية ، ودول الشرق الاوسط ليس لديها الامكانات المادية والمالية التي تتطلبها مثل هذه التشييدات الدفاعية ، هذا فضلا عـن ان الافتراض القائل بأن التمسك بهذه المواقع المفتاحية يؤدي الى سد طريق التقدم او منع حركة القوات الكبيرة الى داخل سيناء ، افتراض يقوم على قياس خاطىء لدور مثل هذه المواقع في اوروبا حيث توجد كثير من الانهار والمستنقعات والغابات والجبال في عديد من المناطق ومن ثم يمكن أن تشيد فيها مثل الخطوط الدفاعية الحاجزة . ولكن طبيعة الارض الصحراوية في النقب والجزء الشمالي من سيناء تجعل من الممكن تجنب مثل هذه القواعد الدفاعية كأبي عجيلة أو رفح ، وذلك نظرا « لان كثبان الرمال الناعمة ليست بديلا عن الخطوط الدفاعية القوية التحصين ، وممر « الضيقة » ليس نهر « الراين » . ولهذا كانت وحدات اللواء السابع قادرة على التقدم غربا أو شمالا حتى بعد نسف ممر « الضيقة » ، وبالرغم من الصعوبات الخطـيرة في الامداد التـي واجهتنا بسبب عـدم وجود طـريق معبـد بالاسفلت »(٢٩). ويستطرد « ديان » قائلا « ان « ابو عجيلة » يمكن أن تلعب دورا حاسما في الدفاع عن سيناء متى استخدمت كقاعدة ثابتة قوية للقوات المتحركة التي تستطيع أن تخرج منها لتشتبك مع عدو يحاول ان يخترق طريقه الى القناة . ذلك لانه في الاراضي الصحراوية مثل سيناء ليس هناك بديلا عن المدرعات والطائرات والمظليين والمشاة المحمولة . وان القوات المدافعة يجب ان تكون لها القدرة على مواجهة مثل هذه الوحدات المهاجمة بواسطة وحداتها المماثلة المتحركة الخاصة بها . لقد وضع المصريون افتراضا خاطئا للغاية حين تصوروا ان مواقعهم الدفاعية المحصنة في « ابو عجيلة » ، و« رفح » و« العريش » ستحول دون اختراقنا نحو داخل سينـاء ، وسوف تحمـى « القناة » بدون ان يتطلبوا من قواتهم المدرعة والجوية ان تشترك في منع اختراقنا وبدون ان يقوم جنودهم بالخروج خارج دائـرة مواقعهم الدفاعيـة ومقاتلتنا »(٢٩). والواقع ان عدم وجود قوة مدرعة ومشاة ميكانيكية في موقع « القسيمة » قد سهل كثيرا من مهمة اللواء الرابع مشاة واللواء السابع المدرع في احتلال القسيمة والوصول الى العمق العملياتي في « بير الحسنة » وقطع الطريق الرئيسي عند « جبـل لبنى » وفي الالتفاف حول « ابو عجيلة » من الغرب عبر ممر « الضيقة » وتهديد جناح موقع « أم قطف » الجنوبي من اتجاه « التل ٢٠٩ » فضلا عن ان عدم وجود مثل هذا الاحتياطي المدرع حتى على المستوى التكتيكي في موقع « ابو عجيلة » نفسه قد أدى الى سقوط الموقع وسيطرة العدو على مفترق الطرق والحيلولة دون وصول التعزيزات القادمة من العريش . وحتى على افتراض عدم توفر قوة مدرعة للقيام بمثل هذه المهام على ضوء ظروف التهديد الانجلو ــ فرنسي لمنطقة القناة ، فانه تمشيا مع منطق اسلوب الدفاع الثابت كان يجب اقامة موقع دفاعي قوي مساند لمواقع « أم قطف » و« سد الروافعة » في كل من « رأس أم مطامر » (المتحكمة في طرق الاقتراب من مناطق « التل ٢٠٩ » وممر « الضيقة ») وعند مدخل ممر الضيقة الجنوبي ومخرجه الشمالي ، وأيضا في « ابو

عجيلة » نفسها و« بير الحسنة » و« جبل لبنى » . ولكن هذا كان يعني ان القطاع الاوسط من سيناء يحتاج الى نحو ٩ كتائب مشاة كاملة الاعداد للدفاع في مواقع دفاعية ثابتة محورية ، اي فرقة مشاة كاملة بخلاف الوحدات المتحركة . وهـذا كان يشكل البديل المؤقت الوحيد لعدم وجود قوة مدرعة كافية في القطاع ولحين استقدام المجموعات المدرعة الاحتياطية من منطقة القناة . وعلى اي حال فلقد قدمت ظروف التدخل الانجلو — فرنسي في المعركة ابتداء من مساء ٣١ اكتوبر ظرفا ملائما للغاية للجانب الاسرائيلي كما ذكر « ديان » نفسه في يومياته وحالت دون استخدام القيادة المصرية لقوتها الضاربة المدرعة في منع اختراق القوات الاسرائيلية ، وبالتالي فان النجاح التكتيكي الجزئي في الاحتفاظ بموقع « ام قطف » الذي حـرم الجيش الاسرائيلي مـن استخدام الطريق الرئيسي ، فقد اثره ونتائجه وسط الفشل الاستراتيجي العام الذي تداخلت فيه ظروف التدخل الانجلو — فرنسي . تلك الظروف التي حالت دون رؤية وتحديد اخطاء اسلوب الدفاع المصري في الوقت نفسه .

معركة ابو عجيلة في ١٩٦٧

ميزان القوى : قبل ان تتخذ القيادة السياسية المصرية قرارها بحشد قوات ضخمة في سيناء يوم ١٣ مايو ١٩٦٧ لدعم موقف سوريا ازاء التهديدات العسكرية الاسرائيلية ، لم يكن يوجد في سيناء سوى الفرقة الثانية مشاة ووحدات الحدود العادية بالاضافة الى الفرقة العشرين في قطاع غزة من قوات جيش التحرير الفلسطيني . ثم تدفقت قوات مصرية كبيرة اثر ذلك ابتداء من يوم ١٥ مايو وحتى يوم ٤ يونيو، فأصبحت القوة المصرية الاجمالية في سيناء مؤلفة من ٤ فرق مشاة (الفرق ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧) وفرقة مدرعة ومجموعة مدرعة (الفرقة الرابعة ومجموعة الشاذلي) . وكانت تضم نحو ١٥ لواء مشاة (بخلاف لوائين في الفرقة الفلسطينية وفوج صاعقة) منها نحو ٩ الوية محمولة ، ونحو ٥ الوية مدرعة و٣ مجموعات مدرعة اخرى ، وحوالي ٨ الوية مدفعية . وقدرت مجموع هذه القوات بنحو ١٠٠ الف جندي و٩٠٠ دبابة ومدافع ذاتي الحـركة تقريبا وحوالي ١٠٠٠ مدفع(٣٠) . وقد حشدت القيادة الاسرائيلية في الجبهة الجنوبية التي تشمل سيناء وقطاع غزة نحو ٦ الوية مدرعة ومجموعتي دبابات وحوالي ٤ الوية مشاة و٣ الوية مظليين و٦ الوية من المدفعية . وتوضح لنا هذه الارقام التقريبية المقارنة انه كان هناك توازن على المستوى العام بين الطرفين في عنصر المدرعات والمشاة المحمولة ، وان الجانب المصري كان لديه بعض التفـوق في المدفعية (المقطورة) والمشاة غـير المحمولة .

اما في محور « ابو عجيلة » فقد كانت الصورة التقريبية لميزان القوى بين الطرفين على النحو التالي :

كانت الفرقة الثانية مشاة المصرية ترابط في كل من ابو عجيلة والقسيمة ، وكـانت تضم لوائي مشاة ولوائي مدفعية ميدان ومجموعتين مدرعتين وقد وزعت قوات الفرقة مناصفة تقريبا بين « ابو عجيلة » ومواقعها المختلفة و« القسيمة » حيث كان مقر قيادة الفرقة .

وفي « ابو عجيلة » كان يوجد لواء مشاة يتالف من ٤ كتائب ولواء مدفعية ميدان من عيار ١٢٢ مم و١٣٠ مم يضم نحو ٧٠ مدفعا ، ومجموعة مدرعة تضم وحدتي دبابات « ت ٣٤ » ووحدة مدافع ذاتية الحركة مضادة للدبابات « س يوم ١٠٠ » ويبلغ مجموعها كلها نحو ٩٠ دبابة ومدفع ذاتي الحركة ، فضلا عن وحـدة صواريخ مضادة للدبابات ومدافع مضادة للدبابات ومضادة للطائرات ومدافع هاون ثقيلة .

وكان يقابل هذه القوة من الجانب الاسرائيلي مجموعة « شارون » القتالية «VGDA» المؤلفة من لواء مدرع يضم كتيبة دبابات « سنتوريون » وكتيبة دبابات « سوبر شيرمان » ووحدة استطلاع وكتيبة مشاة ميكانيكية وكتيبة مدفعية ذاتية الحركة ، ولواء مشاة يضم ٣ كتائب مشاة وأسلحة المساندة الخاصة به ، وكتيبة مظليين ، و٦ كتائب مدفعية ميدان . وفي الجملة كان لدى مجموعة « شارون » اكثر من ٢٠٠ دبابة ونحو ١٠٠ عربة مصفحة نصف جنزير وحوالي ١٠٠ مدفع(٣١).

التنظيم الدفاعي المصري : مثلما كان الحال عام ١٩٥٦ تركز الدفاع المصري على محور « ابو عجيلة » في موقع « أم قطف » حيث حشدت ٣ كتائب مشاة على مواجهة عرضها نحو ٣ كيلومترات تمتد من كثبان « مكسر الفناجيل » الرملية في الشمال حتى سفوح جبل « ضلفة » في الجنوب داخل خط دفاعي شبه متصل من ثلاثة خنادق متوازية مبطنة الجوانب بالاسمنت المسلح تتخللها حفر للاسلحة المضادة للدبابات والهاونات وملاجىء محفورة ومغطاة بالصخور والرمال للجنود ، وتفصل بين الخندق الاول والثاني مسافة نحو ٣٠٠ متر وبين الثاني والثالث مسافة نحو ٦٠٠ متر ، وتمتد امام الخندق الاول تجاه الشرق حقول الغام عمقها نحو ٢٥٠ مترا ، وقد تركزت مدفعية الميدان (حوالي ٧٠ مدفعا) داخل نطاق شبه مستطيل من الارض الواقعة خلف الخنادق المذكورة بنحو كيلومتر ونصف يستند من الجنوب جزئيا على وادي العريش ومن الشرق على ممر صخري يقود الى « القسيمة » عبر المنطقة الواقعة بين جبل « ضلفة » وجبل «الوجير». وتحيط بالموقع الرئيسي في « أم قطف » مجموعة من المواقع الصغيرة من جميع الجهات ، فقد كان هناك موقع عند « سد الروافعة » الى الغرب ، وموقع يليه الى الشمال الغربي من « أبو عجيلة » على طريق العريش عند نهاية درب يمتد من الشرق الى الغرب عبر كثبان « مكسر الفناجيل » ، وموقع يتوسط الدرب المذكور عند التل رقم ١٨١ لحماية الجناح الشمالي لموقع « أم قطف » كانت ترابط فيه سرية مشاة وسرية دبابات « ت ٣٤ » وبعض قطع المدفعية . وكان هناك موقع آخر الى الجنوب الغربي يسد ممر « الضيقة » من مدخله الشمالي والذي أصبح مسدودا هذه المرة بكثبان رملية . كما كان يوجد موقع آخر الى الجنوب الشرقي على الطريق الى « القسيمة ». وعلى الطريق المعبد بالاسفلت الممتد من « أبو عجيلة » حتى الحدود الفلسطينية حيث كان يصل من قبل الى « العوجة » ثم « العسلوج » و« بير السبع » ، كان يوجد موقعان أماميان للانذار أحدهما عند « أم بسيس » ويبعد عن الحدود بنحو ٣ كيلومترات وتوجد به وحدة صغيرة تعززها بعض قطع المدفعية وتحيط به حقول الغام ، والآخر عند « أم طرفة » ويبعد عن الحدود بنحو ٤ر٥ كيلومتر ويبدأ من عنده تقريبا الدرب الشمالي الذي يخترق كثبان « مكسر الفناجيل» حتى طريق العريش والذي يتوسطه تقريبا موقع « التل ١٨١ »، والى الجنوب من طريق « ابو عجيلة ــ العوجة » كان يوجد درب آخر يبعد عنه بنحو ١ر٥ كيلومتر يسمى « الدرب التركي » يبدأ من عند الحدود ويصل حتى الطرف الجنوبي لخط خنادق الموقع الرئيسي في « أم قطف » ولذلك اقيمت على هذا الدرب أيضا نقطة انذار أمامية تشبه نقطة « أم بسيس » و« أم طرفة » الواقعة الى الشمال من الدرب المذكور . هذا وقد توزعت الكتلة الرئيسية من المجموعة المدرعة الملحقة بقوات « أبو عجيلة » بين منطقة حشد المدفعية و« سد الروافعة » وكان بعضها موزعا على موقع « التل ١٨١ » كما سبق أن ذكرنا وموقع طريق العريش ، وكان هناك معسكر خلفي يعد كقاعدة ادارية لمنطقة ابو عجيلة في المنطقة الممتدة بين « سد الروافعة » وطريق « ممر ضيقة » والطرف الغربي لجبل « ضلفة » رابطت فيه كتيبة مشاة رابعة(٣٢). وكان الموقع الدفاعي الرئيسي يمتد من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلومترا ويصل عرضه في بعض النقط الى نحو ٣

كيلومترات ويقع معظمه الى الجنوب من الطريق الرئيسي الذي يخترقه نظرا لان الطريق يقع معظمه داخل كثبان « مكسر الفناجيل » .

خطة الهجوم الاسرائيلي : نظرا للصعوبات التي تكتنف اقتحام موقع « أم قطف » المحصن بهجوم جبهي مباشر خاصة على ضوء خبرة معركة ١٩٥٦ ، ونظرا لان تكرار أسلوب الالتفاف حول الموقع عن طريق « القسيمة » وممر « الضيقة » غير ممكن هذه المرة نظرا لوجود قوة كبيرة في القسيمة مؤلفة من لواء مشاة ولواء مدفعية ومجموعة مدرعة ، كما أن ممر الضيقة نفسه كان مسدودا بالرمال وتحمي مدخله الشمالي قوة مصرية فضلا عن القوة الاحتياطية الموجودة في المعسكر القريب . فقد وضع «شارون»، قائد المجموعة القتالية الرئيسية الثالثة ضمن المجموعات الثلاث التي عهد اليها بالهجوم على القطاع الشمالي والاوسط من سيناء ، خطة دقيقة معقـــدة التركيب تعتمد على تعاون وثيق بين أسلحة المشاة والمدرعات والمدفعية والمظليين والطيران ينظمه جدول زمني معين قامت على الاسس التالية :

١ ــ دفع كتائب المدفعية الى مرابض اطلاق نار قريبة نسبيا من موقع « ام قطف » الرئيسي والذي يبعد عن الحدود الفلسطينية بأكثر من ١٨ كيلومترا لتوفير مساندة قوية بالنيران لتليين الدفاعات قبل محاولة اقتحامها .

٢ ــ قطع طريق « أم قطف ــ القسيمة » بقوة خفيفة لاعاقة اي تدخل من جانب حامية القسيمة ولو جزئيا مع مشاغلتها من المواجهة بواسطة لـــواء مدرع يتظاهـــر بالاستعداد للهجوم عليها لتثبيت الجزء الرئيسي من القوة الموجودة فيها . وفي الوقت نفسه تقوم قوة مدرعة وميكانيكية اخرى ــ بعد تأمين المواقع الامامية في « ام بسيس » و« ام طرفة » ــ باجتياز الدرب الشمالي واقتحام موقع « التل ١٨١ » للوصول الـــى طريق « ابو عجيلة ــ العريش » وقطعه ضد أي قوات تأتي من العريش (وفـــي هذا الوقت كان لواء مدرع من مجموعة يوفه القتالية سيهاجم « بير الحفن » بعد اجتياز كثبان الرمال الممتدة بين ابو عجيلة ورفح ويشاغل الفرقة الثالثة مشاة المرابطة في جبل لبنى) ثم قطع طريق « ابو عجيلة ــ جبل لبنى » وبذلك تعزل ابو عجيلة وام قطف تماما .

٣ ــ تهبط قوة من المظليين بواسطة طائرات الهليكوبتر الى الشمال مـــن مواقع المدفعية المصرية وسط كثبان « مكسر الفناجيل » وتهاجمها خلال الليل لتشاغلها وتدمر ما تستطيع تدميره منها اثناء قصف المدفعية الاسرائيلية .

٤ ــ تقوم كتائب المشاة الثلاثة بعد مساندة المدفعية بهجوم على الخنادق المصرية في الخطوط الدفاعية الثلاثة المتوازية من جهة الشمال اثناء الليل في وقت واحد بينمـــا تقوم وحدات الهندسة بفتح ثغرة في حقول الالغام الممتدة امـــام الخط الدفاعي حتى تجتازها الدبابات خلال الليل متجنبة بذلك اكبر قدر ممكن من الخسائر التي قد تسببها المدفعية المصرية اذا تمت هذه العملية نهارا .

٥ ــ وعقب ذلك تهاجم الدبابات الموقع لتطهيره من المدرعات والمدفعية وفي هذه الاثناء تقوم القوة المرابطة على طريق العريش بمهاجمة المواقع المصرية في ســـد الروافعة والمعسكر من الخلف وقد تعاونها وحدات من لواء مجموعة « يوفه » الموجود الـــى الجنوب من « بير الحفن » وفقا للظروف أي أن العملية الرئيسية في خطة شارون كانت هي هجوم ليلي للمشاة والمدفعية تقليدي مثل هجوم « مونتجمري » في « العلمين » ليلة ٢٣ اكتوبر ١٩٤٢ . يتبعه اختراق بالمدرعات وتسبقه مشاغلات في المؤخرة . وكان من المفروض بعد تطهير طريق « ابو عجيلة » من حقول الالغام وإسكات المقاومة الرئيسية ان يجتاز لواء مدرع تابع لمجموعة « يوفه » القتالية الطريق وسط قوات مجموعـــة

« شارون » لينضم الى اللواء المدرع الاخر للمجموعة الموجود عند « بير الحفن » ويزحفان معا نحو « جبل لبنى » ثم « بير جفجافة » للاشتباك مع الفرقة الرابعة المدرعة المصرية ، بينما تتجه العناصر المدرعة لمجموعة « شارون » جنوبا ــ بعد تطهير القسيمة ــ نحو « نخل » الواقعة على المحور الجنوبي لسيناء الممتد من « الكونتلا » شرقا حتى « ممر متلا » غربا لتقطع طريق انسحاب الفرقة السادسة مشاة و«مجموعة الشاذلي» المدرعة .

سير العمليات : تحركت قوات « شارون » من مكان احتشادها الرئيسي الواقع على طريق « العوجة ــ بير السبع » داخل الارض المحتلة بنحو ٢٢ كيلومترا والذي كانت ترابط فيه منذ اسبوعين تقريبا ، نحو الحدود خلال الليل ثم بدأت المدفعية وطائرات « الفوجا ماجستر » تقصف المواقع المصرية الامامية والموقع الرئيسي في ام قطف حوالي الساعة ٨،١٥ صباح يوم ٥ حزيران ، وتشكلت طليعة القوة المهاجمة من كتيبة دبابات « سنتوريون » وسرية مشاة ميكانيكية اجتازتا الحدود في الساعة ٨،٤٠ قرب نقطة مراقبة قوات الطوارىء الدولية الحالية عند العوجة ، وقد تعرضت على الفور لنيران موقع « ام بسيس » الذي كانت تحيط به حقول الغام ولذلك تجنبته المدرعات والاليات الاسرائيلية ومرت على مقربة منه وهي تطلق عليه النار وواصلت تقدمها الى داخل الاراضي المصرية بينما كانت المدفعية الاسرائيلية تواصل قصفها له بشكل مركز وقد سقط بعد عدة ساعات اخرى خلال النهار في أيدي القوات الاسرائيلية واستمر زحف الدبابات في الارض المفتوحة جنوب الطريق الرئيسي حتى وصلت الى موقع « ام طرفة » حيث وجدت حفرة كبيرة على الطريق ناتجة عن تفجير الغام قوية فاضطرت ان تهاجم الموقع عبر الرمال المحيطة بالطريق بقوة مؤلفة من سريتي دبابات وسرية مشاة ميكانيكية ، واصطدمت على الفور بحقل الغام مما ادى الى اصابة ٧ دبابات وتوقفها عن السير الا أن بقية القوة استطاعت أن تحتل الموقع ، وبينما كانت الدبابات تعيد تنظيم صفوفها بعد ذلك مباشرة تعرضت لنيران شديدة من مدفعية الموقع الرئيسي في « أم قطف » ، فانفصلت سرية من الدبابات عن باقي القوة واتجهت الى الدرب الذي يجتاز « مكسر الفناجيل » لتهاجم « التل ١٨١ » وتصل الى طريق العريش بينما انتشرت باقي القوة محتمية بثنيات الارض من نيران المدفعية ، وقد حاولت سرايا الدبابات الثلاث استئناف التقدم بعد ذلك الا أن عنف نيران المدفعية المصرية اوقفت محاولتها هذه ، فأمرها قائد اللواء بالانضمام الى السرية المتقدمة نحو « التل ١٨١ » ، بينما اخذت كتيبة دبابات « الشيرمان » تتقدم لتحتل مواقع كتيبة « السنتوريون » لتحاول الاستمرار في الهجوم نحو « ام قطف » . وقد حاولت الكتيبة المذكورة التقدم الا ان نيران المدفعية اوقفتها هي الاخرى وكانت الساعة قد اصبحت عندئذ الثانية عشرة ظهرا ، ولم تتمكن المدرعات من الوصول بعد الى الموقع الرئيسي ، فطلب « شارون » مساندة الطيران ، وقد قصفت طائرات «الفوجا ماجستر» الموقع الرئيسي في الساعة ١٢،٣٠ ظهرا لمدة عدة دقائق ، وما أن توقف القصف وبدأت الدبابات زحفها حتى قوبلت بنيران المدفعية الشديدة مرة اخرى فتوقفت عن مواصلة الزحف ، ويبدو أن « شارون » كان يأمل ان تستطيع مدرعاته اختراق الموقع ببعض الخسائر ــ كما حدث بالنسبة لمجموعة « تال » في الشمال عند خان يونس ورفح ــ الا انه ادرك مدى قوة موقع « أم قطف » اثر فشل هجوم المدرعات المتكرر وقرر أن ينفذ خطة الهجوم الليلي ، فتوقفت « الشيرمان » واخذت كتائب المدفعية تتقدم بعد ذلك عبر الحدود لتتخذ لها مواقع صالحة لقصف الموقع من مسافة قريبة نسبيا ، وقد تعرضت هي الاخرى لقصف المدفعية المصرية ثم توقفت واخذت تطلق النار عليها لتختبر تصويباتها وتحدد زوايا الضرب المناسبة خلال النهار استعدادا للقصف الليلي ، ثم توقفت على الاثر

من ذلك داخل مرابضها الجديدة على مسافة نحو ٧ كيلومترات من الموقع الرئيسي وكانت الساعة قد بلغت حينذاك الثالثة بعد الظهر . وقد ساعد قيام عاصفة رملية خلال هذه الفترة على امكان اقامة مواقع للمدفعية الاسرائيلية نظرا لعدم فاعلية المدفعية المصرية من حيث دقة التصويب اثناء العاصفة . وقد هبطت حدة العاصفة في الساعة الخامسة مساء فاستأنفت المدفعية المصرية قصفها مرة أخرى حتى الغروب وأثناء الساعات الاولى من الليل ، وكانت الدبابات الاسرائيلية ترد عليها بقصفات جزئية تفصلها فترات زمنية وهي تتحرك من مكان الى آخر ، وذلك بهدف مشاغلة المدفعية المصرية وكشف مواقعها، ولاعطائها انطباع بأنه سيحدث هجوم مدرع بالمواجهة . وفي هـذه الاثناء كانت قـوة استطلاع اللواء المدرع قد أرسلت الى جنوب الموقع الرئيسي وأقامت كمينا عند الطريق المؤدية الى « القسيمة » واخذت تراقب الموقع من الجنوب وتستعد لمواجهة اي نجدات ترسل من قوة القسيمة . وفي الوقت نفسه كانت سرية دبابات « السنتوريون » التي زحفت في الصباح نحو « التل ١٨١ » قد تقدمت ببطء داخل الدرب المؤدي اليه بسبب كثافة الكثبان الرملية اذ انه كان طريقا لسير الجمال أصلا وليس صالحا بصورة ملائمة لسير المركبات ، وفي حوالي الحادية عشرة صباحا اصطدمت السرية المذكورة بنيران الموقع المصري (الذي يقول « ادجار بالانس » انـه كانت به سرية مشاة وسرية دبابات(٣٣)، بينما يقول « راندلوف ونستون تشرشل » في كتابهما « حرب الايام الستة » ان الموقع كانت تدافع عنه قوة كتيبـة مصرية) الصادرة من مدافع الهـاون الثقيلة والدبابات ت ٣٤ ، وأدت هذه النيران وحقول الالغام المحيطة به الى فشل هجوم السرية المدرعة الاسرائيلية وتراجعها بعيدا عن مرمى النيران المصرية بعد ان دمرت النيران المصرية سبعا من دباباتها وبعد أن قتل قائد سرية مشاة ميكانيكية وثلاثة مـن قـادة الجماعات ضمن الوحدات التي صاحبت الدبابات ، وكانت تضم سرية مشاة ميكانيكية ووحدة استطلاع ووحدة هندسة وهاونات ثقيلة . وعلى اثر هذا الفشل طلب قائد كتيبة « السنتوريون » (كانت بقية سرايا الكتيبة قد لحقت بالسرية كما ذكرنا من قبل) مساندة نيران الطيران ، الا أن العاصفة الرملية التي هبت وقتئذ على المنطقة حالت دون تمييز الطائرات للموقع ، ولذلك توقفت الكتيبة عن مواصلة الهجوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر حيث عاودت محاولتها وتمكنت في هذه المرة من الاستيلاء على الموقع المذكور ولا تعرف مقدار الخسائر التي لحقتها في هجومها الثاني أو مقدار الخسائر المصرية . ثم واصلت الكتيبة المدرعة الاسرائيلية تقدمها ببطء حتى وصلت الى طريق العريش بعد هبوط الظلام واشتبكت هناك في قتال عنيف مع نحو ٢٠ دبابة مصرية . ويبدو ان القتال الذي دار بين القوتين ، أدى الى القضاء علـى مقاومة القوة المصريـة لان الدبابات الاسرائيلية تمكنت بعد ذلك اثناء الليل أن تزحف جنوبا وتقطع طريق « أبو عجيلة — جبل لبنى » — وهو الطريق الاوسط الرئيسي — وبذلك تم عزل الموقع الرئيسي من جميع الجهات وأصبحت حامية محاصرة مثلما كانت في ١٩٥٦ . وفي هذه الاثناء كانت كتائب المشاة الثلاث التي تقرر أن تهاجم الخنادق المصرية الثلاثة الرئيسية من جهة الشمال عبر الكثبان الرملية في « مكسر الفناجيل » قد تحركت في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر من نقطة تجمعها في العوجة بواسطة سيارات اتوبيس مدنية (جرى حشدهـا وفقا لاجراءات التعبئة العامة التي سبقت قيام الحرب بأيام قليلة) ووصلت الى موقع « أم بسيس » حوالي الساعة الثانية بعد الظهر حيث ترجل الجنود هناك نظـرا لصعوبة استمرار سير السيارات وسط الرمال الناعمة ، وسارت الكتائب الثلاث عبر الدرب الشمالي الذي اجتازته من قبل كتيبة « السنتوريون » عدة ساعات حتى وصلت الى نقاط موازية للخنادق المصرية وانحرفت جنوبا اثر ذلك مسافة معينة حتى وصلت الى خط الابتداء المفترض لبدء زحفها الهجومي الاخير وربضت هناك انتظارا لساعـة الصفر

المحددة لبدء الهجوم الليلي . وفي حوالي الساعة السادسة مساء نقلت سيارات الاتوبيس ايضا سرية من المظليين تضم نحو ١٥٠ جنديا عبر الحدود حتى « ام بسيس » حيث ترجلوا هناك وساروا حتى « ام طرفة » ومن هناك نقلتهم ست طائرات هليكوبتر كانت في انتظارهم في الساعة السابعة مساء تقريبا الى نقطة وسط الكثبان الرملية شمال مواقع المدفعية المصرية تقع على مبعدة نحو ٥ كيلومترات عن الطريق الرئيسي في حوالي الثامنة مساء ، وقد تقدموا وسط الرمال في ٤ مجموعات صغيرة نحو منطقة حشد المدفعية المصرية ، وكان « شارون » قد قدر مدة ساعتين لوصول هذه القوة من المظليين الى هدفها ، الا ان صعوبة السير في الرمال وهبوط طائرات الهليكوبتر بعيدا عن النقطة المفترض أصلا أن تهبط فيها حال دون وصول المظليين في الوقت المفترض مسبقا ، هذا وقد أطلقت مدافع الهاون الثقيلة المصرية نيرانها على مكان وقوف طائرات الهليكوبتر في الساعة التاسعة مساء تقريبا الامر الذي اضطرها الى الابتعاد عن مرمى نيران هذه المدافع . ولم يصل المظليون الى مجال رؤيتهم لمواقع المدفعية المصرية من مبعدة الا في الساعة الحادية عشرة مساء حيث شاهدوا وهج قذائفها المنطلقة من فوهاتها . وفي الحادية عشرة والنصف فتحت المدفعية الاسرائيلية (نحو ١٠٠ مدفع) ستارة نيرانها الممهدة لهجوم المشاة ، وتركزت قذائفها لمدة نصف ساعة على منطقة الخنادق الثلاثة وكان قائد لواء المشاة هو الذي تتم عن طريقه توجيه هذه الستارة القوية من نيران المدفعية . ثم تقدمت وحدات المشاة المهاجمة وفي مقدمة كل كتيبة من الكتائب الثلاثة مجموعة من نحو ٥٠ جنديا يحملون على ظهورهم مصابيح ملونة ، وكانت مصابيح كل كتيبة ذات لون مختلف عن الاخرى ، وذلك حتى تميز المدفعية والدبابات الاسرائيلية مواقع المشاة الاسرائيلية فلا تطلق عليهم نيرانها، وفي الوقت نفسه غمرت المنطقة بأضواء الانوار الكاشفة الموجهة نحو المواقع المصرية لمساعدة المشاة والمدفعية على رؤية أهدافها . ونظرا لان الكثبان الرملية شمال المواقع المصرية لم تكن ملغمة فقد اندفع هؤلاء الجنود بسرعة نحو الخنادق المصرية التي لم يكن المدافعون عنها يتوقعون الهجوم عليها من هذه الجهة التي كان من المعتقد ان رمالها الناعمة تشكل مانعا طبيعيا قويا يحمي الجناح الشمالي للمواقع الدفاعية ولذلك لم تبث فيها حقول الغام ولم تقم فيها نقاط انذار على ما يبدو . وقد وجهت المدفعية المصرية نيرانها نحو المهاجمين الا ان كثافة الرمال الناعمة أدت الى عدم انفجار كثير من قذائفها . وفي الوقت نفسه هاجمت كتيبة الدبابات السنتوريون موقع « أبو عجيلة » من المؤخرة واستولت عليه وواصلت تقدمها حتى منطقة المعسكر حيث اشتبكت في قتال مع الدبابات المصرية هناك ، هذا بينما كانت كتيبة دبابات « الشيرمان » تتقدم من جهة الشرق تأهبا لاختراق الموقع في « أم قطف » بعد نجاح المشاة في اسكات مقاومة المدافعين في الخنادق حتى يتمكن رجال الهندسة من فتح ثغرات في حقول الالغام . وهكذا وصلت معركة « ابو عجيلة » الى قمة الاشتعال القتالي في منتصف ليلة ٦ حزيران الا انها لم تكن قد حسمت بعد . وفي حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل هاجم المظليون موقعا من مواقع المدفعية المصرية بعد أن اقتربوا منه الى مسافة حوالي ٢٠٠ متر اثر اجتيازهم حاجزا من الاسلاك الشائكة كان يحيط بالموقع ولكن لم تكن هناك الغام تحميه ، وقد أطلقت عليهم نيران الاسلحة الصغيرة من جنود الموقع المصري فقتل بعضهم ، وواصل المظليون هجومهم مندفعين بسرعة نحو المدافع فأسكتوا عددا قليلا منها واضطروا أطقم بعضها الى الاحتماء بملاجئهم وتوقفهم عن اطلاق المدافع ، الا أن نيران الاسلحة الصغيرة الصادرة من المواقع القريبة الاخرى اضطرتهم للانسحاب بسرعة وهم يحملون معهم ٥ قتلى و١٥ جريحا (وفقا لرواية المصادر الاسرائيلية) . وأثناء اجتيازهم الطريق الرئيسي للعودة الى طائراتهم اصطدموا ببعض العربات المصرية المحملة بالذخيرة واطلقوا عليها نيران رشاشاتهم فأدى اشتعال

النار فيها وانفجار الذخيرة المترتب على ذلك الى مقتل وجرح بعض المظليين القريبين من الطريق ! وقرب الفجر التقوا بطائرات الهليكوبتر التي حملت الجرحى والقتلى ، وعادت باقي القوة سيرا على الاقدام حتى التقطتها سيارات الاتوبيس مرة اخرى من الطريق شرق أم قطف حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي وهم في حالة من الاجهاد الشديد . اما المدفعية المصرية التي زعمت معظم الكتابات الاسرائيلية والاجنبية أنهم أسكتوها فقد استمرت غالبيتها العظمى في القصف والنشاط الفعال حتى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي حيث تمكنت الطائرات الاسرائيلية من اسكات معظمها بعد قصف جوي مركز كما يروي « ادجار بالانس »(٢٥). وفي الوقت نفسه كان القتال يدور عنيفا حول الخنادق الامامية في « أم قطف » والتي خشي جنود المشاة الاسرائيليين الدخول فيها خلال الليل خشية شدة الخسائر ، ولذلك لم يتم تطهير الخنادق حتى الصباح . وفي الرابعة صباحا تمت عملية فتح ثغرة في حقول الالغام وبدأت دبابات « الشيرمان » والمصفحات نصف جنزير تدخل منها الى قلب الموقع الدفاعي بعد أن تعطل بعضها عن السير نتيجة انفجار بعض الالغام تحتها . وفي الخامسة صباحا كانت دبابات « السنتوريون » المهاجمة من الغرب مشتبكة مع دبابات « ت ٣٤ » ومدافع « س يو ١٠٠ » في موقع « سد الروافعة » حيث التقت بها بعض الدبابات الشيرمان المتقدمة من جهة الشرق واشتركت الى جانبها في معركة الدبابات العنيفة المتداخلة التي كانت دائرة هناك . وعند الفجر قدمت الطائرات الاسرائيلية مساندتها بقصف المواقع المصرية التي كانت لا تزال مستمرة في المقاومة وفي الثامنة صباحا كانت معظم المدفعية المصرية قد أسكتت وكانت المعركة المدرعة قد انتهت ايضا ، وتقول المصادر الاسرائيلية أنه قد دمرت نحو ٣٠ دبابة مصرية خلال هذه المعركة وان بعض الدبابات الاخرى والمدافع ذاتية الحركة قد استطاعت أن تتسلل منسحبة عبر الصحراء تجاه الجنوب ، وكذلك أيضا عدة مئات من جنود المشاة المصريين . وعقب انتهاء المعركة المدرعة تقدم اللواء المدرع الاسرائيلي ومعه « شارون » صوب الجنوب تجاه « القسيمة » طبقا للخطة الموضوعة مخلفا وراءه لواء المشاة والمدفعية لاستكمال تطهير المواقع الدفاعية المصرية في «أم قطف» و« شيحان » ومنطقة المعسكر ، بينما أخذت وحدات لواء « يوفه » المدرع تجتاز الطريق من « العوجة » صوب « ابو عجيلة » لتلتقي ببقية المجموعة عند « جبل لبنى » . ويصف « ادجار بالانس » المرحلة الاخيرة من المعركة فيقول : « لقد أمضى جنود المشاة الاسرائيليون ، المدعمين بمساندة مدفعية مجموعة شارون القتالية والضربات الجوية المنظمة بقية اليوم في عملية اخراج المدافعين المصريين من مواقعهم بصورة منظمة منهجيا، والذين قاتل كثيرون منهم بشدة خاصة خلال الصباح . وقد أخذ القليل منهم ، كأسرى حينما كانوا يجرحون أو يحصرون في مكان لا فكاك منه ، وقد استطاعت غالبية لواء المشاة أن تفر عبر الصحراء آخذة معها كثيرا من جرحاها ، وبالرغم من ان المصريين كانوا يقلون عددا بعض الشيء عن الاسرائيليين ، فقد استطاعوا الصمود بصورة جيدة. فمثلا ، تمكنت كتيبة المشاة المدافعة عن منطقة المعسكر ، والتي لم تشترك في القتال الا حوالي الساعة الثامنة صباحا ، ان تصمد في مقاومتها حتى الظهر ، رغم نيران المدفعية الاسرائيلية والضربات الجوية . وخلال بعد الظهر غادر أفرادها موقعهم — مثلهم مثل باقي جنود موقع أم قطف — وتسللوا داخل الصحراء »(٢٦). وهكذا انتهت معركة « ابو عجيلة » عام ١٩٦٧ التي استغرقت حوالي يوم ونصف يوم . ولم تعرف أرقام خسائر كل من الطرفين حتى الآن على نحو واضح ، فالمصادر الاسرائيلية تزعم انها دمرت نحو ٦٠ دبابة ومدفع ذاتي الحركة مصري وانه قد قتل نحو ٣٠٠ جندي مصري في منطقة الخنادق الثلاثة الرئيسية واسر ١٠٠ آخرين ، وان القوات الاسرائيلية قد فقدت ١٩ دبابة و٣ عربات نصف جنزير و١٢ قتيلا و٤٥ جريحا اثناء القتال عند الخنادق الثلاثة خلال ليلة ٦

حزيران(٣٦)! ولا تشير الى خسائرها طوال النهار التالي مثلا أو خسائرها عنـــد طريق العريش او في منطقة المعسكر الخ ! كما انها لا تشير الا الى خسارة طائرة فوجا ماجستر واحدة ! هذا وقد بقيت حامية منطقة « القسيمة » المؤلفة مـــن النصف الثاني للفرقة الثانية مشاة وحيث كان يوجد قائد الفرقة نفسه في موقف سلبي طوال المعركة ولم تحاول القيام بأي هجوم مضاد او تقدم دعما لقوة « ابو عجيلة » كما تجمع المصادر الاجنبية التي تناولت أحداث المعركة . وقد انسحبت حامية « القسيمة » خلال ليلة ٧ حزيران دون أن تشعر بها القوات الاسرائيلية بعد أن دفنت في الرمال معظم اسلحتها الثقيلة والتي عثر عليها بعد ذلك بعدة اسابيع .

وقد تم تنفيذ الانسحاب وفقا لامر الانسحاب العام الذي كان قد صدر عـــن القيادة المصرية العامة بعد ٣٠ ساعة من بدء القتال ، وكانت مدرعات « شارون » قد اقتربت في العاشرة من صباح يوم ٦ حزيران الى مسافة ثمانية كيلومترات من مواقع «القسيمة» ثم توقفت بسبب قصف المدفعية الصادر منها ، وأخذت تعيـــد تنظيم نفسها وتتمـــون بالذخيرة والمؤن . ولم تتحرك مرة أخرى الا في صباح يوم ٧ حزيران حيث وجدت هي ووحدات اللواء المدرع الآخر الذي كان يرابط في مواجهة موقع « القسيمة » من الشرق عند جبل « الصابحة » ان الموقع خال من القوات المصرية ، وبعد ان كانت الطائرات قد قصفته بشدة في الفجر والساعات الاولى من الصباح وهـــي لا تدري انه لا توجد به قوات(٣٧) !

الدروس المستفادة : يقول « ادجار بالانس » في ختام سرده لاحداث معركة ابو عجيلة في حزيران ١٩٦٧ انه « الى الجنوب من « ام قطف » بقيت حاميات كل من « القسيمة » و« الكونتيلا » في موقف سلبي ، وكذلك كانت « قوة الشاذلي » . كما أنه لم تعبر اي تشكيلات اسرائيلية اخرى الحدود الى داخل « سيناء »، لقد بدا الجميع في موقف المراقبة والانتظار »(٣٨) .

ويلخص هذا القول جانبا رئيسيا من جوانب الموقف الاستراتيجي العام الذي جرت في اطاره معركة « ابو عجيلة » الثالثة عام ١٩٦٧ . اذ سمح هذا الموقف لشارون أن يرتب عملياته الهجومية وينسقها ويسلسل جدولها الزمني بهدوء ونظام ودون اي تعكير لصفو هذا الترتيب من خارج موقع « أم قطف » الرئيسي ، ذلك لان وجود اللواء المدرع التابع لمجموعة « يوفه » على طريق « العريش ــ أبو عجيلة » الى الجنوب من « بير الحفن » ومشاغلته للفرقة الثالثة مشاة التي كانت مرابطة في منطقة « جبل لبنى » كقوة احتياطية لمحوري « ابو عجيلة » و« العريش » ، وتأخر رد فعل هذه الفرقة ضد اللواء المذكور حتى ليلة ٦ حزيران (وهو التأخر الذي لعبت سيطرة العدو الجوية فيه دورا رئيسيا) أدى عمليا الى سهولة تطويق وعزل موقع « ابو عجيلة » عن طريق الجناح الشمالي اثر سقوط موقع « التل ١٨١ » المنعزل وسط كثبان الرمال بعيدا عن مساندة مدفعية موقع « أم قطف » ، وبالتالي حرمان حامية « ابو عجيلة » من اي مساندة من الفرقة الثالثة مشاة المذكورة . ولكن الامر الاكثر غرابة من جهة اخرى هو وقوف قيادة الفرقة الثانية مشاة في القسيمة موقفا سلبيا من معركة قواتها المحتدمة في « ابو عجيلة » خاصة وانه كان لديها قوة لا بأس بها من المدرعات والمدفعية على خلاف حال كتيبة الحرس الوطني وفصائل سلاح الحدود التي كانت في الموقع نفسه عام ١٩٥٦ . ان مصـــير أي موقع دفاعي ثابت في الصحراء ، أيا كانت قوة وصلابة موقف حاميته في التمسك به ، هـــو السقوط في وجه هجوم كبير معادي مهما طالت مدة المقاومة ما دام في امكان العدو تطويق الموقع من اجنحته ، وهو الامر الذي أثبتت خبرات ١٩٥٦ و ١٩٦٧ امكان وقوعه نظرا لعدم وجود موانع طبيعية قوية عادة في الصحراء ، متى قاتل هذا الموقع بصورة منعزلة

عن دعم المواقع الاخرى والقوى المدرعة والميكانيكية الاحتياطية ، خاصة اذا ما توفرت للعدو السيطرة الجوية على سماء المعركة ولم يكن يملك هو نفسه قـوة مدرعة قوية ليستخدمها في هجمات معاكسة فعالة اثر انهاك هجوم العـدو وتحطيم موجاته على أسوار او تخوم مواقعه الثابتة التي تلعب دور الـدرع القوي بينمـا تقوم المدرعات والتشكيلات الميكانيكية بدور السيف والفرسان القديم . ولذلك كان مصير موقع « ابو عجيلة ـ أم قطف » حتمي في ظل الظروف الاستراتيجية والعملياتية المحيطة به ، حتى ولو ان قيادة الموقع كانت قد تداركت الكثير من نواقصها وأخطائها التكتيكية المختلفة التي تجلت اثناء القتال ، وذلك مثل عدم استخدامها احتياطيهـا المدرع في مهاجمة كتيبـة «السنتوريون» التي اخترقت الدرب الشمالي ووصلت الى الطريق الذي يربط ابو عجيلة بالعريش بعد قضائها على « الموقع ١٨١ » ولو في هجوم ليلي لتجنب طيران العدو ، او مثل عدم ملاحظتها حركة مشاة العدو على الجناح الشمالي لاستحكامات موقع ام قطف او اتخاذها اجراءات احتياطية مضادة كبث الغام او تسيير دوريات مقاتلة في المنطقة الخ، ذلك لان قيمة موقع دفاعي ثابت مثل ابو عجيلة وآثار فاعلية صمود حاميته (التي تجلت في عديد من الحالات التي يوضحها مجرى العمليات القتالية كما أوردته حتى الكتابات الاجنبية المتعاطفة مع العدو) لا تتحقق الا ضمن الايقاع العـام لخطـة دفاعية شاملة متكاملة الاركان ذات طابع ايجابي او حركي تلعب فيها المواقع المجاورة والاحتياطيات المتحركة دورها المنسق المشترك في ظل قدر معين بطبيعة الحال مـن الوجود الفعال للسلاح الجوي ، والقيادة العامة الديناميكية المسيطرة على ادارة العمليات . وذلك كله لم يتحقق لمواقع مثل « ابو عجيلة » و« رفح » و« خان يونس » و« غزة » و«ممر خروبة» في حرب ١٩٦٧ ، رغم كل التضحيات وروح الفداء وصلابة الصمود التي أبدتها معظم القوات التي خاضت غمار القتال في هذه المواقع الدفاعية الثابتة في يومي ٥ و٦ حزيران عام ١٩٦٧ ، والتي برهنت عن وجود خامة طيبة وممتازة للجندية العربية تستطيع أن تحقق نتائج أفضل بكثير لو تحققت لها ظروف استراتيجية ناجحة ومقدرة قيادية وتنظيمية ذات كفاءة عالية تستطيع استثمار الطاقات المتاحة لها على نحو سليم .

الخبرات الرئيسية لمعارك « ابو عجيلة » الثلاث :

يوضح لنا استقراء العمليات القتالية التي جرت خلال معارك ابو عجيلة الثلاث في حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ أن هناك مجموعة من الخبرات والدروس والملاحظات الرئيسية يجب دراستها والاستفـادة منها في مستقبـل الصراع المسلح العربي ـ الاسرائيلي يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

١ ـ ان العدو الاسرائيلي يتحرك دائما وفق استراتيجية هجومية متكاملة الاركان تتيح له الحصول على المبادأة وحشد وتركيز قواه في النقاط التـي يعطيه اختراقهـا والاستيلاء عليها قدرة ومرونة أوسع في تنفيذ عملياته الهجومية الواسعة النطاق ، وذلك على خلاف الحال بالنسبة للقوات العربية التي يفرض عليها سلفا القتال ضمن اطار استراتيجية دفاعية محدودة النطاق تقوم على رد الفعل المحدود اكثر ما تقوم على الفعل الايجابي ، ولذلك يرسم مسبقا للقوات العربية القتال الدفاعي الثابت ، بينما يخطط العدو لقواته القتال الديناميكي المتحرك ويدربها وينظمها وفقا لأساليبه .

٢ ـ ان العدو الاسرائيلي ينفذ استراتيجية عملياته الهجومية الميدانية هذه ضمن اطار استراتيجية عامة او مناخا استراتيجيا شاملا مناسبا وملائما لتحقيـق النجاح لاستراتيجية وتكتيكات العمليات العسكرية التي ينفذها بالروح الهجومية سالفة الذكر ، ففي نهاية ١٩٤٨ كانت الجيوش العربية تعيش مناخ هزيمة عامة قبل ان تبدأ القوات الاسرائيلية هجومها الاخير الذي قطفت به ثمار هذا المنـاخ ، فالدعم الاستعمـاري

العسكري لاسرائيل تزايد في صوره المختلفة (سلاح وعتاد وخبرات واموال) والتفسخ العربي وانعدام وحدة العمل كان قد بلغ في الوقت نفسه أقصى درجـــاته انخفاضا ، والطاقة والامكانات العسكرية النظامية كانت قد استنزفت تقريبا وكذلك كانت حالة انفصام الجماهير الشعبية عن نظم الحكم والقيادات السياسية العربية قد وصلت الى أقصى درجاتها ، فضلا عن ابعاد الجماهير الفلسطينية صاحبة القضية بشكل مباشر عن المعركة وتصفية جهودها المسلحة تماما ، وفي ظل هذا المناخ الملائم والذي يحكم بالهزيمة سلفا على القوات العسكرية النظامية في ميدان القتال المباشر ، تم تنفيذ « عملية عين » التي كانت في جزئها الخاص بالهجوم داخل سيناء مجرد اغـــارة كبيرة مرتجلة التنفيذ مليئة بالنواقص التكتيكية التي كان يمكن ان تنقلب بالعملية الى كارثة كاملة لو ان القوى المضادة لها كان لديها قدر اكبر من الامكانات المادية والقيادية ، ولكنها نتيجة لظروف الهزيمة الاستراتيجية المسبقة المشار اليها تحولت الـــى ضربة اقتراب غـــير مباشر استراتيجية ضد قوات الجيش المصري دفعت قيادته السياسية الى سرعة انهاء الحرب وتوقيع اتفاقية الهدنة الدائمة .

وفي ١٩٥٦ كانت مؤامرة العدوان الثلاثي المشترك بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل تشكل بوضوح مناخا او ظرفا استراتيجيا ملائما على المستوى الشامل للعمليات لتحقيق النجاح في عمليات القتال بسيناء رغم ان ما تجلى فيها من نقص في كفاية أساليب قتال وقيادة القوات الاسرائيلية كان كفيلا بتحديد نتائج هذه العمليات أو فشلها تماما اذا لم تقم ظروف التدخل والتهديد بالتدخل العسكري البريطاني ــ الفرنسي المسبق ، خاصة وان الطيران الاسرائيلي لم يستطع ان يحقق سيطرة على الجو بقواه الخاصة قبل بدء الهجوم الجوي البريطاني ــ الفرنسي وان الطيران المصري رغم نقص طياريه المدربين على « الميج » اثبت قدرة قتالية جيدة أتاحت له وجودا فعالا فوق سماء المعركة كان يمكن ان يوفر للمدرعات الاحتياطية مجالا للعمل المضاد المثمر . وفي حرب ١٩٦٧ تم الهجوم والخرق في ابو عجيلة ضمن اطار استراتيجي شامل ملائم من حيث ضعف او شبه انعدام الفعل المضاد المصري الناتج عن آثار الضربة الجوية الشاملة المفاجئة التي اصيب بها الطيران المصري قبيل بدء العمليات البرية ، وعن عدم وجود خطة استراتيجية مضادة متكاملة او عدم تنفيذها على الاقل من جانب القيادات المعنية ، وعـــن عدم استخدام الاحتياطيات المدرعة والميكانيكية كلية او استخدامها بضعف وعدم كفاية (مثل الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكية في جبل لبنى) مما اكسب العدو تفوقا محليا في نقاط الاختراق الرئيسية (ابو عجيلة ورفح) ومنحه حرية الحركة والمبادأة وحرم الدفاع المصري العام مزايا صمود وعنف مقاومة المواقع الثابتة .

٣ ــ توضح الدراسة المقارنة للمعارك الثلاث ان العدو الاسرائيلي كان يطور تدريب وتنظيم قواته ويستفيد من أخطائه ونواقصه ، خاصة عقب حرب ١٩٥٦ ودروس فشله الجزئي في اقتحام موقع « ام قطف » ، بينما لم يتطور اسلوب قتال الجيش المصري كثيرا رغم تطور تسليحه بشكل كبير في ١٩٦٧ بالقياس لظروف ١٩٥٦ و١٩٤٨ بطبيعة الحال وبصورة لا تقبل المقارنة . ولذلك لم ينجح العدو الاسرائيلي في تحقيق الخرق لموقع « أم قطف » عام ١٩٥٦ رغم تحقيقه تفوق محلي ضخم ، بينما نجح في خرق الموقع بسرعة نسبية عام ١٩٦٧ رغم اختلاف نسبة تفوقه المحلي عن عام ١٩٥٦ لصالح المصريين . لقد أثبتت وحدات المشاة والمدفعية المصرية كفاءة عالية في القتـــال الثابت في معركتي ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وفي ١٩٤٨ ايضا عند العوجة ومشارف العريش، بينما لم تثبت المدرعات انها على مستوى المطلوب منها في قتال الصحراء سواء تكتيكيا او عملياتيا . وعموما فقد أثبتت القوات المصرية عام ١٩٥٦ روحا هجومية اكثر بكثير مما حدث في معركة ١٩٦٧

اذ انها شنت وقتئذ بعض الهجمات المعاكسة رغم قلة وضعف امكاناتها المدرعة والمتحركة عما كان متاحا لها تكتيكيا واستراتيجيا عام ١٩٦٧ .

٤ ــ لقد أكدت خبرة معركتي « ابو عجيلة » عامي ١٩٥٦ و١٩٦٧ ، رغم اية نواقص أو أخطاء اعترتهما ، ان في قدرة المواقع الدفاعية القوية المنظمة والمدافع عنها بعزم ان تضعف من حدة اندفاع الهجوم المدرع الميكانيكي وتلحق بقواته خسائر شديدة رغم الدعم والمساندة الجوية التي يتمتع بها ، وهذه خبرة ذات قيمة خاصة في استراتيجية حرب الشعب التي تمارسها الشعوب غير القادرة تقنيا على مجابهة قوى العدوان الاستعماري القادرة على ممارسة أساليب حرب الحركة الخاطفة بفضل تمتعها بتفوق تقني وقدرة تنظيمية وقيادية متقدمة بأساليب مماثلة ، وذلك عن طريق تسليح وتحصين كل قرية وبلدة بأسلحة دفاعية ليست بالضرورة ان تكون متقدمة تقنيا بدرجة كبيرة (ألغام وحفر مضادة للدبابات وبازوكا ومدافع مضادة للدبابات وهاونات ورشاشات خفيفة ومتوسطة الخ) بحيث تشكل شبكة متكاملة في العمق والاتساع تكبد القوات الميكانيكية المهاجمة خسائر شديدة وتسلبها فرصة تحقيق النصر الخاطف او السريع ، فيصل سهمها المدرع المتقدم في نهاية الامر فاقدا لقوته وسرعة اندفاعه فتستطيع القوى الاحتياطية الضاربة المحدودة القدرات التقنية او الكمية ان تنزل هزيمة حاسمة بها في نهاية المطاف ، وهذا ما كان يمكن ان يحدث في سيناء عام ١٩٥٦ او ١٩٦٧ ، حتى في صورة الحرب النظامية التي كانت سائدة خلالهما ، لو ان مواقع الخط الثاني او الثالث مثلا كانت منظمة جيدا ولديها نية القتال والصمود مثل مواقع الخط الاول ، ولكن الذي حدث انه بمجرد ان كان الخرق المعادي يتحقق في مواقع الخط الاول ، وهو أمر ممكن دائما نظريا بسبب اخذ العدو للمبادرة الهجومية التي توفر له ميزة تحقيق تفوق محلي في نقاط الخرق ، فان مواقع الخط الثاني كانت تتفكك بسرعة بسبب عدم اعدادها مسبقا بصورة جيدة ونظرا لسيطرة فكرة الانسحاب الاستراتيجي على القيادة العامة اثــر احساسها بفقــدان السيطرة الجوية ونجاح العدو في اختراق دفاعات الخط الاول الثابتة قرب الحدود ، ولذلك كانت هذه القيادة تبادر بسحب قوات الخط الثاني والاحتياطي المتحرك فتعرضها بصورة اكثر خطورة لقصف الطيران المعادي المسيطر ولمطاردة مدرعات العدو ، التي كان يمكن ان تتعرض لخسائر فادحة وربما لهزائم اذا ما اشتبكت معها مواقع الخــط الثاني في معارك شديدة مثل تلك التي واجهتها عند الخط الاول ، واذا ما دخلت معها حشود المدرعات الاحتياطية في معارك متلاحمة يصعب فيها على الطيران المعادي التدخل الفعال خاصة اذا ما تمت هذه المعارك خلال الليل . وفي هذه الحالة كان العدو سيضطر الى تغيير خططه للاستيلاء على سيناء في مرحلة عملياتية واحدة ، الامر الذي يفقده ميزة انهاء القتال بسرعة ويعرضه بالتالي لامكان فقد هامش حرية العمل المحدود نسبيا الذي كفلته له المناورة الخارجية التي يقوم بها عشية واثناء هجومه الخاطف . لقد خسرت القوات المصرية خسائر شديدة دون مقابل في اثناء انسحابها السريع بصحراء سيناء (خاصة في ممر متلا) وكان يمكن بقدر اقل من هذه الخسائر تحقيق نتائج افضل لمجرى القتال فيما لو قاتلت هذه القوات في عمق سيناء بمثل ما قاتلت به من صلابة وصمود عند « ابو عجيلة » و« رفح » .

---

١ ــ Kimche, Jon, David, *Both Sides of the Hill*, London, Secker & Warburg, 1960, p. 243.

٢ ــ Kursman, Dan, *Genesis 1948*, New York, World, 1970, p. 643.

٣ ــ Hart. Liddel, Strategy, *The Indirect Approach*, Appendix II, London, Faber, 1967, p. 407.

٤ ــ لورينج، نتنال ، **احداث حرب الاستقلال** ،

بالعبرية ، تل ابيب ، ١٩٦٦ ، صفحـــات ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

٥ ـ **المراجع السابق** ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

٦ ـ **المرجع السابق** ، ص ٤٨٣ .

٧ ـ عبد المنعم ، محمد فيصل ، **أسرار ١٩٤٨** ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٨ ، ص ٥٩٢ .

٨ ـ **المرجع السابق** ، ص ٥٩٤ .

٩ ـ كيرزمان ، دان ، **المرجع الســـــابق** ، ص ٦٦٠ .

١٠ ـ لورينج ، نتنال ، **المرجع الســـابق** ، ص ٤٩٧ .

١١ ـ **المرجع السابق** ، ص ٤٩٨ .

١٢ ـ Dayan, Moshe, *Diary of the Sinai Campaign*, London, Weidenfeld & Nicolson, 1960, p. 220, 221.

١٣ ـ O' Ballance Edgar, *The Sinai Campaign 1956*, London, Faber, 1959, p. 95.

١٤ ـ ديان ، موشي ، **المرجع السابق** ، ص ٨٥ .

١٥ ـ Love, Kennett, *Suez the Twice-Fought War*, London, Longman, 1970, p. 538.

١٦ ـ ديان ، موشي ، **المرجع السابق** ، ص ٩٣ .

١٧ ـ ديان ، موشي ، **المرجع السابق** ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

١٨ ـ لوف ، كينيت ، **المرجع السابق** ، ص ٥٣٩ .

١٩ ـ بالانس ، ادجار ، **المرجع الســـابق** ، ص ١٤١ .

٢٠ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٢١ .

٢١ ـ ديان ، موشي ، **المرجع السابق** ، ص ١٠٥ .

٢٢ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٠٧ .

٢٣ ـ بالانس ، ادجار ، **المرجع السابق** ، ص ١٢٩ .

٢٤ ـ ديان ، **المرجع السابق** ، ص ١٢٠ .

٢٥ ـ بالانس ، ادجار ، **المرجع الســـابق** ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

٢٦ ـ لوف ، كينيت ، **المرججع السابق** ، ص ٥٤١ .

٢٧ ـ ديان ، موشي ، **المرجع السابق** ، ص ١٢٣ .

٢٨ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٢٤ .

٢٩ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٢٦ .

٣٠ ـ لم تنشر حتى الان أي كتابات رسمية او شبه رسمية من كلا الجانبين الاســـرائيلي والمصري توضح تفاصيل القوات المشتركة في الحشد لدى الطرفين مثلما هو الحال بالنسبة لحرب ١٩٥٦ حيث تعتبر « يوميـــات موشي ديان » بمثابة تقرير اسرائيلي شبه رسمي ويعتبر كتاب « كينيت لوف » « حرب السويس التي اشتعلت مرتين » تقريرا مصريا شـــبه رسمي ، ولذلك فان معلومات ميزان القوى عن حرب ١٩٦٧ ذات طابع تقريبي .

٣١ ـ O' Ballance Edgar, *The Third Arab-Israeli War*, London, Faber, 1972, p. 101.

٣٢ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٣٣ .

٣٣ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٢١ .

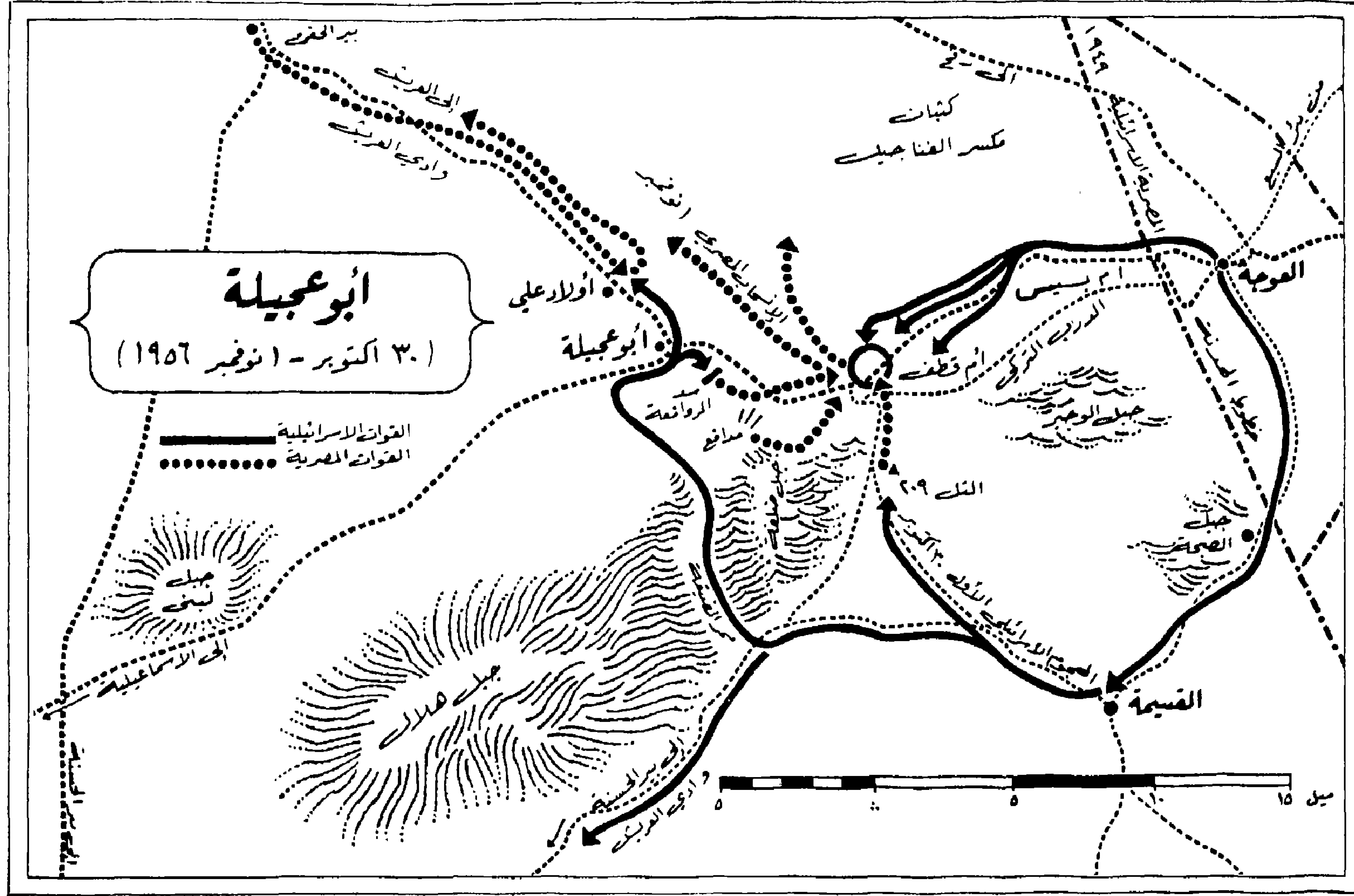
٣٤ ـ Churchill, R, W.S., *The Six Day War*, London, Heinemann, 1967, p.119.

٣٥ ـ بالانس ، ادجـــار ، **المرجع السابق** ، ص ١٣٣ .

٣٦ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٣٣ ، ١٣٢ .

٣٧ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٤٩ .

٣٨ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٣٤ .


أبوعجيلة
(٣٠ أكتوبر - ١ نوفمبر ١٩٥٦)
القوات الإسرائيلية
القوات المصرية
أولاد علي
أبو عجيلة
بير الحفن
إلى العريش
وادي العريش
كثبان
مكسر القنا جيلي
أم قطف
أم بسيس
القسيمة
جبل هلال
جبل لبني
إلى الإسماعيلية
الرؤافعة
مدافع
التل ٢٠٩
جبل الصحة
جبل الوهر
الدرب التركي
ميل

معركة ابو عجيلة ١٩٦٧

مرحلة الانتقال في الادب الاسرائيلي المعاصر

الدكتور رشاد الشامي

تنشر « شؤون فلسطينية » في هذا العدد القسم الاول من دراسة الدكتور رشاد الشامي وهو عن « أيام تسيكلاج » وسوف تنشر القسم الثاني والاخير من الدراسة في عدد قادم .

(١) « أيام تسيكلاج » لسيملانسكي يزهار وأدب التخبطات والشكوك

ان محاولة وصف « الانتقال » من الادب العبري الذي كتبه ابناء « جيل البلاد » الذين كانت باكورات انتاجهم في الاربعينات واستمرت خلال الخمسينات ، الى نثر جيل « الموجة الجديدة » الذي كانت باكورات انتاجه في اواخر الخمسينات وما زالت مستمرة حتى الان ، هذه المحاولة تنطوي على صعوبات كثيرة . وأولى هذه الصعوبات أن هذا التيار الادبي الاسرائيلي المسمى « الموجة الجديدة » ما زال في طور التكوين ، وهو الامر الذي يجعل التعميم في محاولة وصف الصورة ينطوي على بعض المبالغة او على قدر من الخطأ — ولكن على الرغم من ذلك فان الصورة المتكونة حتى الان تسمح ، مع بعض التجاوز ، بالتعميم الذي يكفي لاعطاء صورة شاملة هي بالتحديد الملامح الاساسية لادب هذا الجيل ، وعلى اي حال ، فاننا سنحاول ان نضيء من خلال هذا العرض لمرحلة الانتقال في الادب الاسرائيلي المعاصر جوانب مختلفة في « جيلي » الادب : « جيل البلاد » و « جيل الدولة » (« الموجة الجديدة ») ، ونفحص ديالكتيك نمو الاجيال الادبية في اسرائيل .

السمات المشتركة بين ادباء حرب ١٩٤٨

هل هناك صفات مشتركة للادباء امثال يجال موسيشون ، وموشي شامير ، وأهارون ميجد ، وناتان شاحام ، وحانوخ برطوف ، وسيملانسكي يزهار(١) وغيرهم من أدباء « جيل البلاد » ؟ ما هي الصفة المشتركة التي تجمع الاعمال الادبية : « فصول اليك » لموسيشون ، و « ذاهب في الحقول » لشامير ، و « حدفا وأنا » لميجد ، و « ديجن وعوفارت » لشاحام ، و « الحساب والنفس » لبرطوف ، و « أيام تسيكلاج » ليزهار ؟

قبل أن نخوض في هذا الموضوع يجدر بنا ان نحيط بالمناخ العام الذي ميز الادب الاسرائيلي في تلك الفترة .

لقد كان الموضوع الذي دخل به الادب الاسرائيلي الى هيكل الحياة الادبية في الفترة الحديثة ، والذي اكتسب به طابعه الخاص ، هو الصراع الاجتماعي — السياسي ضد سلطات الانتداب البريطانية ، وحرب عام ١٩٤٨ ، أو بدقة اكثر مـا يسمى بالصراع مع مجموعة القيم القومية والاجتماعية التي تجلت في ذلك الوقت في الايديولوجية

الصهيونية »(٢). وبعد اعلان قيام اسرائيل ، لم يتوقف الادباء عن تناول هذه الموضوعات وذلك بمثابة « لاوعي » يؤدي اليه اي انعكاس معقول او ملائم — واذا اعتبرنا ان النقطة الفاصلة بين ادباء جيل « البالماخ » وادباء جيل « البلاد » هي حرب ١٩٤٨ ، فانه من المؤكد أن حرب ١٩٤٨ ، لم تكن مجرد موضوع مناسب للوصف والقص فقط ، بل كانت حدثا غير الى حد غير قليل من ملامح الشخصية المبدعة في الادب الاسرائيلي . وعلى هذا الاساس تتحدد أهمية حرب ١٩٤٨ في التأثير على الموضوعات التي تناولها الادب العبري اعتبارا من الخمسينات ، وعلى الجيل الاسرائيلي الذي شكلت الحرب بالنسبة له المحك الاول ، الشخصي والعام ، لاختبار القيم والمثاليات التي غذته بها الحركة الصهيونية .

الاساس الاجتماعي

ومن اجل فهم هذا يجدر بنا أن نقف على الاساس الاجتماعي لمجموعة الشبان اليهود الذين ولدوا في فلسطين وشكلوا طليعة الادباء الاسرائيليين الذين ناقشوا القيم التي لم تكن من قبل قابلة للمناقشة . أولا ، لقد كانت هذه المجموعة عبارة عن مجموعة من الفتيان من أبناء الاسر الموسرة ان قليلا او كثيرا ، أسر من مهاجري اوروبا ، كان بامكانها ولديها الرغبة في أن تتيح لابنائها فرصة التعليم المنتظم . وكانت معظم هذه الاسر ، من عناصر الهجرتين الثانية والثالثة التي قامت بجهد كبير في تدعيم الاستعمار الصهيوني استيطانا وايديولوجيا في الارض السليبة . ولهذا السبب فانهم كانوا يسعون طوال ايامهم الى الا يجعلوا ابناءهم يمرون بمعاناة التكيف التي مرت بهم ، وكانوا يسعون كذلك الى منعهم من التخلي عن الامنيات الشخصية ، مثل الثقافة ، والحرفة والمستقبل الحياتي . وبالاضافة الى هذا سعى الاباء بجهد زائد الى تلقين ابنائهم عناصر ما يسمى بالايديولوجية الصهيونية والاشتراكية ، ولم يستطيعوا ان يقفوا في طريقهم حينما خرجوا بعد سنوات الدراسة الى « التطبيق » . وبالرغم من انه لم تكن هناك محاولة لتحديد طريق حياة الابن الى هنا او هناك بصورة قاطعة ، الا انه كان من الواضح ، ان جيل الاباء كان يعمد الى اطالة فترة اعداد الفتى من اجل الحياة، وتجنيبه التعرض لهوان حرب الحياة وعبء ضرورة اتخاذ قرارات شخصية قاطعة وهو على عتبة فترة الشباب . لقد كانت العجلة في نظرهم من شأنها ان تثير الندم . ولذلك فقد اتيح للفتى ان يحصل على خبرة حيثما يشاء دون ان يلتزم بصفة نهائية بأي شيء . ومن هنا ذلك الاحساس الذي يميز هذه الجماعة ، وهو احساس واضح في انتاجهم الادبي ، وهو انهم غير ملزمين باتخاذ قرار ، وانهم لهم الحق في الحيرة وخوض « التخبطات » ، وان كل خطوة يخطونها في طريقهم ، في هذه الفترة بالذات التي تصوغ سنوات الشباب ، ليست خطوة الزامية . وعلى هذا الاساس ، فقد كان هؤلاء الشباب شركاء في كل المشروعات والاحداث الصهيونية ذات الاهمية في فلسطين ، وادوا دورهم فيها « باخلاص » وتفان . وعلى الرغم من ذلك ، فان هذا الامر لم يكن فيه ما يحدد طريقهم ويصوغ بصفة نهائية شخصيتهم بوجهات نظرها ومشاعرها . اذن يمكن القول ، بأن هذا الامر ، كان بمثابة « غزل » مع طابع الحياة ومع المثالية الاجتماعية القومية ولكنه لم يكن يشكل ما يمكن ان نسميه حبا حقيقيا . لقد كان ينقصهم هنا الالتزام النهائي الذي يصاحبه القرار القاطع والالتزام بالمسؤولية ، على الرغم من الحماس الصادق والاقتناع العقلاني . لقد كان بيت الآباء المستعد دائما للمساعدة موجودا في المؤخرة ، وكان منه ينبثق الاحساس بأنه على الرغم من كل هذا ، لم يتخذ اي قرار حاسم ، وان الاحتمالات المختلفة ما زالت موجودة كما هي .

ولم يكن منزل الآباء فقط هو الذي يثير هذا الاحساس . لقد كانت « الحركة » التي وجدت هذه الجماعة طريقها اليها ، والتي وصلت بواسطتها الى الاعداد المجند ، والى

حياة الكيبوتس ، مسئولة الى حد بعيد ايضا عن هذا ، وعلى الرغم من انه يبدو ، أن الخروج نفسه الى « التطبيق » ، ومغادرة بيت الآباء ، ينطوي على ما هو بمثابة قرار وعلى الاعتماد على النفس ايضا ، الا انه ليس فقط ان القرار لم يكن نهائيا ، بل كان كذلك الاعتماد على النفس وهميا هو الاخر . لقد كان اطار الاعداد المجند يعمل هو الاخر بمثابة حاجز بين الفرد وبين محنة مستلزمات الحياة . ولهذا السبب ، فان سنوات الاعداد المجند والسنوات الاولى لحياة الكيبوتس لم تكن هي الاخرى سوى مهلة اخرى لفترة التمعن والاعداد ، وبمثابة دهليز يستمر أكثر من اللازم للحياة التي تبدأ « بعد ذلك » بشكل غير محدد وبدون معنى . وكان هناك كذلك جانب آخر لتأثير حركة الشباب الصهيونية على هذه المجموعة . لقد كانت غاية هذه الحركة هي منح وجهات نظر ومناهج حياة ، بوسائل تعليمية تخلط التعليم والاقناع العقلاني بالبهجة الروحية للشباب التي تأسر اللب . ولم يكن الفتى « عضو التنظيم » في صفوف حركة الشباب سوى متلق ومحل اهتمام ، دون أن يكون ملزما بطرح وجهات نظره من خلال تجربة حياته المباشرة ، وكذلك دون أن تتاح له الفرصة ليحصل على تجربة مستقلة في الحياة ، يمكنه عن طريقها ان يوجه نقدا أيا كان . انه يقتنع بسهولة ويحصل على أيديولوجيته وعلى طريقه في المجتمع وفي السياسة نتيجة لتجربة حياة تمرس بها الاخرون واستنتج منها الاخرون استنتاجاتهم . ولذلك ، فليس هناك ما يدعو للدهشة ، اذا ما بدا الايمان والتفاني الصادقان في حد ذاتهما ، للفكرة ولمنهج الحياة ، بمثابة غزل وليس حبا . لقد كان هناك حماس ، وكان هناك صدق ، ولكن لم يكن هناك التقرير الشخصي الذي يأتي نتيجة للتجربة الحية وللمواجهة المباشرة . وبالطبع ، فان مثل هذه الحالة غير محتملة الا حينما تكون الايديولوجية طابعا مفروضا على تجربة الحياة المستقلة للفرد ، وهو ما ينطبق على الصهيونية وموقفها من هذا الجيل اليهودي ، جيل الابناء .

أثر الحرب

وعلى هذا الاساس ، يجب فهم مغزى حرب ١٩٤٨ ، لدى هذه المجموعة من الادباء والشعراء الاسرائيليين الذين ولدوا في فلسطين . لقد كانت هذه الحرب على الرغم من فترتها القصيرة بمثابة التجربة المستقلة الاولى من الناحية الشخصية ومن الناحية العامة . ان الجدية المطلقة في مواجهة الموت وجها لوجه قد أحدثت خللا في قواعد اللعبة ، وأصبح الغزل الموجه للهدف ولمنهج الحياة ، على الرغم من أنه لم يكف عن أن يكون غزلا ، أصبح خطيرا ومتعدد المسئوليات . لقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يستيقظ فيها وعي مسئولية الفتى عن نفسه ، وهو الامر الذي أدى الى صدام صريح مع الميول الشخصية والرغبات الشخصية . وعلاوة على ذلك : صحيح ان الحرب لا تضع الفرد أمام قرارات حاسمة لها أهمية في تحديد نهج حياته في المستقبل ، ولكنها تضع الفرد أمام قرارات حاسمة بالنسبة للموقف الذي يتعرض له . وهذه المواقف الفورية تكون أحيانا مصيرية بالفعل : الحسم في المعركة التي تنطوي على الجراة والتضحية الشخصية ، او الحسم الاخلاقي في السلوك تجاه صديق أو تجاه عدو ، وفي عمليات الحسم هذه ، والتي تكون فيها المسئولية الشخصية المباشرة عبئا ثقيلا للغاية، لا يكون لدى الفرد ما يستند اليه سوى نفسه . انه يدفع الى اكتشاف شخصيته في محك الحسم وان كان يجب بالطبع الا نتوقع منه في هذه الظروف انعكاسا لا اراديا عقلانيا يؤدي في النهاية الى صياغة مستقلة لايديولوجية . والشيء نفسه ينطبق على المستوى العام ، مستوى المجموع . ان حرب ١٩٤٨ ، على هذا النحو ، كانت هي الحدث الذي أتاح للفتى الاسرائيلي الذي ولد على أرض فلسطين ، الفرصة الاولى للوقوف في مواجهة اتخاذ قرار مصيري وحاسم ، ولتذوق طعم المسئولية المباشرة .

وهذه العناصر واضحة تماما في الموضوعات الاولى للادب الاسرائيلي الفتي وفي جملة المشاكل التي كان يعاني منها في طوره الحديث الاول . لقد كان هذا الادب منذ البداية ادبا ذا موضوعات واضحة امامه . ويرجع هذا الى انه كتب في ذروة حدث تاريخي ، واستقى من هذا الحدث بصورة مباشرة معظم موضوعاته ، وبدقة أكثر .. لقد فرضت عليه موضوعاته ، دون أن يتاح للاديب فرصة الاختيار . ولهذا السبب فان الحبكة الروائية للقصص الاولى كانت مبلورة في غالب الاحيان . ولم يكن سبب هذا التبلور هو التصوير الفني الموجه فحسب، بل الواقع الاجتماعي السياسي الذي كانت عملية فرض « القيم » واضحة فيه ولا مجال للحيدة عنها ، وفي مقابل هـذا ، فان طابع الابطال الموصوفين في هذه القصص كان ضعيفا وغامضا ، ولم يكن تدخل الاديب في الحبكة الروائية المقصوصة يبتعد عن مجمل الاراء المثالية الشائعة عن مشاكل الفرد والمجتمع، وهي الآراء المستعارة من « ايديولوجية » مألوفة تعلـم على اسسها كل مـن الاديب وابطاله ، على الرغم من الميل الى النقد المتردد لما هو موجود .

وبالفعل فان هاتين الصفتين : الحبكة الروائية التي تفرض نفسها بميلها الواضح ، ووهن الشخصية التي ينجرف في سياق هذه الحبكة دون أن تحظى بأن تكـون عنصرا صائغا للاحداث — هما اللتان تخلقان باندماجهما معا الطابع الخاص للادب العبـري خلال الخمسينات والستينات . ان هذا الادب هو أدب « تخبطـات » ليست لديه لا الجرأة على الانقضاض النقدي المباشر ضد التجربة الاجتماعية المثالية المفروضة عليه، ولا القوة كذلك على التسليم بها من خلال الاستجابة الشخصية والاقتناع الشخصي بها بصورة كاملة . ان الادباء وابطالهم يعترفون وهم في حيرة من أمرهـم ، تكاد تتحول بمرور الايام الى احساس بالذنب ، باستقرار ما يسمى « بالقيم الاجتماعية والقومية »، التي تعلموا على اساسها في بيت الاباء ، وفي المدارس ، وفي حركة الشباب والاعداد ، ويعترفون كذلك بحيوية الاهداف الاجتماعية والقومية التي يصفون الصراع من أجـل تحقيقها . ولكنهم على الرغم من هذا يطوون في قلوبهم رغبات أخرى - وآمالا أخرى ، بعضها كان الصراع نفسه ، دون أي ارتباط بأهدافه ، يرضيها ، وهي رغبات فتـرة الصبا المنصرمة وآمالها (الصداقة والحب والجراة والمغامرة) ، ولـم يكن البعـض الاخر ، يرضيها الصراع ، وذلك لانه كان يدفع جانبا ويهمـل (الرغبـة في الثقافة ، والعمـل الفني ، وفي طابع حياة اكثـر خصوصية) . ولذلك ، فانـه لا عجب ، في أن الشخصية التي تظهر في هذه القصص ، هي شخصية ابعد ما تكون عن النضوج . ان هذا الادب ليس الا صوت صراخ خافت لحيرة منطوية على نفسها سرعان ما تصبـح « قيمة » أدبية ، بمثابة جرعة مخلوطة بالشفقة الذاتية وبالوعي بميزة القيمة العقلانية، لا تحتاج الى قرارات ، ومن الممكن العب منها حتى الثمالة .

وهذا هو حسبمـا يبدو ، المناخ الروحي ، الـذي تشكـل فيه انتاج س. يزهـار بتخبطاته وتردداته ، والذي ينمو فيه بطله المميز الذي لا يملك لا قوة التقرير ولا حتى الرغبة في اتخاذ القرار . انه يرسم له بشكوكه الدائرة المألوفة ، تلك الدائرة التي يدور في فلكها بأمان . انه يبرر بشكوكه انعزاله ويسلم ببيئته ، التي لم يتمرد عليها حينمـا حافظ على الحق في الوقوف في وسطها جانبا . ان حق اتخاذ القرار هو أبدا من حـق البيئة الخارجية (المجتمع ، والمجموع والقائـد) ، ولكن الفـرد ليس له الحق الا في التخبط حينما يستجيب لهذه القرارات .

ونحن نقرأ مثلا في « قافلة منتصف الليل » (١٩٥٠) ليزهار فقرة تكشف عـن هذه الرغبة الجامحة في التملص من اتخاذ القرار عن طريق القاء العبء على المجموع « ثارت رغبة في أن يكون في قلب كل الاعمال التي ستتم هنا ، وأن يأخذ ، وينظم، ويعمـل .

لن يسبق بتأييد أي عمل ، ان ينغمس في التيار المأمول بجوار التل ، قبل ان يمر ويشق طريقه . أين أضع هذا ؟ دار شخص ما بالقرب منه . وأجابه باختصار « أترك هذا فوق » . صوت عمل آخذ في التكوين ، ها هنا تبدأ الاشياء »(٣) ان المتعة الواضحة ، لان يكون في « قلب الاعمال » والاحساس بالتجاوب الايجابي مع المجموع — هما قيمتان تعلم عليهما هذا الادب . ان « القافلة » ، المجموعة الاجتماعية ، أهم في نظر هذا الادب من الفرد ، لانه في مجمله أدب « مجند » أو تعبير اخر « أدب موجه » . وحتى حينما يكون الفرد متشككا ، ومترددا ، فانه تكون هناك قيم اجتماعية يستمتع الفرد بالتضحية بنفسه من أجلها وفي وسطها ، « قال تسيليا في نفسه : ان معظم الاشياء التي في العالم هي محل شك لدي ، ليس واضحا ما اذا كانت هذه حيرة أم عجز — ولكن لدى القافلة فان هذا شيء آخر ، انها تسير مباشرة فوق الشكوك والترددات والعجز ، وتعبر وتصل آمنة ، فسأبقى في قافلتي وستصل الى هدفها »(٤). ان المجموع يعفيه تماما من لحظة الحسم واتخاذ القرار ويجعله يتخلص من أحاسيس الشك والعجز ، ولذا فانه يجد أنه من الاحسن له أن ينجرف وسط القطيع ، ويصبح جزءا منه ، لانه بلا شكوك وبلا عجز ، ولانه لا يناقش القيم ولا يخضع المثاليات للحكم على ضوء التجربة أيا كانت .

وقصص يزهار ، على الرغم من انها تعبير مميز بصفة خاصة لهذا المناخ الروحي ، الا انها ليست الوحيدة في هذا المجال ، فبصورة لا تقل عنها ، يمكن ان نفسر على هذا الاساس ، الانتاج الاولي لادباء مثل : يجال موسينسون (من مواليد ١٩٢٠) ، الذي يميل الى نقد الواقع ، دون أن يهز بناء ما يسمى « بقيم » هذا الواقع في حد ذاته، ولكنه يميط اللثام عن الجانب الاخر من الحياة الجارية، ومثل ناتان شاحام (من مواليد ١٩٢٥)، الذي يميل الى تأييد الواقع الموجود ، لانه يجد في الصراع ذاته تحقيقا للرغبات الشخصية ، التي ليست لها صلة حتمية بأهداف الصراع ، وكذلك مثل موشي شامير (من مواليد ١٩٢١) ، الذي يعتبر واقع التخبطات والاحزان النفسية غريبا عنه في كتاباته الاولى ، ان بطل « ذاهب في الحقول » الواثق بقراراته والمبلور بطابعه هو الاخر يعاني (وان كان دون ميل للانعكاس الارادي) من التوتر بين المطالب العامة والميل الشخصي الغريزي ، وهي المطالب التي تتشابه للحظة فقط . وفي اللحظة التي يتكشف فيها الصدام بين الميل الشخصي وبين المطلب الاخلاقي للمجتمع في حقائق لا يمكن التخلص منها ، يتضح للقارىء انه ليس بعد امام شخصية متطورة ، ذات طابع مبلور بما فيه الكفاية ، بل هو في أغلب الاحيان امام خليط من الدوافع الاولية غير المتوازنة التي يظهر فيها بوضوح ضعف ووهن خط الذاتية — وهو الخط الذي يتحطم لدى ارتطامه بالموقف المعقد . ان اي محاولة تخرج عن نطاق المألوف وتحتاج الى اتخاذ قرار شخصي مسؤول — هي محاولة تفوق قدراته .

وهذه الصفات تظهر بوضوح في أدب حرب ١٩٤٨ . ان الحرب تبلور مواقف تواجه فيها الشخصية المترددة عملا صارما في اوامره وفي متطلباته . ولكن من الممكن ان نميز فيه مع كل هذا تغييرا ما . وبالطبع ، فاننا يجب الا نتوقع من القصص التي تكتب في ذروة الاحداث الكبيرة ، او بعد فترة زمنية قريبة منها ، تمييزا منظوريا للعمل .

ان الاعمال تفرض الان نفسها على الاديب ، لدرجة انه يبدو ، انه ليس هناك فارق بين القصة وعرض الاحداث الذي يذكر الحقائق على النحو الذي حدثت عليه سوى التعبير عن مشاعر حادة تصاحب المقاتل وقت القتال . وحيث أن المقاتل لا يجد مجالا لنقد ضرورة الحرب ، والاحتجاج عليها بشكل ايجابي ، فانه يرتد الى داخل نفسه وينطوي على ذاته ، ولا يكون هناك طريق له للخلاص بتوجيه تهمة كبيرة الى القيادة . ولكن مع ذلك ، فان هذا الاهتزاز الذي يصيب شخصية بطل أدب حرب ١٩٤٨ ، كان

فيه ما يرغم الفرد على التحرر ، ولو لفترة بسيطة ، من الاطار المفروض عليه والذي تكونه مجموعة « القيم » التي لقنه اياها الآخرون .

وقد اصطلح نقاد الادب الاسرائيلي المعاصر لدى بحثهم هذا الموقف من جانب بطل أدب حرب ١٩٤٨ على تفسيره بأنه صراع أو صدام بين مجموعة « القيم » التي تحتويها الايديولوجية الصهيونية وبين الواقع المرير الذي جابهته لدى محاولتها اغتصاب فلسطين من أهليها ، والسلوك المشين اللاأخلاقي الذي أجبرت من لقنتهم هذه « القيم » على أن يقوموا به من أجل تحقيق أطماعها . وعرض الامر على هذه الصورة يجعل المرء يقع في احبولة أن « القيم » في حد ذاتها انسانية ومثالية ، بينما الخطأ كل الخطأ قد وقع في أثناء محاولة بلورة هذه « القيم » أو ما تدعو اليه من واقع حي ملموس ، من خلال منطق « اللاخيار » الذي لا يكفون عن ترديده لتبرير هذا الذي يسمى بالصدام بين « القيم » و« الواقع » .

وهذا الصدام المصطنع الذي يعرض بين « القيم » والواقع في الادب ليس في حاجة الى تعمق زائد من أجل ادراكه . انه يلمس على الفور ويصاغ بسهولة بواسطة الاصطلاحات العادية لدى الاديب ، ولذلك فان أدب هذه الفترة يزخر بالنقد الجريء والصارخ . ولكن من السهل أن نشعر كذلك بأن الاهتزاز الاخلاقي يعبر عن تغيير شخصي أشمل . ويمكن الوقوف على ذلك من خلال اتجاه النقد ، الذي لا يوجه في أكثر ظواهره حدة (كما في قصة « خربة خزعة » و « الاسير » للكاتب س. يزهار ، وقصص ن. الوني القصيرة ، وقصة متاي ميجد « البرج الابيض » الى الخارج بل يتم من خلال السعي لاتهام الذات (الماسوشية) الذي تتداخل فيه الحيرة التي تدعو الى الدهشة مع الجرأة الاخلاقية . ان الحرب تجعل الاديب وأبطاله يكتشفون أنفسهم بضوء لم يتوقعوه على الاطلاق : في ضعفهم ، وفي وهن قوة جسمهم ، وفي الاحساس بانعدام الصلاحية الشخصية وفي قوة الغرائز التي تخرس صوت ضميرهم . اذن فليس فشل وجهة النظر التي تعلم عليها البطل التقليدي لأدب حرب ١٩٤٨ هو ما يصفه هذا الأدب وهو ما ينبري لمهاجمته . ان النقد الذي يعبر عنه هذا الادب ليس فيه الا الكشف الاولي ، غير المتوازن وغير الواضح ، لهزة اللقاء المباشر للبطل مع شخصيته هو ، ذلك اللقاء الذي يدرك فيه ، على أساس الاحساس بالفشل الاخلاقي ، اختلافه عن جيل آبائه وعن معتمديه . انه ليس حسب عقيدتهم ، ولا هو حسب عقيدته هو وأمنياته . ان حياته موجهة في اتجاه آخر ، وان كان لا يعرف أن يسمي هذا الاتجاه باسمه ويحدد اتجاهاته. ان معيار نقده تجاه الخارج هو بقدر معيار الاحساس بالذنب واللاشفافية تجاه الداخل، ولكنه مع كل هذا يقبل في النهاية بكل ما لقنوه اياه ، على الرغم من كل التشنجات والتخبطات . وحتى في أقصى حالات الاختبار تطرفا ، لا يكون هناك مجال بعد للتحدث عن تعبيرات الشخصية المستقلة الواضحة في كتابات الادب الاسرائيلي بعد حرب ١٩٤٨ . ان هذه الشخصية تظل خاضعة للفعل الخارجي ، الذي قدرته على كشف حياة البطل الداخلية ضئيلة للغاية ، وهي الحقيقة التي تحدد كذلك قيمة الانجاز الفني .

أدب حرب ١٩٤٨ وملامحه الجديدة في مرحلة الانتقال

يرى ايلي شبير انه ، « من الاشياء الواضحة في أدب حرب ١٩٤٨ ذلك الانتظام الشخصي المستقل تجاه « القيم » وتجاه الاعمال التي تستوجبها هذه « القيم » ، ولكن هذا الاستقلال لم يبرز الا حينما وضع الشخص في الاختبار خلال موقف متطرف ، **ولم يتجل الا في التلويح ضد الايديولوجية التي لم تستطع أن تبرر الاعمال التي قامت بها لكي تحقق اهدافها** »(٥). وهذا الذي يقوله ايلي شبير هو ترديد لما سبق أن أشرت اليه ، من انه النغمة السائدة بين النقاد الاسرائيليين لدى التعرض لنماذج أدب حرب ١٩٤٨ . ان

شبير يصور الانتظام الشخصي المستقل للفرد وكأنه قد حدث نتيجة لتعارض قيم الايديولوجية الصهيونية مع الاعمال التي أجبرت هذه الشخصيات على القيام بها لتحقيق أهداف هذه الايديولوجية . والسؤال هنا ، هو اي تعارض ذلك الذي حدث بين « القيم » المشار اليها وبين الاعمال ؛ ألم تدع الصهيونية الى اغتصاب الارض الفلسطينية ؟ ألم تدع الصهيونية الى طرد الانسان الفلسطيني من أرضه ومن دياره ؟ الم تكن تدعو الصهيونية الى اقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين؟ اذن أين التعارض ، وأين الصدام هنا ؟ ان الصدام أو التعارض ، حسبما يصوره المستوى الادبي لهذه الفترة يكمن في الهزة العنيفة التي تعرض لها الفرد المغتصب نتاج الفكر الصهيوني من هول ما أجبر على ممارسته لتحقيق أهداف الصهيونية ، ولكن الامر لم يتعد الهزة النفسية الداخلية الى اطار الاحتجاج الخارجي بأي حال من الاحوال . وعلى اي الحالات ، فاننا على مستوى الدراسة لهذا التيار الادبي ، سنسلم جدلا ، بحدوث مثل هذا الصدام ، لنتتبع مسيرة هذا البطل المميز لأدب حرب ١٩٤٨ ، ولنر الى أي مدى يذهب في تخبطاته وشكوكه .

وقد كانت النتيجة الاولى لهذا الاتجاه هي النقد الاجتماعي اللاذع ، الذي زاد كثيرا في هذه السنوات ، ورفض تقريبا أي موضوع آخر . وهنا حل التمرد مكان الانحياز ، والرغبة في الذاتية مكان الجماعية . وكان المتمردون بشتى انواعهم مرتبطين بالفعل بمحور الفترة وقد جاءت ثورتهم نقلا عن قيم الماضي ، ولكنها كانت آخذة في التبلور ، وآخذة في التحقق .

« أيام تسيكلاج »

لقد كان كتاب أدب حرب ١٩٤٨ ، ممن كتبوا الكثير عن انطباعاتهم عن أحداث هذه الفترة ، وبالذات عن المعارك ، يكتفون في غالب الاحيان ، بالتعبير عن قطاع أو جزء من قطاع فقط من الاحداث ، والحوادث والاهتزازات التي مرت بهم على الجبهات . ولم يقم هؤلاء بأي محاولة لشق غمار العالم الروحي النفسي للانسان اليهودي خلال خوضه لحرب ١٩٤٨ ، وخلال (ما اصطلح على انه) صراع بين ما يسمى « بالقيم » التي لقنت له والواقع الذي بدا وكأنه يتنافى مع مجمل هذه « القيم » ، وهو الامر الذي تكشف — ان سلمنا به جدلا — عن تناقض مريع انعكس في الصراعات النفسية والروحية للانسان اليهودي الذي وجد نفسه يتحول الى جزء من آلة اغتصاب الارض وقتل الانسان لتحقيق « قيم » كان يؤمن بمثاليتها وانسانيتها (مع التحفظ أساسا من مثالية وانسانية هذه القيم) . وقد سار س. يزهار في بداية انتاجه الادبي في هذا الطريق تقريبا ، ولكنه في عام ١٩٥٨ ، وبعد أن تبلورت في داخله كل الانطباعات التي انطوت عليها هذه المرحلة الممتدة من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٨ ، وهي فترة بعد عن الاحداث كانت كفيلة بتنقية ردود الفعل من أي شائبة قد تعلق بالحدث في أعقابه مباشرة، كتب روايته الكبرى « أيام تسيكلاج » التي تعتبر التعبير الحي عن التطور الايديولوجي الذي حدث في موقف الادباء والابطال مما يسمى بالقيم الاساسية للوجود الاجتماعي الاسرائيلي ، وهي القيم التي وضع أمامها يزهار علامة استفهام ، بالرغم من ان أبطاله كانوا مخلصين بالفعل ، وكان كل واحد منهم يحققها وفق طريقته الخاصة رغما عن المراجعة واعادة النظر . وهذه الرواية تصف الاحتلالات الثلاثة للتل ٢٤٠ الذي اضطر بعض اليهود الى العودة والقيام بها في الايام السبعة من نهاية أيلول وبداية تشرين ١٩٤٨ — ١٩٤٩ . وهذا التل يوجد في جنوب فلسطين في الطريق الى النقب ، وكان مصيره من شأنه ان يحدد مصير مطار ، قام بدور حيوي في معارك عام ١٩٤٨ ، ومن هنا كان الجهد العنيد للسيطرة عليه وعدم التفريط فيه . ولكن ليست العمليات العسكرية وتطورها هما الاساس والمضمون اللذين تقوم عليهما « أيام تسيكلاج » . ان أساس الرواية هو وصف العالم النفسي

الروحي لهؤلاء اليهود ، وكل ما هو مقصوص في الرواية المتعددة الابعاد ، والعالم الخارجي بأحداثه ومناظره ، مرتبط كله بالعالم الداخلي لابطال الرواية والروح التي تسود هذا العالم .

بيت الآباء والمعلمون والقيم اليهودية

ان رجال تسيكلاج يجرون بأفكارهم ومحادثاتهم ، في قصصهم وأوصافهم بعيدا عن الاستحكام الذي يتمركزون فيه ، وبعيدا عن الفترة القصيرة التي دارت خلالها المعركة ، والكتاب مكدس ومليء بالرجال والاعمال ، وبالمناظر والاحداث ، وبوجهات النظر والامزجة ، التي تضم العالم بأسره . لقد كان عام ١٩٤٨ هو عام دخول محاربي تسيكلاج الى الحياة ، وبداية اتصالهم بالواقع في العالم على ما هو عليه ، دون حاجز المدرسة ومنزل الآباء . وكان هذا اللقاء الاول الذي يتم دون وساطة مع العالم هو اساسا بالفعل لقاء مع القتل والتخريب في الحرب ، ومع الموت الذي يضع وجودهم وحياتهم نفسها على كف الميزان في كل وقت وفي كل لحظة . وأبطال الرواية الشبان يعودون بذكرياتهم وبمناقشاتهم في كل مرة الى الآباء والمعلمين ، الذين كانوا يحتمون في ظلهم ، ويمنحونهم الامان والحماية ، تلك الحماية التي أصبحت تنقصهم الآن في تلك المعركة الخطيرة . وهذا الابتعاد عن منزل الاباء ، يجعل الرؤية بالنسبة للاشياء أكثر حدة ، ويجعل الاحساس بها موضوعيا وأكثر صحة عما كانت عليه في الايام الغابرة . وهكذا فان القيم والمثل التي لقنها الآباء للابناء من خلال الطليعية التي عاشوها في الارض المغتصبة بعد مجيئهم اليها مما يسمى بالمنفى ، والاسس الايديولوجية التي حرص المعلمون على أن يمسك بها هؤلاء الفتيان لتكون لهم زادا لدى انخراطهم في سلك العمل الصهيوني ، كل هذا يتعرض لاهتزاز قوي ولمراجعة شاملة تحت هدير المدافع ، وعلى صوت أزيز الرصاص ، ولدى رؤية الاصدقاء والرفاق وهم يلفظون أنفاسهم الاخيرة ، وهم في وسط كل هذا في حيرة من أمرهم .

ومن بين الاشياء التي تثير التأملات والافكار الصعبة للغاية في قلب أبطال « أيام تسيكلاج » ، ذكرى التعليم الذي حصلوا عليه في المدرسة — بأن الموقف النقدي تجاه الاب والام قد أضعف الى حد غير قليل من ذلك الحب العميق الذي كانوا يكنونه لكل من الاب والام . وليس الامر كذلك بالنسبة للمعلمين: « هل تقولون المعلمين ؟ تلك الوجوه ! ما الذي لم تقتله لنا ؟ « العهد القديم » ، بباليك العلوم الطبيعية ، كل شيء وبموضوعية: اننا لن نعود الى فتح هذا مرة أخرى ولن ننظر اليه . لقد انتهينا منه . . . ان كل ما هو موجود بنا موجود بنا بالتعليم وبدونه ، بل على العكس ، فانه اذا كان هناك بنا شيء حقيقي — فانه موجود بنا بالذات على عكس ما أرادوه منا » (ص ٣٧٣ — ٣٧٤) .

تساؤلات ؟ ما هو الشعب اليهودي ؟

وس. يزهار يطرح الكثير من الاسئلة التي أزعجته وأزعجت ابناء جيله في عام ١٩٥٨ على لسان أبطاله بالنسبة لاشياء ومفاهيم وقيم كانت من المسلمات والبديهيات التي تربى عليها جيل يهودي سابق ولقنها للجيل التالي له ، وهو الجيل الذي يمارس الآن في حرب ١٩٤٨ ، حيث تدور أحداث الرواية ، مهمة اغتصاب الارض الفلسطينية ، وعملية قتل الانسان العربي . ومن هذه التساؤلات ذلك التساؤل الخاص بكنه الشعب اليهودي . ان يهود الشتات (الدياسبورا) هم الغالبية العظمى من اليهود ، وكان من المستحيل الا يتحول الاستهزاء بهم في الكثير من الحالات الى استهزاء باليهودية بأسرها . وهنا نقرأ تلك السطور التي تعج بالتساؤلات المحيرة لابطال يزهار : « حب الشعب اليهودي ! آه ، حقا ، تعالوا لنتحدث لحظة في هذا . الشعب اليهودي ! اي شعب يهودي ؟ حب الشعب اليهودي ! من يحبه ؟ ألسنا نهرب مثل ذوي العاهات من كل ما هو يهودي . . .

اننا نحتقر كل ما يمت بصلة الى هذا . ابتداء من دروس التاريخ اليهودي ، مع كل الضائقات ، وحتى الاكلات والتنهدات اليهودية ، وكل ما هو ذو نطق خاص بالمنفى ، وعادات المنفى ، وباليديش بأسرها ، تلك الدعاية التي يسمونها اليديش بأنغامها والحانها ، بوجهها الذي لم تلوحه الشمس ، والتي تكشف عن أسنان مرمحة بالفضة والذهب ولعاب ذكريات من بلدتهم هناك ، وكل أقوال التوراة والحكمة الخاصة بهم ، تلك التي أحضروها من مدرسة « تريوت » الخاصة بهم ، أو من « سمنار » المعلمين في « جردونا » ، أو من أي مكان كان . . . باختصار : لسنا نحب أكثر من اللازم من هو ليس ، بالضبط ، خاصاً بنا ومثلنا ومعنا » . (ص ٣٧٤ — ٣٧٥) .

وهذه المناقشة التي تدور حول الموقف من اليهودية ومن القيم الروحية المختلفة ، غالبا ما يلجأ س. يزهار الى انهائها بموقف يجعل هناك مجالا للشك في أن هذه الجمل والتعبيرات المتسائلة لا تحمل بالفعل تعبيرا دقيقا وكاملا عن المشاعر الحقيقية للمتناقشين والمتحدث نفسه كذلك .

« دين العمل . . . والمستقبل »

وبالنسبة للمستقبل يضع يزهار تحت الفحص صلاحية « حركة الشباب » المحاربة . وانطلاقا من هذا فانه يناقش على لسان أبطاله فلسفة « دين العمل » ، تلك الفلسفة التي ابتدعها « أهارون دافيد جوردون » ، وكانت الشعار الذي رفعته الهجرة الثانية والثالثة لبناء الدولة اليهودية : « عن قطع الاعشاب اسأل — اهي عبودية ؟ أم حرية ؟ هل هناك أيضا تتكون العلاقة الرائعة بين الانسان والعمل ، بين الرجل والطبيعة ، علاقة حية وخصبة ، علاقة غنية وطيبة — أم أنهم يتغنون بذلك فقط في الاغاني ؟ » (ص ٧٧٠) . أما بالنسبة للمستقبل فان مقاتلي تسيكلاج كانوا يسعون من حين لآخر لنقل أفكارهم ومحادثاتهم من الماضي والحاضر الى مسألة حياتهم في المستقبل عسى ان يرفع روحهم المحطمة ويوقف نزيف دمهم ذلك الامل فيما سيأتي بعد الحرب . فرافي مثلا كل مناه هو أن يعود مع نهاية المعارك الى بيت الآباء ويأخذ زمام ادارة المزرعة التي أقامها والده . وهو يؤمن ، بأنه يستطيع بناء حياة مريحة ورغدة وأجمل في رأيه من حياة والده : « لست أعرف ما اذا كان لا بد من تقدير والدي على قوته ، ومثابرته ، وعناده ، وعلى أنه يبكر في كل يوم في بدء الحرب من حيث توقف بالامس ، كما لو كان لم يصنع شيئا على الاطلاق — تفاني أبي ، واستقامته ، وورعه الكبير ، أم . . أم انه يجب الثورة ، وعدم الموافقة ، وعدم التخلي وشن الحرب ، وبناء كل شيء على نحو آخر ؟ انني أفكر ليل نهار في هذا . مزرعة مدعمة أخرى . علاقات أخرى . . ما أجمل هذا . دون مذلة . دون بخل . دون صورة عبد مهمل . . . » (ص ٣٤٧) . ولكن رغبة رافي هذه شاذة ، ورفاقه يرفضون هذا الطريق الذي يريد أن يسير فيه : « ما الذي لك هناك — قال ياكوش — ستعود وتقترب ، وستفزع : كم هي قديمة . . . الحرب ؟ ما الذي يسوؤك في الحرب ؟ هل فكرت مرة : ماذا بعد الحرب ؟ هل سيكون من الممكن ببساطة محو الغم والعودة الى « امالا » ؟ فكر لحظة : هل من الممكن ؟ ان « امالا » حية وستعيش سنوات كثيرة — ولكن بالنسبة لك لم تعد هناك « امالا » بعد . . . ما الذي ينتظرك ؟ والدك ؟ لكي تعمل لديه بالمجان، لتكون له كثور معافى للعمل ؟ أم فتاة بجديلتين مع مؤخرة حمقاء ، تتحول بعد سنتين الى بقرة خالصة سمينة بلهاء ! من ينتظرك هناك؟ الآفاق الكبيرة ؟ الاعمال العظيمة ؟ . . هل تعلم انني أخاف مما بعد الحرب أكثر من الحرب . ما الذي في الحرب ؟ اننا على الاكثر نموت ، نموت مرة واحدة فحسب . وهناك ؟ . . ربما ، كالعادة : تبدأ في الخطف ، حتى يرتفع كرشك سريعا وتنمو بسرعة ، وتصبح مهما بصورة أسرع . وبسرعة ستتعلم كيف تتحسر ، وتتعلم كيف تتهم ، وتتعلم

الوعظ ، والاكتفاء بالقليل ، بكل ذلك القليل الذي يحصلون عليه دون الذهاب بعيدا . . .
وبسرعة ستشيخ ، وتصبح يابسا . وتقرأ الجريدة يوم السبت . وتنســى التنزه .
وستكون دون آمال . . . ستكون فارغا . ستكون مملا . ستكون مثل والدك . جمال .
ومن أجل ماذا ؟ » (٤٩٣ ــ ٤٩٤) .

وفي هذه المناظرة الشيقة حول ذلك السؤال المعضلة : ثم ماذا بعد الحرب ؟ تصطدم وجهتا النظر : وجهة نظر رافي الذي يأمل في حياة وادعة هانئة ، ووجهة نظر ياكوش الذي لا يرى أملا باديا في المستقبل والذي يرى كل شيء عدما . ان الحيــاة بالنسبة لياكوش قد تحطمت عنده على صخرة الحرب ؟ لان الحرب حطمت في آتونها كل مجمل « القيم والمثاليات والعادات » التي لقنوه اياها وربوه عليها . وتصل ذروة الحوار بين الاثنين حول النظرة الى المستقبل ، حينما يثور رافي على أدلة ياكوش ، ويجد من الصعب أن يكون مخلصا للطريق الذي حدده لنفسه ، فيفضل وقف المناقشة ، ولكن ياكوش يواصل تعرية نفسه الداخلية ويحاول ان يطرح طريقا خاصا به من أجل المستقبل ، ولكن القوة والمقدرة التي كانت له في المناقشة ضد مشروعات رافي ورغباته لم تعد متاحة له حينما حاول أن يناقض مزاعم رافي ضد وجهات نظره ورغباته هو نفسه . بل على العكس : قال رافي : « ان من يرى الامر كذلك ، مثلك ، يراه على هذا النحو في أي مكان . ليس لديه ما يذهب اليه . . . ليس من المفروض ان تقفز حتى السماء ــ بل عليك ان تقول ما الذي يجب عمله هنا ، الان . . . ماذا تريد مني ؟ ــ ثار ياكوش ــ ما الذي يعنيك اذا ما قفزت الى السماء . اذا ما شئت ذلك فسوف أقفز . ان هذا من شأني ، وعلى حسابي ، لست أريد أن أصلح شخصا ما ، أو شيئا ما . . . لست ملزما بالحلول لانني لا أدري ، وليس لدي ما أذهب اليه . لكل مكــان ، ولاي مكان . بقدر مــا أستطيع . . . ربما أذهب للبواخر . للبحر . لم لا . نجتاز البحار والبلاد . وربمــا أصطاد الحيتان ؟ ماذا ؟ او ربما في غابة ؟ أريد أن أكون أنا فقط هو الذي يقرر بشأن أيامي وحياتي ، وبشأن المساء وبشأن الغد . أن أعيش الحياة بالطريقة التي تبدو لي أفضل من كل الطرق . وحتى لو كان هذا انعدام طريق . . . لست موجها ، ولست معلما لجيل . انني أرهن كل شيء بحريتي . . . وربما . . ربما قد أكون طيارا ؟ ــ أريد أن أطير ! . . ــ الطيران ! ــ قال رافي هامسا . ــ لا طائل من هذا مطلقا . أحاديث . » ونظر ياكوش . وبعد ذلك ابتلع ريقه وقال ــ « صحيح لا طائــل من كل هذا علــى الاطلاق » .وتغلغل التجهم الذي في الفضاء عميقا في القلب ــ « كل شيء أحلام » ، قال ياكوش هامسا ، « هذا في الواقع لا شيء على الاطلاق ؟ اذن فماذا ؟ . . وصمت » . (٥٠٤ ــ ٥٠٦) .

وبعد ذلك يأتي دور يودكا ليتحدث عن طريقه بعد الحرب . ان يودكا انسان مستسلم يرى ان عليه ان ينفذ ما يوكل اليه على نحو طيب وحسب : « علي أن افعل كل ما يجب أن أفعله جيدا . . . أن أنتهي من هنا ، وأنتقل للبدء فيما سيأتي بعده . وفق نظام ، وهكذا بلا نهاية . في هذا البلد نحن في كل مكان في البداية ــ وهذا ما هو ملقى على عاتقنا » ــ لسنا نفهم . ــ « ما الذي يجب أن نفهمه . لا بد فقط من أن نعمل . ان المسألة مسألة يدين وليست مسألة فهم . . . » (٨٤٦) .

ان الشك حسبما يبدو ، هو شبه شامل . ان يودكا نفسه ليست لديه ثقة ، في أنه وأشباهه يمكنهم ان يستمروا وقتا طويلا بعد الحرب في النشاط وفي عمليات التضحية دون أن يفهموا على النحو الواجب مضمون الاشياء التي من أجلها يضحي الانسان بما يضحي به . ومرة أخرى يظهر ياكوش في الحوار بقسوته ليعري لهم الحياة . . . تلك الحياة التي يحلمون بها : « آه ، رافي » ، يشير ياكوش في احدى المناقشات المؤلمة ،

« اذهب ومر ودق على أبواب الشبان الذين تزوجوا منذ فترة قريبة ورتبوا حياتهم جيدا، كل تلو الآخر : مساء الخير ، ايها الاصدقاء الشبان ، ما هـي أعمالكم ؟ بماذا أنتم مشغولون ؟ بماذا تعيشون ؟ هل الحياة بهيجة بالنسبة لكم ؟ هل ما حلمتم به حصلتم عليه؟ هل هو طيب ان تجرون من يوم لاخر ؟ هل ترغبون في أن يكون هناك غد؟ وتنقل من منزل لآخر ، واسأله ، واسألها ، تلك المرأة الشابة التي نضجت فورا ... » (٥٠٦) .

ولم يكن هناك أحد في الجماعة لديه القدرة على مجـادلة ياكوش ومناقضة أقواله القاسية ، عن الفراغ النفسي ، وعن الشيخوخة الروحية والملل واللامبالاة التي تحل بالشبان ، الذين كانوا بالامس القريب مثاليين ومتفانين روحا وقلبا مـن أجل قضية لقنوهم مبادئها .

ان أهوال الحرب قد هزت هؤلاء الشبان وجعلت هناك حاجزا نفسيـا بينهم وبين المجتمع الذي فرض عليهم أن يقتلوا باسمه وأن يكونوا على استعداد للقيام بالاغتصاب والسلب والنهب من أجله ، وأصبحوا لا يرون كيف يمكنهم أن يندمجوا في الحياة في أيام السلام .. تلك الايام التي يحلمون بها . ان الامل في العثور على السعـادة والاهتمام بقضية عادلة ليست محل استفهام ومراجعة بالنسبة للمجتمع قد تعرض لاشياء عجيبة وحل محله الاحساس بالاختناق بين الفراغ في الماضي وانعدام الطريـق نحو المستقبل بالنسبة للفرد .

أمي ، لقد قتلت !

لقد عمدت الحركة الصهيونية في فلسطين الى تربية الفتيان اليهود أبناء المهاجرين القدامى داخل اطار « حركات الشباب » الصهيونية تربية عسكرية ، وذلك بدعوى أن « اليشوف » اليهودي في فلسطين في حاجة الى اطار عسكري خالص لحمايته من أهل البلاد الاصليين ، من الفلسطينيين . وعلى هذا الاساس فان المقاتلين الرئيسيين في «أيام تسيكلاج » كانوا من ذوي الخبرة القتالية على الرغم من انه لم تكن لديهم أية خبـرة في الحياة . لقد دفع ببعضهم الى آتون المعارك تقريبا بصورة مباشرة من المدرسة ، وكان بعضهم قد سبق نشاطه في الدفاع عن اليشوف مرحلة انتهائه من دراسته . وعلى الرغم من الخبرة التي خبروها في الحرب فان بلوغهم السريع لم يكن كاملا ، وقـد أبرزت الاهتزازات التي مرت بهم ، وارهاقهم الدائم من العمليات ، والوقوف الشاق وهم شاكو السلاح في اثناء عمليات القصف المتكررة ، كل هذا أبرز بصورة واضحة أكثر كونهم أطفالا : « مجموعة مبرقشة ومنوعة الى حد ما ، ترتدي من كل ما يصل الى أيديها ، ومحياهم ، لسبب ما ، يبدو مثل منظر أطفال منبوذين أكثر مما يبدون كجنود » (ص ١٥) ... « لقد حل بي وهن ... ان حياتي لم تبدأ بعد . ما الذي فعلته حتى الان . ماذا أنا كلي . ما الذي لي بي ... انني أبكي في الحال من الحـزن ... لا أريد أن أموت ... أريد فقط أن يكون من الممكن أن أعيش حياة جميلة ، دون فراق ، ودون خوض للمعارك ... » (٤٠٢ — ٤٠٣) .

وهؤلاء الجنود يخوضون المعارك ويقومون بواجبهم كمقاتلين محنكين وذوي خبرة ، ولكن فجاة يطل من الثياب العسكرية في اثناء المعركة وفي ذروتها ، ذلك الفتى الصغير ، شبه الطفل : « توقف جندي وانبطح الطابور ... وفجاة يتضح أن عيون رافي زرقاء سماوية . وكان يبدو مثل طفل صغير ، وكان من الانسب له من كل شيء أن يلعب معه الكرة أو لعبة الاستغماية »(٥)... « السنا جميعا شبانا وصغارا للعناية ، أليس كذلك ... أليس الواقع أننا لم نضاجع امرأة قط بعد ... وأمنا تبكـي دون تعزيـة ، تبكي وتبكي دون نهاية .. »(٥٠٩) . « أريد أن أجري الان الى المنزل : يا أمي ، لقد قتلت، لقد قتلت أنا كذلك. كفى...» (ص ٦٢٨). لقد وصلوا الى الجبهات في ذروة أيام البلوغ،

وهم مفعمون بغريزة الوجود وشهوة الحياة تفيض في داخلهم ، والموت الذي يتربص بهم من كل جانب ينقض على حياتهم في ايام زهوتهم نفسها . لقد انتقل هذا الفتى من رعاية الوالدين وحماية المعلم في المدرسة ازاء كل ما يتربص به الى تلك المواجهة المريرة والمريعة للموت في كل لحظة ، والى الاحساس بالعزلة المميتة التي تحل بالانسان عادة في ميدان القتال ، وهو الامر الذي جعل ابطال يزهار يعانون من الانسحاق والرعب والشعور بالعجز .

لا تذهبوا للحروب

بلا حول ولا قوة للتغلب على الاحساس بالاهوال المريعة وعلى الخوف من الموت ، تطرح بكل حدة وبكل تجرد مسألة الحرب بأسرها ، ثورة حادة وعنيفة على نفس ضرورة ممارسة القتل والتعرض للقتل ، وكذلك صراع مؤلم وعاجز ازاء هذه الثورة . « انني أكره الحرب ، الحروب — كل الحروب أيا كانت — كل الحروب قذارة . انني أقول لكم . لا تذهبوا ، أيها الشبان ، الى الحروب . اسمعوا لي . لا تبينوا لي الحرب وكأنها ليست قذارة .. أنا أقول لكم . (وحينما يخرجون للدفاع عن المنزل — هل هي كذلك حينذاك ؟) لا . اذا كان الامر كذلك ، بالذات ، من يدري ؟ ربما أيضا كذلك حينذاك . ليس لانهم يدافعون ، بل لانهم يقتلون ... أوه ، لست أدري . انا في حيرة . خذوا الكل ، كل شيء . وفقط دعوني أنام ... » (ص ٢٩٣ — ٢٩٤) . وفي مكان اخر تبدو معالم الثورة على الحرب والموت والدمار مهما كانت المثالية التي من أجلها يجري هذا : «لا تثق : ليس طيبا ان تموت وليس صحيحا . ليس بارادتك ، على اي حال . استمع الي : ليس هناك معنى ، على الاطلاق ليس هناك معنى .. استمع لي ،ويجب ان تكون ، اخيرا ، شجاعا ومستقيما ، وان تقول ذلك بصوت عال . ليست هناك اية مثالية عن طريق الموت ... يجب الا تهرب منه في المعركة — ولكنه ليس فيه عدالة لدرجة البطولة او اي فخر خاص . انني اكفر ، اكفر بكل هذا . أكفر بتمجيد الموتى . انني أعرف فقط الخسائر ، والاباء ، وصديقاتهم ، وعالمهم الذي خسروه . يا للاسف لانهم ماتوا . أيها الشبان ، قوموا وانسفوا كل علم يدعو الى الموت . اسحقوا كل من ينادي للموت ، باسم اي نبوءة كانت ، في مصحة المجانين او في السجن — ان الحرب هي مهنة جزارة ملوثة — جزار ملوث بدم انسان . من المخجل ان تكون جبانا قذرا . ولكن كذلك محظور ان تكذب على الموت ، كما لو لم يكن هناك شيء . اسألوا الامهات . انهن يعرفن . هن يقلن لكم . فوق أي كبح للجماح ، ووجوه جامدة ولا بكاء . اسألوهن . ولكن أيضا حينئذ ... والحقيقة هي ، انه لا مناص أحيانا من الخروج للقتال . وممنوع أن تخفي حياتك ، كما لو كانت هي الشيء الغالي والاساسي في العالم ... ممنوع . واذا لم يكونوا هم ، ماذا ؟ وهل اله ابراهيم الذي امر بالتضحيه باسحاق ، هو الاساس ؟ مريع ، لدرجة انه من المستحيل ... وممنوع ان ننسى ، وممنوع ان نعتاد ، ومضطرون لوضع حد لكل هذا ! للسير المنتصب ، الضاحك ، الى الموت ، كما لو كان هذا مجرد رياضة .. او قل « ختان » هنا — انه مشاركة في جريمة ، أساس كل بلاء ... ممنوع ان نعيش في « ختان » . ممنوع ان نحارب « الختان » . ممنوع ان نموت في « الختان » ... هناك ! احصاء كامل لمتوسط الضحايا التي لا يمكن تجنبها » . (٣٠٩ — ٣١٠) .

وتصل هذه النغمة ذروتها في التمرد على كل ما هو مقدس يمكن ان يضحى بالحياة من أجله : « وما كتبته « طوبى للكبريت الذي احترق واشعل اللهب » ، انني أعرف ، ولكني لا احب ، لان هذا اثم . أن أكون كبريتا يحترق . انني اثور على هذا . من المستحيل ان يكون الذهاب الى الموت هو حسن حظ . سعادة لمن ؟ » (٤٠٥) .

وهؤلاء الذين يثورون على الحرب في « أيام تسيكلاج » لا يصلون هم ايضا الى رأي شامل وقاطع في المسألة . بل على العكس . ان هـذه الثورة حتى في أكثر اللحظات مرارة وعذابا لا تعدو اكثر من ثورة لحظية ومؤقتة ، وسرعان ما يحل محلها جهد اخر بالاجابة على السؤال الخاص بما يجب عمله تجاه سيطرة الشر والاجرام في العالم ازاء خطر الدمار والابادة . واحيانا تلح الحاجة من اجل ايجاد مخـرج بالقاء التهمة على شخص ما ، وفجأة يطل اتجاه لاتهام الكبار بكل هذا واعتبار ان الكارثة والطامة الكبرى هي بمثابة تخل من الآباء عن الاطفال ، ولكن هذه المسألة سرعان ما تنتهي هي الاخرى، لتصبح الحيرة وليصبح الضياع والشعور بالعدمية المطلقة مريعا ومؤلما في داخل نفوس هذه الشخصيات . وهكذا يبدو ان المشاعر المتناقضة بشأن الحرب هي من نصيب كثيرين ، وهي العملية التي تصاحبها جهود للتغلب على الازدواج النفسي ، ومن هـذه الشخصيات ، شخصية زابيك ، قائد الفصيلة الثالثة ، الذي يذهب الى ما هو أبعد من ذلك — انه لا يهاجم فقط الشكوك ووجهات النظر المسالمـة ، بل يهاجم كذلك ضرورة التخبط في مسألة الحرب : « واحد مثلي ليس له ان يسأل اسئلة . لان واحدا مثلـي اولا ليس في حوزة نفسه ، بل مجند ، والمجندون لا يسألون أسئلة ، بل يفعلون اعمالا ... واحد مثلي ، مجند منذ ان ذكر نفسه ، من سن الثالثـة عشر ... انه دائمـا في الطريق الذي يرسلونه اليه ... وهو لا يشترط شروطا ... نحن جيل الحروب .. » (٤٩٦ — ٤٩٩) . ولكن طالما ان زابيك يثير أهمية وحتمية قبول السيادة دون تردد — فانهم لا يعترضون على حديثه . ولكن لا يكون الامر كذلك حيثما تطرح بما يتناقض مـع رأيه الخاص بضرورة العمل دون تفكير ، مسألة ما هي جدوى القضية : « ومع كل هذا — قال ياكوش — كيف تعرف ما هو الشيء الطيب ؟ — كيف تعرف ؟ كيف يعرف من ارسلونا ان ما هو طيب عندهم احسن مما هو طيب عندي ، على سبيل المثال ؟ — « يا حبيبي ، هذه فلسفة » — قال زابيك بنفاد صبر ... وصاح زابيك — ملحاح ! لا معنى للمناقشة مع مثلك !.. » (٤٩٩ — ٥٠٠) .

ولكن مرة اخرى يتضح ان كل ما يجري من حوار وكل ما يعبر عن الصراع والتناقض والحيرة والضياع وكل التمزقات الداخليـة ان هي الا أحاديث ... مجـرد أحاديث ، وفورا بعد المناقشة يدخـل ياكوش الى مهمته كقائد لجماعـة من جماعات الفصيلـة « وبقسوة بقدر ما وجد ، وبصرامة ، كمن انهك من التماسك ، صاح في رجاله الممددين المصعوقين من نهاية المناقشة ، وذكرهم بايجاز حاد ان ليس هنـا حمام للرقاد ... وعادوا الى الادغال لاستبدال من هم هنـاك ، وواحد اثنين ، هـذا هو ، وانتهـت السينما » . (ص ٥٠٠) .

وهكذا ، لا يصبح في هذه اللحظة هناك اي فارق بين ياكوش المتمزق داخليا وبين زابيك المستسلم للاوامر والمنفذ لما يوكل اليه دون تفكير ، في حمل العبء الثقيل . ولكن لدى لقاء ياكوش مع كوبي اثناء دورية الاستطلاع — لا يستطيـع ياكوش ان يتمالـك نفسه ويعود ويثير في محادثة خاطفة عجزه عن طرد الافكار والشكوك من قلبه : « وماذا حينما يأتي أحدهم ويريد ان يقرر . منذ البداية ؛ على الرغم من كل الاشياء — أيقرر من خلال خياره الخاص ؟ » (٥٠١) .

وهكذا لا ينجح المتأملون والمتخبطون اطلاقا في محاولاتهـم من اجـل أن يوضحـوا لانفسهم المشاكل التي تزعجهم ولكي يجدوا لها حلا — ولكنهم عـلى الرغم من ذلـك يضحون في النهاية ويخاطرون بحياتهم من أجل القضية التي يضعون علامات الاستفهام أمامها ، ويموت بعضهم دون حسم لما اقلقه ولما مزقه داخليا قبل أن تمزقـه رصاصات الحق والعدل .

وهذا التناقض بين مستوى الشك في مجمل ما يسمى « بالقيم » والمستوى الخاص بالعمل ليس مقنعا دائما من الناحية الفنية والنفسية ، ولكنه أمر مميز وشائع الى حد ما في أدب « فترة الانتقال » ، الذي يتأرجح فيه الادب الاسرائيلي مثل السفينة في العاصفة ، ويجعل التناقضات الداخلية التي في مضمون الاشياء تؤدي الى تمزقات فنية وبنيوية .

لقد ميز الصراع بين حق الفرد وحق المجموع ، انتاج يزهار منذ قصته « افرايم يعود الى اسفسات » ، وهو الصراع الذي ميز الفترة التي بنيت من افراد تخلوا عن ذاتيتهم من أجل المجموع ، ولكن كلما كان المطلب الاجتماعي يقل كان الصراع يعمق ويزداد قوة — ويبدو ان يزهار لم يصل الى موضوعية كاملة في معالجة الصراع في روايته « أيام تسيكلاج » ، لانه لم ينجح في خلق مسافة بينه وبين أبطاله ... ان بنية الرواية تميط اللثام عن صراع المؤلف ولا تحقق بالفعل هذا الصراع في اعمال الابطال ، الذين لم يعملوا على الاطلاق عمل امتداد الرواية ، وفقا لافكارهم المتمردة ، وكانوا يفصلون بين تمرداتهم وبين الدور الذي يقومون به كما لو كانوا مؤمنين خالصين بالفكرة لم يخوضوا اي نوع من التخبطات او الشكوك ، ولذا فان تمرداتهم تقف عند حد التمردات النفسية الداخلية فحسب ، ولا تذهب الى أبعد من ذلك .

هناك نقطتان مؤكدتان بصفة خاصة في « أيام تسيكلاج » ويعكسان الصفة المميزة للبطل النموذجي لادب حرب ١٩٤٨ الاسرائيلي . **اولا** — النزعة الشخصية للابطال . ان هؤلاء يعرفون انفسهم وهم في أتون المعركة على نحو يختلف عن ذلك الذي اعتقده الآباء والمعلمون ، وعلى نحو يختلف عما كانوا يريدون هم انفسهم ان يقدروا شخصيتهم على غراره . انهم يرفضون بعد خوضهم للتجربة المستقلة الاولى في حياتهم ، تجربة الحرب ، ان يجعلوا من حياتهم اداة لتحقيق اهداف ثبت لهم سخفها ، سواء الاهداف الاجتماعية أم الاهداف القومية (ويجب ان نلاحظ ان هذا كان على مستوى المناقشة وتبادل الاحاديث وليس العمل ، اي التمرد الذي لا يتجاوز مرحلة الاحتجاج الكلامي) . ان نموذج ابائهم يثير في قلبهم نقدا حادا ، وهم لا يعارضون فلسفة الاباء والمعلمين ، بل ينفرون من ذلك الانجاز الحقير لحياتهم . انهم لا يريدون ان يعيشوا كأبائهم ، على الرغم من انهم غير قادرين ولا يعرفون كيف يفكرون على نحو اخر يختلف عنهم . ومن هنا **النقطة الثانية** : ان ابطال يزهار يتوقون الى شيء اخر ، لا يعرفون كيف يصفونه او يحددونه الا بمغازيه المنخفضة . انهم يرفضون الحياة من أجل شيء ما . وهم يريدون أن يعيشوا . يريدون ان يستنفذوا كل لحظة من لحظات الحياة . والحياة تعني الاستمتاع بكل ما يحتمل الاستماع فيها . ولكن ابطاله وخاصة العقلانيين منهم ، كانوا يعرفون أن هناك في كل لحظة من لحظات الحياة ما هو اكثر من المتعة . هناك الارتباط بشيء ما تفقد الحياة اساسها بدونه . ولكنهم في بحثهم عن هذا الشيء يصبح من الصعب ومن العبث التوصل الى شيء واضح . ان ما يسيطر عليهم في رحلة بحثهم هذه هو اللعثمة، والحيرة ، وعدم القدرة على الحسم ، وعدم الرغبة في الالتزام بشيء ، والسعي وراء حرية تكلي والانتظار المثير للدهشة لحدوث معجزة . يقول بطل يزهار : « لست أعرف بعد . دعوني أبحث . لا تطلبوا مني ان التزم . لست مؤهلا لهذا » . اذن فهنا يوجد تعبير سلبي وحائر يتمنطق بالشك ويتحصن به ، وهو الامر المميز تماما لقصص يزهار منذ بدايتها ، ولكن الحيرة هنا تتجاوز ذلك المجال المحدود الخاص بالمشكلة الاجتماعية، ولذلك فانها تصبح على حافة مأساة تتصف بالعمق . ان بطل يزهار يقف على حافة المجهول عنه ويسعى بكل قوته لتحقيق واقع سامي — ولا يستطيع .

الحواشي :

١ ــ **سميلانسكي يزهار** (س. يزهار) : ولد عام ١٩١٦ بمستعمرة رحوبوت . درس في مدرسة المعلمين ثم في الجامعة العبرية . كان عضوا في الكنيست من قبل حزب المباي في الكنيست الاول ، ثم عضوا في الكنيست السادس من قبل رافي ، وقد استقال منه . نشر قصته الاولى « أفرايم يعود الى اسفسات » عام ١٩٣٨ . من بين قصصه ورواياته المعروفة : « خربة خزاعة » ، و « قافلة منتصف الليل » و « الاسير » ، و « الدغل فوق التل » ، و « أيام تسيكلاج » (١٩٥٨) و « قصص ميشور » . حصل على جائزة برينر للادب عام ١٩٥٨ ، وجائزةاسرائيل عام ١٩٥٩ . حظي انتاجه منذ يومه الاول لاهتمام كبير بين شباب الطليعة الاسرائيلي . تعبر قصصه عن التخبطات الروحية لهذا الجيل من الشباب الاسرائيلي اكثر من معظم الكتابات الاخرى للادب الاسرائيلي المعاصر . تحتل الحبكة الخارجية عنده بصورة عامة مكاناضئيلا في انتاجه الادبي . ولذلك فانه يهتم بالاحداث في العالم الداخلي لابطال قصصه اكثر .

٢ ــ ايلي شبير ، « عناء الجذور المقطوعة » **ماسيف** (مجلة عبرية ادبية نقدية وفكرية) العدد الثالث (١٩٦٢) ص ١٠٨ .

٣ ــ س. يزهار : « **قافلة منتصف الليل** » (اربع قصص) ــ دار نشر الكيبوتس الموحد تل أبيب ١٩٦٦ ، ص ٥٠ .

٤ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٨٥ .

٥ ــ ايلي شبير ، **المرجع السابق** .

٦ ــ س. يزهار : **أيام تسيكلاج** ، دار نشر « عم عوفيد » ١٩٥٨ .

صدر عن مركز الابحاث في العام ١٩٧٠

كتاب

الفكرة الصهيونية : النصوص الاساسية

٣٧ كاتبا ومفكرا وزعيما صهيونيا كتبوا ٣٧ مقالا مطولا عن الصهيونية ترجمها مركز الابحاث لتكون مادة دسمة الى الباحثين والكتاب العرب لمعرفة نواة الفكر الصهيوني .

٤٨٨ صفحة من القطع الكبير .
سعر النسخة ١٠ ل.ل. يضاف اليها أجور البريد الجوي :
١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبة ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول .

أطلبه من مركز الابحاث ــ قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

مشاكل البحث الميداني في القضية الفلسطينية

فارس المنصور

تلعب الشهادات الشخصية التي ترد في كتب السيرة (ذاتية أم غير ذاتية) والمذكرات والذكريات والتقارير الصحفية والرسائل الخاصة ، دورا أساسيا في تدوين التاريخ الذي هو بمجموعه لا يتألف فقط من شهادات الاشخاص البارزين ذوي الادوار القيادية ، وانما ايضا من شهادات أناس عاديين شاءت الظروف ان تضعهم وسط احداث مصيرية ، فكانوا على درجة كافية من الوعي والثقافة لتجعلهم يسجلوا ما شهدوه او شاركوا فيه.

ومما يؤسف له ان الشهادات الشخصية ما زالت نادرة في حقل القضية الفلسطينية ، مما دعا « شؤون فلسطينية » في عددها رقم ٢٦ (تشرين الاول ١٩٧٣) الى توجيه الكلمة التالية الى قرائها : « اننا نشجع بشكل خاص التعليقات والايضاحات والاضافات (وخاصة الشهادات الشخصية) على الموضوعات المتعلقة بتاريخ النضال الوطني الفلسطيني وبحرب ١٩٤٨ ذلك ان المصادر العربية عن هذين الموضوعين محدودة ومعظمها لا يزال غير مدون وغير مدقق » .

والواقع ان مكتبة القضية في جناحها العربي تعاني فقرا واضحا في الشهادات الشخصية والذكريات ، سواء كان ذلك على صعيد الاحداث،او على صعيد الشخصيات البارزة التي لعبت دورا فيها . فالمكتبة ما زالت تخلو من سيرة وافية لمناضل كبير مثل عبد القادر الحسيني ، مع أن عددا كبيرا من الذين عرفوه معرفة وثيقة هم احياء ، بل ان القارىء العربي يعجب عندما يجد ان الكتاب « يا اورشليم » الذي الفه كاتبان غربيان متحيزان ضد العرب ، يحتوي على معلومات عن عبد القادر الحسيني وابراهيم ابو ديه وغيرهما من المناضلين لا توجد في أي كتاب عربي . اما ما نشر عن مناضلين اخرين مثل عز الدين القسام وسعيد العاص وحسن سلامه ، فلا يتجاوز بضع صفحات، علما بأن كل عام يمر ، يقل فيه عدد من عرفوا الشيخ عز الدين القسام الذي استشهد قبل اربعين عاما .

فاذا تركنا الاشخاص الى الاحداث ، وجدنا ان القحط يمتد اليها أيضا . مثلا: الوصف المفصل الوحيد للهجرة الجماعية الفاجعة لاهالي اللد والرملة في ذلك اليوم الاسود من تموز ١٩٤٨ ، نعثر عليه في كتاب لم يدونه قلم عربي . انه « الطريق الى بئر السبع » الذي الفته الاديبة الارلندية اثيل مان . ومع أن هذا الكتاب الممتاز يستقي معلوماته من شهود العيان الذين عصفت النكبة بحياتهم ، ومع انه يرسم صورة صادقة لا يرقى الشك الى صحتها ، الا انه على كل حال رواية خيالية ، وليس كتاب تاريخ .

هذا كله يطالبنا بطرح السؤال التالي : هل مشكلتنا هي مشكلة باحثين ، ام مشكلة شهود يرفضون لسبب من الاسباب ، الادلاء بشهاداتهم ؟

سنحاول في هذا البحث الرد على هذا السؤال الذي يزداد الحاحا كل يوم .

لنبدأ بالباحث . ان كتابة البحوث التاريخية بشكل منظم شامل حول قضايا معاصرة (كالقضية الفلسطينية) هو بالنسبة لعرب القرن العشرين علم جديد لا يتجاوز عمره سنوات معدودة . بل يمكننا القول بأنه قبل تأسيس مركز الابحاث في منتصف الستينات، لم يكن هناك نشاط منظم على هذا الصعيد . فكتابة البحوث تعتمد هي أيضا على قانون العرض والطلب ، والطلب في السنين الواقعة بين ١٩٤٨ و١٩٦٥ كان عموما ينصب على القصائد الحماسية وليس على البحوث التاريخية .

ثم بدأت الدراسات الجادة اثر تأسيس مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، ونشوء جيل جديد من المثقفين المصممين على دراسة القضية دراسة علمية عصرية ، فنشرت الدراسات القيمة ، وصدرت المجلات المختصة ، وبدأ العرب اخيرا يعرفون عدوهم من خلال دراستهم العلمية لمجتمعه واستراتيجيته الخ.. الا انه بالرغم من هذا التقدم المطرد الذي احرزته كتابة البحوث الفلسطينية، فالثغرات ونقاط الضعف ما زالت تبدو واضحة لمن يدرس ويتتبع بعناية الجهود المبذولة في هذا المضمار . فالباحث العربي ما زال يستند في الدرجة الاولى على الكتب والصحف وليس على الشهادات الشخصية في انجاز دراساته . انه دوما يبحث عن المصادر المكتوبة على حساب المصادر البشرية الحية ، علما بأن المصادر المكتوبة منشورة بأغلبيتها بلغة أجنبية ، وجزء كبير منها دونته اقلام مغرضة . انه طبعا يقترب منها بحذر في البداية ، بيد أن طبيعة عمله الاكاديمي تجعله بعض الاحيان ينسى حذره المبدئي اثر انغماسه في المطالعة والكتابة ، فيعجز عن غربلة المعلومات وتقييمها على الوجه الصحيح قبل الاستشهاد بها في بحثه .

ولا بد من الاشارة هنا الى حقيقة بديهية بالنسبة للعاملين في حقل الكتابة ، وهي ان للكلمة المطبوعة مفعولا يكاد يكون سحريا في نفس قارئها . فلاسباب سنترك امر تحليلها للسيكولوجيين المختصين ، يميل القارىء العادي ، فطريا ، الى تصديق الاخبار التي يقرأها في الكتب او الصحف . انه ينسى كون الكاتب بشرا مثله ، عرضة للخطأ او قد يجول في خاطره ان هذا الكاتب قد تعمد التضليل لغرض في نفسه . ولا ريب ان الكاتب الصهيوني جون قمحي كان يدرك هذه الحقيقة عندما **طبخ** في مجلة نيو ميدل ايست قبل اعوام مقالا نسبه الى مجلة الهدف .

ومما لا شك فيه ان الباحث المتخصص في القضية الفلسطينية هو أكثر تمحيصا وتدقيقا في قراءاته من القارىء العادي . ومع ذلك ، هناك خطأ شائع يقع فيه بعض الباحثين وذلك بسبب الاهمال الناشىء عن الكسل ، او بسبب الثقة الزائدة التي يمنحونها لكتاب يريدون استقاء المعلومات منه . وفيما يلي مثال على هذا الخطأ : في سياق قراءته لكتاب يقع في نطاق بحثه ، يعثر الباحث على تصريح لابا ايبان يذكر مؤلف الكتاب ان وزير الخارجية الاسرائيلي قد ادلى به الى صحيفة « جيروساليم بوست » التي نشرته في عددها الصادر بالتاريخ الفلاني . وفورا يستعيد الباحث نص هذا التصريح مع تاريخه ومصدره ويشير اليه في بحثه ، ثم يتضح فيما بعد أن المؤلف الذي نقل عنه هذه المعلومات لم يكن دقيقا ، او ربما لم يكن نزيها . فالتصريح المنسوب الى ايبان قد يكون مخترعا من أساسه ، او محورا ، او ناقصا بشكل يغير من معناه . او قد يتضح بأنه لم ينشر في « الجيروساليم بوست » وانما في صحيفة اخرى ، او قد يظهر بأن تاريخ الصدور خاطىء . بل يحدث في بعض الحالات ان الذنب يقع أصلا على الطباعة ، عندما تؤدي غلطة مطبعية صغيرة الى تغيير المعنى جذريا .

والباحث العربي قد يكون بحكم اختصاصه معصوما ضد التصديق الفوري لما يقرأه

في صلب الكتاب ، لكنه اقل مقاومة عندما يأتي الامر الى المصادر المثبتة في نهاية الكتاب أو على هامش الصفحات ، مع ان مسؤولية الخطأ تقع ايضا عليه وليس على عاتق المؤلف الاول فحسب . فمهمة الباحث ان يغربل معلوماته ويتثبت من صحتها قبل الاستعانة بها في بحثه . فالخطأ المقصود او غير المقصود يجب الا يتفاقم في البحوث التي اخذت عن المصدر الاول ، ولذا المطلوب من الباحث ان يضع المعلومات تحت مجهر الفحص بدلا من منح الثقة العمياء للمرجع الذي بين يديه .

سبق أن ذكرنا تفضيل الباحث العربي للمصادر المطبوعة على المصادر الحية . فهو اجمالا يرتاح الى الكتابة عن مقررات الامم المتحدة ، وسياسة امريكا تجاه القضية ، وصادرات اسرائيل الخ .. لان هذا النوع من البحث لا يحتم عليه اكثر من مراجعة الكتب والصحف . أما المواضيع التي تتطلب الحصول على شهادات شخصية ، فانه يتردد في خوض غمارها ، وهذا ما يفسر لنا غياب كتب من نوع « يا اورشليم » من المكتبة العربية . على انه انصافا للباحث العربي ، يجب الاشارة الى اختلاف ظروفه عن ظروف الكتاب الاوروبيين والامريكيين . فالشعب الفلسطيني مشتت في ارجاء الوطن العربي ، وفي دول عديدة خارجة ، وليس من السهولة على الباحث ، بموارده المالية المحدودة ، التنقل من قطر الى قطر لمقابلة أصحاب الشهادات . اما بالنسبة للمؤلف الاوربي او الامريكي ، فدار النشر التي التزمت بنشر كتابه العتيد تتكفل بتغطية نفقاته أثناء جمعه للمعلومات ، وهي التي تضمن له التفرغ اللازم . ثم ان دور النشر الغربية ليست مصادر التمويل الوحيدة للباحث ، فهناك ايضا الجامعات والمؤسسات الثقافية والدوائر الرسمية التي تقدم المنح للمؤلفين وتتيح لهم تنفيذ مشاريعهم الكتابية، اما لخدمة الثقافة بوجه عام ، او للتوصل الى اغراض سياسية معينة .

ما هي مشاكل الباحث مع صاحب الشهادة ؟

المعروف عن المواطن العربي انه عموما لا يكره الكلام ، كما ان الصراحة لا تنقصه . الا انه يصمت عندما يرى امامه قلما على وشك تدوين حديثه. انه يصاب بخوف غريزي يعقد لسانه ويجعله يلوذ بالسكوت حتى وان كانت معلوماته من النوع الذي لا يمكن أن يجلب له أي أذى . هذا هو المواطن العادي ، فكيف بالسياسي او المسؤول ؟!

وقد يظن الباحث في البداية ان خوف الناس من نشر حديثهم ناشىء عن خشيتهم من تعرضه للتحريف عند النشر ، فيحتاط لذلك ويحمل معه جهاز تسجيلي الى مكان المقابلة. الا انه يفاجأ عندما يجد ان فكرة التسجيل تضيف الى ذعرهم ، باعتبار ان تسجيل الحديث معناه قطع خط الرجعة عليهم فيما لو ندموا على « صراحتهم » فيما بعد ، وقرروا نفي بعض ما ورد على لسانهم ، او حتى نفي المقابلة كلها ، جملة وتفصيلا . واجمالا ، يتردد اصحاب الشهادات حتى في التوقيع بامضائهم على الصفحات التي نقل اليها حديثهم ، وذلك للسبب نفسه .

اذن فالحصول على الشهادات الشخصية يتطلب الكثير من الدبلوماسية والمرونة ، ونجاح المقابلة يعتمد في نهاية المطاف على التجاوب بين الطرفين ، عندما يثق صاحب الشهادة في امانة الباحث واهمية عمله ، وينطلق في الحديث دون تهيب .

وفيما يلي بضع نقاط رئيسية يمكن للباحث ان يسترشد بها في اداء مهمته :

اولا — من الضروري جدا أن يتقيد الباحث بقواعد المهنة واخلاقيتها . وهذه تحتم عليه الاتي :

أ — يتولى ابلاغ صاحب الشهادة من البداية ان حديثه سينشر ، ويطلب اذنا بذلك منه . اما استدراجه الى الحديث دون اخباره بان ما سيتفوه به سينشر ، فأمر مرفوض تماما .

ب ـــ عدم افشاء هوية صاحب الشهادة اذا طلب الاخير ذلك من الباحث . وهذا هو مبدأ مقدس ومن صميم اخلاقية المهنة ويجب عدم التفريط به بتاتا .

ت ـــ اذا طلب صاحب الشهادة من الباحث عدم نشر جزء من حديثه وانما الاستفادة منه لمعلوماته الخاصة وكخلفية للصورة ، فيجب التقيد بهذا الشرط ، حتى وان كان هذا الجزء هو اهم ما في الحديث (كما يحدث في كثير من الحالات) .

ث ـــ عدم تحوير الحديث وانما نقله بامانة كاملة .

ج ـــ من المستحسن عرض نص الحديث على صاحب الشهادة عند اعداده للنشر . ويحدث احيانا أن يندم الاخير على أشياء قالها ويطالب بحذفها ، مع انه لم يكن اشترط ذلك اثناء المقابلة ، في هذه الحالة يجب التوصل الى اتفاق مرض بين الطرفين .

ح ـــ قد يحدث ان يتورط صاحب الشهادة في امور قد تجلب له الاذى وتجعله تحت طائلة قانون القذف ، او تجلب له الملاحقة ، ولذا على الباحث ان ينبهه الى ذلك .

ثانيا ـــ من الضروري ان يدرك الباحث ان شهادة السياسي او المسؤول مهمة وتستحق التدوين حتى وان لم تتضمن شيئا جديدا (كما يحدث أحيانا) فهي تسجيل لموقف هذا الرجل ، ومهما كانت المعلومات الواردة فيها عائمة ، فانها تحمل بصمات أصابعه وسيحتاج اليها المؤرخ .

ثالثا ـــ مع أن الباحث يتقمص شخصية الصحفي في المقابلة ، الا ان هذا التقمص الوقتي يجب الا يدعه يخلط بين المهنتين. فاذا كان الاسلوب الصحفي يعتمد على عنصري السبق والاثارة في سرد الاحداث الانية ، وتقديمها داخل كبسولة سريعة للقارىء ، فان الباحث العربي الملتزم بالقضية الفلسطينية يكتب للتاريخ ، وعليه ان يتذكر دائما بان شهوده الفلسطينيين هم ليسوا اناسا وقعت امامهم جريمة فجاءوا ليشهدوا عليها ، وانما هم أنفسهم الضحايا .

رابعا ـــ يجب ان يراجع الباحث بدقة نص الشهادة عند اعدادها للنشر ، ويقارنها بالمعلومات الاخرى المتوفرة لديه ، سواء كانت هذه المعلومات قد وردت في الكتب والصحف ، او في شهادات شخصية اخرى من ملفه . ولا بد من التدقيق في التواريخ والارقام واسماء الاماكن والاشخاص .

أما بالنسبة لصاحب الشهادة فالمطلوب منه ان يقدر الاهمية الكبيرة لعمل الباحث ويدرك أنها لمصلحته كعربي ، فلا يبخل بالمعلومات . وطبعا لا بد من الصدق والامانة في رواية الاحداث ، والتجرد قدر الامكان من العواطف عند التحدث عن الاشخاص ، وعدم تضييع وقت الباحث في الاحاديث الحماسية ، وانما الاقتصار على سرد الوقائع. وفي حالة عدم وجوده في بلد واحد مع الباحث ، فانه يسدي خدمة كبيرة للقضية فيما لو رد عن طريق البريد على أسئلة الباحث ، او تطوع للكتابة اليه اثر قراءته لاعلان في الصحف يطلب الشهادات الشخصية .

وسيجد الباحث ان أصحاب الشهادات ينتمون الى فئات كثيرة . فهناك اولا الفئة التي تخاف ان تتحدث ، وان تحدثت لا تذكر كل ما تعرفه . وفي هذه الحالة يجب على الباحث ان يتفهم ظروف هذه الفئة ، وعليه أن يضع نفسه مكانها قبل القاء حكم سلبي عليها . ثم هناك الفئة التي لا يفقه افرادها معنى البحث العلمي واهميته ، وينظرون الى أي شيء له علاقة بالفكر نظرة ازدراء ، وهذه الفئة ليست بالضرورة مؤلفة من الاميين وانصاف المتعلمين ، بل قد تضم كبار الساسة والمسؤولين . ثم هناك الفئة التي جبل افرادها على البخل حتى في المعلومات ، فهم يعتبرون شهادتهم نوعا من المساعدة

الشخصية لا يجب اسداءها الى غريب ، ولذا فانها عادة تموت معهم . وطبعا توجد أيضا فئة المتهيبين الذين يجدون صعوبة في الانطلاق بالحديث امام الاغراب .

أما « الايجابيون » ، فبينهم الشيوخ الذين لا يستطيعون رواية الاحداث حسب تسلسل منطقي بسبب طعنهم في السن . اذ أن ذاكرتهم قد تكون مليئة بالاحداث التاريخية التي شهدوها ، وهم على استعداد لسردها ، الا ان ارتباكاتهم الذهنية متشابكة ومتشعبة ، ويصعب على الباحث متابعتها وتسجيلها بوضوح . وعموما سيجد الباحث ان العرب يميلون الى المبالغة في الارقام (لا تكاد توجد عاصمة عربية قديمة لم يخبرنا مؤرخوها الكلاسيكيون انها تحتوي على أقل من الف حمام) والى العاطفية التي تفسد مقدرتهم على تحليل الاحداث تحليلا موضوعيا سليما ، والى تصوير الاشخاص بلون واحد : اما أسود او ابيض .

الا ان ذلك كله يجب الا يثبط من عزم الباحث على تسجيل الشهادات الشخصية للتاريخ ، فالتجربة الفلسطينية يجب ان تدون على أوسع نطاق ممكن ، وهناك عشرات وعشرات من الشهادات المهمة ما زالت غير مكتوبة ، فمتى سيدرك أصحابها ان للقضية دين في اعناقهم ، في هذا العصر الذي توسعت فيه مدارك المواطنين العرب وارتفع مستواهم الثقافي ، لم يعد الباحث المختص يعمل لزميله الباحث المختص فقط ، كما كان الامر قبل سنوات قليلة ، عندما لم تكن هناك الا نخبة صغيرة من المثقفين تقرأ البحوث الجدية عن القضية . ان الوطن العربي يمر حاليا في مرحلة انتقال يمكن اعتبارها نقطة تحول رئيسية في تاريخه . وسيثمر عن النمو الحضاري في الوعي والثقافة زيادة في تصميم المفكرين والباحثين العرب على كسر الاحتكار الغربي ــ الصهيوني في كتابة البحوث وتدوين التاريخ .

ان المرحوم عارف العارف قد اسدى خدمة كبرى للقضية عندما عكف على تسجيل تطوراتها في مذكراته اليومية طوال سنين عديدة ، فكان شاهدا واعيا للتاريخ يستحق تقدير كل باحث اقتضى أثره . ثم لا بد من الاشادة بالجهود الرائدة لمركز الابحاث الفلسطينية ، فهو لم يخدم القضية الفلسطينية فقط ، بل انه أيضا خلق الظروف الملائمة لجيل كامل من المفكرين العرب كي يتفرغ للبحث . وهذا الانجاز لا يقل اهمية في حد ذاته عن الانجاز المباشر لهذا المركز عندما أخذ على عاتقه تعريف العالم بالتاريخ الحقيقي للقضية الفلسطينية ، فاليوم سيأتي الذي فيه تحل القضية الفلسطينية ويعود الفلسطينيون الى ديارهم ، الا ان البذرة التي غرستها القضية في نفوس المثقفين العرب عندما دفعتهم بتحدياتها الفكرية الى البحث والدراسة ، هذه البذرة ستنمو وتترعرع في عهد زاهر سيستعيد فيه العرب حبهم التاريخي الشهير للمعرفة والاستقصاء .

والمطلوب الان من المؤسسات الاقتصادية الكبيرة في الوطن العربي ان تساهم في هذا الاتجاه وتعاون الباحثين ، علما بأن القضية الفلسطينية هي ليست القضية الوحيدة في هذا الجزء من العالم التي تستحق البحث . ولا يجب ان يترك الميدان للجهات الرسمية وحدها كي تحتضن هذا النشاط الفكري وترعاه ، فليست الجامعات والمعاهد العليا في اوربا وامريكا هي الوحيدة التي تخصص المنح والزمالات للباحثين كي تشجعهم على التفرغ للبحث والتأليف ، بل هناك أيضا المؤسسات المالية وكذلك الافراد، وهؤلاء جميعا باستطاعتهم ري نبتة المعرفة ورعايتها . وختاما ، فاذا كان العرب مقبلين على عصر ذهبي جديد، فليتذكروا ان عصر المأمون لم يعتبره المؤرخون قمة في التاريخ لمجرد ان الامبراطورية العربية بلغت اوجها فيه ، وانما لانه أيضا عهد التمع فيه العالم بضياء الفكر العربي .

سقوط صفد

محمد هشام العظم

هذا جزء من مذكرات عن حرب فلسطين ١٩٤٨ يعدها الكاتب العسكري العربي محمد هشام العظم الذي اشترك في هذه الحرب كضابط في جيش الانقاذ ثم شغل بعد ذلك العديد من المناصب العسكرية في الجيش السوري .

مقدمة :

اطلعت في العدد ٢١ من مجلة شؤون فلسطينية على مقال كتبه الاخ جادو عز الدين حول سقوط صفد سنة ١٩٤٨ . وبالرغم من أن الكاتب قد دعا في مقاله جميع الاحياء ممن حضروا المعركة او شاهدوا المأساة الى المبادرة لتوضيح ما غمض عليه . ولتصحيح ما أغفلته الذاكرة . فقد رأيتني مستجيبا لهذه الدعوة بدافعين : اولهما : انني كنت ممن خاضوا غمار هذه المعركة ، لا بل كنت في قلبها ، اي في قلب المدينة لا خارجها . وثانيهما: دافع الحقيقة والتاريخ . فلا بد من اجلاء الامور ولا بد من توضيح المسائل .

وأراني مضطرا الى الاعتراف بأن اعتمادي على الذاكرة في هذا الموضوع كان كاعتماد الاخرين عليه . ولكن شهود العيان هم دائما أذكر للمشاهد واكثر معرفة بالحوادث ومجرياتها ، بحكم وجودهم فيها ، ومعاناتهم لها .

على هذا التقدير فقد اغنانا الاخ جادو عزالدين في الشرح بما شاهده ووقف عليه خارج المدينة . فأتى على ذكره باسهاب وتفصيل لا يحتاجان الى مزيد . وان كانت لنا عليه بعض الملاحظات كما سيأتي .

وعلى هذا الاساس فانني ادعو القراء الى معاودة الاطلاع على مقال الاخ جادو عز الدين على سبيل استكمال المعرفة لا على سبيل المقارنة . لانه قد أتى في شرحه على كثير من الامور في داخل المدينة أيضا ، بما يتوجب على المشاهد ان يذكرها على حقيقتها خدمة للتاريخ .

وقد يكون لكل موضوع عدة أشكال من العرض لا تختلف باختلاف وجهات النظر المتفاوتة فحسب ، وانما باختلاف طرق العرض أيضا . وان أدت بالنتيجة الى هدف واحد . وما دامت الذاكرة هي مرجع الاثنين معا فليعذرني الاخ جادو اذا أضفت شيئا ، او نفيت أشياء ، او ركزت على امور لم يتطرق اليها في مقاله .

تمهيد :

دخلت فلسطين في منتصف شهر كانون الاول سنة ١٩٤٧ . مع سرية ادلب . وكنت معاونا لآمر السرية الرئيس الاول (الرائد) عبد الغفور حميدان . وقد تشكلت هذه السرية من عناصر عسكرية سبقت لها الخدمة في جيش الشرق ايام الفرنسيين في سورية . وقد جمعها السيد غالب العياشي نائب ادلب وأتي بها الى معسكرات قطنا. حيث كنا فيها ندرب هؤلاء المتطوعين الوافدين اليها من كافة الانحاء السورية والعربية . وبما ان هذه العناصر كانت لها خدمة عسكرية سابقة ، فقد اكتفت القيادة بتوزيع التجهيزات والاسلحة والذخيرة عليها . وأمرت بتشكيلها نظاميا بعد التحاقي بها، ثم طلب منها التحرك بها فورا للالتحاق بفوج المقدم أديب الشيشكلي في الجليل .

وبعد ثلاثة أيام كانت السرية مستكملة تشكيلها وتجهيزاتها واسلحتها وعتادها . فتحركت سياراتها الى الحدود اللبنانية ، حيث رافقها ضابط ارتباط لبناني الى مرجعيون . ومنها تقدمت الى صيدا وصور ثم الى رميش وهي قرية لبنانية على الحدود الجنوبية . حيث ترجلت السرية وتابعت سيرها على الاقدام مستعينة بدليل كان ينتظرها

على الحدود . ولقد سلك الدليل بها طريقا وعرة بين طربيخا غربا وديــر القاسي شرقــا باتجــاه سحماتا . متحاشيا في ذلــك السير على الطرقات العامة تجنبا للاصطدام مع الدوريات الانجليزية .

وفي سحماتا استقبلنا المقدم شيشكلي . فتعرف على السرية وافرادها . ثم قادنا الى قرية كفر سميع ومنها الى **دير الاسد** . فأقمنــا فيهــا مدة من الزمن ، كانت ضرورية للتعرف على الارض ، والانسجام مع الجو الذي كان يسود البلاد انذاك. ثم ما لبثنا ان استدعينا في مهمة عاجلة للانتقــال سيرا على الاقدام الى الكديرية . فأجتزنا منطقــة الزيتون في دير الاسد والرامه والفرادة حتى دخلنا منطقة الكديرية وهي منطقة جبلية وعرة ذات صخور مدببة حادة تارة او مسطحة مسنونة كحد السيف تارة اخرى . علاوة على أن بضع خطوات تفصل ما بين رجلين كانت كافية لقطع الاتصال وحتــى الرؤية في بعض الاماكن . وكانت هذه المنطقة مطلة على بحيرة طبريا ، ومشرفة على طريق صفد ــ طبريا . وذات مناخ دافيء في الشتاء . وهي تجاور غربا منطقة الزنفارية المقابلة للبطيحة السورية . وما لبث الشيشكلي ان لحق بنا مع سرية القيادة واقام معنا في تلك القرية .

كانت مهمتنا تنحصر في حرب العصابات . فكنــا نرابط على الطريق ونتعرض الى القوافل المعادية. ثم ننسحب بسرعة الى القرية معتصمين بهــــا وبوعورتها خشية الاصطدام مع الجيش الانكليزي. ومع ذلك فقد اشتبكنا مع الانكليز ثلاث مرات عندما كانوا يتدخلون لانقاذ القوافل .

ثم انتقلنا الى بيت جن في جبال الجرمق بعد معركة حامية مع الانكليز حيث أقمنا فيها مدة مــن الزمن انتقلنا بعدها الى قرية السموعي ، الواقعة على السفح الشرقي لجبال الجرمق ، ومواجهــة لهضبة صفد . وكانت هذه القرية مطلــة علــى الطريق العام صفد ــ الفرادة ــ عكا . فاقمنا فيها مدة كنا نتابع فيها مهمتنا الاولى في ضرب القوافل على طريق طبريا ــ صفد. رغم بعد الشقة ووعورة الطريق . اذ كانت جميع تنقلاتنا سيرا على الاقدام ذهابا وايابا .

معركة صفد :

بدأت صفد تستأثر باهتمام القيادة نظرا لموقعها الستراتيجي الهام . ولكونها قلعة الجليل وعقدة مواصلاته المشرفة على عقد مواصلات اخرى فــي الشرق والغرب . فكانت بالنسبة الى العــدو مشرفة بموقعها وبجبل كنعان الملاصق لها علــى سهل الحولة والمستعمرات القريبة كالجاعونة . ومتحكمة بطريق طبريا ــ الحوله . ومسيطــرة بحكم الارتفاع على كافة ما حولها من المناطق .

كانت المدينة منقسمة الى قسمين : الحــي العربي الى الشرق والحي اليهودي الى الغرب. وكان جبل كنعان مشرفا على الحيين معا الى جهة الشمال . وكانت القلعة تفصل في جزء من المدينة الحيين عن بعضهما بعضا . وكان يقع على سفح جبل كنعان الى الجهة الجنوبية ، اي ما بينه وبين الحي العربي من المدينة ، مركز البوليس وكان بيد الجيش الانجليزي .

كان جبل كنعان بيد العدو. وكان مشرفا ومتحكما بالمنطقة والمدينة ، وخاصة علــى طريق التموين الرئيسية وهي طريق صفد ــ الجاعونه ــ طبريا. وكان للعدو في هذا الجبل مستعمرة بيريا القوية . وكان الى أسفل منها قرية بيريا العربية وهي قرية صغيرة محدودة القوى الدفاعية .

وعلى السفح الغربي منه كانت تقوم قرية عين زيتون العربية ، والى غربها مستعمرة عين زيتيم اليهودية . ويحيط بها على شكل قوس القــرى العربية التالية : دلاتا ، وطيطبا ، وقديثــا ، والصنصاف . وكان الاتصال بالحــي اليهودي تموينا واتصالا وانما يجري تحت اشراف الجيش الانكليزي .

كان العرب يحتلون الحي العربي الى الشرق من المدينة . وكانت الجهة الشرقية مــن المدينة مكشوفة تماما وليس وراءها قرى عربية تسترهــا وتحميها من الشرق . أما في الجهة الغربية فكانت عين زيتون وبيريا العربيتين غير مشغولتين بقوات من الانقاذ ومكتفيتين بالمسلحين من اهالي القريتين وهم قليلون نسبيا . وكان القوس المؤلف مــن القرى المحيطة بصفد محتلا بقوى فوج اليرمــوك الثاني ومشرفا على الطريق الغربية المؤدية من صفد الى عكا ، ومن صفد الى الناصرة (عند قريــة الفرادة الى الجنوب) .

يلاحظ من هذا التقسيم ان المنطقتين كانتــا موزعتين كما يلي : المنطقة الشرقية بيد العــدو (باستثناء المدينة) ، والغربية بيــد العرب ،

(باستثناء عين زيتيم) ولكـن النقطة الحاكمة الهـامة ، وهـي جبل كنعـان ، كـانت بيـد العدو ، ويتصل بمستعمرة عين زيتيم التي كانت تشكل مخفرا اماميا قويا للدفاع عن صفد من جهة الغرب .

بدء المعركة :

بدأت معركة صفد عمليا من خارجها . فكـان لزاما على القيادة ان تحكم الطوق حول المدينة . فأمرت سريتنا ان تنتقل الى قرية دلاتا ، فشكلت بذلك الطرف الايسر للقوس المضروب حول المدينة من الغرب . ولكن مستعمرة عين زيتيم كانت تقف حائلا دون التمكن من التأثير المباشر على الحـي اليهودي من المدينة . ولقد قام المقدم شيشكلي بعدة محاولات لاحتلال المستعمرة ، وجرت حولها عدة معارك محلية صغيرة ، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل ، وقصفت المستعمرة بالهاون ٨١ مم عدة مرات ، وكان من نتيجة القصف ان زادت التحصينات الداخلية والخارجية في المستعمرة كما أفاد الاستطلاع المستمر .

كان الملازم الاول احسان كم الماز (من الجيش السوري) في صفد ، فقد هرب من الجيش حماسة ونخوة ، واصطحب معه عدة عناصر من رتبـاء الجيش ومن تلامذته ، ودخل مدينة صفد . فأحبه الاهلون واستلم قيادتهم . فكان يقود في المدينـة جميع المناوشات والاشتباكات المستمرة مع اليهود من جهة ، ومع الانكليز من جهة ثانية في بعـض الاحيان . ولكن هذه المناوشات لم تكن الا لاثبات الوجود العربي في المدينة ، ولم يكن لها تأثير حاسم ولم تحقق اي غرض عسكري سوى احتلال مركز البوليس .

وفجأة اعلن الانكليز اخلاءهم لمدينة صفـد . وبدأوا باغراء الفريقين العرب واليهود للتسابق الى احتلال المركز واختطافه من الفريق الاخر . فقامت عناصر التغطية الانكليزية (حسب الرواية العربية المتواترة) تضرب الفريقين معا في آن واحد حماية لانسحابها، ولكن الرواية العربية تضيف بأن الجيش الانكليزي كان يركز في ضربه على العرب اكثر من اليهود ، حتى يتاح لليهود السبق فـي الاحتلال . ولكن الملازم الاول احسان كم المـاز استطاع بحيويته وشجاعته وبما جمعه حوله من المجاهدين الصفديين ان يسبق الـى الاحتـلال والتمركز ، وان يدافع عن المركز ضد الفريقين في البدء ثم ضد اليهود في النهاية . وبقي المركز بيد العرب . فأكسبهم ميزة دفاعية جيدة، وحسن كثيرا من قوة دفاعهم . لان مركز البوليس كان يشرف على الحي العربي اكثر من اشرافه على الحـي اليهودي ، وان بقي جبل كنعان مشرفا عليـه . وبهذا الاحتلال فاتت على اليهود فرصة ثمينة جدا في كسب المعركة بل في تأخير هذا الكسب مـدة اطـول .

قلب هذا الوضع الطارىء خطط المقدم شيشكلي رأسا على عقب . فبينما كان مستمرا في تحضيراته للاستيلاء على مستعمرة عين زيتيم لتضييق الحصار على الحي اليهودي وايقاعه بعد احتلال المستعمرة تحت تأثير الضرب المباشر من قبل القوات العربية، نراه يرجىء هذا الامر الى موعد اخر ، ويسرع في نجدة حامية صفد داخل المدينة . لانها ان اختلت وسقطت المدينة لم يعد بوسعه البقاء حولها (كما حدث فيما بعد) . ناهيك بفقد الموقع الستراتيجي الهام . وليؤمن المقدم شيشكلي تنفيذ مهمته جمع القوات التالية :

١ ــ السرية الاردنية بقيادة النقيب سـاري الفنيش . وكانت متمركزة في ترشيحـا على ما اذكـر .

٢ ــ فصيلة من سرية القيادة (متطوعـون سوريون) وزمرة هاون ٨١ مم (مدفع واحد) بقيادة آمر السرية الملازم عبد الحميد سراج .

٣ ــ فصيلة وحضيرة من سرية ادلب بقيادتي .

جرت هذه التحركات ليلا الى مخفر الظاهرية . ثم منه سيرا على الاقدام في وادي الطواحـين ثـم صعـودا الـى المدينـة مـن الجهـة الجنوبية . وكان الوادي شديد الانحدار وعـرا ذا شجر كثيف ولا يصلح الا للسير بالرتل الاحادي وبكل تؤدة نظرا لضيق الدرب ، وخشية الانزلاق على الاراضي المبتلة من المطر . ودخلنا صفـد مع الفجر ثم لحقنا الاردنيون . (اذكر أن تاريخ هذا التحرك انما كان في اواخر النصف الاول من شهر نيسان عام ٤٨) ثم جرى توزيع المهمات كما يلـي :

١ ــ كلف الملازم حافظ (اردني) باحتلال مركز البوليس والدفاع عنه بقوة تتألف من فصيلة مـن

السرية الاردنية ومتطوعين فلسطينيين .

٢ — كلف الملازم سراج باحتلال القلعة وعمارة الحاج فؤاد . بقوة تضم حضيرتين للقلعة، وحضيرة واحدة للعمارة ومتطوعين فلسطينيين .

٣ — كلف الملازم هشام المظم بالدفاع عن شرقي المدينة بما في ذلك المستشفى (وكان الشرق مكشوفا كما أسلفنا) وتأمين الاتصال مع مركز البوليس بواسطة النظر . وكانت قواته تتألف من فصيلة وحضيرة من المتطوعين السوريين (سرية ادلب) .

٤ — كلف الملازم الاول اميل جميعان بالدفاع عن مركز القيادة (مقر رئاسة البلدية) بالاضافة الى مهمته كمعاون لقائد الحامية .

٥ — زمرة الهاون ٨١ مم تحت تصرف قائد الحامية . وكان مركزها الى الشرق من مقر الرئاسة (ما بين الجبانة ومقر القيادة) وكان آمرها الرتيب محمد قاسم الطوقتلي وهو وافراد زمرته من المتطوعين السوريين من سرية قيادة فوج اليرموك الثاني . وكان هذا المدفع هو سلاح الاسناد الوحيد في صفد .

٦ — التموين : كان واقعا على عاتق القيادة التي استخدمت البغال لتأمين التموين عبر وادي الطواحين .

٧ — المواصلات : كانت جميع المراكز الدفاعية مرتبطة بشبكة سلكية ، وكان الاتصال الهاتفي مستمرا مع جميع المراكز ، اما الاتصال بالقيادة فكان يتم بواسطة جهاز لاسلكي في المركز . وبواسطة عناصر التموين .

تم توزيع هذه المهمات شفويا وبسرعة . وكان الاعتماد في التنفيذ على بداهة الضباط وفطنتهم ، دون ان يكون لقيادة الحامية اي اشراف على التمركز او أي تدخل في تعديله او اقراره او حتى التفتيش عليه . ناهيك بعدم وجود اي مخطط للدفاع بشكله النظامي المعروف . مما جعلنا نعتقد أن مجيئنا الى صفد انما كان للتعزيز واستمرار الوجود العربي فيها . وكنا انذاك ضباطا صغارا، لا نملك حرية التصرف ولا نجد مجالا لقلب الفوضى الى نظام . فقد كانت هذه المسألة من أعقد الامور. اذ لم يستطع حتى قادتنا ان يؤثروا فيها او يجدوا لها حلا . ومع ذلك فقد تم التمركز بأسرع ما يمكن . واستؤنفت المناوشات المستمرة ، بل شاركت العناصر الجديدة بالمناوشات والدفاع بشكل مجد وبسرعة مما أعاد الاطمئنان الى النفوس واعاد الثقة بقوة الدفاع .

وقبل أن امضي في وصف المعركة لا بد لي من التوقف هنيهة عند التموين ، فقد كانت مشكلته من أكثر المشاكل تعقيدا . وبالرغم من أنها لم تواجه بما يليق بها من العناية ، الا ان الوسائط المتيسرة ، والواقع العسكري قد حكماها بشدة مما جعلها مدعاة للشفقة . ذلك أن الواقع العسكري جعل كلا الطرفين المتحاربين يعتقد خطأ أن كل واحد منهما يحاصر الاخر . ولكن الحقيقة ان العرب كانوا هم المحاصرين او شبه المحاصرين. فقد كان اليهود يؤمنون طريق التموين الى الحي اليهودي عن طريق الجاعونه — صفد . وعندما سقطت عين زيتون العربية ، أصبحت الطريق مفتوحة تماما أمام قوافلها الالية .

أما نحن فقد كانت جميع الطرق مسدودة امامنا، باستثناء مسلك وادي الطواحين . وهو مسلك لا يصلح الا للراجل الواحد والدابة الواحدة . ويتعرض السائر عليه لمخاطر الانزلاق والتردي الى الوادي .

وقد استخدم المقدم الشيشكلي البغال والدواب لايصال المؤن والذخيرة ، ولكن احتدام المعركة واستمرارها في الليل والنهار ، جعل احتياطي الذخيرة معدوما في أغلب الاحيان . فما يكاد يجري توزيع الذخيرة على المراكز حتى تبدأ طلبات التموين . ثم استغنينا عن الاحتياط العام في المركز ، ووزعناه كاحتياط خاص جزئي في المراكز الدفاعية .

أما الاطعام فقد كان متيسرا ولكن الى حين . وقد خفض من اهميته احتدام المعركة واكتفاؤنا باليسير منه ، ناهيك بوجود المؤن عند الاهلين كما كانت تقضي بذلك العادات العربية . ولكنني لا اعتقد بنجاح هذا الاسلوب من التموين لو استمر الحصار طويلا بعد نفاد المؤن من البيوت واضيف على كاهل القيادة عبء تموين الاهالي بالاضافة الى الجنود ، والى ما تتطلبه المعركة من ذخيرة وعتاد .

وكانت الخدمات الطبية مؤمنة بشكل متوسط، وبواسطة المستشفى . ولكن الحاجة كانت تزداد

تباعا الى المواد الطبية والى المصل والدم كلما اشتدت المعركة وكثر عدد الجرحى . فقد قضى الكثير منهم من قلة الدواء وبقية المـواد الطبية وانعدام وجود الدم بعد أن نفد احتياط المستشفى.

كان تصرف قائد الحامية قبل المعركة اشبه ما يكون بتصرف الحاكم العرفي ، فلم تكن المهمة الرئيسية تستأثر باهتمامه ، فكان أبعد ما يكون عن المهام العسكرية . ولقد انصرف بكل اهتمامه الى النواحي المدنية . فكان يستعمل الجنود الاردنيين كرجال شرطة للقبض على هذا وللضرب على يد ذاك ولم نكن نعرف سببا لذلك . واستمرت هـذه المعاملة السيئة . وكانت تشتد كلما رافقتها حالات التذمر والتقاعس عن الخدمة ، والمرابطة فـي مراكز الدفاع ، حتى ضج الاهلون ، واعتقدوا بأنهم أمام قوة محتلة وحاكم محتل ، لا امام نجدة عربية قادمة للدفاع عنهم ومساعدتهم . مما ولد في نفوسهم انعكاسات سيئة على روح القتـال، وضرورة المواظبة على الدفاع . حتى ان هـذه المعاملة قد أحدثت فيهم انقساما خطيرا والمعركة على أشدها . فانقسموا ما بين مؤيد ومناهض . وسادت في نفوسهم وافكارهم تلك الانقسامات التي كانت جذورها تعود الى الاجتهادات السياسيـة السائدة في المنطقة العربية انذاك . ولم تمنـع المعركة ، ووجود العدو ، والخطر القريب مـن ظهورها . وكان من نتائج تلك المعاملة أن فوجئت بقدوم احدى الشخصيات الصفدية الي وهو على رأس جماعته من المسلحين من عائلته وممن انضم اليهـا بالاتجـاه السياسي وبالنفـوذ العـائلي معلنـا وضـع نفسه ومسلحيه تحت قيـادتـي وتصرفي (بصفتي سوري) تاركا بذلك مراكـز الدفاع المعينة له شاغرة . مما كان له في نفسي أسوأ الوقع . حتى ان تلك الشخصية قد حاولت اقناعي في التجاوب لتلك الاصداء . ولكنني لم آبه لها ولم أعرها أي جانب من الاهتمام . انصرافا مني الى المهمة الرئيسية ، وتقديمها على كل اعتبار . ونصحت الشخصية المذكورة بالعودة الى المراكز الدفاعية . فالعدو قابع في البلاد وخطره قريب . وكل شيء ما عدا الدفاع والقتال انما هو من الترهات . فاستجاب الى طلبي وعادت جمـاعته الى مراكزها . ولكن الاثار بقيت عالقة في النفوس. وقد انعكست كلها على روح القتال والحماسة . وأدت بالضرورة الى التقاعس عن الخدمة والقيام بواجبات الحراسة والقتال . وقد كانت الروح المعنوية في صفد من أقوى مـا لمسناه في عمـوم الجليل . ولكنها تردت نتيجة المعاملة السيئة . أما جنود الانقاذ من بقية العناصر فقد كانوا بمعزل ومنجاة عن هذه المعاملة، نظرا لاهتمامهم بالقتال، وقلة احتكاكهم مع الاخرين .

وكان من آثار تعيينه كقائد للحامية خسـارة الحامية للملازم الاول احسان كم الماز . ولـم يكن الملازم الاول كم الماز تابعـا لقيادة الشيشكلي آنذاك . وانما كان حرا يتصرف بالقتال في المدينة كيفما شاء . وعندما اقتضت الضرورة ادخـال التعزيزات من قيادة منطقة الجليل في اعقاب جلاء الانكليز عن المدينة كان الملازم الاول مسرورا بهذه التعزيزات سيما وان عناصرها الاولى كانت سورية وضباطها من تلامذته . ولكن ما أن دخلت العناصر الاردنية وعلى رأسها من هو اعلى منه رتبة حتى تبدلت نفسيته بعض الشيء . اذ كان يقدر أن يكون قائد الحامية ، وكان معه الحق بذلك ، لانه كان اعرف بالمدينة عسكريا واجتماعيا . فقد أحبـه الاهلون وشاهدوا من شجاعته واندفاعه ما زادهم حبا واعجابا به . وقد توج اعماله القتالية في صفد باحتلال مركز البوليس وانتزاعه عنوة من أيدي اليهود . ولكنه كان حاد الطبع عصبي المزاج . فلم يرق له البقاء في صفد تحت امرة غيره فغادرها غاضبا . ولقد أثـر ذهابه على الروح المعنوية الصفدية . ولمسنا ذلك ظاهرا علـى نفـوس الصفديين . وتردت الروح اكثر من ذلك عندمـا لاحظوا تبدل المعاملة والانتقال فيهـا من صعيد المساواة والاخوة الى صعيد الحاكم والمحكوم ، مما كان له أسوأ الاثر على دوافع القتال والروح المعنويـة .

وقد كان من الممكن، بل من الاولى، ابقاء الملازم الاول كم الماز في صفد استفادة من عدة ميـزات حققتها بها وكما تقضي الحاجة الملحة والضرورات العسكرية . ولكنه لم يستطع لحدة طبعه وشدة نزقه المكوث اكثر من ثلاثة أيام ، حاول فيها ان يقنعني بترك المدينة ، والمرابطة على طريق صفد الجاعونه . كأنه يطلب مني ان اترك مواقعـي الدفاعية وان انفصل عن قيادتي لتحقيق اغـراض قتالية ربما كانت منسجمة مع الوضع العام ولكنها ليست منسقة مع خطط القيادة وأفضلية الدفاع عن المدينة . فغادر المدينة مودعا من قبـل الاهلين

بحرارة وأسف ،والتحق بالجيش السوري ، وما لبث أن استشهد في معركة سمخ .

المعركـة :

المعركة ذات جانبين : داخلي وخارجي — أما في الداخل فقد بدأت حامية ضارية منذ اليوم الاول من دخولنا الى صفد ، واستمرت على ضراوتها طوال سبعة وعشرين يوما ، لم نذق فيها طعـم الراحة والنوم الا نادرا . وقد بدا الهزال مـن نتيجة التعب والسهر على وجوه الجميع . ولاحظ ذلك المقدم شيشكلي والدكتور فيصل الركبي (وكان طبيب الفوج ولم يكن تحت قيادته وحدة مقاتلة كما جاء في مقال الاخ جادو) . وبقيت هذه الوحدات طوال هذه المدة بدون تبديل ، وخاصة تلك التي كانت في الخطوط الامامية وهـي مـن عنـاصر سريتي[1]. فكانت تقاتل ليل نهار . اما الاهـالي فكانوا يترددون الى بيوتهم فيصيبون فيها شيئا من الراحة ، ثم يعودون الى مراكزهم في الليل الا اذا استدعت الضرورة سرعة الالتحاق .

أما الجانب الخارجي . فقد اثرت على معركة صفد العوامل التالية لمصلحة العدو :

١ — سقوط حيفا . وكان ذلك بعد قيام الرئيس الاول (الرائد) شكيب وهاب ، والذي جاء مددا للشيشكلي ، بمهاجمة ثلاث مستعمرات مجـاورة دفعة واحدة من قاعدة انطلاقه في شفا عمرو . مما ألحق به وبفوجه خسائر فادحة . ومما اضطر الشيشكلي الى نجدته بالقوات والذخيرة الاحتياطية التي كانت لديه (ومعركة صفد في اوجها) وقد كان الحديث الدائر انذاك والمتردد على الالسنة ان الرئيس الاول (الرائد) وهاب انما قام بهجومه ذلك بدون علم الشيشكلي ، او بدون موافقته، مما أحدث ارتباكا ظاهرا في قيادة منطقة الجليل ، وانعكست اثاره فورا على معركة صفد فتوقفت التعزيزات والامدادات بالذخيرة .

٢ — سقوط عكا : وقد تلا سقوط حيفـا بقليل .

٣ — سقوط طبريا : وقد كان قبيل سقوط صفد ببضعة أيام .

٤ — سقوط عين زيتون العربية واتصال جبـل كنعان بالحي اليهودي .

كان لسقوط هذه المدن بالتوالي آثار سلبيـة ظاهرة على المعنويات العربية ، واثار اخـرى ايجابية على الحشد الاسرائيلي والتموين اللذيـن انصبا بكثافة في الايام الاخيرة على صفد ومنطقتها بعد التفرغ لها . وقد أفادت المراصـد ووسـائط الاستطلاع ان قوافل العدو بقيت مستمرة طوال الايام التي سبقت سقوط المدينة تتدفق عليها .

ميزان القوى :

ان حساب ميزان القوى يشير سلفا الى سقوط المدينة قبل بدء الهجوم عليها ، وقبل استعـراض القوات عددا وتسليحا ، يمكنني الجزم بأن سقوط المدينة لم يكن مفاجئا كما جاء في مقال الاخ جادو، وانما كان متوقعا . ولعل الاخ جادو قد عالج الموضوع بالتصورات السابقة في أيام المعركة . وقد اشاركه في هذه المعالجة تحت تأثير تلـك التصورات لولا الحقيقة والواقع ومشاهدة العيان.

واذا استعرضنا القوات المتحاربة ، وبدأنـا بالعدو ، لوجدنا التفوق الظاهر الملموس في كافة أنواع الاسلحة وخاصة الاسناد والالية في مصلحة العدو . فغزارة الدعم الناري ، وغزارة الاسلحة الالية كانت اقوى بكثير من غزارة نيراننا الفردية والالية[2] ومن المعروف ان الهجوم هو النار التي تتقدم وان الدفاع هو النار التي تؤخر او توقف، ظهر لنا الواقع جليا بدون الحاجة الى المقارنة .

أما المواقف البطولية التي وقفها المدافعون في المدينة فهي أجل من أن توصف . ولقد لعبت دورا كبيرا في تعديل ميزان القوى المادي ولكنها لـم تستطع قلب هذا الميزان لصالح القوات العربية .

وثمة ناحية اخرى عن نفي سقوط المدينة بصورة مفاجئة وهي ان العدو لم يقم بالهجوم الاخـير

---

١ — استدعي السراج بعد ثلاثة أيام الى مركـز القيادة ، وضمت فصيلته هي وزمـرة الهاون الي . فأصبح تحت قيادتي فصيلتان وزمرة هاون ٨١ مم وعدد من عناصر التموين ، ولا يتجاوز العدد الكلي خمسا وثمانين .

٢ — كان تسليح السرية رشاش خفيف واحد لكل فصيل . فكان في السرية من ٣ — ٤ رشاشات خفيفة حسب تشكيلها والباقي بنادق فردية . أما اسلحة الاسناد التي بحوزتنا فهي مدفـع هاون واحد عيار ٨١ مم ، وبقي زميله في القيادة خارج صفد .

الوحيد على المدينة حتى سقطت بصورة مفاجئة ، وانما قام أيضا بهجوم كبير جدا في ليلة السادس من أيار ، وفشل فيه فشلا ذريعا . وكل من شهد المعركة وحضرها من الاهلين والعسكريين يذكر ذلك.

انه لمن المؤسف حقا ان يكون التفوق لصالح العدو عددا وسلاحا . ولو كنا نخضع في ذلك للتصور ابان المعركة . ولكن معركة فلسطين (دون النظر الى خلفياتها) لم تمهلنا نحن السوريين خاصة وانها جاءت فورا في اعقاب الاستقلال ، فلم تسمح الظروف المتعددة والمتشابكة والطارئة بان نتسلح لهذه المعركة ، او ان نعد لها الاعداد والتسليح الكافيين . ولم يكن في تصور القادة والمسؤولين انذاك الصورة الحقيقية عن المعركة ومتطلباتها . ولقد استهلك جيش الانقاذ اكثر من نصف ذخيرة الجيش السوري وقسما لا بأس به من سلاحه قبل أن يدخل الجيش السوري القتال، فلما دخله أصبح محتاجا الى الذخيرة يبتاعها من المهربين ومن الاهلين وبأثمان باهظة جدا .

ولقد كان توزيع القوات العربية داخل صفد كما يلي :

١ — **القلعة القديمة** : وهي واقفة في منتصف البلدة وتفصل في الجزء الشمالي الشرقي الحي اليهودي عن الحي العربي ، وكانت مقسومة الى جزئين ، جزء مع اليهود من الشمال وجزء مع العرب من الجنوب وكان يدافع عنها حضيرتان سوريتان بامرة الرقيب سعد سراج ، يضاف اليهما المتطوعون الصفديون وعددهم غير ثابت .

٢ — **عمارة الحاج فؤاد** : وهي عبارة عن مخفر أمامي متقدم باتجاه العدو وتحتلها حضيرة سورية بامرة رقيب ، وكان ينضم اليهما ليلا المتطوعون الصفديون وعددهم غير ثابت .

٣ — **الجهة الشرقية** : المستشفى — المدرسة — الوادي : ويحتلها فصيل سوري مع حضيرة سورية اضافية ، وكانت المدرسة مركز قيادة السرية[٣].

٤ — **مركز البوليس** : وكان يحتله المتطوعين الاردنيون من السرية الاردنية بامرة الملازم حافظ (فصيلة اردنية مع عدد من المتطوعين الصفديين، ولا يتجاوز عدد الجميع المائة) .

٥ — **مقر رئاسة البلدية** : (او مقر القيادة) ويقوم بالدفاع عنه فصيلة اردنية مع عناصر التموين . (وكانت تبيت ليلتها ثم تعود لجلب التموين) .

٦ — **فندق الحاج داوود** : كان يدافع عنه فصيل اردني على ما اذكر بالاضافة الى المسلحين الصفديين .

٧ — **زمرة الهاون ٨١ م** : اي المدفع الوحيد. وكان متمركزا في عدة مواقع تبادلية تقع ما بين المقر والجبانه، وأفراد الزمرة سوريون بامرة الرقيب محمد قاسم الطوقتلي .

كان عدد القوات لا يتجاوز : ١٠٠ اردني ، ٨٥ سوريا (فقد منهم ٣٧ قتيلا — ١٦ جريحا) ، ٣٠٠ فلسطيني (أي ما مجموعه حوالي ٥٠٠ مسلح).

من هنا يتضح ان هذا العدد لم يكن كافيا للدفاع عن المدينة ، خاصة وان القتال في المدن انما يتطلب أعدادا كبيرة من المقاتلين لامور كثيرة لا مجال لتعدادها الان وليس كالقتال في الاراضي العادية.

الهجوم الاول :

في الساعة الواحدة من يوم ٦ ايار سنة ١٩٤٨ قام العدو بهجوم ليلي قوي على جميع المراكز في المدينة مستخدما لهذه الغاية نيرانا كثيفة جدا من مدافع الهاون ٣،٥ بوصة وراجمات الالغام (التي شهدنا استخدامها ضدنا لاول مرة) وأسلحة آلية كثيرة وغزيرة . وكانت النيران تنصب بغزارة على مركز البوليس والقلعة ومقر القيادة . وبعد مدة وجيزة اتضح من الاشتباك واصوات النيران المتبادلةان الهجوم انما كان يستهدف مركز البوليس بالدرجة الاولى ، والقلعة ، وعمارة الحاج فؤاد، لان المركزين الاخيرين كانا حجر عثرة امام أي تقدم الى داخل المدينة .

فدافعت الحاميات جميعها دفاعا مجيدا . وبخاصة حامية القلعة وعمارة الحاج فؤاد . فأبدتا ضراوة وشراسة منقطعتي النظير ، حتى انني رايت بأم عيني كفي رامي الرشاش الخفيف محترقتين لكثرة اطلاق النار والتهاب حديد

---

٣ — بعد أن وضعت مفرزة السراج تحت قيادتي لم يجر اي تعديل على الوضع الدفاعي من قبل قيادة الحامية ، فبقيت أنا مع الفصيل معزولا عن الجبهة الشرقية ، وبقيت العناصر الاخرى في الجهة الغربية معزولة عني وليس بيني وبينها أي ارتباط الا بالهاتف وزيارات التفتيش .

الرشاش[٤] وبالرغم من اصابة آمر القلعة الرقيب سعد سراج اصابة قاتلة ، وتعدد موجات الهجوم، فان الحامية ثبتت في اماكنها ولم يستطـع العدو ان يزحزحها عن مواقعها . وقد وصلت طلائعـه الى الخنادق وسقط قتلاه امامها ، ولم يستطع ان يجرها كما هي عادته في اخلاء جرحاه وقتلاه .

بعد ان تبين محور الجهد الرئيسي لهجوم العدو أمرت مدفع الهاون (٨١ مم) الوحيد المتوفـر باجراء الرمايات المعلمة حسب اتجاهها المحضر سابقا . وخصصت بها القلعة ومواجهة عمـارة الحاج فؤاد . واما القلعة فلم نستطع ان نرصد شيئا من القنابل لوقوعها وراء الاشجار الموجودة في القلعة . ومن عمارة الحاج فؤاد أفادنا الرصد بأن القنابل قد انفجرت بين التجمعات العدوة وعلى مسافات قريبة من العمارة فاحدثت في صفوفهـا خسائر جسيمة ، وقد كان قصف العدو علـى مقر القيادة يستهدف شل القيادة وتدمير المدفع . ولكن المرابض التبادلية حالت دون تدمـيره اذ نقلته الزمرة من منطقة الخطر الى موضع تبادلي اخـر .

استمر الهجوم حتى الفجر اي حوالي ثـلاث ساعات ، وباءت جميع محاولات العدو بالفشل ، والحقت به خسائر كثيرة . اما خسائرنا فكانت أقل بكثير من خسائر العدو ولم أعـد اتذكرها على الضبط .

الهجوم الثاني :

كانت تحشدات العدو مستمرة وقوافل تموينه متوالية . اما نحن فلم يقع اي تبديل على مراكز قواتنا او على عددها الا في اليـوم الاخير حيث قدمت الى صفد السرية المشؤومة كما سيأتي . وقد اجرينا عدة تبديلات لملء النقص الحاصل في القتلى والجرحى ، ولكن على حساب بقية المواقع. وطرأت على الموقف في صفد فترة هدوء لم نتمتع بمثلها طوال اقامتنا في المدينة ، ولكنها كانت باعثة على القلق وشدة التيقظ واستمرار السهر.وقد كنا ألفنا اطلاق النار فتعودنا على النوم لفترات قليلة. ولكن الهدوء كان ينفي عنا النوم انتظارا لما يخبئه القدر .

وتغيب قائد الحامية بعد الهجوم الاول فورا ، اي في صبيحة اليوم الثاني، واصطحب معه الملازم الاول اميل جميعان بحجة طلب المدد والنجدات ، ومناقشة القيادة في الوضع العسكري العام . فاستلمت انا قيادة صفد لمدة اربع وعشرين ساعة تقريبا . فانتهزت فرصة الهدوء ، واجريت تفتيشا سريعا على احتياطي الذخيرة فهالني ما رأيت . وتواردت علي طلبات التموين . فاتخذت قراري بتوزيع الذخيرة الاحتياطيـة فورا ، ونقلت بذلك الاحتياطي العام الى الاحتياطي الخاص للوحدات الامامية ، كي يكون في متناول أيديها اثناء المعركة المرتقبة ، نظرا لصعوبات التموين اثناء القتال . وابرقت الى القيادة طالبـا امدادي بالذخيرة . وكانت صعوبة التمويـن لا تقف عند حد القلـة فحسب ، وانما في تنوع الاسلحة وعدم استطاعتنا توحيدها في كل مركز لتعدد العناصر المشتركة . وبعد ساعات معدودات حضرت الذخيرة على ظهور البغال الموجودة في مركز القيادة وكنا قد فقدنا بعضها وبعض عناصر التمويـن اثناء القصف في الهجوم الاول .

حضر المقدم شيشكلي في صبيحة الهجوم الثاني، فأجرى مقابلات سريعة مع الضباط ، واطلع على الوضع العام ، وقفل راجعا الى مركز القيادة . وهنا لا بد لي ان اذكر القارىء بالرجوع الى المقال الذي شرح فيه الاخ جادو اهتمام القيادتين العامة وقيادة الجليل بتطورات المعركة .

وفي اليوم التالي حضر الملازم الاول اميل جميعان بمفرده الى صفد فاستلم القيـادة وبقي ساري الفنيش متغيبا . وقام الملازم الاول جميعان يوزع البشائر ، ويعدنا بالنجدات السريعة القادمة . ووردت النجدات بالفعل . ولكن في نفس اليوم الذي بدأ فيه الهجوم الليلي الكبير . وكان قوام هذه النجدات سرية بامرة الملازم الاول عز الدين التل وهو ضابط اردني ، وافرادها متطوعون لبنانيون من طرابلس (وليست اردنية كما جاء في مقال الاخ جادو) وكان يلوح على افرادها انهـم اغرار ومتسلحون ببنادق كندية جديدة ، ثم اتضح انهم ما زالوا جميعا تحت وطأة زرقة التيفوئيد التي تعطى عادة للجنود في مستهل خدمتهم ، ولما يمض على زرقهم فيها ثمان واربعون ساعة ثم كثر اللغط حول هذه السرية حتى قيل فيما بعد ان بعض افرادها ما زالت اسلحتهم بشحمها ، لم تنظف ولم

---

٤ ــ وهو السيد سعيد الصباغ ، وقد أصبح ضابطا في الجيش السوري فيما بعد .

تعد للاطلاق فانفجر بعضها في يد اصحابها اثناء المعركة .

اتخذ قائد الحامية قرارا فوريا باجراء التبديل للاماكن التالية : عمارة الحاج فؤاد والقلعة وفندق الحاج داوود . وما ان حل الظلام حتى كانت جميع العناصر مبدلة ، واستلمت السرية الجديدة تلك المراكز ، واتخذ آمرها فندق الحاج داوود مقرا له ، وانسحبت العناصر الاولى ملتحقة بقياداتها .

لقد كان التبديل ضروريا في اعقاب هذه المدة الطويلة . وكانت حجة القائد ان العناصر القديمة (وهذا واقع واكيد) قد بلغ بها الاعياء مبلغه . وأضر بها الجهد والتعب ولا بد من تبديلها بعناصر جديدة ومرتاحة ودفعها الى الخلف لتشكل احتياطا تكتيكيا للقوات الجديدة .

تنفيذا لهذا الامر ابقيت عناصري في مراكزها الخلفية كاحتياط . اذ كانت هناك بعض الابنية الخلفية مستعملة من قبلها كأماكن للنوم والراحة اثناء النهار وفترات الهدوء . وبعد انتهاء الاستلام والتسليم عدت الى مركز قيادتي في السرية وكلي يقين بأننا مقدمون علـى معركة ثانية اشد من الاولى وأعنف .

في تمام الساعة ١٥ر٢٢ من ليلة ٩ــ١٠/٥/٤٨ فتحت النيران بكثافة اشد من سابقتها في الهجوم الاول، فشملت جميع أنحاء المدينة، ثم ما لبثت ان تركزت على مركز البوليس، والقلعة، وعمارة الحاج فؤاد ، ومقر القيادة . وكانت نيران الاسلحة الالية تشكل دويا مستمرا ، اما رمايات الهاون وراجمات الالغام فكانت غزيرة جـدا ، واستهدفت القلعة بصورة خاصة .

ولم تستطع سرية الاغرار الصمود امام كثافة النيران الهائلة ، اذ انها لم تتعود من قبل على هذا الجو القتالي العنيف ولم يكن لها سابق خبرة عسكرية ولا تعود على جـو المعارك مهما كـان بسيطا ، فأسقط في أيديها . وانسحبت على الفور وتبعثرت بشكل غير منظم . واستطاع العدو ان يحتل القلعة بسرعة نظرا لقرب المسافة الفاصلة ، وراح يمطر عناصرها الخلفية بوابل رشاشاته الالية، وقد حاولت عناصرنا عبثا استرداد القلعة مستعينة بخنادق المواصلات ، ولكنهـا لم تستطع ذلك ، وسقط منها عدد لم أعـد أذكره ما بين قتيـل وجريح . اما السرية الجديدة فلم يعد احد يرى لها أثرا ، وكأنها عرفت الطريق فعادت من حيث أتت .

كانت الاحوال الجوية غير مساعدة للرؤية . وكان الجو ماطرا . والجو في هذه الحالة يساعد المهاجم اكثر من المدافع . واستطاع العدو التسلل والتقرب الى مسافات قريبة حتى وصل ، تحت حماية النيران ، الى مسافة الانقضاض ، فانقض على الخنادق دون ان يقاومه احد .

وفشلت الهجمات المعاكســة والبسيطة (على مستوى حضيرة او اقل) التي قام بهـا افراد السرية القديمة لاستعادة الخنادق وتمكن العدو بالتالي من الاحتفاظ بالقلعة واجـراء الرمايات المباشرة على الاهداف الواقعة وراءها .

ثم سقطت عمارة الحاج فؤاد وفندق الحـاج داوود ، فاضطرب عندها الموقف، واختلط المقاتلون بالاهالي . والنساء والاطفال بالرجال وانتقل تركيز الهجوم المعادي الى مركز البوليس . وما لبث قائد الحامية ان انضم الي في الجهة الشرقية واعلمني بأنه أمر الملازم حافظ بالانسحاب واخلاء المركز . فسقط المركز بيد العدو ، وقد كان من اقوى المراكز بناء وأشدها تحملا لوطأة أي هجوم مهمـا كان شديدا ، حتى ولو وصل العدو الى جدرانه فنسفها بالديناميت (اذ لم تكن هناك اسلحة ضد الدروع وضد التحصينات) .

وفي حوالي الساعة الثانية والنصف من صباح العاشر من ايار التقيت بقائد الحامية عند مربض الهاون ٨١ مم (وقد نفدت ذخيرته) فتقرب مني قائد الحامية وبيده ورقة قال انها برقية من القيادة تأمره بالانسحاب جوابا على برقيته التي يؤكد فيها للقيادة انه لم يبق في صفد الا انا والملازم هشام.

كان منظر المدينة في الحقيقة مؤثرا للغاية ، فلقد سقطت المراكز الدفاعية في صفد الواحد تلو الاخر ، ولم تعد اية مقاومة مجدية امام الاشراف الطارىء من هذه المراكز المحتلة على جميع الطرق والمنافذ المؤدية الينا ، اما حقيقة الانسحاب من المدينة فقد بدأ قبل صدور الاوامر به كما تدل عليه البرقية الجوابية السابقة .

وكنت الضابط الوحيـد الذي انسحب ومعه جنوده(٥) بعد أن أمرتهم بالانسحاب حضيرة اثر

٥ ــ وكان ذلك حوالي الساعة ٣٠ر٤ صباحـا حيث لم يبق جنود ولا اهلون وبخاصة المسلحين.

الاخرى . وبقيت مع مفرزة الهاون حتى كنت آخر من انسحب من صفد بعد اتلاف او طمر كل شيء لم نستطع حمله او نخشى عليه الوقوع بيد الاعداء.وكنت قد كلفت رفاق الرقيب سعد سراج الذي اصيب في الهجوم الاول برأسه ان يحملوه معهم اثناء الانسحاب ، فمنعهم الطبيب من حمله لان حالته خطرة وميئوس منه ، وقد بقي في المستشفى حتى شفي ثم اطلق سراحه .

الانتقادات والدروس :

١ ــ **الوضع الداخلي في المدينة** : فقد استعرضناه فيما سبق واستعرض بعضه الاخ جادو ، ولا ارى داعيا هنا للتكرار .

٢ ــ **القوات المدافعة** : كانت قليلة ولا تكفي للدفاع المجدي عن ناحية منها ، فضلا عن المدينة بأكملها . واذا قدرنا عددها بـ ٥٠٠ مقاتل فان الذين كانوا يتغيبون عن المراكز ، والذين كانوا لا يقاتلون بكفاءة ، انما كانوا ينقصون ذلك العدد الى اقل من ٤٠٠ رجل .

اما السرية الجديدة فقد كانت نكبتنا فيها اعظم بكثير من فرحتنا بمجيئها . على انني لا أعد مجرد التبديل الذي جرى قبيل الهجوم خطأ ، ما لم يكن مقصودا ، وهذا ما استبعده ايضا ، لانه لو كانت الامور جارية على مثل هذا الصعيد ، لما استطاعت صفد ان تقاوم طوال تلك المدة . ولكن لو استطاعت السرية الجديدة ان تتمالك نفسها بعض الوقت ، لانضم اليها الاحتياط التكتيكي ، ولاستطاعت النجدات (القليلة طبعا) ان تصل اليها وتعزز مراكزها فتؤخر النتيجة او تقلل ما امكن من فداحة الكارثة .

اما الجهة الشرقية من المدينة فقد كانت خالية الا من فصيل واحد ، كان توزيعه اقرب ما يكون الى نقاط الحراسة منه الى مواقع الدفاع . فهو ينتشر على خط يمتد من المستشفى جنوبا حتى الوادي الذي يفصل بين المدرسة ومركز البوليس . ولو حدث اي هجوم او تسلل من هذه الناحية لما استطاع الفصيل الدفاع ، ولسقط معظمه بين قتيل وجريح .

انني استغربت في السابق عندما كنت استعرض الموقف في صفد وما زلت استغرب حتى الان كيف ان العدو لم يهاجم المدينة من جهة الشرق . بل راح يناطح بشدة وبعدة محاولات مراكزها الحصينة من الغرب . ولعل عقيدته العسكرية تؤيد له المحاولات المتكررة في الهجوم حتى تتحطم معنويات المدافعين .

٣ ــ **التموين** : وقد أتينا على ذكره فلا موجب للتكرار .

٤ ــ **التفوق** : كان مختلا جدا وبخاصة بالوسائل النارية . فقد كان سلاحنا الآلي قليلا جدا . وكان السلاح متنوعا بصورة تزيد صعوبة تموينه . اما اسلحة الاسناد فهي معدومة (مدفع هاون ٨١ مم واحد) .

٥ ــ **الذخيرة** : كانت توزع على المقاتلين فور وصولها من مركز القيادة فليس لها احتياطي عام.

٦ ــ **الانضباط** : حسب الوحدات ولكن انضباط النار كان معدوما .

٧ ــ **الوضع الخارجي** : كان وضع القوات العربية خارج المدينة جيدا من ناحية الانتشار للقتال ، اذ كانت تحيط بالمدينة من الجهة الغربية ، الا ان الجهة الشرقية والطريق المستخدمة للتموين بقيتا مهملتين ومفتوحتين امام القوات المعادية للتعزيز والتموين . ولو تيسرت قوات اخرى لقطع الطريق لاكمل الحصار على صفد .

. . .

يتضح من ذلك ان معركة صفد الحقيقية كان يجب ان تقع خارج صفد لا داخلها . وهنا يكمن سر تحكم القادة في استدراج العدو الى المعركة المؤاتية . فقد كان من الضروري فصل صفد عن الجاعونة في الشرق لقطع الطريق على التموين والنجدات ، واحتلال عين زيتم في الغرب للوصول الى الضغط المباشر على الحي اليهودي .

ولقد جابهت بهذين الانتقادين المقدم شيشكلي فيما بعد . ولكن الحقيقة كانت تتعلق بالقوات المتيسرة لديه . ومع ذلك فاذا شفعت له قلة القوات بالنسبة الى الشرق فلا تشفع له بالنسبة الى الغرب ، ومع ذلك فقد ذهب في استراتيجيته الى ابعد من ذلك ، فهاجم مستعمرة الهراوي ، وهي واقعة الى الشرق من المالكية في اقصى الشمال ، بغية تخفيف ضغط العدو على صفد . ولكنه لم يفلح في احتلالها . وبقي حجم القوات المتيسرة يتحكم بقرارات القائد . وكانت رغبته في الابقاء على

القوات سليمة للمعركة الحاسمة تستأثر في الترجيح لديه . ومع ذلك فلم يحرك منها شيئا ابان الهجوم، ولو بالنار على الاقل .

أما الهجوم على الحي اليهودي مساء كما اورده الاخ جادو فأحسب انه كان لتخفيف الضغط اكثر منه للاحتلال والقضاء على المقاومة ، نظرا لقلة القوات المعينة له . فهو اشبه ما يكون بالهجوم التظاهري ، الا اذا كان المقصود به استدراج القوات العدوة الـى خارج المدينة . وفي هـذه الحالة ، كان من الافضل مهاجمة المستعمرة (عين زيتيم) واحتلالها مهما كلف ذلك من ثمن ، وخاصة اثناء هجوم العدو على المدينة ، الامر الذي كان من الممكن ان يقلب خططه رأسا على عقب .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الانتقادات هي بعض من كل . فلم نتطرق مثلا الى مستوى التدريب والانضباط ، ولا الى اسناد المهمات الدفاعيـة الصعبة الى جيش كجيش الانقاذ ، لم يكن تشكيله او تسليحه او الهـدف الذي انشىء من اجله مؤاتية لما قام به واسند اليـه . ولعل خسارة الجليل فيما بعد ناجمة عن تكرار لنفس الخطيئة التي ارتكبت من قبل في هذا المجال .

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

مقالات في الدعاية الصهيونية وحـرب اكتوبر

والكتاب عبارة عن ثلاث مقالات : الاولى عن الدعاية الاسرائيلية والحرب العربية الاسرائيلية الرابعة (اذاعة اسرائيل كحالة للدراسة) بقلم محمد علي العويني . والثانية عن آثار حرب اكتوبر على الرأي العام في اسرائيل بقلم السيد عليوه حسن . والثالثة والاخيرة اضواء على الاعلام الصهيوني في شهري نوفمبر وديسمبر بقلم سمير كنعاني .

٦٢ صفحة من القطع الكبير بثلاث ليرات لبنانية . تضاف اليها اجور البريد الجوي : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في اوروبا ، ٢٫٥٠ ق.ل. في سائر الدول .

اطلبه من : مركز الابحاث ، قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ — بيروت

مراجعات

عباس مراد ، **الدور السياسي للجيش الاردني ١٩٢١ — ١٩٧٣**
(مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣)

واجهت الحركة الوطنية في الاردن — منذ البداية — معضلة أساسية لم تواجهها اي من الحركات الوطنية في الاقطار العربية الاخرى ، وهي المؤسسة العسكرية الاردنية . ولقد حكمت هذه المعضلة الحركة الوطنية في الاردن ، ولا تزال تحكمها وتؤثر في قدرتها على انجاز مهامها الوطنية والديموقراطية . والغرابة لا تكمن في وجود هذه المعضلة ، بل في عدم تلمس الحركة الوطنية لها مبكرا . والدليل على ذلك ان أيا من القوى الوطنية الاردنية لم تناقش هذه المعضلة ولم تطرح حلولا لمجابهتها منذ البداية . فأدبيات القوى الوطنية في الاردن خلال الربع قرن الاخير — باستثناء السنوات الثلاث الاخيرة — تخلو من أي دراسة او تحليل للمؤسسة العسكرية الاردنية وكيفية التعامل معها في ضوء وضعها الخاص وفي ضوء ما مثلته في تاريخ الاردن السياسي ، كما ان برامج هذه القوى — بلا استثناء — خلال الفترة نفسها تفتقر الى أي تحديد لوضع هذه المؤسسة وطبيعتها وظروف نشأتها ، وبالتالي ما هو مصيرها في حال قيام حكم وطني ديموقراطي . ان عدم تلمس الحركة الوطنية لهذه المعضلة بشكل مبكر ، اوقعها في خطأ كبير لا تزال تعاني منه ، وتدفع ثمنه فشلا وراء فشل. ان احدى الاخطاء الاساسية للحركة الوطنية في الاردن انها نظرت الى الجيش الاردني من المنظار نفسه الذي نظرت منه الحركات الوطنية العربية الى جيوش بلدانها ، غير آخذة بالاعتبار ظروف نشأة الجيش الاردني وتركيبته الطبقية والمهام التي أنشىء من اجلها ، والتي تختلف عن ظروف نشأة الجيوش العربية وتركيبتها الطبقية . فجيوش البلدان العربية وخاصة تلك التي استقلت عقب الحرب العالمية الثانية نمت وتوسعت في ظل مظاهر الاستقلال الوطني ، بغض النظر عن طبيعة هذا الاستقلال ، اضافة الى ان عملية التوسع التي مرت بها اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، فسحت المجال لاطارات لا بأس بها من البورجوازية الصغيرة ومثقفي المدن ان تشكل جزءا لا يستهان به من الكادرات الاساسية لهذه الجيوش. في الوقت الذي كانت مقصورة فيه هذه الكادرات على ابناء « الذوات » وابناء الاقليات خلال الثلاثينات وما قبلها . لقد نقلت هذه الاطارات معها الى داخل هذه الجيوش اهتماماتها ومواقفها السياسية من المشاكل التي تعاني منها مجتمعاتها ، مما اوجد ارضية اجتماعية لبروز حالة وطنية داخلها عبرت عن نفسها بمواكبة الحركة الوطنية في الاطار المدني اما بالانضمام كأفراد الى الاحزاب الوطنية ، او بقيام تكتلات وتنظيمات عسكرية مستقلة قادت عملية التغيير في مجتمعاتها بالانقلابات العسكرية التي قامت في الخمسينات من هذا القرن في اكثر من بلد عربي . ولسنا هنا بصدد مناقشة صحة او خطأ الانقلابات العسكرية ومدى تأثيرها في الحركة الوطنية ، بل نحن بصدد مناقشة موضوعة محددة وهي الحالة الوطنية العامة التي مثلتها هذه الجيوش ومحدودية او هامشية هذه الحالة في الجيش الاردني وكون هذه الحالة بفعل عوامل خارجية اكثر منها داخلية اي من داخل المجتمع الاردني . ان ذلك يعود بشكل اساسي الى التركيب الاجتماعي للجيش الاردني الذي يختلف عن التركيبة الاجتماعية للجيوش العربية ، فهذه الجيوش قبلت في صفوفها القوى الاجتماعية المختلفة من بورجوازيين صغار وفلاحين ومهنيين بكل آرائها ومفاهيمها السياسية المختلفة ، والتي هي انعكاس لما يجري داخل مجتمعاتها ، مما جعلها اكثر تجاوبا مع ما يجري في مجتمعاتها ، واكثر قدرة على تلمس

وضع هذا الجيش والدور الذي سيلعبه منذ
ضد الاتراك ومن الذين شكلوا النواة العسكرية

الجيوش ، عبرت عن نفسها في عدم قدرة السلطة السياسية في احكام قبضتها وسيطرتها على الجيوش العربية. ان الجيش الاردني لم يمثل هذه الحالة سواء في بنيته الاجتماعية او على المستوى السياسي ، ذلك انه نشأ ضمن ظروف خاصة ولمهمات محددة هي مهمات قمعية وفي قلب مجتمع العنصر الغالب فيه هم البدو . مما حدد بالتالي وضع هذا الجيش والدور الذي سيلعبه منذ البداية وحدد بالتالي امكانية فرز حالة وطنية من حجم معقول قادرة ان تمثل المظاهر الوطنية نفسها التي مثلتها الجيوش العربية في بلدان عربية اخرى كمصر وسوريا والعراق . ففي بداية تأسيس امارة شرق الاردن في أوائل العشرينات من هذا القرن كانت المهمة المباشرة أمامها هي القضاء على تمردات العشائر واخضاعها للسلطة المركزية وتأمين حالة من الاستقرار النسبي في منطقة شرق الاردن، وبالتالي فقد كانت القوة العسكرية التي شكلت آنذاك والتي عرفت بالقوة السيارة متناسبة من حيث بنيتها الطبقية وحجمها مع هذا الدور . فقد كانت عبارة عن ثلاث سرايا فرسان ، وسريتي مشاة ، وبطارية مدفعية ، وسرية رشاشات ، وفئة اشارة ، واضيفت اليها قوة الدرك التي اوجدتها الحكومة الفيصلية قبل تأسيس الامارة وكانت هذه القوة بقيادة ضباط استقلاليين ، وهم من الضباط الذين اشتركوا في ثورة الشريف الحسين بن علي ضد الاتراك ومن الذين شكلوا النواة العسكرية الاولى للحكومة الفيصلية في سورية . اما معظم افراد هذه القوة فكانوا من الحضر (ص ١٨ — ١٩) . الا انه في الفترات اللاحقة وبشكل خاص ابتداء من الثلاثينات ، اصبح على هذه القوة العسكرية ان تلعب دورا أكبر من هذا الدور المحدد والجزئي وان تواجه مهمات من نوع آخر ولا سيما بعد ان تم تأمين حالة من الاستقرار النسبي باكتساب ولاء معظم شيوخ العشائر . لقد اصبح من مهامها ان تواجه الحركة الوطنية التي اخذت بالنمو داخل الاردن ، وان تواجه ايضا الحركة الوطنية في الاقطار المحيطة بالاردن في فلسطين والعراق بالتحديد وان تساعد في تعقب الثوار السوريين الذين قد يلجأون الى الاردن . ان مواجهة هذا النوع من المهمات هو الذي شكل ولا

الحضرية ، لم تعد تتناسب لمواجهة الحركة الوطنية
لان ارضه ووطنه حيث العشب والماء ، يكون

الدور السياسي المضاد الذي تلعبه في الحياة السياسية في الاردن . ومن هذه النقطة بالذات فان توجه الادارة البريطانية في اوائل الثلاثينات الى تشكيل قوة عسكرية محض بدوية لم يكن وليد ضمان ولاء العشائر فقط بل كان وليد المهمات المنوطة بالقوة العسكرية الاردنية . فالقوة السيارة التي كان يسيطر عليها الاستقلاليون وذات البنية الحضرية ، لم تعد تتناسب لمواجهة الحركة الوطنية على الصعيدين الداخلي والخارجي ، وقد أبدت هذه القوة معارضة للقيام بمثل هذه المهام ، وبالتالي فقد صفي الاستقلاليون ، وشكلت قوة عسكرية جديدة ، هي « قوة البادية » التي دعمت «بقوة البادية الميكانيكية لمطاردة الثوار الفلسطينيين ومنعهم من استخدام الاردن كقاعدة لهم (ص ٣١ — ٣٥) . لقد كان لاعتماد البدو كقوة اساسية في الجيش الاردني اثره البعيد في الدور السياسي للجيش الاردني ، ذلك ان المجتمع البدوي بحكم دوره المحدود جدا في الانتاج — لا يقوم الا على تربية الماشية — يعيش على هامش الحياة السياسية ، ويفرز قوى بشرية تشكل احتياطا كبيرا للقوى المضادة للثورة لانها تعيش خارج نطاق عملية الانتاج المباشر وشبه عاطلة عن العمل ، اضافة الى ذلك فان المجتمع البدوي المنغلق على نفسه بقيمه وتقاليده والقليل التفاعل مع المجتمع الحضري بحكم محدودية انتاجه ، وغير الملتصق بالارض ، لان ارضه ووطنه حيث العشب والماء ، يكون مغلقا في وجه الحركة الوطنية ، والحالات التي يمكن تجنيدها وطنيا من هذا المجتمع ، هي الحالات التي تخلصت من اسار هذا المجتمع اقتصاديا ومن اسار علاقاته الاجتماعية . ولقد شكلت المجتمعات البدوية في العصر الحديث ، احتياطا بشريا كانت تستخدمه الطبقات الرجعية في ضرب وقمع القوى الوطنية ، واوضح مثال على ذلك « القوزاق » في روسيا القيصرية .

لقد جاءت احداث ايلول ١٩٧٠ في الاردن لتثبت هذه الموضوعة وتؤكدها ، ذلك انه بالرغم مما مثلته حركة المقاومة من حالة وطنية وحالة جماهيرية مسلحة ، فان النظام الاردني استطاع ان يحافظ على تماسك مؤسسته العسكرية وان يوجهها لضرب حركة المقاومة . صحيح ان هناك اخطاء سياسية

أساسية ارتكبتها حركة المقاومة وتقف وراء هزيمتها في ايلول ١٩٧٠ ، الا انه من الناحية الاخرى ، فان هذه الهزيمة ، جاءت لتوضح الوضع الخاص للمؤسسة العسكرية الاردنية، ولتضع هذه المعضلة على رأس الموضوعات الاساسية التي يجب على القوى الوطنية في الاردن ان تعالجها بجدية وهي تناضل لاقامة حكم وطني ديموقراطي في الاردن . ولقد عكست الفترة التي تلت ايلول ١٩٧٠ اهتماما ملحوظا لدى القوى الوطنية الاردنية بهذه الموضوعة — المعضلة .

ويدخل الكتاب موضوع المناقشة ضمن هذه المحاولات التي عالجت هذه القضية وألقت الاضواء عليها . ان اهمية هذا الكتاب انه أتى في فترة برز فيها دور الجيش الاردني لا في حياة الاردن السياسية فقط ولكن في حياته الاقتصادية ايضا . اضافة الى انه يشكل الى جانب الكتاب الاخر « النظام الاردني والمقاومة الفلسطينية » الصادر عن مركز الابحاث الفلسطينية ، اول محاولة من نوعها تتصدى لهذه الموضوعة ، وبالرغم من انه كان من الافضل معالجة الموضوع بشمولية اوسع وعمق اكبر مما ورد في الكتاب موضوع البحث ولو تطلب ذلك وقتا اطول ، فانه شكل محاولة ستفتح الطريق أمام محاولات اخرى تغطي الجوانب الناقصة وبشكل خاص الدور الاقتصادي غير المنتج الذي يلعبه الجيش الاردني وتأثير كل ذلك على التنمية الاقتصادية في بلد قليل الموارد كالاردن ، وكذلك تأثير هذا الدور على البنية الطبقة للمجتمع الاردني . والكاتب لا يعالج هذا الجانب بما يستحقه من اهتمام وبما له من تأثير ، لقد تطرق فقط للوضع الاقتصادي المتميز للجيش الاردني (ص ١٣٦ — ١٤٠) وبشكل هامشي دون ان يدرس تأثير هذا الوضع الاقتصادي المتميز على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المجتمع الاردني ، ذلك ان تجنيد ما يقرب من ١٠٠ الف جندي في بلد لا يتجاوز تعداده ٢,٥ مليون نسمة أي نسبة ٤ ٪ من السكان وكجيش محترف وبرواتب عالية وامتيازات اقتصادية متعددة يؤثر تأثيرا كبيرا لا على اقتصاده فقط ولكن على اوضاعه السياسية والاجتماعية ايضا ، ففي الاردن لا يبرز هذا التأثير فقط من خلال نسبة الانفاق على الجيش التي تعادل ٧٢ ٪ من النفقات الجارية كما يورد الكاتب ، ولكن يبرز ايضا من خلال ما يعنيه تجنيد هذا العدد الكبير من افراغ الريف الاردني من قواه المنتجة ، ومن خلال جعل الشرق اردنيين يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على مدخولاتهم من الجيش الاردني . ولا توجد احصاءات رسمية حول عدد الشرق اردنيين في الجيش ونسبتهم الى القوى المنتجة من المجتمع الشرق أردني ، الا انه اذا اخرجنا الاناث من القوى المنتجة ، فانه استنادا الى مشاهداتي الشخصية لاكثر من قرية اردنية وتقديري حول نسبة عدد الملتحقين في الجيش منها، فانه يمكن القول ان ما يزيد عن نسبة ٦٠ ٪ من القوى المنتجة في الريف الاردني تعمل داخل الجيش ، وان ٤٠ ٪ الباقية موزعة على الاعمال الزراعية وعلى قطاع الخدمات (وهي قليلة) وعلى العمل الوظيفي الحكومي . ان هذا الوضع لم يؤثر فقط على مدى انتاجية الريف الاردني ومدى مساهمته في الدخل القومي ، بل خلق ايضا حالة غير طبيعية ، وهي وجود قوى منتجة خارج عملية الانتاج ، عاطلة عن العمل ، وتعيش على انتاج الاخرين .. فمجال ارتزاقها الوحيد هو خدمة النظام والدفاع عنه ، لانها مرتبطة اقتصاديا به ، وما حركة التمرد الاخيرة في الجيش والتي شكل موضوع الغلاء والمطالبة برفع الرواتب والمزيد من الامتيازات الاقتصادية ، أحد دوافعها المعلنة ، الا تعبيرا عن هذه الحالة غير الطبيعية ، والتي لا تشهدها الا الجيوش التي تحترف الجندية كوسيلة للارتزاق والتي لا تعكس وضعا وطنيا او ارتباطا بالارض والوطن . اضافة الى ذلك فان هذا الوضع الشاذ اوجد وضعا اجتماعيا خطيرا ولد نتائج سياسية لا يستهان بخطورتها ، فوجود نسبة كبيرة من الشرق — أردنيين خارج عملية الانتاج ودون القيام بأي عمل انتاجي ، افضى بها الى ان تشارك في نهب فائض الانتاج ، والذي تقوم به القوى المنتجة الحقيقية في المجتمع الاردني والتي تشكل الجماهير الفلسطينية الغالبية العظمى منها. فكون الجيش شبه مغلق امامهم ، فان مجال ارتزاقهم الوحيد ، اما العمل في عمليات انتاجية سواء في قطاع الانتاج المباشر زراعة ، صناعة ، ام في قطاع الخدمات ، او في العمل خارج الاردن في الاقطار العربية الاخرى . لقد أرسى هذا الوضع الشاذ الاساس الاقتصادي للتفرقة الاقليمية بين فلسطيني وأردني ، هذه التفرقة التي غذاها النظام الاردني لا بالدعاية والتثقيف السياسي فقط، ولكن بوضع الاساس الاقتصادي لها ، بالاضافة

الى ذلك فان هذا الوضع نتج عنه ما نلاحظه من تفاوت كبير في الولاءات السياسية والوطنية بين الجماهير الشرق — أردنيـة وجماهـير الشعب الفلسطيني .

ينقسم الكتاب موضوع البحث الى مقدمة وخاتمة وسبعة فصول في ١٦٦ صفحة . يعرض الفصل الاول (الجيش والمهمات الاولية لتأسيس الامارة ١٩٢١ — ١٩٣٩) ، البدايات الاولى لتأسيس « الجيش العربي » وبداية اتخاذه وضعا محددا بعد تصفية الاستقلاليـين واعتماد البدو كقـوة أساسية فيه ، وبروز دور جلوب في التحكم به منذ قدومه الى الاردن في أواخر العام ١٩٣٠ ويلاحظ هنا ان توسيع الجيش ارتبط بتنوع المهام المنوطة به ، وهذه القاعدة هي التي ستتحكم بعدد الجيش الاردني في الفترات القادمـة ، فعلى ضوء نمو الحركة الوطنية في فلسطين ولا سيما عقب اندلاع ثورة ١٩٣٦ تم تشكيل « قوة البادية الميكانيكية » من ٣٥٠ رجلا بالاضافة الى سريتي خيالة لمطاردة الثوار الفلسطينيين والذين كانوا يسلمون الـى السلطات البريطانية في فلسطين فور القاء القبض عليهم ، كما جرى مع القائد المجاهد يوسف ابو دره ، والذي نفذت فيه بريطانية حكم الاعدام بعد محاكمة سريعة ، اما الفصل الثاني : الحـرب العالمية الثانية ودور الجيش العربي (١٩٣٩ — ١٩٤٨) فيبرز الدور الذي لعبه « الجيش العربي » في خدمة السياسة البريطانية في المنطقة وفي خدمة مجهودها الحربي في مناطق اخرى . وكان ابرز ما قام به هو مساعدة بريطانية في القضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني ايـار ١٩٤١ في العراق ، بالاضافة الى ذلك فقد بدأ يتعاظم دور الجيش وزيدت وحداته حتى وصلت الى ٨٠٠٠ جندي ، ولذلك فقد اهتمت بريطانيا باحكام قبضتها عليه ، وتغليب العنصر البدوي فيه ، وتطهيره من اية عناصر وطنية . الفصل الثالث : الجيش العربي ومعارك فلسطين ١٩٤٨ — ١٩٥١ . لقد ركـز الكاتب هنا على توضيح الدور الذي لعبه الجيش العربي ، وبالتالي كشف الصور الزائفة التي روج لها النظام الاردني عن معارك وهمية خاضها جيشه ، مستغلا ما جرى في باب الواد وكفار عصيون .. لقد كان دخول الجيش العربي الى فلسطين يوم ١٥ ايار ١٩٤٨ ، بناء على خطـة مرسومة وباتفاق تام مع بريطانية ، ولم يكن دخول الجيش العربي الى فلسطين بهدف الدفاع عـن عروبتها ، بل بهدف الاستناد على دخوله لكي يضم الملك عبدالله الـى امارته الاجزاء البـاقية من فلسطين ، ويتضح ذلك من استعراضنا لما جرى تلك الفترة ● قبل دخول الجيش ، اعلمت الاردن بريطانية ان منطقة عمليات الجيش العربـي لن تتجاوز الجزء المخصص للعرب من فلسطين بموجب قرار التقسيم ١٩٤٧/١١/٢٩ . ● قامت الاردن بسحب وحدات الجيش المتواجدة في فلسطين قبل انتهاء الانتداب البريطاني ، في الوقت الذي كانت فيه المعارك محتدمة بـين المقاتلين الفلسطينيـين والصهيونيين وقد أدى انسحـاب مفرزة الجيش العربي المتواجدة في الطيرة قرب حيفا ، الى تمكين القوات الصهيونية من السيطرة على مدينة حيفا . ● حاولت الحكومة الاردنية اقناع الدول العربية ان يتولى الجيش العربي مهمة القتال لوحده شريطة مساعدة الدول العربية له ماديا وذلك بهدف ضمان تحكمه بمستقبل الاجزاء المتبقية مـن فلسطين . ● القوات التي دخلت الى فلسطين كان يسيطر عليها الضباط الانجليز سيطرة تامة وبشكل خاص وحدات المدفعيـة والمدرعات ، ومـن اصل ٥٠ ضابطا كان فقط ٨ ضباط عرب . ● قامت القوات الاردنية باخلاء العديد من المناطق (اللد ، الرملة ، عين كارم ، المالح) مما سهل وقوع اللد والرملة في أيدي القوات الصهيونية ، بالاضافة الى ذلك فقد قامت هذه القوات في المناطق التي تسيطر عليها من فلسطين بمطاردة المقاتلين الفلسطينيين وتجريدهم من سلاحهم . ● رفضت القيادة الانجليزية لوحدات الجيش ان تقوم بأي هجمات تكتيكية ، وفرضت عليها موقفا دفاعيا ومعارك باب الواد ، وكفار عصيون ، كـانت دفاعية وفرضت علـى الجيش فرضا . ● سلم الاردن منطقة ام الرشراش (ايلات حاليا) للقوات الاسرائيلية، فأثناء محادثات الهدنة في رودوس ١٩٤٩ تقدمت قوات اسرائيلية باتجاه ام الرشراش ، فبدل ان يقـوم الاردن بالتصدي لهذه القوات المتقدمة ، أمر جلوب قائد الجيش السرية الموجودة هناك بالانسحاب وعدم التصدي للقوات الاسرائيلية .

الفصل الرابع : فترة الانتعاش الوطني (١٩٥١ — ١٩٥٨) شهدت هذه الفترة حالة نهوض وطني عام في الاردن ، امتدت آثارها داخـل الجيش نفسه ، وكانت هذه الحالة بفعل عوامل عدة منها :

● النكبة وما أحدثته من ردود فعل في الاوساط الجماهيرية التي اشتدت نقمتها على الحكومات العربية ومنها حكومة الاردن التي اتضح دورها الخياني للقضية الفلسطينية . ● الحاق الضفة الغربية بأمارة شرق الاردن بعد مسرحية ما سمي بمؤتمر أريحا ، وما استتبع هذا الالحاق من وجود قاعدة جماهيرية واسعة ضد الحكم الرجعي في الاردن . ● زيادة عدد الجيش بشكل ملحوظ وخلال فترة قصيرة حيث بلغ عدده في العام ١٩٥٦ نحو ٢٥٠٠٠ جندي . لقد استتبعت هذه الزيادة في عدد الجيش ، ادخال اعداد لا بأس بها من الضباط العرب الى الجيش ، وبالرغم من انه روعي الاعتماد على الضباط البدو وترفيع صف الضباط السابقين في الجيش الى ضباط ، فان الضرورة فرضت الاستعانة بضباط مثقفين ومن خريجي الكلية العسكرية . وقد روعي ان لا يكون هؤلاء الضباط في الوحدات المدرعة ، بل كانوا مركزين بشكل أساسي في وحدات المدفعية والهندسة . ولقد ارتفع عدد الضباط من ٣٠٠ ضابط في العام ١٩٤٨ الى ١٥٠٠ ضابط في العام ١٩٥٦ . ان وجود هذا العدد الكبير من الضباط ومن اصول اجتماعية بورجوازية وبورجوازية صغيرة وفي ظل مناخ وطني عام، خلق لاول مرة حالة وطنية عامة في صفوف الجيش.ولقد تعاظمت هذه الحالة بعد طرد جلوب ومجموعة الضباط الانجليز في العام ١٩٥٦ وهيمنة الضباط الجدد على اوضاع الجيش،ان السؤال الذييفرض نفسه هنا ، ولم يتعرض له الكاتب ، هو لماذا هذا الازدياد السريع في عدد الجيش ؟ لقد كان واضحا من الطريقة التي اتبعتها بريطانيا في زيادة عدد الجيش الاعتماد على البدو ، فصل الوحدات البدوية عن الوحدات الحضرية ، قصر الوحدات المدرعة على البدو .. الخ . ان زيادة عدد الجيش بهذا الشكل لم تكن تستهدف الا قمع الحركة الوطنية ، فلقد شهدت تلك الفترة « منذ النكبة حتى اوائل العام ١٩٥٧ » قيام مجموعات فلسطينية بالتسلل عبر الخطوط الاردنية وضرب اهداف داخل الارض المحتلة ، فكان لا بد من جيش كبير لمراقبة الحدود ومنع هذه العمليات ، وفي هذه الحالة لا يمكن الاعتماد على افراد الحرس الوطني ، الذي شكل لامتصاص النقمة الشعبية امام اشتداد الغارات الاسرائيلية على قرى الحدود ، اضافة الى ذلك فانه بات على النظام الاردني ان يواجه حركة وطنية محلية اقوى واكثر اتساعا وعمقا جماهيريا من اي فترة مضت ، وهذه تحتاج الى أداة قمع بمستواها . ان المخاطر التي نجمت عن زيادة عدد الجيش استطاع النظام الاردني تطويقها باعتماده على وحدات ضاربة من البدو ، وباصراره على عدم دمج هذه الوحدات مع وحدات الجيش الاخرى . وفي اللحظة المناسبة استخدم « النظام » هذه الوحدات لقمع الحركة الوطنية ولانهاء الحكم الوطني تحت ستار الادعاء بوجود انقلاب ضده . بالاضافة الى ذلك فهناك ملاحظات اساسية لا بد منها : لم يوضح الكاتب اسباب فشل الحكومة الوطنية وقدرة الملك على اقالتها بعد فترة قصيرة جدا من الزمن . ولا يجد سببا لذلك الا لكونها اعتمدت اسلوب الشرعية الدستورية . وهذا ليس سببا بل نتيجة لاسباب اعمق ، منها ما يتعلق بالبنية الطبقية لقيادة الحركة الوطنية آنذاك ، ومنها ما يتعلق بتصورها السياسي لوضع الملك حسين هل هو جزء من النظام ومؤسساته ، ام معزول عنها ، وبالتالي هل تحاكمه على هذا الاساس او ذاك ، ومنها عدم قدرتها على تلمس التغيير الذي حصل مع بداية بروز الدور الاميركي في المنطقة ، وبالتالي اتباعها سياسة تراجعية امام ضغط الملك والضغط الاميركي بدل المواجهة وتصعيد الصدام . بالرغم من ان هذه الفترة شهدت بروز أخصب الحالات الوطنية داخل الجيش طوال تاريخه ، فان الكاتب لا يتعمق في دراسة هذه الحالة ، عوامل بروزها ، منشؤها الطبقي ، مدى عمق ارتباطها الوطني ، لماذا كان من السهل اجهاضها والقضاء عليها ؟ ولا يجد سببا يبرر سهولة القضاء عليها الا لان « القيادة الوطنية للجيش [لم تعمل] خلال حالة المد الوطني الظاهر في العام ١٩٥٧ اكثر من محاولة تحييد الجيش وتخليه عن ذلك الدور التقليدي البغيض [قمع الحركة الوطنية] ، ولم تتجاوز دائرة النضالات الوطنية والديموقراطية للاحزاب » ويضيف « في وقت كان في مقدور القيادة الوطنية للجيش الاطاحة بالملك » (ص ٩٦) كيف ؟ وعلى اي اساس ؟ هذا ما لا يوضحه الكاتب . وهنا في الواقع ينفي الكاتب ما يحاول ان يثبته خلال كل عرضه السابق واللاحق ايضا ، من ان الجيش الاردني منذ نشأته وتكونه شكل وضعا خاصا ومتميزا عن باقي الجيوش العربية ، وبالتالي بدل ان يصل بالقارىء الى تأكيد هذا الوضع الخاص وصعوبة قيام ظاهرة انقلابية

على غرار بعض الجيوش العربية ، يصل به الى نفي هذا الوضع الخاص وتأكيد قيام مثل هذه الظاهرة . اضافة الى ذلك فان ايراد هذا السبب الوحيد والعام جدا لسهولة القضاء على الحالة الوطنية داخل الجيش ، يأتي على حساب تجاهل عوامل اخرى اعمق تتعلق بمدى عمق الارتباط بالقضية الوطنية لغالبية هؤلاء الضباط ، والفترة الزمنية القصيرة التي برزت خلالها هذه الحالة الوطنية والتي نتجت عن الخلل الآني والمحدود الذي أصاب المؤسسة العسكرية بعد تعريب الجيش ، وكونها كانت بفعل عوامل خارجية (الوضع العام في المنطقة) اكثر منها داخلية ، اضافة الى عامل اساسي هام وهو الوضع الخاص للمؤسسة العسكرية الاردنية . ● ملاحظة اخرى ، وهي الخلط الذي وقع فيه الكاتب بين موقف الغالبية العظمى من الضباط الوطنيين من انقلاب الملك ، وموقفهم من الانقلاب على الملك (ص ٩٦ و٩٧) . كان بديهيا ان تنكر الحركة الوطنية بجناحيها المدني والعسكري ادعاء الملك انها كانت تدبر انقلابا ضده وللاطاحة بعرشه ، ولا سيما انه استند على هذا الادعاء لضرب الحركة الوطنية واقالة الحكومة الوطنية ، الا ان هذا لا يعني انه لم يكن هناك تفكير بالانقلاب على الملك ، لقد كان هناك تفكير واعداد لمثل هذا الانقلاب لدى معظم الضباط الوطنيين وبشكل خاص البعثيين منهم ، ولا سيما بعد بروز التناقض بين الملك والحكومة الوطنية على ضوء بروز الدور الاميركي في المنطقة . الفصل الخامس : قمع الحركة الوطنية وبروز التأثيرات الاميركية (١٩٥٨ — ١٩٦٧) : لقد شهدت تلك الفترة تراجع الحركة الوطنية وقصور اساليب عملها عن مواجهة اعباء المرحلة بعد الضربات الشديدة التي وجهت اليها ، الا ان هذا لم يمنع قيام انتفاضات جماهيرية في ظروف معينة. فقد قامت هبة جماهيرية عمت مدن الاردن جميعها عقب صدور بيان ١٧ نيسان ١٩٦٣ باعلان الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق . كما قامت انتفاضة جماهيرية عقب الاعتداء الاسرائيلي على قرية السموع ليلة ٦٦/١١/١٣ ، واستمرت الانتفاضة عدة ايام ، ذهب ضحيتها عدد كبير من القتلى والجرحى . لقد كانت هذه الانتفاضات تعبيرا عما تختزنه الجماهير من قدرة وطاقة على التحرك فيما لو توفرت لها قيادات وطنية قادرة على توجيهها الوجهة الصحيحة . غير انه بالرغم من هذه الانتفاضات التي كانت وليدة ظروف معينة فقد كانت الحركة الوطنية في حالة ركود ، أثرت في اضفاء دور خاص على الجيش وجعلت من الانقلاب العسكري السمة البارزة والميزة للحركة الوطنية في هذه الفترة . لقد شهدت الفترة التي أعقبت العام ١٩٥٧ بروز اكثر من محاولة انقلابية ، الا ان هذه المحاولات كانت هشة ومحدودة وكانت بسهولة تكتشف وتجهض . والملاحظ هنا ان الكاتب لم يحاول ان يتعمق في بحث هذه الظواهر الانقلابية، طبيعتها ، عمقها الوطني ، مدى ارتباطاتها بالحركة الوطنية في الاردن ، هل كانت بفعل عوامل داخلية ام بفعل عوامل خارجية . مدى تأثيرها داخل الجيش ، لماذا كانت هذه الحالات تبرز فقط في وحدات المدفعية والهندسة والطيران — الى حد ما — ولم تكن تظهر في الوحدات المدرعة . على ماذا يدلل فشل هذه الظواهر الانقلابية المتعددة ؟! ان الكاتب لا يرى الا سببا اساسيا لفشل هذه الانقلابات وهي انها « جاءت في وقت تعاني منه الحركة الجماهيرية في الاردن حالة من الحصار الشديد » (ص ١٠٤) . وهنا مرة اخرى ينفي الكاتب العوامل الاساسية وينفي تحليله عن الوضع الخاص للجيش الاردني ، ومن الاسباب الاخرى التي يوردها كملاحظات « ان القيادات الوطنية والمعارضة داخل الجيش من الضباط لم تضع في اعتبارها ضرورة اشراك الجندي وضباط الصف وتهيئتهم ذهنيا له » (ص ١٠٤) . ان هذا القصور في الواقع يطبع كل الانقلابات العسكرية لان طابعها تآمري ومجال نشاطها يكون محدودا وضمن اوساط محددة ، ان اشراك الجندي والاطارات الواسعة من رتب الجيش الصغيرة لا يمكن ان يتم الا من خلال وجود حركة وطنية يكون اساس عملها العمل الجماهيري ويدخل نشاطها ضمن الجيش باعتباره احدى تشكيلات المجتمع التي لا بد من تجنيدها في العمل الوطني وليس باعتباره أداة التغيير الاساسية بالقيام بانقلاب عسكري . بالاضافة الى ذلك فانه يرى ان « التنافسات والانقسامات القبلية في صفوف الضباط الوطنيين بين شماليين ووسط وجنوب [كان لها] آثار سيئة على تحرك تلك المجموعات » (ص ١٠٥) ، وهنا يقع الكاتب في تناقض ظاهر ففي الوقت الذي يؤكد فيه ان الضباط الوطنيين كانوا من « ابناء القرى والمدن » وانه لم

يشارك في تلك التيارات المعارضة الا عدد ضئيل من الضباط البدو الذين نالوا قسطا من التعليم وتفاعلوا مع تلك التيارات » (ص ١٠٤) يجد في التنافسات والانقسامات القبلية سببا لفشل هذه الانقلابات . وتقديري ان وقوع الكاتب في خطأ البحث عن الاسباب الفرعية يكمن في عدم تلمسه العامل الحقيقي لفشل هذه الانقلابات ، هذا العامل الذي يبرز من خلال سياق عرضــه وهو الوضع الخاص للجيش الاردني . اضافة الى ذلك فان غلبة العنصر البدوي على الجيش بقيمه وتقاليده لم تكن عامل تفريق وتمزيق له ، بل كانت عامل وحدة استخدمها النظام الاردنـــي في تأمين الولاء المطلق له ، ويؤكد هذه الحقيقة الاستاذ خليل هندي في دراسته ـــ التعبئة الاردنية ضد المقاومة الفلسطينية قبل هجمة سبتمبر ١٩٧٠ ـــ فيقول : « ولا ينبثق ولاء البدو للجيش من ضمير مهني نما لديهم عبر انتمائهم للجيش وخدمتهم الطويلة فيه ، بل ينبثق من تصورهم للجيش قبيلة كبرى تضم كل العشائر في الاردن ... ويتدرج ولاء البدو صعودا من الجيش الى النظـــام فالملك الذي يلعب دور زعيم « قبيلة الجيش » »(١).

لم يعتمد النظام الاردني في مواجهة هذه الحالات الانقلابية بالعمل فقط على كشفها واجهاضها قبل قيامها ، بل اتجه لاعادة بناء الجيش على اسس تحول بالاساس دون قيام مثل هـــذه الحالات ، وتدفع بالحفاظ على ولائه الكامل له ، ولا سيما ان ضرورات توسيـــع الجيش وشموله وحـــدات كالطيران والهندسة تتطلب ادخال قطاع من المثقفين من أبناء القرى والمدن ، ويورد الكاتب هنا ثلاثة اسس ، وهي تبني نظرية الجيش المحترف، التغليف الفكري بعزل الجيش واخضاعـــه لعملية تثقيف خاصة ، جعل الجيش شريحة اقتصادية واجتماعية متميزة عن المجتمع (ص ١١١ و١١٢) . وهناك اساس رابع لم يورده الكاتب وهو جعل الوحدات المدرعة مقتصرة علـــى البدو وبشكل خـــاص بدو الجنوب ، فالالوية المدرعة الاساسية لا يدخلها الا افراد قبائل معينة ، سواء على مستوى الضباط ام الافراد من الرتب المختلفة ، وذلك لضمان ولائها المطلق للنظام .

ان تطوير النظام لاساليبـــه لم يكن فقط على صعيد الجيش ، بل طور اساليبه ايضا في مواجهة الحركة الوطنية ، فبالاضافة الى اعتماد سياسة القهر والقمع ضد الحركة الوطنية كمظهر اساسي ، نجد اخذ يتجه الى الحالات المترددة والمتذبذبة في صفوف الحركة الوطنية ويعمل على شرائها وربطها مصلحيا به . لقد نجح النظام نتيجة هذه السياسة في الاستحواذ على ولاء مجموعات كبيرة من الضباط العسكريين الذين شكلـــوا في السنوات السابقة القيادات الوطنية في الجيش . وان نجاح النظام بهذه السرعة وبهذا الاتساع يدلل على هشاشة ارتباط هذه القيادات بالحركة الوطنية كما يدلل على سطحية قناعاتها الوطنية . وليس أدل على ذلك من اعادة النظام الى الخدمة العسكرية معظـــم الضباط الذين جرى اعتقالهم في نيسان عام ١٩٦٦ بعد فترة اعتقال لم تزد عن شهرين ، وهم مـــن الضباط « الحزبيين » من حركة القوميين العرب ومن حزب البعث . وعدم انتهاج النظام لتنفيذ الاعدام « بالضباط الانقلابيين » لم يكن وليـــد مرونته السياسية في التعامل مع الحركة الوطنية ، بل كان وليد ادراكه لهشاشة ارتباط امثال هؤلاء الضباط بالحركة الوطنية ، بدليل سياسة القبضة القوية التي كان يواجه بهـــا الحركة الوطنيـــة باستمرار . وفي الحالات التي كان يستشعر بها النظام خطرا من اي حركة او قوة وطنية ، فانه لم يكن يتورع عن ارتكاب ابشع الجرائم والمجازر دفاعا عن وجوده كما حصل في ايلول ١٩٧٠ ، وفي الاعدامات التي نفذها بعد ايلول . اضافة الى ذلك فان الوزن السياسي الكبير الذي تمثله العشائر داخل النظام ، جعل الملك يأخذ بعين الاعتبار هذه الحالة لدى خروج بعض افراد العشائر عن الولاء للنظام ، فتنفيذ حكم الاعـــدام بحق افراد مـــن العشائر سيولد بلا شـــك حساسيات عشائرية تحدث خللا في حالة التوازن بين العشائر التـــي يحرص عليها الملك باستمرار ، وحيث ان مثل هذه الحالات التي كان يواجهها النظام كانت محدودة وليست خطرة ، فانـــه كان يتعامل معها بمرونـــة سياسية ، ولكن في الحالات التي يستشعر منها خطرا كان يبطش بها وأوضح دليل على ذلك قتله غيلة لهاجم الهنداوي عقب حوادث ايلول ١٩٧٠ مباشرة . غير ان هذا لا ينفي ان النظام منذ اوائل الستينات وبشكل خاص منذ بروز دور محمد رسول الكيلاني كمدير للمخابرات العامة ، اخذ بسياسة

---

١ ـــ **شؤون فلسطينية** ، العدد ٤ ، سبتمبر ١٩٧١ .

القبضة القوية ، وسياسة شراء ضعاف النفوس .
وقبل أن أختم الحديث عـن هذا الفصل تجـدر الاشارة الى بعض الاخطاء التي وردت في الكتاب ، فاعتقالات الضباط الحزبيين (قوميين عرب وبعثيين) التي يقول الكاتب انها جرت بعد الاعتداء على قرية السموع اواخر ١٩٦٦ (ص ١١٩) ، جرت قبل هذا التاريخ بأشهر ، حيث جرى اعتقال هـذه المجموعات في نيسان ١٩٦٦ مع جملة الاعتقالات التي شملت كل القوى الوطنية آنذاك ، الا ان هذه المجموعات لم تمكث طويلا في السجن ، فقط بين شهرين وثلاثة اشهر ، واعيد معظمها الى مراكز عملها في الجيش بعد الافراج عنها ، كذلك فان مجموع المعتقلين السياسيين الذين خرجوا بموجب قرار العفـو في نيسان ١٩٦٥ لم يتجاوز الـ ٥٠٠ معتقل ، وهذا الرقم اقل بكثير من الرقم الذي أورده الكاتب ٢٠٠٠ معتقل (ص ١١٨) وبالرغم من قرار العفو فقد بقي عدد بسيط من المعتقلين ولم يفرج عنهم الا بعد عدوان ١٩٦٧ .
الفصل السادس : الجيش والمقاومة الفلسطينية (١٩٦٧ — ١٩٧٠) . وفيه يعرض الكاتب بشكل سريع الاخطاء السياسية لحركة المقاومة الفلسطينية في استيعاب طبيعة تواجدها على الساحة الاردنية وما يمكن ان يولده هذا التواجد من تناقض بينها وبين النظام . وبالتالي تصورها عن مد تأثيراتها التي اوجدتها في اوساط الجماهير لتشمل قطاعات واسعة داخل الجيش . وهذه النقطـة بالذات — التأثير على القطاعات الواسعة داخل الجيش — هي التي كان يجدر بالكاتب ان يركز عليها ويتعمق في اسباب عدم قيام المقاومة بهذا الدور ، فالقضية هنا ، ليست فقط في ان منظمات المقاومة طرحت او لم تطرح موضوعة اسقاط النظام الاردني واقامة حكم وطني ديموقراطي ، بل ايضا وبالدرجة نفسها من الاهميـة ، كيف استوعبت الوضع الخـاص للمؤسسة العسكرية الاردنية وما مثلته وما زالت تمثله في الحياة السياسية في الاردن ، ان قصور منظمات المقاومة جميعها عن تلمس طبيعة المؤسسة العسكرية ووضعها الخاص ، اوقعها في الخطـأ نفسه الذي وقعت فيه الحركة الوطنية الاردنية في الخمسينات وأوائل الستينـات ، وهو المراهنة مجددا على قيام انقلاب عسكري . وهذا هو احد الاسباب الذي حكم اساليب عمل المقاومة داخل الجيش ، فمراهنتها علـى الانقلاب العسكري ، جعلها تتجه الى القوى المؤثرة في الجيش لاحداث هذا الانقلاب اي الضباط الكبـار وذوي الرتب المتوسطة ، وأبدت تصـورا واضحا في العمـل التحريضي والدعاوي في صفوف الجيش . في حين لو ادركت المقاومة هذا الوضـع الخاص للجيش الاردني ، لتأكد لها ان السياسة الوحيدة الناجعة ضد مراهنة النظام على تماسك الجيش ووقوفه الى جانبه ، هو تفتيت هذا الجيش ، باكتساب ولاء اوسع الجنود واستنهاض ولاءاتهم الوطنية وهذا يتطلب عملا تحريضيا ودعاويا وتنظيميـا مستمرا ودؤوبا ، في صفوف الجيش وعلى اوسع نطاق ، ولقد كانت الفرصـة مهيأة لذلك . فوجود قواعد الفدائيين جنبا الـى جنب مع معسكرات الجيش ، وفي ظل حالة وطنية عامة ولدها النضال ضد العدو القومي ، كل ذلك كان يشكل ارضية مناسبة لعمل ثوري في صفوف الجيش ، لو توفر ، لتوجهت الامور في الاردن وجهة اخرى . الفصل السابع : تركة ايلول ومؤشرات الدور السياسي القادم . بالرغم من ان عنوان هذا الفصل يوحي للقارىء انه امام استنتاجات معينة استخلصهـا الكاتب على ضوء عرضه السابق ، الا ان القارىء يفاجأ ان هذا الفصل جاء مسلوقا، فالنتيجة الاولى التي يؤكدها الكاتب صعوبة قيام انقلاب بعد ايلول « ان مسألة قيام انقلاب عسكري على الملك في مرحلة ما بعد أيلول ظلت قضية بعيدة التحقيق » . يفهم من ذلك ، وكأن امكانية قيام انقلاب عسكري في فترة ما قبل ايلول ممكنة ، وهذا ليس صحيحا كما أوردت . والاستنتاج الثاني ربط الاتسـاع الكبير الذي طرأ على الجيش بعد أيلول بدوافع قيامه بمهمات خدمة السياسة الاستعمارية خارج الحدود السياسية للاردن ، وهذا صحيح ، الا ان هناك اسبابا اخرى وراء توسيع الجيش وبهذه الاعداد الكبيرة ، وهي مرتبطة بالاوضاع داخل الاردن ، وقد أشرت اليها في بداية مناقشتي عندما تحدثت عن الدور الاقتصادي غير المنتج للجيش وأثر ذلك على مجمل الاوضاع الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسية للمجتمع الاردني . وثمة ملاحظة هامة اخرى ، فالكاتب يؤكد استمرار النظام في انتهاج « النمط الاميركي » في التعامل مع الحركة الوطنية و« القائمة على الارهاب النفسي ثم الاحتواء بالربط المصلحي والاقتناع الذاتي » (ص ١٥٢) ويستدل على ذلك بالاعدامات القليلة !! التي نفذت بعد ايلول وتتابع حركات العفو !! وهنا اختلف كليا مع

الكاتب ، ذلك ان الفترة التي اعقبت ايلول ١٩٧٠ كانت اشد الفترات ارهابا وقمعا واضطهادا في تاريخ الاردن وعلى ما يبدو ان اعدام ١٥ مناضلا ، بعد مجازر ايلول ومجازر الاحراش ليس كافيا لاثبات ذلك ، اضافة الى اعتقال الالاف من المواطنين الذين لا ذنب لهم الا كونهم تبرعوا للمقاومة في فترة من الفترات ، ثم حالة الارهاب والاضطهاد التي سادت الاردن طوال سنوات ١٩٧١ و١٩٧٢ و١٩٧٣ ، كل ذلك يدل على ان النظام كان يستخدم القبضة القوية ، والقوية جدا. اضافة الى ذلك فان حالات العفو الجزئي التي كانت تجري بين فترة واخرى ، كانت بهدف امتصاص النقمة الشعبية ، وبهدف تخفيف عدد المعتقلين الذي وصل حدا فاض عما يمكن ان تستوعبه السجون الاردنية . بالاضافة الى ذلك فانه يجب ربط مجمل ممارسات النظام تجاه المعتقلين بالوضع العربي العام ، وبالوضع العام لحركة المقاومة الفلسطينية ، فالمقاومة الفلسطينية كانت تتمتع بعطف عربي عام ، اضافة الى انها كانت قادرة على الفعل والتأثير ولم تنته ، وليس أدل على ذلك من ان النظام لم يستطع ان ينفذ حكم الاعدام بأبي داوود ورفاقه بالرغم من أنه كان يرغب في ذلك . وناحية اخرى ، أن النظام اتخذ من المعتقلين وسيلة للمساومة وللخروج من عزلته العربية .

أما حالات الشراء والافساد السياسي ، فهذه حالات تواجهها كل الحركات الوطنية ، وان كان بنسب متفاوتة ، والحالات التي ينجح النظام في استقطابها هي الحالات المترددة وغير العميقة في ارتباطها بالقضية الوطنية ، وهي غالبا ما تكون حالات هامشية .

وقبل أن أنهي العرض ، اود ان اشير الى ملاحظة عامة تتعلق باستعمال الكاتب لتعبير حركة المعارضة الوطنية بدلا من الحركة الوطنية او القوى الوطنية . وقد اطلق هذا التعبير على الحركة الوطنية في الاردن في كل مراحلها وحتى وهي كانت تحمل السلاح وتقاتل النظام . ان هذا التعبير لا يعبر حقيقة عن الحالة التي مثلتها الحركة الوطنية في الاردن ، فهي لم تكن حركة معارضة ، اي اتجاه سياسي يعبر عن نفسه من داخل النظام وعبر شرعيته ، بل كانت حركة معادية للنظام تناضل لتغييره بأساليب مختلفة ، وجوازا يمكن اطلاق هذا التعبير على بعض الحالات التي كانت تبرز من داخل النظام وتتخذ مواقف وطنية ضد ممارسات او مواقف معينة يقوم بها النظام ، وهذا التعبير يطلق عليها في هذه الحالات المحددة فقط ، اما ان يطلق تعبير « حركة المعارضة الوطنية » على كل الحركة الوطنية وعلى كل ما مثلته فهذا خطأ، وفيه مسخ للحركة الوطنية في الاردن .

غازي الخليلي

عصام محفوظ ، **دفتر الثقافة العربية الحديثة** ، (دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٣)

من أصعب الامور التي تواجه الممارسة النقدية، هو القيام بنقد النقد . فمعالجة الاثار النقدية ، تطرح دائما المستوى الايديولوجي — المنطلقات في زاوية من الجدل المباشر ، اي القفز فوق التحليل وصولا الى اعتبار النتائج الجزئية نقاط انطلاق . وعندما يكون النقد تطبيقيا في سمته العامة ، كما في كتاب عصام محفوظ « دفتر الثقافة العربية الحديثة » فان الصعوبة تزداد ، لان المحلل مطالب باستخلاص نقاط المنطلق النظرية من النص التطبيقي عبر وضعه داخل الاطار العام النظري الذي ينتمي اليه الكاتب . والواقع ان هذه الصعوبة تزداد مع البلبلة النظرية التي تواجه الممارسة النقدية . واذا كان محفوظ قد استطاع عبر قيامه بتحليلات عميقة لبعض النصوص والتجارب الشعرية على وجه الخصوص ، ان يتجاوز هذه البلبلة ، فانه سقط في المقدمات النظرية التي صاغها لمقالاته القصيرة في انتقائية واضحة . ليست هذه الانتقائية في آخر تحليل سوى صدى لغياب التحديدات الصارمة عن ممارساتنا العلمية، وخاصة على المستوى النظري . أي ان محفوظ حين يقع في ما يشبه هذه الانتقائية فانه يعبر عن ظاهرة عامة بحاجة الى تحليل خاص ، يستطيع ان يقوم بتصنيف منهجين للممارسات النظرية في الميدان الادبي ..

الوثيقة الشاملة : يقدم كتاب محفوظ وثيقة شاملة لاهم التيارات الادبية في حياتنا المعاصرة . وأهمية هذه الوثيقة في كونها شهادة من الداخل . فمحفوظ ساهم ويساهم في هذه الحركة الادبية التي اراد ان يكتب وثيقة عنها . لذلك جاء كتابه في حجم الشهادة التي لا تؤرخ بشكل اكاديمي ، بل تتبع سيرورة العمل الادبي من داخل المعاناة نفسها . أي ان النقد يتحول هنا الى شهادة ذاتية تتجاوز التحليل الذاتي بالمعنى الضيق للكلمة لتحاول ان تكشف عن معاناة الانتاج الفني داخل عملية الانتاج نفسها . من هنا يصبح اخضاع هذا الاطار الوثائقي للنقد المنهجي عملية بالغة الصعوبة . فالشهادة تؤخذ كما هي بوصفها شهادة وتصبح اطارا مرجعيا يسمح للدراسات الشاملة بأخذها كأحدى نقاط الانطلاق الممكنة . لذلك جاءت شهادة محفوظ واسعة جدا تريد الشمول . من الشعر العراقي المعاصر وصولا الى الفنون التشكيلية في لبنان . والكتاب يضع نفسه في اطار مرحلة انقضت . لذلك يؤكد على مفهوم **الحداثة** بوصفه مفتاح قراءة التجارب الفنية الجديدة ومقياسها في آن . غير ان النقطة التي تستلفت النظر هي في بعض الغيابات الكبيرة عن هذا الكتاب . فأدونيس في قصائده الاخيرة التي استطاع ان يفتح بها ابوابا جديدة كل الجدة في شعرنا المعاصر . غائب بشكل كامل . والحقيقة انه يصعب فهم وثيقة شاملة تتجاوز ادونيس بشكل غيابي دون مناقشته جديا . فالمعاناة الادونيسية التي تحاول ان تقوم بممارسة فنية تهدم بشكل كامل لتؤسس بنية جديدة للقصيدة العربية ، تستحق الوقوف طويلا ، ليس بوصفها فقط لعبت دورا هاما في المرحلة التأسيسية « مجلة شعر » ولكن بوصفها تحمل بذور تجاوز لهذه المرحلة باتجاه القصيدة المتشابكة داخل مفاهيم التحول . كما يلاحظ غياب بعض التجارب القصصية الطليعية في مصر (تلك الرائحة على سبيل المثال) وتشديد على لبنان في المسرح والفن التشكيلي . غير ان هذه النواقص او الغيابات على أهميتها الكبرى لا تنزع عن الكتاب صفته الشمولية فهو يحمل هنا واضحا ، يريد من خلال النقد ، ان يصل به الى لحظة الاحاطة بالنتاج الادبي في سبيل تخطيه من خلال العلاقة بجراحات الوطن داخل مفهوم مساواة الفن والحياة . « ان المقياس النقدي المقبل يجب ان يكون ايضا ضرورة لدعم وتركيز المفهوم الطليعي للتعبير في المرحلة الحياتية الحاسمة المقبلة ، بتفصيل ومباشرة صارم لمفهوم مساواة الفن والحياة، حيث التأكيد على الفن كأداة معاونة تأتي من الداخل وليس أداة تأملية تأتي من الخارج » .

المقدمات النظرية : رغم ان محفوظ يصنف كتابه في باب النقد التطبيقي ، فانه قد صاغ لهذا الكتاب بعض المقدمات النظرية ، وضمنه الى جانب المقالات القصيرة التي تحمل انطباعا حارا بالاثر الادبي ، دراسات طويلة ، تؤكد على مقدماته النظرية من خلال تطبيقها بشكل دقيق على بعض النماذج الفنية — الشعرية ، كمحاولة لدراسة الاثر من داخله . أي ان الموضوعات تستخلص من بنية هذا العمل — ما نصطلح على تسميته بالاسلوب — دون اللجوء الى لصق دراسة بنية القصيدة على دراسة الموضوعات التي يقف عندها الانتاج الشعري . تؤكد هذه المقدمات على ثلاث نقاط :

١ — ان نمو الاشكال الجديدة يتم من خلال العمل الفني نفسه . وبمرونة « رافقت وترافق التطور الحياتي المنعكس في الفن الذي ازداد ويزداد تعقيدا مع ازدياد التعقيد الحضاري لعلاقة الفرد بالمجتمع » . فالنظرية النقدية لا تشكل خارج هذه المعاناة بل داخلها .

٢ — ان ما يميز الشعر هو « الحس الداخلي الذي يربط بين الصورة والنغم ويمنح القارىء منتاحا للتذوق » . والقصيدة الحديثة هي «مجموعة من الرموز الصغيرة تنتهي بالقصيدة الى فضاء الشعر الرحب » .

٣ — يشير محفوظ في مقدمة الكتاب الى « التطور الحياتي المنعكس في الفن » أي ان هنا علاقة وثيقة بين الفن وهذا التطور تؤدي بالفن الى عكسه في شكل جديد وضمن فاعلية مختلفة . لكنه في بيانه المسرحي رقم «١» يجعل لهذه العلاقة الانعكاسية شكلا انسانيا شاملا ، فهو يؤكد على كون التجربة المسرحية اللبنانية او العربية جزءا من التراث العالمي : « هناك تراث انساني واحد يخص المواطن العالمي ... وقصته تمتد من الفتوحات الاولى قبل الميلاد الى الفتوحات الاخيرة بعد الميلاد » .

لذلك حين نصل الى تطبيق نظرية الانعكاس ، نصطدم بكون شموليتها الواسعة جدا ، تمنع

هذا التطبيق . هذا الانتساب الى التراث الانساني الذي هو حقيقة لا نناقشها من حيث المبدأ ، لا يمنع خصوصية التجربة بالمعنى المحدد . أي ان الثقافة العربية لا تتبع نفس قوانين التطور الذي تتبعه الثقافات الاخرى . وهذا يعود الى جملة من الاسباب وليس الى مفهوم الانعكاس بمعنـــاه الميكانيكي الذي يلغي التجربة الاجتماعية حين يدعي نقلها كاملة الى المستوى الثقافي . تبدأ هـــذه الاسباب ببنية اللغة وتنتهي بالانقسامات الطبقية التي تحمل خصائص مختلفة تبعا لاختلاف انماط الانتاج . ان هذا المفهوم الشمولي الذي نجده عند محفوظ ينتمي تاريخيا الى حقل نظري أكدته تجربة مجلة « شعر » في ممارساتها النقدية : مفهـوم الحداثة . فالحداثة هنا تستوعب كل شيء لتظهر في نهايتها كمحطة في مسار الفكر العربي الحديث الذي يحكمه منطق الهيمنة الامبريالية . أي ان هذا الجنوح في سبيل التطور امام مثال من خارج آلية داخلية ، يؤدي الى تبلبل مفهوم الحداثة ليصبح مفهوما ايديولوجيا يجب وضعه في سياق أشمل حتى نستطيع محاكمته . ومحفوظ لا يقوم بهذا العمل فهو في دراسته عن المسرح يقبل المسرح كمعطى من معطيات هذه الحداثة ويقوم بتركيز النقاش حول المسألة اللغوية . واذا كانت هذه المسألة عميقة الجذور وتشكل أحد مفاتيح دراسة الممارسة المسرحية التي حجرتها وجمدتها الفصحى، فانها تبقى واحدة من المشاكل الكثيرة التي لا بد من معالجتها ونحن ندرس الظاهرة المسرحية . ما هي علاقة المسرح بالشكل الذي تأخذه المدينة العربية ؟ آلية نشوء الحركة المسرحية العربية وعلى أية ارض تقف ؟ لماذا المسرح وكيف يستطيع ان يتحول الى فن أصيل في بلادنا ، أي ارتباط بأي مراجع واقعية ؟ هذه الاسئلة الاولية ، لا يطرحها محفوظ ، بل ينتقل مباشرة الى الوصف والرؤية المستقبليـــــة المتكئة على مفهوم الحداثة . لذلك فالمسرح بديهة تتانية . ونقاشها لا يتم الا من داخلها.

ان الاطار النظري العام الذي وضعه محفوظ في كتابه ، يسمح لتحليلاته الفنية بحرية واسعة . فالتحديدات العامة تسمح بالسقوط سريعا في افخاخ الانطباعية . لكن محفوظ يتجاوز هذه الافخاخ عبر قدرته على الكلام عن التجربة من داخلها . لا يقوم باسقاطات مجانية على الاثر . بل يجهد نفسه في فهمه من الداخل . ولعل المقطع الذي درس فيه شعر السياب هو من أفضل ما كتب عن الشاعر ، لانه يتجاوز سيكولوجية الشاعر ليدرس تحولات الشعر دون اهمال لدور الشاعر الفرد في شعره. غير ان النواقص الكبيرة في الكتاب تحيله الى جزء من دفتر الثقافة العربية الحديثة ، لان دفتر هذه الثقافة لا بد وان ينغرس بعمق أكثر خارج الاطار اللبناني في المسرح والفنون التشكيلية .

الانطباعية السريعة والشعر : في المقطع النقدي الذي كتبه محفوظ عن شعر محمد الماغـــوط ، نكتشف المفتاح الذي يحمله الناقد ، في سبيـــل الوصول الى نتائجه . انه محاولة الدخول الى النص نفسه ، استنطاقه ، وقفة شعرية حول الشعر . لذلك يأتي النقد هنا تفتيحا لابواب النص المغلقة . فمحفوظ يترك النص يتكلم ويقول ما يريد ان يقوله . وهو عندما يصل الى الصفاء النقدي هذا نحس ان الشعر لم يعد بحاجة الى نقد . وهنا جوهر اللعبة النقدية ومأساتها في آن . فالنقد الانطباعي الذي لا يطمح ان يشكل دراسة علمية ، يصبح اما مجرد اسقاطات سيكولوجية او فكرية نحس انها تثقل النص وتغلق ابوابها . أو يدخل النص ويفتح ابوابه وهنا ينتفي بوصفه نقدا. ولقد استطاع محفوظ في بعض المقاطع ان يصل الى هذا الصفاء النافي .

الادب الفلسطيني : يخصص عصـــام محفوظ ثلاثة مقاطع لدراسة الادب الفلسطيني المعاصر . يتوقف اولا عند محمود درويش في مجموعتيـــــه الاخيرتين : « العصافير تموت في الجليل » و« احبك أو لا احبك » ، ثم ينتقل الى سميح القاسم في مجموعتيه « الموت الكبير » و « مراثي سميح القاسم » . بعد هذه الوقفة امام الشعر ينتقل الى القصة ، ليتوقف عند غسان كنفاني في آخر نتاجه « الاعمى والاطرش » و « برقوق نيسان ». كما ان هناك التفاتة الى ثلاث مجموعات شعرية « وسام على صدر المليشيا » لخالد ابو خالد و « حكاية الولد الفلسطيني » لاحمد دحبـــــور و « وشم على ذراع خضرة » لوليـــد سيف . السؤال الاول الذي يتبادر الى الذهن هو في الغيابات . معين بسيسو غائب وتوفيق زياد غائب هو الاخر . ثم ماذا عن اميل حبيبي و « سداسية الايام الستة ». هل تخضع انتقائية محفوظ لاسباب فنية أم انها تأتي هكذا عرضا تبعا لمقتضيات العمل الصحافي . فالصحافة تذبح الادب ، لانها تخضعه

لمستلزمات ليست من طبيعته ! اذا تركنا جانبا قضية الاختيارات فاننا نصل الى انطباعية تريد ان تتجاوز اطاراتها المحدودة جدا لتحاول الايحاء باحاطة شاملة للموضوع . ففي نقاشه لشعر محمود درويش يبدأ قائلا « لا يتميز محمود درويش بأسلوب خاص » ثم ينتقل بسرعة الى دراسة سيكولوجية الشاعر بعد خروجه من الارض المحتلة. تاركا للنصوص حرية واسعة في الحركة . ان الوقوف أمام تعميمات لها هذا الطابع الشامل دون دعمها بقراءة دقيقة ، تسيء الى النقد والى الدور الحقيقي الذي يستطيع ان يلعبه . فأسلوبية درويش أو غيره من الشعراء العرب ، ليست فقط قضية لها علاقة عضوية بموضوعاته . انها الموضوعات نفسها . واذا كان لبعض تحليلات محفوظ من قيمة حقيقية فهو لانها لا تفصل بشكل تعسفي بين الاسلوب والمضمون ، بل تدرسها بشكل متداخل. يستتبع هذه الملاحظة الاولى جملة من الملاحظات : فوضع الشعر الفلسطيني في اطار العلاقة مع العدو لا تكفي وحدها لفهم محاور هذا الشعر. انه بحاجة الى المناقشة من خلال تاريخه، وعلاقته بالشعر العربي . وهذه النقطة غائبة ايضا بشكل كامل . فمحفوظ يكتفي بوضع هذا الشعر في اطار المواجهة مع العدو ، ليسمح لنفسه بعد ذلك بتحليله من خلال هذه الارضية المفترضة .

أما في مناقشة شعر الشعراء الفلسطينيين الشباب (أبو خالد ، دحبور ، سيف) فاننا نقع أمام تصنيفية نقدية لا نجد لها مثيلا . النقد هنا هو مجرد انطباع اولي . « فقيمة وليد سيف ضعيفة اجمالا مع استثناءات قليلة » . هذه الاجمالا ماذا تعني وكيف نستطيع ان نقبضها . فاذا كان النقد يفتح ابواب النص فانه لا يستطيع ان يقوم بهذا العمل بشكل سريع كما هي الحال هنا . واذا كانت هذه المرحلة « التي يتطلب ابناؤها من الفنانين ليس الاعمال الفنية بل المعونة » . فما هو المطلوب من النقد ؟

أما في مناقشته لادب كنفاني ، فاننا نحس المحاولة النقدية المخلصة التي تريد الوصول الى النص لربطه بالواقع . فمحفوظ يقسم انتاج كنفاني بحسب مراحل النضال الفلسطيني . انه انتاج يتداخل مع الثورة الجماهيرية بشكل لا يمثله الا تداخل كنفاني المناضل مع قضية شعبه الوطنية الى الدرجة التي وصل فيها الى قمة اللقاء بالارض عبر الانفجار في داخلها . لكن الغائب الكبير هنا هو مناقشة تطور بنية الرواية الكنفانية . هذا التطور الذي تعادل قيمته على الاقل التطور الاخر في طرح الموضوعات الكبرى الملاحق لتطور القضية نفسها . ولو قام محفوظ بدراسة علاقة هذا التطور بالادب القادم من الارض المحتلة — اميل حبيبي — لقدم لنا لوحة متكاملة نسبيا عن الرواية الفلسطينية المغروسة على حافة حد السكين . لكنه توقف امام ابواب هذه الاحاطة الممكنة دائما .

انطلقت معالجتنا لهذا الكتاب من تثميننا للدور الهام الذي يستطيع ان يلعبه النقد الخارج من داخل المعايشة الابداعية لذلك حاولنا ان نبدي مجرد ملاحظات حول كتاب يشكل الى جانب أبعاد الموضوعية والوثائقية . بعد شهادة . فهو أحد الكتب القلائل الذي لا يزال يصر على نقطة المنطلق (مجلة شعر) بعد ان اختفى « مركز الحركة » كما يقول محفوظ . لذلك هو على حق حين يصف كتابه بأنه وليد مرحلة انتهت . لكننا نستطيع ان نطرح على هذه المرحلة بعض الاسئلة . فلماذا وضع ذلك المقطع القصير عن شعر السبعينات (بركات ، العزاوي ، سعادة) فهو لا يقدم نقديا رؤيا جديدة ، ولا يسمح لنصوص الشعر الجديدة ان تتنفس بحرية . عدا عن ان هذه الالتفاتة تهمل وعلى غير حق الكثير من التجارب الشعرية التي ظهرت في العراق (مجلة الكلمة) وتمركزت في مجلة (مواقف) . هل يستطيع الجزء الثاني من هذا الدفتر ان يعيد النظر في معاملة هذا الادب « الجديد » الذي لم يتبلور بشكل نهائي بعد ؟

حين يضع النقد نفسه في داخل مسائل النضال الوطنية والطبقية ، فانه في الواقع يقوم بمغامرة كبيرة . اذ ان تجاوز السائد لا يتم داخل الحركة الثورية بشكل سحري . انه نتيجة ارهاق في سبيل ابراز وانتاج ما يريد السائد طمسه وسحقه دون ان تتحول الى مجرد دعاية سياسية لا قيمة لها . لذلك تبدو بشائر المرحلة المقبلة بالغة الصعوبة . فالمخاض الجديد يريد ان يتجاوز الاطارات القديمة — التحديث — ليصل الى الثورة .

الياس خوري

سـلوم سركيس : **المآسي المعاصرة والمصير العربي** ، (بالفرنسية والعربية) ، مكتبة لبنان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٣ .

« هذا الكتاب ثمرة تأملات في سبل الحرية وما يعترض اليوم حياة الانسانية وحياة الامة ... »

« ... ويدرك القارىء معزتنا لفلسطين اذا علم اننا عشنا فيها طويلا . وعندما أتكلم عن فلسطين لا يسعني ان افكر الا بالفلسطينيين وهم أغلى بكثير من القدس والاماكن المقدسة . فهل شهدت اقذر من هذا التعفف الذي ينادي بتدويل القدس ويتناسى شعب فلسطين وقد حرم من كل حق ؟ ان الراغبين في الاطلاع والقادرين على الفهم لا أدلهم على شيء مثل ما أدلهم على تاريخ الجحيم الفلسطيني ، لان الغزاة في هذا القرن شر بما لا يقاس ممن سبقهم من الغزاة الصليبيين لانهم اكثر « تمدنا » . فاليوم ، كما كان فيما غبر ، يتذرع المفسدون بالتعصب « الديني » . فهل يرتاب احد في العاقبة ؟ ستأتي ساعة ، كما حدث فيما سلف ، لا يفيد فيها الاثم ويعود الفلسطيني الى ارضه . ولكن ربما لن يكون ذلك آخر العذاب ، لان الجحيم الفلسطيني ليس الا واحدة من مآسي هذا القرن ومن ابلغ ما نرى من دلائل على تعفن القيم .. ومن ثم كان عنوان هذا الكتاب » .

بهذه الكلمات القليلة والمعبرة يحاول المؤلف — وهو كاهن كاثوليكي مارس التعليم فترة طويلة من الزمن ثم انصرف في النهاية الى التأمل والتأليف — ان يلخص او بالاحرى ان يضعنا في جو كتابه الخاص الثائر على كل ما هو امتهان لكرامة الانسان وحريته في كل زمان ومكان وبشكل خاص في ارض فلسطين . ان هـذا الكتاب هو بالدرجة الاولى « شهادة ارضاء للضمير » وصرخة مدوية يرفعها المؤلف لان « اقدس القيم (بما فيها العروبة) ممتهنة ملوثة يتجر بها لصالح قيم يسمونها جديدة ويعتبرونها اصيلة ، ونرى ان السكوت في هذا الحال معناه الرضى » .

ويتوزع هذا الكتاب في اربعة فصول ثلاثة يغلب فيها النقد والاخير يغلب فيه التساؤل: اما الظواهر التي يتركز عليها فكر المؤلف فهي ثلاث : واقع الحضارة والثقافة ثم الازمة الدينية واخيرا المعضلة الفلسطينية .

اما وحدة الموضوع فتقوم ، في رأي المؤلف ، في ان ليس لنا ، على المستوى القومي ، الا قيمتان أصيلتان : الدين الاخلاقي والحرية السياسية . اما العالم المعاصر الذي يسعى الى تحطيمنا فلا يعترف الا بقيمة واحدة هي المال ...

الا ان الذي يستوقفنا في هذا الكتاب هنا هو الفصل المخصص للقضية الفلسطينية والذي وضعه المؤلف بعنوان : ابن البغضاء : اسرائيل . ويمكن ان تلخص الافكار الاساسية التي عولجت في هذا الباب كما يلي : السامي واليهودي والصهيوني والاسرائيلي ، مناقضة اليهودي ظاهرة غريبة ، الصهيونية وليدة التعصب ، الصهيونية غمست اليهودية في السياسة ، الخطأ في انشاء دولة اسرائيل ، عار الذين يرون في دولة اسرائيل بعدا دينيا ، حبوط اسرائيل وتناقضاتها ، المأساة الفلسطينية وابعادها العربية والعالمية ، المصالح الاجنبية وأزمة العالم المعاصر ، الناحية القدسية في القضية الفلسطينية ، وجهها الثوري ، دولة فلسطين العلمانية الديمقراطية ، الابعاد الانسانية في الواقع الفلسطيني ، جوهر المقاوم الفلسطيني ورسالته على مستوى الحقوق .

طبعا ان التوقف بالتفصيل أمام كل فكرة من هذه الافكار يحتاج منا حيزا مكانيا واسعا خاصة وان المؤلف يلجأ هنا الى اسلوب في التعبير خاص بـه وبمنهجه الصارم والمتشدد والمكتسب من خـلال تجربته الطويلة في تعليم الفلسفة والمنطق والعلوم الانسانية الاخرى اي بعبارة اخرى الى اسلوب التعبير عن اكبر قدر ممكن من الافكار بأقل قدر ممكن من الالفاظ . والمقولة الاساسية والمركزية والتي تدور حولها معظم الافكار في القسم الاول من هذا الفصـل هي الصهيونيـة وحقيقتهـا ومضامينها وابعادها ومضاعفاتها .

ينطلق المؤلف من نجاح احد الصحفيين الفرنسيين في اجراء لقاء خلال اربع وعشرين ساعة امـام التلفزيون الفرنسي بين صحفي مصري وصحفـي اسرائيلي وأعلن ذلك حدثا تاريخيا لم يشهد منذ ثلاث وعشرين سنة وحيا في ذلك بشائر السلام ...

وكيف انه في نهاية اللقاء يسأل الصحفي الفرنسي المصري : « أأنت مناهض للسامية ؟ » فيجيب : لا . ثم يسأل الاسرائيلي : « أأنت مناهض للعرب؟» فيجيب : لا .

ويعلق المؤلف على هذه الحادثة بقوله : « وليس في كل ذلك شأن سوى عجيج وسائل الاعلام التي فيها يغرقون الناس ، ويعـادل عجيج الاعـلام سخافته وكذبه . ففي اذاعة سبقتها دعاية كبيرة يسألون عربيا هل يناهض السامية فلا يفطن لما في السؤال من حماقة . وعلى هـذا النحو يتعدون يوميا على ضمير الملايين من الناس **فيعادلون بين اليهودية والصهيونية واسرائيل ، وفيها يحصرون السامية** » .

ويعتقد الاب سلوم ، وعلى حق ، ان الصهيونية لا يمكن ان تفهم الا اذا وضعت ضمن هذا الاطار ، اي ضمن اطار الحضارة الغربية القائمة على مـا يسمى بالرأي العام الذي يسير ويكيف وفق مصالح خاصة بعيدة كل البعد عن طلب الحقيقة . انها حضارة غرب قائم على الكذب والرياء فلا يتلفظ الا بالحرية والديمقراطية ، حريته وديمقراطيته هو لا حرية الاخرين . وكلام الغرب عـن ذاته وعن « حضارته » و« اشعاعه » و« رسالته الشمولية » فقد كل حياء وكل هيبة فلم يعـد يصلح الا لدك الذكاء .

بعد ذلك يعود المؤلف الى التاريخ فيذكر كيف جاء اليهود الى فلسطين (وكانت حينئذ ارض كنعان) فقضوا على أهلها واستقروا مكانهم . « وبعد خمسة عشر قرنا من تاريخ مشـحون بالاحداث لم تنقطع فيه الخصومات الداخليـة أصبحت البلاد مستعمرة رومانية » . آنذاك ظهر المسيح حاملا رسالة اخلاقية انسانية شاملـة تحتقر السياسة وتناهض شكلية الديانة القائمة وتعصبها وجمودها . « فاضطهده قومه وأسلموه الى السلطات الرومانية واقاموا الشكوى عليه بأنه مفسد فحكم عليه بالموت . واتصلت القلاقـل من بعده وقامت محاولات ضد الرومان فقسوا وبددوا السكان » .

وكان من نتيجة ذلك ان ولد ما عرف باسم « الشتات » (Diaspora) . وقد عاش اليهود آنذاك على هامش الامبراطورية الرومانية والدين الجديد يفصلهم عنه تعصبهم بالرغم من سقوط روما وتحولها الى الدين المسيحي . ثم ساد الاسلام فعامل اليهود معاملة النصارى . « **اما في الغرب فولد الجيتو** » ، ومحاكم التفتيش وكل موجات العداء للسامية واليهودية التي نعرفها والتي تفسر بشكل رئيسي بسبب الدور الاقتصادي الذي كان يؤديه اليهود اذ ان الكثيرين منهم قد لجأوا الى التجارة فاغتنوا : « والذين اغتنوا منهم لـم نبيعهم الدراهم اذ اصبحوا لا يستغنى عنهم فزادت الدراهم على وصمتهم وصمة الربى » . أما الذين بقوا فقراء فلم تشفع يهوديتهم فيهم لدى الاغنياء من اخوانهم وكان هؤلاء يستفيدون منهم « **فدام الجيتو وساء وضعه بفعل القائمين عليه** ». وهكذا فالمؤلف لا ينظر الى المسألة اليهودية من خلال العنصرية او الدين بل يحللها من زاويـة مرتكزاتها الاقتصادية ومن زاوية الاستغلال الذي يمارسه اغنياء اليهود على فقرائهم لربطهم بشكل دائم بالجيتو وبعلاقات الاضطهاد والاستغلال التي تمارس ضمن حدوده . ويتابع المؤلف سرده للتاريخ اليهودي فيذكر كيف ان الاسواق التي فتحهـا اكتشاف امريكا وما احدثه الاصلاح والحـروب الدينية من تفسخ في المجتمع الغربي ، قـد ساعدت في ظهور نخبة يهودية ومساهمتها في الثقافة بصورة فردية وكيف استفادت تلك النخبة مـن التسامح الذي تلا الثورة الفرنسية . الا ان يقظة القوميات في القرن التاسع عشر أرغمت اليهود على التكتم او الهامشية ، « وحيثما تجرأوا على التطلب او المعارضة كانوا يثيرون الحذر او الاضطهاد ».

من هنا ، يقول المؤلف ، نشأت فكرة جمـع اليهود في وطن قومي ، أي ضمن اجواء الشوفينية الغربيـة وضمن اجـواء الافكـار الاستعمارية التوسعية وقد فكروا بفلسطين ، مستغلين الشعور « الديني » لاغراض سياسية ، فكانت الصهيونية.

والشيء الطريف الذي يورده الكتاب هنا هو ان اختيار الصهاينة لاسم « ارض اسرائيـل » (ايرتس اسرائيل) بدلا من فلسطين له دلالته . فالكلمة تعني حرفيا : « أرض من يحارب الله » . ومسؤولية بريطانيا في كل هذا كبيرة وكبيرة جدا . فبسبب الحرب والمتاعب المالية وانعدام الضمير لدى الحكام الانكليز نشأت أولى مآسي هذا العصر واول مآثمه من خلال وعد بلفور المشـؤوم . « ويدوم هذا الاثم لا يتغير بل يعيد نفسه ويعظم يوما بعد يوم بازدياد الذين يساهمون فيه منذ

ما ينيف عن اربع وخمسين سنة ... » من كل هذا يصل المؤلف الى عدة استنتاجات منطقية مؤداها :
— ان العربي (وبعد كل ما حصل) لا يعتبر ان اليهودية تطرح سؤالا او تشكل معضلة . والجيتو في نواحيه السمجة ليس شرقيا او عربيا بل هو وليد الغرب وحضارته وتاريخه .

— ان تحالف المسيحية الغربية واليهودية الصهيونية ضد الاسلام العربي له دلالة خطيرة جدا ، « فهم لا يغفرون للاسلام العربي ان يكون شيد امبراطورية من أعجب وأخصب ما عرف التاريخ . ولا يغفرون له ان يكون بعث من رماده وفرض ذاته فيما طمست قيم المسيحية الروحية بجشع ارباب الاموال منهم . (ص ١٥٢) .

— ان محاولة صبغ الظاهرة الصهيونية بألوان القومية لا اقتاع فيها . فالقومية واقع جماعة تعيش تقليدا على أرض نشأت فيها ولكن حقوقها اغفلت في وسط جماعة أوسع تضم أجناسا مختلفة ، فهي تدرك دعوتها ، أعني ميزاتها وشخصيتها تدريجا ثم تعمل على ان تعترف بها الدول فيكون حكمها من الداخل . وذلك يفترض تلازم أركان كثيرة منها الاقامة التقليدية في ارض وجملة ثروات (في عدد السكان والاقتصاد والثقافة) تتيح للجماعة ان تستقر وتدوم . ويعني ذلك بالايجاز مستقرا مشتركا وثروات مشتركة وروحا واحدة . (ص ١٥٢) . أما الواقع الصهيوني من خلال تطوره التاريخي والحالي فيفتقد الى كثير من هذه العناصر الاساسية . « والاسرائيليون الذين يجهرون اليوم في اظهار قضيتهم بمظهر القضايا المألوفة انما يتصرفون تصرف المعتدين ويلفتون الانتباه الى تناقضاتهم فيسلحون أعداءهم بأسلحة ما كانوا ليفطنوا اليها » .

— ان عبقرية الصهاينة لم تقم منذ ثمانين سنة الا على اغتنام الفرص لحمل الدول الاستعمارية على الرضى الاثيم او المساهمة المغرضة . بيد ان المظالم المتلاحقة لا تنتهي بأن تكوّن حقا ، والمساهمة المغرضة لا تنتهي الا بالارتهان . ولا تكون الانتهازية سياسة وانما تقضي على سياسة . وليس اسرائيل حتى اليوم سوى حجر في لعبة الدول . فلا يقوم الا بارادة الذين يستفيدون من وجوده وضد ارادة الذين لا يبقى بدون رضاهم . **اذن فوجوده شرطي مؤقت** . « ولم يوجد ليبني وانما ليجرح ويصد عن الوعي ويحول دون التوحيد ويعوق حضارة » . (ص ١٥٨) .

— ان القضية الجوهرية بالنسبة الى الامة العربية جمعاء هي ان تكون من القوة بحيث تتصدى لما يهددها جمعاء . « ومن هذا القبيل فكل دولة على حدة عاجزة أيا كانت نظمها . فالغاية القصوى انما هي الوحدة بأي شكل . ولا بد من تسمية الاشياء باسمائها وتوجيه الجهود لتذليل العقبات التي تعترض الوحدة » .

وهنا يعترف المؤلف بمركزية النضال الفلسطيني ويعتبره بوتقة لا مثيل لها في بلورة عملية الوحدة العربية وترجمتها الى واقع محسوس . ثم يتعرض لمفهوم الدولة العلمانية الديمقراطية (قيل هذا الكلام قبل حرب اوكتوبر) فيناقش كل عبارة بمفردها . « فلا العلمانية ولا الديمقراطية التي ينادون بها (الفلسطينيون) منسوخة منقولة » فالثورة الفلسطينية علمانية « لا انتسابا ولكن بطبيعة الحال » فهي لا تستطيع « فهم الدولة الا من زاوية المواطنة او القومية أي من زاوية ما هو مشترك بربط الفرد بالمجموع » .

ونفس المقياس ، يمكن استعماله في مناقشة الارادة الديمقراطية . ولكن السؤال الذي قد يتبادر الى ذهن بعض « الواقعيين » هو قولهم ان الاقتراح الفلسطيني بشأن العلمانية او الديمقراطية فيه من الثورية ما يجعل المرء يرتاب في صدقه وانه حيلة يقصد منها كسب المؤيدين . الا ان كل هذه الاعتراضات لا تستند على واقع ملموس فمعنى هذا الاقتراح من الناحية العربية هو وعي وتحرر . وهو يشكل من الناحية اليهودية دعوة الى الوعي والتحرر . فيوم عزم الفلسطينيون على الشهادة « عرفوا من هم ومـا هو العالم المعاصر وما عليهم ان يعملوا فيه » .

ان رؤيتهم وعزمهم وتجربتهم تبني عالما خاصا بهم وتكشف لعالمنا واقعا جديدا وتفتح أعين الذين بقيت لديهم طاقة على الرؤية . (ص ١٨٣) .

والنتيجة الاخيرة التي يصل اليها الاب سلوم سركيس في ختام بحثه الفلسفي — السياسي تمتاز بالبساطة التي تكتنز في طياتها أكثف المعاني وأخطرها واجلها . انه يرى ان **القضية الفلسطينية هي علامة هذا الزمان** . « وكل صفحة من التاريخ

الفلسطيني منذ الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ ستبقى مفتوحة لمن يريد الاطلاع على رصيد المدنية. وهم يودون اليوم الانتهاء من تلك الورطة التي تفاقم أمرها . ولكن الفلسطيني لن ينفك قائما يوما بعد يوم يخط ملحمته بدمه وحيدا جليلا قاهرا . وسيقرؤها أناس عرب ويهود وغرباء . أما العرب فيقرؤونها كما تقرأ الكتب المقدسة . ويتعلم فيها اليهود ان اليهودية تنتهي حيث تبدأ الصهيونية . ويرى فيها الجميع علامة الفصل بين عالم ينكر وقد أفسده المال واستسلم الى المعاصي، وعالم قوي كالروح يؤكد وهو جالس فوق الرماد».

هذه الجملة الاخيرة تكاد تلخص كل الكتاب وتكاد تضعنا في المناخ الفكري العام الذي يتوجه المؤلف من خلاله الينا . والحقيقة ان حكمنا على هذا العمل الفريد من نوعه في المكتبة العربية لا يمكن الا ان يكون ايجابيا ، ان لم نقل مؤيدا ومشجعا . فبالرغم من بعض الاراء التي وردت في هذا الكتاب والتي يمكن ان تفسر ، اذا اخذت في غير محلها ودون تحليل دقيق لها ، وكأنها آراء مغرقة في المثالية والتجريد ، وبالرغم من بعض المواقف العنيفة ضد المدنية الصناعية والتي هي أقرب ما تكون الى الصوفية منها الى التحليل الموضوعي البارد ، بالرغم من كل هذا فان الكتاب يكشف عن انتاج عربي فكري حقيقي وعن مساهمة اكيدة في اغناء التراث النضالي العربي . وليس من الصعب على القارىء ان يكتشف ان المؤلف يبتعد ، عن مسابق تصور وتصميم ، عن كل القضايا الاقتصادية والسياسية المباشرة ويهتم بشكل أساسي بالابعاد الفكرية والحضارية للانسان العربي المعاصر وينظر الى الصراع العربي الصهيوني من منظار تاريخي فوقي . من هنا جاءت المعالجة سليمة في خطوطها العريضة وفي تصوراتها للمستقبل وجاءت في المقابل ضعيفة في بعض التفاصيل الا ان هذه الثغرات لا تنتقص شيئا من قيمة الافكار المطروحة خاصة اذا حكمنا عليها من خلال الموقع الاجتماعي الذي يحتله هذا الكاهن الجريء . انه يطرح افكاره بدون مجاملة او خوف او تهرب وحتى بدون رابط ظاهري فتأتي كأنها انفجارات في وجه الظلم والاستغلال والمدنية اللاانسانية . بالاضافة الى كل هذا ، هناك الاسلوب الذي صيغت به هذه النظريات وهو اسلوب لا يهتم بالناحية الشكلية بقدر اهتمامه بتأدية المعاني والافكار . من هنا جاءت وسائل تعبيره صعبة وتتطلب الكثير من التركيز لتتبعها وتفهمها شأنها في ذلك شأن كل وسائل التعبير الفلسفية . واخيرا قد يكون من الظلم التركيز في هذا الكتاب على الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن قضية فلسطين وحسب . فالكتاب في الحقيقة يطمح الى أبعد من ذلك . وكما يقول الاب سركيس «معالجة كل القضايا التي يطرحها هذا الكتاب بصورة وافية ليست هي الهدف كما أنها ليست ممكنة . « فأن تلفت الانتباه الى وجود المشكلة ومعطياتها أهم وأنفع من أن تعرض روايتك وحلولك . **وهنا الفرق بين مهنة السياسة والفكر السياسي** . فالاولى تبسط وترتجل وتجازف . فيما يهتم الفكر بالدقائق ويدعو كل واحد الى النضوج والمساهمة » .

طبعا مهنة السياسة بعيدة كل البعد عن هذا الكتاب اما الفكر السياسي فهو جوهره وكل مضمونه . وهو على كل حال فكر سياسي مثالي — بالمعنى الايجابي للكلمة — يجمع بين ارفع مستويات الشجاعة الادبية وبين أعلى صرخات الاستنكار للاستغلال اللاحق بالانسانية سواء أكان هذا الاستغلال قائما على مؤسسات قمعية ام على ممارسات سياسية فاضحة كما يجري علنا فوق أرض فلسطين . وليس أدل على هذا الموقف من عنوان الكتاب نفسه « المآسي المعاصرة والمصير العربي » . فالمؤلف يكاد يلخص كل موقفه في هذه الجملة التي يختتم بها كلامه عن فلسطين : « وليس من باب الصدف ان تعاصر المأساة الفلسطينية ما تفخموا في تسميته بالمدنية . وليس من باب الصدف ان كانت المأساة الفلسطينية فاتحة مآسي هذا القرن وهي تتكاثر في كل بقعة من ارجاء الدنيا يشعر فيها شعوب بدعوتهم الى الحرية . وليس من باب الصدف ان تكون المأساة الفلسطينية بين مآسي هذا القرن هي التي يتهالكون في طمس رموزها المقدسة بمظاهر انسانية واكاذيب سلمية وذرائع قانونية » . ولحسن حظنا فان المؤلف ، رغم رؤيته النافذة لمآسي هذا العصر ، يمتاز ايضا بتفاؤل تاريخي وحدس عميق بأن انتصار الحرية في كل ارجاء العالم وبشكل اخص في فلسطين امر واقع لا محالة رغم كل الدلائل الظاهرة .

ماجد نعمه

مناقشات

[١]
الغطرسة الاسرائيلية : جذورهـــا وابعادهـــا

لقد اعتدنا في السنوات الاخيرة على سمـــاع عبارة « غطرسة اسرائيل » من أصدقائها واعدائها على السواء ، من اعدائها كصفة مـــن صفـــات اسرائيل الشريرة ، ومن أصدقائها كخطر يهددها مرارا . وتجد الفئة الثانية مصداقا لمخاوفها من الضربة الاخيرة التي تلقتها في اكتوبر الماضي . فقد ذهب الخبراء الى ان غطرسة تل ابيب وثقتهـــا المفرطة بنفسها كانت من أسباب نجاح العرب . والواقع ان اللواء احمد اسماعيل سبق أن صرح بأن التخطيط العربي اخذ بنظر الاعتبار الغطرسة الاسرائيلية كأحد العناصر الرئيسية في جـــانب العرب .

لقد أشرنا في العنوان الى جذورها لان هـــذه الظاهرة النفسية ليست مجرد نتيجة للانتصارات الصهيونية المتوالية خلال ربع القرن الماضي كما يبدو للبعض . ولا هي مجرد امتداد للاستعـــلاء العنصري الاوروبي كما رأى نزيه قورة في بحثـــه القيم (شؤون فلسطينية ، يناير ١٩٧٤) عن نفس الموضوع . لقد ذهب ذلك البحث الى ان الغطرسة الصهيونية هي اولا جزء من الاستعلائية الاوروبية وثانيا وثانويا امتداد او استثمار لفكرة الشعـــب المختار . في رأينا ان العكس هو الصحيح تماما. والدليل على ذلك هو أن الاوروبيين انفسهم طالما عبروا عن تذمرهم مما أسموه بالغطرسة اليهوديـــة حتى قبل أن تظهر الحركة الصهيونية الى الوجود، كما سنأتي الى ذكره ادناه . هناك جذور طويلة لهذه الغطرسة تمتد ما امتدت الثقافة العبرية في التاريخ ، وفكرة الشعب المختار هي العبارة التي توجز هذا الموقف جوهرا وقالبا . ولكـــن لهذه العبارة على قدمها جذورها الابعد منها .

الحياة ــ حياة الفرد والمجتمع معا ــ ما هـــي الا سلسلة ديناميكية (او دايلكتيكية ان شئت) للاحوال وردود الفعل عليها . ونجد في هذا الشأن حالة الذلة والعبودية التي عاشها في فجر تاريخهم المدون ، الحالة التي وصفها العبريون انفسهم والاغيار من المصريين . ولا بد ان العبريين تحلوا كقبيلة سامية بما تحلى به العرب وجميع البدو من شعور عميق بالكرامة والاعتداد بالنفس . بيد أن العرب استطاعوا أن يحافظوا على كرامتهم ببقائهم في معقلهم الجزيرة العربية . وعندما خرجوا الى الامصار خرجوا كأمة عظيمة فاتحة مزودة بايمان يزيد من فخرها واعتزازها . على عكس ذلك جاءت قصة العبريين . فقد نزحوا من معاقلهم الطبيعية في البادية وخرجوا الى مصر دون ان تكون بيدهم قوة العرب او ايمانهم . وبدلا من اخضاع مصر لهم خضعوا هم لحكمها . وبدأت قصة مذلتهم . الرأي السائد هنا ان مأساتهم في مصر قد حلت لان الفراعنة وجدوهم اجانب فاستعبدوهم . ولكننا قد نكون اقرب الى الحقيقة اذا قلنا ان العبريين كبدو من الجزيرة لم يستطيعوا اهدار كرامتهـــم وفرديتهم ومشاركة ابناء النيل في عبوديتهم لفرعون والخضوع لحكمه المركزي المطلق .

ما الذي جعلهم يتركون موطنهم الاصلي مسألة ظلت غامضة وكذلك ظلت مسألة موطنهم الاصلـــي الحقيقي . غير أن الاراء تجتمع على أن تخـــوم بادية الشام كانت المسرح الذي ظهروا عليه اولا . وفي مثل هذا الحزام شبه الصحراوي بين الحضـارة والبداوة تتجمع عناصر المجتمع المنبوذ ــ او ما يسميه علماء الاجتماع بالبارية ــ المجتمع الذي نظر اليه أصحاب المدن نظرة الخوف والاستهجان كجزء من البداوة البدائية ونظر اليه البدو نظرة

الاحتقار كجزء من المدنية المنحطة . هناك مثل هذه المجتمعات المنحطة المحتقرة ما زالت بيننا في الشرق الاوسط منها على سبيل المثال المعدان في العراق والنور في فلسطين . ومن المحتمل ان العبريين قد امتهنوا التجارة بين البادية والحضارة في هـذا المفرق من الطرق مما جلب عليهم السخط المألوف على أصحاب التجارة .

وسواء في بادية الشام ام في مصر ام فـي فلسطين ، فان من الواضح ان العبريين قـد جابهوا احتقارا ومذلة واستعبادا في مولد حياتهم القومية كشعب . ولا بد لهذه الحالة من رد فعل لها . العزة والكرامة التي ترددت علـى لسان الرئيس الخالد جمال عبد الناصر لم تكن ديماجوجية خطابية ولا فكرة مثالية . انها في اكثر الاحيـان موازية للخبز والماء في اهميتها . الخبز وسيلة الانسان للحياة ولكن جدارته كانسان هي غايـة الانسان ، عليها تتوقف كل آلية بقاء الاصلـح والنشوء والارتقاء . وعندما تهدر الكرامة او تثبت عدم الجدارة ، يسرع صاحبها الى الاعذار والحيل ليعلل ما حدث . وعندما تتعذر الاعـذار والتعليلات يصل النقطة الانتحارية التي تنعدم فيها قيمة حياته او غايتها .

تحت ظل العبودية والمذلة التي عاشها بنـو اسرائيل ، لم يمكن لهم أن يعيشوا بدون تعليـل ما لحق بهم ، بدون تبرير جدارة حياتهم . وكلما ازدادوا غرقا بالمذلة كلما ازدادت حاجتهم الـى مقادير أكبر وأكبر من التبريرات حتى وصلوا درجة من الهوس الذهاني انهم تصوروا أنفسهم شعب الله وابنائه ثم مضوا في نسج سلاسل مركبة من التعليلات والتبريرات من هذا المنطلق لكل مـا حدث لهم .

ان معظم الشعوب قد ولدت في فرحة وبهجة وفي انطلاقة شامخة جبارة . هكذا بدأت حياة الامة العربية والافريقية والرومانية والبريطانية . ولكن الشعب العبري يكاد يكون الشعب الوحيد الذي بدأ حياته كشعب في الم وعبودية . وعاد فقضى القرون من تاريخه بين الامم فيما وصفه القـرآن ببلاغته المعتادة « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ».

لقد انقرضت او ذابت — او قل انتحرت قوميا — المجموعات البشرية التي تعرضت لمثل ذلك الضغط. ولم يكن لبني اسرائيل الاستمرار في البقـاء لولا الحقن المتواصلة التي غذاهم بها زعماؤهم . يكرس الحاخام ازيدور ابنشتاين في كتابه « اليهودية » فصلا عن « انتخاب اسرائيل » من قبل الـرب فيعلق على كلمات سفر الخروج « فالان ان سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون خاصة لي من بين البشر فان لي كل الارض وانتم تكونون لي مملكة كهنة وامة مقدسة » ، فيقول : « ان يهوه قدر لبني اسرائيل حياة خاصة ، حياة من القدسية تبرزهم كشعب متميز عن بقية شعوب العالم » (ابشتاين ، ازيدور ، **اليهودية** ، بليكان، ١٩٥٩ ص ٢٠) وبالنظر لقدسية اسرائيل فقد انفـردت بالعصمة . وهكذا وجدنا زعيم الغطرسة الصهيونية ديفيد بن غوريون يجيب على تبرير فضيحة لافون بأنها كانت هفوة فيرد عليه قائلا « ان اسرائيل لا تقع في هفوة » . ولا تحسبنا أحوج الى مثال أفضل من هذا .

وفي ضوء هذا المفهوم عللت مآسي اسرائيـل بكونها احداث من عمل يهوه . اراد يهوه مثلا من السبي تشتيت اليهود ليصبحوا مصابيح تستنير بها الشعوب . في ضوء ذلك أيضا نشأت الافكار الشوفينية والعرقية . على اليهود الا يمتزجوا مع بقية الشعوب . لماذا ؟ لان اليهود أنظف وأنبل والاخرين قذرون ويأكلون الاقذار . على اليهودي ان يقتصر على اكتساب الحكمة من التوراة والمشنة والتلمود . لماذا ؟ لانها احتوت كل ما يحتاجـه الانسان من معرفة .. تماما مثلما يدرسون التلاميذ في اسرائيل على أساس ان جغرافية اسرائيـل هي كل ما يحتاج التلميذ معرفته . أما التاريخ فما هو الا سلسلة من انجازات اليهود واضطهـاد الاغيار لهم .

واذا شاء الله ان يتبنى شعبا من الشعـوب ويسميه شعبه المختار وابنه المصطفى فلا بد من أن يختار هذا الشعب من انبل الشعوب وافكاهـا واقدرها واجملها وو... الخ . من صفات التفضيل وقضى اليهود تاريخهم في هذا الازدواج بين واقع الذل والمسكنة وخيال العظمة والسمو وعاشـوا كذلك حتى القرن التاسع عشر .

النقطة الحرجة هنا كانت الثورة الفرنسية التي اطلقت اليهود من عقالهم . وتوالت على أثر ذلك سلسلة من الاحداث التي كان لها اعمق الاثر على قصة اليهود في العصر الحديث . فبعـد الصراع الطويل بين نابليون وانكلترا ظهرت حاجة الطرفين

الى المال وتوجها الى روتشيلد الذي تأمل في الامر مليا قبل ان يقرر في الاخير قرض انكلترا . اصبحت نقوده من الاسباب التي كفلت لها النصر . كان من المفروض في أي عصر غير العصر الليبرالي الحديث ان يبعث الامير بعساكره الى المرابين اليهود في مقاطعته ليأتوه منهم بما يريد . أصبح احترام القانون في العصر الليبرالي أعظم نصر حققته اليهود في تاريخهم . من الان وصاعدا أصبح على الراغب في مالهم ان يخطب ودهم . وجاءت نقطة التحول الجديدة في ثورة ١٨٣٠ عندما انتزع لويس فيليب الحكم بمساعدة الجنرال لافييت الذي صرح علنا «من الان وصاعدا سيكون الحكم بيد الصيارفة».

من الان وصاعدا اصبح على ساسة اوروبا ان يأخذوا بنظر الاعتبار رأي واهواء روتشيلد وزملائهم . العصر الحديث هو عصر رأس المال الذي يقاس كل شيء فيه بالارصدة والنسب المئوية. وأصبح من الطبيعي لاغنياء اليهود ان يمسكوا بزمام امور مثل هذا العالم . ولعل من اولى الوثائق الدبلوماسية التي أشارت الى نفوذ اليهود في الميدان الدولي وكشفت عن التفات ساسة الغرب الى هذا النفوذ ما كتبه اللورد بالمرستون الى السفير البريطاني في الاستانة ملوحا الى مصلحة السلطان في كسب ود اليهود كأصدقاء متنفذين . واصبحت التفاتة بالمرستون الفكرة التي راودت ذهن معظم الساسة المقبلين على انتخابات او حروب دامية .

ومن الناحية الاخرى ادى الحصول على الحريات المدنية الى انهمار شباب اليهود على كل مهنة مرموقة فتضخمت نقابات المحاماة والطبابة والفنون والعلوم بنسب عالية منهم . وبعد قرون من الحرمان والكبت ، بز اليهود زملاءهم الاغيار ولمعت اسماؤهم في معظم الميادين من الفيزياء الى الموسيقى والادب .

لاح لهم عندئذ ان ما قاله اجدادهم عن الشعب المختار وصفاته الفريدة شيء حقيقي . لقد ازال العصر الرأسمالي الليبرالي تلك الهوة بين الواقع والخيال التي أشرنا اليها . وما كان لهم بهذه النعمة الجديدة الا ان يتصرفوا كأي حديث نعمة ، فملأوا الاوساط الراقية من المجتمع الغربي بشتى المظاهر البراقة الفجة ، وراحوا يدخلون ما كان محرما عليهم ارتياده من قبل فيملأون المكان ضجيجا ناهين وآمرين . اضخم انواع السكار ، الماع المجوهرات ، اثقل الاساور ، اطول الفراء وهلمجرا . من القصص التي رواها لويد جورج ان ساسون اهداه مرة باقة من اوراد حديقته . وفعل ذلك بأن جاء الى بيت لويد جورج بالورد وبالبستاني الذي زرعه وقدمه الى رئيس الوزراء. وقد أعرب حتى هرتزل نفسه عن تقززه من مناظرهم في يومياته ، ولكنه هو شخصيا كان ضحية لها فقد كان اعداد ملابسه عملية عسكرية كاملة . وراحوا يصرون على حقوقهم المدنية حيث لزمتهم وحيث لم تلزمهم . ويكيلون الويل للمسؤولين عند أي اخلال بها . وما زلنا نتلقى صورا من هذا السلوك في مقاضاة نوادي التنس والكولف الانكليزية التي لم تسمح لليهود بعضويتها ، في احتجاج عمال البريد اليهود في نيويورك على وضع شجرة عيد ميلاد في الدائرة لم تضع الشمعدان اليهودي في اعياد اليهود .

وقد أثار السلوك المتغطرس سخط العاطفين على اليهود والمعادين لهم على السواء . وبينما حذرهم اصدقاؤهم من مغبة ذلك راح اعداؤهم يهدرون كراماتهم قصدا لتأديبهم ، كما كانوا يقولون . وتألفت في المانيا والنمسا « جمعية مكافحة الغطرسة اليهودية » لهذا الغرض . ودأب الطلبة في الاوساط الجامعية على كسر هيبة التلميذ اليهودي المتغطرس باهانته ثم دعوته الى المبارزة. ولما كان استعمال السلاح ما زال فنا بعيدا عن الحياة اليهودية ، فقد أهدرت كرامات وكرامات . وأمام هذه المذلة الجديدة ، نشط القوميون اليهود بالدعوة الى تعلم المبارزة.وكان المسعى اول خطوة تخطوها الحركة الصهيونية نحو عسكريتها الحالية. وقد خر كثير من الشبان اليهود ضحايا المبارزات نتيجة حداثة عهدهم بالسيف والغدارة في مواقف دراماتية اثارت شجون الكثير .

ولكن جمعية مكافحة الغطرسة اليهودية نهت أعضاءها من منازلة اليهود ، لان المبارزة عمل من اعمال الشرف ولما كان اليهودي لا شرف له فليس مما يشرف الالماني منازلته .

بيد أن النزال بين اليهود واعدائهم في اوروبا الوسطى استمر على النطاق الاوسع الى أن وصل نتيجته الاخيرة في نهاية الحرب العالمية الثانية . لم تكن نتيجة هذه الحرب ابادة بضعة ملايين من اليهود وانما ابادة اعداء السامية

في اوروبا . لقد نظر الصهاينة الى هذه الحرب لا كنزاع بين الفاشية والديمقراطية وانما كنزاع بين اليهود واعداء اليهود . هكذا تدرس في المدارس الاسرائيلية . ورأوا ان هذه الحرب الهائلة انتهت بانتصار اليهود وهتفوا بفخر « اليهودي سيقف دائما على قبر مستعبده » ، ورأوا ورأى العالم اسيادهم بالامس يتوسلون على جرعة من السم في زنزانات نورنبرغ . وبانتهاء الحرب أسسوا لنفسهم الدولة التي اعتبرها الجميع اضغاث احلام . ثم خاضت هذه الدولة ثلاث حروب مصيرية ضد شعوب اكثر منها عددا ومساحة وتاريخا عسكريا وانتصرت . ولا شك ان تخاذل القوة العسكرية العربية في السنين الفائتة ركز في ذهن الاسرائيليين شعورهم بالمناعة المطلقة: « الجيش الذي لا يندحر » ، وهو نفس الشعور المتغطرس الذي عاشته المانيا الهتلرية حتى كسر شوكتها الجيش الاحمر . وتلتقي اسرائيل بالنازية هنا أيضا في أن الغطرسة النازية جاءت كذلك بعد فترة من الذلة القومية عاشها الشعب الالماني، بعد معاهدة فرساي .

ارادت اسرائيل الحصول على اليهود السوفييت فأثارت العالم برمته ضد الكرملن حتى اجبرت ثانية الدول العظمى على الاذعان وفتح الابواب . سدني وب ، ارنست بفن ، جيمس فورستل ، جورج براون ، شارل دي غول ، واحدا بعد واحد من عمالقة الساسة انهار بعد أيام من الوقوف في وجه الاماني الصهيونية . وتداولت الهمسة بين الساسة الطموحين : اذا اردت المستقبل احذر من الوقوف في وجه اليهود .

لقد شبه احد المراقبين اسرائيل بانكلترا في القرن التاسع عشر ، الفترة التي اغرق الانكليز بها العالم بنشاطهم يوم كانوا قادرين على تحقيق اي شيء ونيل اي مطمح . ولكن ليس وجه الشبه الاخير الوحيد . في القرن التاسع عشر سيرت بريطانيا اسطولها لمحاصرة الموانيء الاجنبية لمجرد اعتقال اي بريطاني في أية جريمة او جنحة . وعاشت كافة الدول في ذعر من مس اي مواطن من مواطني صاحب الجلالة . هذا هو الوضع الذي يعيشه الاسرائيليون الان . وما الضجة الهائلة التي اثيرت حول شلة من اسرى الحرب الاسرائيليين الاجانب من هذا الموقف .

ويجد الانسان الان وسائل الاعلام الغربية تكرس صدورها لاي يهودي يصاب بأذى مضايقة في حين يهلك مئات من الناس جوعا في الهند واثيوبيا دون كلمة من هذه الوسائل الاعلامية . لقد امتلات واجهات الصحف البريطانية في نوفمبر بالمقالات الطوال عن مشكلة باتوف وزوجته . المشكلة الوحيدة هي ان السلطات السوفياتية رفضت اعطاء الزوجين تأشيرة خروج الى اسرائيل . والواقع ان متصفح الجرائد الغربية لا يحتاج بحثا طويلا للمس هذه المكانة الممتازة التي تعطى لمن تحتضنهم الحركة الصهيونية . وقد تصفحت شخصيا واعتباطيا بعض هذه الجرائد عند كتابة هذه المقالة ووجدت ان الديلي تلغراف اعطت ٥٠ سطرا في ٣١ يناير لنبأ اضراب باتوف عن الطعام . ولكن نفس الجريدة المحترمة لم تذكر حرفا واحدا عن اضراب ١٥ شابا ايرانيا عن الطعام قبل يوم واحد فقط امام كنيسة سان مارتنز في قلب لندن احتجاجا ضد عقوبة الاعدام التي اصدرتها حكومة الشاه بحق نخبة من المثقفين الايرانيين . وكذلك لم تنشر التايمس الى نفس الخبر . وكذلك لم تذكر الديلي تلغراف اي شيء عن عقوبات الاعدام التي صدرت ضد ٦٢ مغربيا في ٢٩ منه . ولم تذكر التايمس شيئا في ٢٨ منه عن المجاعة التي اكتسحت قسما من الهند وأدت الى هيجان تمخض عن مقتل ٤٠ مواطنا جائعا برصاص الشرطة .

لقد اتصل احد الصحفيين الانكليز بمنظمة العفو العالمية للسجناء السياسيين في السنوات الاخيرة متسائلا عن اية اخبار جديدة عن السجناء في العراق . وعندما بدأت الموظفة باعطائه ما عندها واكتشف انهم لم يكونوا من اليهود قاطعها قائلا « عرب ؟ انا لم اسأل عن العرب . من يعبأ بالعرب ؟ اريد اليهود فقط » .

وربما وصل التأثير الصهيوني اوجه الدولي في مسك يد نيكسون عن التعاون مع موسكو . ها هنا امام اعظم دول العالم تسعيان بعد سنين من الجهود للوصول الى تفاهم ووفاق لحمته التعاون الاقتصادي فاذا بهما تتعثران على عتبة ذلك الوفاق عندما يصر الكونغرس على منع الرئيس الامريكي من مد يد الصداقة كاملة الى موسكو ما لم تتعهد موسكو بفتح الهجرة الى اسرائيل . « الصيارفة يحكمون العالم » هي كلمة لافاييت التي لا تقل جدارة بمكان في قاموس السياسة

المعاصرة من كلمات « يا عمال العالم اتحدوا » او « النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة » .

وعندما نضع هذه السطوة والقدرة والمكانة ازاء الذلة التي عاشها المستوطنون اليهود في فلسطين « حثالة الكرة الارضية » كما كان الانكليز يسمونهم، وعندما نتذكر السرعة التي انقلبت بهـا المقادير والمقاييس يتعين علينا ان نخرج عن قالب البشرية المعتاد اذا طلبـا من الاسرائيليين ان يتحلـوا بالتواضع ويبتعدوا عن الغطرسة .

لمس العالم العربي هذه الغطرسة في التصرفات العسكرية والتصريحات السياسية لزعمـاء تـل ابيب . ولكنني اشك قليلا في أن يكون العرب اول من لفت النظر الى هذه الظاهرة . بل وربما كانوا قد انتبهوا اليها بعد اشارة الغربيين لها . وترد الى الذهن هنا كلمات الجنرال دي غول كمثال . لا يختلط العرب عادة بالاسرائيليين او يرونهم على الشاشة ولكن الغربيين يرونهم امامهم كل يوم . وفي كل يوم يكشف الاسرائيليون عـن غرورهـم وغطرستهم في كل رمشة عين وحركة اصبع . ولن استغرب مطلقا اذا رأيت باحثا صهيونيا يحاول تتبع اوليات الحديث عن الغطرسة الصهيونية الى رواسب ايديولوجيات المعادين للسامية في اوروبا. قصة الغطرسة الاسرائيلية قصة تمتد وراء مسرح النزاع العربي الاسرائيلي وقد ذاقت اصنافا منها اوروبا قبل ان شعر بمرارتها على ألسنتنا . انها مرارة المرض الذي ينبغي ان يبعث في النفوس من الشفقة بقدر ما يبعث فيها من التقزز .

خالد القشطيني

[٢]
تعقيب من مؤلف

تلقت شؤون فلسطينية هذه الرسالة من مؤلف كتاب«الجديد في العسكرية الاسرائيلية» الذي سبق للمجلة ان نشرت مراجعة له في العدد التاسع والعشرين . ونحن ننشـر الرسالة بنصها الحرفي :

اتفق ان استهديت في العدد (٢٩) من « شؤون فلسطينية » على قبسا من « أنوار » هشام عبدالله ومحمود عزمي المسلطة على كتابي « الجديد في العسكرية الاسرائيلية » ، هذا القبس من النور الذي على شحوبه وما يشعر به من علل فيشله ، ينبغي ان يصهر ويصنى لننتصر على ظلمة الجهل وسوء النية . لان القضية التي نعاني تتطلب منا تجنيد جميع جهودنا ، لتجعل جريمة لا تغتفر من تصرفاتنا غير المسؤولة ، ومنها اصدار الاحكام المتهوسة على ما يسهم به بعضا عن جديـة وموضوعية فتشوه معناه .

وآمل من هذه الزاوية ، وخدمة لتلك الغاية ، ان تنشروا رسالتي هذه في « شؤون فلسطينية ».

اوجه هذه الرسالة الى هشام عبدالله ومحمود عزمي صاحبي التعليق على كتابي « الجديد في العسكرية الاسرائيلية » .

ان المتصفح لمراجعة كتابي « الجديد » يلمس التجني على الواقع حيث صب السيدان عبدالله وعزمي جام غضبهما على الكاتب والكتاب معا عندما تصيدا الاخطاء المطبعية لاتهامي بسـوء الامانة في النقل عن المصدر تارة وبالسطحية وعدم الدقة تارة اخرى ولينصبا انفسهما رسلا في المواعظ والارشاد .

وقبل الشروع في الحديث ارى من واجبي تثبيت الحقائق الاتية :

١ — ان هناك عدة اخطاء مطبعية في الكتاب موضوع المراجعة والتي لا يخلو منها كتاب مطبوع وذلك لاسباب فنية لا نظن احدا يجهلها .

٢ — لقد جمعت معلوماتي من اربعة اركـان الارض لاجعل من عملي متكاملا (تقريبا) . ومن البديهيات ان اعتمد على المراجع العربية الجادة.

٣ ـ لم أكتب في يوم من الايام ليقال عني كاتب او عظيم ، بل كتبت لخدمة القضية التي تناضل جميعا من أجلها ، ولايماني بأن سحق هذا العدو الصهيوني سحقا تاما هو الشرط الاساسي لوجود شعبنا .

لهذا فاني التزم بالرد على تلك المراجعة لكتابي « الجديد في العسكرية الاسرائيلية » اظهارا للحق.

ان المتصفح لمراجعة الكتاب يلاحظ ان الاصدقاء عبدالله وعزمي يتجنيان علي كثيرا بادعاءات باطلة لا صحة لها ... حيث يتهماني بعدم ذكر المصادر التي اعتمدت عليها مع العلم ان من يطالع الجديد يلاحظ انني ثبت اسماء المصادر التي اعتمدت عليها جميعها وفي مقدمتها : « العسكرية الاسرائيلية » لمحمود شيت خطاب ، و « اخطار التقدم العلمي في اسرائيل » ليوسف مروة ، و « المساعدات العسكرية الالمانية الغربية لاسرائيل » لحسن مصطفى ، و « في الاستراتيجية الاسرائيلية » للدكتور محمد فاروق الهيثمي ، و « المذهب العسكري الاسرائيلي » لهيثم الكيلاني ... الخ.

وبناء على ذلك لا بد من توضيح الامور الاتية :

اولا : ليس سرا ما أعلنه بأنني في كتاباتي العسكرية عن العدو الصهيوني قد سرت على خطى الاستاذ الكبير محمود شيت خطاب الذي اول من دعى في الوطن العربي الى تعميم الثقافة العسكرية بين المدنيين والعسكريين على حد سواء . وهذا مصدر فخر واعتزاز بالنسبة لي .

ثانيا : يدعي السيدان عبدالله وعزمي بأنني نقلت فصل « السلاح الذري » عن كتاب الاستاذ شيت خطاب . والحقيقة انني اعتمدت في هذا الفصل على المرجع العلمي الوحيد في هذا الموضوع وهو كتاب : « أخطار التقدم العلمي في اسرائيل » للاستاذ يوسف مروة ، والذي اعتمده الاستاذ شيت خطاب في كتابه وهذا أمر غير معيب لاي باحث . فالصفحات ٦١ الى ٨٠ من كتاب « أخطار التقدم » تقابل الصفحات ٢١٣ الى ٢٢٨ من كتابي . ومن يطالع الكتاب يلاحظ تثبيت المصدر « أخطار التقدم » في هوامش الصفحات ٢١٦ و٢١٧ و٢١٩ و٢٢١ و٢٢٢ و٢٢٥ و٢٢٧ و٢٢٨ من كتابي « الجديد » .

وهنا تجدر الاشارة انني والاستاذ شيت خطاب قد اعتمدنا نفس المصدر « أخطار التقدم » لانه المرجع الوحيد عن السلاح الذري في «اسرائيل»، وذلك بغية ان يقدم كلانا عملا متكاملا (تقريبا)...

ثالثا : يدعي الاصدقاء انني نقلت فصل «التنظيم العسكري» عن كتاب هيثم الكيلاني « المذهب العسكري » . والحقيقة انني اعتمدت كتاب « في الاستراتيجية الاسرائيلية » للدكتور محمد فاروق الهيثمي . فالصفحات ١٦٩ الى ١٩٥ تقابل الصفحات ١٠٣ الى ١٠٩ من كتابي « الجديد » . وكتاب الدكتور الهيثمي مثبت ضمن قائمة المراجع الاساسية لكتابي « الجديد » .

رابعا : يدعي الاصدقاء بأن فصل « صناعة الاسلحة » منقول عن كتاب الاستاذ شيت خطاب ، والحقيقة انني اعتمدت في هذا الفصل من كتابي على كتاب الاستاذ يوسف مروه، « أخطار التقدم » كما هو مثبت في الصفحات ٢٦٦ و٢٦٧ و٢٦٨ و٢٦٩ و٢٧٢ من كتابي « الجديد ».

خامسا : لم يكتشف الاصدقاء عبدالله وعزمي شيئا على الاطلاق عندما اعلانا ، انني اخذت عن كتاب الاستاذ هيثم الكيلاني فقرة حول استخدام سلاح الطيران في حرب حزيران ١٩٦٧ ، وذلك لان الاستاذ كيلاني رائد في هذا الموضوع من ناحية ، ومن ناحية اخرى لان كتاب « المذهب العسكري » مثبت ضمن قائمة المراجع الاساسية لكتابي .

سادسا : يدعي الاصدقاء ان فصل « الاسلحة الكيماوية والبيولوجية » منقول عن كتاب « العسكرية الاسرائيلية » دون ذكر أي اشارة لذلك . والحقيقة انني اعتمدت في هذا الفصل على كتاب « المساعدات العسكرية الالمانية الغربية لاسرائيل » للاستاذ حسن مصطفى . فالصفحات ٧٣ الى ٨٩ من كتاب المساعدات تقابل الصفحات ٢٢٩ الى ٢٤١ من كتابي « الجديد » . هذا مع العلم انني قد ثبت المصدر في الصفحات ٢٢٩ و٢٣٣ و٢٣٤ و٢٣٦ و٢٤١ من كتابي .

سابعا : اعتمد الاصدقاء اسلوب التشهير وذلك حينما تعمدا اصطياد الاخطاء المطبعية والتي لا يخلو منها كتاب مطبوع ، حيث قالا في مزاعم مراجعة الكتاب :

« فهو يشير مثلا الى ان السوبرميستير تحمل

٥٥ قذيفة جو — جو ، حين تحمل المقاتلات الاحدث من السوبرميستير صاروخين اثنين فقط ».

« اماكن لتجمع ثلاثمائة عجلة عربية » بينما الاصل « أماكن لتجمع ثلاثمائة عجلة حربية » .

« كما نقل كلمة « الحرب الاشعاعية » في البند ب صفحة ٢٧٩ خطأ وجعلها كلمة الحرب الكيماوية » رغم كتابته الكلمة بالانجليزية المقابلة لها » .

وبالتالي من هذه الفقرات نرى الاصدقاء عبدالله وعزمي يعمدان الى الشبهات ويأخذونها من الوجهة التي يرغبونها متباعدين عن الواضح الجلي منها ليقذفوا الشكوك والاوهام في العيون والقلوب والخواطر والافكار .

ثامنا : المصطلحات العلمية ملك للجميع واقتباسها وتداولها واستخدامها امرا ليس مستغربا على الاطلاق .

وهنا لا بد من الاشارة انه لا يمكن التقليل من اهمية الجهد المبذول والمركز للواء الركن محمود شيت خطاب الذي كانت له اليد الطولى في نشر الثقافة العسكرية عن العدو الصهيوني في الوطن العربي . وهذا ما أهمل سرده في تعليق السيدان عبدالله وعزمي ، ولم يسقط سهوا .

تاسعا : في الصفحة ١١١ من كتابي « الجديد في العسكرية الاسرائيلية » صورة لجندي « اسرائيلي » يدعي الاصدقاء عبدالله وعزمي بأنها تمثل رجلا عاديا يرتدي ملابس شبه عسكرية بدون شارات قد يرتديها أي حمال في أي مرفأ في العالم.

والحقيقة انها صورة لجندي صهيوني مأخوذة عن كتاب Weapons and Equipments Recognition Handbook, page 363. صفحة ٣٦٣ . وتجدر الاشارة الى ان كتابي « الجديد في العسكرية الاسرائيلية » يحتوي على كافة شعارات المؤسسات العسكرية «الاسرائيلية» التي تنشر لاول مرة في الوطن العربي في كتاب مطبوع .

وبعد :

قد يكون في كتابي « الجديد في العسكرية الاسرائيلية » بعض الاخطاء ، ولكن ما هكذا تورد الابل ... اذ انه من المؤكد ان الهدف من هكذا مراجعة هو افتراس الجهد المبذول والغاية هي التحطيم لا النقد ، لانني أعلم علم اليقين بأن شأن الناقد الحصيف ان يتناول المسائل بالحوار السليم ثم يعطي النصائح البناءة ... ويعطي التوجيهات الرشيدة التي تضيء وتنير والا لتحول نقده الى هدم وسلبية ... وحقد وكراهية .

ولا ادري ما سبب حملة الاصدقاء عبدالله وعزمي علي ؟ ألانني ابن مخيم مثلا ؟ أم لانني ابن قضية ملتزم بها حتى الشهادة والموت ؟!

هذه التساؤلات راودتني بعد قراءة مراجعة كتابي في مجلة « شؤون فلسطينية » الغراء .

ولكن المواطن العربي ليس كما يظن الاصدقاء عبدالله وعزمي جاهلا او ساذجا ، او بسيطا ... فلقد أصبح الان على دراية واسعة وبعد نظر وسداد فكر ... لا يخدعه بريق الالفاظ .

معين أحمد محمود

تقارير

[١]
قضية احمد بوشيكي

بدأت بأوسلو في ٨ كانون الثاني ١٩٧٤ اكبر محاكمة في النرويج في فترة ما بعد الحرب ، منذ العملية ضد فدكون كيسلنج (رئيس الوزراء النرويجي ، الذي تعاون خلال الحرب العالمية الثانية مع قوات الاحتلال النازي ، وفي ١٩٤٥ حكم عليه بالاعدام) .

كان الستة المتهمون في قضية ليلهامر — اغتيال احمد بوشيكي — يحاكمون . وكان المكان الذي جرت فيه المحاكمة ، « ابولونيا ستودي سنتر » ، محروسا بمئة من رجال البوليس المدججين بالسلاح والواقفين حول البناية وعلى السطوح — وهو منظر غير مألوف في النرويج ، حيث يكون البوليس عادة منزوع السلاح . وقد اجريت المحاكمة تبعا لقسم الخيانة في القانون النرويجي .

وفيما يلي مقتطف من الصحيفة النرويجية الاسبوعية الشيوعية « فريهتن » ، كتب بعد بضعة ايام من الاغتيال في ليلهامر . « صفي المواطن المغربي ، احمد بوشيكي ، في شوارع ليلهامر من قبل جماعة ارهابية اسرائيلية موجهة بأوامر المخابرات الاسرائيلية . وهناك عوامل عدة تشير الى ذلك : اعترافات بعض المتهمين ، وحقيقة أن اثنين من المعتقلين قد القي عليهما القبض في مقر الاقامة الرسمي للدبلوماسي الاسرائيلي ، ضابط الامن ييغال ايال .

« لقد تحرك البوليس النرويجي بسرعة وحزم . واشارت بعض الصحف الى ان الارهابيين كانوا مجموعة من الهواة . هراء ! اذ أنهم لو كانوا كذلك لما جاء رئيس دائرة العدل في وزارة الخارجية الاسرائيلية على جناح السرعة الى النرويج في محاولة لعقد صفقة مع السلطات النرويجية . ان هؤلاء الارهابيين هم جميعا ، وبشكل او بآخر ، في تماس مباشر مع مستخدميهم في الحرب السرية القاسية — وانه لمن الواضح ان وزير الدفاع موشيه دايان مسؤول في هذه القضية . وليس لديه اي تردد في ازهاق الارواح البشرية ، الامر الذي غالبا ما اثبته سابقا .

« وطالما وصلت « يد اسرائيل الطويلة » اخيرا الى النرويج ، لدينا كل الاسباب لطلب تحقيق كامل وايضاح لهذه القضية بغض النظر عن مضامينها السياسية .

(.....) ان المنفيين من اوطانهم يقومون بجهود يائسة لجلب انتباه الرأي العام العالمي . ونحن لا نوافق دائما على السبل التي تنتهجها حركة التحرير الفلسطينية ، ولكننا لا نستطيع لومهم . لقد فرضت عليهم اسرائيل ، ودعم الولايات المتحدة لها ، وضعهم الصعب ، ونحن لا نقبل على الاطلاق اية مقارنة بين حركة المقاومة العربية والارهابيين الاسرائيليين » .

وفيما يلي مقتطفات من بيان The Socialist Election League (عصبة الانتخابات الاشتراكية) .... « تطالب العصبة السلطة النرويجية بارسال احتجاج رسمي شديد اللهجة الى الحكومة الاسرائيلية . كما وتطالب بأن تأمر اسرائيل فورا مخابراتها بعدم اساءة استعمال الاراضي النرويجية لاعمالها الارهابية والتجسسية ... وعلى الحكومة النرويجية ان تعمل من أجل انسحاب اسرائيلي فوري ، ومن أجل سلام عادل في الشرق الاوسط» .

لقد تابعت صحف اسكندنافية عديدة قضية اغتيال احمد بوشيكي بطريقة ايجابية ، مبرهنة على تورط المسؤولين الاسرائيليين فيها ، وكان الاستياء في صفوف الشعب النرويجي واضحا .

« ابطال » عملية ليلهامر وغيرها

ابراهام جهمر (الاسم المستعار: لسلي اوربوم): حتى قبيل المحاكمة في اوسلو بقليل ، صدق البوليس النرويجي الشخصية المزيفة ، لسلي اوربوم ، امين مكتبة مدرسة في انجلترا ، ولكن احد المتهمين الاخرين اخبر البوليس بعد اعتقاله عن رجل الاتصال في المخابرات الاسرائيلية (موساد) ورجل الاتصال هذا كان ابراهام جهمر (الاسم المستعار لسلي اوربوم)، الذي كان ملحقا ثقافيا لبضع سنوات، ومنذ ١٩٦٥ السكرتير الاول في السفارة الاسرائيلية بباريس ، حيث كان اسمه لا يزال حتى المحاكمة على القائمة الدبلوماسية .

وتبعا لاقوال دان ايربل ، فان ابراهام جهمر هو أحد العملاء القياديين في الدائرة الاوروبية لموساد ويبدو انه كان مسؤولا عن جزء مهم من العملية ، التي نتج عنها تصفية احمد بوشيكي . ابراهام جهمر هو الرجل الذي أعطى المجموعة الارهابية المسماة غضب الرب اوامر بالمغادرة من مطار اللد وكان مسؤولا عن مراقبة الرجل المعتقد انه وراء عملية ميونيخ ، علي حسن سلامة .

دان ايربل : وهو مواطن دانماركي ذو جنسية مزدوجة : دانماركي / اسرائيلي . غادر الدانمارك عام ١٩٦٢ ليقيم في اسرائيل مع عائلته ، حيث افتتح شركة « دان نورم » ، وعاش ايضا في باريس وكولون ومدن اخرى حيث كان له « اتصالات اعمال » . ومنذ ١٩٦٣ كان له اتصالات بالمخابرات الاسرائيلية من خلال عميل سابق ، الماني غربي متمرس ، يدعى مايك واسمه المستعار جورج مانر. كان لدان ايربل عنوان دائم في اسرائيل ، ولكن عندما القي عليه القبض في اوسلو ، تبين من رخصة السوق الدولية ان عنوانه في باريس حيث كان له مكتب وشقة .

وكان له ايضا مكتب في كوبنهاجن قرب مكتب التلفونات المركزي ، تحت اسم مزيف . وقد انتقل من ذلك المكتب الى شركة مارتايم فروت كريرز ، حينا ليمتد في أوسلو ، التي كانت وراء خطف خمسة زوارق من ميناء شيربورج في فرنسا الى اسرائيل ، في كانون الاول ١٩٦٩ . (.....) وقد زار ليبيا عدة مرات في رحلات عمل ، وزار كذلك الاردن ولبنان .

يتكلم دان ايربل عدة لغات بطلاقة وقد سافر في كل انحاء العالم . وزار ايضا النرويج عام ١٩٧١ والسنة الماضية في زيارات خاصة . وقد طلب من الوكالة اليهودية ان « يفقد » جواز سفره الدانماركي واستطاع خلال السنوات الخمس الاخيرة الحصول على سبعة جوازات سفر دانماركية جديدة .

عندما غادر اسرائيل كان رئيس التصدير في شركة صناعات اغذية اوسن . واخبر زوجته انه كان ذاهبا في رحلة عمل الى اوروبا وانه قد يعود في ٣١ تموز / يوليو . وفي التاسع من تموز ١٩٧٣، غادر دان ايربل تل ابيب الى ستوكهولم برفقة غوستاف بستاوزر وجين لوك سفنير .

ماريان جلادنكوف ، عمرها ٣٠ سنة، سويدية المولد ولكنها عاشت في اسرائيل خلال السنوات الثلاث الاخيرة ، عملت في شركة لصناعة الطيران حيث قطعت لها عهدا بالسرية . وفي الثاني من تموز ١٩٧٣ ، شاركت في « درس سري » في مكان محروس باسرائيل .

وفي ١٧ تموز من السنة الماضية اتصل بها رجل غير معروف (الهوية) في تل ابيب ، وسألها ان كانت ترغب في تنفيذ مهمة عسكرية للدولة الاسرائيلية . وافقت على ذلك ، وفي ٨ تموز أخذت الى مطار اللد حيث قابلت باتريشا روكسبورج (الاسم المستعار سلفيا رفاييل) . وغادرتا معا الى النرويج .

باتريشا روكسبورج (الاسم المستعار : سلفيا رفاييل) : عمرها ٣٦ سنة ، مصورة غير دائمة وهي تبعا لاقوال الصحف النرويجية احدى اهم العملاء المزدوجين الاسرائيليين .

وحسب اقوال صديق صحفي بريطاني من الديلي ميل، فان لها تحت اسم باتريشا روكسبورج علاقات صداقة حميمة جدا مع ملك الاردن حسين « لقد أصبحت مصورة في البلاط الملكي . وكلما ذهبت الى عمان انتظرتها سيارة لتقلها الى القصر . عاشت في باريس حيث اعتاد الملك على زيارتها في شقتها » . والذي يفترض انه لا يعرفه هو ان باتريشا روكسبورج المزيفة ذات جواز السفر الكندي هي يهودية مولودة في جنوب افريقيا وان المخابرات الاسرائيلية هي التي تدفع ايجار شقتها ، أو هل ان المخابرات الاردنية كانت

تعرف ذلك — وهل كان هنالك نوع من التعاون ؟. وكانت باتريشا روكسبورج ايضا ، حسب اقوال الصحفي البريطاني ، صديقة حميمة لشاه ايران .

يوجد هناك باتريشا روكسبورج حقيقية في كندا . ولم تفقد جواز سفرها ابدا ، ولكن طلب منها مستخدمها مرة ، وهو مكتب محاماة يهودي في منتريال ، ان تسلمه اياه لبضعة ايام . وليس من الصعب تخمين ما حصل لجواز السفر بعدئذ .

وقبل بضعة أيام فقط من المحاكمة في اوسلو اكتشفت شخصية سلفيا رفاييل الحقيقية — ان اخاها من جنوب افريقيا هو الذي كشف ذلك ، ولكنه ما زال سرا كيف حمله البوليس على فعل ذلك ؟ أخبرت سلفيا رفاييل البوليس النرويجي انها حصلت على جواز سفرها المزيف في ٨ تموز/ يوليو من مايك (الاسم المستعار لجورج مانر)، ولكن تبين من جواز السفر انها دخلت فرنسا في ١٦ حزيران / يونيو ، واكتشف البوليس الفرنسي ان شقة استأجرت بأسم باتريشا روكسبورج منذ ايار / مايو ١٩٧٢ . كانت سلفيا رفاييل في باريس عندما قتل المناضل الجزائري بوديا بقنبلة في سيارته في ٢٨ حزيران / يونيو . ولها اتصالات وثيقة بابراهام جهمر ودان ايربل في باريس ، وهنالك دليل قوي ان السفارة الاسرائيلية تشكل هيئة اركان الارهابيين الاسرائيليين في اوروبا .

زوي ستانبرج : عمره ٣٠ سنة ، مولود في ريو دي جانيرو . له جنسيتان : اسرائيلية وبرازيلية ، ولكنه عاش في النرويج تحت اسم فالدمار هنريك ستانبرج وقدم نفسه كرجل اعمال، وهو في الواقع ، سائق سابق في السفارة الاسرائيلية بباريس في الوقت الذي كان فيه ابراهام جهمر السكرتير الاول في السفارة . لكن زوي ستانبرج انكر معرفته بابراهام جهمر ولم يعط اية معلومات عن حياته السابقة. لقد كان امين صندوق عملية ليلهامر باكملها ، واعتقل بصحبة ميشيل دورف في شقة ضابط المخابرات الاسرائيلي ، ييغال ايال .

ميشيل دورف : رفض ان يدلي باية معلومات حول نفسه ، فيما عدا انه طالب وعامل تلفون . لكن البوليس النرويجي اكتشف انه كان في روما وباريس وقت اغتيال وائل زعيتر وباسل الكبيسي. بعثت اسرائيل رسميا اروين شمرون ، وهو مدعي عام سابق ، الى اوسلو من اجل نصح المحامي النرويجي موكل زوي ستانبرج وميشيل دورف .

غوستاف بستاوزر : هو تبعا لاقوال دان ايربل، القائد الاصلي لعملية ليلهامر بمجموعها ، سافر بجواز سفر نمساوي — اغلب الظن ان هويته مزورة . يبلغ من العمر حوالي ٥٠ سنة . ويبدو انه شخص مهم في المخابرات الاسرائيلية ، وله مكتب في تل‌ابيب . في التاسع من تموز غادر الى ستوكهولم برفقة دان ايربل وايضا برفقة : **جين لوك سفنير** : الذي سافر بجواز سفر فرنسي . هرب سفنير من النرويج بعد تصفية أحمد بوشيكي . ويبدو انه وجوناثان انجلبي الذي سافر بجواز سفر بريطاني مزيف ، هما القاتلان الفعليان .

غادر غوستاف بستاوزر ليلهامر قبل عملية التصفية عندما مرض .

مايك (الاسم المستعار لزوارد لاسكير ، جورج مانر) : أحد العملاء السريين الاسرائيليين الرئيسيين وهو مواطن الماني سابق ومتمرس في عالم العملاء . عندما مرض بستاوزر في النرويج ، انتقلت الى جورج مانر قيادة عملية ليلهامر . استطاع الهرب من النرويج ويجري البحث عنه في كل انحاء اوروبا ، ولكنه بالطبع ، يجب ان يكون قد ذهب مباشرة الى اسرائيل .

راوول كوسين الملقب بداني : ويجري البحث عنه من قبل البوليس تحت هذا الاسم . وهو في الواقع [تبعا لاقوال عميل اسرائيلي « سابق » اجرت صحيفة « افتنبلادت » ستوكهولم مقابلة معه] **جاكيس دانيال** ، المولود في المغرب . سافر بجواز سفر ارجنتيني وقد شارك بعمليات اخرى ، كما تروي صحيفة « السويدش ديلي » .

ماريا تامار هي عضو آخر في المجموعة الارهابية الاسرائيلية التي استطاعت الهرب . اسمها الحقيقي مريسام ز. عمرها ٢٥ سنة وهي مستخدمة رسميا في نفس صناعة الطيران التي تعمل بها ماريان جلادنكوف .

لورا هنفر ، واميل لافوند وروولف بير ، هربوا من النرويج بعد عملية الاغتيال . سافروا جميعا بجوازات سفر مزيفة (افتنبلادت ٧٣/١٢/٤) .

هؤلاء الخمسة عشر شخصا هم الاعضاء المعروفون في المجموعة الارهابية الاسرائيلية المسماة « غضب الرب » التي نفذت عمليات في ليلهامر ، واغلت الظن ايضا في باريس واوروبا وربما بيروت .

« عميل اسرائيلي سابق »

تبعا لاقوال العميل الاسرائيلي « السابق » احضر الارهابيون الاسرائيليون الذين قتلوا كمال ناصر وكمال عدوان وابو يوسف وزوجته خلال الغارة على بيروت عدة وثائق معهم الى اسرائيليين من بينها قائمة مكتوبة باليد عليها ٣٥ اسماء وكان اسم احمد بوشيكي على القائمة مع بعض المعلومات حول مكان سكنه ولمن يعمل . لكن ليس هناك ما يشير الى ما اذا كانت الاسماء على القائمة هي أسماء « عملاء » فلسطينيين او مجرد اشخاص ارادت حركة المقاومة ان تجري معهم بعض الاتصالات للمساعدة في الاعلام .

اخبر العميل الاسرائيلي « السابق » — وهو سويدي — المجلة السويدية المسائية افتنبلادت حول الغارة على بيروت ، والتي ساهم هو فيها : « جندت كعميل لـ « شين بيت » و« الموساد » عندما كنت ادرس العبرية في مؤسسة التعاون الدولي بتل ابيب . واعرف ان بعض العملاء الذين ارسلوا الى النرويج قد جندوا بنفس الطريقة ».

وقع عقدا لمدة سنة ونصف ، وأكد له انه لن يشارك في اي عمليات حيث تكون فيها ارواح بشرية معرضة للخطر . « قمت بانجاز خمس مهمات مختلفة للشين بيت . في اواخر آذار (مارس) ١٩٧٣ ، حصلت على جواز سفر مزيف واوامر بالذهاب الى بيروت . وكان علي في بيروت ان استأجر سيارة . وفي الساعة الثانية من صباح العاشر من نيسان (ابريل) ان اكون منتظرا بالسيارة على شاطىء جنوب العاصمة اللبنانية . استأجرت سيارة بيجو زرقاء من محل « لنت أ. كار » . كنا ثمانية عملاء لا يعرف أحدنا الاخر ، ننتظر في سياراتنا.وعندما نزل رجال الكوماندوس الاسرائيلي من قواربهم المطاطية ، تحركت بهم السيارات نحو بيروت ، ولكنه كان على مجموعتي ان تذهب ١٢ كيلومترا الى الجنوب الى مصنع اسلحة سري . كنت اقف ناظرا الى المصنع عندما تفجر وأيقنت ان اناسا عديدين قتلوا . بعد الغارة صعدنا القوارب المتوجهة الى اسرائيل ، ولكني قررت ألا أجدد عقدي مع « الشين بيت » ، التي لم تحفظ وعدها لي ... »

يا له من ولد طيب هذا العميل الاسرائيلي السابق مثل احد المتهمين في عملية ليلهامر الذي قال : « لو علمنا ان شخصا سيصفى لما كنا قد شاركنا ابدا » . هل يعتقد هؤلاء العملاء فعلا بأن الحرب السرية الاسرائيلية هي لعبة اطفال ؟

وعلى اي حال ، فانه لمن المشكوك فيه ان تكون القائمة المذكورة موجودة حقا ، او ان العميل الاسرائيلي السابق ادلى بهذه المعلومات لكي يلقي بالشكوك حول احمد بوشيكي !

« متزفاه الوهيم » — غضب الرب

ابتدأت عملية ليلهامر في النصف الاول من تموز (يوليو) ١٩٧٣ ، عندما سافرت مجموعة ارهابية اسرائيلية من ١٥ شخصا الى النرويج . لقد سافروا بطرق مختلفة ، بعضهم بمفرده ، وبعضهم معا ، ولكنهم استلموا جوازات سفر مزيفة ، ما عدا مريان جلادنكوف السويدية المولد ودان ايربل. وقد اكتشف البوليس الفرنسي ان لخمسة من المجموعة جوازات سفر فرنسية .

ارسلت المجموعة من قبل المخابرات الاسرائيلية (الشين بيت) ، وهي تنتمي الى متزفاه الوهيم (غضب الرب) وهذه هي دائرة العمليات المباشرة والخطرة ، ويوجهها اهارون ياريف ، الجنرال الاسرائيلي الذي تفاوض مع القادة العسكريين المصريين حول وقف القتال بعد حرب تشرين (اكتوبر) !! وقد ارسلت المجموعة الى اسكندنافيا بناء على فلسفة مائير (القاتلة) : « سنقاتل الارهابيين حيثما نجدهم » . وقد نجحت المجموعة فعلا بتصفية رجل هو احمد بوشيكي ، ولكنه لم يكن الرجل المطلوب . فقد ثبت خلال المحاكمة انه لم تكن له نشاطات سرية .

أعلمت الموساد المخابرات الاسرائيلية ، بأن علي حسن سلامة ، المفترض ان يكون مسؤولا عن عملية ميونيخ ، كان في ستوكهولم . وعندما وصل دان ايربل وجين لوك سفنير وغوستاف بستاوزر الى ستوكهولم في التاسع من تموز (يوليو) ، استأجرا شقتين هناك ، وعملوا لهما ستة مفاتيح . وفي الوقت نفسه وصل اعضاء آخرون

الى اوسلو ، حيث لاحقوا الجزائري كريم بن امين الذي اعتقدوا انه عضو قيادي في منظمة ايلول الاسود وحلقة اتصال مع حسن سلامة . كان كل العملاء الخمسة عشر معا في اوسلو في ١٩ تموز (يوليو) ، حيث عقدوا اجتماعا . وأقاموا في فنادق وشقق مختلفة . ولكن هيئة اركانهم كانت في شقة مستأجرة بـ « باروم » في ضواحي اوسلو ، يمتلكها الميجر جنرال النرويجي لونديجا رد ، الذي كان في حينه بشمال النرويج . وكان رجل اتصال المجموعة في اوسلو هو ضابط الامن بيغال ايال في السفارة الاسرائيلية .

بن أمين

تبعا لمصادر المخابرات الاسرائيلية جاء بن امين الى النرويج من ايرلندة الشمالية ، وذهب الى ليلهامر حيث قابل احمد بوشيكي بالصدفة يوم ٢١ تموز (يوليو) .

لاحقت ماريان جلادنكوف وابراهام جهمر وآخرون من المجموعة بن امين من اوسلو ، وفي ليلهامر استعرضوا جميعا صورة يفترض ان تكون صورة حسن سلامة . وفي وقت سابق من اليوم ذاته كانت نورا هفنر قد رأت بن امين يطلع عربيا آخر (احمد بوشيكي) على بعض الوثائق ، في مطعم ، وبالرغم من ان اعضاء عديدين من المجموعة شكوا في ان يكون هو « الرجل المطلوب » . فقد تسببت هذه الملاحظة في حكم بالموت على احمد بوشيكي .

وهكذا ، اتصلت المجموعة بعد ظهر السبت بيغال ايال في اوسلو واخبرته بأنهم رأوا بن امين يتصل بعربي في ليلهامر ، ولكن هذا العربي لا يشبه حسن سلامة — وطلبوا اوامر لاحقة . وحسب رواية صحيفة الـ « اكتولت » اليومية الدانمركية الاشتراكية الديمقراطية ، اتصل ايال فورا برؤسائه في تل ابيب . وبعدئذ جاءت التعليمات : « اطلقوا النار على العربي تحت اي ظرف » .

الاغتيال

مساء السبت ، ٢١ تموز (يوليو) ، ذهب احمد بوشيكي وزوجته توريلد الى السينما ، دون ان يعرفا بأن مجموعة الاغتيال الاسرائيلية تنتظر مستعدة في الخارج ، وأجهزة التوكي ووكي في سياراتها . قالت توريلد بوشيكي في المحكمة :

« لم يشعر احد منا باننا ملاحقان . وأول مرة تحققنا فيها من الخطر كانت قبل بضع ثوان من مقتل أحمد أمام بيتنا . عندما ترجلنا من الباص ، لاحظت سيارة مازدا بيضاء واقفة واضواؤها مشعة . قطعنا الشارع وبدأت السيارة بالتحرك . وقبل ان تصلنا قفز منها رجلان . تحرك احداهما نحونا شاهرا مسدسه وبدأ باطلاق النار على احمد ، فسقط احمد على الارض وسقطت انا ايضا . اصيب احمد بعدة طلقات ولكنهم واصلوا اطلاق النار عليه بعد سقوطه . ورأيت الرجلين يبتعدان في السيارة » .

« ان فرنسيس (الاسم المستعار لجين لوك سفنير) هو الذي علمني استعمال التوكي ووكي قبل بضع ساعات من تصفية احمد بوشيكي » . هذا ما قالته سلفيا رفائيل في المحكمة . (وبالتأكيد انها تعلمت ذلك منذ زمن بما انها عميلة محترفة وخبيرة) .

أخبرت ماريان جلادنكوف البوليس بعد اعتقالها انه عندما أعلن انتهاء العملية بواسطة التعليمات من التوكي ووكي « كل السيارات تنصرف » . سمعت احد الاجهزة في سيارتنا قائلا : « لقد أخذوه » . وقال دان ايربل في جلسة مغلقة ان سيارة كبيرة تحمل شارة قنصلية ، ربما كانت سيارة مرسيدس ، ذهبت ايضا الى ليلهامر . وقد مرت أمامنا عندما راقبنا البيت حيث دخل العربي « ذو الشاربين الكبيرين » (احمد بوشيكي) . ومن المعلوم ايضا ان سيارة مرسيدس تقودها امرأة هي ماريا تامارا ، كانت تنتظر خارج ليلهامر في مساء يوم العملية ، وانطلقت بالثلاثة الذين يفترض ان يكونوا هم الذين قتلوا بوشيكي . ويعتقد انهم جوناثان انجلي وجين لوك سفنير ورولف باهر . ولم يعتقل احد منهم . وقد غطى فرارهم شخصان آخران في سيارة وهما مايك (الاسم المستعار لجورج ماتر) ونورا هفنر وقد استطاعا هما أيضا الفرار من النرويج بعد الاغتيال .

اعتقال الستة

بعد قليل من تصفية احمد بوشيكي بدأ البوليس مطاردة القتلة ، ولكن تسعة من المجموعة الارهابية استطاعت الهرب خارج النرويج . وفي اليوم التالي وجد البوليس احدى السيارات في مطار فورينبو بأوسلو وبجانبها ماريان جلادنكوف . وبعد

قليل رجع دان ايربــل الى السيارة . واعتقل الاثنان . واخبر دان البوليس عن الشقة التي في باروم خارج اوسلو ، وهناك اعتقلت سلفيا رفاييل وابراهام جهمر . وقد وجد البوليس رقم تلفون في جواز سفر ايربل وبواسطته اكتشف العملاء الذين اتصل بهم من ليلهامر . وعندما اغار البوليس على المنزل وجدوا انه لضابط الامن ييغال ايال ، الذي طالب دون جدوى بالحصانة الدبلوماسية لشقته ، لكن البوليس اقتحمها (كان المنزل في الواقع مستأجرا باسم شركة العال) واعتقل زوي ستاينبرج وميشيل دورف . طرد بيغــال ايال لاحقا مــن النرويج ، كأول دبلوماسي اسرائيلي يخرج بطرد من اي بلد غربي .

المحاكمة

اقترح المدعي العام هاكون وايكر بشدة خلال اليوم الاول من المحاكمة ان « اغتيال المواطن المغربي احمد بوشيكي قــد نفذته عصابة اغتيال محترفة ، عملت بأوامر المخــابرات الاسرائيلية الرسمية الموساد والشين بيت » . وبالاضافة الى ذلك فقد اقترح المدعي العام ان مجموعة الارهاب من خمسة عشر عضوا هي المسؤولة في الغالب أيضا عن العمليات الشبيهة في روما وباريس . وأكد هاكون وايكر ان احد المتهمين ، وهو ابراهام جهمر ، مرتبط مباشرة مع الموساد . وقد كشف النقاب في النهاية عن هوية جهمر الحقيقية من خلال عدد كبير من البراهين . واعترف في المحكمة باسمه الحقيقي ، ولكنه استمر في اصراره على انه طالب اقتصاد وعلوم سياسية ... وأصر على ان اول مرة سمع فيها ان رجلا قتل كانت في اليوم التالي لاعتقاله ، وان اول مرة سمع فيها باسم احمد بوشيكي كانت خلال الاستجواب وانكر ايضا معرفته بزوي ستانبرج قبل ان يقابله في مطار فورينبو في الثامن عشر من تموز (يوليو) ، (كان ستانبرج سائقا في السفارة الاسرائيلية بينما كان جهمــر السكرتير الاول فيها !!) او انه راى على الاطلاق صورة الرجل المفترض فيهم ان يجدوه . وعندما سأله القاضي عن مهمته في النرويج قال انهــا « جمع معلومــات حول خطط العــرب لخطف الطائرات » .

واخيرا قال له القاضي « ان لك ذاكرة قوية جدا فيما يتعلق باشياء غير مهمة ، مثل ما تناولته من طعام على الغداء الخ يوم الاغتيال ، ولكن عندما نأتي الى أشياء مهمة فانك بكل بساطة لا تذكر — يا للغرابة ! »

وعلى اي حال فقد استطاع البوليس تصور ما حصل فعلا ، في ليلهامر من خلال كشف هويــة ابراهام جهمر .

اعلن الستة المتهمون جميعا انهم ابرياء من قتل احمد بوشيكي او التخطيــط لاغتياله . ولكنهــم اعترفوا انهم عاشوا او كانوا قد عاشوا فــي اسرائيل ، واعترف اربعة منهم انهم دخلوا النرويج بجوازات سفر مزيفة .

طلب مجلس الدفاع ان تكون المحاكمة سرية من اجل امن المتهمين لكن المدعي العام هاكون وايكر رفض ذلك القول « يجب ان يطلع الجمهور على هذه **القضية القذرة** . يجب ان نفتح اعين الناس على كيف تلعب اللعبــة السياسيــة بالارواح البشرية » . ولم يتم سوى جزء من المحاكمة في جلسات سرية نظرا « **للعلاقات مع البلدان الاجنبية**» (اسرائيل) .

أثبت هاكون وايكر انه كان لاعضاء عديدين من المجموعة اتصالات مع بعضهم بعضا في اوروبا خلال السنوات القليلة الاخيرة . واقاموا في كل من روما وباريس عندما اغتيل هناك وائل زعيتر وباسل الكبيسي ومحمود الهمشري واحمد بوديا . ولم يعثر على القتلة ابدا . واغلب الظن ان السفــارة الاسرائيلية في باريس قاعدة العمليات للمجموعة . ولقد تأكد ان دان ايربل وسلفيا رفائيل قد تعاونا من قبل مع جهمر ونفذوا بعض المهمات . واقترح وايكر ان لديه اعترافات اثنين من المتهمين تثبت بجلاء علاقة الموساد والتصفيات في روما وباريس .

« عرفت سلفيــا رفائيل تحت اسم باتريشــا روكسبورج خلال العام ١٩٦٩/٧٠ ، عندما كنت مسؤول مكتب صحيفة « الديلي ميل » في باريس». هذا ما قاله الصحافي البريطاني جيمس ماشــر كشاهد في المحكمة . « لقد عاشت هناك وعملت كمصورة لصحيفة الديلي ميل والديلي سكتش . ظننا جميعا انها كانت كندية » . لقد اعتادت ان تملك نقودا كثيرة وتقوم برحلات كثيرة الى الخارج بالطائرة . في احدى المرات أرتني البوما فيه صور عرب عديدين ، معظمهم اردنيين (...)

بعد المعلومات التي تلقاها البوليس النرويجي ، عثر البوليس على شقة في باريس تعود الى زوي ستانبرج . وفي هذه الشقة عثر على ١١ مفتاحا تعود الى عناوين لعملاء اسرائيليين . كان على المفاتيح علامات واسماء سينمات ومسارح ، ولكنها في الواقع تعود الى شقق في الجوار . احد المفاتيح وعليه العلامات « ايفل » يعود الى شقة سلفيا رفائيل (...) تقع الشقة قرب برج ايفل. وفي تلك الشقة عثر ايضا على دفتر ملاحظات يحوي ارقام شيفرة. حل البوليس الشيفرات وكانت النتيجة عدة أرقام تلفونية تعود الى شقق في باريس ، احداها لجوناثان انجلبي الذي هرب من النرويج واغلب الظن انه احد القتلة ، وشقة اخرى تعود الى ابراهام جهمر ، وقد أعلم هاكون وابكر المحكمة بأن الشقق السبع جميعا ربما كانت تعود الى « مجموعة ليلهامر » . وكانت امرأة من البوليس النرويجي ، اسمها ماجينهايلد ارنستاد ، في باريس للتعاون مع البوليس الفرنسي وقد قدمت المواد التي جمعتها ، مثل بعض الاوراق المكتوبة بالعبرية . واستجوب زوي ستانبرج وميشيل دورف بشأن هذه الوثائق ، لكنهما رفضا التعليق عليها .

يبدو ان لدى الادعاء براهين كثيرة على ان نفس المجموعة التي عملت في النرويج شاركت ايضا في تصفية ممثل فتح الرسمي في روما وائل زعيتر في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢ .

هناك اوجه شبه كثيرة بين العمليتين فالمسدس المستعمل في قتل وائل زعيتر هو من نفس نوع المسدس الذي استعمل في قتل احمد بوشيكي . كما أن كليهما قد قتل باثنتي عشرة رصاصة، وقد اكتشف البوليس الايطالي ان احدى السيارات استأجرتها امرأة تحمل جواز سفر كنديا . وفي كل من ليلهامر وروما عمل حوالي ١٥ شخصا في سيارات مستأجرة . وقد كشف القاضي الايطالي فرنسيسكو أماتو ان اربعة عشر من الخمسة عشر متهما او مطلوبا في عملية « ليلهامر » مشبوهون باغتيال وائل زعيتر في روما . وقد يطالب بتسليمهم! كما وتأكد خلال المحاكمة ان عددا من المتهمين كانوا في باريس عندما اغتيل الدكتور العراقي باسل الكبيسي ممثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، في ابريل (نيسان) ١٩٧٣ تحت ظروف مشابهة . (اكتشف البوليس الفرنسي ان خمسة اعضاء في مجموعة ليلهامر يحملون جوازات سفر فرنسية) .

لكن السؤال ما زال مطروحا حول ما اذ كان كل المتهمين في قضية ليلهامر قد شاركوا مباشرة في بلدان اخرى . لقد أضاع دان ايربل جواز سفره سبع مرات خلال خمس سنوات ، وهكذا يمكن على سبيل المثال ان تكون هوية دان ايربل ، وليس الشخص ، هي التي تقوم بأعمال الارهاب في روما وباريس !

ماريان جلادنكوف ودان ايربل : اكثر من زود البوليس بالمعلومات بناء على ما تقوله صحيفة اكسترا بلادت الدنماركية المسائية ، فان ماريان جلادنكوف اخبرت البوليس بعد اعتقالها بوقت قصير انها انضمت دون نية منها الى مجموعة في تل ابيب كانت مهمتها ايجاد وقتل عضو في ايلول الاسود في النرويج . وخلال استجواب البوليس لها قالت مريان انها ظنت ان عملية النرويج التي طلب منها المساعدة فيها بسبب معرفتها للغة ، يتم تنفيذها من قبل منظمة مخابرات مضادة في اسرائيل.

وخلال اليوم الاول من المحاكمة ، اخبرت البوليس انها اشتركت في اجتماع عقد في اسرائيل مع عدد من المتهمين الاخرين حيث تكلموا حول العملية في النرويج ، وعرضت عليهم صورة لرجل . ولكنها اكدت في المحكمة انها لم تكن تعلم ان شخصا ما سيقتل . واعترفت انها انضمت الى العملية باكملها فيمراقبة احمد بوشيكي واحمد بوديا،ولكنها اخبرت بستاوزر وراؤول بقناعتها ان احمد بوشيكي ليس هو الرجل الذي يطاردونه . وفي وقت سابق اخبرت البوليس انها سمعت في السيارة على الطريق الى اوسلو ان احمد بوشيكي قد صفي ، لكنها غيرت رأيها خلال المحاكمة وقالت ان اول علمها بالتصفية كان بعد اعتقالها .

الكشف عن شبكة عملاء اسرائيلية في جلسة مغلقة

كشف العميل الاسرائيلي دان ايربل بعد فترة وجيزة من اعتقاله معظم عملاء مخابرات اسرائيل في اوروبا . وقد سمى الشخصيات الاساسية ومقراتهم ، خلال استجواب اجراه معه مفتش المباحث ستينار رافلو الذي اعطى ايربل وعدا بالكتمان .

لكن المدعي العام هاكون طلب من المحكمة تحرير رافلو من ذلك الوعد . وافقت المحكمة على ذلك ،

وخلال جلسة مغلقة لم يحضرها سوى القاضي هاكون وايكر والمتهمين الستة ومجلس الدفاع ، كشف رافلو القناع عن شبكة عملاء الموساد في اوروبا : الشيفرات وهوية الذين نفذوا العمليات الارهابية ضد الفلسطينيين في روما وباريس . وقد صنفت كل المعلومات فورا كمعلومات « غاية في السرية » ، ولكن السؤال ما يزال مطروحا حول مدى ثقة الموساد وتل ابيب بالا تتسرب تلك المعلومات الى الخارج .

وقد علق خبراء الامن النرويجيين على تلك الجلسة المغلقة قائلين : « سيكون على الموساد ، أغلب الظن ، ان تعيد تنظيم كامل شبكة عملائها في اوروبا » .

وجاء في شهادة ستينار رافلو في المحكمة : « لقد استجوبت دان ايربل بعد اعتقاله بفترة قليلة ، وقال انه عرف مسبقا بمخططات تصفية احمد العرب ، وان مهمته كانت المساعدة في العملية . وقال انه ظنها عملية سياسية ضد منظمة ايلول الاسود ، وان الحكومة الاسرائيلية تتحمل المسؤولية » . وعندما سئل عن ماذا سيحصل لاعضاء ايلول الاسود الذين تتعقبهم مجموعته ، اجاب دان ايربل : لا اعرف ، ولكن من المحتمل ان يقتلوا او يخطفوا .

لقد دون رافلو كل شيء خلال الاستجواب ، ولكن عندما قرأه فيما بعد ، رفض ايربل الاعتراف به قائلا ان ما قيل ليس صحيحا . « كان انطباعي ان ايربل خاف فجأة من مضاعفات ما قاله ، ورفض بالتالي افادته السابقة » ، هذا ما قاله رافلو امام المحكمة . لقد كان ايربل متأكدا ان القضية برمتها ستحل بصمت في حال اتصال البوليس النرويجي بالسلطات الاسرائيلية . وقال مباشرة انه سيتم عندئذ شرح كل شيء .

حتى ان ايربل طلب من رافلو الاتصال برقم تلفوني في تل ابيب يعود الى المخابرات الاسرائيلية، الموساد ، والسؤال عن مايكو الذي كان يعمل في نفس مكتب ابراهام جهمر والذي سيؤكد ان ايربل قد ارسل رسميا . وعندما ذكر رافلو رقم التلفون ٢٥٥٢٣٠ في المحكمة ، اصر ايربل على انه يعود في الواقع الى شركة مواد غذائية كان يعمل لديها.

لقد استجوب دان ايربل ثلاث عشرة مرة قبل المحاكمة . ومما قاله في المحكمة : « بعد اعتقالي مباشرة كنت معنيا بتأكيد ان القضية كلها لها علاقة باسرائيل الرسمية ، لاعتقادي ان البوليس النرويجي سيقوم بناء على ذلك بالاتصال بسفارتنا في اوسلو ، ويطلق سراحي » . وقد ناقض نفسه مرارا عديدة حتى ان القاضي الرئيسي ، ايرلنغ هوجن ، خلص الى ما يلي : « يبدو انك تكيف ايضاحاتك لتلائم حاجاتك الفورية » .

وخلال جلسة مفتوحة ، سأل المدعي العام هاكون وايكر ايربل حول اجتماع كان قد اخبر البوليس سابقا انه عقده مع ابراهام جهمر بعد مغادرة اسرائيل بقليل ، لكنه انكر ذلك في المحكمة. وقد أخرجت شواهد لها علاقة بأحداث داخل اسرائيل من وراء الابواب المغلقة سابقا ، فاعترض ايربل على طرحها في محكمة علنية قائلا : « كأي شخص آخر في اسرائيل ، لا يمكنني الدخول الى وزارة الدفاع » . وكانت زلة لسان ايربل الظاهرية في الاشارة الى وزارة الدفاع هي اول تلميح عن وظيفة جهمر الحقيقية في اسرائيل ، وان المخابرات العسكرية (موديعين) قد تكون وراء تصفية أحمد بوشيكي . وفي هذه الحالة سيتحمل موشيه دايان الذي يرئس موديعين المسؤولية السياسية للعملية (...)

احمد بوشيكي

ثمة مجموعة نقاشات حول ما اذا كان احمد بوشيكي منخرطا في اية جماعة عربية مناضلة ، مثل منظمة ايلول الاسود . وكتبت الصحيفة الدانماركية المسائية « اكسترا بلادت » خلال المحاكمة : « لم يكن هنالك ادنى قدر من البراهين على ان للعملاء الاسرائيليين اي سبب لتصفية أحمد بوشيكي . لقد اقتنعنا جميعا بذلك في المحكمة عندما قالت سلفيا رفائيل انه حتى يوم القتل لم تكن المجموعة تعرف شيئا عن احمد بوشيكي . لقد راقبوه ، فقط لانهم اعتقدوا بامكانية كونه عدوا محتملا » .

وقد قال حمو احمد بوشيكي في المحكمة : « لا استطيع فهم ان اسرائيل لا تعرف انه عند وقوع جريمة قتل في مجتمع كالمجتمع النرويجي ، فان القاتل سيعثر عليه ويدان ... كان أحمد شخصا لطيفا جدا ، منفتحا وموضع ثقة . لا أصدق انه كان متورطا في عمل سياسي سري . لقد كان جل

اهتمامه منصبا نحو الجنس البشري ، ولم يكن شيء يثير الشبهات حول نمط حياته . عائلتنا تسأل: لماذا قتلوه ؟ والجواب الوحيد الذي نجده ، ان ذلك كان عملا سخيفا » .

وقالت توريلد بوشيكي : « كان احمد نشطا في حرب التحرير الجزائرية ضد فرنسا ... لم ألاحظ أية نشاطات خاصة في أيام ما قبل اغتياله ...».

وكتبت صحيفة « فريهتن » الاسبوعية النرويجية، الشيوعية : « قال المدعي العام هاكون وايكر في كلمته الافتتاحية ان احمد بوشيكي قد انضم الى حركة التحرير الجزائرية، واصبح فيما بعد سكرتيرا نقابيا « مناضلا » في المغرب . كما واورد مقتطفات من مذكرة للمعارضة المغربية حول موقف أحمد بوشيكي المعادي للصهيونية . ان هذه الخلفية تؤكد وجود عمل سياسي وعمل بعيد المدى يتعلق بنضال الشعب العربي من أجل تحرره الوطني ونضال العمال من أجل حقوقهم ، أكثر مما يتعلق بحلول سهلة من خلال أعمال ارهاب فردي » .

قرار الحكم

وفي نهاية المحاكمة تلقى المدعي العام هاكون وايكر ورئيس قسم الجنايات رولف جهرمان تهديدات بالقتل .

وقد قال هاكون وايكر امام المحكمة بعد اسبوعين من توالي الاحداث : « ان العملاء الاسرائيليين الذين اعتبروا احمد بوشيكي فدائيا عربيا متخفيا، قد توصلوا للرجل الخطأ ، وقتلوا شخصا بريئا ». واصر وايكر ان الموساد تقف وراء عملية الاغتيال. وقال مع انه لا يستبعد ان يكون بوشيكي شخصا مهما ، لم يكن ثمة ما يدعو لاعتباره عضوا في « ايلول الاسود » .

وقد أفاد ان مجموعة عملاء « الموساد » كانت تطارد زعيم « أيلول الاسود » علي حسن سلامة، واورد مقتطفات مما قالته رئيسة الوزراء جولدا مائير ووزير الخارجية ابا ايبان خلال اسبوع الهجوم في ميونيخ تنص على « ان الارهابيين العرب سيلاحقون ويصفون اينما وجدوا » . (....)

وطالب هاكون وايكر بالسجن ست سنوات ونصف لماريان جلادنكوف وزوي ستانبرج وميشيل دورف ، وست سنوات لسلفيا رفائيل ، وتسع سنوات لابراهام جهمر ودان ايربل .

وقد ورد في قرار الحكم النهائي ان المخابرات الاسرائيلية كانت وراء تصفية أحمد بوشيكي . واعربت المحكمة العليا في جلسة مغلقة عن رأيها في علاقة مجموعة العملاء بمخابرات اسرائيل الرسمية . ولم يذكر في المحاكمة المفتوحة اي من التنظيمات الاسرائيلية كان وراء العملية، لكن ذلك جاء ضمنا، «لقد كانت العملية التي تشتمل على ١٥ـ١٧ عميلا كبيرة وجيدة الاعداد وكلفت اموالا طائلة بحيث لا يمكن الا ان تكون المخابرات الاسرائيلية وراءها ، الامر الذي اعترف به بعض المتهمين ايضا». ولكن لم تتم ادانة اي من المتهمين لاقترافه بالفعل جريمة القتل . وقد قالت المحكمة ان القتلة هم جوناثان انجلبي وجين لوك سفنير اللذان ما زال البحث جاريا عنهما.وقد حكم على ماريان جلادنكوف بالسجن سنتين ونصف ، وعلى سلفيا رفائيل وابراهام جهمر خمس سنوات ونصف، وعلى دان ايربل خمس سنوات . وتمت تبرئة ميشيل دورف ، وحكم على زوي ستانبرج بالسجن سنة واحدة ، لكن أخلي سبيله .

الحكومة النرويجية تحتج الى اسرائيل

سلم وزير الخارجية النرويجي يوم ٥ شباط (فبراير) احتجاجا شفويا الى السفير الاسرائيلي يتسحاق كينان ، مؤكدا ان حكومته لا تستطيع ان تسمح او تحتمل استعمال الاراضي النرويجية لاعمال كهذه ، بغض النظر عن الدوافع او المنطلقات .

ان هذا الاحتجاج أكثر من ضعيف ويتمشى مع قول لاحق لرئيس الوزراء ت. براتلي بأنه لا يعتقد ان ما يسمى قضية ليلهامر « ستؤثر ، من حيث الاساس ، على العلاقات الودية بين النرويج واسرائيل ».

ويجدر التأكيد ان رئيس وزراء النرويج الاشتراكي الديمقراطي هو صديق شخصي للقادة الاسرائيليين ، وان لحزبه أفضل العلاقات مع الهستدروت وحزب المابام في اسرائيل . وهكذا ، ليس مثيرا للدهشة ايضا ان براتلي سينظر في طلب للعفو عن العملاء الاسرائيليين الخمسة الذين ادينوا! والسؤال هو ما اذا كانت السلطات النرويجية مهتمة اصلا في كشف قضية ليلهامر كاملة ؟

المخابرات النرويجية

كيف أمكن القاء القبض في النرويج على العملاء الاسرائيليين ، الذين استطاعوا الهرب من البوليس الفرنسي والايطالي والانتربول بعد قيامهم بعمليات مشابهة — هل البوليس النرويجي أكثر ذكاء ؟ بالطبع لا .

وتبعا لما يقوله جين جويللو (الذي سجن لكشفه النقاب عن المخابرات السويدية السرية ، أي.بي، عبر سلسلة مقالات) فان الجواب بسيط بقدر ما هو مخيف « ليس هنالك أي.بي في النرويج لحماية الاسرائيليين (كما كان الحال في روما وباريس) . حاولت المخابرات العسكرية النرويجية التي أخبرها الاسرائيليون عن عملية قادمة (ضد « الارهابيين » الفلسطينيين) ان تمنع البوليس النرويجي العادي عن ملاحقة عملية الاغتيال ، ولمحت ان القضية حساسة وتؤثر في العلاقات مع البلدان الاجنبية ».

ويتابع جويللو قائلا : « نعرف الان جميعا ان المخابرات الاسرائيلية هي التي « خدعت » البوليس في البلدان الاوروبية الاخرى . يوجد في فرنسا وايطاليا وانجلترة والسويد مخابرات سرية جيدة الارتكاز تتعاون مع « الموساد » و « الشين بيت » الاسرائيلية ضمن اطار التعاون التقليدي الغربي ضد اوروبا الشرقية والعالم العربي والعالم الثالث ... بهذه البساطة كان تفسير « المناعة » الاسرائيلية . ولان بعض رجال البوليس النرويجي العاديين عانوا من التحيز ، وارادوا ايجاد القتلة واعتقالهم فان التنظيم (السري) تهاوى بأكمله ».

وتساءلت صحيفة « فريهتن » : « كيف دخل العملاء الاسرائيليون البلد بسلاحهم ؟ هل حصلوا عليه من السفارة الاسرائيلية او من مصادر اخرى في النرويج؟ هل بنت اسرائيل مجموعات دعم خاصة بها في النرويج ، يكون هدفها مساعدة جولدا مائير ودايان على مراقبة العمال العرب في بلدنا ومد عصاباتهما الارهابية بالاسلحة ؟ » .

قال المدير العام السابق للتلفزيون الاسرائيلي هاجاي بنسكر ، خلال المحاكمة في اوسلو « كانت غلطتهم الوحيدة انهم لم يهربوا بعد تنفيذ العملية».

بالطبع كانت تلك « غلطة » ، لكن بنسكر نسي ان يذكر « غلطة » اخرى — نزاهة الشعب النرويجي .

أكدت قضية احمد بوشيكي في النروج ان للمتهمين بالاغتيال (والفارين منهم ايضا) ، وهم اعضاء المنظمة الارهابية الصهيونية « غضب الرب » ، علاقة واضحة بالاغتيالات التي حصلت في روما وباريس .

في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٧٣ نشرت صحيفة « جروسالم بوست » تقريرا عن مجلة « وورلد ماجازين » كتبه رفائيل روتشتاين يقول فيه «ان اهارون ياريف، مستشار رئيسة الحكومة، غولدا مئير ، الخاص للشؤون الامنية ، يدير العمليات ضد قادة حركة المقاومة الفلسطينية » ، ويضيف روتشتاين ان عملاء اسرائيل للارهاب المضاد مسؤولون عن اغتيال وائل زعيتر في روما وغسان كنفاني في بيروت .

ان الارهابيين الاسرائيليين الذين قاموا بالعملية في النروج هم ، على الاغلب ، مسؤولون عن مقتل وائل زعيتر ، وباسل الكبيسي ، واحمد بوديا . ولذلك نستطيع ان نفترض انهم ايضا المسؤولون ، او على الاقل مشتركون ، عن مقتل زوجي غسان كنفاني . ومن المحتمل جدا ايضا أن يكونوا قد شاركوا في الاغارة على بيروت ليلة العاشر من نيسان عام ١٩٧٣ ، والتي قتل فيها كمال ناصر وكمال عدوان وابو يوسف وزوجته واخرون غيرهم . ومن المعروف ان واحدا منهم على الاقل وهو دان ايربل قدم الى لبنان والاردن اكثر من مرة في السنوات الاخيرة الماضية .

آني كنفاني

[٢]

منير الريس ــ المناضل الذي خسرناه

في منتصف الشهر الماضي توفي منير الريس . وخسر النضال الفلسطيني ، وخسرت غزة رجلا آخر كان جزءا اصيلا من مسيرتها وأحد الذين صنعوا الكثير لكي تكون غزة العلم الذي يرفرف في أعلى سارية النضال الفلسطيني .

غزة التي اصبح اسمها احيانا يرمز لقنبلة تلقى على جنود الاحتلال ... القلعة المحرمة على جنود الاحتلال .. تاريخها مع الاحتلال تختزنه اخبارها اليومية التي كانت تتناقلها الصحف ووكالات الانباء يوميا . قنبلة تلقى . جرحى وقتلى من جنود العدو . شهيد يسقط . اعتقالات . تهجير . ومزيد من الغرق للعربة العسكرية الاسرائيلية في الوحل. وكل يوم ، بل كل لحظة ، نتسول وبكل طريقة ممكنة : لا مساومة ولا مهادنة مع الاحتلال . غزة لم تتكلم كثيرا وعندما كانت تحكي كانت تقول رصاصا في صدور المعتدين . غزة التي تصمت بكبرياء ، وتحاور المحتلين رصاصا ودما ، حكايتها طويلة وجذور نضالها عميقة ونضالها ما بعد النكسة ، خير طال اعداده . ومنير الريس احد الذين تعهدوا الزرع الذي اعطى خير غزة ما بعد عام ٦٧ . واذ كان جزءا وطرفا بكل ما مر على القطاع منذ اصبح القطاع بوضعه الحالي . ولقد كان دائما لا يعرف كيف يساوم وفلسطينيا يعرف طريقه جيدا في جميع مراحل عمر القطاع . ذلك هو منير الريس والذي بدأ يتشكل دوره السياسي مع انبثاق القطاع . والحديث عن الرجل سيكون جزءا من الحديث عن القطاع والمعارك التي خاضها والعود الذي أصلب جيدا منذ زمن طويل ليصبح غير قابل للكسر وهو يجابه عدوان واحتلال اسرائيل . ومن هنا سيكون الحديث عن منير الريس .

بدأ النشاط السياسي لمنير الريس قبل النكبة من خلال مشاركته في الحركة الوطنية التي شهدها القطاع بين رشدي الشوا مرشح الحكومة البريطانية لانتخابات البلدية . والذي كان يمثل جماعة حزب الدفاع ، وهو الحزب الذي عبر عن الثورة المضادة في فلسطين والذي كان يدعو علنا للتعامل مع الانتداب البريطاني في فلسطين وبين فهمي الحسيني مرشح التيار الوطني في ذلك الحين ممثلا للحزب العربي والذي كان يقف في مواجهة حزب الدفاع . وبالرغم من فوز فهمي الحسيني في تلك الانتخابات فلقد عينت الحكومة البريطانية رشدي الشوا رئيسا للبلدية ، ولقد خاض منير الريس في ذلك الحين المعركة الى جانب فهمي الحسيني ولعب دورا كبيرا في فضح التعاون الذي كان قائما بين بلدية تل ابيب وبلدية غزة ، والذي عبر عن نفسه بقرض مقداره عشرون الف جنيه قدم لبلدية تل ابيب من بلدية غزة ، وكان ذلك ابان معارك ١٩٤٨ . والدور الذي لعبه منير الريس في فضح ذلك القرض الذي قدمه رشدي الشوا ومن وراء ظهر اعضاء بلدية غزة حينذاك ، كان هو الدور السياسي البارز الذي احتله الريس .

لقد أقيل الشوا اثر ثورة عام ١٩٥٢ وسلمت البدية الى الشيخ عمر صوان وكان منير الريس عضوا في البلدية التي شكلت في ذلك الحين . وبالنظر للطبيعة الخاصة لمجلس البلدية في غزة والتي تتمثل في كونها آنئذ الهيئة الفلسطينية التمثيلية الوحيدة في القطاع ، فقد كان دور البلدية سياسيا بالدرجة الاولى ، ولهذا استمر الصراع بين التيار الرجعي ممثلا برشدي الشوا وبين التيار الوطني الذي بدأ يلتف حول ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ . ولقد استطاع منير الريس ان يطرح مستوى جديدا للصراع مع القوى الرجعية ، باعتبار ان الخصوم التقليديين لآل الشوا كانوا يحصرون معركتهم في اطار النفوذ التقليدي ومحاولة تثبيت نفوذهم العشائري ليس الا . ولقد ساهم هذا في ابقاء صراعهم محدودا بآفاق ضيقة وأفسح المجال واسعا لبروز بداية زعامة سياسية جديدة في القطاع التقطت جملة القضايا الوطنية التي كانت تجابه القطاع وبلورتها وقادت نضال الجماهير من اجل تحقيقها . كانت اولى تلك المعارك الحاسمة معركة التوطين والمشاريع التي طرحت بشأن توطين الفلسطينيين في سيناء ، كحل نهائي لمشكلة الفلسطينيين . ولقد طرح هذا الموضوع للتداول السياسي وكما يبدو فلم تكن الحكومة المصرية تعارض في الامر . ولقد كان هذا المشروع من أخطر المشاريع التي طرحت لتصفية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، ولقد احبط هذا المشروع تحت ضغط

الجماهير وتظاهراتهم الحاشدة ، وكان منير الريس أبرز الشخصيات السياسية المعروفة التي ساهمت في حملة التعبئة الجماهيرية ، متحالفا في ذلك الموقف مع الاحزاب الوطنية التي كانت موجودة في ذلك الحين بالقطاع . والمعركة الثانية الحاسمة التي شارك بها هي وقفة الاحتجاج العارمة التي وقفتها غزة ، وتظاهراتها الحاشدة ، مطالبة بالسلاح من أجل الدفاع عن النفس في وجه الاعتداءات المتكررة التي كانت تشنها اسرائيل على القطاع والتي بلغت ذروتها في مذبحة المحطة الشهيرة ، وقصف مستشفى غزة بمدافع الهاون مما ادى الى سقوط عدد كبير من الضحايا . واتسع نطاق تلك التظاهرات لدرجة بات كل وجود الادارة العربية في القطاع مهددا . وهنا لعب منير الريس دورا في ضبط تطور الاحداث فأظهر حرصا على استمرار الادارة العربية في القطاع يوازي حرصه على تسليح الجماهير وحماية الحدود وصد الاعتداءات . وفي تلك الفترة اطلق دعوته لتشكيل جيش فلسطيني مؤكدا على ضرورة الحفاظ على الشخصية الفلسطينية ودور غزة في الحفاظ على هذه الشخصية . وموقف منير الريس الحريص على استمرار الادارة العربية في ظل موقفه الصلب بالدفاع عن مطالب الجماهير كان مرتبطا بتقديره لابعاد اية دعوة قد تصل الى حدود تهديد وجود الادارة العربية في القطاع حيث تصبح غزة بعد ذلك لقمة سائغة لاسرائيل او في احسن الحالات الاردن . ولقد كان يقدر نبل الانفعالات الجماهيرية ولكن كان قادرا على رؤية اصابع القوى الرجعية التي كانت تحاول ان تستغل هذه الحالة من اجل تحقيق مصالحها السياسية والتي لا يمكن ان تتأمن في ظل الادارة العربية .

لقد أثمر ذلك التحرك السياسي لقطاع غزة في وضع الحكومة المصرية امام مسؤولياتها الوطنية وخرجت من اطار التردد الذي طبع سياستها آنذاك حيث وقعت صفقة الاسلحة التشيكية واطلقت العنان لحرب الفدائيين ، وكانت هاتان الخطوتان انجازا كبيرا للحكومة المصرية . وبدأ منير الريس يمثل حجما سياسيا يماثل المكتسبات التي تحققت وكرس كزعيم وطني وجماهيري في قطاع غزة ، خاصة وقد كان آنئذ يشغل رئاسة البلدية في غزة بعد ان شغل فترة عضويتها فقط ، وكان دوره على صعيد البلدية في مستوى الدور السياسي الذي أداه ، اذ استطاع ان ينظم بلدية غزة بطريقة حديثة ، وقام بعملية تطهير شاملة لها ووسع خدماتها بشكل كبير ، كان ذلك بالقياس بالفترة السابقة ، نجاحا باهرا . ومما جعل الجماهير تلتف حوله ان علاقته مع الناس لم تكن تخضع للمقاييس التي تحكم علاقة الزعامة التقليدية بجماهير غزة ، اي العلاقات الاقطاعية ، ذلك ان منير الريس لا يعتبر من العائلات « المالكة » في القطاع وما يفرزه ذلك من علاقات بالجماهير تقوم على منطق الفلاح والافندي ، ولقد اتاح له هذا ان يتعامل تعاملا مباشرا مع قضايا الناس بعيدا عن أي عقد طبقية ، ومكنه من تلمس المشاكل التي يعانون منها والعمل على حلها .

ابان احتلال اسرائيل لقطاع غزة عام ٥٦ وكان حينذاك رئيسا للبلدية رفض التعاون مع الاحتلال بشكل حاسم ورفض الاشتراك في مجلس البلدية الذي عينه الاسرائيليون برئاسة رشدي الشوا كذلك رفض دعوة وجهت اليه لزيارة المناطق المحتلة عام ٤٨ . وقام بالمقابل بتشكيل جبهة وطنية بالتعاون مع الاحزاب الموجودة حينذاك في القطاع وقامت الجبهة بنشاط سياسي تحريضي ضد الاحتلال ، وتسبب نشاطه هذا في اعتقاله بعد فترة قصيرة حيث بقي في السجن وفي زنزانة منفردة ولم يفرج عنه الا بعد الافراج عن غزة وخروج المحتلين الاسرائيليين في ٧ مارس عام ١٩٥٧ .

وكان الاسرائيليون قد تلكأوا في الانسحاب من قطاع غزة ، فبينما انسحبوا من بورسعيد في ٥٦/١٢/٢٣ ، تأخروا حتى ٧ مارس ٥٧ في قطاع غزة ، وتأخرهم هذا كان وثيق الصلة بمحاولات تدويل القطاع ، ووضعه تحت الوصاية الدولية واشراف الامم المتحدة وعدم اعادته للادارة العربية ، وكانت هذه المحاولات منسجمة مع تحرك القوى الرجعية في داخل غزة وسعيها لتمرير مثل هذه المسألة . ومع انسحاب الاسرائيليين دخلت فورا قوات الطوارىء الدولية وبدأت تتصرف كجيش احتلال حيث شغلت الاماكن نفسها التي كانت تحتلها القوات الاسرائيلية ، وقامت برفع الاعلام الدولية فوق المباني العامة ودوائر ومؤسسات الدولة .

ولكن هذه السياسة لم تفلح ومؤامرة التدويل لم تمر ، وانفجرت غزة كلها في تظاهرة واحدة

حددت اتجاه مسارها مبنى البلدية حيث كانت قوات الطوارىء الدولية قد اتخذته مقرا لها ، وطالبت جموع المتظاهرين بالافراج عن منير الريس الذي كان معتقلا حينذاك وبرفع علم فلسطين ومصر مكان علم الامم المتحدة . وردت قوات الاحتلال الجديدة بالقنابل المسيلة للدموع ومحاولة تفريق المتظاهرين بالقوة وعندما صعد محمد علي شرف على سارية العلم الدولي ليقوم بانزاله ورفع العلم الفلسطيني أطلقت عليه قوات الطوارىء الدولية الرصاص وسقط شهيدا. والتهبت الجماهير وازدادت شراسة مما اضطر قوات الطوارىء للتراجع تحت الضغط. وكسرت الجماهير باب السجن واخرجت منير الريس الذي قام بعدها بفتح بقية الزنازين وافرج عن المعتقلين الموجدين فيها . وقاد على امتداد اسبوع كامل أخطر مرحلة تعرض لها القطاع ، حيث كانت غزة تجتمع يوميا في تظاهرة جماعية واحدة كانت تنتهي عند منزل منير الريس الذي كان يقود التحرك ، وكان منزله نقطة التجمع ، وحيث كان يدعو الى استمرار التظاهرات حتى « نفسد مؤامرة التدويل ونؤمن عودة الادارة العربية باعتبار ان المؤامرة مستمرة » . ومع قرار مجلس الامن بعودة الادارة المدنية العربية لقطاع غزة في ١٤/٣/٥٧ وبارسال مصر اول حاكم اداري لقطاع غزة بعد خروج قوات الاحتلال انهزمت فكرة التدويل وانهزم اصحابها . وكرس منير الريس زعيما وطنيا وجماهيرها غير منازع فيقطاع غزة.غير ان المؤامرات استمرت على مستقبل القطاع السياسي وبلغت قمتها بمحاولة فصل القطاع عن مصر وضمه الى الاردن . ولقد لعب سعدي الشوا دورا مركزيا في تلك المؤامرة ، وهنا قام منير الريس والقوى الوطنية في القطاع بدورهم في كشف أبعاد هذه المؤامرة الرامية الى محاولة طمس الشخصية الفلسطينية من خلال الحاقها بالاردن ، ولقد لعبت مجلة « نداء العودة » الشهرية التي بدأ باصدارها في تلك الفترة دورا هاما في عملية التحريض السياسي والجماهيري . وبالاضافة الى رئاسة البلدية ، تسلم منير الريس ايضا رئاسة الاتحاد القومي الذي انشىء في غزة في ذلك الحين على غرار الاتحاد القومي في مصر . وكانت هذه الخطوة تكريسا جديدا لدوره ولزعامته السياسية في القطاع ، خاصة وان كافة القوى السياسية في القطاع كانت تربطها به علاقة جيدة ويحظى باحترامها وتقديرها وفي الوقت الذي كان ابنه عضوا قياديا في حزب البعث في قطاع غزة ، فان نسيبه منير الريس كان عضوا قياديا في الحزب الشيوعي هناك ولقد كان هو شخصيا وثيق الصلة بفرع حركة القوميين العرب في قطاع غزة ، وكانت تربطه بهم صلات وثيقة وبينهم تعاون على اكثر من صعيد .

وعندما شكلت منظمة التحرير الفلسطينية ، لقيت الفكرة منه حماسا كبيرا . ولقد رشح ليكون عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني الاول الذي عقد في القدس . وتردد في حينه انه سيكون نائبا لرئيس منظمة التحرير ، ولكن الريس رفض عضوية المؤتمر ورفض حضور المجلس الوطني الاول وكان لموقفه هذا مجموعة من الاسباب ، ابرزها رفضه الشديد لقيام الملك حسين بافتتاح المؤتمر خاصة وان له موقفا تاريخيا مسبقا من هذه المسألة . وبالاضافة لهذا فلقد كان له تحفظ على بعض اعضاء المؤتمر الذين لم يعتبرهم خير من يمثل الشعب الفلسطيني، والاقدر على القيامبالمهام المطلوبة منهم ، كما كان هنالك سبب عميق آخر لموقفه هذا وعدم تفاؤله بالمؤتمر المذكورة هو لمعارضته الطريقة التي كلف بها السيد احمد الشقيري برئاسة المنظمة ، فقد شعر ان تكليف الشقيري كان لضمان تأييد جميع الدول العربية ، بينما تكليف شخص من نوع منير الريس مسألة لا تروق لبعض الدول العربية ، وكانت شخصية منير الريس تمثل نصرا للخط الوطني في حينه ، لا ينسجم مع جو الوفاق العربي ومناخ مؤتمرات القمة الذي ساد في تلك الفترة . وقد مارست الحكومة المصرية عليه ضغوطات هائلة لتغيير موقفه ولكنه صمد في وجهها ولم يذهب الى المؤتمر وحافظ على موقفه ، وكانت تلك بداية المضايقات التي تعرض لها على كافة الاصعدة الرسمية والشخصية . وفي المؤتمر الذي عقد بغزة عام ٦٥ عين فاروق الحسيني وحيدر عبد الشافي اعضاء في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وبدأ العمل في تشكيل البنيان التنظيمي للمنظمة في القطاع ، مع حملة سياسية من اجل قرار سياسة التدريب الاجباري والتجنيد الاجباري وغيرهما من الخطوات ، وفي هذه الفترة ايضا تزايدت المضايقات التي تعرض لها منير الريس نتيجة لموقفه السابق ، وخصوصا على صعيد دوره في البلدية

حيث وصل الى مرحلة عطلت بها اعماله كنوع من الضغط عليه .

ولقد كانت الانتخابات التي جرت عام ٦٦ من اجل استكمال الوحدات الاساسية للتنظيم الشعبي في قطاع غزة ، المناسبة التي ظهر بها الخلاف الى السطح في تلك الفترة انسجم موقف منير الريس انسجاما كاملا مع موقف حركة القوميين العرب من منظمة التحرير الفلسطينيـــة مقابل تحالف جميـــع القوى والشخصيات الاخرى التي دعمتها الاجهزة الرسمية المصرية ، لكن نتائج الانتخابات اسفرت عن نجاح العناصر التي دعمها تحالف منير الريس ــ حركة القوميين العـــرب ، وسقط في تلـــك الانتخابات أحد اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمـــة التحرير الذي ترشح عن احدى دوائر مدينة غزة ، الامر الذي ترتب عليـــه تغييرات عديدة في مكتب المنظمة بالقطاع اذ عين مدير جديد له . وكانت تلك الانتخابات بنتائجها التـــي تحدثنا عنها مناسبـــة لعودته لفعاليته السياسية والجماهيرية السابقة ، بالرغم من استمرار موقف الادارة المصرية منه ، حيث استمرت مضايقاتها له صعيد رئاسة البلدية وبالرغم من استمراره رئيسا فقد كان عمليا معتكفا بينما كان راغب العلمي يقـــوم بتصريف شؤون البلدية . وبذلك ولاول مرة منذ الخمسينات ، تم فصل بين الزعامة السياسية ورئاسة البلدية في قطاع غزة .

اثر احتلال اسرائيل لقطاع غزة عام ١٩٦٧ شكلت في القطاع جبهة وطنية من كافة القوى الموجودة في القطاع باسم « طلائع المقاومة الشعبية » ، وكان هو عضوا في القيادة السياسية لهذه الجبهة التي كان لها جناح عسكري . وقد لعبت الجبهة الدور الاساسي في نضال قطاع غزة من شهر تموز ١٩٦٧ حتى شهر شباط ١٩٦٨ وقامت بالعديد من العمليات العسكرية في القطاع دون ان تعلن عنها كما كانت تصدر نشرة سياسية باسم « الجماهير » . ولقد كان دور منير الريس فاعلا منذ اللحظة الاولى ، فقد وفر لهذا التنظيم الامكانات الضرورية سواء على الصعيد المالي ام على الصعيد السياسي ، فبحكم صلاته وفر للجبهة المال والسلاح ، ومن خلال معرفته بدوائر الدولة وامكاناتها استحصلت الجبهة على العديد من المطابع السرية والاختام والبطاقات وغيرها من المسائل التي تعتبر مـــن ضرورات العمل السري .

وقد انتهت هذه التجـــربة باعتقال العديد من قياداتها السياسية والعسكرية ومنهم منير الريس نفسه . وهنا يسجل له موقف مشهود اذ على الرغم من ان احد المعتقلين قد ادلى باعترافات مفصلة تتعلق به الا انه بقي مصرا على الانكار على الرغم من المواجهة التي تمت بينه وبين الذي اعترف ضده وذلك بحضـــور الحاكم العسكـــري شخصيا وليس المحقق مما اضطر سلطات العدو لايقافه اداريا فقط . وبموقفه هذا حفظ العديد من خيوط الاتصالات التي كانت بين يديه والتي كان مطلعا عليها بحكم مسؤوليته القيادية . وداخل السجن مارس دوره في تصليب مواقف المعتقلين الذين كان يتصل بهم جميعا ، ويحثهم على عدم الاعتراف وعدم الخوف من العدو . وخلال اعتقاله في السجن اشتدت عليه وطأة المرض وقد خشيت سلطات الاحتلال من ردة الفعل الجماهيرية لو حدث ان مسه مكروه وهو في السجن ، فأطلقت سراحه ووضعته قيد الاقامة الجبرية حتى ترحيله الاول في ١٣ ايلول ١٩٧٠ ، اذ قامت سلطات الاحتلال بابعاده هو ومجموعة من رجالات المناطق المحتلة الى لبنان . وقد جاء في أمر الابعاد « انه نظرا للخطر الذي يمثله وجودهم على الامن في المناطق المحتلة فلقد تقرر ابعادهم » .

مات منير الريس بالمرض الذي بدأ معه في فترة اعتقاله عام ٥٦ والذي اشتد عليه في زنزانته بعد عدوان ٦٧ . كان وطنيا ومخلصا وكان جزءا من حركة الجماهير ومنسجما مع قواها المنظمة . مات الرجل الذي لم يساوم مطمئنا الى انه أدى دوره كاملا .

حسين ابو النمل

[٣]

كيسنجر والولايات المتحدة والنزاع العربـــي الاسرائيلـــي

لقد استحوذت شخصية هنري كيسنجر علـــى مخيلة الكثيرين ، فالمكانة الرفيعة والنجاح الواضح للعيان يحدثان هذا التأثير دائما فالى اي فئة من الرجال ينتمي كيسنجر ؟ في جـــامعة هـــارفارد بالولايات المتحدة كان وليم ي. أليوت مرشـــده واستاذه ، وهو رجل وقور كثيرا فانتقل بـــين كامبردج وواشنطن ليضع خبرتـــه تحـــت تصرف العناصر المختلفة للحكومة الاميركية . وقد كان اليوت مولعا بمفهوم الواقعية السياسية الـــذي علمه الالمان للعالم . ويتلخص هذا المفهوم في أن على المرء [أي السياسي] ان يحيـــط علمـــا باهداف الدول الاخرى وتطلعاتهـــا السياسيـــة والاقتصادية والاجتماعية كي يستطيع التعامل معها أما البيانات والقرارات الصادرة عن تلك الدول فلا بأس من تجاهلها فالاهمية تكمن في مراقبة تحركات الدول المعنية وتتبع بحثها عن أسواق خارجيـــة ولعبات الحرب التي تمارسـها ومشاريع الانمـــاء الحربي التي تقرها اذ أن هذه التحركات هي التي تكشف النوايا الحقيقية للدول .

وقد تبنى كيسنجر ، بدوره ، مفهوم الواقعية السياسية فأصبحت نظرته للحياة عارية من الزخرفة تتبين العورة والبشاعة والطموح والجشـــــع والتزلف . وبالتالي لا يقيّم كيسنجر الناس قط بموجب ما يقولونه ولكن بموجب ما يفعلونه . وهو يدرك ان ممارسات الشعوب والامم مرهونة بمنطق المصلحة الذاتية المدروسة ، ذلك بغض النظر عما تدعيه وتبشر به تلك الامم. وهكذا لم يضع كيسنجر وقته في هارفارد بقراءة البيانات التي تصدرهـــا الحكومات لتبرر أعمالها « السيئة » كما تجاهل الخطب المنمقة المدروسة التي يبرر رؤساء الدول من خلالها اختلالا ما او توسيع رقعة نفوذ في منطقة أو اخرى . واستعاض كيسنجر عن هذه البيانات والتصريحات بجداول تتناول البنيـــــة التنظيمية للجيوش المختلفة وحجمها العددي والرتب ومستوى التدريب . كما اطلع على المعلومـــات والارقـــام المتعلقة بالتصدير والاستيراد والموارد الطبيعية الضرورية والاستثمارات الخارجية للدول المختلفة . ويضيق كيسنجر ذرعا بالاخلاقيات التي يحلو للسواد الاعظم من الناس ان يقيموا من خلالها الاحداث اليومية . وعلى سبيل المثال ورد في كتاباته مرارا عديدة انه ليس بالضرورة ان يكون احلال السلم ضمن برنامج العمل الدبلوماسي فاحلال السلم في العالم محال . اذ ان الشعوب والامم ستظل تتزاحم على رفع العيش والاسواق الخارجية ومناطق النفوذ . ثم ان المعاهدات وجدت لتخرق لان الشعوب والامم اليوم تتصف بالحيوية والطموح . وهيمنة السلم في عالم كعالمنا هذا أمر متعذر، وبالتالي علينا ان نكتفي بحالة استقرار نسبي . ويتوجب على العمل الدبلوماسي مجابهـــة الواقع الذي يتمثـــل في حـــالة استقرار نسبي تتخلله أزمات وحروب بين الفينة والاخرى . ومن العبث ان نتوقع ان يسود السلام العالم كافة بحيث يتمكن كل كائن بشري من التفيؤ تحت ظلال شجرته الوارفة .

ما هو العمل الدبلوماسي اذن ؟ العمـــــــل الدبلوماسي الناجح ليس مشروطا باحلال السلم بل هو مرتبط بالقدرة على تطويق الازمات والحروب وخفض العنف الى الحد الادنى الذي لا مفر منه . اما محك العمل الدبلوماسي فيتمثل بالقدرة عـــلى الحد من الحروب وخفضها الى نسبة معقولـــة وخوض الحروب فقط بغرض تحقيق أهـــــداف ممكنة .

ما هي أهداف كيسنجر القصوى في محادثات السلم بجنيف ؟ يرغب كيسنجر بالتوصل الى سلم يدوم عشرة أعوام على الاقل . أما احلال « سلم حقيقي » وفقا لتصورات الامم المتحدة المنعكسة في قرار الجمعية العامة للامم المتحدة ، الصادر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ فأمر ليس في برنامجه اذ انه يرغب في الوصول الى أفضل نتائج ممكنة ، في اطار الظروف الراهنة كي يؤخر اندلاع حرب جديدة . وفي الوقت نفسه يعمل كيسنجر على ان تبقى اسرائيل ، التي هزمت في حرب اكتوبر ، قوية عسكريا .

وفيما يلي أبرز الوقائع لاجتماع عقده كيسنجر مع مجموعة من المفكرين اليهود بشهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ وعبر خلاله عن آرائه في الحرب العربية الاسرائيلية الاخيرة . وقد تسربت انباء هذا الاجتماع الى العالم الخارجي تدريجيا منذ ذلك

الحين(١). استنادا الى هذه الانباء ، لم تجد حكومة اسرائيل وحكومة الولايات المتحدة ، بما فيها كيسنجر ، ضرورة للتحرك (من قبل الولايات المتحدة لمساعدة اسرائيل) عندما نشبت الحرب لاعتقادهم بأن العرب عاجزون عن مجابهة اسرائيل. وقد قدرت اميركا ان في استطاعة اسرائيل ان تربح الحرب في غضون ثلاثة او اربعة أيام . وبالتالي لم تهتم بامدادها بالذخائر . وأحد الاسباب التي ادت الى تأخر وصول المساعدات الى اسرائيل هو ان الحكومة الاسرائيلية لم تضع في حسابها انها ستحتاج الى هذه الشحنة الضخمة من الامدادات . واستنادا الى اقوال كيسنجر ، عندما دعت الحاجة الى ارسال مزيد من الذخائر استوجب تنفيذ هذه الخطوة ممارسة ضغوطات على الصعيد الداخلي لاجل اقامة جسر جوي وضغوطات اخرى على صعيد خارجي ، بالنسبة للبرتغال كي تسمح باقامة هذا الجسر الجوي عبر اراضيها . وقد ارسلت الولايات المتحدة الى اسرائيل عبر هذا الطريق ثلاثين بالمئة من مجموع مخزوناتها من الذخائر .

كذلك أسر كيسنجر بانه يؤمن بان اسرائيل قد خسرت الحرب استراتيجيا الا انها ربحتها تكتيكيا . أما بالنسبة للعرب فصمودهم لمدة سبعة عشر يوما بقيت جيوشهم خلالها سليمة ، هو دليل على انتصارهم . ويجب ان يعتبر العرب الجهة المنتصرة في هذه الحرب . وقد كان باستطاعتهم ان يحرزوا نصرا أكبر بكثير لولا الاخطاء التي ارتكبوها . هذا لو لم تسبق دباباتهم صواريخهم الى أرض المعركة، الامر الذي مكن الطائرات الاسرائيلية من تدمير الدبابات ، تكرارا كما حدث عام ١٩٦٧ .

وبالنسبة للماضي ، يوجه كيسنجر اللوم لاسرائيل والولايات المتحدة ويحمل نفسه اللوم كذلك لانه لم يستعمل الضغط من أجل احلال السلام في الوقت المناسب . فقد كانت الفترة التي أعقبت حرب حزيران (يونيو) مباشرة فترة ذهبية بالنسبة لاسرائيل اذ انه كان من المتوقع ان يبدي العرب استعدادا لاجراء بعض التنازلات والموافقة على التخلي عن بعض الاراضي وتحويلها الى مناطق مجردة من السلاح(٢).

أما بخصوص محادثات جنيف ، فان كيسنجر يرتأي ان تطرح القضايا التالية على بساط البحث: الحدود ، الامن (المناطق المنزوعة من السلاح)، الضمانات ، الفلسطينيون ، القدس . ويعتبر كيسنجر انه من الخطأ تناول جميع هذه القضايا في آن معا . وبالتالي يجب معالجة كل قضية على حدة والتدرج من مشكلة الى اخرى . وأهم هذه القضايا هي مشكلة خلق منطقة عازلة كبيرة [من حيث المساحة] بين الجيوش العربية والجيش الاسرائيلي . وهذا يعني اساسا وبالدرجة الاولى تحويل سيناء التي انسحبت منها اسرائيل الى منطقة مجردة من السلاح . أما بالنسبة لمرتفعات الجولان فالامر يختلف الى حد ما . غير ان الجولان يجب ان تصبح منطقة معزولة من السلاح ايضا . ولكن نظرا لطبيعة القذائف والاسلحة الحديثة ليس بالامكان اعتبار أي حدود او منطقة ، وسيلة لضمان الامن . لذلك ، وفقا لتصورات كيسنجر ، يجب الانتقال الى معالجة القضايا الاخرى المذكورة اعلاه في مؤتمر جنيف بعد الموافقة على الانسحاب. الا ان كيسنجر أكد دون التباس انه لا يطلب من اسرائيل الانسحاب كليا الى ما وراء حدود ١٩٦٧. فهو يأمل ان تكون الحدود الجديدة أفضل من حدود ١٩٦٧ وان يأتي الحل عن طريق المفاوضات. كما أكد بان اسرائيل لا يسعها ان ترفض الانسحاب من اراض يؤمل ان تتحول الى مناطق مجردة من السلاح . وبالتالي اوعز الى اسرائيل ان تتخذ موقفا صلبا في الظاهر على ان تدرك انه يترتب عليها ان تتنازل عن حصة كبيرة من الاراضي على ان لا يظهر هذا التنازل وكأنه ناتج عن ضعف او خشية او ارتباك بل ان يكون حصيلة مفاوضات .

أما الفلسطينيون فلم يأت دورهم بعد بالنسبة لكيسنجر اذ انه من الممكن كسر شوكتهم والسيطرة عليهم . كذلك يرى كيسنجر ان الفلسطينيين سيرغمون على القبول بالامر الواقع عندما تصل كل من سوريا ومصر من ناحية واسرائيل من ناحية اخرى الى تسوية . وفي هذا السياق ينسب الى كيسنجر قوله « بأن على الفلسطينيين ان يجوعوا أكثر»(٣) قبل ان يوافقوا على قبول وضع نهائي وحل حاسم . كما ستحسم مشكلة القدس بصورة نهائية .

قبل حرب اكتوبر توجب على اسرائيل ، نظرا للخطة التي رسمتها لنفسها اختيار أحد الامرين : اما ان تحافظ على الوضع الراهن او ان تحقق انتصارا عسكريا ساحقا . وقد رسمت هذه الخطة

بغية الحفاظ على حالة اللاحرب واللاسلم في الشرق الاوسط ، بمساعدة الولايات المتحدة ، فقد بدا ان كفة اسرائيل تميل للرجوع عسكريا في ظل هذا الوضع الذي مكنها من ترسيخ سلطانها على الاراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ .

ولتحقيق هذا الهدف ، برزت مقاومة عنيدة لاي محاولة تدخل من جانب الدول الكبرى في قضايا الشرق الاوسط . كذلك سعت اسرائيل جاهدة ان تستمر مساعدات الولايات المتحدة العسكرية لها حتى تبقى متفوقة على الدول العربية وكي يشعر العرب بأن لجوءهم الى السلاح لن يجدي فتيلا . أما العرب فكثيرا ما استلموا دعوات الى اجراء مفاوضات مباشرة مع اسرائيل مرفقة بتحذير مسبق مفاده ان الحدود الامنة التي تسعى اسرائيل لاقامتها تتطلب أكثر من تغييرات هامشية .

قبل الحرب [حرب اكتوبر] بفترة وجيزة قال أريك شارون ، القائد السابق للجبهة الاسرائيلية الجنوبية : « لا ترتكبوا أي خطأ ، نحن الان قوة عسكرية حقيقية ، وليس للمصريين امل في احراز انتصار عسكري علينا البتة »(٤) واستطرد شارون قائلا : « [تشكل] اسرائيل الان قوة عسكرية عظمى ، فكافة قوات الدول الاوروبية أقل شأنا منا . ان في استطاعتنا الاستيلاء على المنطقة الواقعة بين الخرطوم وبغداد في يوم واحد »(٥).

أما العرب فقد كانت مبادرتهم في الهجوم عبارة عن مغامرة يائسة خاضوها بغية زعزعة الاستراتيجية الاسرائيلية . وقد استوجب تحقيق هذا الهدف تحديا عسكريا من جهة العرب للوضع الراهن (المتمثل بتفوق اسرائيل عسكريا) شرط ان يتجنبوا الهزيمة . وقد كان هذا تماما ما نجح العرب في تنفيذه اذ انهم كسروا طوق حالة اللاحرب واللاسلم وشكلوا تحديا لتفوق اسرائيل العسكري .

وقد افترضت اسرائيل ومعها معظم دول العالم طوال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٨ و١٩٧٣ بأنها القوة العسكرية التي لا تنازع بين دول الشرق الاوسط . كما ساد شعور عام بأن جنديا اسرائيليا واحدا يوازي عددا من الجنود العرب مجموعين اذ ان هؤلاء يجهلون أصول القتال ، ثم انه ليس لديهم الرغبة في القتال على أية حال . وقد برر مسجل الصراع العربي — الاسرائيلي هذه الفرضية . ففي ١٩٤٨ — ١٩٤٩ كسبت اسرائيل حربها الاولى ضد جيرانها العرب الذين برهنوا عن فوضويتهم وقصورهم . وتكرر هذا الانتصار في العام ١٩٥٦ عندما نجحت اسرائيل في انتزاع مخرج على البحر الاحمر عبر مضيق تيران . ثم جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧ لتتوج الانتصارات الاسرائيلية حيث ان الجيش الاسرائيلي سحق الجيوش المصرية والسورية والاردنية مجتمعة . غير ان هذه الفرضية لم تلبث ان تحطمت . فقد برهن الجندي العربي [خلال الحرب الاخيرة] عن كفاءة في القتال ومقدرة على استعمال الاسلحة المعقدة . كذلك أظهر الجندي العربي ان باستطاعته ان يفاجىء الجندي الاسرائيلي من حيث لا يدري وان يتفوق عليه في المعركة تكتيكيا كما اثبت قدرته على العمل الجماعي المتناسق .

وقد ورد في « وول ستريت جورنال » ان حرب اكتوبر يجب ان تعطي اسرائيل فرصة للتفكير . فاسرائيل « تشبه مدينة محاصرة . فهؤلاء الذين [يقفون] وراء الاسوار ، يمكنهم كسب معارك عديدة دون ان ينتصروا كما ان باستطاعة اولئك الذين يقفون خارج الاسوار ان يخسروا مرارا عديدة دون ان يهزموا . اما الذين يدافعون عن المدينة فانهم يخسرون مرة واحدة فقط . لذلك من الصعب على اسرائيل ، الدولة الصغيرة ، ان تهزم جيرانها : مصر والاردن وسوريا ولبنان . فهي تفتقر الى الموارد والطاقة البشرية ، بينما سيظل العدو موجودا بغض النظر عن المعارك التي قد تكسبها اسرائيل . أما بالنسبة لاسرائيل فهزيمة واحدة كافية لان تشكل كارثة »(٦).

بالاضافة الى محو اسطورة « اسرائيل التي لا تقهر» ساهمت حرب اكتوبر في ابراز تبعية اسرائيل للولايات المتحدة واعتمادها عليها . وقد طالب ماك جورج بندي (Mc George Bundy) المستشار السابق لكل من الرئيسين كينيدي وجونسون لشؤون الامن القومي — بكشف شامل مسؤول عن التزامات الولايات المتحدة لاسرائيل والا تعرضت [الحكومة الاميركية] للوقوع بخطأ فادح كما حدث في فيتنام . وقد أكد بندي ان « الولايات المتحدة قد أصبحت قوة لا غنى عنها لضمان استمرار اسرائيل »(٧).

واستنادا الى دراسة أعدها الدكتور تيلمان عضو لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي ، « من المستبعد ان يسفر مؤتمر

جنيف عن أية قرارات شاملة في هذه المرحلة المبكرة » .

أما السبب الرئيسي وراء هذا الاحتمال فهو يرجع الى انه بالرغم من ان يارينغ (ممثل الامين العام للامم المتحدة في الشرق الاوسط) نجح ، الى حد ما نتيجة للحرب الاخيرة ، في اقناع الطرفين المعنيين بالاقلاع عن التشبث ببعض مفاهيمهم القديمة ، لم يحرز أي الطرفين بعد تقدما يكفي لردم الهوة القائمة بينهما . **فالحكومات العربية ، مثلا ، تظهر مرونة حيال قضايا تتعلق بالاعتراف [باسرائيل] وبالمناطق المجردة من السلاح وبالضمانات** . غير انها تظهر تصلبا تجاه [قضية التنازل عن بعض] الاراضي ... أما الاسرائيليون فهم لا يزالون على عهدهم في التصلب فيما يتعلق بالانسحاب الى خلف ما يعتبرونه هم « حدودا آمنة . أما الانسحاب [الاسرائيلي] الى ممرات سيناء فهو لا يمثل تحولا اساسيا في هذه السياسة او في المبادىء التي تقوم عليها »(٨).

ويعزى احتمال فشل مؤتمر جنيف في الوصول الى اتخاذ قرارات شاملة في هذه المرحلة الى سبب آخر هو تأثير الصهيونية على السياسة الخارجية للولايات المتحدة . فعندما ينحسر خطر اندلاع الحرب مجددا عن طريق فك الارتباط بين الجيوش سيتصاعد ، في تقديري ، الضغط الصهيوني في ردهات مجلس الشيوخ الامريكي تصاعدا كبيرا . وسيدفع هذا الضغط الولايات المتحدة ، بدورها ، الى الكف عن الضغط على اسرائيل كي تحقق انسحابا جغرافيا ذا أهمية او اية تنازلات اخرى تترتب عليها تسوية نهائية .

وقد حث آيرفنغ هو (Irving Howe) رئيس تحرير مجلة « ديسنت » (Dissent) اليهود الاميركيين على ان يتصدوا لكل الضغوطات التي قد تلجأ اليها الولايات المتحدة لحمل اسرائيل على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة . واضاف « هو » : « وقد يضطر [اليهود] في المستقبل ان يلجأوا الى أساليب أشد اثارة وعنفا: مثلا ، الزحف الى واشنطن . وقد يحين الوقت عندما يضطر اليهود الى اطلاق الصرخة اليهودية التقليدية [الداعية] للعنف . وقد تثير هذه الصرخة الاحتقار والاشمئزاز او ما أسوأ من ذلك . لنهيء اصواتنا ، ولكن في الوقت الحاضر هنالك عملا سياسيا وضغوطات [وعمليات] اقناع ، والصمت لا يحتمل »(٩).

كلمة اخيرة ، من الضروري الانتباه الى ان اقامة حوار مع الولايات المتحدة لا يشكل خطأ بحد ذاته . الا ان الخطأ يكمن في الافتراض بان اميركا ستحمل اسرائيل على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، خاصة في الوقت الذي تقوم به الدول العربية المعنية مباشرة بمفاوضات منفصلة فردية .

الدكتور عودة أبو ردينة

---

١ — **جويش ويكلي** ، ٧—١٣ آذار (مارس) ١٩٧٤ ، ص ١٥ .
٢ — **بوسطن ايفننغ غلوب** ، ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ ، ص ٧ .
٣ — **جويش ويك** ، ٧ آذار (مارس) ١٩٧٤ ، ص ١٥ .
٤ — **وول ستريت جورنال** ، ٨ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٧٣ ، ص ١٦ .
٥ — **فاينشال تايمز** (لندن) ، ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، ص ١٦ .
٦ — **وول ستريت جورنال** ، ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، ص ٢٠ .
٧ — **لوس انجلس تايمز** ، ٢٨ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٧٣ ، الجزء الثاني ، ص ٤ .
٨ — مجلس الشيوخ الاميركي ، لجنة العلاقات الخارجية ، **الشرق الاوسط بين الحرب والسلم**، ٥ آذار (مارس) ١٩٧٤ ، واشنطن .
٩ — **واشنطن بوست** ، ٩ شباط (فبراير) ١٩٧٤، ص ٩ .

[٤]
بومبيدو ((العربي)) ؟

بعد وفاة جورج بومبيدو الرئيس الثاني للجمهورية الفرنسية الخامسة في مطلع نيسان ، أجمعت غالبية الاوساط السياسية والصحافية العربية على اعتبار أنها فقدت « صديقا » آخر للعرب بعد ديغول بين الاصدقاء القلائل من زعماء العالم الغربي . فالى اي حد كان بومبيدو كذلك ؟ وما هو حقيقة موقفه من « المشكلة الفلسطينية »؟

حين برز فجأة على المسرح السياسي ودون أن يكون معروفا في الاوساط الواسعة ، بعد تعيينه رئيسا للوزارة الفرنسية بعد انتهاء حرب التحرير الجزائرية عام ١٩٦٢ ، لم يكن ماضيه يؤهله لاي موقف مسبق من القضايا العربية ، او حتى ربما كان يؤهله لموقف عدائي منها . ذلك انه شغل منذ عام ١٩٥٦ وحتى توليه رئاسة الوزارة منصب المدير العام لبنك روتشيلد (بنك غي دو روتشيلد رئيس الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد وأحد زعماء الحركة الصهيونية الفرنسية البارزين الذي ربطته ببومبيدو منذ مطلع الخمسينات صداقة حميمة)(١).

الا ان بومبيدو كان قبل كل شيء «رجل ديغول». ومنذ اواسط الاربعينات ، بعد تحرير فرنسا من الاحتلال النازي ، وهو من المقربين « للجنرال » يستشيره في القضايا الاساسية ويوكل اليه المهام الحساسة ، كل ذلك بعيدا عن الضوء والمعترك السياسي العام الذي لم يكن يلائم شخصية ابن فلاحي مرتفعات فرنسا الوسطى(١). وهكذا تولى بومبيدو في مطلع الستينات المحادثات السرية التمهيدية مع جبهة التحرير الجزائرية التي أدت فيما بعد الى لقاءات واتفاقيات ايفيان .

وبعد استلامه مقاليد رئاسة الوزارة ، عمل بومبيدو خلال ست سنوات في هذا المنصب في ظل ديغول الذي كان يشرف شخصيا على السياسة الخارجية الفرنسية . وكان الجنرال قد اختار بعد تخلصه من الحرب الجزائرية المرهقة ان يبدأ انفتاحا تدريجيا على العالم العربي ، بدأت معالمه تتضح في اواسط الستينات ، ثم توج بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بالموقف العلني المدين للعدوان الاسرائيلي وبحظر شحن الاسلحة عن اسرائيل فيما بعد . وكان بومبيدو ينفذ سياسة الجنرال دون أن يعبر عن موقف شخصي علنا حتى في فترة ابتعاده القصيرة عن الحكم بين صيف ١٩٦٨ وانتخابات الرئاسة في حزيران ١٩٦٩ . ولكنه عبر مرات قليلة في تلك الفترة عن تفهمه وتأييده للسياسة الديغولية في المنطقة العربية ، بينما اظهر في الحملة الانتخابية بعض اللين تجاه اسرائيل توقع منه البعض تحولا باتجاه تحسين العلاقات مع الدولة الصهيونية(٢).

وبالفعل فقد برزت بضعة تحركات بهذا الاتجاه. ففي تموز ١٩٦٩ ، اي مباشرة بعد انتخابه رئيسا للجمهورية ، اعلن استعداد فرنسا للعودة الى حظر « انتقائي » على شحن الاسلحة لاسرائيل كما كان الوضع قبل الاعتداء على مطار بيروت . ويبدو ان هذا الاجراء الذي ينص عمليا على اعادة شحن قطع الغيار وما يسمى « بالمعدات الدفاعية والمعدات ذات الطاقة الهجومية المتدنية(٢)، قد طبق عمليا . كما أبدت فرنسا في اطار السوق الاوروبية المشتركة تساهلا اكبر من السابق تجاه طلب اسرائيل بعقد اتفاقتفضيلي، تم التوقيع عليه في اواسط ١٩٧٠ .

الا انه يبدو ان هذا اللين لم يؤد الى تغيير جوهري في السياسة العربية لبومبيدو . وذلك يعود قبل كل شيء الى المصالح المتعاظمة لفرنسا في العالم العربي بحكم اعتمادها شبه المطلق على استيراد النفط العربي ، واهمية السوق العربية كمستورد هام للسلع الفرنسية ، الصناعية خاصة والحربية بشكل متصاعد . ولا بد من الاشارة الى ان فرنسا تحتل المرتبة الاولى في كلا الجدولين التصديري والاستيرادي للدول العربية مجتمعة . وقد أكد بومبيدو في مؤتمراته الصحافية اكثر من مرة على « المصالح الفرنسية المعنوية والمادية الكبرى في المتوسط »(٣) والعالم العربي بشكل خاص .

واضافة الى هذا العنصر الاساسي الذي سيبقى دون شك عنصرا حاسما في السياسة الخارجية الفرنسية لسنوات مقبلة عدة ، يشير بعض المحللين الى استياء بومبيدو من التصلب الاسرائيلي في « مشكلة الاراضي العربية المحتلة » وبعض مظاهر التحدي الاسرائيلية الصهيونية ، «كخطف»

السفن الحربية الخمس من ميناء شربورغ ليلة عيد الميلاد عام ١٩٦٩ والتظاهرات الصهيونية العدائية ضد بومبيدو خلال زيارته في شباط واذار ١٩٧٠ للولايات المتحدة (ويقال ان هذه الاستفزازات التي وصلت في مدينة شيكاغو الى حد الاقتراب مباشرة من الرئيس الفرنسي وزوجته لتوجيه الشتائم لهما قد تركت (أثرا لديه) .

ولكن سياسة الدول (وخاصة الدول الصناعية) المتقدمة لا تبنى بالطبع على انفعالات ذاتية . فالخيار الديغولي في الشرق العربي الذي حافظ عليه بومبيدو اكثر مما حافظ على اي خيار اخر(٣) هو خيار استراتيجي في صلب السياسة الفرنسية التي تطمح الى المحافظة على شيء من الاستقلال الاقتصادي والسياسي النسبي تجاه الولايات المتحدة . وقد عبرت تحركات ميشيل جوبير المقرب جدا من بومبيدو خلال العام الاخير عن استمرارية هذا الخيار .

أما ترجمة هذا الموقف سياسيا فقد انعكس في تصريحات بومبيدو التي تبرز فيها النقاط الاساسية التالية :

— التأكيد على عدم شرعية احتلال الاراضي من قبل اسرائيل وضرورة انسحابها من جميع هذه الاراضي كما ينص على ذلك التفسير الفرنسي لقرار مجلس الامن ٢٤٢(٤).

— التأكيد كذلك على وجود اسرائيل داخل حدود آمنة ومضمونة حسب نصوص هذا القرار وحقها في العبور في الممرات المائية الخ(٥) مع حثها على الاندماج في المنطقة كي « تصبح دولة شرق اوسطية كأية دولة اخرى في المنطقة وتتفادى ان تبقى دولة تقتصر على جنس واحد او دين واحد »(٦).

— الالتزام بفكرة التشاور بين « الاربعة الكبار » (اعضاء مجلس الامن الدائمين ما عدا الصين الشعبية) في اطار الامم المتحدة وهذه اساسا فكرة ديغولية منذ عام ١٩٦٧ .

الا ان تطور الاحداث غلبت وجهة النظر الامريكية القائلة بالتشاور بين « الدولتين الاقوى » (مع المناورة للانفراد بالعمل على الساحة كما اظهرت ذلك احداث ما بعد تشرين ١٩٧٣) . ففي مطلع عام ١٩٧٣ ، اجاب بومبيدو على سؤال صحفي عربي في مؤتمر عقده في باريس مؤكدا رغبة فرنسا بلعب دور في حل « المشكلة الفلسطينية في اطار التشاور بين « الاربعة الكبار » ، الا انه لاحظ ان «بعض هؤلاء الاربعة» لا يرغب في ذلك»(٧). وفي الفترة نفسها ، اي قبل حرب تشرين بأشهر عدة ، اثار الرئيس الفرنسي امكانية الوصول الى « اتفاق مرحلي خلال الاشهر المقبلة » مشككا بفعالية اتفاق كهذا خاصة اذا لم يقع في اطار نظرة مستقبلية شاملة تؤدي الى حل نهائي(٨). وكرر بعد الحرب التعبير عن « تشاؤمه » ، « لان الاتفاقات (المزمع عقدها) لن تحظى باعتراف وقبول مجموع سكان الدول المعنية وهذا ما سيعطيها طابع نوع من الهدنة المطولة اكثر منها سلاما نهائيا »(٩). وهذا « القلق » يعكس معارضة قديمة للحلول الجزئية . ففي مطلع ١٩٧١ ، اعرب بومبيدو عن « ان الاتجاه الظاهر لايجاد حل مؤقت لازمة الشرق الاوسط ... لن يؤدي الا الى تأجيل الحرب الى وقت لاحق ... »(١٠).

— اما عن المسألة الفلسطينية بمعناها المحدد ، فقد سار بومبيدو على موقف مؤسس الجمهورية الخامسة ، الذي أشار منذ تشرين الثاني ١٩٦٧ الى « وجود الفلسطينيين » ومعارضتهم التاريخية للمشروع الصهيوني . واكدت الديبلوماسية الفرنسية مرارا حق الفلسطينيين في تقرير المصير بمعنى حقهم في الحكم الذاتي « داخل دولة الى جانب اسرائيل وليس مكانها » . ففي جولته الامريكية في مطلع ١٩٧٠ اشار بومبيدو الى ضرورة « حل المشكلة الفلسطينية »(١١). وفي مطلع ١٩٧١ أعرب بومبيدو عن رأيه بضرورة حلها « عن طريق استفتاء حر للسكان عندما يحين الوقت»(١٢) ، وحدد لاحقا هذا الموقف بمساندته لمشروع المملكة المتحدة الذي عرضه الملك حسين في لقاء سابق لهما(١٣). ويبدو ان التطورات الاخيرة دفعت باتجاه قبول لفكرة دولة فلسطينية مستقلة عن شرق الاردن ، وعلى هذا الاساس ورد ذكر اتصالات رسمية بين اطراف من المقاومة الفلسطينية ورسميين فرنسيين ، وتردد الحديث عن مشروع لقاء فلسطيني — فرنسي على مستوى عال .

وباختصار ، نستطيع ان نلخص سياسة بومبيدو العربية في القول بانها امتداد لسياسة ديغول مع تركيز خاص على منطقة المتوسط « والتكامل الاوروبي — العربي الافريقي » الذي شكل حجر

زاوية في السياسة الخارجية الفرنسية للسنوات الاخيرة . وفي المواقف السياسية التفصيلية نستطيع ان نلمس حرصا دائما على المحافظة وتنمية النفوذ الفرنسي الاقتصادي — الثقافي في المنطقة العربية الافريقية كبديل — من وجهة النظر الفرنسية — للنفوذين السوفياتي والامريكي(١٤). ولا شك ان فرنسا وعددا آخر من الدول الاوروبية الغربية حققت تقدما في تواجدها في المنطقة العربية بعد ١٩٦٧ ، الا ان الاحداث الاخيرة تثبت انه ما زال لدى الولايات المتحدة امكانية لاستعادة بعض المواقع التي فقدتها وان العلاقات الامريكية — الاسرائيلية الخاصة قد تتحول — ازاء وضع عربي متهاون — الى نقطة قوة .

وعلى اي حال فان التحالف — التنافس الفرنسي (والاوروبي) الامريكي لم يحسم بعد . والانتخابات الفرنسية الجديدة قد تغير جزئيا بعض المعطيات(١٥)، ولكن من المستبعد ان تحدث انقلابا عميقا في السياسة الخارجية التي رسم ديغول خطوطها العامة .

داود تلحمي

---

١ — **لوموند** ١٩٧٤/٤/٤ .
٢ — **الكتاب السنوي** لمؤسسة الدراسات الفلسطينية لعام ١٩٦٩ ، صفحة ٦٣٥ .
٣ — اندريه فونتين في **لوموند** ١٩٧٤/٤/٤ .
٤ — **اليوميات الفلسطينية** — مركز الابحاث — ١٩٧١/١/٢١ (المجلد ١٣) .
٥ — خطابه في الكونغرس الامريكي في ٧٠/٢/٢٥ نقلا عن « **وثائق كيسنغ** » .
٦ — مؤتمره الصحافي في ١٩٧٠/٣/٣ اثناء زيارته لامريكا — **المصدر السابق** .
٧ — مؤتمره الصحافي في ١٩٧٣/١/٩ نقلا عن **لوموند** ١٩٧٣/١/١١ .
٨ — **المصدر نفسه** .
٩ — في استقبال للصحافيين يوم ١٩٧٤/١/٣ عن **لوموند** ١٩٧٤/١/٥ .
١٠ — في مؤتمره الصحافي في مطلع ١٩٧١ عن **اليوميات الفلسطينية** ١٩٧١/١/٤ (المجلد ١٣).
١١ — **المصدر رقم (٥)** اعلاه .
١٢ — **المصدر رقم (٤)** اعلاه .
١٣ — **اليوميات الفلسطينية** ١٩٧٢/٣/١٧ (المجلد ١٥) .
١٤ — يعتبر الرسميون الفرنسيون ان الاتحاد السوفياتي حقق تقدما في المنطقة العربية من جراء تورط امريكا والغرب عامة الى جانب اسرائيل. واحدى تفسيراتهم للسياسة الديغولية هو ضرورة اعطاء الغرب وجها مختلفا لدى العرب عن الوجه «الامريكي البشع» والحؤول دون قطيعة كاملة مع الغرب .
١٥ — اذا فاز اليسار (ميتران) فقد يؤدي ذلك الى ابتعاد تدريجي عن امريكا يصعب تصور آفاقه وانعكاسه على الموقف من المسألة الفلسطينية . واذا فاز الوسط (جيسكار ديستان) فسيعني ذلك غالبا تحولا بطيئا الى سياسة موالية لامريكا . اما اذا فاز الديغوليون (شابان دلماس) فمن المتوقع استمرار السياسة الحالية في عناوينها الرئيسية .

[٥]

يهود كندا : دراسة سكانية

حسب الاحصاء الكندي الاخير الذي جرى في منتصف عام ١٩٧١ وبدأت نتائجه تنشر حديثا ، فان عدد الجالية اليهودية في كندا يبلغ ٢٩٦،٩٤٥ وذلك من أصل سكان كندا والذي بلغ عددهم في ذلك التاريخ ٢١،٥٦٨،٣١٠ . وأما توزيعهم الجغرافي في المقاطعات الكندية فكان على النحو التالي :

المقاطعة	عدد السكان الاجمالي	عدد اليهود
نيوفوندلاند	٥٢٢،١٠٠	٣٦٠
برنس ادوارد آيلاند	١١١،٦٤٠	٦٠
نوفاسكوتيا	٧٨٨،٩٦٠	٢،٥٣٥
نيوبرنزويك	٦٣٤،٥٥٥	١،٠٣٠
كويبك	٦،٥٢٦،٧٦٥	١١٥،٩٩٠
اونتاريو	٧،٧٠٣،١٠٥	١٣٥،١٩٥
مانيتوبا	٩٩٨،٢٥٠	٢٠،٠١٠
ساسكاتشوان	٩٢٦،٢٤٥	٢،١٩٥
البرتا	١،٦٢٧،٨٧٥	٧،٣٢٠
برتش كولومبيا	٢،١٨٤،٦٢٠	١٢،١٧٥
ياكون	١٨،٣٨٥	٣٥
المقاطعات الشمالية	٣٤،٨٠٥	٣٠

ويتضح من هذه الاحصائية ان غالبية الجالية اليهودية تقطن في مقاطعتي كويبك وانتاريو . ولو نظرنا الى عدد سكان المدن ونسبة الجالية اليهودية فيها لوجدنا ان هناك تمركزا كبيرا لليهود في مدينتي منتريال وتورنتو اضافة الى التمركز الاقليمي لهم في مقاطعتي كويبك وانتاريو ، كما يتضح :

المقاطعة	عدد السكان الاجمالي	عدد اليهود
كالجري (ألبرتا)	٤٠٣،٣٢٥	٣،٢٧٥
آدمنتون (ألبرتا)	٤٩٥،٩١٠	٢،٤٧٥
هاليفاكس (نوفاسكوتيا)	٢٢٢،٦٥٥	١،٣١٥
هاملتون (اونتاريو)	٤٩٨،٥٠٥	٤،١١٥
كتشنر (اونتاريو)	٢٢٦،٨٠٠	١،٠٧٥
لندن (اونتاريو)	٢٨٦،٢٧٠	١،٥٦٥
منتريال (كويبك)	٢،٧٣٤،٢٣٥	١٠٩،٤٨٠
اوتاوا (اونتاريو) — هال (كويبك)	٦٠٢،٥٦٠	٦،٣٨٥
كويبك (كويبك)	٤٨٠،٤١٠	٣٦٥
رجاينا (ساسكاتشوان)	١٤٠،٦٧٥	٧٩٥
سانت كاترين — نياجارا (اونتاريو)	٣٠٣،٤٣٥	١،٠٧٥
سانت جونز (نيونوندلاند)	١٣٢،٠٠٥	١٥٥
سانتجون (نيوبرنزويك)	١٠٦،٦٩٥	٣٢٠
ساسكاتون (ساسكاتشوان)	١٢٦،٥٦٠	٤٩٠
سدبري (اونتاريو)	١٥٥،٤٦٥	٢٤٥
ثندربي (اونتاريو)	١١٢،١٤٥	١٥٠
تورنتو (اونتاريو)	٢،٦٢٨،١٣٠	١٠٣،٧٣٠
فانكوفر (بريتشكولومبيا)	١،٠٨٢،٣٥٥	٨،٩٤٠
فيكتوريا (بريتشكولومبيا)	١٩٥،٨٥٠	٣١٠
ويندسور (اونتاريو)	٢٨٨،٦٥٠	٢،٤٢٠
وينبج (مانيتوبا)	٥٤٠،٢٦٠	١٨،٣١٥

ومع ان الجدول السابق يبرز « التمركز » اليهودي ضمن مدن قليلة هي عادة العواصم الاقليمية للمقاطعات (ما عدا حالة كويبك حيث انهم يتمركزون فيمدينة منتريال العصب الاقتصادي، وليس مدينة كويبك عاصمة المقاطعة) ، الا انه تجدر الاشارة الى ان هناك تمركزا أكثر داخل « حارات » او مناطق معينة ضمن هذه المدن الرئيسية . وهذه الظاهرة تبرز بشكل واضح في كل من مدينتي تورنتو ومنتريال : ففي تورنتو ، يعيش ٧٠،٦٤٠ في منطقة يورك الشمالية من أصل ١٠٣،٧٣٠ في كل المدينة . وفي منتريال ، من أصل ١٠٩،٤٨٠ في المدينة ، يعيش ٥٠،١٦٠ في مدينة منتريال (الحي القديم) و١٨،٠٧٥ في كوت — سانت لك ، و١١،٧٣٠ في لافال . وهذا التمركز ضمن مقاطعة معينة (وهذه صفة عامة لليهود ليس في كندا وحدها بل وفي بلاد اخرى كما كان معروفا في البلاد العربية مثلا ...) ساعد اليهود على تحقيق أهداف معينة منها ان « وزنهم » في مدينة ما يربو على عددهم الاحصائي . وهذا ما يجعل المرشحين للانتخابات يحاولون كسب «الصوت

اليهودي» . ومن ناحية اخرى فان جعل التنظيم اليهودي او الصهيوني أسهل مما لو كانوا متفرقين في شتى انحاء المدينة . وعليه فان الغالبية العظمى للمعابد اليهودية (والتي هي مركز تنظيم وتعبئة سياسية) والمدارس والمراكز الاخرى للتنظيمات المختلفة وحتى المطاعم ، متركزة في شوارع معينة.

ومعروف انه يوجد « مركز يهودي » عادة في كل مدينة يوجد فيها يهود مهما كان عددهم . ويتناسب عدد هذه المراكز طردا مع عدد الجالية اليهودية ، ونشاطها . ولذا فانه يوجد العديد من هذه المراكز في كل من منتريال وتورنتو ووينبج واوتاوا بشكل خاص .

وهناك عدد من السمات الخاصة بالجالية اليهودية في كندا يمكن تعدادها كما يلي :

أ — ان اليهود في كندا ، كما هو الحال في بلاد اخرى ، هم سكان مدن لا سكان ارياف . وهذه السمة ساعدتهم على السيطرة او شبه السيطرة على عدد من « الاعصاب » الاقتصادية .

ب — ان التاريخ الحقيقي والهام للجالية اليهودية في كندا يبدأ بعد الحرب العالمية الثانية . اذ ان عددهم قبلها كان قليلا . [كان عددهم عام ١٩٣١ يبلغ ١٥٦،٧٢٦ من أصل ١٠،٣٧٦،٧٨٥ ، وقد ارتفع هذا العدد — بسبب الهجرة من شرق اوروبا خاصة — من١٧٠،٢٤١ عام١٩٤١ الىحوالي ثلاثمائة الف الان . أي انه تضاعف تقريبا] . وهذه السمة لها تأثيرات معينة على الحجم السياسي للجالية اليهودية في كندا ، اذ ان العدد الكبير الذي جاء من شرق اوروبا وخاصة المانيا ، جاء متأثرا بالفكرة الصهيونية ، وحمل بذور تنظيمات الحركة الصهيونية وآثار الاضطهاد الذي عانوه وعاشوه .

جـ — من الناحية العددية والتاريخية فان مدينة منتريال كانت ولا زالت « عاصمة » اليهود في كندا حيث وصلت طلائعهم في اواخر القرن الثامن عشر مع الحملة الانجليزية التي هزمت الفرنسيين في مقاطعة كويبك . ولكن بسبب تركز الصناعة أكثر في تورنتو ، وبسبب الاوضاع السياسية والاجتماعية وحتى الدينية في مقاطعة كويبك فان الاتجاهات الان هي ان تورنتو ستغدو « عاصمتهم » المقبلة . حيث تحول العديد من مراكز توتهم التنظيمية الحقيقية الى تورنتو ، وان كانوا ما زالوا يحتفظون بمراكز حيوية لنشاطهم في منتريال ، ويدعمون نشاطهم في مدينة وينبج ثالث مركز صهيوني في كندا .

د — لاسباب تاريخية وسياسية فان يهود كندا يتطلعون الى الولايات المتحدة « كالام » توجه وتقود سواء من الناحية السياسية او التنظيمية او الدينية ، حيث يوجد هناك حوالي ستة ملايين يتمركزون اساسا في مقاطعة نيويورك .

فبينما يعتبر اليهود « أقلية قومية » في كندا ، فان يهود الولايات المتحدة يعتبرون أنفسهم متساوين مع البروتستانت والكاثوليك هناك .

ويتضح الاتصال العضوي بين يهود كندا ويهود امريكا من اثره الواضح على التنظيمات السياسية والعمل السياسي والتنظيمي بوجه عام في كندا . اذ ان الاشارات للعمل تأتي من الولايات المتحدة.

من ناحية التنظيمات اليهودية والصهيونية في مدينة تورنتو فانه يوجد ٤٩ معبدا وتجمعا دينيا وهي بشكل او بآخر مراكز سياسية للتنظيم وللقيام بحملات اعلامية وجمع تبرعات . ويوجد فيها فرع للهستدروت ، والمجلس اليهودي والهجرة وغيرها. ويبلغ عدد المؤسسات الصهيونية واليهودية في تورنتو ١٣٦ مؤسسة (صحافة ، معابد ، جمعيات « خيرية » ، ثقافية ...) . وأهم نشراتهم الدورية جريدة انباء يهود كندا الاسبوعية توزع ٢١،٣٠٠ **وهي من أحسن المصادر عن العمل الصهيوني في كندا عامة وتورنتو خاصة** ، وهناك جريدة يصدرها الطلاب اليهود في جامعة تورنتو مسعدة . ومجلة شهرية حول الجالية اليهودية في كندا واسرائيل اسمها الكرونكل رفيو ، ونشرة يصدرها بيت هيلل بمنتريال للطلاب اليهود ، واخرى تصدرها جمعية ابناء العهد بناي بريث شهرية .

وتجدر الاشارة الى ان رئيس وزراء مقاطعة بريتش كولومبيا (في غرب كندا) يهودي من الحزب الديمقراطي الجديد . ورئيس الحزب هو ديفيد لويس يهودي صهيوني ، وابنه ستيفن رئيس الحزب في مقاطعة اونتاريو . ورئيس مجلس بلدية تورنتو (بول جودفري) ايضا يهودي صهيوني ، وصاحب محطة تليفزيون محلية في تورنتو (باسير) صهيوني ولكن ليس يهوديا . ومحافظ تورنتو السابق (نائب برلمان حالي) يهودي صهيوني واسمه (فيليب كيفن) .

الدكتور مطاع غميان

[٦]
الانتخابات البريطانية واسرائيل

ان الدور الذي يلعبه اليهود في الانتخابات الامريكية دور خاص بامريكا قلما تعرفه الدول المتعددة الاحزاب في الخارج . ولذلك أسباب عديدة منها عدد اليهود الكبير في امريكا (٣٪) وتمركزهم بشكل حاسم في مناطق معينة مثل نيويورك ، وتعلقهم التقليدي بالحركة الصهيونية وعدم تعلق بقية الشعب الامريكي من الناحية الاخرى بوطنية قومية ، واخيرا الطريقة التجارية الفجة التي تسم الانتخابات الامريكية . ومع ذلك فاننا نفتش دائما عن مرادف لذلك في الدول الاخرى — في هذه الحالة بريطانيا يبلغ يهودها ١ ٪ من السكان ولهم تقاليد اندماجية تمثلت في معارضة وعد بلفور قبل صدوره . والواقع ان المنظمات الصهيونية سبقتنا في هذا التفتيش فوضعت لنا النقاط على الحروف التي صعب علينا قراءتها .

والتقت مجلة الجويش كرونكل التي تمثل الاتحاد الصهيوني البريطاني مع الجويش كرونكل التي تمثل الطائفة اليهودية البريطانية في تأكيدهما على الناخب اليهودي بضرورة اعادة النظر الى موضوع اسرائيل عند الادلاء بصوته . ولكن كلتا الجريدتين حارتا في أمر الاحزاب القائمة ووجدتا ان مسألة تأييد المحافظين للعرب وتأييد حزب العمال لاسرائيل تبسيط مفرط للموضوع لا يأخذ بعين الاعتبار التفاصيل السياسية والتحولات السريعة لكلا الحزبين . لقد كان هناك بين العمال من وقف ضد اسرائيل وبين المحافظين من وقف ضد ادوارد هيث في حظر تصدير الاسلحة الى اسرائيل . الحل العملي لليهودي الناخب هو أن يعطي صوته لمن أيد اسرائيل سواء أكان من العمال او المحافظين . وشعر محرر الجويش اوبزرفر بحراجة موقفه فانحدر الى هذا التبرير الساذج : « اذا زعم احد ان ذلك يعني وضع مصالح اسرائيل قبل المصالح البريطانية الوطنية ، فهناك جواب دامغ على ذلك . ان التضحية بدمقراطية صديقة قربانا لشيوخ النفط العرب الرجعيين ليس في صالح بريطانيا مثلما لم يكن في صالح بريطانيا التضحية بتشيكوسلوفاكيا في ١٩٣٨ . ان استسلام المحافظين الاخير للعرب ما زال عالقا في اذهان الجمهور ككل . اذا كان من المتبول للهندي السيكي ان يصوت حسب موضوع لبس خوذة الاصطدام الاجباري على راكبي الدراجات البخارية ، فبامكان اليهود بل ويجب عليهم ان يصوتوا حسب ما يهم مصير اسرائيل » .

ويعطينا التشبيه الاخير عن اعتزاز السيك بعماماتهم صورة من الاسفاف الفكري الذي تقع فيه الاقلام المغالية في الصهيونية . أما الجويش كرونكل فقد نشرت في ٢٢ فبراير تقريرا عن الاجتماع الذي عقده مجلس ممثلي الطائفة اليهودية في بريطانيا بشأن الانتخابات قائلة ان الاجتماع رفض فكرة « كتلة الاصوات اليهودية » وأكد على موقف الحياد بالنسبة للاحزاب المتطاحنة . بيد أن التقرير كشف عن تطابق تام بين موقف الاتحاد الصهيوني ومجلس الطائفة عندما اورد كلمات السر ساموبل فشر ، رئيس المجلس :

« لنا الحق كمواطنين بريطانيين ان نستفسر من أي مرشح في كل دائرة عن موقفه من أي موضوع . وعلينا أن نستعمل هذا الحق . علينا ان نستفسر عن موقف اية حكومة جديدة من اسرائيل ومن قرارات السوق المشتركة بشأن اسرائيل. علينا ان نسأل ما الذي ستفعله الحكومة الجديدة ، من أي حزب كانت بشأن الموضوع الاخلاقي الذي يتعلق بمساعدة اليهود الروس على الهجرة الى اسرائيل . وما الذي سيفعلونه بالنسبة لليهود المضطهدين في البلاد العربية .علينا ان نسألهم فيما اذا كان اهتمامهم بنفط العرب سيسمح لهم بالتفرقة ضد اسرائيل . علينا ايضا ان نذكرهم بأن الدمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط هي اسرائيل . وان من صالح بريطانيا ذاتها ان تساندها ... »

كما طلب السر ساموبل من اليهود ان يستفسروا ويتأكدوا فيما اذا كان المرشح قد صوت ضد اسرائيل في البرلمان السالف بالنسبة لتجهيزها بالسلاح . وناشد أبناء الطائفة بالحذر والمراقبة وأكد لهم أن المجلس سيضع تنظيما خاصا « لمعالجة اي هجوم يوجه الينا من أعدائنا » .

ويظهر أن النفوذ اليهودي اخذ شكلا حيويا في منطقة همستد بلندن . فوجد المرشح العمالي

توني كلارك ان كلا خصميه من المحافظين والاحرار يهوديان . فاضطر الى منازلتهما على هذا الصعيد بتضمين الفقرة التالية في منشوره الانتخابي: «توني كلارك هو رئيس فرع كمدن لجمعية اصدقـــاء اسرائيل العمال . وسبق له ان زار اسرائيل في جولة دراسية في الصيف المنصرم » .

انتهت الانتخابات بفوز العمـــال بالمرتبة الاولى والمحافظين بالمرتبة الثانية والاحرار بالمرتبة الثالثة. هذا ما قالته الصحافة العامة . اما الجـــويش اوبزرفر فقد قالت ان المرتبة الثالثة فاز بها حزب بوعيلي صهيون . (الصهاينة « الاشتراكيون ») نظرا لان ٣٣ عضوا من هذا الحزب قد دخل البرلمان ضمن قوائم حزب العمال . وعلى كل فان النفوذ الصهيوني المتعاظم في العالم الغربي قد انعكس في الانتخابات بارتفاع عدد النواب اليهود من ٣٦ في البرلمان السابق الى ٤٦ في البرلمان الجديد — وهو أعلى رقم سجلوه في حياة البرلمان البريطاني. ولم يفشل غير واحد من النواب اليهود السابقين في اعادة انتخابه . ولما كان ديفيد وايتزمان أكبـــر نائب سنا فقد أصبح هو « ابو البرلمان الحالي ».

وقد ادخل هارولد ولسن حتى كتابة هذا التقرير ٩ وزراء يهود في حكومته منهم كوفمان وهارولد ليفر وادموند دل وجون سلكن وسام سلكن وجول بارنت . وبذلك تصبح نسبتهم في البرلمان الجديـــد نحو ٨ ٪ وفي الحكومة الجديدة نحو ٩ ٪ في حين لا تصل نسبتهم الى السكان حتى ولا ١ ٪ . كما يوجد في الوزارة اعضاء بارزون في جمعية الاصدقاء العماليين لاسرائيل منهم جون جلبرت ورج فريسن واريك هفر وبيتر شو وادوارد شورت واريـــك فارلي . وفي مقابل ذلك لم يدخل الوزارة عضو واحد من لجنة العمال للشرق الاوسط التي تمثـــل الجناح المؤيد للعرب . وقد كان في ركاب ولسن أثناء المعارضة اندرو فولدس ، الممثل والنجـــم السينمائي والتلفزيوني . وبالنظر لاطلاعه واتصاله الشخصي في ميدان الفنون فقد احتل مركز وزيـــر الفنون في حكومة الظل (الكتلة البرلمانية المعارضة). بيد أن تأييد هذا النائب للعرب بشجاعة اثـــار حفيظة الجناح الصهيوني الى درجة كفت لاستبعاده من هذا المنصب وبذلك فقد العرب الناطق الوحيد لقضيتهم . هناك بالطبع مايكل فـــوت وانطوني وجوبد بن المتفهمان للجانب العربي ولكن الشؤون الخارجية ليست ميدانهما .

خ. ق.

مركز الابحاث

يقدم :

محمود درويش

في كتابه الجديد :

وداعا ايتها الحرب
وداعا ايها السلام

بأسلوبه المتفجر شاعرية وشراسة ، يرصد المؤلف حرب تشرين من مرحلة الانتظار ، الى مرحلة الانفجار ، الى مرحلة الانتظار العائد .

اطلب نسخك من : مركز الابحاث — قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ — بيروت
(او من المكتبات) .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

الخالصة : انتصار ارادة القتال

دائما المفاجأة الفلسطينيــة تظل هي الاعظــم والاوقع أثرا . الكفاح المسلح الفلسطيني نفسه بانطلاقته الاولى وبنهوضه دائما من كبواته وكأن له قدرة عجائبية على لأم جراحه ذاتيا ، كان يمثل سلسلة من المفاجآت غير المتوقعة لمن أرادوه ان يصمت ويذوى ويموت . وفي ظل الحديث غير الطلي عن التسويات والتصفية كانت الخالصة — التي غيروا اسمها الى كريات شمونة — المفاجأة المبادرة التي هزت الوجدان النضالي من الاعماق بعد ان رطمت السؤال الحائر (ما العمل ؟) بالجواب الموقظ حتى درجة الوعي الكامل (هذا هو الطريق). والثلاثة الابطال في الخالصة مــا أرادوا الا ان يقولوا (هذا هو الطريق) . كيف نفذوا العملية ؟ من أين قدموا ؟ متسللين ام نبعوا من باطن الارض الفلسطينية ؟ لا يهم . وهي تفاصيل تحاول ان تطمس حقيقة القصــد وصلب العمل وقدسيــة الحقيقة : هذا هو الطريق . « من الاعماق نناديكم [كتب منير المغربي احد رجال الخالصة في وصيته قبل استشهاده] قفوا في وجه المؤامرة وحطموا واقع الاستسلام . ان الطريق واضح جدا فامضوا في هذا الطريق ... هذا ما اريد ان اقوله لكم ».

التفاصيل لن تعلق بذاكرة التاريخ ، ولكن الذي سيظل يحفر عميقا في وجدان الجماهير ان الثلاثة (السوري أحمد الشيخ محمود والفلسطيني منير المغربي والعراقي موســى الموزاني) وضعــوا الارادة الثورية من جديد في بوتقة اختبار : هل هي قادرة على الاستمرار في العطاء والبذل ، وفي مقابل ذلك ، مقابل العطاء والبذل ، هل هي لا تزال قادرة على تحقيق الانتصارات ؟ ونجح الاختبار ، نجح في اثبات ان الخط الاستراتيجي الذي اختطته الثورة وعمقته منذ انطلاقتها لا يزال صحيحا لم يمسه سوء ، وتمكن المراهنة عليه . فمنذ البداية كانت مراهنة الثورة على طاقات الجماهير العربية وتثويرها ووضعها في مواجهــة الصدام في حرب طويلة المــدى تستنزف العــدو قطرة قطــرة في انتصارات جزئية يشكل تراكمها الكمي مدخل النصر الاستراتيجي . والرجال الثلاثة ، الذين هم أمة في ثلاثة ، كانوا محك مصداقية ما طرحته الثورة ، فأثبتوا ان ارادة القتال عند الجماهير العربية ما تزال هي القاعدة وما دونها هو الاستثناء .

العلاقات الفلسطينية — المصرية :

(١) اجهزة الاعلام المصريــة كانت تؤكد في الشهر الماضي ان حركة المقاومة الفلسطينية موافقة على جميع الخطوات التي خطتها مصر نحو التسوية السياسية . وقد بدا ان وراء هذا التأكيد الذي وصل الى حد الالحاح هدفين متكاملين ، الاول اظهار حرص مصر على اخذ الرأي الفلسطيني في الاعتبار اثناء تحركها السياسي مما يعطي هــذا التحرك المستهــدف في مداه الابعــد القضيــة الفلسطينية ذاتها مشروعية فلسطينية مكتسبة من موافقة منظمة التحرير الفلسطينية على التوجهات المصرية . اما الهدف الثاني فهو محاولة تقريب مواقف المقاومة من المواقف المصرية ازاء القضايا التي احرزتها حرب تشرين وهي قضايا ان كانت مصر قد حسمت الرأي في معظمها فان الحوار الذي لا يزال دائرا في الساحة الفلسطينية لم يصل بعد الى موقف اجماعي موحد تجاهها بل ان بعضها كالقرار ٢٤٢ لا يزال مرفوضا مــن جانب حركة المقاومة .

توضح هذا الاتجاه من جانب الصحافة المصرية عندما كتب علي أمين ، رئيس تحرير « الاهرام » ،

يقول : « أستطيع ان اعلن اليوم ان الاتفاق تام بين انور السادات وياسر عرفات وان هناك تنسيقا في كل الخطوات لم تعرفه المنطقة في يوم من الايام. وياسر عرفات على اطلاع كامل بكل خطوة خطاها السادات وقد بارك كل خطوة منها ... ويتوقع المطلعون ان يشترك ابو عمار في اجتماع جنيف الثالث اي الاجتماع الذي سيعقد بعد الاجتماع القادم » (الاهرام ٢/١٥) . وكان رد الفعل الفلسطيني الاول ان اصدر خمسة من اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بيانا نشروه في « النهار » (٣/١٧) قال فيه موقعوه زهير محسن، يوسف صايغ ، محمد زهدي النشاشيبي ، عبد الوهاب الكيالي ، احمد اليماني : « سؤال : نشرت الاهرام ان كل ما يجري في مصر من خطوات منسق ومتفق عليه مئة في المئة مع رئيس اللجنة التنفيذية ، فما صحة هذا الخبر ؟ جواب : لم يتخذ اي قرار حول برنامج مشترك يصلح أساسا للتنسيق . وعليه فان كل ما يكتب حول هذا الموضوع لا يمثل حقيقة الموقف . لكن اللجنة التنفيذية حريصة على التنسيق مع سائر القوى الوطنية الملتزمة بموقف وطني واضح . سؤال حول مؤتمر جنيف : نشرت الصحف ان منظمة التحرير الفلسطينية ستشترك في المؤتمر في المرحلة الثالثة ، فهل اتخذ قرار في هذا الشأن ؟ جواب : بالنسبة الى مؤتمر جنيف وقضية الاشتراك في مرحلة لاحقة فان حركة المقاومة ترفض الاشتراك في أي مؤتمر يستند الى القرار الرقم ٢٤٢ بغض النظر عن الداعين اليه والمشاركين فيه . وتنطلق مواقف وسياسة المنظمة في هذا الصدد من ميثاق المنظمة وقرارات المجلس الوطني » . غير ان الاهرام عادت في ٣/٢٦ فذكرت انه تم اتفاق بين القاهرة ومنظمة التحرير على ان تبدأ في اول نيسان (ابريل) القادم لجنة مصرية ــ فلسطينية اجتماعات مشتركة ودورية بهدف تنسيق موقف مشترك ازاء التطورات المتوقعة لازمة الشرق الاوسط خصوصا ما يتعلق منها بدور الفلسطينيين في المرحلة القادمة من مؤتمر جنيف . وقالت « الاهرام » ان الرئيس السادات قد اصدر بالفعل قرارا بأن يتولى اسماعيل فهمي ، وزير خارجية مصر ، مسؤولية الجانب المصري في هذه اللجنة المشتركة ، كما ان من المتوقع ان يصدر عرفات خلال الايام القادمة قرارا بتشكيل الجانب الفلسطيني في اللجنة والذي سيضم عددا من قيادات المقاومة . وقالت الصحيفة ان اللجنة المشتركة سوف تبني اعمالها على ورقتي عمل ، الاولى تقدمها وزارة الخارجية المصرية بشأن رؤيتها للتسوية المقترحة بما فيها المسألة الفلسطينية والثانية تقدمها منظمة التحرير بشأن وجهة النظر الفلسطينية تجاه مثل هذه التسوية .

وعادت « الاهرام » في (٤/١) فأكدت وجود هذه اللجنة وذكرت ان ياسر عرفات اصدر قرارا بتشكيل الجانب الفلسطيني من السادة فاروق القدومي وخالد الحسن وجمال الصوراني وسعيد كمال . بيد انها ألمحت الى ان اجتماعات اللجنة التي كان مقررا عقدها في مطلع نيسان قد تأجلت خلال ايام ، ولم تشر الصحيفة الى سبب هذا التأجيل وان كانت وكالات الانباء (« المحرر » ٤/٢ نقلا عن « رويتر » و«وكالة الصحافة الفرنسية») قد ذكرت ان تأجيل الاجتماع مرتبط بالزيارة التي سيقوم بها الملك حسين الى القاهرة .

في هذه الاثناء عقدت اللجنة التنفيذية للمنظمة اجتماعا لها في ٣/٣١ ، وقد وزعت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) في ٤/١ تصريحا للاخ ابو عمار تعليقا « عما نشر في بعض الصحف عن اللجنة المصرية ــ الفلسطينية وما قيل عن دور هذه اللجنة في التنسيق بمؤتمر جنيف » قال فيه : « انطلاقا من التوجه الذي اوصى به المجلس المركزي والذي تحرص عليه اللجنة التنفيذية فقد تم الاتصال بكل من مصر وسوريا لتنسيق المواقف معهما لما يخدم المصلحة القومية والمحافظة على التضامن العربي والعمل من أجل ايجاد موقف مصري ــ سوري ــ فلسطيني موحد مدعوم بموقف عربي يشكل درعا وحماية ، وتمشيا مع قرارات مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في الجزائر والاهداف التي حددها هذا المؤتمر مرحليا واستراتيجيا والتي تنص صراحة على الحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني وعروبة القدس وتحرير جميع الاراضي العربية المحتلة ، انطلاقا من هذا كانت هذه الاتصالات والاجتماعات المكثفة التي تهدف لخدمة أهداف الثورة الفلسطينية وعلاقاتها مع الدول العربية بشكل عام ودولتي المواجهة (مصر وسوريا) بشكل خاص . اما ما ورد حول مؤتمر جنيف فهذا موضوع سابق لاوانه لان اللجنة التنفيذية لم تتخذ بعد اي قرار بهذا الخصوص . ولقد ظهر لنا في اتصالاتنا المختلفة بجميع الدول العربية ان هناك اتفاقا في الرأي حول

القضايا الاساسية التي تتعلـق بحقوق شعب فلسطين وعروبة القدس وتحرير الاراضي العربية المحتلة ، ولقد حرص الجانب الفلسطيني في كافة هذه الاجتماعات والاتصالات على تأكيد الحقائق الهامة التالية : (١) الاصرار على استمرار الكفاح المسلح . (٢) لا تنازل عن الحق التاريخي ولا اعتراف ولا صلح . (٣) حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في وطنـه والعودة اليـه . (٤) تأكيد سيادة الشعب الفلسطيني الوطنية على كل بقعة يتم تحريرها ويتم عنها دحر العدو » .

وواضح ان هذا التصريح ان كان لم ينف وجود لجنة التنسيق المصرية ــ الفلسطينية الا انـه لم يؤكدها ، بل هـو جعل التنسيق ضمن اطـار « الاتصالات والاجتماعات المكثفة » التي لم تقتصر على مصر وحدها وانما شملت سوريا كذلك ، ويبدو ان تلك كانت اشـارة كافية الـى ان الموقف الفلسطيني لم « يتوحد » مع الاتجاهات المصرية في المساعي السياسية وان الاختيارات لم تستنفد جميعا .

لم تشر صحيفة « الاهرام » الى التصريح الذي ادلى به ابو عمار وعلى عكس ذلك فقد نشرت في ٤/٦ ان اسماعيل فهمي سيجتمع في اليوم ذاته مع سعيد كمال مبعوث ياسر عرفات الذي وصل القاهرة من بيروت حاملا رسالة منه حول علاقة المنظمة ببعض الدول العربيـة والصعوبات التي تواجهها في هذه المرحلة الهامة. وقالت « الاهرام » ان هذا هو الاجتماع الاول في اطار القرار الذي أصدره الرئيس السادات بتشكيل لجنة تنسيق مصرية ــ فلسطينية ، وذكرت الصحيفـة في اليوم التالي (٤/٧) ان الاجتماع المشار اليه قد تم في موعده . ولم يصدر عن حركة المقاومة اي بيان رسمي ينفي أو يؤكد ان الاجتماع تم في اطار اللجنة المذكورة .

(٢) ترددت في الشهـر الماضي انباء عـن محاولات « مصالحة » تقوم بها مصر بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد تكثفت هذه الانباء قبيل وفي اثناء الزيارة التي قام بها الملك حسين الى مصر ومباحثاته هناك التي ابتدأت في ٥ نيسـان (ابريل) . وقد نسبت « النهار » (٤/١) الى مصادر دبلوماسية عربية قولها ان الرئيس السادات يسعى الى الحصول من الملك حسين على امرين أساسيين لدى زيارته للقاهرة : (١) ان يعترف الاردن رسميا بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، ليس في مـا يتعلق بتوطين اللاجئين الفلسطينيـين والتعويض عنهم بل في ما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في ارضه اي عمليا ومرحليا في الضفة الغربية وغزة . (٢) ان يوافق الاردن على ان يشترك وفد فلسطيني مستقل في مؤتمـر جنيف ، الى جانب وفود مصر وسوريا والاردن وان يبحث هذا الوفد في حقـوق الشعب الفلسطيني ومستقبله . وقبل ذلك كانت الصحف المصرية قد مهدت لجعل محادثات حسين ــ السادات «مقبولة» فلسطينيا بحملة اعلامية اظهرت ان الملك حسين قد غير موقفه من المنظمة ، فقد ذكرت « اخبار اليوم » (٣/١٦) ان حسين سيقترح على الرئيس السادات عقد مؤتمر قمة مصغر يشترك فيه ابو عمار ، كما روجت « الاهرام » (٣/٢٥) ان الملك حسين « مستعد للاعتراف بمنظمة التحـــرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وذلك خلال زيارته المقبلة لبعض الدول العربية »، كذلك ذكرت « اخبار اليوم » (٣/٢٩) انها علمت ان الملك حسين قرر الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا لشعب الفلسطيني كما وافق على اشراك وفد المنظمة في مؤتمر جنيف المقبل كممثل لشعب فلسطين في المحادثات . ثم ذكرت « الاخبار » (٤/٥) انه سيعقد قريبا لقاء يضم ممثلي الحكومة الاردنية ومنظمة التحرير « في اطار الجهود المبذولة لتصفية الموقف المتأزم بينهما » .

وسط هذه الترويجات جاءت محادثات الاسكندرية بين الرئيس السادات والملك حسين ، وقد ذكر البيان المشترك الذي صدر في اعقاب المحـادثات (٤/٦) ان المباحثات شملت « حقوق الشـعب الفلسطيني المشروعة وحق هذا الشعب في تقرير مصيره والدفاع عن قضيته في كافة المحافل الدولية وكذلك الاشتراك في مؤتمر جنيف بصورة مستقلة ». وقد نقلت « الاهرام » (٤/٧) تصريحا « لمصادر مطلعة » قالت فيه انه من المقرر ان يزور الملك حسين عددا من العواصم العربية وسيصدر في اعقاب هذه الجولة بيان اردني يعلن اعتراف الاردن بمنظمة التحرير . وكان تعقيب زيد الرفاعي ، رئيس وزراء الاردن ، على البيان المشترك وعلى هذا النبأ الذي نشرته « الاهرام » قوله « ان الحكومة

الاردنية وافقت على مبدأ اشتراك وفد فلسطيني مستقل في مؤتمر جنيف في حالة ما اذا وجهت دعوة الى هذا الوفد للاشتراك في المؤتمر ». واضاف « ان الاردن اعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية وان هذا الاعتراف قائم ، ولكن في ما يتعلق بأن تكون المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني فهذا امر لم يعرض في محادثات الاسكندرية » . وقد اوضح الملك حسين «للاهرام» (٤/٧) ان الاردن سيذهب الى جنيف كدولة يمسها قرار مجلس الامن ولها اراض احتلتها اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ وسيذهب بعد ذلك الى جنيف وفد منظمة التحرير ليتحدث عن حقوق شعب فلسطين وهي مسائل تتجاوز « مسؤوليتنا » المباشرة . وقال حسين ان الاردن لم يعترض في يوم من الايام على تمثيل شعب فلسطين في أي مفاوضات وقال « لما أحسست ان اسرائيل تعارض معارضة شديدة ان يشترك الفلسطينيون في المفاوضات عرضت ان ينضم الى وفد الاردن عدد من ممثلي المنظمة حتى يسهموا بآرائهم ويشتركوا اشتراكا فعليا في المفاوضات » وقال انه اذا حدث ان اختلف الاردن « في بعض التفصيلات » مع المنظمة فليس معنى هذا اننا نطالب بحرمانهم من حقهم الطبيعي في اعلان رأيهم والاشتراك اشتراكا فعليا في تقرير مصيرهم ، ولكن « اختلافنا كان خلافا عاديا بين زميلين في معركة يؤمنان بنفس الهدف » .

وبعيدا عن التعبير الانشائي : « الخلاف العادي في بعض التفصيلات » ، فان عناصر الموقف الاردني الراهن تجاه مسألة التمثيل الفلسطيني وتقرير المصير تظهر كما يلي كما كشف عنها العرض السابق : ان الضفة الغربية جزء من المملكة وبذلك فليس من حق المنظمة ان تتحدث بشأنها ، غير ان المنظمة يحق لها التحدث عن حقوق الشعب الفلسطيني التي تتجاوز « مسؤولية » الملك أي كل ما ليس له علاقة بالضفة الغربية ، وهكذا فان الاعتراف الاردني بمنظمة التحرير لا يعني ان المنظمة هي الممثلة الشرعية الوحيدة للشعب الفلسطيني ، وانما النظام الاردني شريك في هذا التمثيل ، ونصيب النظام في هذه الشركة فلسطينيو الضفة الغربية وشرقي الاردن . من هذه الحيثيات « يوافق » الاردن على ذهاب وفد من منظمة التحرير الى جنيف ، بعد ان كان الموقف الاردني السابق ان الوفد الفلسطيني يجب ان يكون ضمن اطار الوفد الاردني ، غير ان هذه الموافقة مشروطة بألا يكون من اختصاص الوفد بحث مسألة مصير الضفة الغربية لان الوفد الاردني يكون قد بت فيها في دورة سابقة لمؤتمر جنيف في غياب وفد المنظمة . هذه هي عناصر الموقف التي لا يظهر فيها جديد سوى « سماح » الاردن للمنظمة بارسال وفد عنها الى جنيف مستقل عن وفد الاردن . ويبدو ان ذلك هو « التنازل » الوحيد الذي حققته محادثات الاسكندرية وهو يخرج عن اطار توجهات السياسة المصرية الهادفة الى اشراك الفلسطينيين في التسوية وفي الوقت ذاته عدم استبعاد النظام الاردني من المشاركة فيها .

مناضلان ينجوان من الاسر

تمكن فدائيان فلسطينيان هما حمزة يونس ومحمد يوسف قاسم من القيام بعملية جريئة حيث تمكنا من الهرب من سجن الرملة في فلسطين المحتلة ليلة ٣ آذار بعد ان مكثا في السجن سنة ونصف السنة . والامر الجدير بالابراز في هذه العملية بالاضافة الى جرأتها الفريدة ان المناضلين بعد ان هربا من السجن اعتمدا على خلايا الداخل السرية في الضفة الغربية التي أمنت لهما الاختباء في تل ابيب ريثما يتدبران طريقة للخروج الى شرقي الاردن . فقد ذكر محمد قاسم في مؤتمر صحافي عقده المناضلان دعت اليه « وفا » (٣/١٤) ما يلي : « كنت أعرف بعض الخلايا ولكنني كنت غير واثق من الاتصال... ولم يكن الامر صعبا كما تصورنا اذ سرعان ما نجحنا في اجراء الاتصال وقام قائد المجموعة وافراد الخلية بالاجتماع وناقشنا قضية تسللنا الى شرقي الاردن وبعد دراسة مستفيضة تقرر ان افضل ما نفعله وخاصة ان العدو يبذل كل ما يملك للقبض علينا ان نرتد الى عمق العدو وقد قام قائد الخلية بتأميننا الى تل ابيب بعد ان تزودنا ببطاقات شخصية بأسماء اخرى وارتدينا ملابس مدنية . وصلنا الى تل ابيب وهناك كانت بانتظارنا شقة وضعنا فيها مدة اربعة ايام أمن لنا خلالها قائد المجموعة الاكل وكل ما نحتاجه » . ان قدرة مناضلي الداخل على التحرك بين الضفة الغربية وتل ابيب والاختباء مدة اربعة ايام فيها ثم التحرك مرة اخرى الى الضفة الغربية تشير الى كفاءة خلايا الداخل وهي بالتأكيد تفسر تصاعد العمليات الفدائية الاخيرة التي تمت في عدد من المدن

الفلسطينية سواء المحتلة في العام ١٩٤٨ أم في العام ١٩٦٧ ٠

منظمة التحرير والنفط العربي الى اميركه

وزعت « وفا » (٣/٢٣) النبأ التالي : درست اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في اجتماعها الذي عقدته صباح هذا اليوم قرار رفع حظر النفط المفروض على الولايات المتحدة الاميركية. واستغربت اللجنة التنفيذية صدور مثل هذا القرار بسبب عدم توافر المبررات الكافية لاتخاذه في هذه المرحلة لان العدو الصهيوني ما زال على مواقفه المتعنتة ، وما زالت الولايات المتحدة تمد اسرائيل بكل أسباب العدوان وامكانات البقاء . وقد أعربت اللجنة التنفيذية عن اعتقادها بأن استخدام النفط هو وسيلة ضغط سياسي من أجل القضية الفلسطينية وعروبة القدس وحصول الشعب العربي الفلسطيني على حقوقه الوطنية المشروعة تمشيا مع قرارات مؤتمر القمة العربي السادس والاهداف المرحلية التي حددها ، والتي أقر فيها بأن النفط هو أحد الاسلحة العربية لتحقيق هذه الاهداف .

النضال المطلبي الفلسطيني :

أشرنا في العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » الى الاضراب والاعتصام اللذين نفذهما موظفو وعمال الخدمات الطبية في وكالة الغوث في لبنان اعتبارا من ٣/٤ مطالبين بـ « طبيب يومي ثابت في كل مخيم وفتح عيادات في أماكن وجود الفلسطينيين التي لا يوجد فيها عيادات ومضاعفة الميزانية للادوية وتحسين نوعيتها ومضاعفة الميزانية لتصوير الاشعة والتعاقد مع مستشفيات الولادة في كل منطقة وتغيير بعض المستشفيات المتعامل معها حاليا نظرا لمعاملتها السيئة للمرضى والاجر العادل والحق لعمل مستخدمي الخدمات الطبية ». وعلى الرغم من عدالة هذه المطاليب خاصة اذا استذكرت الاحوال الصحية لسكان المخيمات الفلسطينية وحجم الخدمات الطبية الضئيل الذي تقدمه الوكالة ، الا ان الوكالة ماطلت في الاستجابة لهذه المطاليب المحقة . وقد أصدرت اللجنة السياسية العليا لشؤون الفلسطينيين في لبنان (منظمة التحرير الفلسطينية) بيانا في ٣/١٣ أكدت فيه وقوفها الى جانب موظفي المهن الطبية في الوكالة وقالت « انه بالرغم من تحذيرها من قضية تجاهل هذا القطاع من الموظفين وعدم انصافهم في اجتماع رسمي ضم العقيد انطوان الدحداح ، مدير الامن العام ، والسيد جون ريني ، والسيد مارسيل بورديو [من وكالة الغوث] الى جانب السيدين توفيق الصفدي وكمال البقاعي [من اللجنة السياسية] ، فان وكالة الغوث لم تحاول ايلاء هذا الموضوع ما يستحق من الاهتمام متذرعة بالعجز المالي » . وقد حذرت اللجنة السياسية في بيانها « من المضي في سياسة التصلب التي تنتهجها حيال مطاليب رابطة المهن الطبية » . غير ان الوكالة استمرت في تصلبها مما دفع عمال الخدمات الطبية يوم ٣/٢٠ الى انذار الوكالة « بتصعيد اضرابهم وتشديد نضالاتهم المطلبية لانتزاع حقوقهم ومطاليبهم العادلة » (وفا ٣/٢٠) وقد ذكرت « وفا » ان عمال مخازن الوكالة في منطقة قردان انضموا الى المعتصمين في اليوم نفسه . كما اصدرت اللجان الشعبية في صبرا ومخيم شاتيلا بيانات استنكرت فيها سياسة الوكالة التعسفية ضد الجماهير الفلسطينية ، كما أمت وفود شعبية من مختلف المناطق اللبنانية مبنى وكالة الغوث حيث يعتصم العمال . وفي اليوم التالي لاعلان الانذار بتصعيد الاضراب ، أصدرت اللجنة السياسية بيانا ذكرت فيه انه في ضوء الاتصالات التي اجراها المسؤولون اللبنانيون والفلسطينيون مع المسؤولين في وكالة الغوث الدولية فقد استجابت الوكالة ووعدت بتحقيق عدد من المطاليب بينما وعدت البت في المطاليب الباقية ضمن مهلة زمنية اقصاها نهاية شهر نيسان . وقال بيان اللجنة انها قررت بعد التداول مع الاتحاد العام لعمال فلسطين ورابطة المهن الطبية الفلسطينية رفع الاعتصام والعودة الى العمل اعتبارا من ٢٢ آذار .

عصام سخنيني

ملحق شهريات المقاومة الفلسطينية

عملية كريات شمونه

جاءت عملية « الخالصة » او كما تعرف ايضا « بكريات شمونه » في وقت تزايدت فيه الجهود السلمية المبذولة في المنطقة برعاية الولايات المتحدة وتحت انظار الاتحاد السوفييتي المراقبة بحذر ، وفي وقت تصاعدت فيه المعارك والاشتباكات في جبهة الجولان، واتسعت فيه رقعة الخلافات والانقسامات في داخل اسرائيل . ولقد حدثت في وقت قيام الرئيس السوري حافظ الاسد بزيارة الى الاتحاد السوفييتي ، للبحث مع الزعماء السوفييت في آخر تطورات قضايا المنطقة ، ولعرض وجهة النظر السورية فيما يتعلق بالجهود المبذولة للتوصل الى اتفاق للفصل بين القوات السورية والاسرائيلية في جبهة الجولان . وقيام وفد عسكري سوري برئاسة العميد حكمت الشهابي مدير الاستخبارات العسكرية السورية بزيارة الى الولايات المتحدة للاجتماع بالدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركية والبحث معه في آخر تطورات الجهود المبذولة ، وعرض المقترحات السورية بخصوص الفصل بين القوات في جبهة الجولان ، وفي وقت اجتمع فيه الرئيس الجزائري هواري بومدين بالرئيس نيكسون والدكتور كيسنجر لبحث اوضاع المنطقة وقضايا اخرى ، وبدأت عملية تطهير وتنظيف قناة السويس مراحلها العملية الاولى التي تشارك فيها قطع من الاسطول الاميركي والاسطول البريطاني بالاضافة الى وحدات بحرية مصرية تابعة للاسطول المصري وهيئة قناة السويس . فقد جاءت العملية في ذروة الجهود السلمية المبذولة لايجاد اساس لتسوية سلمية دائمة في المنطقة تعيد اليها الاستقرار والهدوء المنشودين .

ومن الواضح ان تنفيذ العملية في هذا الوقت وبهذا الاسلوب الثوري الانتحاري يهدف الى تحقيق الامور التالية :

١ — التأثير في الترتيبات السلمية الجارية في المنطقة برعاية الولايات المتحدة ، وتسخين الجو السياسي والعسكري ، وتصعيد العمليات ضد العدو الصهيوني في داخل الارض المحتلة .

٢ — تحويل انظار العالم الى جوهر القضية وحقيقة الصراع وذلك بمهاجمة هدف هام في داخل الاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ . فلقد دأبت اسرائيل منذ بدء النزاع على اظهار الصراع على غير حقيقته ، ونجحت في ابرازه على انه صراع اقليمي بين اسرائيل والدول العربية المجاورة . وعلى مر السنين ، وبسبب ضعف الاعلام العربي ، أصبحت القضية في نظر العالم عبارة عن خلافات حدودية بين اسرائيل والعرب ، مع انها في الاصل قضية شعب جرد من حقوقه ، واغتصبت العصابات الصهيونية اراضيه ، وصادرت ممتلكاته . لقد حاولت فصائل الثورة الفلسطينية بعملياتها الخارجية تحقيق ذلك من قبل ، ولكن هذه العمليات لم تحقق الغاية المرجوة منها في هذا المجال الا بنسبة محدودة . ثم جاءت عملية « كريات شمونه » بعنفها ودقة تخطيطها وتنفيذها لتضيف مكتسبات جديدة الى نضال الشعب الفلسطيني واعلامه المسلح، خاصة وان الهدف الذي هوجم هذه المرة يقع داخل الاراضي المحتلة في عام ١٩٤٨ ولهذا دلالات هامة ستكون لها مضاعفات على غاية من الاهمية في المستقبل .

٣ — انزال الخسائر المادية والبشرية في الجانب الاسرائيلي . لقد كانت حصيلة العملية ١٨ قتيلا و١٥ جريحا فضلا عن الخسائر المادية . يضاف الى ذلك القلق والرعب والتوتر الذي سيطر على الاسرائيليين وفقدان الثقة بتدابير الامن الاسرائيلية . ولقد حدث ذلك واسرائيل تمر في اوضاع داخلية مضطربة والخلافات في ذروتها بين مختلف الاتجاهات والاحزاب السياسية والتي نجمت عن اخفاقات اسرائيل في حرب « يوم الغفران » . وفي وقت تقدمت فيه الحكومة الاسرائيلية باستقالتها في اعقاب ادانة رئيس الاركان ومدير الاستخبارات العسكرية وثلاثة من كبار مساعديه العسكريين.

٤ — التأثير على الروح المعنوية بين الاسرائيليين وذلك باحتلال اهداف والسيطرة عليها داخل مستعمرة « كريات شمونه » . وهو ما تم فعلا ، اذ نجح الفدائيون الثلاثة بالسيطرة على بنايتين متجاورتين في المستعمرة ، وهما مدرسة وبناية تتكون من (١٥) شقة . وهذا أمر يحدث لاول مرة

في مسيرة الثورة الفلسطينية ، ويمكن ان يعتبر بحد ذاته تصعيدا للعمليات الفدائية التي تشن ضد الاهداف في داخل الاراضي المحتلة . يضاف الى ذلك اطلاق النيران في كل الاتجاهات والاشتباك مع افراد الجيش والشرطة وحرس الحدود الذين حضروا الى المستعمرة لمعالجة الموقف ، وانزال الخسائر في صفوفها .

٥ — المطالبة باطلاق سراح (١٠٠) من الاسرى الفدائيين الموجودين في السجون الاسرائيلية ، ومع ان هذا الشطر من العملية لم يتحقق ، الا انه من المهم جدا ان نسمع العالم والمنظمات والهيئات الدولية عن اسرانا الموجودين داخل سجون العدو الصهيوني . واروع ما جاء في هذه العملية ان المجموعة طالبت باطلاق سراح الفدائيين المسجونين حسب أقدميتهم في الاسر منذ عام ١٩٦٦ وعلى رأسهم الفدائي الياباني « اوكاموتو » المحكوم عليه بالسجن المؤبد في اسرائيل . كما ان المطالبة باطلاق سراح الاسرى الاجانب الذين عملوا مع العمل الفدائي والقت سلطات الاحتلال الاسرائيلي القبض عليهم ، سيكون له ردود فعل طيبة في علاقات الثورة الفلسطينية بحركات التحرر الوطنية في العالم .

٦ — اظهار قدرة الفرد الفدائي القتالية العالية ومستواه التدريبي الجيد والشجاعة والجرأة والاقدام التي يتحلى بها ، واستعداده للفداء حتى درجة الانتحار في سبيل تنفيذ مهمته ، وامكانية القيادات الفدائية على التخطيط الجيد والدقة في انتقاء الهدف والتوقيت للمباشرة بالتنفيذ .

ان العملية بحد ذاتها وبرغم محدودية الافراد الذين قاموا بها تعتبر تصعيدا في اسلوب العنف الثوري المتبع . لقد احتوت العملية كافة عناصر النجاح ويمكن تلمس ذلك من الطريقة التي تمت فيها ، ومن قيمة الهدف الذي نفذت فيه ، والنتائج الايجابية التي تمخضت عنها . وعليه يمكن تسلسلها كالاتي :

ا — انتقاء الهدف في داخل اراضي عام ١٩٤٨ المحتلة . ب — جمع المعلومات الدقيقة عن الهدف وتنفيذ استطلاع جيد للمنطقة قبل الشروع بالتنفيذ. جـ — تخطيط جيد ودقيق .د — الاعداد للعملية بوسائل علمية حديثة . هـ — التنفيذ وقد تم بمنتهى الشجاعة والجراة والاقدام والدقة وروح الفداء الحقيقي . و — انطلاق عناصر العملية من قواعد الثورة في الداخل حتى يتجنب لبنان اي رد فعل معاد .

٧ — تحقيق قومية العملية ، وذلك باشراك فلسطيني وسوري وعراقي فيها وهو عامل هام ستكون له دلالات هامة تقوي من تلاحم الجماهير العربية مع الثورة الفلسطينية .

وازاء هذه الحقائق والمعطيات الملموسة بدأت القوى الفاعلة والناشطة في المنطقة وخارجها نشاطها لتطويق العملية ، والحيلولة دون حدوث أية مضاعفات قد تؤثر على الجهود والمساعي السلمية المبذولة ، والتوصل الى فصل القوات في الجولان وهو اجراء مهم وضروري ويجب ان يسبق انعقاد مؤتمر السلام (الجولة الثانية) المنوي عقده في جنيف في المستقبل القريب .

لقد جاءت ردود الفعل الفلسطينية والعربية والدولية والاسرائيلية على العملية متباينة . فعلى الصعيد الفلسطيني لاقت العملية ترحيبا وتأييدا من كافة اوساط الثورة كما اشادت بها وكالة « وفا » ووصفتها بالعملية الاكثر تأثيرا والاشد ارباكا للعدو . وعلى الصعيد اللبناني الرسمي اتخذت الحكومة عدة خطوات عملية لتطويق الحادث كان أهمها استدعاء سفراء الدول الدائمة العضوية في مجلس الامن واطلاعهم على حقيقة الاوضاع ولفت نظرهم الى تهديدات اسرائيل . وعلى الصعيد الشعبي ، أبدت هذه الاوساط قلقها من قيام اسرائيل بعملية انتقامية ، مخافة تعريض الصف الوطني الى الانقسام وهو ما تسعى اليه اسرائيل. وعلى الصعيد العربي ، التزمت الحكومات العربية الصمت ازاء العملية ، على حين أشادت الصحف العربية الصادرة في كل من مصر والجزائر وليبيا والمغرب وتونس والكويت بالعملية ، وصرح العقيد معمر القذافي في حديث مع صحيفة النهار (٤/١٤/ ١٩٧٤) بقوله : « كان يجب ان تحدث كريات شمونه منذ وقت بعيد ، لقد اخترق الفدائيون بهذه العملية حاجز الخوف » . كما حذرت اذاعة صوت العرب شبه الرسمية في القاهرة اسرائيل من مغبة القيام بعملية انتقامية ردا على الحادث . أما على الصعيد الدولي ، فقد استنكرت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا العملية في الظروف الراهنة ، كما استنكرها السكرتير العام للامم

المتحدة السيد كورت فالدهايم معتبرا العملية ضارة بالجهود السلمية المبذولة . كما ندد بها الفاتيكان لاعتبارات انسانية .

ولقد جاء رد الفعل الاسرائيلي عنيفا واعلنت الحكومة الاسرائيلية المؤقتة غضبتها العارمة وهددت وتوعدت المنظمات الفدائية والحكومة والشعب في لبنان بعد ان ادعت ان الفدائيين تسللوا الى الارض المحتلة عبر الحدود اللبنانية واتخذت من جانبها خطوات سريعة لتطويق مضاعفات الحادث ، وارسلت وزير الشرطة شلومو هليل الى المستعمرة لتمثيل الحكومة في تشييع جثمان القتلى . وفي معرض التعليق على الحادث قال رئيس الدولة « كتسير » موجها كلامه الى غولدا مئير « انه نظرا لمشاكلنا الداخلية فاننا نصر على قرارنا بالدفاع عن أنفسنا واننا قد ننقسم في المسائل العامة الا اننا متحدون في وجه اية محاولة لالحاق الضرر بسلامة الدولة » . كما وجهت غولدا مئير في جلسة الكنيست التي عقدت بعد ظهر يوم ١٢/٤/ ١٩٧٤ ، تهديدا الى لبنان بقولها « ان مجزرة كريات شمونه هي أخطر من كل ما نفذ في السابق، ويتوجب على حكومة لبنان ان تدرك اننا نعتبرها وبسكانها الذين يساعدون المخربين مسؤولين عن هذه المجزرة » . ثم وجه الجنرال دايان تحذيرا الى الحكومة في لبنان والشعب في لبنان قال فيه « يتوجب على سكان لبنان قرب الحدود وغيرهم ، ان يدركوا انه اذا لم تمنع حكومتهم « المخربين والارهابيين من العمل ضد اسرائيل ، فلن يتمكنوا من العيش بارتياح قرب الحدود الاسرائيلية » . كما وجه شلومو هليل وزير الشرطة الاسرائيلي تحذيرا جديدا الى لبنان في حديث ادلى به للاذاعة الاسرائيلية قال فيه « ان على لبنان ان يصفي فورا كل المخيمات الفدائية وقواعدهم في اراضيه » وقال ايضا « ان اسرائيل ستتخذ كل الاجراءات الضرورية لتضع حدا لهجمات الفدائيين عليها من الاراضي اللبنانية ، وانه في امكان لبنان ان يضع حدا لنشاط الفدائيين كما فعل الاردن سنة ١٩٧٠». واضاف « بان الطريقة التي سيتصرف بها لبنان ستحدد رد الفعل الاسرائيلي على عمليات كريات شمونه » وفي اليوم نفسه تقدمت اسرائيل بشكوى الى السكرتير العام للامم المتحدة ، عن العملية التي قام بها الفدائيون في كريات شمونه ، وسلم المذكرة السفير الاسرائيلي الدائم في الامم المتحدة يوسف تكواع ، وحمل مسؤولية هذه العملية الى الجبهة الشعبية (ق.ع) والحكومة اللبنانية التي تسمح لهذه المنظمة بحرية الحركة وحرية التدريب (على حد قوله) .

رد الفعل السياسي (ديان ، هليل ، مئير)

وفي اعقاب الحادث قامت اسرائيل بتحركات عسكرية قرب الحدود اللبنانية ، وقد شاهد هذه التحركات اهالي القرى الامامية اللبنانية في الجنوب . هذا وقد عمت التظاهرات مستعمرة « كريات شمونه » مطالبة بالثأر والانتقام . كما صدرت تهديدات مطالبة بالثأر من الحادث من بعض الوزراء وكبار المسؤولين ورجال السياسة في اسرائيل .

وفي الساعة الواحدة من صباح ١٩٧٤/٤/١٣ رابطت قوة من الجيش الاسرائيلي على طول امتداد الحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة وانقسمت الى وحدات ثانوية اختارت كل مجموعة منها هدفا لها في الاراضي اللبنانية ، على حين رابطت في داخل الاراضي المحتلة وعلى المحور الرئيسي المتاخم للحدود قوة اخرى معززة بالدبابات والاليات لتعمل كقوة احتياطية ، قد يطلب منها التدخل اذا ما تطلب الوضع ذلك . وقد اختيرت القرى التالية هدفا للهجوم وهي ، قرى الضهيره ، ويارون وعيطرون ومحيبيب والحولة والطيبه . وبدأت العملية الاسرائيلية في الساعة ١٫٣٠ صباحا وانتهت في الساعة ٣ صباحا ، وفي السادسة من صباح اليوم نفسه عملت قوة اخرى في قرى بليدا وبنت جبيل . وقد نجم عن هذه الاغارة نسف ٢٤ منزلا بعد ان تم اخلاؤها ، الامر الذي ادى الى مقتل امراة وطفلة . وخطف الاسرائيليون ١٣ مواطنا لبنانيا (من بينهم دركي لبناني) واخذتهم الى اسرائيل كأسرى .

لقد قامت اسرائيل بالعملية بالرغم من التحذيرات والمحاولات التي جرت لاقناعها من بعض الدول الغربية بما في ذلك الولايات المتحدة ، بعدم القيام برد انتقامي ضد لبنان وبالرغم من اعلان قيادة الجبهة الشعبية (ق.ع) على ان مقاتليها انطلقوا من قاعدتهم في داخل الارض المحتلة لا من الاراضي اللبنانية ، ولقد اقدمت على ارتكاب عمليتها الانتقامية للاعتبارات التالية :

١ ــ امتصاص النقمة العارمة السائدة في داخل

اسرائيل والمعلنة ضد كبار المسؤولين السياسيين والعسكريين في اسرائيل بسبب الاخفاقات التي نجمت في حرب تشرين الاول (اكتوبر) . والتي تتزعمها كتلة ليكود المعارضة وكتل معارضة اخرى. ولتتجنب التعرض للانتقاد من جانب هذه الجماعات في حالة عدم الرد على العملية ، خوفا من ان يؤثر ذلك على سمعة الفئة الحاكمة والمسيطرة على مقاليد الامور ، في زحمة الانقسامات والخلافات السياسية المتصاعدة .

٢ ـ اقناع العرب بان اسرائيل لا زالت قوية وقادرة على الردع والقيام بأعمال انتقامية ، وردع المنظمات الفدائية ومنعها من القيام بمثل هذه العمليات الانتحارية في المستقبل .

٣ ـ رفع الروح المعنوية المتردية في صفوف الجيش والشعب في اسرائيل ، ومحاولة لفت الانظار عن الصراعات الداخلية الدائرة في داخل اسرائيل .

٤ ـ ايجاد اسباب لتفجير التناقضات بين الحكومة اللبنانية والثورة الفلسطينية .

ان عملية « كريات شمونه » والتي جبلت بدماء الاحرار تعتبر تصعيدا للموقف العملياتي للفدائيين داخل الاراضي المحتلة ، وهي تدل على قدرة الفدائيين على توجيه الضربات الموجعة للعدو الصهيوني . ومن جهة اخرى تعتبر العملية الانتقامية التي نفذتها وحدات الجيش الاسرائيلي ضد القرى الامنة اللبنانية في الجنوب تصعيدا خطيرا للموقف العسكري من جانب اسرائيل ، ويمكن ان تجر عليها الويلات والمزيد من النكبات . وقد تخطىء اسرائيل ان هي اعتقدت انها بمثل هذه الاعمال المتطرفة يمكنها كبح جماح الفدائيين الفلسطينيين ، لان استمرارها باتباع هذه السياسة العدوانية المتطرفة لن تزيد الفدائيين الا تصميما على بلوغ الهدف المنشود في استعادة كافة حقوقهم في فلسطين المحتلة ومهما طال الزمن . ان تحريك مجموعة متتالية في داخل الارض العربية المجاورة لن يضمن لها الامن والاستقرار ولن يردع القوى العربية النامية والمتعاظمة . وستنحسر اسرائيل ان هي اعتقدت انه بلجوئها الى هذه الاساليب الانتقامية يمكنها ان تدفع بالدول العربية المجاورة، للعمل كشرطي للحدود ليصد عنها غارات أصحاب الحق في الارض . فلقد صرح في بيروت لجريدة النهار الصادرة في ١٩٧٣/٤/١٣ وزير الخارجية والمغتربين اللبناني بقوله « ان القاء مسؤولية الحادث على لبنان بسبب وجود الفلسطينيين على اراضيه فأمر مردود لان هذا الوجود على ارض لبنان وغيره من البلاد العربية هو نتيجة الارهاب الصهيوني في الارض الفلسطينية المحتلة ، وان لبنان مسؤول عما يحدث ضمن اراضيه وليس مسؤولا عما يحدث خارجها وبالتالي ليس في وسعه ان يكون شرطيا لحماية اسرائيل » . كما ان الجنرال احتياط شارون (عضو الكنيست الاسرائيلي) نفسه قال في جلسة الكنيست المنعقدة بتاريخ ١٩٧٤/٤/١٧ « لماذا نعتمد على حكومة لبنان ؟ فهل حكومة لبنان هي المسؤولة عن أمن دولة اسرائيل وسلامة مواطنيها ؟ ينبغي علينا ان نوضح لانفسنا وبصورة قاطعة ان اسرائيل مسؤولة عن أمنها ، وفقط اسرائيل ، ولكن لا يجوز ان نحمل لبنان المسؤولية » .

الرائد الطيار حسين عويضه

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

تتلخص اهم التطورات الدولية بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي في الشهر الماضي بالاحداث التالية :

(١) رفع الحظر العربي عن شحن النفط الى الولايات المتحدة . منذ مطلع اذار بدا واضحا ان محورا مصريا — سعوديا أخذ يضغط بشدة داخل المجموعة العربية من أجل تلبية مطلب امريكا بالعودة الى تزويدها بالبترول . وتكون هذا المحور ، وفقا لمصادر امريكية مطلعة نتيجة نجاح كيسنجر باقناع الرئيس السادات بأنه من المتعذر على الولايات المتحدة ممارسة نفوذها على اسرائيل بشأن التسوية السلمية ما دام الحظر قائما ، وأنه من شأن مثل هذه الخطوة ان تسارع في جهود امريكا في المنطقة بالاضافة الى التخفيف من الضغوط السلبية المتزايدة التي يتعرض لها الرئيس نيكسون بسبب فضيحة ووترغيت . وبمقابل ذلك تبلور محور سوري — ليبي — جزائري داخل المجموعة العربية باتجاه معارضة رفع الحظر في هذه الفترة بالذات خاصة وان الجبهة في سوريا مشتعلة ولم تتحقق أية مكاسب بعد على صعيد فصل القوات المتحاربة في الجولان والتزام اسرائيل بالانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة . وبسبب المواجهة التي نشأت بين هذين المحورين سادت بلبلة بالنسبة الى اجتماعات وزراء النفط العرب التي انعقدت في النصف الاول من شهر آذار . فقد تم الاعلان عن عزم الوزراء على عقد اجتماع لهم في القاهرة بينما عارض آخرون ذلك وانتهى الامر الى عقد الاجتماع في ١٣ اذار في ليبيا . ويبدو ان الاجتماع قرر بالاكثرية رفع حظر النفط عن الولايات المتحدة الا انه تم تأجيل اعلان ذلك الى اجتماع لاحق في محاولة اخيرة لتفادي الانقسام العربي في هذا الموضوع الخطير .

وفي الوقت نفسه كان نائب الرئيس الامريكي يصرح بأنه علم بأن الحظر قد رفع من قبل العرب وان الاعلان الرسمي عن ذلك سيصدر خلال بضعة أيام . كما وجه نيكسون تحذيرا علنيا الى الدول العربية المنتجة للنفط بألا ترهن رفعها للحظر بأية شروط « لانه سيكون لمثل هذه الخطوة أثر عكسي على الجهود الامريكية المبذولة للوصول الى تسوية سلمية في الشرق الاوسط » . وفي الاجتماع الذي عقده وزراء النفط العرب في فيينا في ١٨ اذار أعلنوا قرارهم برفع الحظر عن الولايات المتحدة على أن يعاد النظر في هذا القرار ، شأنه في ذلك شأن القرارات الاخرى للوزراء ، في اجتماع يعقدونه في أول حزيران . ونص القرار أيضا على معاملة ايطاليا والمانيا الغربية كبلدين صديقين وتأمين حاجاتهما من النفط . وبرر المؤتمر قراره بقوله ، على لسان الناطق الرسمي باسمه ، بأن « السياسة الامريكية الرسمية قد أصبحت تتسم منذ وقت قريب باتجاه جديد نحو النزاع العربي الاسرائيلي وان الهدف من رفع الحظر هو تثبيت هذا الاتجاه ودفع امريكا لتتخذ موقفا أكثر تمشيا مع مبادىء الحق والعدالة تجاه الاراضي العربية المحتلة وحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة » وحمل المؤتمر اسرائيل مسؤولية امكان تطور الاحداث باتجاه قد يضطر الدول العربية المعنية الى اتخاذ اجراءات نفطية مشددة في المستقبل . وقد رفضت كل من سوريا وليبيا علنيا الموافقة على قرار المؤتمر وتحفظت الجزائر معتبرة القرار ذا صفة مؤقتة لكونه محدودا بمدة معينة . وذكر ناطق باسم الفريق المعارض ان كلا من ليبيا وسوريا ترى انه لم يحن الوقت بعد لرفع الحظر لان السياسة الامريكية لم تتبدل بما فيه الكفاية . وفي مؤتمر صحفي عقده الرئيس نيكسون في ٢١ اذار علق على قرار وزراء النفط العرب بقوله ان رفع الحظر يعني توفير مزيد من النفط للامريكيين على الفور والغاء الاوامر باغلاق محطات توزيع الوقود في أيام الاحاد . ونفى الرئيس نيكسون ان يكون قرار رفع الحظر قد جاء مرهونا بشروط . وبين ان سياسة حكومته هي السعي الى تحقيق سلام دائم في المنطقة بمعزل عن التطورات التي تطرأ على موضوع النفط ، وان حكومته ستستمر في دعم اسرائيل وسلامتها وفي السعي الى خلق علاقات جديدة مع مصر ودول عربية اخرى كانت قد قطعت علاقاتها بأمريكا . وشدد على أن الصداقة الامريكية لاحدى جارات اسرائيل لا تجعل امريكا عدوا لاسرائيل ، اذ أن مصالح اسرائيل الحيوية على المدى الطويل تتطلب وجود مثل هذه الصداقة « وقيام الولايات المتحدة

بدور بناء وايجابي في الشرق الاوسط » . أما كيسنجر فقد علق على القرار العربي بقوله انه لا يتوقع ان تعود الدول العربية الى فرض حظر النفط على بلاده . وكان تعليقه هذا ردا غير مباشر على بعض التفسيرات التي ذكرت أنه عندما يجتمع وزراء النفط في حزيران المقبل قد يعودون الى فرض الحظر اذا لم تحقق الجهود الامريكية في التسوية السلمية تقدما ملموسا . ويمكن اعتبار تصريح كيسنجر نوعا من التحذير الى الدول العربية حول خطورة اللجوء مجددا الى سلاح النفط .

(٢) تدهور العلاقات المصرية — السوفياتية تدهورا سريعا وعلنيا اوصلها الى حالة الجمود . منذ أن انتهت زيارة غروميكو لدمشق والقاهرة في اواخر شباط واوائل اذار اخذ تدهور العلاقات يظهر علنيا على شكل حملات اعلامية واحيانا على أعلى المستويات متبادلة بين مصر والاتحاد السوفياتي . ففي مطلع النصف الثاني من شهر اذار نشرت صحيفة البرافدا مقالا خرجت فيه عن تحفظها المعتاد حيال الولايات المتحدة وسخرت فيه من سياسة كيسنجر في الشرق الاوسط قائلة « انها ولدت فأرا » ، وشددت على ان امريكا ما زالت مستمرة في مساندتها لسياسة اسرائيل التوسعية على الصعيدين العسكري والاقتصادي . وأيدت استمرار حظر النفط باعتباره اثبت فعاليته كسلاح وأجبر واشنطن على القيام ببعض الخطوات الايجابية في الشرق الاوسط . وتبع ذلك سلسلة من المقالات في الصحافة السوفياتية اظهرت ميلا جديدا للتشدد والتصلب في موضوع التسوية في الشرق الاوسط وفي توجيه النقد للدور الامريكي مما يعني انتقاد السياسة المصرية المتجاوبة معه كليا. وركزت هذه المقالات على النقاط التالية :

(أ) تذكير العالم العربي بعدوانية الامبريالية الامريكية في الشرق الاوسط منذ عام ١٩٥٧ حتى الان .

(ب) انه على الرغم من اشتراك امريكا في مؤتمر جنيف بسبب النتائج الايجابية لحرب تشرين ١٩٧٣ فان الدوائر الامريكية الحاكمة لم تتخل عن مشاريعها الاستعمارية الجديدة في المنطقة وان الاحتكارات الاستعمارية تسعى الى استغلال الوضع الحالي وتضع المخططات للتغلغل في البلدان العربية وخاصة التقدمية منها في محاولة لجعلها تتخلى عن سياستها المعادية للامبريالية مقابل مساهمة امريكا في تسوية النزاع .

(ج) ان الولايات المتحدة تعمل على عزل البلدان العربية ليس عن الاتحاد السوفياتي فحسب بل أيضا عن حلفائها الاوروبيين الغربيين ، وشق الصفوف العربية واجبارهم على التخلي عن كل مكتسباتهم الاجتماعية .

(د) التأكيد على ان مجرد فتح قناة السويس لا يمكن في أي حال من الاحوال ان يكون بديلا لحل أزمة الشرق الاوسط في مجموعها .

وفي الفترة نفسها ظهرت في الاعلام المصري حملة على الاتحاد السوفياتي اتهمته بما يلي :

(أ) بالسلبية وبعدم التخلص من مركب النقص تجاه دبلوماسية كيسنجر النشيطة .

(ب) ان مصر تعرضت لحرب سياسية واقتصادية واستراتيجية عنيفة من جانب الولايات المتحدة بسبب علاقاتها بالاتحاد السوفياتي .

(ج) ان الاتحاد السوفياتي كدولة كبرى يرفض حق مصر كدولة صغيرة في الاتفاق مع الولايات المتحدة .

(د) ان الاتحاد السوفياتي يسعى الى ابقاء المنطقة في حالة حرب حتى يستطيع ان يواصل مناوراته وتدخلاته في الشؤون العربية .

(هـ) انه يسعى الى تجميد الوضع الراهن في الجولان ويرفض بيع أسلحة متطورة لبعض الدول العربية . وعلى سبيل المثال اتهم الصحفي المصري احسان عبد القدوس الاتحاد السوفياتي بخرق معاهدة الصداقة والتعاون المصرية — السوفياتية بسبب عدم استشارة مصر بالنسبة للمحادثات التي جرت بين نيكسون وبريجنيف واتهم الخبراء السوفيات الذين جاءوا الى مصر للاشتراك في عملية تطهير قناة السويس « بالاهتمام بجمع المعلومات عن كل ما يدور حول القناة من نشاط من دون ان يهتموا بدراسة عملية التطهير نفسها». ووصلت الحملة المصرية الى ذروتها في الخطاب الذي القاه الرئيس السادات في ٣ نيسان حيث أعلن ان الاتحاد السوفياتي كان دائما ضد العمل العسكري من اجل كسر الجمود الذي كان مسيطرا على أزمة الشرق الاوسط واتهمه بالتلكؤ في تزويد مصر بالاسلحة ، كما قال ان اخراج

الخبراء السوفيات من مصر كان خطوة في الاعداد لدخول الحرب وبأن قرار القتال كان قرارا مصريا مئة بالمئة وضد ارادة الدولتين العملاقتين . وقد رد الاعلام السوفياتي على هذه الحملة عموما وعلى خطاب الرئيس السادات بالتحديد فنفى بشدة ان يكون الاتحاد السوفياتي قد عارض استخدام العرب للقوة في نزاعهم مع اسرائيل وشدد على الدور الذي قام به السوفيات في مساعدة مصر وسوريا في النهوض من هزيمة حزيران وفي تعديل ميزان القوى لمصلحة العرب مبينا أنه لولا المساعدات السوفياتية لما كان باستطاعة مصر وسوريا ان تحققا ايا من النجاحات التي حققتاها في حرب تشرين ١٩٧٣ ، لان ما تحقق على صعيد تحطيم اسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر قد جاء « نتيجة شجاعة الجنود والضباط العرب وبسالتهم من ناحية وفاعلية الاسلحة السوفياتية التي تم استخدامها بنجاح من ناحية ثانية » . وحذر الاعلام السوفياتي من محاولات التقليل من اهمية التعاون العربي السوفياتي لان ذلك سيلحق ضررا كبيرا بالدول العربية وخاصة في الظروف الراهنة حيث يشكل التعاون الاقتصادي والعسكري مع الاتحاد السوفياتي الدعامة الاقوى في تعزيز الموقع العربي النضالي من أجل تحقيق تسوية عادلة في الشرق الاوسط . كذلك أشار الاعلام السوفياتي الى أنه حتى دايان اعترف بأن العرب كانوا مجهزين في حرب تشرين بأسلحة ومعدات تقنية اكثر فعالية مما هو متوفر لدى الجيش الاسرائيلي نفسه . وقد ذكرت انباء صحفية بأن الاتحاد السوفياتي بعث بمذكرة شديدة اللهجة الى الحكومة المصرية شددت على المواقف السوفياتية المؤيدة دوما الى حق مصر في استرداد اراضيها المحتلة بالقوة . واستشهدت المذكرة بمجموعة كبيرة من محاضر المحادثات المصرية ــ السوفياتية السابقة والبيانات الرسمية المشتركة التي أيدت هذا الحق . كما ردت المذكرة على ما قاله السادات حول التلكؤ السوفياتي في توفير الاسلحة اللازمة بتبيان كميات ونوعيات الاسلحة والمعدات العسكرية التي حصلت عليها مصر منذ هزيمة ١٩٦٧ .

(٣) الاتصالات الامريكية ــ السوفياتية على أعلى المستويات في ما يتعلق بمساعي التسوية السلمية في الشرق الاوسط . في ٢٣ اذار بدأ كيسنجر زيارة لموسكو حيث بحث مع الزعامة السوفياتية في موضوعين اساسيين هما الوضع في الشرق الاوسط ومشكلة نزع السلاح . وتمت هذه الزيارة في اجواء تدل على نوع من التدهور البطيء في سياسة الانفتاح السوفياتي ــ الامريكي. ويبدو ان محادثات كيسنجر تناولت القضايا المختلف عليها بالنسبة للشرق الاوسط والتي تتلخص بما يلي :

(أ) اصرار الاتحاد السوفياتي على ايجاد حل شامل لكل القضايا العالقة بالنسبة للنزاع العربي ــ الاسرائيلي وذلك في وقت واحد في حين ان امريكا تريد تجزئة القضية تحت ستار حل المشكلات تدريجيا مبتدئة بالمشكلات التي تعتبرها سهلة ومؤجلة المشكلات « المستعصية » مثل مسألة حقوق الشعب الفلسطيني ووضع القدس .

(ب) شعور الاتحاد السوفياتي بأن الاهتمام بموضوع فصل القوات قد طغى كليا على مشكلة الشرق الاوسط مما يعني ضرورة الاصرار على الا يغيب الهدف النهائي عن الانظار وهو الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة وتحقيق اتفاق سلام شامل . بينما لا ترى امريكا مثل هذا الرأي .

(ج) رغبة الاتحاد السوفياتي في ان يكون مؤتمر جنيف حول الشرق الاوسط هو محور كل المحادثات المتعلقة بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي ، في حين تشدد الولايات المتحدة على دبلوماسية كيسنجر والاتصالات الثنائية .

(د) اعتقاد امريكا بأن الاتحاد السوفياتي يحث سوريا على التشدد بمطالبها بالنسبة لتحقيق فصل القوات في جبهة الجولان ، في حين تريد اقناع القيادة السوفياتية بالتخلي عن هذا الموقف .

وذكرت انباء صادرة عن مراجع امريكية بأن كيسنجر لم يتمكن من التوصل الى اتفاق مع الزعامة السوفياتية حول النقاط المختلف عليها او تسويتها معهم . وعلى أثر انتهاء زيارته صدر بيان مشترك ذكر ان الفريقين أوليا اهتماما خاصا للسلام في الشرق الاوسط في محادثاتهما وانهما اخذا بعين الاعتبار دور كل منهما الخاص في مؤتمر جنيف وانهما سيبذلان جهودا من أجل ايجاد حل للمسائل الاساسية المتعلقة باتفاق سلام في المنطقة .

(٤) التطورات التي طرأت على المساعي السياسية لفصل القوات في جبهة الجولان المشتعلة . وتلخصت هذه التطورات بما يلي :

(أ) الزيارة التي قام بها دايان في منتصف شهر اذار الى واشنطن حيث قابل كيسنجر ونقل اليه مشروع اسرائيل لفصل القوات مع سوريا . كذلك اجرى محادثات مع المسؤولين الامريكيين تتعلق بتزويد اسرائيل بمزيد من الاسلحة والاعتدة الحربية . وتردد أن المشروع الذي حمله دايان لفصل القوات يدعو الى حصر عملية الفصل في الجيب الذي احتلته اسرائيل في حرب تشرين، والى اقامة منطقة عازلة بين قوات الطرفين ترابط فيها قوة الطوارىء الدولية ، هذا بالاضافة الى تبادل اسرى الحرب كجزء أصيل من اتفاق الفصل بين قوات الطرفين . وقد وصف كل من دايان وكيسنجر محادثاتهما « بأنها كانت بناءة جدا » . (اوضح الوزير الامريكي بأنه سينقل المشروع الاسرائيلي الى سوريا) وأعلنا بأنهما واثقان من أنه سيتم التوصل قريبا الى اتفاق مع سوريا في الجولان. وقال دايان بالتحديد « ان الاتفاق مع سوريا قد يتم في المستقبل القريب » . بينما ذكر كيسنجر بأن محادثاته مع دايان حققت تقدما جيدا وانه يعتقد بأنه سينجح في تحقيق هدفه كما نجح في فصل القوات على الجبهة المصرية . وأكد كيسنجر بأن الاحتمالات اصبحت قوية في أن تشترك سوريا في مؤتمر جنيف بعد اتفاق فصل القوات في الجولان. وعلى صعيد اخر طلب دايان من امريكا تزويد بلاده بمزيد من الاسلحة والدبابات والصواريخ واجتمع بهذا الصدد بلجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ الامريكي . وذكرت « النيويورك تايمس » ان الرئيس نيكسون ينوي زيادة المساعدات العسكرية لاسرائيل بما قيمته ٧٠٠ مليون دولار بحيث يصل الرقم الاجمالي الى ٢٢٠٠ مليون دولار . كما تأكد ان كيسنجر ونيكسون يتشاوران حول تحويل مليار ونصف المليار من المبلغ المذكور الى هبة لاسرائيل .

(ب) قيام وفد رسمي سوري برئاسة اللواء احمد الشهابي ، رئيس الاستخبارات العسكرية، بالتوجه الى واشنطن في النصف الاول من شهر نيسان لاجراء محادثات مع كيسنجر حول موضوع فصل القوات في جبهة الجولان . وقد ذكرت مصادر سورية مطلعة أن الوفد لا يحمل صلاحيات الدخول في مفاوضات حول الفصل بلستكون مهمته محصورة في اطلاع كيسنجر على وجهة النظر السورية والحصول منه على الاقتراحات الاسرائيلية المعنية. وترددت أنباء تقول أن الموقف السوري يدعو الى انسحاب القوات الاسرائيلية ، في المرحلة الاولى، من الجيب المحتل في الحرب الاخيرة ومن مدينة القنيطرة على أن تتعهد اسرائيل بالانسحاب فيما بعد من كل الاراضي السورية المحتلة وفقا لجدول زمني . كذلك ذكرت الانباء ان دايان عبر امام كيسنجر عن استعداد اسرائيل للانسحاب من مدينة القنيطرة شرط الاحتفاظ بثلاثة تلال استراتيجية تطل احداها على المدينة وتتحكم عسكريا بمصيرها. اما سوريا فهي مصرة اصرارا تاما على استعادة هذه التلال في المرحلة الاولى من الانسحاب الاسرائيلي . وقبل الاجتماع بالوفد السوري صرح كيسنجر بأن قراره المتعلق بالسير قدما بزيارة الى الشرق الاوسط مرهون بنتائج اجتماعه بالوفد السوري وبتطورات الوضع الحكومي في اسرائيل. وعلى أثر انتهاء اجتماعات الوفد السوري بالوزير الامريكي صرح كيسنجر بأنه سيعود الى زيارة المنطقة قبل نهاية شهر نيسان في محاولة للتوصل الى اتفاق فصل القوات في الجولان . كما قال ان محادثاته مع رئيس الوفد السوري كانت « مفيدة جدا وتفسح المجال امام الجهود الامريكية كي تحرز تقدما » . وجدير بالذكر هنا أن اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر شارك بصورة فعالة في المباحثات السورية الامريكية .

(ج) الزيارة التي قام بها الرئيس الاسد الى موسكو في النصف الاول من شهر نيسان على رأس وفود حزبية وحكومية واقتصادية سورية رسمية . واكتسبت هذه الزيارة اهميتها بسبب استمرار القتال العنيف على الجبهة السورية وعدم وجود أي دليل على حدوث اي تقدم ملموس على صعيد فصل القوات في الجولان او على التزام اسرائيل بالانسحاب الكلي من الاراضي المحتلة . كما اكتسبت الزيارة اهمية اضافية لان مباحثات الرئيس الاسد لم تقتصر على القضايا العسكرية والسياسية بل شملت قضايا انمائية واقتصادية وتجارية وصناعية وثقافية هدفها تجديد الاتفاقات السورية — السوفياتية السابقة ، وعقد اتفاقات وبروتوكولات جديدة ترمي الى تنمية التعاون بين البلدين في كافة هذه المجالات . وفي مأدبة أقيمت

على شرف الضيف السوري انتقد الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف مساعي كيسنجر في الشرق الاوسط حيث قال ان الموضوع في المنطقة ما زال خطرا ومتفجرا واتهم اسرائيل وحماتها بالتهرب من حل المشكلة بشكل جذري وشامل وذلك باللجوء الى ما وصفه بريجنيف « بالخطط البديلة » للتسوية والمقصود منها الاستعاضة عن التسوية الشاملة باتفاقات جزئية . كما أكد اتفاق الاتحاد السوفياتي الكلي مع سوريا على ان أي اتفاق للفصل بين القوات لا بد وان يكون جزءا من تسوية شاملة في المنطقة وخطوة نحو الانسحاب التام للقوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة . وانتهت المحادثات بتوقيع اربعة اتفاقات ضمت اتفاقا طويل الامد حول التعاون الفني والاقتصادي ، وبروتوكولا للتجارة ، وخطة للتعاون الثقافي والعلمي خلال عام ١٩٧٤ — ١٩٧٥ ، واتفاقا حول العلاقات بين الحزب الشيوعي السوفياتي وحزب البعث العربي الاشتراكي . كما تم توقيع بيان مشترك سينشر نصه عند انتهاء جولة الرئيس الاسد في بعض مناطق الاتحاد السوفياتي . مع ذلك أصدرت وكالة تاس بيانا صحافيا حول الزيارة ذكرت فيه ان المحادثات تركزت على الموقف في الشرق الاوسط حيث ما زالت الاوساط الحاكمة الاسرائيلية والقوى الخارجية التي تدعمها تتبع سياسة تشكل خطرا على قضية السلام في المنطقة. كما أكد البيان عزم الجانبين على مواصلة الجهود من أجل احلال سلام عادل ودائم في المنطقة على اساس تحرير كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني . وذكر ان الاتفاقات التي تم عقدها ستساعد سوريا في تطوير اقتصادها الوطني المستقل وتقوية قدراتها الدفاعية .

(٥) الزيارة التي قام بها الملك حسين الى الولايات المتحدة في النصف الاول من شهر آذار حيث قابل كبار المسؤولين بما فيهم الرئيس نيكسون ونائبه فورد ، وكيسنجر ووزير الدفاع واعضاء لجنة الشؤون الخارجية في كل من مجلسي النواب والشيوخ . كما القى كلمة في النادي الوطني الامريكي للصحافة . وتناولت محادثاته موضوع التسوية السلمية ومستقبل الضفة الغربية بالتحديد. هذا بالاضافة الى مسألة زيادة المساعدات العسكرية الامريكية للاردن بما في ذلك تزويده بصواريخ ارض جو من نوع هوك وتمديد اتفاق المساعدة العسكرية للاردن الذي تنتهي مدته في ٣٠ حزيران المقبل وتبلغ قيمته ١٢٠ مليون دولار . وذكر الناطق باسم البيت الابيض ان مباحثات الملك مع نيكسون كانت ودية وتناولت الوضع الذي سيكون للفلسطينيين في الضفة الغربية ضمن اطار أية تسوية شاملة لازمة الشرق الاوسط . وفي الخطاب الذي القاه في نادي الصحافة ذكر الملك انه لا حاجة لاسرائيل لان تعيش في خوف من جيرانها العرب وانه على استعداد لقبول قيام دولة فلسطينية مستقلة اذا قرر الفلسطينيون ذلك في استفتاء حر بعد انسحاب اسرائيل من الضفة الغربية وعودتها الى الاردن . كما ذكر في مقابلة أجرتها معه النيويورك تايمس في ١٦ آذار ان فرص التوصل الى سلام دائم في المنطقة قد تعززت كثيرا في الاشهر الاخيرة وعلى هذا الاساس وجه دعوة الى اسرائيل لقبول عرضه بفتح مفاوضات مع الاردن بواسطة الولايات المتحدة . وانتقد وجهة نظر اسرائيل القائلة بتأجيل التفاوض معه الى ما بعد فصل القوات في سوريا . وذكر بهذا الصدد « ان الاردن قام بكل ما في وسعه لاحلال سلام دائم ولا يجوز ان يعاقب على الاعتدال الذي يظهره » . كذلك أكد الملك الانباء التي كانت قد ترددت حول قيامه بتقديم اقتراح الى اسرائيل كي تنسحب قواتها من منطقة وادي الاردن على عمق يراوح بين ٨ و١٦ كيلومترا كمرحلة اولى في التوصل الى تسوية سلمية. الا ان اسرائيل أهملت اقتراحه. كما ذكر ان مشكلة القدس ستكون عسيرة الحل الا ان عودة السيادة العربية عليها لا تعني العودة الى ظروف ما قبل ١٩٦٧ . واخيرا أكد بأنه يريد الحصول على أسلحة امريكية لتحديث جيشه كي يصبح بامكانه مواجهة تطورات الوضع في المنطقة، وأوضح انه لا يعني بذلك اسرائيل فحسب بل سوريا والعراق ايضا .

وعلى اثر عودة الملك حسين الى عمان صرح رئيس حكومته بأن السلطات الامريكية وافقت على تقديم دعم لموازنة الدولة في الاردن لهذا العام وتقديم قروض ومساعدات للتنمية كما وافقت على برنامج جديد للمساعدات العسكرية التي ستشمل أسلحة حديثة ومتطورة في المستقبل القريب .

(٦) على أثر سقوط حكومة حزب المحافظين في بريطانيا وتسلم زعيم حزب العمال هارولد ويلسون

رئاسة الوزراء سرت تخوفات في الاوساط السياسية العربية حول طبيعة السياسة التي ستتبعها الحكومة البريطانية الجديدة ازاء النزاع العربي — الاسرائيلي خاصة ان زعامة حزب العمال كانت قد أدلت بتصريحات هي بمنتهى التحيز لاسرائيل عندما كانت في المعارضة وخاصة اثناء حرب تشرين الاخيرة . الا ان حكومة ويلسون سارعت الى تطمين الزعماء العرب حول عدم نيتها تبديل سياسة الحكومة السابقة فيما يتعلق بقضية الشرق الاوسط . واوضح ان خوف الحكومة الجديدة من حظر النفط عن بريطانيا يكمن خلف هذا الموقف . أرسل ويلسون رسالة الى الرئيس السادات في الاسبوع الثاني من شهر آذار أكد فيها ان حكومة العمال تنوي اتباع سياسة محايدة بين الدول العربية واسرائيل . وقد أكدت مصادر مطلعة ان الرسالة صيغت بلهجة ودية جدا وشددت على ضرورة استمرار التحسن في العلاقات البريطانية المصرية . كذلك شدد وزير الخارجية في الحكومة العمالية في خطاب القاه في البرلمان حول الشؤون الخارجية على ان اسرع حل عادل ودائم لمشكلة الشرق الاوسط هو تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ تنفيذا كاملا على ان تنص التسوية على « ابراز شخصية الشعب الفلسطيني » . كذلك أصدرت الحكومة العمالية في اواخر آذار بيانا أيدت فيه البيان الصادر عن الدول التسع الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة حول النزاع العربي — الاسرائيلي ، وهو البيان الذي صدر في ٦ تشرين الثاني ١٩٧٣ وشدد على ضرورة انهاء الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

صادق جلال العظم

صدر حديثا عن مركز الابحاث

اليوميات الفلسطينية

المجلد الخامس عشر

من ١/١/١٩٧٢ الى ٣٠/٦/١٩٧٢

والمجلد عبارة عن وصف موجز ودقيق لما يحصل في العالم مما له علاقة مباشرة بقضية فلسطين ، او ما يقال او يكتب عنها، يوما بعد يوم ، مهما كان نوع الفعل وايا كان مصدره. وهو ملحق بفهرسين مفصلين (واحد للاعلام وآخر للموضوعات) وبجدول بعمليات المقاومة الفلسطينية .

سعر النسخة ٢٠ ل.ل. تضاف اليها أجور البريد الجوي :
٢ ل.ل. في العالم العربي ، ٤ ل.ل. في اوروبة ، ٨ ل.ل. في سائر الدول .

أطلبه من مركز الابحاث : قسم التوزيع

ص. ب ١٦٩١ — بيروت

(٣) المناطق المحتلة

التوجه الاردني نحو الضفة الغربية

بينما كان الملك حسين يواصل خلال الفترة الماضية جولاته العربية والدولية ، كانت الاجهزة الاردنية ذات العلاقة تواصل نشاطاتها الخاصة بدعم التوجه الاردني العام حيال الضفة الغربية. وقد أخذ هذا التوجه يتبلور من خلال عدة اقنية اهمها :

١ ـ **اعادة صرف الرواتب** : تمشيا مع القرار السابق للحكومة الاردنية والقاضي باستئناف دفع مرتبات موظفي المؤسسة الاردنية السابقة في الضفة الغربية ، وفق قواعد محددة (راجع شؤون فلسطينية العدد السابق) ، فقد تمت خلال الفترة الماضية عدة صرفيات . غير ان الطريقة التي كانت متبعة في هذا المجال قبل تجميد الرواتب عام ١٩٧١ ، وهي التفاويض الشخصية ، لم تعد قائمة . فقد ذكرت صحيفة القدس يوم ١٢/٣/١٩٧٤ ، ان التعليمات قد صدرت في عمان بصرف رواتب موظفي الضفة الغربية **بصورة شخصية** ، لان صيغة التفويض لم تقرر بعد . وفي اليوم التالي ذكرت القدس ان مجلس الوزراء الاردني وافق على صرف مبلغ ٢٥٠ الف دينار من الالتزامات المالية الصادرة بموجب قرارات اللجنة العليا لشؤون الارض المحتلة ، تجاه الدوائر والمؤسسات والهيئات والجمعيات في الضفة الغربية والتي يبلغ مجموعها نحو ٤٥٠ الف دينار . وقالت «القدس» ان هذه المبالغ **تشمل** رواتب موظفي الضفة الغربية التي تقرر استئناف دفعها ابتداء من ١/٢/١٩٧٤ (القدس ١٣/٣/٧٤) . الا ان جريدة الشعب التي نقلت الخبر نفسه ذكرت ان هذه المخصصات **لا تمت بصلة** لرواتب موظفي الضفة التي تقرر صرفها ابتداء من اول شباط (الشعب ١٣/٣/١٩٧٤) .

أما تفاصيل دفع الرواتب لموظفي الضفة الغربية فقد نشرتها جريدة الشعب في عددها الصادر يوم ١٥/٣ . وجاء فيها : « وصلت أمس قوائم دفع الرواتب من عمان لموظفي الضفة الغربية المحتلة ، وشملت هذه القوائم دوائر : البريد ، الزراعة ، والبيطرة ، والجمارك ، والحراج ، وهي عن شهر شباط الماضي . ولوحظ انها مقتصرة على الراتب الاساسي فقط من غير علاوات ، كما كان مفهوما ، او كما يقتضي القانون والموازنة التي تعتبرهم موظفين على كوادرها مثلهم في ذلك مثل موظفي الضفة الشرقية . أما رواتب المتقاعدين فقد وصلت كاملة اي بالراتب الاساسي مع العلاوة حسب العادة والاصول ، خلافا لرواتب العاملين » . وقالت الصحيفة ان رواتب الموظفين الذين لم يعملوا تحت ظل سلطات الاحتلال فقد دفعت اليهم رواتبهم كاملة ، اي الراتب الاساسي مع العلاوة ، مضافا اليها علاوة التقدير والاعاشة البالغة ٥٠ ٪ من الراتب الاساسي ، الامر الذي يصبح معه الراتب الاساسي لموظف قدره ٣٠ دينارا هو ٤٥ دينارا مضافا اليها علاوات الثلاثين دينارا الثابتة . اما موظفو التربية والتعليم ، فقد تأخر دفع رواتبهم لاسباب « ادارية » ، ذلك ان قوائم الدفع كبيرة وهناك تشكيلات طارئة على المعلمين،كالترفيعات والزيادات السنوية وما شابهها ، ومع ذلك أبلغ حملة التفويضات والموظفين في التربية والتعليم بالضفة ، بوجوب عمل تفويضات جديدة تشمل شهري شباط وآذار معا ، وانها ستدفع لهم اما في نهاية شهر اذار او في بداية شهر نيسان ، وانها ستكون على غرار الدوائر الاخرى ، اي الراتب الكامل (الاساسي) مع العلاوات (الشعب ١٥/٣/٧٤) .

وحول رواتب المعلمين بصفة خاصة ذكرت « القدس » ان مديرية الموظفين بوزارة التربية والتعليم الاردنية ، باشرت باعداد قوائم رواتب معلمي ومعلمات الضفة الغربية تمهيدا لصرفها قبل نهاية الشهر الجاري . ونقلت الصحيفة عن مضر بدران وزير التربية والتعليم ومدير المخابرات الاردنية السابق ، قوله بأن سبب التأخير في الصرف يعود الى الوقت الطويل الذي استغرقته عملية اعداد القوائم نظرا لكثرة عدد العاملين في جهاز التربية والتعليم في الضفة الغربية والذين يزيد عددهم على ٢٥٠٠ موظف . وقال أن عملية الصرف استلزمت الرجوع الى ملفات هذه الفئة لمعرفة الرواتب الحالية وما طرأ عليها من تعديلات بسبب الترفيع والزيادات واحالات التقاعد وعلاوات العائلة ، بالاضافة الى الاسس التي سيتم

بموجبها تحديد استحقاق كل موظف حفاظا على مصلحة الموظف وخزينة الدولة (القدس ٧٤/٣/١٧) .

غير أن الذي يثير الانتباه حقا ، تلك الشروط الغريبة التي اشترطتها وزارة العدلية في الاردن لصرف رواتب موظفيها (المحاكم) في الضفة الغربية . فقد رفضت وزارة العدلية دفع رواتب موظفي المحاكم من الكتبة في الضفة،لان التفويضات التي ارسلوها يجب ان تكون على نموذج مختلف على باقي موظفي الضفة ، والتي ينص فيها عادة على ان الموظف ما زال على رأس عمله مع تصديق من معتمدي دائرته او وزارته بصحة ذلك . والامر الغريب أيضا في اشتراطات وزارة العدلية الاردنية هو الطلب الذي يوجب ان يتضمنه التفويض فقرة تقول بأن الموظف « ما زال يتقاضى راتبه من سلطات الاحتلال » (الشعب ٧٤/٣/٣١) .

٢ — **التحرك السياسي** : تمحور التحرك السياسي الاردني في الضفة الغربية خلال الفترة الماضية حول هدف محدد هو : تطويق الانجازات السياسية التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد الدولي ، والالتفاف الجماهيري الواسع التي حظيت به المنظمة داخل الضفة الغربية وقطاع غزة .

استخدم النظام الاردني في تحركه هذا جريدة القدس ، المعروفة بولائها للملك حسين وتبنيها لسياساته في الاراضي المحتلة . فقد طلعت علينا هذه الصحيفة في عددها الصادر يوم ١٩٧٤/٣/٨ تحمل في صدر صفحتها الاولى العناوين الرئيسية التالية : « الاردن يتخلى عن الضفة الغربية للفلسطينيين . حسين سيعلن « نفض يد الاردن » من الضفة بعد اجتماعه مع نيكسون والسادات . السادات وغروميكو يؤكدان ان الضفة الغربية لن تعود الى الاردن » . وقالت القدس ان الملك حسين سيعلن قبل نهاية شهر اذار موقف حكومته بالنسبة لمستقبل الضفة الغربية . « والاتجاه السائد الان هو اتاحة الفرصة امام الفلسطينيين، لاقامة حكم فلسطيني مستقل في الضفة الغربية وقطاع غزة » . ونقلت القدس على لسان الرئيس المصري انور السادات قوله لعدد من أبناء الضفة الغربية الذين زاروا القاهرة مؤخرا ، ان الحكومة الاردنية « لن تتسلم مسؤولية الاشراف على الضفة الغربية بعد انسحاب القوات الاسرائيلية منها » . وقالت على لسان السادات أيضا ، ان من حق الفلسطينيين في الضفة والقطاع « تقرير مصيرهم بحرية مطلقة ، واقامة حكومة فلسطينية مستقلة ، ثم لهم فيما بعد ان يحددوا نوع العلاقة التي يرغبون الارتباط بها مع الضفة الشرقية » . وذكرت الصحيفة على لسان احد المسؤولين الاردنيين قوله لاحد ابناء المناطق المحتلة ، ان سياسة الاردن الجديدة تقوم على اساس « نفض اليد » من الضفة الغربية « نتيجة للضغوط العربية وكذلك بتأثير من الخط السياسي الذي تتبعه روسيا واميركا في هذا الشأن » ..

وفي يوم ٣/١٠ خرجت القدس بعنوان رئيسي آخر يحمل نفس التوجه السابق ، فيما بدى انه حملة جس نبض لابناء الضفة الغربية ، تقوم به الصحيفة لحساب الحكومة الاردنية . فتحت عنوان «حسين يعترف قريبا بالمنظمة ويلغي مشروع المملكة المتحدة. حكومة فلسطينية انتقالية في الضفة والقطاع لمدة ٥ سنوات . انتخابات عامة باشراف محايد ثم تشكيل حكومة دستورية » قالت القدس «ان المرحلة التالية من محادثات جنيف ستكون اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تتولى شؤون هذه الدولة حكومة انتقالية لمدة خمس سنوات ، مع نوع من المشاركة العربية في الادارة. وتتاح خلال هذه السنوات الفرصة لمن يرغب من الفلسطينيين المقيمين في الخارج ، بالعودة الى اراضي الدولة الفلسطينية الجديدة . وبعد انتهاء الفترة الانتقالية تجري انتخابات عامة باشراف محايد ، ثم تشكيل حكومة دستورية جديدة تتولى شؤون الحكم ، وتحديد نوع العلاقة بين هذه الدولة والدولة الاردنية والدول العربية والاجنبية». واضافت الصحيفة انه من « المحتمل ان يعلن الملك حسين اعترافه رسميا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وينتظر ايضا ان يعلن الغاء مشروعه المعروف باسم المملكة العربية المتحدة » .

أما صحيفة الشعب ذات النفس الوطني الواضح فقد شرحت في عددها الصادر يوم ٣/١٢ تحركات النظام الاردني وتوجهاته هذه بقولها ، ان الحكومة الاردنية بالتعاون مع بقايا الهيئة العربية العليا وبعض المحسوبين على الحكومة الاردنية في الضفة والقطاع ، تحاول « الالتفاف من حول المنظمات الفلسطينية الممثلة الشرعية للشعب العربي

الفلسطيني » . وعددت هذه المحاولات فيما يلي:

١ ــ قيام حكومة « انتقالية » لمدة خمس سنوات يشترط فيها بموجب التخطيط الاميركي ــ الرجعي ــ الاسرائيلي ان تكون من شخصيات من خارج منظمة التحرير ، وان يشارك فيها الاردن على أساس ان الجهاز الحكومي قائم وموجود في الضفة الغربية وما زال مرتبطا بالاردن ، وان يجري استفتاء تحت اسم انتخابات عامة باشراف الجامعة العربية « تقوم بعدها الدولة بتقرير مصير الضفة والقطاع ، ومع الاردن بالدرجة الاولى ، تحت اسم علاقات جديدة » .

٢ ــ « اعادة احياء ما يسمى بالهيئة العربية العليا الناطقة الوحيدة باسم الشعب الفلسطيني ، الفلسطينية المقترحة ... على ان تكون الهيئة العليا الناطقة الوحيدة بأسم الشعب الفلسطيني ، وتمارس حق بحث مصير الاراضي المحتلة والشعب» وقالت الصحيفة ان عناصر هذه الهيئة ستكون من « اليمين في الخارج ومن رجال الاردن المحسوبين ومن فئات تعايشية معروفة ايام الاحتلال الاسرائيلي » .

٣ ــ « قيام ادارة مدنية بصورة مستعجلة تكون نواة لقيام الاتجاهين السابقين ، سواء من حيث قيام الدولة او تشكيل الهيئة العليا على أن تكون هذه الادارة من الجهاز الاردني القائم ومن نوعية لا تتعداهما ، لتصبح الادارة الشكل الاول لقيام الهيئة العليا والدولة ذات الخمس سنوات ، بوصفها وحدة قائمة بحد ذاتها مع الضفة والقطاع. ولا مانع في حالة معينة ان يقوم اشراف شبه دولي بشكل شكلي على هذه الادارة لاعطائها الصفة الحيادية والوحدة الذاتية » . واكدت الصحيفة ان الحكم الذاتي والادارة المدنية هذه تجابه بمعارضة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية ومن العناصر الوطنية الفلسطينية في الاردن ومن الجبهة الوطنية الفلسطينية في الضفة والقطاع .

٣ ــ العلاقة عبر الجسور وتحريك «الوجهاء»

منذ أن فتح النظام الاردني الجسور بين الضفتين عقب حرب حزيران ١٩٦٧ ، وهو يستخدم هذه الظاهرة كواحدة من اهم الاقنية السياسية ــ الاقتصادية في علاقاته مع الضفة الغربية ، بما يخدم تكريس نفوذه السابق في الضفة المحتلة . (لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا سياسة الجسور المفتوحة الصادر عن مركز الابحاث) . وكما استخدم العدو الاسرائيلي اجراءات منع عبور الاشخاص ، والمنتوجات عبر الجسور لتحقيق بعض اهدافه السياسية ، لجأ النظام الاردني الى نفس الاجراءات لتحقيق جانب من اهدافه السياسية . وقد كثرت في الاونة الاخيرة اجراءات منع القادمين الى عمان من قبل الحكومة الاردنية، دون تفسير من جانبها لاسباب ذلك المنع . (راجع المناطق المحتلة من شؤون فلسطينية عدد ٣٢) . فقد ذكر احد تجار مدينة نابلس اثر عودته من عمان بان المسؤول الاردني على الجسر طلب اليه ابلاغ عشرة اشخاص من محافظة نابلس بأنهم ممنوعون من دخول الضفة الشرقية. وهؤلاء العشرة هم ستة تجار من نابلس ، واثنان من جنين ، وواحد من طولكرم والعاشر من عرابة قضاء جنين (الشعب ٧٤/٣/٨) .

وفي يوم ٣/١١ اعادت السلطات الاردنية عددا من أبناء الضفة الغربية ومنعتهم من العبور الى الضفة الشرقية . اما الشخصيات والوجهاء فقد سمحت لهم السلطات الاردنية بمتابعة سفرهم الى عمان . ويأتي هذا الاجراء لليوم الثاني على التوالي دون ان تفصح عمان عن السبب الذي يجعلها تلجأ اليه في هذه المرحلة (الشعب ٧٤/٣/١٢) .

ونقلت « الشعب » في اليوم التالي عن صحيفة الدستور الاردنية خبرا مفاده ان الصحيفة الاردنية اوردت في صفحتها الاولى تحت عنوان «خبر اليوم» انه سوف تصدر « هذا الاسبوع » ارادة ملكية تتعلق باجراء مرتقب حول الجسور . ولم تورد « الدستور » اشارة او اضافة على هذا النبأ او ما تتوقع ان تكون عليه الخطوة الجديدة (الشعب ٧٤/٣/١٣) .

من جهة اخرى ، وفي الوقت الذي كانت فيه السلطات الاردنية تمنع عبور المسافرين الى عمان عبر الجسور ، كانت هذه السلطات تستدعي الوجهاء والمحاسيب للتشاور معهم بشأن الاوضاع السياسية الراهنة في المناطق المحتلة . فقد ذكرت الشعب انه قد وصل في بداية شهر اذار من عمان الى القدس الوزير السابق خلوصي الخيري في زيارة عمل قصيرة بوصفه عضوا في مجلس امناء المشروع الانشائي في اريحا . واجرى الخيري لدى وصوله عدة لقاءات مع رئيس مجلس الامناء موسى العلمي

وشخصيات اخرى في الضفة الغربية من بينهم اعضاء المجلس وبعض رؤساء البلديات وحكمت المصري وعبد الرؤوف الفارس . وقالت الصحيفة انه « بناء على استدعاء عاجل من مقامات عليا في عمان » قفل راجعا الى عمان ظهر يوم ٣/٨ بعد أن تقدم بطلب جمع شمل للسلطات المحتلة . واضافت « الشعب » ان رشاد الشوا رئيس بلدية غزة السابق رافق الخيري في عودته الى عمان « وفهم ان لاستدعائهما صلة بالاحداث والمقررات التي يزمع الاردن اعلانها حول مستقبل الضفة الغربية » . وكان من المقرر ان يزور الخيري شخصيات عربية في القدس والمثلث (الشعب ٧٤/٣/١٠) .

وذكرت « الشعب » بعد يومين من سفر الشوا الى عمان انه « يهدف الوقوف على التغيير الذي حدث مؤخرا على موقف حكومة الاردن في مسألة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف». وكانت صحيفة يديعوت أحرونوت الاسرائيلية قد ذكرت قبل ذلك ان الملك حسين يوافق على اقامة تمثيل من قبل وجهاء المناطق المحتلة للاشتراك في المفاوضات بأسم الفلسطينيين (الشعب ٧٤/٣/١٢) .

ومن ناحية اخرى نقلت « القدس » عن صحيفة هآرتس الاسرائيلية ان **اللقاءات تجددت بين الاردن واسرائيل** ، حيث عقد مؤخرا اجتماعان بمبادرة الاردن . وكان قد ذكر في السابق عن عقد عدة اجتماعات بين الطرفين شاركت فيها غولدا مائير والملك حسين . وتبين ان الاردن طلب استئناف هذه الاجتماعات ليوضح لاسرائيل انها اذا لم تقدم تعهدا بالانسحاب من الضفة الغربية فان الاردن سينفض يده من الضفة وعلى اسرائيل في هذه الحالة ان تسعى الى اتفاق مع ممثلي الفلسطينيين . وفي الاجتماعين اللذين عقدا مؤخرا جرت محاولات لتقريب وجهات نظر الطرفين بشأن امكانية الفصل بين القوات على نهر الاردن . وعلم ان ممثلي اسرائيل قالوا في هذين الاجتماعين ان حكومتهم لم تتخذ قرارا بعد بشأن مستقبل الضفة الغربية ولذلك فانه ليس باستطاعتها اعطاء رد رسمي لممثلي الاردن (القدس ٧٤/٣/١٥) .

ومن المعروف ان الملك حسين كان في زيارة رسمية للولايات المتحدة وتمت نشر هذه الانباء في صحيفة القدس الموالية له في الضفة الغربية ، تلك الزيارة التي توقعت خلالها الصحف الاسرائيلية ان يتم في اعقابها وبعد جولة الملك في بعض العواصم العربية ان يتخذ قرارا بتقليص مملكته في حدود الضفة الشرقية فقط .

اضراب السجناء

في الاول من اذار (مارس) الماضي ، اعلن المعتقلون الفلسطينيون في سجن نابلس ، اضرابهم عن مقابلة ذويهم ، احتجاجا على سوء المعاملة التي يلقونها في السجون الاحتلال . وكما لم تتوقع سلطات الاحتلال الاسرائيلية ، امتد الاضراب من سجن نابلس ليشمل كافة السجون والمعتقلات الاسرائيلية ، خاصة في سجون بئر السبع وعسقلان وشطة وغزة ... الخ .

اثار اعلان السجناء عن اضرابهم هذا ردود فعل شعبية واسعة شملت الضفة الغربية وقطاع غزة . وقامت الهيئات البلدية والنسائية والعمالية والمهنية وغيرها برفع مذكرات الاحتجاج الى سلطات الحكم العسكري ، تطالب فيها بالكف عن تلك الاجراءات المتبعة في التحقيق مع المعتقلين ، وتطبيق معاهدة جنيف الخاصة باسرى الحرب على المعتقلين الفلسطينيين ، وتحقيق مطالب السجناء الاساسية بتحسين الاوضاع والمعاملة خاصة في سجن بئر السبع الذي مضى على اضرابهم فيه اكثر من ثمانية أشهر ، والسماح للجنة دولية بالتحقيق فيما يجري داخل المعتقلات الاسرائيلية ... الخ .

وبعد ان رفعت المذكرات والعرائض المختلفة ، وجرت بعض الاعتصامات من قبل امهات المساجين، خاصة في نابلس ، تشكلت لجنة تتألف من بعض المحامين العرب في الضفة الغربية واسرائيل ، للدفاع عن السجناء والمعتقلين العرب في السجون الاسرائيلية (الشعب ١٩٧٤/٣/١٠) .

وفي يوم ١٠ اذار (مارس) نشرت صحيفة القدس نص مذكرة رفعتها امهات المعتقلين في سجن نابلس الى موشيه ديان ورفائيل فاردي الحاكم العسكري العام في الضفة الغربية وقعها الى جانب الامهات عدد من رؤساء البلديات . وجاء في المذكرة: « نحن الوفود القادمة من جميع المناطق، والضفتين الشرقية والغربية ، من امهات المعتقلين نصر على معرفة أسباب الاضراب الذي يهدد حياة ابنائنا بالخطر ، بعد أن منعنا اليوم (أمس) من مقابلة

أبنائنا في سجن نابلس . كما نحتج على المعاملة اللاانسانية التي عوملنا بها امام السجن ورفض السلطات مقابلة وفد يمثلنا . اننا نطالب باصرار التحقيق في اوضاعهم واطلاق سراح الموقوفين والسماح للجنة دولية للتحقيق بما يجري داخل السجون وتطبيق حقوق الانسان داخل السجون الاسرائيلية » (القدس ١٩٧٤/٣/١٠) .

وتحت الضغط الشعبي وافقت سلطات الحكم العسكري يوم ٣/١١ . فاجتمع وفد من مدينة نابلس مؤلف من رئيس البلدية الحاج معزوز المصري وحسن عبد الهادي وظافر المصري ووليد استيتية عن الغرفة التجارية بالمدينة ، مع وفد من السجناء منهم زهير سعدات الدبعي ، حسان عبد الرحمن الصدر ، تحسين الحلبي وعثمان زعيتر ، بحضور مدير سجن نابلس وبعض العسكريين الاسرائيليين. ولدى توجيه الحاج المصري سؤالا الى المساجين عن سبب اضرابهم اجابوا : « ان الاضراب كان وسيلة وليس هدفا . ان اوضاعنا السيئة جدا ستؤثر حتما على مستقبلنا وحالتنا الصحية ، وسننتقل من السجن الى جمعيات المكفوفين او ملاجىء العجزة بعد خروجنا من السجن اذا استمر الحال على ما هو عليه الان . نريد ان يعاملونا بموجب معاهدة جنيف والمواثيق الدولية وليس كما هو معمول به في بعض الدول الافريقية التي تحكمها الانظمة العنصرية . نريد الكتب والصحف ... وقرأ محمد رشاد عواد الطلبات التالية :

١ — توفير المعاملة الانسانية . ٢ — تحسين الخدمات الطبية وتوفير المعالجات . ٣ — تحسين الطعام والسماح بتمديد مدة عرض اجسام السجناء للشمس . ٤ — العديد من السجناء يقاسون الآلام وبحاجة قصوى الى عمليات جراحية منذ سنوات. وحتى ان بعضهم قد فقد بصره نتيجة ذلك . ٥ — تحسين اوضاع الغرف بحيث لا تحجب الحواجز الشمس عن السجناء . ٦ — توفير المزيد من الكتب العلمية والثقافية مع الصحف . ٧ — هناك العديد من الموقوفين بدون محاكمة او انتهت مدة سجنهم » .

ومن ناحية اخرى بعث الشيخ محمدعلي الجعبري ببرقية اخرى الى وزير الدفاع والحاكم العسكري العام حول اوضاع السجناء جاء فيها : « الناس تلقون على ابنائهم السجناء في السجون الاسرائيلية، لان سجناء سجن بئر السبع اضربوا منذ بضعة أشهر حتى عن قبول زيارة من يقصدهم للزيارة ، والان حذا حذوهم سجناء نابلس ، ونخشى ان يعم ذلك بقية السجون . لذلك نرجو منكم واملنا وطيد ... ان تحققوا في هذه الامور وان تعملوا على مساعدة هؤلاء السجناء ... » (القدس ١٩٧٤/٣/١٢) .

وفي الوقت الذي ذكرت فيه بعض الصحف ان السجناء قد عادوا عن اضرابهم وسمحوا لذويهم بزيارتهم ابتداء من يوم ٣/١٢ ، كانت سلطات الاحتلال توالي اجراءاتها التعسفية في الاراضي المحتلة . ففي يوم ٣/١٣ ذكرت صحيفة الشعب ان المحكمة العسكرية في نابلس بدأت بمحاكمة عشرة من الشبان بتهمة تأليف منظمة معادية للاحتلال وهم : اياد الطاهر ، اياد ديسي ، حسن جاغوب ، سعادة ارشيد ، نبيل اشخيدم ، محمد صلاح ، طاهر زهران ، عزام عاشور، حسن عوده وهلال تفاحة .

وذكرت « الشعب » في عددها الصادر يوم ٣/١٥ ، ان النيابة العسكرية الاسرائيلية قدمت اتهام ضد مجموعة اخرى من الشبان تضم فتيات تتراوح اعمارهم بين سن ١٧ — ٢٣ ، اتهموا بعضوية تنظيم سري وبالاتصال والاعداد لمهمة مشتركة من قبل فتح والجبهة الشعبية . ونقلت الصحيفة على لسان جريدة معاريف الاسرائيلية ان هذه المجموعة هي اكبر شبكة للفدائيين اكتشفت في منطقة نابلس خلال السنتين الماضيتين . وقالت ان التنظيم بدأ في سجن نابلس حيث قضى سبعة من المتهمين فترات السجن بسبب عضويتهم بشبكة فدائية عملت في المدينة قبل ثلاث سنوات عرفت باسم « شبكة الخياطين » حيث ان معظم اعضائها من الخياطين . وقد قرر هؤلاء الاعضاء الاستمرار في النشاط بعد خروجهم من السجن . وفي عام ١٩٧١ ابعد سجناء كثيرون الى الاردن ، وكان من بينهم أحد اعضاء « شبكة الخياطين » وهو سعيد سعد من نابلس الذي افتتح بعد وصوله الى الاردن مشغلا للخياطة ثم اقام صلات مع قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وعند اندلاع حرب تشرين استأنف صلاته بقادة الجبهة الذين قرروا البدء في اقامة شبكة كبيرة في نابلس لاستئناف النشاط بشكل واسع . والقي على عاتق سعيد سعد ان يكون صلة الوصل . فدعا سعد اصدقاءه

من كانوا في السجن والقى على عاتقهم مهمة العودة الى نابلس واقامة خلايا واسعة من أجل النشاط . وقبل أن يعودوا الى نابلس ارسلوا الى دمشق حيث تلقوا التدريبات على استعمال الاسلحة والقنابل . وعند عودتهم الى نابلس تم اتصال بين فتح والجبهة فاقيمت شبكة من اقسام من خلايا المنظمتين في نابلس تحت قيادة سعيد سعد . وكان من مهمات الشبكة ايضا توزيع المال على عائلات المعتقلين وتمويل نشاطاتهم وتجنيد فتيات في الشبكة ، حيث جند عدد منهن بالفعل . واعترفت صحيفة معاريف ان هذه الشبكة قامت خلال حرب تشرين الاول بعدة عمليات في منطقة نابلس دون ان تذكر تفاصيلها . الا انه بعد هذا النشاط استطاعت قوات الاحتلال ان تكتشف عددا من أعضاء الشبكة وان تلقي القبض عليهم .

من جهة ثانية ، فان ما ذكرته الصحف من انباء عن تراجع المعتقلين عن اضرابهم في اواسط شهر اذار (مارس) ، نفته هذه الصحف نفسها في اواخر الشهر المذكور . فقد ذكرت «القدس» في عددها الصادر يوم ٣/٢٩ ، ان الوضع في سجن نابلس ما يزال كما كان عليه الحال اذ لم يتحقق اي مطلب من مطالب السجناء .. واضراب السجناء ما زال مستمرا . ورغما عن مراجعات رئيس البلدية للسلطات المسؤولة لمقابلة وزير الشرطة لعرض هذا الموضوع ، فلم تتلق البلدية اي جواب. وتشاهد الامهات يوميا امام السجن بحالة يرثى لها في محاولة لاستقصاء أية معلومات عن اوضاع المعتقلين والسجناء » في سجن نابلس .

وكانت « الشعب » قد ذكرت ان وفدا يمثل عددا كبيرا من الاهالي سيقوم بمقابلة المسؤولين بالحكم العسكري بقيادة الضفة الغربية والجنرال موشيه ديان ، وذلك للتباحث في أمر الموقوفين والمحكومين في سجن نابلس المركزي بشأن تحسين احوالهم . واضافت « الشعب » ان المضربين في سجن نابلس يهددون بالاضراب عن الطعام ما لم تلب طلباتهم (الشعب ١٩٧٤/٣/٢٠) .

الوضع السياسي داخل المناطق المحتلة

في محاولة لاستطلاع الراي العام الفلسطيني في المناطق المحتلة حول التسوية السياسية ، قام « ايان لستنع » بجولة في الضفة والقطاع ، حيث التقى بعدد كبير من الصحفيين والطلاب والعمال والفلاحين ، وتحاشى في الوقت نفسه مقابلة رؤساء البلديات والنواب الاردنيين والاقطاعيين ورجال الصناعة . وكتب لستنع ملاحظاته حول جولته هذه في مجلة « نيو اوت لوك » التي تعتبر معبرة عن اراء « المعتدلين » في اسرائيل . وقد اورد هذه الملاحظات حسب التبويب التالي كما ذكرت ذلك صحيفة الشعب في عددها الصادر يوم ٣/٣١/ ١٩٧٤ .

١ — **النشاط السياسي** : « لقد بدا لي ان هناك فارقا كبيرا بين سكان الاراضي المحتلة قبل وبعد معارك اكتوبر . فالناس اليوم فخورون لكونهم عربا، وهذا الشعور دفع الاسرائيليين الى اتخاذ اجراءات قمعية كالتي جرت عام ١٩٦٨ . فاغلاق المدارس والاعتقالات الكيفية ومنع الاجتماعات والرقابة الشديدة على الصحف والتهديد بالقتل ، هي ميزات هذه الفترة . ولكن رغم كل هذا فالنشاط السياسي على أشده ، وهذا ما دفع الحكومة الى استدعاء عدد كبير من المثقفين لاستطلاع ارائهم حول مؤتمر جنيف وبعض القضايا المصيرية الاخرى » .

٢ — **منظمة التحرير الفلسطينية** : « من خلال مقابلاتي مع العديد من سكان الضفة والقطاع وجدت شبه اجماع على اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ، وبأنها الوحيدة — أي المنظمة — التي يحق لها ان ارادت تشكيل وفد فلسطين الى جنيف ، وبأن أحدا من سكان الضفة او القطاع الوطنيين لا يمكن ان تسمح له اسرائيل بالذهاب للخارج والانضمام للوفد الفلسطيني . فقد ذكر لي احد المواطنين بأن السلطات العسكرية قد ذكرت له بأن حياته ستكون صعبة اذا هو فكر في الذهاب الى القاهرة للتباحث مع زعماء منظمة التحرير حول مستقبل القضية الفلسطينية . وحول امكانية قيام بعض الوجهاء بتمثيل الفلسطينيين قيل لي بأن هؤلاء يستمدون قوتهم وحتى بقاءهم من ارتباطهم بالملك حسين وسلطات الاحتلال هنا وان احدا من الشعب لا يثق بهم . واما عن مشروع الملك حسين، فقد ذكر بعض من قابلتهم بأننا نقبل بمشروع الملك حسين ولكن بدون حسين ذاته وطبعا عائلته . ولكن الذي استغربته هو ان هذا التأييد لمنظمة التحرير لم يكن كله حبا في سياسة المنظمة وانما كرها في الملك حسين واذياله هنا — الوجهاء —

وبما يسمى « الزعامة التقليدية » . ووجدت اجماعا على قيام دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ، ولكن من يؤيدون قيام « الدولة العلمانية » على التراب الفلسطيني يبدون قليلين ، وذلك لانهم يعتبرونه هدفا بعيد المنال . ويظهر ان ياسر عرفات يشاطرهم الرأي وانما خوفه من حدوث انقسام في صفوف الحركة الفلسطينية هو الذي يدفعه للاحتجاج على اعلان موافقته وبشكل علني يتفق مع قناعاته » .

٣ ــ **خلافات في الرأي** : « تختلف اراء الناس ووجهات نظرهم ، فبعضهم لا يقبل بأقل من دولة علمانية ، والاخر يرضى كمرحلة اولية باقامة دولة فلسطينية . ولعل أهم النقاط المثيرة للخلاف في صفوف الفلسطينيين هي : ١ ــ حدود الدولة الفلسطينية الجديدة . ب ــ الضمانات الكافية لامن وسلامة حدود هذه الدولة . ج ــ التغييرات المرتقبة في اسرائيل والمترتبة على وجود هذه الدولة .

فحول الموضوع الاول نجد ان هناك تيارين : الاول يقبل بالضفة والقطاع فقط وبالقدس عاصمة. واما الثاني فيطالب بالعودة الى خطوط تقسيم عام ١٩٤٧ . واما حول الموضوعين الاخيرين فيبدي الجميع رغبته في ضمانات تقدمها الدولتان الكبريان على ان توجد مناطق منزوعة السلاح على جانبي الحدود ، شريطة ان يرافق هذا تغيير جذري في سياسة اسرائيل تجاه جيرانها وكدليل على حسن النية يجب ان يعود الكثير من الصهاينة الى اوطانهم السابقة في اوروبا وامريكا » .

اختطاف يوسف نصر

كان الخبر الذي تناقلته وكالات الانباء عن ظهور الصحفي الفلسطيني يوسف نصر صاحب جريدة الفجر ، في عمان ، مؤشرا ذا اهمية بالغة في تفسير « لغز » الاختطاف المثير الذي وقع في شرقي القدس في ١٩٧٤/٢/٦. وبالرغم من نفي المسؤولين الاردنيين للصليب الاحمر ان يكون نصر لديهم ، يظل ذلك الخبر محتفظا بأهميته من حيث كونه يلقي الادلة على اطراف الصراع في الضفة الغربية، بين القوى الوطنية للشعب الفلسطيني من جهة وبين اعداء هذا الشعب من جهة ثانية .

واذا ما أخذنا تكتم سلطات الاحتلال الاسرائيلي حول تفاصيل حادث الاختطاف بعين الاعتبار ، فان ذلك يعد مؤشرا آخر على طبيعة الصراع وأطرافه في الارض المحتلة . فقد ذكرت سلطات الاحتلال أكثر من مرة انها توصلت في تحقيقاتها الى مجموعة من الحيثيات سوف تكون منعطفا هاما في مجرى التحقيق . وفي كل مرة ايضا كانت هذه السلطات تحجم عن ذكر أي تفاصيل بالرغم من مضي حوالي ثلاثة أشهر تقريبا على حادث الاختطاف . ففي يوم ٣/١٠ ذكرت صحيفة الشعب ان هناك تكهنا في اوساط جريدة الفجر بأن سلطات التحقيق الخاصة، بعد ان بلغت مرحلة شبه ختامية ومتقدمة . « فان هذا الاسبوع قد يكون حاسما من حيث النتائج والاجراءات ويمسكون عن المزيد من التفاصيل حرصا على سير التحقيق المتكتم والواسع » . وفي ٣/١١ اذاع التلفزيون والراديو الاسرائيلي ان الشرطة قامت باعتقال خمسة اشخاص في القدس العربية وضواحيها بتهمة ان لهم علاقة بحادث اختطاف صاحب « الفجر » ، وستقوم الشرطة بتقديمهم للمحكمة لاصدار اوامر توقيف بحقهم . واشارت « الشعب » الى ان تحقيقات المجموعة الخاصة بالقضية قد بلغت مرحلة متقدمة او ختامية، وانه سيعقب هذه المرحلة اجراءات تدل على ما قد يكون البوليس قد توصل اليه من نتائج أسفرت عنها التحقيقات المكثفة والواسعة ، « ويعتقد بأن الانتقال للمرحلة الاخيرة يعني التوصل الى مفتاح القضية او ما يدل عليه الامر الذي قد يعلن عنه في نهاية الاسبوع الجاري » (الشعب ٧٤/٣/١٢).

بعد ذلك اذاعت سلطات الاحتلال ان عدد الموقوفين الذين تم اعتقالهم حتى مساء ٣/١٢ في قضية اختطاف نصر ، قد بلغ تسعة من المشبوهين من القدس ومدن اخرى في الضفة الغربية . وصرح قائد شرطة المنطقة الجنوبية بأنه قد يتم اخلاء سبيل عدد من الموقوفين ، أما الباقون فسيقدمون الى المحكمة لاستصدار امر بتمديد فترة اعتقالهم ، وذلك لان صلاحيات البوليس في التوقيف لا تتعدى ٤٨ ساعة يجب بعدها اخلاء السبيل او تمديد التوقيف من المحكمة المختصة . وذكرت الصحف الاسرائيلية الصادرة في اليوم نفسه ٣/١٢ ، ان من بين المعتقلين كان احد اصحاب الصيدليات في القدس واحد التجار بالمدينة القديمة . وأشارت احدى هذه الصحف ان اوساط البوليس تتحدث من تحول قد طرأ على التحقيق ، في حين تنبأت بأن هنالك امكانية القيام بمزيد من الاعتقالات على ضوء ما توصل اليه البوليس خلال استجواباته

في المرحلة الماضية (الشعب ٧٤/٣/١٣) .

وفي ٣/١٣ ايضا أعلنت سلطات الاحتلال عن اخلاء سبيل خمسة من الموقوفين كما قدمت اثنين اخرين أمام قاضي صلح القدس حيث حصلت الشرطة على أمر توقيف بحقهما لمدة تسعة ايام ، والقي القبض على اثنين اخرين من غير اولئك الذين سبق اعتقالهم وهما من خارج مدينة القدس . وذكرت الصحف الاسرائيلية الصادرة في اليوم نفسه ٣/١٣ ، ان مصادر مطلعة أعربت لصحيفة معاريف عن اعتقادها بأن لغز اختطاف نصر قد وصل الى حالة الحل الكامل . اما « يديعوت احرونوت » فقد ذكرت ان الشرطة قد عثرت على متهمين « وان تطورات اخرى متوقعة خلال هذا الاسبوع من سير التحقيق القائم » (الشعب ٧٤/٣/١٤) .

وفي يوم ٣/١٤ مددت المحكمة توقيف اثنين اخرين لمدة عشرة ايام . وبذلك يكون قيد التوقيف حتى هذا التاريخ اربعة أشخاص . وأفاد الصحفيون الاسرائيليون ان الشرطة أخذت تتكتم بشدة في اجراءاتها القائمة او التي ستقوم بها مستقبلا بحجة المحافظة على سلامة التحقيق وسيره ، (الشعب ٧٤/٣/١٥) .

أما صحيفة الفجر فقد قالت انها علمت ان نقاشا حادا جرى في اوساط اسرائيلية عليا حول النتائج التي يمكن ان يسفر عنها استدعاء او توقيف شخصيات محلية معروفة قد تكون لها علاقة بحادث الاختطاف . واضافت « الفجر » — وهي تلمح هنا الى الجعبري — انه تم حسم النقاش لصالح الذين يصرون على ضرورة ترك القانون يأخذ مجراه (الفجر ٧٤/٣/١٦) .

وفي اليوم الذي نشرت فيه « الفجر » هذا الخبر، كانت صفحتها الاولى معنونة بالعنوان الرئيسي التالي : « بدأت خيوط مؤامرة اختطاف يوسف تتكشف . معلق اسرائيلي يقول بان يوسف نصر قد يظهر قبل انتهاء التحقيق . التحقيقات تشمل بعض القيادات التقليدية وازلامها » . وفي التفاصيل ذكرت الصحيفة انه مثل امام قاضي الصلح جميل حمد وهو محرر في « الفجر » وباسم حنانيا وهو صيدلي من القدس ، واتضح ان توقيف الاخير هو نتيجة لادعاء محمود ابو الزلف صاحب جريدة القدس بان حنانيا قد طرق باب يوسف النصر الساعة الواحدة من ليلة الاختطاف . وكان التلفزيون الاسرائيلي قد اذاع خبر توقيف برهان الجعبري بتهمة الاشتباه بعلاقته بقضية الاختطاف. الا ان ناطق عسكري باسم قيادة الضفة الغربية نفى هذا النبأ . ومن الجدير بالذكر انها المرة الاولى التي يتدخل فيها ناطق عسكري رسمي في قضية هي من اختصاص الشرطة وفريق التحقيق الخاص بها . وكانت كذلك جريدة معاريف قد ذكرت ان برهان الجعبري ، وهو أكبر انجال رئيس بلدية الخليل ، وشحادة العبري موظف بلدية الخليل وحارس رئيس البلدية الخاص ، بالاضافة الى سائق سيارة الجعبري من بين الموقوفين التسعة في قضية نصر . وقالت معاريف انه بعد ان انهت الشرطة تحقيقها مع برهان غادر هذا المتهم الضفة الغربية الى تركيا ثم عاد بعد عدة ايام . وبعد عودته ابتاع من الصيارفة كمية من الدولارات بقيمة مئة الف ليرة اسرائيلية مما يدل على نواياه لمغادرة الضفة . الا ان الشرطة اعادت توقيفه . ومن المعروف انه قبل اختفاء يوسف نصر نشب خلاف حاد بينه وبين رئيس بلدية الخليل بسبب حملة شنتها الفجر ضد الجعبري (الفجر ٧٤/٣/١٦) . وفي مكان آخر من نفس العدد ذكرت « الفجر » ان الشرطة استدعت محمود ابو الزلف مرة ثانية للتحقيق معه حول حادث الخطف ، كما شمل التحقيق بعض الشخصيات التقليدية . واضافت ان عضو الكنيست توفيق طوبي من قائمة ركاح قدم استجوابا الى وزير الشرطة الاسرائيلي حول اختطاف صاحب الفجر واختفاء آثاره واعتقاد أهل المخطوف بأن خاطفيه أناس وجهت اليهم الجريدة انتقادا علنيا . وسأل طوبي :

١ — ما هي الخطوات التي اتخذتها الشرطة لتعقب حادث الخطف .

٢ — فيما اذا جرى تحقيق ، ما هي نتائجه .

٣ — ماذا فعلت الشرطة لتكثيف التحقيق إزاء قلق العائلة على مصير ابنها المخطوف .

وفي آخر شهر اذار ذكرت « القدس » الصحيفة ذات الصلة بالجعبري ، نقلا عن مصدر خاص ان الجعبري بعث ببرقية الى غولدا مائير يحتج فيها بشدة على عرض شريط تلفزيوني تضمن «تشويها» للحقائق (القدس ١٩٧٤/٣/٣١) .

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

الوضع الداخلي

كانت حركات الاحتجاج الجماهيرية في الاونة الاخيرة محط انظار ومركز الاهتمام داخل اسرائيل وخارجها . ولم يقتصر الاهتمام بهذه الحركات على الاحزاب والهيئات المعارضة للسلطة العمالية ، بل انها استحوذت ايضا على اهتمام ارباب السلطة بشكل خاص . وفي هذا الاطار كان اجتماع موشي دايان بموتي اشكنازي ، الذي كان اول من بدأ حملة الاحتجاج ضد دايان وجولدا مئير في اوائل شباط (فبراير) ١٩٧٤ . وقد بدأ الاهتمام الصحفي والاعلامي يزداد ، مع ازدياد واتساع رقعة وقاعدة الحركة التي بدأها اشكنازي بمفرده ، توجهـا بالاجتماع الاحتجاجي الذي عقد امام مبنى مكتب رئيسة الوزراء في ١٩٧٤/٣/٢٤ ، ذلك الاجتماع الذي أمه قرابة الستة آلاف شخص حسب تقدير معظم الصحف الاسرائيلية . ثم تلت حركة اشكنازي محاولة اخرى قام بها بعض اساتذة الجامعات والمثقفين من أجل اقامة حركة سياسية جديدة أطلق عليها اسم « الحركة من أجل التغيير » . وقد دعت هذه الحركة الجديدة الى تجاوز موقف التنديد والنقد من الخارج ، على أمل تشكيل ضغط داخلي يؤدي الى تغيير في بنية الاحزاب ونهجها ، مؤكدة ان لا سبيل الى خوض الصراع داخل الاحزاب نظرا لسيطرة الاجهزة الحزبية الكاملة على العمل السياسي الحزبي . وقد كان هذا الموقف الجديد من المحاضرين والمثقفين بمثابة رد على دايان الذي صرح ابان الحملة التي كانت تشنها فئات عديدة مطالبة باستقالته ، ومن ضمنها اساتذة الجامعات، بأنه اذا كان لدى هؤلاء ما يقولونه ، فليخوضوا الانتخابات وليشاركوا في العمل والصراع السياسي بدل الاكتفاء بتوجيه النقد والمطالبة باستقالـــة الاخرين . وكان ثالث حركات الاحتجاج الجماهيرية واكثرها تحديدا لهدفها ، هي الحركة الجماهيرية والحزبية التي نادت بوجوب تغيير طريقة الانتخابات الحالية . وهذه الحركة تمتاز عن الحـــركتين السابقتين بكونها حددت لنفسها هدفا تنتهي مهمتها بتحقيقه ، الى جانب هذه الحركات ذات الطابع الاحتجاجي ، نشط داخل حزب العمل وسطان كانا قائمين قبل الحرب لكنهما أصبحا أكثر نشاطـا واهمية بعدها . والمقصود بذلك هو : « الوسط من اجل توضيح قضايا المجتمع والدولة » ، ذلك الوسط الذي يعتبر استمرار لمجموعة «من هيسود» (من الاساس) التي كانت نشطة وفعالة ابان فضيحة لافون ، والتي تقف اليوم وتدعم عضوي الكنيست يتسحاق بن أهرون وليوفا اليـــاف . والوسط الثاني هو : وسط « اتجار » (التحدي) الذي تأسس قبل سنتين ويترأسه رئيس بلدية هرتسليا العقيد احتياط يوسف نافو . وهو في غالبيته كان يتشكل من الجنرالات والعمداء السابقين في الجيش الاسرائيلي . وبينما كان هذا الوسط مقتصر في السابق ومنذ تأسيسه على الضبـــاط التابعين للمباي ، فقد قام هذه المرة الوزراء — الضباط الثلاثة في حزب العمل ، رابين ، ياريف ، وبارليف ، بمحاولة لضم اعضاء رافي الى الوسط، بعد تبني الوسط لمطلب تغيير طريقة الانتخابات الذي تنادي به « رافي » . ومن ناحية اخرى فان هذه المحاولة اضافة الى فتح الباب امام مدنيين آخرين للانضمام الى الوسط ، تشكل ، بصورة اساسية توجها نحو كسر الحواجز الكتلوية ، تماشيا ايضا ، مع مطلب الغاء الكتل داخـــل الحزب .

حركات الاحتجاج الجماهيرية — اهدافها

لقد سبق واشرنا في مقدمة هذا العرض الى ان الهدف المباشر الذي رفعته اوسع هذه الحركات حجما كان المطالبة باستقالة الزعامة الحالية لحزب العمل . وحول هذا الهدف المحدد بدأ مؤسس هذه الحركة موتي اشكنازي (ضابط في سلاح المظليين) حملته الفردية ، وتركزت الحركة بشكل أساسي ، على الجنود المسرحين في سلاحي المظلات والمدرعات لكنها منذ البداية ، لاقت تأييدا ودعما من فئات وهيئات عديدة سياسية وغير سياسية متباينة الآراء ومتناقضة احيانا . لكن هذا التأييد الواسع ، دفع اشكنازي ورفاقه نحو الاعلان عن اقامة حركة الجنود المسرحين لمتابعة الاهداف المشتركة التي أعلن عنها في الاجتماع الاحتجاجي الاخير في ٣/٢٤/ ١٩٧٤ والتي تتلخص في استخلاص النتائج بسرعة

من الحرب واستقالة المسؤولين عن التقصير ، وباعداد الاقتصاد لحالة طوارىء طويلة ، والدعوة الى توزيع عادل أكثر للعبء الناجم عن حالة الطوارىء على جميع السكان ، والى اقامة جهاز اجتماعي لمعالجة مشاكل عائلات المجندين ، ومشاكل التعليم وخلق الدوافع لدى جميع الفئات وبشكل خاص لدى الذين في سن الجندية . كما وأكد اشكنازي في كلمته على ضرورة تنفيذ تحولات وتغييرات في انظمة الحكم : سن دستور للدولة ، اخضاع اجراءات انتخابات المرشحين للمناصب العامة لرقابة هيئة غير سياسية ، تحديد فترة خدمة منتخبي الجمهور . وفي نهاية كلمته قال : « **نحن نطالب الذين يقفون على رأس السلطة بتجسيد وتحقيق مبدأ المسؤولية العامة واعادة التفويض الى الشعب** » (هآرتس ٧٤/٣/٢٥) .

أما الحركتان الاخريان ، « الحركة من أجل التغيير » التي أعلن عن اقامتها بعض اساتذة الجامعات واصحاب المهن الحرة ، وحركة المطالبة بتغيير طريقة الانتخابات فانهما أكثر وضوحا وتحديدا لاهدافهما من الحركة التي يقودها موتي اشكنازي، حيث ان الحركة الاولى أعلنت بوضوح في الاجتماع الذي عقدته في تل ابيب في ٧٤/٣/٢٦ ان هدفها المعلن هو اقامة حركة سياسية . ومن المعروف ان كلا من بروفيسور امنون روبنشتاين وبروفيسور يوناثان شابيرا يقفان على رأس هذه الحركة الى جانب شخصيات اخرى مثل المحامي مردخاي فيرشوفسكي ودكتور يرمياهو يوفال والعميد (احتياط) دكتور متتياهو بيلد . ويشارك هذه المجموعة ايضا ، مجموعة المثقفين التي وقفت في الانتخابات الى جانب المعراخ تحت شعار « مع كل هذا — معراخ » . حيث دعت هذه المجموعة الى تأييد التحالف العمالي في الانتخابات الاخيرة ، رغم كل ما حدث . وتقوم هذه الحركة حاليا باجراء اتصالات مع مجموعات الاحتجاج من الجنود المسرحين في محاولة لاقامة تنظيم واسع ومشترك يضم تحت جناحيه حركة الاحتجاج الجماهيرية الحالية .

أما الحركة الاخيرة التي دعت الى تغيير طريقة الانتخابات فهي أكثر الحركات الثلاث تحديدا لغايتها ، وهي بالتالي ليست ذات صيغة معينة ، بل تضم كافة الشخصيات المؤيدة لفكرة تغيير طريقة الانتخابات ، بهدف تدعيم الصلة بين الناخب والمنتخب ودفع المزيد من العناصر الجديدة نحو العمل السياسي والبرلماني . وقد وضعت هذه الحركة هدفا لها مسألة خلق ضغط شعبي على اعضاء الكنيست من اجل تأييد المشروع الذي تقدم به عضو الكنيست جاد يعقوبي لتغيير طريقة وقانون الانتخابات العامة في اسرائيل من الطريقة النسبية الى طريقة مختلطة : اقليمية — نسبية .

ردود الفعل

لقد تركزت وسائل الاعلام الصهيونية في معالجة ثلاثة مواضيع رئيسية اعتبرتها ذات صلة ببعضها البعض . وهذه المواضيع هي ظاهرة الاحتجاج الجماهيري ومضمونها ، التحركات داخل الاحزاب وحزب العمل بالذات ، ومسألة تغيير طريقة الانتخابات . وبينما انفقت الاراء والتعليقات حول أهمية وصحية هذه الظواهر في الحياة الاسرائيلية العامة والحزبية ، فانها في نفس الوقت علقت آمالا كبيرة على التحرك داخل حزب العمل معتبرة اياه الاداة الوحيدة القادرة فعلا على التغيير ، ومن ناحية اخرى سفهت وحذرت من امكانية تحول حركات الاحتجاج الجماهيري الى حركات سياسية، تكون السبب في افراغ الحركات من مضمونها وعاملا مباشرا في فشلها المحتوم في الضغط من الخارج . كما اشارت بعض التعليقات الاخرى الى امكانية استفادة بعض السياسيين في المعراخ من المظاهرات .

ومن ناحية اخرى دعت هذه الصحف الى جانب ضرورة تفهم هذه الحركات الاحتجاجية الى وجوب استيعابها .

كتب يوئيل ماركوس في هآرتس ٧٤/٣/٢٧ منتقدا الشعارات والمطالب التي رفعتها المظاهرة الاحتجاجية التي قادها اشكنازي ، ومعلقا على الاوضاع العامة فقال : « في نظرة اولية ، لا يبدو كل ما يحدث عندنا الان جميلا ، ولو كان لدى الصحافة العربية مراسلون للشؤون اليهودية على غرار مراسلينا للشؤون العربية لكانوا غطوا صحفهم بالعناوين التالية :

« حكام تل ابيب يفقدون السيطرة على الدولة — اسرائيل تعيش عشية انقلاب » . و « الجنود المسرحون المصابون بخيبة الامل من الهزيمة في حرب يوم الغفران ، يحاولون السيطرة على مكاتب الحكومة » .

و « تم اكتشاف مؤامرة لجنرالات حزب العمل » وغيرها ...

وبهذا التصور اراد ماركوس ان يشير الى ان الاحداث التي تجري في الداخل ليست هي بالفعل كما يمكن ان يراها المراقب من الخارج . واضاف ماركوس : « كل مواطن واع يتوجب عليه ان يرحب بظاهرتين برزتا مؤخرا :

أ) انه اصبح لجزء من الجمهور ، وخصوصا الشباب ، اهتمام بما يجري .

ب) وان اولئك الذين يعنيهم ويهمهم الامر ، توصلوا الى نتيجة تحتم المباشرة بالعمل .

لكن ماركوس الى جانب اكباره لهذه الظاهرة ، انتقد بعض اهدافها ، فعلى سبيل المثال : « طلب اشكنازي من القيادة التي فشلت ان تعيد التفويض الى الشعب . أليس هذا طلبا غير موزون ؟ ان ان هذه القيادة التي فشلت ، استعادت هذا التفويض من الشعب في صناديق الاقتراع في الانتخابات الاخيرة . لقد عرف الناخب بوضوح ان جولدا ، دايان وايبن سيعودون الى مناصبهم السابقة ، ومع هذا فوضهم اقامة الحكومة . هذا أمر مغضب ، لكنه حقيقة » .

وبعد ان يعدد بعض التناقضات الاخرى يتوصل ماركوس الى ان مثل هذه الحركة الاحتجاجية العفوية عاجزة حتى لو اقامت تنظيما سياسيا عن تحقيق أهدافها : « وحتى لو نجحوا في اقامة بنية تنظيمية ذات برنامج عمل ، واصبحت الحركة حزبا، وحاز على عدد من المقاعد في الكنيست — فلست ارى كيف سيتمكن هذا الجسم الجديد من تغيير الاسلوب المتبع ، القيم ، الجهاز والدوافع . ومن هنا فالاحتمال العملي للتحول الجذري او الاساسي يجب التفتيش عنه في حركة اقل عفوية ، لكنها تملك وسائل كبيرة من أجل تنفيذ التغييرات المرجوة » .

أما دانييل بلوخ فدعا في مقاله (دافار ٣٦/٣/٧٤) الحكومة وحزب العمل الى تفهم الوضع وابقاء حركة الاحتجاج ضمن المسار الديمقراطي لئلا يسيطر الشارع على زمام هذه الحركة : « ان مظاهر الاحتجاج والتعبير عن خيبة الامل بعد الحرب ليست تجديدا ... فقد حدثت مظاهر مشابهة بعد حرب « التحرير » (حرب عام ١٩٤٨) ، وقد وجد الامر تعبيرا له في انتخابات الكنيست الاولى في نسبة الاقتراع العالية لصالح المابام ولصالح حركة حيروت وقائمة ليحي (اليسار واليمين)... وعندما نتقدم لتحليل حركات الاحتجاج الحالية ، يجب ان لا ننسى ما كان في الماضي ، على الرغم من ان ذلك لا يعني الغاء لضرورة الاصغاء ، والانصات ، والاستجابة للمشاعر القلبية الصادقة ... وليس هناك امكانية للغوص في دوافع اشكنازي وكموني العميقة وليس هناك داع لذلك . ومهما كانت الاسباب ، لا يجوز ان نتجاهل حقيقة كونها (الدوافع) تعبر عن مشاعر وافكار آلاف كثيرين . ومن الممكن ان نتجادل معهم ، ان نعارضهم ، لكن من غير الممكن تجاهلهم او الاستخفاف بهم » .

ويضيف بلوخ محللا ظاهرة الاحتجاج هذه فيقول : « وقد تبين لي من خلال الاحاديث التي اجريتها مع بعض الاعضاء المشاركين في مجموعات الاحتجاج ، ان القضية الرئيسية التي تقلقهم هي عدم الانفتاح وتحجر الاحزاب السياسية المختلفة . وخلافا للفترة التي اعقبت حرب « التحرير » ، حيث استطاعت مجموعات مثيلة ان تجد لنفسها تعبيرا في هذا الحزب او ذاك ، فان الشعور العام هو انه لا يوجد اليوم حزب يعبر عنهم تعبيرا صحيحا ، وانه لا توجد هناك امكانية جدية للتأثير من داخل الاحزاب القائمة ... ولا توجد قاعدة ايديولوجية مشتركة لمجموعات الاحتجاج ، فبينهم رجال حركة العمل ، وبينهم ايضا من يؤيد المبادرة الحرة ، وبينهم من هو على استعداد للتنازل عن جميع المناطق ، وبينهم من يعارض اي تنازل . وبينهم من يؤيد اقامة دولة فلسطينية ، ومنهم من يرفض اي تعبير بالاعتراف بوجود ذات فلسطينية » .

ويضيف بلوخ : « من بين جميع اطراف الدائرة السياسية ، يبدو ، ان حركة العمل بالذات تملك الاحتمال الاكثر جدية لاستيعاب موجة الاحتجاج ». وحقا ، ان هذه الموجة موجهة نحو القيادة الحالية لحزب العمل ، لكن ، بالذات في داخل حزب العمل يكمن الاحتمال الحقيقي للتجدد السياسي والقيادي. ومما لا شك فيه فان حركات الاحتجاج الجماهيرية، تشكل تهديدا جديا لزعامة الحزب ، بمناسبة نشر استنتاجات لجنة اجرانات — في البداية ، التقرير الجزئي وبعد ذلك التقرير النهائي . ويبدو ان حركات الاحتجاج لن تعطي الحكومة والمعراخ فرصة للتملص من تنفيذ كامل الاستنتاجات التي ستترتب على تقرير لجنة اجرانات » .

أما دافيد شوحم فكتب في يديعوت أحرونوت (٧٤/٣/٢٦) منتقدا الاتجاه السائد لدى مجموعات الاحتجاج لتجاهل التباين في الاراء والافكار بين اعضائها ، والتوجه نحو اقامة حركة سياسية تضم جميع هذه التناقضات : « كثير من الناس يظنون ان السياسة ، عبارة عن حرب بين الصالحين والسيئين . وانا لا استحسن ذلك الحل الداعي الى ضم جميع الصالحين معا لضرب السيئين . لقد سمعت أحد الضباط الشباب يقول : « سنتحد كلنا ضد الاحزاب المهترئة ، ولا يهمني من يقف على رأس الحركة ، سواء كان اريك شارون او مئير بعيل . كيف ؟ فان كلا منهما له خط سياسي مختلف ، وهذا يطرح هذا الحل وذاك لديه حل آخر » .

ويضيف شوحم قائلا : « لا اعتقد ان ذلك الضابط الشاب يرى ان مشاكلنا السياسية غير مهمة . ولا اعتقد انه لافرق لديه بالنسبة لاي حل من الحلول — حل اريك شارون او حل مئير بعيل. فمن المؤكد ان له موقفا ذاتيا ، لكنه — وجميع هؤلاء الشباب القريبين من القلب ، الذين يريدون ان يتحدوا سويا — يشعرون ان بلورة موقف حول القضية السياسية يحتمل ان يشق صفوفهم . ولذا يقولون: لنتكلم عما يوحدنا وليس عما يفرقنا . وهذا الامر حسن وجيد طالما ان الامور المفرقة امورا ثانوية . عندها يجب ان نعرف كيف نتجاهل الامور الثانوية ونتركز حول الامور الجوهرية . ولكن عندما تكون الامور المفرقة هي الجوهر » !

ويختتم شوحم مقاله قائلا : « ان السياسة ليست حرب السيئين ضد الاطياب . احيانا يحتاج الجيدون الى محاربة بعضهم البعض — على معتقداتهم وافكارهم ، من أجل تحقيق برامجهم وخططهم ، لان هذا هو روح الديمقراطية وما تبقى ليس الا زينة » .

مما تقدم نرى بوضوح ان كافة حركات الاحتجاج الجماهيرية ، سواء من حيث كيفية طرحها هي ذاتها لفكرها وبرامجها ، او سواء من حيث واقعها وتركيبتها لا تشكل تحديا جذريا للنظام والفكر الصهيوني السائد ، وهي ليست أكثر من محاولة محدودة الافاق ضمن اطار الفكر السائد ، ذات اتجاه اصلاحي لا يتجاوز المؤسسات القائمة ، بل كل ما يمكن ان ينتج عنها هو اضافة مؤسسة جديدة (حزب) الى المؤسسات القائمة .

التحركات داخل حزب العمل

يعلق العديد من الصحفيين والمعلقين الاسرائيليين أهمية خاصة على نشاطات وسط « اتجار » (التحدي) في حزب العمل . ولقد وجدت فئات مماثلة وان كانت غير مبلورة كما هو الحال في حزب العمل ، المناخ السياسي مناسبا لرفع صوتها مطالبة هي الاخرى باجراء اصلاحات في داخل أحزابها ، مستفيدة من حملة الاحتجاج الجماهيرية الموجهة ضد ممارسات كافة الاحزاب وضد سيطرة القيادات القديمة وتمسكها بالكراسي والمناصب . فأخذت تسمع الاصوات المختلفة في كافة الاحزاب مطالبة بتحديد فترة زمنية لا تتعدى ١٢ سنة لمزاولة النشاط الحزبي او الحكومي في منصب ما . كما شنت حملة ضد سيطرة الاجهزة الحزبية وتحكمها في تقرير ممثلي الحزب سواء في الكنيست او الحكومة . كما تركزت واشتدت المطالبة بتغيير نظام الانتخابات السابق . وفي حزب العمل كما في الاحزاب الاخرى اشتدت المطالبة بالغاء نظام الكتل داخل الحزب . ففي «ليكود» يحاول عضو الكنيست شارون امتطاء موجة الاحتجاج الجماهيرية من أجل احداث تغييرات اساسية تؤدي بدورها في نهاية الامر ، اذا نجحت ، الى تصفية الزعامة التقليدية في حيروت ، التي تحجرت ومضى عليها أكثر من خمس وعشرين سنة وهي تقود المعارضة دون نجاح حقيقي وملموس .

ويرى بعض الصحفيين الاسرائيليين والخبراء بشؤون الاحزاب الاسرائيلية ان نجاح التحركات الجديدة المتمثلة في وسط « اتجار » داخل حزب العمل سيعكس نفسه ايجابيا على البوادر الاخرى غير المبلورة داخل الاحزاب الاسرائيلية المختلفة . وفي مقارنته بين حركة الاحتجاج الجماهيرية وحركة الاحتجاج الداخلية ، يرى يشعياهو بن بورات طابعا خاصا وأهمية خاصة لوسط « اتجار » في هذا المضمار . كما وانه من الملاحظ ان أسهم يتسحاق رابين بشكل خاص الذي انضم الى وسط التحدي مؤخرا آخذة بالارتفاع . فقد ذكر مراسل هآرتس ان الجماهير المحتشدة امام مكتب رئيسة الوزراء استقبلته بالتصفيق الحاد ، بينما استقبلت بقية اعضاء الوزارة وبالذات دايان وجولدا بالصفير والهتافات المعادية (هآرتس ٧٤/٣/٢٥) .

وقد عزا يشعياهو بن بورات هذا النشاط الذي يقوم به وسط التحدي في حزب العمل الى شعور اعضاء هذا الوسط بأنه سواء عاجلا ام آجلا فان نهاية القيادة الحالية أصبحت امرا مفروغا منه : « ان هذا النشاط يدور عمليا في ظل الاستنتاجات الجزئية للجنة اجرانات التي من المقرر ان تنشر في الشهر القادم وعلى أطراف الغليان الجماهيري العام . فالمبادرون الى عقد الاجتماع (الاشارة الى الاجتماع الذي دعا اليه مئير عميت وحضره كل من رابين وياريف وبارليف وغيرهم) يعتقدون بالتأكيد انه ان عاجلا او آجلا فان غروب شمس القيادة السياسية التي تضم جولدا ودايان وألون وابا ايبن (ويحتمل ايضا بنحاس سابير) أصبح امرا واقعا . ومن البديهي ان يرى المبادرون الى عقد الاجتماع انفسهم « ورثة » محتملين ، حيث يمكن تصور توزيع المناصب الشاغرة بينهم على الوجه التالي : رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، وزير الدفاع حاييم بارليف ، وزير المالية مئير عميت ، وزير الخارجية أهرون ياريف » .

ويضيف بن بورات قائلا : « لم يجر الحديث في ذلك الاجتماع ، الذي احيط بالسرية ، لكن تم كشف ما جرى فيه بواسطة صحيفة يديعوت احرونوت ، بصورة حادة وواضحة من أجل بلورة مجموعة حاكمة جديدة . لكن القضايا التي دار الحديث حولها ، تتعلق بمسألة الثقة بالقيادة ، ومسألة الانتخابات الداخلية ، ونظام الحكم بشكل عام ، وايضا حول ضرورة الاصلاح . لكن تحت سطح الامور هناك ادراك بان الحكم الحالي يرقص رقصات الموت الاخيرة ، وان « الورثة » المحتملين في وسط الحزب يتحتم عليهم الاستعداد بسرعة وبفعالية ، لاخذ الزمام في « تنصيب الملوك » من « هجوش » (كتلة تل ابيب) او الكتل الاخرى القائمة حاليا » .

ويختتم بن بورات بقوله : « يحق لكل واحد ان يفكر وينظر سلبا او ايجابا وفقا لآرائه ولذوقه الى اجتماع « وسط التحدي » والى امكانياته في الواقع ، لكن يتوجب التفريق جيدا بين احتجاج وآخر ، بين المتظاهرين قرب مكتب رئيسة الحكومة وبين المجتمعين في الغرف الداخلية لدى مدير شركة « كور » (يديعوت أحرونوت ٧٤/٣/٢٧) .

ورغم نفي بعض اعضاء الوسط مثل شلومو هيلل (هآرتس ٧٤/٤/١) لاي نية في تغيير القيادة او العمل على تغييرها ، او كما صرح الوزير حاييم بارليف في بداية الاجتماع الذي عقد في مكتب مئير عميت (هآرتس ٧٤/٣/٢٦) من انه ليس هناك توجها لتغيير القيادة ، وان هدف التنظيم ليس تغيير القيادة ، بل السعي نحو اهداف ايجابية ، وانه على غير استعداد للعمل خلافا لذلك ، فان رئيس الوسط العقيد يوسف نافو أكد في مقابلة اذاعية ان عملية تغيير القيادة ليست امرا غير ديمقراطي شرط الا يتم ذلك عن طريق القضاء على القيادة : « ماذا نريد في نهاية الامر ؟ اننا نريد اجراء تغيير في نمط الحياة السياسية عندنا ، بحيث تكون عملية تبديل القيادة والسياسة المتبعة منظمة بأسلوب ثابت وليس بأسلوب ثوري (انقلابي) »، واضاف نافو في نفس المقابلة : « أعتقد انه لامر منطقي ، ... هو ان مجموعة معينة في اعمار معينة ستستقبل قريبا او بعد فترة قريبة . وعلى أي حال فان القضية سيتم وضعها على جدول الاعمال ، والقضية ليست اننا نهاجم القيادة الحالية ، بل نريد ان نبدل الاسلوب لكي يستطيع أشخاص صالحون الوصول الى جميع الدرجات وأعلى المستويات » (ر.ا.ا.ا. ٣٠ /٧٤/٣ عدد ٤٩٩ ص ٥) .

وكان نافو قد حدد اهداف الوسط كالتالي : « الغاء نظام الكتل في الحزب ، تغيير طريقة الانتخابات داخل الحزب ، والغاء لجان التعيينات، تغيير قانون الانتخابات العامة بالانتقال الى طريقة الانتخابات الاقليمية ، واتباع اسلوب الانتخابات المباشرة لرؤساء البلديات » (هآرتس ٧٤/٣/٢٦).

وسواء بالنسبة لحركات الاحتجاج الجماهيرية او حركات « الاحتجاج » الحزبية يبدو واضحا ان آفاق هذه الحركات ومطالبها ليست مطالب جذرية، ولا تضع الاصبع على الجرح بالنسبة لمشكلة الفكر والنظام الصهيوني ، بل انها لا تعدو كونها محاولات لايجاد كبش فداء ، يقدم للجماهير ، من أجل العودة مجددا للسير في نفس الاسلوب وبنفس العقلية .

المؤتمر الثاني عشر للهستدروت

كانت السمة العامة التي تميزت بها كافة التعليقات التي وردت في الصحافة الاسرائيلية على اختلاف اتجاهاتها ، هي التأكيد على ان هذا المؤتمر قد اساء الى الحركة العمالية الحاكمة في اسرائيل والى الزعامة العمالية أكثر من أي مؤتمر سابق ، لما تخلله من فوضى ، كادت تودي بالمؤتمر منذ ليلة افتتاحه . وفي هذا الاطار كتب بيرل رفتور منتقدا الجو الذي ساد المؤتمر : « لقد اشتركت في جميع مؤتمرات الهستدروت ، من المؤتمر الاول حتى الثاني عشر ، وقد تخلل جميع هذه المؤتمرات صراعات سياسية ، خلافات في وجهات النظر وخصومات فكرية ، حول المضمون وحول الطريق ، حول الافكار والاعمال...ولقد كان في الهستدروت، دائما ، احزاب وتيارات رفضت الصهيونية او رفضت طابعها الاشتراكي ، لكن ما كان في المؤتمر الثاني عشر لا صلة له بالنقاش الفكري » . واضاف رفتور : « لقد اختفت في هذا المؤتمر القيم الحركية المألوفة على تيارات الحركة العمالية . وفي هذا المؤتمر كانت الهستدروت مثارا للسخرية والاحتقار، وفي لحظات معينة بدا وكأن جمهور الحاضرين يسخر من نفسه » (دافار ٧٤/٣/١٧) .

وعلى الرغم من ان بعض الصحفيين وبعض المتحدثين في المؤتمر من المعراخ قد حاولوا ، الاشارة ، واحيانا بتهكم ، الى ان المشاغبين والمعرقلين لسير اعمال المؤتمر عدا عن انهم فئات هامشية في المجتمع العمالي ، فانهم ايضا حديثو العهد في مثل هذا النمط من المؤتمرات (الاشارة الى الفهود السود) وانهم ليس لديهم ما يقولونه ، ولا يملكون القدرة على خوض النقاشات والمساهمة في مناقشة البنود المطروحة على جدول الاعمال ، على الرغم من ذلك ، فانهم لم يستطيعوا ، في نفس الوقت ، تجاهل القضايا التي ركزت حولها تلك الفئات الهامشية — على حد تعبيرهم — مثل اتساع الهوة الاجتماعية والتمييز والغبن اللاحق بالطوائف الشرقية والعمال العرب ، في كافة مجالات العمل والخدمات ، بالاضافة الى الوضع الاقتصادي والاجتماعي السيء الذي لحق بفئات كبيرة من المجتمع الاسرائيلي ، وبشكل خاص اصحاب المداخيل المحدودة من العمال والمستخدمين نتيجة لسياسة الحكومة الاقتصادية ، ونتيجة لسياسة قيادة الهستدروت المهنية ، التي اتسمت بموقف معاد لمصالح جماهير العمال ، وكانت تصطدم دائما وتتعارض مع موقف اللجان العمالية في كافة انحاء اسرائيل . والمتتبع لكافة الصراعات العمالية وخلافات العمل التي حدثت في السنين الاربع الاخيرة وحتى قبلها ، لا بد ، ويلاحظ على ان كافة الاضرابات الجزئية او الكاملة كانت تلقى معارضة من الهستدروت ، وفي بعض الاحيان ، كانت هذه الاضرابات في المشاريع الهستدروتية بحد ذاتها .

تركيب المؤتمر ومهامه

يبلغ عدد مندوبي المؤتمر ١٥٠١ عضوا ، وقد كان عدد اعضاء المؤتمر السابق ١٠٠١ عضوا . وقد توزع هذا العدد على الكتل التالية بناء على الانتخابات التي جرت في ٧٣/٩/١١ . وقد بلغ عدد اصحاب حق الاقتراع آنذاك ١،١٥٩،٣٥٢ عاملا وعاملة ، صوت منهم ٧٩٧،٤١٩ ، يشكلون ٦٨،٧٥٪ من اصحاب حق الاقتراع . وتوزعت الاصوات الصالحة التي بلغت ٧٧٧،٣٣٥ صوتا على القوائم التالية : (دافار ٧٤/٣/١٥)

اسم القائمة	عدد الاصوات	النسبة المئوية	عدد المندوبين
المعراخ	٤٥٢،٤٦٢	٥٨،٣٠٪	٨٧٥
ليكود	١٧٦،٨٥٥	٢٢،٧٢٪	٣٤١
حركة العمل الليبرالي*	٤٦،٤٣٨	٥،٩٧ ٪	٩٠
قائمة العامل المتدين**	٣٣،٠٩٩	٤،٢٦ ٪	٦٤
راكاح	١٨،٧٢٧	٢،٤١ ٪	٣٦
موكيد	١٣،٣٧٠	١،٧٢ ٪	٢٦
الفهود السود	١٢،٦٣٨	١،٦٣ ٪	٢٤

حركة الاخــوة***	٧٢٠٥٥	٠٢٩١ ٪	١٤
ميري	٥٢٨٤٦	٠٢٨٥ ٪	١١
قائمة اتحاد مهاجري اليمن	٣٢٢٧٦	٠٢٤٢ ٪	٦
اللائحة من اجل انتخابات شخصية « نير »	٢٤٤٤٥	٠٢٣١ ٪	٥
قائمة اليمنيين في اسرائيل	٢٢٣٩٢	٠٢٣١ ٪	٥
قائمة حلف اليسار الصهيوني الاشتراكي****	٢٢١٣١	٠٢٢٧ ٪	٤

* تابعة لحزب الاحرار المستقلين .

** مرتبطة بحزب العمل ورئيسها عضو كنيست من حزب العمل .

*** بقية القوائم الصغيرة باستثناء راكاح ، موكيد ، ميري وحلف اليسار هي قوائم طائفية .

**** بقايا المابام الرافضين لاقامة المعراخ بزعامة يعقوب رفتين .

وفي صباح ٧٤/٣/١٢ جرى انتخـاب مكتـب لرئاسة المؤتمر من ٣٥ عضوا برئاسة أهرون بيكر (سكرتير عام أسبق للهستدروت) ، كما جرى انتخاب اللجنة الدائمة للمؤتمر برئاســة يروحام ميشل القائم بأعمال سكرتير عام الهستدروت سابقا وسكرتير عام الهستدروت بالوكالة بعد استقالة يتسحاق أهرون ولجنة المندوبين برئاسة ناتـان الموزيلينو ، وجميعهم من المعراخ .

وقد أعلن رئيس لجنة المندوبين ان عدد الكتل في المؤتمر قد انخفض من ١٣ كتلة الى عشر كتل بعد ان اتحدت بعض الكتل الصغيرة لضمان تمثيلها في اللجنة التنفيذية للهستدروت . وهكذا اتحدت كل من قائمة ميري وحلف اليسار ، وحركة الاخوة والقائمة من أجل انتخابات شخصية مع قائمة اتحاد مهاجري اليمن .

مهـام المؤتمر

تنقسم مهـام المؤتمر الى قسمين رئيسيين : اولا ، انتخاب مؤسسات الهستدروت ولجانها ، وثانيا مناقشة سياسة الهستدروت والوضع العام سياسيا واقتصاديا واجتماعيا من أجل وضع خطة عمل عريضة في السنين الاربع القادمة .

وبالنسبة للجزء الاول من المهام ، فقد تم انتخاب مجلس عام للهستدروت من ٥٠١ عضو ، انتخب بدوره لجنة تنفيذية مؤلفة من ١٦٧ عضوا ، (دافار ٧٤/٣/١٥) . كما ومن المقرر ان ينتخب المؤتمر لجنة مراقبة مركزية ومراقب عام للهستدروت ، وهيئة المحكمة العليا . وتتمثل جميع الكتل في هذه الهيئات حسب نسبتها المئوية . أما المكتب التنفيذي للهستدروت وسكرتير عام الهستدروت فان اللجنة التنفيذية المنتخبة من المؤتمر العام ، هي التي تقوم بانتخابهما . وقد قرر حزب العمل ترشيح يروحام ميشل لمنصب السكرتير العـام للهستدروت وقد لاقى هذا الترشيح تأييدا من حزب المابام شريك العمل في المعراخ (ر.١٠١٠. ١١/٣/ ٧٤ عدد ٤٩١ ، ص ٤٣٤) .

افتتاح المؤتمر

افتتح المؤتمر مساء ٧٤/٣/١١ في مباني الامة في القدس ، وتحدث في الجلسة الافتتاحية كل من رئيس الدولة ، وسكرتير عام الهستدروت بالوكالة يروحام ميشل ، وبعض الخطباء الاخرين الذين قدموا تحياتهم للهستدروت بمناسبة مؤتمرها الثاني عشر .

كما وتحدث في المؤتمر بعد جلسة الافتتاح كل من رئيسة الوزراء ووزير المالية . وقد تخلل الجلسة الافتتاحية ، وباقي جلسات المؤتمر مشاغبـات ومقاطعات للخطباء ، هددت احيانا استمـرار المؤتمر ، وادت بالقائم باعمال سكرتير الهستدروت الى اختصار كلمته .

وقد احتلت موضوعات الفقر والضائقة التي تعيشها العائلات الكثيرة الاولاد، وسياسة الحكومة الاقتصادية جزءا كبيرا من مناقشات المؤتمرين .

وفي كلمته امام اعضاء المؤتمر اشار رئيـس الدولة الى المهام الملقاة على الهستدروت خصوصا بعد فترة الحرب فقال : « ان فترة الطـوارىء والاختبار لم تنته بعد ، وما زالت ملقاة على الهستدروت مهمات كبيرة . نحن نتوقع منها ان

تجند مواردها الكبيرة في المجـالات الاقتصـادية والتنظيمية والاجتماعية ، لكي تؤمن العمل للجنود المسرحين ، ولتضمن حقوقهم في اماكن العمل ، ولتهتم بعائلاتهم ، لئلا تتقلص مساهمتهم في فترة تأقلمهم من جديد بالحياة المدنية » .

واضاف رئيس الدولة : « ومع عودة المجندين الى حياة العمل والانتاج يتوجب على الهستدروت ان تهتم بسلسلة من القضايا تسبب بها الزمن . سيتوجب عليها سويا مع الحكومة سد الثغـرة للحيلولة دون جني ارباح من حالة الحرب واستغلال حالة الطوارىء على حساب جماهير المواطنين ، ولضمان توزيع عادل ، قدر الامكان ، لاعباء الحرب بين فئات الجماهير المختلفة . ويتوجب عليها ان تجند قوتها العظيمة لتقليص الفجوات الاجتماعية والاقتصادية ، تلك الفجوات التي تؤلم الامة في حالة الطوارىء » (دافار ٧٤/٣/١٢) .

أما يروحام ميشل الذي القى كلمة الافتتـاح فقد اشار الى اربعة مبادىء اساسية تسـير الهستدروت على هداها في سياستها المهنية :

١ — ضمان اجر حد ادنى وراتب تقاعدي حد ادنى وزيادة ذات دلالة لعلاوة الاولاد .

٢ — محافظة دقيقة على علاوة الغلاء ، سواء كتعويض عنه ، او كوسيلة ردع أمام موجة غلاء أخرى .

٣ — يتوجب على المنتجين امتصاص جزء على الاقل من الغلاء الناجم عن الغاء المعونات الحكومية وعن غلاء المواد الخام .

٤ — فرض ضريبة على الارباح ، وخصوصـا الارباح الناجمة عن الحرب .

واضاف ميشل : « علينا ان نرى في صلب سياستنا المهنية الارتباط المتبادل بين مركباتهـا المختلفة : الاجور ، الاسعار ، الارباح والضرائب. ويجب ان لا نسلم بأي حال من الاحوال ، بقصر اهتمام الهستدروت على احد المركبات فقط — الاجور — وابقاء باقي المركبات تحت صلاحية جهات اخرى » .

وبالنسبة لمستوى الاجور أشار ميشل : « ان المفاوضات حول مستوى الاجور يجب ان تجري في كل فرع على حدة بين المنظمات المهنية وبين ارباب العمل المعنيين ، وهذا من خلال اخذ الوضع الاقتصادي لذلك الفرع بعين الاعتبار وعلى أساس الخطوط الاساسية لسياسة الهستدروت المهنيـة العامة » .

واما بالنسبة لعلاقة الهستدروت بالحكومة فقال ميشل : « يجب الاشارة بوضوح الى اسـتعداد الهستدروت الكبير للتعاون مع الحكومة في جميع المجالات ... ونحن لا نسعى لايجاد خلافات ، ولكننا لن نتردد في توجيه النقد للحكومة كلما بدا لنا ان هناك اساسا لهذا النقد » (دافار ١٢/٣/ ١٩٧٤) .

وركزت رئيسة الوزراء في كلمتها امام المؤتمر على الوضع السياسي ، بعد ان ادانت الجو الذي حاول البعض فرضه على سير المؤتمر . واشارت مئير في معرض حديثها عن الوضع السياسي الى ما ادعاه احد مندوبي « موكيد » من ان استمرار الوجود الاسرائيلي في الجولان يحول دون التوصل الى السلام فقالت : « هذه البلاد لنا بفضـل استيطاننا لها وبفضل الجهود التي بذلناها خلال سنين عديدة . وسنستمر في جهودنا قدر الامكان ». واشارت مئير الى ان اسرائيل تطمح الى السلام بشرط ان تستطيع الدفاع عن نفسها داخل حدود متفق عليها مع جيراننا ومعترف بها من قبل العالم بأسره . « أنا لا اوصي بأن تعتمد اسرائيل على الضمانات الدولية — الضمانات بدل الحدود التي نضمن قدرتنا للدفاع عنها — لن نقبل بها » (معاريف ٧٤/٣/١٣) .

اما وزير المالية بنحاس سابير فلم يكن لديه سوى التبشير بضرورة تخفيض مستوى المعيشة ، محاولا الدفاع عن سياسة الحكومة الاقتصادية التي تمثلت بشكل رئيسي بقرار الغاء المعونـات المالية عن بعض المواد الاساسية . وحاول سابير في كلمته ان يثبت ان هذا القرار هو في صالح الطبقات الفقيرة ، سيما وانها ستتلقى تعويضا مناسبا بشكل زيادة علاوة الاولاد وغيرها مـن المخصصات التي يدفعها التأمين القومي ، مع اتباع سياسة ضرائبية جديدة . وقد قوبلت الاحصائيات التي قدمها سابير للمؤتمر بصيحات متكررة من قبل بعض المؤتمرين « ارقام مزيفة ». وفي معرض تطرقه الى مسألة مستوى المعيشة وضرورة تخفيضه قال سابير: « ان مستوى المعيشة عندنا ليس منخفضا، بل هو مرتفع اكثر مما هو عليه في دول اخرى

عديدة ، كما ان انجازاتنا لا يستهان بها ، وبناء عليه فان وضعنا جيد » . واضاف سابير : « انني افهم المطالب التي يقدمها جمهور العاملين ، وهذا أمر طبيعي ، لان كل شخص يرغب بتحسين مستواه المعيشي والحصول على دخل أكبر وتحسين شروط عمله » .ثم تطرق سابير الى المشاغبات والمقاطعات التي حصلت داخل المؤتمر فقال : « انني أعلم ومقتنع جدا ، ان هؤلاء المشاغبين الذين يرفعون أصواتهم كلما صعد أحد لالقاء كلمته ، لن يستفيدوا شيئا من هذا المؤتمر وانني افترض ان قرارات مهمة ستتخذ هنا لصالح العمال ولصالح كل عضو في الهستدروت » (ر.١٠١٠ ٧٤/٣/١٣ ، عدد ٤٨٥ ص ٢٩٠) .

وقال سابير مبررا قرار الحكومة بتقليص المعونات : « ان المسألة تكمن فيمن نأخذ منه المال ولمن نعطيه . وانا لا افهم لماذا يجب ان نأخذ بواسطة الضرائب الاموال من العامل ، واعطاء الخبز الرخيص للجميع . فعندما ترتفع الاسعار في الخارج ، فمن الواضح انه يجب على احدهم دفع ذلك . فاذا استمرينا باعطاء المعونات للجميع — فان جزءا غير قليل من الناس كان سيتلقاها دون ان يكون له حق في ذلك » (دافار ٧٤/٣/١٧) .

وكان سابير قد سبق واشار في معرض تقديمه للموازنة الجديدة للكنيست الى ان اعباء الحرب التي بلغت ٣٠ مليارا من الليرات الاسرائيلية ، سيقع جزء كبير من تغطيتها على كاهل الشعب ، لان المعونات الخارجية والقروض لن تغطي بأي حال من الاحوال المبلغ بكامله . واشار سابير آنذاك الى ان الجمهور الاسرائيلي سيتحمل اعباء الحرب ونفقات الدفاع المترتبة عنها على مدى أكثر من سنة . وانه بالتالي يتوجب على الهستدروت تفهم وضع البلاد الاقتصادي لدى تقريرها وتحديدها لسياستها المهنية . وان الجهود يجب ان تنصب نحو محاولة تسهيل اوضاع العائلات الفقيرة .

سير المناقشات

بعد تحديد القائم بأعمال سكرتير الهستدروت لمعالم سياسة الهستدروت القادمة في كافة المجالات ، وبعد كلمة كل من رئيسة الوزراء ووزير المالية شاركت مختلف الكتل في النقاش العام الذي تناول كافة المسائل المطروحة على جدول الاعمال ، بالاضافة الى اقتراحات تقدمت بها بعض الكتل لادراجها على جدول الاعمال، منها ما قبل وغالبيتها رفضت بأكثرية اصوات المعراخ وبعض الفئات الاخرى ، ومن جملة الاقتراحات التي رفضت كان ما تقدمت كتلة «راكاح» «وموكيد» «وميري» من ضرورة بحث الوضع السياسي العام ومناشدة المؤتمر لاتخاذ قرار يدعو الحكومة فيه للعمل على انجاح فرص تسوية النزاع العربي — الاسرائيلي والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني . وقد اكتفى المؤتمر في هذا الاطار — بالتأكيد على بيان رئيسة الحكومة وتأييد الخط السياسي العام لها فيما يتعلق بالموضوع .

أما مطلب كتلة الفهود السود ببحث تقرير لجنة كاتس المتعلق بالعائلات التي تعيش في الضائقة فقد تقرر بحثه في اللجان المختصة .

ردود الفعل

كان الهجوم على سياسة الهستدروت شاملا لكافة التيارات المعارضة سواء من اليمين او اليسار مع اختلاف الدوافع والمنطلقات والحلول لكنه كان واضحا منذ البداية ، ان المعراخ بفضل الاغلبية المطلقة التي يتمتع فيها في المؤتمر نظر لتحالفه مع قائمة العامل المتدين قادر على اسقاط كافة التحفظات او مشاريع القرارات التي لا تتماثل مع خط قيادة الهستدروت وبالتالي قيادة التجمع العمالي الحاكم .

وقال مندوب راكاح بنيامين جونين مندداً بسياسة الهستدروت المهنية المعادية للعمال والخاضعة لتوجيهات حزب العمل والمعراخ ان : « صورة الهستدروت امام العمال تظهر كمؤيدة للقوانين المعادية للعمال مثل قانون تجميد الاضرابات ، وقانون محاكم العمل القطرية ، واوامر التقييد الاجباري » . واضاف جونين : « ان الهستدروت أيدت دائما سياسة الحكومة الضرائبية والمتعلقة بالاجور » (الاشارة الى « صفقة الرزمة » حول الاجور) . واشار جونين الى رد الهستدروت على قرار الحكومة بالغاء المعونات المالية عن بعض المواد الاساسية فقال : « ... انه كان مخيبا للامال » .

وتقدمت راكاح بسلسلة من الاقتراحات مثل رفع الراتب او الاجر الاساسي بـ ٢٥ ٪ من أجل

حساب علاوة الغلاء ، وطالبت بتوقيع اتفاقات عمل جماعية كل سنة ، وبالغاء القوانين والانظمة التي تمس حرية النضال المطلبي .

وربط مندوبو راكاح في كلماتهم بين الوضع الاقتصادي السيء وبين الوضع السياسي وسياسة الحكومة الفاشلة فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي وبقضية حقوق الشعب الفلسطيني القومية : « ان الوضع الاقتصادي الصعب هو نتيجة مباشرة للسياسة الفاشلة للحكومة في الحقلين السياسي والامني . ونحن نقترح على الهستدروت دعوة الحكومة لانجاح مؤتمر جنيف وتنفيذ قرارات مجلس الامن ، بالانسحاب من المناطق المحتلة والاعتراف بالحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني في نطاق اتفاق سلام » (دافار ١٥/٣/١٩٧٤) .

أما مندوب « موكيد » فحذر من استمرار الاستغلال البشع للطبقات الفقيرة ومن تزايد الهوة بين الطبقات العليا والدنيا ، واشار الى ان هذا الوضع يتيح مجالا خصبا للديماغوجية اليمينية الفاشية : « في كل بلد يسوده نظام رأسمالي كما هو الحال عندنا تستغل الفاشية والفاشية الجديدة ، هذا الوضع مؤدية الى وضع أسوأ . لذلك فالخطر الان يتهدد وجود الهستدروت الذاتي . كما ويتهدد التنظيمات والمنظمات العمالية الطبقية وكل ما هو ايجابي عندنا » . ثم تقدم مندوب موكيد بمطلبان :

١ — على الهستدروت ان تكون مستقلة وليس مجرد ختم للحكومة ووزارة المالية وعليها ان تقف الى جانب العمال في حالة نزاع العمل وليس كوسيط بين رب العمل والعامل .

٢ — يجب المحافظة على الديمقراطية في الهستدروت ، ليس فقط اثناء الاجتماعات . (دافار ١٥/٣/٧٤) .

اما ممثل ليكود ، فحدد نقده لسياسة الهستدروت بالامور التالية :

١ — ان ممثلي الهستدروت يقومون دائما بدور الوسيط بين المستخدمين وارباب العمل بدل ان يكونوا ممثلين حقيقيين للعمال في مطالبهم .

٢ — عدم مكافحة الهستدروت لاسلوب المماطلة في المفاوضات مع المستخدمين .

٣ — عدم اشراك لجان العمال في اتخاذ القرارات حول اتفاقات العمل الامر الذي يؤدي نتيجة لعدم موافقة هذه اللجان على بعض بنود هذه الاتفاقات ، الى خرقها والى اضرابات متتالية الامر الذي يعود بالضرر على علاقات العمل ، وماديا على اقتصاد الدولة .

وهذه المطالب التي تبدو ظاهريا دفاعا عن العمال ، تنكشف حقيقتها اذا ما اضفنا اليها مطالب اليمين البرجوازي الدائمة باقرار قانون التحكيم الالزامي في نزاعات العمل ومطالبه بتصفية القطاع الهستدروتي لحساب القطاع الخاص ، وبضرورة تقديم المعونات والقروض للمستثمرين في الداخل والخارج . ويبدو هنا ايضا ان اليمين يستغل بشكل اساسي سياسة السلطة العمالية المعادية للعمال في محاولة ديماغوغية لضرب مصالح العمال على المستوى البعيد .

قرارات المؤتمر

كان من بين القرارات التي اتخذها المؤتمر ما يلي :

١ — دعم حكومة اسرائيل في جهودها للتوصل الى اتفاقية سلام مع الشعوب المجاورة .

٢ — دعوة الى اقامة نطاق مشترك للمستخدمين واصحاب العمل لمعالجة مشاكل الاقتصاد اثناء الطوارىء .

٣ — دعوة لاقرار اجر حد ادنى في مستوى يتراوح بين ٥٠ — ٦٠ ٪ من متوسط الاجر في كافة قطاعات الاقتصاد .

٤ — رفع سقف الاجور لحساب علاوة الغلاء وفحص امكانيات تقصير اسبوع العمل في اسرائيل .

كما وجاء في القرارات ان الهستدروت ستشجع اقامة منظمة اكاديمية عامة تحافظ على الاستقلالية الذاتية للمنظمات القائمة . وستطالب بربط دفعات التأمين القومي ودفعات المساعدة الاجتماعية بالاجر المتوسط في المرافق الاقتصادية ، كما وستنشىء صندوقا خاصا لتوسيع الاسكان للمهاجرين (دافار ١٥/٣/٧٤) . ولخص يروحام ميشل المرشح لمنصب سكرتير عام الهستدروت قرارات المؤتمر بقوله : « ان أهم امر ، هو اننا قررنا اقامة مركز خاص للاهتمام بمشكلات الفئات الفقيرة في المجتمع الاسرائيلي، وذلك لمعالجة مشكلات السكن والاحياء

الفقيرة . واهم نقطة هي ايجاد قيادات في الاحياء الفقيرة لمعالجة مشكلات هذه الاحياء . والنقطة الثانية هي اقامة مركز لاستيعاب المهاجرين الجدد. كما سنقيم وحدة خاصة لتطوير القطاع الاقتصادي في القرى العربية ، ومنح المزيد من الاستقلال للدائرة العربية في الهستدروت ، ومنح استقلال تام للعامل العربي لنثبت انه بالامكان اقامة مجتمع مشترك في دولة اسرائيل مجتمع يهودي – عربي . كذلك سنسعى الى نقل مؤسسات الهستدروت الرئيسية الى القدس » (ر.١٠.١٠. ٧٤/٣/١٤ ، عدد ٤٨٥ ، ص ٢٩٧) .

أما عضو الكنيست يتسحاق بن أهرون، السكرتير العام السابق للهستدروت ، الذي كان قد أعلن عن استقالته من منصبه بعيد الانتخابات العامة للمؤتمر الثاني عشر للهستدروت ، بدعوى عدم وجود دعم كاف من حزب العمل لجهوده في تحقيق مطالب العمال وفي اجراء تغييرات واصلاح في بنية الهستدروت ، فقد علق على نتائج مؤتمر الهستدروت بقوله ان مؤتمر الهستدروت لم يخدم بأي شكل المصالح المهنية للاجراء والمصالح المصيرية لحركة العمل . واضاف بن أهرون في مقابلة اذاعة أجريت معه بعد اختتام اعمال المؤتمر : « عندما ترى على من القوا الان مهمة قيادة الهستدروت ، وعندما ترى ان هذا المؤتمر في اول اختبار له لم ينجح في تحديد الاهداف وفي وضع الهستدروت في حجمها الطبيعي كأحد العوامل الاساسية في بلورة المجتمع وفي المسؤولية عن الدولة ، عندها تفهم انني أكثر من قلق » .

وأوجز بن أهرون فترة ولايته : « بأنها كانت من أصعب الفترات في الصراعات الاجتماعية ، حيث برزت امام الجميع حدة الاستقطاب الاخذ في الاتساع ، وحيث زادت الهوة في المجتمع الاسرائيلي » . وعلى حد قوله : نشأت في اسرائيل طبقة غنية ، تعيش حياة ترف وبذخ ، تعد ، حسب تقديره اليوم قرابة ١٥٠ الف عائلة . كما وبرز في سني ولايته جمود في جهاز التنظيم والادارة ، وتحجر لدى الاعضاء الذين مكثوا في وظائفهم العالية عشر او خمس عشرة سنة واصبحوا فارغين تماما» (دافار ٧٤/٣/١٧) .

وكانت قيادة الهستدروت وحزب العمل قد حالت دون بن أهرون والقاء تقرير كما هو متبع وواجب عن فترة ولايته السابقة امام المؤتمر الجديد الامر الذي ادى في حينه الى حدوث شجار داخل المؤتمر بين انصار بن أهرون وبين زعامة المؤتمر .

هاني عبدالله

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

« الضمير »

قصة الشهيد كال ناصر

بقلم : هالة سلام وسلوى الخالدي

٣٢ صفحة باللغة الانجليزية مقرونة بالصور عن الشهيد كمال ناصر : الانسان ، المناضل ، والشاعر .

سعر النسخة ٢ ل.ل.

يضاف اليها أجور البريد الجوي : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١ ل.ل. في اوروبة ، ٢/١ ٢ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من مركز الابحاث – قسم التوزيع .

ص.ب ١٦٩١ – بيروت

حرب تشرين وتقرير لجنة اغرانات يقودان الى
« انقلابين » في اسرائيل : عســكري وسياسي

في الساعة التاسعة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ١٩٧٤/٤/٢ ، صدر تعميم من مكتب رئيس اركان جيش الاحتلال الاسرائيلي اللواء دافيــــد العازار الى جميع العمداء العاملين التــــابعين للاركان ، يطلب العازار فيه منهم ان يستمعوا الى نشرة انباء الساعة العاشرة من اذاعة « صوت اسرائيل » (معاريف ٧٤/٤/٣) .

كانت هذه اول اشارة الى ان شيئا خطيرا ما سيحدث .

وحدث « الشيء » الذي كان أشبه بالزلزال ، حيث تضمنت نشرة الانباء تلك ، اجزاء وافيــة من التقرير الجزئي للجنة اغرانات للتحقيــق في تقصيرات حرب تشرين ، وهو ذلك الجزء من التقرير الذي هز اسرائيل ، وتضمن استنتاجات وتوصيات متعلقة بمؤسسات واشخاص ، وادى الى استقالة العازار وغيره من كبار ضباط جيش العدو فورا ، وادى — بعد ايام — الى استقالة غولدا مئير وحكومتها ، وادخال اسرائيل في ازمة أكبر من ان تسمى « ازمة وزارية » ، وخلق جوا لم تشهد اسرائيل مثيلا له من قبل ، وقاد الى سلسلة طويلة متصلة من الاحداث وردود الفعل العنيفة ، سلسلة لم تنته حتى ساعة تقديم هذا الاستعراض في النصف الثاني من شهر نيسان (ابريل) ، ولا هي ستنتهي على ما يبدو بعد مرور أشهر ، وربما سنين عديدة .

وفي محاولة للمحافظة على ترابط فقرات هذا الاستعراض ، سنعمد الى البدء من البداية ، وبالتسلسل ، حيث نجد امامنا السؤال الاول الذي يقول : من هو اغرانات ؟ ومن هم اعضاء اللجنة المعروفة باسمه ؟ كيف تشكلت هذه ؟ متى ؟ وبماذا طلب اليها ان تحقق ؟ وكيف كانت ردود الفعل الاولية على تشكيلها ومهمتها ؟

لقد اتخذت حكومة العدو في جلستها يوم ١٨/ ١٩٧٤/١١ ، قرارا يقول بأن « المعلومات التي سبقت حرب يوم الغفران عن خطوات العــــدو ونواياه بشن الحرب ، وتقديرات وقرارات الجهات العسكرية والمدنية المعتمدة بشأن المعلومــــات المذكورة ، وعن استنفار جيش الدفاع الاسرائيلي للحرب بشكل عام ، وتأهبه خلال الايام التي سبقت حرب يوم الغفران ، والاعمال التي قام بها حتى صد العدو ، هي مواضيع ذات أهمية عامة حيوية وتحتاج الى توضيح . وبموجب ذلك تقام لجنة تحقيق تحقق في المواضيع المذكورة ، وتقدم تقريرا للحكومة ، ويتقرر ، بعد التشاور مع رئيس المحكمة العليا ، ان تكون اللجنة مكونة من خمسة اعضاء ويتقرر ان الامور التي هي مواضيع التحقيق ، ومناقشات اللجنة، سرية ... وكذلك طلب مصادقة لجنة الخارجية والامن في الكنيست على هــــذا القرار » (معاريف ٧٤/٤/٣) .

وبناء على هذا القرار الذي صدقته لجنــــة الخارجية والامن في الكنيست يوم ٧٣/١١/١٩ ، عين رئيس المحكمة العليا الدكتور شمعون اغرانات يوم ٧٤/١١/٢١ اللجنة الخماسية على النحــو التالي : الدكتور شمعون اغرانات رئيس المحكمة العليا رئيسا ، موشي لانداو ، قاضي المحكمــة العليا عضوا ، الدكتور اسحق نفنتسال ، مراقب حسابات الدولة — عضوا ، واللواء (احتيــاط) يغآل يدين ، بروفيسور في الجامعة العبرية — عضوا ، واللواء (احتياط) حاييم لاسكوف ، مفوض شكاوى الجنود — عضوا » (رصد اذاعة اسرائيل ٧٣/١١/٢٦ وكذلك معاريف ٧٤/٤/٣) .

كان واضحا منذ اعلان الحكومة لقرارها ، وتشكيل اللجنة التي بدأت أعمالها يوم٧٣/١١/٢٥، ان الهدف الاساسي لكل ذلك هو اعطاء المسؤولين الاسرائيليين ، وخاصة زعماء حزب العمل — أكبر أحزاب الائتلاف الحاكم والمسؤول الاول عن تسيير امور الدولة وتوجيه دفة الحكم — فرصة الدعوة الى عدم التشهير به بسبب تقصيرات الحرب بادعاء ان الموضوع برمته هو قيد البحث في لجنة موضوعية غير منحازة وصلاحياتها واسعة ، وذلك — بشكل خاص — على عتبة الانتخابات الثامنة التي حدد موعدها قبل ذلك ، ليوم ٧٣/١٢/٣١ .

ومنذ تشكيل اللجنة لاحظ رجل القضاء الاسرائيلي ارفين شمرون في مقابلة اذاعية اجريت معه ، « ان الموضوع المحدد الذي يتوجب على اللجنة

ان نعالجه ، قررته الحكومة في قرارها ، وليس للجنة صلاحية تجاوز ما حدد لهـــا ... وان استنتاجات اللجنة غير ملزمة للحكومة ، والهيئة الوحيدة التي تستطيع ان تحاسب الحكومة لعدم قيامها بتنفيذ استنتاجات لجنة التحقيق ، هي لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، ومن المعلوم ان للحكومة أغلبية في لجنة الخارجية والامن هذه » (ر.١٠١٠ ٧٣/١١/٢٦) .

وفي البرنامج الاذاعي ذاته (المصدر السابق) أعرب زعماء في الائتلاف الحاكم وفي المعارضة عن اراء متباينة في تشكيل وصلاحيات هذه « اللجنة القضائية » للتحقيق في تقصيرات الحرب .

اذ بعد ان اعرب عضو الكنيست من حـــزب الاحرار المستقلين (المؤتلف) جدعون هاوزنر عن اعتقاده بأن اللجنة « أفضل من أية لجنة اخرى ، لان لجنة التحقيق القضائية لا تشكل بقرار من الحكومة ، بل من رئيس المحكمة العليا ، أي من جانب موضوعي ويثق به الجمهور » ، قال عضو الكنيست (المعارض) اوري افنيري انه « اذا كان القصد من تاليف اللجنة هو انهاء النقاش حول التقصير في الحرب ، وانهاء النقاش بين السياسيين واسكات المعارضين في الصحف وفي الكنيست ، فان هذه اللجنة هي اللجنة المثالية . ولكن اذا ثمة اعتقاد بانه ينبغي بعد حرب كهذه درس وتوضيح كل ما يمكن توضيحه بصورة علنية ، فعندها ينبغي تعيين لجنة تحقيق شعبية ، او تعديل القانون — الذي شكلت اللجنة بموجبه — وجعل لجنة التحقيق القضائية غير ملزمة بكتمان استنتاجاتها ، وعدم اجراء تحقيقات سرية » .

وقال عضو الكنيست افرهام ليفنبراون مـــن الحزب الشيوعي « راكاح » : اننا لا نعلق امالا كبيرة على نتائج تحقيقات اللجنة طالما ان استنتاجاتها ستبقى مكتومة لاسباب أمنية » .

ومن المعارضة اليمينية ، قال عضو الكنيست اليميلخ ريملط ، رئيس حزب الاحرار وعضو لجنة الخارجية والامن « انني لست راضيا عن جعل كافة جلسات اللجنة مغلقة ، فمجرد جعل كافة جلساتها مغلقة يضعف ثقة الجمهور بعملها » .

أما من الائتلاف الحاكم ، فقد أعلن ســكرتير عام حزب العمل أهرون يدلين « ان كتاب التكليف كاف ، واعتقد ان المهم هو التحقيق في الاستعدادات التي اجراها جيش الدفاع الاسرائيلي قبيل الحرب، والايام الاولى من الحرب ، وليس ثمة ضــرورة للتحقيق في كافة مراحل القتال ، فهذا ينبغي ان يجري داخل الجيش » .

عقدت اللجنة بين يومي ٧٣/١١/٢٥ و٧٤/٤/١، أي يوم اصدار تقريرها الجزئي ، ١٤٠ جلسة واستمعت الى ٥٨ شاهدا ، كما قدمت اليها مواد خطية غزيرة ، مكنتها من تفضيل « تقـــديم استنتاجاتها وتوصياتها بالنسبة الى المواضـــيع التي أنهت مناقشتها » على الرغم من معرفتهـــا « ان هذه المواضيع خصوصا الاستنفار والتأهب مرتبط بعضها ببعض بصورة او بأخرى ، وكذلك معرفتها انه « من المفضل عدم تجزئة البحث بحسب المواضيع المختلفة » ومن بين ما جعل اللجنة تفضل تقديم تقرير جزئي ان اعداد تقرير كامل وتـــام سيحتاج الى وقت طويل « ومن حق الشعب ان يعرف في أقرب وقت استنتاجات اللجنة وتوصياتها بالنسبة الى المواضيع التي أنهت مناقشتها ، ومن المفضل ان يكون في مقدور الحكومة التصرف بموجبها في أقرب وقت » .

لقد أعد اعضاء اللجنة تقريرهم الجزئي ووقعوه يوم ٧٤/٤/١ . ومنذ اللحظة الاولى لعلم الحكومة به ، او لاطلاعها على ما فيه على الاقل ، بدأت مواضيع غير مفسرة تشكل مادة لتعليقات وتكهنات صحف واذاعة اسرائيل ، الى ان جاءت انبـــاء الساعة العاشرة من مساء يوم ٧٤/٤/٢ . ففي صباح ذلك اليوم بثت اذاعة العدو نبأ عن تأجيل بنحاس سابير وزير المالية في آخر لحظة لسفره الى الولايات المتحدة وقد كان يفترض ان يسافر سابير في ذلك الصباح .

وعند الظهر قال احد مراسلي اذاعة العدو ان المقربين من سابير لا يرغبون كشف السبب الذي جعل الوزير يرجىء سفره بصورة مفاجئة ... « وفي الواقع ان شخصية كبيرة طلبت من سابير في ساعة متأخرة من مساء امس تأجيل سفره » وضمن التكهنات التي عرضتها على انها قد تكون سبب ارجاء السفر الوضع على جبهة الجولان ، والاقتراع المتوقع في الكنيست بالنسبة لتبديـــل أسلوب الانتخابات ، واستقالة الوزير ميخائيـــل حزاني ، احد وزراء المفدال الثلاثة .

وبعد ان كان من المفترض ان يعود دايان يوم

٧٤/٤/٣ ، عاد ظهر يوم ٧٤/٤/٢ حيث توجه الى مكتبه ، ومنه الى مكتب رئيسة الحكومة حيث بدأت في الساعة السابعة مساء جلسة طارئة للحكومة، لم يتمكن المراسلون من معرفة حقيقة ما على جدول أعمالها — باستثناء البند الاول المتعلق بتقديم حزائي لاستقالته — الى ان جاءت انباء الساعة العاشرة مساء ، التي سبقتها بقليل خروج رئيس الاركان دافيد العازار من مكتب مئير وتوجهه نحو سيارته ، حيث لحقه الون ، وعلى وجهيهما علامات الجدية » الى سيارته ، التي ودعه الون على بابها وشد يده ، كما قالت اذاعة العدو ذلك المساء ، واستمرت جلسة الحكومة حتى الساعة الحادية عشرة والنصف قبل منتصف الليل .

في هذه الجلسة الاستثنائية الطويلة ، كان تقرير لجنة اغرانات هو الموضوع ، (مقتطفات وافية للغاية من التقرير تجدها في عدد نشرة رصد اذاعة اسرائيل يوم ٧٤/٤/١٣ والنص الكامل للتقرير تجده في عددي جريدة « النهار » البيروتية يومي ١٢ و٧٤/٤/١٣) ، وتخلل الجلسة قراءة دافيد العازار لرسالة خطية وجهها الى غولدا مئير » .

والعلامتان الابرز في التقرير كانتا توجيه النقد لمؤسسات عسكرية ولقادة عسكريين في جيش الاحتلال ، وامتداح لتصرفات مئير وتبرير لتصرفات دايان عشية الحرب وفي الفترة التي تناولتها اللجنة في تقريرها .

وكانت هاتان العلامتان مدار ومركز التعليقات وردود الفعل الاسرائيلية ، وطبيعي ان تكون التطورات على الصعيد العسكري قد سبقت أية تطورات اخرى ، حيث ان اللجنة ادانت صراحة في تقريرها عددا من كبار ضباط الجيش .

على صعيد الاجهزة ، اوصت اللجنة « بالنظر في امكانية تعزيز قسم الابحاث في وزارة الخارجية ، ليكون قادرا على تقديم تقييمات سياسية مستقلة ، سواء فيما يتعلق بقضايا الشرق الاوسط ، أم بالقضايا السياسية الاخرى ، كما تقضي الحاجة » وقالت اللجنة في تقريرها انه « لدى تعزيز قسم الابحاث يتولد توازن معين في التقييمات الامنية والسياسية التي يقوم بها اليوم قسم الابحاث في الاستخبارات العسكرية في صورة استثنائية تقريبا » . ورأت اللجنة ضرورة « تعيين مستشار خاص برئيس الحكومة لقضايا الاستخبارات ، وينبغي ان يكون هذا المستشار الخاص على مستوى رفيع ، وان يكرس كل وقته لوظيفته هذه، ويكون خاضعا لرئيس الحكومة وحده ، وتكون صلاحياته : الاشتراك الدائم في لجنة رؤساء الاجهزة ، والحضور الدائم لجميع اجتماعات رئيس الحكومة مع أي من رؤساء الاجهزة ... » وغير ذلك ، كما اوصت اللجنة « باجراء تغييرات جوهرية واساسية في هيكل شعبة الاستخبارات العسكرية والاستراتيجية والميدانية والتكتيكية » وكذلك اوصت اللجنة بوجوب « اقامة وحدات ضمن اطار « الموساد » لتقييم المواد التي يجمعها « الموساد » » .

وبعد هذه التوصيات « العامة » بشأن الاجهزة، والتلميح عبر التوصيات بتقصير الاجهزة ، والدعوة الى وضع « مندوب » لرئيس الحكومة على رأسها جميعا وتحويل جزء من مهام الاجهزة الى وزارة الخارجية ، يصل التقرير الى توصيات متعلقة بالاشخاص الذين شغلوا مناصب عالية في الجيش في الفترة التي خضعت لتحقيق اللجنة .

ويمكن عرض هذه التوصيات — باختصار — على النحو التالي :

١— فيما يتعلق باللواء دافيد العازار رئيس هيئة الاركان العامة ، توصلت اللجنة الى اتفاق يقول بأنه « يتحمل مسؤولية شخصية عما حدث عشية الحرب ، سواء بالنسبة الى تقدير الوضع أم بالنسبة الى تأهب جيش الدفاع الاسرائيلي » وبعد عرض مفصل لاسباب تقدير واحترام اللجنة للعازار واسباب تحميلها له هذه المسؤولية ، خلصت اللجنة الى القول : « اننا نرى من واجبنا التوصية بانهاء تولي اللواء دافيد العازار منصب رئيس الاركان العامة » .

٢ — وعن العميد شموئيل غونين ، الذي كان خلال الفترة التي خضعت لتحقيق اللجنة قائدا للمنطقة الجنوبية ، قالت اللجنة بعد كيل بعض المديح له انه « يتحمل جزءا كبيرا من المسؤولية عن الوضع الخطر الذي دوهمت فيه قواتنا في الجنوب يوم الغفران ، عندما بدأ الجيش المصري هجومه » وحملت اللجنة غونين مسؤولية « أخطاء ناحشة » اخرى وخلصت الى القول : « اننا لا نتقدم في هذه المرحلة توصية بشأن صلاحية العميد

غونين في ممارسة مهام في جيش الدفاع الاسرائيلي، وانما نوصي بعدم ممارسته مهمة فعالة ، الى حين تستكمل اللجنة تحقيقها في ما يتعلق بمرحلة معارك صد العدو » .

٣ — وعن العميد الياهو زاعيرا ، رئيس فرع الاستخبارات العسكرية قالت اللجنة : « في رأينا ان العميد زاعيرا ، وازاء الفشل الذريع الذي مني به ، لا يستطيع البقاء في منصبه كرئيس لفرع الاستخبارات العسكرية » .

٤ — وعن العقيد اربيه شاليف ، مساعد رئيس فرع الاستخبارات العسكرية للابحاث ، قالت اللجنة انه « يتحمل جل المسؤولية عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه القسم الذي يرأسه ، ولهذا السبب فانه لا يستطيع في رأينا البقاء في منصبه في شعبة الاستخبارات العسكرية » .

٥ — وعن المقدم يونا بندمان رئيس دائرة مصر في قسم الابحاث التابع لفرع الاستخبارات العسكرية ، قالت اللجنة انه كان « مسؤولا عن أعمال الدائرة التي كانت بؤرة الاخطاء المضللة للتقييمات وعدم التحذير من نيات العدو المصري... وفي رأينا انه يجب التوقف عن اسناد الوظيفة المتعلقة بتقييم معلومات الاستخبارات الى المقدم بندمان » .

٦ — وعن المقدم دافيد غداليا ، الضابط في هيئة اركان المنطقة الجنوبية ، قالت اللجنة انه لم يقم بواجبه كضابط استخبارات عندما قدم له الملازم اول بنيامين سيمان طوف تقريرين الاول يوم ٧٣/١٠/١ بعنوان « تحركات في الجيش المصري — احتمال تجدد القتال » والثاني يوم ٧٣/١٠/٣ ، بعنوان « تلخيص الوضع في الجيش المصري من ٧٣/٩/١٣ حتى ٧٣/١٠/٢ » ... وانتهت اللجنة الى القول : « بناء عليه يجب ان لا تسند الى المقدم غداليا بعد الان مهمات استخبارية » .

كيف إنعكست توصيات لجنة اغرانات المذكورة على رأس هرم القيادة العسكرية الاسرائيلية ؟

فيما يتعلق برئيس الاركان دافيد العازار ، وكما ذكرنا سابقا ، قدم هذا رسالة خطية ، اخرجها من جيبه في جلسة الحكومة مساء يوم ٧٤/٤/٢ ، وقرأها ، ثم خرج الى حيث كان عمداء الجيش مجتمعين في مكتبه ، قرأ الرسالة عليهم ثانية ... وركب سيارته وتوجه الى البيت في آخر خروج له من المكتب كرئيس للاركان .

وفي رسالته ، يقول العازار : « انني واثق من انه لحق بي اجحاف » ثم أعلن عن عدم موافقته على عدد من قرارات اللجنة الاساسية التي جاءت في غير صالحه ، وانتهى في رسالته التي نشرت نصها نشرة رصد اذاعة اسرائيل يوم ٧٤/٤/٣ ، الى القول بأنه على ضوء الاتهامات الواردة في تقرير اللجنة لا يرى ان ثمة امكانية للاستمرار في منصبه ، واعلن انه حتى اشعار آخر ، يتسلم العميد اسحق حوفي رئيس شعبة العمليات في رئاسة الاركان منصبه كرئيس لهيئة الاركان العامة بالوكالة .

وفي حين نقلت جريدة « معاريف » على الصفحة الثالثة في عددها يوم ٧٤/٤/٤ عن عضو الكنيست زلمان شوفال من « القائمة الرسمية » ان الوزير يسرائيل غاليلي صاغ رسالة العازار الى مئير ، عادت الجريدة على صفحتها الاولى من اليوم ذاته، ونفت نقلا عن العازار ان يكون غاليلي قد صاغ له رسالة الرد على قرار اللجنة ، وكان في ذلك اشارة من المقربين الى دايان الى ان الاتهامات التي وجهت الى دايان ووردت في رسالة العازار ، هي عمليا صادرة عن كتلة احدوت هعفودا — التي يتزعمها الون وغاليلي — في حزب العمل ، والمختلفة ابدا مع كتلة رافي التي يتزعمها دايان .

والاجتماع الذي عقده العازار في رئاسة الاركان، ولم يستمر أكثر من ٧—٨ دقائق فقط ، حضره عمداء جيش الاحتلال وكان بينهم بعض من ادانتهم لجنة اغرانات واوصت بابعادهم عن الجيش او عن مناصبهم .

« وفي غرفة الانتظار في رئاسة الاركان قال العميد الياهو زاعيرا «الان استطيع ان اخرج في اجازة»، اما العميد شموئيل غونين فقد صرح لزملائه : « انني انوي ان استقيل » (معاريف ٧٤/٤/٣).

ثم بدأت سلسلة الاستقالات والتعيينات في المناصب العليا في الجيش الاسرائيلي ، تلك التي لم تنته بعد ، والتي يمكن ايجازها على النحو التالي :

١ — قبلت استقالة زاعيرا، وعين العميد شلومو غازيت ابتداء من يوم ٧٤/٤/٣ خلفا له .

٢ ــ تسلم العميد رفائيل فاردي منصب منسق النشاطات الاسرائيلية في المناطق المحتلة خلفا لغازيت .

٣ ــ عين العميد ثاني اريبه شاليف ــ بعد قبول استقالته من الاستخبارات ــ قائدا لمنطقة الضفة الغربية .

٤ ــ انهى العميد شموئيل غونين عمله كقائد لمنطقة شرم الشيخ يوم ٧٤/٤/٣ ، وهو المنصب الذي شغله اثر اندلاع حرب تشرين ، ثم قبل اقتراحا من دايان بمنحه اجازة « لمتابعة دراسته الى ان تنتهي لجنة اغرانات من تحقيقاتها » .

واعلن جميع هذه البيانات الناطق العسكري الاسرائيلي ظهر يوم ٧٤/٤/٣ (ر. ا. ا. ٥/٤/ ١٩٧٤) .

وقرر العميد غونين ، استنادا الى بند في قانون تشكيل لجنة التحقيق ، يقضي بحضور من يتضرر او من يوكله جلسات اللجنة في حال تعرضه للضرر من جراء قرارات او توصيات او استنتاجات اللجنة ، ان يتوجه الى محكمة العدل العليا ، مطالبا باصدار امر للجنة والحكومة لكي يعللا عدم الغاء اجزاء التقرير التي تلحق الضرر به ، طالما انه لم يحضر جلسات التحقيق التي استندت اليها اللجنة في اتخاذ ما اتخذته من توصيات .

٥ ــ اعلنت الحكومة الاسرائيلية يوم ١٤/٤/ ٧٤ تعيين اللواء مردخاي غور قائد المنطقة الشمالية ، خلفا لالعازار كرئيس اصيل لهيئة الاركان العامة لجيش الاحتلال .

٦ ــ اعلن الناطق العسكري الاسرائيلي تعيين العميد رفائيل ايتان خلفا لغور كقائد للمنطقة الشمالية ابتداء من يوم ٧٤/٤/١٥ .

٧ ــ اعلن الناطق العسكري الاسرائيلي مساء يوم ٧٤/٤/١٥ استقالة اسحق حوفي من الجيش نهائيا ، وشغر بذلك منصب رئيس غرفة عمليات جيش الاحتلال .

٨ ــ تسلم العميد هرتسل شبير منصب رئيس غرفة العمليات في الاركان العامة . ابتداء من يوم ٧٤/٤/١٥ .

٩ ــ عين العميد موشي بيلد ابتداء من يوم ٧٤/٤/١٦ قائدا لسلاح المدرعات .

١٠ ــ عين العميد موشي كيدرون ــ الذي مضى على تسريحه من الجيش سنة ونصف ــ رئيسا لفرع الطاقة البشرية في هيئة اركان جيش الاحتلال .

ومعروف ان منصب نائب رئيس الاركان الذي شغر منذ اكثر من شهر ونصف باستقالة العميد يسرائيل طال من الجيش ، ما زال شاغرا ، اضافة الى مناصب قيادية اخرى في أسلحة وفروع الجيش .

ومن مجموع التعليقات التي نقلتها اذاعة العدو في الاسبوعين الاولين بعد نشر التقرير الجزئي للجنة اغرانات ، لم ينتصر أحد من المعلقين الى دافيد العازار وغيره من الضباط الذين اوصي بابعادهم عن الجيش او مناصبهم بالمعنى المطلق ، بل اقتصر الانتصار لهم عن طريق الاعراب عن تحيز اللجنة واستخلاصها النتائج في تقصيرات يتحملها دايان بشكل اساسي ، والحكومة بشكل عام الى جانب تحمل العازار لها ، في حين كانت التوصيات مقتصرة فقط على المطالبة بمحاسبة العسكريين .

ولقد برز بين المطالبين باقالة دايان ، او ضرورة استخلاصه النتائج وتقديم استقالته ، العديد من الاحزاب والتجمعات والافراد ، مثل حزب مبام العضو في التجمع العمالي مع حزب العمل ، والاحزاب الواقعة على يسار الحزب الحاكم مثل موكيد وراكاح وغيرهما من التجمعات مثل «حركات التغيير » التي نشأت خلال الاسابيع الماضية ، وحزب الاحرار المستقلين ، واعضاء كتلة احدوت هعفودا في حزب العمل ، اضافة الى أسماء عرفت « باعتدالها » ضمن كتلة المباي في حزب العمل مثل اريبه لوفا الياف وبنحاس سابير ، الذي اعلن اثر مشاورات داخل حزب العمل ان ٢٤ او ٢٥ من بين ٢٦ متحدثا في المشاورات طالبوا دايان بالاستقالة .

على ان السؤال الاهم الذي يواجهنا ــ قبل ان ننتقل الى اصداء ونتائج تقرير اللجنة على الصعيد السياسي ــ هو ما هو الاتجاه العام الذي تشير اليه التعيينات الجديدة في قيادة اركان جيش الاحتلال ؟

اول الملاحظات ، هو ان ابرز تعيينين حتى الان كانا تعيين مردخاي غور رئيسا للاركان ورفائيل ايتان قائدا للمنطقة الشمالية .

والميزة الاساسية لمردخاي غور انه برز في اسرائيل في فترة بروز قادة عسكريين اخرين اعتبرهم الاسرائيليون محققي المعجزات ، واساطير تمشي على الارض ، ثم اختفى في الفترة الاخيرة ، ولم تلوثه وتنهيه حرب تشرين لانه كان بعيدا عن اسرائيل ، حيث شغل منصب الملحق العسكري في السفارة الاسرائيلية لدى واشنطن طوال الفترة الخاضعة للتحقيق الذي أجرته لجنة اغرانات ، بل انه بحكم منصبه هذا كان المشرف على تحريك الجسر الجوي الذي نقلت عليه الاسلحة الامريكية لاسرائيل ابتداء من الاسبوع الاول للحرب .

وفور عودة غور الى اسرائيل تسلم منصب قائد المنطقة الشمالية ، وبدأ يبرز اكثر واكثر في حين كان يذوي غيره من الضباط الذين طالتهم عصى لجنة اغرانات ، واستفاد غور من صورته السابقة في اذهان الاسرائيليين كاحد ابرز ضباط سلاح المظلات الذي يعتبره الاسرائيليون من اهم أسلحة جيشهم، كما استفاد من صورته اثر حرب حزيران ١٩٦٧ والتي ابرزتها كتب تلك الحرب — مثل كتاب « خوذات نحو الاردن » تأليف شاؤول كوهين وغيره من الكتب والالبومات — وجاء فيها انه « فاتح » القدس ، والقائد الاول الذي دخل بسيارته نصف المجنزرة صباح يوم ٦٧/٦/٧ مدينة القدس القديمة ووصل حائط المبكى ، مبلغا قيادته عبر جهاز الاتصال اللاسلكي : « القدس في ايدينا .. القدس في ايدينا » .

ومن ميزات غور الاساسية ايضا ، كما جاء في كتاب « جنرالات اسرائيل » انه من القادة الجريئين الذين انزلوا في العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ خلف خطوط الجيش المصري وراء ممرات المتلا ونجا رغم اصابة العديد من رفاقه ورغم احتراق سيارته نصف المجنزرة التي عاد بها الى الممرات .

وغور بذلك من « مهندسي » اختراق خطوط « العدو » ونقل الحرب الى اراضي الخصم ، وقد شارك عمليا في العديد من العمليات الاجرامية داخل الحدود العربية قبل عام ١٩٦٧ .

والضابط الاخر هو رفائيل ايتان ، الذي تبرزه الكتب الدعائية الاسرائيلية على انه « اسطورة صغيرة » وانه كان شاويش السرية التي قادها العازار في معركة القطمون في القدس — كما جاء في كتاب جنرالات اسرائيل — وقاتل جميع افرادها بعنف في معركة قاسية للغاية واستمروا يقاتلون بالسرية المكونة من ١٢٠ فردا حتى عاد من هؤلاء ٢٠ فردا فقط على الاقدام ، ونقل ٦٠ منهم على حمالات وقتل الباقون ، وادت هذه المعركة الى اقتناع ايتان ، كما ادت كذلك الى اقتناع العازار ، بأن الاساس في الحرب والمعركة هو التحمل والصبر ، حيث يكون الخصم في ظروف كظروفك بل وربما اسوأ عندما تكون انت في قمة التعب ، ومن هنا فان « الشجاعة صبر ساعة » .

ومن المعروف من ايتان ، انه « بطل » حرق الطائرات المدنية في مطار بيروت في الايام الاخيرة من عام ١٩٦٨ .

ماذا يعني ذلك ؟

بعد بارليف والعازار ضابطي المدرعات عين غور ضابط المظلات رئيسا لهيئة الاركان العامة ، وهذا ما يجعل من المحتمل تخلي اسرائيل مجددا عن نظرية حرب المواقع والدبابات الى « اسلوب الاختراق » ، دون اعطاء أهمية بالغة للخسائر التي يتكبدها الجيش .

لكن ... لحظة جد في تشرين ١٩٧٣ حطمت الاسطورة الكبرى ، فهل تكون تلك — رغم « الانقلاب » العسكري في اسرائيل — مقدمة للاجهاز على ما تبقى من اساطير صغيرة متفرعة عن الكبرى ؟؟

كانت لجنة اغرانات واضحة جدا في تقريرها لدى عرض استنتاجاتها وتوصياتها بالنسبة « للاجهزة » ، كما بالنسبة للعسكريين شاغلي المناصب العليا في الجيش .

وعلى عكس ذلك تماما كانت اللجنة لدى تطرقها الى مسألة « المسؤولية الشخصية على المستوى الحكومي » . اذ بعد ان ذكرت في تقريرها « اننا نعتبر انفسنا احرارا في استخلاص الاستنتاجات بناء على نتائج التحقيق المتعلقة بمسؤوليتهم (اي الوزراء) الشخصية » اردفت تأكيدها الواضح قول اعضائها « ولم نعتبر ان من واجبنا ابداء رأينا فيما قد ينتج عن مسؤوليتهم البرلمانية » ثم انتهت لدى مناقشتها للمسؤولية البرلمانية وضرورة او عدم ضرورة تحميل الوزير في الحكومة مسؤولية الاعمال الادارية التي يقوم بها العاملون في وزارته ، واستقالته بالتالي ، الى القول ، « والسبب الاساسي لذلك هو أن مسألة

الاستقالة المحتملة لعضو في الحكومة في مثل هذه الحالات هي مسألة سياسية محضة ، ولا نعتقد ان من واجبنا معالجتها » .

من الذي يعالج هذه « المسألة السياسية » اذن ؟ والجواب : العاملون في هذا الحقل طبعا ، وهم الوزراء طبعا واعضاء الكنيست من الائتلاف الحاكم والمعارضة ، اضافة الى المعلقين وذوي الاهتمامات .

وقبل الوصول الى عرض التطورات على هذا الصعيد ، لا بد من ملاحظة ان تقرير لجنة اغرانات احتوى على كمية كبيرة — وبصورة غير مبررة — من المديح الى كل من موشي دايان وغولدا مئير ، حيث تضمن التقرير دفاعا عن دايان ، الى درجة التذكير بأنه نبه العسكريين يوم ٧٣/٥/٢١ الى احتمال وقوع الحرب في «النصف الثاني من الصيف المقبل » ، وتجاهلت اللجنة كل ما صرح به دايان من اقوال مناقضة لتنبيهه هذا ، ومنها على سبيل المثال ما قاله المعلق الاسرائيلي حانوخ بارطوف في مقال بعنوان « الوزير غير المسؤول » (معاريف ١٩٧٤/٤/٤) ، من أن دايان قال في مجلة « تايم » الاميركية يوم ١٩٧٣/٧/٣٠ « ان السنوات العشر المقبلة ستشهد جمود الحدود عند الخطوط الحالية، ولن تنشب عندها حرب كبيرة » .

وكالت اللجنة في تقريرها مديحا شبيها الى غولدا مئير ، التي وصفت تصرفاتها بأنها سليمة، ورأت اللجنة ان اعمال مئير خلال الايام الحاسمة التي سبقت الحرب « تشهد على موقف يتلاءم وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقها » . وانتهت الى القول انه « يعود الى رئيسة الحكومة الفضل الاكبر في انها استخدمت بصورة سليمة صلاحيتها في البت بحكم الظروف في وقت الطوارىء صباح يوم السبت (٦ تشرين) ، فقد قررت بحكمة ورجاحة عقل وبسرعة تعبئة قوات الاحتياط بأسرها، على رغم اعتبارات سياسية مهمة جدا . وهكذا قامت بعمل مهم جدا للدفاع عن الدولة » ، اي ان اللجنة التي شكلت للتحقيق في التقصير، «اكتشفت» ان مئير ليس فقط انها لم تقصر ، بل انها قامت بعمل مهم جدا في الساعات الحرجة .

لكن ما لم تتطرق اليه اللجنة صراحة ، كانت المعارضة اول المتطرقين اليه ، حيث قال مناحيم بيغن زعيم « ليكود » اليمينية المتطرفة صباح يوم ٧٤/٤/٣ : « بعد أن قرأت بدقة التقرير الذي تقدمت به لجنة اغرانات استطيع القول انه وبموجب هذا التقرير ، فان المسؤولية العليا تقع على عاتق الحكومة » . (ر.١٠١٠٠ ٧٤/٤/٣) .

واستمرت حملة المعارضة على الحكومة ، حيث كانت قد طلبت فور نشر تقرير لجنة اغرانات عقد جلسة خاصة للكنيست خلال ايام عطلة عيد الفصح اليهودي وذلك ، كما قال بيغن « لنطرح نحن مبدأ المسؤولية البرلمانية والعامة والادبية للحكومة امام الكنيست والجمهور باجمعه » . (المصدر السابق) .

وبعد بيغن جاء دور عضو الكنيست شموئيل تمير رئيس حزب « المركز الحر » العضو في تكتل « ليكود » ، والذي قال بعد استعراض تحميل العسكريين مسؤولية التقصير : « .. ومن يجب ان يكون مسؤولا امام الكنيست والجمهور والشعب ؟ هناك جواب واحد فقط : المستوى الوزاري ، أي الحكومة كلها ، وهذا يشمل وزير الدفاع ، المسؤول المباشر عن جيش الدفاع الاسرائيلي امام الحكومة وامام الكنيست .. » (المصدر السابق) .

ولقد كشف تصريحا بيغن وتمير عن توجه عام داخل كتلة « ليكود » الى تحميل الحكومة كلها مسؤولية التقصير في الحرب ، وذلك — على ما يبدو — استمرار وان كان بوضوح اقل ، لعدم التركيز على دايان وحده في محاولة لاستمرار « الغزل » واستمرار محاولات استمالة كتلة « رافي » التي يتزعمها دايان نحو « الليكود » ونحو الابتعاد عن بقية الكتل التي تشكل حزب العمل والتجمع العمالي والائتلاف الحكومي على الاقل .

ولقد كان موقف العديد من رجال السياسة في اسرائيل ، من غير الاعضاء في تكتل « ليكود » شبيها بالموقف الذي عبر عنه بيغن وتمير . بل ان بعض رجال السياسة هؤلاء هم الذين يشكلون النقيض لزعماء ليكود ، مثل ارييه الياف الذي عبر عن رأيه في أن الحكومة قد فقدت الثقة الجماهيرية بها ، « وبناء عليه فان على هذا الطاقم الذي فشل في السابق ، والذي لا يزال للاسف الشديد يقود البلاد حاليا ايضا ان يستخلص العبر ، اي ان يستقيل » . (المصدر السابق) . ولا بد هنا من ملاحظة ان هدف اسقاط الحكومة

الذي يلتقي عنده الياف وبيغن ، انما يلتقيا عنده وفي ذهن كل واحد منهما الوصول الى نتيجة مناقضة لما يأمله الاخر ، ففي حين يدعو بيغن الى اسقاط حكومة مئير على أمل تشكيل حكومة اكثر يمينية واكثر تطرفا وتشددا ، يدعو الياف الى اسقاط حكومة مئير والطاقم المسيطر فيها لفسح المجال امام سيطرة اتجاه واشخاص اكثر اعتدالا. ويتفق مع الياف في هذا الخط والتوجه العديد من اعضاء حزب العمل من كتلة « احدوت همفودا »، وابرزهم اسحق بن اهرون سكرتير عام الهستدروت سابقا ، الذي قال بأن مئير ودايان يتحملان المسؤولية ، ولا بد من استقالة الحكومة بأسرها (ر.١٠١٠. ٧٤/٤/٥) .

أما اقرب الاحزاب الاسرائيلية الى حزب العمل، وهو المبام فقد كان لزعمائه واعضائه موقفا واضحا في المطالبة بتحميل دايان كامل المسؤولية وضرورة استقالته او على اقل تقدير ابعاده عن حقيبة الدفاع ، كما عبر عن ذلك في العديد من المقابلات مع زعمائه ، وفي العديد من افتتاحيات صحيفة « عل همشمار » الناطقة بلسان الحزب (افتتاحيات ٣ و٨ و٧٤/٤/٩ وغيرهما كما وردت فيما اقتبسته اذاعة العدو ونشرته نشرة رصد اذاعة اسرائيل).

وازداد التوتر داخل حكومة العدو في الايام التي تلت نشر تقرير لجنة اغرانات ، وسبقت عقد جلسة الكنيست الاستثنائية في عطلة العيد ، الى درجة ان عددا من الوزراء ومن ابرزهم سابير طالب باستقالة دايان ، بل وهدد يغال الون بأنه اذا لم يستقل دايان فانه هو سيستقيل من الحكومة احتجاجا .

وازاء هذه التوترات التي سبقت ايضا عقد جلسة الحكومة التي حددت يوم الاربعاء ٧٤/٤/١٠، أعلنت مئير ان لا حكومة بدايان ، ولا حكومة بدونه (ر.١٠١٠. ٧٤/٤/٦) ، وكان في ذلك اعترافا من مئير الى ان الازمة الوزارية اصبحت مأزقا ، وان حكومة اسرائيل وصلت فعلا الى وضع حرج للغاية وانها لا تجد مخرجا من هذا المأزق .

ولعل الحقائق الموضوعية التي اوصلت مئير الى « النتيجة » المذكورة ، هي حقائق حسابية محضة. فأن حكومتها تستند الى أغلبية ٦٨ نائبا من ١٢٠ نائبا في الكنيست . ومن هؤلاء الـ ٦٨ ثمانية اعضاء مضمون ولاؤهم لدايان وعشرة اخرون ، هم اعضاء الحزب الوطني — الديني — مفدال — ، يميلون الى دايان والى خط « التشدد » اكثر من ميلهم نحو الاعتدال ، ولهم مطالب عديدة اهمها تشكيل حكومة « تكتل وطني » يشارك فيها « الليكود » وذلك ما تعارضه مئير بشكل قاطع، ومن هنا فان ازدياد التوتر اثر نشر تقرير لجنة اغرانات ، واصرار وزراء في حكومة مئير على اقالة دايان او استقالتهم كانت تعني بالنسبة لمئير استناد حكومتها في احسن الاحوال الى ٥٠ ٪ بالضبط من أعضاء الكنيست ، أي احتمال اسقاطها نتيجة أي أزمة ولو مفتعلة .

اضافة الى ذلك فان مئير تعرف ان ابعاد ديان عن وزارة الدفاع — او من الحكومة — يعني تعريض نفسها لنقمة الرأي العام الاسرائيلي الذي لم يكتف بالضباط كبش محرقة على مذبح التقصير في حرب تشرين . اذ بادانة ضباط الاستخبارات والتوصية بابعادهم عن مناصبهم اصبح زاعيرا رئيس فرع الاستخبارات مكشوفا فأدين واستقال وبادانته واستقالته أصبح العازار مكشوفا فأدين واستقال هو الاخر ، وبقي دايان وحده فاصلا — وان يكن شفافا — بين مئير ونقمة الرأي العام ، واستقالته او اقالته تؤدي بالطبع الى كشف مئير الى حد التعرية تماما .

ومن هنا يمكن فهم وتفسير تمسك مئير بدايان، ورفضها المطلق في التخلي عنه ، ودفاعها المستمر عنه بحماس المدافع عن ذاته ، وعندما وصلت الى نتيجة تقول بعدم قدرتها على الدفاع عن دايان ، استقالت هي ، فاستقالت الحكومة بأسرها كما يقضي القانون الاسرائيلي ، وابلغت قرار الاستقالة الى اعضاء الحكومة مساء يوم ٧٤/٤/١٠ .

وكان أول ما لاحظه مراسل اذاعة العدو ، اثر استقالة مئير ، ان احدا من الوزراء — باستثناء الون — لم يذهب الى بيتها كما كان يفعل هؤلاء في السابق لدفعها الى التراجع عن قرارها .

ويقضي القانون في اسرائيل ان الحكومة تعتبر مستقيلة رسميا بتسليم رئيس الدولة رسالة خطية من رئيس الحكومة تتضمن ابلاغا بالاستقالة، وابلاغ الكنيست بذلك ، وتتحول الحكومة المستقيلة الى حكومة انتقالية تسير الامور بصلاحيات كاملة الى حين تشكيل حكومة جديدة تنال ثقة الكنيست .

وفي الساعات الحاسمة بين اعلان مئير قرار استقالتها وتحويلها الى استقالة رسمية ، جاءت عملية « كريات شمونة » الفدائية ، التي اقتحم فيها ثلاثة فدائيون مبنى سكنيا ومدرسة في البلدة، وقـاتلوا وقتـلوا ١٨ اسـرائيليا وجـرحوا ١٦ اخرين واستشهدوا ، وحولت هذه العملية جزءا كبيرا من الاهتمام الاسرائيلي والعالمي بما يحدث في القدس المحتلة من انهيار وسقوط وتهلهل في رأس السلطة ، الى كريات شمونة التي انتقل اليها كبار ضباط الجيش ، ثم دايان وبعده شلومو هيليل (وزير الشرطة ممثلا للحكومة) وسابير ، ومكنت العملية مئير من ان تفتح « جلسة الوداع » فـي الكنيست بخطاب « عنتري » اشادت فيه بالجيش وقوته واصراره مع الحكومة على الدفاع عـن مواطني اسرائيل .

يبقى السؤال الاهم الان : من الذي سيخلف مئير ؟

بداية كان من أبرز المرشحين لمنصب رئاسة الحكومة في اسرائيل ثلاثة من أعضاء كتلة ماباي في حزب العمل ، ومناحيم بيغن زعيم « ليكود » .

وكان المرشحون من ماباي هم سابـير وزير مالية العدو ، وحاييم تسادوك وزير العـدل في حكومة مئير ، واسحق رابين وزير العمل فيها .

ولقد اعلن سابير حتى الان اكثر من مرة اصراره على رفض ترشيح نفسه لرئاسة الحكومة ، رغم انه الاوفر حظا في النجاح بتشكيلها ، ذلك انه ابرز رجال « جهاز » كتلة مباي وحزب العمل ، وانه هو « مهندس » حكومة مئير المستقيلة وسابقتها .

ومن الملاحظ في اسرائيل ان جميع الذين شكلوا حكوماتها حتى الان هم من « رجال جهاز المباي »، بل ان هذه الصفة هي الوحيدة التي مكنت مئير من وراثة اشكول ، رئيس حكومـة اسرائيـل السابق .

ويأتي بعد سابير حاييم تسادوك من حيث القوة في داخل مؤسسات حزب العمل وكتلة مابـاي سابقا ، ولعل في ذلك ما يجعله الاول بعد سابير لدى بحث امكانية تشكيل ائتلاف حكومي جديد على غرار الائتلاف القائم .

اما اسحق رابين ، وان يكن من اعضاء كتلـة مباي وحزب العمل ، فان قوته الاساسية هي في « علاقاته » الخاصة مع صانعي السياسة في الولايات المتحدة الاميركية ، التي كان سفيـرا لاسرائيل فيها منذ انتهاء فترة رئاسـته لاركان الجيش الاسرائيلي اثر حرب حزيران ١٩٦٧ .

وفي سني خدمته في واشنطن ، كان العديد من الاسرائيليين يتساءلون عما اذا كان رابين سفيـر تل ابيب لدى واشنطن ، ام انه سفير واشنطن لـدى تل ابيب ، وذلـك تعريضـا بمواقـف رابين الاميركية واطرائه الدائم لسياسة واشنطن وانتقاداته شبه الدائمة لسياسة اسرائيل التـي كان يعبر عنها باستمرار تجاهله وتعريضه بوزير خارجيتها ابا ايبان وأسـلوبه الى درجة انه لم يكتب خلال فترة توليه لمنصب سفير اسرائيل فـي واشنطن ولو تقريرا واحدا الى وزارة الخارجية او الى ابا ايبان .

وكانت اولى نتائج اصرار سابير على موقفه ، ان كان شمعون بيرس ، رجل رافي ، والثاني فيها بعد دايان ، اول مرشح عرض على اللجنة المركزية لحزب العمل اختياره لتشكيل الحكومة الجديدة .

واثر بيرس رشح رابين نفسه في انتخابات اللجنة المركزية ، واكد سابير عدم ترشيح نفسه نهائيا باعلان دعمه وتأييده لرابين . وجرت الانتخابات التي نجح رابين فيها باحرازه ٢٩٨ صوتا (٥٤٪) مقابل ٢٥٤ صوتا (٤٦٪) لبيرس ، وبدأ رابين مشاوراته لتشكيل حكومة ، كأول مرشح مـن « جيل الابناء » الى هذا المنصب .

عماد شقور

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

عرف الوضع العسكري في النصف الاول من شهر اذار حالة تجمد واضح ، وأحس الاسرائيليون بحالة استرخاء عسكري ، وساد لديهم اعتقاد شبه مؤكد بأن الامور تسير لصالحهم ، وان الزمن سيزيل بالتدريج كل اثار الحرب الرابعة . وكان اعتقادهم هذا نابعا من تفسيراتهم الذاتية للوضعين الدولي والمحلي . ولقد رأى ساسة تل أبيب ان انفراد الدبلوماسية الاميركية في ايجاد الحل، وجهود كيسنجر المكثفة التي تستبعد التدخل السوفياتي ، عبارة من عامل ملائم لسياسة الماطلة التي يتبعونها . كما انهم رأوا ان فصل القوات على الجبهة المصرية الذي تم في السابع من آذار (مارس) ، وخلق بين القوات البرية المصرية والقوات البرية الاسرائيلية منطقة عازلة ، يمنح الدولة الصهيونية قسطا كبيرا من الامن على جبهتها الجنوبية ، ويحميها من أية مفاجأة استراتيجية على غرار مفاجأة ٦ تشرين الاول (اكتوبر) الماضي .

وكان الاسرائيليون يعتقدون ان القوات العربية المنتشرة على الجبهة الشمالية ستحافظ على الهدوء النسبي بعد ان هدأت المدافع على جبهة القناة ، وانسحبت القوات العراقية لتجابه معضلات عسكرية جديدة على الحدود الايرانية وفي شمال البلاد ، وان الوضع الجديد على جبهات القتال سيضمن لهم هدوءا يجابهون فيه الحالة المعنوية المتدهورة ، وتصاعد عمليات الثورة الفلسطينية ومتطلبات الوضع الاقتصادي المهزوز. كما سيعطيهم القدرة على اعادة تنظيم قواتهم المسلحة ، واكتشاف أخطائها وعيوبها ونقائصها التسليحية والقيادية، بعد ان تقدم لجنة «اغرانات» تقريرها عن تقصيرات الحرب، وتوزع المسؤوليةعلى المقصرين . وما دام الامر كذلك فان بوسع اسرائيل أن تغلق الباب على نفسها ، « لترتب البيت من الداخل » شريطة ان ينساها العالم ، ويتركها لحل معضلاتها ، ما دام ليس في الامكان ابدع مما كان.

وبالرغم من تخوف الاسرائيليين من امكانية وقوع تحول في سياسة الولايات المتحدة ازاء الدولة الصهيونية التي هزمتها حرب تشرين الاول (اكتوبر).

وبالرغم من شكوكهم حول الموقف الاميركي الذي أخذ يتبدل (جزئيا) من جراء تقديم المصلحة الاميركية الوطنية على المصلحة الاسرائيلية تحت تأثير الضغوط العربية - الاوربية (البترولية أساسا) وبسبب الخوف من تزايد النفوذ السوفياتي في المنطقة بشكل يتناسب طردا مع تزايد الدعم الاميركي غير المشروط لاسرائيل . فقد كان الاسرائيليون يعتقدون ان رفع الحظر البترولي العربي ، وتفكير المصريين الجدي باستقطاب رؤوس الاموال العربية والاجنبية لاعادة بناء الاقتصاد المصري على أسس جديدة ، وفتح قناة السويس وتعمير مدن القناة ، سيخلق امامهم فرصة ثمينة للهدوء على الجبهة الجنوبية ، ويجعلهم اقدر على الالتفات كلية نحو الجبهة الشمالية . من هنا جاء موقفهم المتشدد ازاء السوريين ، وعودتهم الى التهديدات التي تبدو وكأنها مستقاة من ملفات ما قبل الحرب الرابعة . في الوقت الذي يتحدثون به عن السياسة المصرية ، والخطوات الاقتصادية المصرية بلهجة المتفهم المتعقل . ولقد بقي هذا الاعتقاد سائدا حتى يوم ١٢ اذار (مارس) عندما انفجر الوضع المتوتر على الجولان ، وبدات « حرب الاستنزاف السورية » التي لا تزال رحاها دائرة حتى اليوم .

ويبدو ان الاسرائيليين اعتقدوا في البداية ان العودة الى اطلاق النار عبارة عن حادث طارىء بلا أبعاد استراتيجية ،وان السوريين سيضطرون الى التخلي عن هذا الاسلوب بسرعة . لذا كان التفاؤل يسود احاديث كيسنجر وايبان في واشنطن خلال زيارة وزير الخارجية الاسرائيلية للعاصمة الاميركية في الاسبوع الثاني من شهر مارس (اذار) . فلقد صرح وزير الخارجية الاميركية في ٣/١٥ « انتهت مرحلة طويلة من الجمود في الشرق الاوسط » ثم أضاف « اعتقد اننا سنتقدم لا في نتائج المحادثات في الشرق الاوسط فحسب ، بل في التفاهم ايضا » وقال ابا ايبان في اليوم نفسه « ان كل شهر مر منذ حرب يوم الغفران كان يحمل تقدما » (ر.أ.ف. عدد ٤٨٦) .

بيد ان كرايسكي لم يكن يشعر بمثل هذا التفاؤل ، فلقد زار كرايسكي المنطقة على رأس

وفد الاممية الاشتراكية ، واجتمع بالسوريين والمصريين وقادة الثورة الفلسطينية ، ثم انتقل الى اسرائيل ، ونقل الى الاسرائيليين في ٣/١٥ انطباعه بأن « الظروف النفسية في مصر ، هي الان افضل ظروف مؤاتية بالنسبة للتسوية ولكن الوضع يختلف بالنسبة الى سورية » ثم قال « لدي انطباع ان سورية تعيش جو حرب ، وسيكون لكم مع سورية مشكلات صعبة في كل ما يتعلق بفك التحام القوات » (ر.١٠.١٠ ، عدد ٤٨٧) .

ومع استمرار اطلاق النار يوميا على جبهة الجولان ، بدأت ملامح المسألة وخطورتها تظهر بوضوح امام الاميركيين والاسرائيليين معا ، وبدأ الاسرائيليون يتحدثون عن « حرب استنزاف مصغرة » كانت الدولة الصهيونية تتحاشى التورط فيها . وذكرت صحيفة **يديعوت أحرونوت** (٣/١٩) في هذا الصدد « لقد صرحنا في السابق اننا لن نوافق على حرب الاستنزاف، ولكن بسبب ضعف الحكومة، نشبت مثل هذه الحرب وبشكل اكثر خطرا من حرب الاستنزاف مع مصر » ، وطالبت **معاريف** (٣/١٩) بضرورة التصلب ازاء الحوادث الخطيرة على الجبهة السورية . ولقد عبرت الولايات المتحدة عن اهتمامها بمسألة فصل القوات على جبهة الجولان الملتهبة ، وتقديمها على جميع المسائل الاخرى عندما صرح وزير الخارجية الاميركي في ٣/١٩ « بأن الولايات المتحدة واسرائيل اتفقتا على ان موضوع فك التحام القوات مع سورية يتمتع بأولوية مطلقة ، بكل ما يتعلق بقضية الشرق الاوسط في الوقت الحاضر » (ر.١٠.١٠ عدد ٤٩٠) كما عبرت عن ذلك خلال زيارة الملك حسين لواشنطن في الاسبوع الثاني من آذار (مارس) ، عندما لم تعالج بجدية قضية الضفة الغربية بل منحت الاولوية لموضوع فصل القوات على الجبهة السورية .

ويبدو ان كيسنجر وبعض المسؤولين الاسرائيليين يعتقدون ان الوصول الى اتفاق مع سورية سيسهل دراسة مسألة مصير الضفة والقطاع ، على حين يعتقد عدد من المسؤولين في اسرائيل ان العكس هو الصحيح ، وان من الافضل تليين موقف سورية عن طريق الاتفاق مع الملك حسين بحيث يصبح الموقف السوري معزولا عن موقف دولتي الطوق : مصر والاردن ، الامر الذي يجبر دمشق على التساهل . بيد ان الولايات المتحدة تابعت جهودها وفق مفهومها وجدول افضلياتها ، فبعد زيارة أبا ايبان لاميركا ، قام وزير الدفاع الاسرائيلي موشي دايان بزيارة الى واشنطن في اواخر شهر مارس (آذار) لبحث تفصيلات المشروع الاسرائيلي حول فصل القوات في الجولان . ومن المؤكد ان البحث لم يتطرق الى الموضوعات العسكرية التقنية وحدها ، بل شمل عدة موضوعات استراتيجية أهمها الدور السوفييتي في المنطقة ، واحتمالات العودة الى حظر النفط من قبل الدول العربية ، والفهم الاميركي الجديد لدور اسرائيل العسكري في المنطقة ، وما يترتب على هذا الفهم من دعم عسكري لاسرائيل ، بالاضافة الى الموضوعات التقنية كالاشتباكات المتصاعدة في الجولان وانتهاكات المصريين لاتفاق الفصل في سيناء (زيادة عدد المدافع على الضفة الشرقية للقناة) .

واذا كان كيسنجر قد ابدى تفاؤله بالنسبة لجبهة القناة ، وامله بان يصلح المصريون الخطأ ، ويسحبون المدافع الزائدة ، ولا يبقون على الضفة الشرقية سوى ٣٦ مدفعا ، فقد اشار الى ان تحقيق اتفاق الفصل مع سورية سيكون أصعب من تحقيق اتفاق فصل القوات مع مصر .

ولقد فسر المراقبون السياسيون الاميركيون هذا الامر بقولهم : **ان الوضع المتوتر في الجولان ، واستمرار اطلاق النار بشكل يومي ، ينعكس بشكل سلبي على سير المحاولات الرامية الى فصل القوات .**

وفي الاجتماعين اللذين عقدا في يومي ٢٩ و٣٠/٣ ، وحضرهما عن الجانب الاميركي الدكتور هنري كيسنجر ، ونائبه جوزيف سيسكو ، ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط السيد اثرتون ، والسفير بانكر ، وعدد من كبار موظفي وزارة الخارجية الاميركية ، وحضره عن الجانب الاسرائيلي موشي دايان ، والسفير سمحا دينيتس، والملحق مردخاي شليف ، والمستشار موشي ريبب. عرض وزير دفاع العدو المخطط المقترح لفصل القوات مع سورية . ويتضمن هذا المخطط كما تقول **الفيغارو** ٣/٢٨ : استعداد اسرائيل للانسحاب من الاراضي التي احتلتها في حرب تشرين الاول (اكتوبر) والبقاء في الجولان مع تخفيض القوات، شريطة ان يتم تبادل الاسرى قبل أي شيء آخر .

وهناك انباء اخرى تقول بأن الانسحاب لن يتم

من جميع الاراضي التي احتلها اسرائيل في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، وان المشروع يستهدف تقسيم هذه الاراضي الى ثلاثة أقسام متوازية تحتفظ سورية في قسم منها بقوات محدودة ، وتشغل قوات الطوارىء الدولية القسم الثاني ، وتبقى القوات الاسرائيلية المحدودة في القسم الثالث . مع الاحتفاظ بهضبة الجولان كلها بيد اسرائيل (هآرتس ٧٤/٣/١٨) . ولقد ذكر ماتي غولان قبل سفر دايان ان وزير دفاع العدو سيطرح مشروعا يتضمن : ١ ــ الانسحاب من جميع المناطق المحتلة في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، ٢ ــ الانسحاب من منطقة القنيطرة ، ٣ ــ تخفيض القوات بشكل يؤمن عدم قصف المستوطنات الاسرائيلية في الجولان، ٤ ــ وضع قوات الطوارىء الدولية في المناطق التي ينسحب منها الجيش الاسرائيلي مع بقاء الادارة المدنية بيد الحكومة السورية (هآرتس ٧٤/٣/٢١) . ثم عاد عشية سفر دايان ليكتب بأن خارطة الاقتراحات الاسرائيلية سترتكز الى القواعد التالية : ١ ــ تنسحب القوات الاسرائيلية مسافة ١٥ كيلومترا في الجيب الذي يبلغ عمقه ٢٠ كيلومترا ، ٢ ــ تعاد ١٠ كيلومترات الى سورية لتتمركز فيها قوات محدودة ، ٣ ــ تبقى ٥ كيلومترات بيد قوات الطوارىء الدولية ، ٤ ــ تضع اسرائيل في الكيلومترات الخمسة الباقية بيدها قوات محدودة ، ٥ ــ يجري تخفيض اضافي للقوات ضمن شريط عرضه ٢٠ كيلومترا على طرفي الخط البنفسجي (حدود ٥ تشرين الاول) ، ٦ ــ يجري تبادل الاسرى قبل تنفيذ الاتفاق . (هآرتس ١٩٧٤/٣/٢٧) .

وتشترك الانباء المترددة حول صيغ المشروع الاسرائيلي ــ والتي لم تتأكد أية صيغة منها حتى الان ــ في تمسك اسرائيل بالقسم الاكبر من الجولان بحجة ضرورتها لحماية سهل الحولة ، والرغبة في اعتبارها حزام امان لضمان الامن الاسرائيلي . ولقد أكد المسؤولون الاسرائيليون هذا الامر اكثر من مرة ، واعتبروا التخلي عن الجولان امرا غير مطروح على بساط البحث. لدرجة جعلت المتساهلين منهم ، والمستعدين للتخلي عن القنيطرة ــ نظرا لعدم أهميتها الاستراتيجية بالنسبة الى اسرائيل واهميتها المعنوية بالنسبة الى السوريين ــ يرون ضرورة الاحتفاظ بالتلال المسيطرة عليها . ويسيطر هذا الخط ايضا على الحوار الدائر داخل اسرائيل حول الخطوات التي ينبغي على الحكومة اجراؤها، والمبادىء التي لا بد من التمسك بها ، والنقاط التي يمكن التنازل عنها . فلقد حدد النائب جاد يعقوبي ، (وهو من تكتل « المعراخ » الحاكم ، وعضو في لجنة الخارجية والامن في الكنيست) تصوره حول هذا الموضوع بالمبادىء الاربعة التالية : ١ ــ المعاملة بالمثل وخاصة فيما يتعلق بتخفيض القوات على جانبي المنطقة العازلة ، ٢ ــ الامن ، أي اختيار خط طوبوغرافي لا يقلل أهمية القوات او قدرتها على القتال ، ٣ ــ تبادل الاسرى ، ٤ ــ عدم تحديد مهلة هدنة بعد اجراء الفصل بين القوات . أما النائب شموئيل تمير ، (وهو من تكتل « ليكود » المعارض وعضو في لجنة الخارجية والامن في الكنيست) فقد قدم تصوره وفق المبادىء الاربعة التالية : ١ ــ ان لا يجري التفاوض تحت أية ضغوط كحرب الاستنزاف مثلا ، ٢ ــ المعاملة بالمثل ، ٣ ــ الحفاظ على الامن لان كل انسحاب من المنطقة التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٧٣ يضعف الموقف الامني الاسرائيلي ، ٤ ــ تبادل الاسرى .

وعند الحديث عن القنيطرة ذكر يعقوبي ان المخطط الذي قدمته اسرائيل سيترك القنيطرة تحت اشراف القوات الاسرائيلية بالاضافة الى مناطق احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٧٣ شمالي القنيطرة وجنوبيها ، ولكنه يرى ان هذه المدينة لا تتمتع بقيمة استراتيجية خاصة، وان من الممكن استبدالها في الشمال او الجنوب بمواقع استراتيجية تحسن الوضع الامني الاسرائيلي « **ومقابل ذلك نسلم السوريين منطقة ليست لها قيمة استراتيجية** » (ر.١٠١٠. عدد ٧٤/٤/١). ولكن تمير عارضه مؤكدا بأن منطقة الجولان المحتلة ضيقة، ولا تضمن الامن، ولا يمكن التخلي عن القنيطرة او عن أية منطقة أخرى . وان من الممكن اعادة سكان منطقة الجيب الذين نزحوا خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) وعددهم ١٤ الف شخص ، شريطة ترحيل اليهود من سورية الى اسرائيل او الى اي مكان آخر في العالم (المرجع نفسه) .

ويبدو من دراسة الانباء الواردة في الصحافة الاسرائيلية ، ان هناك اتجاها نحو الاستمرار في التشدد ازاء سورية ، وان سياسة « ولا بوصة واحدة من الجولان » و « الرد على ضربات السوريين بضربات انتقامية » لا تزال مسيطرة على

عقول المسؤولين الاسرائيليين واجهزة الاعـــلام الصهيونية . وتتحدث الصحف الاسرائيلية بلهجة الوعيد والتحذير . فهي تذكر ان الجيش الاسرائيلي « **يقف على بعد ٤٠ كيلومترا من دمشق** » (عـلى همشمار ٣/٣١) وان بوسع هذا الجيش « **انزال ضربات قاسية بالمعتدين** » (المرجع نفسه) ، وترى **دافار** (٣/٣١) انه لا يوجد حتى الان دليل حسي يبرر التفاؤل الذي يظهره الدكتور كيسنجر ، على حين ترى صحيفة **أومر** (٣/٣١) « ان تصرفات دمشق تشير الى ان سورية لا تزال تؤمن بامكانية تدمير اسرائيل » وفي ٤/٨ طلعت **هاتسوفية** مطالبة الجيش الاسرائيلي « بالقيام بخطوة ملائمة لاسكات السوريين بعد ان اثبتت التحذيرات الاخيرة انها لم تجد نفعا » .

ووسط هذه الصيحات الحربية الهستيريـــة المتجاهلة لحقائق موازين القوى ، وتغيرات الوضع الدولي ، فان في داخل اسرائيل من يتحدث بشكل أقرب للمنطق ، وبلهجة تعي تماما حقائق ما بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، فصحيفة **معاريف** مثلا تطالب في ٤/٢ بالرد على التحديات السورية « ردا حازما ، ولكن مدروسا » ثم تقول « انا لا نرغب في استئناف الحرب بشكل واسع ، كما اننا لا نرغب في ترك زمام المبادرة برمته في ايـدي السوريين » .

ويحاول وزير العمل ، اللواء الاحتياطي ورئيس الاركان السابق اسحاق رابين (المرشح اليـوم لمنصب رئيس حكومة العدو) الظهور بمظهر المتفهم لمعطيات الوضع الجديد ، فيقول في نادي بيت بريئر في تل ابيب « ان اسرائيل مستعدة للتقدم من أجل تسوية لفصل القوات مع سورية لكنها ليست على استعداد لمكافأة السوريين على اعتداءاتهم » ... « ان علينا ان نسعى للسلام ، وان نتحمل المخاطر لتحقيقه ، ومع هذا لا يجوز ان نخطىء بالتمنيات ، والتوهم بأن العرب قد تخلوا عن الحرب كوسيلة لتحقيق أهدافهم » (ر.١٠١٠ ، عدد ٣/٣٠) .

ويحمل الموقف الاسرائيلي الرسمي والاعلامي في داخله عدة تناقضات : ويأتي **التناقض الاول** من ان اسرائيل تعرف تماما ان سورية لن تقبل أي حل لا يتضمن اعادة الجولان وحصول الشـعب الفلسطيني على حقوقه . فلقد أعلنت ذلك أكثر من مرة ، وفي ٢٨ مارس ، وعندما كان دايان متجها الى واشنطن كرر وزير الخارجية السوري عبـد الحليم خدام في مؤتمر صحفي عقده في تونس شرطي سورية المعروضين لقبول أي حل . لذا فان عدم اعادة الجولان تعني عدم قبول السوريين بالفصل ، وتعني بالتالي نسف مؤتمر جنيف الذي لا يمكن ان تحضره مصر دون السوريين والفلسطينيين . فهل تستطيع اسرائيل المغامرة بهذا الموقف وهي تعلم ان العالم كله يطالبها بالذهاب الى جنيف لاجراء المفاوضات التي طالما تحدثت عنها في اعلامها بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، كما يطالبهـــا بالانسحاب من جميع الاراضي العربية التي احتلتها في هذه الحرب ؟ واذا كان بوسع اسرائيل تجاهل العالم كله ومتابعة السير على انغام نشيد « العالم كله ضدنا » فليس بوسعها ولا شك تجاهل الولايات المتحدة « الصديق الوحيد » الذي يقدم المـــال والسلاح لدعم الوجود الاسرائيلي المصطنـــع وحمايته . خاصة وان الولايات المتحدة أفهمت اسرائيل بشكل لا لبس فيه انها تفضل حل النزاع عن طريق الانسحاب ، وضمان الامن بواسطـة الضمانات الدولية الاميركية — الروسية . او ضمانات الدول الخمس الكبرى . وان الولايات المتحدة « مصممة على حماية أمن اسرائيل لا على حماية توسعها » . وان « الصديق الوحيد » الذي عاد الى المنطقة بشكل او بآخر ، وتجاوز ازمة الطاقة ، مهدد بالطرد من المنطقة من جديـد ، وبالتعرض لتدابير الحظر النفطي اذا ما تعنتت اسرائيل في موقفها، وتابعت رفض الانسحاب ، واضطرت واشنطن لحمايتها واستفزاز الدول العربية النفطية وغير النفطية من جديد. وينبع **التناقض الثاني** من ان اسرائيل تعتمد في رفضها للانسحاب على وحدانية النشاط الاميركي ، وانعدام الثقـــل السوفييتي في الحل ، ولكن هذا الامر خاطىء من أساسه ، لان الاتحاد السوفييتي الذي وقف موقف المراقب خلال فصل القوات على جبهة القناة ، يلقي الان بوزنه لتأمين الفصل على الجولان بشروط يرضى عنها السوريون . ففي ٣/٣١ أكد دايان خلال زيارته للولايات المتحدة امام زعماء الجباية اليهودية الموحدة في الولايات المتحدة ان الاتحـاد السوفييتي « **يشكل عنصرا هامـا في المنطقـة ، وبدونه لا يمكن التوصل الى تسوية** » . ثم قـال ان العوامل التي تؤثر على التسويـــة هي : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي والـدول العربية واسرائيل . وكانت **نيويورك تايمز** قـد

ذكرت في ٣/٢٩ بعد عودة وزير الخارجية الاميركي من زيارة موسكو ، واجتماعه بالزعماء السوفييت: « اذا لم يستطع كيسنجر الحصول على الدعم السوفييتي ، او عدم معارضته على الاقل لجهود كيسنجر الرامية الى التفاهم بين سورية واسرائيل فان المبادرة الاميركية كلها للوصول الى حل سلمي، يمكن ان تصاب بنكسة مفاجئة » .

ومن الواضح انكيسنجر لم ينجح في رحلته الاخيرة الى موسكو في اقناع السوفييت بالضغط على السوريين لتليين موقفهم ، وتدل نتائج زيارة الرئيس السوري حافظ الاسد لموسكو في الاسبوع الثاني من شهر ابريل (نيسان) ، والبيان المشترك السوري — السوفييتي الذي صدر في ٤/١٦ على ان موقف الاتحاد السوفييتي لم يتأثر مطلقـــا بمحاولات كيسنجر ، ان لم يكن قد ازداد بعد هذه المحاولات صلابة . ولقد أكد البيان السوري — السوفييتي على ان الاتحاد السوفييتي سيعمل على تدعيم القدرة السورية العسكرية والاقتصادية . وتقول احدى فقراته : — « تم عرض الجهــود والنشاطات القائمة من أجل التوصل الى سلام عادل ودائم في منطقة الشرق الاوسط وركز الجانبان اهتمامهما على الوضع المتوتر القائم على الجبهة العربية السورية الناجم عن اعتداءات اسرائيل المستمرة الهادفة الى تكريس الاحتلال وضم الاراضي متحدية بذلك قرارات الامم المتحدة وارادة الرأي العام الدولي . وأكد الجانبان في حزم مرة اخرى ان اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط لا يمكن التوصل اليها الا بشرط انسحاب القــوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشــعب العــربي الفلسطيني . كما أكدا لدى البحث حول طرق حل النزاع في الشرق الاوسط ان الاجراءات الجزئية التي يتم اتخاذها في الوقت الحاضر لا تشتمل على المقومات الرئيسية الجوهرية لحل الازمة وان أي اتفاق حول فصل القوات لا بد ان يكون جزءا لا يتجزأ من الحل العام لمشكلة الشرق الاوسط وخطوة في اتجاه الحل الجذري والشامل الذي من الضروري ان يكون جوهره وأساسه انسحاب القــــوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان اعادة الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني . وأكدا من جديد على أهمية مشاركة الاتحاد السوفياتي في كل مراحل الحل وميادينه من أجل اقامة السلام العادل والدائم في الشرق الاوسط .

— « أشار الجانبان الى ان الوضع المتفجر القائم الان على الجبهة السورية يؤكد من جديد وأكثر من أي وقت مضى ان تجاهل او تجاوز المبادىء الاساسية السالفة الذكر من شأنه ان يزيد خطورة حالة التفجر القائمة في هذه المنطقة ويؤدي الى مضاعفات خطيرة . ونظرا لظــروف العدوان الاسرائيلي المستمر يؤكد الجانبان مــن جديد على أهمية تدعيم القدرة الدفاعية للجمهورية العربية السورية وحقها الثابت والمشروع باستخدام كل الوسائل الفعالة الرامية الى تحرير اراضيها المحتلة ». (النهار ٤/١٧) .

فاذا حللنا هذه الفترة عسكريا وجدنا انها تعني الامور التالية : ١ — ضرورة الانسحاب من جميع الاراضي المحتلة ، ٢ — رفض الاجراءات الجزئية والحلول التخديرية ، ٣ — اعتبار فصل القوات جزءا من خطة شاملة لحل النزاع الذي يضمن الانسحاب الكامل وحقوق الفلسطينيين ، ٤ — تزويد سورية بالاسلحة اللازمة لمجابهة أي عدوان اسرائيلي ، ٥ — تزويد سورية بالاسلحة التي تمكنها من تحرير ارضها بقوة السلاح اذا ما تطلب الوضع ذلك . ولا شك ان مثل هذا التحليل يعني في النهاية ، ان الاتحاد السوفييتي لا يقف هذه المرة موقف المتفرج ، وان تصرف الاسرائيليين وكأن واشنطن هي القوة الخارجية الوحيدة الفعالة في المنطقة تصرف مبني على اساس خاطىء. **والتناقض الثالث** هو ان وضع اسرائيل الاقتصادي لا يسمح لها في أي حال من الاحوال بمتابعة حرب الاستنزاف فترة طويلة ، فلقد أنهكتها حرب تشرين الاول (اكتوبر) والعمليات التي تلتها ، وصار عليها ان تقف وقفة جادة امام التضخم النقدي ، وارتفاع الاسعار بنسبة ٢٠ ٪ ، واحتمالات ارتفاعها في المستقبل بنسبة ٣٠ ٪ ، وتناقص الانتاج ، وتدهور السياحة ، ونقص احتياطي العملات الاجنبيـــة بمقدار ٨٥٠ مليون دولار ، وتزايد الضرائب ، وعجز ميزان المدفوعات بمقدار ٣ مليارات و٣٠٠ مليون دولار . **والتناقض الرابع** هو ان قيـــام الاسرائيليين بعرقلة الاتفاق مع سورية سيعرقل بالتالي الاتفاق مع الفلسطينيين ، وسواء اراد الزعماء الاسرائيليون ام لم يريدوا ، فان دخول

الفلسطينيين في أي حل امر لا غنى عنه لحل النزاع — ولو مؤقتا — ولقد دلت اغارة فدائيي الجبهة الشعبية (القيادة العامة) على كريات شمونة ، الى أي حد يستطيع الفلسطينيون تخريب أي حل لا يرضون به ، والى أية درجة يستطيع هــذا الشعب ان يرتفع بمستوى تضحياته عندما يكون الحوار دائرا حول مصير وطنه . وما هو الضرر المادي والنفسي الذي يمكن ان تلحقه بالعدو طلائع هذا الشعب المسلحة والمنظمة والمعبأة سياسيا ، وخاصة اذا كانت تستند الى قواعد داخلية سرية، وقواعد خارجية محمية تعتبر من « المحرمات » لانها تستطيع الصد والرد ، ولا تتأثر بالردع ، ولا يمكن التعرض اليها دون المجازفة بتصعيد المعركة الى حد خطير . ومن المؤكد ان بحث الاسرائيليين عن حل ، مع تجاهل وجود الشعب الفلسطيني ، يعني الوقوع فيخطأ تجاهل قوى الثورة الفلسطينية، في الوقت الذي تبدلت به ظروف المنطقة بشكل جعل هذه الثورة قادرة على الاستناد الى «هانوي عربية » ترتسم صورتها في دمشق يوما بعد يوم . **والتناقض الخامس** هو ان اسرائيل التي ترفض الانسحاب من الجولان ، تعرف ان المعركة المحدودة مع السوريين ستستنزفها ماديا ومعنويا دون ان تستطيع استنزاف السوريين، لان قوانين الاستنزاف المتبادل تؤكد انالطرف الذي يشن حربا غير عادلة، ويطرح فكرة سياسية غير مقبولة من خصمه ، وغير مقبولة من قبل قطاع لا بأس به داخل معسكره نفسه ، يصاب بالاستنزاف المعنوي قبل الطرف الاخر الذي يشن حربا عادلة مبنية على فكـرة سياسية تلاقي قبولا كاملا داخل معسكره ، وتلاقي شيئا من الصدى داخل معسكر خصمه. **والتناقض السادس** هو ان اسرائيل التي لا تلائمهــا حــرب الاستنزاف عاجزة في الوضع الدولي والعــربي الحالي عن تصعيد الحرب الى مستوى المجابهة الشاملة مع سورية ، لان سورية لن تبقى في هذه الحالة لوحدها ، بل ستنضم اليها مصــر والعراق وعدد من القوى العربية الاخرى . ولقد كانت مصر واضحة في تهديدها الذي أطلقه وزير الخارجية المصري اسماعيل فهمي في نيويورك خلال مقابلة صحفية اجراها في ٤/١٥ وأكد فيها ان بلاده سترد على اسرائيل اذا واصلت القوات الاسرائيلية تصعيد عملياتها الانتقامية ضد سورية ولبنان . ثم أضاف « أن الاسرائيليين يجازفون باعاقة اتفاق السلام بأكمله ، ولن نقف مكتوفي الايدي ونتركهم يوجهون الضربات ضد لبنان وسورية » (**النهار** ٤/١٦) . **والتناقض السابع** هو ان اسرائيل تكرر عند رفض الانسحاب ما طرحته قبل الحــرب الرابعة ، ولكن الاوضاع الحالية لا تدل أبدا على ان الاوضاع الداخلية في البلدان العربية واسرائيل مماثلة لاوضاع ما قبل الحرب . وتذكر صحيفة **الفيغارو** (٣/٢٨) « لا نعلم جيدا ماذا يجري داخل البلدان العربية ، سوى ان حرب الغفران قد دعمت هيبة جميع الحكومات الموجودة في السلطة، أما في اسرائيل فان الامر معاكس لذلك ». والحقيقة ان الوضع الداخلي الاسرائيلي مهزوز من أعماقه، فحركات الاحتجاج تتصاعد ، والجماهير ناقمة على القيادة المتكلسة الهرمة التي تحدثت طويلا عن الامن ثم قادت البلاد الى الهزيمة ، والقيــادة السياسية المدانة مختلفة متصارعة ، والدولة بلا حكومة ، والجيش بلا قيادة موثوقة ، ونظرية الامن مصابة بشرخ عميق . ولقد عبر دايان عن الوضع في اسرائيل خلال اجتماع عقده اعضاء كتلة رافي في حزب العمل بتاريخ ٤/٩ عندما قال « ان ثمة هزة أرضية سياسية في الدولة » (ر.١٠١٠. عدد ٥٠٧). وليس من المنطق في شيء ان تطرح الدولةالصهيونية مطالبها والارض ثابتة تحت اقدامها ، ثم تعود الى طرح المطالب نفسها والارض تميد من تحتها .

وتعرف القيادة السورية هذه التناقضات السبعة في الموقف الاسرائيلي ، لذا فهي تتجاهله ، وتتابع سيرها وفق خطها المتشدد السابق « كل شيء او لا شيء » متجاهلة الدعوات المطالبة بالتساهل واللين في مسألة فصل القوات . ولقد رد الرئيس السوري الفريق حافظ الاسد على اتهامات البعض بالتصلب عندما خطب في السابع من شهر نيســان (ابريل) قائلا : « اذا كان التمسك بكرامة الامة يعني تصلبا ، اذا كان النضال من أجل تحرير الارض ورفض الاحتلال يعني تصلبا ، اذا كان الموقف الكريم في الدفاع عن الوطن يعني تصلبا ، اذا كان العمل لرفض الهزيمة يعني تصلبا ، اذا كان كل ذلك يعني التصلب ، فنحن مع هـــذا التصلب » (**الثورة** السورية ٤/٨) .

ويستند التصلب السوري الى ارضية ايديولوجية راسخة ودعم جماهيري قوي ، ومجموعة مــن العوامل العالمية والعربية . ولكن له بالاضافــة الى ذلك مرتكزات عسكرية هي : ١ — حساسية

الجيب الاسرائيلي وقدرة السوريين على تسديد الضربات الى مجنباته ومؤخراته ، وتهديد طرق مواصلاته ، او قطعه عن قاعدته بهجوم مزدوج من الشمال والجنوب (كماشة) وأسر القوات الاسرائيلية المحشورة فيه ، ٢ — وجود القوات السورية على خط دفاعي لا يمكن اختراقه الا جبهيا (وهذا أصعب أنواع الخرق وأكثرها كلفة) واستناد هذا الخط المحصن على ارض وعـرة صالحة للدفاع ، ولا تقدم أي مجال للمناورة ، وتحرم الاسرائيليين من استخدام أساليبهم في حرب الحركة ، ٣ — قدرة السوريين على التصعيد باستمرار ، لان التصعيد ونقل الحرب من مستوى الاشتباكات الى مستوى الحرب الشاملة سيدفع مصر والعراق الى دخول المعركة المصريـة ، وسيجعل الجماهير العربية في الدول النفطية تدفع حكومات هذه الدول نحو العودة الى سياسة حظر النفط او اللجوء الى سياسة أكثر راديكالية ، ٤ — عدم رغبة اسرائيل في التصعيد الى مستوى الحرب الشاملة حتى لا تستنفر القوى العربية البعيدة الان عن بؤرة الصدام ، ٥ — ضعف قدرة اسرائيل على الرد بواسطة السلاح الجوي بعد ان تضاءلت قدرة هذا السلاح على العمل بفضل شبكة الصواريخ ارض — جو . وتدني قدرته على الردع بفضل امتلاك الدول العربية لصواريخ تكتيكية متوسطة المدى ، وصواريخ استراتيجية بعيدة المدى .

لهذا كله تصلب الموقف السوري ، وصعـد السوريون العمليات عدة مرات كان اولها في يوم ٣/٢١ عندما نقلوا ضرباتهم النارية من مواقع العدو في جيب ١٩٧٣ الى مواقـع معادية في اراضي الجولان المحتلة خلال حرب ١٩٦٧ ، ثم عادوا الى التصعيد نحو « عتبة » جديدة في ٤/٦ عندما لم يكتفوا بالمبارزة بنيران المدافع والدبابات والصواريخ المضادة للدبابات ، بل دفعوا دورية نحو قمة جبل الشيخ واحتلوها وهددوا مجنبة الوضع الاسرائيلي اليسرى ، ولقد رد العدو على هذا التصعيـد بتصعيد ناري عن طريق استخدام الطيران لقصف المواقع السورية الجديدة ، وكان الطيران يأتي على ارتفاع منخفض فوق الاراضي اللبنانية مختفيا وراء جبل الشيخ ومحميا من رصد الرادارات وضربات الصواريخ ، ثم يظهر فجأة فوق مسرح المعركة ، ويقصف المواقع ، وينسحب وراء الجبل من الطريق الآمن نفسه ، دون ان تتمكن الرادارات من كشفه والانذار عن وجوده بشكل يسـمح للمطاردات بالتصدي له . ولقد استمر استخدام الطيران على هذا النحو في ايام ٦ و٧ و٨ نيسان (ابريل) وفي اليوم الثالث أصابت وسائط الدفاع السورية طائرة فانتوم سقطت في جنوب لبنان وأسرت السلطات اللبنانية طياريها. وتوقف القصف الجوي بعد ذلك عدة ايام . وفي يوم ١٢ دفـع السوريون قوات جديدة لاحتلال مواقع مشرفـة وحاكمة في جبل الشيخ ، ودارت معارك عنيفة بين القوات البرية السـورية المدعومـة بالمدفعية ، والقوات الاسرائيلية التي تدخل الطيران لدعمها . وفي يوم ١٣ أسقطت وسائط الدفاع السورية ثلاثا من طائراته هوت داخل الارض المحتلة . ولا تزال معارك جبل الشيخ (٢٨١٤ مترا) دائرة حتى اليوم، وهي عبارة عن معارك وحدات صغرى للسيطرة على مواقع وقمم وسط جو قاس . ولقد حقق السوريون في هذه المعارك عددا من النجاحات ، وحرروا بعض المواقع ، ويتمتع هذا الموقع بأهمية بالغة لان سيطرة السوريين عليه ستجعلهم قادرين على تهديد جناح القوات الاسرائيلية الايسر ، وستعطيهم ميزات كبيرة في الرصـد الارضي ، وستسمح لهم بوضع أجهزة الرصد والانذار الكفيلة بحرمان الطيران الاسرائيلي من امكانية التسلل وراء جبل الشيخ ، والظهور فوق ساحة المعركة بشكل مفاجىء .

ان معارك الجولان مستمرة حتى اليوم ، ومعارك جبل الشيخ تزداد حدة ، ويتدخل الطيرانان السوري والاسرائيلي في القتال . ويحاول الطيران المعادي اسـتخدام البالونات الحـرارية كوسـيلة لتحييد الصواريخ المضادة بدلا من حزم الشعرات الزجاجية التي كانت تستخدمها من قبل لهذا الغرض . بيد ان تساقط الطائرات الاسرائيلية يدل على ان هذه الوسيلة لم تجد الحل الكامل لتحييد صاروخ سام — ٦ (أحد أبطال حرب تشرين الاول) .

وبالرغم من تصاعد العمليات في الجولان ، ولجوء سورية الى العمل العسكري كعامل ضاغط على حكومة العدو المترنحة بعد ظهور تقريـر « اغرانات » وكشف التقصير وتوزيع المسؤوليات وتبادل الاتهامات ، فقد عمدت دمشق الى ارسال وفد عسكري برئاسة العميد حكمت الشهابي رئيس الاستخبارات العسكرية الى واشنطن ، للاطلاع

على مشروع دايان ، وتقديم المقترحات السورية الى وزير الخارجية الاميركي . ولقد وصل الوفد السوري الى الولايات المتحدة في ٤/١١ في الوقت الذي وصلت به انبــاء استقالة وزارة مائير . واجتمع الوفد مع وزير الخارجية الاميركية عــدة اجتماعات ، اطلع فيها على المشروع الاسرائيلي ، وقدم مشروعا سوريا لم تعلن تفاصيله بعد ، ولكن صحيفة **النهار** (٤/١٧) ذكرت نقــلا عن **النيويورك تايمس** ان الحكومة السورية تصر « على انسحاب اسرائيل ليس من كل الاراضي المحتلة في الحرب الاخيرة فحسب ، بل ايضا من نصــف الاراضي السورية التي سبق ان احتلتها القوات الاسرائيلية خلال حرب حزيران ١٩٦٧ . وترفض سورية كذلك وجود قوات طوارىء دولية في المنطقة وتأمل في انشاء « منطقة محرمة » يرابط فيها مراقبــون دوليون » .

ان كيســنجر الذي قرر القدوم الى الشرق الاوسط في اواخر نيسان (ابريل) بدا متفائلا من امكانية التوصل الى تضييق الهوة بين الموقفين السوري والاسرائيلي ، ولكنه لم يستطع نقل تفاؤله الى الاسرائيليين الذين يعتبرون ان الموقف السوري لا يقبل التزحزح ، وان التوصل الى اتفاق مع سورية لن يتم بسهولة ابدا . ففي ٤/١٢ صرح مردخاي‌غور قائد المنطقة الشمالية (الذي غدا رئيسا لاركان الجيش الاسرائيلي في ٤/١٥) « ان تقديرات اسرائيل الاساسية هي ان سورية تعتقد انه دون حرب واسعة لا مجال لتحقيق رغباتها ، وان هذا التقدير يعتمد على معطيات مختلفة . فان اطــلاق النار والاشتباكات في الجبهة الشمالية ، نتيــجة لسياسة سورية ، للتفاوض في موسكو وواشنطن، بينما النار مشتعلة في الجبهة ، ولا نعلم اذا كانت سورية ستشن الحرب قبل بدء المفاوضات او بعد ان تصل المفاوضات الى مرحلة معينة » (ر.٥٠١. عدد ٥٠٩) . وسورية نفسها لا تخفي ذلك ، فلقد حددت لنفسها هدفا سياسيا لا بد من بلوغــــه (تحرير الارض ، وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه) ، وهي لا تمانع في استخدام الاساليب السياسية للحصول على هذا الهدف ، ولكــن استخدامها الاساليب السياسية لا يعني تخليها عن السلاح ، بل يعني امكانية استخدام الســياسة والقتال بتناوب مدروس حتى يتحقق الهدف الذي حدده الرئيس حافظ الاسد في خطاب ٤/٧ بقوله « انه الحل المشرف الكريم ، الحــل الذي يضع الامور في نصابها ، الذي يحقق العدل ، ولا شيء غير العدل » (**الثورة** السورية ، ٤/٨) . وقد يتحقق هذا الحل بفضل المساعي السياسيـــة المصحوبة بالضغط العسكري ، وقد يتطلب بلوغه تصعيد القتال نحو « عتبات » جديدة في حرب الاستنزاف ، او العودة الى حرب شاملة تجمع العرب من جديد تحت لواء المعركة ، ولكن من المؤكد ان الوصول اليه بالعمل السياسي وحده أمر مستحيل ، لانه يتناقض مع الفهم العلــمي لحقيقة الدولة الصهيونية كما عرفناها طوال ٢٥ عاما .

المقدم الهيثم الايوبي

ملحق القضية الفلسطينية عسكريا

أبعاد استقالة يسرائيل تال

اثارت قضية استقالة الجنرال يسرائيل تال ، نائب رئيس الاركان في الجيش الاسرائيلي يوم ١٩٧٤/٣/٢٠ ردود فعل مختلفة لدى معظم الاوساط ، فقد عبرت جريدة هآرتس (١٩٧٤/٣/٢١) عن أسفها « لان وزير الدفاع لم يجد وسيلة لمنع الاستقالة » واعتبرت استقالته تطورا « لن يقضي على الغليان القائم داخل الجيش الاسرائيلي ، ولن يزيد الثقة في قيادة أجهزة الامن » . وطالبت كتلة ليكود والجبهة الدينية التوراتية طرح موضوع استقالة تال للمناقشة العاجلة في الكنيست . وقال عضو الكنيست الحالي ، والعميد الاحتياطي اريئيل شارون ردا على سؤال عن رأيه في استقالة العميد تال ، « انني انظر الى استقالة تال بخطورة بالغة » (ر.ا.١٠. العدد ٤٩٥) فمن هو يسرائيل تال ، وما هي المعاني الخفية لاستقالته التي أحدثت كل ردود الفعل هذه .

ولد يسرائيل تال في كيبوتز محنايم عام ١٩٢٤ في فلسطين المحتلة ، والتحق في السادسة عشرة من عمره بالهاغاناه ، وتطوع بعد سنة من ذلك في الكتيبة الثانية من الفيلق اليهودي التابع للجيش البريطاني . ورقي اثناء عمله مع الجيش البريطاني الى رتبة رقيب في سرية الرشاشات . وخدم مع البريطانيين طيلة خمس سنوات ، أثرت الى حد بعيد على سلوكه وتفكيره اثناء خدمته في الجيش الاسرائيلي ، وبعد تسريحه من الجيش البريطاني التحق مجددا بالهاغاناه وتدرج في المناصب العسكرية حتى أصبح نائبا لقائد سلاح المدرعات ، ثم رقي الى رتبة قائد لواء مدرع . وفي عام ١٩٦٤ عين قائدا لسلاح المدرعات .

أطلق على تال في السنوات التي تلت توليه المنصب الاخير اسم « ابو المدرعات » او « مستر ارمور » حسب التعبير الاسرائيلي . وكان اول من استخدم الدبابات في الاشتباكات مع القوات السورية . وكانت له اليد الطولى في بناء هذا السلاح وتطويره وادخال النظام البريطاني اليه . وقد وصفه شارون بأنه « يعتبر خبيرا من الدرجة الاولى في مجال المدرعات في العالم الغربي ، سواء في المانيا ، او في الولايات المتحدة » (ر.ا.١٠. العدد ٤٩٥). وقد حاز على «جائزة أمن اسرائيل» مرتين لخدماته في تحسين التسليح الاسرائيلي وتطويره .

ولم تعلن اسباب استقالة تال الاخيرة ، الا ان الاحاديث والتعليقات التي قدمها المعلقون الاسرائيليون تلقي بعض الضوء على دوافع هذه الاستقالة ، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بحرب تشرين الاول (اكتوبر) ، وبما كشفته هذه الحرب من حقائق . ولكن هناك بالاضافة الى ذلك خلفيات اخرى قبل اندلاع حرب تشرين ، فلقد حاول تال الاستقالة عام ١٩٦٩ ، على اثر خلاف حاد بين ديان وبارليف من جهة ، وتال من جهة اخرى . وذلك حين قررت القيادة الاسرائيلية بناء خط بارليف على قناة السويس ، الامر الذي عارضه تال بشدة على اساس ان افضل دفاع هو الدفاع المبني على قوات مدرعة ضاربة و « ان التحصينات ليست سوى دبابات مجردة من جنازيرها » (فيغارو ١٩٧٤/٣/٢١). ولكنه ما لبث ان سحب استقالته بناء لطلب وزير الدفاع .

ومن جهة اخرى كشفت احاديث شارون وهرتسوغ ان للاستقالة علاقة بالوضع القائم في « جيش الدفاع الاسرائيلي » ، وبطبيعة العلاقات بين القادة في الاعوام الاخيرة ، خاصة الاعوام التي تلت حرب حزيران . وهذا يشير بشكل خاص الى ان حرب حزيران قد خلقت قادة مقدسين لم يكن بالامكان انتقاد اسلوبهم في العمل وفي التفكير ، او مناقشتهم في ذلك . ويبدو انهم كانوا يتصرفون على هذا الاساس ، الامر الذي أوجد طريقتين متناقضتين تماما في العمل . تتمثل الاولى في التخطيط المنطقي السليم او التوصيات العقلانية المدروسة لقائد عادي يعيش في الظل ، « ولم يدل قط بحديث صحفي » (فيغارو ١٩٧٤/٣/٢١)، او هو نال حظا قليلا من الامجاد ، لم تؤثر على اتزانه وقدرته على التخطيط ، مثل يسرائيل تال . وتتمثل الثانية في التخطيط الطوباوي المبني على الثقة الزائدة في النفس ، وعلى السكر بخمرة الامجاد ، لقيادة لا يهمها النظر الى المستقبل بقدر ما يهمها التأمل في روعة الماضي . مثل قيادة ديان .

ولم يكن هذا التناقض ليأخذ شكل القطيعة التامة لولا حرب تشرين ، وما اثبتت من سلامة توصيات تال ، وزيف التخطيط الاستراتيجي الاسرائيلي كله، خاصة فيما يتعلق بخط بارليف .

وليس ما تقدم فحسب هو سبب الخلاف بين تيار تال ، وتيار ديان . بل ان هناك أسـبابا أخرى ، مثل اتهام تال لديان بتسييس الجيش . وما حدث في الحرب الاخيرة . فلا شك ان تال قد تأثر بسبب الخسائر الكبيرة التي مني بهـا سلاح المدرعات — الذي بناه هو — أكثر من أي سلاح اخر . فقد دمر أكثر من نصف المدرعـات الاسرائيلية في الحرب ، وكان من الممكن ان تسحق المدرعات العربية كل المدرعات الاسرائيلية لولا سلاح الطيران الاسرائيلي الذي حقق بعض التوازن في القوة على الجبهة . ودفع ثمن ذلك العديد من الطائرات . فعلى هضبة الجولان مثلا دمر سلاح الطيران الاسرائيلي اكثر من نصف خسائر سورية من الدبابات ، ولولا ذلك لسحقت الدبابات السورية كل القوى الاسرائيلية على الهضبة ، و«مأساة» سلاح المدرعات الاسرائيلي لم تكن وليدة الصدفة ، وظهر ذلك في حديث شارون ، الذي أشرنا اليه ، حين قال « وينبغي هنا ان نطور الفكر العسكري والنظريات القتالية ، وينبغي ان نعود ونتفوق على عدونا في المعارك الليلية » . وهذا هو بالضبط أحد أسباب خسائر الاسرائيليين في المدرعات . ففي حين طورت القوات العربية قدرتها على القتال الليلي خاصة ضد الدروع ، وظهر في تزويد الدبابات العربية بمعدات الرؤية الليلية بالاشعة تحـت الحمراء . وفي استغلال الليل لاعادة تنظيم القوات لتكون جاهزة للقتال عند الفجر ، وفي الاستفادة من الظلام لتحسين المواقع ، او مهاجمة العدو . وفي استخدام معدات متطورة جدا للرؤية الليلية مثل المناظير التي تعمل بتكثيف أشعة النجوم ، وتزويد قواذف ر.ب.ج — ٧ والمـدافع المضادة للدبابات من عيار ٨٥ ملم بها . مقابل هذا كله نجد ان القوات الاسرائيلية بقيت تحارب في الليـــل بالوسائل التي حاربت بها في حرب حزيران . وربما كان هذا السبب بالذات هو الذي حرك مجموعات الجنود المسرحين ، والذين يتكونون في معظمهم من جنود سلاح المدرعات ، ضد الحكومة الاسرائيلية، وضد موشي ديان بالذات . فقد ازداد حجم سلاح المدرعات بشكل كبير خلال السنوات التي تلت حرب حزيران ، الا ان من الواضح ، كما أظهرت المعارك التي خاضها ، انه لم يتطور ولم يحسن تكتيكاته وأجهزته ومعداته . صحيح ان يسرائيل تال هو الذي اختط تكتيك القتال بالمدرعات فقط ، « كأنها سفن في البحر » (فيغارو ١٩٧٤/٣/٢١) ، دون حماية المشاة . وهذا التكتيك بالذات ادى الى تدمير اللواء الاسرائيلي المدرع ١٩٠ على جبهة قنـاة السويس . ولكن هذا التكتيك رسم في فترة لم يكن للاسلحة المضادة للدروع فيها فعالية مماثلة لفاعليتها الحالية . وكان من الواجب تركيز الجهود على تطوير اساليب القتال بعد ان تطورت الاسلحة المستخدمة في القتال ، ولكن بدلا من ذلك تركزت جهود القيادة الاسرائيلية على استبدال المدافع في معظم دباباتها بمدافع من عيار ١٠٥ ملم، واستبدال المحركات الانجليزية (تعمل بالبنزين) بأخـرى امريكية (تعمل بالمازوت) . ويحتمل ان يكون تال قد حذر القيادة الاسرائيلية من ذلك ومن الاسلحة المضادة للدروع ، والتي لم يكن استخدامها ضد الاسرائيليين جديدا . فقد استخدمها الفدائيون في عملياتهم بعد معركة الكرامة بقليل وما زالــوا يستخدمونها ، واستخدم السوريون صواريخ من طراز ساغر المضادة للدبابات في الفترة التي سبقت الحرب ، وبالتالي فان التعلل بان هذه الاسلحة قد استخدمت بكثافة غير متوقعة هو امر يدعو الى السخرية ، ويظهر مدى عجز القيادة الاسرائيلية ، ويبرر اهتزاز صورة وزير الدفاع لدى تال ، وشعوره بخيبة الامل .

وكانت الاجواء التي سادت بعد الحـرب ، والطريقة التي عومل بها « أقدم عميد في الجيش الاسرائيلي » دوافع اخرى تضاف الى الدوافع الاساسية ، فبعد الحرب مباشرة عين تال قائدا للمنطقة الجنوبية ، الا ان خدمته هناك لم تطل فقد اصدر اليه ديان تعليمات معينة رأى تال انها غير واضحة بما فيه الكفاية ، وعندما طلب من ديان ان يشرح له التعليمات ، رفض . عندهـا رفض تال بدوره تنفيذ تلك التعليمات . فسحب من قيادته وعين نائبا لرئيس الاركان ، « وهذه مهمة لا قيمة لها ، بل هي منصب شرف لا مسؤولية فيه او صلاحية للتصرف » حسب قول العميــد احتياط متياهو بليد . (ر.١.١٠. العدد ٤٩٣) .

وهذا يعطي صورة اخرى عن الوضع داخل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية وسببا آخر للغليان

داخلها . ويدخل في اطار هذه الصورة تداخل القيادة العسكرية والسياسية وطبيعة العلاقات بينهما . فقد تجاوز ديان رئيس الاركان وأصدر اوامره الى قائد احدى المناطق . هذا رغم ان « لجنة اغرانات » قد تجاهلت هذه الحقيقة حين فصلت الاخطاء العسكرية المتعلقة بالحرب عن الاخطاء السياسية وحققت في الاولى متجاوزة وزير الدفاع ، حين أصدرت تقريرها فيما بعد . ويدخل في الاطار ايضا قضية المناصب الصورية ، او المناصب عديمة الصلاحية ، وقد تساءل العميد احتياط متياهو بيليد حول هذه النقطة بقوله « ما الذي حدث حتى أصبحت مهمة نائب رئيس الاركان لا قيمة لها ؟ » (ر.١٠.١٠. العدد ٤٩٣) . وهل ان للامر علاقة بتمركز كل السلطات المتعلقة بالامن في يد وزير الدفاع ؟

كل هذه الامور توضح معاني استقالة تال ، وقضيته كما وصفها زئيف شيف « هي مرآة للاهتزاز والغليان في القيادة بعد حرب يوم الغفران » . (هآرتس ١٩٧٤/٣/٢٢) . فقد تغذت استقالته بالمرارة بسبب الحرب ، وتفجرت بسبب تصرفات وزير الدفاع ديان ، الذي جمع كل السلطات في يده قبل الحرب، واعتبر نفسه فوق هذه السلطات، بعدها . والذي تشبث بالسلطة رغم كل ما حدث ، ورغم الحركات التي قامت ضده، ليس من المعارضة فحسب بل من اعضاء حزبه ، وقد أشار بنحاس سابير الى ذلك بقوله « لقد كانت أقوال ديان وتصرفاته مستغربة في نظري منذ جلسة الحكومة الاولى بعد صدور تقرير لجنة اغرانات ، حين قرأ اللواء دافيد العازار رئيس الاركان رسالته وعبرت رئيسة الحكومة والجميع في الجلسة عن أسفهم لهذه النتيجة . ولم أفهم ، في حينه ، كيف انه يتوجب اقالة او استقالة جنود وزير الدفاع ، مثل رئيس الاركان ، وقائد المنطقة الجنوبية ، ورئيس الاستخبارات وبعض ضباطه ، بينما الوزير نفسه لم يقل أي شيء امام الحكومة ، بل انه لم يعبر حتى عن أسفه لما حدث » . « ... كذلك عندما تكلم ٢٧ عضوا في جلستي اعضاء ماباي سابقا ، كان من بينهم ٢٣ عضوا على الاقل طالبوا باستقالة ديان ». (ر.١٠.١٠. العدد ٥١٠) .

لقد عاصر تال بناء الجيش الاسرائيلي ، وعمل على بناء القوة الثانية في الجيش بعد سلاح الطيران . وبلغ الجيش الاسرائيلي اثناء خدمته اوج « أمجاده » حتى عام ١٩٦٨ وربما ايضا عام ١٩٦٩ ، ويحتمل انه رأى بداية سقوط هذا الجيش ، دون ان يكون في مقدوره عمل شيء ، حين قدم استقالته للمرة الاولى عام ١٩٦٩ بسبب خلافه مع ديان وبارليف حول الخط الدفاعي على قناة السويس . ويحتمل ان يكون قد خدع نفسه بالامال من ان القوى العربية المعادية ليست أهلا للحرب كما كان يعتقد دافيد اليعازر ، وموشي ديان. وانه مهما تدنى مستوى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية سوف تبقى سيدة الموقف المسيطرة على زمام الامور في المنطقة . ولكن حين اندلعت الحرب الاخيرة ، وانهارت كل النظريات الاستراتيجية الاسرائيلية، وظهر خطأ معتقدات القيادة الاسرائيلية المتعلقة بقدرة العرب القتالية ، انتظر تال عدم عودة وزير الدفاع ديان الى الحكم في الحكومة الجديدة على اساس انه المسؤول عما حدث ، وحين عاد اعتبر تال «ان ليس بالامكان حصوله على منصب رئيس الاركان ، وبدا وكأن الحكومة ووزير الدفاع يريدان منع اجراء اصلاحات جذرية في الجيش » (نيفارو ١٩٧٤/٣/٢١) فقرر الاستقالة وقفز من المركب الموشك على الغرق .

هشام عبدالله

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٣/١٦ — ١٩٧٤/٤/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١	٣/١٦	—	رحوفوت/تل ابيب	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	تدمير واجهة مركز الشرطة واعطاب عدد من السيارات العسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٥٣	٣/١٦
٢	٣/١٢	—	جنين	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تدمير أعمدة اسلاك الهاتف	—	—	—	رقم ٧٤/٥٤	٣/١٦
٣	٣/١٦	—	بين برقة وجنين	كمين	الاسلحة الخفيفة والمدافع الرشاشة	غيرمحدد	اصابة باص لشركة ايجد بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٥٤	٣/١٩
٤	٣/٢٠	١٩،٠٠	رمات جان	تفجير	عبوات ناسفة وحارقة	غيرمحدد	تدمير محلات للالعاب في شارع بتاح تكفا/تل ابيب	—	—	—	رقم ٧٤/٥٦	٣/٢١
٥	٣/١٥	—	القرارة/خانيونس	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اصابة احدى متطورات قطار بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٥٧	٣/٢٤
٦	٣/٢٣	٢٣،١٥	بين الشيخ زويد والعريش	تفجير	شبكة الغام	غيرمحدد	تدمير باص لشركة ايجد تدميرا تاما واعطاب سيارة اخرى	—	—	—	رقم ٧٤/٥٧	٣/٢٤
٧	٣/١٩	—	رفح	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اعطاب سيارة باور واجن واشعال النيران فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٥٧	٣/٢٤
٨	٣/ ٦	—	مستعمرة الرابية/ غــزة	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تدمير مضخة المياه الرئيسية	—	—	—	رقم ٧٤/٥٧	٣/٢٤
٩	٣/ ٧	—	جباليا	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اصابة افراد دورية	—	—	—	رقم ٧٤/٥٧	٣/٢٤
١٠	٣/٢١	٩،٠٠	خانيونس	تفجير	شبكة الغام	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٥٧	٣/٢٤
١١	٣/٢٨	٢٢،٠٠	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اشعال النيران فينادي باسيلي	—	—	—	رقم ٧٤/٥٨	٣/٢٩
١٢	٣/١٦	—	جنين	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تدمير كابلات الهاتف	—	—	—	رقم ٧٤/٥٩	٣/٣١
١٣	٣/٢٠	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تدمير كابلات الهاتف	—	—	—	رقم ٧٤/٥٩	٣/٣١

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١٤	٣/٣٠	—	بين طولكرم ونابلس	هجوم	رشاشات وقنابل يدوية	غيرمحدد		اصابة سيارة عسكرية واشعال النيران فيها	—	—	—	رقم ٧٤/٦٠	٤/١
١٥	٤/ ٢	٨،٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير مبنى سكن للمخابرات في حي البقعة	—	—	—	رقم ٧٤/٦١	٤/٢
١٦	٤/ ٤	١٦،٣٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في أحد المخازن الكبرى للالبسة	—	—	—	رقم ٧٤/٦٢	٤/٥
١٧	٤/ ٤	٢١،٠٠	بين القدس وبئر يعقوب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اعطاب باص لشركة ايجد	—	—	—	رقم ٧٤/٦٣	٤/٥
١٨	٤/ ٥	١٦،٠٠	بين تل ابيب وزخرون يعقوب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير اوتوبيس	—	—	—	رقم ٧٤/٦٤	٤/٦
١٩	٤/ ٤	١٥،٣٠	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اشعال النيران في مصنع كارني لتشميع وتعبئة الحمضيات وتدمير بعض سيارات النقل	—	—	—	رقم ٧٤/٦٥	٤/٦
٢٠	٤/ ٣	—	نابلس	القاءقنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٦٦	٤/٦
٢١	٤/ ٦	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في مبنى الاتحاد العام للعمال واتلاف محتوياته	—	—	—	رقم ٧٤/٦٧	٤/٧
٢٢	٤/ ٧	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة مبنى بنك الديسكونت بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٦٨	٤/٨
٢٣	٤/١١	٦،٠٠	كريات شمونة	هجوم	أسلحة مختلفة	١٨	١٦	تصدع ١٧ مسكنا	٣	—	—	وفا ٤/١١ والى الامام عدد ٤٥٣	٤/١٢

٢٤ — ٤/ ٤	—	بين القدس والخليل	كمين	اسلحة مختلفة	غيرمحدد	— — —	اعطاب سيـــــارة لاندروفر عسكرية محملة بالجنود	رقم ٧٤/٦٩	٤/١٢
٢٥ — ٤/ ٧	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	— — —	اصابة محلات للالعـــاب في المحطة المركزية بأضرار	رقم ٧٤/٧٠	٤/١٢
٢٦ — ٤/ ٦	—	بين رام الله والنبي يعقوب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	— — —	اصابة واعطاب باص لشركة ايجد ينقل جنودا	رقم ٧٤/٧١	٤/١٢
٢٧ — ٤/ ٨	—	هرتسيليا	اقتحام	اسلحة مختلفة	١ —	— — —	قتل ضابط المخابرات يوسف طوليد في منزله	رقم ٧٤/٧٢	٤/١٢
٢٨ — ٤/١٠	—	وادي التفاح/نابلس	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	— — —	اعطاب باص لشركة ايجد واشعال النيران فيه	رقم ٧٤/٧٣	٤/١٣
٢٩ — ٤/١٢	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	— —	— — —	اشعال النيران في معمـــل لصناعة اللحومات واصابة عدة متاجر اخرى بأضرار	رقم ٧٤/٧٤	٤/١٣
٣٠ — ٤/ ٩	—	جنين	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	— — —	تدمير اجزاء من مكتب العمل الصهيوني واتلاف محتوياته	رقم ٧٤/٧٥	٤/١٤
٣١ — ٤/١٠	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	— — —	تدمير الطابق الاول من مبنى بنك لؤمي واصابة بـــاقي المبنى بأضرار	رقم ٧٤/٧٦	٤/١٤
٣٢ — ٤/١٤	—	ناتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	— — —	تدمير جزء كبير من مقصف الحديقة العامة	رقم ٧٤/٧٧	٤/١٥

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٣/١٦ — ١٩٧٤/٤/١٥

الرقم	تاريخ العملية اليوم	تاريخ العملية الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	خسائر العدو البشرية جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	خسائر المقاومة جريح	خسائر المقاومة مفقود	المصدر	تاريخه
١	٣/٢٨	—	حيفا	تفجير	عبوات حارقة	—	—	اشعال النيران في نادي ماسيلي الليلي واحداث اضرار فيه	—	—	—	ن٠عدد٤٩٧ص٥٨٥	٣/٢٩
٢	٤/ ٢	٨٠٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	١	تحطيم زجاج الابنية في شارع كيبوتس جاليوت	—	—	—	ن٠عدد٥٠٠ص٥٤	٤/٢
٣	٤/ ٢	—	زرعيت/الجليل الاعلى	قصف	بازوكا واسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن٠عدد٥٠٠ص٥٤	٤/٢
٤	٤/ ٥	١٦٠٠٠	زخرون يعقوب	تفجير	عبوات ناسفة	١	٤	اصابة باص لشركة ايجد بأضرار	—	—	—	ن٠عدد٥٠٣ص١١٨	٤/٦
٥	٤/١١	٧٠٣٠	كريات شمونه	هجوم	اسلحة مختلفة	١٨	١٦	أصيب ١٧ مسكنا في المستعمرة بأضرار	٣	—	—	ن٠عدد٥٠٧—٥٠٨	١١—٤/١٢
٦	٤/١٢	—	ريشون لتسيون	تفجير	عبوات ناسفة	—	٢	اصابة سيارة بأضرار	—	—	—	ن٠عدد٥٠٨ص٢٧٨	٤/١٢
٧	٤/١٤	—	ناتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تفجير عبوة في الحديقة العامة	—	—	—	ن٠عدد٥١٠ص٣٣١	٤/١٦
٨	٤/١٥	١٩٠٠٠	يافا	تفجير	عبوات ناسفة	—	١	اصابة باص بأضرار	—	—	—	ن٠عدد٥١٠ص٣٣٢	٤/١٦

ن٠ — نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد



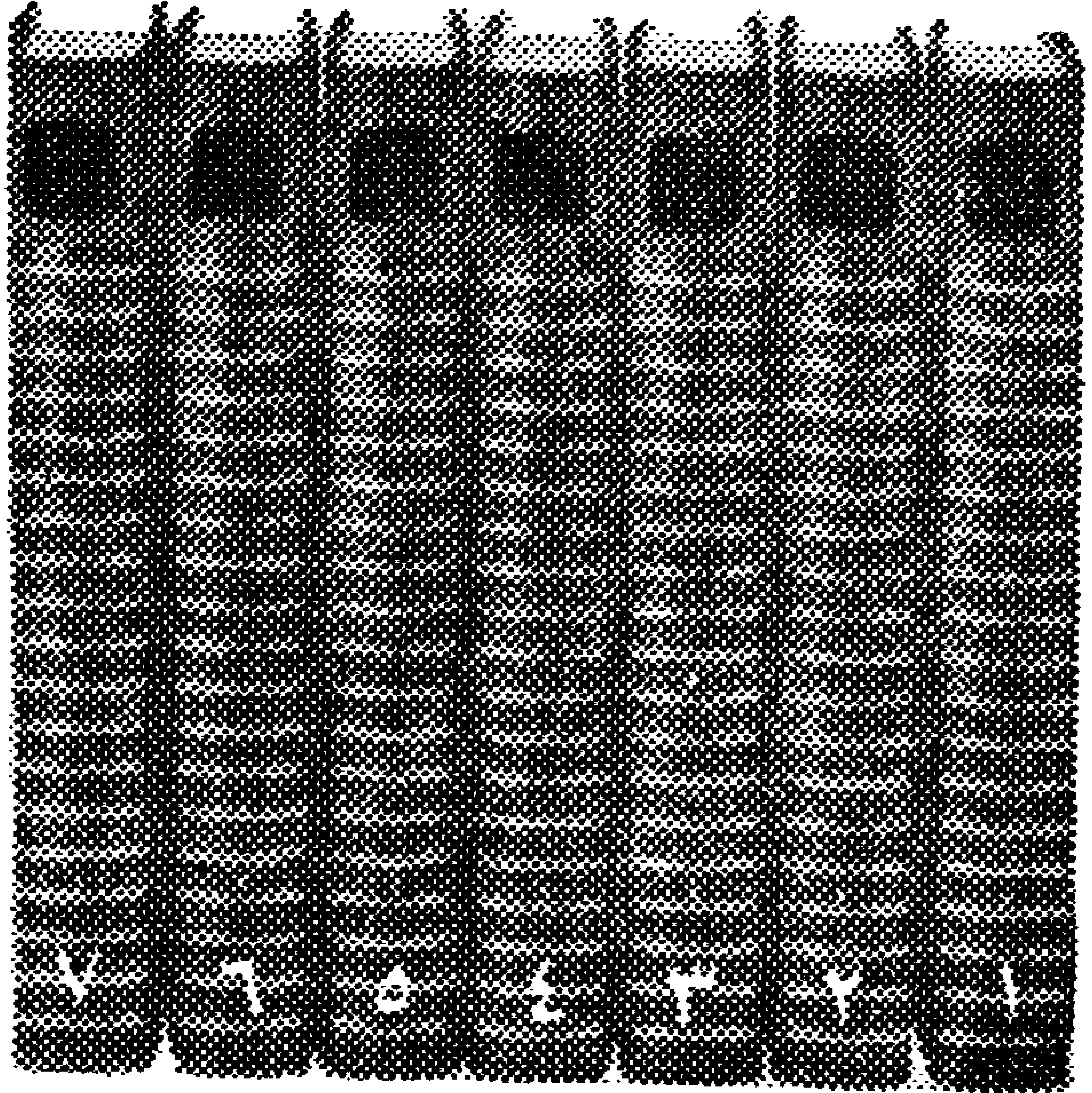
استيراد وتصدير
لجميع أنواع الورق والكرتون
للمجلات والكتب

محمد خليل الداعوق

شارع المعرض — بيروت — لبنان
مكتب تلفون : ٢٣٤٦٤٥ ٢٢٨٠٤٢
مستودع تلفون : ٢٩٣٩٣٢

صدر المجلد السنوى السابع من

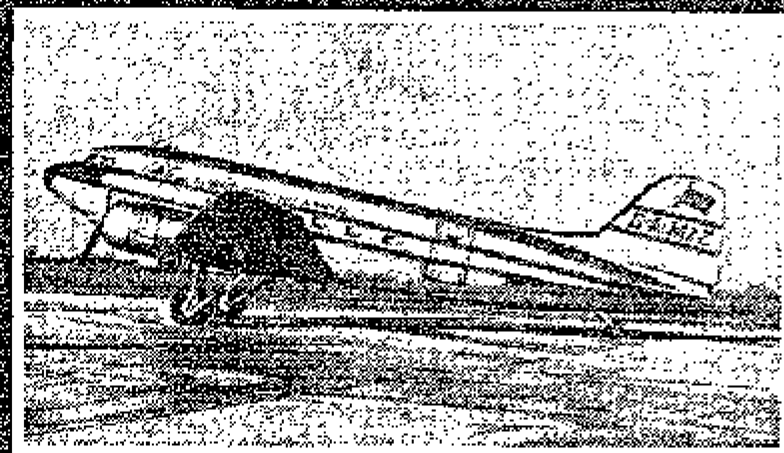
السياسة الدولية

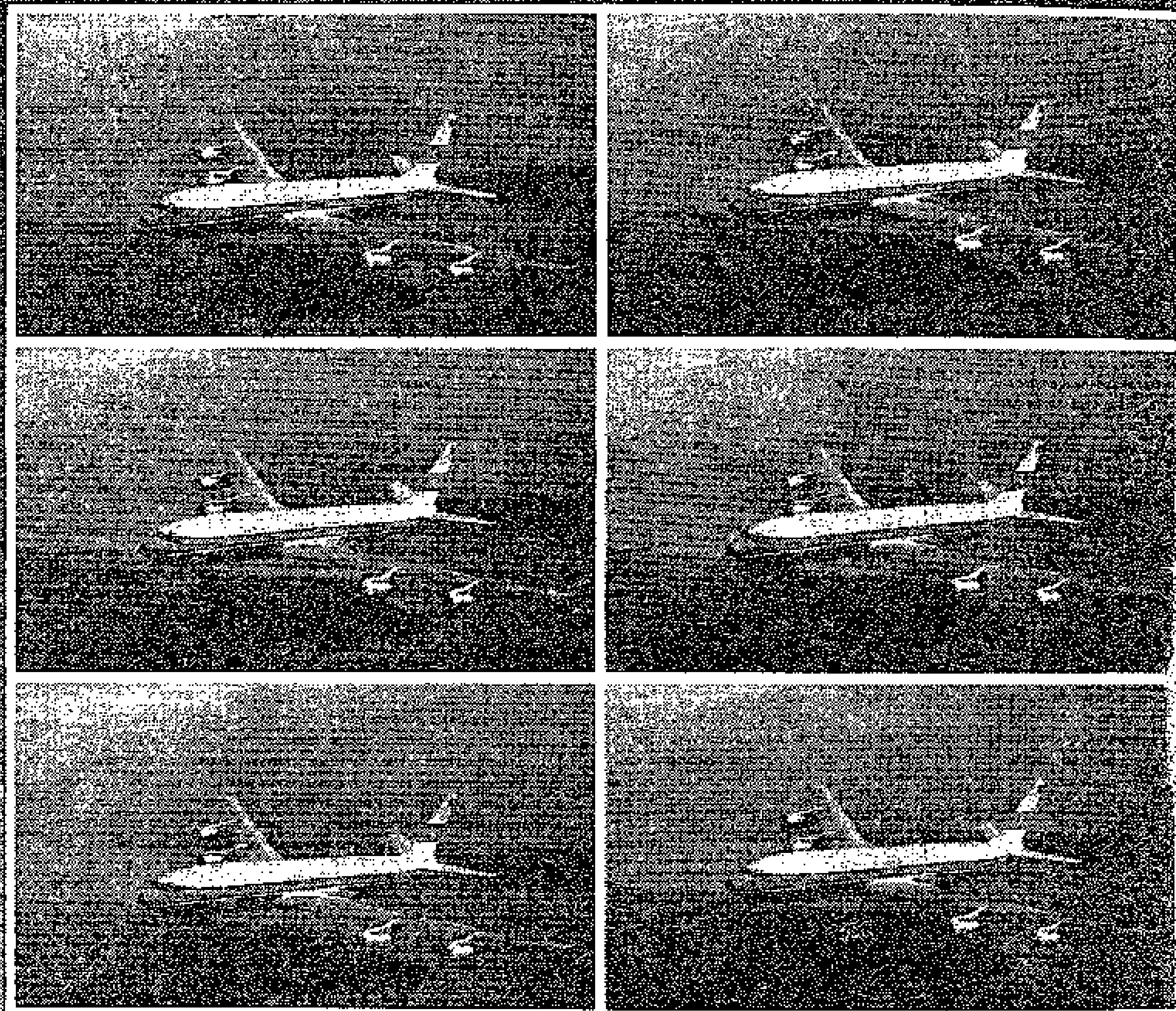


- مرجع علمى للعاملين فى الحقل السياسى والدبلوماسى والإعلامى .
- المجلد مزود بفهرس تحليلى وفهرس للمعاهدات والاتفاقات الدولية .
- ١٠٠٠ صفحة ... الثمن ١٠٠ قرش
- يطلب من قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام ومكتبة الأهرام بشارع محمد فريد والمكتبات الكبرى فى الوطن العربى
- يضم الأعداد ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ الصادرة خلال عام ١٩٧١

رئيس التحرير
د. بطرس بطرس غالى

مدير التحرير
د. عبد الملك عودة





وفي عام ١٩٧٤ بعد مرور ٢٠ عاماً ...



الخطوط الجوية الكويتية

Palestine Affairs

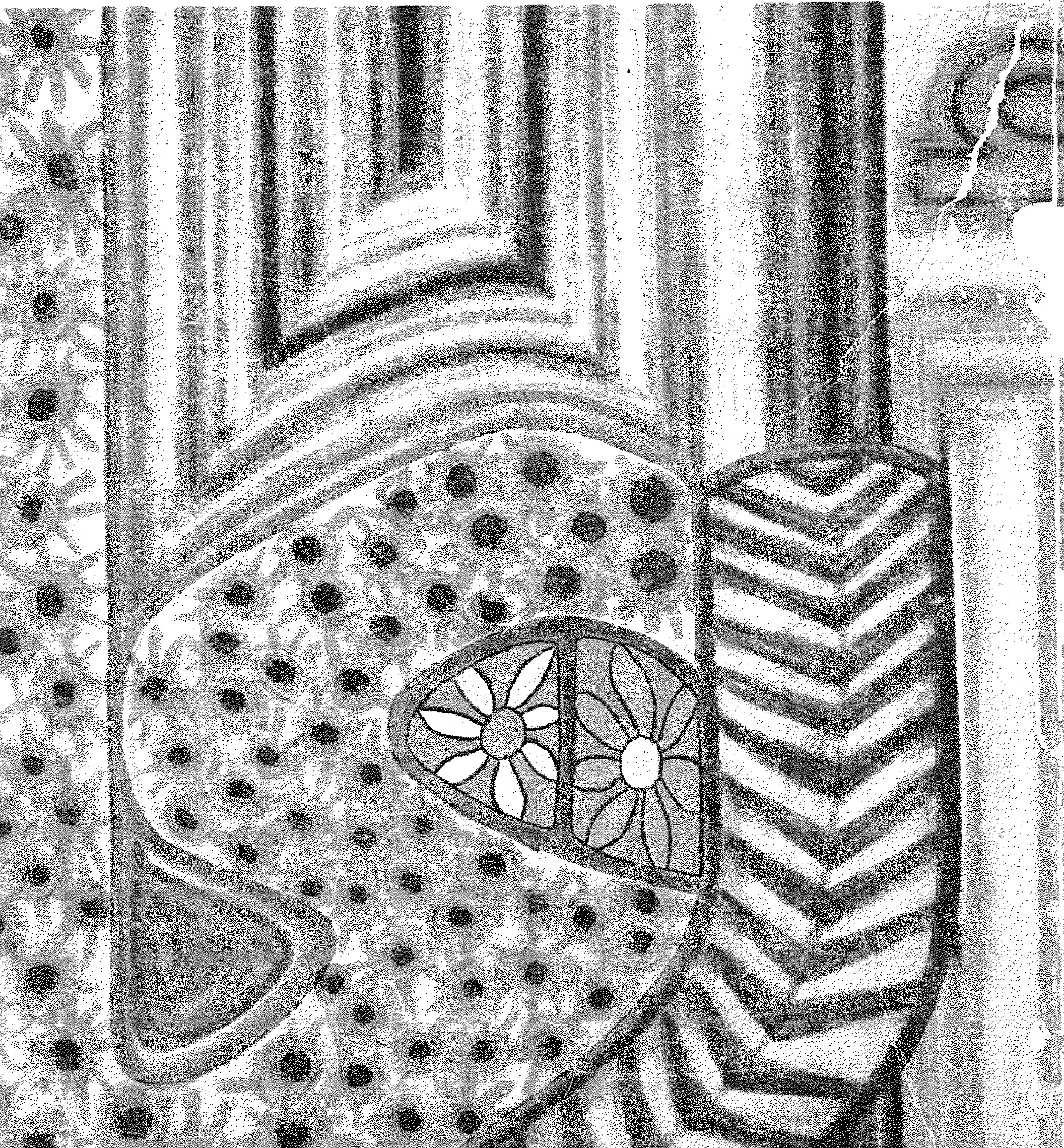
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 55, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣½ ل.ل. في لبنان
٤½ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٣٤

حزيران (يونيو) ١٩٧٤



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٣٤ حزيران (يونيو) ١٩٧٤

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين.

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ــ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤١/٢ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٤٠ ل.ل. في لبنان ، ٥٠ ل.س. في سوريا ، ٥٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٦٥ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ٦٠ ل.ل. في امريكا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف : لوحة « اريحا »

المحتويات

٤

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

الملايين من ابناء الثورة الفلسطينية ومؤيديها واصدقائها في الوطن العربي وفي العالم اجمع ينتظرون ، في هذه الايام الاخيرة من مايو ، انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني ، بترقب وبتتبع وباهتمام ، اكثر من اية اجتماعات سابقة عقدها المجلس المذكور منذ انشائه قبل ثماني سنوات . ويقترن هذا الاهتمام الشديد ، عند الملايين ، بأمل كبير بان يعبر المجلس العتيد عن رغبة الجماهير الفلسطينية والعربية واصدقائها باتخاذ موقف واحد ، تجاه المسائل المطروحة للنقاش ، التي تدور حول واقع العمل الفلسطيني ومستقبله ، تلتقي فيه الافكار المختلفة وتلتزم به التنظيمات ، ويكون في النهاية اعلانا حاسما وصريحا وتعبيرا صادقا عن وحدة الثورة الفلسطينية ، بأهدافها وبايمانها وبعزمها الاكيد على المضي بالثورة حتى النصر .

وقد كان مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن ضمنه « شؤون فلسطينية » ، يعطي موضوع التقريب بين الاراء الفلسطينية اهتماما خاصا جسده في مشاريع ونشاطات وانتاجات كثيرة . وقد نشر المركز عدة دراسات ، تحليلية ووثائقية ، حول واقع المقاومة الفلسطينية (منها « المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني » باشراف د. نبيل علي شعث، و« دليل حركة المقاومة الفلسطينية » لغازي خورشيد ، و« أهداف حركة المقاومة الفلسطينية تجاه اليهود »، و « الوثائق الاساسية لحركة المقاومة الفلسطينية المسلحة » لليلى سليم القاضي) . وفي الوقت نفسه نشرت شؤون فلسطينية عشرات المقالات في الموضوع ، بحيث لا يكاد يخلو عدد واحد من بحث او نقاش على الاقل حول الوضع الراهن للعمل الفلسطيني . وقام المركز بترجمة ندوتين كبيرتين عقدتهما الشؤون ونشرتهما ، لقادة المقاومة الفلسطينية ، الى اللغة الانجليزية ونشرهما في كتابين (« فلسطين تحيا » و « القادة الفلسطينيون يتناقشون في التحديات الجديدة للمقاومة ») . والواقع ان القاسم المشترك بين جميع هذه البحوث والندوات والمقالات والكتب ، التي أعدها المركز ونشرها حول الواقع الراهن للعمل الفلسطيني ، هو ابراز النقاط التي تلتقي عندها المنظمات الفلسطينية ، وتبيان الاهداف الواحدة والقناعات المشتركة . فالثورة الفلسطينية ، كما فهمتها وتفهمها كتابات مركز الابحاث وشؤون فلسطينية ، وكما قدمتها وتقدمها للعالم ، هي ثورة واحدة ، متينة في تماسكها وصلبة في وحدتها ، مهما تعددت الاجتهادات ومهما بدا التباعد احيانا بين وجهات النظر . ولعل جو المجلس الوطني العتيد ، ونقاشاته وابحاثه وقراراته ، تكون تأكيدا جديدا على هذه الحقيقة البارزة .

عند نهاية الحرب التي لا نهاية لها
وعند بداية السلام الذي لا بداية له

حساب النفس وخداع النفس

محمود درويش

● قد يكون من الصعب التوصل الى قناعة عامة بأن المشروع الصهيوني على أرض فلسطين قد دخل مرحلة بداية النهاية .

ولكن ، ليس من الصعب القول ان التجربة ، ذات الجوهر الواحد في هذا المشروع تواجه بعد الحرب الاخيرة ، أخطر مفترق طرق في تاريخ اسرائيل .

وبعيدا عن تفاصيل الصراع والحيرة داخل اسرائيل ، فان الازمة الاسرائيلية ، كما يبدو في هذه المرحلة ، تنبع من صعوبة الاختيار الذي يفرضه مفترق الطرق الغامض الذي أوصلت الطريقة العسكرية المجتمع الاسرائيلي اليه .

ولا تعود صعوبة الاختيار الى تردد الاهداف الصهيونية وحيرتها ، فهي واضحة لاصحابها ، ولكنها تعود الى اعادة حساب القدرة على تحقيق هذه الاهداف وتطبيقها . ان اسرائيل لم تتغير ، وجوهرها الصهيوني لم يطرأ عليه اي تعديل . ولكن مناخ المنطقة هو الذي تغير وفرض على الاسرائيليين ضرورة البحث عن نوع من التغيير في أساليبهم .

لقد دخل المشروع الصهيوني العام الاول من ربع القرن الثاني . كان عيدهم الاخير أكثر الاعياد حزنا . ذرفوا من الدموع أكثر مما كانوا يذرفون في ذكرى أيام السبي ، حتى كادت هذه الدموع تغرق المراقبين العرب وتجعلهم يحسبون الزمن الباقي من عمر اسرائيل بالايام والساعات .

فهل تشعر اسرائيل بأنها مهزومة فعلا ؟ .

ان حساب الهزيمة ، في العقلية والنفسية الاسرائيلية ، يختلف عن الحساب المعتاد . ان مجرد كونهم لم ينتصروا في الحرب الاخيرة يخلخل قناعتهم ، ويدفعهم الى الادراك بأنهم قابلون للهزيمة . اي : أن عدم انتصارهم هو بداية هزيمتهم . ولعلهم قد افاقوا على هذه الحقيقة بشكل مفاجيء جعلهم يتحسسون جلودهم وعقولهم . لقد ماتت فيهم قناعة الصخر ، وولدت فيهم أسئلة كان يجب عليهم ان يطرحوها منذ زمن طويل . ان كل ما كانوا يدعونه من حق كان يدعم بشرعية القوة حتى تحولت هذه القوة الى الاداة الوحيدة لصياغة المجتمع الاسرائيلي ووقايته . وحين تعرضت هذه القوة — الناموس الى خدش ، وجد الاسرائيليون أن كل دعائمهم ومحاكماتهم الفكرية والاجتماعية قابلة للانهيار . حتى أن « الحق » على فلسطين الذي خاضوا تحت لوائه أربع حروب ليس حقا ممتنعا عن الطعن والشك فيه .

واذا كان من الصعب الاجماع على القول ان اسرائيل دخلت مرحلة بداية النهاية ، بتصدع القاعدة الاساسية للزمن الاسرائيلي ، وهي قاعدة الامن التي شكل الايمان المطلق باستحالة خلخلتها جوهر التجربة الاسرائيلية طيلة ربع القرن الفائت ، فانه ليس صعبا بالمقدار ذاته القول ان هذه المرحلة هي مرحلة الدخول في نهاية البداية الاسرائيلية كما صيغت حتى الان .

ان الكثيرين من المفكرين والمثقفين الاسرائيليين قد توصلوا الى القناعة بأن اسرائيل القوية قد انتهت . وان استمرار تجربة شرعية العنف التي خلقت حتمية الحرب الدائمة ستحفر قبر المشروع الصهيوني حتى لو انتصرت اسرائيل . « انتصار آخر كهذا ، ونموت » .

لقد وصف أحد الكتاب الاسرائيليين البارزين ، عاموس كينان ، ما يجري في الحياة الاسرائيلية ، منذ حرب تشرين حتى الان ، بأنه عملية حساب حقيقي مع النفس ، لم يحدث لها مثيل منذ ست وعشرين سنة . ولخص ما يجري بأنه شهادة على التدهور التدريجي الاكيد لكل البناء الذي أقامه مؤسسو الدولة عام ١٩٤٨ . ونقل عن شخصية اسرائيلية بارزة شاركت في كل المعارك السياسية الدولية التي سبقت قيام اسرائيل قولها : « ان دولة اسرائيل السابقة ، الدولة التي انشئت عام ١٩٤٨ غير موجودة الان . لقد انتهت » [يديعوت احرونوت ٧٤/٤/٢٤] .

ووصف المعلق السياسي البارز في صحيفة « يديعوت أحرونوت » أرئيل غيناي العام السادس والعشرين من عمر اسرائيل ، بأنه نقطة تحول . وأجرى مقارنة سريعة بين هذا العام والعام السابق قائلا : « في العيد الماضي كان الاسرائيليون هم الذين ضربوا الفدائيين في قلب بيروت . أما اليوم فان الفدائيين هم الذين يضربون كريات شمونة . وقبل سنة كانت تفصلنا عن مصر قناة السويس . وكنا نعتبر الانسحاب من خط القنال كارثة . واليوم نعرف انه لا وجود لسد منيع » . [٧٤/٤/٢٤] .

وحذر الجنرال المتقاعد متتياهو بيلد من الانتصارات العسكرية التكتيكية ، وقال في مقال بصحيفة « معريب » ان الانتصار التكتيكي قد لا يخدم هدف الحرب . وعدم تحقيق هدف الحرب معناه الهزيمة .

واستخلص الجنرال من انتصار اسرائيل في حرب حزيران العبرة التالية : « ان العبرة السياسية الكبرى من حرب الايام الستة هي انه قد آن الاوان بأن تبادر اسرائيل الى معركة سياسية كبيرة ومتعددة الجوانب من اجل السلام ، وهي تحمل ورقة مساومة ذات اهمية نادرة وهي المناطق المحتلة . ولكن قيادة اسرائيل السياسية قد بذلت جهودا لتشويه الصورة العسكرية لتبرر التوسع الاقليمي » . [٧٤/٤/٢٤] .

وحدد متتياهو بيلد التحدي الكبير الذي تواجهه السياسة الاسرائيلية للخروج من المأزق ، بضرورة وضع استراتيجية تدمج معطيات « حرب الاستقلال » مع امكانيات الدولة في تحقيق الهدف القومي وهو : ضمان قيام دولة اسرائيل والحيلولة دون المس بحدودها .

ان « حساب النفس » الذي انتجه «الزلزال» يصل الى كل المفاهيم والقيم الصهيونية الاسرائيلية . وهذه المراجعة الشاملة تنطلق من ادراك ان عدم النصر هو مقدمة الهزيمة . أو من أن المزيد من النصر العسكري ، في حال تحققه ، سيعطي مردود هزيمة ، لانه لن يكون قادرا على تحقيق هدف الحرب وهو التوصل الى السلام .

وتقود خلاصة هذه المراجعات أصحاب الاسئلة الى الشك بسلامة الطريق الذي

قطعته تجربة المشروع الصهيوني على المشروع ذاته . وثمة شبه اجماع حول ضرورة البحث عن طريق اخر لانقاذ المشروع من الفساد، ولصيانة الفكرة الصهيونية من الاسئلة التي تصيب جوهر الايديولوجيا الصهيونية .

ولعل أخطر ما أسفرت عنه هزة المجتمع الاسرائيلي بعد الحرب هو الوقيعة بين جيل من الشباب ، هم بناة اسرائيل في المستقبل ، وبين الفكرة الصهيونية من جهة ، وبينهم وبين « الحق » على أرض فلسطين من جهة ثانية .

صرخ عاموس كينان : هل توجد في حياتنا أهداف أخرى ، غير الاهداف الاقليمية وغير الاهداف العسكرية ؟ ، داعيا للخروج من أزمة الثقة الى صياغة حلم اسرائيلي جديد ، بعد انتهاء الحلم اليهودي القديم بالعودة الى « أرض الميعاد » .

البحث عن حلم جديد ، هو احد المساعي المضنية التي يبذلها شباب اسرائيليون اكتشفوا انهم خلقوا من أجل الحرب ، ولكن ، ماهو هذا الحلم الجديد ؟. لم يتمكن الحائرون الاسرائيليون من الاجابة عن هذا السؤال . ولكن مجرد طرح بعض الاسئلة يتمتع ، أحيانا ، بأهمية تفوق حكمة الاجوبة .

ولم يجد الشاعر ديدي منوسي مخرجا من منطقة الزلزال المتحركة الا بالتعلق بالثابت من جمال الطبيعة . لم يجد شيئا صالحا للدفاع والتمجيد في عيد المشروع الصهيوني السادس والعشرين :

« اذا كانوا قد انتزعوا منك البراءة
وفرح الايمان
واذا كانت الازهار الحمراء
لا تذكرك الا بالنار والخطر الذي لا نهاية له
فلا تستسلم
ولا تتنازل عن الربيع الرائع
الذي لا يعادله شيء
لا الوضع ولا النظام .
واذهب لتسكر من عبير البرتقال
لانه بدون هذا الحل المؤقت
سيكون مقضيا علينا » .

ويبدو أن اي حل ، ضمن الالتزام الصهيوني ، سيبقى حلا مؤقتا . حتى الازهار لا يذكر لونها الا بالنار والخطر الذي لا نهاية له .

لقد وصفت البروفيسورة رفقه شاتس اوبنهايمر ما يجري في اسرائيل بأنه أزمة روحية تجتاحنا بعد ست وعشرين سنة من قيام دولة اسرائيل . وردت مصدر هذه الازمة الى غياب السلام . ولكن هل سعت السياسة الاسرائيلية سعيا صادقا لتحقيق السلام ؟ ومن الافضل طرح السؤال بصيغة مختلفة : هل يتوافق جوهر المشروع الاسرائيلي ، وهو تطبيق الصهيونية ، مع السلام ؟

ان العلاقة المتنافرة بين هذين الجوهرين قد أوصلت كثيرا من الشباب الاسرائيليين الى أزمة الثقة بالفكرة الصهيونية . ومن هنا لم يكن الشاعر وحده هو الهارب من

الواقع الى أحضان الطبيعة الرومانسية . فالحاجة الى حلم جديد بعد مخاطر تطبيق الحلم القديم تأخذ في الفكر الاسرائيلي شكلا رومانسيا من البحث ، يشكل منهج البروفيسورة رفقه أحد مظاهره .

تقول في ندوة عقدتها صحيفة « معريب » [٧٤/٤/٢٤] في ذكرى قيام اسرائيل : « ان القضية الاساسية بالنسبة لنا هي تحقيق الصهيونية . والمسألة العينية هي ازمة الثقة بالمشروع الصهيوني ، والشك بقدرتنا على القيام بعبء استقلالنا . كل ذلك بسبب ضياع الطريق في الحروب المتكررة . وهنالك اليوم من يدعو الى الابطاء الصهيوني ويحاكم الميل الايتوبيا والحلم » .

ولكن هل يقدم اللجوء الى الحلم حلا لازمة الثقة ، أو هل تختلف صورة التطبيق الاسرائيلي عن محتوى الحلم الصهيوني ؟ . وهل يمكن تطبيق الحلم الصهيوني بشكل يقي الاسرائيليين من حتمية الحروب ؟ .

ان الاستاذة ترفض الحس التاريخي الذي يتمتع به البروفيسور يعقوب تلمون ، الذي يدعو دائما الى استخلاص العبر من تجارب شعوب اخرى عبر التاريخ ، أوصلتها أخطاؤها الى النهاية بسبب اسرافها في السعي لتحقيق مطامح لا تتسع لها قدراتها الوطنية . وترى ان اسرائيل تواجه ، في هذه المرحلة ، اختيار احدى الامكانيتين : اما وقف المد الصهيوني والرضوخ لحكم العالم . واما استمرار الكفاح مع الاحتفاظ بالمناطق المحتلة . اي : استمرار الحرب .

ولكن تحقيق المطلب الصهيوني معناه التنازل عن مطلب السلام ؟ هكذا سئلت الاستاذة ، فأجابت بالدعوة للعودة الى الايتوبيا « يجب الا نخجل من ذلك . فبدون هذا الحلم نخسر أحد أهم الاسس في هويتنا اليهودية ، وليس في الصهيونية فحسب » .

ولكن ، مرة اخرى ، الا تعرض هذه النزعة اسرائيل الى الخطر ؟. أليس الوقوف ضد تيار التاريخ انتحارا ؟ وما هي عناصر الحلم الجديد ، ان لم تكن اعادة ترتيب العناصر ذاتها التي أدى تطبيقها الى أزمة الثقة بين الاسرائيلي وبين الحلم المحقق !

ان التخلص من مساوىء تحقيق الحلم الصهيوني ، حتى ينحصر في الاعتراض التفصيلي على طريقة التطبيق ، ينقل التجربة من خطأ الى خطأ أفدح . ولا يبدو ان الاسرائيليين قادرون على التغلغل في ظاهرة أزمة الثقة الى جوهرها . فليس الخطأ في جسد الحلم ، بقدر ما هو في الحلم ذاته .

قضيتهم الاساسية جميعا هي : كيف نحقق الصهيونية ؟ ان المعتدلين ينسبون أسباب الوصول الى الباب المسدود بتجاوزات التطبيق الاسرائيلي للصهيونية ، والتمادي في درجة الظلم الذي لحق بالشعب العربي من جراء هذا التطبيق .

ولكن ، هل يمكن العثور على وسيلة لتطبيق الصهيونية دون ان يكون الظلم نصيب العرب ؟

ليس بوسع أصحاب الفكرة الصهيونية ، بعد الان ، ان يستخدموا الذريعة القوية القائمة على ان الاباء لم يحسبوا حساب وجود شعب آخر على أرض فلسطين . وان أزمة الثقة الان بين بعض الشباب الاسرائيليين وبين الارض الفلسطينية يعود الى اصطدام علاقة الاسرائيلي بالارض بعلاقة شعب اخر بهذه الارض ، وخروج هذه العلاقة من دائرة الشكوى القانونية الى الممارسة العملية والاستعداد للموت في سبيل ترسيخها . هذا هو جوهر الصراع الدائر ، فكيف تكتمل عملية تحقيق الفكرة

الصهيونية وصيانتها من أزمة الشك ، من جهة ومحاولة تجربة السلام من جهة اخرى ؟

ان الحرب التي صاغت الشخصية الاسرائيلية ، وخلقت قاعدة مادية للاستقلال اليهودي على أرض فلسطين ، هي نفسها التي تكررت وقادت الاسرائيلي الى الاوهام ، ثم قادته الى المأزق التاريخي ، فصار يشكو منها حين لم تعد قادرة على الاستمرار في صياغته . فهل تخلصه محاولة السير في طريق غير الحرب من عذاب الحرب ، أم تخلصه مما أعادت عليه الحرب من مكاسب ؟

ان الصهيونية الاسرائيلية تشكو من الاستمرار في دفع ثمن الحرب ، ولكنها تطالب بالاحتفاظ بثمار الحرب ، وعلى رأسها الارض الفلسطينية .

وان اغلبية الاسرائيليين لم تتوصل الى استحالة الاحتفاظ بهذه المعادلة : تطبيق الصهيونية وتطبيق السلام . وليست فكرة « الصهيونية العمودية » بدلا من « الصهيونية الافقية » التي نادى بها أريه الياف الا مظهرا من مظاهر الاعتقاد الصهيوني الليبرالي الشائع بالقدرة على الاحتفاظ بهذه المعادلة .

يقول البروفيسور الاسرائيلي برينكر : « لا يوجد سبب للقول انه عندما نتنازل عن حلم اسرائيل الكاملة في حدودها الطبيعية ، فان الامر يعني تنازلا عن الحلم الصهيوني او تنازلا عن ايتوبيا المجتمع الاسرائيلي » . ولكن الدكتور يقع في شرك المنطق حين يسأل : وماذا بشأن الهجرة ؟. فيقول : « من المحظور علينا ان نتنازل عن حلم الهجرة . ان كل مبرر قيام دولة اسرائيل يقوم على الهجرة .. انها مرتبطة بحق الهجرة . ان هجرة اليهود الحرة الى اسرائيل ليست موضوع مساومة ، حتى لو كان ذلك من أجل تحقيق سلام حقيقي . وهذا يعني انه اذا كان الخيار هو الحرب ضد العرب حول الهجرة ، فاني أؤيد الحرب ضد العرب » .

من هنا ، يكون « التنازل » الصهيوني عن بعض المصالح في بعض المراحل شرعية صهيونية لمصلحة الصهيونية وليس تخليا عنها . ومن هنا أيضا يكون البحث عن حلم جديد اعادة لترتيب عناصر الحلم القديم بما يتلاءم مع المرحلة الجديدة .

ولكن ، هل يشتمل هذا التحايل على التاريخ اجابة على الاسئلة الصعبة التي طرحتها أزمة الثقة الناجمة عن ظاهرة اللانصر التي صدمت الاسرائيليين ؟ وهل بوسع الليبراليين الاسرائيليين أن يرمموا شظايا « الحق » الاسرائيلي الذي فجرته أسئلة الشباب ؟

لننظر أولا الى بعض هذه الاسئلة ، كما نشرتها صحيفة « معريب » [٧٤/٣/٢٤] :

« هل يوجد لمبررات الحق التاريخي أية قيمة . أم انها مجرد حيلة سياسية ؟.

ان حقنا على أرض اسرائيل يتناقض مع التطلعات القومية للوجود الفلسطيني . كيف يمكن حل هذه القضية ؟

هل يمكن أن يكون المبرر الاقتصادي سببا للتوسع الاقليمي ؟ وهل علينا الاعتماد على القوة أم على المبرر التاريخي ؟.

هل حقنا الادبي النابع من محاولة القضاء علينا في الحرب العالمية الثانية يعطينا الحق في اقامة دولة مستقلة لليهود ؟.

ما هو حق اسرائيل التاريخي في منطقة الساحل التي لم يسكنها اليهود في التاريخ القديم ؟.

هل البقاء لمدة خمس وعشرين سنة في مكان ما يمنحنا الحق التاريخي لملكية هـذا المكان ؟. والا فما هي المقاييس التي يتقرر بموجبها الحق التاريخي على مستوطنة ما ؟».

كانت قوة الردع الاسرائيلية قد ردعت العقلية الاسرائيلية العادية على طرح مثل هذه الاسئلة ، وكان الاحتكام الى الحق الذي تخلقه القوة هو الاجابة الجاهزة لانهـا « لم تخطيء محاكمتها » . وكان مصطلح « لا خيار » ، الـذي استخدمته السلطـة الاسرائيلية قبل كل حرب ، شائع المفعول بشكل يعفي العقل من حركته . وأهم من ذلك: كان الذهاب الى الحروب السابقة ذهابا الى الحل المؤقت لمشاكل اسرائيل الداخلية . وعشية حرب تشرين اعلن رئيس اركان الجيش الاسرائيلي انه اذا اندلعت حرب جديدة، فستكون « حرب الحساب مع العرب » . ولم يخطر ببال الاسرائيليين انها ستكون حرب حساب الاسرائيلي مع مؤسسته العسكرية والسياسية ، ومع فكرته التي حارب تحت لوائها دون أن يناقشها .

وان مناقشة الفكرة الصهيونية ، كما نرى من اسئلة الطلبة وبعض الجنود ، قد ارتقت الى درجة الشك بشرعية الوجود الاسرائيلي « والحق اليهودي » على أرض فلسطين ، وهي الحلقة الجوهرية في أزمة الثقة وفي الازمة الروحية .

وكان الكاتب بوعز عفرون أجرأ من اقتحم المحراب الصهيوني في مناقشة الطريقة التي تطرح بها الصهيونية حقها على فلسطين ، وقشر كل الدعاوي الصهيونية الكلاسيكية واحدة واحدة . ولاحظ ان الشك بشرعية اسرائيل جاء في الذكرى السادسة والعشرين لتأسيسها ، ولكنه « رافق المشروع منذ البداية » . ونفى في مقاله المنشور في صحيفة « يديعوت أحرونوت » [٧٤/٤/٢٤] أن تكون أسباب الشكوك بالشرعية الاسرائيلية ناتجة عن نقص في التثقيف . وقال ان مثل هذه الشكوك ما كانت لتثور ، منذ البداية، لو ان فلسطين كانت كما صورها الصهاينة الاوربيون الاوائل بأنها « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » .

ومع ذلك ، فان الكثيرين من الصهيونيين قد خدعوا أنفسهم بأن هذه الارض خالية من السكان « ولكن كل خطوة خطوها في البلاد اصطدمت بواقع ان تلك الفرضية كانت وهما » . وكل مبنى الاستيطان العبري قد صمم وفقا لواقع الصدام مع العرب . وهذا ما حدث : ان شعبا محبا للسلام ولا يحب العنف بطبيعته ، قد تحول الى واحد من أكثر الامم عسكرية في العالم ، لان هذه البلاد لم تكن بدون شعب . وحدث أيضا انه بعد كل صدام عبري عنيف وموجع مع الشعب الذي سكن هذه البلاد قبله ، ومع اخوته الذين يحيطون به ، ثار الشك في قلوب الشباب وغير الشباب بمدى شرعية كياننا هنا » .

يصطاد بوعز عفرون جوهر المسألة الذي يتجاهله كثير من المفكرين الاسرائيليين في معالجتهم أزمة الشك بالفكرة الصهيونية لدى شباب اسرائيليين ، وهو دور صراع الحق العربي في بعث هذا الشك ، وصعوبة انضباط التطبيق الصهيوني ومحاولة السلام في معادلة واحدة .

ان غياب العربي من الحلم الصهيوني ، وحضوره المقاتل خلال محاولة تطبيق هذا الحلم هما اللذان تتمحور حولهما المشكلة ، وان هذه المسافة الشاسـعة بين الحلم الصهيوني والوجود العربي هي التي أولدت أفدح ما يواجه القضية اليهودية من مخاطر، ونقلت اليهودي الذي عوض عن « ضياعه في المكان » ابداعا في الزمان ، من مكانه المسالم الي مكانه العدواني ، وصرف طاقاته في تشكيل شخصية جديدة في عصر انحسار مثل هذه الشخصية الاسبارطية عن مسرح صراع الجدارات في هذا الزمن . « لقد

جئنا متأخرين » هكذا صرخ البروفيسور تلمون ذو الحساسية البالغة تجـاه دروس التـاريخ .

ولكن الشك الذي « رافق المشروع من البداية » كان بحاجة الى مناخ للتبلور يستكمل فيه شرعية الاعلان . فقد كان نشازا في جو ما قدمته القوة العسكرية من براهين مضادة خلقت ، طيلة ربع قرن كامل ، انتعاشا متصاعدا وازدهارا مسكرا لشرعية الامر الواقع ولا محدودية العدوان والاستهتار بالطرف المضاد من قوى الصراع . أي ، كان حياء الشك بحاجة الى قوة خارجية تكسر القناعات السائدة . وهذا ما حدث في حرب تشرين التي لم تقنع الاسرائيليين بقابليتهم الطبيعية للهزيمة فحسب ، ولكنها أقنعتهم بأن هذه الحرب ليست آخر الحروب التي يليها السلام . أقنعتهم ان السلام — على الشروط الاسرائيلية — أكثر من بعيد ، ولكنه مستحيل .

واستقر في الادراك الاسرائيلي العادي السبب الحقيقي للحروب المستمرة ، فليست « عدالة » الصهيونية هي التي تتطلب هذا الثمن الدموي ، ولكن ظلمها لشعب آخـر هو الذي خلق حالة الحرب الدائمة ، فكانت الحرب نسفا للادعاء الصهيوني بـأن فلسطين أرض بلا شعب ، والا فلماذا تشن كل هذه الحروب ؟.

وقد عدد الكاتب بوعز عفرون سقوط القناعات والحجج الصهيونية حول الشرعيـة الاسرائيلية في فلسطين ، وأولها : الحجة الهرتسيلة الشائعة حول « ضائقة اليهود » والتي تتلخص في ان اليهود أقلية مطاردة لانها لا تملك أرضا لها وحقا في تشكيل أكثرية قومية في مكان ما . ويقول عفرون ردا على هذه الحجة ، انها كافية لتأسيس المطالبة بأرض — ولكنها غير كافية لانتزاع هذه الارض من شعب اخر وتشريده بين الامم .

الحجة الثانية هي أن اليهود باستيطانهم هذه البلاد يعودون بالتقدم والثقافة علـى سكانها . ويرد الكاتب بقوله : ولكن ذلك يشترط موافقة السكان الاصليين على قبول هذه العطايا !

الحجة الثالثة ، هي أن اليهود هم سكان البلاد القدامى ، وان الثقافة الوحيدة التي ازدهرت هنا كانت ثقافة يهودية .

ويقول الكاتب ان هذه الذريعة تشكل سابقة خطيرة لا تستطيع اسرة الشعـوب الموافقة عليها ، ففي مجرى التطور التاريخي استبدلت شعوب كثيرة أماكنها ، فهل يحق لكل شعب المطالبة بأرضه السابقة وطرد أصحابها الحاليين بالقوة ! اذن ، بوسع العرب أن يقولوا انهم انشأوا في أسبانيا حضارة كبرى ، وعلى أساس ذلك فمن حقهم المطالبة بانتزاع اسبانيا من سكانها .

الحجة الرابعة هي أن الشعوب مدينة لليهود بدين اخلاقي كبير ، وعليها أن تمنحها أراضي .

ويرد الكاتب قائلا ان الذين لاحقوا اليهود هم الاوربيون ، فلماذا يمارس الاوربيون هذا الكرم على حساب شعب لم يلحق بنا الاذى !

ويناقش بوعز عفرون محاولات الصهيونية التغلب على ضعف هذه الحجج بشتى الاجتهادات لافتعال قاعدة للشرعية الاسرائيلية ، منها نشوء شعب عبري جديد ، ومنها وعد بلفور الذي « وضع قاعدة لمكانتنا القانونية في البلاد » ولكنه يرفض هذا الادعاء ، لانه ليس من حق دولة مستعمرة مثل بريطانيا ان تمنح مثل هذا الحق .

ولا يبقى من المحاكمات الفكرية الا الذريعة الرسمية السائدة وهي ذريعة القوة ، التي مثلها الجنرال ديان في مرحلة ما قبل حرب تشرين ، وهي تعتمد على الاعتراف الصريح

بأنه لا أساس للعدل والحق الاخلاقي في الاستيطان الصهيوني في فلسطين . لقد كان هذا الاستيطان ، منذ البداية ، عمل عنف ونهب وسلب ، « فهذه هي الطريق المعتادة لخلق شعب جديد » .

وتعتمد هذه الحجة على القول بأن مصائر الشعوب لا يحددها العدل والحقـــوق الاخلاقية بل « الدم والحديد » وخلق الامور الواقعة . وما عدا ذلك من الذرائع الاخلاقية والقيم الانسانية ليست الا ستارا من دخان .

ان هذه النظرة الصريحة في المرافعة عن الشرعية الاسرائيلية تضع كل شيء على ميزان العنف والقوة . ويبدو ان اغلبية الاسرائيليين كانت أسيرة هذه المرافعة طيلة ازدهار حق العنف في تجربة ربع القرن الاول ، بدليل ان ما دفعهم الى اعادة النظر بخطورتها هو اختلال ميزان العدل الدموي بعد حرب تشرين .

ويلاحظ الكاتب عفرون ان هذه النظرة تنسف القاعدة الاخلاقية لاسرائيل ، وتعطي مبررا مقنعا لاعمال العنف المضاد . فاذا كان هذا هو ميزان الحق ، فكيف تندد بالعنف المضاد ؟ ولكن خطورتها على الاسرائيليين أنفسهم تكمن في أنها تدفعهم الى التساؤل عن جدوى التضحية من أجل هذه البلاد ؟ طالما انهم يعرفون ان لا حق لهم فيها الا بالقـــوة ؟ .

يقول الكاتب : « ان وضع كل شيء على ميزان القوة يعني الاعتراض على اعترافنا الذاتي بحقنا . ومن هنا ينبع اعتراض على قوة صمودنا الاخلاقية . فمن يعتقد ان حقه في هذه البلاد ليس الا حق القوة ، كيف يشعر فعلا بأنها بلاده ؟ كيف يستطيع أن يحبها بدون قلب ؟ كيف يضحي في سبيلها . واكثر من ذلك : اذا كان كل شيء يتوقف على القوة والمنفعة الشخصية ، فلماذا لا يسلك كل شخص وفقا لذلك في سلوكه اليومي ؟ ان هذه النظرة تقود الى التفتت والانانية ، وهذا ما ظهرت بوادره الاولى في الحرب الاخيرة » .

من أين يأتي الحق اذن ؟

ان الكاتب الاسرائيلي بوعز عفرون لا يعترض على « الحق » الاسرائيلي في فلسطين ، رغم صعوبة البرهنة . ولكنه يعترض على الطريقة الصهيونية الرسمية والشاملة التي يبرر بها هذا « الحق » . انه يبحث عن حق اكثر حقا ، اكثر صمودا امام المحاكمات الفكرية والعلمية ، واكثر اقناعا .

ويعترف بأنه من الصعب العثور على حق حقيقي ومقنع للشعب اليهودي في فلسطين « ولكن من الممكن ايجاد تأسيس لحق الشعب الاسرائيلي في اسرائيل » .

ويعتمد في ذلك على عنصر الزمن الذي انضج واقع « نشوء هوية قومية فريدة في نوعها . صحيح ، اننا يهود ، ولكننا اسرائيليون أيضا . وهذا ليس الشيء نفسه تماما » .

لعله يريد القول ان للاسرائيليين الذين نشأوا في فلسطين حقا في هذه البلاد بسبب تبلور طابع وطني خاص بهم ، ولكن ليس لليهود في العالم مثل هذا الحق . « نحن هنا لان هذه البلاد بلادنا ، لان لنا علاقة غير مشروطة بها ، مهما كانت الاسباب التي دفـــعت بآبائنا للمجيء هنا » .

كان من السهل على عفرون ان يسقط المرافعة الصهيونية التقليدية (الحق التاريخي) والسياسية الحالية (حق القوة) في أرض فلسطين . ولكن لم يجد السهولة ذاتها في محاولته صياغة حق حقيقي اسرائيلي ، لانه اعتمد على منجزات ما رفضه قبل قليل « مهما كانت الاسباب التي دفعت بآبائنا للمجيء » .

ولان عفرون يتمتع بحس أخلاقي واضح ، فقد رأى ان ينفي صفة السلب عن بدايات الاستيطان اليهودي في فلسطين ، ليعثر على رقعة اخلاقية للحق الذي يدافع عنه « لقد تم الاستيطان اليهودي بالطرق السلمية وليس عن طريق السلب . لقد تم شراء الارض لا انتزاعها . أما نهب الارض فقد بدأ بعد حرب التحرير » .

ولعل الكاتب لا يعير اهتماما للجوهر الواحد في عمليتي الاستيلاء على الارض ، فالوطن لا يشترى . ولعله أيضا بحاجة الى المغالطة ليعثر على تلك الرقعة الاخلاقية من ارض الحق . ولكنه مع ذلك يعترف بصعوبة تأسيس الحق . « كل من يعيش هنا من حقه ان يحيا » ويشترط ذلك « بشرط ألا ينزع هذا الحق عن الآخرين » .

● ماذا بعد عملية « حساب النفس » التي تجتاح المجتمع الاسرائيلي بعد مرور ربع قرن من خداع النفس ؟

ماذا بعد وصول حتمية الحرب الدائمة وقدرتها على خلـــق « الامر الواقع » الذي يؤسس قاعدة اوسع للحق .. الى الباب المسدود ؟

« انتصرت اسرائيل في ثلاث حروب ، وانتصرت تقريبا في الرابعة ، ومع ذلك لم يتم احراز اي تقدم نحو السلام . وهذا الامر كان يجب ان يقنع اكثر الناس تشككا بأنه لا امل في اجبار العرب على التسليم بكيان اسرائيل بالانتصارات العسكرية ، والاستنتاج الوحيد من هذا الوضع هو أنه لا بد من بذل محاولة جادة للتوصل الى التفاهم معهم بالوسائل السياسية والنفسانية » (ناحوم غولدمان) . و« حان الوقت للتفكير بمستقبلنا ووقف الحروب » (موشه كول) .. و« بما اننا لا نستطيع اخضاع العرب ، وبما انهم لا يستطيعون هزمنا ، فلنجرب الوسائل السياسية » (يهودا شعاري) . « حرب تشرين أكدت انه لا يمكن تحقيق سلام حقيقي على الطريقة الاسرائيلية » (برينكر) .

هنالك شبه اجماع على أنه ليس بوسع اسرائيل ان تفرض ارادتها على العرب ، وبالتالي ليس بوسعها فرض السلام . وهذا الاجماع الذي استقطبته حرب تشرين ، يقود اسرائيل الى مفترق طرق ، فالاستمرار في الحرب الدائمة كحل وحيد للمشكلة « هو تدمير احد الطرفين ، ومعنى ذلك نهاية الدولة اليهودية مهما طال الوقت اللازم كي يحقق العرب هدفهم » كما يقول غولدمان .

ويرى البروفيسور تلمون ان استمرار التجربة الصهيونية على الطريقـــة السابقة سيؤدي الى سقوط الصهيونية ذاتها : « اذا استؤصلت جهود السلام ، فلن نخرج من الازمة أقوياء . سيزداد الحصار . وستقع الحروب بين فترة وأخرى . وتزيد عزلتنا . كل ذلك سيؤدي الى سقوط الصهيونية حتى لو كانت حدودنا تمتد مـــن النيل الـــى الفرات » . ويضيف : « دون سلام لن يكون لنا وجود » .

مرة أخرى ، ماذا بعد تجربة الحرب الدائمة التي لم تحل مشكلة ؟

من الصعب التكهن بوجهة سير المرحلة الجديدة من تجربة المشروع الصهيوني . ان الاسرائيليين يحـــاولون التكيف مع معطيات المرحلة الجديدة ، ويمضـــون في تطبيق الصهيونية على ضوء امكانيات هذه المرحلة . ان انقاذ الايديولوجية الصهيونية هو أحد المهام الرئيسية في نشاطهم . وستكون محاولتهم الدخول في تجربة السلام — اذا حدث ذلك — أحد أشكال المحاولات لانقاذ الصهيونية وتوطيدها . فالسلام ، الآن ، كما يبدو لبعض المفكرين الصهيونيين ليس تنازلا عن الاهداف الصهيونية ، ولكنه حاجة لاستكمال بناء الصهيونية،وانقاذ المشروع الاسرائيلي من المأزق التاريخي الذي قادتهم الحرب اليه.

وعبّر غولدمان عن ذلك بقوله : « ان امكانيات اسرائيل ستكون أسوأ في المستقبل او

بعد حروب أخرى . وذلك لسبب بسيط هو انه اذا هزمت اسرائيل ، فقد يكون معنى ذلك نهاية الدولة ، في حين أن انتصارا اسرائيليا لن يؤدي الى سلام أفضل » .

ان استمرار الحروب الدائمة سيزيد من شدة المأزق التاريخي : الهزيمة معناها تدمير المشروع الصهيوني ، والانتصار معناه ابقاء المجتمع الاسرائيلي في حالة الحرب التي تزيد من اصرار العرب على مواجهة التحدي ، وهكذا تستمر الحلقة المفرغة . ومعناه تعمق التفتت الداخلي وازدياد أزمة الثقة بين الاسرائيلي والمؤسسة والفكرة الصهيونية . ويصرخ كاتب : « ألا توجد في حياتنا أهداف غير اقليمية وغير عسكرية » ؟

ولكن السؤال الصعب هو : هل تحل تجربة السلام — اذا خاضتها اسرائيل — مأزقها التاريخي ؟ او هل يستطيع سلاح السلام تحقيق ما عجز عنه سلاح الحرب طيلة ربع القرن الماضي ؟

ان اشد الاسرائيليين تفاؤلا لا يرى امكانية حقيقية للسلام ، ولكنهم يأملون في ان تكون التسويات الجزئية والاتفاقيات المحتملة حلقة في عملية صنع السلام التدريجي . « نحن بحاجة الى تسوية ، على الرغم من عدم قدرتنا الآن الوصول الى السلام ، لانه ليس بمقدورنا فرض السلام على العرب » (البروفيسور شلومو أفنيري) . ويضيف : « اذا تمكنا من التوصل الى سلام ممكن ، واذا ما وصلنا الى وضع يستمر عشر او خمس عشرة سنة دون حرب ، عندها يوجد احتمال للتوصل الى السلام المنشود » .

ولكن السؤال يبقى قائما : هل تنسجم أهداف تحقيـــق المشروع الصهيوني ، مع المطالبة بالسلام ؟

ان الاجابة الاسرائيلية شديدة الغموض ، وليس البحث عن « حلم جديد » للنشاط الصهيوني الا أحد أشكال هذا الغموض الناتج عن حيرة الاسرائيليين أمـــام واقع لم يحسبوا له حسابا .

لقد اقاموا ربع قرن من التأسيس على حد السيف . وعندمـــا تعرض هذا السيف للخدش تراءى لهم أن المؤسسة آيلة للسقوط ، فهل يستطيع سيف السلام أن ينشىء أعمدة ارسخ للهيكل الصهيوني ؟ وهل سيكون هذا السلام شكلا آخـــر من اشكال الصراع الطويل بين الصهيونية وحركة التحرر العربية ؟ أم ان المحاولة كلها لا تعدو كونها هدنة مؤقتة ستختل باختلال موازين القوى ؟

ان حق الاجابة على هذه الاسئلة ليس اسرائيليا بقدر ما هو عربي .

ولكن من الواضح ان مفترق الطرق الذي تواجهه تجربة المشروع الصهيوني أخطـــر تحد واجهته في تاريخها .

انها تقف الآن عند نهاية الحرب التي لا نهاية لها، وعند بداية السلام الذي لا بداية له.

النزاع الاقليمي في مرآة الوفاق الدولي

الدكتور أسعد عبد الرحمن

لو كان « تشارلز ديكنز » — الروائي البريطاني المعروف — ما يزال حيا لربما ردد عن هذا العصر ، عصر « الوفاق الدولي » ، عبارته الشهيرة « هذا افضل الاوقات، هذا اسوأ الاوقات » التي سبق له وان قالها قبل قرابة المئتي عام(١) . وبقدر ما تصيب هذه العبارة كبد الحقيقة ، اذا ما سيقت في معرض وصف كنه عصر « الوفاق الدولي » ، فانها أيضا تلخص ، بايجاز بليغ ، السبب الابرز في الجدل ، المستمر الصاخب المتناقض، الدائر حول ما يسميه البعض « نعمة » الوفاق الدولي وما يعتبره البعض الاخر « نقمة » الصيغة الجديدة المهيمنة على شبكة العلاقات الدولية .

الوفاق في زوبعة الاهواء السياسية الذاتية :

وما كان لهذا الجدل ان يضير احدا لو انه بقي في اطار المناقشة النظرية الفلسفية وضمن خط الرياضة الفكرية الثقافية أو لو انه اقتصر على الحوار السياسي الهادىء البعيد عن التزوير . الا أن تجاوز ذلك كله عن طريق « لوي ذراع » الحقائق ونزع صفتي الموضوعية « والبراءة » — اذا ما جاز التعبير — عن مسار البحث والمقصد الخاصين بالحوار ، أدى الى حالة من التشويش الفكري لم يعد معه التحاور القائم جاريا من أجل خدمة هدف بناء ، بقدر ما اصبح سلاحا غير نظيف تشهره بعض الاطراف المتنازعة ضمن نطاق « الحرب الباردة » الجارية في منطقتنا وخارجها من جهة ، وسلاحا موظفا في خدمة الابتذال السياسي الشائع في فكر وممارسة الكثيرين هذه الايام ، من جهة ثانية .

فقد فسر البعض ما اصبح يعرف بظاهرة « الوفاق الدولي » على أنها « مؤامرة » تم ، وفقا لها ، اقتسام العالم ضمن تنازلات متبادلة (محددة ، سرية وحاسمة) بين الدولتين الاعظم . كما أصر بعض من هذا البعض على ضم الصين الشعبية طرفا اسيلا ، اساسيا او ثانويا ، في ذلك الاتفاق — المؤامرة . ومنهم من صور الظاهرة على انها « ثلاجة العملاقين » التي تم فيها حفظ كافة النزاعات المحلية الاقليمية بحيث أصبح مستحيلا معه على الدول الصغيرة « تسخين » صراعاتها وحسم تناقضاتها .

واذا ما انتقلنا من العام الى الخاص ، وجدنا ان الاسواق السياسية الشرق اوسطية طفحت ، ربما أكثر من غيرها في مناطق العالم الاخرى ، بالذرائع التي تم « تعليبها » خصيصا في « مصانع » الاعلام الرسمي لاكثر من دولة عربية . وقد صبت جميع هذه الذرائع في مجرى واحد مؤداه ان الاتحاد السوفياتي — وهو الخاضع الراكع

---

* هذا هو الجزء الاول من دراسة مطولة استهدفت فحص حقيقة معادلة الوفاق الدولي تمهيدا لجزء ثان يرسم صورة النزاع الشرق اوسطي كما انعكس على مرآة الوفاق اثناء حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ مع اهتمام خاص بالظاهرة « الكيسنجرية » وحركتها في المنطقة خلال الحرب وبعدها .

في هيكل « الوفاق الدولي » ـــ نذر التضحية بالحقوق العربية علـــى مذبح « الانتهاز الدولي » قربانا منه عن مصالحه الخاصة . وعليه ، مارس الاتحاد السوفياتي ضغطا تمثل ـــ هكذا تتتابع « حقائق » هذا المنطق ـــ في حجبه السلاح المتقدم عن هذه الدولة العربية او تلك منعا منه لكل جهد يهدف الى ترجمة ارادة القتال المبلورة لدى بعـــض الحكام العرب !!.

وعندما ثبت لاحقا ، باندلاع الحرب العربية ـــ الاسرائيلية الرابعة ، ان التردد في القتال لم يكن ناجما عن سلاح سوفياتي (اتضح انه متوافر بنوعية متطورة وبكثافة) او عن قرار سياسي سوفياتي موهوم ملتزم بالتسوية السلمية طريقا اوحدا لحل النزاع (مع ان الاتحاد السوفياتي اكد علنا ، اكثر من مرة ، قبل الحرب انه يؤيد اعتماد الدول العربية « أية اشكال للنضال من أجل تحرير اراضيها »)(٢)، عندما ثبت ذلك كله وثبت معه ان التهم الملصقة بالوفاق الدولي وبالاتحاد السوفياتي انما نجمت عن غزل خفي كان جاريا آنذاك وفشل بعدئذ في تحريك قلب الولايات المتحدة ، بـــرزت في السوق السياسية العربية ذرائع جديدة معدة في مصانع الاعلام الرسمي العربي ذاتهـــا ، وملخصها ان حرب تشرين الاول تمت رغم ارادة الدولتين العظميين ، مع غمز صريح من قناة الاتحاد السوفياتي بشكل خاص(٣).

واذا كانت الذرائع والتهم والتشويهات المتعمدة المشار اليها اعلاه مجرد «مقتضيات» بدهية تفرضها طبيعة الصراع السياسي او حلقات في سلسلة « القواعد » المعترف بها في مجال « اللعبة السياسية » ـــ الدولية والمحلية على حد سواء ـــ فان اقصى ما تطمح اليه هذه الدراسة هو : **اولا** : تعرية ابرز المرتكزات التي يتكىء عليها البعض كلمـــا شهروا سلاح التشويه ذاك ، **وثانيا** : القاء خيوط ضوء قد تساعد على ازالة الظلال التي تلف بعض جوانب مدلولات « الوفاق الدولي » كصيغة من صيغ العلاقات الدولية بشكل عام ، وكأسلوب للتعامل بين الدولتين الاعظم بشكل خاص . واذا كان مفترضا للهدف الاول ان يتحقق في سياق البحث وضمن استنتاجات سطوره ، فان محـــاولة تحقيق الهدف الثاني مهمة يمكن لنا المباشرة في انجازها حالا .

المعنى الدقيق ـــ البسيط للوفاق : ما هو ؟

على أن الاتجار بتفسيرات ذاتية حول « الوفاق الدولي » وتلبيسه اثوابا تتناسب مع هوى أو هدف سياسي معين ، وان كانا اسلوبين يفسران الخطأ المقصود والتشويه المتعمد والغموض المنتهز من قبل البعض ، فانهما لا يقدمان تفسيرا يشمـــل ايضاح أسباب الخطأ والتشويه غير المقصودين والغموض الذي يلف ، بالطبيعة والاصل ، تعبير Détente (الاصل الانجليزي لعبارة « الوفاق الدولي ») . ذلك التعبير الذي شاعت له ترجمة خاطئة (من الانجليزية الى الانجليزية ، ومن الانجليزية الى العربية ـــ على حد سواء) أدت الى حرف معناه عن مدلولاته الحقيقية وسهلت مهمة من شاء الاستفادة من الخطأ الشائع ذاك لخدمة اغراضه السياسية الخاصة .

ففي حين ارتأى البعض تفسير الكلمة (Détente) على أساس انهـــا تعني تقـــاربا (Rapprochement) او معالجة « لعوارض التوتر دون أي تغيير حقيقي في اسبابها »(٤)، راجت ، بالعربية ، عبارة « الوفاق الدولي » على حساب غيرها من العبارات المترجمة الاخرى بالرغم من كونها ترجمة خاطئة لكلمة (Détente) . اذ ان هذه الاخـــيرة تعني « ارخاء للتوتر » ـــ (Relaxtion of Tension) او « انهاء لتوتـــر بين دولتين او اكثـــر واستئنافا للعلاقات العادية بينهما »(٥)، في حين تعني كلمة « الوفاق » ـــ في العلاقات الدبلوماسية ـــ « الاتفاق في الرأي والعمل »(٦). هذا اذا ما استثنينا اشكالا اخرى من

الفهم الذاتي الذي اختزل معنى (Détente) وساواه بالتجارة بين الدولتين الاعظم تارة وبحقوق الانسان ، او الهجرة او الحد من السلاح او غير ذلك من المعاني الضيقة تارة اخرى(٧) .

اذن فما يشار اليه بعبارة « الوفــاق الدولي » ما هو ، في الحقيقــة وفي الترجمة الدقيقة للكلمة الاصلية ، الا « ارخاء » او « انهاء » للتوتر في العلاقات بين الدولتين الاعظم وغيرهما من الدول الاخرى . واذا كان هذا الشرح الموجز يقدم الاطار الخارجي لمعنى « الوفاق الدولي » فان صورته الكاملة ، بمعالمها الرئيسية وتقاطيعها الجزئية ، ستتضح ــ تدريجا ــ عبر مسار هذا البحث .

الوفاق القديم : ما هو ؟

والوفاق بمعناه البسيط والدقيق هذا ليس بالظاهرة الجديدة تماما . اذ ان الجهود الخاصة لتدليك العلاقات المتشنجة بين الدولتين الاعظم بدأت ، على وجه التقريب ، منذ منتصف الخمسينات بفضل مبادرات صدرت عن جهتين بارزتين :

ــ جهود الاتحاد السوفياتي الاولية في اعقاب وفاة ستالين في العام ١٩٥٣ وما تلاها من تكريس رسمي لتلك الجهود تحت شعار « التعايش السلمي » . وقد تبنى المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٥٦ هذا الشعار وجعل منه حجر الزاوية في بناء السياسة الخارجية للدولة .

ــ مبادرات الدول المتحررة النامية التي بدأت رحلتها الانفراجية ، داخل أعماق غابة العلاقات الدولية السائدة آنذاك ، مستقلة قطــار « عدم الانحياز » ــ و« الحيــاد الايجابي » لاحقا ــ من محطة « مؤتمر باندونج » في العام ١٩٥٥ .

الا ان بقايا المرحلة المكارثية في الولايات المتحدة الاميركية ، واصرار « جون فوستر دالاس » على رفع علم « من ليس معنا فهو ضدنا » على سارية « البيت الابيض » الاميركي ، وتطوع او تورط الرئيس ايزنهاور في تسجيل « تركة » الاستعمار القديم في « دائرة طابو » الامبريالية الجديدة وفقا لوثيقة « فراغ ايزنهاور » في العام ١٩٥٧ ، كانت جميعا بمثابة وضع عصي اميركية في دواليب عربة الانفراج الدولي الذي حاولت الدولة الاشتراكية الاولى والدول المتحررة النامية تسييرها على قضبان شبكة خطوط العلاقات الدولية*.

غير أن انتخاب جون كينيدي رئيسا جديدا للولايات المتحدة منذ مطلع العام ١٩٦١ ، وعبرة أزمة الصواريخ الشهيرة في العام ١٩٦٢ وما تلاها من ترتيبات تم الاتفاق عليها بين الجبارين بهدف « التعامل مع الازمات (Management of Crisis) ومن ضمنها انشاء « الخط الحار » بين الكرملين والبيت الابيض » جاءت كلها لتساعد في خلق أجواء بشرت بانفراج حقيقي تنقشع معه الغيوم التي كانت قد لبدت سماء العلاقات بين البلدين في الماضي . وقد تم ، في هذه الفترة ، التوقيع على اتفاقية حظر التجارب الجزئية (النووية) في العام ١٩٦٣ كما تم لقاء قمة ناجح بين كينيدي وخروتشيف في اعقاب اشتراك الاخير في أعمال الدورة الخاصة للامم المتحدة في العام ذاته . هذا وقد بادر الاتحاد السوفياتي ــ في رسالة بعثها نيكيتا خروتشيف في ١٩٦٣/١٢/٣١ الــى جميع زعماء العالم ــ بتوجيه دعوة الى جميع الدول لعقد « اتفاق او معاهدة دولية تتعهد فيها الدول بعدم

---

* هذا على الرغم من ان هذه الفترة شهدت اجتماعات على مستوى القمة بين بولغانين وايزنهاور في جنيف (١٩٥٥) ، وايزنهاور وخروتشيف في كل من كامب ديفيد (١٩٥٩) ، وباريس (١٩٦٠) . انظر *Keesings Archives 1973*, p. 26003.

اللجوء الى القوة في سبيل حل الخلافات الاقليمية او النزاعات المتعلقة بالحدود »(٨).

ومع اغتيال كينيدي في نهاية العام ١٩٦٣ وسقوط زعامة خروتشيف في العام ١٩٦٤ ، افرغت الرياح من اشرعة سفينة الانفراج الدولي بسبب السياسة المتعنتة المتشددة التي مارسها ليندون جونسون ، الرئيس الاميركي الجديد(٩)، وما تبعها ، في الجهة الاخرى ، من سياسة متصلبة منعزلة عن العالم أثر نجاح بعض قوى الجيش والامن والحزب في الاتحاد السوفياتي في « فرملة » سياسة « التخلص من آثار الستالينية » التي كانت ، في اندفاعها الشديد ، قد بدأت تتسارع بشكل مثل خطرا على التوازن العام في الداخل والخارج . ومما يجدر ذكره في هذا المجال ان قمة سياسة « الفرملة » تلك جاءت مع اعادة الاعتبار لستالين في عيده التسعين في ١٩٦٩/١٢/٢١ واعادة تشييد تمثاله على قبره في حزيران — يونيو ١٩٧٠(١٠).

لهذا كان أمرا طبيعيا ، والمؤثرات والتطورات فاعلة وجارية علـــى ذلك النحو في النظامين العملاقين ، ان يشهد العالم تسخينا لصراعهما الذي تحلق ، هذه المرة ، حول فيتنام بشكل خاص . وهكذا اسدلت الستارة على مرحلة الانفراج تلك بانتظار ظروف مؤاتية وزعامات جديدة تتولى مهمة اذابة الصقيع الذي جمد دماء الانفراج في عروق العلاقات المتشنجة بين الجبارين*.

الوفاق الجديد : ما هو ؟

ومع ان التمخضات التي أدت الى ولادة « الوفاق الجديد » غير معزولة عن مجمل التطورات التي سبقتها ، وبخاصة في فترة التقوقع السوفياتي والهجوم الجونسوني الاميركي اللذين تلازما طوال معظم سنوات النصف الثاني من الستينات ، فان بالامكان الاشارة الى العام ١٩٦٩ على انه النقطة الزمنية التي شهدت البداية الحقيقية للانعطاف الحاسم باتجاه هذه المرحلة من الوفاق الجديد(١١).

ويمتاز وجه هذا الوفاق عن سابقه بقسماته ومعالمه المحددة التي يمكن تبينها بوضوح في الاتفاقات الرسمية المعلنة . كما انه وفاق متعدد الرؤوس لا يقتصر على الاتحـــاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية بل يتعداهما ليشمل الصين الشعبية التي طالما حاول « الدركي » الاميركي حصارها ضمن نطاق « السور الصيني العظيم » سياسيا وثقافيا ودبلوماسيا واقتصاديا وعسكريا .

وعلى الرغم من أهمية العوامل الفردية الذاتية التي أسهمت في انضاج ثمرة الوفاق تلك ، فان وراء سياسات « ارخاء التوتر » التي اعتمدت من قبل الدول المعنية ، عوامل موضوعية تتصل بمختلف مناحي النشاطات الرئيسية ضمن مجتمعات تلك الدول . وفيما يلي استعراض موجز لهذه العوامل .

الوفاق : لماذا ؟

وتبرز في هذا المجال ملاحظتان عامتان أساسيتان :

الاولى : ان الدول الكبرى (وعلى وجـــه الخصوص الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفياتي والصين الشعبية) وصلت في وقت متقارب ، وتحت وطأة ظروف متنوعة ،

---

* على ان هذا لا يعني حدوث انقطاع تام بين الدولتين الاعظم . فبالاضافة الى العلاقات الرسمية العادية، تم الاتفاق بينهما ، في العام ١٩٦٧ ، على اتفاقية الفضاء الخارجي بالاضافة الى الاتصالات التي تلت الحرب العربية — الاسرائيلية الثالثة واجتماع جونسون — كوسيجين في « جلاسبورو » في العام ١٩٦٧ . انظـــر :
Ian Smart, «The Super - Powers and the Middle East,» *The World Today* (London: RIIA, Vol. 30, No. 1, Jan. 1974,) pp. 9-10.

الى حالة ملل وارهاق من العلاقات السابقة مما حفزها الى البحث عن صيغة هدنة تريحها مدة قد تطول أو تقصر .

والثانية : قيام توازن في القوى الاستراتيجية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة — سواء كدولتين منفردتين أم كزعيمتين تقودان معسكرين متصارعين — مما أدى الى الغاء كل امكانية لانتصار احداهما على الاخرى انتصارا حاسما عن طريق استخدام القوة مما حتم عليهما ، بالتالي ، اعادة ترتيب اوضاعهما وعلاقاتهما وفقا للتطورات الجديدة . وتجدر الاشارة في هذا المجال ، الى ما أكده الرئيس ريتشارد نيكسون نفسه من ان التفوق الاميركي الحاسم في الاسلحة الاستراتيجية الذي كان قائما من (١٩٥٠ — ١٩٦٦) انتهى الى تفوق بسيط بين (١٩٦٧ — ١٩٦٩) والى توازن ثابت منذ العام ١٩٦٩(١٢).

أما الاسباب الخاصة التي حدت بالولايات المتحدة الى اعتماد سياسة الانفراج الجديد فنابعة بالاساس من شعور بضرورة « التوجه الى الداخل » لحل المشاكل شبه المستعصية التي تنتصب أمامها(١٣). وهذا التوجه لم يأت اعتباطا بل بفعل ضغوطات داخلية لها وزنها وشأنها :

● فالرأي العام الاميركي ، خاصة في اعقاب فشل الهجمة الجونسونية في فيتنام وازدياد تورط الولايات المتحدة هناك الى درجة خطيرة مست مصالح ومشاعر كل عائلة اميركية بشكل مباشر او غير مباشر ، أصبح متشددا ازاء كل سياسة لا تخفف من التزامات البلاد في الخارج ناهيك عن السياسات التي تدعو الى استمرار او زيادة تلك الالتزامات(١٤).

● واذا كان « المزاج الاميركي العام » السائر باتجاه تقليص الوجود العسكري للولايات المتحدة في الخارج ينال استحسان وموافقة القوى والقواعد الشعبية اللبرالية من انصار « الانعزالية التقدمية » فانه ، أيضا ، يرضي القوى والجماهير المحافظة القلقة على ميزان المدفوعات الاميركي(١٥).

● كما يجدر التنويه ، باستمرار ، بأهمية القوى التجارية الاميركية الضاغطة باتجاه تحقيق الوفاق ودعمه سعيا وراء فتح اسواق الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية امام التجارة الاميركية(١٦).

● كذلك فان القوى الصهيونية ، التي لا يخفى على احد قوة جبروتها في الولايات المتحدة ، مهتمة بالوفاق لانه يزودها بسلاح اضافي تستخدمه سلبيا (بمعنى التهديد بمعارضة الجهود الداعية الى الوفاق ما لم تتحقق أهدافها الخاصة) من خلال الضغط على « البيت الابيض » ليضغط بدوره على « الكرملين » من اجل فتح ابواب الاتحاد السوفياتي لهجرة مواطنيه اليهود الى اسرائيل(١٧).

● وأخيرا وليس آخرا ، جاءت قضية « ووترجيت » وغيرها من الفضائح وما نجم عنها جميعا من تدهور في شعبية الرئيس نيكسون وضعف مركزه ، لتدفعه بتسارع اكبر باتجاه انجاح سياسة الانفراج كدليل على استمرار وثبات انجازاته الخارجية التي رفعت شعبيته ، في فترة من الفترات ، الى احدى أعلى القمم المعروفة في تاريخ الولايات المتحدة . وبعبارة أخرى فان هذه الانجازات والرهان على استمرارها وتنميتها تشكل الجزء الاساسي من « الراسمال السياسي » الذي يمتلكه الرئيس نيكسون للدفاع عن نفسه كلما ضاق نطاق حبل « الووترجيت » حول عنقه(١٨).

اما أسباب الاتحاد السوفياتي الخاصة التي تجعله متحمسا للوفاق فانها تدفعه باستمرار وقوة نحو « التوجه الى الخارج » لحل المشاكل التي يعاني منها :

● فهموم الاتحاد السوفياتي ، وعلى راسها الاعباء المالية ــ العسكرية الهائلة التي يتحملها ، على الجبهة الغربية (المانيه الغربية على وجه الخصوص) لا حل لهـا الا بالتوجه الى الخارج .. الى الولايات المتحدة تحديدا(١٩). ومما لا شك فيه ان الزعماء السوفيات وجدوا فرصة سانحة وتشجيعا كبيرا في سياسة ويلي برانت ، المستشار الالماني الغربي ، المعروفة باسم (Ostopolitik) الهادفة الى تقليل التوتر بين بلاده والدول الشيوعية(٢٠).

● كما ان مخاوف الاتحاد السوفياتي ، بتكاليفها السياسية ــ المالية ــ العسكرية الباهظة ، على الجبهة الشرقية وتناغمها المحتمل مع مخاطر الجبهة الغربية عبر تفاهم صيني ــ اميركي ، شكلت عاملا ثانيا جعل الكرملين يتوجه الى الخارج .. وتحديدا الى الولايات المتحدة(٢١).

● كذلك يجب اعطاء اهمية خاصة للمصالح الاقتصادية التي تشكل « طاقة دفع » كبيرة تحرك الاتحاد السوفياتي باتجاه الغرب اجمالا والولايات المتحدة بشكل خاص . وهذه المصالح ثلاثية الجوانب : افتقار السوفيات الى تكنولوجيا الغرب ، واحتياجهم الى استيراد رأس المال الغربي من اجل استثمارات بعيدة المدى لاستخراج الثروات الطبيعية في سيبيريه وغيرها ، بالاضافة الى رغبته في استئناف وتنمية العلاقات التجارية العادية بين البلدين كما كانت عليه في الفترة ١٩٣٥ ــ ١٩٥١(٢٢). هذه العلاقات التي غالبا ما يساء فهم المقصود منها نتيجة الاشارة اليها بعبارة « رغبة الاتحاد السوفياتي في تلقي معاملة الدولة الاكثر تفضيلا (Most-Favored-Nation (MFN من الولايات المتحدة » مع أن ذلك لا يعني ، في الحقيقة ، « امتيازا » او « معروفا » او » دعما « خاصا يبتغيه الاتحاد السوفياتي(٢٣). فكل ما في الامر هو ان ذلك التعبير يطلــق على العلاقــات الاقتصادية **العادية** ، وعليه ، بدلا من القول بأن الولايــات المتحدة تفرض **مقاطعــة** اقتصادية على دولة ما ، يقال أنها لا تعاملها معاملــة الدول الاكثر تفضيلا (MFN). ورغبة الاتحاد السوفياتي في اعادة العلاقات التجارية العادية نابعة من انتهاء « الحرب الباردة » التي « أوجبت » في الماضي فرض المقاطعة الاقتصادية عليه من جهة ، وناجمة عن حاجته الى استيراد الحبوب والبضائع الاستهلاكية والى تنميــة اسواق بضائعه لتعديل ميزان مدفوعاته التجاري من جهة ثانية(٢٤).

● واخيرا يحلو لبعض المصادر الغربية أن ترجع سياسة الانفتــاح الخارجي التي ينتهجها الاتحاد السوفياتي الى رغبته في تجنب الانفتاح الداخلي الذي ــ كما يقال ــ أنهته الزعامة الجديدة عندما أطاحت بزعامة نيكيتا خروتشيف وسياساته منذ العــام ١٩٦٤ . ويفسر البعض حماس الزعامة الحالية لانجاح سياســة الوفاق الى وجود تيارين : احدهما متصلب ضد كل انفتاح على العالم الغربي ، والآخر يراهن على ذلك الانفتاح اسلوبا لحل المشاكل الداخلية . وانه من الطبيعي الافتراض ان كل فشل يصيب سياسة التيار الثاني يؤدي بالضرورة الى تدعيم سلطة التيار المتشدد(٢٥).

اما الاسباب الخاصة التي حدت بالصين الشعبية الى الالتحاق بقافلة الانفراج الدولي فيمكن تلخيصها على النحو التالي :

● فشل سياسة الولايات المتحدة التي فعلت المستحيل ، منذ انتصار الثورة الصينية في العام ١٩٤٩ وحتى نهاية الستينات ، لمحاصرة « السرطان الاصفر » تمهيدا للقضاء عليه . وقد اعقب ذلك الفشل تغير في السياسة الاميركية باتجاه الانفتاح على دول العالم الشيوعي ومن ضمنها الصين . وطبعا ، كان يهم الصين الشعبية ان تنطلــق خارج حدودها لتثبت وجودها في أماكن ومناطق لم يكن متيسرا لها أن تكون فيها لولا نجاحها في الغاء الفيتو الاميركي .

● واذا كان ما أشير اليه أعلاه هو « الاعتبار الاميركي » الذي دفع الصين حثيثا نحو تقبل وتبني الانفراج في علاقاتها مع ألد اعداء الامس — الولايات المتحدة ، فان العلاقات البالغة التردي مع أقرب حلفاء الامس — الاتحاد السوفياتي ، ولدت مخاوف حقيقية لبكين وشكلت « الاعتبار السوفياتي » الذي حفزها الى الاقتراب أكثر من الولايات المتحدة . هذا كله بالاضافة الى « الاعتبار الياباني » الذي شغل حيزا ليس بالقليل في مخاوف وحسابات الصين الشعبية بعد تنامي قوة اليابان ووزنها الدوليين(٢٦).

المرتكزات النظرية للوفاق : ما هي ؟

وتتحلق هذه المرتكزات ، سوفياتيا وصينيا*، حول مبدأ « التعايش السلمي » . وقد تكرس هذا المبدأ عمادا للسياسة الخارجية السوفياتية في المؤتمر العشرين للحزب السوفياتي كما تأكد ، بعد ذلك ، في جميع المناسبات والمؤتمرات الحزبية وغير الحزبية . وبالامكان — تجنبا للتكرار وابتعادا عن الغوص في التفاصيل التاريخية — تلخيص القواعد الاساسية للموقف السوفياتي ، كما وردت في خطاب الرئيس نيكولاي بودجورني في حفل استقبال الرئيس الاميركي نيكسون في ٢٢ أيار — مايو ١٩٧٢ ، على النحو التالي :

« الاتحاد السوفياتي ، ومعه بلدان المجموعة الاشتراكية وجميع قوى السلام الاخرى ، يسارعون دوما الى الدفاع عن السلام ومن أجل تخليص الاجيال الحاضرة والمستقبلية من تهديد الحرب ومن كوارث النزاع النووي ومن اجل القضاء على مكامن الحرب .

اننا نقف مع تحول جذري باتجاه ارخاء التوترات القائمة في جميع قارات العالم ، ومن اجل تحرير الشعوب من عبء (التسلح) الثقيل ، ومن أجل تسوية سياسية سلمية للمشاكل عن طريق المفاوضات **مع الاخذ بعين الاعتبار أماني (طموحات) وارادة الشعوب وحقها الطبيعي في تقرير مصائرها دون تدخل او ضغط من الخارج.**

ومنذ السنوات الاولى للدولة السوفياتية الفتية ، تيقن مؤسسها ف. ا. لينين من الحاجة الموضوعية والامكانية (الفعلية لتحقيق) تعايش سلمي بين دول النظم الاجتماعية المختلفة . واليوم ، كما في الماضي ، الاتحاد السوفياتي مستعد لتطوير وتعميق علاقات التعاون التجاري والروابط ذات الفائدة المشتركة مع دول ذات نظم اجتماعية مختلفة ... والاتحاد السوفياتي يعتبر انه ممكن ومرغوب فيه (العمل من أجل) اقامة علاقات ليست جيدة فحسب بل وصديقة بين اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والولايات المتحدة ، **وبالتأكيد ، ليس على حساب بلدان او شعوب (طرف ثالث)** ... وعلى (الاتحاد السوفياتي) والولايات المتحدة ، التصرف بطريقة تبعد خطر حرب كونية ، وتزيل آثار الحرب الباردة من العلاقات السوفياتية — الاميركية تؤدي الى تخليص علاقاتهما ، قدر ما هو ممكن ، من كل ما عقدها وازعجها في الماضي وحتى في الحاضر .

... اننا نتابع (سعينا) من وجهة النظر (القائلة) بأن المحادثات السوفياتية — الاميركية ، ستساعد في حل المشاكل العالمية الملحة لصالح الشعبين السوفياتي والاميركي (ولصالح) **شعوب جميع البلدان** ، ولمصلحة السلام العالمي »(٢٧).

ومع ان الموقف السوفياتي المعبر عنه في مبدأ « التعايش السلمي » موقف تم تبنيه والاعلان عنه والسعي اليه — سوفياتيا — منذ مدة طويلة ، فانه بقي ، الى حد بعيد ،

---

* لاسباب تتعلق بتشابه الحيثيات النظرية الخاصة بالربط بين مبدأ « التعايش السلمي » والوفاق الدولي **أولا** ، وبثانوية دور الصين الشعبية في النزاع الشرق أوسطي **ثانيا** ، ولكون مستوى تقارب الصين مع الولايات المتحدة دون مستوى الانفراج بين الاخيرة والاتحاد السوفياتي **ثالثا** ، وكي لا يثقل على القارىء بتفاصيل غير ذات تماس واضح بموضوعنا **رابعا** ، آثرنا قصر البحث في هذا القسم من الدراسة على الوفاق كما تجلى في العلاقات السوفياتية — الاميركية .

حبرا على ورق بسبب معاناة الولايات المتحدة ــ في فترة من الفترات ــ من تصور ذاتي افترضت معه انها ــ اذا جاز التعبير ــ « النبي المسلح » الذي يصنــع لهذا العالم مبادئه وأخلاقياته وحدود سلوكه من جهة ، ويتعهد الحفاظ عليها ، وتثبيتها ، ونشرها وتمزيق كل معارضة لها بحد السيف كلما اقتضت « الضرورة » ذلك من جهة ثانية .

ومع ان رياح الظروف الموضوعية داخل الولايات المتحدة أصبحت مؤاتية لقبــول سياسة « التعايش السلمي » السوفياتية بعد ازمة كوبه في العام ١٩٦٢، أصرت الادارة الجونسونية آنذاك على السباحة عكس التيار . وكان ريتشارد نيكسون ، في حدود معلوماتنا ، أول زعيم سياسي اميركي رأى حتمية الانفراج ودعا اليه بقوة . بل انه ذهب الى حد رسم خطة سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة مثلت مــا يمكن اعتباره سياسة « رئيس الظل » الخارجية . فقد نشر نيكسون ، في تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٦٧ ، مقالة وضع فيها الاساس النظري الاميركي لبناء « الوفاق الدولي » الذي تولى، شخصيا ، مسؤولية الاسهام في تشييده بعدما تربع على قمة هرم السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة في العام ١٩٦٩ .

يصف نيكسون ــ في تلك المقالة ــ الولايات المتحدة بالدولــة « المنهكة بالحرب ، المخذولة (بسبب) الحلفاء ، المخيبة الآمال (بنتائج) مساعداتها والفاقدة الشجاعة (بسبب) أزماتها المحلية »(٢٨) ويتنبأ بأن أول آثار حرب فيتنام سيكون موجة انعزالية تجعل الراي العام والكونغرس « غير ميالين » لتدخلات مشابهة ، وبالتالي ، فان « على الامم الاخرى ان تعترف بأن دور الولايات المتحدة كرجل بوليس عالمي من المحتمل (له) أن يكون محدودا في المستقبل »(٢٩) . ويضيف نيكسون انه اذا ما تدخلت الولايات المتحدة فان ذلك سيكون بعد ان تقوم الدول في منطقة ما بتوحيد جهودها لحماية نفسها (مــع ضمانة اميركية بتوفير كل ما يلزم من مساعدات غير مباشرة) ، وبعد أن تبادر جميعها ــ في حال فشل مساعيها الذاتية ــ الى طلب المساعدة الاميركية المباشرة(٣٠) .كما طالب نيكسون ــ في المقالة ذاتها ــ بضرورة « تقليل عدد المناسبات التي يتوجب (فيها) على الدول النووية اتخاذ قرار بالتدخل (في النزاعات الاقليمية) الى الحد الادنى » وذلك كي يمكن تجنب حرب عالمية جديدة بين الدول الكبرى(٣١) . هذا وقد خص نيكسون ــ في مقالته ــ الصين الشعبية باهتمامه مؤكدا استحالة تركها « خارج مجتمع الامم » ، داعيا الى « محاصرة (تأثيراتها) دون عزلها »(٣٢) . كما حث نيكسون ــ في نهاية المقالة ــ الدول الكبرى الثلاث (الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية) التي تتنافس على « العالم الثالث » الى الانفتاح على بعضها بعضا قطعا للطريق على كل ما من شأنه تهديد السلام العالمي(٣٣) .

على صعيد آخر ، تظهر هذه الافكار بشكل اكثر تبلورا وتكتسب قوة مادية كبيرة في التقرير الذي قدمه نيكسون ، بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية ، للكونغرس في مطلع العام ١٩٧٠ والذي استهدف منه وضع « منهج جديد في السياسة الخارجية ليتلاءم مع عصر جديد في العلاقات الدولية »(٣٤) . وهذا المنهج ــ كما يوضح الرئيس نيكسون ــ قائم على ثلاثة أعمدة رئيسية : الشراكة (Partnership) والقــوة (Strength) والتفاوض (Negotiations) (٣٥) .

وتنبع هذه المنطلقات الثلاثة من الخطة السياسية التي رسمها نيكسون في العــام ١٩٦٧ والتي أصبحت تعــرف ، منذ القى خطابــه في قاعــدة جزيرة جوام (Guam) العسكرية في المحيــط الهادي بتاريــخ ١٩٦٩/٧/٢٥ ، باسم « مبــدأ نيكســون » (The Nixon Doctrine) (٣٦) . ويحث هذا المبدأ حلفاء الولايات المتحدة على تولي شؤون دفاعهم بأنفسهم وتشكيل توازن محلي في القوى بدلا مــن دفع القوات الاميركية الــى

التدخل في النزاعات الاقليمية طالما انـــه بالامكان تلافي ذلك*. وعليه ، يدعو « مبدأ نيكسون » الى تقليل الاعتماد على « الروابط المؤسسية »(Institutional Connections) لصالح العلاقات الثنائية على أساس تعهد الولايات المتحـــدة بالتصدي ، منفردة لو اقتضى الامر ، للاتحاد السوفياتي(٣٧). وفي حديثه عن مبدئه (مبدأ نيكسون) يقول الرئيس الاميركي :

« مغزاه المركزي ان الولايات المتحدة ستشارك في الدفاع عن (والاسهام في) تطوير حلفائها واصدقائها . ولكن اميركا لا تستطيع ولن تتصور (تضع) **جميع** الخطط ، وترسم **جميع** البرامج ، وتنفذ **جميع** القرارات ، وتتعهد بالدفاع عن **جميع** الامم الحرة في العالم . سنساعد حيث يكون هناك فارق حقيقي ولمصلحتنا ... لسنا منغمسين (ذوي علاقة) في (شؤون العالم) لان لدينا التزامات . لنا التزامات لاننا منغمسون (ذوو علاقة). **مصالحنا يجب ان تصوغ التزاماتنا وليس العكس** »(٣٨).

وقد أثبتت الوقائع اللاحقة ان صياغة هذه القواعد وتبنيها علنا ، لم يكونا ــ بالنسبة لادارة نيكسون ــ نوعا من الترف الفكري اللفظي الدعاوي بقدر ما كانا محاولة للتواؤم مع الظروف المادية الضاغطة داخل الولايات المتحـــدة وخارجها . فقد قـــاد الرئيس نيكسون بلاده ، فعلا ، من « فترة مواجهة » الى « عصر مفاوضات » كما سبق له وان وعد في مطلع العام ١٩٦٩(٣٩). واشتهرت رئاسته الاولى بأنها « فترة الدبلوماســـية السرية وسياسة القمة »(٤٠) التي تغيرت معها في السنوات الاربع الاولى ــ من مطلع ١٩٦٩ الى مطلع ١٩٧٢ على وجه الخصوص ــ الخارطة السياسية العالمية واطـــل بسببها العالمان ــ الشرقي والغربي ــ على بعضهما بعضا من شرفات انفراجهما الاولي، متحادثين بألفة ، تمهيدا لتزاورهما الوشيك على أعلى مستويات القمة ترسيخا لانفراج أمتن وأقوى قادم .

وهكذا تم بناء الجسور بين المعسكرين (أم ترى يجدر بنا ان نقـــول المعســـكرات الثلاثة ؟). فنتيجة «للانفجار التفاوضي» ــ حسب تعبير ريتشارد جاردنر(٤١)ــ تم توقيع عدة اتفاقيات وانجاز جملة صفقات : اتفاقية موسكو ــ بون في العام ١٩٧٠ ، واتفاقية برلين ، واجتماع بريجنيف وويلي برانت ، وزيارة كيسنجر السرية للصين الشعبية ، وقبول الاخيرة في الامم المتحدة وطرد نظام فرموزا من مجلس الامن ، والاتفاقات العديدة بين الدولتين الاعظم حول الاسلحة الاستراتيجية المدمرة ، وتحسين « الخط الساخن » بينهما ، واتفاقية الحلفاء وموسكو على برلين في العام ١٩٧١(٤٢)، بالاضافة الى ازدياد حجم التجارة بين العملاقين من حوالي ٢٠٠ مليون دولار في ١٩٧١ الى ٦٤٢ مليون دولار في ١٩٧٢ (والى ١٤٤ بليون دولار في العام ١٩٧٣)(٤٣) بعد أن كان حجمها ، في سنوات الحرب الباردة ، قريبا من الصفر(٤٤).

كل هذه الخطوات العملية ، مكنت نيكسون من القول ــ في تقريره للكونغرس قبيل

---

* ويعتقد الاستاذ برهان دجاني ، ومعه مطلق الحق في ذلك ، ان « مبدأ نيكسون » هو ما كان يسمى « مبدأ مكنمارا » . والاشارة هنا عائدة الى ما اعلنه روبرت مكنمارا ، وزير الدفاع الاميركـــي الاسبق في مونتريال في العام ١٩٦٦ ، من ان « سياسة الولايات المتحدة تقوم على تشجيع تلـــك الدول التي تستطيع (ويجب عليها) ان تساهم في المسؤولية الدولية للمحافظة على السلام والتوصل الى تعاون عام مثمر معها ». ذلك لان الولايات المتحدة لم تعد مستعدة او قادرة على الرد بنفسها على كل ما يقع في العالم وما نجم عن ذلك من ضرورة اعتمادها على « القوة الرادعة المحلية » او على مساعدة « دولة صديقة » تقوم بوظيفة خط دفاعي أمامي دون انجرار البيت الابيض الى « التدخل المباشر » . انظر **الكتاب السنوي** للاعوام ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ (بيروت : **مؤسسة الدراسات**) في الصفحات ٢٤٣ ، ٦٩٢ و xii على التوالي .

بدء زيارته الى الصين الشعبية في مطلع ١٩٧٢ ــ ان العام « ١٩٧١ كان عام المنعطف » في العلاقات الدولية(٤٥). كما وأضاف ان سياسته الخارجية الداعية الى مزيد من الانفتاح نابعة من خمسة متغيرات حاسمة : استعادة اوروبه واليابان لقوتهما الاقتصادية ولحيويتهما السياسية ، ظهور « العالم الثالث » الى الوجود ، تفتت وحدة الكتلة الشيوعية ، نهاية التفوق الاميركي في القوة الاستراتيجية وقيام توازن مع قدرات الاتحاد السوفياتي في هذا المجال بالاضافة خامسا الى التيار الانعزالي داخل الولايات المتحدة ذاتها . وفي الوقت الذي أبرز فيه نيكسون ان صداقات « الدولة الاقوى في العالم » هي صداقات « دائمة » ، شدد على ان عداوات الولايات المتحدة ليست « دائمة » . كما أكد الرئيس الاميركي على ضرورة استمرار الدور القيادي لبلاده في العالم ، داعيا الى اعتماد اسلوب « ضبط النفس ... والتفاوض وليس المجابهة » اذ ان نقاط الاختلاف بين الدولتين الاعظم ، حول مواضيع كثيرة ، ما تزال قائمة(٤٦) .

على انه لا غنى لكل بحث يريد الغوص في الاعماق وصولا الى كنه ما يعرف باسم « الوفاق الدولي » ويستهدف التقاط حقيقة معانيه وانعكاساتها على الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، لا غنى له عن درس الوثائق الاحدث الخاصة بوفاق الكبار **أولا** : لاهميتها ، **وثانيا** : لكونها شكلت « عظمة التناحر » في الحوار الحاد الذي دار في الماضي ولا يزال دائرا ، وان بصوت خفيض ، حتى الان والمرشح للظهور بشكل عنيف في المستقبل القريب ، بين انصار الوفاق في جهة ، ومعارضيه ومتعمدي اساءة فهمه ، من جهة ثانية .

هذه الوثائق تتعلق بالزيارتين اللتين قام بهما الرئيس نيكسون للصين الشعبية في شباط ــ فبراير ١٩٧٢ وللاتحاد السوفياتي في ايار ــ مايو من العام ذاته ، وبالزيارة التي قام بها برجنيف للولايات المتحدة في حزيران ــ يونيو ١٩٧٣*. ولعل الوثيقة الاهم، بهذا الصدد ، هي تلك المعنونة : « المبادىء الاساسية للعلاقات بين الولايات المتحدة الاميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » والموقعة من قبل نيكسون وبرجنيف يوم ٢٩ ايار ــ مايو ١٩٧٢(٤٧). ومع ان هذه الوثيقة تتألف من مقدمة واثنتي عشرة نقطة فان خمسا منها فقط (الاولى والثانية والثالثة والحادية عشرة والثانية عشرة) بالاضافة الى المقدمة ، لها علاقة بما نحن بصدده . وأبرز الاستنتاجات الممكن استخلاصها من هذه النقاط هي :

١ ــ تبرز المقدمة محدودية الهدف الذي تسعى اليه الدولتان وذلك بالقول ان دورهما هو « المساعدة في تقليص التوترات في العالم». وهكذا نرى انهما لا تذهبان في طموحاتهما أبعد من حدود ما يسمح به الواقع اذ انهما ، مرة ثانية ، تودان « المساعدة في تقليص التوترات » ولا تدعيان نجاحهما في « الغاء التوترات في العالم » كما حلا للبعض ان يستنتج أو يشيع .

---

* لاسباب سبق ذكرها يقتصر البحث على دراسة « الوفاق » كما تجلى في العلاقات السوفياتية ــ الاميركية. وبأمكان من شاء التفاصيل « الصينية » الخاصة بالموضوع ، مراجعة « بيان شنغهاي » الصادر في ١٩٧٢/٢/٢٧ مع انتهاء زيارة الرئيس نيكسون للصين الشعبية . وأهم ما ورد في هذه الوثيقة ، التركيز الواضح جدا والمتعمد على ابراز نقاط الخلاف ، في بداية البيان ونهايته على حد سواء ، مع الاشارة الى اتفاق الطرفين على العمل لتخفيف التوتر في علاقاتهما وتقليل مخاطر المواجهة العسكرية دون ان يكون ذلك على حساب اطراف ثالثة مع التأكيد على التزام الطرفين بمبدأ « التعايش السلمي » . انظر النص الكامل للبيان في مجلة : *Current History* (September, 1972), pp. 131 - 2.

٢ ــ تؤكد المقدمة والنقطة الحادية عشرة ان تقارب الدولتين العظميين يتم « دون الاضرار ببلدان (طرف ثالث) بأي شكل من الاشكال » وانه ــ أي التقارب ــ « ليس موجها ضد بلدان (فريق) ثالث او مصالحها » .

٣ ــ تؤكد الدولتان ، كما ورد في النقطة الاولى ، على انه « في العصر النووي لا مناص لهما في ادارتهما علاقاتهما المشتركة من اعتماد قاعدة التعايش السلمي » ، القاعدة القديمة قدم اول سياسة خارجية لينينية او قدم بداية « دخول » الاتحاد السوفياتي للمنطقة الشرق اوسطية منذ قرابة العشرين عاما عندما تم تكريسها نهائيا كأساس لعلاقات الكرملين الخارجية منذ العام ١٩٥٦ .

٤ ــ تنص النقطة الثانية التي كانت مثار جدل واستغلال كبيرين ، وبالحرف الواحد ، على ما يلي :

« تولي الولايات المتحدة الاميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية (مسألة) منع تطور حالات قادرة على التسبب في تفاقم خطر في علاقاتهما أهمية كبيرة . وعليه ، ستفعلان أقصى ما في استطاعتهما لتجنب مجابهات عسكرية ولمنع نشوب حرب نووية ، وستمارسان دوما ضبطا (للنفس) في علاقاتهما المشتركة ، وستكونان على استعداد للتفاوض وتسوية الخلافات بالوسائل السلمية . وسيجري التباحث والتفاوض في المسائل الرئيسية بروح تبادل وتساهل مشترك وفائدة مشتركة .

ويعترف الطرفان ان الجهود لتحقيق مكاسب (فوائد) من جانب واحد على حساب الاخر ، مباشرة او غير مباشرة ، هي (محاولات) غير منسجمة مع هذه الاهداف . (وان الشروط) الضرورية للحفاظ على وتقوية العلاقات السلمية بين الولايات المتحدة الاميركية (والاتحاد السوفياتي) هي الاعتراف بالمصالح الامنية الخاصة بالطرفين على اساس مبدأ المساواة ونبذ استخدام القوة او التهديد بها » .

وما تضمنه الجزء الذي يهمنا في النقطة الثالثة هو شبه تكرار لبعض ما ورد في النقطة الثانية .

أما النقطة الثانية عشرة ــ وكأنما أريد بها ازالة كل سوء فهم قد يظلل صورة المعاني الواردة في النقطة الثانية ــ فتقول بالحرف الواحد :

« المبادىء الاساسية المبينة مسبقا لا تؤثر (سلبا) في أي من الالتزامات تجاه بلدان اخرى سبق ان اخذتها على عاتقها ، قبلا ، الولايات المتحدة او اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » .

الوفاق : خلاصات عامة

اذن ، بعيدا عن الجدل المتشنج الدائر وتلخيصا ، لدراسات ومقالات رزينة (وغير رصينة) كثيرة ، واستنباطا لحقيقة ما تعنيه الخطابات والوثائق السياسية، وكشفا لمدى « حرارة » الزيارات والعناقات الدبلوماسية بين زعماء العالم الكبار ، بامكاننا ان نقدم عصارة ما يعرف « بالوفاق الدولي » على شكل استنتاجات عامة مختزلة فيما يلي :

اولا : الوفاق وصف يطلق على محاولة تطبيق « منهج توازن القوى التقليدي »(٤٨) من أجل ترتيب العلاقات الدولية ضمن معادلة جديدة قررتها ضغوط متغيرات حاسمة طرأت على الصعيدين الدولي والمحلي خاصة منذ العام ١٩٦٩(٤٩). وقد استندت هذه المعادلة الجديدة الى « قاعدة غير عقائدية للعلاقات » بين الدول الكبرى(٥٠).

ثانيا : حيث ان تعبير «الوفاق» يعني في اللغة العربية «الاتفاق في الراي والعمل»(٥١) فانه ، بالضرورة تعبير خاطىء عن حقيقة المدى الذي وصل اليه الانفراج والتقارب بين الدول الكبرى . فما هو قائم ، فعلا ، بين هذه الدول ــ حسب ما نأمل ان يكون البحث قد اوضحه ــ ليس أكثر من « ارخاء للتوتر » او اتفاق على « تقليص التوتر » فيما

بينها . وعلى هذا الاساس فان اسم المعادلة الجديدة كما يرد عادة باللغة الانجليزية — (Détente) بمعنى « نهاية توتر بين دولتين او اكثر واستئناف العلاقات العادية »(٥٢) بينها هو تعبير أقرب الى الصواب . وعلى أية حال فان المعادلة الجديدة ليست ، قطعا ، ما يحاول البعض تصويرها به عندما يحملونها معنى الـ — (Entente) أي « الائتلاف ، ائتألف ، التفاهم » بين الدول . وهم اذ يتبنون معنى كهذا انما يقربون الانفراج القائم حاليا ، بأسلوب ذاتي وبهدف خدمة اغراضهم السياسية الخاصة ، من معنى الاتفاق — المؤامرة . هذا على الرغم من حرص الاطراف — كما ثبت في متن البحث — على التأكيد بأن التحسن في العلاقات بين الدول الكبرى لا يأتي على حساب أطراف ثالثة تماما مثلما انه لا يمثل انهاء للخلافات بينها او الغاء للالتزامات التي سبق لهذه الدول وان تعهدت بها لحلفائها واصدقائها .

ثالثا : اذن ، فالتنافس بين الدولتين الاعظم (وغيرهما) قائم من منطلق كونهما « في الوقت الذي هما فيه غير ساعيتين للحرب النووية فانهما تريدان ان توسعا نفوذهما . ولان الحرب النووية غير محتملة فان كل شيء قابل للتفاوض »(٥٤) . كذلك فان « استخدام القوة الجزئي ... (وارد) ليس لانه حق وعادل بل لانه يفيد في الميزان العام »(٥٥) . من هنا ، فان لكلا الدولتين (وغيرهما) استراتيجيتها وتكتيكها الخاصين في الدفاع عن مصالحها وكسب معركة التنافس الدائرة بينها .

رابعا : لا يجوز ، من الناحية العلمية ، القبول بتلك المحاولة التي تختزل ظاهرة « الوفاق الدولي » وتساويها بجانبها الاميركي — « مبدأ نيكسون » — فحسب . وغالبا ما تنتقل هذه المحاولة بعد « تثبيت » هذا الخطأ الى « تثبيت » خطيئة مؤداها ان الوفاق مؤامرة او انه صيغة اميركية تم « تمريرها » لخداع الاتحاد السوفياتي والصين بهدف « اقناعهما » بعدم تقديم مساعدات لحركات التحرر الوطني في العالم* . واذا كان هذا كله غير جائز من الناحية العلمية ، واذا كان لا بد من تحديد الطرف « المنتصر » في الصيغة الجديدة (مع ان كل طرف يحاول شد الانتصار الى جانبه عن طريق كسب « معارك التنافس » المضمنة في معادلة الوفاق) ، فانه لاقرب الى الحقيقة القول بان « المنتصر » الاول ليس احدا سوى الاتحاد السوفياتي . فهذا الاخير هو الذي رفع شعار « التعايش السلمي » منذ بداية « ثورة اكتوبر » وهو الذي حاول تطبيقه مجددا وبحماسة منذ ١٩٥٦ ، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة أسيرة لمنطق « الحرب الباردة » — الساخنة أحيانا — سواء بصيغتها « الدلاسية » في الخمسينات ام « الجونسونية » في الستينات .

خامسا : « توحي الشواهد بأن القوتين الاعظم ، مهما كانت رغبتهما في السلام ، ستستمران في (تفضيل) ضمان تغطية ... الصراعات ... بالوكالة على ان تعانيا من أي تدمير (او ايذاء) لسمعتيهما وتأثيرهما الدوليين . (وهذا الوضع مستمر) طالما ان الأمم الاصغر تستمر في لعب دورها ضمن ذلك الوضع »(٥٦) . بل اكثر من ذلك فان « مبدأ نيكسون » — والشيء ذاته يمكن ان يقال عن سياسة الاتحاد السوفياتي الملتزمة بالحلفاء والاصدقاء — ما هو الا « برنامج لاحلال قوة (بدلا عن قوة) وليس فك التحام حقيقي »(٥٧) .

---

* وقد ألمحت الى ذلك — بالاضافة الى تصريحات قوى يمينية عديدة — مجموعة MERIP اليسارية وان كانت هذه المجموعة لم تحدد فيما اذا كانت تعتقد ان « النية الاميركية » هذه قد « مررت » على الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية أم لا . انظر :
Middle East Research and Information Project - MERIP, «Nixon's Strategy in the Middle East,» *MERIP REPORTS* (No.13, November 1972), p. 3.

سادسا : ولهذا فان القول بأن صيغة « الوفاق الدولي » تتيح للقوى المحلية المتصارعة فرصة أوسع لتحسين مواقعها ولتحقيق أهدافها قول أقرب بكثير الى الحقيقة من الزعم بأنها « دورق » اعتقل فيه « السمك » ــ الوطني والتقدمي ، السياسي والمسلح ــ بعد ان كان يسبح في «البحيرات الثورية الدافئة» التي ازدهرت طيلة فترة «الحرب الباردة» .

... وبعــد ،

فان كل شيء يعتمد على مدى قدرة الحركات الثورية المحلية ــ او القوى الرجعية المحلية ــ على الاستفادة من الهامش الصدامي غير الضيق الذي تتيحه معادلة « الوفاق الدولي » . وعلى مدى استفادة هذه القوة او تلك من ذلك الهامش ، وعليه فقط ، يعتمد اي قرار علمي لحسم ما اذا كانت تلك المعادلة قد جاءت ــ ولنستخدم عبارة تشارلز ديكنز مرة ثانية ــ تعبيرا عن « أفضل الاوقات » او « أسوأ الاوقات » بالنسبة الى اماني الشعوب وثوراتها .

---

١ ــ الفكرة مستعارة من مقالة لريتشارد جاردنر مع ملاحظة لجوئنا ، عند نقل العبارة المشار اليها الى اللغة العربية ، الى ترجمتها وفقا لمعناها الحقيقي وليس لحرفية كلماتها . أنظر :
Richard N. Gardner, «The Hard Road To World Order », *Foreign Affairs*, 52 (No. 3, April 1974), p. 556.

٢ ــ أنظر على سبيل المثال لا الحصر ، ولاهميته الخاصة ، البيان المشترك الصادر عن محادثات موسكو بين الزعماء السوفيات وحافظ اسماعيل، مستشار الرئيس السادات لشؤون الامن القومي، كما نشر في صحيفة **الاهرام** ، شبه الرسمية آنذاك ، بتاريخ ١٩٧٣/٢/١١ في الصفحة الاولى .

٣ ــ انظر خطاب الرئيس السادات حول ذلك كما ورد في **الاهرام** بتاريخ ١٩٧٤/٤/٤، ص٣ .

٤ ــ انظر :
Marshall D. Shulman, « Toward A Western Philosophy of Coexistence, » *Foreign Affairs*, 52 (No. 1, October 1973), p. 35.

٥ ــ **المصدر ذاته** . ومما يجدر ذكره هنا ان المعنى المحدد اعلاه هو التعبير المعتمد في وثيقــتي « المبادىء الاساسية للعلاقات بين الولايــات المتحدة الامريكيــة واتحــاد الجمهــوريــات السوفياتية الاشتراكية » و « البيان المشترك » الموقعتين من قبل ليونيد بريجنيف ، الزعيــم السوفياتي والرئيس ريتشارد نيكسون مع انتهاء زيارة الاخير لموسكو يوم ٢٩ ايار (مايو) ١٩٧٢ . انظر :
United States Information Service, *President Nixon in Moscow : A Summary of Major Statements and Agreements During President Richard Nixon's Visit to the Soviet Union, May 22-30, 1972*, pp. 16 and 19.

٦ ــ أنظر معجم **الرائد** .

٧ ــ أنظر :
Stephen S. Rosenfeld, «Pluralism and Policy», *Foreign Affairs*, 52 (No. 2, January 1974), p. 267.

٨ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعــام ١٩٦٤** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٤) ص ، ٢٧٨ .

٩ ــ ويصف الاستاذ برهان دجاني السياســـة الامريكية في الفترة ما بين ازمة كوبه وحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بأنها الفترة التي دخلت فيها الولايات المتحدة « مرحلة الدولة المأخوذة بقوتها » . أنظر : برهان دجاني ، « مقدمة » **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٨** (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١) ، ص xxxiii . ايضا راجع :
Geoffrey Kemp, *Arms and Security: The Egypt-Israel Case* (London: The Institute for Strategic Studies, 1968), p. 26.

١٠ ــ حول التصلب السوفياتي في تلك الفترة ، انظر :
Wolfgang Leonhard, « The Domestic Politics of the New Soviet Foreign Policy, » *Foreign Affairs*, 52 (No. 1, October 1973), p. 62-66.
ايضا راجع Shulman, *op. cit.*, pp. 42-43.

١١ ــ انظر :
Leonhard, «The Domestic Poli-

tics of the New Soviet Foreign Policy», *op. cit.*, p. 66.

ايضا راجع :

Z. «The Year of Europe?», *Foreign Affairs*, 52 (No. 2, January 1974), pp. 243-4.

كذلك أنظر :

Andrew J. Pierre, «Can Europe's Security Be «Decoupled» from America?», *Foreign Affairs*, 51 (No. 4, July 1973), pp. 761-77.

١٢ ــ تأكد ذلك في تقريري الرئيس نيكسون للكونغرس الامريكي حول السياسة الخارجية للولايات المتحدة . أنظر :

Richard Nixon, *United States Foreign Policy for the 1970's : A New Strategy for Peace* (Report by the President to the Congress, February 18, 1970), p. 7; and R. Nixon, *United States Foreign Policy for the 1970's: The Emerging Structure of Peace* (Report to the Congress, February 9, 1972), p. 7.

١٣ ــ التعبير وارد في المقالة التالية :

Neville Brown, «After the Summit: Shifts in the Superpower Balance», *New Middle East* (No. 46, July 1972), p. 15.

١٤ ــ حول اتجاهات الراي العام الامريكي ونمو ظاهرة « الانعزالية التقدمية » ، راجع :

Roger E. Kanet, «Soviet-American Relations : A Year of Détente?», *Current History*, October 1972, p. 156; Rosenfeld, «Pluralism and Policy,» *op. cit.*, p. 269; Kemp, *op. cit.*, p. 25; and Z, «The Year of Europe?», *op. cit.*, p. 243.

١٥ ــ أنظر :

Zbigniew Brzezinski, « U.S. Foreign Policy : The Search for Focus, » *Foreign Affairs*, 51 (July 1973, No. 4), p. 716.

١٦ ــ أنظر :

Theodore C. Sorensen, « Most - Favored — Nations and Less — Favored — Nations,» *Foreign Affairs*, 52 (No. 2, January 1974), p. 286.

١٧ ــ **المصدر ذاته** . ايضا :

Rosenfeld, *op. cit.*, p. 268.

١٨ ــ أنظر ما كتبه موشيه كارمل في صحيفة **دافار** الاسرائيلية كما وردت في **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** (نشرة م.د.ف) ، عدد ١٩ ، تاريخ ١/١٠/١٩٧٣ بالاضافة الى ما كتبه عاموس بيرلماتور في صحيفة **هآرتس** الاسرائيلية في **المصدر السابق** ، عدد ٢١ ، تاريخ ١٦/١١/١٩٧٣ ، ص ٦٥٩ ــ ٦٦٠ .

١٩ ــ أنظر :

Sorensen, «Most-Favored - Nations and Less-Favored-Nations,» *op. cit.*, p. 280.

٢٠ ــ حول هذا ، راجع المقالين التاليين :

Charles Gati and Tony Trister,, «The Diplomacy of Detente : Soviet Efforts in West Europe,» *Current History* (October 1972), p. 160; and Martin Van Creveld, «The Future of Detente,» *The Jerusalem Post Magazine* (November 9, 1973), p. 7.

٢١ ــ حول هذه المخاوف ، انظر :

Time magzine, January 1, 1973, p. 14; Shulman, «Toward A Western Philosophy of Coexistence», *op. cit.*, pp. 43-46; and Sorensen, *loc. cit.*

٢٢ ــ فيما يتعلق بالمصالح الاقتصادية الكامنة وراء سعي الاتحاد السوفياتي وراء سياسة الوفاق ، أنظر :

Leonhard, *op. cit.*, pp. 66-67; Shulman, *op. cit.*, pp. 38 and 43-46; and Creveld, *loc cit.*

٢٣ ــ Sorensen, «Most - Favored - Nations and Less - Favored - Nations,» *op. cit.*, p. 266.

٢٤ ــ حول هذا ، راجع :

Kanet, «Soviet - American Relations: A Year of Détente?», *op. cit.*, p. 157; Shulman, «Toward A Western Philosophy of Coexistence», *op. cit.*, p. 38; and Sorensen, «Most-Favored-Nations and Less - Favored - Nations», *op. cit.*, p. 280.

٢٥ ــ راجع :

Leonhard, «The Domestic Politics of the New Soviet Foreign Policy », *op. cit.*, pp. 69-70, 72; and Sorensen, «Most - Favored - Nations and Less - Favored - Nations, » *loc. cit.*

٢٦ ــ حول الاعتبارين « السوفياتي » و«الياباني» اللذين كانا وراء رغبة الصين الشعبية في دخول معادلة الوفاق الجديدة ، أنظر :

Franz Michael, «The New United States - China Policy, » *Current History* (September 1972), p. 127; and *Time* (January 1, 1973), p. 14.

٢٧ ــ كما ورد في

United States Information Service, *President Nixon in Moscow*, pp. 1-2.

٢٨ ــ Richard Nixon, «Asia After Viet

Nam,» *Foreign Affairs,* 46 (No. 1, October 1967), pp. 123-4.

٢٩ — المصدر السابق ، ص ١١٣ — ١١٤ .

٣٠ — المصدر السابق ، ص ١١٤ .

٣١ — المصدر ذاته .

٣٢ — المصدر السابق ، ص ١٢١ — ١٢٣ .

٣٣ — المصدر السابق ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

٣٤ — الاشارة هنا الى تقرير الرئيس نيكسون المقدم للكونغرس والمشار اليه سابقا تحت عنوان :
Nixon, *United States Foreign Policy for the 1970's: A New Strategy for Peace,* February 1970, p. 5.

٣٥ — المصدر ذاته .

٣٦ — المصدر السابق ، ص ٧ .

٣٧ — Z. «The Year of Europe?», *op. cit.,* pp. 243-4.

٣٨ — Nixon, *A New Strategy for Peace,* p. 6.

٣٩ — تقرير الرئيس نيكسون للكونغرس في شباط (فبراير) ١٩٧٢ المشار اليه سابقا تحت عنوان:
Nixon, *U.S. Foreign Policy for the 1970's : The Emerging Structure of Peace,* p. 17.

٤٠ — جيمس راستون ، « ينتظرون كيسنجر » ، صحيفة هآرتس الاسرائيلية ، ١٩٧٣/٨/٢٧ ، ص ١٢ .

٤١ — Gardner, «The Hard Road to World Order,» *loc. cit.*

٤٢ — يمكن ، من أجل مزيد من التفصيل حول هذه الصفقات والاتفاقيات مراجعة :
Leonhard, «The Domestic Politics of the New Soviet Foreign Policy», *op. cit.,* pp. 59 and 66-69; and Nixon, *The Emerging Structure of Peace,* p. 8.

ايضا أنظر :
Keesings Contemporary Archives: 1971-72; pp. 24765A, 25045A, 35309-35316.

٤٣ — Shulman, «Toward a Western Philosophy of Coexistence», *op. cit.,* p. 38.

٤٤ — Raymond Vernon, «Apparatchiks and Entrepreneurs U. S. - Soviet Economic Relations,» *Foreign Affairs,* 52 (No. 2., January 1974), p. 249.

٤٥ — Nixon, *The Emerging Structure of Peace,* p. 7.

٤٦ — المصدر السابق ، ص ٧ و١٠ .

٤٧ — كل الاشارات التالية الى مضمون الوثيقة مستقاة من النص الرسمي كما ورد في الكراس:
United States Information Service, *President Nixon in Moscow,* pp. 16-18.

٤٨ — أنظر :
Brzezinski, «U.S. Foreign Policy: The Search for Focus», *op. cit.,* p. 715.

٤٩ — راجع تقريري نيكسون (المشار اليهما اعلاه) المقدمين الى الكونغرس في العامين ١٩٧٠ و١٩٧٢ في الصفحات ٥ و٧ على التوالي .
ايضا أنظر :
Brzezinski, «U.S. Foreign Policy: The Search for Focus,» *op. cit.,* p. 715.

٥٠ — أنظر المقالة الخاصة بنيكسون وكيسنجر :
Time Staff, «Nixon and Kissinger: Triumph and Trial,» *Time,* January 1, 1973, p. 14.

٥١ — انظر معجم الرائد .

٥٢ — انظر المعجم القانوني .

٥٣ — المصدر السابق .

٥٤ — جورج سوفير ، « رجل العام » ، لوبوان *(Le Point)* عدد ٦٧ ، تاريخ ١٩٧١/١٢/٣١، ص ١٩ .

٥٥ — Adam Watson, «The Man of the Temporary Expedient,» *The Spectator* (London: November 3, 1973), p. 563.

٥٦ — The Insight Team, *Insight on the Middle East War* (London: André Deutsch Limited, 1974), p. 238.

٥٧ — Earl C. Ravenal, «The Case for Strategic Disengagement,» *Foreign Affairs,* 51 (No. 3, April 1973), p. 508.

الوضع القانوني للسكان العرب في المناطق المحتلة

صبري جريس

تنشر « شؤون فلسطينية » نص المذكرة التي قدمها الاستاذ صبري جريس ، رئيس قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث ، الى المؤتمر الثاني للحقوقيين الفلسطينيين المنعقد في الجزائر في الاسبوع الاخير من ايار (مايو) .

١ ــ مقدمة

تكشف الاوضاع القانونية التي يخضع لها السكان العرب في المناطق المحتلة ، ان كانت تلك التي احتلت سنة ١٩٤٨ او خلال حزيران ١٩٦٧ ، عن احدى النواحي الرئيسية للفكر الصهيوني في تعامله مع العرب ، حيث تعبر أحسن تعبير عن المواقف والاجراءات التي اتبعها الكيان الصهيوني عندما وجد نفسه مضطرا للتعامل عن كثب ، ومن خلال موقع السلطة ، مع سكان عرب يخضعون لحكمه . ان الحركة الصهيونية لم تتصف ، منذ بدايتها ، بأتباع سياسة واضحة ، يمكن فهمها ، في موقفها من العرب ، بل أن الكثيرين من آبائها ومفكريها وزعمائها لم يعر القضية العربية اي وزن او اهتمام ، رغم أنها طرحت ، على أية حال ، العديد من المشاريع وقدمت كثيرا من الخطط والاراء لتنظيم علاقاتها بالعرب ، خصوصا بعد اعلان وعد بلفور ثم فرض الانتداب البريطاني على فلسطين ، مع ان الطابع الغالب لكل تلك المواقف كان عفويتها وآنيتها ، وفي أحيان كثيرة ــ عدم صدقها . هذا في الوقت الذي كان فيه جوهر السياسة الصهيونية ينحصر عمليا في تقوية الوجود الصهيوني في فلسطين ودعمه ، خصوصا بخلق الحقائق ، الواحدة تلو الاخرى ، في مختلف المجالات .

ويبدو ، من ناحية اخرى ، انه لم تكن لدى القيادات الصهيونية خطة او تصور واضحان لطبيعة علاقات الكيان الصهيوني بالعرب ، ومن ضمنهم عرب فلسطين ، حتى بعد اقامة الدولة الصهيونية . وبقي هذا النهج قائما حتى جاءت احداث ١٩٤٨ لتريح الصهيونيين ، وبسرعة مذهلة ، من كابوس وجود الاكثرية العربية في فلسطين ، وتمكنهم من اقامة دولة ذات أكثرية يهودية على جزء من البلد ، مع أقلية من السكان العرب بقيت تعيش داخله .

ان بقاء تلك الاقلية العربية داخل اسرائيل ، بعد اقامتها ، لم يسمح للسلطات الاسرائيلية بالاستمرار في اتباع سياسة النعامة التي كانت الزعامة الصهيونية تلجأ اليها ، من حين لاخر ، في مواقفها من العرب . كذلك فأن وجود تلك الاقلية ، واضطرار النظام الاسرائيلي الى التعامل معها كجزء من السكان الخاضعين لسلطته ، اجبراه في النهاية على تحديد موقفه منها في معظم نواحيه . ولكن قبل الانتقال الى التفاصيل لا بد من الاشارة الى أن تلك المواقف تأثرت بعدة عوامل ، منها ما يتعلق بطبيعة الكيان الصهيوني نفسه ومنها ما يتعلق بالاوضاع السياسية التي وجدت اسرائيل نفسها تواجهها من حين لاخر .

ان الكيان الصهيوني في فلسطين ، الذي اتخذ طابع دولة على جزء من البلد سنة ١٩٤٨ ، كان قد اتخذ قبل ذلك التاريخ بفترة غير قصيرة صفات النظام متعدد الاحزاب ،

التي يحرص كل منها على الاشتراك في اللعبة الديموقراطية الكلاسيكية ، من خلال احترام حقوق مناوئيه السياسيين ، حفاظا على مصلحته ومصلحة النظام بأسره . كذلك فان عجز أي حزب من الاحزاب الصهيونية في فلسطين ، ومن ثم في اسرائيل ، على الانفراد بالحكم وحده ، لان ايا منها لم يكن مرة يتمتع بالاكثرية المطلقة او النسبية ، دفع هذه الاحزاب الى البحث عن طريقة تتقاسم بها الحكم فيما بينها من جهة ، مما أدى الى قيام نظام حكم ديموقراطي تقليدي في اسرائيل ، يرتكز على حرية الاحزاب الصهيونية ، ويستمد قوته من الانتخابات العامة ، ويمارس الحكم باشراف مجلس نواب منتخب .

أما تأثير الاوضاع السياسية عامة والاطماع الاسرائيلية خاصة على الاوضاع القانونية للسكان العرب في اسرائيل والمناطق المحتلة فواضح للغاية . لقد توجهت اسرائيل خلال مراحل حربها مع العرب سنة ١٩٤٨ ، وبعد ذلك ، الى ضم كل الاراضي التي احتلتها يومها ، بما في ذلك تلك التي كانت خارج حدود الدولة اليهودية حسب قرارات التقسيم لسنة ١٩٤٧ ومنها تلك التي كان العرب يسكنونها بكثافة ، كمنطقة الجليل ، او تلك التي ضمت اليها بعد اتفاق الهدنة الاسرائيلية ـــ الاردنية سنة ١٩٤٩ ، كمنطقة المثلث ، معتبرة تلك المناطق جزءا لا يتجزأ من اراضيها ، ولهذا اتخذت كل الخطوات الضرورية ، القانونية والعملية ، لتصنيف سكان تلك المناطق العرب كمواطنين في الدولة الصهيونية ، رسميا على الاقل . أما بالنسبة للمناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، والتي لم تساعد الظروف السياسية والموضوعية اسرائيل على ضمها اليها ، فأن الوضع يختلف ، حيث لا تزال تلك المناطق تصنف وفقا للقانون الاسرائيلي كمناطق محتلة ، او ، اذا اردنا استعمال التعبير الاسرائيلي الرسمي : « مناطق محتفظ بها » ، ويفترض ان يخضع سكانها للتعليمات التي تنص عليها المعاهدات الدولية السارية المفعول في مثل هذه الحالات . ولكن يشذ عن هذه الحالة وضع مدينة القدس التي اعلنت اسرائيل عن ضمها اليها ، مع بعض ضواحيها ، بعد فترة وجيزة من احتلالها .

بناء على ما تقدم نرى ان هناك ثلاثة اوضاع قانونية منفردة تتعلق بالسكان العرب في اسرائيل والمناطق المحتلة ، اولها ذلك الوضع الذي ينطبق على السكان العرب في اسرائيل وثانيها ذلك الوضع السائد في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ عدا مدينة القدس ، وثالثها الوضع الخاص بالقدس وحدها . وفيما يلي نعرض كل واحد من هذه الاوضاع الثلاثة على حدة .

٢ ـــ الوضع القانوني للسكان العرب في اسرائيل

يعتبر السكان العرب في اسرائيل ، رسميا على الاقل ، مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مع السكان اليهود . والسلطات الاسرائيلية ، التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وان كانت تعترف بهذه المساواة وتمارسها في مجالات عديدة ، منها مثلا تلك المتعلقة بالقضايا المدنية او القضايا الجزائية البحتة او العلاقات بين الافراد ، فأنها تغير موقفها بشكل واضح عندما يتعلق الامر بالمسائل التي تمس « المصالح الحيوية » الاسرائيلية ، كحقوق المواطنة او قضايا الامن والاستيطان الصهيوني ، حيث تلجأ الى التمييز ضد « المواطنين » العرب ، قانونا وممارسة ، بشكل مفضوح يغلف عادة بصياغات قانونية مفذلكة ومعقدة ، واحيانا يظهر بصورة واضحة للغاية .

ان التمييز قانونا ضد السكان العرب ينحصر ، كما أشرنا ، في النواحي التي تعتقد السلطات الاسرائيلية انها تمس طابع اسرائيل الصهيوني ، وهو أحيانا مفهوم واسع للغاية يؤثر على اوضاع العرب وشؤون معيشتهم اليومية . أما اول هذه المجالات فهو

ذلك المتعلق بحقوق العرب في السكن والمواطنة في اسرائيل . فقانون العودة لسنة ٥٧١٠ — ١٩٥٠(١) ينص ، مثلا ، على أنه يحق لكل يهودي ان يهاجر الى اسرائيل ، عدا عن حالات استثنائية قليلة نص عليها القانون(٢)، وبهذا يحجب ضمنا هذا الحق عن غير اليهودي ، بما في ذلك العربي الفلسطيني ، حتى وأن كان قد ولد في ذلك الجزء من فلسطين الذي اقيمت اسرائيل عليه . وهذا القانون وان جاء تعبيرا عن أحد المواقف الصهيونية الرئيسية الداعية الى هجرة اليهود الى فلسطين لاقامة دولة يهودية في البلد، فانه في الوقت نفسه يعتبر تجسيدا لموقف صهيوني آخر يرفض اعـــادة اللاجئـــين الفلسطينيين الى ديارهم ويحصر حق سكن تلك المناطق التي انتزعت منهم في اليهود دون غيرهم. وفي مرحلة لاحقة عدل قانون العودة بشكل منحت معه ايضا الامتيازات العائدة لليهودي بموجبه الى غير اليهود المتزوجين من يهود والى ابنائهم واحفادهم وازواجهم ايضا(٣). ولكن ابعاد قانون العودة لم تقف عند هذا الحد ، اذ أن السلطات الاسرائيلية اصدرت بعد ذلك قانون الجنسية لسنة ٥٧١٢ — ١٩٥٢(٤) ليكون مكملا له ، والذي لم يخل ايضا من تمييز ضد العرب ، اذ انه يحتوي على تعليمات ينبغي تنفيذها وشروط ينبغي استيفاؤها لمنح الجنسية الاسرائيلية لليهودي تختلف عن تلك المطلوبة بالنســبة للعربي . فبينما ينص القانون على أن كل مهاجر يهودي الى اسرائيل ، بمقتضى قانون العودة ،يكون تلقائيا اسرائيلي الجنسية(٥)، وهي الامتيازات التي منحت فيما بعد الى غير اليهود المتزوجين من يهود ، كما أشرنا ، نرى أن القانون نفسه يحتوي على تعليمات اخـــرى تتعلق بحقوق الجنسية العائدة للعرب ، حيث ينبغي ان تتوفر في العـــربي الفلسطيني الشروط التالية لكي يحصل على الجنسية الاسرائيلية : (أ) في يوم ١/٣/ ١٩٥٢ كان مسجلا قاطنا بموجب مرسوم تسجيل السكان لسنة ١٩٤٩ ، (ب) في يوم بدء العمل بقانون الجنسية ، اي ١٤/٧/١٩٥٢ ، كان قاطنا في اسرائيل ، (ج) من يـــوم انشاء اسرائيل ، اي ١٥/٥/١٩٤٨ ، الى يوم بدء العمل بقـــانون الجنسيـــة ، اي ١٤/٧/١٩٥٢ ، كان في اسرائيل او في اراض صارت اراضي اسرائيلية بعد اقـــامة الدولة(٦). ولقد اتضح فيما بعد ، عند التطبيق ، ان الهدف من ادخال هذه التعليمـــات الى قانون الجنسية كان حرمان أكبر عدد ممكن من العرب الذين بقوا في اسرائيل بعد ١٩٤٨ من الحصول على الجنسية الاسرائيلية ، حيث امتنعت السلطات الاسرائيلية عن منح الجنسية ، استنادا للبند (ج) المذكور ، لكل عربي كان قد ترك محل اقامته الدائم ، ولو ليوم واحد ولاي سبب كان ، متوجها الى اية دولة مـــن الدول العربية المجاورة لفلسطين وحتى وان تم ذلك قبل ان يحتل الجيش الاسرائيلي المناطق العربية ، او قبل ضم تلك المناطق الى اسرائيل ، وهذا على الرغم من أن مثل هذا العمل كان يعتبر في حينه عملا شرعيا(٧).

لقد مست تلك التعليمات بعدد غير قليل من العرب الذين يعيشون في اسرائيل ، يقال انه يبلغ نحو ربعهم (٨)، الذين اسقط حقهم في الجنسية الاسرائيلية بموجبهـــا ، فاعتبروا من « سكان » اسرائيل وليس من « مواطنيها » . ولكن مع مرور الزمن ، فقدت تلك التعليمات الكثير من حدتها نتيجة لعوامل عديدة ، منها ان النظام الاسرائيلي، المتعدد الاحزاب ، والذي كان يعقد الانتخابات العامة في البلد من حين لاخر ، كان يمنح حق التصويت تقريبا لكل عربي ، لكي يستطيع الحزب الحاكم والمتعاونون معه الحصول على اكبر عدد ممكن من أصوات العرب ، مما يؤكد حقوق العـــرب الذين يشتركون في الانتخابات في الحصول على الجنسية ، رغم التعليمات المشار اليها . كذلك فـــان المحكمة العليا الاسرائيلية ، وفي الحالات القليلة التي بحثت فيها حقوق الجنسية العائدة للسكان العرب ، قد فسرت قانون الجنسية تفسيرا « ليبراليا » يفهم منه انه يحق لكل عربي ، كان قاطنا في المناطق التي احتلتها اسرائيل او تلك التي ضمت اليها فيما بعد ،

الحصول على الجنسية الاسرائيلية ، اذا كان من سكان تلك المناطق الدائمين ، حتى وان كان قد ترك محل اقامته لفترة ما وزار أية دولة من الدول العربية المجاورة(٩). كذلك سهلت السلطات الاسرائيلية على السكان العرب ، الذين كانت قد اسقطت حقوقهم الاصلية في الجنسية ، الحصول عليها عن طريق التجنس(١٠). ولكن على الرغم من كل التسهيلات فأن تلك التعليمات ، التي يعتبر مجرد وجودها رمزا لسياسة اسرائيلية صنف العربي بموجبها ، وفي احسن الحالات ، مواطنا من الدرجة الثانية ، لا تزال قائمة ، وذلك في نفس الوقت الذي منح فيه الكنيست (البرلمان) الاسرائيلي الحكومة حق منح الجنسية الاسرائيلية لكل يهودي في العالم ، اذا ما أعلن عن رغبتـه في الهجرة الى اسرائيل(١١)، وحتى وان كان يتمتع بحقوق المواطنة في دولته ، لكي تستطيع السلطات الاسرائيلية ان تدعي لنفسها الحق في التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى والضغط عليها لاخراج سكانها اليهود منها ، تمهيدا لقدومهم الى اسرائيل .

ان الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية للمس بحقوق العرب في المواطنة ، سعيا وراء تقليص « الوجود » العربي في اسرائيل لم تقف عند قانوني العودة والجنسية وانما تطورت مؤخرا واضيف اليها اجراء اخر، يكشف عن طبيعة الكيان الصهيوني . لقد لاحظت السلطات الاسرائيلية ، مع مرور الوقت ، ان نسبة التكاثر الطبيعي بين سكان اسرائيل العرب تفوق تلك القائمة بين اليهود ، بحيث بقي السكان العرب يشكلون ما يزيد على عشر السكان في اسرائيل ، منذ اقامتها وحتى اليوم ، رغم ارتفاع عدد المهاجرين اليهود القادمين الى البلد ، وهو ما اعتبرته بعض الدوائر الاسرائيلية « خطرا » على الكيان الصهيوني وراحت تبحث في الخطط المناسبة لمواجهته. ولم يكن من السهل على السلطة الاسرائيلية ، بالطبع ، ايجاد الوسائل الفعالة للحد من تكاثر السكان العرب ، ولهذا لجأت بدلا من ذلك الى العمل على زيادة عدد السكان اليهود وتشجيعهم ، ماليا ، على زيادة تكاثرهم الطبيعي ، فعمدت الى تعديل قانون الجنود المسرحين(١٢)، وزادت بموجب ذلك المساعدات المالية التي يحصل عليها أطفال تلك العائلات اليهود ، بينما حجبت هذه المساعدة عن العائلات العربية ، التي لا يخدم معظم اربابها في الجيش .

اذا كان الهدف من قانوني العودة والجنسية الاسرائيليين تقوية طابع اسرائيل اليهودي ، واذا كانت التعليمات التي ينص عليها القانونان ليست الا وسيلة لخدمة هذا الهدف ، وذلك لتأمين تنفيذ أحد المبادىء الرئيسية للنظرية الصهيونية وهو اقامة دولة يهودية في فلسطين تكون « نقية » قدر الامكان من أبناء الشعوب الاخرى ، وخاصة من العرب ، فان قوانين مصادرة الاراضي وامتلاكها ، التي طبقت بحق السكان العرب ، ليست الا اداة اخرى لخدمة شطر آخر من النظرية الصهيونية ، وهو تقوية الاستيطان اليهودي في فلسطين ، من خلال السعي الدائم الى احلال اليهود محل العرب على الارض الفلسطينية . ان الاستيلاء على أراضي فلسطين وتحويل ملكيتها لليهود هدف يرافق الحركة الصهيونية ، كما هو معروف ، منذ نشأتها . وكان اليهود في فلسطين قد استطاعوا شراء ما مساحته ٥ر٦٪ من مساحة الاراضي في البلد حتى سنة ١٩٤٨، بينما استطاعت اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ بسط سيطرتها على نحو ٦٠ ٪ من مساحة فلسطين ، بعد طرد سكانها منها . وكانت مساحات كبيرة من تلك الاراضي ملكا للعرب الذين بقوا داخل اسرائيل ، وهي الاراضي التي توجهت السلطات الاسرائيلية للاستيلاء عليها من مالكيها وتحويلها الى المستوطنين اليهود لاستغلالها .

تمس الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل ، على صعيد استملاك الاراضي واستغلالها ، بشكل جذري ودائم بحقوق السكان العرب في أملاكهم وقدرتهم على تأمين متطلبات

معيشتهم ، وتعبر في الوقت نفسه عن نية السلطات الاسرائيلية في اقتلاعهم من وطنهم ، تمهيدا لخروجهم من ديارهم اذا كان بالامكان تنفيذ ذلك . ولقد كانت حصيلة تلك الاجراءات ، التي نفذت منذ اقامة اسرائيل وحتى اليوم ، الاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من الاراضي التي كانت ملكا للعرب وتحويلها للمستوطنين اليهود لاستغلالها من جهة ، ثم اتخاذ اجراءات اخرى لمنع العرب من استرجاع تلك الاراضي ، وفي مرحلة لاحقة منعهم من العمل فيها كعمال مستأجرين لدى اليهود ، من جهة أخرى . اما الخطوات الاولى التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية في هذا المجال فكانت الاستيلاء عنوة على مساحات كبيرة من الاراضي العربية وتسليمها للكيبوتسات اليهودية لفلاحتها ، دون اي مبرر قانوني ، ولكنها سرعان ما تنبهت في مرحلة لاحقة الى ان مثل هذا العمل لا يليق بـ « دولة قانون » كاسرائيل ، ولهذا اتجهت الى تغيير تكتيكها وراحت تسن القوانين ، الواحد تلو الآخر ، لاضفاء صفة الشرعية على اجراءات الاستيلاء على الاراضي العربية .

كانت أولى الاجراءات القانونية التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية للاستيلاء على أراضي العرب الذين بقوا يعيشون داخلها ، سن انظمة اموال الغائبين لسنة ١٩٤٨(١٤)، التي تحولت فيما بعد الى قانون اموال الغائبين لسنة ٥٧١٠ ــ ١٩٥٠(١٥)، وهو القانون الذي يحتوي على تعليمات تشبه ، الى حد ما ، تلك المنصوص عليها في قانون الجنسية ، والذي صودرت بموجبه أراضي كل عربي كان قد ترك محل اقامته في المناطق التي احتلتها اسرائيل او التي ضمت اليها ، وانتقل الى اي مكان آخر ، خارج فلسطين او داخلها ، في اي فترة كانت بعد صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، باعتبار ذلك العربي « غائبا » بمفهوم القانون ، مع انه عمليا يسكن اسرائيل ويعتبر احيانا من مواطنيها . ولم تكتف اسرائيل ، بالطبع ، بالاراضي التي استولت عليها بموجب هذا القانون، حيث لجأت ايضا الى تطبيق سلسلة أخرى من القوانين ، منها ما سن خصيصا لهذه الغاية ، للاستيلاء على المزيد من الاراضي العربية . وكان من بين القوانين التي طبقت ايضا للاستيلاء على أراضي العرب أنظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥(١٦) التي أعلنت بموجبها العديد من القرى العربية التي كان سكانها قد طردوا منها خلال حرب ١٩٤٨ ولكن قسما منهم أو كلهم بقوا داخل اسرائيل ، مناطق مغلقة يحظر الدخول اليها(١٧)، تمهيدا لمصادرة الاراضي الزراعية الواقعة في تلك المناطق . وفي مرحلة لاحقة سن الكنيست ايضا انظمة الطوارىء (مناطق الامن) لسنة ٥٧٠٩ ــ ١٩٤٩(١٨)، التي خولت وزير الدفاع صلاحية طرد سكان اية قرية تقع ضمن اي من المناطق التي صنفت كمناطق أمن ، وضمت معظم القرى العربية في اسرائيل(١٩)، من بيوتهم الى خارج مناطق سكنهم ، وهو ما تم تنفيذه ، مثلا ، بالنسبة لقرى كفربرعم وأقرت والخصاص الواقعة في منطقة الجليل ، والتي طرد سكانها منها ونقلوا الى أماكن أخرى في اسرائيل ، حيث تم على الاثر الاستيلاء على أراضيهم . وفي السنة نفسها سن الكنيست أيضا أنظمة الطوارىء (استغلال الاراضي المبورة) لسنة ٥٧٠٩ ــ ١٩٤٩(٢٠)، التي منحت وزارة الزراعة صلاحية الاستيلاء على الاراضي العربية التي لم يقم أصحابها بفلاحتها ، مع انهم كانوا قد منعوا عنوة من الدخول اليها بعد اعلانها مناطق مغلقة من قبل السلطة ، وتسليمها الى المستوطنات اليهودية لاستغلالها. وتم في السنة نفسها ايضا نشر قانون تنظيم الاستيلاء على عقارات في ساعة الطوارىء لسنة ٥٧١٠ ــ ١٩٤٩(٢١)، الذي استغل لمصادرة العقارات العربية ، في المدن خاصة ، وذلك لاسكان المهاجرين اليهود الجدد ، القادمين الى اسرائيل او لاخلاء بنايات واستعمالها مكاتب او منشآت للاجهزة الاسرائيلية الرسمية المختلفة .

بعد الاستيلاء على ما تم الاستيلاء عليه من الاراضي العربية بموجب القوانين

المذكورة، توجهت السلطات الاسرائيلية الى تصفية حقوق الملكية لتلك الاراضي وانتزاعها من العرب ، فسنت في مرحلة لاحقة قانون الاراضي (مصادقة الاعمال والتعويض) لسنة ٥٧١٣ ــ ١٩٥٣(٢٢) الذي أعلنت بموجبه ان تلك الاراضي ، التـي تم الاستيلاء عليها بواسطة القوانين السابقة ، تعتبر ملكا لسلطة التعمير والانشاء ، وهي جهاز تابع للدولة ، بينما يحق لاصحابها السابقين الحصول على « تعويضات » عنها حسب اثمانها في أوائل سنة ١٩٥٠ ، عندما كانت أثمان الارض منخفضة للغاية ، وهو اجــراء مكن السلطة من الاستيلاء على تلك الاراضي بأبخس الاثمان ، مؤكدة ان رفض المالكين العرب استلام التعويضات المقترحة عن اراضيهم لا يؤثر على « حقوق » ملكية الدولة لها(٢٣).

لم تقف اجراءات مصادرة الاراضي العربية عند هذا الحد ، فمع اواخر الخمسينات قامت السلطات الاسرائيلية بادخال تعديلات على قانونين يتعلقان بحقوق ملكية الاراضي، هما قانون التقادم لسنة ٥٧١٨ ــ ١٩٥٨(٢٤) وقانون الاراضي (تسوية حقوق الملكية) لسنة ١٩٢٨(٢٥)، اتضح ان الهدف منهما كان الاستيلاء على مساحات أخرى من الاراضي العربية ، وذلك باعتبار التحسينات التي أدخلها العرب على ما اعتبرته السلطات اراضي الدولة ، لجهة تحسينها او تطويرها ، وذلك منذ ١٩٤٣ ، وكأنها لم تكن ، مما مكنها من الاستيلاء على مساحات أخرى من الاراضي كان المزارعون العرب قد حسنوها وجعلوها أرضا صالحة للزراعة ، وكانت ستعتبر ملكا لهم حسب القوانين السارية المفعول وقتها لو لم يتم تعديل القانونين المشار اليهما(٢٦).

أسفرت الاجراءات التي اتخذت بموجب القوانين التي اشرنا اليها ، في نهاية الامر ، عن مصادرة ما تزيد مساحته على مليون دونم من الاراضي اي ما يزيد على ثلثي مساحة الاراضي التي كان العرب داخل اسرائيل يملكونها(٢٧). ومع اقتراب مرحلة مصادرة الاراضي هذه على الانتهاء كانت السلطات الاسرائيلية تتخذ سلسلة اخرى من الاجراءات القانونية ، هدفت الى وضع القيود على اعادة بيع الاراضي وتسليمها الى غير اليهود ، وهي القانون الاساسي : عقارات اسرائيل لسنة ١٩٦٠(٢٨) وقانون عقارات اسرائيل لسنة ١٩٦٠(٢٩) وقانون مديرية عقارات اسرائيل لسنة ١٩٦٠(٣٠)، التي فرضت بموجبها قيود صارمة على بيع ما سمي بأراضي الدولة ، ومن بينها تلك التي صودرت من العرب، وتم حصر استعمالها، عادة،في اليهود دون غيرهم. ومما يلفت النظر في عملية انتقال ملكية الاراضي هذه ، انها تتم في اتجاه واحد فقط ، اي ان عمليات تحويل الملكية تقتصر على انتزاع الاراضي من العرب ونقلها الى اليهود ، بينما يمنع القانون القيام بعكس ذلك . وفي مثل هذه الحالة قد لا نستغرب ان نصل يوما ، نظريا على الاقل ، الى وضع تنتقل معه كل ملكية الاراضي العربية الى الدولة وسكانها اليهود ، بينما يصبح العرب مجموعة من السكان لا تملك اي عقار داخــل اسرائيل . ومما يلفت النظــر في هذا المجال ان السلطات الاسرائيلية متيقظة للغاية لاية محاولة لتغيير هذا الوضع ، فعندما اكتشفت قبل بضع سنوات ان عددا من المزارعين العرب يعودون الى الاراضي التي صودرت منهم ، بصفة عمال مستأجرين لدى مالكيها الجدد من اليهود ، سارعت الى سن قانون خاص ، هو قانون الاستيطان الزراعي (قيود لاستعمال الارض الزراعية ولاستعمال المياه) لسنة ١٩٦٧(٣١)، فرضت بموجبه قيودا صارمة على المستوطنين اليهود ومنعتهم من استخدام العمال الزراعيين العرب في الاراضي التي سلمت لهم ، تحت طائلة مصادرة حقوقهم في استعمال تلك الاراضي ان خالفوا القانون .

اضافة الى التمييز الذي يعانيه العرب ، وفقا للقانون الاسرائيلي ، في النواحي التي اشرنا لها ، المتعلقة بحقوقهم كمواطنين في بلادهم وقدرتهم على استملاك العقارات ، هناك ايضا نواح اخرى ، يخضع نشاط العرب ضمنها لقيود صارمة ومراقبة دقيقة ،

وهي حرية العمل والتنظيم السياسي والتعبير عن الراي . وفي هذه الناحية ، يصعب الوقوف بسهولة على طبيعة الاجراءات التي تتخذها السلطات الاسرائيلية للتحكم بأوضاع العرب السياسية ، اذ انها على عكس تلك التي عهدناها حتى الان ، نجدها هذه المرة مغلفة بعبارات وتعابير منمقة ومختبئة ، عادة ، تحت شعارات متطلبات الامن وضرورياته .

أعلنت اسرائيل ، بعد بضعة ايام من الاعلان عن اقامتها سنة ١٩٤٨ ، حالة الطوارىء داخلها ، وهي الحالة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا . وفي هذا المجال ، طبقت السلطات الاسرائيلية انظمة الطوارىء التي ورثتها عن سلطات الانتداب البريطاني ، بعد ان ادخلت عليها بعض التعديلات الطفيفة والغت منها بعض البنود التي تمس بمصالح الكيان الصهيوني ، بحق اليهود والعرب خلال بضعة أشهر بعد قيامها ، ثم سرعان ما توقفت عن تطبيقها بحق اليهود وقصرت ذلك على العرب وحدهم(٣٢) .

ان اجراءات الطوارىء التي طبقتها اسرائيل بحق العرب داخلها ، والتي لا يزال بعضها قائما حتى اليوم ، وان اختلفت طريقة تنفيذه ، تكاد تكون محصورة في انظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥(٣٣)، التي تمنح السلطات صلاحية القيام بأي عمل قد يخطر على بالها ، تقريبا ، مهما بلغ من غرابته وقسوته تحت ستار المحافظة على أمن البلد وتأمين السلامة العامة والمحافظة على النظام العام وقمع العصيان او الثورة او الفتنة . أما اولى الاجراءات التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية بحق العرب عامة ، بموجب تلك الانظمة فكانت فرض الاحكام العسكرية عليهم ، بحيث كانت النتيجة الاولى لهذا العمل تقسيم المناطق التي يسكنها العرب داخل اسرائيل الى مناطق مغلقة ومنع سكانها من الخروج منها ، لاي سبب كان وخلال أية فترة كانت ، وفي الوقت نفسه منع من يسكن خارجها من العرب من الدخول اليها ، الا بموجب تصريح خطي صادر عن الحاكم العسكري بذلك(٣٤). ومع مرور الزمن أصبح تصريح التنقل هذا اداة في يد السلطة للضغط على العرب وتحديد حريتهم ومنع الجماهير العربية من القيام بأي عمل لا ترضى عنه السلطة ، اذ ان حجب مثل ذلك التصريح أصبح أداة فعالة للمس بأوضاع العرب الاقتصادية ، وخاصة العمال منهم لمنعهم من الوصول الى أعمالهم . كذلك استغلت السلطات الاسرائيلية الاجراءات الاستثنائية التي نصت عليها أنظمة الطوارىء، لجهة فرض قيود الاقامة الاجبارية على الاشخاص أو نفيهم او اعتقالهم اداريا ، دون توجيه أي تهمة لهم ، عدا عن الاعلان انهم يشكلون خطرا على الامن(٣٥)، لفرض القيود على النشيطين سياسيا من العرب او المناوئين للسلطة واجراءاتها تجاه السكان العرب. ومع مرور الزمن ، ادخلت السلطات الاسرائيلية بعض التعديلات على سياستها تلك ، فأعلنت سنة ١٩٥٩ عن تخفيف قيود الحكم العسكري وسمحت بقسط أكبر من حرية التجول للعرب في مناطق محددة داخل اسرائيل ، وخلال ساعات النهار فقط(٣٦) ثم عادت وأعلنت في اواخر سنة ١٩٦٦ عن الغاء جهاز الحكم العسكري برمته وتحويل صلاحياته الى الشرطة المدنية(٣٧) في محاولة منها لاضفاء طابع الديمقراطية والتساهل مع العرب واتباع سياسة جديدة تجاههم . ولكن على الرغم من ذلك فان كل تلك الصلاحيات لا تزال عمليا قائمة ، من الوجهة القانونية ، حتى هذا اليوم ، وكل ما حدث يتلخص في ان السلطات الاسرائيلية توقفت عن تطبيق تلك الاجراءات بصورة جماهيرية واستعاضت عن ذلك بتطبيقها بشكل انتقائي بحق الافراد الذين لا يحظون برضاها ، خاصة بسبب نشاطهم السياسي(٣٨) .

وعلى ذكر أنظمة الطوارىء ، ينبغي الاشارة ايضا الى ان تلك الانظمة كانت الوسيلة التي استعملتها السلطات الاسرائيلية للمس بحرية الصحافة والتعبير عن الراي وتقييد

حرية التنظيم ومزاولة العمل السياسي ، رغم ادعاءات النظام الاسرائيلي بأنه نظام ديموقراطي شبه مثالي . وفي هذه الناحية ، تحتوي أنظمة الطوارىء على صلاحيات واسعة يحق للسلطة بموجبها تعطيل الصحف عن الصدور او الامتناع عن الترخيص بها، دون ابداء اي سبب لذلك(٣٩)، ثم فرض الرقابة عليها(٤٠)، وكذلك منع قيام التنظيمات السياسية التي لا ترضى السلطة عنها ، ومرة اخرى دون ابداء اسباب لذلك ، عدا عن التنويه ان مثل ذلك العمل ضروري لمقتضيات الامن(٤١). لقد امتنعت السلطات الاسرائيلية ، عادة ، عن تنفيذ تلك الاجراءات بحق اليهود ، ولكن موقفها كان مختلفا بالنسبة للعرب . وتعتبر التجربة التي خاضتها حركة « الارض » ، وهي حركة قومية عربية أقيمت في اسرائيل سنة ١٩٥٩ وبقيت تعمل حتى ١٩٦٤ ، عندما منعتها السلطة من القيام بأي نشاط ، خير دليل على ذلك . ان اجراءات القمع « العادية » التي اتخذتها السلطة الاسرائيلية بحق اعضاء الحركة لم تستطع منعهم من ممارسة نشاط سياسي خاص بهم ، ولما وجدت السلطات انها لن تستطيع احتواءهم لجأت الى أنظمة الطوارىء فمنعتهم من اصدار صحيفة خاصة بهم(٤٢)، ثم حلت التنظيم السياسي الذي اقاموه(٤٣) وفي مرحلة لاحقة منعتهم ايضا من الاشتراك في الانتخابات العامة(٤٤).

يتضح مما تقدم من عرض الاوضاع القانونية للسكان العرب في اسرائيل ، ان اولئك السكان ليسوا ، في أحسن الاحوال ، الا مواطنين من الدرجة الثانية ، وان تمتعهم بالحقوق التي يمنحها القانون الاسرائيلي لمواطن في اسرائيل يتوقف على نظرة النظام الاسرائيلي لتلك الحقوق ، وما دامت غير متنافية مع طابع اسرائيل الصهيوني ولا تؤثر عليه ، وبعكس ذلك نرى القيود تفرض على العرب ويمنعون حتى من التمتع بأبسط حقوقهم .

٣ ـ السكان العرب في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧

يختلف الوضع القانوني للسكان العرب في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، عدا مدينة القدس ، عن ذلك القائم بالنسبة للسكان العرب في اسرائيل ، لجهة تصنيف هذه المناطق ، من وجهة نظر القانون الاسرائيلي ، كمناطق محتلة قولا وفعلا . فمع دخول قوات الجيش الاسرائيلي الى الاراضي التي احتلت يومها ، والتي تم تقسيمها اداريا الى اربع مناطق هي الضفة الغربية ، هضبة الجولان ، قطاع غزة وشمال سيناء (منطقة « اقليم شلومو » بحسب التعريف الاسرائيلي) نشر قادة القوات الاسرائيلية في كل واحدة من تلك المناطق ما سموه المنشور رقم ١ ، أعلنوا بموجبه « ان الجيش الاسرائيلي . . . تقلد زمام الحكم لاقرار الامن والنظام العام في المنطقة »(٤٥) التي تخضع لسيطرتهم . ثم اتبع ذلك المنشور بالمنشور رقم ٢ « بشأن انظمة السلطة والقضاء » الذي أعلن قادة الجيش الاسرائيلي بموجبه استيلاءهم على « صلاحيات الحكم والتشريع والتعيين والادارة فيما يتعلق بالمنطقة او بسكانها »(٤٦)، وذلك بعد ان اعلنوا ان القوانين التي كانت قائمة في المنطقة عشية دخول القوات الاسرائيلية اليها « تظل نافذة المفعول بالقدر الذي لا تتعارض فيه مع هذا المنشور (اي المنشور رقم ٢) او اي منشور او أمر يصدر من قبلي (اي من قبل قائد القوات الاسرائيلية في المنطقة) ـ وبالتغييرات الناجمة عن حكم جيش الدفاع الاسرائيلي في المنطقة »(٤٧).

من الواضح من نصوص وتعليمات المنشورين المذكورين ، ان الجيش الاسرائيلي اعتبر نفسه قانونا ، كما اشرنا ، بمثابة قوات احتلال موجودة في المناطق التي تخضع لسيطرته ، يديرها وفقا للاسس التي ينبغي ان تدار بها منطقة محتلة لحين البت في مصيرها ، ولهذا يفترض في هذا الصدد ان تلتزم القوات الاسرائيلية بالقوانين الدولية

المعمول بها في مثل هذه الحالات ، وخاصة احكام معاهدة جنيف لسنة ١٩٤٩ ، التي كانت اسرائيل من بين الدول التي صادقت عليها ، وتتصرف تجاه سكان تلك المناطق من خلال التقيد بتعليمات تلك المعاهدات وأصول القانون الدولي المرعية . ولكن بدلا من ذلك نرى ان اسرائيل قد أدينت أكثر من مرة من قبل منظمات خاصة او دولية ، وخاصة في الامم المتحدة ، بمخالفة احكام معاهدة جنيف وأصول القانون الدولي المتبعة في مثل هذه الحالات ، والتصرف بطريقة اعتباطية في المناطق التي احتلتها ، وبشكل لا يتلاءم ومصلحة السكان في تلك المناطق(٤٨) .

ليس من السهل ، بالطبع ، ضمن هذا العرض المقتضب لاوضاع السكان العرب القانونية في المناطق المحتلة الوقوف بالتفصيل على طبيعة التصرفات والاجراءات التي ميزت النشاط الاسرائيلي في تلك المناطق والوصول الى موقف واضح منها جميعا . ولكن نظرة اجمالية الى الاوامر التي أصدرتها قيادات القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، على أصعدة « الحكم ، التشريع ، التعيين والادارة » ، تظهر ان القصد منها لم يكن الالتزام بتنفيذ تعليمات القانون الدولي من جهة ، او مخالفة تلك التعليمات قصدا من جهة أخرى ، كغاية رئيسية قائمة بحد ذاتها ، وان كان الهدف اساسا ادارة تلك المناطق بشكل يتلاءم مع المصالح الاسرائيلية ، ومع مصالح سكانها بالمدى الذي يعتبر ذلك ضروريا للحفاظ على الامن والهدوء في تلك المناطق ، من خلال التجربة الغنية التي مرت بها اسرائيل في مجال معاملة السكان العرب الذين بقوا داخلها بعد ١٩٤٨ ، وبأسلوب قضائي واداري يشبه ذلك الذي اتبعته اسرائيل بالنسبة لادارة شؤونها عند اقامتها وبعد ذلك .

ان « الاسلوب الاسرائيلي » في الحكم والادارة ، الذي طبق بالنسبة للمناطق المحتلة ، واضح للغاية وذلك من المناشير والاوامر الاولى التي أصدرها قادة الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة . فالتعليمات التي ينص عليها المنشوران رقم ١ و٢ ، اللذان مر ذكرهما ، بشأن تقلد الجيش الاسرائيلي السلطة وتحديد أنظمة السلطة والقضاء في المناطق المحتلة وأسلوب التنفيذ الضمني الذي أرسيت قواعده في هذين المنشورين ، تشبه الى حد بعيد تلك الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل لحظة الاعلان عن قيامها لدعم سلطتها وتحديد أسس النظام والقضاء فيها . ولقد كان أول عمل قامت به اسرائيل عند انشائها، اعلانها عن نفسها دولة مستقلة وبسط نفوذها على المناطق التي احتلتها وقتها، بموجب مستند خاص بذلك ، عرف فيما بعد باسم وثيقة الاستقلال ، وهو التقليد الذي اتبعه الجيش الاسرائيلي سنة ١٩٦٧ باعلانه عن « تقلد زمام الحكم » في المناطق التي احتلها . كذلك فان التعليمات التي نص عليها المنشور رقم ٢ بشأن « أنظمة السلطة والقضاء » والذي أعلن قادة القوات الاسرائيلية بموجبه استيلاءهم على « صلاحيات الحكم ، التشريع ، التعيين والادارة » في المناطق التي تحتلها قواتهم ، ثم تأكيدهم ان القوانين التي كانت قائمة في المناطق المحتلة عشية دخول القوات الاسرائيلية تظل نافذة المفعول بالقدر الذي لا تتعارض فيه مع المناشير التي يصدرونها « وبالتغييرات الناجمة عن انشاء حكم جيش الدفاع الاسرائيلي » في تلك المناطق ، متجانسة تماما مع تعليمات أول قانون أصدرته اسرائيل بعد الاعلان عن اقامتها، وهو قانون انظمة السلطة والقضاء لسنة ١٩٤٨(٤٩) . ففي هذا القانون ايضا اعلنت اسرائيل ان صلاحيات التشريع والقضاء والادارة في المناطق التي تسيطر عليها القوات الاسرائيلية او التي قد تحتلها فيما بعد ، تناط بالحكومة الاسرائيلية المؤقتة ، وان القوانين التي كانت قائمة عشية الاعلان عن استقلال اسرائيل تبقى نافذة المفعول ، وبالمدى الذي لم تلغ به تلك القوانين صراحة ، او ان وجودها لا يتعارض مع حقيقة اقامة اسرائيل ونظامها(٥٠) . وتجدر الاشارة هنا الى

ان هذا ايضا كان نفس الاسلوب التي اتبعته القوات البريطانية عند استكمالها احتلال فلسطين سنة ١٩١٨ ، عندما أعلنت ان القانون العثماني الذي كان سائدا عشية الاحتلال يبقى نافذ المفعول ، الا اذا تم الغاؤه صراحة ، ثم راحت تدخل التغييرات علـــى تلك القوانين فيما بعد وتضيف اليها قوانين أخرى ، بريطانية المنشأ ، بين حين وآخر(٥١).

اضافة الى « الاسلوب الاسرائيلي » في الحكم والادارة الذي طبق في المناطق المحتلة ، كما نوهنا ، هناك أيضا « التجربة الاسرائيلية » مع العرب الذين بقوا داخل اسرائيل بعد ١٩٤٨ ، التي طبقت في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ . فالمنشور رقم ٣ الذي أصدره قادة قوات الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلـــة في نفس الوقت الذي صدر فيـــه المنشوران رقم ١ و ٢ ، والذي ينص على العمل بما سمي « الامر بشأن تعليمات الامن » لسنة ٥٧٢٧ – ١٩٦٧ ، الذي صدر ايضا في تاريخ اصدار المنشورين السابقين ، وهي المناشير الثلاثة التي يمكن اعتبارها بمثابة أسس النظام الاسرائيلـــي الذي أنشيء في المناطق المحتلة ، يستند بشكل واضح الى الخبرة التي اكتسبتها السلطات الاسرائيلية في مجال تعاملها مع سكان اسرائيل العرب خلال ١٩٤٨ – ١٩٦٧ . وتنبغي الاشارة هنا الى أن تعديلات عديدة قد أدخلت على ذلك الامر بشأن تعليمات الامن ، في ضوء متطلبات الواقع في المناطق المحتلة ، استمرت نحو ثلاث سنوات ، الى ان أعيدت صياغة الامر سنة ١٩٧٠ وتم نشره ثانية بصيغتـــه الجديدة ، التـــي احتوت على كـــل التعديلات السابقة(٥٢).

ان نظرة سريعة الى مواد « الامر بشأن تعليمات الامن » تظهر ان ذلك الامر ليس الا نسخة مستحدثة ، « مكررة ونقية » لأهم التعليمات والمواد التي تحتوي عليها انظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥ ، وهي الانظمة التي استغلتها السلطات الاسرائيلية لاضطهاد العرب داخلها وسلبهم حقوقهم المدنية والتحكم في تطورهم وتحركاتهم السياسية والاجتماعية بالشكل الذي يناسبها . ولقد كانت تلـــك الانظمة الاداة الرئيسيـــة التي استعملتها السلطة الاسرائيلية لفرض الاحكام العسكرية على العرب وتقييد تحركاتهم ، وهي التي ساعدتها على مصادرة مساحات واسعة من الاراضي العربية ، وعلى تقييد حرية العرب المناوئين لسياستها ونفيهم أو اعتقالهم ، سعيا لاسكاتهم ثم المس بحرية العمل السياسي وحرية التنظيم والصحافة والفكر ، كما أشرنا أعلاه . ويبدو واضحا ان الامر بشأن تعليمات الامن لسنة ١٩٦٧ ، وذلك الذي حل محله سنة ١٩٧٠ ، يسيران على نفس الخطى التي سارت عليها انظمة الطوارىء لسنـــة ١٩٤٥ ، ويتبعان نفس اساليب وطريقة العمل المنصوص عليها في تلك الانظمة ، ويحتويان كذلك على معظم التعليمات التي تنص عليها ، خاصة تلك التي تمس بالحريات الديموقراطية .

ان أول ما ينص عليه الامر بشأن تعليمات الامن هو منح قادة القوات الاسرائيلية في المناطق العسكرية صلاحية تعيين حكام عسكريين لاية مساحة او مكان ضمن المناطق الخاضعة لسلطتهم ، لمساعدتهم في ادارة تلك المناطق(٥٣)، وذلك تماما كما عين في حينه حكام عسكريون للمناطق التي يسكنها العرب داخل اسرائيل(٥٤). وينتقل الامر بعد ذلك الى تشكيل المحاكم العسكرية ، التي يشبه تشكيلها ايضا تلك التي تعمل بالنسبة للعرب في اسرائيل ، ثم يتطرق بعد ذلك الى تعداد ما يعتبره جرائم ضد الامن ، فنرى انه لسبب ما يضم الجرائم ذات الصبغة العسكرية فقط ، ويمنح السلطات العسكرية صلاحيات التوقيف والضبط والتفتيش والمصادرة فيما يتعلق بتلك الجرائم . غير ان أهم ما يلفت النظر في هذا الامر هو الصلاحيات التي منحت للحكام العسكريين لفرض أوامر التقييد والرقابة الخاصة (النفي) والاعتقال الاداري بالنسبة لسكان تلك المناطق ، وكذلك تقييد حركة النقل والمرور ومنع التجول واعلان المناطق المغلقة(٥٥)، وهـــي الصلاحيات التي

استعملتها اسرائيل بشكل مكثف ضد سكانها العرب ، والتي استعملها الحكام العسكريون في المناطق المحتلة لاضطهاد السكان العرب وقمع نشاط المقاومة بينهم او للاستيلاء على اراضيهم . كذلك يلفت النظر ، من ناحية ثانية ، خلو تلك التعليمات من أية اشارة تمنح بموجبها للسلطات العسكرية صلاحية مصادرة البيوت ونسفها ، رغم ان سلطات الاحتلال لجأت الى تطبيق هذا الاجراء اكثر من مرة ونسفت المئات من البيوت في المناطق المحتلة . ويبدو ان سلطات الاحتلال امتنعت عن ذكر هذا الاجراء في أوامر الامن التي أصدرتها في المناطق المحتلة ، لانه يتنافى صراحة مع نصوص معاهدة جنيف لسنة ١٩٤٩ ، وفضلت بدلا من ذلك الاستناد الى أنظمة الطوارىء البريطانية لسنة ١٩٤٥ ، التي كانت سنة ١٩٦٧ لا تزال سارية المفعول في الضفة الغربية وقطاع غزة ، لتنفيذ عمليات نسف البيوت(٥٦). وتخلو أوامر الامن أيضا من أية اشارة الى فرض العقوبات الجماعية بحق سكان المناطق او طرد السكان العرب الى خارج مناطق سكنهم(٥٧) حيث ان هذه العقوبات تتنافى أيضا مع تعليمات معاهدة جنيف ، ولهذا تلجأ سلطات الاحتلال ، مرة اخرى ، الى استعمال انظمة الطوارىء لسنة ١٩٤٥(٥٨).

اضافة الى المناشير والاوامر والتعليمات التي أصدرها قادة القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة والتي تتعلق بأسس النظام والحكم الاسرائيلي في تلك المناطق ، كما اشرنا ، هناك أيضا أوامر عديدة أخرى تتعلق بشؤون المعيشة اليومية للسكان في تلك المناطق ، بكافة جوانبها والكثير منها يعدل القوانين المحلية المعمول بها في المناطق او يستبدلها او يضيف عليها ، وهناك أيضا مجموعة من أوامر التعيينات ، من ابناء المناطق المحتلة وخارجها ، لعديد من المناصب الادارية والقضائية . ان الاوامر المتعلقة بهذه الاجراءات كبيرة العدد، ويزيد حجمها أضعاف المرات على حجم الاوامر المتعلقة بالشؤون الامنية ، اذ صدر منها حتى الان ما يزيد حجمه على الف صفحة لكل واحدة من المناطق المحتلة . وتكاد لا تترك هذه الاوامر ناحية الا وتمسها ونكتفي هنا ، للدلالة على تنوعها ، بايراد بعض النواحي التي تعالجها ؛ فهناك ، مثلا ، أوامر تتعلق بالبنوك ، سعر العملة المحلية ، تداول العملة الاسرائيلية ، الضرائب ، الرسوم الجمركية ، تحصيل الاموال الاميرية ، تسويق المنتوجات الزراعية ، توزيع الجرائد ، اطالة مدة خدمة السلطات المحلية ، تنظيم السياحة ، ممارسة الحرف والمهن ، استعمال الكتب الدراسية ، تحديد الاوزان والمقاييس والمكاييل ، الآثار القديمة ، التقاعد ، تسوية الاراضي ، حماية الصيد والغابات والمناطق المحفوظة ، الاستملاك للمقاصد العامة ، اجازات المحامين ، انشاء الحدائق العمومية ، صيانة حرمة الاماكن المقدسة ، تنظيم المدن والقرى والابنية ، استغلال الثروات الطبيعية ، الخ . ويلاحظ من الاطلاع على نصوص الاوامر المتعلقة بالنواحي التي ذكرناها ان معظمها تم من خلال وجهة نظر تسعى الى تأمين متطلبات المعيشة اليومية والنظام العام في تلك المناطق وأحيانا تأمين المصالح الاسرائيلية في نواحي معينة . كذلك يلاحظ أيضا وجود مجموعة ثانية من الاوامر ، نذكر منها تلك المتعلقة بتأمين المركبات الميكانيكية ، بما في ذلك تغطية اخطار الفريق الثالث ، وتنظيم حركة مرور السيارات واصول سيرها(٥٩)، بشكل يشبه الى حد بعيد ذلك المتبع في اسرائيل، ويضاف الى هذا الصنف من الاوامر أيضا ذلك القاضي بالغاء عقوبة الاعدام كعقوبة وجوبية في المناطق المحتلة(٦٠).

ان الانطباع الذي يخرج به المرء من تتبعه لعملية اصدار الاوامر التشريعية من قبل قادة القوات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، هو الابقاء على صفة الاحتلال كصفة ملازمة للوجود الاسرائيلي في تلك المناطق ، والسعي بالدرجة الاولى الى ضمان سلامة قوات الاحتلال في تلك المناطق خاصة وتأمين مصالح المحتل الاسرائيلي عامة ، مع الاتجاه نحو

تأمين شؤون معيشة السكان بشكل منتظم وادخال التعديلات على النظام العام في المناطق بشكل يكون اكثر ما يكون تناسقا مع الاجراءات المرعية داخل اسرائيل بالنسبة لمثل تلك الحالات . ويبدو ان الاوضاع السياسية التي سادت المنطقة منذ ١٩٦٧ ، والتي امتنعت اسرائيل بسببها عن التخلي عن تلك المناطق بينمـــا اصرت في نفس الوقت على عـــدم الانسحاب منها ، كانت السبب المباشر وراء المواقف الاسرائيلية هذه .

٤ ــ سكان القدس العرب

يختلف الوضع القانوني للسكان العرب في مدينة القدس عـــن ذلك القائم بالنسبة للسكان العرب في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، حيث ان اسرائيل أعلنت عن ضم المدينة اليها ، مع بعض ضواحيها ، بعد وقت قصير من احتلالها ، وهو ما لم تفعله بالنسبة لباقي المناطق المحتلة ، ومن هنا الفارق في الاوضاع القانونية بين السكان . كذلك يعود هذا الوضع ويتغير اذا ما قورن مع الاوضاع القانونية للعرب داخل اسرائيل ، حيث ان اجراءات الضم الخاصة التي اتبعت بالنسبة للقدس أكسبت سكانها بعض « الحقوق » التي لم تكن من نصيب العرب في اسرائيل ، وحجبت عنهم « حقوقا » أخرى حصل عليها أولئك العرب قبل فترة طويلة .

اتخذت السلطات الاسرائيلية موقفا مميزا من القدس بعد احتلالها ، على اثر اعلانها انها ستجعل من المدينة بأكملها « عاصمة اسرائيل الموحدة » ، عندما سارعت الى ضم المدينة الى اسرائيل قبل ان يمر شهر على احتلالها ، لتضع العرب والعالم أمام حقيقة واقعة . ففي ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أقر الكنيست قانونا بتعديـــل قانون انظمة السلطة والقضاء(٦١)، وهو أول قانون أصدرته اسرائيل بعد الاعلان عن اقامتها ، خولت الحكومة بموجبه ، بأمر تصدره ، بضم أي مساحة من فلسطين ، وحسب نص القانون « أرض ــ اسرائيل » ، الى اسرائيل وذلك بواسطة فرض القانون والادارة الاسرائيليين على تلك المساحة . وفي نفس اليوم أقر تعديل آخر لقانون البلديات(٦٢) سمح بموجبه لوزير الداخلية باضافة تلك المساحة التي أعلنت الحكومة عن ضمها الى اسرائيل ، الى البلدية التي تجاورها ، بواسطة توسيع حدود تلك البلدية . وعلى اثر هذا مباشرة ، وفي اليوم التالي لتعديل القانونين المذكورين ، أصدرت سكرتيرة الحكومة بيانا أعلنت بموجبه ان الحكومة الاسرائيلية قررت ضم مدينة القدس القديمة (العربية) وضواحيها ، بمساحة تقدر بحوالي ٦٩٩٦٠ دونما من الارض ، الى اسرائيل(٦٣)، بينما أعلن وزير الداخلية أنه قرر اتباع تلك المساحة ببلدية القدس الغربية (اليهودية)(٦٤)، لتضاف الى مساحتها السابقة البالغة ٣٧٢٠٠ دونم ، بحيث يعتبر الشطران مدينة واحدة ، في حين اصدر الحاكم العسكري في القدس في اليوم التالي ، اي ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، أمرا بحل بلدية القدس العربية(٦٥)، وحتى دون ان يكون مخولا قانونا بذلك .

يتضح من الاجراءات السابقة ، والسرعة التي نفذت بها ، الاصرار الاسرائيلي على ضم القدس العربية الى اسرائيل ، وهي العملية التي أثارت معارضة واسعة لدى سكان المدينة العرب وفي العالم العربي ودول عديدة أخرى ، ودفعت الجمعية العامة للامم المتحدة الى اعتبارها اجراءات باطلة ، طالبة من اسرائيل العمل على الغائها(٦٦). كذلك أثارت عملية الضم هذه مشاكل قانونية معقدة ، تتعلق بالوضع القانوني للسكان العرب في المدينة ، وهي المشاكل التي لا تزال اسرائيل تسعى لحلها ، منذ ١٩٦٧ وحتى اليوم ، وذلك بواسطة مجموعة من القوانين والانظمة التي اصدرت خصيصا لذلك . وكانت الخطوة الاولى في هذا المجال اصدار قانـــون التنظيمات القانونية والاداريـــة لسنة ١٩٦٨(٦٧)، الذي أضيفت اليه سنة ١٩٦٩ أنظمة اخرى لاستكماله(٦٨)، ثم اعيد نشره على شكل نص موحد سنة ١٩٧٠(٦٩) وأدخلت عليه تعديلات اضافية ، مرة اخرى ، سنة

١٩٧٣(٧٠). كذلك أصدرت السلطات الاسرائيلية ، في هذا الصدد ، قانون أملاك الغائبين (تعويضات) لسنة ١٩٧٣(٧١)، « لتعويض » سكان القدس العرب عن الممتلكات التي صودرت منهم .

ان الهدف الرئيسي الكامن وراء تلك القوانين ، كما تدل عليه التعليمات المختلفة التي تحتوي عليها ، هو بسط النفوذ الاسرائيلي على مدينة القدس ، بأكبر مدى ممكن ، من خلال تقوية الوجود اليهودي فيها والعمل في نفس الوقت على حل مشاكل السكان العرب الملحة ، بطريقة « هادئة » في أغلب الاحيان ومن خلال التغاضي عن الامور الحساسة التي قد تثير معارضة واسعة للسلطات الاسرائيلية بين السكان وترك مثل هذه الامور لتجد حلا لها ، ربما ، مع مرور الزمن ، وحتى وان نجم عن ذلك عـدم تطبيق قوانين اسرائيلية عديدة بالنسبة لسكان المدينة العرب . أما أولى القضايا التي اتجهت تلك القوانين لحلها فكانت مشكلة « وجود » العرب في القدس وعلاقتهم بالقوانين الاسرائيلية، فاعتبرت اهالي المدينة العرب من « سكان » اسرائيل ، لا من « مواطنيها »(٧٢). ولهذا أمتنعت السلطات عن منح الجنسية الاسرائيلية لاولئك السكان ومنعتهم من الاشتراك في الانتخابات العامة ، بينما سمحت لهم بالاشتراك في الانتخابات لبلدية القدس فقط ، التي لم يشترك الكثيرون منهم فيها على أية حال ، وذلك رغم ان مدينتهم ضمت الى اسرائيل دون تحفظات من جانب حكومتها . ويبدو ان الهدف الرئيسي الكامـن وراء تصرفات الحكومة الاسرائيلية هذه هو عدم زيادة عدد العرب الذين يتمتعون بحقوق المواطنة في اسرائيل ، ووضع العراقيل في وجه من يريد منهم الحصول على تلك الحقوق باجباره على تقديم طلب خاص للتجنس ، تكون حرية البت فيه مناطة بوزير الداخلية ، كما يتضح من تعليمات قانون الجنسية الاسرائيلي من جهة(٧٣)، وتسهيل عملية الخروج للعرب الذين يريدون ترك المدينة من جهة اخرى .

كذلك تحاول القوانين الاسرائيلية المذكورة التدخل في الاوضـاع الاقتصادية للسكان العرب ، من خلال ربط نشاط العرب الاقتصادي بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي ، وهي نفس الطريقة التي اتبعتها السلطات الاسرائيلية بالنسبة للسكان العرب في المناطق الاخرى المحتلة سنة ١٩٦٧ ، اذ تنص تلك القوانين على تسجيل كـل الشركات والجمعيـات التعاونية والمؤسسات الاقتصادية العاملة في المدينة كمؤسسات اسرائيلية ، تخضع للقوانين والانظمة الاسرائيلية ، وذلك خلال فترة وجيزة من اقرار تلك القوانين(٧٤). ويبدو ان السلطات الاسرائيلية توقعت الا يستجيب السكان العرب بسرعة الى تلك التعليمات ، ولهذا منحت لنفسها صلاحية تمديد فترات التسجيل تلك من حين لآخر ، وهي الصلاحيات التي استعملتها أكثر من مرة لتمدد بموجبها تلك الفترات(٧٥)، حيث لم يسارع السكان العرب فعلا الى التقيد بتلك الانظمة وتسجيل مؤسساتهم الاقتصادية وفقا للقانون الاسرائيلي. واستمرارا لهذا الموقف تحتوي تلك القوانين ايضا على تعاليم اضافية يقتضي على السكان بموجبها الحصول على التراخيص والاذونات الملائمة من السلطات الاسرائيلية لممارسة مهنهم وحرفهم(٧٦)، ومرة أخـرى اتخذت السلطـات الاسرائيلية في هذا المجال الاحتياطات الضرورية لتفادي احراج نفسها والاضطرار للجوء الى الضغوط على السكان العرب لحملهم على التقيد بقوانينهـا ، فقد توقعت تلـك السلطات ، مثلا ، الا يبادر المحامون العـرب في القدس الى القيـام بأي اجراء كان لنحصول على ترخيص بمزاولة مهنتهم وفقا للقوانين الاسرائيليـة ، ولهذا أدخلت الى القانون بندا خاصا منح اولئك المحامين حق ممارسة مهنتهم في اسرائيل دون قيود(٧٧).

ومما يلفت النظر أيضا في القوانين الاسرائيلية الخاصة بالقدس تلك المواد منها المتعلقة بحقوق سكان المدينة العرب في أملاكهم . لقد نجم عن اجراءات ضم القدس الفورية الى

اسرائيل وضع قانوني اعتبر سكان المدينة بموجبه « غائبين » بموجب القوانين التي كانت سارية المفعول وقتها والتي كانت تطبق بحق السكان العرب داخل اسرائيل ، مما يمنح السلطات الاسرائيلية الحق في الاستيلاء على تلك الاملاك ، بما في ذلك الاماكن المقدسة وأملاك الاوقاف . وقد تنبهت السلطات الاسرائيلية الى هـذا الوضع والى التعقيدات التي قد تنشأ عنه ، ولهذا نرى ان القوانين الخاصة بالقدس تنص صراحة على استثناء سكان المدينة ، والاماكـن المقدسة ، من تطبيـق قانون املاك الغائبين بحقهم(٧٨)، وان كان هذا الاستثناء لا ينطبق علـى أملاك السكان الموجودة في الجزء الغربي من المدينة او في أماكن أخرى في اسرائيل . وكانت السلطات الاسرائيلية قد أقرت في مرحلة لاحقة قانونا لتعويض سكان المدينة عن أملاكهم(٧٩) التي كانت اسرائيل قد استولت عليها سنة ١٩٤٨ ، وفقا للاسس التي طبقت تجاه العرب داخل اسرائيل في الماضي ، مع بعض الفوارق لجهة زيادة قيمة التعويضات ، وان كانت قيمة التعويضات التي حددت لا تتناسب مع القيمة الحقيقية للاملاك التي تم الاستيلاء عليها ، في حين أجبر السكان على التقدم بطلبات التعويض خلال فتـرة محددة ، وعلى استلام جزء مـن التعويضات مقابل سندات دين ، تدفعها الحكومة الاسرائيلية خلال ١٥ عاما(٨٠)، بحيث يبدو وكأن السكان العرب ملزمون بتمويل عملية مصادرة أراضيهم منهم . وعلى ذكر المصادرة ، نشير الى ان اسرائيل كانت قد اعلنت سنة ١٩٧٠ عن مصادرة ما تقارب مساحته من ١٢ الف دونم من الاراضي العربية في القدس وضواحيها(٨١)، لاقامة مساكن عليها للمهاجرين اليهود الجدد ولليهود الاسرائيليين الذين يعلنون عن استعدادهم للانتقال والعيش في القدس ، سعيا وراء تهويد المدينة ، بواسطة زيادة عدد سكانها اليهـود وتطوير المنشآت والمؤسسات المخصصة لخدمتهم . وقد تم الاستيلاء بالفعل على جزء من تلك المساحة المصادرة ، واقامة المساكن والمنشآت عليها .

يتضح مما تقدم ان الاسباب الكامنة وراء الاوضاع القانونية الخاصة للسكان العرب في مدينة القدس متناسقة مع مثيلاتها المتعلقة بأوضاع السكان العـرب القانونية في المناطق الاخرى ، المحتلة قديما او حديثا ، من حيث انها جميعا تنبع من مواقف واهداف سياسية تسعى السلطات الاسرائيلية الى تحقيقها ، وتختلف بالنسبة لكل منطقة واخرى باختلاف الموقف الاسرائيلي ، رسميا وعمليا ، من تلك المناطق وسكانها . ويلاحظ في هذا الصدد ان اسرائيل ، في سعيها لتحقيق أهدافها السياسيـة البعيدة المدى او خططها الآنية ، لا تتردد في التمييز بين منطقة وأخرى وبين شخص وآخر ، حتى وان لم يكن هناك مبرر منطقي لذلك وتقرر مواقفها من المعاهدات والاجراءات الدولية المتبعة، لجهة القبول بها او مخالفتها ، في ضوء مصالحها الخاصة .

---

١ ــ « الوقائع الاسرائيلية » ، **كتاب القوانين** رقم ٥١ ، ١٩٥٠/٧/٦ .

٢ ــ **المصدر نفسه** ، المواد ١ و ٢ .

٣ ــ قانون العودة (تعديل رقم ٢) لسنة ٥٧٣٠ ــ ١٩٧٠ ، **كتاب القوانين** رقم ٥٨٦ ، ١٩٧٠/٣/١٩ .

٤ ــ **كتاب القوانين** رقم ٩٥ ، ١٩٥٢/٤/٨ .

٥ ــ **المصدر نفسه** ، المادة ٢ .

٦ ــ **المصدر نفسه** ، المادة ٣ (أ) .

٧ ــ انظر ، للمقارنة ، اقوال وزير الداخلية ، حاييم موشيه شابيرا ، في « **محاضر الكنيست** »، ١٩٥٠/١٠/١٠ ، ص ٢١٣٤ .

٨ ــ انظر ، مثلا ، اقوال عضـو الكنيست توفيق طوبي في « **محاضر الكنيست** » ، ١٩٥٢/٧/٢٣ ، ص ٢٧٠٠ .

٩ ــ « **قرارات المحكمة العليا** » الاسرائيلية ، المجلد السادس عشر ، ص ٦٩ ، القضية رقم ٦٠/٣٢٨ ، جمال موسى ضد وزير الداخلية .

١٠ ــ انظر المادة ٥ من قانون الجنسية .

١١ ــ قانون الجنسية (تعديل رقم ٣) لسنة ٥٧٣١ ــ ١٩٧١ ، **كتاب القوانين** رقم ٦٢٤ ، ١٩٧١/٥/٢٦ .

١٢ ــ قانون الجنود المسرحين (ارجاعهم الى العمل) (تعديل رقم ٤) لسنة ٥٧٣٠ ــ ١٩٧٠، **كتاب القوانين** رقم ٥٩٩ ، ١٩٧٠/٧/٢٢ .

١٣ ــ انظر ايضا Sabri Jiryis, «Recent Knesset Legislation and the Arabs in Israel», *Journal of Palestine Studies*, (Beirut), Autumn 1971, pp. 53-67.

١٤ ــ « **الجريدة الرسمية** » الاسرائيلية ، الملحق ٢ للعدد رقم ٣٧ ، ١٩٤٨/١٢/١٢ .

١٥ ــ **كتاب القوانين** رقم ٣٧ ، ١٩٥٠/٣/٢٠ .

١٦ ــ « **الوقائع الفلسطينية** » ، الملحق رقم ٢ للعدد ١٤٤٢ ، ١٩٤٥/٩/٢٧ .

١٧ ــ انظر المادة ١٢٥ من انظمة الدفاع (الطوارىء) لسنة ١٩٤٥ ، **المصدر السابق** .

١٨ ــ **كتاب القوانين** رقم ١٧ ، ١٩٤٩/٨/٣ .

١٩ ــ « **الوقائع الاسرائيلية** » ، مجموعة الانظمة رقم ١٨ ، ١٩٤٩/٦/٨ ورقم ٢١٥ ، ١٩٥١/١١/٢ .

٢٠ ــ « **الجريدة الرسمية** » الاسرائيلية ، رقم ٢٧ ، الملحق ٢ ، ١٩٤٨/١٠/١٥ ورقم ٤١ ، الملحق ٢ ، ١٩٤٩/١/٧ .

٢١ ــ **كتاب القوانين** رقم ٢٧ ، ١٩٤٩/١١/٢٣ .

٢٢ ــ **المصدر نفسه** ، رقم ١٢٢ ، ١٩٥٣/٣/٢٠ .

٢٣ ــ انظر ، للتفاصيل ، صبري جريس ، « **العرب في اسرائيل** » ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٤ ــ ١٦٧ ، ٢٠٩ ــ ٢١٤ .

٢٤ ــ **كتاب القوانين** رقم ٢٥١ ، ١٩٥٨/٤/٦ .

٢٥ ــ قانون (تسوية حقوق الملكية) الاراضي لسنة ١٩٢٨ ، **قوانين فلسطين** ، الجزء الثاني ، ١٩٣٣ ، ص ٩٧١ وقانون بتعديل قانون (تسوية حقوق ملكية) الاراضي لسنة ٥٧٢٠ ــ ١٩٦٠ ، **كتاب القوانين** ٣٠٢ ، ١٩٦٠/٢/٢٥ .

٢٦ ــ انظر ايضا صبري جريس ، « **العرب في اسرائيل** » ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ ــ ١٩٦ .

٢٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢١٥ ــ ٢٢٥ .

٢٨ ــ **كتاب القوانين** رقم ٣١٢ ، ١٩٦٠/٧/٢٩ .

٢٩ ــ **المصدر نفسه** .

٣٠ ــ **المصدر نفسه** .

٣١ ــ **المصدر نفسه** ، رقم ٥٥٦ ، ١٩٦٧/٨/١٠ .

٣٢ ــ « **تقرير مراقب الدولة عن جهاز الامن للسنة المالية ١٩٥٧/١٩٥٨** » ، رقم ٩ ، ١٥/ ١٩٥٩/٢ ، ص ٥٦ .

٣٣ ــ انظر الملاحظة (١٦) اعلاه .

٣٤ ــ انظر الملاحظة (١٧) اعلاه .

٣٥ ــ **انظمة الدفاع (الطوارىء)** ١٩٤٥ ، المواد ١٠٩ و١١٠ و١١١ .

٣٦ ــ انظر بيان رئيس الحكومة الاسرائيلية ، دافيد بن غوريون ، في « **محاضر الكنيست** » ٨/٥/ ١٩٥٩ ، ص ٢٩٢٣ .

٣٧ ــ أنظر بيان رئيس الحكومة الاسرائيلية ، ليفي اشكول ، في **المصدر نفسه** ، ١٩٦٦/١٢/٧ ، ص ١٣٦ .

٣٨ ــ انظر ، لمزيد من التفاصيل ، صبري جريس ، « **الحريات الديمقراطية في اسرائيل** »، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١ ، ص ٥٢ ــ ٧٠ .

٣٩ ــ **انظمة الدفاع (الطوارىء)** لسنة ١٩٤٥ ، المادة ٩٤ .

٤٠ ــ **المصدر نفسه** ، المواد ٨٧ و٩٨ .

٤١ ــ **المصدر نفسه** ، المواد ٨٤ و٨٥ .

٤٢ ــ « **قرارات المحكمة العليا** » ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الرابع ، ص ٦٧٥ ، صبري جريس ضد حاكم لواء حيفا ، القضية رقم ٦٤/٢٥٣ ، وانظر ايضا « **جيروزالم بوست** »، ١٩٦٤/١١/١٧ .

٤٣ ــ « **الوقائع الاسرائيلية** » مجموعة النشرات رقم ١١٣٤ ، ١٩٦٤/١١/٢٣ .

٤٤ ــ « **قرارات المحكمة العليا** »، المجلد التاسع عشر ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٥ ، يعقوب يريدور ضد رئيس لجنة الانتخابات المركزية للكنيست السادس ، استئناف انتخابات ٦٥/١، وانظر ايضا « **جيروزاليم بوست** » ، ١١/١٤/ ١٩٦٥ .

٤٥ ــ « **مناشير ، أوامر وتعيينات صادرة عن قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي في منطقة الضفة الغربية** » (بالعبرية والعربية، العدد ١، ١٩٦٧/٨/١١ ، منشور رقم ١ الصادر بتاريخ ١٩٦٧/٦/٧ . وقد صدرت مناشير مماثلة في باقي المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ، والاشارة

فيما يلي الى « **مناشير ، اوامر وتعيينات ...** » تعني تلك الصادرة في الضفة الغربية فقط .
٤٦ — **المصدر السابق** ، منشور رقم ٢ ، ٦/٧/١٩٦٧ ، المادة ٣ .
٤٧ — **المصدر نفسه** ، المادة ٢ .
٤٨ — انظر ، مثلا ، قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٢٢٥٢ (ES-V) بتاريخ ٤/٧/١٩٦٧ ، رقم ٢٣٤١ بتاريخ ١٩/١٢/١٩٦٧ ، رقم ٢٤٤٣ بتاريخ ١٩/١٢/١٩٦٨ ، ورقم ٢٥٤٦ بتاريخ ١١/١٢/١٩٦٩ .
٤٩ — « **الجريدة الرسمية** » ، الملحق رقم ١ ، ١٩/٥/١٩٤٨ .
٥٠ — **المصدر نفسه** ، المادة ١١ .
٥١ — انظر ، مثلا ، مرسوم دستور فلسطين ، ١٩٢٢ ، **قوانين فلسطين** ، المجلد الرابع ، ١٩٣٣ ، ص ٣٣٠٣ .
٥٢ — أمر بشأن تعليمات الامن لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، « **مناشير ، اوامر وتعيينات ...** » ، العدد ٢١ ، ٢٢/٤/١٩٧٠ .
٥٣ — المادة ٢ من الامر بشأن تعليمات الامن لسنة ١٩٦٧ ولسنة ١٩٧٠ .
٥٤ — **أنظمة الدفاع (الطوارىء)** لسنة ١٩٤٥ ، المادة ٦ .
٥٥ — المواد ٦٥ — ٧٠ من الامر بشأن تعليمات الامن لسنة ١٩٦٧ والمواد ٨٥ — ٩٠ من الامر الذي حل محله سنة ١٩٧٠ . وللمقارنة أنظر المواد ١٠٩ — ١١١ و١٢٤ و١٢٥ من **أنظمة الدفاع (الطوارىء)** لسنة ١٩٤٥ ، المواد ١١٩ — ١٢١ .
٥٧ — **المصدر نفسه** ، المادة ١١٢ .
٥٨ — انظر ايضا حاييم هولتسمان ، « **تحيكات هابيطاحون بشطاهيم هاموحزاكيم** » (« تشريعات الامن في المناطق المحتفظ بها ») ، جنعات حفينة ، معهد الدراسات الافروآسيوية ، ١٩٦٨ ، ص ٧٣—٨٠ (بالعبرية) .
٥٩ — أنظر « **مناشير ، اوامر وتعيينات ...** » ، العدد ٤ ، ١٢/١٠/١٩٦٧ والعدد ١١ ، ١٧/٤/١٩٦٨ ، والعدد ٢٤ ، ١٢/٨/١٩٧٠ .
٦٠ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٤ ، ١٥/١٠/١٩٦٨ .
٦١ — قانون أنظمة السلطة والقضاء (تعديل رقم ١١) لسنة ٥٧٢٧ — ١٩٦٧ ، **كتاب القوانين** رقم ٤٩٩ ، ٢٨/٦/١٩٦٧ .
٦٢ — قانون البلديات (تعديل رقم ٦) ، **المصدر نفسه** .
٦٣ — مجموعة الانظمة رقم ٢٠٦٤ ، ٢٨/٦/١٩٦٧ . وانظر ايضا عوزي بنجيمان ، « **يروشالايم — عير ليلو حوماه** » ، (« القدس — مدينة بلا أسوار ») ، القدس ، تل ابيب ، شوكن ، ١٩٧٣ ، ص ٥٦ (بالعبرية) .
٦٤ — **مجموعة الانظمة** رقم ٢٠٦٥ ، ٢٨/٦/١٩٦٧ .
٦٥ — نشرت صورة فوتوغرافية لامر حل البلدية في عوزي بنجيمان ، « **القدس — مدينة بلا أسوار** » ، المصدر السابق ، ص ٦٣ .
٦٦ — انظر قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٢٢٥٣ (ES-V) بتاريخ ٤/٧/١٩٦٧ ورقم ٢٢٥٤ (ES-V) بتاريخ ١٤/٧/١٩٦٧ .
٦٧ — **كتاب القوانين** رقم ٥٤٢ ، ٢٣/٨/١٩٦٨ .
٦٨ — **مجموعة الانظمة** رقم ٢٣٨٠ ، ٢٧/٤/١٩٦٩ . وكذلك **كتاب القوانين** رقم ٥٧٤ ، ٢٧/٧/١٩٦٩ .
٦٩ — **كتاب القوانين** رقم ٦٠٣ ، ١٣/٨/١٩٧٠ .
٧٠ — **المصدر نفسه** ، رقم ٧٠٤ ، ١٣/٧/١٩٧٣ .
٧١ — **المصدر نفسه** ، رقم ٧٠١ ، ٦/٧/١٩٧٣ .
٧٢ — أنظر المواد ١ و٣ و٤ من قانون التنظيمات القانونية والادارية (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، **كتاب القوانين** ٦٠٣ ، ١٣/٨/١٩٧٠ .
٧٣ — أنظر المادة ٥ (ب) من **قانون الجنسية** لسنة ٥٧١٢ — ١٩٥٢ .
٧٤ — **قانون التنظيمات القانونية والادارية** (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، المواد ٦—١٧ .
٧٥ — **المصدر السابق** ، المادة ٢٩ (ب) ، وانظر ايضا **مجموعة الانظمة** رقم ٢٣٤٨ ، ١٩/٢/١٩٦٩ ، ورقم ٢٦٦٤ ، ٢٥/٣/١٩٦٩ .
٧٦ — **قانون التنظيمات القانونية والادارية** (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ — ١٩٧٠ ، المواد ١٨و١٩ .
٧٧ — **المصدر نفسه** ، المادة ٢٠ .
٧٨ — **المصدر نفسه** ، المواد ٢ و٣ .
٧٩ — قانون املاك الغائبين (تعويضات) لسنة ٥٧٣٣ — ١٩٧٣ ، **كتاب القوانين** رقم ٧٠١ ، ٦/٧/١٩٧٣ .
٨٠ — **المصدر نفسه** ، المواد ١ و٤ و٦ و١٠ و١٥ .
٨١ — « **الوقائع الاسرائيلية** » ، مجموعة النشرات رقم ١٦٥٦ ، ٣٠/٨/١٩٧٠ .

الاقتصاد الاسرائيلي : تفسير

الدكتور ابراهيم م. عويس

أيا كان دور الحرب في الماضي ، وسواء أكان لها دور حضاري أم لم يكن ، فان طبيعتها اليوم هي بحيث ان مجرد امكانية نشوبها تتعارض واستمرار ما يسمى بالمجتمع العظيم .

لورد روبنز(١)

لو خيرت بين سلام يتضمن العودة الى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ وعدم انسحاب بدون سلام ، لفضلت الاحتفاظ باجزاء موقعنا الحالي حتى ولو بثمن اللاسلام . أعتقد ان على اسرائيل البقاء في الضفة الغربية الى الابد .

موشيه دايان(٢)

ان التحويل الجذري لفلسطين في عام ١٩٤٨ ، من سكان عرب أصليين يشكلون أغلبية ساحقة الى دولة اسرائيلية شردت معظم هذه الاغلبية وأحلت محلها مهاجرين يهود من سبعين بلدا مختلفا ، ان هذا التحويل قد تم بالقوة ... بالالحاق التدريجي والاستيلاء على أراضي العرب من خلال الحرب والتوسع . واستطاعت اسرائيل في عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ أن تمتص في بنيتها التحتية المدن والمؤسسات الاقتصادية وغير الاقتصادية بالاضافة الى قطاع تصدير مربح .

ومنذ عام ١٩٤٨ حقق الاقتصاد الاسرائيلي معدل نمو مرتفع ، وان كان غير متساو ، مترافق مع موازنة دفاع كبيرة بشكل استثنائي . وعندما حلت الانتكاسات بالاقتصاد الاسرائيلي ، دفعت الحروب معدلات النمو الى مستويات أعلى . وقد علق بعض المراقبين أن حرب ١٩٦٧ كانت ضرورية لاسرائيل من اجل انتشال نفسها من أسوأ أزمة اقتصادية . في الفترة السابقة للحرب ، قفزت البطالة في اسرائيل الى ١٢ ٪ ، وانخفضت الهجرة بشكل ملحوظ ووصل معدل دخل الفرد الى أدنى مستوياته . في دراسته الاخيرة حول « **مشكلات التطور الاقتصادي في اسرائيل ، ١٩٧٠ — ١٩٨٠** » يقول البروفسور ميشيل برونو ان « الاحداث العسكرية في حزيران ١٩٦٧ قد غيرت المشهد تماما ... في عام ١٩٦٨ ارتفع اجمالي الناتج القومي أكثر من ١٣ ٪ ، والاستثمارات بمقدار ٤٤ ٪ ، والصادرات ٢١ ٪ . وانخفضت البطالة الى حوالي ٥ ٪ ، وكانت الهجرة الى اسرائيل تزداد بسرعة »(٣). وبالاضافة الى ذلك ، فقد اعتمد نمو اسرائيل جزئيا على القدرة على جمع تبرعات ضخمة من الخارج . وعلى أي حال ، لم يكن تدفق هكذا تبرعات متساويا : فهي لا تزيد بشكل ملحوظ الا بوجود حرب أو تهديد بالحرب . وعليه ، يبدو ان التوتر المستمر في الشرق الاوسط هو شرط ضروري لنمو اسرائيل الاقتصادي .

هدف هذا البحث هو تأكيد أهمية المصروفات العسكرية لنمو اسرائيل الاقتصادي . وبكلمات اخرى ، في ظل غياب حرب أو تهديد بحرب ، او غياب موازنة دفاع كبيرة ، هل تكون اسرائيل قادرة على تحقيق معدلات نموها المرتفعة المسجلة ؟ وباختصار ، هل الاقتصاد الاسرائيلي اقتصاد حرب ؟

سيناقش هذا البحث أثر توتر الحرب على معدل النمو الاقتصادي المرتفع في اسرائيل. ولن تعالج هنا الاوجه المعنوية والاخلاقية والانعاشية للحرب. وسيحاول البحث تحديد نوع المردودات الاقتصادية التي تتلقاها اسرائيل من موازنتها الدفاعية العالية بشكل غير اعتيادي.

هنالك محددات عدم توفر سلسلات كاملة من المعلومات الموثوقة. وعلى الخصوص، فان أرقام موازنة الدفاع تحاط بالسرية القصوى، والمعلومات الجزئية المتوفرة غامضة وغالبا ما تكون مثيرة للاضطراب. في تقرير سنوي سابق، استعمل بنك اسرائيل «مصروفات الدفاع» كفئة، بينما في سنوات لاحقة كان التصنيف تبعا لموازنات «الامن والخاصة» او «الامن وغير الاعتيادية». وقد لاحظ الكاتب السويسري ان «هنالك مطبوعات رسمية كثيرة نسبيا (في اسرائيل): ولا يستطيع الشخص الا ان يلاحظ انها تتجنب التحليل العميق للمشكلات الاقتصادية. تعتمد اسرائيل كثيرا، من الناحية الاقتصادية على العالم الخارجي — خاصة فيما يتعلق باستيراد رؤوس الاموال — وتهدف تلك المطبوعات بوضوح، بواسطة هذه الدعاية، الى خلق مناخ ملائم من أجل الحفاظ على المساعدة الضرورية وتكثيفها. وآجلا أم عاجلا تستطيع الحقائق العنيدة النفاذ الى خارج اسرائيل ويتضح الطابع الدعائي لتلك المطبوعات ولمحاضرات اولئك الرسميين»(٤).

ومثال آخر هو المعلومات التي يقدمها المكتب المركزي الاسرائيلي للاحصاءات والمتعلقة بالتعريفات القاصرة لسلسلات مهمة مثل سلسلات الهجرة. بينما لا يعد الا الاسرائيليون الذين قدموا طلبات للهجرة في وقت مغادرتهم اسرائيل كمهاجرين، فان كل الآخرين الذين تركوا البلد واستقروا رسميا في بلدان أخرى ليسوا متضمنين في تلك الارقام.

وفي بحثي عن افضل مجموعة ممكنة من المعلومات من حيث التناسق والكمال والصحة، بما فيها المصادر الرسمية وغير الرسمية والتقارير الصحفية، فانني آمل ان أكون قادرا على اعطاء صورة منسجمة فيما يلي:

بافتراض مجموعة معينة من المصادر المستخدمة كليا في أية لحظة، يكون واضحا أنه من غير الملائم تخصيص اعتمادات أكثر لقطاع المجهود الحربي (المسمى تبعا لذلك بالقطاع الحربي) لامة ما دون تخصيص اعتمادات أقل للقطاعات الاخرى. وانه لن خلال برنامج للحصول على دالة هدف البلد، كما يقننها ويطبقها واضعو سياسته، يتم الاختيار بين القطاع الحربي من جهة وكل القطاعات الاخرى من جهة اخرى. والسؤال المركزي هو: هل يعطي تخصيص مصادر أكثر باتجاه القطاع الحربي مردودا، من الناحية الاقتصادية؟ والجواب بوضوح هو: عندما تفوق تأثيرات هذا القطاع الايجابية تأثيراته العكسية. وعلى أي حال، فانه لمن المعقول ان تخصيص مصادر لقطاع آخر يمكن أن يعطي مردودا مشابها، من الناحية الاقتصادية. ان مقارنة بين مردودات اقتصادية مختلفة قد يوجه المجتمع للتركيز على القطاع الذي يعطي المردود الاقصى، وبذلك يصبح تحقيق اقصى ما يمكن من المردودات الاقتصادية هدفا رئيسيا.

وبالنسبة لاسرائيل، فان التأثيرات الايجابية للقطاع الحربي يمكن تحقيقها اذا كانت تقود الى ما يلي: ١. التوسع الاقليمي الذي يوفر مصادر بشرية وطبيعية ... الخ، جديدة. ٢. تدفق رأس المال الاجنبي. ٣. تدفق مصادر بشرية منتجة، اي تزايد الهجرة. ٤. انخفاض البطالة. ٥. زيادة الصادرات. ٦. توسيع البنية التحتية ثنائية الاستعمال مثل الطرق والمطارات وشبكات المواصلات ... الخ.

ولدى العودة الى التأثيرات العكسية للقطاع الحربي، يلاحظ المرء دورها المهيمن في اقتصاد اسرائيل أوقات السلام النسبي. يميل تدفق رأس المال والعمال المهرة الى

الانخفاض . في ظل هذه الظروف يسحب القطاع الحربي من مصادر معروفة محددة على حساب بديل ضروري ، ومشاريع استثمار عالية الدرجة وحتى ، من المحتمل ، على حساب البنية التحتية . وبالاضافة الى ذلك ، قد يزيد القطاع الحربي معدل التضخم الذي يؤدي الى اعادة توزيع الدخل .

١. **التوسع الاقليمي** : في مجرى توسعها الاقليمي ، ضمت اسرائيل في البدء المناطق المنزوعة السلاح التي حددت بعد حرب ١٩٤٨ . وبعد حرب ١٩٦٧ ، ضمت اليهـا مساحات جديدة في الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء ومرتفعات الجولان. ان السياسة الرسمية هي الاحتفاظ بالمناطق العربية المحتلة واستغلال مصادرها واقامة مستعمرات يهودية(٥) في كل تلك المناطق . وبينما اعتبرت الحكومة شراء الاسرائيليين أراض في تلك المناطق عملاً غير شرعي ، فان ييجال آلون ، نائب رئيسة الوزراء ، قد أعلن انه لن يكون ثمة اجراء شرعي يتخذ بشأن مثل هذه الصفقات اللاشرعية(٦).

جـدول رقم — ١ —

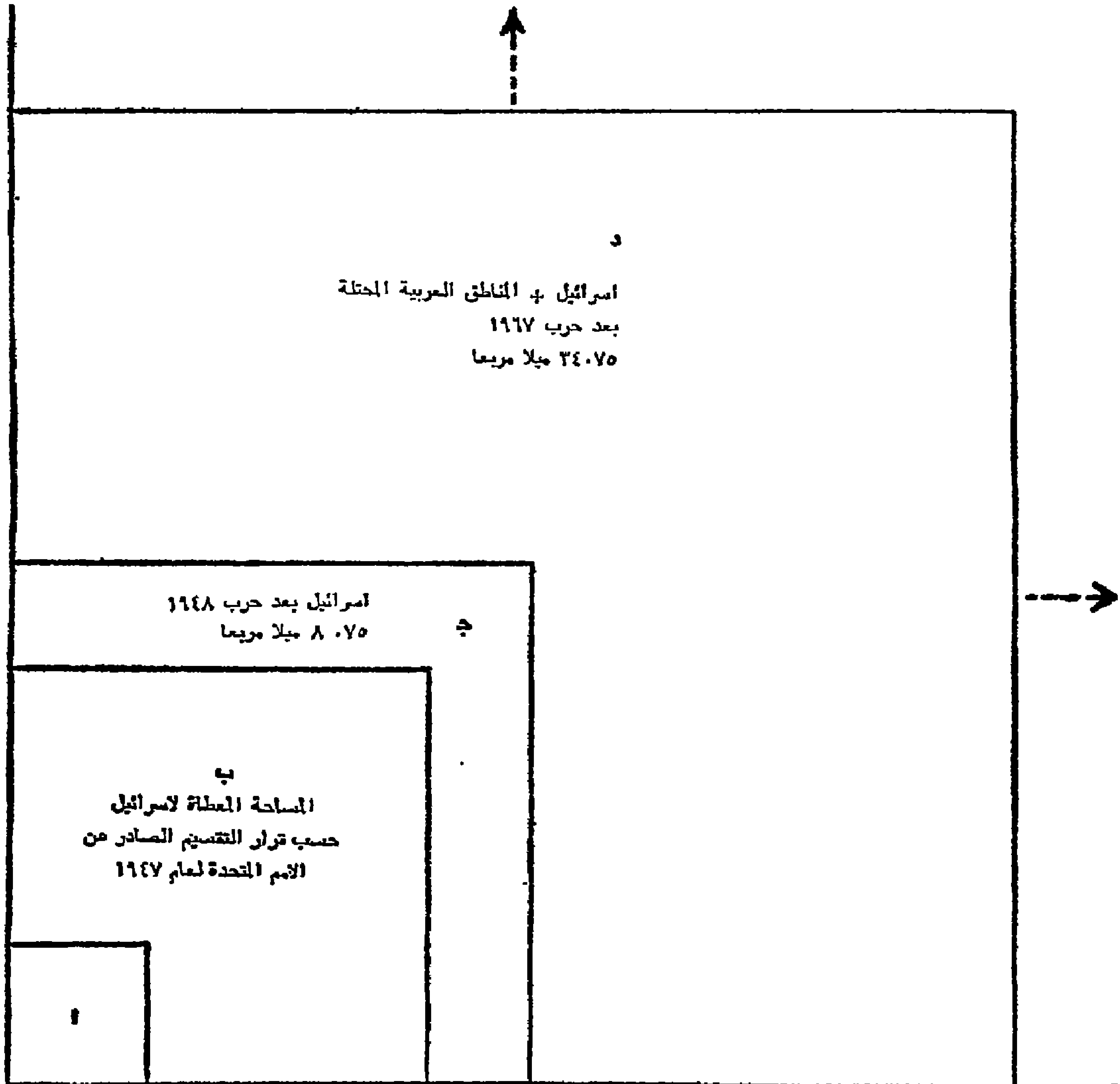
التوسع الاقليمي الاسرائيلي

المساحة الكلية لفلسطين = ١٠٢٨٢ ميلا مربعا (الارقام بالاميال المربعة)

السـكان	(١) قبل قرار التقسيم لعام ١٩٤٧	(٢) قرار التقسيم (١٩٤٧)	(٣) حرب ١٩٤٨	(٤) منذ حرب ١٩٦٧
اليهود	٥٨٢ (٪٥،٦٦)	٥٨٣٧ (٪٥٦،٧٧)	٨٠٧٥ (٪٧٨،٥٤)	٣٤٠٧٥ (٪٣٣١،٤)
العرب	٩٧٠٠ (٪٩٤،٣٤)	٤٣٧٦ (٪٤٢،٥٦)	٢٠٦٨ مضمومة الى الاردن + ١٣٩ قطاع غزة الموضوع تحت الادارة المصرية = (٪٢١،٤٦)	
القدس الدولية		٦٩ (٪٠،٦٧)		
المجمـوع	١٠٢٨٢ (٪١٠٠)	١٠٢٨٢ (٪١٠٠)	١٠٢٨٢ (٪١٠٠)	٣٤٠٧٥ (٪٣٣١،٤)

الشـــكل رقم ــ ١ ــ

التوسع الاقليمي الاسرائيلي



أ = ٥٨٢ ميلا مربعا ، مساحة الجزء من فلسطين الذي يملكه اليهود حتى قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ .
ب = ١٠٠٢،٩٪ من أ .
جـ = ١٢٨،٣٪ من ب .
د = ٤٢٢٪ من جـ .
د = ٣٣١،٤٪ من مجموع مساحة فلسطين .

ومع المناطق التي تسيطر عليها اسرائيل فان مساحتها تقترب مـــن ستة أضعاف (٥٨٤ ٪) المساحة المخصصة لها حسب قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة عام ١٩٤٧ ، واكثر من ٤ أضعاف (٤٢٢ ٪) مساحتها ما قبل ١٩٦٧ ، واكثر من ٣ اضعاف (٣٣١ ٪) مساحة فلسطين الكلية ، كما يتضح في الجدول رقم (١) والشكل رقم (١).

ولو كان هنالك اكتساب عسكري سنوي منتظم للارض ، لكان معدل اسرائيل السنوي المركب في التوسع الاقليمي ٩٫٧٥ ٪ خلال الفترة ١٩٤٨ — ٦٧ ، أو ٧٫٥ ٪ خلال سنوات وجودها الخمس والعشرين .

يمكن تلخيص الارباح الاقتصادية الناجمة عن هذا التوسع فيما يلي :

أولا ، هنالك صافي الربح المباشر الناتج عن استغلال آبار النفط المصرية في شبه جزيرة سيناء عاملا بذلك **على رفع انتاج اسرائيل** الذي كان يغطي عام ١٩٦٦ ما مقداره ٦ ٪ فقط من استهلاكها الخاص ، **وخافضا وارداتها من النفط الخام** ، مما يخفف الحمل عن ميزان مدفوعات البلد الذي يعاني عجزا مزمنا . وقد قدر الياهو كانوفسكي الزيادة في الانتاج من هذا المصدر بمقدار ٥٩ مليون دولار عام ١٩٦٨(٧). وبالرغم من أن عائدات النفط واستغلاله من آبار سيناء تحاط بالسرية ، فان تقديرا معقولا قائما على أساس قدرة استيعاب انتاج ما قبل حرب ١٩٦٧ سيكون تقريبا بين ٨٠ و ٩٠ مليون دولار سنويا .

ثانيا ، ادى استغلال آبار النفط المصرية الى ايصال المصافي الاسرائيلية بحيفا الى رقم قياسي في اقتصادياتها . فقد حصل تشغيل هذه الصناعة بكامل طاقتها التشغيلية للمرة الاولى بعد حرب ١٩٦٧ .

ثالثا ، تضم التأثيرات الايجابية الاخرى التوسع في مصافي النفط بحيفا وأسدود ، مولدة بذلك الطلب على البضائع والخدمات من القطاعات الاخرى للاقتصاد ، خاصة المجمع البتروكيماوي الكبير قرب حيفا .

رابعا ، المصادر الطبيعية التي تساهم في الصناعة والتبادل والصادرات : فعلى سبيل المثال ، جاء في تقرير لصحيفة ((**هاآرتس**)) ، ٢٩ أيار — مايو ١٩٧٣ ، ان « احتياطي النحاس الكبير يوجد في منطقة شرم الشيخ بكميات صالحة للاستغلال تجاريا ، وحالما يتم التأكد نهائيا من الموجودات التي جمعت ، فان العمل لاستغلالها سيبدأ » . ولم تعط الحكومة الاسرائيلية أية أرقام رسمية حول هذه المصادر الطبيعية في المناطق العربية المحتلة ولا حول اسهامها في الناتج القومي الاجمالي .

خامسا ، ساهمت المصادر البشرية العربية خاصة في الضفة الغربية وقطاع غزة بطريقتين : من ناحية الانتاج ، حيث ملأت النواقص في سوق العمل ، خاصة في البناء والصناعة ، ومن ناحية الاستهلاك ، حيث خلقت سوقا جديدة للمنتجات الاسرائيلية .

سادسا ، تسبب احتلال الاماكن المقدسة في زيادة ملحوظة لصناعة السياحة ، وكذلك للقطاعات المرتبطة مباشرة بها ، خاصة الطيران . « على اثر الحرب ازدادت السياحة بمقدار ٤٨ ٪ مع ٤٣٢٠٠٠ شخص جاءوا عام ١٩٦٨ عندما ضم الاحتفلال السنوي العشرون مهرجانا في القدس الموحدة »(٨). وقد أكد وزير السياحة الاسرائيلي ، موشيه كول ، الاسهام الملحوظ الذي قدمته السياحة الى قطاع التصدير بعد حرب ١٩٦٧ : « مع نهاية عام ١٩٧٢ ، سيكون ٥ ملايين سائح قد زاروا اسرائيل منذ ١٩٤٨ »(٩).

وهكذا فانه من الواضح ان القطاع الحربي الاسرائيلي من خلال التوسع الاقليمي قد أسهم مباشرة في معدل نمو الاقتصاد .

ب. **تدفق رأس المال الاجنبي** : « لكن حرب ١٩٦٧ والارتفاع الذي رافقها في تبرعات يهود المنفى لاسرائيل قد عملا على تقديم الرافعة الحاسمة لاعادة البناء . ويكفي رقمان لعكس ذلك الاثر بتعابير مالية : في عام ١٩٦٦ ، كان صافي المبلغ الذي جمعته الوكالة

اليهودية اثناء حملاتها العالمية ٦٠ مليون دولار : اما في عام ١٩٦٧ ، فقد كان ٣٤٦ مليون دولار »(١٠).

خلال فترات السلام النسبي ، انخفض تدفق راس المال الاجنبي الى اسرائيل باضطراد ، وخلال فترات الحرب وبعدها بقليل ازداد هذا التدفق بشكل ملحوظ . وبالرغم من تفوقها العسكري ، فان اسرائيل ما زالت تستثمر في القطاع الحربي مع استمرار التوتر . لقد كان شعار حملة سندات قرض الدفاع لعام ١٩٦٩ هو « انه سهمك في طائرات الفانتوم . الثلثان الباقيان سيجمعان من يهود العالم »(١١).

في عام ١٩٦٥ بلغت مبيعات سندات اسرائيل الاجمالية في الخارج ٩١ر٦ مليون دولار، وفي عام ١٩٦٦ كانت ٩٠ر٦ مليون دولار ، وفي عام ١٩٦٧ ارتفع الرقم الى ٢١٧ر٥ مليون دولار ، اي أقل بقليل من ضعفي ونصف الرقم في السنة السابقة . ومن عام ١٩٥١ حتى ١٩٧١ بلغت قيمة المبيعات الاجمالية ١٨٩١ مليون دولار ، منهـا ١٥٨٧ر٩ بيعت في الولايات المتحدة(١٢)، أي ٨٤ ٪ .

لقد بلغ اجمالي رأس المال المتدفق سواء في شكل مساعدات او مساعدة خارجية او قروض نحو ١٤ ٪ من اجمالي الناتج القومي خلال الفترة ١٩٥٠ — ٦٥(١٣). وعلى اي حال ، فقد ارتفعت هذه النسبة نتيجة لحرب ١٩٦٧ . أما تقديري للنسبة المئوية لتدفق رأس المال من اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي فهو ١٨ ٪ من ١٩٤٨ حتى ١٩٧٢ . فقد بلغ مجموعه نحو ١٢ر٦ بليون دولار بأسعار ١٩٧١ ، وهو أقل من رقم راي فيكر البالغ ١٣ر٥ بليون دولار . « خلال سنواتها الخمس والعشرين كدولة تسلمت اسرائيل ١٣ر٥ بليون دولار كمساعدة من الخارج ، حوالي ٨٠ ٪ منها من مصادر امريكية »(١٤).

ولكن حتى لو أخذنا الرقم الاصغر (أي ١٢ر٦ بليون دولار او ١٨ ٪ من اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة) فسيبقى يمثل اكثر من ضعف (٢ر٣) مجمل الناتج القومي لعام ١٩٧١ والبالغ ٥ر٤ بليون دولار(١٥).

ما يزال هنالك جزء من تدفق رأس المال الى اسرائيل لم يحسب حسابه : وهـو الاستيراد — بدون — دفع ، الذي هو « نوع خاص من الرخصة لاستيراد بضائع لا يطلب من مراقب العملة الاجنبية اعتماد عملة أجنبية لها . وتعود البضائع الى (أو يمولها) اسرائيليين يرغبون في تحويل رأس المال الى اسرائيل»(١٦). لم يكن باستطاعتي العثور على أرقام عن هذه الواردات غير المدفوعة . يقول الكس روبنر أن « اعتماد اسرائيل على الواردات غير المدفوعة لا مثيل له في التاريخ الحديث »(١٧).

اذا دخل هذا الجزء في الحساب ، فان تدفق رأس المال الى اسرائيل كنسبة مئوية من اجمالي ناتجها القومي سيكون أعلى حتى من ١٨ ٪ .

جـ. **تدفق المصادر البشرية** : تتلقى اسرائيل تدفقا كبيرا جدا من كل من القوة العاملة ورأس المال . ومنذ تأسيسها عام ١٩٤٨ ، وحتى قبل ذلك ، استعملت اسرائيل كل الوسائل (الشرعية وغير الشرعية) من أجل تأمين تدفق مستمر للهجرة اليهودية . وقد شنت ، وما تزال ، الحملات الجيدة الادارة لمناشدة مثل اليهـود القومية والدينيـة والاشتراكية والاحتلالية عبر العالم أجمع . ومع ذلك ، ففي أوقات الهدوء النسبي لم يهاجر الى اسرائيل الا أعداد من اليهود أقل من المتوقع كاستجابة لتلك المناشدات .

وقد نفذت الصهيونية أيضا حملات تشهير ضد اليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل . وقد كتب ي. كوفمان عام ١٩٤٩ يقول : « في الواقع لقد أقامت الصهيونيـة الحركة القومية على أساس مسوغات للتهم التي اخذتها عن اللاساميين ، وحاولت ايجاد جوهر

للعدالة في كراهية اليهود ... ان هذه الخزعبلات تلوث كل أدبنا العبري وعقول شبابنا. واذا صدف وفتحت كراسة تلميذ مدرسة عبرية ، فانك ستقرأ جملا مثل : يعيش يهود الدياسبورا (المنفى) حياة غير صحية ، وهم فاسدون ... يعيش اللايهود فيما حولهم حياة صحية »(١٨). وأثناء زيارته للولايات المتحدة عام ١٩٥١ ، أعلن رئيس الوزراء بن جوريون ان « الصهيوني هو الشخص الذي يسكن في اسرائيل » .

جدول رقم — ٢ —

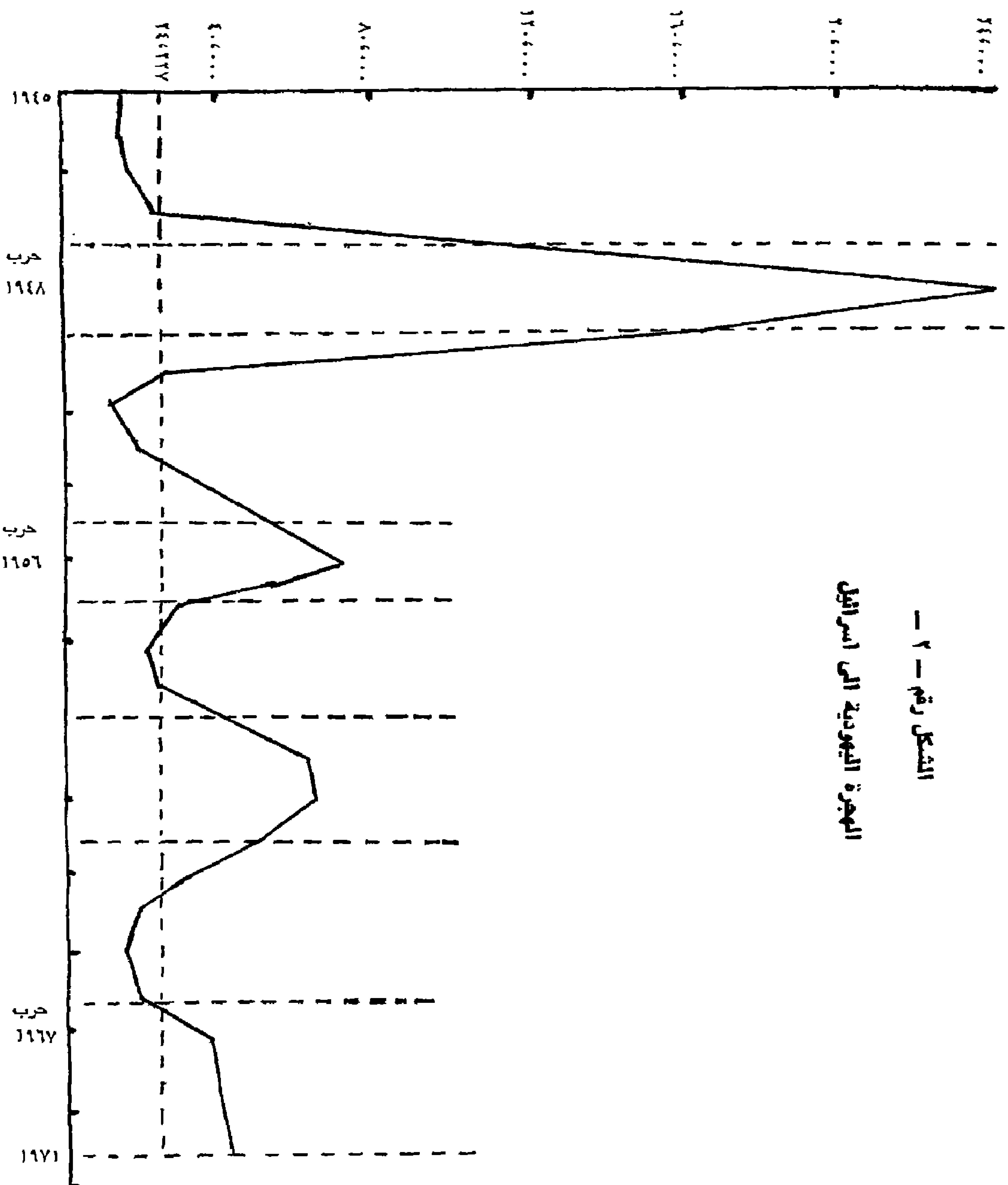
الهجرة اليهودية الى اسرائيل

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٤٤	١٥٥٥٢	١٩٥٨	٢٧٠٨٢
١٩٤٥	١٥٢٥٩	١٩٥٩	٢٣٨٩٥
١٩٤٦	١٨٧٦٠	١٩٦٠	٢٤٥١٠
١٩٤٧	٢٢٠٩٨	١٩٦١	٤٧٦٣٨
١٩٤٨	١١٨٩٩٣	١٩٦٢	٦١٣٢٨
١٩٤٩	٢٣٩٥٧٦	١٩٦٣	٦٤٣٦٤
١٩٥٠	١٧٠٢٤٩	١٩٦٤	٥٤٧١٦
١٩٥١	١٧٥٠٩٥	١٩٦٥	٣٣٦٩٨
١٩٥٢	٢٤٣٦٩	١٩٦٦	١٨٥١٠
١٩٥٣	١١٣٢٦	١٩٦٧	١٨٠٦٥
١٩٥٤	١٨٣٧٠	١٩٦٨	٢٠٦٩٦
١٩٥٥	٣٧٤٧٨	١٩٦٩	٣٧٩٠٠
١٩٥٦	٥٦٢٣٤	١٩٧٠	٣٨٠٠٠
١٩٥٧	٧١٢٢٤	١٩٧١	٤١٠٠٠

المصدر : **الكتاب السنوي الصهيوني** ، ١٩٧٢ ، لندن ، ص ٣٩٩ .

وقد أقر الكنيست القانون رقم ١٤٠ لعام ١٩٥٢ ، الذي أدى الى تصديق « ميثاق المنظمة الصهيونية » في اسرائيل حيث أعفيت الوكالة اليهودية وكل توابعها من ضرائب معينة بسبب دورها في الهجرة اليهودية الى اسرائيل . وبالرغم من كل هذه الجهود ، لم يختر الهجرة الى اسرائيل سوى قلة من اليهود الغربيين . وفي عام ١٩٥٨ ، قال رئيس وزراء اسرائيل ان العدد الضئيل من المهاجرين من الغرب يظهر ان المنظمات الصهيونية في البلدان الغربية قد فشلت وانها فقدت الآن مبرر وجودها(١٩).

وفي بقاع أخرى من العالم ، وصلت التكتيكات الصهيونية الى حد اتخاذ خطوات عنيفة من أجل بث الرعب بين اليهود في بلدان اقامتهم الدائمة ودفعهم لمغادرتها(٢٠). وبالرغم من مختلف الوسائل التي لجأت اليها اسرائيل ، سواء أكانت ضغوطات سياسية — اجتماعية أو غيرها ، فانها لم تستطع تعبئة يهود العالم من اجل هجرة واسعة الى اسرائيل ما عدا في أوقات الحرب او التوتر الشديد ، كما يتضح جليا في جدول رقم ٢ وشكل رقم ٢ . وقد تميزت فترات السلام النسبي بانخفاض الهجرة . ولكن كان هنالك وقت في أوائل الستينات حيث لم تثبت صحة ذلك . ان دراسة عميقة لتلك الفترة تؤدي



الشكل رقم — ٢ —
الهجرة اليهودية الى اسرائيل

بنا الى التفسير التالي : ان ذلك يعود الى قرار البلدان الاوروبية السماح بالهجرة اليهودية للمرة الاولى منذ الحرب العالمية الثانية(٢١) . « لقد فسحت الاتفاقية البولندية — الروسية بشأن اعادة المواطنين البولنديين المجال عام ١٩٥٩ امام ١٨٫٠٠٠ يهودي في العودة الى بولندة من الاتحاد السوفياتي . وقد غادر حوالي ٦٫٠٠٠ منهم الى اسرائيل »(٢٢) .

في فترات السلام النسبي ، كان معدل عدد المهاجرين في السنة ٢٤٢٢٧ . ولو استمر التدفق بنفس المعدل لكان عدد المهاجرين الكلي قد وصل الى ٦٧٨٣٥٨ خلال الفترة ١٩٤٥ — ١٩٧١ ، أي ما يعادل ٤٥ ٪ من العدد الكلي الحقيقي . والقمم الحاصلة في فترات الحرب والتوتر تعادل ٥٥ ٪ ، أي ٨٢٧٫٦٢٩ من المجموع البالغ ١٥٠٥٩٨٥ خلال هذه الفترة .

وهكذا فان الحرب هي الحافز الرئيسي للهجرة الواسعة الى اسرائيل ، التي أسهمت بدورها وبشكل ملحوظ في نموها الاقتصادي . وتضم مجموعة القادمين الجدد الى اسرائيل علماء عالميين مشهورين، وكذلك عمالا مهرة متمرسين. ويتجه المهاجر النموذجي في السنوات الاخيرة لان يكون أكثر ثقافة وثروة ، وغالبا ما يكون محترفا ، أكثر من أولئك الذين ذهبوا الى اسرائيل في الاربعينات .

ويمكن تقدير الارباح الاقتصادية الناجمة عن الهجرة اليهودية فيما يلي :

أ. الاستثمار وخبرة المصادر البشرية يتمان خارج اسرائيل ، بينما تجني هذه الدولة الصهيونية صافي ارباح تكاليف التعليم و/أو الخبرة . اذ بلغ متوسط سني تعليم المهاجر الى اسرائيل ١٠٫٤٤ سنة(٢٣) .

ب. حافظ العلماء المهاجرون اليهود على علاقات وثيقة مع مراكز التعليم والمؤسسات الامريكية والاوروبية العالية التخصص التي كانوا مرتبطين بها قبل مغادرتهم الى اسرائيل ، عاملين بذلك على تمكين اسرائيل من استيعاب وتطبيق أحدث الانجازات التكنولوجية في العالم .

جـ. بالاضافة الى التعليم والخبرة والمعرفة الراقية ، نقل المهاجرون اليهود من الولايات المتحدة واوروبه الى اسرائيل في السنوات الاخيرة رأس المال المتراكم في الدياسبورا . ولا تتوفر اية ارقام حول مصدر تدفق رأس المال هذا .

د. معظم المهاجرين القادمين الى اسرائيل هم في قمة سني انتاجهم الاقتصادي (١٨ — ٤٠) .

ومع ذلك ، فانه دائما اثناء فترات الحرب والتوتر كانت الحملات الواسعة المكثفة التي استخدمت العواطف الدينية وغيرها ناجحة في جلب غالبية المهاجرين اليهود الى اسرائيل ، والذين بدورهم ساهموا بفعالية في نموها الاقتصادي وفي مستويات المعيشة الافضل ، خالقين بذلك دوافع جديدة لليهود الآخرين في الهجرة الى بلد فقير من حيث المصادر الطبيعية . وبرزت مشاكل حتمية نتيجة الرقعة المحدودة والحاجة الى مصادر اكثر ، مما ادى الى التوسع والضغط .

جـــدول رقم ــ ٣ ــ

البطـــالة في اسرائيل

السنة		المعدل اليومي لوحدات(١) العاطلين المسجلين خلال الفترة	النسبة المئوية للتغير قياسا الى السنة السابقة
١٩٦٥		٣٢٠٠	— ٥،٦٩
١٩٦٦		٧٩٣٠	+ ١٤٧،٨
١٩٦٧		١٣٥٢٥	+ ٧٠،٦
١٩٦٨		٥٧٠٩	— ٥٧،٨
١٩٦٩		٢٣٩٥	— ٥٨،٠
١٩٦٦	I	٣٩٩٧	+ ٢٥،٤
	II	٦٢٧١	+ ٩٥،٩
	III	٩٣٨٧	+ ١٩٠،٢
	IV	١١٨٤٩	+ ٢٧٢،٨
١٩٦٧	I	١٥٥٤٧	+ ٢٨٩،٠
	II	١٦٠٥٨	+ ١٥٦،١
	III	١٢٤١٨	+ ٣٢،٣
	IV	١٠١٥٥	+ ١٤،٣
١٩٦٨	I	٨١٨٣	— ٤٧،٤
	II	٥٧٩٢	— ٦٣،٩
	III	٤٦٤٠	— ٦٢،٦
	IV	٤١٥٣	— ٥٩،١
١٩٦٩	I	٢٩٠٢	— ٦٤،٥
	II	٢٦٥٠	— ٥٤،٢
	III	٢٢٨١	— ٥٠،٩
	IV	١٧٧٠	— ٥٧،٤
١٩٧٠	I	١٤٩٥	— ٤٨،٥
	II	١٧٠٧	— ٣٥،٦
	III	١٨٢٦	— ١٩،٩

المصادر : مكتب الاحصاءات المركزي ، **نشرة اسرائيل الاحصائية** ، ١٩٧١ .

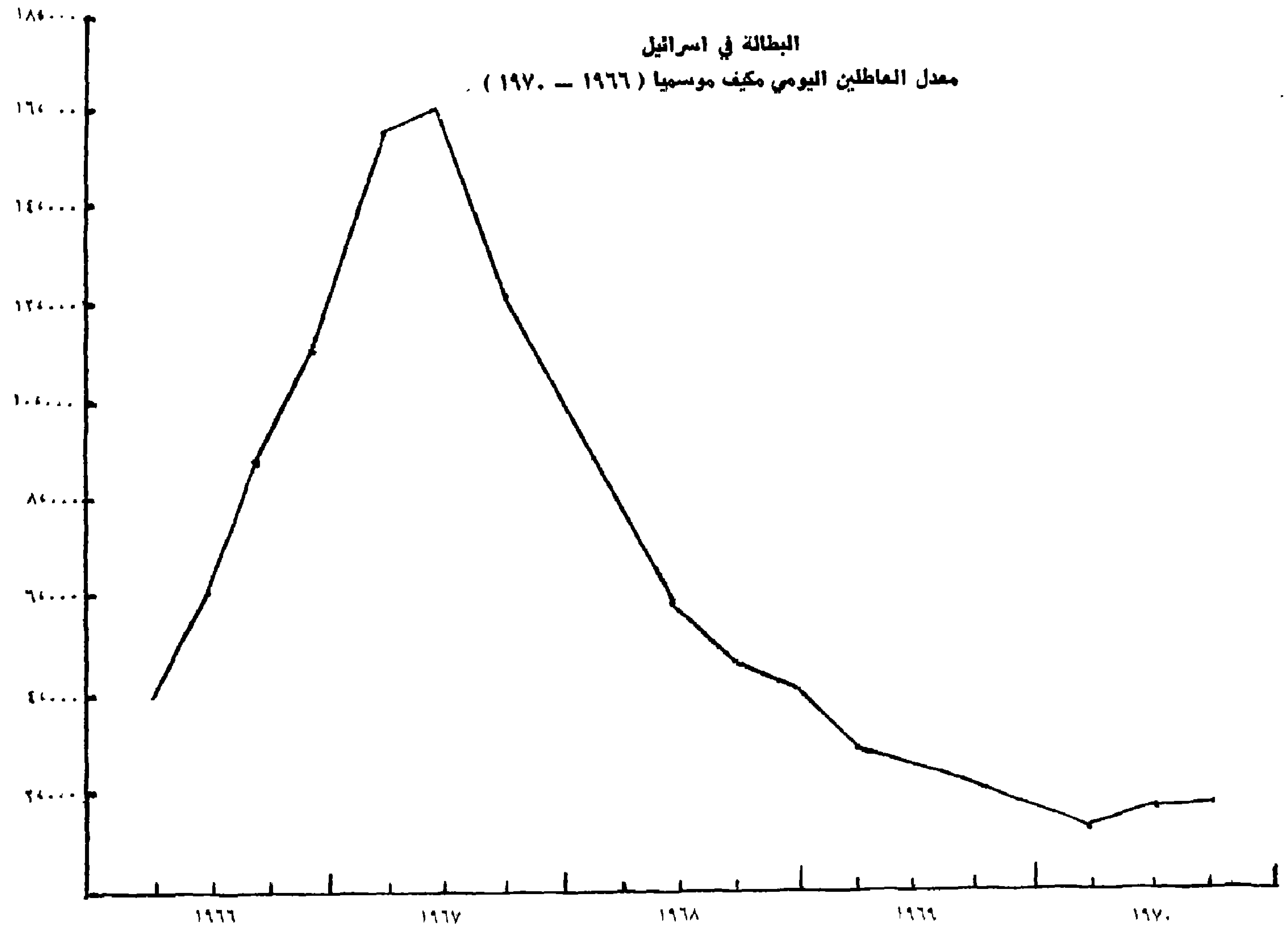
---

(١) عدد الاشخاص الباحثين عن يوم عمل في الشهر مقسوما على عدد ايام العمل في نفس الشهر .

الشكل رقم ـ ٣ ـ

البطالة في اسرائيل

معدل العاطلين اليومي مكيف موسميا (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠)



جدول رقم — ٤ —

النسبة المئوية للتغير في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي عن السنة السابقة
(اجمالي الناتج القومي بأسعار عام ١٩٦٤)

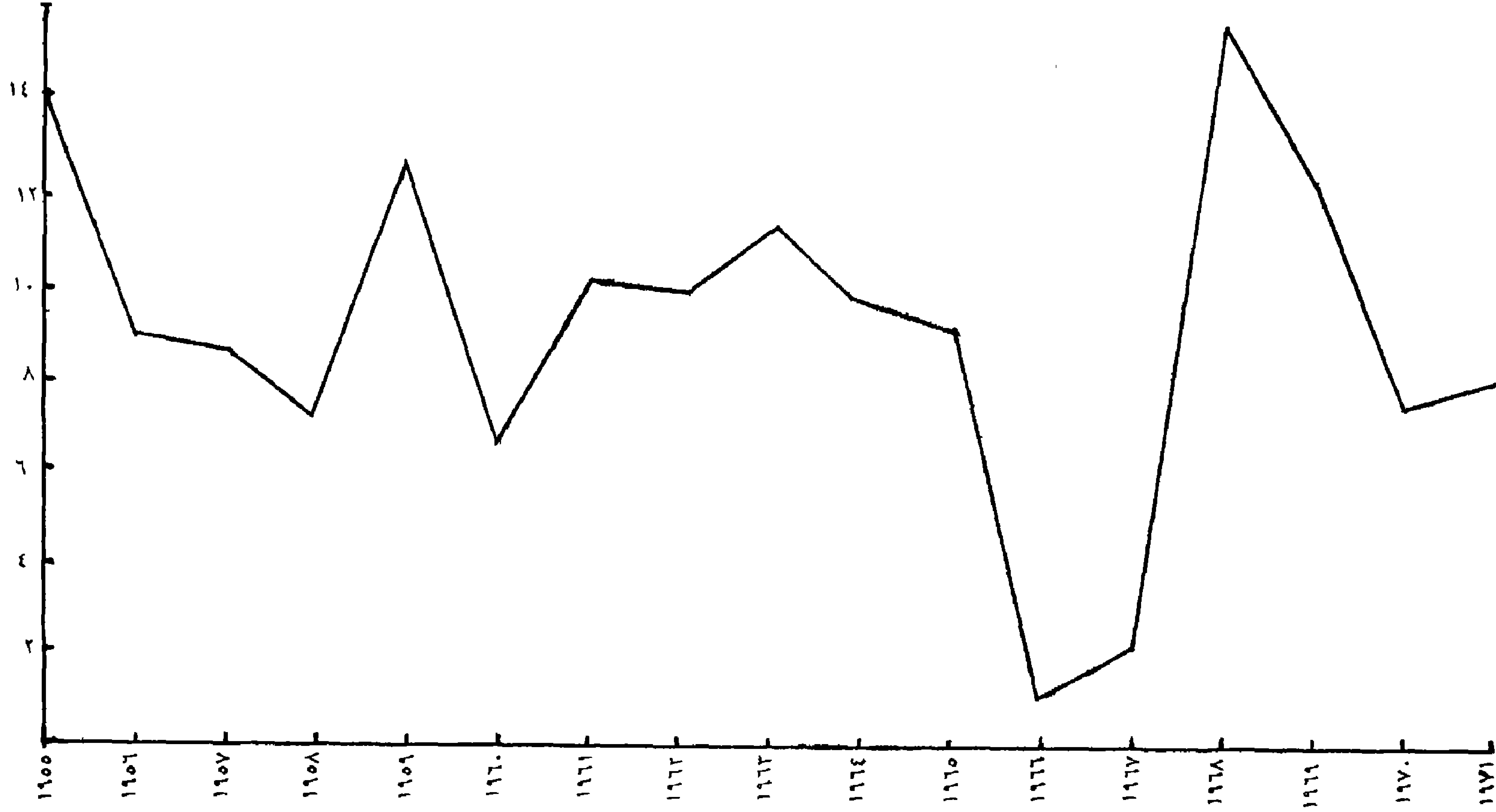
السنة	اجمالي الناتج القومي	النسبة المئوية للتغير
١٩٥٥	٣٨٦٤	١٣،٩
١٩٥٦	٤٢١٨	٩،٢
١٩٥٧	٤٥٨١	٨،٦
١٩٥٨	٤٩٠٥	٧،١
١٩٥٩	٥٥٣٠	١٢،٧
١٩٦٠	٥٨٩٦	٦،٦
١٩٦١	٦٤٩٦	١٠،٢
١٩٦٢	٧١٥١	١٠،١
١٩٦٣	٧٩٣٦	١١،٤
١٩٦٤	٨٧٤١	٩،٨
١٩٦٥	٩٥٣٤	٩،١
١٩٦٦	٩٦٣٩	١،١
١٩٦٧	٩٨٤٧	٢،٢
١٩٦٨	١١٣١٨	١٤،٩
١٩٦٩	١٢٧٠٧	١٢،٣
١٩٧٠	١٣٦٨٨	٧،٧
١٩٧١	١٤٧٩٠	٨،١

ارقام اجمالي الناتج القومي بملايين الليرات الاسرائيلية .

المصدر : المجموعة الاحصائية الاسرائيلية ، ١٩٧٢ ، رقم ٢٣ ، مكتب الاحصاءات المركزي .

الشكل رقم — ٤ —

النسبة المئوية للتغير في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي عن السنة السابقة



المصدر : جدول رقم ٤ .

جدول رقم ــ ٥ ــ

تكاليف الدفاع في اسرائيل
(بملايين الليرات الاسرائيلية)

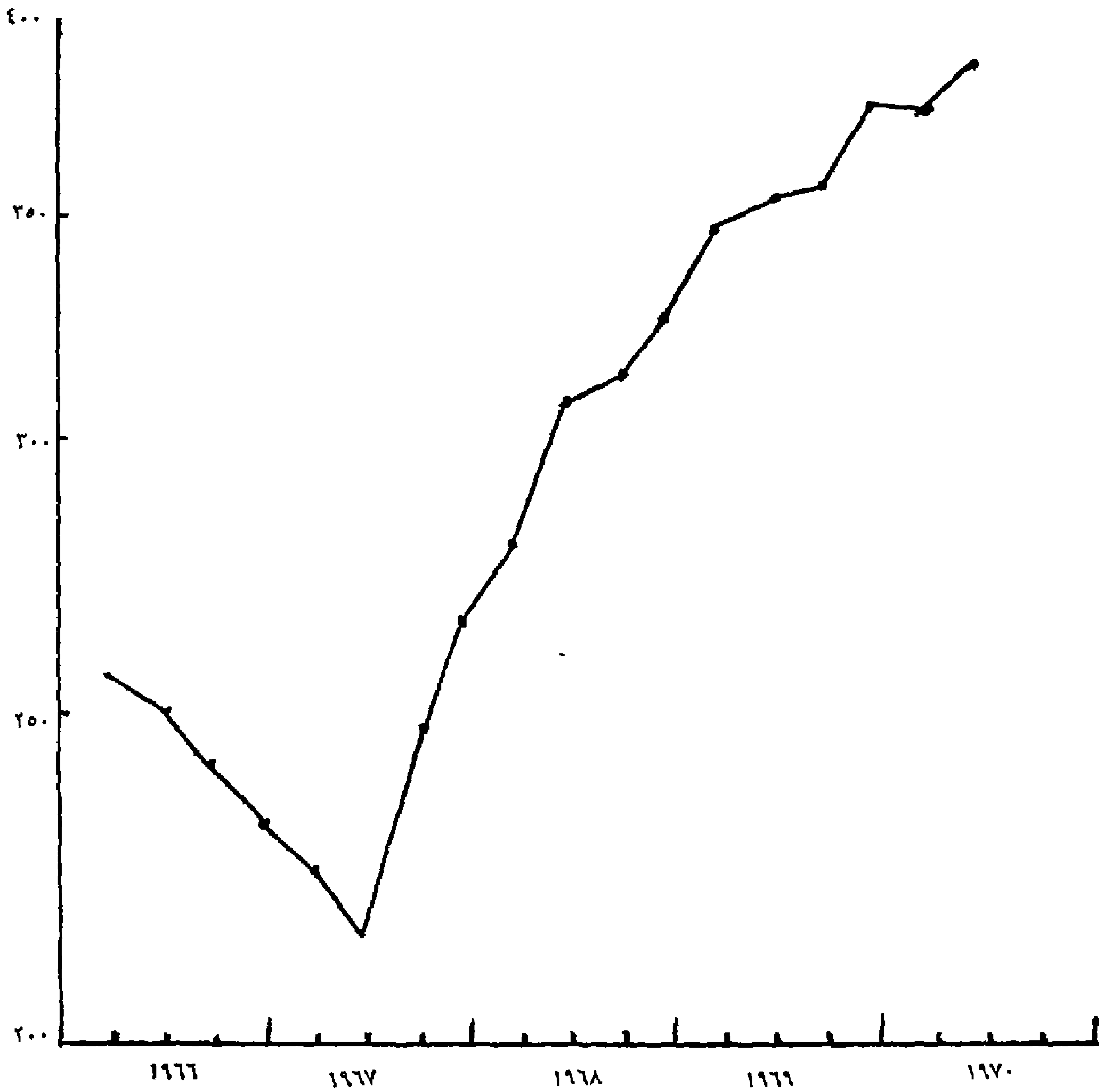
السنة	(١) تكاليف الانتاج	(٢) اجمالي الناتج القومي	(١) كنسبة مئوية من (٢)
١٩٥٧	٢٢٥،٤	٢١٢٩	١٢٪
١٩٥٨	٢٤٧،٥	٢٥٤٣	٩،٧ ٪
١٩٥٩	٢٨٧	٣٩١٦	٧،٣ ٪
١٩٦٠	٣١٦	٤٣٩٣	٧،٢ ٪
١٩٦١	٥٠٨	٥٢٨٣	٩،٦ ٪
١٩٦٢	٥٧١	٦٢٥٦	٩،١ ٪
١٩٦٣	٧٢٩	٧٥٤٤	٩،٧ ٪
١٩٦٤	٧٧٩	٨٧٤١	٨،٩ ٪
١٩٦٥	٩٠٥	١٠٤٥٦	٨،٧ ٪
١٩٦٦	(غير متوفر)	١١٥٠٠	
١٩٦٧	٢١٦٥	١١٩٧٢	١٨٪
١٩٦٨	٢٥٣٤	١٤٠٢٦	١٨٪
١٩٦٩	٣٢٠٠	١٦١٢٧	١٩،٨٪
١٩٧٠	٤٧٦٥	١٨٩٤٦	٢٥٪

المصادر : العمود رقم (١) مشتق من **تقرير بنك اسرائيل السنوي** .

والعمود رقم (٢) من **المجموعة الاحصائية الاسرائيلية ، ١٩٧٢** ، رقم ٢٣ .

الشكل رقم ـ ٥ ـ

الانتاج الصناعي في اسرائيل (عام الاساس ١٩٥٨ = ١٠٠)



المصدر : مكتب الاحصاءات الاسرائيلي ، نشرة الاحصاءات الشهرية .

د . **تأثيرات الحرب على البطالة** : يوضح جدول رقم ٣ وشكل رقم ٣ أن البطالة وصلت أسوأ مستوى لها في الفترة السابقة لحرب ١٩٦٧ . ولكن الحرب ، على أي حال ، عكست الوضع تماما . فقد حصل انخفاض كبير وفوري في البطالة في الربع الثالث من عام ١٩٦٧ الذي تبعه انخفاض مستمر حتى تم الوصول الى منطقة عمالة كاملة .

في فترات السلام النسبي الموسع اتجهت النسبة المئوية السنوية للتغير في اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي نحو الانخفاض (انظر جدول ٤ ، شكل ٤) . ويظهر هذا الانخفاض في كل قطاعات الاقتصاد تقريبا . فعلى سبيل المثال ، كان الانتاج الصناعي ينخفض بثبات قبل حرب حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، كما يظهر جليا في شكل رقم ٥ .

وعلى العكس من ذلك ، عندما نشبت الحرب وازداد التور ، ازداد الانتاج الصناعي وكذلك معدل نمو اجمالي الناتج القومي (كما يظهر في جدول رقم ٤ وشكل رقم ٤ و٥) عاملا بذلك على خلق طلب اضافي على العمال . ويجب تذكر أن المجهود الحربي يمتص دائما جانبا أساسيا من عرض العمل .

تعطي الزيادة في الانتاج الحربي مزيدا من الوظائف . في عام ١٩٦٩ ، يقول كسلر « ان الصناعات الحربية وصناعات الطيران الاسرائيلية تستخدم رسميا حوالي ١٣٠٠٠ شخص ، مع ان بعض المراقبين يقولون ان ذلك الرقم منخفض »(٢٤).

هـ. **تأثيرات الحرب على الصادرات** : ارتفعت صادرات اسرائيل من المعدات الحربية من ٢٥ مليون دولار عام ١٩٦٦ الى ٣١ مليون دولار عام ١٩٦٧ (بزيادة ٢٤ ٪) الى ٣٣ مليون دولار عام ١٩٦٨(٢٥)، اي بزيادة مقدارها ٣٢ ٪ خلال سنتين . « اننا على حافة الانتقال من بلد غير متطور الى دولة صناعية ، يقول أحد المصادر هنا ، وذلك عائد فقط الى صناعتنا الدفاعية . ان الارقام تدعم هذا القول ، فقبل نشوب الحرب عام ١٩٦٧ ، كانت اسرائيل تغوص في أول نكسة جدية تلحق بها منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ . كان العلماء يغادرون البلد لغياب فرص العمل »(٢٦).

تصدر اسرائيل الآن الاسلحة والطائرات والمنتجات الحربية الاخرى (مثل رشاشات عوزي ، وقذائف السفن الموجهة من طراز جابرييل ، وقذائف شافرين جو ـ جو) الى عدد من البلدان الاوروبية بما فيها فرنسه والمانيه وكذلك الى الدول النامية في افريقيه وحديثا في أمريكه اللاتينية .

جدول رقم ـ ٦ ـ
اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي حسب القطاع
معدل النسب المئوية

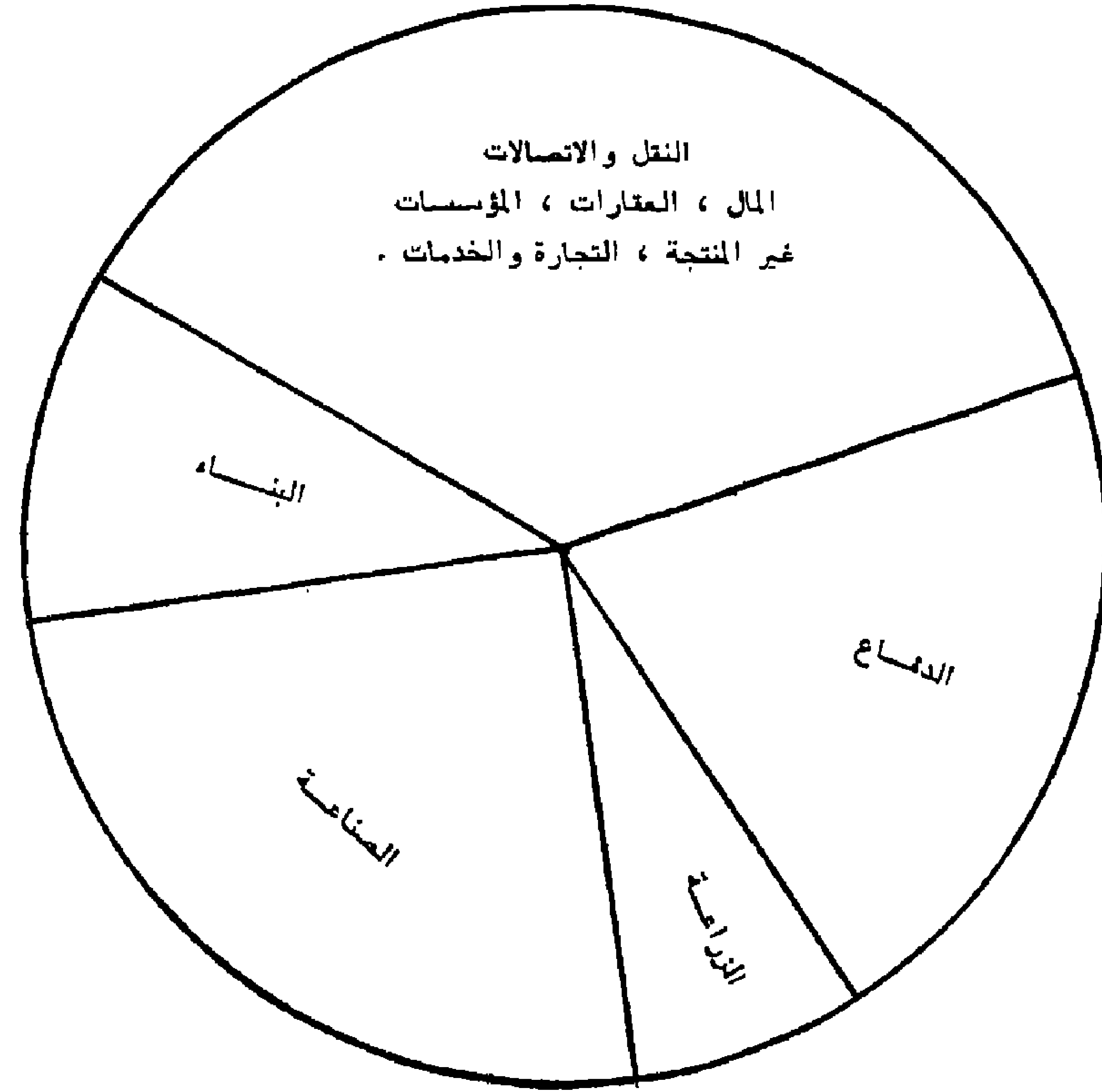
القطاع	المعدل ما قبل حرب ١٩٦٧	المعدل منذ حرب ١٩٦٧
البنـــاء	١٠ ٪	١٠ ٪
الصـناعة	٢٣ ٪	٢٥ ٪
الزراعـــة	١١ ٪	٧ ٪
القطاع الحربي	٩ ٪	٢١ ٪
قطاعات أخرى*	٤٧ ٪	٣٧ ٪
المجمـــوع	١٠٠٪	١٠٠٪

قائم على أساس جدول رقم ٥ والمعلومات المعطاة من **المجموعة الاحصائية الاسرائيلية** ، ١٩٧٢ ، رقم ٢٣ .

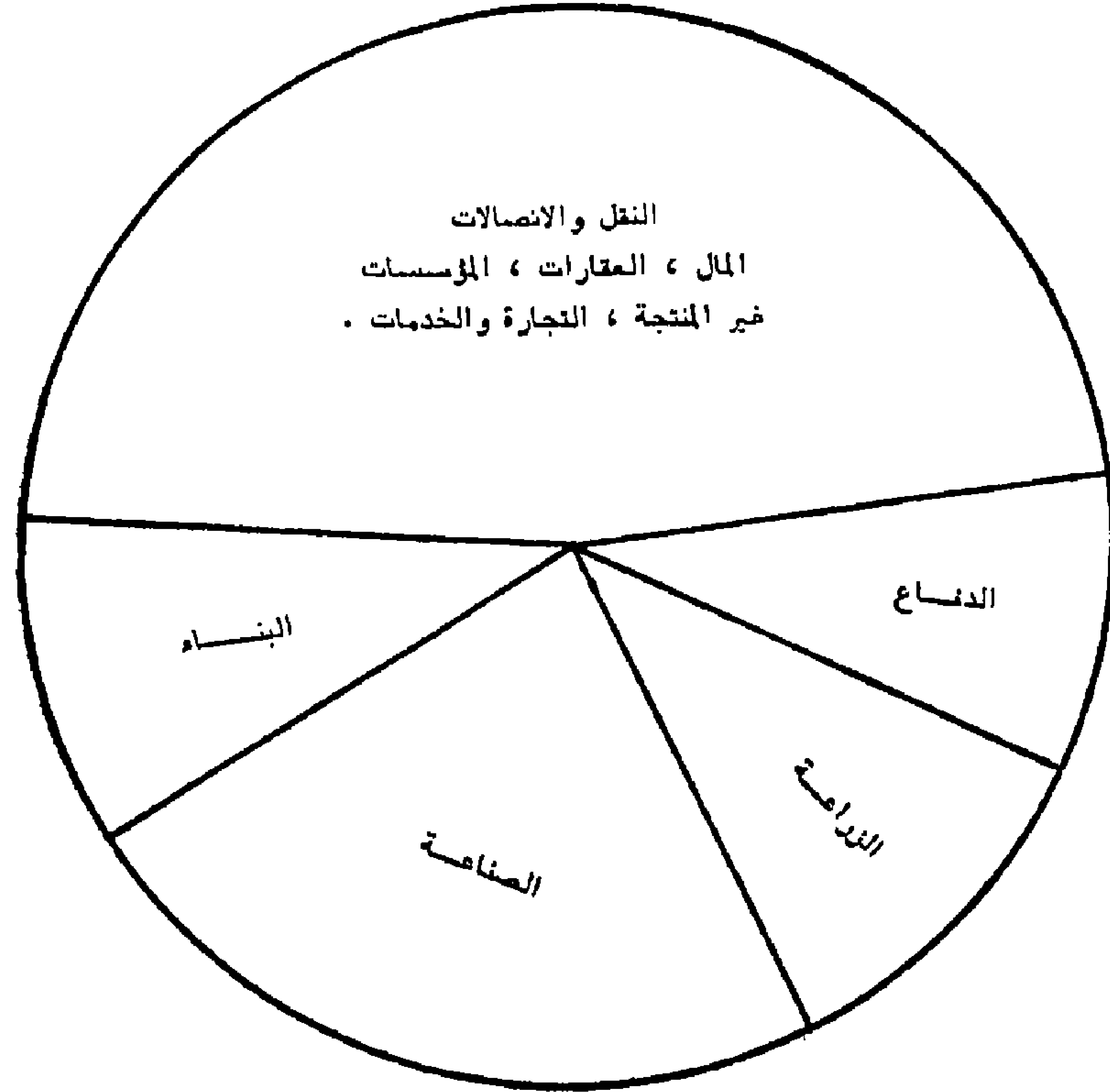
* النقل والاتصالات ، المال ، العقارات ، المؤسسات غير المنتجة ، التجارة والخدمات .

الشكل رقم – ٦ –

اجمالي الناتج القومي الاسرائيلي حسب القطاع



المعدل : منذ حرب ١٩٦٧



المعدل : ما قبل حرب ١٩٦٧

المصادر : الجدولان رقم ٥ و٦ .

وبينما تحد الولايات المتحدة بحزم من مبيعات اسلحتها الى امريكه اللاتينية ، تقول تقارير البنتاغون ان السلفادور أجرت عقداً لشراء ٢٥ مقاتلة نفاثة وناقلات جنود ومدربين من اسرائيل(٢٧). وكذلك باعت الدولة الصهيونية ٥ طائرات عرفا قصيرة المدى الى المكسيك(٢٨). ومع اتساع صناعتها الحربية ، على اسرائيل ان تزيد صادراتها من الاسلحة .

ان مصروفات اسرائيل الدفاعية مرتفعة بشكل غير اعتيادي ، وما تزال ترتفع بالارقام المطلقة والنسبية كما يظهر في جدول رقم ٥ و ٦ وشكل رقم ٦ . وهكذا فمن أجل زيادة صادرات اسرائيل من فائض المعدات الحربية ، تستخدم الدعاية الاسرائيلية مسرح الحرب لاقناع العالم بالمستوى والاداء العاليين لاسلحتها. « ان الدعاية والشهرة الناجمتين عن النصر العسكري في حرب حزيران (يونيو) قد أعطتنا ، على الارجح، حافزا اضافيا لهذه الصادرات »(٢٩).

و. **تأثيرات الحرب على البنية التحتية** : من أجل تسهيل المرونة العسكرية والحركة مع كل موجة توسعية ، تبني اسرائيل الطرق والمطارات وشبكات الاتصال ومشاريع مشابهة .

فبعد حرب ١٩٦٧ ، تعاقدت الحكومة مع متعهدين « على اساس نسبة ارباح على سعر التكلفة من أجل بناء التحصينات والمستوطنات في المناطق العربية المحتلة »(٣٠). ولسوء الحظ ليس هنالك من تقديرات مرضية حول هذه المصروفات . ان لها دورا اساسيا في عملية النمو الاقتصادي .

التأثيرات الاقتصادية العكسية للحرب : لم يكن للتأثيرات الاقتصادية العكسية للحرب على اسرائيل اهمية تذكر ؛ فقد عملت الارباح الاقتصادية للحرب على أكثر من تعويض اية تأثيرات اقتصادية عكسية قد تكون اسرائيل واجهتها . وبالرغم من المعدل المرتفع للتضخم (حوالي ١١ ٪ عام ١٩٧١) ، فقد بلغت النسبة المئوية للزيادة في اجمالي الناتج القومي (بالاسعار الجارية) اكثر من السنة السابقة بنحو ٢٣ ٪ ، مما لا يزال يسمح بزيادة ٨ ٪ بالاسعار الثابتة .

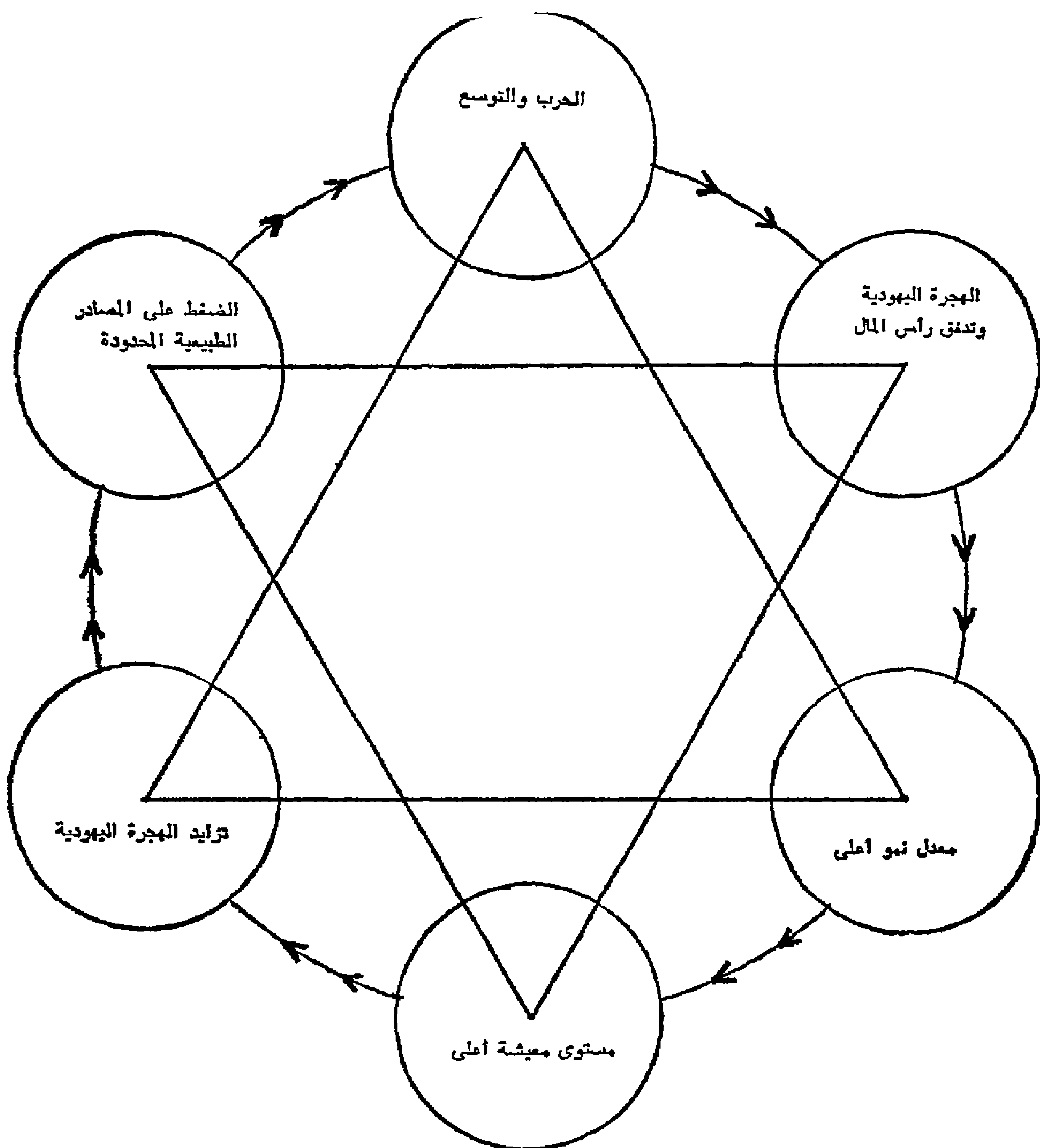
وكدلالة على الازدهار اللاحق لحرب ١٩٦٧ هو وجود اكثر من ٢٠٠ مليونير في اسرائيل . « ان معارض الفن والمحلات والبيوت الفاخرة هي الاشارات المرئية للرخاء الاسرائيلي الجديد الذي هو احد أكثر النواتج الثانوية لحرب الايام الستة عام ١٩٦٧ اثارة للدهشة . ممتطية ذروة الصعود الحلزوني لفترة ما بعد الحرب ، تتبنى أعداد متزايدة من الاسرائيليين نمط حياة كان من الممكن ان يثير دهشة الصهاينة قبل جيل فقط »(٣١).

ملاحظات ختامية

يتضح مما سبق أعلاه انه في غياب الحرب أو التوتر الشديد ، ما كانت اسرائيل ، وهي بلد صغير فقير بالمصادر الطبيعية ، قادرة اطلاقا على تحقيق معدل نموها المرتفع البالغ ٩٫٢ ٪ سنويا خلال الفترة ١٩٥٠ — ١٩٧١ . ومن الجدير بالملاحظة ان معدل زيادة تدفق رأس المال ، الذي يرتفع بشكل اساسي في فترات الحرب كما يتضح اعلاه ، قد بلغ ٩٫١ ٪ مركبا سنويا . ويبدو من هذا أنه لا يمكن ان يكون في صالح اسرائيل الاقتصادي تخفيف التوتر او خلق اوضاع سلام دائم مع جيرانها . ويشرح النموذج الديناميكي المبين في الشكل رقم ٧ عملية السبب والنتيجة :

الشكل رقم — ٧ —

نموذج ديناميكي لحالة اسرائيل



يؤدي الحرب والتوسع الاقليمي الى هجرة اكبر وتدفق اكثر لراس المال ، مما يؤدي بدوره الى مستوى معيشة اعلى ومعدل نمو أعلى ، مشجعا ذلك مزيدا من الهجرة يحدث ضغطا على المصادر المحدودة ، مما يؤدي الى توسع آخر (مصادر اكثر) ، وهكذا تعيد العملية نفسها .

الحواشي :

١ — ليونيل روبنز في كتابه : **الاسباب الاقتصادية للحرب** ، لندن ، ١٩٣٩ ، ص ١٥ .

٢ — في مقابلة اجراها الن هارت من التلفزيون البريطاني كما نقلتها صحيفة **دافار** ، ١٤ مايو ١٩٧٣ ، واقتطفتها مجلة **نيو بوينت** التي تصدرها « رابطة اسرائيل للحقوق المدنية والانسانية » ، القدس ، ١٦ مايو ١٩٧٣ ، ص ١٥ .

٣ — شارلز كوبر و سدني الكسندر ، « **التطور الاقتصادي ونمو السكان في الشرق الاوسط** » ، نيويورك ، ١٩٧٢ ، ص ٩٣ .

٤ — ا. جولد برجر ، «Preis-Bewegungen in Israel,» Polygraphischer Verlag, Zurich, 1956.
اقتطفها الكس روبنز في كتابه « **اقتصاد اسرائيل** » ، نيويورك ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠ .

٥ — تبعا لصحيفة **عال همشمار** ، ١٩ نيسان — ابريل ، ١٩٧٣ ، فان آلون يدعو الى اقامة ٣٠ مستعمرة يهودية بالاضافة الى الـ ١٢ مستعمرة الموجدة ، نقلا عن صحيفة **نيو بوينت** ص ٥ .

٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٤ .

٧ — الياهو كانونسكي ، « **الاثر الاقتصادي لحرب الايام الستة** » ، بريجر ، نيويورك ، ١٩٧٠ ، ص ٥٧ .

٨ — **الكتاب السنوي الاسرائيلي** ، ١٩٧٣ ، تل أبيب ، ص ٤١ .

٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١ .

١٠ — **الكتاب السنوي اليهودي الامريكي**، ١٩٧٢، ص ١٨٧ .

١١ — **اسرائيل دايجست** ، المجلد ١٢/٨ — ١٨ نيسان (ابريل) ، ١٩٦٩ ، ص ٢ .

١٢ — **الكتاب السنوي اليهودي الامريكي**، ١٩٧٢، المجلد ٧٣ ، ص ٢٧٣ .

١٣ — اميل بنويت ، « **الدفاع والنمو الاقتصادي في البلدان النامية** » ، لندن ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥٣ .

١٤ — راي فيكر ، «رفع ذراع التطويل»، « **الوول ستريت جورنال** » ٣١ ايار (مايو) ١٩٧٣ ، ص ٣٤ .

١٥ — السلسلات الزمنية لاجمالي الناتج القومي بالاسعار الجارية والثابتة اخذت من **المجموعة الاحصائية لاسرائيل** ، الصادرة عن المكتب المركزي للاحصاءات .

١٦ — نقلها الكس روبنر ، ص ١٤ .

١٧ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨ .

١٨ — ي. كوفمان ، « الاستراتيجيات اللاسامية في الصهيونية » في « **كومنتري** » ، نيويورك ، آذار (مارس) ١٩٤٩ ، نقلها ألكس روبنر ، ص ٣ .

١٩ — نقلها الكس روبنر ، ص ٦ .

٢٠ — كشف النقاب عام ١٩٦٦ عن مهمة صهيونية سرية لقذف القنابل في الكنس وفي مراكز اليهود الاخرى ببغداد. ولم تتخذ حكومة اسرائيل اي اجراء للتحقيق في هذه الفضيحة . المصادر : « **هعولام هزه** » ، تل ابيب ، ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٦ و« **الجيروزالم بوست** » ، ١٥ حزيران (يونيو) و٢١ تموز (يوليو) ١٩٦٦ .

٢١ — **الكتاب السنوي اليهودي الامريكي** ، المجلد ٦١ ، الصفحات ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

٢٢ — **المصدر السابق** ، ص ٢٦٥ .

٢٣ — **المجموعة الاحصائية الاسرائيلية** ، رقم ٢٣.

٢٤ — فيلكس كسلر ، « الصناعة الحربية الاسرائيلية » ، « **الوول ستريت جورنال** » ، ١٨ شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ١ .

٢٥ — بنك اسرائيل ، **التقرير السنوي** ، **١٩٦٨** ، ص ٦٦ .

٢٦ — نقلها فيلكس كسلر ، ص ١ .

٢٧ — فرد س. هوفمان ، « اسرائيل تسلح امريكه الوسطى » ، **الواشنطن بوست** ، ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، ص ١١ .

٢٨ — **المصدر نفسه** .

٢٩ — نقلها ا. كانونسكي ، ص ٥١ .

٣٠ — ترنس سميث ، « نمط حياة الاسرائيليين المنعمين » ، **النيويورك تايمز** ، ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، ص ٨ .

٣١ — نقلها ترنس سميث ، ص ٨ ج .

مرحلة الانتقال في الادب الاسرائيلي المعاصر

الدكتور رشاد الشامي

(٢) ظواهر مختلفة

هذه هي الحلقة الثانية من هذه الدراسة التي نشرنا الحلقة الاولى منها في العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » :

الرواية التاريخية

يعتبر ظهور الرواية التاريخية من الظواهر الهامة التي ميزت ادب مرحلة الانتقال في اسرائيل ، كعنصر من العناصر التي كانت مفتقدة في الادب الاسرائيلي حتى ذلك الحين ، وهو الامر الذي يمكن اعتباره بمثابة نقطة تحول في تاريخ الادب الاسرائيلي المعاصر . وقد كان اول من قام بهذه القفزة المفاجئة من الكتابة المرتبطة بالحاضر بشدة الى الماضي ، هو الاديب الاسرائيلي موشيه شامير ، وذلك في روايته « ملك اللحم والدم » . وقد واصل كثيرون من بعده ، هذا الطريق، وكان من بينهم بعض ادباء المرحلة السابقة، وهو الامر الذي ساعد على ازدياد عدد الروايات التاريخية التي تتناول فترات مختلفة من التاريخ اليهودي . **ما الذي أدى الى هذا التغير ؟** لقد ادى الى هذا ذلك الاهتمام المتجدد من قبل الجمهور المثقف ، وبصفة خاصة من قبل اولئك الذين يعملون في مجال التعليم ، بالماضي وبالقيم الثقافية الخاصة به . ولكن هذا الاهتمام في حد ذاته كان يدل على الحاجة الحقيقية التي ضغطت من الداخل . لقد زاد الاحساس بأن الحاضر لا يكفي ، وان هناك شيئا ما ينقصه لم يكرس له الاهتمام من قبل ، ربما لان الانتظار المتوتر للمستقبل ، قد ازال حدة الانعزال عن المـــاضي ، ولان المجتمع الاسرائيلي في تلك الايـــام التي تلت حرب ١٩٤٨ لم يكن مشدودا نحو أهداف اجتماعية وقومية . وبالرغم من رغبة هذا المجتمع في ان يعيش حاضرا مريحا نسبيا ، الا انه كان يشعر بنقص ارث الماضي ، الذي يمكن بموجبه صياغة حياة حاضر مستقرة وغنية المضمون . اذن ، لقد كان اضمحلال الحاضر وتدهوره هو سبب الاتجاه الى الماضي كموضوع للصياغة الفنية ، بالرغم من الشك الذي أحاط به نقاد الادب العبري المعاصر بمدى تحقيق هذه الروايات التاريخية لمرادهـــا .

والدليل الاول على اتجاههم وقيودهم هو التبرير الذي يؤثر على الاديب في اختيار الفترة التاريخية المتناولة في عمله الادبي . ففي العادة يلجأ مؤلف الرواية التاريخية الى استقصاء سلسلة من الاعمال التي توضح عصره ومصيره ــ وحينئذ فانه يتوجه الى الماضي القريب، او انه يلجأ الى اماطة اللثام بشكل كامل، عن ماض ما زال يترك بصماته في ارثه الحضاري ــ وحينئذ فانه يلجأ الى لحظات التحول الحاسمة في تاريخ حضارته ، أو انه يميل ببساطة الى وصف فترة من خلال المقارنة التي يجدها فيها لمصيره ومصير جيله . وفي الحالتين الاوليين يكون للاديب باعتباره ابن الحاضر اهتمام حيوي بالماضي

نفسه ، ولا يكون هدفه في هاتين الحالتين وصف الماضي على صورة الحاضر ، بل يكون سعيه الاساسي ، في غالب الاحيان ، هو تفسير الماضي من وجهة نظر الحاضر ، المرتبط به في كل سياق انتاجه الادبي ، وفي الحالة الاخيرة لا يكون للاديب تقريبا أي اهتمام بهوية الماضي ، ولا يكاد يهتم به الا بالقدر الذي يجد انه يعكس له الحاضر على النحو الذي يود به معالجته . وبالفعل ، فانه من الامور المميزة للروايات التاريخية الاسرائيلية التي ظهرت في تلك الاونة ان معظمها قد كتب وفقا للاعتبار الثالث . لقد كانوا يتعمدون في تناولهم الى فترة بعيدة ليست على اتصال مباشر بالحاضر لا من ناحية تتابع الحدث التاريخي ولا من ناحية تتابع الارث الروحي . ولكن غالبا ما يكون في هذه الفترة التاريخية التي يتناولها العمل الادبي تشابه بأي حال من الاحوال مع الموقف الحالي .

والنموذج الذي يمثل هذا الاتجاه هو رواية موشيه شامير ، التي أشرت اليها سابقا : «ملك اللحم والدم» ، التي مع كونها الاولى من نوعها فانها تفوق من ناحية الانجاز الفني الروايات التاريخية التي جاءت بعدها ، ولا سيما روايات شامير نفسه ــ (تدور هذه الرواية حول شخصية الكسندر جانيوس أحد ملوك المكابيين). وتتميز هذه الرواية بالاوصاف الملحمية الممتازة : المناظر الطبيعية، واوصاف القتال، والانطباعات الواقعية. ولكن حينما نأتي لفحص أهمية البعد التاريخي في الرواية نفسها نحصل على صورة مميزة . ان الفترة التي اختارها شامير ــ مملكة الحشمونائيم في اوج مجدها وعلى حافة تدهورها ــ لم تكن حاسمة في صياغة الارث الثقافي الاسرائيلي في الخمسينات من القرن العشرين ، وعلى الاخص لان الاديب هو من مواليد فلسطين الذين لا تربطهم صلة وثيقة تماما بارث الغربيين ، ولكن هذه الفترة بالذات من التاريخ اليهودي لها قوة جذبهـا الخاصة لما تميزت به من أبهة تاريخية مصحوبة بمشاعر المنتصرين والمحتلين في ميدان القتال . وهكذا وجد الاديب شبيها للواقع الذي يعيشه هو نفسه ، وتمت صياغة الفترة القديمة في يده كفنان رغما عنه بمثابة انعكاس للحاضر . ان ابطالــه ــ بقدر ما هم يعيشون في الواقع وليس في سطور الرواية هم اسقاط للنماذج المعاصرة وكذلك للروايات الواقعية لشامير ، والمشاكل التي تزعجه هي المشاكل الشخصية والسياسية التي عالجها في رواياته « هوسار في الحقول » و« فصول اليك » ، ولذا ظلت الحياة الروحية للعصر المتناول وثقافته فوق مقدرة احتمال الرواية بالرغم من الجهود الكبيرة من أجل اعطاء صورة دقيقة للفريسيين والصدوقيين وكذلك حتى للفيلسوف اليوناني . ومن هنا فانه يمكننا القول بأن هذه الرواية التاريخية ليست الا صورة دقيقة مزخرفة للحاضر في مرآة الماضي ، ولذلك فان وصفه يحوي حطا لقدر الماضي في اطار ادراك ابن الحــاضر أكثر مما يحوي توسيعا وتفسيرا لما هو مخفي بين ثنايا اعمال الحاضر . وبالطبع ، لا يمكن انكار الانجاز الملحمي المهم في حد ذاته ، ولكن المطلوب لم يتم تحقيقه وظلت المشكلة قائمة كما هي . ان دائرة الموضوع السابق ــ الصراع وحرب ١٩٤٨ ــ قد تم شدها ولكنها لم تقتحم ، كما ان القدرة على استقاء حياة غنية من الابطال وعلى ابراز شخصية ذات انفرادية خاصة ، لم تزد . وهكذا فان الرواية التاريخية لم تفتح مجالا جديــدا للموضوعات ، يمكن المداومة فيه ، ولم يرتفع انتاج الادب الاسرائيلي الى مرتبة تطور أعلى من التي وصل اليها قبلا .

العودة الى الحاضر بخوائه

حينما لم يجد الادب الاسرائيلي في الرواية التاريخية ما يشبع نهمه نحو البحث عن موضوع لم يبق امامه من خيار سوى العودة والتمعن في الحاضر على ما هو عليه ، بوحشته وخوائه وضجره ، واختياره كموضوع للانتاج الادبي . وبالفعل ، فانه في بعض القصص والروايات التي رأت النور في فترة ما بعد حرب ١٩٤٨ ، وفي السنوات

الاخيرة بصورة أكثر ، نلاحظ ازدياد هذا الاتجاه . وتبرز بين هذه القصص والروايات أعمال لموشيه شامير ودافيد شحر ، وأهارون ميجد ، وبنيامين تموز ، وفنحاس ساديه.

موشيه شامير

من الروايات التي كتبها موشيه شامير وتعتبر من قبيل أدب « مرحلة الانتقال » رواية « لأنك عار » . وقد طبعت هذه الرواية عام ١٩٥٩ ، وهي تعود بأحداثها الى عام ١٩٣٩ ، لكي تشير الى أزمة نهاية العقد الخامس . وكما يعبر النقد الذي تجلى في افكار أبطال يزهار في « أيام تسيكلاج » عن ازمة الشباب الاسرائيلي في عام ١٩٥٨ ، أكثر مما يدل على شخصيته في عام ١٩٤٨ ، فان موشيه بطل شامير في « لأنك عار » والذي يعيش عام ١٩٣٩ ، هو قريب للغاية من موشيه شامير عام ١٩٥٩ . وتدور احداث هذه الرواية خلال سمنار للموجهين يعقد عام ١٩٣٩ ، ويشترك فيه : البطل الرئيسي موشيه ، واصدقاؤه : ليزر ، ويوحاي وكثيرون آخرون . وفي اثناء المعسكر تحدث في نفس البطل الرئيسي أحداث نفسية متوازية : ينضج من الناحية الجنسية . ويثور من الناحية الروحية . وفي حياته الشخصية يهجر ايلانة ، محبوبة الشباب ، ويقوم باقامة علاقة جنسية قوية مع عمالية ، وفي حياته الروحية يقوم « بكسر الالواح » (رمزا الى ثورة موسى وكسره لالواح الوصايا العشر) — الخاصة بحركته ويثور ضد عيمك ، الاب الروحي . وخلال فترة التمرد يقوم بكتابة مسرحية عن بناء أريحا يدور موضوعها حول موت الولدين — قربانا على مذبح المجتمع . وعلى هذا النحو فان موشيه بطل شامير يستيقظ من التفاؤلية الاجتماعية لحركة الشباب الصهيونية ، انه يطرح احتمال حرب دموية ضد العرب في مقابل الانسانية المتفائلة لدى رفاقه ويشعر بأن البلاد (أي اسرائيل) قد بناها الاباء « على جسد » الابناء (موضوع المسرحية التي كتبها شامير). وهذه الرواية لها بالطبع جذور في الروايات التاريخية التي كتبها شامير ، ولكن على عكس الخصوم الانسانيين (أبشالوم ، واوريا الحثي) ، للابطال الذين يكرسون الوسائل من أجل غايات آنية او من أجل « صالح الدولة » (الكسندر يناي ، وداود الملك) ، يوجد هنا خصوم « انسانيون » ضعاف (عيمك ، وجرانت) للبطل الآتي الذي يكرس « الشر » ويستفيد منه . وفي مقابل عدم تمكن الرواية التاريخية من شق الطريق الاستقلالية الفردية ، فان رواية البلوغ هذه تسعى الى تحطيم الالواح والى شق الطريق للاستقلالية الآنية للفرد ، غير المرتبط بأي شيء .

وهذه الرواية لا شك تشتمل على ارهاصات الازمة التي حدثت في الستينات ، تلك الازمة التي دفعت بالادب الاسرائيلي للبحث عن هوية الفرد الاسرائيلي من جديد ، وبحث موقفه وارتباطه بالقيم التي أصبحت محل مناقشة ومحل شك.لقد فتح «تحطيم الالواح» امكانات جديدة ومجالات جديدة امام الادب : البطل الذي حكم عليه بالعزلة والتيه (عيمك الاب الروحي هو الذي يدفعه للتيه) ، يضطر من الان فصاعدا الى البحث عن طريقه . وبالطبع فان شامير الذي يضع بطله في مفترق الطرق بعد « تحطيم الالواح » لا يحدد له طريقه بعد ان اصبح في حوزة نفسه ومسؤولا عن ذاته بعيدا عن اي ارتباط بأي قيم ، وهو الامر الذي ميز ادب « مرحلة الانتقال » ، والذي جعل موجة الادباء التالية تسعى لوضع الاجابة وتحديد الطريق الذي يجب ان يسير فيه هذا البطل .

دافيد شحر

يصف النقاد قصص دافيد شحر (ولد في فلسطين عام ١٩٢٦) دائما بأنها قصص واقعية كلاسيكية . واذا كنا سنلقي ضوءا هنا على نموذج من نماذج ادب دافيد شحر ، فان ذلك سيكون فقط من أجل فهم الاتجاه الذي تبلور في القصص التي تمثل « مرحلة

الانتقال » . وفي هذا المجال سنعرض لمجموعة قصص « عن الاحلام » لما تتميز به من حقيقة بيوجرافية ، تجعلها مميزة من ناحية وفريدة في نوعها من ناحية اخرى . ينتمي أبطال شحر الى الاقلية الصغيرة من أبطال الادباء من مواليد فلسطين ، وهي تلك الاقلية التي شق طريقها من البيئة الدينية الى البيئة العلمانية وتخلق بهذه الطريقة مقارنة مثيرة للاهتمام بالموضوع الاساسي في الادب العبري في مراحله السابقة . وهناك عدة فروق تميز طريق أبطال شحر عن طريق أبطال انتاج الجيل السابق . اولا ، ان البيئة الدينية انتي يخرجون منها هي بيئة منهزمة ، ليس فقط في جهودها من أجل منع ابنائها من الخروج الى الثقافة الدنيوية ، بل كذلك في جهودها من أجل المحافظة على حيويتها . انها بيئة خاوية ، ومتحجرة ومضجرة . ومن هنا الفارق الثاني : لا يشق ابطال دافيد شحر طريقهم من مجال لآخر على شكل صراع روحي عنيف بين بؤرتي الحياة الروحية التي يشعرون بالاخلاص لكليهما على حد السواء .

ان العبوس والجمود الديني ينفرهم ، ولكن البيئة العلمانية لا تجذبهم اليها بما تحويه من ارث روحي غني ، بل بما تحويه من حرية ، اي بالسلطة التي تمنحها للانسان ليتصرف حسبما يشاء في شؤونه الشخصية ، وعلى الاخص حرية الاختلاط بين الشبان والشابات . وبالفعل يوجد قليل من الانجذاب الى القيم الثقافية وهو الانجذاب الذي يتجلى في أشواق البطل الى الجمال ، الذي لا يوجد في بيئته الدينية ، وفي الانجذاب الى قيم الفن التي يحتقرها الدين اليهودي . ولكن الاشواق الى الجمال فيها لدى بطل شحر مسحة جنسية حادة . والفن هو في نظره دافع شخصي ، داعر وفوضوي. ولا عجب في ان ما يجذب قلبه اكثر هو رفقة الفنانين أكثر من الفن ذاته. ومن هنا الفارق الثالث والختامي : حينما يقوم البطل بالخطوة الحاسمة التي تعزله عن بيئته الدينية ، فانه يقوم بها تقريبا بلا وعي . انه يشعل سيجارة في يوم السبت ، (وهو الامر المحرم عمله في مثل هذا اليوم المقدس) ، ولا يدرك مغزى الامر الا بعد ان يفعله ، ولا يكون هذا الادراك من خلال فظاعة التغيير الذي حدث في عالمه ، بل من خلال عدم الارتياح الاجتماعي ، الذي ينطوي عليه الانعزال عن المنزل وعن طريق الحياة الثابت الذي تم شقه أمامه . كذلك فان اكتشاف المغزى الروحي للتغيير الذي يحدث في حياته يتم بعد ان يتم التغيير ، وبعد ان يحظى بالحرية الشخصية التي كان يتوق اليها ويتضح له ، انه ليس لديه ما يفعله بها . لقد تخلص من الاذعان للاوامر الصارمة التي كان يفرضها عليه دين آبائه ، ولم يعد يعاني الان من نير الشرائع ، ولكن الحرية السلبية التي كان يتوق اليها سرعان ما تضايقه بغموضها وخوائها . وحينئذ يبحث بطل شحر عن فرصة اولى من أجل التخلص منها . وبالفعل فانه في هذه النقطة يحدث تحول يسهل على من يدرس ادب « مرحلة الانتقال » الانتقال من الموضوع الفريد الذي يتناوله دافيد شحر الى انتاج رفاقه . ان بطل شحر يصادف فور خروجه من البيئة الدينية الواقع السياسي الذي يعيش فيه اليشوف اليهودي في تلك الايام (فترة الانتداب): شرطي بريطاني يهين كرامته كيهودي ، فيرد على ذلك بغضب هائل — ويضرب الشرطي وبعد ذلك ينتظر في هدوء بال نتائج فعلته . ويدل هدوء البال الغريب هذا بعد العملية على معناها ذي المغزى المزدوج : اكثر مما كانت جزعا على كرامة اليهود ، كانت تعبيرا متهورا عن الهروب من الحرية التي لا يدري ماذا يفعل بها . وعمل بطل شحر غير نابع من تقديس القيمة القومية ، بل من الرغبة في الهروب من الحيرة والضياع . انه لم يقم الا بعملية استبدال ، وليست المسألة استبدال قيمة بأخرى ، بل استبدال امتثال غير مؤمن بامتثال آخر غير مؤمن هو الاخر في نظر شحر . والانتظار الهادىء لنتائج ما بعد العملية معناه : منذ الان ليس علي ان أهتم بأعمالي ، الاخرون سيعملون وفق طريقتهم ،

وسواء هذا أم ذاك فانني قد تخلصت من الحرية التي تضايقني بغموضها . ويقف بطل شحر وجها لوجه في مواجهة الضجر والخواء الذي في البيئة العلمانية ، وكل ما في مقدوره أن يفعله هو ان يرفع يديه في يأس ليخفي بهما وجهه . وبعد ذلك يجعل شحر بطله ينساق في الاعتدال المريح ، الذي لا هدف له ، والذي لا ينطوي على دراما ، والذي لا قضية فيه ، ذلك الاعتدال الخاص بالبيئة العلمانية . أنه يسعى الى مستقبل ، والى كرامة والى حب النساء ، ولكنه يعرف في أعماق قلبه ان كل مكاسبه هي محطات في طريق فشله النهائي .

وفي هذا الاطار من المعالجة الخاصة عند شحر يكون من الصعب العثور على ما هو مشترك بين هذه القصص وقصص معظم الادباء من مواليد فلسطين ، ابناء « جيل البلاد » . ولكن مع هذا فان التحول الاخير يميز على الاقل نقطة لقاء . ان ابطال شحر يتصرفون منذ البداية بتحفظ تجاه القيم القومية والاجتماعية لليهودية العلمانية . انهم لم يتعلموا على هذه القيم منذ الطفولة ، وهم معتادون كذلك على ان ينظروا اليها — بتأثير بيئتهم القريبة — نظرة نافذة . أما ابطال يزهار ، وشامير ، وموسينسون ، وناثان شاحام وأهارون ميجد فانهم يتصرفون تجاه هذه القيم منذ البداية بايمان مطلق . لقد تعلموا عليها ، واعتادوا على النظر اليها — بتأثير بيئتهم القريبة — باعتبارها قيما مطلقة فوق النقد ، ولذلك فانه طالما ان للاوامر التي تستوجبها هذه القيم مبررا حتميا موضوعيا (وهذا المبرر غالبا ما يأخذ شكل الامة المحاصرة والتي تحارب من أجل وجودها حرب حياة او موت) فانه لا يطرأ على بال أحدهم اطلاقا أي شك في صلاحيتها . بل على العكس من ذلك ، فالاعتراف نفسه بحتمية أعمال معينة يجعل هذه القيم تحتل مكانتها وتكتسب صلاحيتها : من يستجيب لها هو انسان لحياته مضمون ، وذلك لان أعماله لازمة ولذلك فانها تثير الاحترام في نظر الكثيرين ، والتقدير الذاتي في نظر الفرد . ولكن في سنوات ما بعد حرب ١٩٤٨ اتضح بسرعة ، انه يكفي ان ينقضي الاحساس غير الوسيط للضرورة الموضوعية التي تثير رغبة الوجود وغريزة الدفاع الذاتي ، حتى يتلاشى تماما ذلك المغزى الذي أضفته هذه القيم على حياة الفرد . ويبدو ، أن فقدان احساس الضرورة الفورية يجرد القيمة القومية والاجتماعية من مبررها ، ويتلاشى معها كذلك المعنى الوجودي الذي في اقامة « الامر » الذي يستلزمه . ان الفرد يتجه الى نفسه ، ويكتشف في نفسه العديد من الرغبات والميول المتجهة نحو هنا وهناك دون قدرة على حسم رغبة متبلورة وطموح معين وواضح . وهنا نجد ان الدافع الذي كان يضفى على المطلب الذي كانوا يستجيبون له طوعا قد فقد المبرر الحاسم للحتمية ، وهو ذلك المبرر الذي لا يدع مجالا للشك في القيمة المطلقة للعمل ، وحلت العادة والشكلية التي لا يوجد فيها ما يثير الحماس في الانسان ، والتي لا يوجد فيها للانسان ما يواجهه ويتحداه ، محل الحتمية الاجتماعية السياسية الصهيونية ، التي فقدت مسوغاتها في نظر الشباب الاسرائيلي .

اهارون ميجد

والتعبير المثير للاهتمام عن هذا التغيير في وعي الاديب وأبطاله والذي يميز خطوة اخرى في تطور الادب الاسرائيلي بعد حرب ١٩٤٨ ، يوجد في كتاب أهارون ميجد (ولد في بولندا عام ١٩٢٠ وهاجر لفلسطين عام ١٩٢٦) « حادثة الابله » (١٩٦٠) الذي هو بمفهوم ما استمرار لقصته السابقة « حدفا وأنا » ، وكذلك في كتابه « الهروب » (١٩٦٢) . وهذان الكتابان هما تعبير لفقدان الهوية لدى الشباب الاسرائيلي ، المؤمن بقيم حركات الشباب الصهيونية ، وذلك في الموقف الاجتماعي الجديد الذي يسحب القاعدة من تحت وجوده الروحي . و« الابله » وابطال قصص « الهروب » الثلاثة هم

ابطال بسطاء ، ترتبط بساطتهم بالخلفية الروحانية « للصهيونية الاشتراكية » . لقد تعلموا على البحث عن الخير ، ولكنهم لا يمكنهم ان يعيشوا دون احساس « بالانتماء » الاجتماعي ، وهم يصارعون من أجل الانتماء (ولو حتى لجماعة منظمة من « الاصدقاء » ـ « حادثة الابله ») ، وهم يشتاقون الى الجزيرة المثالية الخضراء لمجتمع الفلاحين (حادثة الابله) ويعلقون الآمال الكبار على الديموقراطية الشعبية العظيمة وخيراتها الوفيرة (« رحلة الى أرض جومار ») .

الضياع ودور الحرب :

وهذا البطل هو بطل ساذج خالص النية وعاطفي في آن واحد : ساذج ـ لانه ما زال يؤمن باحتمال تحقيق أحلامه وعدم التكيف مع الواقع الجديد ، وعاطفي ـ لانه يحلم بواقع آخر ويقوم بتقدير الواقع وفق معايير يوطوبيا نفسية. و« الصهيونية الاشتراكية » في «حادثة الابه» ليست تجريدا فقط بل طريقة للحياة، ومعيارا وقاعدة للوجود، وحينما تزاح ، فان البطل لا يفقد فقط العبء الايديولوجي ، الذي يمكن التخلص منه ويمكن حله، بل يفقد كذلك احتمال الوجود نفسه ، لقد هدم عليه عالمه الحقيقي اليومي . وهو بطل ليست لديه الاهلية للوفاء بمطالب زوجته وبمطالب المجتمع والتكيف مع الواقع الجديد. ان الغربة والبيروقراطية (« الجنازة » ، و« حادثة الابله ») ، والحواجز الفاصلة بين الانسان والآخر (« الزمن الذي انقضى ») ، والاتساق (« البدلة » ـ مجموعة « حادثة الابله ») وقيم البيع (« الدرس ») ، تميز المجتمع الجديد ، الذي لا يتمكن الابله من مواجهتها . انه تائه ، ولا يتم خلاصه الا بفضل الحرب التي تنشب عام ١٩٥٦ . وهنا يطرح ميجد على المسرح احدى الابقار المقدسة لدى المجتمع الاسرائيلي ويحاول أن يذبحها : لقد أنقذت الحرب البطل من الانتحار وأعادت اليه الاحساس بالانتماء : « ها ، ان الله كبير ، اي معجزة تلك التي حدثت فجاءت الحرب وانقذتني من الموت » (حادثة الابله ص ٢٢٦) . انها النغمة التي ما زالت تميز الاتجاه السائد في الادب الاسرائيلي حتى اليوم : الحرب هي الخلاص من كل المشاكل التي تواجه المجتمع الاسرائيلي ، وهي الخلاص بالنسبة للفرد وما يعانيه من ضياع وتمزق وانسحاق ؛ انها الوسيلة الوحيدة لصهر الجميع في آتون النيران ولبث الاحساس بالانتماء لديهم بعد أن يكون قد تعرض للفقدان .

ان الموقف الحقيقي لحرب سيناء واحتلال غزة عام ١٩٥٦ ينعكس في الكتاب في مرآة محدبة . ومرة اخرى تظهر المعايير الاخلاقية لحركة الشباب ، وهي المعايير التي ليست على استعداد للتسليم بالاحتلال وقتل الفدائيين ؛ وباسمها يسأل البطل ، عما اذا كان هناك مبرر أخلاقي للحرب الفعلية ولوجود اليهود في فلسطين ، وهي الاسئلة التي تتكرر كثيرا ، كما سنرى فيما بعد ، في أدب « الموجة الجديدة » ، الاسئلة التي تطرح كل القيم ، التي كان من المعتقد انه لا مجال للشك فيها ، ولا مجال لمراجعتها ، للمناقشة من جديد ، على ضوء الواقع المريع الذي بث الضياع والانسحاق في نفس الفرد الاسرائيلي ، لتناقضه مع ما ربوه عليه من قيم ومثل في حركات الشباب الصهيونية ، قبل ان يجبروه على خوض الحروب ، وقتل الابرياء ، وسلب الاراضي ، وطرد الاهلين من ديارهم .

وهنا تنطوي القضية الرئيسية على الموقف المتناقض في الوجود اليهودي ، وهو موقف الخير الذي يبنى بواسطة الشر(١). ان التناقض بين الرغبة في الانتماء وعدم القدرة على الاندماج ، نابع من التناقض بين قيم الماضي ، التي يحملها « الابله » الوحيد ، وبين قيم الحاضر ، التي يحملها المجموع . وهذا التناقض يتم حله في البداية بواسطة فاجعة قومية وأخيرا بمساعدة التجاء البطل وهروبه الى الحلم الاخضر لفلاحة الارض . وكلا

الحلين حلان وهميان والصراعات تبقى كما هي . ولكنها تعود وتظهر في تناسخ آخر في سلسلة الرمزيات في قصص مجموعة « الهروب » . فالابطال هنا هم صورة نموذجية للبطل الاسرائيلي المعتاد في الادب الاسرائيلي ــ تلاميذ حركة الشباب الاسرائيلي الذين يواجهون مشاكل وجودهم في حيرة ويعانون من الضياع . انهم يهتزون من الرحلة الى ارض « جومار » ، بلد النظام الشيوعي ، حيث يتعرض الابطال هناك لغسيل مخ في « برج عزمافت » أو يقيمون في السجن الداخلي المفتوح الذي يدخلون اليه طواعية ولا يمكنهم التحرر منه ، لان حياتهم مع النخبة تناسبهم . وكذلك يهربون في سفينة مــن الطوفان ويكتشفون أن حرب الجميع ضد بعض قد عادت وظهرت كذلك في سفينة نوح الصغيرة تلك . وأخيرا بطل ميجد ، الذي يسافر الى نيكارجوا لكي يتأمل مصادر معاداة السامية ــ ويدرك ان مصدرها أولا وقبل كل شيء في الكراهية الذاتية اليهودية ، وليس في كراهية الآخرين لليهود .

وعلى أي حال ، فان ميجد لا يتصارع مع المشاكل على مستوى انساني واقعي . ان الصراع الذي يعرضه هو صراع لشخصية « مجردة » مع التجرد . والسخرية (احيانا) توجه بالاشارة الى ان البطل القديم في العالم الحديث قد فقد اتجاهه ، كما ان هذا العالم قد فقد مغزاه . ومعايير هذه القصص لا تختلف في أساسها عــن معايير قصة « حدفنا وأنا » ؛ ولكن نظرا لان الموقف أكثر تطرفا ، فان الصراع بين المعايير والظروف هو الآخر اكثر تطرفا وقوة . ان البطل لا يضع بطله في محك الاحــوال الحقيقية (الواقعية) او الملموسة ، ولذلك فان الصراع بينه وبين المؤسسات ، والافكار وعادات المجتمع يبقى صراعا مجردا .

وهذه القصص مبنية على شكل حلقات ، بينما الشخصية الرئيسية تمــر بورطات المواقف المختلفة التي تمثل « افكارا » او تجليات لظاهرة اجتماعية . ان هذه الرحلات الى « المدينة البيضاء » الخاصة بالابله او الى أرض جومار والى نيكارجوا او الرحلة في سفينة الفارين من النكبة العالمية لا ترتبط ببعضها في حبكة روائية بل تبقى منفصلة على شكل سلسلة من الاعمال النموذجية . وكل فصل من الفصول يمثل عينة اخرى مــن الشريحة الاجتماعية او الفكرية ، التي يجعلها المؤلف تتصارع مع بطله . وهذا البناء هو بناء تعليمي الى حد كبير . لقد جاء لاعطاء درس، ولاستقاء عبرة ، ولتكوين رأي . وميجد يريد بواسطة اماطة اللثام عن ضياع تلميذ حركة الشباب الصهيونية وربكته وفقدانه لهويته ، ان يكون « دليلا للحائرين » في هذا العصر . انه لا يصوغ بعــد سيكولوجية الورطة بل يصوغ طابعها الاجتماعي ومغزاها الفكري . والصراع الذي يجــري بين المجردات هو من الاشياء المميزة ، في هذه الحالة ، لهذا « الانتقال » ، وذلك لان المؤلف (ربما على غرار بطله) لا يدرك بعد الواقع الجديد . والتكتيك السوريالي في المعالجة ليس نابعا من الوعي بالمشاكل او من الصدام الجديد مع الانطباع الديني ، بل من فقدان مغزى الماضي وانعدام الرابطة والاتصال الحقيقي مع الحاضر .

اذن فان القاص في هذه المحاولة يتحسس طريقه نحو علاقة مع الواقع الجديد . وهذا التحسس نحو هذه العلاقة الجديدة مع الواقع الجديد يظل لعبــة مع المجردات وصراعا مع الافكار عند ميجد ، الذي يمثل مرحلة الانتقال ، بينما نجد مثلا أنه يصبح مواجهة مع الواقع وليس مع الافكار ويأخذ بعدا جديدا ، في أدب ابراهام بن يهوشع أحد ابرز ممثلي أدب « الموجة الجديدة » . ان الرمزية السوريالية عند ميجد تخترع مواقف اجتماعية وتتعامل معها ، بينما نجد ان بن يهوشع مثلا يجعل من هذه المواقف مشكلة اجتماعية واضحة (قضية الحارس في مواجهة الغابات ــ التي سنعالجها فــي مقال منفصل) هي أيضا بمثابة اسقاط لمشكلة نفسية .

التنوير الهجائي

كان التنوير الهجائي الذي يقترب من السخرية هو من الاشياء المميزة لفترة الانتقال ، بحيث نجد أن الكثير من الكتاب قد انتهج اللهجة الهجائية في انتاجه ، بعد أن كان قد اختط لنفسه منهجا مختلفا منذ بداية دخوله هيكل الادب . ومن الامثلة على ذلك ، دافيد شحر الذي بدأ بالكتابة الغنائية الى حد ما ، التي تغلغلت في الاركان المظلمة والخاصة في احياء القدس — « عن الاحلام » (١٩٥٥) واتجه في نهاية الخمسينات الى الكتابة الساخرة (في سياق تجربته الادبية حاول العودة مرة أخرى الى نوع أدبي آخر) . وروايته « شهر العسل والذهب » (١٩٥٩) ليست من الكتابات الممثلة للعصر ولكنها عرضية الى حد ما : من وجهة نظر معينة تستمر هذه الرواية من حيث انتهى ميجد في « حادثة الابله » . ان حمقى ميجد يظلون مخلصين لشريعة الماضي ، التي هـي بمثابة شريعة حيـاة لمن يتمسكون بها . وحتى لو سلط سيف حاد على رقابهم ، فانهم لا ييأسون من القيم ، وعلى الرغم من المحن القاسية التي تمر بهم ، فان بلاهتهـم تبقى بمثابة حاجـز بينهم وبين عصرهم ، بينهم وبين الواقع الجديد المتناقض مع قيمهم البالية . ان « البطل القاص » عند دافيد شحر قد تخلص من نير « النبوءة » . لقد تحرر من النبوءات عـن « العالم الاخضر » أو من رغبة الانتماء . والبطل القاص لا يقف عند جو الفساد الذي تفشى في هذا المجتمع في نهاية الخمسينات ، بل يسبح في مستنقعه مثل الضفدعة ، ويجني المنافع. وتحكي الرواية حكاية شاب قضى ثلاثة أشهر في أحد الكيبوتسات ثم تركه ليذهب الى القدس ويتعلم في جامعتها . وفي القدس يقيم في منزل عمته ويسرق خاتمها لكي يقضي شهر « عسل » مع خادمة المنزل في فندق فخم ، من تلك الفنادق التي يتردد عليها أبناء الطبقة الراقية . وتنتهي هذه العملية بخيانته « للخادمة » حينما أتيحت له امرأة أجمل منها ، وتخونه هذه المرأة بدورها حينما تجد رجلا أيسر منه ماديا. والبطل في هذه القصة برفرف مثل الفراشة بين عوالم ثلاثة، يمثل كل واحد منها شريحة من الوجود الاسرائيلي: يوسفة — « الصهيونية » تلميذة حركة الشباب الصهيوني ، التي تمارس العهر كما لو كان واجبا قوميا ، وكاترين التي تبيع جسدها لكل من يطلبه ويدفع المقابل ، والتي تذهب في النهاية وراء ليون شبيتسماخر الى حيث توجد النقود — الى ألمانيا ، وسارة أنيت ، الغربية الارستوقراطية ، التي تجعل البطل يذوق طعم الحب الجسدي الشهواني المثير. وفي تنقل البطل القاص من سرير الى سرير ، يقوم بذبح كل الابقار المقدسة ويذبح كل مقدسات الوجود في الحياة الاسرائيلية : انه لا يدافع عن حياة الكيبوتس الوهمية التي يرى انها تشبه حياة الثكنة العسكرية (« شهر العسل والذهب » ص ١٦) ، ويكفر بالقيمة الاخلاقية للعمل اليدوي (ص ٤٠) ، ويتمرد على القومية اليهودية (ص ١٢٣) ، وينفر من العمل المكتبي المبهر (« الموظف زيرح تدريخ » ص ٧٩ — ٨٦) ، ويشمئز من السماسرة والوسطاء بشتى أنواعهم (شترويتمان وبرودسكي العجوز ، ص ١٦٨ — ١٦٩) . انه يرفض كل القيم التي قامت عليها الحركة الصهيونية ، والتي هي عماد الحياة الاجتماعية في اسرائيل . وشخصية البطل القاص تحاول ان تعوي مع الذئاب وأن تنحط مع المنحطين . والرواية في حد ذاتها أقل أهمية كعملية تفكـير منهـا كظـاهرة اجتماعية ثقافية تميط اللثام عن مراحل الانتقال الايديولوجية والادبية البنيوية من الادب الجاد (تبعا لمعايير الالتزام التي تضفي عليه صفة الادب المجند) القاطع في تقديراته الخاص « بجيل البلاء » الى الفترة الحديثة ، التي فقدت يقينها وارتكازات ثقتها واصبحت لا تعرف ما هو الحق وما هو الكذب . ان شحر يرفض بالفعل شخصية فليكس كارول الاسرائيلي ، الذي يرتقي الى اعلى درجات السلم الاجتماعي الاسرائيلي ، كما يرفض المجتمع الذي يفتح أبوابه أمامه . وهذا الجمع بين الفاسد والمدمر للفساد ، الذي يكيل

للمجتمع بالكيل الذي يكيل به المجتمع ، هو من الامور المميزة للكتابات الادبية في أوقات الازمات . وتلك الشخصية الآخذة في التحرر من أي صلاحية ومن قيم المجتمع الاسرائيلي (على عكس « الابله » الذي يمسك بهذه الصلاحية كامساك الغـــريق بالقشة) هي شخصية مميزة للتحول الذي سبق « الانتقال » وأتاحه .

ان الانتقال من جيل الى جيل يحدث اذن في البداية في أدب « جيل البلاد » . ففي « أيام تسيكلاج » يثور المؤلف بواسطة الافكار التأملية لابطاله ضد القيم التي تظهر في أعمالهم. وفي « لأنك عار » تتمرد « الأنا » ضد قيم الجماعة باسم « مبدأ الأنا » دون ان تصل الأنا الى بعث ذاتي جديد . ويحطم ميجد الادوات الادبية ويبني ابنية جديدة عصرية ، لكي يضع بطله المرتبط بالماضي في مواجهة مواقف الوجود المعبرة عن الافكار المختلفة ، التي تعكس الواقع الاسرائيلي الجديد بكل تخبطاته .

ودافيد شحر ، على عكس ميجد ، وشامير ، ويزهار ، يخلق بطلا يصارع المجتمع بوسائل المجتمع : ان ما يفسده المجتمع يقوم هو بافساده أيضا . ولكن المؤلف على الرغم من اشمئزازه من الواقع الموجود ، فانه لا يثور عليه ولا يعرض الواقع الذي يود رؤيته. ولذلك فان انتاجه يعطي تعبيرا عن البلبلة والضياع وعن فقدان الاتجـــاه في الصياغة الساخرة للعالم .

فنحاس ساديه و « الحياة كمثال » :

لقد دخلت « الموجة الجديدة » الى الادب الاسرائيلي من ثلاثة مداخل اخرى : بالتأكيد المتطرف لمبدأ الأنا ، وبالالتجاء الى ذكريات الطفولة المرتبطة بعالم يهودي آخر ـــ عالم ما قبل الفترة التسبارية ، وبصياغة الاركان المظلمة في المجتمع ، التي لا تقف في مركز الحياة الاجتماعية بل في اطرافها وتتيح عرضا لشخصيات فريدة . ومن الكتب المهمـــة الممثلة « للموجة الجديدة » كتاب فنحاس ساديه « الحياة كمثال » . ان هذا الكتاب هو كتاب اوتوبيوجرافي يشكل نقيضا حادا للبيوجرافيا النموذجية لابناء « جيل البلاد » . ويقول فنحاس ساديه في مقدمة روايته ، لتأكيد الطابع الخاص لهذا الانتاج الادبي : « ان هذا الكتاب هو عن ذاتي ، وعن انسان منعزل ، يعيش مخفيا وجهه ، في صمت ، ويرتدي ملابس رمادية . وأنا أحاول ان اكتب هذا الكتاب (حسب قول عالم الاسرار) ليس وفقا لرؤية الاشياء ، بل وفقا للروح والمفهوم . وانا احاول أن أكتبه ليس بواسطة الفـــن المزيف للمثقفين ، بل بواسطة فن السخط واحساس القلب ، والدموع ، والدعـــابة والاشواق ، والقلق والذعر . انني أكتب عن الحياة كما لو كنت أكتب عن مثال ، عن حلم » . وكتب كذلك يقول : « اذن فانني لا أتحدث عن أي شيء خارج نطاق التجـــربة الداخلية خارج الروح ، وخارج كينونة وجود الفرد ـــ ولست أتحدث عن مجتمع ، وعن علاقات ، وعن تاريخ ، وعن حكمة حياة ، وعن الآلهة ، وعن كلاب جهنم . لقد وقعت الحروب وتوقفت ، وأثارت أعمال الدولة الغبار ثم كنزت ، وما تبقى فقط هو لغز الحياة الشخصية ، الذي لا يتكرر ، حياة الانسان الفرد في مواجهة الرب الواحد . لهم مخصص كتاب « الحياة كمثال » ، ١٩٦٨ ، الطبعة الاولى : ١٩٥٨ ـــ ص ٤١٤ .

اذن فالادب ، حسبما يحدده ساديه ، ليس من وظيفته أن يعرض هذا الواقع أو عمل الابطال في المواقف الاجتماعية ، بل وظيفته هي التعبير عن الفرد . والمبدأ الفردي يختلف اختلافا تاما عن وجهة النظر الاجتماعية التي تتجلى على سبيل المثال في « المانيفست » الادبي لجماعة « جيل البلاد » (« مع جيلي ») الذي طبع في « حقيبة الاصدقاء » ، والذي أشرنا اليه في مقالنا عن أدب حرب ١٩٤٨ (شؤون فلسطينية عدد ٩) . ان هذا المانيفست الشخصي قد كتب من خلال احتقار عميق الى حد ما للقارىء المحتمل (ص ٤١٥ ـــ ٤١٦)

ذلك البورجوازي الصغير ، الذي يريد المؤلف ان يفاجئه باعترافاته ، ويعرض أمامه حياته النفسية كنقيض لحياته المنظمة ويثبت حق الفنان في أن يعيش — بكتابته . ومن الناحية الثقافية هناك مسافة شاسعة بين فنحاس ساديه وبين رجال « جيل البلاد » . انه يعود في بعض الموضوعات الى المصادر الثقافية للادب العبري في جيل بياليك . وما اخذه كل من برينر وبرديتشفسكي ملء حفنتيهما من نيتشه ، أخذه ساديه هو الآخر . وعلى غرار انجذاب برينر الى شخصية يسوع وطرحه لمواقف مشابهة لتلك الواردة في « العهد الجديد » ، فعل ساديه ذلك . انه يؤكد أنه في طفولته قد جذبته الكنيسة (ص ٢٣) ، ومنذ ذلك الحين وهو يستوعبويفسر حياته بواسطة الاساطير المستقاة من « العهد الجديد » .

ان الاعتراف الاوغسطيني — الذي يتحرك بين الخطأ والتوبة ومن التوبة الى الخطأ، ومن نيران جهنم الى نعيم الحب السماوي والسعادة — هو اعتراف مسيحي في مضمونه : ان ساديه يشمئز من خطاياه ويستمتع بها ، ويشتاق الى الحب السماوي ويفسر حياته كتحقيق لرؤى من العهد الجديد . ان اصدقاءه اليوشه وماريان ليسوا الا صورا متناسخة من اليعازر الفقير وتولاعت يوحنا (سراج الليل) ؛ ولندن هي القدس الجديدة وباريس هي بابل المدينة الخاطئة . وفي أيام الحرب نفسها (حرب ١٩٤٨) يظهر له تمثال العذراء ويسبب له شعورا دينيا وانارة روحية (ص ١٦٨ — ١٦٩) . وفي اثناء المعارك ينفعل بصورة خاصة من راهبة فرنسية تقرأ في الكتب المقدسة بترنيم خاص بينما المدافع تهدر (ص ١٧٢ — ١٧٣) . ويبدو بالذات ، ان هذا التناقض الذي بين جو حرب ١٩٤٨ والتجلي الديني ، هو الذي يكشف تلك الهوة العميقة التي بينه وبين رفاقه من ابناء « جيل البلاد » . ان المبدأ الفردي لا ينساق وراء الاحداث ويصوغها ، بل يقف خارجها ويفرض طابعه عليها (وليكن هذا الطابع كيفما يكون) . والاوتوبيوجرافيا ليست وصفا لما يحدث وما يجري في حياة الانسان الخارجية ، بل هي وصف لمشاعره الدينية . ومن يدرك فقط هذا الفارق بين « الاجيال » (او من الاحسن ، ان نقول ، المدارس) يمكنه ان يدرك الفارق بين اوصاف الحرب عند ساديه وأوصافها لدى رفاقه. ان المراحل الخارجية للاوتوبيوجرافية لا تختلف كثيرا عن قصة حياة موشى وولف ، بطل « الحساب والنفس » لحانوخ برطوف (١٩٥٣) — على الرغم من بعض الفروق البيوجرافية . ان محطات حياة فنحاس فيلدمان هي : لامبورج ، ومجديئيل ، وتل ابيب، وتل لتفينسكي ، وشاريد ، والقدس ، ولندن ، وباريس ، ومرسيليا ، وطبرية ، والقدس . ولكن هذه المحطات لا مغزى لها ، وذلك لان المعترف لا يحاول ان يصف « المحطات الجغرافية » في التطور بل « طريق الآلام » الذي مر به .

ومن ناحية أخرى فان هذا الاعتراف هو اعتراف رجل بالغ يحكي وفق طريقته الخاصة عن مراحل مختلفة في بلوغه وطريقه هو « طريق الآلام » الخاص بابن أسرة مهدمة ، طفل منعزل ، ومنطو ، يريد ان يكون مريضا او مجنونا ؛ ولا يستطيع أن يندمج في الحياة « المدنية » ويتعيش من أي شيء يصل الى يديه . و« طريق الآلام » هذا مليء باللقاءات مع النساء . وهناك من النساء من يرفضه (مثل ياعيله) ، وهناك من يقربنه اليهن (مثل عيده وصفا) . وكل لقاء مع احدى النساء يختلف عن غيره . ان سارة لا تشبه آيلة ولا تشبه آيلة ابيجيل وثلاثتهن لا يشبهن التي تزوجها لفترة قصيرة من الزمن . وما هو مهم في طريق الآلام والحب ليس هو اللقاء مع النساء . ان هذا الطريق ليس طريق آلام وحب لدون جوان في جهنم او في السماء . ان هذه عبارة عن تناسخات للبطل في هذا العالم ، هو في الوقت نفسه بطل في علم النفس . وخطوات حياته الخارجية والداخلية ليست مستشقة . وعلاقاته مع النساء ليست « حياة » بل « مثال » . ان

بعلة وآيلة هما ظواهر مختلفة من الحب السماوي ، الذي يحاول البطـل احيانا ان يشوهه وان يحققه وفق طريقته وفي علاقته به يمر بمشاعر عميقة من الخطأ والندم ، والخلاص والصفح . وعيدة ، وصفا وأبيجيل هن ظواهر مختلفـة « لبنات الارض » والبطل بواسطتهن يقيم علاقة مقدسة نحو الخطأ والارض . ان النساء لسن موجودات في حد ذاتهن وهن تفسير ومثال لحياة البطل القاص ، وهن كومـات نيران في جهنمه الشخصي او مراحل في السلم الواصل الى الارض او الى السماء . والقاص البطل هو شاعر ، وشعره وحياته هما من قطعة واحدة : الشعر نابع من الحياة والحياة هي بمثابة شعر وكل فصل من فصول حياته هو مصدر آخر يستقي منه شعره . وكما ان حياته متشابكة مع شعره ، فان الحلم والواقع فيها يستخدمان في تداخـل . وهذا التداخل الغريب للتجربة الانسانية ، والاحلام ، والتأويل النبوئي والغامض ، والشعر والمواعظ الدينية يكشف « الأنا » وعالمها وهو تداخل ذو تعبيرية هائلة القوة .

وقد كان تقدير « الأنا » في انتاج ساديه ، وهو الانتاج الرومانسي روحا والتجريبي من حيث التعبير ، بمثابة تجديد مطلق في أدب الجيل الفتي في اسرائيل .

« قيصر » ودافيد شحر

وقد اتجه دافيد شحر ، الذي يعتبر منتميا الى « جيل البلاد » من حيث العمر ، ويعتبر رجل فترة الانتقال من حيث طابع انتاجه الادبي ، الى منحى آخر . ففي « شهر العسل والذهب » حاد عن الطريق الذي بدأ به في « عن الاحلام » وانتقل الى النقد الاجتماعي الساخر . وفي « قيصر » (١٩٦٠) عاد الى الكتابة التجريبية البيئية المميزة له . وانتاج شحر يتحرك بين الشوق الى الذكريات وبين عرض « لا بطل » جديد ، يبحث له عن « اله » صغير خاص به . اما ساديه فقد كان يبحث عن « اله كبير » في الحقول الاجنبية وفي ثنايا النفس . وقد عرض شحر شخصيات صغيرة ، لا تصبو الا الى اطار صغير من الحياة ، يكون كله ملكا لها . وهؤلاء الابطال هم على هامش المجتمع وليسوا في مركزه ، أبناء الاحياء الاورشليمية (وفي غالب الاحيان آباء وليسوا أبناء) وليسوا من أبناء حركة الشباب الذين يعيشون في الدائرة التي خلقتها الظروف لهم (الكيبوتس ، والجيش .. الخ) . والمكانة الضئيلة « للبطل » الادبي عند شحر تتضح بصفة خاصة في شخصية « يائير » بطل قصة « قيصر » (التي على اسمها سميت المجموعة القصصية الصادرة عام ١٩٦٠ والتي تحتل القصة نحو ثلثها) . انها شخصية برينرية (نسبـة الى حييم برينر) لانسان منكود الحظ ، يعيش على هامش المجتمع ويفشل في كل شيء ، ولكن فشله يخفي بين طياته نجاحه . وانجازاته المتواضعة في حرب الجميع ضد الجميع ، في مقابل النجاحات الهائلة التي يحققها أخواه اليعازر وعاموس، هي التي تمنحه انفراديته، و« كلب الشوارع » ليس الا « القيصر » الحقيقي ، الذي لو شاء لحصل على « شنهاب » فتاة أحلامه . ولكنه يمنع نفسه من الخير طواعية ، ويفضل الاخلاص لاخيه رفيقه ـــ عن « النجاح » الوهمي . وقوة المنكود الحظ تكمن بالذات في التخلي عـن اي ملكية او قضية . وبفضل هذا التخلي فقط يتحـرر من تلك المعايير التـي تحدد ان النجـاح « الاجتماعي » هو الغاية التي يصبو اليها الانسان . وقد تجلت وجهة النظر هذه كذلك في قصة « موت الاله الصغير » (التي طبعت في مجموعة حملت هذا العنوان عام ١٩٧٠ ـــ دار نشر شوكن) . لقد تحول بطل القصة « الاله الصغير » من عالم ناجح الى باحث عن الرب ، أبعد عنه كل معارفه وأصدقائه الى أن مات موتا مفاجئا وغامضا .

والشخصية الثانية التي تظهر في هذه المجموعة (وفي سائر مجموعات شحر) هي شخصية ابن اليشوف القديم ، الذي يختنق في بيئته ويحاول أن يقتحم اطاراتها ويبيح المحظورات . وفي قصص مثل « عن الخطايا الصغيرة » و« بينيك يطلب يد الفتـاة

ديمون » و « العجوز وابنته » يواصل دافيد شحر تقاليد القصص التي تدور عن الصدام بين الغريزة والقانون في حياة اليشوف القديم في فلسطين . وهذه التقاليد لها بالطبع جذور في الادب العبري الاوروبي ، وعلى الاخص في قصص ميخا يوسف برديتشفيسكي. ان ابطال شحر يريدون قطع الحبل الاجتماعي والثقافي المربوط حول رقبتهم : لذلك فان هناك منهم من يخونون زوجاتهم وهناك من يهربون الى ما وراء البحار . وكل من الخائنين والهاربين يريدون حياة جديدة . والمؤلف (بواسطة بطله القاص) يضيء هذه الشخصيات بضوء ايجابي، على اعتبار ان التمرد هو الطريق الوحيد الذي يتيح للانسان امكانية الوصول الى ذاته .

وفي قصة « قيصر » التي تسمى باسمها مجموعة قصص شحر ، توجد حبكة روائية اولية يطرح فيها المؤلف شخصية منكود الحظ ملبر والناجح ملجو. وفي هذه الحبكة يتخلى البطل عن زوجة اخيه (حسب الشريعة اليهودية من المفروض ان يتزوج الاخ زوجة اخيه بعد وفاته) ، وهنا تنتقل الروابط الاجتماعية الى مجال العلاقات بين كلبين : ان نجاح يائير لدى شنهاب يخضع للتنوير من وجهة نظر نجاح الكلب قيصر لدى كلبته مولى كلبة شنهاب ، ويتم تنوير التخلي كذلك هو الآخر بواسطة المقارنة . فكما ان يائير قد تخلى عن شنهاب وسجن (حسب الشريعة اليهودية يسجن من يتخلى عن أرملة اخيه وتقوم ارملة اخيه بخلع نعله والبصق على وجهه ، ويسمى بيته بيت مخلوع النعل) ، فان الكلب قيصر هو الآخر يتم تسليمه طواعية لمقر سجن الكلاب (ص ١٦٣ — طبعة ١٩٧٠ ضمن مجموعة « شارب البابا ») .

وفي « عن الخطايا الصغيرة » نجد العالم وهو في حالة تنوير من وجهة نظر فتى يتذكر زيارته لبيت عمه زيرح ، الذي كان وحيدا وفريدا ومختلفا عن كل سائر أقاربه . وفي الفصول الاولى من القصة نتابع ذكريات الفتى الذي يصف الجو العام في حوش عمه والعلاقات التي بين العم وزوجته وأبنائه (مجموعة « قيصر » ص ٨٥ — ١٠٢) . وفي الفصول الاخيرة تصبح زاوية الرؤية اكثر موضوعية (١٠٣ — ١٢٠) حيث يحكي حكاية العم دون أن نشعر بوجهة نظر الفتى . فبداية القصة عبارة عن زخرفة نصف سلوك الابناء المختلفين ، الذين يحلون مشاكلهم كل حسب طريقته . وفي سياق القصة وفي نهايتها — يصف خيانة العم لزوجته . وهنا لم يجد المؤلف توازنا صحيحا بين الاسس « الخاصة بالذكريات » وبين البناء الوجودي .

وهذان الاتجاهان المميزان لقصص شحر : الشحنة الخاصة بذكريات الطفولة والحاضر من ناحية ، والرغبة في تنظيم هذا العالم وتفسيره من ناحية ، مميزان لهذه المجموعة ولمعظم قصص المؤلف ، التي تمتاز بلهجة ساخرة حزينة وأصيلة الى حد ما ، وهي اللهجة التي نلمسها كذلك في « هيكل الادوات المحطمة » (١٩٦٩ — دار نشر الكيبوتس الاقليمي الفتي — تل أبيب) . وهذان الاتجاهان ، هما اللذان اقتحما حدود « الآن وهنا » المميزة للغاية لادب « جيل البلاد » . لقد بدأ أدباء « الموجة الجديدة » في الالتجاء الى مصادر جديدة لكي يجدوا لانفسهم ركيزة جديدة . ومن الممكن ان نجد نماذج كثيرة ممثلة لهذا الاتجاه في « مرحلة الانتقال » لدى كثيرين من الادباء الذين مهدوا لظهور « الموجة الجديدة » ، وخاصة ي. كينز ، وبنيامين تموز وحانوخ برطوف ويتسحاق اورباز ، وأهارون أمير وغيرهم ممن يظهر لديهم بوضوح المزج بين عالم الذكريات الطفولية وبين عالم الغرائز .

اللغة ، الشجر ، الدم

علي الخليلي

إذا انفطرتْ قُبّراتُ البلادِ البعيدةِ صوتاً يوحِّدُه
العشقُ والوجعُ الصَعبُ ، كانت بلادُكَ تحت
لساني مرارةَ أنْ يبزُغَ الصوتُ ، تَنْبجسُ العينُ ،
مأثرةً ...
كلما عاشرَ الفقراءُ الصعاليكُ حُزني ، وثوّرَني
في الزمانِ البخيلِ مخاضٌ ، أشدُّكَ جذْعاً ،
فتخذُلُني . كلما سَقَطتْ مُدُنُ الوهمِ ، تَنْهَدُ بي
ملكاً من جديدٍ ، تعلّلُني بالسلامةِ ...
آنَ ابتدأتَ ، انتهيتَ .. المدائنُ عاقرةٌ ،
والتواريخُ ، خُضتُ إليكَ مضائقَ ظنّي ، الجنونَ ،
المشانق .. لا جذوةٌ في المقابرِ .
آنَ الغزالةُ مذبوحةٌ ، جثةٌ فلّعتْها المهاجعُ .
آن انبذرتُ لأعناقِ رفِّ العصافيرِ ، جائعةً ،
دونها عُنُقي ، نقّرَتْ في العيونِ ، الضياءَ الوحيدَ ،
البــذارَ ...

لماذا تمزّقُ رفَّ العصافير ، تحبلُ بالموت ..؟!
إنيّ أقيءُ الموانىءَ في لحظةِ القمع ، والمدُن القاتلات ،
أبارحُ خوفَكَ ، جيفتَكَ ، الردّة ، السُبُلَ الموصَدهْ .

فَرّتِ الرومُ ..؟! إنّكَ لم تحصد الزرعَ !
أقبَلت الرومُ ..؟! لم تأتمنّي !
تَضِرُ ، وتُقبلُ ، تُقبلُ ، تُقبلُ ...

هذا المدارُ القديمُ ، القديمُ ،
لماذا تكرّرُ وحلَ الأساطير ..؟!
تنزعُ جلدي خرائطَ زيفٍ ومهزلةٍ للبلادِ الشهيدةِ ؟!
هـا ... ملحماتِ المذابح ،
لا تُنقذي في الكواليس رأسي !
وفي سقطاتِ الذراعِ البليدة ...
مُتّهمٌ وجعي الصعبُ ، عشقي ، مخاضي ، الجنونُ ، المشانقُ ...

« ليلى » تغادِرُ « قيساً » وراء الظنونِ ،
وتنفضُ ذاكرة البيد ،
تسحبُ منديلها الأبيضَ المستكين على مُقلتيهِ ..؟!
وتنكرُه ..؟!
والقبائلُ تَنْظِمُ أنسابها في العصورِ الكسيحةِ ،
تقرأ وَجْهَ السُطوحِ ،
وترقُدُ .. لا فضةٌ أمطرت في المداخلِ ، لا ذَهباً ..
أو عناقيدَ حُزنٍ أصيلْ .

يُداهِمُها المستحيلْ ..؟!
تكرّسُ ميراثها للرياحِ ..؟!
وفي قاع جمجمتي ، الخيلُ تصهلُ ، حيناً ،
وتندفعُ الخيلُ ، حيناً ..
تجوسُ المحيطاتِ ، يُنْبىءُ عنها الذينَ تبعثر
في الطرقات ، المنافي ، السجونِ البلادِ الشهيدة ،
دَمُهُمُ ، شجراً ولغات .

بيت الجنون : مسرحية فلسطينية رائدة

ريتا عوض

عندما ندرس الادب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني فنحن لا ننظر اليه من حيث هو ظاهرة منقطعة عن التيار العام الذي انصب فيه الادب العربي الحديث ، بل من حيث تكونه داخل الاطار الذي يحتضن الادب في الاقطار العربية الاخرى . لكن عاملا مغايرا للعوامل التي يتألف منها الادب العربي الحديث قد يدخل ، احيانا ، في بنـــاء الاعمال الادبية الفلسطينية تحت الاحتلال ، وهو تأثر هذا الادب بالجو الثقافي العام في فلسطين المحتلة ذاتها .

لعل هذه النظرة الشاملة تساعدنا على تعليل بعض الظواهـــر الادبية في فلسطين المحتلة ، فندرك مثلا علة تقدم شكل من اشكال التعبير الفني على الآخر . ولا أتحدث هنا عن القيمة الفنية للاعمال الادبية لان الادب الفلسطيني ، برأيي ، لم يدرس بعد دراسة جدية تحله مكانه الحق بين الاعمال الادبية في العالم العربي . لكنني اقصد التوجه الى شكل من أشكال التعبير الفني دون الآخر . فالاعمال الادبية التي وصلتنا مـــن الارض المحتلة ، كانت في معظمها شعرا . ولم يبلغنا سوى عدد قليل من الروايات والقصص القصيرة . ولا أعرف سوى عمل فني واحد في مجال المسرح هو مسرحية توفيق فياض(١) **بيت الجنون**(٢). ولعل أحد أسباب اندفاع الادباء العرب في فلسطين المحتلة الى التعبير بالشعر هو أن حركة الشعر الحديث في العالم العربي كانت اكثر الفنون الادبية تبلورا لما يدعمها من تراث شعري عريق . بينما ظلت الرواية والقصة القصيرة اقل تبلورا . أما المسرح العربي فما زال في بداية البداية .

يهمني في هذا المجال أن أدرس هذا العمل المسرحي الفرد الذي وصلنا من الارض المحتلة . أن العرب في فلسطين يعانون فقرا مؤلما في مجال الفن المسرحي ، حتى انهم لا يملكون مسرحا . ولا يصعب علينا أن ندرك السبب في ذلك . فالسلطات الاسرائيلية لا يمكن ان تسمح ببناء مسرح عربي يغدو مركز تجمع يلتف فيه العرب حول اعمال فنية تدين الاحتلال الصهيوني وتدعو الى المقاومة . وقد أحس المواطنون العرب في ظـــل الاحتلال بافتقارهم الى المسرح . يقول توفيق زياد : « ان الاقليـــة العربية لا تملك مسرحا ... هذه هي الحقيقة المرة ... وهذه هي احدى وصمات العار المختلفة في جبين الرجعية الحاكمة ، واصحاب سياسة الاضطهاد القومي الذين يعرقلون ، وينظرون بقلق وعدم رضا ، الى كل خطوة الى أمام يقطعها المثقفون العرب في اسرائيل ، في مجال الابداع الفني والثقافي ، وذلك اثباتا لنظريتهم القائلة ان العرب شعب قاصر فكريا »(٣) .

أضف الى ذلك ان المسرح الاسرائيلي نفسه يعاني « أزمـــة في الموضوع والتعبير الفني »(٤) على حد تعبير توفيق زياد ، فينتفي وجود تجربة مسرحية يفيد منها الاديب والفنان العربي في ظل الاحتلال . لكن المسرح الاسرائيلي يقدم من حين الى آخر اعمالا مسرحية عالمية ، او تزور البلاد فرق مسرحية اجنبية(٥)، الامر الذي يتيح للمثقف العربي أن يعيش أحيانا في جو مسرحي . ولعل مسرحية توفيق فيـــاض **بيت الجنون** كانت ،

الى حد بعيد ، وليدة لقاح بين تجربة فياض الذاتية والقومية في ظل الاحتلال وما يدعم هذه التجربة من رواسب صورية تراثية في لاوعيه وبين تجربة فنية وفرها له ذلك الجو المسرحي في الارض المحتلة . وقد وجدت فيما قمت به من بحث حول هذا الموضوع ان توفيق فياض شاهد في فلسطين المحتلة مسرحية برازيلية بعنوان **ايدي يوريديس**(٦) قبل كتابة مسرحيته **بيت الجنون**(٧).

وقد اهتممت هنا بالبحث عن المؤثرات التي أرجح انها وجدت صدى في نفس توفيق فياض وظهرت في **بيت الجنون** لان هذه المسرحية ، كما يبدو لي ، عمل ادبي متفرد ليس في الادب الفلسطيني فحسب بل في مجال المسرح العربي . ولا يعني تأثر فياض بمسرحية برازيلية انه « سرق » او « نسخ » او « حاكى » . بل ان صورا ادبية معينة عبر عنها بدرو بلوخ في **ايدي يوريديس** ايقظت مثيلات لها في اعماق لاوعي فياض وتجسدت عملا فنيا جديدا يحمل صورا مشابهة او معادلة للصور التي يحملها العمل الفني الاول .

من هنا يمكننا ان ننظر الى الاعمال الادبية في انحاء العالم جميعا على مر العصور ليس فقط من حيث امتدادها عموديا في الزمان بل من حيث امتدادها افقيا في المكان . لان صورا معينة تتكرر في الاعمال الادبية الكبرى في كل مكان وكل زمان فتشكل اطارا يضم في داخله الادب . واذا تساءلنا عن سبب تكرار هذه الصور وجدنا انهـــا حقائق نفسية انسانية هاجعة في اللاوعي الجماعي اطلق عليها العالم النفساني كارل غوستاف يونغ اسم النماذج الاصلية . وقد وجدت هذه النماذج الاصلية تعبيرا عن ذاتهـــا في صور حضارية مختلفة عند الشعوب جميعا منذ فجر التاريخ وما زالت تتكـــرر في الاعمال الادبية الكبرى حتى اليوم . لذلك يهدف النقد الادبي الذي يعالج النماذج الاصلية الى كسر طوق الزمان والمكان اللذين يغلفان العمل الادبي ويحددانه ، فينطلق النقد بالعمل الادبي الى ذرى انسانية عندما يكشف ارتباطه بالحقائق المطلقة التي تختزنها النفس الانسانية .

يقول يونغ انه كما تترسب تجارب الفرد في لاوعيه الفردي تترسب التجربة الانسانية العامة في اللاوعي على مستواه الجماعي . وتظهر الرواسب الصورية الفردية في الحلم بينما تظهر الرواسب الصورية الجماعية في الاسطورة . من هنا كان حلم الفرد اسطورة الجماعة . وكلما عمق الاديب تجربته ووسع رؤياه غاص في اعماق اللاوعي واستطاع ان يبلغ الى حقيقة النفس الانسانية الكلية ويكتشف النماذج الاصلية . وتكتسب النماذج الاصلية في طريقها الى العبارة خصائص تلتقطها من المستويات المختلفة للاوعي ، وهي كما عددها يونغ : المستوى العرقي والقومي والقبلي والعائلي والفردي . فيظل العمل الادبي يحمل خصائص ذاتية محلية بالاضافة الى خصائصه الجماعية الانسانية . وهذا أحد الادلة على اصالة العمل الادبي .

وقد أصبح اليوم ما يدعى بالنقد الاسطوري او النقد النموذجي الاصلي مـــن أهم المناهج النقدية في العصر الحديث . ويعد الناقد الكبير المعاصر نورثروب فراي في كتابه **تشريح النقد** من أبرز مشرعي هذا المنهج . وقد عرف فراي الادب بأنه اتحاد الطقس والحلم في صيغة كلامية مستفيدا بشكل خاص من غريزر ويونغ .

لعل هذه المقدمة كانت ضرورية من حيث هي تمهيد لدراسة **بيت الجنون** . ولعلنا الآن نفهم لماذا لم تكن **بيت الجنون** تقليدا او نسخا **لايدي يوريديس** . فقد استطاع توفيق فياض ان يصهر تجربته الذاتية والقومية في التجربة الانسانية الكلية ، فكانت مسرحيته صورة لمأساة الانسان الفلسطيني في وطنه المحتل كما هي مأساة كل انسان . لذلك كان فياض اصيلا : لم يستعر تجربة غيره بل استطاع ان ينبه نماذج اصلية هاجعة في لاوعيه

وان يكسبها خصائص قومية محلية . فغدا عمله الادبي عينيا مطلقا يضرب جذوره في الواقع الحاضر ويتطلع الى الافق الانساني البعيد .

تتألف مسرحية توفيق فياض القصيرة من فصلين ، وهي مونولوج ، اذ تدور حول شخصية واحدة هي سامي مدرس الادب والتاريخ . ولعل عنوان المسرحية يحمل دلالة كبيرة . فالجنون موضوع ذو اهمية خاصة في تاريخ الحضارة الانسانية ، وجد التعبير عن نفسه منذ الحضارات البدائية حيث كان للكهان والاطباء المشعوذين الذين ادعوا القدرة على الاتصال بالقوى الغيبية اهمية خاصة وكانوا يسمون بالمجانين . كذلك أعلى الاغريق من أهمية الجنون فعده افلاطون في كتابه **فيدراس** هبة من السماء فكان جنونا الهيا . كما عرف التراث العربي عددا كبيرا من المجانين حتى تجسدت هذه الصورة في اسطورة مجنون ليلى الذي اصبح فيما بعد — في الادبين العربي والفارسي — رمزا للمتصوف الذي يبحر بروحه الى دنيا الله وتفنى ذاته الصغرى في الذات الكلية الكبرى، ويخلق لاوعيه عوالم خارقة يرفضها المنطق . وظلت صورة المجنون تتكرر في حضارات مختلفة وعصور متباينة حتى وجدت التعبير الامثل عن ذاتها في العصر الحديث في الحركة السريالية التي ظهرت في فرنسا بعد الحرب العالمية الاولى . فقد رأى السرياليون ان المجانين — وهم المنحرفون عن الحقيقة الخارجية — يعرفون عن الحقيقة الداخلية أكثر مما يعرف العاقلون ، وهم يستطيعون ان يكتشفوا للعاقلين حقائق لا يمكن النفاذ اليها بدونهم . وجعل السرياليون للجنون أعيادا فاحتفلوا عـام ١٩٢٨ باليوبيل الذهبي للهستيريا .

كانت مسرحية توفيق فياض بيتا للجنون لان الشخصية الوحيدة فيهـا ، سامي ، يعيش وحيدا في ظل كابوس مرعب ، لذلك فهو يحاول ان يهرب من عالم الواقع الفاسد الى عالم ما فوق الواقع الذي يبنيه لاوعيه . ويتحول تداعي الكلام تداعيـا حرا الى هذيان يجسد مأساة سامي فيعانق الماضي والحاضر والمستقبل . وتفوّر رؤياه نماذج أصلية مختزنة في أعماق لاوعيه فتخرج أساطير كررها الانسان في كل مكان عبر العصور. من هنا كانت هذه المسرحية اقرب ما تكون الى القصيدة : فالشعر — كما يقول اليوت — يميل نحو الدراما والدراما تميل نحو الشعر .

تعبّر **بيت الجنون** — من حيث البناء والرمز — عن اسطورة الموت والانبعاث ، وهي الاسطورة الاساسية في تاريخ الحضارة الانسانية . فقد ظهرت في الديانات الوثنية في المناطق المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، فكانت شخصيات تموز وأدونيس واوزيريس وآتيس صورا مختلفة للاله الميت المنبعث . كما لعب اورفيوس عند الاغريق — بهبوطه الى العالم السفلي وصعوده ثانية — الدور ذاته الذي لعبه اله الخصب الميت المنبعث . وقد أكدت المسيحية اهمية نموذج الموت والانبعاث فجسدت حقيقة انسانية مطلقة هي توق الانسان الى اكتساب الحياة الابدية وأعطت قيامة المسيـح أملا بالانبعاث لكـل انسان .

ولعل الاله الذكر لا يلعب الدور الاساسي في اسطورة الموت والانبعاث ، فتغدو الالهة الانثى ، امه ، حجر الزاوية في البناء الاسطوري ، وتكون في الوقت نفسه عروسا له . ويكون العشق محورا ترتكز اليه الاسطورة : فيتصل الاله الذكر بالام العروس ويخصبها فيتم فعل الخليقة وتخضر الحياة في العرق الذابل . وتظل المراة الرمز المحوري في الصور الحضارية المختلفة : فتلعب العذراء مريم ام المسيح دورا أساسيا في الدين المسيحي ، ويتخذ المتصوف المسلم صورة المراة رمزا لله ، ويفني جسده في التوق اليها ، لتتوهج روحه وتسمو اليها وتفنى ذاته في ذاتها . فكانت ليلى صاحبة قيس بن الملوح ، ولبنى

صاحبة قيس بن ذريح رمزا لله المعشوق ، وكان العاشق مجنونا ينتصر لاوعيه على وعيــه .

يلاحظ دارس **بيت الجنون** ان هذه الرموز جميعا تتكرر في المسرحية ــ القصيدة . ولعل اصالة توفيق فياض تتبلور في استلهامه الرموز في صيغتها العربية من حيث هي العمود الفقري لعمله الادبي . فكانت لبنى حجر الزاوية في البناء المسرحي . ولم يكن الرمز المحوري في **بيت الجنون** بسيطا يمتد في بعد واحد ، بل استطاع فياض ان يصهر التنويعات المختلفة للرمز الواحد في جوهر الصــورة المحورية . فكانت ايزيس اخت اوزيريس وعروسه ، وعشتروت ام تموز وعروسه ، والعذراء مريم ام المسيح وعروسه تنويعات مختلفة على حقيقة جوهرية واحدة هي لبنى عروس سامي وصورة امــه . ويدمج فياض الاسطورة الاساسية للموت والانبعاث بتنويع آخر عليها هو اسطورة الارض اليباب. وتروي هذه الاسطورة قصة ارض حلت عليها اللعنة فسيطر تنين رهيب على منبع النهر الذي يرويها ومنع الماء عن الارض العطشى ، فحالت حقولها يبــاسا وخرابا . ويطالب التنين صبية حسناء كل عام يقدمها سكان البلدة فدية . وتقف الصبية بانتظار الفارس المخلص الذي يقتل التنين ويتزوجها، فيردّ الخصب الى الارض الخراب. وتعدّ هذه الاسطورة تنويعاً على أسطورة الخضر في صورتها اليهودية المتمثلة في النبي ايليا ، وصورتها المسيحية المتمثلة في القديس جرجس وصورتها الاسلامية المتمثلة في موسى وفتى الله كما يظهران في سورة الكهف .

أفاد توفيق فياض من اسطورة الموت والانبعاث في كشفه مأساة فلسطين ، التي تمثلت له ارضا يبابا حلت عليها اللعنة يوم استولى عليهــا الصهاينة . وتقف الارض منتظرة بطلا يخلصها من براثن التنين ويردّ اليها الحياة ويزرع في أحشائها بذرة تخصب. لكن الواقع المؤلم يعيد صياغة رؤيا فياض . فتختلط القيم وتغدو لبنى عروسه المحبة تنينا . فماذا يفعل الفارس ؟ لقد تحولت الام ــ مبدأ الحياة ــ أداة دمار. ويحاول البطل الهروب من الواقع بعوالم يخلقها خياله ما فوق الواقع فيحلم بلبنى المثال . فيقتل التنين في ذات لبنى ويبعث المثال . ويؤمن في لاوعيه ان لبنى ــ ليس كما هي بل كما يجب ان تكون ــ حية لم تمت .

تتخذ **بيت الجنون** اطارا لها ليلة من ليالي الشتاء العاصفة في بيت يقع بمحاذاة البحر. ويظهر رجل يجلس على كرسي قديم خلف المكتب ، يرى مستغرقا في النوم ، ملقيا رأسه على ذراعيه فوق الطاولة . وينهض فجأة وهو يصرخ بفزع :

الكابوس ... هذا الكابوس الرهيب ! (متحسسا عنقه) مرة اخرى ! وكأن أشباح الجحيم ، انتقلت جميعها الى هنا .. لتشاركني هذا القبر المتعفن ! (محركا عنقه) كادت اصابعه المتوحشة تخترق بلعومي .

تبدأ المسرحية ــ القصيدة في الجحيم ، فيظهر البطل سامي ميتا مدفونا في قبر متعفن، تشاركه السكنى فيه أشباح رهيبة . وليس الجحيم هنا سوى ارض الواقع ، لذا فموت سامي ليس هو الموت بمعناه العادي بل هو موت في الحياة . لكــن نموذج الانبعاث الهاجع في اللاوعي الانساني ينتصر على الموت فتتحد صورة سامي الذاتيــة بصورة اوزيريس الاسطورية ، فيغدو انبعاث سامي حتميا حتمية انبعاث اوزيريس . فيقرأ سامي في كتاب التاريخ المفتوح أمامه :

انهض ، انهض يا اوزيريس !

انا ولدك حوريس ..

جئت أعيد اليك الحياة ،

جئت أجمع عظامك .

واصل اعضاءك ...
أنا حوريس الذي تكون اباه !
حوريس يعطيك عيونا لترى ،
وآذانا لتسمع ، وأقداما لتسير
وسواعد لتعمل ...
ها هي ذي أعضاؤك صحيحة ،
وجسدك ينمو ،
ودماؤك تدب في عروقك !
ان لك دائما قلبك الحقيقي ،
قلبك الماضي !
فانهض ، انهض يا أوزيريس !!
(يغلق الكتاب وهو ما يزال يردد وبحزم أكثر)
انهض يا أوزيريس ..
يا أوزيريس انهض !

لكن ظلام الواقع يشوش رؤيا الانبعاث . فقد حالت الحمامة الوديعة التي عادت بغصن الزيتون الاخضر ، وبشرت نوحا بولادة الارض من جديد ، وجسدت الروح القدس في معمودية المسيح وبشرت كل انسان بولادة جديدة ــ حالت هذه الحمامة تنينا مفترسا. فانتصر عنصر الشر على الخير ، وماتت القيم وسيطرت الفوضى :

لبنى ! أجل لبنى ! بل التنين !! من يتصور
ان مثل هذه الحمامة الوديعة ، تتحول الى
تنين رهيب ، يغرس مخالبه في عنقي !

ويعم الكون ظلام كلي لا يسمح حتى بضوء القمر . وليس غياب القمر سوى غياب لبنى ، لان القمر في الاساطير هو العنصر الانثوي الذي يحمل في طيــاته عناصر الخير والشر : فهو من ناحية شعار العذراء مريم في الايقونات ، ومن ناحيــة اخرى صورة للتحول والخداع والغش في تحول مظهره خلال ايام الشهر ولياليه(٨). ولا يختار القمر طوعا أن يغيب ، لكن شاعرا مجنونا يغتصبه في ليلة مــن ليالي الشتاء على شاطىء البحر ، ويقتله ويذيبه ليخفي آثار جريمته(٩). فتتحــد صورة القمر بصورة لبنى التي يخنقها سامي على شاطىء البحر في ليلة عاصفة ممطرة وينحل جسدها في ساعات قليلة بعد ان ينهش سرطان البحر لحمها . فيصبح سامي هو الشاعر المجنون : قاتل لبنى ومغتصب القمر . يقول :

ايه ... لا قمر في السماء ! (يسدل الستار عامدا . يرفع يده الى أعلى ثم ينزلها بعصبية كمن ينتزع شيئا .) قد انتزعه ذلك الشاعر اللعين من الاعالي ، واغتصبه في ليلة مجنونة من ليالي الشتاء ، على الشاطىء المقفر ! (معبرا بحركة من يده) ثم .. ثم ذوبه بالملح والكبريت ! (بسخرية) هه .. القمر ! أجل. القمر بالملح والكبريت !! (باستغراب) بل وشربه ! كما لو كان يشرب خمرة رديئة في ليلة افلاس ! (بضيق معبرا بيديه) لماذا لم يخنقه ذلك المجنون خنقا ! (ينظر الى يديه المتشابكتين بفزع) اوه .. كلا .. كلا .. (يرخي يديه وهو لا يزال يتأملهما) كنت افقد عقلي ، لو رأيته يفعل ذلك ! مجرد ان اتصوره يفعل !! (يتجه ناحية مكتبه ، وهو لا يزال يتأملهما . يشعل النور ثم يقلبهما متفحصا) خيل الي انهما ملطختان بالدماء ! اللعنة ...

وتتحد مأساة سامي بلبنى مع مأساته « بالمالك الوقح » الذي يتصور انه يقرع بابه . وكأن لبنى في خيانتها وظلمها ليست سوى مالك بيت سامي الذي يطالب بحقه في بيت قد اغتصبه . وهنا تتجسد مأساة الفلسطيني في ظل الاحتلال . يقول :

... ذلك الشبح المتوحش ! شبح لبنى ولا شك ! (بغضب) كلا .. كلا .. بل شبح المالك الوقح ... ماذا ؟.. ألم يعد ثمة قانون يردع اولئك الاوغاد ؟ ماذا يظنون ؟ انني متاع لهم ! يقتحمون بيتي كلما شاؤوا !!... قلت لك كلا ... لن افتح ... حطم الباب ان استطعت ! (معبرا بيديه) انني سأكتم انفاسك بيدي هاتين ...

ويلتفت سامي ناحية المتفرجين باستغراب وكأنه يراهم للمرة الاولى . ويصبحون شخصية ثانية في المسرحية . ويكون المسرح بخشبته وصالته هو بيت سامي ، ويغدو المتفرجون دخلاء في بيته . ويرمزون بذلك الى العصابات الصهيونية التي تحتل فلسطين. فيخاطبهم قائلا :

يا اله السماء ! انتم ... ماذا تفعلون هنا ؟ كيف دخلتم داري بحق الشيطان ؟! كيف استطعتم ذلك ؟! (بغضب) ماذا ! ألم يعد ثمة قانون في العالم ؟! (باستغراب) منتهى الوقاحة ! انني لا استطيع أن أتصور ! كيف يسمح شخص لنفسه دخول بيت غير بيته . ودون اذن صاحبه ؟! (بغضب) حتى حديقة الحيوان ... بل والمقابر اصبح لدخولها وقت معين ! بل وثمة ابواب لها تقفل على موتاها !! انني .. انني لا افقه كيف تدخلون بيتي كما .. كما لو كنتم تدخلون خانا .. او .. او مرحاضا عاما ؟!

ويرتد سامي من مأساة الاحتلال الى تصور لبنى . ولكن هل تختلف مأساته مع المحتلين عن مأساته معها ؟ ان سامي يدرك في أعماق لاوعيه ان المأساة واحدة في جوهرها . فيقول ان مأساته مع لبنى نتيجة لما ارتكبه المحتلون . فقد فعلت ما فعلت بايعاز منهم حين استطاعوا ان يستعبدوا غباءها . فيغدو المحتلون حية خادعة اغرت حواء بالتفاحة فسقطت وآدم من الفردوس الى عالم التحول والفساد . وكان السقوط علة كل داء . يقول :

لبنى ... لو انك الان هنا يا لبنى .. كنت تقذفين بهؤلاء الذئاب الى الشارع .. الى الشارع .. ولكنك.. ولكنك بعيدة عني الان .. لقد رحلت بعيدا .. هجرتني .. لا بد وانك فعلت ذلك بايعاز منهم ! فقد سيطروا على رأسك الصغير .. استعبدوا غباءك !!.

ويعود سامي بذاكرته الى الماضي المشرق عسى ان ينسى ظلام الحاضر وبروده . ويعيد خلق فردوسه المفقود حيث يرى لبنى كما رآها للمرة الاولى . ويسبح في عالم ملائكي لا يطاله فساد ولا يرقى اليه الظلام . ويعانق عبر خياله المرأة — المثال ، حواء الجنة . ويراها للمرة الاولى عند الصباح ، والشمس لم تزل طفلة بعد انبعاثها من بحر الموت والظلام ، وكأن لبنى هي الشمس — الطفلة التي يرى العاشق المتصوف عند الوصول اليها نورا لا تقوى عين انسانية على التطلع اليه . ويولد حبه مع ولادة الشمس طفلا بريئا ما زال خياله يحيا في عالم المثال وان هبط جسده الى عالم كون وفساد . وتكون لبنى بحيرة اخضرار تحمل في اعماقها صور الخصب والحياة ، لانها الالهة — الام، مبدأ الحياة وعلة الوجود ، وصوتها هديل حمامة بشرت نوحا بخليقة جديدة ، وروح قدس أعلنت انتصار الانسان على الموت واكتسابه حياة ابدية . يقول :

مع أنسام الصباح .. ودفق عبير الشمس عبر نافذتي .. كان يدلف الي ذلك الهديل الرخيم من خلف شباكها .. وعند المساء .. كنت ألم ببيتها لاسمعها .. كانت دائما تغني .. فتعلق على شباكها قلبي . وذات صباح طروب رأيتها .. بحيرة الاخضرار رأيت ! تلك المترامية على هدب الافق البعيد في عينيها . وذلك الفجر الملوح في وجهها الصغير !

لكن سامي يفيق الى فجيعة الواقع ، ويرى ان بحيرة الاخضرار احتلها تنين امتص رحيقها ومنع ماءها عن ري الحقول فحالت الارض يبابا وماتت قدرة الينبوع علــى منح الحياة . يقول :

ايه يا بحيرة الاخضرار .. يا حديقة الوجد المزهرة .. اي اعصار بدوحك مر ! اي تنين بنبعك يا غدائر العنبر سكن ! أي لبناي ... لبناي الضائعة ..

ويرتد مجددا الى الماضي السعيد عساه ينسى في دفئه مأساة واقعه . وتغدو لبنى هي الالهة الام الكبرى عشتروت ، وهو تموز ابنها وعروسها الذي يجسد رغبة دفينة تسكن لاوعي كل انسان ، بالتوق الى الام واخصابها . ويتم الانبعاث حين تنزل عشتروت الى العالم السفلي للبحث عن تموز بعد موته ، فتمنحه الحياة وتعود به الى العالم . فتكون أما تمنح الحياة ، وتكون رمزا للارض التي يتوق الانسان الى الفناء فيها ليكتسب بالموت حياة جديدة . من هنا كانت لبنى رمزا لارض فلسطين : فلسطين الام معطية الحياة ، وفلسطين العروس زوج الفـــارس المخلص الذي يخصب بالعشق الارض . والعشق صورة اخرى للموت: فكما ان ذات العاشق تفنى في ذات المعشوق لتولّد عوالم جديدة ، يكتسب العائد الى رحم الارض بانحلال جسده في ترابها انبعاثا وحياة جديدة . وكذلك فان لبنى هي العذراء مريم ـــ المساوية رمـــزيا لعشتروت ـــ لانها تحمـــل في أحشائها مسيحا فاديا ومخلصا يزيح اسباب الظلام ويمنح الارض حياة ابدية . وليس ما تحمله الارض في أحشائها سوى طاقات الثورة في قلوب ابنائها ، الفرسان الابطال ، الذين يقتلون التنين المسيطر ويعودون بالارض الى حالتها العدنية الاولى : صبية بكرا . يقول :

هكذا رحت اصلي لها بعد أن عرفتها .. لعشتروت . عشتروت الصغيرة الساذجة ! عشتروت الحمامة .. عشتروت الام .. وعندما كانت بشهور حملها الاولى .. (مبتسما بسعادة) جميل ذلك .. لبنى .. (معبرا) لبنى حامل !.. (ضاحكا) كدت اجن .. تلك الالهة الصغيرة .. حامل .. اله صغير يلجأ برفق الي.. الي.. كانت تبعدني عنها خجلة .. (راكعا) الى أن ركعت على قدميها الحافيتين تينك القدمين الجميلتين .. قدمي عشتروت الصغيرة .. عشتروت الام .. المبللتين بقطرات الفرحة من دموع سعادتي . (ناهضا بحماس) كالظل بقيت اجلس عند قدميها .. تلك الشهور من حملها .. كنت لا أفارقها .. والدة الاله ..

وتوقظ صورة لبنى في لاوعيه صورة أمه حين كانت حبلى بـــه ، ويفيق الى مأساة ولادته . ولعل سامي عاش مأساة ولادته مضاعفة : فالولادة مأساة كل انسان لانها انفصال عن رحم الام التي يظل الانسان توافا الى العودة اليـــه ، وهي صورة اخرى لسقوط الانسان من الفردوس . لكن ام سامي وضعته في المرحاض قبل موعد ولادته بسبب رعبها من الطائرات قاذفات القنابل . فيغدو هذا العالم كله مرحاضا ، ويكون الصهاينة الذين أشعلوا تلك الحرب صورة للحية الخادعة التـــي كانت علة سقـــوط الانسان . يقول :

لا بد وانها ليلة من الافلاس ، تلك تمخضت عني ! (بصمت .. ثم بسخرية) هه .. في المرحاض ! مسكينة أمي .. ألم تجد غير المرحاض تسقطني فيه ؟ (بيأس) يا للتعاسة ! هل ضاقت بها الدنيا ! في المرحاض !؟ (بغضب) ولكن ثمة مبرر لم يكف لها ! انها تلك الطائرات المفترسة .. انها هي التي ولدتني في المرحاض ، وهي تلد الجنون بعينه ، مع مئات القنابل .. والتي كانت تصبها تلك الليلة علــى هذه المدينة .. ودون انقطاع !.... ولكن .. أليس هو الافلاس بعينه ؟ افلاس العقل ! افلاس العالم من كل قيمه الاخلاقية ! بل افلاس الانسانية بأسرها !؟ ... يا للتعاسة .. انني لا استطيع تصور ذلك ! ولكنها الحقيقة .. والبرهان على ذلك ، انني ولدت في المرحاض ! (بسخرية) الحرب .. الحرب من أجل الحياة الافضل ! هه .. من اجل ان تضعني أمي في المرحاض ! وقبل أن يحين مع ذلك موعدي ! أجل . من اجل ان تكون المراحيض مهود ولادة البشرية ! ولماذا ؟ لكي أحيا حياة أفضل !

ولا تنتهي مأساة ولادة سامي عند هذا الحد ، فتموت أمه وهي تلده ، وتنقطع نهائيا صلته بالام ويعيش حياته منبت الجذور منقطعا عن مبدأ وجوده . وتغدو حياته بحثا عن الام الضائعة التي لم يرضع ثديها ولم يشبع حلمه بلذة وصالها . وحين يلتقي لبنى يسقط عليها صورة الام فتكون له أما وعروسا ، فيؤمن ان الطفل الذي تحمله لبنى في أحشائها ليس ابنه فحسب بل هو صورة اخرى لنفسه فيحلم بأن يكون لابنه غير مصيره . ولكن كيف يتم ذلك ؟ ان علة مأساة ولادته ما زالت مستحكمة ، بل وازداد الشر تعاظما . فان استطاع هو ان يتمسك بالحياة حين ولادته فان طفله ولد ميتا ، ولم تقبل الحياة ان تحتضنه . وكما قتلت امه قتلت لبنى ، وعاش هو وحيدا حياة هي اقسى من الموت . يقول :

ولكن أمي لم تحظ بذلك .. انها لم ترني ولو لمرة واحدة ألثم ثديها ! في نفس اللحظات التي كانت تمنحني فيها الحياة .. كانت تفقد هي حياتها ! (بنقمة) النزيف .. النزيف الاحمر القاتي . اجل . انه هو الذي قتلها ، ودون ان يستطيع والدي ، ان يفعل من اجلها شيئا ... انه لم يكن يعلم ! ان أحدا لم يستشره ! بل تآمروا عليه جميعا . (بثورة) أجل . تآمروا عليه .. العالم بأسره .. وسيظل ذلك النزيف القاتي لطخة جريمة مروعة .. تلوث يديه ابد الدهر .. العالم بأجمعه ! أجل . العالم بأسره .. هو المسؤول عن هذه المأساة الاليمة .. مأساة ولادتي ! على كاهله سيحمل وزرها الى الابد .. الى الابد !.. حتى ابي .. ذلك المسكين .. لقد جروه هو الاخر الى الموت قسرا ... يا للضياع ! (بشرود يائس) واخيرا بقيت وحدي .. لقد ذهبوا جميعا ! امي .. والدي .. ذلك الاله الصغير طفلي .. لبنى ..

لكن لبنى هي التي قتلت طفلها . فقد قتل الصهاينة طفولة لبنى وسذاجتها فتوهج عنصر الشر فيها وسيطر على جميع تصرفاتها . وتحول الارض الخصبة صحراء قاحلة وتسيطر صور الجفاف والموت . وتتحول الام ، مبدأ الحياة ، اداة دمار . فقد فككت الصهيونية العائلة العربية ، وكانت علة قتل لبنى الام والعروس ، والقضاء على الجيل الجديد الذي كانت تحمله لبنى في أحشائها . يقول :

ولكنها تغيرت .. تغيرت تماما ! انها لم تعد تلك التي كنت في حاجة اليها ! تلك الساذجة الطفلة !! ذلك الحزن الساكن في عينيها .. لقد تغير كل شيء ! (بضيق وتشك) الى نمرة شرسة تحولت ، وفجأة !.. بحثت عن تلك الواحة الخضراء في عينيها ، فلم أجدها ! كان وجهها .. كان صحراء لون الكبريت المحرق رمالها !.. ولكن .. ولكن .. (بيأس) كيف استطاعت ذلك ؟ كيف ؟! لم يحدث في التاريخ .. لقد تعلمته جيدا . أجل لم يحدث ابدا ! نمرة واحدة لم تفترس طفلها ! اما هذه النمرة الشرسة .. النمرة مفترســة أطفالها لقد افترسته .. أجل . اغتالته ! كيف استطاعت ذلك ــ بحق الشيطان ــ ! كيف ؟! ان تجهضه بيديها هي !.. بيديها المجرمتين فعلت ذلك .. وبايعاز منهم ! لقد ساعدوها على ذلك .. ولماذا ؟ لانه سيكون ولدي !

ويخنق سامي لبنى على شاطىء البحر فيما كانت تحاول الانتحار . لكن لبنى كما أرادها ان تكون ظلت معه وكأنه قتل عنصر الشر الذي سيطر عليها فقتل الموت والجفاف ليحل الخصب . وبهذا لا يكون هو القاتل ، بل القـــاتل الحقيقي هم الصهاينة الذين حولوا لبنى عن طبيعتها البريئة الطفلة الى طبيعة مفترسة متوحشة . يقول :

لقد فرت من البيت .. كانت كالمجنونة تجري ناحية الشاطىء .. كانت تريد الانتحار ولا شك ! انني .. انني لم .. لقد حاولت ارجاعها فقط .. ردها عن ذلك الجنون ! ولكنها ابت !.. لماذا لا تقول انك رايتني ، ادفنها في جوف الرمل عميقا .. عميقا !؟.. انها هناك ايها الذئب ... هناك علـى الشاطىء .. كتمت أنفاسها بيدي هاتين .. هناك .. لا .. بل انتم الذين قتلتموها .. لقد فعلت ذلك بايعاز منكم ... هناك .. هل تسمع .. فانني لا اخافكم .. (يندفع نحو الباب بجنون يحاول فتحه) لا ارهبكم .. سأتحداكم جميعا .. سأنتصر عليكم جميعا .. جميعا .. وحدي (يخرج) وحدي .

وتنتهي المسرحية كما ابتدأت وسامي يقف وحده متحديا الجميع . ولعل هذا التوحد

يرمز الى ان الشعب الفلسطيني سيحارب ويصمـــد ولو اضطر ان يكـــون وحيدا في الساحة . وقد استطاع توفيق فياض بغوصه عميقا في ظلام اللاوعي ان يقف بثبات على اسس صلبة هي النماذج الاصلية الهاجعة هناك فولّد الرموز المحورية التي تصهر في داخلها الحسي والمجرد ، والذاتي والمطلق فتغدو اللحظة الواحدة جوهرا يختصر الزمن السرمدي ، والفرد الواحد هو الانسان الذي يختصر جوهر الانسانية ويمثلها جميعاً . من هنا لم تكن **بيت الجنون** صورة لمأساة خاصة يعانيها فرد من افراد الشعب الفلسطيني فحسب بل صورة لمأساة كل انسان يعاني القهر والعبودية في الوانها المختلفة . لذلك فهو الانسان المطلق الذي — وان تحرر من عبودية قوى خارجية — يظل عبدا لاهوائه وغرائزه وتطلعاته لانه عبد للحياة . فيصبح الموت سبيل خلاص لانه تحرر من عبودية الحياة . فيكون على الانسان ان يموت ليولد من جديد ويكتسب حياة ترتفع به عن عالم تسيطر فيه الاهواء الذاتية والمصلحة الفردية الى عالم جديد تتحد فيه الآلام والآمـــال العامة لتصبح قضية الانسانية قضية كل انسان فرد . وهنا يصل الانسان اسمى مراتب انسانيته : فهو حين يختار فانه يختار للبشرية جمعاء ، وحين يفعل فانه يفعل من حيث هو ممثل عنها . وقد استطاعت هذه النظرة الانسانية الوجودية ان تضع الانسان امام مسؤوليته كاملة ليؤكد انه جدير بالحياة .

---

١ — اديب فلسطيني ولد عـــام ١٩٣٩ في قرية مقيبلة قرب جنين . درس في ثانوية الناصرة ، وكان يعمل في دائرة الجمارك قبل ان تضعه السلطات الاسرائيلية في السجن . من أعماله الادبية الاخرى رواية **المشوهون** ، ومجموعـــة قصص قصيرة بعنوان **الشارع الاصفر** .

٢ — نشرت هذه المسرحية عام ١٩٦٧ في فلسطين المحتلة . ونشرت في بيروت للمرة الاولى في **ملحق الانوار** الاسبوعي في العددين ٢٤٥٥ و٢٤٦١ (١٣ و١٩٦٧/٨/٢٠) . واعاد غسان كنفاني نشرها في كتابه **الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال** (بيروت ، ١٩٦٨) ص ١٧٤ — ١٩٦ .

٣ — **عن الادب والادب الشعبـــي في فلسطين** (بيروت ، ١٩٧٠) ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

٤ — م. ن. ، ص ١٦٠ .

٥ — حديث خاص مع الشاعر محمود درويش .

٦ — لم أعثر على هذه المسرحية . لكن الملحق الثقافي في السفارة البرازيلية في بيروت افادني في حديث خاص ان **ايدي يوريديس** هي مسرحية من تأليف كاتب برازيلي شهير من اصل روسي يدعى بدرو بلوخ . ولد بلوخ في اوكرانيا عام ١٩١٤ ثم هاجر الى البرازيل . وهو يدرّس حتى اليوم الموسيقى في احدى الجامعات البرازيلية. من أعماله المسرحيـــة : **الاعداء و لا ترســـل الازهار** . نال الجائـــزة الاولى للمســـرح في البرازيل والميدالية الذهبية من اتحاد النقاد . وتعد **ايدي يوريديس** من اشهر اعماله المسرحية. وما زال الممثل البرازيلي رودولفو مايا يمثلها على خشبة المسرح البرازيلي منذ خمس وعشرين سنة .

٧ — قدّم ممثل اميركي مـــن اصل لبناني هذه المسرحية على مسارح فلسطين المحتلة .

٨ — Gertrude Jobes, *Dictionary of Mythology, Folklore and Symbols,* (New York: 1962), II, 1119.

٩ — يشير الـــى الشاعـــر محمود درويش في قصيدته « قمر الشتاء » من ديوان **عاشق من فلسطين** حيث يقول :

سألم جثتك الشهيده
وأذيبها بالملح والكبريت
ثم أعبها : كالشاي
كالخمر الرديئة ، كالقصيده
في سوق شعر خائب
واقول للشعراء :
يا شعراء أمتنا المجيدة !
أنا قاتل القمر
الذي كنتم عبيده !

كندا بين العرب واسرائيل

الدكتور طارق يوسف اسماعيل

انصب الباحثون على دراسة سياسات الدول ذات العلاقة المباشرة بالقضية الفلسطينية فوردت معظم الكتابات عن علاقة الدول الكبرى بالقضية وسياسات وردود الفعل العربية لها او حولها ، وبذلك اهملوا دولا لعبت دورا فعالا في تطور القضية واتخذت موقفا صريحا منها واثرت على مجرى السياسة العالمية وبالتالي على القضية والمنطقة ومن هذه الدول كندا . فرغم أن كندا لم تكن لها علاقة دبلوماسية مباشرة مع اي بلد عربي حتى عام ١٩٥٤ فان علاقاتها وتورطها في القضية الفلسطينية ترجع اصوله الى الايام الاولى لتدخل الامم المتحدة في الموضوع واستمرت بشكل غريب متدخلة او مجبرة على التدخل في كل اوجه القضية الفلسطينية وبقيت تلعب دورا واضحا في النزاع العربي — الاسرائيلي الى يومنا هذا . لقد كانت كندا عضوا بارزا في كل لجنة شكلتها الامم المتحدة لدراسة القضية الفلسطينية منذ عرضها على تلك الهيئة الدولية . بالاضافة الى ذلك صادف وجود كندا عضوا في مجلس الامن اثناء حرب ١٩٥٦ واثناء أزمة ١٩٦٧. وفي كل ذلك كانت لكندا سياسة واضحة المعالم وفلسفة معينة وخط متبع . ترى هل كان ذلك مقصودا ام كان تيارا عفويا ساقته الصدف فبدا لغير المتتبع سياسة مرسومة ؟

ان المحاور الرئيسية لسياسة كندا الخارجية تدور حسب اهميتها على مـا يلي : (١) حلف شمال الاطلسي، (٢) منظمة دفاع شمالي اميركي، (٣) مجموعة الكومنولث، (٤) شركاء كندا التجاريين .

واذا نظرنا الى تلك الاسس لسياسة كندا وحاولنا تعليل سبب تورط كندا في النزاع العربي الاسرائيلي نقف حائرين من دون اجابة شافية !! لماذا دخلت كندا وسط هـذا الصراع ؟ ولماذا شاركت كندا فيه ؟ وعلى أي أساس لعبت هذا الدور الفعال في هـذا المضمار ؟ ولاي الاسباب ؟

ان كاتب هذه السطور يعتقد اعتقادا جازما بان السبب الرئيسي لهـذه السياسة الواضحة المعالم والتي هي عفوية ولكنها تبدو مرسومة هو دور شخصي لعبه السيد لستر بيرسون، ونظرا لعدم وجود سياسة حكومية واضحة وثابتة فان أهواءه واندفاعاته الشخصية أنتجتها، خاصة وان لهذه الاهواء الشخصية جهازا دعائيا واسعا منظما وغنيا وهو الصهيونية وقد اعترفت المنظمة الصهيونية بافضال السيد بيرسون ومنحته جائزة رفيعة كما منحته اسرائيل جائزة وايزمن ويعتقد البعض بان جائزة نوبل للسلام التـي منحت له عام ١٩٥٧ كانت بدفع ولو خفي من المنظمة الصهيونية العالمية !!

تعود أصول بداية التورط الكندي بالقضية الفلسطينية الى عام ١٩٤٦—١٩٤٧ عندما أصبحت المشكلة موضع اهتمام الجلسات الاولى للجمعية العمومية لوليد الحرب العالمية الثانية الامم المتحدة . لقد راس السيد بيرسون الوفد الكندي بصفته نائب وزير الدولة للشؤون الخارجية للجلسة الخاصة التي دعت لها الامم المتحدة في نيسان (ابريل) ١٩٤٧ لمعالجة الموقف في فلسطين وقد انتخب السيد بيرسون عضوا في اللجنة التي انيطت بها

دراسة القضية وبذلك بدأ تاريخ التورط الكندي في الشرق الاوسط والذي استمر ليومنا هذا . وبعد ذلك بشهر اوصت تلك اللجنة بانشاء هيئة اخرى خاصة لهذا الموضوع تدرسه وتقدم اقتراحات معينة للامم المتحدة بشأن القضية . وفعلا في مايس من العام ذاته خلقت لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين وبالطبع كانت كندا عضوا فيها .

اختار السيد بيرسون لعضوية هذه اللجنة صهيونيا كنديا معروفا وهو القاضي ايفان ج راند !! وبالطبع سوف يمثل هذا الرجل دوره الصهيوني وبذلك أصبح رأي كندا في هذا المحفل الدولي هو راي الصهاينة !! وبالطبع عمل هذا الرجل وصوت لقرار التقسيم ساعده على ذلك من وراء الكواليس السيد بيرسون رئيس الوفد الكندي . فقد لعب بيرسون دورا فعالا في الضغط على الدول الاخرى محبذا مشروع التقسيم وعندما حصل صدام بين مواقف اميركا والاتحاد السوفياتي على موعد انتهاء الانتداب « شكرا للجهود التي بذلها السيد بيرسون أمكن الوصول الى توفيق » وانتهت الازمة(١) وقد لخص الكتاب شبه الرسمي الذي يصدره معهد الشؤون الخارجية الكندي مؤرخين دور كندا الدولي دور السيد بيرسون بالكلمات التالية : « ولقد شبه صهيونيو كندا السيد بيرسون ببلفور كندا في محاولتهم للحصول على تأييده لخطة التقسيم ، لقد كان تأثيره مهما جدا ان لم يكن اساسيا »(٢).

وحين أعلنت المنظمة الصهيونية خلق اسرائيل في ايار (مارس) ١٩٤٨ وقف ممثل كندا في الامم المتحدة السيد بيرسون والذي سعى قبل اسابيع او ايام لخطة التقسيم والتي تركها الان مساندا الدولة الصهيونية وقال : « يجب علينا ان نعترف بأن هناك الان دولة يهودية قائمة الكيان وقد بسطت سلطانها على اراضي لا يمكن لاحد زحزحتها عنها ، ولاجله يجب ان نوجه اهتمامنا الان الى تنظيم علاقات هذا المجتمع مع جيرانه . لست انكر صعوبة قبول العرب لهذا ، ولكن هذا هو الواقع وعلى العرب القبول به ، ولست أعتقد بأن الامم المتحدة تساعد العرب اذا سمحت لهذه الدول الاستمرار بالتفكير بسحق هذه الدولة اليهودية بالحرب »(٣).

وهكذا نجد ان قواعد العلاقات العربية الكندية وضحت بشكل بارز في اثناء السنين الاولى من عرض القضية الفلسطينية واتخذت طابع التأييد المطلق لاسرائيل، ولكن حينما توقف تدخل الامم المتحدة في النزاع العربي الاسرائيلي توارى دور كندا ولم تلعب كندا اي دور في المنطقة او القضية خلال السنوات الثمان التي تلت خلق الدولة اليهودية وان فعاليات كندا حتى حرب السويس لم تتعد اعارة خدمات مدير لوكالة غوث اللاجئين الدولية ، وفي عام ١٩٥٤ عين الجنرال اي.اف.بيرنز ليرأس قوة مراقبة الهدنة ولكن الصورة تغيرت اثناء حرب السويس عام ١٩٥٦ وعادت كندا لدورها الفعال .

وضعت حرب السويس كندا في موقف حرج جدا فقد برز الى الوجود خلاف واضح بين سياستي الحليفتين القويتين والمهمين والمقربين لكندا، انكلترا واميركا ... ووضع الموقف كندا امام مهمة التوفيق بين مصالح هاتين الدولتين وبالطبع محاولة ربط كل ذلك بالرغبات الاسرائيلية ، وقد لخص السيد بيرسون رأيه في الحرب بما يلي :«ليس في نيتي ولو للحظة واحدة ان انتقد نوايا حكومتي فرنسا وبريطانيا ... ربما يظهر لي بأن طريقة تدخلهما هي غير صائبة ، الا انني لا أنتقد أغراضهما »(٤). وهنا لعب وزير الخارجية الكندي السيد بيرسون حينئذ دورا فعالا في ايجاد حل يحمي صديقتيه ويعيد الوفاق الى حلفائه ويحقق له شخصيا سمعة عالمية (تنتهي بمنحه جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٧ ومن ثم يستغلها ليصبح رئيسا لحزب الاحرار في بلاده ومن ثم رئيسا للوزراء ؟!) حيث تمكن هذا من ان يكون المهندس لقوة الطوارىء الدولية التي انشأتها الامم المتحدة والتي

انيطت بها مهمة احلال السلام في منطقة الشرق الاوسط . ولم يخف السيد بيرسون نواياه بل قال للسيد جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركيـة « ان رغبتي هي مساعدة بريطانيا وفرنسا ... أريدهم ان ينسحبوا — من مصر — دون ان يفقدوا ماء وجوههم ... وأعيدهم الى حظيرة التحالف مع الولايات المتحدة »(٥).

وهكـذا نجد بأن كندا لعبت دورا مهما لمصلحة حلفائها اميركا وفرنسـا وانكلترا واسرائيل ، اذ سخرت الامم المتحدة لتحقيق اطماع اسرائيل وايجاد توفيق بين بقيـة حلفائها الاخرين واعادة بناء الحصن من الدول الغربية الكبرى بترميم التصدع الذي حصل في علاقاتهابعضها ببعض نتيجة حرب السويس . ويعتقد كاتب هذه السطور بأن شخصية السيد سانت لوران كانت السبب الرئيسي في كبح جماح عاطفة السيد بيرسون ومراقبته بدقة فلم يستطع في غيه بمساندة اسرائيل خاصة وان دوره في الامم المتحدة يقتضي لعب دور المحايد على الاقل في المحافل العامة ، رغم ان المتتبعين لحركات السيد بيرسون والمقربين اليه يعلمون انه يؤيد اسرائيل تأييدا مطلقا .

وخلال السنوات التي تلت حرب السويس حتى حزيران ١٩٦٧ اتبعت كندا سياسة الابتعاد عن الشرق الاوسط ومشاكله وذلك لفشل الاحرار بقيادة السيد بيرسون من الفوز بالانتخابات ومجيء حكومة المحافظين ولكن بيرسون عاد سنة ١٩٦٤ الى رئاسة الوزارة الكندية .

تجددت في شتاء ١٩٦٦ وربيع ٦٧ روائح ازمة في الشرق الاوسط وكانت كندا عضوا في مجلس الامن وعندما حصلت اشتباكات خطيرة بين سوريا واسرائيل شكا من خطورة الموقف السكرتير العام للامم المتحدة السيد يو ثانت في ابريل ١٩٦٧ — وايده في ذلك قائد قوة الطواريء الدولية الجنرال اد بول (Odd Bull) من خطورة الموقف الى مجلس الامن الذي كان يرأسه في ذلك الوقت السيد جورج اكانتييف الذي لم يهتم بالامر ومر شهر ابريل (نيسان) ولم يدع رئيس المجلس الى جلسة للنظر في وضع الشرق الاوسط الخطير رغم الحاح الامين العام للامم المتحدة على ذلك . وفي ٢٤ مايس تم عقد الجلسة وكان الوضع قد وصل الى درجة كبيرة من التدهور مما جعل تدخل الامم المتحدة ومجلس الامن صعبا ... وانتهت النتيجة الى الحرب التي انتهت بانتهاك اسرائيل لسيادة ثلاث دول وتشريد أكثر من مليون عربي معظمهم شردوا مرتين في حياة واحدة .

والمتتبع لسياسة كندا في تلك الفترة يجد تحيزا واضحا من قبل الحكومة الكندية ، فالسيد بيرسون الان هو الحاكم الناهي ورئيس وزراء بلاده وتصريحات السيد بيرسون المتتالية توضح بشكل جازم مدى مسايرته لاسرائيل وفي بعض الاحيان حقده الواضح على العرب وفي بعض الحالات يغدو الرجل عاطفيا لدرجة المغالاة . وأحسن مثل على هذا السلوك هو ان السيد بيرسون الذي أكد عند خلقه قوة الطواريء الدولية بأن سيادة الدول ذات العلاقة سوف لن تمس ، عاد في عام ١٩٦٧ واعتبر عمل مصر في الطلب من الامم المتحدة بسحب قواتها هو ليس من صلاحيات مصر !! ففي تموز ١٩٥٧ أكد السيد بيرسون لعدد من الصحفيين بأن وجود القوات هو ليس انتقاصا لسيادة اي من الدول المعنية وانها ضيفة على تلك الدول موحيا بأن لهذه الدول الحق في اخراج هذه القوات متى تشاء .

الحياد الكندي حقيقة أم وهم ؟!

لعل القاريء العربي لا يعلم بأن محاور السياسة الكندية هي موحاة من الخارج وان لمعظم هذه المحاور صلات معينة باسرائيل . لهذا فان هذا التأثير سوف يستمر باتجاه مضاد للعرب مهما كانت الظروف وما لم تتغير السياسات الرسمية لهذه المؤثرات فان

السياسة الكندية ستبقى ذيلية للمحاور الاربعة التي ذكرناها فيبداية البحث وان اصدقاءنا هم من المحاور الاقل اهمية وتنحصر في عدد كبير من دول الكومونولث التي لها مشاكل وصراعات مع البقية الباقية من محاور سياسة كندا !! ولعل المتأمل في كلمة « المحايدة » كما يفهمها الكنديون يجد انها كلمة غير مستقرة ومعناها غامض ان لم يكن غير معروف وتخضع في كل الظروف الى المحيط الكندي ونظرته. والمتطلع يجد بان الكنديين كمسيحيين تتجه أنظارهم دوما الى « الارض المقدسة » . هذا وان الكندي يعرف ويرى دوما ويذكر بالآثام الاوروبية ضد اليهود التي توجتها أعمال هتلر بالقتل الجماعي لليهود ، ناهيك عن النظرة الشوفينية التي تجتاح الدول الغربية والتي تنظر الى الدول الافريقية الاسيوية ، وبضمنها العرب ، بغير عين العطف ان لم يكن بعين الاحتقار . يضاف الى كل ذلك النشاط الصهيوني المنظم وضعف المنظمات العربية والدعاية العربية المضادة . فان المنظمات الصهيونية تنشط نشاطا ملحوظا في كل المناسبات وفي معظم الاحيان تأثيرها يفوق بكثير حجمها العددي ، فان عدد اليهود في كندا لا يزيد على ٢٢٠،٠٠٠ أي حوالي واحد بالمئة من مجموع السكان ، ومع ذلك فهم يلاحظون في كل نشاط سياسي واجتماعي وديني وحتى عنصري !!! هذا بالاضافة الى السيطرة الاقتصادية في النظام الكندي . فهم المسيطرون على حزب الاحرار اذ هم يؤلفون الدعامة المالية الاولى للحزب وهم ايضا اعضاؤه النشيطون وهذا الذي حدا بأحد الكتاب اليهود بالقول بان اليهودي في كندا واميركا حشر نفسه في موقف خطر قد تكون ردود فعله في المستقبل ضد مصلحة اليهود بصورة عامة ، اذ ان اليهودي هنا وضع نفسه في موضع المدافع عن اسرائيل مهما كانت سياساتها(٦) . هذا بالاضافة الى التأييد الذي تلقاه السياسة الاسرائيلية من الصحف الكندية والعطف الواضح الذي تحظى به اسرائيل من وسائل الاعلام الاخرى . ولننظر الى التأثير الصهيوني ونشاطه في كندا والنشاط العربي في كندا فنجد التناقض واضحا بين الصورتين ، فبينما النشاط الصهيوني منظم ومنسق حيث يعتقد كاتب هذه السطور ان ثلث المجتمع اليهودي عدديا منضم الى المنظمات الصهيونية وهذا يعني نسبة تفوق الـ ٩٠٪ من عدد القادرين على العمل السياسي (أي ان الاطفال والشيوخ العاجزين ليس لهم دور العمل المنظم) وان التقدير لعدد العاملين في المنظمة الصهيونية الكندية هو بين ٧٠ و٨٥ الفا وان عدد هؤلاء بالطبع لا يعكس اهميتهم الاقتصادية فان حزب الاحرار واقع تحت التأثير الصهيوني من دون شك اذ ان اليهود يمولون هذا الحزب وهم دعامته المالية الاولى من دون شك هذا بالاضافة الى انهم يجهزون القيادة الفكرية والسياسية للحزب الديمقراطي الجديد والذي يلعب دورا فعالا في الحياة السياسية الكندية هذه الايام فان رئيسه السيد ديفيد لويس يجهر بمساندته للصهيونية وبمعاداته للعرب وفخره باسرائيل وقد روى لي الاستاذ سامي هداوي الرواية التالية :

في ابريل ـ نيسان ـ ١٩٧٢ شكل الاتحاد العربي الكندي والجاليات العربية في كندا وفودا لتقابل رؤساء الاحزاب وقد ترأس الوفد العربي لزيارة رئيس الحزب الديمقراطي الجديد الاستاذ سامي هداوي وعندما بدأ الاستاذ هداوي يعرض وجهة النظر العربية قاطعه رئيس الحزب الديمقراطي الجديد بوقاحة غاضبا وقال : اني لا أسمح بهذا لاني يهودي !! وتناسى السيد لويس منصبه وتمادى في الدفاع عن الموقف الاسرائيلي !!. وان هذا الموقف هو اعتيادي وغير غريب فان السيد لويس يجهر علانية بعشقه لاسرائيل وان معظم قادة هذا الحزب هم من الصهاينة او مؤيديهم . أما حزب المحافظين فانه يحاول اجتذاب اليهود او عدم استثارة غضبهم على الاقل . ورغم ان الاهمية البشرية للصهاينة في كندا هي محدودة ولكن توزيعهم الوظيفي ونشاطهم السياسي يضاعف عشرات المرات تأثيرهم السياسي ، ويعزو الكاتب الكندي المعروف السيد

بل دوبيل ذلك « النفوذ الواسع الى غناهم ، مساهماتهم المالية ومساعداتهم لحزب الاحرار ، تنظيمهم الرائع ، وتركيزهم في المدن المهمة الكبرى والتي تصوت للاحرار ... فأكبر تركيز للاصوات اليهودية في كندا يقع في منطقتي رئيس الوزراء الكندي الحالي ووزير خارجية كندا اليوم » . ويستطرد الكاتب ويقول : « ان تأثيرهم النسبي أكبر بكثير من حجمهم ايضا لان عدد العرب في كندا أقل بكثير من اليهود ، بالاضافة الى انهم متفرقون ، منقسمون بين العديد من الطوائف والاديان ، أقل تنظيما وأقل جاها »(٧)، ومن يلقي نظرة فاحصة على البرلمان الكندي يجد تأييدا يكاد يكون اجماعيا لليهود والصهاينة واسرائيل بينما لا يتراوح عدد اصدقاء العرب في هذا البرلمان الثلاثة !! اما الجالية العربية في كندا فان عددها يتراوح بين ٥٠ — ٧٠ الفا ومعظم ابنائها من العمال، قليلو الثقافة ، تتقاسمهم الطائفية ، وتقسمهم الحزازات ومعظمهم عمال ... ليس لديهم المال او الثقافة او الوقت لصرفه على القضايا العامة بالاضافة الى ان الغالبية الغالبة منهم مهاجرون جدد تفصلهم عن المجتمع الكندي التقاليد واللغة وفي معظم الاحيان الموانع الاجتماعية . وان عدد المهتمين في القضايا العربية لا يزيد على ٥٪ والعاملين لها ١٪ . ومما يلفت النظر هو بوادر التنظيم السياسي التي بدأت بعد نكسة حزيران عام ٦٧ وبروز المقاومة الفلسطينية فقام عدد من ابناء الجالية الفلسطينية بتنظيم رد الفعل العاطفي هذا في منظمة تسمى « الاتحاد العربي الكندي » وقاد هذه المنظمة وعمل فيها باخلاص الدكتور جورج حجار والسيد جميل بطرس وبعد عام واحد من ذلك بدأ الشقاق يدب في اوصال الجمعية وبعد عامين ظهر اتجاهان مختلفان وفي العام الثالث حصل انشقاق ، وكانت لهذا الانشقاق نتائجه الواضحة في السلبية التنظيمية للجالية العربية في كندا فانخفض عدد المشاركين الفعليين وحتى المنظمين او المتعاونين الى ما يقارب العشرة وترك العمل المنظم معظم قياداتها الاولى !!.

وفي هذا الجو المفيد لاسرائيل والصهيونية يلعب الاستعمار الثقافي الامريكي دوره في تكييف المشاهد او المستمع الكندي الى وجهة النظر الاسرائيلية هذا بالاضافة الى النشاط الناجح الذي تقوم به السفارة الاسرائيلية والتنسيق المنظم والمستمر بينها وبين الجمعيات الدينية والصهيونية والاجتماعية اليهودية وغير اليهودية ، ناهيك عن العمل الاعلامي الواسع المتواصل والذكي الذي تقوم به تلك المجموعة .

أما عن الفرد الكندي ، وحتى المسؤول منهم ، فانهم لا يريدون ان يوصموا بغير الحياد وهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بان الحياد هو عدم التورط بوضوح في قضايا الشرق الاوسط وعدم السماح للدولة بأن تكون مفضوحة النوايا لمساندة أي من دول المنطقة ولكن ذلك لا يعني محاربة أي من دول المنطقة ايضا !! وهذا التعليل قد يبدو كافيا وقد يبدو منطقيا للكندي اذ ان الوقوف على التل في هذه المسألة هو حياد بالنسبة لهم متناسين الاجحاف الذي لحق بالعرب من جراء خلق اسرائيل متناسين المليوني فلسطيني المشردين ، محاولين عدم الخوض في تفاصيل النزاع العربي الاسرائيلي من دون حصول ازمة خاصة وان الجانب العربي من النزاع لم يوضح او يقدم للكندي المعلومات . وان عدد اصدقائنا ، كما اوضحت ، في الحقل الاعلامي محدود ، وان اصدقاءنا في وزارة الخارجية غير مهمين فان لنا في كل هذه المجالات مقربين يحسون بعدالة قضيتنا ففي الحقل الاكاديمي مثلا لنا بعض الاصدقاء الذين بدأوا يجهرون بعدالة قضيتنا وفي الحقل الديني لنا اناس يحاولون عرض قضايانا وان كان ذلك فقط من جانبها الانساني ، هذا بالاضافة الى وجود العديد من اصدقائنا في البرلمان الكندي . وهناك حركة شبه عامة وعفوية في المجتمع الطلابي وخاصة في الجامعات ، ورغم تلقائية هذا التيار وعدم انتظامه ، فان التعاطف مع العرب بدأ يزداد وينمو متمركزا في صفوف اليسار الجديد

وفي المنظمات الوطنية بولاية كيوبك واهم دواعي ذلك هو التعديات الاسرائيلية الصارخة والعلنية واهمال اسرائيل والصهيونية حتى اعطاء تبريرات مقبولة ومعقولة مصحوبة في بعض الاحيان بوقاحة المنظمات الصهيونية التي اغاظت العديد من الشباب والمثقفين الكنديين . واذا ما فهم بأن نفسية الكندي وقيمه المثالية نجد احتمال انعطاف نحو القضايا العربية واضح وموجود واذا ما نظمت الجهات العربية حملات دعائية او اعلامية فان امكانية تجنيد هذه القوى ممكن وواقعي ومحتمل .

خـاتمة

لخص الدكتور علي الدسوقي(٨) الموقف الكندي بواقعية حين استنتج ان سياسة كندا رغم انها حيادية في الاسم فانها في الواقع مساندة لاسرائيل فرغم ان السياسة الكندية في الشرق الاوسط هي من خلال عمل كندا في الامم المتحدة فان هذه السياسة لم تكن لا موضوعية ولا محايدة . وانها وفي القضايا المهمة وباستمرار تتخذ خطا مطابقا للمواقع الصهيونية والاسرائيلية وان الساسة الكنديين لم يحاولوا حتى تفهم الجانب العربي !!

ان هذا التقييم صحيح ووارد في الماضي ولكن جوا جديدا بدأ يلوح في أفق العلاقات العربية الكندية ، فان غياب السيد بيرسون من الحياة السياسية الكندية ، بعد سيطرة دامت زهاء عقدين ، وعدم مبالاة القيادات الصهيونية في تبرير كل أعمال اسرائيل ، والاعتداءات الاسرائيلية المتكررة وبروز القومية الوطنية الكندية بدأت علامات الاستفهام على الموقف الصهيوني والاسرائيلي وكذلك الكندي تظهر بوضوح . ناهيك عن تأثير الاعمال التي قدمتها المقاومة الفلسطينية في تأكيد الوجود الفلسطيني . . . كل هذه خلقت مناخا جديداً ان استغل من الجانب العربي فقد يمر بالتأثير على السياسة الكندية تجاه القضايا العربية .

---

١ — Robert Spencer, *Canada in World Affairs from NATO, 1946 - 1949* (Toronto: Oxford University Press, 1959), p. 145.

٢ — *Ibid.*, p. 147.

٣ — A/AC. 13/32, United Nations GAOR. 11, *ad hoc* commission on Palestine question, pp. 209 - 301.

٤ — James Eayrs, *Canada in World Affairs, October 1955 to June 1957* (Toronto: Oxford University Press, 1959), p. 185.

٥ — Terance Robertson, *Crisis: The Inside Story of the Suez Conspiracy* (Toronto: McClelland and Stewart Limited, 1964), p. 188.

٦ — J. L. Granatstein, *Canadian Forum*, June 1971, p. 35.

٧ — Bill Dobell, *Canada's Search for New Roles* (Oxford: Oxford University Press, 1971), p. 17.

٨ — Ali Dessouki, *Canadian Foreign Policy and the Palestine Problem*, (Ottawa: Middle East Research Centre, n.d.), Monograph No. 1.

الهستدروت والمجتمع الاسرائيلي

انطوان منصور

تصور الدعاية الاسرائيلية الرسمية الهستدروت* او الكونفدرالية العامة للعمال بأنه يقوم بأربع مهمات رئيسية :

١ ــ دور نقابي : الدفاع عن مصالح العمال كأية نقابة في المجتمعات الرأسمالية .

٢ ــ دور اقتصادي (ادارة وامتلاك وتنظيم) يقوم به كمالك لوسائل انتاج متعددة، ولا بد من الاشارة هنا الى ان القطاع الاقتصادي من الهستدروت وسمي أيضا القطاع التعاوني او قطاع الاقتصاد العمالي ، يدعي سيادة علاقات الانتاج الاشتراكية ضمنه ويطرح نفسه كمجسد للتحول الاشتراكي للمجتمع الاسرائيلي .

٣ ــ ادارة مجموعة مؤسسات للضمان الصحي والاجتماعي .

٤ ــ دور ثقافي ومن أهم ما يقع على عاتقه تربية النشء .

ولكن بين ادعاءات الابواق الرسمية والدور الفعلي الذي يلعبه الهستدروت تناقضا سوف نحاول توضيحه . فكأية مؤسسة انشىء الهستدروت لخدمة مصالح طبقة معينة (الصهيونية) تحتاج اليها لتلعب دورا سياسيا واقتصاديا وايديولوجيا يتناسب واهدافها ويتلخص هذا الدور :

١ ــ المساهمة باستعمار فلسطين وبتكوين المجتمع الاسرائيلي .

٢ ــ السيطرة على قطاعات اقتصادية استراتيجية .

٣ ــ تأدية دور سياسي وايديولوجي لضرب النضال الطبقي وتأمين تماسك المجتمع الاسرائيلي .

المساهمة باستعمار فلسطين وبتكوين المجتمع الاسرائيلي :

أسس الهستدروت في حيفا بفلسطين عام ١٩٢٠ ودعي الكونفدرالية العامة للعمال اليهود في فلسطين . قد يوحي لنا الهستدروت انه كأية كونفدرالية عمالية اخرى يهتم بالدفاع عن مصالح العمال . لكن ما هو في الحقيقة دوره ؟ الهستدروت هو العمود الفقري للاستعمار الصهيوني ، لقد ارسى القاعدة الاقتصادية للدولة اليهودية . وقد بيّن الباحث الاجتماعي الاسرائيلي ايزنشتادت بوضوح دور الهستدروت اذ قال : « كان هدف الهستدروت تأمين الشروط الضرورية لايجاد وتنظيم طبقة عاملة جديدة ولها امتيازاتها ، وليس الحفاظ على مصالح طبقة موجودة »(١).

هذه الشروط هي في الحقيقة خلق المؤسسات الصناعية والزراعية لتنمو فيها الطبقة العاملة اليهودية . « ان الحاجة لتكوين طبقة عاملة يتطلب انشاء قطاعات اقتصادية

---

* أعدت هذه الدراسة قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

تستطيع العمل فيها »(٢). لقد أناط الهستدروت بنفسه « اعادة تكوين الاقتصاد القومي اليهودي » فانشأ وحدات نصف صناعية ومؤسسات مختلفة :

ــ عام ١٩٢١ انشأ « السوليل بونيه » المؤسسة الكبرى للاشغال العامة خاصة للانشاءات .

ــ أسس كذلك عام ١٩٢١ « بنك العمال » وهو مشترك مع المنظمة الصهيونية العالمية .

ــ عام ١٩٣٣ أسس شركة النقل بين المدن « ايجد » تؤمن ٦٥ ٪ من المواصلات بين المدن .

ــ عام ١٩٣٦ انشأ « مكروت » اهم منظم وموزع للماء في المستعمرة الصهيونية .

ــ عام ١٩٣٦ أيضا انشأ الشركة البحرية « تسيم » .

ووسع الهستدروت نشاطه بحيث شمل مختلف المجالات الاقتصادية : أسس شركات لبيع الانتاج الزراعي وكذلك شركات تعاونية للبيع بالجملة .. وأحاط نفسه بشبكة مؤسسات ضخمة : يمتلك شبكة مدرسية (مدارس للمهاجرين اليهود فقط) وصحية (ضمان صحي) .

وكانت « النقابة » (أي الهستدروت) تتولى الاشراف على منظمة الدفاع اليهودية « الهاغانا » (الجيش اليهودي) .

هكذا أسس الهستدروت مؤسساته ومنشآته مانعا العرب من المشاركة فيها . وبعد شعار « العمل لليهود فقط » اطلق شعار « الانتاج اليهودي » معناه مقاطعة منظمة للبضائع العربية .

اشرف الهستدروت على المستعمرات الزراعية ولعب دورا كبيرا في طرد اليد العاملة العربية والفلاحين منها . « سمحت مكانة الهستدروت المتميزة عند المستعمرين الصهاينة ومنظمته القوية ، ان يلعب دورا رائدا في عملية الاستعمار الزراعي وفي التسلط على أماكن عمل يحرمان العمال والفلاحين العرب منها من أجل العمال اليهود »(٣). هكذا قصر الانتساب للهستدروت باليهود فقط ، اليهود الذين « يعيشون من ثمار عملهم » .

بمعرض اشارته الى دور الهستدروت في استعمار فلسطين وفي تكوين المجتمع الاسرائيلي قال بن غوريون : « لا ينبغي فقط تنظيم الطبقة العاملة ، انما خلقها وتكوينها وزرعها في فلسطين »(٤).

اذا ليس الهستدروت نقابة عمالية كما يدعون ، انه اداة استعمار صهيونية ، لعبت دور رب العمل . أما ادعاؤها انها مجرد « نقابة » فذلك من اجل تضليل العمال اليهود تمهيدا لادخال الايديولوجية الصهيونية في صفوفهم ودفعهم للهجرة الى فلسطين ، ولخدمة اهداف الصهيونية : بتكوين سريع للاطار القومي الضروري . وقد اوضح ذلك مؤسسو الهستدروت بقولهم : ان المصلحة القومية تعلو على المصلحة الاقتصادية والمصلحة الثقافية .

حدد بنحاس لافون السكرتير العام للهستدروت الدور التاريخي الذي لعبه هذا الاخير فقال : « تأسست الكونفدرالية العامة للعمال منذ ٤٠ عاما من بضعة الاف من الشبان الراغبين بالعمل في بلد متخلف حيث العمل رخيص ، في بلد ينبذ سكانه وغير مضياف للقادمين الجدد . ان تأسيس الهستدروت في هذه الظروف كان حدثا أساسيا في عملية تكوين الامة العبرية في وطنها . ان هستدروتنا متكامل في وجوده ، ليس نقابة

عمالية بالرغم من أنه يهتم جيدا بحاجات العمال الفعلية »(٥). كانت ادارة الهستدروت هي التي تحدد الخط السياسي لليهود في فلسطين كما كانت تهتم أيضا « بأوضاع « اليهود الداخلية » وبعلاقاتهم بالمحتلين الانكليز والجماهير العربية »(٦). ومن جهة ثانية ، كانت الهستدروت وما زالت تحت سيطرة الحزب العمالي « الماباي » عام ١٩٣٠ وهو الحزب الحاكم حتى اليوم . وخرج من صفوف الهستدروت كل الزعماء السياسيين في الدولة الاسرائيلية : بن غوريون ، ليفي اشكول ، غولدا مئير . لقد لعب الهستدروت دورا اساسيا في ارساء الاسس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لدولة اسرائيل كما شكل الاطار الذي تحققت فيه العلاقات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية لليهود في فلسطين .

سيطرة الهستدروت على بعض القطاعات الاستراتيجية في الاقتصاد الاسرائيلي

أ ـ **الهستدروت رب عمل** : يملك الهستدروت عدة مؤسسات اقتصادية ساهمت بشكل رئيسي في ارساء القاعدة التحتية لدولة اسرائيل تمهيدا للعب دور القاعدة الاستعمارية في المنطقة ، ففي مجالات الزراعة والصناعة بادرت بالمشاريع التي لا تدر ربحا على المدى القصير كالصناعات التحويلية ، البناء ، الاشغال العامة والصناعة الثقيلة .

لقد ذكر « كتاب اوروبا السنوي » لعام ١٩٦٩ ان « الهستدروت أهم جسم اقتصادي في الدولة .. ان كثرة المشاريع الاقتصادية التي حققتها تجعل منه اكبر متعهد في البلاد بحيث يصل الى ان يكون هو الدولة »(٧).

في القطاع الزراعي يشرف الهستدروت على ادارة « الموشافيم » (أي « القرى التعاونية ») والكيبوتسيم (او « القرى الجماعية ») . بلغت مساهمته عام ١٩٥٩ ٣٢٪ من الانتاج الزراعي الصافي. يملك تعاونية بيع الانتاج الزراعي وهي تؤمن تصريف ٧٠٪ من انتاج البلد الزراعي .

في قطاع البناء ، المؤسسة الرئيسية التابعة للهستدروت هي « السوليل بونيه » يعمل فيها حوالي ٢٨ الف شخص وهي تشكل اكبر شركة للانشاء البحرية ، للبناء وللاشغال العامة في اسرائيل . في الفترة الممتدة بين ١٩٤٩ و١٩٦٤ بنت حوالي ١٠٠ الف مسكن، ثلاثة أرباعها خصصت للمهاجرين الجدد وحوالي ١٩ الف للعمال المسنين(٨). تعرف شركة بناء المساكن بـ « شيكوم عوفديم » .

ومن ناحية اخرى تملك وتستغل احواض الانشاءات البحرية (هاياما واوجن) ، تستثمر مصانع للانشاءات المعدنية في جون حيفا في « جفعات رامبام وحولون » وتملك ٦٠ ٪ من أسهم ميناء حيفا .

وفي القطاع الصناعي ، الشركة الصناعية الام هي « كور » وهي تتكون من مجموعة تبلغ حوالي خمسين مؤسسة(٩) اختصاصها الصناعة الثقيلة تستخدم حوالي ١٢ الف عامل وهي بالتالي اكبر مؤسسة صناعية في اسرائيل ، نمت بشكل سريع خلال السنوات الاخيرة حيث بلغت مساهمتها لمجموع الانتاج الصناعي حوالي ٩ ٪ عام ١٩٧٢ بينما كانت ٦ ٪ عام ١٩٦٩(١٠). في الفترة الممتدة بين ١٩٦٨ و١٩٧١ تضاعفت الموجودات الثابتة وزاد الانتاج بنسبة الثلثين . وفي العام ١٩٧٢ زاد الانتاج بنسبة الثلث ، وتأمل الشركة مضاعفة انتاج عام ١٩٧٦ بالنسبة لعام ١٩٧٢(١١). أصبح التصدير عاملا مهما في تحديد سياسة مجموعة « كور » وتخطيطها لتوسيع الانتاج . ففي عام ١٩٧١ بلغت

قيمة البضائع المصدرة ٥٠ مليون دولار بينما كانت ٣٠ مليون دولار عـــام ١٩٧٠ و٢٤ مليونا عام ١٩٦٩ .

ثلاث مؤسسات تنتج حوالي ٧٠ ٪ من المنتجات المعدة للتصدير وهي تاديران (١٥ مليون دولار) ، ماشتشيم (١٠ م. د.) وسلطان (١٠ م. د.)(١٢).

احدى المجموعات التي تتفرع عن شركة « كور » الام هي « أعمال كور المعدنية » وهي تضم ١١ مؤسسة ، تستخدم الفي عامل ، اما حجم عملياتها فيبلغ ١٠٠ مليون لـــيرة اسرائيلية عام ١٩٧١ . بالنسبة لعام ١٩٧٢ قدر حجم العمليات بـــ ١٨٠ مليون ليرة اسرائيلية(١٣). حاليا تنتج انشاءات لتخزين البترول كالانشاءات الموجودة في عسقلان وفي ايلات ، ومحطات كهربائية قوية الانتاج لحساب شركة كهرباء اسرائيل ورادار ضخم للمحطة الفضائية التي انشأتها وزارة المواصلات كما بنت الهانفار الجديد الذي يأوي طائرات الجمبوجت الضخمة في مطار اللد .

ان اهم مؤسسات مجموعة « كور المعدنية » هي :

ــ مركفين المحدودة : متخصصة بانتاج الادوات المعدنية الضخمة كعربات قطر سكك الحديد وسيارات النقل الكبيرة .

ــ الـــ « أغان » : متخصصة بانتاج البضائع الحديدية التي تحتاج اليها المصانع ونوادي الرياضة ... وهي تعمل بترخيص من شركة « بتلر » الاميركية وهـــي من الشركات الكبرى في العالم .

ــ الـــ « حامات » تنتج عددا من البضائع المعدنية كالبطاريات التي تصدر منهـــا جزءا كبيرا اذ بلغت المبيعات عام ١٩٧١ في الخارج مليون ونصف مليون دولار .

ــ الـــ « سيمات » تنتج الالات الصناعية وقطع الغيار للطائرات .

وقد قدر هولز مدير « كور المعدنية » قيمة البضائع التي كان من المنتظر ان تصدرها هذه الشركة عام ١٩٧٢ بـــ ٨ ملايين دولار(١٤). ولم يتوفر لدينا احصاءات اليوم لتأكيد هذا القول .

في قطاع الخدمات تملك الهستدروت شركة تأمين « حسنيه » وبنـــك « هبوعليم » وهو يعد ثالث بنك في اسرائيل من حيث الاهمية . وله فرع في امريكا يستثمر بواسطته الرساميل في الولايات المتحدة ، كما يحتكر من خلال امتلاكه لمؤسسة « كوبات حوليم » الصحية تقديمات الضمان الاجتماعي : ٧٧ ٪ من السكان يستفيدون مـــن خدماته . وتجدر الملاحظة الى تأثير الهستدروت على الادخار المالي في الاقتصاد لانه يدير سبعة صناديق تقاعد . بلغت قيمة الاموال المخزنة في هذه الصناديق اكثر من مليار ليرة اسرائيلية في العام ١٩٦٩ فهي تشـــكل مصدر تمويل هـــام لمشـــاريع الهستدروت الاقتصادية(١٥).

ب ــ **أهمية قطاع الهستدروت في الاقتصاد الاسرائيلي:** ما هي أهمية قطاع « الاقتصاد العمالي » في مجمل البنية الاقتصادية ؟ ما هو حجم مساهمته بالانتاج الداخلي الصافي وفي العمالة ؟ هل تتقلص اهمية الهستدروت بالنسبة للقطاع الخاص ؟ ولماذا ؟

عدد من الاسئلة سوف نحاول الاجابة عليها استنادا الى الاحصاءات التي بين أيدينا. تبين دراسة قام بها حاييم باركي ان مساهمة الهستدروت بالانتاج الداخلي الصافي عام ١٩٥٧ بلغت ٢٠،٦ ٪ وعام ١٩٦٠ ٢٠،٤ ٪ فقد حافظت على نفس المستوى . امـــا القطاع الخاص فهو المساهم الاساسي : ٥٨،٥ ٪ عام ١٩٦٠ .

مساهمة القطاعات بالانتاج الداخلي الصافي (النسبة المئوية)

	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠
القطاع الخاص	٥٨،٥	٦٠،٠	٥٨،١	٥٨،٥
القطـــاع العام	٢٠،٩	٢٠،٠	٢١،٦	٢١،١
القطاع الهستدروت	٢٠،٦	٢٠،٠	٢٠،٣	٢٠،٤
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

Haim Barkai, The Falk Project for Economic Research in Israel, Sixth Report 1961 - 63. Jerusalem, Central Press, 1964.

اذا كانت مساهمة الهستدروت في الانتاج الداخلي الصافي تبلغ ٢٠،٤ ٪ فان جزءا كبيرا منها (١٠،١ ٪) قد حققته المؤسسات التي تستخدم العمل المأجور والتي يساهم الهستدروت بنسبة ٥٠ ٪ من رأسمالها (لا تضم المؤسسات تعاونيات الانتـــاج ، الموشافيم والكيبوتز) . لا توجد احصاءات رسمية عن مساهمة الهستدروت في الانتاج الداخلي الصافي بعد عام ١٩٦٠ . ان تقديرات مؤسسة البحوث الاقتصادية والاجتماعية التابعة للهستدروت هي التالية : تراوحت هذه النسبة بين ٢٢،٥ ٪ و٢٣،٣ ٪ خلال الاعوام ١٩٦٠ — ١٩٦٥ وتدنت الى ٢١،٦ ٪ و٢١،٨ ٪ عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ . أما عام ١٩٦٨ فبلغت ٢٠،٨ ٪(١٦). أما تقديرات أخرى فتشير الى تدني هذا القطاع الى ١٥ ٪ عام ١٩٦٥(١٧).

— اهمية الهستدروت حسب فروع النشاط الاقتصادي : ان الاحصاءات المتوفرة لدينا لعام ١٩٥٩ تشمل كل فروع النشاط الاقتصادي ولعـــام ١٩٦٥ تنحصر فقـــط بالقطاع الصناعي .

يستخدم الهستدروت ٢٢،٦ ٪ من مجموع اليد العاملة ، أما القطاع الخاص فيبقى القطاع المهيمن في كل الفروع والمجالات باستثناء النقل والمواصلات ؛ أما الهستدروت فهو يتخطى القطاع العام : في القطاع الزراعي تبلغ مساهمة الهستدروت ٣٢ ٪ من الانتاج الداخلي الصافي (٥،٨ ٪ للقطاع العام) ويستخدم ٤٧،٦ ٪ من اليد العاملة في هذا القطاع ، اما في قطاع البناء فهو يساهم بنسبة ٣١،٩ ٪ من الانتاج الداخلي الصافي (١٠،٦ ٪ للقطاع العام) ويستخدم ٢٦،٦ ٪ من اليد العاملة ، في الصناعة ٢٢،٢ ٪ من الانتاج الداخلي الصافي (٤،٣ ٪ للقطاع العام) و ١٧،٥ ٪ من مجموع اليد العاملة — يبين الجدول التالي توزيع الانتاج الصافي والعمالة على القطاعات وفروع النشاطات الاقتصادية لعام ١٩٥٩ .

فروع النشاط الاقتصادي	توزع الانتاج الداخلي الصافي حسب القطاعات(١) (النسب المئوية)				توزع العمالة حسب القطاعات(٢) (النسب المئوية)			
	المجموع	العام	الخاص	الهستدروت	المجموع	العام	الخاص	الهستدروت
الزراعة ، التحريج والصيد	١٠٠	٦٧،٢	٠،٨	٣٢،٠	١٠٠	٥١،٠	١،٤	٤٧،٦
الصناعة والمناجم	١٠٠	٧٣،٥	٤،٣	٢٢،٢	١٠٠	٨٠،١	٢،٤	١٧،٥
البنـــــاء	١٠٠	٥٧،٥	١٠،٦	٣١،٩	١٠٠	٦٧،١	٦،٣	٢٦،٦
المـاء والكهرباء	١٠٠	—	١٠٠	—	١٠٠	—	١٠٠،٠	—
النقل والمواصـلات	١٠٠	٢٢،٧	٤٠،٣	٣٧،٠	١٠٠	٥٤،٣	٣٢،٤	٢٢،٣
البنوك والمـــال	١٠٠	٨٩،٨	١،١	٩،١				
التجـــــارة	١٠٠	٨٤،٢	١،٢	١٤،٦	١٠٠	٥٣،٩	٣٠،٤	١٥،٧
الخـدمات العـــامة	١٠٠	—	٩٧،٠	٣،٠				
المجمـــوع	١٠٠	٥٨،٢	٢١،٥	٢٠،٣	١٠٠	٥٩،٨	١٧،٦	٢٢،٦

المصدر : ١ — Schlomo Sitton, *L'économie d'Israel*, p.142.

٢ — David Horowitz, *The Economics of Israel*, p. 40.

ـ القطاع الصناعي التابع للهستدروت : ان المؤسسات الصناعيـة التـــابعة للهستدروت أكبر من مؤسسات القطاع الخاص وهي تتمركز خاصة في الصناعات التي تتطلب نسبة مرتفعة من الرأسمال ، في الصناعات المعدنية الاساسية (تسـاهم عام ١٩٦٥ في ٤٨ ٪ من العمالة) ، في المناجم غير المعدنية (٢٥،٥ ٪) ، في الاخشـــاب ومشتقاتها (٢٢،٩ ٪) وفي المناجم (٢١ ٪).

في عام ١٩٦٥ بلغ عدد اليد العاملة التي يستغلها الهستدروت ٣٣ الف في القطـــاع الصناعي فقط ، ٤٨ ٪ منهم يعملون في مؤسسات حفرات عوفديم ، ٣١ ٪ في مؤسسات الكيبوتز و ٢١ ٪ في التعاونيات(١٨).

لقد تدنى حجم اليد العاملة الصناعية التي يستخدمها الهستدروت في العام ١٩٦٥ بالنسبة لما كان عليه عام ١٩٥٩ . ففي هذا العام بلغت النسبة ١٧،٥ ٪ من مجموع اليد العاملة الصناعية واصبحت عام ١٩٦٥ ١٥،١ ٪ . يعود هذا الانخفاض الى هيمنة القطاع الخاص . عام ١٩٦٥ ، كانت ٩٣،٣ ٪ من المؤسسات الصناعية تتبع القطاع الخاص وتستخدم ٧٦ ٪ من اليد العاملة الصناعية . ان حفنـــة من المجموعات المالية (بنك ديسكونت ، الشركة المركزية للتجارة والصناعة ، مجموعة ولفسون ، بنك ليومي) تسيطر على ثلاثة ارباع الانتاج ، كما ورد في بنك اسرائيل . من ناحية أخرى ٩٦ ٪ من المؤسسات التي انشئت في السنوات العشر الماضية تتبع القطاع الخاص(١٩)، بينمـــا ٥،٥ ٪ فقط من المؤسسات تتبع قطاع الهستدروت الذي يستخدم ١٥ ٪ من مجموع اليد العاملة الصناعية . اما القطاع العام فيملك من المؤسسات بنسبة ١،٢ ٪ ويستخدم ٨،٥ ٪ من مجموع اليد العاملة الصناعية .

	عدد المؤسسات	٪	اليد العاملة	٪	معدل الاستخدام في المؤسسة الواحدة
القطـــاع الخاص	٢٢٨٨٧	٩٣٫٣	١٧٠٠٤٩	٧٦٫٠	٧
القطاع الهستدروت	١٢٥٤	٥٫٥	٣٣٧٠٨	١٥٫٠	٢٥
القطاع العـــام	٢٨٧	١٫٢	١٩٠٣٥	٩٫٠	٦٦
المجمـــوع	٢٤٥٢٨	١٠٠٫٠	٢٢٢٧٩٢	١٠٠٫٠	٩

المصـــدر : *Statistical Abstract of Israel*, 1967.

ج ـــ **تراجع الهستدروت لمصلحة القطاع الخاص** : برهنت النتائج السابقة الاهمية الكبرى التي يأخذها القطاع الخاص على حساب قطاع الهستدروت وتؤكد لنا احداث اخرى تمت ما بعد عام ١٩٦٧ صحة هذا الاتجاه .

خسر حزب الماباي ـــ وهو الحزب الحاكم ـــ بعض مراكزه في الهستدروت فهو كان يمثل دائما الاكثرية وقد حصل على ٦٢ ٪ فقط من مقاعـــد الهستدروت في الانتخابات الكونفدرالية عام ١٩٦٩ بينما نال ٧٧٫٥ ٪ من المقاعد عام ١٩٦٥ . فالحزب اليميني المتطرف « حيروت » Herout قد حقق تقدما اذ نال ٢٠ ٪ من المقاعد عام ١٩٦٩(٢٠).

ومن جهة اخرى ، فقد برز بوضوح التناقض بين البورجوازية الصهيونية (المهيمنة على الهستدروت والقطاع العام) والبورجوازية الاسرائيلية العالميـــة (المهيمنة على القطاع الخاص) عندما انعقد المؤتمر الاقتصادي الدولي للميليادير اليهود في القدس في نيسان ١٩٦٨ . أصر الميليارديـر ، وعددهم سبعون ، بأن تلعب الحكومة الاسرائيلية دور الشريك فقط على غرار اصحاب المؤسسات الخاصة وطلبوا بأن يكون للاستثمارات مردودا عاليا وان يتقلص تأثير القطاع التعاوني (الهستدروت) على الاقتصاد . في هذا المؤتمر تطرق آلان بروفمان ، وهو كندي ، الى موضوع الضمانات التي تقدمها الحكومة للقطاع الخاص وطرح الاسئلة التالية : « هل يوجد تضييق على نمو الاعمال الخاصة ؟ هل تفسح النقابات العمالية المجال امام الاستثمارات الخاصة لتحصيل الارباح ؟ هل تسمح البنية (الوضع) الاقتصادي باختراق السوق العالمية ؟ هل توجـد افضليات ممنوحة للمؤسسات العامة او للمؤسسات التي تديرها الدولة ، بحيث يستطيع القطاع الخاص المنافسة وتأمين مدخول مرضي ؟ » . أن الجواب على بعض هذه الاسئلة قدمه رئيس جمعية الصناعيين في اسرائيل والناطـــق بلسان المؤسسات الخاصة « زلمـــان سوزاييف » الذي قال : « لا الهستدروت ولا الدولة ستتدخل بالاعمال ونشهد منذ فترة وجيزة اتجاها للأبقاء على الوضـــع القائم »(٢١). نستدل من الاسئلـــة المطروحة ان البورجوازية العالمية تشكو من العوائق التي يخلقها وجود القطاع التعاوني امام توسع اعمالها ، مما دفعها لرهن الاستثمار بعدد من الشروط اهمها تخفيف اثر الهستدروت في الاقتصاد .

بعد حرب ١٩٦٧ وبالتحديد بعد مؤتمر الميليارديـر عـــام ١٩٦٨ نمت الاستثمارات الخاصة بوتيرة مرتفعة على حساب قطاع الهستدروت . فمثلا عرض اثناء المؤتمر شارل كلور وهو انكليزي ويملك شركة الكترونية ضخمة (تلكو) في انكلترا عرض دمجها مع شركة تلراد التابعة لشركة « كور » ولوزارة الدفاع . وقرر بيتمان ، وهو من الولايات المتحدة ، ليس فقط طبع كتب بالاشتراك مع الهستدروت، وانه ايضا يتعهد بترويج هذه الكتب في أسواق الولايات المتحدة نفسها(٢٢). ان اتجـــاه اشراك القطاع الخـــاص

بمؤسسات الهستدروت قد عبر عنه ممثل الهستدروت في المؤتمر اشير يدلين : « ان حفرات عوفديم (التابعة للهستدروت) تتطلع باهتمام لاقامة الصلة مع رجال الاعمال الاجانب بغية جذب الاستثمارات الاجنبية »(٢٣). وهكذا فبين المشاريع المقدمة من قبل الهستدروت للمؤتمر الاقتصادي توجد عروض توسيع فنادق موجودة في ايلات (فندق ايلات) وفي القدس (فندق « موريه ») ، وكذلك بناء فنادق جديدة في منطقة تل أبيب، ان نسبة مساهمة الرأسماليين الاجانب في هذا المشروع السياحي تبلغ ٥٠ ٪(٢٤). ومن ناحية اخرى باعت شركة « كور » والشركة المركزية عام ١٩٧١ مصالحها في شركة الباصات الانكليزية « ليلند » . سوف تسدد شركة « ليلند » والرأسمالي اسحاق شوبينسكي مليوني ليرة اسرائيلية وهو ثمن نصف الاسهم التي تملكها شركة كور والشركة المركزية(٢٥).

الهستدروت أداة سيطرة سياسية وايديولوجية على البروليتاريا اليهودية لضرب نضالها الطبقي وتأمين تماسك المجتمع الاسرائيلي :

لم يكتف الهستدروت بدوره باستعمار فلسطين وطرد الشعب الفلسطيني منها واستغلال العمال اليهود ، فهو بالاضافة الى هذا كله يعمل من خلال موقعه « كنقابة » على لجم النضال الطبقي . وقد لعب الهستدروت دورا مهما على الصعيد الايديولوجي في صفوف العمال اليهود بتعبئتهم حول شعارات « العودة الى الارض » ، « العمل لليهود » ، « الانتاج اليهودي » . وهكذا وضع الهستدروت مصلحة الصهيونية على رأس اهتماماته على حساب دوره كنقابة : فقد أوضح مؤسسوها ان « المصلحة القومية » هي أولى من « المصلحة الاقتصادية » و« المصلحة الثقافية » . حتى اليوم ما زال الهستدروت يلعب هذا الدور بكسر الاضرابات وبتقديم العمال للمحاكمة امام « محكمة داخلية » وهذا باسم « المصلحة القومية » وبحجة التعبئة ضد العدو الخارجي. هذا ما تؤكده اضرابات عمال احواض اسدود عام ١٩٦٩ واضرابات صيف ١٩٧١ . لقد قدم العمال المعارضون امام « المحكمة الداخلية » واتهموا بأنهم أعضاء في حركة فتح وانهم مخربون لان عمال الاحواض في أسدود رفضوا الانصياع لطلب الهستدروت بوقف الاضراب(٢٦). اما اضرابات صيف ١٩٧١ فقد شملت قطاعات عديدة : عمال أسدود ، عمال المرفأ والمطارات والاطباء . . . مما دفع سابير وزير المالية للاعلان « ان هذه الاضرابات هي أشد خطورة من الحرب » . كما أعلنت غولدا مئير : « ان خضات من هذا النوع ادت الى الفاشية في بلدان أخرى . ان الوضع يتدهور ليس بسبب العرب بل بسببكم انتم »(٢٧).

بحكم دوره ، للهستدروت تأثير كبير في اوضاع الطبقة العاملة لا يتأخر في استعمالها او التهديد بها كما حدث عام ١٩٦٩ اثناء اضراب عمال احواض أسدود . لقد هددت ادارة الهستدروت العمال الذين قدموا للمحاكمة بقولها : « اذا ادنتم فسوف تطبق عليكم العقوبة القصوى وهي تعني حرمانكم من منافع الضمان الاجتماعي لكم ولعائلاتكم »(٢٨). وبالفعل يحتكر الهستدروت بشكل شبه تام كامل التقديمات والضمانات الاجتماعية . ولهذا السبب ينتسب العمال اليه . ان هذا الموقع يسمح باستمرار سيطرته على الطبقة العاملة اذ يصبح النضال ضد الاستغلال في هذا الوضع صعب . فالعامل يجابه بالصرف من العمل وتجويعه هو وعائلته . « على العامل ان يطيع « الهستدروت » او يتخلى عن الحفاظ على عائلته » (أوري افنيري) .

من ناحية أخرى كتب جورج فريدمن الذي جاء بزيارة الى اسرائيل يقول : « التقيت بموظفين وجامعيين يعلنون ان السبب الرئيسي لانضمامهم للهستدروت هو الـ « كوبات حوليم » »(٢٩). والكوبات حوليم هي أضخم مؤسسة صحية في اسرائيل تابعة

للهستدروت ، تبلغ ميزانيتها ضعف ميزانية وزارة الصحة ويستفيد من خدماتها ٧٧ ٪ من السكان . هدف الهستدروت من ذلك تأمين استمرارية علاقات الانتاج بتوزيعهـا فتات ارباح الرأسمالية الهائلة وابقاء الوعي الطبقي في حدوده الضيقة بانتهاجها هذه السياسة الاصلاحية .

ان الهالة الدعائية الكثيفة التي يراد بها حجب دور الهستدروت الفعلي بتصويره انه يقوم بالدفاع عن مصالح العمال وسائر الاجراء لم تنجح ، فهو الاداة الرئيسية لقمع الاضرابات ، كما انه في الحقيقة كرب عمل يقوم بالدفاع عن مصالح ارباب العمل ، لم يعد ينخدع العمال بحقيقة الهستدروت انهم ناقمون على الوضع ويعبرون عن نقمتهم باضرابات لا تتقيد مطلقا بأوامر الهستدروت لا بل تتجه ضده . وسيتضح ذلك فيما يلي:

نضال العمال اليهود في فلسطين : لم تكن الصهيونية بتوجهها لليهود بجميع طبقاتهم وفي سائر انحاء العالم تريد تحقيق مصالحهم . كانت تحقق فقط مصالح الطبقة التي حملت هذه الايديولوجية . ان دفع اليهود الشرقيين للهجرة من بلادهم لـم يكن بهدف تحسين وضعهم وشروط معيشتهم ، لقد كانت البورجوازية الصهيونية بحاجة الى طبقة عاملة يهودية لتستغلها ولتشكل الاطار القومي الضروري الذي يسمح لها بلعب دور طبقي قيادي في المجتمع الجديد ولكي تستطيع اضطهاد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية بشروط افضل . لقد هاجر اليهود « السفراد » الى اسرائيل على أمل تأمين حياة افضل وايجاد المساواة كما صورتها لهم الدعاية الصهيونية .

بعد انتفاضة « الفهود السود » في اسرائيل يقول الصهاينة انهـم فشلوا في تأمين المساواة وانهم سيولون موضوع اليهود « السفراد » الاهتمام الكامل لحله خلال فترة السنوات العشر القادمة . ولكن بعيدا عن ضجيج الدعاية فان مسألة المساواة تضرب بجذورها في أسس المجتمع الاسرائيلي وتطلب لحلها تغيير النظام الراسمالي الصهيوني القائم على استغلال قوة العمل . فحل مسألة المساواة بين الطبقة العاملة وارباب العمل في ضمن النظام الراسمالي ادعاء واهم .

ومن جهة اخرى تواجه اسرائيل تناقضا ناتجا عن عملها لتحقيق أحد أهداف الصهيونية وهو صهر اليهود المشتتين في مختلف انحاء الارض لان ذلـك يضع مجموع اليهـود « السفراد » لمواجهة نظـام رأسمالي صهيونـي يختلف عن النظـام الراسمـالي « التقليدي »(٣٠). ان حل هذا التناقض يستدعي طرح مبرر وجود دولة اسرائيل .

ان الايديولوجية الصهيونية تطمس وتشوه التناقضات الطبقية . فالشعب مستنفر لمواجهة العدو الخارجي : تصور الصهيونية الشعب الفلسطيني والشعوب العربية انها قوى غريبة عن فلسطين وبالتالي معادية لتحرر « الشعب اليهودي » .

تلعب الايديولوجية دورا فائق الاهمية تستخدمه الطبقة الحاكمة لتطمس الاستغلال الطبقي وكما يقول محمود حسين : « ذاتيا يتصرف المستعمرون كما لو انهم رواد قضية مثالية ، مقتنعون « بحقوقهم التاريخية » ومستعدون للموت في سبيل تحقيقها » ولكن « موضوعيا تصرفهم عنصري معاد للعـرب ، استعماري ، قمعي يخـدم الامبريالية مباشرة »(٣١) .

ان تطور أشكال النضال الذي تواجه به الطبقة العاملة في اسرائيل الطبقة المستغلة الاستعمارية بطبيعتها لن يتم بين ليلة وضحاها . فالوعـي الثوري تنضجه النضالات الطويلة والشاقة .

كيف يتم نضال العمال اليهود اليوم في اسرائيل :

١ ــ **نضالات العمال : أشكالها وأهدافها** : على الرغم من الايديولوجية التي ما زالت تؤمن تماسك المجتمع الاسرائيلي في ظــل هيمنة الصهيونيـــة ، قام العمال اليهــود بانتفاضات عديدة ضد الاستغلال والقهر الذين يتعرضون له . يدل على ذلك سلسلة الاضرابات المهمة التي حصلت على امتداد عامي ١٩٦٥ ــ ٦٦ . في هذه الفترة بلغت التناقضات الطبقية ذروتها نتيجة الازمة التي كان يعانيها النظام الراسمالي الصهيوني ، اذ تدنت المساعدات الخارجية* . فكون هذه المساعدات تشكل كدعامة هامة تستند اليها دولة اسرائيل وقعت بأزمة اقتصادية فارتفعت الاسعار وطالت البطالة ٩٠ الف عامل . في هذه الفترة بلغ مجموع المضربين ٩٠ الفا عام ١٩٦٥ بينما كان ٤٨ الفا عام ١٩٦٤ . أن عوارض التفكك هذه التي بدأت تظهر في المجتمع الاسرائيلي ما لبثت حرب حزيران ٦٧ أن أضعفتها . لقد أعيد تماسك مختلف الطبقات « لصد الخطر الخارجي » ! فلم تشمل الاضرابات عام ١٩٦٨ الا ٤٢ الفا . والجدير بالملاحظة هو ان ما حصل الان كان قد حصل في السنوات السابقة لحرب السويس عام ٥٦ وفي السنوات التي تلتها . يبين الجدول التالي تطور عدد الاضرابات في الفترة الممتدة بين ١٩٤٩ و١٩٦٩ :

السنة	عدد الاضرابات	عدد المضربين (بالالوف)	عدد ايام الاضراب (بالالوف)
١٩٤٩	٥٣	٥	٥٧
١٩٥٠	٧٢	٩	٥٥
١٩٥١	٧٦	١٠	١١٤
١٩٥٢	٩٤	١٤	٥٨
١٩٥٣	٨٤	٩	٣٥
١٩٥٤	٨٢	١٢	٧٢
١٩٥٥	٨٧	١٠	٥٤
١٩٥٦	٧٤	١١	١١٣
١٩٥٧	٥٩	٤	١١٦
١٩٥٨	٤٨	٦	٨٨
١٩٥٩	٥١	٦	٣١
١٩٦٠	١٣٥	١٤	٤٩
١٩٦١	١٢٨	٢٧	١٤١
١٩٦٢	١٤٦	٣٨	٢٤٣
١٩٦٣	١٢٧	٨٧	١٢٩
١٩٦٤	١٣٨	٤٨	١٠٢
١٩٦٥	٢٨٨	٩٠	٢٠٨
١٩٦٦	٢٨٢	٨٧	١٥٦
١٩٦٧	١٤٢	٢٥	٥٨
١٩٦٨	١٠١	٤٢،١(١)	٧١،٢(١)
١٩٦٩	١١٤	٤٤،٥(١)	١٠٢

المصــدر :

Annuaires Statistiques, 1965 and 1967, Bank of Israel Annual Report, 1967.
(1) *Israel Economist,* May 1970, p. 117.

* من ٣٤١ مليون دولار عام ٦٥ أصبحت ٢٩٢ مليون دولار عام ٦٦ .

خلال عامي ٧٠ — ٧١ ارتفعت نسبة الاضرابات وازدادت نقمة العمال . يرجع ذلك الى أن موازنة الدفاع تمتص نسبة هامة من موازنة الدولة (حوالي ٤٠ ٪ و٣٠ ٪ من النتاج القومي العام) . تميزت فترة عامي ٧٠ — ٧١ بانتفاضة الفهود السود فقامت عدة مظاهرات في القدس وفي تل ابيب ، فاعتقل اثناءها رجال البوليس عددا منهم وجهت اليهم تهم الخيانة وارتكاب جريمة . فوجئت غولدا مئير بمظاهرات الفهود السود وطرحت : « أيعقل أن يقذف يهود على يهود آخرين قنابل مولوتوف في بلد يهودي » !!

المستوى الذي بلغه النضال الطبقي : ما زال نضال العمال في اسرائيل يقتصر على المطالبة بتحسين اوضاع المعيشة والعمل ولم يصل بعد الى المستوى السياسي ليطال طبيعة الدولة الاسرائيلية . واليهود الشرقيون يأملون في أن يعاملوا كاليهود الغربيين وشعار الفهود السود الاول طرح التساؤل التالي : متى يصبح اليهودي الشرقي كاليهودي الغربي . ان وعي اليهود الشرقيين لموقعهم الطبقي وهم يشكلون البروليتاريا ما زال مطموسا الى حد ما بالعامل العنصري فهم يعتبرون ان الشروط المعيشية التي يعانون منها تعود لكونهم شرقيين لذلك فنقمتهم موجهة ضد اليهود الغربيين وليس ضد الطبقة المستغلة .

ان مسألة المساواة بين اليهودي الشرقي والغربي هي طرح جزئي وغير متكامل للمشكلة بأبعادها الحقيقية وهي مسألة تحرر البروليتاريا من استغلال وقهر الطبقة الحاكمة . لذلك فالجواب عليها يتم بالوعي الثوري لطبيعة الكيان الصهيوني الاستعماري . ان ما قاله ماركس : « الشعب الذي يقهر شعبا آخر لا يمكن ان يكون حرا » يعبر أصدق تعبير أن يحدد بشكل واضح الترابط بين قمع الفئات الكادحة والبروليتاريا في اسرائيل وقهر الشعب الفلسطيني والشعوب العربية . معنى ذلك ان نضال الفئات الكادحة في اسرائيل ضد استغلالها وقهرها يجب ان يتلاءم مع نضالها ضد سياسة الاضطهاد التي تمارسها اسرائيل تجاه الشعب الفلسطيني والشعوب العربية. وبكلمة أخرى ان يرتقي النضال الاقتصادي الى مستوى النضال السياسي . لقد وصف لينين النضالات الاقتصادية بالعفوية والعفوية هي دلالة عدم ادراك الجماهير لنمط الانتاج الراسمالي . لقد فسر ذلك لينين بقوله : « ان العامل العفوي هو في حقيقته الشكل الجنيني للوعي . ان التمردات البدائية هي التعبير عن تكوين الوعي اذ يفقد العمال ايمانهم بدوام النظام الذي كان يرهقهم . وعلى الرغم من انها تعبير عن يأس وانتقام اكثر من كونها نضال »(٣٢). ان تاريخ نضال الطبقة العاملة في روسيا يبين ان التمردات والاضرابات التي وقعت بعد عام ١٨٩٠ لم تتعد الصراع بين العمال وأرباب العمل (الصفة المميزة الاقتصادية) لتطال نمط الانتاج الراسمالي . بهذا الصدد ، يقول لينين ، « اذا كانت الاضرابات التي وقعت بعد عام ١٨٩٠ تمثل تقدما هائلا بالنسبة لما كانت تعبر عنه « العصيانات » الا انها بقيت حركة عفوية أساسا»(٣٣).

هذا وبقيت الاضرابات في اسرائيل ضمن اطار العمال وأرباب العمل دون ان تتخطاها للنضال ضد نمط الانتاج الراسمالي وطبيعة الكيان الصهيوني ولكن بقاء هذه الاضرابات دون المستوى السياسي لا يلغي اطلاقا كونها تشكل مرحلة ارقى في وعي البروليتاريا .

٢ — **النضال الطبقي خارج الهستدروت** : ان اتساع النضالات العمالية خارج الهستدروت يمثل مرحلة ارقى في وعي الطبقة العاملة . وقد اتضح لهذه الطبقة بأن الهستدروت أداة بيد الطبقة الحاكمة لاستمرار سيطرتها .

ان ازدياد الوعي في صفوف الطبقة العاملة يستدل في عدد من الظواهر : ففي الانتخابات النقابية لعام ١٩٦٩ بلغت نسبة الممتنعين عن الادلاء بأصواتهم ٤٠ ٪ بينما كان معدل هذه النسبة في السنوات السابقة يتراوح بين ١٥ و ٢٥ ٪ كحد اقصى(٣٤). وكدليل آخر احصاء قام به الهستدروت نفسه ونشرت نتائجه في الدليل السنوي الذي أصدره عام ١٩٦٦ وقد جاء فيه «ان قسما لا يستهان به من العمال لا يتلمس اطلاقا مدى نشاط الهستدروت في الميدان النقابي ويعتبر ان وضعه لن يتغير بغياب النقابة العمالية». وهذا معناه ان « النقابة » موجودة اسما وغائبة فعلا . وورد أيضا : « ٢٠ ٪ من العمال أعلنوا ان اضرابات قد حصلت في مؤسساتهم مخالفة لراي الهستدروت ، ٤٧ ٪ كان رأيهم انه في بعض الحالات من الافضل أن يعلن العمال الاضراب بلا ترخيص من الهستدروت ، وردا على سؤال : لماذا انتم اعضاء في الهستدروت ؟ فكانت الاجوبة على الشكل التالي :

٧٠ ٪ انتسبوا بشكل عفوي او لانهم « اضطروا » او « لاسباب شخصية » او « تمشيا مع العادة » او بسبب « الضمانات الاجتماعية » ، ١٦ ٪ لاسباب ايديولوجية ، ١٣ ٪ لان الهستدروت يدافع عن مصالح العمال »(٣٥).

بالاضافة الى ما تبينه هذه الاحصاءات من وعي عند العمال فان نضالات العمال هي دلائل أخرى تثبت هذا الواقع خاصة وان الاضرابات التي تحصل خارج « النقابة » تزداد وتتسع . فالاضرابات التي سمحت بها الهستدروت خلال عام ١٩٦٥ لم تتخط ٢٨،١ ٪ من مجموع الانقطاعات عن العمل . بلغت هذه النسبة ٤٣،٨ ٪ عام ١٩٦٦(٣٦). فهذه الاضرابات تعلن دون موافقة « النقابة » وتستمر رغم عدم الموافقة . فمثلا عام ١٩٦٩ بلغ عدد الاضرابات ١١٠ منها ٦٢ دون موافقة الهستدروت و٤٨ سمح بها . ٩٥ اضرابا حقق نتائج ايجابية للعمال من اصل الـ ١١٠ ، ٤٧ منها لم يسمح بها الهستدروت(٣٧).

٣ ــ **النضال ضد الهستدروت** : يشن العمال ايضا نضالات في مؤسسات الهستدروت الاقتصادية. يرتكز هذا القطاع كالقطاعين الخاص والعام على استغلال الطبقة العاملة. لقد أعلن وزير الزراعة حاييم جفاتي وهو أحد المسؤولين الرئيسيين في الهستدروت في مجلس للهستدروت عقد عام ١٩٦٤ : « لم ننجح بتحويل هذا الغنى الهائل الى خلايا اقتصاد اشتراكي . لم ننجح في الحفاظ على الطابع العمالي لقطاعنا الاقتصادي . في الواقع لم نعد نرى ما يميزه عن باقي القطاع العام وحتى في بعض الاحيان عن القطاع الخاص . فقطاعنا الاقتصادي لا يتميز بمناخ مختلف ، بعلاقات عمل مختلفة كما لا نلاحظ أيضا علاقات انسانية مختلفة عن اية مؤسسة اخرى »(٣٨).

ان الصراعات في مؤسسات الهستدروت قد أضاعت ٣٩٤٥٨ يوم عمل بينما بلغ هذا الرقم ٦٠١٧٦ في القطاع الخاص و١٠٥٥٩٦ في القطاع العام(٣٩). ان القطاع العام والهستدروت هما ، كما اوضحنا سابقا ، الادوات التي تستخدمها البورجوازية لتمكن سيطرتها على المجتمع وتدعم موقفها القيادي لسائر الطبقات الاخرى .

الخاتمة

لقد توخينا في هذه الدراسة المساهمة بفهم الدور الذي لعبه الهستدروت في المجتمع الاسرائيلي منذ تكوينه حتى اليوم وعلى كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية لقناعتنا بأن المعالجة الايجابية لا بد ان تحيط بالموضوع من كافة جوانبه لترابطها وتكاملها . كما أوضحنا بعض المفاتيح التي استخدمناها في التحليل . قد يتبادر الى الذهن التباس سرعان ما يوقع المفكرين وطالبي المعرفة بوهم مؤداه امكانية نشوء

قطاع عام أو أي شكل مؤسسي آخر ، كالهستدروت ، تلتقي فيـــه علاقات الاستغلال فيسعى لتحقيق أهداف سامية تحلق فوق الواقع . ان ما أردنا توضيحه هو ان هذه الافكار هي أحلام ليلة صيف سرعان ما تنتهي ، لنبـــين أن أهداف الهستدروت هي المساهمة باستعمار فلسطين وانه كأي مؤسسة اخرى يسعى الى الربح المادي لا فرق ان كان هذا الربح قريب المنال او بعيـــد الاجل . بعض الاقتصاديين وعلماء الاجتماع الصهاينة كـ « ايزنشتادت » Eisenstadt يقولون : « الهستدروت والقطـــاع العـــام يستثمرون بفروع غير مربحة «لتطوير» البلد ولاعتبارات «قومية»(٤٠) ولكن يستنكفون عن فهم الدوافع الحقيقية . فالقطاع الاقتصادي من الهستدروت والقطاع العام هما بيد الصهيونية ، لذلك يشكلان حماية من الدولة للبورجوازية لتقوم بعملية الاســـتعمار الاستيطاني وتوسيع الارض .

---

١ — Eisenstadt, *Israeli Society*, London 1967, p. 38

٢ — **المصدر نفسه .**

٣ — Revue ISRAC, Haim Hanegbi in « *La Histadrouth, syndicat-patron* », 1er semestre 1970, p. 22.

٤ — La Palestine économique 1936, « *Organisation des Travailleurs* », numéro spécial des Cahiers Juifs, pp. 166-167.

٥ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٦ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٢ .

٧ — *The Europa Year Book*, 1969, Vol. 11, p. 696.

٨ — Georges Friedmann, « *Fin du peuple juif;* » Collection Idées, p. 111.

٩ — *Israel Economist*, Sept. Oct. 1972, p. 246

١٠ — *Israel Economist*, June 1972, p. 157.

١١ — **المصدر نفسه .**

١٢ — *Israel Economist*, June 1971, p. 205

١٣ — *Israel Economist*, Sept. Oct. 1972, p. 246

١٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٤٧ .

١٥ — Schlomo Sitton, *L'économie d'Israel*, p. 146

١٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٣ .

١٧ — Cahiers du Centre d'Etudes Socialistes : « *Imperialisme au Moyen-Orient* », No 99-103, 1970, p. 44

١٨ — Israel Economic Development, *Past Progress and Plan for the Future*, Jerusalem, March 1968, p. 412.

١٩ — *Israel Economist*, March 1967, p. 62

٢٠ — Revue Partisans : Eli Lobel in « *L'escalade à l'intérieur de la société israélienne* », No 52, mars-avril 1970, p. 116.

٢١ — *Israel Economist*, May 1968, p. 180

٢٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨٠ .

٢٣ — **المصدر نفسه** ، ص ١٨٠ .

٢٤ — *Israel Economist*, May 1968, p. 194.

٢٥ — *Israel Economist*, February 1971, p. 83.

٢٦ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢٧ — *Le Monde*, 29-9-71 : «Israel au-delà des modèles», par Pierre Drouin.

٢٨ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢٩ — ج. فريدمن ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٢ .

٣٠ — Rouge, *Journal de la Ligue Communiste en France*, juin 1971: interview d'Aric Boher (Matzpen)

٣١ — Mahmoud Hussein : *La lutte des classes en Egypte*, Ed. Maspero, p. 342.

٣٢ — لينين ، **ما العمل ؟**

٣٣ — **المصدر نفسه .**

٣٤ — لوبيل ، **المصدر السابق** ، ص ١١٦ .

٣٥ — هانجبي ، **المصدر السابق**، ص ٢٣ — ٢٤.

٣٦ — *Israel Economist*, April 1967, p. 90.

٣٧ — *Israel Economist*, May 1970, p. 117.

٣٨ — هانجبي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٣٩ — *Israel Economist*, Sept. 1966.

٤٠ — ايزنشتادت ، **المصدر السابق**، ص ١٠٣ .

بين الوفاق والانفراج

اسحق الخطيب

ان مثلنا الاعلى هو : انهاء الحروب ، والسلم بين الامم ، وايقاف النهب والعنف .

لينين(١)

لعل أكثر التعابير خداعا في اللغة السياسية هو ما اصطلح عليه « بالوفاق الدولي » اثر لقاء القمة السوفياتي — الامريكي في حزيران من العام الماضي . ويكمن الخداع في كونه محاولة التفاف على شعار آخر ناضلت من أجله البشرية طوال اكثر من نصف قرن ، الا وهو شعار الانفراج الدولي أو التعايش السلمي . فكأن مروجي التعبير الجديد يهدفون الايحاء بأن شيئا ما ، جديدا ، أخذ يبرز على المسرح الدولي ... شيئا بدون جذور ، ولا يربطه رابط بالشعار النضالي الذي اخذ يفرض نفسه على مجرى الحياة السياسية في السنوات الاخيرة .

وعمليات الالتفاف من هذا النوع ليست نادرة في التاريخ ، فمن قبل حاول خصوم الاشتراكية بعد أن عجزوا عن مقاومتها او الاستمرار في تجاهلها ، ان يطلقوا عليها تسميات مختلفة كالعدالة الاجتماعية حينا او الاشتراكية المعتدلة حينا آخر . وكذلك فعل خصوم عيد العمال في أول أيار حين اضطروا للاعتراف به تحت اسم عيد العمل !

ان الوفاق ، لغويا ، لا يختلف في المعنى عن الانفراج والسلم وبقية حبات مسبحة المترادفات التي تزخر بها لغتنا العربية . ولكنه في المفهوم السياسي وبالطريقة التي اخرج بها عبر الصحافة والتصريحات الرسمية ، ليس الا تحايلا القصد منه اضفاء الطابع التآمري على لقاء القمة وابرازه في وضع المتعارض مع أماني الشعوب وعلى حسابها .

وعلى النطاق العالمي حيث بقيت كلمة الانفراج Détente هي التعبير المعتمد ، فقد جهد خصوم الانفراج على اعطاء تفسيرات ومضامين مختلفة . فالبعض يحرص على اظهار الانفراج حصيلة طبيعية لتقارب النظامين : الاشتراكي (الذي أصبح ليبراليا) والراسمالي (الذي تخللته الاشتراكية) ، وان دخولهما « مجتمع ما فوق الصناعي » قد وحد اهدافهما ! والبعض الاخر يصور الامر تخليا عن الاشتراكية لصالح الرأسمالية وتواطؤا سوفياتيا صريحا لاقتسام مناطق النفوذ . فما هي حقيقة الامر ؟

يعلمنا الديالكتيك انه لتفسير ظاهرة ما ، فان الامر يستدعي فك واعادة تركيب الاجزاء والعوامل التي تتكون منها الظاهرة . وفي موضوعنا ليس من طريق أسلم من العودة الى طبيعة النظامين وموقف كل منهما من قضية الحرب والسلام وما ترتب على هذا من ممارسات . فكل اناء — كما يقول مثلنا العربي — ينضح بما فيه ، وكل طبيعة تعبر عن نفسها بشكل ممارسات تطبيقية تنعكس تلقائيا عن هذه الطبيعة . فالانظمة الاجتماعية تحكمها قوانين موضوعية اكثر مما تحكمها رغبات البشر وارادتهم ، وهي تسير وفق هذه القوانين الخاصة بها في كل مرحلة من مراحل تطورها .

طبيعة النظام الرأسمالي

يعرف النظام الراسمالي ، تبسيطا ، بأنه نظام الحد الاقصى من الارباح . وسعيا وراء هذا الهدف يخوض الراسماليون صراعـــا ضاريا لا رحمة فيه . وبفعل هـــذا الصراع يتطور النظام الراسمالي من المنافسة الحرة الى الاحتكار ، الـــى رأسمالية الدولة الاحتكارية وما يرافق هذا من نشوء الاستعمار ، وينقلب الشعـــــار الـــذي استلهت به الرأسمالية عهدها الزاهر من Laissez-Faireدعه يعمل ، الى Laissez-Mourir دعه يموت .

يتميز النظام الراسمالي بفوضى الانتاج وغياب البرمجة والتخطيط ، الامر الذي يولد أزمات فائض انتاج بشكل دوري . اذ طالما بقي الطابع الاجتماعي للانتاج نقيضا للتملك الفردي لوسائل الانتاج في النظام الراسمالي ، فان أزمات الانتاج وما يترتب عليها من تدمير للقوى المنتجة تبقى ملازمة للنظام كجزء من طبيعته . ان القوانين في الرأسمالية تعمل وفق قوانين الطبيعة العمياء المدمرة والخارجة عن ارادة الانسان .

وتحاول الرأسمالية التخفيف من آثار هذه الازمات او اجراء تباعد بـــين فترات وقوعها ، فتلجأ الى توجيه الاقتصاد وجهة عسكرية بغية تنشيط الانتاج وامتصـــاص الفائض منه . فالرأسمالي ، بتملكه وسائل انتاج الخيرات المادية ، لا يقوم بتلبيـــة حاجات الناس من وجهة نظر رئيس جمعية خيرية ، وانما لان هذا يتيح له فرصة تحقيق ارباحه . فاذا ما اكتشف ان صنفا اخر من المنتوج ، مدفعا او دبابة او حتى أسلحـــة جرثومية ، يحقق له الشيء نفسه وبمقاييس أعلى ، فانه سرعان ما يحول خط انتاجه في هذا الاتجاه . ويتحول جزء من الاحتكارات الى الانتاج الحربي كوسيلة لتنشيـــط الحياة الاقتصادية التي دب بها الركود ، ومما يوفره هذا النمط من الانتاج من وتائر أعلى في فائض القيمة .

وخلال مرحلة زمنية قد تقصر او تطول ، يتخيل النظام الراسمالي انه وجـــد في التسلح بلسمه الشافي ، ومن أجل تبرير هذا التوجه يفتعل عداوات خارجية ويؤجج روح العداء القومي ويكبح الصراعات الداخلية ويمتص مداخيل الشغيلة بشكل ضرائب متزايدة للانفاق العسكري . ويتولد عن هذا جو هستيري يغري بالتدخل الاســـتعماري مما يوتر الاجواء الدولية ويخلق المناخ الصحي الذي تتنفس فيه الرأسمالية بشهيق أعمـــق .

ان الروح العدوانية للراسمالية جزء من طبيعتها ، وهذا يطبعها ، خاصة فـــي المراحل العليا من تطورها ، بطابع رجعي وقمعي في الداخل والخارج كمعيقة لتطور القوى المنتجة وتقدم الشعوب . وفي مجال العلم والثقافة تقف الرأسمالية موقفا مغايرا لذاك الذي وقفته في بدء نشأتها عندما كان العلم والثقافة يخدمان أهـــدافها في وجه النظام الاقطاعي الآيل للسقوط . وليس بودنا الاحاطة بكـــل جوانب الرأسماليـــة وافرازاتها بقدر ما يهمنا الوصول الى اخطر ما تجد الراسمالية نفسها أسيرة له بحكم قوانين تطورها ، وهو شهوة العدوان .

فاذا ضربنا صفحا عن الحروب التي كانت تشنها الدول الرأسمالية ضد بعضهـــا من أجل اقتسام اسواق العالم وبسط سيطرتها عليها ، ووقفنا أمام ردود الفعل التـــي انتابتها من جراء قيام طراز جديد من الدول خارج اطار رأس المال ، وهو الحدث الذي ولد مقولة التعايش السلمي (موضوع بحثنا) ، لوجدنا ان الرد علـــى أول مرسوم أصدرته السلطة السوفياتية في اليوم الاول من قيامها ، وهو مرسوم السلام ، كان التدخل المسلح بأربع عشرة دولة رأسمالية لخنق المولود في مهده .

منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا ، دأبت الدول الرأسمالية الكبرى على التهيئة للحرب ضد الاتحاد السوفياتي بشتى الطرق والاساليب أملا في أن تحين الفرصة للانقضاض عليه بعد محاصرته واضعافه . ولئن كانت الامكانية قد أخذت تضعف شيئا فشيئا على مر السنين ، فليس مرد هذا تحكيم منطق العقل لدى قادة الدول الرأسمالية أو حدوث تغيير في طبيعة رأس المال ، وانما لعدة أسباب اخرى سنأتي على ذكرها.

بعد ان فرغ الحلفاء من اقتسام غنائم الحرب العالمية الاولى ، اعلن ويلسون رئيس الولايات المتحدة الامريكية في ذاك الحين الحرب على الثورة الاشتراكية عبر تصريحه « بأن القوى الحليفة ليس لديها النية لان تقف موقف اللامبالاة بالنسبة للبلشفية » .

واذ فشل العدوان الذي استمر أربع سنوات ، لجأت الدول الاستعمارية الى فرض حصار اقتصادي ودبلوماسي بغية اضعاف النظام وخلق شروط افضل لهزيمته. وحتى عام ١٩٢٤ لم يكن سوى بضع دول يعترف بالاتحاد السوفياتي ويقيم معه علاقات تجارية ، وظل هذا الحال ، مع تطور بسيط ، حتى عام ١٩٣٣ اثر عدوان اليابان على الصين وقيام حكم فاشي في المانيا . اذ برزت الضرورة لانفراج اكبر بغية صد العدوان ، وتم عقد اتفاقيات مع العديد من البلدان ودخل الاتحاد السوفياتي عصبة الامم .

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبروز منظومة اشتراكية على انقاض المجتمعات الرأسمالية في شرق اوروبا ، اخذت الدول الرأسمالية تشعر بتزايد الخطر على انظمتها ، وخرجت الولايات المتحدة الامريكية على المسرح الدولي كزعيمة للدول الرأسمالية ووريثة امبراطورياتها .

ان القوة المتزايدة التي خرجت بها الولايات المتحدة من الحرب ، قياسا بالدول الرأسمالية الاخرى سواء تلك التي ذاقت طعم الهزيمة او الانتصار ، قد مكنتها من بسط سيطرتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية على مجموع العالم غير الاشتراكي، وتمكنت عن طريق « مساعداتها » ، وهي في الغالب الاعم مساعدات عسكرية ، وتصدير رؤوس الاموال واقامة القواعد والاحلاف العسكرية، ان تجر العديد من الدول الى جو الحرب من جديد .

ففي أوروبا انشأت حلف الناتو وفي آسيا حلف السنتو وحلف السيتو والحلف الاسيوي الباسيفيكي « أسباك » ، وحلف الانزوس (بينها وبين استراليا ونيوزيلاندة)، الى جانب ٤٢ اتفاقية ثنائية اخرى مع دول في آسيا وامريكا اللاتينية وأوروبا(٢).

استلغت امريكا انفرادها بامتلاك القنبلة الذرية لاتباع سياسة ابتزاز دولية ، فأخضعت العديد من الدول بحجة حمايتها وزرعت في أراضيها ٣٤٠٥ قواعد عسكرية بين صغيرة وكبيرة(٢)، وفرضت على هذه الدول نفقات عسكرية باهظة وجرتها الى سياسة الحرب الباردة .

في هذا الجو ابتدعت الولايات المتحدة مشروع مارشال ومبدأ ترومان ومبدأ ايزنهاور وشنت الحرب الكورية وحرب الهند الصينية وتدخلت في اليونان وغواتيمالا والدومينيك وكوبا ولبنان ، وقلبت أنظمة حكم عدة دول في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . وكما يقول ريتشارد بارنت ، احد كبار موظفي الخارجية الامريكية ومدير معهد الدراسات السياسية في واشنطن ، فان الولايات المتحدة كانت منذ الحرب العالمية الثانية تتدخل بهذا الشكل او ذاك في الدول الاجنبية بمعدل مرة واحدة كل ١٨ شهرا .

ورافق هذا تسعير جو محموم ضد القوى الديمقراطية في الداخل عن طريق لجنة

مكارتي . وفي فرنسا انهارت حكومة الوحدة الشعبية التي كانت تضم الشيوعيين بتحريض من الولايات المتحدة ، وبزغ نجم دعاة الانتقام وحظر نشاط الحزب الشيوعي في المانيا الغربية .

اوكلت الولايات المتحدة لنفسها مهمة الدرك العالمي ، فما من بلد لا يكيف اوضاعه وفق هذه الصيغة الا وناله من الولايات المتحدة نصيب من المحاصرة او التآمر او العدوان ، اما تجاه دول المعسكر الاشتراكي فان مهمة الدركي الامريكي تحرير شعوبها !

كانت دقات طبول الحرب هي النغم المفضل في الولايات المتحدة ، وأخذت الدعاية للحرب تجد تعبيرا لها في الافلام ووسائل الاعلام ومراكز الابحاث ودور العلم . وليس صدفة ان تبعث نظريات مالتوس عن طريق مجموعة أساتذة في جامعة بنسلفانيا . للتبشير بأن « الانفجار السكاني لهذا القرن سيكون مدمرا بنفس القوة التدميرية للقنبلة الذرية او الحرب العالمية »(٤).

ارتفعت النفقات العسكرية في الموازنة الامريكية من ٩،٠٧٪ عام ١٩٣٩ الى ٤١،١٪ عام ١٩٦٧ ، وبلغت عام ١٩٦٩ ٨١،٣ مليار دولار ، وان كانت في حقيقة الامر تتجاوز ١١٢ مليارا اذا ما احتسبنا اعتمادات هامة مندرجة تحت بنود اخرى(٥). وما ينطبق على امريكا ينسحب على معظم الدول الراسمالية خاصة تلك التي تشكل مجموعة حلف الاطلسي حيث بلغت النفقات العسكرية لعام ١٩٧١ ١٣٠ مليار دولار .

من خلال التلويح بالخطر القادم من الشرق ، ومكائد الشيوعية التي تهدد النظام من الداخل ، استطاعت الولايات المتحدة ان تبسط سيطرتها على العالم غير الاشتراكي برمته ، وان ترتب فيه اوضاعا آمنة لتغلغل راسمالها فيه بشكل واسع ، فقد بلغت التوظيفات المباشرة حسب احصاء عام ١٩٦٧ ١٨،١ مليار دولار في كندا و١٠،٤٢ مليارات في امريكا اللاتينية و٤،٠٧ مليارات في آسيا وافريقيا ، و١٧،٩ مليارا في أوروبا(٦). واستطاعت الشركات الامريكية ان تسيطر في هذه البلدان على ١٥ ٪ من انتاج السلع الاستهلاكية ، و ٥٠ ٪ من انتاج أشباه الموصلات و٨٠ ٪ من انتاج الحاسبات الالكترونية ، غير انشاء السيارات والنفط والانشاءات الميكانيكية ومناجم الماس والكوبالت والمنغنيزيوم(٧). وعن هذا الطريق أمكن للاحتكارات الامريكية ان تجني ٥٧ مليار دولار أرباحا صافية في العام ، اي ما يعادل ١٠٠ ٪ من حجم توظيفاتها الخارجية ، علما بأن التوظيفات في النفط والماس والكوبالت في دول العالم النامي تعود بمردود يقارب الـ ٣٠٠ ٪ .

وفي كتابه « راس المال » يحدد ماركس عملية نشاط الراسمال كما يلي : « متى كان الربح ملائما صار الراسمال جريئا ، ومتى بلغ ١٠ ٪ مضمونة أمكن استعمال الراسمال أينما كان ، ومتى بلغ الربح ٢٠ ٪ أخذت الراسمال الحمية ، ومتى بلغ ٥٠ ٪ صار الراسمال ذي جسارة جنونية ، ومتى بلغ ١٠٠ ٪ داس الراسمال جميع الشرائع الانسانية ، ومتى بلغ ٣٠٠ ٪ فلا تبقى هناك جريمة لا يقدم على ارتكابها حتى ولو تعرض لحبل المشنقة » .

ولنتوقف عند هذا الحد ، وان كان الوقوف عند حبل المشنقة لا يجلب البهجة ! ولنلق نظرة اخرى على طبيعة النظام الاشتراكي المعاكسة .

طبيعة النظام الاشتراكي

اذا كانت الرأسمالية ، كما رأينا ، تجد في توجيه الاقتصاد فوائد جمة تجنيها في العديد من المجالات ، واذا كان الاستغلال الطبقي المصحوب بالقهر هو الاساس الذي تقوم عليه الرأسمالية في الداخل ، فان استغلال الشعوب الاخرى واخضاعها عن طريق القوة والتدخل والحروب بغية استغلالها ونهب ثرواتها ، هو امتداد خارجي للحالة الداخلية ، وكلاهما يعبران عن طبيعة رأس المال . وعلى النقيض من ذلك يقوم الاقتصاد الاشتراكي الذي يهدف سد الحاجات القصوى المادية والروحية للناس .

في احدى مراحل تطور الرأسمالية ، وعند بلوغ التناقض اشده بين العمل ورأس المال ، وتوفر ظروف موضوعية وذاتية في بلد معين ، تقلب الطبقة العاملة النظام الرأسمالي وتبني مجتمعها الجديد الخالي من كل أشكال استغلال الانسان لاخيه الانسان .

والطبيعة الاشتراكية للنظام الجديد ، تتنافى ، كنقيض ، مع اهداف وطبيعة النظام الرأسمالي وممارساته . فهي سعيا منها وراء تحقيق مثالها الاقتصادي « سد حاجات الناس القصوى المتنامية » ، تسعى الى خلق وفرة في الانتاج المادي والروحي عن طريق تخطيط مبرمج . وتسعى في الوقت نفسه الى خلق انسان جديد يتخذ موقفا مغايرا من العمل ويعتبر استغلال الانسان عارا بشريا وبعيدا عن الكرامة الانسانية .

ومن المفيد التذكير ان هذا الموقف الذي يتخذه الانسان في النظام الاشتراكي ليس مرده في الاساس النوازع العاطفية بل طبيعة النظام الذي أوجدت هذه العواطف . وما ينطبق عليه ينطبق ايضا على الرأسمال ونوعية عواطفه . فليس بالضرورة ان يكون الرأسمالي شريرا بالفطرة ، ولكن طبيعة رأس المال في دورته الشهيرة ، تطبع الرأسمالي بكل صفات رأس المال الذي « يدوس على جميع الشرائع الانسانية ويقدم على ارتكاب اية جريمة حتى ولو تعرض لحبل المشنقة » .

ان طبيعة الاشتراكية الخالية من الاستغلال الطبقي في الداخل تشترط خلوها — بالنتيجة — من الاستغلال والقهر في الخارج . وشعار الاشتراكية في خلق وفرة انتاج مادية وثقافية لسد حاجات الناس المتنامية تفترض تلقائيا نبذ الانتاج العسكري باعتباره هدرا لا يسد حاجة بشرية . واضطرار الاشتراكية اتباع هذا النمط من الانتاج مرده حماية مكاسب النظام الاشتراكي امام تطاولات الرأسماليين . فاذا كان التوجه للانتاج العسكري فيه انعاش للاقتصاد الرأسمالي في فترات معينة ، فان مثل هذا الانفاق في النظام الاشتراكي يسبب عرقلة ويوقع اضرارا بالغة في الاقتصاد ، واللجوء اليه — اضطرارا — ليس سوى من قبيل الضريبة الفادحة التي لا بد منها في ظل التطويق الرأسمالي وخططه الرامية لسحق الاشتراكية وحركات التحرر في العالم .

ان النظام الاشتراكي القائم على السلم الداخلي بعد ان انتفى فيه صراع الطبقات اثر سقوط طبقة الرأسماليين وكبار الملاكين المستغلة ، يحتاج الى سلم خارجي كشرط من شروط تطوره وازدهاره . وهو اذ تحدوه الامال بالانتقال الى النظام الشيوعي حيث وفرة الانتاج التي لا سابق لها في تاريخ البشرية ، وحيث تتحقق فيه شخصية الانسان — اثمن رأسمال في الوجود — على اتم وجه ، فانه يحرص على كل ما من شأنه توفير الجو الملائم لهذا التطور .

ليس من مصلحة النظام الاشتراكي في الحروب العدوانية التي تستهدف فتح أسواق

جديدة واخضاع شعوب اخرى ، طالما انه اقتلع من الجذور تلك الطبقة التي تتطلع الى ما وراء حدودها سعيا وراء مجالات أوسع للاستثمار وتحقيق المزيد من الارباح عن طريق التدخل والحروب ، اذ فقط الشعب الفاقد حريته في الداخل يساق للحرب بغية افقاد شعوب اخرى حريتها لحساب مستغليه ... « لا يمكن ان يكون حرا ، الشعب الذي يستعبد شعبا اخر — ماركس » .

واستلهاما بالنظرية الماركسية اللينينية التي تعتبر الثورة نتاج صراعات طبقية داخلية وبروز وضع ثوري داخلي ، فان النظام الاشتراكي كذلك ، يعتبر تصدير الثورة امرا غريبا عليه ومنافيا لطبيعته .

الى جانب الطبيعة السلمية للنظام الاشتراكي كأساس هام من اسس تطوره وازدهاره ، وعامل فعال في تعميق أزمة النظام الرأسمالي من خلال ظروف اكثر ملاءمة لانضاج الصراع الطبقي وتشديد النضال التحرري للشعوب ، فان النظام الاشتراكي يرتكز في سياسته الخارجية على مبدأ الاممية البروليتارية ، اذ يجد من واجبه ، ومصلحته كذلك ، مد يد المساعدة للشعوب المناضلة ضد سيطرة الاستعمار ورأس المال ، واستدراكا أقول ، انني لا اتكلم عن الواجب من منظار اخلاقي ولا عن المصلحة من زاوية انانية، فالاشتراكية التي تشكل التناقض الرئيسي مع رأس المال والامبريالية، ترى نفسها في خندق واحد وتحالف طبيعي مع كل القوى المناضلة ضد العدو المشترك، فالواجب ينبع من طبيعة الاشتراكية وفاشيا مع مصلحتها ، وما ضير الاشتراكية والحالة هذه اذا ما انسجمت مصلحتها ومصلحة الشعوب ؟ اليس في هذا ضمانة أكبر للشعوب في تمتعها بهذا الواجب الاممي وما يترتب عليه من مساعدات اخوية في كافة مراحل نضالها وتطورها ، مما لو كان الامر مرتبطا بعاطفة فرد او ضرورات مصلحية لمرحلة طارئة ؟

انطلاقا من هذا الانسجام ، بل الترابط العضوي في المصالح ، تقدم الاشتراكية للشعوب العون المتعدد الوجوه ، وكلما نمت قوى الاشتراكية انعكس مردود هذا النمو على الشعوب بشكل او بآخر ، والى جانب العون المادي والمعنوي المباشر ، تقدم الاشتراكية بقوة المثال عونا غير مباشر لا يقل اهمية ، فعن طريق هذا المثال وما يقدمه من حلول للمشاكل الاجتماعية والقومية ، تلعب الاشتراكية دور الملهم لشغيلة البلدان الراسمالية في تشديد نضالها ضد رأس المال وبناء مجتمعها الجديد على انقاضه ، وتحفز شعوب البلدان الاخرى للانعتاق من نير الاستعمار والتخلف والسير على طريق التطور المستقل. كما أنها تقوم بدور الكابح لتجاوزات الامبريالية على سيادة الشعوب، وتشكل ضغطا غير مباشر على الراسمالية في اتجاه دفعها للقيام بتنازلات جزئية لصالح الشغيلة في بلدانها .

ان التأثير الذي تمارسه الاشتراكية على مجمل العملية النضالية في العالم ليس تأثيرا أحادي الجانب ، فبالمقابل تنعكس ايجابا انتصارات الشعوب على تطور الاشتراكية وتوفر لها ظروفا افضل ، فالعلاقة بين الطرفين علاقة جدلية يؤثر الواحد منهما في الاخر .

ان اخلاص الاشتراكية للسلم والتعايش السلمي لا يعادله سوى الاخلاص لمبادىء الاممية البروليتارية ، وكلاهما وجهان للعملة التي يتداولها النظام الاشتراكي . وليس بين دعم السلم ودعم نضالات الشعوب وحروبها العادلة تناقض كما يبدو من الناحية الشكلية ، فالماركسية تقر « ان هناك حروبا عادلة واخرى ظالمة ، ونحن نقف بلا تحفظ مع الاولى وبلا تحفظ ضد الثانية — لينين » .

السلم في ممارسات الاشتراكية

حتى مطلع القرن الحالي لم تكن الماركسية قد عالجت مسألة التعايش السلمي انطلاقا من أن رائدي الاشتراكية العلمية ، ماركس وانجلز ، لم يريا في ظل ظروف الرأسمالية التي عايشاها امكانية انتصار الاشتراكية في بلد واحد . وكان للينين الفضل الاول في ملاحظة ان الدول الرأسمالية لا تتطور بوتيرة واحدة وانما بدرجات متفاوتة ، مما يولد في السلسلة الرأسمالية حلقات ضعيفة يسهل كسرها بمطرقة الثورة الاشتراكية .

من خلال هذه الرؤية استنتج لينين امكانية التعايش السلمي بل وحتميته في عالم يقتسمه نظامان متضادان . ورأى ان التعايش السلمي بين النظامين ليس من شأنه حماية الثورة الاشتراكية الوليدة وتوفير وسائل بقائها وازدهارها فحسب ، بل هو الى جانب ذلك أداة هدم للاسس التي يقوم عليها النظام الرأسمالي . فالتعايش السلمي في المفهوم اللينيني ليس فقط طريقا لانتفاء الحرب ، بل اسلوب للعلاقات بين الدول يحترم السيادة الوطنية ويضمن التطور المستقل للشعوب وحقها في اختيار نمط حياتها دون خوف من تدخلات خارجية ، كما أنه شكل اخر من الصراع الطبقي على النطاق الدولي . ومنذ نداء السلم الذي ولد على فم ثورة اكتوبر في يومها الاول عام ١٩١٧ ، حتى البرنامج السلمي الذيأقره المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٧١ ، فان نشاط السلطة السوفياتية ، وفيما بعد منظومة الدول الاشتراكية وقوى السلم والحرية في العالم ، قد تميز بالنضال الدؤوب من اجل السلم والانفراج الدوليين . واذا كان النضال في بادىء الامر يحمل طابعا دفاعيا عن الثورة الاشتراكية، فانه مع اضطراد نمو النظام الاشتراكي وازدياد جبروته ، قد اخذ يتحول الى مرحلة الهجوم ، وأخذ جيش السلام يتسع بانضمام دول وطنية حديثة الاستقلال وبروز حركات تحرر وطني وتعزز أحزاب الطبقة العاملة . وتوفرت قوى اعظم لتصعيد الضغط على الامبريالية واجبارها في النهاية على احترام السلم :

● **قوى المنظومة الاشتراكية** : ان الاشتراكية التي شقت طريقها في بلد واحد تعداد سكانه ١٥٠ مليونا قبل اكثر من نصف قرن ، قد أصبحت نظاما اجتماعيا لمنظومة اشتراكية تضم ١٤ بلدا تعداد سكانها يربو على الالف وثلاثمائة مليون انسان . والاشتراكية التي لم تكن عند قيامها تساهم في الانتاج الصناعي وميدان التجارة العالميين بأكثر من ٣ ٪ اصبحت تشكل حتى عام ١٩٧٠ اكثر من ٤٠ ٪ .

لقد تطور الانتاج الاجمالي للصناعة السوفياتية عبر نصف القرن الماضي بأكثر من ٥٠ ضعفا . وتضاعفت تجارته مع البلدان النامية ٣٠ مرة عما كانت عليه سنة ١٩٤٦ ، وبلغت مع الدول الرأسمالية المتطورة ستة مليارات روبل عام ١٩٧٢ . وفيما كان الحجم العام للدخل الوطني قد بلغ في اعوام (٣٦ — ٤٠) ١٥٤ مليار روبل ، فقد بلغ في أعوام (٦٦ — ٧٠) ١١٦٦ مليار روبل وهذا بدوره يزداد بنسبة ثابتة قدرها ٨ ٪ سنويا(٨). اما بقية دول مجلس التعاضد الاشتراكي فقد ضاعفت انتاجها الصناعي بحوالي سبع مرات خلال اعوام ١٩٥٠ — ١٩٧٠ .

ان الاتحاد السوفييتي يحتكر منذ زمن بعيد المراتب الاولى في العالم بالنسبة لعدد المهندسين والاطباء والعلماء والطلاب واقصر اسبوع عمل . هذا التعاظم في مقدرة المعسكر الاشتراكي ينعكس تلقائيا على مدى تأثيره في سير الاحداث العالمية ، فلم يعد مشكوكا فيه ان الاشتراكية ، وليست الرأسمالية كما كان الامر في الماضي ، هي التي تطبع سير الاحداث بطابعها وتوجه مسار التاريخ وجهته الحتمية .

● **قوى الدول الوطنية وحركات التحرر** : تسارع تطور الحركات التحررية في العالم بعد الحرب العالمية الثانية بشكل لم يسبق له مثيل ، ونالت ١١٣ دولة استقلالها السياسي وانفصلت عن التبعية المباشرة للاستعمار ، وهي وان ظلت تدور في فلك السوق الرأسمالية ، الا أن أقساما منها اخذت تشق طريق حياتها المستقل سياسيا واقتصاديا ، وأخذت تسير في طريق آخر غير الطريق الراسمالي .

لقد وجدت هذه الدول التي خبرت مآسي الاستعمار والحروب العدوانية ، في النضال من أجل السلم والانفراج الدوليين فرصة ملائمة لكبح جماح تطاولات مستعمريها السابقين عليها ، وشكل العديد منها مجموعة عدم الانحياز بمفهومه النضالي الموجه ضد الاستعمار ومحاولاته فرض أحلافه عليها ، شعورا منها بأن جو الحرب الباردة يتيح للمستعمرين خلق ذرائع التدخل في شؤونها الداخلية واعادتها الى حظيرة الاستعمار من جديد . لقد اثار هذا الموقف استياء وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك ، جون فوستر دالاس ، الذي وصفه بالموقف اللاخلاقي .

ان حركات التحرر الوطني التي لم تصل للسلطة بعد ، تزداد قوة وترسخا على مر الايام . كما تشهد قارات آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية نهوضا شعبيا لتطوير انماط حياتها في اتجاه ديمقراطي وتقدمي .

وتبرز كمثال ساطع لحركات التحرر ثورة الشعب الفيتنامي التي عمقت أزمة النظام الامريكي واوقعته في ارتباطات مالية ونقدية وتسببت له بعجز في ميزانيته لعام ١٩٦٩ مقداره ٢٥ مليار دولار(٩). وخلقت الى جانب ذلك تأثيرا هائلا على جماهير الشعب الامريكي الذي لم يسبق أن اهتز ضميره مثلما اهتز من جراء الحرب الفيتنامية . لقد تحرك الشعب الامريكي مثقلا بتأنيب الضمير والشعور بالذنب ضد حكومته لوقف تدخلها في الفيتنام ، وهذا التحرك الواسع وان كان مقتصرا لحد الان على قضية محددة، الا أنه سيترك أثره بالتأكيد على ذهنية الفرد الامريكي ويدفعه لتساؤلات أعمق تجره لتحرك سياسي واجتماعي أشمل . ان تزايد حالات الفرار من الجيش ورفض التقدم للخدمة العسكرية ، ظاهرة لا تنم عن جبن تجاه الموت بقدر ما تدلل على موقف سياسي تجاه حرب قذرة ، ففي عام ١٩٦٨ وحده تضمنت سجلات وزارة الدفاع الامريكية ٥٣ الف حالة فرار و٢٣ الف حالة رفض خدمة(١٠). وفي هذا يكمن المعنى العميق لما قاله ملك بروسيا في القرن الثامن عشر « لو علم جنودنا من اجل اي هدف نشن الحروب ، لما كان ممكنا على الاطلاق شن حرب واحدة » .

ان مثال الفيتنام الهم بالقدر نفسه الشعوب المناضلة من أجل تحررها وحقها في اختيار حياتها المستقلة ، وزعزع ثقة الحكام الرجعيين في قدرة امريكا على حماية انظمتهم من انتفاضات شعوبهم .

● **قوى الطبقة العاملة في النظام الرأسمالي** : تلعب الطبقة العاملة في النظام الرأسمالي دورا هاما في النضال من أجل السلم، فهي بنضالاتها الاقتصادية والسياسية تزعزع اسس النظام الرأسمالي القائم في الاساس على استغلالها . ولقد تطور هذا النضال بحيث اخذ يشمل جماهير اوسع وأوسع من الشغيلة ذوي الياقات الزرقاء والبيضاء على السواء . ففي ظل راسمالية الدولة الاحتكارية تأخذ جماهير واسعة في الانضمام الى حلبة الصراع الاجتماعي الى جانب الطبقة العاملة ، فالفلاحون وصغار المنتجين وكل جماهير البرجوازية الصغيرة تصبح هدفا مباشرا للاستغلال من قبل الاحتكارات .

خلال الستينات بلغت أيام العمل الضائعة من جراء الاضرابات في البلدان الرأسمالية

المتطورة ١١٧٠٤ ملايين يوم عمل ، وارتفع عدد المضربين بين أعوام (٤٦ — ٦٠) الى ٢٢٢ مليون مضرب(١١) . وفي أمريكا وحدها بلغ عدد الاضرابات عــام ١٩٦٨ ٥٠٤٥ اضرابا بخسارة قدرها ٦٩ يوم عمل .

لم تعد الاضرابات ذات صفة مطلبية فقط ، وانما تعدتها لمطالب سياسية ، فقد بدأ الاضراب في البلجيك عام ١٩٦٠ بالمطالبة بالغاء تجميد الاجور وانتهى بمطالب ضد حلف الاطلسي وأسقاط الحكومة . وفي فرنسا بدأ اضراب الشغيلة عام ١٩٦٨ من اجل رفع المستوى المعاشي وأدى الى اضعاف الحكم المطلق .

ان المستوى العالي من التركز والتمركز الذي وصل اليه الاحتكار قد جعل ثروات المجتمع في قبضة حفنة ضئيلة من الطغمة المالية . ففي الولايات المتحدة تسيطر أقلية لا تتجاوز ½ ٪ من عدد السكان على ثلث الانتاج(١٢)، وفي بريطانيا يسيطر ٥ ٪ من السكان على ٦٢ ٪ من الانتاج(١٣)، اما في المانيا فان ٥ ٪ من السكان يملكون ٥٣ ٪ من ودائع البنوك(١٤) .

وما يزيد الطين بلاً توجه هذه الاحتكارات الى الانتاج العسكري وادخال التحسينات عليه ، الامر الذي يزيد من نفقات تكلفته ، اذ ارتفعت تكاليف انتاج الغواصة عما كانت عليه سنة ١٩٤٥ بأربعين مرة، وحاملة الطائرات بعشر مرات، والقاذفات الاستراتيجية بـ ٣٦ مرة ، والمقاتلات بـ ١٣٠ مرة(١٥) .

ان هذا الوضع وما رافقه من بطالة دائمة تقدر بـ ٤ ٪ من مجموع الايدي العاملة ، وارتفاع الضريبة التي تمتص ثلث المداخيل(١٦)، وتجميد الاجور وتفاقم الغلاء ، قد دفع بأوساط اوسع من الناس للنضال ضد الاحتكارات ونهجها الحربي . ففي حين تزداد الاحتكارات غنى يزداد وضع الاغلبية الساحقة من الجماهير صعوبة ، ويتكثف بشكل أشد حرمانها الاقتصادي وافقارها المعنوي ، وتتقلص الفرص أمام تطور الشخصية واغنائها بالعلم والثقافة . وتزداد الجريمة وتتسع الهوة بين مداخيل الفقراء والاغنياء (ازدادت ارباح الاحتكارات في السنين العشر الاخيرة بنسبة ٩٤ ٪ في حين لم تزد الاجور الا بـ ٣٢ ٪)(١٧) . وفي تقرير أعده السناتور جوزيف كلارك يتبين ان الجريمة في الولايات المتحدة ازدادت بين اعوام (٥٧ — ٦٧) من مليون ونصف المليون الى اربعة ملايين حالة وان ٧٧ مليون أمريكي يعيشون في حالة فقر(١٨) .

يصف ماركس وضع الانسان في المجتمع الرأسمالي بما يلي: « بالرغم من ان الانسان يختلف عن كل أنواع الحيوانات الاخرى في مجال احتياجــاته اللامحدودة وامكانيــة تطويرها باتســاع ، فليس هناك من حيوان آخر يقلص احتياجاته ويقتصرها على هذا الحد البائس من مستوى المعيشة مثله »(١٩) .

ان تقلص احتياجات الانسان الناجم عن تقلص دائرة الثروة في أضيق بقعة من قمة الهرم الاجتماعي في النظام الرأسمالي ، يستتبعــه بالضرورة تقلص في ثقة الجماهير بامكانية تحسين أوضاعها المعاشية في ظل هذا الاسلوب من الانتاج ، وفي قدرة هذا النظام الذي يعج بالازمات النقدية والاقتصادية والفضائح السياسية ، على تحقيق مطامحها . أن تحركات الشباب والطلاب والمثقفين وهم في الغالب الاعم ابناء البرجوازية الصغيرة والمتوسطة ، لدليل على عمق أزمة الثقة بالنظام الذي كان حتى الامس القريب مثار اعجابهم .

الى جانب هذا الصراع المحتدم بين الجماهير وفي طليعتها الطبقة العاملة نظــرا لموقعها في عملية الانتاج ، والاحتكارات ، فان صراعا آخر أخذ يشتد بين الاحتكارات الرأسمالية نفسها . فلقد فعل قانون التفاوت في التطور بين الدول الرأسمالية فعله ،

واخذت الدول التي كانت في موقع التبعية بالنسبة للاحتكار الامريكي ، تتخلص شيئا فشيئا من هذه التبعية وتشكل مراكز اقتصادية تنافس الاقتصاد الامريكي وتتناقض معه . فاليابان تحتل الآن المركز الثالث بالنسبة لمجمل انتاجها الوطني ، وتشكل دول السوق الاوروبية المشتركة قوة اقتصاديـــة يحسب حسابها في مواجهـــة الاقتصاد الامريكي . وهذا بدوره انعكس على مواقفها السياسية حيال العديد من القضايا التي كانت تكوّن فيها قناعاتها عبر القناعة الامريكية فيما مضى . فأخذت تتمرد على سياسة الحرب الباردة ، وتخفف من التزاماتها بحلف الاطلسي ، وتخرق التعهدات التي كبلتها بها مواد قانون « باتل » الامريكي بالنسبة للاتجار مع المعسكر الاشتراكي . واذا كان مثال فرنسا ساطعا في هذا المجال ، فليس أقل منه كثيرا موقف الدول الاخرى التي ظهر تناقضها مع الولايات المتحدة بشكل أبرز من السابق ابان حرب تشرين الاخيرة حين عارضت تقديم التسهيلات للجسر الجوي الامريكي لاسرائيل ، ووقفت موقفا متميزا بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي ومن مسألة الطاقة . وقد عبر عـــن هذا هنري كيسنجر حين قال « ان اصدقاء أمريكا يهتمون بالحصول على فوائد فردية تافهة اكثر من اهتمامهم بالعمل المشترك » . وأشارت النيوزويك بأسى الى أنه « ظهر في عاصمة اوروبية بعد أخرى ، أن أوروبا لم تعد خاضعة لليد العليا للولايات المتحدة » . أمـــا السناتور فرانك تشيرش فقد كان أثقب منهما نظرا عندما لاحظ منذ عام ١٩٦٦ بأن « ما يسيطر على أوروبا الآن ليس الانقسام والحرب الباردة بل اعادة الامور طبيعية بين الغرب والشرق (...) واذا لم ندخل اللعبة فان اللعبـــة ستجري بدوننا ، ان الحرب الباردة في أوروبا على الاقل قد انتهت »(٢٠).

مما لا شك فيه ، انه الى جانب موضوعية التناقض بين الاحتكارات الاوروبية من جهة ، والاحتكارات الامريكية من جهة أخرى، فقد لعبت الشعوب الاوروبية، وبالاخص طبقتها العاملة وأحزابها السياسية ، دورا نشيطا في تأزيم التناقض وبلورة المواقف السياسية المتميزة لبلدانها وفي زعزعة ارتباطها بعجلة الامبريالية الاميركية .

● **قوى حركة السلم** : لا يسعنا ونحن نعدد العوامل التي أثرت في تغيير موازين القوى لصالح النضال من أجل تعزيز السلام ، الا أن نشير لحركة السلم العالمية التي احتفلت في نيسان الماضي بذكرى مرور ٢٥ عاما على انشائها .

ان مجرد اقامة الاحتفال في نفس المكان (قاعة بلاييل بباريس) يحمل في طياته دلالات كبرى ، فمن هذا المكان طرد المجتمعون عام ١٩٤٩ في يوم اجتماعهم الثاني ، وأقفلت القاعة في وجوههم بتدبير من الولايات المتحدة التـــي رأت في السلم تهديدا لمطامعها ولاجما لمراميها .

نشأت حركة السلم للنضال ضد نشوب حرب نووية في الاساس ، الا أنها من خلال تطورها وتغير موازين القوى أخذت صفوفها تتسع ومضامينها تتعمق بحيث لم تعد عضويتها تقتصر على لجان السلم المنتشرة في العالم ، وانما شملت حركات التحرير وقوى أخرى مناضلة ضد الاستعمار والتمييز العنصري . واقترن السلم في أهدافها بقضايا الاشتراكية والتحرر الوطني والدفاع عن الشعوب المضطهدة . « ان الاستعمار الجديد والتمييز العنصري والاضطهاد القومي ، هي احدى المصادر الرئيسية للتوتر والنزاعات في عصرنا (...) وان النضال الذي تخوضه الشعوب المضطهدة من اجل التحرر ليس فقط نضالا عادلا ومشروعا في سبيل حقوقها الكاملة ، وانما ايضا مساهمة قيمة في قضية السلام والامن الدوليين وفي تطوير التعاون الدولي »(٢١).

لقد اظهر مؤتمر السلام الذي عقد في موسكو أواخر العام الماضي مدى قوة وتأثير

هذه الحركة التي أخذت تضم عشرات الملايين من المكافحين من أجل السلم والتحرر الاجتماعي والوطني ، والى أي حد أصبح السلم سلاحا ماضيا تتسلح به الشعوب في كفاحها وتشل به تطاولات أعدائها .

هذه العوامل مجتمعة ، تعاظم قوة المعسكر الاشتراكي ، والطبقة العاملة العالمية ، وكفاح البلدان الوطنية وحركات التحرر ، والتناقض بين الدول الرأسمالية ، واتساع المشاركة النشطة لجماهير غفيرة في النضال ، وتزايد حجم ونفوذ حركة السلم العالمية، كل هذا الجم تجار الحروب واضطرهم للتراجع . وليس في ذهن أحد بطبيعة الحال أن يتوهم حدوث تغير في طبيعة النظام الرأسمالي من جراء هذا التراجع ، ولا الايحاء بأن قضية السلم أصبحت مضمونة ولا يتهددها الخطر بعد الآن ، ولكن ليس من الصواب ايضا التقليل من أهمية ما استطاع النضال الدؤوب من تحقيقه في هذا المجال . فبفضل هذا النضال العنيد وما رافقه من نهوض ونمو في المقدرة ، أمكن فرض التراجع على الامبريالية واجبارها على الاخذ بعين الاعتبار حقائق العصر الجديدة . ان الزمن الذي كانت فيه الامبريالية تقرر مصير العالم قد ولى .

وهكذا انهارت سياسة الحرب البـــاردة وانتصرت ارادة السلام ، وتعمقت أزمة النظام الرأسمالي أكثر من ذي قبل . فالحرب الباردة التي طبعت العالم بطابعها خلال عقدين من السنين بعد الحرب العالمية الثانية قد باءت بالفشل . والاقتصاد الرأسمالي الذي وجد متنفسا في جو الحرب وسباق التسلح ، بات عليه أن يتخلى عن وتائر انتاجه وارباحه العالية بعد أن تقلصت عنه العطاءات الحربية في ظل وضع الانفراج الجديد الذي أخذ يحل محل الحرب الباردة . فقد خفضت شركات مثل بوينج ولوكهيد وجنرال ديناميكس حجم التشغيل فيها بنسبة ٥٠ ٪ ، كما ان شركات أخرى مرتبطة كليا بالانتاج الحربي أخذت تفلس نتيجة عدم القدرة على الصمود ، ومنها مثلا شركة (بن سنترال) التي يبلغ رأسمالها العامل ٧ مليارات دولار(٢٢) .

لقد عبر الكثيرون من رجالات الدولة والفكر عن هذه الحالة الجديدة التي تمر بها الرأسمالية . فالعالم الالماني ستيرنبيرغ أشار الى انه « سيكون من الصعب على الرأسمالية ان تعيش في عام ٢٠٠٠ »(٢٣) . كذلك صرح تشير باولز رجل الدولة الامريكي قائلا « منذ عشر سنوات لم يتغير ميـــزان القوى السياسي والاقتصادي لصالحنا ، فالاقتصاد السوفياتي يتطور بوتيرة أعلى »(٢٤) .

وفي رسالته للكونغرس اشار نيكسون في حديثه عن المتغيرات في المجال العالمي الى « نهاية التفوق الذي لم يكن ينازع في القوة الاستراتيجية الاميركية، وبـــروز ميزان استراتيجي نووي جديد يحتل فيه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة نسبـــا متقاربة »(٢٥) .

ان نكسون في رسالته لم يكن صريحـــا بالقدر المطلوب ، فهو لم يشر الى حقيقة المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على النطاقين المحلي والعالمي ، ولا الى دوافعها وأسبابها والنتائج المترتبة عليها . انه اكتفى بحصر المتغـــيرات في القـــوة الاستراتيجية الامريكية التي اصبحت بنسب متقاربة مع الاتحاد السوفياتي بعد ان كانت تتمتع بالتفوق المطلق ، اي ان توازن الذعر النووي هو الذي فرض الاتجاهات الجديدة في السياسة الامريكية . وهذا ليس حقا .

ان توازن الذعر النووي هو أحد الكوابح ضد الحرب بلا شك ، ولكنه ليس الكابح الرئيسي ولا الوحيد . ان تنامي القدرة في شتى المجـــالات والاوجه لدى المعسكـــر الاشتراكي بالدرجة الاولى ، وكل العوامل والمتغيرات التي سبق ذكرها ، هي التي

مهدت الطريق للسلم والانفراج الدوليين ، ولم يكن هذا الطريق بأي حال ، مفروشا يوما بالورود .

ان فشل سياسة الحرب الباردة ادى الى ايجاد جو ملائم لتصعيد الهجوم السلمي واختراق جبهة الحرب الباردة بالسلم ، مثلما تخترق الجبهة الحربية بالسلاح . فتم عقد اتفاقية حظر انتشار الاسلحة ، ومعاهدة حظر تخزين اسلحة نووية في الفضاء الخارجي وأعماق البحار وابرام الاتفاق الرباعي حول برلين ، وكذلك عدة اتفاقات ثنائية مع بعض الدول التي ضعفت الهيمنة الامريكية عليها بعض الشيء :

— مع فرنسا معاهدات اقتصادية وثقافية وتجارية وفي مجال العلم والتكنيك وأبحاث الفضاء .

— مع المانيا الاتحادية اتفاقات تعاون اقتصادي وصناعي وفني ، كما تم عقد اتفاقات ثنائية مع كل من بولندا والمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي بشأن انهاء مخلفات الحرب العالمية الثانية والاعتراف بسيادة كل دولة وبحرمة اراضيها . وتكمن أهمية الاتفاقيات الاخيرة مع المانيا الاتحادية في ان القضايا التي تعالجها كانت الى أمد قريب أشد سلاح من أسلحة الحرب الباردة. فالاوساط الانتقامية في المانيا الاتحادية ، بتشجيع من الولايات المتحدة كانت تطالب باعادة تقسيم القارة الاوروبية وفقا لما كانت عليه قبل العدوان الهتلري ، أي اقتطاع أجزاء من اراضي تشيكوسلوفاكيا وبولندا والحاقها بألمانيا الاتحادية ، كما كانت ترفض الاعتراف بألمانيا الديمقراطية كدولة مستقلة ذات نظام اجتماعي متميز .

— عقد معاهدات صناعية وتجارية واسعة مع ايطاليا واليابان وكندا والعديد من الدول الاوروبية .

ونظرا لما للقارة الاوروبية التي اندلعت منها حربان عالميتان مدمرتان في هذا القرن ، فقد وجدت الدول الاشتراكية المنضوية في حلف وارسو ، ان الظروف اصبحت مهيأة لاقامة نظام أمن وتعاون اوروبي ، فدعت في أوائل عام ١٩٧٢ الى عقد مثل هذا المؤتمر، وقد ساعد جو الانفراج على تقبل الدول الاوروبية لهذا الاقتراح ، وتم عقد جلسات على مستوى رفيع للبحث في قضايا الامن والتعاون ، وهناك ما يدعو للتفاؤل بأن تتوصل الدول المعنية الى اتفاق .

وفي آسيا اقترح الاتحاد السوفياتي عقد معاهدة أمن جماعية بين دول المنطقة ، وبمبادرة منه في لجنة نزع السلاح بجنيف ، تم التوقيع على اتفاقية حظر تطوير وانتاج وتخزين الاسلحة السامة والبكتيريولوجية . وفي هيئة الامم تقدم الاتحاد السوفياتي في الدورتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين ، باقتراح عقد مؤتمر دولي لنزع السلاح ، وعقد اتفاقات لتحريم استعمال القوة في العلاقات الدولية وحظر استعمال الاسلحة النووية ، كما قدم اقتراحا بتخفيض النفقات العسكرية للدول الكبرى بنسبة ١٠ ٪ وتوزيع هذا الرصيد بشكل مشاريع تنمية على البلدان النامية .

هذه الانجازات على طريق الانفراج الدولي ، شكلت مع غيرها ، عوامل ضغط على موقف الولايات المتحدة . ولم يعد في وسعها الاكتفاء باظهار القلق مما أخذ ينشأ من متغيرات في الساحة الدولية وعلى الأخص في المجال الاوروبي الحليف . واخذ العديد من المسؤولين ورجال الفكر يعترفون بالوقائع ويهزأون بالمواقف الدونكيشوتية التي لا تزال تمارسها الولايات المتحدة بعقلية تجاوزها الزمن . فقد صرح لويس لوندبورغ الرئيس السابق لمجلس ادارة بنك اميركا ، اكبر بنوك الولايات المتحدة ، امام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ « اذا أردتم امتلاك العالم فلا تبذروا طاقاتكم على

حروب خاسرة . اتبعوا مثال اليابان والمانيا منــذ الحرب العالمية الثانيــة ، وكونوا مهاجمين اقتصاديين » .

وعلى نحو مشابه أورد رجل الدولــة والباحث الامريكي ريتشارد بارنت في كتابه « جذور الحرب » ، « ان قادة الانتاج أخذوا يلمسون بأن القوة الاقتصادية تشكل أداة أكثر نفعا من القوة العسكرية لفتح الأسواق والوصول الى مصادر المواد الخام » .

واكتشف دافيد روكفلر ان الدول الاوروبية سبقت الولايات المتحدة في مجال التجارة مع الاتحاد السوفياتي ، فأعلن « ان الحصار الاقتصادي الذي كانت تفرضه بلاده على المنظومة الاشتراكية قد استنفد أغراضه بعد أن امتد الى أبعد من المدى المطلوب »(٢٦) .

أما السناتور ماتياس فيحاول الاستناد الى مقولات الماركسية في تحذير بلاده من مغبة مواصلة السير وراء التسلح ، فهو يقول امام مجلس الشيوخ « بأن الماركسية ــ اللينينية تنبأت منذ زمن بأن الانفاق المتزايد على التسليح سيكون أحد العوامل الرئيسية في انهيار الغرب »(٢٧) .

ان أول ما يلح على الذاكرة عند سماع هذه النغمة الجديدة من التصريحات ، قصة الثعلب الذي وجد العنقود حامضا ! فلسنا بحاجة للقول ، ان التحول في النظرة الى النمط العسكري الذي ساد الانتاج الرأسمالي ، والامريكي بشكل خاص ، يحمل من الدلائل اكثر مما تحاول التصريحات السابقة الايحاء به ، للتستر على اسباب التحول ودوافعه الحقيقية .

العلاقات السوفياتية ــ الامريكية

لم يكن سعي الاتحاد السوفياتي الى اقامة علاقات سلمية ومعاهدات مختلفة مع الدول الاوروبية مرده النية في تجاهل الولايات المتحدة أو عدم الرغبة في عقد اتفاقات ثنائية معها تعزز الانفراج والسلم الدوليين . الا ان الظروف التي نشأت في العديد من الدول الاوروبية ، وانتهاج هذه الدول مؤخرا سياسة مستقلة الى حد ما عن التسلط الامريكي لاسباب سبق ذكرها ، قد أوجد وضعا أكثر ملاءمة من الوضع الذي بقيت عليه الولايات المتحدة فيما يتعلــق بالسلم والتعاون . وقد كان مـــن حصافة الرأي استغلال هذا الوضع الناشىء وتطويق الولايات المتحــدة بمناخ التعايش السلمــي واجبارها على التنفس في أجوائه .

كان واضحا منذ البداية ان المستفيد الاول من جو الحرب الباردة هو البلد الرأسمالي الاقوى والاكثر تطورا ، وان النجاح والتقدم في مجال التعايش السلمي يعتمدان الى حد كبير على موقف هذا البلد الذي تحدده عوامل كثيرة تتلخص في رجحان او اختلال موازين القوى . ومما لا شك فيه ان هذا الميزان قد اختل في العديد من المجالات لغير صالح الطرف الامريكي ، وأمكن بعد هذا الاختلال فقط ان تنجح المساعي من اجل اقامة علاقات تعاون سلمي مع الولايات المتحدة .

واذا كان الرئيس الامريكي نيلسون قد صرح عام ١٩١٨ ممهدا للتدخل العسكري في روسيا ، بأن الحلفاء لا يستطيعون الوقوف موقف اللامبالاة من تطور البلشفية ، فان خلفه الرئيس نيكسون ، اكتشف ايضا ان الحلفاء لا يستطيعون الوقوف موقف اللامبالاة من البلشفية ، ولكن باتجاه الاحساس بالعجز واستحالة الاستمرار في تجاهل القدرة المتنامية للاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية .

ان موقف الرئيسين ينبع من وضع الرأسمالية في حقبتين مختلفتين من التاريخ يفصل بينهما اكثر من نصف قرن ، الاولى عند ازدهار الرأسمالية والثانية عند أفولها ، وليس

هناك تفكير بربط هذا التحول في موقفي الرئيسين الامريكيين بطبائعهما الشخصية الخيرة أو الشريرة . بل الطريف في هذا المجال ، ان الرئيس نيلسون ، على عكس نيكسون الذي ارتكب جرائم الحرب في الفيتنام واللاووس وكمبوديا ، والتدخل في التشيلي وبوليفيا والشرق الاوسط ، معروف بمبادئه الداعية للمساواة وحق العيش وتقرير المصير ! ولكن ما فرض على الولايات المتحدة اتخاذ الموقفين المتمايزين ، هو وضع القوة والضعف الذي مر بهما النظام الراسمالي ككل .

لقد اخذ الحزب الشيوعي السوفياتي في مؤتمره الـ ٢٤ بعين الاعتبار الظروف المستجدة في المسرح الدولي ، وارتأى ان الاهداف السلمية التي نادى بها زمنا طويلا وركز عليها بشكل خاص في مؤتمراته العشرين حتى الثالث والعشرين ، قد أصبحت قريبة المنال ، فصاغ برنامجا متكاملا للسلام أوكل مهمة تحقيقه للجنته المركزية من أجل أن « تواصل بثبات تطبيق مبادىء التعايش السلمي وتطوير العلاقات مع الدول الرأسمالية (...) ان الاتحاد السوفياتي على استعداد لتطوير العلاقات مع الولايات المتحدة باعتبار ذلك ينسجم مع مصالح الشعبين السوفياتي والامريكي ومبادىء السلم العالمي . وفي الوقت نفسه فان الاتحاد السوفياتي سيظل على الدوام يعارض بحزم سياسة القوة والاعمال العدوانية للولايات المتحدة » .

لقد تضمن برنامج السلام عقد معاهدات حظر الاسلحة الكيماوية ، والعمل على خلق مناطق لاذرية ، ونزع السلاح النووي ، وتصعيد النضال لوقف انتاج الاسلحة التقليدية والذرية وعقد مؤتمر عالمي لنزع السلاح ، وفك القواعد العسكرية وتخفيض السلاح والقوات المسلحة خاصة في وسط اوروبا ، والتقليل من امكانية نشوء حالات حربية مفاجئة وعقد اتفاقية تخفيض النفقات العسكرية .

ليس من السهل تحقيق هذا البرنامج الطموح في وقت قريب ، ولكن النضال الآخذ في الاشتداد من اجل السلم ، وتعاظم قوى السلم وتنامي قدراتها ، سيجعل ممكنا تحويل هذا الحلم الى واقع . وان ما تم من انجازه لحد الآن ، يعطي الثقة ويشحذ العزم على مواصلة تشديد النضال .

ان ما تم من اتفاقات مع الولايات المتحدة يعتبر انتصارا كبيرا لقوى السلم والتحرر في العالم ، فقد جرى التوقيع على اتفاقية « المبادىء الاساسية للعلاقات المتبادلة بين الدولتين » ، ونصت على تطوير العلاقات الاقتصادية والتعاون العلمي والتكنولوجي والثقافي ، وعلى احترام سيادة الدول صغيرها وكبيرها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية ، كما نوهت بأهمية مستقبل أوروبا السلمي على اساس حرمة حدود كل دولة ونبذ استخدام القوة أو التهديد بها . وبالاضافة الى الاتفاقية الام ، جرى توقيع معاهدات أخرى هامة تصب كلها في مجرى الانفراج الدولي : معاهدة الحد من نظام الصواريخ المضادة ، اتفاق للنظر في الحد من الاسلحة الاستراتيجية الهجومية ، اتفاقية منع الحوادث في أعماق البحار وأعاليها ، اتفاقية التعاون في حقول العلم والتكنولوجيا وفي استكشاف واستخدام الفضاء الخارجي للاغراض السلمية . وفي رعاية الصحة العامة ومكافحة الاوبئة وحماية البيئة .

وفاق أم انفراج ؟

ان الذين يقومون بتشويه مبادىء التعايش السلمي من يمين « ويسار »، ويصورون الانفراج وفاقا تآمريا بين القوتين الاعظم ، يحاولون التستر وراء جهل البعض بالتاريخ النضالي لشعار التعايش السلمي . فاللقاء الذي تم بعد طول نضال من جانب ، ومقاومة يائسة من جانب آخر ، على بعض مبادىء التعايش السلمي ، يعكس في حقيقته

قدرة طرف على الفرض وعجز طرف آخر عن الرفض ، وهو من الناحية النظرية تنعكس فيه ديالكتيكيا وحدة وتناقض الاضداد .

واذا كان لا بد من تقبل صفة العظمة المقرونة بها القوتان بشكل تشكيكي ، فعظمة احداهما على الاقل تنبع من مساندتها للشعوب وتجسيدها لامانيها في العيش بسلام .

ان التعايش السلمي ليس فقط لا يزيل التناقض او يخففه بين النظامين ، وانما هو في الواقع يشدده ويسارع في تفاقمه ، ولكن ليس على طريق الحرب بل على طريق السلام . انه نقل الصراع الطبقي الى مساحة أرحب وبشروط افضل لاحراز الانتصار، فالهجوم السلمي يسير في تكتيكه وفق قواعد تكتيك الحرب وعلى أساس خلق انسب ظروف القتال الملائمة لطرف ، وتمكنه من فرضها على الطرف الاخر .

ان الميادين الايديولوجية والاقتصادية والثقافية هي الشروط الانسب للنظام الاشتراكي في معركته السلمية مع الرأسمالية ، انطلاقا من التفاؤل التاريخي باحراز الانتصار عليها . وليس معنى هذا ان الميدان الحربي يشكل نقطة ضعف في مواجهة الامبريالية ، ولكن الرغبة في تجنيب العالم ويلات حرب نووية ، والثقة المطلقة باحراز الانتصار على الرأسمالية عن طريق الهجوم السلمي والمباراة السلمية بين النظامين ، تجعل الاشتراكية من هذا الميدان ساحة محرمة ، وتجهد في فرض هذا التحريم على الامبريالية ، عن طريق خلق قوة رادعة تفوق قوتها .

ان التعايش السلمي اذ ينفي الحروب واللجوء الى القوة والتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى ، واذ يحترم سيادة وحرمة حدود كل بلد ، وحق كل بلد ، وحق كل شعب ، صغيرا كان أم كبيرا ، باختيار طريق حياته وتطوره الحر المستقل ، فانما يوجه ضربة كبرى لاسس النظام الرأسمالي الذي تتنافى طبيعته مع هذه المبادىء، ويوفر الاجواء الملائمة للنضال التحرري والاجتماعي لتحقيق المزيد من الانتصارات . ومن هنا قيام ما تم تحقيقه من منجزات على هذا الدرب يشكل خطوة كبرى في لجم قوى الحرب والعدوان .

الا انه يجب الا يغفل عن البال ، ان الرأسمالية ستظل ، تجنبا لخطر الاندثار سلما، تنحين الفرص لشن حرب عالمية تتوهم فيها انقاذ مصيرها ، ولكن بقدر ما تتقلم أظافرها عبر النضال العنيد ، وبقدر ما تستطيع الشعوب ان تنزع من ترسانة الامبريالية أسلحتها ، فانها تستطيع بالتأكيد ان تنزع من ذهنها فكرة الحرب المستحيلة .

ان طريق النضال هو طريق تعاظم القدرة اللامحدودة للاشتراكية والطبقة العاملة العالمية وحركات التحرر الوطني ، وهو طريق وحدتها الطبيعية للوقوف في وجه تجار الحروب ، وفرض تراجعات أكبر عليهم ، وتحقيق سلم ثابت مضمون .

---

١ ــ لينين ، **الاعمال الكاملة** ، المجلد ٢١ ص ٢٩٣ .
٢ ــ بريجنسكي ، **امريكا بين عهدين** ، ص ٣٢ .
٣ ــ مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .
٤ ــ كتاب «من أجل استراتيجية اميركية متقدمة» اقتباس مجلة **قضايا معاصرة** ، عدد ٢ ، ١٩٧٣.
٥ ــ مجلة **الوقت** عدد ١ ، ١٩٧٠ .
٦ ــ مجلة **الوقت** ، عدد ٣ ، ١٩٧٠ .
٧ ــ كتاب التحدي الامريكي ، شرمان شرايبر ، اقتباس مجلة **الوقت** ، عدد ٣ ، ١٩٧٠ .
٨ ــ **توجيهات الخطة الخمسية التاسعة للمؤتمر الـ ٢٤ للحزب الشيوعي السوفييتي** .
٩ ــ مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .
١٠ ــ **المصدر نفسه** .
١١ ــ جريدة **طريق الشعب** العراقية، عدد ٦ تاريخ ١٩٧٣/٩/٢١ .
١٢ ــ مجلة **الطليعة** المصرية ، عدد ١٢ ، ١٩٧٠.
١٣ ــ كتاب بريطانيا عام ١٩٨٤ ر. بريش اقتباس

مجلة **قضايا معاصرة** ، عدد ٢ ، ١٩٧٣ .
١٤ — مجلة دي ديرنشتافت ، عدد أغسطس ٦١ ، اقتباس **المصدر نفسه** .
١٥ — **يو. اس. نيوز اند وورلد ريبورت** ، شباط عام ١٩٦٩ ، ص ٣١ .
١٦ — مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .
١٧ — **المصدر نفسه** .
١٨ — **المصدر نفسه** .
١٩ — **ماركس** ، **انجلز** ، المجلد ٢ ، ص ٢٣٥ .
٢٠ — مجلة **الشؤون الدولية** ، اكتوبر ٦٦ ، اقتباس كتاب **التعايش السلمي بين الدول** ، ص ٦٦ ، وكالة « نوفوستي » .
٢١ — قرار اللجنة الخاصة بالنضال التحرري المنبثقة عن مؤتمر السلم العالمي الذي عقد في صوفيا في شباط ١٩٧٣ .
٢٢ — مجلة **الطليعة** القاهرية، عدد ١٢، ١٩٧٠.
٢٣ — مجلة **الوقت** ، عدد ١ ، ١٩٧٠ .
٢٤ — **المصدر نفسه** .
٢٥ — نشرة وزارة الخارجية الامريكية ٣/١٣/ ١٩٧٢ ، ص ٣١٤ ، اقتباس **نوفوستي** .
٢٦ — كتاب حول التعايش السلمي بين الدول ص ٧٠ ، وكالة **نوفوستي** .
٢٧ — سجلات مجلس الشيوخ الامريكي، ٤ شباط ١٩٦٩ ، ص ٧٢٣ ، اقتباس مجلة **قضايا العالم المعاصر** ، عدد ٢ ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٧ .

مركز الابحاث

يقدم :

محمود درويش

في كتابه الجديد :

وداعا ايتها الحرب
وداعا ايها السلام

بأسلوبه المتفجر شاعرية وشراسة ، يرصد المؤلف حرب تشرين من مرحلة الانتظار ، الى مرحلة الانفجار ، الى مرحلة الانتظار العائد .

سعر النسخة ٥ ل.ل. يضاف اليها بدل أجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبة ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلب نسخك من : مركز الابحاث ـ قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ — بيروت
(او من المكتبات) .

مناقشات

حسين ابو النمل

حول : المقاومة الفلسطينية ومهامها الوطنية الكفاحية الراهنة

« فقط السذج وعديمو التجربة من الناس يعتقدون انه يكفي ان نعترف بجواز المساومات بوجه عام حتى تزول الحدود الفاصلة بين الانتهازية التي نشن عليها بل ويجب ان نشن عليها نضالا لا هوادة فيه.وبين الماركسية الثورية او الشيوعية . المهم ان يستطيع المرء عند كل لحظة تاريخية معينة او خاصة ان يميز بين المسائل العملية في السياسة تلك المسائل التي تظهر بها الاشكال الرئيسية من المساومات غير الجائزة والضارة . وان يوجه جميع الجهود لتبيانها ومكافحتها لانها اقرب ما تكون لرجل يعطي الدراهم والسلاح لقطاع الطرق ليشترك في اقتسام الاسلاب » .

« لينين ١٩١٧ »

لان «شؤون فلسطينية» منبر الفكر الفلسطيني الملتزم بالثورة واهدافها كما تقول افتتاحية العدد٣٣، فتحت المجلة صفحاتها لندوة ضمت بعضا من قادة المقاومة الفلسطينية ، وفتحت المجال أيضا لنقاش مع اراء وافكار هؤلاء القادة ، ومن حق العقل الفلسطيني أن يناقش وان يستمر النقاش لاننا أمام مفترق خطر ، وعلى العقل الفلسطيني ان يتخذ قراره ، وحوار الافكار وسيلة صحيحة للخروج بأفضل قرار .

ان حوار الافكار ونشاط العقل الفلسطيني لا وتقع تحت أي حجر ، ولكن لهذه النقاشات حدودا خطرة يجب ان لا تتعداها ، وضوابط مبدأية لا يجوز القفز فوقها ، والا لاصبح الحديث لغوا نظريا لا طائل تحته ، وحسنا فعل محمود درويش عندما لخص جوهر الموضوع الذي دارت حوله الندوة المذكورة عندما قال « ليس الضمير الفلسطيني موضع المناقشة ، انها ندوة العقل الفلسطيني على الخروج **من مرحلة الى اخرى** بأحسن الاجتهادات الممكنة **على طريق اهدافه المشروعة** »وعندما يقال ان الضمير الفلسطيني ليس موضع المناقشة او كما يقول سعيد جواد (في العدد ٣٣ من شؤون فلسطينية تعقيبا على ندوة القادة) بصيغة « اكثر تحديدا » كما يسمى كلامه « فان الحقوق والاماني الوطنية الشرعية والتاريخية والاهداف الاستراتيجية البعيدة للثورة الوطنية والتي هي خلفية الضمير الفلسطيني ومعين منابعه الضاربة في عمق تراب الوطن ، غير قابلة للنقاش على الاطلاق » . ان صيغة **«ليس موضع مناقشة ، وغير قابلة للنقاش»** تعبر عن مبدأية هذه القضايا ، كما أن صيغة « لا تناقش » . تعني انها حدود أي موقف راهن ، حيث تشكل مؤشرا لصحة او عدم صحة اي اجتهاد، وهل هذا **الاجتهاد** على طريق الاهداف المشروعة، أم لا ، كما يحدد محمود درويش اساس النقاش . ان تلك المقدمة ، والتي تؤكد على أن معنى « ليس موضع مناقشة » هو أن هذه القضية **لا خلاف حولها** ، وليس المعنى الذي يحاول البعض ان يعطيه **بان الان ليس وقت مناقشة هذه القضية،** ضمن منطق الاستغراق في المرحلية والافراط بها.

وعلى هذا فيمكن لنا تحديد الاساس الذي يحاكم على ضوئه أي اجتهاد . وهل هو داخل الاطار الصحيح للنقاش ، ومنسجم مع القضية التي **لا خلاف حولها** ، او التي يعبر عنها بـ « غير قابلة للنقاش » . ولعل هذا هو الاساس الذي لا بد أن تحاكم على ضوئه مقالة « المقاومة الفلسطينية ومهامها الوطنية الكفاحية الراهنة » ، في العدد السابق من شؤون فلسطينية ، ولان أسلم طريقة في تقييم أي (موضوعية) هو في محاكمتها على ضوء المعيار الذي التزم به حتى صاحب المقالة المذكورة،

أي رؤية المهام الوطنية الكفاحية الراهنة كمرحلة على طريق تحقيق الاهداف والتي هي « غير قابلة للنقاش على الاطلاق » . كما يعيد كاتبها كلمات محمود درويش « بصياغة اكثر تحديدا » وان كان الكاتب « المحدد » قد سمح لنفسه تحديد كلام الاخرين فليسمح لنا أن نحدد فهمنا لكيف يمكن ان تكون المهام الوطنية الكفاحية الراهنة ، هي فعلا لا قولا مهام وطنية كفاحية وانها تكون هكذا عندما لا تتعارض مع خدمة القضية **التي لا خلاف حولها** بل تصب فيها وان تعارضت فهي لا تعود قطعا مهام كفاحية ، بل تصبح اي شيء اخر الا هذا .

تحليل وتقييم معطيات وحقائق حرب تشرين :

مما لا خلاف حوله ان ما من حدث سياسي او عسكري ، الا ويخلق ظروفا موضوعية جديدة ويفتح الباب واسعا أمام احتمالات شتى ، ولكن الحدود الايجابية لهذه الاحتمالات ، بالاضافة الى انهـا مرهونة بالحدث العسكري من ناحية فانها بالمقابل مرهونة بالافق السياسي الذي يحدد افاق ذلـك الحدث والطريقة التي تقاد بها المعركة السياسية لحصد النتائج السياسية للحرب . وبرغم الحقائق الكبيرة التي افرزتها حرب تشرين والتي يلخصهـا نايف حواتمة بأعتبار « أنها الافضل تأثيرا في عناصر الصراع الموضوعية » ويعددها بـ « شبه التوازن العسكري العربي الاسرائيلي . هز نظرية الامن الاسرائيلية ، الحاق ضربات موجعة بالقوى الحية العسكرية الاسرائيلية . وآلات الحرب العسكرية الاسرائيلية الامبريالية ، دخول الجيوش العربية في قتال حي وفعلي وبروز امكانية استخدام الاسلحة الحديثة بفعالية ، بورز دور السلاح بيد العرب ... شبه الانتفاضة الشعبية الشاملة في الاراضي الفلسطينية المحتلة ضد الاحتلال الصهيوني ... استخدام سلاح النفط ضمن الحدود التي استخدم بها ، حالة عالية ضاغطة باتجاه حل مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي » . ويضيف سعيد جواد من عنده « جملة التغييرات الايجابية لصالح العرب باتجاه تطبيق القرارات الدولية » .

ان الخلاف ليس حول الحقائق المباشرة لحرب تشرين ، والتساؤل الذي يجب ان يطرح هـو اين نقطة التقاطع بين هذه المعطيات وبين قضيتنا والتي هي « غير قابلة للنقاش اطلاقا » كما يقول سعيد جواد ، خصوصا وان قيمة تلك المعطيات

كما سبق أن قلنا مرهونة بالافق السياسي الذي نستطيع ان نبلغه ، وهذه الحقائق بالرغم من أنها كبيرة وبدأت تحتل واقعا وحجما في اذهان الجميع ، الا ان كل طرف له زاويته الخاصة التي ينظر منها الى هذه المسألة . وانسجاما مع رؤية الخطوة المرحلية في ضوء المسائل التي « لا يجـوز النقاش حولها » فأن ما خرج به الدكتور جورج حبش كان صحيحا تماما . اذ ان ترجمة هـذه المعطيـات سياسيا وعلى ارض الواقع لا بد وان تكون لخدمة الشعار الاستراتيجي وعاملا جديدا يؤكد صحته ، وأن هذا الشعار موضوع في حدود الممكن وليس «رومانطيقية تحلم بالاندلس المفقود» كما حلا للبعض ان يصف الكلام عن الحـق التاريخـي ، « ان التوازن العسكري والضربات الموجعة بالقوى الحية العسكرية والاسرائيلية وآلات الحرب » ... هو السبب وراء قول الدكتور جورج حبش ان حرب تشرين رسمت لاول مرة علامة سؤال ولدت صغيرة جدا في ذهن الجماهير العربية حول صحة المشروع الصهيوني من أساسه . واذا لم تكن من نتائج النصر الذي تحقق في حرب تشرين هذه ان يحدث الشيء نفسه في المستوى نفسه في كيان العـدو باعتباره خطوة علـى طريـق ازالـة المشروع الصهيوني ، فأي قيمة بالنسبة الينا تحملهـا المعطيات التشرينية ؟ لاننا عندما نقول ان تلـك المعطيات كانت نصرا بالنسبة للعرب افليس من حقنا ان نرى نتيجتها المنطقية التي يجب ان ترافقها : خطوة على طريق الهدف الاستراتيجي حيث يبلغ هذا النصر مداه السياسي الحقيقي ؟ فأن العبرة ليست في المعطيات بحد ذاتها ، بل في النتائج السياسية التي توظف في خدمتها هذه المعطيات . والشيء الطبيعي ان نطالب بنصر سياسي ان كان قد تحقق نصر عسكري ، لان النتائج يجب ان تكون في حجم المقدمات ، والا فان خللا ما يكون قد حدث عنـد حساب احدهما .

ان التعامل الثوري مع معطيات حـرب تشرين هو في توظيفها في خدمة أهداف المستقبل . ولقد كان الدكتور جورج حبش يرى المستقبل كله عندما اعتبر « علامة التساؤل التي بدأت ترتسم داخل المجتمع الاسرائيلي نفسه حول صحـة المشروع الصهيوني من أساسه » ، وسيلة جديدة لانتزاع ما حاولت ان ترسخه الامبريالية الصهيونية فـي أذهان الجماهير من روحية الاستسلام عبر السؤال

الذي اصبح متداولا بعد هزيمة ٦٧ . « هل سيكون من الممكن القضاء على اسرائيل » . ان انتزاع ذلك التساؤل الخطر خطوة ضرورية للاستفادة من امكانات الجماهير « وهي القوة التي تحرك عجلة التاريخ » . ان هذه الجماهير والتي تستطيع وحدها ان تصنع النصر لن تكون قوة فاعلة « اذا كانت هذه الملايين غير مقتنعة بعمق بقدرتها على تحطيم هذه القاعدة الغازية الفاشية العنصرية الامبريالية المتمثلة في اسرائيل » ، اذ انه من « الصعب ان تعبىء هذه الجماهير كل طاقاتها لتحقيق هدف لا تتوفر لديها القناعة لقدرتها على تحقيقه » .

ان التعامل مع معطيات حرب تشرين بهذه الطريقة والانطلاق منها بعملية تحريضية نحو مزيد من تعبئة الجماهير وتعميق التزامها بأهداف الثورة ، والتي اكتسبت دليلا حسيا اخر على انها ممكنة ، هذا النمط من التعامل هو الوحيد الكفيل « بتوفير شروط قيام واستمرار الحرب الشعبية الطويلة الامد » كما يطالب سعيد جواد ، وهي الظرف المناسب تماما لتصعيد العمل في الداخل والمطالبة بفتح الحدود العربية امام حركة المقاومة. وليس توقيف العمليات كما حدث بالنسبة لاكثر من جبهة من تلك الجبهات .

ان الانطلاق من معطيات تشرين، في عمل جماهيري مكثف وواسع هو الوسيلة الوحيدة لفرملة الفهم الانتهازي لمعطيات حرب تشرين وللحرب نفسها أساسا والتي يعتبر سعيد جواد نموذجها القيادة « الوطنية » التي « لا تستطيع التعبير عن قناعات الجماهير ولا تستوعب استعداداتها ، بل ومنعتها باصرار من المساهمة في التحضير للحرب او الاشتراك بالقتال فيها » . والتي « اوقفت الحرب المحدودة دون تحقيق اهدافها » والتي « بدأت التحرك بأتجاه تسوية سياسية على أساس القرار رقم ٢٤٢ » . ماذا يعني هذا الكلام ؟ انه يعني ان حرب تشرين، حتى باهدافها المحدودة ، كانت قادرة على تحقيق اهداف اكبر من التي حققتها . وهنا يبرز تساؤل جديد : هل « قيادة توقف الحرب عند حدود واهداف أقل من التي تستطيع بلوغها » هي قيادة يمكن ان نطلق عليها قيادة وطنية ؟ وامر اخر ، الا يعني هذا أن هنالك تعاملا قاصرا مع معطيات واهداف حرب تشرين تمثله تلك القيادات (الوطنية) ويتناقض مع الفهم الصحيح وطموحات واستعدادات جماهيرنا للعطاء ؟ هنا يقع سعيد جواد في الخطأ القاتل ويتناقض مع نفسه ، حيث سمح لنفسه ان يعتبر ان استعدادات الجماهير العربية والفلسطينية العالية المعطاء ، وبرامج الثورة الفلسطينية للتحرير الكامل ... لا يمكن ان يغير شيئا من طبيعة الحرب الوطنية التي تخوضها القيادات الوطنية لحركة التحرر العربية (الانظمة) بل حتى التأثير في حدودها واهدافها المحدودة » .

مرة اخرى ، ماذا يعني هذا ؟ ألا يعني ان حركة الجماهير باستعداداتها العالية للعطاء + حركة المقاومة الفلسطينية تساوي صفرا في مجال التأثير في مجريات الامور ؟ واذا كان هذا الكلام صحيحا فما معنى كلام سعيد جواد عن « حضور واقع فلسطيني موضوعي فرض من خلال القتال وصمود المقاومة » هذا الواقع والحضور العسكري والسياسي الذي أدى الى « تصفية ادعاءات النظام الاردني في الضفة الغربية » ص ٤٦ ، ولكم يبدو غير منطقي وهو « يصغر » حركة المقاومة بالاضافة الى حركة الجماهير وفي الوقت نفسه يعطيها القدرة على النضال « ووضع العقبة تلو الاخرى في وجه التسوية الاميركية — الاسرائيلية بالنضال ضد حلقاتها الخاصة بالمسألة الفلسطينية » (ص ٥٦) .

ان سعيد جواد يحجم حركة المقاومة بمقياس مزاجي غريب جدا ، ويفصل قدراتها حسب المواقف المتناقضة ، فهي عندما تطالب بموقف ضاغط على الانظمة الوطنية ، فانها مضافا اليها حركة الجماهير غير قادرة على ان تغير شيئا من طبيعة الحرب ويحدد اكثر بل حتى « في حدودها واهدافها المحدودة » (ص ٤٣) ، ولكن عندما تكون المسألة تسوية سلمية ومشاركة في جنيف فأن حركة المقاومة تصبح « جبهة ثالثة » (ص ٦٢) من الجبهات التي قاتلت في حرب تشرين . ويضيف لها انتصارات مؤتمري الجزائر ولاهور » (ص ٦٢) . متناسيا ان المؤتمرين المذكورين ليسا ببعيدين عن متناول يد الانظمة التي لا تستطيع المقاومة او الجماهير التأثير عليهما ، الا اذا كان سعيد جواد يعتبر ان بقية الاطراف — الانظمة الرجعية في مؤتمر القمة — هي التي انهزمت امام انتصارات منظمة التحرير . عندما تكون المسألة حضور مؤتمر جنيف « فأن الانظمة لا يمكن ان تكون حريتها مطلقة او كبيرة في التحرك » (ص ٥٨) وفي الوقت

الذي يعطي المقاومة في جنيف هذه القدرة ، فأنه يقلل من التجاهل المطلق للانظمة الوطنية في هذا المؤتمر ، والتي لن « تتنازل عن برنامج الحد الادنى » لماذا ؟ لان هذه الانظمة حتى في تراجعاتها تجاه اسرائيل « تقف عند حدود محرمة وخطرة لم تستطع تجاوزها بفعل الرقابة الجماهيرية العربية الصارمة » (ص ٥٣) . هنا تكمن الانتهازية في الموقف وهنا تكمن المغالطة . عندما يكون الامر خسارة تهون منها وعندما تكون انتصارات نضخمها وحتى نفتعلها ، وليت سعيد جواد فسر لنا السحر الذي حول العلاقة بين الجماهير والانظمة الوطنية من حالة اولى اتسمت فيها هذه العلاقة بأن الانظمة الوطنية هي التي « اوقفت الحرب المحدودة دون تحقيق اهدافها » (ص ٤٣) « وحكمت وتحكمت بمسار الامور » ص ٣٣ ومنعت الجماهير « باصرار من المساهمة في التحضير للحرب » ص ٤٣ تلك الجماهير التي بأستعداداتها « العالية للعطاء » ص ٤٣ مضافا لها « برامج الثورة الفلسطينية » التي كانت غير قادرة حتى على « التأثير في حدودها واهدافها » (اي الحرب) ، الى صيغة اخرى من العلاقة التي أصبحت فيها الجماهير — في جنيف لها رقابة صارمة تجبر تلك الانظمة على الوقوف عند « حدود محرمة وخطرة » ص ٥٣ . هل هي جنيف التي لها فعل السحر تبدل من طبيعة العلاقة بين الانظمة والجماهير فتصبح تلك الجماهير اكثر قوة فتنزل عند ارادتها الانظمة ؟

ان سعيد جواد بهذه الطريقة المزاجية التي تقاس بها قدرات حركة المقاومة الفلسطينية . وحركة الجماهير العربية ، خالف المنطق الذي وضعه هو نفسه طريقا للوصول الى القرار الفلسطيني ، حيث طالب طوال مقاله بالمواجهة الجريئة للحقائق الموضوعية والقياس الدقيق للعناصر الفاعلة ، المنظورة وغير المنظورة ، كبيرها وصغيرها ، حتى النواتات منها . (نواتات « جمع » نواة والتعبير لسعيد جواد) .. ولكن وبالرغم من المزاجية التي تعامل بها وهو يقيس قدرة العناصر الفاعلة، فبالامكان الاستنتاج من كلامه ان هنالك برنامجين وفهمين للاستفادة من حرب تشرين: برنامج الانظمة والتي لولا الخوف من الرقابة الصارمة لتنازلت . وهنا يطرح هذا التساؤل : اليس ضابط التنازل الوحيد وتصعيد الرقابة هو في تصعيد التعبئة الجماهيرية ومصارحتها بالحقيقة وبلورة حدود المعركة السياسية في أذهانها ، كي تفرض برنامجها هي ؟ ان حركة المقاومة بالاضافة الى حركة الجماهير، وبالذات بعد ان ذاقت طعم النصر ولو لمدة قصيرة ، هي قوة فرض هائلة ، وعندما يراهن الدكتور جورج حبش عليها فانما بالمقابل يرى انها هي الضمان الوحيد لعدم تنازلات الانظمة وانها هي الرقابة الصارمة عليها . ولكم هو محزن انلايستطيع كاتب ثوري ان يرى حتى ما استطاعت الانظمة ان تراه من امكانات الجماهير وحركة المقاومة ، وحذفها منهما . فان تلك الانظمة حاولت تطويعهما او كما كان يسمى في حينه (تدجينهما). ان الموقف الثوري والصحيح هو في الاستفادة من هذا المارد والتكاتف معه الى أبعد الحدود كي لا يمر برنامج الانظمة على حساب برنامج حركة المقاومة وحركة الجماهير . لان النصر يفترض « انسحابا غير مشروط » ، ولكن مؤتمر جنيف يقوم على القرار رقم ٢٤٢ وهذا القرار هو « لتنظيم انسحاب اسرائيلي منالاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ وتعديلا في بنوده الخاصة بالمسألة الفلسطينية ، مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ربما أبعد من ذلك [الكلام لسعيد جواد] وتحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية واشتراطات اسرائيلية كما تسعى اسرائيل والولايات المتحدة » (ص ٤٩) و« الابعد من ذلك » الذي يتحدث عنه سعيد جواد والذي يسقطه على سعي اسرائيل والولايات المتحدة هو ليس سعيا اسرائيليا او امريكيا ، بل هو من صلب القرار ٢٤٢ الذي يقوم على أساسه مؤتمر جنيف ان الاعترافات العربية (باسرائيل) ليست مرتبطة بحل امريكي — اسرائيلي ، حيث يظهر وكأن افشال التسوية الاسرائيلية — الامريكية والتي يدعو سعيد جواد المقاومة للقيام بها هو عمل لمنع الاعتراف (باسرائيل) ، انها محاولة ساذجة للتلاعب بالكلمات ، فالقرار ٢٤٢ ، وشروطه الواضحة منذ صدر في ٢٢ نوفمبر ٦٧ تتضمن اعتراف الدول العربية المعنية باسرائيل . اما ان يلقي المسؤولية على عاتق امريكا ، فهذا حرمان للدول العربية من (شرف) الموافقة والتي تتضمن الاعتراف ، والذي لم يكن يوما من الايام مانعا من اتمام التسوية اذ

كانت الخلافات منذ البدء تدور حول « الاراضي » او « أراض » والمعني بها الاراضي التي احتلت ما بعد ٦٧ . وهنا لا بد من التساؤل : اذا كانت الدول العربية تذهب الى جنيف ضمن اطار القرار المذكور والذي ينص على الاعتراف ، ماذا بقي للمقاومة ، واين الخطة الكفاحية الراهنة التي يتصورها سعيد جواد ، وهل لا يتعارض هذا الامر مع الاساس الذي انطلق منه النقاش منذ البداية ، وحدد بالآتي على لسان محمود درويش وموافقة سعيد جواد : مرحلة الى اخرى .. شرط عدم تعارضها ومساسها بالقضايا **التي هي غير قابلة للنقاش** حسب تعبيره هو .

ومع افتراضنا بصحة كلام سعيد جواد على ان « تحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية واشتراطات اسرائيلية » هو ما تسعى اسرائيل والولايات المتحدة لتحقيقه ، مع افتراضنا جدلا ان هذا هو فقط أمنية اسرائيلية ، ولكن ماذا يعني كلام سعيد جواد بالحرف عن « انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية مقابل انهاء المواجهة العسكرية » ماذا تعني انهاء المواجهة العسكرية ، هل ستعني ان آفاق التحرير تبقى مفتوحة ؟ والقضايا « غير القابلة للنقاش » هل ستكون بخير ؟ ان اثر انهاء المواجهة العسكرية ، ليس في حدود ثلاث كلمات فقط . لان انهاء المواجهة العسكرية هو انهاء للاساس الموضوعي لمعطيات حرب تشرين ، والتي انطلق منها النقاش . انهاء المواجهة العسكرية لكي يفسح المجال لماذا ؟ ولاي نوع من المواجهة . وكيف ستكون عندها المهام الوطنية الكفاحية الراهنة وغير الراهنة ؟ وهنا يناقض سعيد جواد نفسه وهو يمر بسهولة على موضوعة انهاء المواجهة العسكرية ، بدون ان يرى ابعادها ، ناسيا او متناسيا موافقته التي أعطاها على مداخله نايف حواتمة حول « ابرز وقائع الحرب وأفعلها تأثيرا » (ص ٤٠) ، وهي « شبه التوازن العسكري والذي هز وهز وهز ... الخ » ان شبه التوازن هذا هو الذي ولد المعطيات العربية والاسرائيلية لحرب تشرين، وانهاء احتمالات الحرب هو انهاء لمعطيات جديدة من مستوى معطيات حرب تشرين . ان انهاء المواجهة العسكرية هو انهاء لمناخ التفاعلات الايجابية لصالح حركة التحرر الوطني العربية والفلسطينية ، ان تأجيل قرار « عدم المواجهة العسكرية » منذ ٦٧ حتى تشرين ٧٣ هو السبب وراء شبه التوازن العسكري الحالي الذي تحدث عنه نايف حواتمة ، واذا كان عدم اغلاق الباب عام ٦٧ ادى الى شبه توازن ، ألا يعني هذا ان ابقاء الباب مفتوحا عام ٧٣ ، سيعني ان حالة (شبه) هذه يمكن ان تتحول الى حالة « توازن كامل » خصوصا وان معطيات حرب تشرين خلقت امكانية المسارعة في تنمية القدرات العربية والتي تتوفر لها من الامكانات البشرية والمادية ما يساعدها على ذلك ، في مقابل امكانات الخصم التي « اهتزت » نتيجة « للضربات الموجعة بالقوى الحية العسكرية الاسرائيلية وآلات الحرب العسكرية الاسرائيلية الامبريالية » . ما هي آفاق عدم التوازن هذا ولمصلحة من ايقافه عند هذه الحدود . لمصلحة من يسير المستقبل وعلى ضوء معطيات تشرين التي يسميها سعيد جواد « وقائع وحقائق تشرين الحادة الفعل » . لا جدال ان وقائع حرب تشرين الحادة الفعل قد أثرت في تعديل ميزان القوى بين العرب واسرائيل ، واي اتفاقية سلام او ما يسمى بتسوية شاملة لا بد وان تكون انعكاسا لميزان القوى الحالي . ان اختلال ميزان القوى بفعل حرب تشرين لصالح العرب ، اجبر اسرائيل على استبدال وثيقة غاليلي « التي كانت برنامجا لفرض الاحتلال كأمر واقع على اساس حقائق ديان الجديدة » (ص ٤٥) ، وان ذلك الاستبدال ليس « مجرد رغبة اسرائيلية في تحديدها او مناورة او لعبة انتخابية لمواجهة تشكيلات طارئة » (ص ٤٦) ، ولكن لماذا استبدلت اذن ؟ يجيب الكاتب « ان وقائع وحقائق تشرين الحادة الفعل هي التي فرضت نفسها بقوة على القيادة الاسرائيلية لاقرار هذه الوثيقة والغاء وثيقة القضم والضم مكرهة ومرغمة » (ص ٤٦) ولكن لماذا مرغمة؟ أيضا يجيب الكاتب « ان القيادة الاسرائيلية بالتأكيد تحاول ما استطاعت ايقاف تفاعلاتها اولا واستيعاب وامتصاص بعض من الوقائع والحقائق ثانيا » (ص ٤٦) ، ثم الوجه الثاني للتفاعلات داخل اسرائيل وهو مضاعفات وحقائق الحرب في المجتمع العربي وجبهات المواجهة (ص ٤٦) . ويستطرد سعيد جواد في تعداد اسباب التراجع الاسرائيلي متسائلا بشأن تأييد الاسرائيليين لاتفاقية فك التحام القوات مع مصر بـ « خوفهم من شبح الحرب واستعدادهم لتراجعات كبيرة خاصة اذا

استطاع العرب **الاستمرار** في حالة الحرب التي لم يكن حتى التفكير بها واردا قبل الحرب » (ص ٤٧) .

هنا نقول كلمة شكر كبيرة جدا لسعيد جواد لانه اثبت لنا ان التمزقات التي شهدها مجتمع العدو والاخطار التي تتهدده هي السبب وراء تراجع العدو الاسرائيلي عن وثيقة جاليلي لصالح وثيقة جديدة أكثر واقعية . اننا نشكره ونقول اننا لا نخالفه الرأي بأن وثيقة الاربعة عشر بندا هي « افضل » من وثيقة جاليلي ، ولكن ما دام الوضع الداخلي الاسرائيلي بالصورة التي تحدث عنها سعيد جواد فما هو تصرفنا ازاءه . وما هو الموقف الصحيح من أجل مزيد من « تكسر احلام اسرائيل التاريخية » هل العلاج الصحيح بتصعيد التفاعلات السلبية داخل مجتمع العدو ، أم من خلال انهاء المواجهة العسكرية والتي كان قد اعتبرها ثمنا سوف يدفع من الدول العربية في مؤتمر جنيف . هل ان انهاء المواجهة يعني شيئا غير انهاء شبح الحرب .

هل (انهاء المواجهة العسكرية) (ص ٤٩) سيساعد القيادة الاسرائيلية على امتصاص واستيعاب تساؤلات الاسرائيليين وتشكيكاتهم المتزايدة ؟ (ص ٤١) . بماذا ؟ « بصحة المشروع الصهيوني من اساسه » ، تساؤلاتهم من نوع « هل هذه مثلا ارضنا » و« هل قضيتنا عادلة وحقة » ؟ مثل هذه التساؤلات التي طرحت في اوساط اليهود هل ستستمر عندما ترمي الحكومة الاسرائيلية جوابا عليها : بالاعتراف من قبل العرب بوجودها وانهاء المواجهة العسكرية كما ينص قرار ٢٤٢ اساس مؤتمر جنيف . **ان وقائع حرب تشرين الاسرائيلية حادة ، ولكنها حادة الى درجة كانت كافية فقط لقطع المسافة بين وثيقتي جاليلي والوثيقة الجديدة** .. ولكن تلك الوقائع يمكن في المستقبل ان تكون اكثر حدة ، لان ميزان القوى يميل بشكل اكثر حدة لصالح العرب . واذا كان ميل ميزان القوى واتجاه التفاعلات هو لصلحة العرب ، فمن اذن المستفيد من اغلاق الباب أمام تطورات المستقبل واعطاء اسرائيل صكا واعترافا بحقها في الوجود مضافا لذلك انهاء المواجهة العسكرية ؟

ان كلام سعيد جواد عن اوضاع اسرائيل الداخلية لا نختلف عليه ، ولكننا نختلف حول الهدف الذي تخدمه التسوية في ضوء ميزان القوى الحالي والمستقبلي . هذا هو بيت القصيد وعجيب غريب من سعيد جواد او غيره ان يقول لنا صارخا ان اسرائيل تنزف حتى الموت ثم يطالبنا بعد ذلك بالذهاب الى جنيف حتى نعطيها نحن صك الحياة . وماذا غير « المواجهة العسكرية » هي « عناصر التفجير في الصراع » حيث « يشكل العنف الوسيلة الابرز من اساليب المواجهة مع العدو . وعندما نقدم الاعتراف ، وننهي المواجهة العسكرية ، ألا نكون عمليا قد وقعنا في فخ سياسة الولايات المتحدة التي تقوم سياستها ومصالحها على امتصاص وقائع حرب تشرين بعد سحب عناصر التفجير في الصراع » (ص ٤٥) . وبالرغم من ان سعيد جواد لا يعدد لنا هذه العناصر ولكنها معروفة جيدا حيث تتركز في القضية الفلسطينية محور ورمز الصراع في المنطقة والتي كانت تترك باب المواجهة العسكرية مفتوحا وباستمرار .

ان معطيات حرب تشرين مسألة طالما استثمرت غطاء للقبول بالتسوية ، وكأن شبه التوازن العسكري الذي تحدث عنه نايف حواتمة مسألة مطلقة تستطيع ان تعطينا كل شيء وتسمح لنا بعمل اي شيء ، ان هذه المسألة في منتهى الخطورة ، اذ لا يجوز على الاطلاق تحجيم المعطيات اكثر مما هي في الواقع . وكذلك الحدود التي نستطيع ان نصلها . **ان شبه التوازن ، يعني شبه توازن، وليس اكثر ويجب أن لا نراهن على هذا الامر اكثر من ذلك** ، علينا ان نرى المعطيات التشرينية بآفاقها التاريخية ، كناتجة لمعطيات جديدة ، نقطف ثمارها السياسية ، ولكن الثمار السياسية لن تكون بعيدة عن المدى الذي وصلته المدافع العربية في الحرب الاخيرة ، **لان ثمة فرقا كبيرا بين شبه التوازن وبين الانهيار** ولقد سبق ان أشرنا الى ان اسرائيل والامبريالية ادراكا منهما للمؤشرات التي دلت عليها حرب تشرين ، فان كل مصلحتها ان تعقد التسوية الان ، **لان ميزان القوى مرشح للميلان وباستمرار ضد مصلحة اسرائيل** وهذا يفرض على الامبريالية الامريكية الانتقال الى موقع آخر ، موقع حددته المدافع العربية ، وهنا تكون قد اعطت تنازلا في مستوى تلك المعطيات ، وبنفس درجة ميلان ميزان القوى . هذا هو المكان الجديد الذي وصلت اليه الامبريالية ، والتي تتنازل ولكن ضمن حدود « تأمين الوجود الصهيوني بشكل مضمون » وهذا

يكون بانتزاع الاعتراف العربي والفلسطيني بشرعية الوجود الصهيوني ، وهذا هو احد الاسس التي يقوم عليها مؤتمر جنيف ، وبالاضافة الى « ذلك تأمين مصلحة الامبريالية بشكل كامل » واي تأمين للمصلحة الامريكية اكثر من تأمين وجود اسرائيل ، (وانتقال) امريكا من موقع (الطرف) الى موقع الوسيط بل (الصديق) للجميع ، حسب قول القيادة المصرية ان تصور الوضع والتي يسميها سعيد جواد « بالقيادة المتحكمة في طبيعة الحرب ».

ان سعيد جواد لا يخدع سوى نفسه عندما يتحدث عن « ارادات عربية وفلسطينية وعالمية تقدمية » « تتحرك باتجاه اجبار اسرائيل على الانسحاب **غير المشروط** من الاراضي العربية والفلسطينية » (ص ٤٤) . هل صحيح هذا الموقف الذي يدعي صاحبه رؤية الامور وتفحصها بالمجهر التحليلي والسياسي (ص ٤٥) . **ان المسألة لا تحتاج الى مجهر ، بل تحتاج الى شخص يعرف القراءة فقط ليقرأ نصوص قرار ٢٤٢** ، واذا كان لا يعرف القراءة فيكفي ان تكون اذنه بخير ليعلم ان مسؤولا عربيا واحدا على الاقل قد اعلن عن استعداده للاعتراف . ان سعيد جواد نفسه وبعد صفحات قليلة قد قال « ان الانظمة العربية التي قادت الحرب » تعمل « على تطبيق القرار رقم ٢٤٢ لتنظيم انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة في العام ٦٧ ... مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ، ربما ابعد من ذلك ، وتحقيق اعترافات عربية » (ص ٤٩) . اذا كان هذا ما يعتقده سعيد جواد عن موقف انظمة الحرب « حسب موقفها المعلن » فكيف وهو يعرف هذا يقول لنا قبل اربع صفحات فقط « تتحرك باتجاه اجبار اسرائيل على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية » (ص ٤٤) .

كيف تتبدل الامور في مدى اربع صفحات فقط . ولكن ماذا لو بعد ثماني صفحات او ماذا لو ذهبنا الى جنيف مع سعيد جواد ، الا اذا كان المجهر التحليلي قد تعطل معه في ص ٤٤ فلم ير اي شروط للانسحاب ، ثم وضع المجهر فبدت له الحقائق اكثر وضوحا . ورأى احد تلك الشروط « انتهاء المواجهة العسكرية » ، وبدأ الضباب يلف الشرط الثاني « تأمين الاعتراف » ولكن كما يبدو فان المجهر لم يكن قادرا على الالتقاط الدقيق ، فترك مسألة الاعتراف بين الشك واليقين . وحسنا فعل، لان الضمير يجب ان لا يتحمل اخطاء المجهر .

ولكم يبدو سعيد جواد طريفا وفارسا في الوقت نفسه وهو يتحدث عن « **احتلال منطقة التراجع** » و« **التمترس فيها** » (ص ٤٥) .. ان **(احتلال)** و**(تمترس)** كلمتان حلوتان ولكنهما ذات **طابع عسكري** خصوصا عند الحديث عن « **الحضور العسكري** » (ص ٤٦) . وتتصاعد النبرة العسكرية مع تعطل المجهر مرة اخرى في ص ٥٠ وهو يتحدث عن « **اجبار العدو على الانسحاب غير المشروط من الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة** في العام ٦٧ **والفوز** بالحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطيني » . ان **(احتلال)** و**(تمترس)** و**(حضور عسكري)** و**(الانسحاب غير المشروط)** و**(اجبار)** و**(كنس)** و**(الفوز)** هي مجرد كلمات تحمل نبرة عسكرية ولكنها لن تخدع سوى صاحبها ومجهره الذي تعطل ، لان (فوز) تعني نصرا تعني انتزاعا بلا ثمن . ولكن هل (فوزنا) بحقوقنا الراهنة هو فعلا (فوز بها) ، ام شراء (ثمنه) أراضي ما قبل ٦٧ ؟ هل استطاع سعيد جواد بالرغم من كل كلماته الكبيرة ان يخفي حقيقة بسيطة : وهي ان **مقايضة** سوف تحدث : يعيدون لنا ما بعد ٦٧ او اجزاء منها ونتنازل عما قبلها .. أوليس هذا هو الثمن ، وعندما ندفع ثمنا بهذا الارتفاع ألا تكون مسألة **الفوز** عندها ، غير معبرة عن حقيقة الامر حتى ولو ادعى صاحبها انه يحمل مجهرا عندما ينقب عن الحقائق .

المؤامرة الموضوعة ، واجتهاد المؤامرة

ان المؤامرة الموضوعة التي تحدث عنها الدكتور جورج حبش ، والتي سماها « بمحاولة واضحة في الواقع لاحتواء ما تبقى من حركة المقاومة وثورية حركة المقاومة» ، حيث ستجري محاولات، محاولات جادة لاحتواء هذه القوة بكل الوسائل بالضغوطات وبالاكراه ، بمحاولات الاقناع ، بمحاولات التحريف، بكل الوسائل الممكنة » (ص ٤٩ ، عدد ٣٠) . ان هذا الكلام واضح ودقيق ومنسجم تماما مع كل الضربات التي وجهت لحركة التحرر العربية والفلسطينية ، وهذه المؤامرة ليست (اجتهادا) شخصيا من قبل الدكتور جورج حبش كما يحاول ان يشير جواد في (ص ٥١) لان ذبح المقاومة في

الاردن وعمليات التطويق والابادة التي تعرضت لها، ليست (رؤية ذاتية) من قبل الدكتور جورج حبش، وان المضايقات التي تتعرض لها البندقية الفلسطينية الان في معظم الاراضي العربية ليست اجتهـادا شخصيا ايضا ، وان ذبح حركة التحرر العربية دمويا احيانا كما في بعض المناطق وسياسيا في احيان اخرى كما حصل في اكثر مـن موقع ، ان تلك الترتيبات ليست صدفا تاريخية ولكنها صراع قوى وبرامج وسياسات متعاكسة ومتناقضة ، ولم يقل احد « انها لغز او سر او ارادة الشيطان او الاله » .

ان جواد الذي يكتشف ان المؤامرة لم تبدأ بعد تشرين بل بدأت مع نهاية القرن الماضي ، وبداية النشاط الصهيوني وتداخله مع صعود الامبريالية العالمية . ان سعيد جواد هنا يحلق عاليا جدا فوق النقطة المحددة والتي نحن بصددها ، حركة المقاومة الفلسطينية في ظل فترة زمنية محددة ، ان هذه هي المسألة موضع النقاش ، ولكن اذا اراد ان يزايد قليلا بتوسيع رقعة المؤامرة ، فان الجميع يعرف ان المؤامرة الامبريالية هي اوسع مـن حـركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر العربية ، انها تتسع للتآمر على كل ما هو ثوري في هذا العالم .

ان الحديث عن المؤامرة الموضوعة ، ليست « صيغة تخلط بين اهداف متناقضة وسياسات متعارضة » بل انها تعبر عـن تناقض البرنامج الفلسطيني مع البرنامج الاسرائيلي والامريكي ، ومن هنا كانت المواقف الامريكية منذ ٦٧ وحتى الان تعتبر تصفية المقاومة شرطا لمرور التسوية ، الا اذا تصور سعيد جواد ان تصفيتها في الاردن كانت موقفا (اردنيا) فقـط ، وهذا ما ترفضه الحقـائق الموضوعية ، فما زلنا نؤكد جيدا ان التصفية تلك قد أتت في اجواء مشروع روجرز من ناحية وتمت في ظل صمت عربي مطبق ، متضامن قولا مـع المقاومة وفعلا مع النظام الاردني .

وعندما يحاول سعيد جواد ان يحصر المؤامرة فقط بالطرف الامريكي يخطىء كثيرا ويناقض نفسه بنفسه . فبرنامج حركة المقاومة الذي كان يعبر عن نفسه **بالبندقية وباستراتيجية الحرب الشعبية** ، ليس هو برنامج القبول بقرار ٢٤٢، ان البرنامجين: برنامج حركة المقاومة من ناحية وبرنامج بعض الدول العربية وبالذات مصر والذي كان يتحـرك على الارضية السلميـة للقـرار ٢٤٢ ، ان هذيـن البرنامجين كانا متناقضين ، وكان كل منهما يعبر عن افق نظري وطبقي محدد ، ومرور برنامج انما هو على حساب الاخر ، وكيف لا تتوقع مؤامرة من انظمة وصفها سعيد جواد قائلا : « هذه القيادة الوطنية لا تستطيع التعبير عن قناعات الجماهير ولا تستوعب استعداداتها ، بل ومنعتها باصرار من المساهمة في التحضير للحرب ، او الاشتراك بالقتال فيها » (ص ٤٣) ، اذا كانت هذه هي علاقة الانظمة (الوطنية) بشعوبها ، فما هو موقف تلك القيادات من النموذج الذي كانت تطرحه وتمثله حركة المقاومة : البندقية في يد الجماهير ، تدافع بها عن نفسها وعن قناعاتها ، عندها هل ستستطيع الانظمة الوطنية وغير الوطنية (منعها باصرار)؟ ان جواد وهو يتحدث عـن صراع قوى وطبقات وبرامج، لا يبقى منطقيا الى نهاية الامر لانه افترض ان طبقة معينة ، يمكن ان لا تتآمر على « السلاح » في يد طبقة اخرى او برنامج آخر . هنا نقول لسعيد ان المؤامرة هي على البندقية الفلسطينية ، لانها الاضافة الجديدة التي أعطتها حركة المقاومة ، بكل ما تعني البندقية في يد الجماهير ، من تغيير في ميزان القوى بين الطبقات والقوى المتصارعة .

ان هذا لا يعني تطابقا بين رؤية الاطراف الاخرى ومقدار (حذريتها) في مواجهة حركة المقاومة ، ولكن ما يجب ان يعرفه سعيد جواد هو ما يلي : كما ان البرنامج الامريكي والاسرائيلي يحاول ان يفصل البرنامج العربي على مقاسه ، فبالمقابل فان البرنامج العربي يحـاول ان (يقزم) البرنامج الفلسطيني ليتناسب (الحجم) العربي الرسمي وآفاقه النظرية والطبقية .

وبعد هذا وبعد حديث سعيد جواد عن الانظمة الوطنية التي « تمنع » و« باصرار » ، وبعد تجربة طويلة للمقاومة مع الانظمـة ، وعمليات الذبح والابادة التي تعرضت لها ، وبعد حديث سعيد جواد نفسه عن الانظمة التي تريد انهاء المواجهة العسكرية مع اسرائيل (ص ٤٩) ، هل الحديث عن مؤامرة موضوعة ، هو (اجتهاد مؤامرة) ؟ ليقل سعيد جواد ما يريد ولكن المنطق يقول غير هذا ، لان دولا تريد « انهاء المواجهة العسكرية » بالتأكيد تتآمر على البندقية التي تطمح ان تبقى مشرعة .

ان سعيد جواد يستخلص في احيان اخرى نتائج كما يحلو له ويقوم بتوليد نتيجة من نتيجة ليصل في النهاية الى ان «الموقف السوفييتي جزء من التسوية الدولية بمفهومها العام» . وبالتالي فالاتحاد السوفييتي جزء من « الارادة الدولية او المؤامرة » ان تلك الجملة الاعتراضية التي يضعها سعيد جواد بين سطور صفحة ٥٢ هي محاولة خبيثة لتحميل كلام الدكتور جورج حبش ما لا يحتمله : فالدكتور جورج حبش الذي يقول ان « السوفييت اصدقاء لهم وجهة نظر معينة في قرار ٢٤٢ » لا يمكن ان يحتمل كلامه كل عملية (التقويل) التي ألصقها سعيد جواد بكلام الدكتور جورج حبش ليصبح في الصيغة الجديدة : « مؤامرة يشارك بها السوفييت » . ان جواد لا يكتشف سرا عندما يعيد كلام الدكتور جورج عن موقفه من وجهة نظر السوفييت في القرار ٢٤٢ . انهم اصدقاء ولا نطلب منهم موقفا شبيها بموقفنا نحن ، والسوفييت لم يفرضوا وجهات نظرهم السياسية على احد ، ومن حقنا ان نختلف معهم ومن موقع الصداقة . ومن مصلحة الثورة الفلسطينية ان ترفض القرار ٢٤٢ بغض النظر عن سقفه . واذا كان سعيد جواد مهتما كثيرا بالتناقض بين « الصيغة الامريكية مقابل الصيغة السوفييتية » والذي هو « صغير جدا على الورق هو كبير جدا على تراب الارض العربية والفلسطينية » (ص ٥٥) ، اذا كان هذا الحرص على الارض صحيحا ، وبالتالي الحرص على التسوية السوفييتية ، الا يستوجب هذا الحرص من سعيد جواد ان يعترف بأن الصغير جدا على الورق والذي هو كبير جدا على الارض الفلسطينية « سيعني تنازلا بالمقابل عن شيء صغير جدا آخر على الورق وكبير جدا (آخر) على تراب الارض العربية والفلسطينية » ألن يعني تنازلا عن الارض المحتلة ما قبل ٦٧ ؟ ان الحرص على تراب الوطن يجب ان يكون حرصا متساويا سواء كان الامر بشأن ما بعد ٦٧ او ما قبل ٦٧ ، والا فان الحرص هو ادعاء زائف .

من حقنا ان نرفض ان تحشر المسألة الوطنية لتصبح بين (اراض) و(الاراضي) . وان الاساس الكفاحي المشترك مع السوفييت هو في تصعيد الحرب والنضال ضد كل الوجود الاستعماري في المنطقة والذي هو مصلحة مشتركة بين العرب والفلسطينيين والسوفييت ، ان الاساس المشترك ليس في الاعتراف بأدوات الامبريالية — دولا او اشخاصا او طبقات ، بل بالعمل على تدمير هذه الادوات ، لانه كما ان اسرائيل مصلحة امبريالية كما اثبتت الوقائع الملموسة وعلى مدى عمر الحركة الصهيونية (حركة — او دولة) فانها مصلحة ثورية ، للسوفييت ، وللفلسطينيين ، ولقضية الاشتراكية في العالم ان تدمر هذه الاداة وان تدعم المواقع التي تصادم هذه الاداة . ان الحرص على صداقة السوفييت هو في الالتقاء معهم على الارضية الحقيقية والواسعة للنضال ألا وهي النضال ضد الامبريالية بكافة اشكالها وأدواتها . هذا هو البرنامج الثوري للقاء مع السوفييت ، وهذا هو البرنامج المبدأي، واما الموقف القائم حاليا وبالذات القرار ٢٤٢ ، او حتى قرار العام ١٩٤٧ فانما يعني اعترافا من جملة الحركة الثورية في العالم بشرعية اسرائيل ولتستمر مطمئنة في تأدية دورها كوتد امبريالي في المنطقة . ان مساحة اللقاء مع السوفييت هي مساحة واسعة وبحجم التناقض الخالد بين البرجوازية والاشتراكية ، ومن الظلم ان لا نرى المسألة سوى في اطار مؤتمر جنيف ، والذي قام بالاساس بناء على دعوة وجهت من الرئيس المصري انور السادات ، وذلك في الخطاب الشهير الذي كان قد ألقاه في منتصف حرب تشرين .

ان مواجهة ركائز الامبريالية وأدواتها وبالعنف ، هي الاساس الكفاحي الذي يشكل القاسم المشترك مع الاصدقاء السوفييت ، حيث تكمن في هذا الخط من المواجهة المصلحة الثورية المشتركة . وان سعيد جواد الذي استطاع ان يرى بمجهره التحليلي المساحة الكبيرة جدا على التراب الفلسطيني والتي تفصل المشروع السوفييتي عن الامريكي ، كان عليه بالمقابل ان لا يعطل مجهره فلا يرى المساحة التي سنخسرها ايضا على صعيد الارض من ناحية ، وعلى صعيد الصدام مع الامبريالية حيث سنمنح الحياة لركيزتها الاساسية في المنطقة ، من خلال الاعتراف بها وانهاء المواجهة العسكرية معها .. لكي تستمر مطمئنة في تأدية دورها المرسوم لها .

نقطة من هنا .. ونقطة من هنا

بكلمات بسيطة يصور الدكتور جورج حبش ما

سيحدث في مؤتمر جنيف قائلا « فلنتصور ماذا يحدث في مؤتمرات من هذا النوع . خطوة من هنا . ثم خطوة من هنا ، ثم خطوة من هنا . ثم خطوة من هنا الى ان نصل الى نقطة مشتركة » (ص ٢٠) . ويستهجن سعيد جواد متسائلا : « ما هو المقصود بـ « نقطة من هنا .. ونقطة من هنا » بالنسبة لحدود هامش المناورة والتراجع المحدود بالنسبة للانظمة الوطنية حيث لا تملك ، ولا تستطيع التنازل عن شبر واحد من ارض الوطن » .

ان استهجان سعيد جواد لـ « من هنا ومن هنا » استهجان لا مبرر له ، بل هو ما يحدث وسيحدث في جنيف ، والا فلماذا الذهاب اصلا الى جنيف وكيف يمكن ان يصلوا الى اتفاق . وان **« نقطة من هنا ونقطة من هنا »** تعني **تنازلا من هنا وتنازلا من هنا** . واذا كان يفترض ان طرفا ما لن يتنقل بهذه الطريقة فانه يفترض اذا ان مؤتمر جنيف هو اجتماع لكي يملي طرف شروطه على الاخر . وان النقطتين اللتين سيتم في اطارهما التحرك هما (الاراضي المحتلة) او (اراضي محتلة) وما عداهما فستكون تفاصيل ليس الا . ان مساحة التحرك هي في اطار (ال) هذه ولكن حتى ولو كسبت الدول العربية هذا الحرف وضمته الى مكتسباتها ، فهل يعني هذا ان حريتها لن تكون مطلقة او كبيرة في التحرك باتجاه « نقطة من هنا ونقطة من هنا ». وكونها « لا تستطيع التنازل عن شبر واحد من أرض الوطن » ص ٥٧ ، ولكن حتى ولو لم تتحرك مطلقا عن نقطة (الاراضي المحتلة) ، فكيف يفسر لنا سعيد جواد كلامه السابق عن « تطبيق القرار ٢٤٢ لتنظيم انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة في عام ٦٧ » « مقابل انهاء المواجهة العسكرية كما هو الموقف العربي الرسمي المعلن ، ربما أبعد من ذلك وتحقيق اعترافات عربية وضمانات دولية » ص ٤٩ . ان كلام سعيد جواد في ص ٤٩ يعني ان هذه الدول سوف تعطي اعترافا وتنهي مواجهة عسكرية . واذا كان ما قاله في ص ٤٩ **صحيحا** فهل صحيحا ما قاله في ص ٥٧ عن « لا تستطيع التنازل عن شبر واحد من ارض الوطن ». ان كلام سعيد جواد يكون صحيحا عن عدم التنازل عن شبر واحد من ارض الوطن « بالرغم من الاعتراف باسرائيل » **اذا كان سعيد جواد يعتقد ان فلسطين ليست من الوطن .**

وهنا وحتى ولوكان الدكتور جورج حبش بقوله « نقطة من هنا ونقطة من هنا » قد ارتكب (خطيئة) و (خطأ) ، الا يعني هذا ان هنالك نقطة انطلاق في النقاش ، وحتى ، وحتى ولولم تتحرك الانظمة الذاهبة الى جنيف سنتمترا واحدا عن نقطة الانطلاق ، ألا يعني هذا بحد ذاته ان اسرائيل تمتلك عند نقطة الانطلاق هذا مكسبا احتياطيا بحجم الاراضي التي اغتصبت عام ٤٨ ، الا يعني هذا ان نقطة البداية والتي هي القرار ٢٤٢ والذي يعني **(مسامحة)** اسرائيل بفلسطين ، كارثة وطنية بحد ذاته ، ان منطق سعيد جواد غريب ، فمنطق، ان تربح اسرائيل أقل ، وان نخسر نحن ايضا أقل ، ليس هو الوضع الصحيح الذي يجب ان يحكم تفكيرنا .

ان عدوى النزعة العسكرية تستمر مع سعيد جواد حتى ص ٥٨ عندما يلخص حسب هواه ، نقاشات قادة المقاومة حيث يتوصلون « بعد تحليل الوقائع والحقائق الفاعلة في معضلات الصراع المباشرة الى تحديد المهام الوطنية الكفاحية **وبرامجها القتالية** لمواجهة تحديات ما بعد الحرب » ص ٥٨ ومستعيرا أحد جمل نايف حواتمة « من مواقع الرفض الثوري الملموس » والتي كان قد ذكرها في ص ٣٨ . أي برامج قتالية يتحدث عنها سعيد جواد ، ولمواجهة تحديات ما بعد الحرب !! كيف ينسجم كلام سعيد هذا مع كلامه عن انهاء المواجهة العسكرية ، والبرامج القتالية من أجل ماذا ؟ وما قيمة **البرامج القتالية** بدون **احتمال المواجهة العسكرية** ، الا اذا كان سعيد جواد يوجه تلك البرامج لتصفية الاعداء الطبقيين وغير الطبقيين ، علما بأن سعيد جواد وهو يتحدث عن برامج قتالية كان يسقط كلامه هذا على كلام نايف حواتمة والذي لخص مواقع الرفض الثوري الملموس ... لـ « لا للاحتلال ، لا لمشروع المملكة المتحدة ، لا لعودة قوات الملك ، النضال من أجل تقرير المصير واقامة السلطة الوطنية » ، اين البرامج القتالية والدعوة لها في كلام نايف حواتمة، وكيف يستنبط ويتقول سعيد جواد نايف حواتمة كلاما لم يقله ، ولم يدع له ، خاصة وان في هذا « الاتهام » لنايف حواتمة تناقض مع الدعوة التي أطلقها للحوار مع المتنورين اليهود (الحديث الذي نقلته يديعوت أحرونوت) .

ولكم يبدو سعيد جواد ضيقا في رؤياه ، ومجهره دقيقا في التقاط القضايا الجزئية ولكن القضية الاساسية يتجاهلها عمدا ، فهو يقول موافقا على كلام نايف حواتمة « والتصدي لعناصر التسوية الامريكية لاحباط محورها تجاه المسألة الفلسطينية على الوجه التالي : من مواقع الرفض الثوري الملموس ، لا للاحتلال ، لا لمشروع المملكة المتحدة ، لا لعودة قوات الملك ، النضال من أجل تقرير المصير واقامة السلطة الوطنية » ص ٥٨ ، ماذا يعني هذا ؟ انه يعني ان (المحور) هو في موضوع الضفة الغربية.ولكن هل تقاطع التسوية الامريكية مع المسألة الفلسطينية هو في هذا الاطار فقط ؟ ماذا عن اراضي ٤٨ في ذهن الاميركيين ، هل غابت، أم انها في حكم المنتهية . ان التسوية الامريكية في حدها الادنى هي في حدود اراضي ٤٨ ، وفي حدها الاعلى في حدود اراضي ٦٧ . ماذا يعني اذن كلام سعيد جواد وقبله نايف حواتمة بحصر المسألة في حدود الضفة والقطاع ، هل يعني هذا ان النزال مع التسوية الامريكية هو في هذه المساحة فقط . وهل يعني من ناحية اخرى ان اراضي ٤٨ مسألة عفا عليها الزمن ، وعندها يكون كلام سعيد جواد عن عدم التفريط بشبر واحد من ارض الوطن ص ٥٧ ، هو كلام صحيح لانه لا يعتبر اراضي ٤٨ من الوطن بل يحصرها في حدود اراضي ٦٧ كما يبدو من كلامه في ص ٥٨ .

ان سعيد جواد وهو يخشى من « تقديم حل كسيح للمعضلات الفلسطينية » ص ٥٥ اذا بقيت المقاومة في « معاقل زوايا انعزاليتها » ص ٥٥ لذلك فهو يدعو الى عدم الاستنكاف عن المساهمة الايجابية في الصراع ومن ميادين الكفاح الاساسية ص ٥٨ . ويحذر سعيد جواد بأن استنكاف المقاومة سيؤدي الى ان « تتمكن اسرائيل وامريكا من فرض عراقيلها » ص ٥٥ وبالتالي « تتربع امريكا على عرش مواقعها الجديدة » ص ٥٥ . بعد ان تكون قد أعادت التوازن لعناصر سياستها التي افتقدته خلال الحرب وبعدها .

ان سعيد جواد ، وهو يخشى من حل كسيح تقدمه الامبريالية للمسألة الفلسطينية ، لم يقل ، ما هو الحل (الاقل كساحا) . وكذلك عندما يتحدث عن « المساهمة الايجابية في الصراع ومن ميادين الكفاح الاساسية » [الاشتراك في مؤتمر جنيف ولعبة التسوية] ، فان المساهمة الايجابية، وميادين الكفاح الاساسية بالنسبة الينا تظل غير ما يتصوره سعيد جواد ، لان المساهمة الايجابية هي في تصعيد قدرة الفعل القتالي الفلسطيني والعربي والدعوة اليه . لان التصعيد وحده هو الكفيل بضمان مشاركة ايجابية في صنع الاحداث . ان منع الحل الكسيح هو في مزيد من أحداث الميلان في ميزان القوى ، باتجاه قوى جديد يعطي حلا أقل كساحا ، فأقل كساحا... على طريق الوصول الى الحل الافضل ، **ومفتاح الحل الاقل كساحا هو بالتأكيد مفتاح كل معطيات تشرين ، تصعيد القتال وارادة القتال .**

اننا عندما نقول ان المقاومة قادرة على هذا فاننا ننطلق من تشخيص سعيد جواد لقدرات حركة المقاومة ، فحركة المقاومة تمتلك القدرة على «تذليل العقبة لصالح امريكا واسرائيل » ص ٥٥ أو عدم تذليلها ، وحركة المقاومة قادرة على التحكم (بتقديم حل كسيح) ص ٥٥ أو بالتالي حل (غير كسيح) ، وهي تتحكم في ان « تتربع امريكا على عرش مواقعها الجديدة » وبالتالي منعها من التربع . حركة المقاومة قادرة من خلال المشاركة على منع او تمرير التسوية الامريكية مقابل التسوية السوفييتية العربية ، هذه القدرة التي لمنظمة التحرير تستند على ماذا ؟ على « ان مصر وسوريا أعلنتا رسميا : الالتزام ببرنامج الانسحاب الاسرائيلي حتى حدود الرابع من حزيران ٦٧ وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . والاخيرة مرتبطة بقرار فلسطيني معترف به رسميا من الانظمة العربية وفرض عمليا على العالم . من هنا يصبح تراجع الانظمة خارج حدود هذا البرنامج مسألة لا يمكن الاقدام عليها بسهولة ومغامرة الانظمة بتجاوزها يخلخل تماسكها [أي تركيبتها الطبقية] ويفجر طاقات الجماهير العربية والفلسطينية ويرتب عليها مواقف وسياسات جديدة » .

ان سعيد جواد يعدد قدرات المقاومة ، ويعيدها الى موقف الجماهير الذي سيراقب انضباط الانظمة بالتزاماتها تجاه « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » تلك الحقوق التي يحددها « قرار فلسطيني » وبكلمة اخرى **فان تلك الانظمة بفعل خوفها من جماهيرها ملزمة بتنفيذ قرارات المنظمة.**

وهذا يعني ان مفتاح القرار العربي والتسوية هو القرار الفلسطيني . ما دامت كل هذه القدرات لمنظمة التحرير ألا يعني ان جدالنا مشروع في مطالبة سعيد جواد بأن يطالب المنظمة بأن (تجبر) الدول العربية على عدم الاعتراف باسرائيل وانهاء المواجهة العسكرية معها . خاصة وان هذه الدول موافقة على هاتين المسألتين كما يقول سعيد جواد ص ٤٩ (انسحاب من اراضي ٦٧ مقابل اعتراف لا انهاء المواجهة العسكرية) . واذا كان القرار العربي بشأن المسألة الفلسطينية « مرتبطا بقرار فلسطيني » ص ٥٤ . أفلا يعني هذا ان القرار العربي بشأن الاعتراف بأسرائيل وانهاء المواجهة العسكرية معها هو قرار فلسطيني بالاساس وبالتالي فان منظمة التحرير تتحمل مسئولية كما يبدو من الطريقة التي حدد بها سعيد جواد العلاقة بين القرارين الفلسطيني والعربي في ص ٥٤ .

ان سعيد جواد يكرر بهذا مرة ثانية لعبة (التضخيم) و (التقزيم) للدور الفلسطيني حسب المناسبات متناسيا أنه حدد شكلا ونمطا آخر للعلاقة بين (الانظمة) وبين (المقاومة + مركز الجماهير) وذلك حين قال « ان استعدادات الجماهير العربية والفلسطينية العالية للعطاء وبرامج الثورة الفلسطينية ... لا يمكن ان يغير شيئا من طبيعة الحرب الوطنية ... **بل حتى** التأثير في حدودها وأهدافها المحدودة » ص ٤٣ . وعلاقة الخوف بين الانظمة والجماهير في ص ٥٤ كانت في ص ٤٣ « **بالرغم** من قناعات الجماهير ونواياها واستعداداتها العالية للعطاء والقتال فان قيادة الحرب ... **حكمت وتحكمت** في مسارها طبقا لما تفيه طبيعتها الطبقية » .

ان تبادل الادوار والعلاقة بين الجماهير والمقاومة من ناحية والانظمة من ناحية اخرى ، في الحرب شكل ونمط وفي السلم نوع آخر من العلاقة بل نقيضه ... تبدل الادوار وفي صفحات محدودة من ٤٣ — حتى ٥٤ دليل آخر على ان المجهر قد تعطل في احدى المرتين ، او ان سعيد جواد كان قد أقفل عينيه في احدى المرتين ، فلم يحسن التقاط الصورة ، خصوصا وان أغماض العيون وسيلة لتنشيط الخيال كما يقول الشعراء .

وبشكل متناقض مع الوقائع والحقائق للوصول الى اهداف متناقضة ، كان يجهز أيضا جوابا احتياطا لاي حديث عن الحرب الشعبية معتبرا اياها مسألة مؤجلة بانتظار توفر شروط قيامها واستمرارها وهو « هدف لا يمكن انجازه الا بنمو القوى الطبقية المتحركة لاستراتيجية حرب التحرير الشعبية » . بهذا يكون قد قطع الطريق على كافة الاحتمالات الا جنيف .

ان سعيد جواد عندما يحكي عن « الكمون » في « معاقل الانعزالية » وهو يتهم من لم يوافق على الذهاب لجنيف ، فانما هو وحده يحدد البدائل : جنيف، او الكمون . **ولكن بين جنيف والكمون طريق ثالث ، طريق كريات شمونة ، فهل نسيه** سعيد جواد ؟ ان نسيه ، فهذا شأنه ، ولكن كريات شمونة طريق يبقى مفتوحا ، ان الثورة الفلسطينية التي امتلكت في مراحلها الاولى بنادق معدودة قديمة ، فهي الان تتملك العديد من البنادق .

ان الرانمة التاريخية التي يدعو سعيد جواد الى تأسيسها في نهاية مقاله هي بالحفاظ على البندقية الفلسطينية والعربية وابقاء باب المواجهة العسكرية مع العدو مفتوحا وان نكون أمناء لـ « الحقوق والاماني الوطنية الشرعية والتاريخية والاهداف الاستراتيجية البعيدة للثورة الوطنية والتي هي خلفية الضمير الفلسطيني ومعين منابعه الضاربة في عبق تراب الوطن ... والتي هي ... غير قابلة للنقاش على الاطلاق » . وليس أصدق في أمرنا من المثل القائل : لا تضع رجلك في الوحل لئلا يغرق جسدك كله .

مراجعات

Elie Kedourie: **The Chatham House Version and Other Middle - Eastern Studies,**
(Weidenfeld and Nicolson, London, 1970).

اصبح التاريخ المصري والعربي عموما موضوعا لدراسات عديدة يقوم بها دارسون من مختلف الزوايا ، ففي داخل الوطن ، بدأ التساؤل عميقا ما هي الجذور الحقيقية وراء ما يحدث .. ما مكامن الضعف والقوة .. وهل يمكن ان نأخذ من التاريخ ما نستطيع به مواجهة المستقبل . وموقف العدو واضح . انه يريد ان يقتنص النفس العربية من مقتل ، لهذا فهو يستنطق التاريخ كي يكشف لها عن سر خبيء — يستطيع ان يستند اليه وهو يوجه ضربته . ومراكز الدراسات الاكاديمية تهتم أيضا بالتاريخ المصري والعربي وهذا الاهتمام من جانبها تقليدي منذ أيام الاستعمار القديم ، لقد كان العلماء في جميع العلوم يتقدمون ويصاحبون ويتبعون جيوش الاحتلال . وتكونت من هذا كله حصيلة ضخمة تحتاج الى النظرية المصرية العربية النافذة، فما زالت شخصية هذا الشعب تحتاج الى مزيد من التعمق. وقد يكون واحدا من المنطلقات المأمونة والمجدية أن نتأمل ما يقوله الغير عنا وان نكتشف وراء الرداء الاكاديمي الاهداف والمواقف . وان هذه الدراسة نموذج لما يمكن ان نقوم به في هذا المجال فالاستاذ ايلي قدوري استاذ السياسة بجامعة لندن كتب عدة دراسات وضعها في كتاب* نشر عام ١٩٧٠ — عرض فيها جوانب عديدة من التاريخ المصري والعربي ، ومؤلف الكتاب استاذ للسياسة في جامعة لندن ، اي أنه يسهم في صياغة عقول طلبة هذه الجامعة ، ويشرف على أبحاثهم في الدراسات العليا ، وبهذا يمارس نفوذا قويا في توجيه آرائهم ومواقفهم وقراراتهم — حتى يصل هؤلاء الخريجون الى مراكزهم العملية في بلادهم — كرجال سياسة يشاركون في الحكم او اساتذة في الجامعات او مستشارين لرجال الحكم او دبلوماسيين او صحفيين يوجهون الراي العام ... الخ .

ويضم الكتاب اثنتي عشرة دراسة تتعلق جميعا بتاريخ وواقع الحياة في منطقة الشرق الاوسط ، ويمكن تقسيمها الى مجموعتين : **المجموعة الاولى :** تتعلق بتاريخ الحياة السياسية في مصر (سعد زغلول والبريطانيون) ، (نشأة الدستور المصري عام ١٩٢٣) ، (مصر والخلافة من سنة ١٩١٥ — ١٩٥٢) . **والمجموعة الثانية:** تضم دراسات تشمل المنطقة العربية في مجموعها وتتعرض بالذات لحركة الوحدة العربية فيها — تاريخا وواقعا (الشرق الاوسط والقوى الدولية) ، (القاهرة والخرطوم والمسألة العربية ١٩١٥ — ١٩١٨) ، (سقوط دمشق في اول اكتوبر ١٩١٨) ، (السير هربرت صموئيل وحكومة فلسطين) ، (العروبة والسياسة البريطانية) ، (مملكة العراق — دراسة للاحداث الماضية) ، (الاقليات) ، (الدين والسياسة) والدراسة الاخيرة عن الاتجاه الذي يتخذه المعهد الملكي للشؤون الخارجية في الدراسات التي يصدرها . وغني عن البيان ان الدراسات جميعا متصلة اتصالا عضويا وللمؤلف فيها خط فكري موحد ينتظمها كلها ويقدم تطبيقاته المباشرة في كل دراسة بحسب ظروفها .

أن هذا الدارس ينظر الى منطقة الشرق الاوسط

* سبق لمجلة « شؤون فلسطينية » ان نشرت مراجعة للكتاب موضوع هذه المراجعة في العدد رقم ٢ .

نظرة مبالغة في التشاؤم ، فمن الصفحة الاولى من كتابه نقرأ : « منذ القرن التاسع عشر حين ادخلت الاصلاحات المزعومة الى الامبراطورية العثمانية ، كان ثمة وزراء ودبلوماسيون غربيون ينظرون الى سياسة الشرق الاوسط بأمل في تحسن اموره ، ولكن خلال مئة السنة الاخيرة لم تشهد المنطقة استقرارا ... واذن فلعله من الاحكم ان نفترض ان الخلل في الشرق الحديث ليس امرا عارضا ، وان عدم استقراره السياسي هو بالاحرى نتيجة أزمة اجتماعية وثقافية عميقة لم تقدر مشروعات المصلحين او حسن نية المتعاطفين ان تعدل فيها او تلطف حدتها » .

هذه هي نظرة الكاتب للمنطقة وهو يبدي أسفه لان (المرض الرصين) الذي يعتبر ان الخلل في المنطقة (مزمن) لم يعتنقه الا عدد قليل سواء في بريطانيا او في امريكا . على ان تشاؤم تدوري ليس قاصرا على المنطقة ، بل هو أشمل من ذلك. ان هذا التشاؤم يتسع لكي يضم في عتمته مستقبل الانسانية على العموم ، فلديه ان تفاؤل الليبراليين الغربيين وايمانهم بأن العالم ينزع الى التحسن وبأن في ميسور الانسان ان يساعد على تحسينه ، ومبادءهم التي توجه نشاطهم وعلى افكارها المتفائلة يقيمون علمهم السياسي — هذا كله يفسر موقفهم من منطقة الشرق الاوسط خصوصا حين ينادون بأن سلاما شاملا مستقرا سيسود العالم حين يصبح مكونا من دول قومية ديمقراطية تقدمية .

وفي رأي الكاتب أنه مهما يكن الحق في هذه المعتقدات فانها ليست مما يجب ان يعتنقه رجل الدولة بل أنها بالنسبة لهذا الاخير يجب أن لا تكون لها علاقة بعمله . ويسخر المؤلف من هذه المبادىء ويقول ان يكفي الرجال العمليين ان يواجهوا الشرور الحالة وان يحافظوا على المصالح الراهنة ، ولا يسوغ لهم أن يثقلوا كواهلهم بالعقائد التاريخية او أن يجروا وراء الاوهام في تلك المتاهات التي نشرها الكلام السياسي الغربي في العالم كله .

واضح من هذا الموقف ان المؤلف يعتنق موقفا نفعيا خالصا وهو يدعو الى تعامل بين الدول والشعوب لا مبادىء تحكمه ، ومهما يكن من أمر — فالمهم هنا هو أن نتعرف كيف يطبق استاذ السياسة هذه النظرة الضيقة على ما جرى — ويجري في المنطقة — وما هو نوع المصالح التي يدعو الى المحافظة عليها .

أن أشد ما يثير الكاتب هو ما يراه منتشرا بين المثقفين ورجال السياسة الانجليز من شعور دائم بالاثم بسبب مسلك الغرب من نحو العرب بعد الحرب العالمية الاولى ليس صحيحا لديه القول بأن الامبريالية والصهيونية هما أساس عدم الاستقرار في المنطقة ، ذلك أنه يرى ان عدم الاستقرار في الشرق عميق ومزمن ولن يشفي هذا المرض اختفاء اسرائيل او ما يسمى بالامبريالية — التي يصف معاداتها بأنها تضاعف سوء الفهم وتشجع على تبني الاوهام لصالح المهيجين ومن يستخدمونهم بحيث يكون الخاسر — في النهاية — هو الراغب في السلام والمتحضر ، وهو يرى ان محاولات تحديث المجتمع في الشرق الاوسط وجعله على النمط الغربي ، ديمقراطيا — لا بد وان تجلب من المضار ما يفوق النفع .

اذن فما هي نصيحة استاذ السياسة لمواجهة هذا المرض المزمن ؟ يخصص تدوري دراسة طويلة عن (سعد زغلول) والبريطانيين فيها يتابع مسار الاحداث في مصر من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٤ وذلك من خلال برقيات الموظفين البريطانيين في مصر ، وهو يوجه النقد العنيف لاولئك السياسيين الانجليز الذي اقتنعوا بأن ثمة حركة ثورية في مصر ، ونصحوا باتخاذ مواقف متعاطفة معها ، وتعديل نظام الحماية لصالح مؤسسات مصرية يحكمها دستور ونظام برلماني ، ولديه ان هؤلاء السياسيين حسبوا أنهم — بذلك — يحافظون على المصالح البريطانية من ناحية ، وبعضهم من ناحية اخرى تصرف وفقا لعقائده الليبرالية .

فماذا كانت النتيجة ؟ « لقد استطاع اللنبي عام ١٩٢٢ ان ينتزع تصريح فبراير المشهور منحكومته في لندن التي كانت تعارض اصداره بشدة ، وبهذا بدأت التصفية الطويلة والاليمة والمهينة لمركز بريطانيا في مصر والتي انتهت باحداث نوفمبر ١٩٥٦ غير المتوقعة . »

هذا عن المصالح البريطانية . اما الليبرالية فلم تستفد شيئا من هذه التصفية ، لان ثمن حقيقة بسيطة وواضحة هي أن هذه المناطق التي يقال أنها تعاني اليوم من الامبريالية لم تعرف طول

الجزء الاكبر من تاريخها سوى الحكم الاجنبي ، وأنه حتى مجيء القوى الغربية لم تكن خبرتها في أنواع الحكومات سوى خبرة الحكم المتغطرس الجشع الاستبدادي غير المسؤول ، ولقد تحققت نبوءة كرومر في أنه تحت شعار المؤسسات الحرة ستظهر أسوأ شرور الحكم الشخصي .

ويقول قدوري في دراسة اخرى في نفس الكتاب ان أنصار الليبرالية في الغرب الذين كانوا يدعون الى ادخال الاصلاحات في الشرق هم أنفسهم الذين كان من رأيهم ان الطريق الوحيد لتطبيق هذه الاصلاحات هو الحكم الاوروبي المباشر ويعلق المؤلف على ذلك بأن التحول عن الاعتقاد في ادخال اصلاحات تشرف عليها اوربا الى اعتقاد في حكم ذاتي وطني ــ هذا التحول يمثل لحظة هامة وذات مغزى في انحطاط المذهب الليبرالي .

المنطقة اذن لا تفهم الا لغة الردع ، واول تنازل من جانب القوى سيكون البداية لسلسلة من التنازلات لا تنتهي ، وستكون الخاتمة تصفية كاملة للمصالح الغربية ، فليس ثمة تيار ثوري يستند الى جماهير لها مطالب وطنية واضحة ومحددة .

ولقد كان من اكبر اخطاء اللنبي انه قبل ــ دون فحص ــ الرأي القائل بأن سعد زغلول يعبر عن رأي أغلبية المثقفين المصريين . كما لو « ان « المثقفين المصريين » ــ هكذا يقول المؤلف ــ كانوا كيانا معروفا او من الممكن تبنيه ، وكما لو أن آراءهم ــ مهما تكن طبيعتها او طريقة التعبير عنها ــ كانت لها اهمية رئيسية او غالية ، وكما لو انه كان هناك أصغر قدر من المعنى في مثل هذا الموقف الحديث ــ الا باقصى قدر من التسبب والخداع عن التعبير والمعبرين » .

فكيف يقدم استاذ السياسة احداث هذه الفترة الى قارئيه ؟ ان سعد زغلول لم يذهب الى المعتمد البريطاني الا بدفعة من السلطان فؤاد الذي كان وقتئذ في صراع مع المعتمد البريطاني على حكم مصر ، ومن هنا مصلحته في استغلال الشخصيات المناوئة لبريطانيا واثارة المتاعب لها .

ولكن الكاتب نفسه يقدم وقائع اخرى ــ ففي بداية مارس ١٩١٩ كانت مصر بلا وزارة ، حينئذ زار سعد زغلول القصر على رأس وفد وقدموا إلتماسا للسلطان يطلبون فيه أن يمتنع هذا الاخير عن تأليف وزارة جديدة طالما ان سلطات الاحتلال تقف في وجه المطالب الوطنية ، الا ان فؤاد رفض ان يستقبل الوفد ، وفي نفس الوقت طلب من المقيم البريطاني ان يحميه من اهانات اخرى ولحماية كرامة السلطان صدر قرار باعتقال سعد زغلول وثلاثة من زملائه وتم نفيهم الى جزيرة مالطة . وهو تصرف أبدى السلطان بشأنه عميق شكره الى المقيم البريطاني .

هل يستطيع القارىء ان يستخلص من ذلك شيئا عن أصالة الثورة الوطنية المصرية العظمى؟ يبدو ان هذه الثورة تشكل عقبة ضخمة في طريق الدارسين المتخصصين في تشويه تطور الكفاح المصري ، فليس قدوري اول من حاول مسخ وجه ثورة سنة ١٩١٩ من قبله حاول ناداف صفران ذلك .

ثم يجيء قدوري ويقول ان ممثلي بريطانيا اخطأوا مرتين في اكتشاف التنسيق بين فؤاد وسعد ، الاولى عند زيارة هذا الاخير للمعتمد البريطاني ، والثانية حين اتخذوا اجراءات العنف ضد سعد زغلول ، لانهم في ذلك كانوا ضحية خداع من الملك (!) الذي كان يهدف ــ في رأي الكاتب الذي يستهين بعقلية قرائه ــ الى اشعال الثورة في البلاد ضد الانجليز ، بسبب نفي هؤلاء الزعماء. ولكنه يعود فيورد رأي فؤاد في مفاوضات لجنة ملنر مع سعد وزملائه ، لقد أبدى السلطان دهشته لوجود رغبة في تقديم تنازلات تمثل هذا الاتساع لصالح اناس أشعلوا ثورة ضده وسببوا مثل هذه الاضطرابات للحكومة البريطانية في العام الماضي . وفي دراسة اخرى في نفس الكتاب نجد أن قدوري يقول ان الملك كان يشعر بالمرارة لان الانجليز فرضوا دستورا على النمط البلجيكي على المصريين الذين لم يكونوا قط مستعدين للحكومة البريطانية .

ويجهد القارىء عبثا عن تتبع مظاهر التنسيق المزعومة (!) التي يتحكم من خلالها في مسار ثورة الشعب المصري ، ويفسر بها المؤلف هذه الثورة . ويطلق الكاتب بعد ذلك احكاما عصبية على الثورة المصرية فهي تبدو لديه ثورة موجهة من أعلى ، هذا في البداية على الاقل اما جماهير المدينة والفلاحون فقد كانوا يتحركون لا بسبب مطالب وطنية واقتصادية ولكن مدفوعين « بالكليشيهات »

التي تعلمت الطبقة الرسمية استخدامها من اوروبا.

وفي رأيه ان الردع العنيف كان الاجراء الـذي يجب ان تتخذه السلطات البريطانية دون ابطـاء او تردد ، ويصف تدوري الاقتراح الذي بعث به تشاتام من القاهرة الى وزارة الخارجية البريطانية بالسماح لوفد مصري بالسفر الى اوروبا بأنه «تنازل ورضوخ للشعور المحلي» ويواصل الكاتب استخدام هذا التعبير كلما تضمنت برقيات مسؤول بريطاني في القاهرة احداث الثورة كما تجري فعلا ويقـدم على أساس ذلك الاجراء الطبيعي الذي تفرضـه اراء الجماهير .

على أن نقد الكاتب يصل الى الذروة حين يجد ان بلفور وزير الخارجية البريطانية يوافق على اقتراح سفر الوفد ويصف قراره هذا بأنه « رضوخ جوهري » ولتبرير هذا الحكم يقدم تحليلا لشخصية بلفور — ففي رأي تدوري ان وراء امتيازه العاطفي والثقافي يكمن الجهل وعدم الاكتراث والخفة ، ولم يكن يقرأ اوراقه ولم يكن يعرف الحقائق ولم تكن له رؤية للمستقبل .

هكذا ، ويبدو ان تدوري أحسن على الفور بما يمكن ان يعنيه هذا الحكم على صاحب التصريح المشهور قبل الحرب العالمية الاولى بشأن الوطن القومي الصهيوني — فاستدرك متسائلا عما اذا كان قرار بلفور بتأييد المطالب المصرية يتضمن دليلا جديدا على ما سببته الحرب من اثار مدمرة على جهاز الحكم البريطاني ؟ ان بلفور بهذا الاجراء قد أثبت في رأي المؤلف عدم قدرته على الوصول الى قرار مستند الى معلومات كافية بل اتخذ اجراء يتضمن تغييرا فجائيا في السياسة بلا تبرير على الاطلاق ولا يتسم بسلامة التمييز .

ويلقي المؤلف بقارئيه في تيه مظلم بسبب التخبط المغرض الذي يتسم به عرضه للاحداث المصريـة في هذه الفترة .

لقد كان الاجراء الواجب اتخاذه منذ البداية هو القمع العاجل — كان يتعين اتباع ذلك بواسطـة ونجت من أول مقابلة ، بل أن هذه المقابلة ما كان ينبغي ان يجري فيها سوى السخرية بالزائرين (!) ولهذا كان يتعين تغيير ونجت وقد كان .. وحل محله اللنبي .. وكان المنتظر ان يكون اكثر حزما وحسما كي يعيد الكرامة البريطانية باجراءات قوية، فهو رجل قوي قادر على هزيمة الوطنيين، وقـد ارسل الى مصر بسبب مهابته العسكرية . الا ان اللورد تبنى — حين وصل الى مصر — سياسـة بلفور ، وتابع كلايتون الذي كان يرى أن المبادىء الوطنية والرغبة في الاستقلال قد ضربت عميقا في جميع الطبقات ، ومن هنا ضرورة ان تبدي بريطانيا مزيدا من التعاطف مع الاماني الوطنية لتقبـل الطلبات المعقولة لان سبب الاضطراب في رأي كلايتون كان راجعا الى انكار الاستقلال والسيادة والعلاج هو في التعامل مع سعد زغلول وزملائه للوصول الى تسوية سياسية على أساس المبادىء التي نادوا بها .

يقول الكاتب ان اللنبي اقر بمجرد وصوله اراء كلايتون وبشيتهام . ما رأي استاذ السياسة في ذلك ؟ اللنبي لم يكن في عمقه المعهود بالنسبـة للسياسة المصرية وقبل دون تمحيص الرأي القائل بأن سعد زغلول يمثل رأي اغلبيـة « المثقفـين المصريين » ، كما لو أن هؤلاء كانوا كيانا معروفا او من الممكن تبنيه .. الى اخر كلامه الذي سبق ان اوردناه . وتزداد دهشة الكاتب لموقف اللنبي ويعرض الاحداث بطريقة تبرر هذه الدهشة فحين وصل اللنبي الى مصر كانت أشد الاضطرابات قد انتهت ، وقد قضى تماما على التهديد الموجـه للقبضة البريطانية في مصر ، وبدأ الوطنيون ييأسون من النجاح واعتبر الجميع ان وصول اللنبي يعني مقدمة لضم البلاد الى المستعمرات البريطـانية وأنه دليل على أن معاملة المهيجين ستكون بحزم خصوصا بعد انذار القائد العسكري باتخـاذ اجراءات قمع تؤدي الى آلام رهيبة تعانيها البلاد، وان على الجميع نسيان سعد زغلول تماما وتركيز جهودهم لتشكيل وزارة ، فهذا هو المدخل اللازم لاعادة الهدوء .

الا يكون الافراج عند سعد زغلـول فـي هذه الظروف والتوقعات تنازلا غير متوقع .

ويبدو أن اللنبي — في رأي تدوري — حسب أنه بذلك كان يقرن العنف باللين كي يضع حدا لما تصور انه العقبة الرئيسية في تسوية المسألة المصرية ولكنه اثبت تماما انه على خطأ ، فلقد أساء المصريون فهم الموقف كله مفسرين عمل اللنبي على أنه تنازل من جانب السلطة البريطانية ، وأدى ذلك الى ضراوة لم تحدث من قبل ، بل

لم يكن من الممكن تخيلها ، وحسب المصريون انهم يستطيعون دائما تكرار اساليبهم للحصول على مزيد من المكاسب ، واخطأ اللنبي في حساباته وظهر ذلك سريعا بوضوح ، ومن حسب انهم معتدلون واعتقد أن سياسته كان من المفروض أن تغريهم — صاروا مترددين في التعاون مع سلطات الحماية طالما انها قد كشفت عن حمقها .

ولم يكن حظ ملنر عند استاذ السياسة بأسعد من حظ اللنبي . فلديه ان ملنر ولجنته كشفوا عن شكهم المميت في شرعية مركز بريطانيا في مصر ذلك الشك الذي بالاضافة الى الخطأ الاصلي الفادح الذي ارتكبه اللنبي دمر البناء الذي شاده كرومر باقتدار ومهارة ، وكلما انساق ملنر الى الرمال المتحركة التي صارت اليها المفاوضات المصرية اخذ يهدىء نفسه بمجرد الكلمات وبالاعتقاد في أنه اذ يعطي لسعد زغلول او لفؤاد او للمعتدلين المزعومين فانه بذلك يعمل لصالح المصريين محققا بذلك اهداف عمل كرومر .

أما قدوري فهو يرى في ذلك كله آراء ذات طابع خيالي وهمي وتردد نغمة عاطفية تكشف عن انعدام الصلة بالواقع وهي ان لم تكن نتيجة ضعف فكري — الا انها نتيجة انهيار عصبي وضعف ارادة الحكم ، وهي الامور التي صارت واضحة داخل الطبقات الحاكمة البريطانية بعد اهوال الحرب العالمية الاولى والتي جعلت انحلال الامبراطورية البريطانية شيئا قبيحا ومدمرا — سواء للرعايا او الحاكمين على السواء .

اما السير رولاند لندساي فأن آراءه الخاصة بتخفيف القبضة البريطانية على شؤون الحكم في مصر فتمثل مدى تأثر لندساي بالكليشهات المتداولة في عصره وقد أظهر جهلا خطيرا بما يمكن ان تؤدي اليه الخطابة السياسية ، ولدى المؤلف استاذ السياسة أنه ليس من المبالغة القول بأن لندساي كان « انهزاميا » في المسائل المصرية بكل ما في الكلمة من معنى .

ويورد المؤلف ضغوط اللنبي لاصدار تصريح ٢٨ فبراير المشهور ، فقد كتب المعتمد يقول ان الموظفين البريطانيين في الحكومة المصرية من رأيهم الاستجابة للمطالب المصرية وذكر أن هؤلاء الموظفين قد تصرفوا في العامين الماضيين على أساس الاعتقاد بأنه سيتم اقرار سياسة تقوم على التنازلات الليبرالية من جانب بريطانيا وانهم على هذا الاساس قد أعطوا مختلف الوزراء وغيرهم ممن كانوا على صلة بهم هذا الانطباع ، وأنه لو تم اقرار سياسة مغايرة فأنهم لن يكونوا قادرين على الاحتفاظ بثقة الوزراء المصريين او القيام بخدمات نافعة في المستقبل .

ويصب استاذ السياسة جام غضبه على هؤلاء الموظفين ويندهش بسبب هذا المسلك منهم . ويتساءل عما اذا كان هؤلاء الموظفون باعطائهم الانطباع للمصريين بأن سياسة من التنازلات الليبرالية سيتم اقرارها — قد تجاوزا حدود وظائفهم لانه ليس من سلطتهم ان يحددوا السياسة البريطانية او يفسروها .

ثم صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٨ ، وبعد عام صدر الدستور المصري وتألفت الوزارة وفي نهاية عام ١٩٢٤ قتل السردار المصري .

ويسخر قدوري من اللنبي وهو يسير في شوارع القاهرة علىرأس صفوف الجند البريطانيين تصحبهم الطبول والابواق العسكرية . ويورد قدوري تشبيها مليئا بالاستهزاء والشماتة : « كان اللنبي — وهو يستخدم الذراع الغليظة متأخرا — يشبه صبيا يضع يده على أنفه لاغاظة مناوئيه » .. وارسلت الحكومة البريطانية سير أوستن تشمبرلين ينتقده ويعترض على تصرفاته وفي النهاية قدم اللورد — في سخط وهياج — استقالته .

هكذا يقدم المؤلف تصوره عن الحياة السياسية المصرية ، وواضح أنها تساند الاستعمار في صورته النقية الاولى — الحكم المباشر بواسطة سلطة الاستعمار واستخدام أساليب القهر الصريحة . وثمة سؤال يفرض نفسه كيف يمكن لمثل هذا الرأي ان يبديه مثل هذا الاستاذ في الثلث الاخير من القرن العشرين ؟ وبتعبير اخر — هل يتصور المؤلف أن لرأيه هذا فرصة لان يطبق في المنطقة في الظروف الحالية ؟ بحيث تستعيد « القوى » قبضتها على المنطقة وتمارس فيها تسلطها وحكمها المباشر ؟ الاجابة على ذلك كله ستتضح بعد عرض المجموعة العربية من الدرجة التي يضمها الكتاب .

يتدم المؤلف دراسة عن « الاقليات » في ظل

الامبراطورية العثمانية وفي اعقاب انحلالهـا ، ولابراز وجهة نظره في الموضوع ينتقي مـا حدث للارض في تركيا ولليهود والاشوريين في العراق . وفي دراسة اخرى عن « الدين والسياسة » يعرض لموقف المسيحيين في النضال القومي العربي . والكاتب هنا لا يقدم دراسات تاريخية وحسب ، ولكنه في حقيقة الامر ينظر الى ما يجري اليوم في المنطقة ، ويبدي بشأنه رأيا — يقدم اسانيده من التاريخ. فبعد ما عرض لما حدث للارمن والاشوريين واليهود يقول أن هذا ينبغي ان ينذر اليوم الغرب الذي يحاول أن يبني في الشرق اوطانا فيها يمكن أن يتعايش المسلمون والمسيحيـون واليهـود ، ويضيف « لقد كانت الدولة العثمانية قائمة علـى نفس التنظيم بطريقة تحقق الدقة لهـذا الهدف المرغوب فيه ولكن الامبراطورية العثمانية كانت شيئا يعتوره النقص . كانت محـافظة متحجرة وضيقة الافق لم تكن تعرف شيئا مـن الخصوبة والمرونة والفرص الموجودة في التقاليد الاوروبية .»

استاذ السياسة — اليهودي العراقي — هنا يكشف تماما الارض التي يقف عليها ، انه يتبنى في المشكلة التي يطرح الشكل العلماني لحلهـا الموقف الصهيوني بلا تحفظ ويسخـر الدراسـة التاريخية تأييدا له . يريد أن يقول ان النموذج الصهيوني هو وحده الذي يتفق واوضاع الشعوب في المنطقة وتفكيرها وتقاليدها . وهو في نفس الوقت يحاول أن يجعل هذه الاوضـاع وطريقة مواجهتها مشابهة لما واجهه اليهود في اوروبا — الامر الذي أدى الى ظهور الحل الصهيوني هناك .

فطبقا لما يقوله عـالم الاجتماع الاسرائيلـي ايزنشتات ، تعرض اليهود في اوروبا الى نوعين من التصفية : اما التصفية الروحية والثقافيـة بسبب القضاء على حياتهم التقليدية والطائفيـة بواسطة القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الجديدة ، واما التصفية الجسدية والاقتصاديـة والسياسية بسبب عدم اندماجهم تماما في المجتمع، وعدم قدرة المجتمع الحديث على استيعاب هـذا العنصر الغريب .

ومن خلال دراسته عن « الاقليات » يبرز المؤلف ما حدث للارمن واليهود العراقيين والاشوريين على انه تصفية مادية ، اما في دراسته عن « الدين والسياسة » فهو يقدم صورة التصفية الثقـافية الروحية ، وفي جميع الاحوال فأن النتيجة النهائية هي أن الحل القومي قد فشل في المنطقة تمامـا باستثناء واحد . ففي نظر ايلي قدوري « اللعنة الحقيقية » التي وفدت من الغرب الى الشرق لم تكن الامبريالية وذلك أنه « ثمة حقيقة بسيطـة وواضحة ، ان المناطق التي يقال اليوم انها تعاني من الامبريالية لم تعرف طوال الجزء الاكبر مـن تاريخها سوى الحكم الاجنبي — وحتـى مجيء القوى الغربية ، لم تكن خبرة هذه المناطق فـي أنواع الحكومات سوى خبرة الحكـم المتغطرس الجشع الاستبدادي غير المسؤول اذن فليس مـن هذه الناحية يكون نقد الوجود الغربي في اسيا وافريقيـا » .

اللعنة الحقيقية التي أتى بها الغـرب الـى الشرق — دون قصد منه ، هي الفكرة القوميـة . انها « المرض — الوباء » الذي انتشر من غرب اوروبا مارا بالبلقان والامبراطورية العثمانية والهند والشرق الاقصى وافريقيا مفترسا بنية المجتمعات المستقرة ليتركها ضعيفة وبلا دفاع في مواجهة الحكام الجدد في ظل الدول القومية الوليدة — المغامرين والجهلة ، المجردين من الخلق يسومون هذه المجتمعات مزيدا من الفظائع والوحشية » .

ويقدم المؤلف النموذج التقليدي لكلامه هـذا : الجماعات التي كانت تتكون منها الامبراطوريـة العثمانية ، ويعرض الكاتب للارمن والاشوريـين ويهود العراق ، الارمن احمد السلطان عبـد الحميد انتفاضاتهم بوحشية بالغة ، والاشوريين تركتهم بريطانيا لحكام العراق الجدد بعد استقلاله، اما يهود العراق فانهم تعرضوا للاضطهاد ثم المذابح عام ١٩١٤ ، ولم ينقذهم الا مجيء بعثة صهيونية من فلسطين تغريهم وتجبرهم كي يهاجروا ، وانتهى الامر بتصفية الطائفة اليهودية من العراق .

ويهاجم المؤلف اولئك الغربيين الذين كانـوا يأملون خيرا من ادخال الاصلاحات في الامبراطورية العثمانية هؤلاء « جهلة ومتسرعين » وكل فريق ناصر فئة ومن هنا الفظائع التي ينطوي عليها مبدأ تقرير المصير القومي وما أدى اليه من هدم هذه الطوائف الصغيرة ذات الخبـرة السياسيـة الضئيلة ، ثم يورد النص الذي سقناه فيما سبق خاصا بانذار الغرب وهو يحاول اليوم ان يكرر التجربة .

هذا عن التصفية الجسدية للطوائف . اما عن التصفية الثقافية فقد خصص لها قدوري دراسة بعنوان « الدين والسياسة » يقول في بدايتها « ان احدى المعالم المعروفة جيدا في السياسة الفلسطينية اثناء الانتداب هي أن المسيحيين واغلبيتهم ارثوذكس — برزوا متضامنين مع المسلمين في الكفاح ضد الصهيونية . لقد أكدوا ان المسلمين والمسيحيين كانوا جزءا من الامة العربية ، وان هذه الحقيقة جعلت تضامنهم طبيعيا وحتميا ولم تنحرف الطائفة المسيحية الارثوذكسية قط عن الالتزام بمبادىء القومية العربية والنضال القومي ، وفي حين واصل البريطانيون تقسيم فلسطين على النحو العثماني التقليدي طبقا للعقيدة الدينية — كان المراقبون يندهشون للتضامن بين المسلمين والمسيحيين، الذين تجاوزوا التميز القديم بين الفريقين . وفي اطار القومية العربية التحم الجميع ووجدوا فيها انتهاء بتجاوز التبعية الطائفية القديمة » .

هنا نجد دحضا واقعيا للفكرة الصهيونية التي تنادي بعدم امكان التعايش بين الاديان ، ولهذا يعرض قدوري نتيجة التجربة : أن الالتحام الذي يتجاوز الدين ، في اطار القومية — لم تكن نتيجته الا تصفية ثقافية للاقلية . ويقدم الكاتب دليلا على ذلك — حالات الصراع بين بعض المفكرين المسيحيين وطوائفهم ، الامر الذي ادى بهؤلاء المفكرين الى ترك طوائفهم التقليدية بالاضافة الى ان الطابع الاسلامي غلب القومية العربية فأصبحت تضيق عن استيعاب غير المسلمين استيعابا كاملا .

ويواصل المؤلف هجومه على المسيحيين في المنطقة — فعن طريقهم انتقل الفكر المعادي للسامية من اوروبا الى الشرق الاوسط خلال القرن التاسع عشر اذ نقل هؤلاء عقائد اللاهوت المسيحي التقليدية المعادية لليهود من اوروبا وبذلك اختلطت معاداة اليهودية بمعاداة الساميةبمعاداة الصهيونية من خلال الجماعات المسيحية التي كانت على دراية بالادب الغربي المعادي للسامية .

ويتشفى استاذ السياسة في هؤلاء المسيحيين لان حماسهم الملتهب لم يجدهم كثيرا وانتهى الامر الى كارثة مع تقسيم فلسطين ونزوح الفلسطينيين ومن بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين الى خارجها .

وفي تخابث مكشوف ينهي هذه الدراسة « قد يقال انهم لو ظلوا بعيدين عن الصراع العربي الصهيوني وعن القادة المسلمين غير الاكفاء فإن الكارثة ما كانت تحيق بهم على النحو الذي حدث » كأن من بقي داخل اسرائيل من العرب مسلمين ومسيحيين صارت له الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يرضى عنها استاذ السياسة .

أين هذا الاستثناء اذن من هذا الفشل العام في تطبيق الحل القومي بين شعوب المنطقة؟ يخصص قدوري دراسة عن « السير هربرت صموئيل وحكومة فلسطين » يعرض فيها لانجازات المعتمد البريطاني الاول في فلسطين بعد الانتداب ويبرز نجاح التجربة . هنا لا نجد المؤلف يتمسك بموقفه السابق بشأن الفكرة القومية : اللعنة الوافدة من الغرب الى الشرق الاوسط ، على العكس تماما انه يعرض الانجازات التي حققتها « القومية اليهودية » من خلال الصهيونية على أرض فلسطين بارتياح تام ، ولا يثير الكاتب قط اي نقد للشعور الاوروبي بالزيف من نحو اليهود وهو الشعور الذي كان وراء مناصرة الصهيونية واسرائيل فهذا الشعور بالذنب في هذه الحالة — مشروع وله ما يبرره — على عكس الحال حيث لم يتخذ موقف المناصرة للحق العربي . فحين عهد لويد جورج الى هربرت صموئيل — وهو يهودي — في ابريل ١٩٢٠ بالاشراف على حكومة فلسطين في بداية عهد الانتداب « كان يدرك تماما ان يقدم هذا المركز الى شخص متعاطف مع الصهيونية وسيجهد لانجاح البرنامج الصهيوني ثم يورد الكاتب بعضا من مواقف صموئيل المبكرة في اقتراح اقامة دولة يهودية في فلسطين في اثر انضمام تركيا الى المانيا في الحرب العالمية الاولى ويورد مقتطفات مما كان يكتبه صموئيل في مدح العبترية اليهودية ويقدمه للوزراء الانجليز فيخلص منها الى ان « هذه الكلمات تكشف بوضوح عن صهيوني مقتنع بالنظرية يقبل التحليل الصهيوني للمشكلة اليهودية دون تحفظ » ، وظل طول الحرب وحتى تم تعيينه — سواء كان في منصب رسمي او لم يكن — متعاطفا مع الحركة الصهيونية ، ومقدما لها كل المساعدات التي يستطيعها ، فاذا سئل عن كيفية توفيقه بين عواطفه الصهيونية ومهامه في السياسة البريطانية فأن الاجابة التي يقدمها هي

انه لم يجد ثمة تعارضا يحتاج الى حل او توفيق ومن هنا فأن اختياره ليكون اول معتمد بريطاني في عهد الانتداب لم يحدث الا لانه كان معترفا بـه كنصير متحمس للصهيونية ، ويقول الكاتب ان سجل اعمال صموئيل في هذا المنصب يمكن أن يقدم الدليل على سلامة اختيار لويد جورج له والواقع ان هذا الاخير كان بدوره متعاطفا مع الصهيونية فهو صاحب وعد بلفور وعلى أساس هذا الوعد كانت بريطانيا تعلن أنها الاحق في أن تعهد لهـا عصبة الامم بالانتداب في فلسطين ، وهل ثمة ما هو افضل من متعاطف مع الصهيونية لينهض بتنفيذ سياسة صهيونية .

أما هربرت صموئيل فقد كتب في مذكراته ان الحكومة عينته في منصبه وهي على معرفة كاملة بعواطفه الصهيونية ـ بل بسبب هذه العواطف ـ ولكنه يستدرك فيقول أنه لم يكن يعمل باسـم الصهيونيين ولكن بأسم الملك (!) .

ويورد الكاتب مظاهر الصراع التي كانت تقوم بين رجال الحكم البريطاني في المنطقة بين اولئك الذين كانوا يعتبرون ان الوقوف في صف العرب هو الذي يحقق المصالح الانجليزية وبين الاخرين ـ هربرت صموئيل بالذات ـ الذي كان يرى الوجود الصهيوني هو التضامن الحقيقي لهذه المصالح .

اذن فبمقارنة بسيطة بين فشل الفكرة القومية وسط شعوب المنطقة الاصليين ونجاحها عند تطبيقها بواسطة الجماعات الصهيونية الوافدة ـ من خلال هذه المقارنة يظهر بجلاء الفارق الحضاري بـين طرفي المواجهة .

والعلاج ؟ يعود الكاتب الى الموقف الذي اتخذه من النضال الوطني المصري فهو يقول دون تحفظ « ان الوسيلة الوحيدة لاجراء اصلاحات على النمط الاوروبي ، واذ كان ثمة دول سيتم اقامتها (لسنا في حاجة الى كثير من العناء لنتذكر ان الدولـة المطروح اقامتها على أساس قومي في المنطقة هـي الخاصة بشعب فلسطين) ـ فليس الا طريـق واحد لذلك ، به تصبح هذه العمليات مفيدة ولا تؤدي الى كوارث ، على اوروبا نفسها ان تدير هذه الدول وان تضمن لها النجاح » . ويبدي بعض الاعتراضات التي يمكن ان تثار في وجه هذا الرأي ولكنه يعود فينذر « ان ما حدث للارمن او ليهود العراق هو ثمرة الاضطراب الذي يؤدي اليه اقتباس المبادىء الغربية وما زال من الممكن ان يحدث شبيه لذلك مرة اخرى في المستقبل » .

ما هي الاعتراضات التي يمكن ان توجه الـى هذا الرأي ؟ انها في عبارات المـؤلف : اولا « التنافس بين القوى » . ثانيا « ان الاوروبيين يرفضون ذلك باعتباره طريقا امبرياليـا وغـير اخلاقي » . واخيرا « مقدان الاعصاب والاخلاق الذي يغريباستخدام القوة والنفوذ دون مسؤولية» أما معارضة شعوب المنطقة فلا ذكر لها ضمـن الاعتراضات التي تثار ضد عودة الاستعمار في شكله القديم الى المنطقة .

الاعتراضات التي يقدمها قدوري هي في حقيقة الامر اغراءات ـ انه يدعو القوى العظمى للتنسيق فيما بينها ، ولترك الرومانسية السياسية والتخلي عن الانهزامية وممارسة الردع بأعصاب هادئـة وباردة لان هذه الشعوب قد اعتادت خلال تاريخها على مثل هذا النوع من الحكم ، ولقد اصابها المرض والازمة لان بعض الجهلة والمتسـرعين والرومانسيين حاولوا معاملتها بأسلوب من الحكم لا تعرفه . وهنا يواصل المؤلف الخط الذي تبناه في جميع هذه الدراسات فهو اذ يشير الى حركات التحرر في مختلف البلاد العربية يخلص الى ان الذين كانوا من بين البريطانيين يأملون في معونة زعماء عرب كانوا في وهم كشفت عنه الايام .

الصديق المخلص الحقيقي للنفوذ الاستعماري في المنطقة كان الوجود الصهيوني في فلسطين .

هنا نستطيع ان نجيب على السؤال الـذي طرحناه من قبل عما اذا كان للحل الاستعماري في صورته التسلطية ، الذي يطرحه المؤلف لعلاج مشاكل المنطقة ، فرصة لان يطبق فيها ؟ الاجابة : نعم . وما هي الوسيلة ؟ ذراع الغرب الغليظة والرادعة ـ اسرائيل أليست قادرة على توجيه الحملات العسكرية على النمط التقليدي القـديم (الاسباني البرتغالي البريطاني الفرنسي الامريكي مع الهنود الحمر) فتملأ السكان المحليين ذعرا يضطرهم الى الهرب وتمزق الجيوش البدائيـة بأدوات الحرب والمعرفة الحديثة .

أليست قادرة على احتلال الاراضي وممارسة سياسة الردع خالصة صريحة .

تاريخ الهجرات الصهيونية ، ودولة اسرائيل منذ انشائها وحتى انتصارها التاريخي الحاسم عام ١٩٦٧ — والكتاب منشور بعد هزيمة يونيو — دليل على هذه القدرة .

ومن هنا تتضح فائدة هذه الدراسات . انهـا تحذير « اكاديمي » للغرب ، كي لا يقع هذه المرة فيما وقع فيه الاستعمار البريطاني من قبل وأدى الامر الى التصفية الاليمة والمهينة في المنطقة. اليوم فرصة جديدة لاصلاح أخطاءالليبراليين الرومانسيين — الذين صدقوا ان المنطقة يمكن ان يقوم بين شعوبها نظم حكم قوية حديثة . حذار اذن من التعاون وتكرار مسلك ونجت واللنبي ، والثقة في « ثورة » مزعومة او « اصلاح » مزعوم أو حتى في وجود « معتدلين » . واثناء أية تسوية للمواقف — الراهنة — بعد ١٩٦٧ ، على رجال السياسة الغربيين ان لا يركنوا الى أي ضمان يقدم لهم من هؤلاء « المعتدلين » فهم سيعيدون — في الوقت المناسب — ما صنعه اسلافهم ايـام الاستعمار البريطاني .

ولهذا فان المؤلف يخصص الدراسة الاخيرة في كتابه لمواجهة ما يراه خطأ في الفكر السياسي البريطاني الذي تتبناه الدراسات التي ينشرها بانتظام من تشاثام هاوس المعهد الملكي للشئون الخارجية ، ويقول الكاتب انه في هذه المنشورات يمكن لمن يتابعها ان يجد افكارا وفروضا واتجاهات مشتركة تكون في مجموعها مدرسة فكرية متناسقة . ويركز تدوري هجومه على هذه المدرسة في شخص مدير دراسات المعهد لمدة ثلاثين عاما — ارنولد توينبي ، فيقول انه في كتابات هذا المؤرخ نقرأ صوت الراديكالية الانجليزية وهي تعلق اعترافها بالاثم وندمها على ما سبق ان ارتكبته من مظالم تجاه العالم ، لقد غزونا وتسلطنا وتحكمنا ومارسنا الاستغلال ، والحديث عن العلاقات البريطانية العربية هو المناسبة المثلى لاعلان هذا الشعور بالاثم ، فهذه فكرة موجودة دائما في كتابات توينبي ومدرسة تشاثام هاوس ومنذ بداية عمل توينبي في المخابرات البريطانية تولد لديه اقتناع ثابت بأن معاملة انجلترا وفرنسا للعرب لم تكن مستقيمة ولا عادلة .

بالاضافة الى ذلك — فقد سلم توينبي بأن هناك رغبة في الوحدة السياسية تشمل المنطقة العربية، وكان التقسيم من صنع بريطانيا وفرنسا دون احترام لرأي ابناء المنطقة .

ما هو رأي تدوري في ذلك ؟ يعتبر المؤلف ان هذا الموقف من جانب توينبي يتضمن قبولا دون أي تمحيص بمزاعم أقلية ضئيلة ليست لها صفة تمثيلية واسعة النطاق في العالم المتحدث بالعربية ... ان الصورة التي يعرضها توينبي وزملاؤه للمنطقة وما يملأ كتاباتهم من غوامض مشحونة باخلاق الشعور بالاثم تخفي الازمة الاخذة بأعماق المنطقة ويحكم تدوري على مناصرة توينبي للحق العربي بأنها نظرة سياسية قاصرة .

ويتابع الكاتب بعد ذلك كتاب هذه المدرسة كيرك ولونجوج وجب ومن خلال ذلك يرفض بصفة قاطعة وجود وعي بالوحدة بين الشعوب المتكلمة بالعربية او ان الحدود التي وضعت عام ١٩١٨ هي حدود صناعية الامر الذي يفترض ان العالم المتكلم بالعربية يكون وحدة سياسية .

ولقد خصص تدوري في كتابه دراستين عن العلاقات البريطانية مع حركة الوحدة العربية ، الاولى تغطي السنوات ١٩١٥ — ١٩١٨، والثانية تشمل الفترة من الحرب العالمية الاولى حتى سقوط الاسرة الهاشمية في العراق عام ١٩٥٨ . وفي هذا كله يرى تدوري ان المسألة العربية ، بالمقارنة مع المشاكل الضخمة في اوروبا وامريكا تبدو صغيرة ضئيلة القيمة ، وبالنسبة للتاريخ البريطاني فان المسألة العربية ذات العمر القصير لا تظهر سوى حادثا عارضا في اطار الوجود الامبراطوري في الهند وهو يرى صدق اولئك الذين يقررون انه لو ان بريطانيا كانت قادرة على الاحتفاظ بالهند فقد كانت تستطيع الاحتفاظ بمركزها في الشرق الاوسط ويأسف لانه لا يجد هذه النظرية الباردة الواقعية في كتابات المعلقين الذين يحصرون همهم في موازنات بين النيات الطيبة والسيئة حفظ الواعد ونكثها ، بحث النوايا ونحص الدوافع . أما اولئك الذين كانوا يرون ان التخلف مع انصار الفكرة العربية يخدم المصالح البريطانية فقد اثبتت الاحداث عدم صحة ما يذهبون اليه ويعيب على السياسيين ترددهم واستحياءهم بمناسبة الاتفاقات المتعلقة باقتسام النفوذ بين القوى العظمى مثل ما حدث بشأن معاهدة سايكس بيكو ، ويبدي خشية من ان مواقف الضمير الليبرالي الحساس من هذه

المعاهدة سيتكرر فيما بعد بالنسبة لاتفاقــــات متشابهة .

في مقابل هذه المواقف يطرح قدوري نظرة — ليست تاريخية بقدر ما هي رأي في الاوضـــاع الحاضرة للمنطقة — اثناء الصراعات التي تثيرها اسرائيل حول الحدود في اعقاب حــرب ١٩٦٧ واصرارها على اجراء مفاوضات لتحديدها .

يقول استاذ السياسة « ان الوحدة القائمة قبل سنة ١٩١٤ كانت وحدة الامبراطورية العثمانية، فلما انهارت هذه أصبحت جميع اقاليمها خاضعة للتشذيب ولا يمكن تحديدها الا عن طريق المفاوضات بين المصالح المختلفة — المتفاوتة في القوة والتي يمكن ان يكون لها صوت في التسوية، هذه التسوية مثل أي تسوية أخرى تكون بالضرورة في شكل حل وسط ومن غير الملائم ان يتطلب احد في التسويات السياسية ان تكون طبيعية او منطقية » .

الموقف بعد سنة ١٩٦٧ يشبه ما حدث بعد انهيار الدولة العثمانية من خلاله يمكن اجــراء التشذيب والحلول الوسطى على أساس المصالح الاقوى دون اعتبار للمبادىء او المنطق او الاوضاع الجغرافية الطبيعية .

الدكتور وليم سليمان

Yehuda Karmon, **Israel: A Regional Geography,** (New York: Wily - Interscience, 1971).

ان مراجعة هذا الكتاب تهدف الى : اولا ، توضيح الطريقة التي يحاول بها الاسرائيليون عرض وجودهم الجغرافي في فلسطين وكأنه اســـتمرار تاريخي لواقع جغرافي استمر على مدى ســنين طويلة ، وثانيا الاشارة الى محاولاتهم الدائمة في الخلط بين الاعمال الدعائية والمواضيع العلمية . ليس هناك من شك بعد مراجعة هذا الكتاب بأنه نوع آخر « علمي » من التزييف او على الاقل نوع من طمس الحقائق ومسح الصبغة الارتباطية بين عرب فلسطين وبيئتهم الجغرافية .

على كل او قبل التعرض للكتاب بدون الاشارة الى محتواه ، فانه من الافضل معالجة الهيكل التنظيمي للكتاب ، أهدافه ، وما جاء في فصوله . يمكن تقسيم الكتاب الى ثلاثة اجزاء رئيسية ، البيئة الطبيعية ، التطور التاريخي ، والبيئـــة البشرية « لاسرائيل ». ان الكتاب يهدف من التركيز على هذه المواضيع الثلاثة الى ربط الواقـــع الجغرافي في اسرائيل (فلسطين المحتلة) بالواقع البشري الذي يشكل بنيته « فقط » الاسرائيليون . ان التركيز على مثل هذه العلامة لهو بدون شك ذو « طابع فريد من نوعه » في ارض « بتقــدم اسرائيل » .

يقسم الكتاب البيئة الطبيعية في اسرائيل والمناطق الادارية التابعة لها الى اربع مناطق رئيسية ، المنطقة الشمالية ، الوسط ، المنطقة الجنوبية ، ثم « مناطق الادارة الاسرائيلية » . على القارىء ان يلاحظ ان المؤلف يتحدث عن منطقة الضفــة الغربية وغزة بالتفصيل ولكنه يشير باختصار الى الجولان وسيناء . وهو بهذا يحاول ان يدرس « التطور الاقليمي في اسرائيل بمعزل عن محاولة الربط بين المناطق العربية والقطاعات الاسرائيلية . كما انه يجب الملاحظة هنا انه في الوقت الذي يركز فيه الكاتب على مناطق الضفة الغربية وغزة يحاول عزل هذه المناطق وتقليل أهمية العلاقة بينها وبين الجولان وسيناء . ثم بدل ان يصفها باسم الضفة الغربية فانه يشير اليها تاريخيا تحت اسماء تركز على علاقتها العبرية .

ان مثل هذه المحاولات المغلوطة هي بدون شك

مقصودة وتعكس آراء وافكار المخططين الاقليميين في اسرائيل . ان محاولات التوطين في الضفة الغربية وغزة ثم طمس معالم القدس ما هي في الواقع الا جزء من خطة اقليمية منظمة طالما داعبت أحلام الصهاينة في « اسرائيل الكبرى » . ان هذه المناقشة ليست اتهاما بلا اساس ، بل ان هناك من يدعمها من حقائق واضحة . ففي سنة ١٩٧٠ صدر عن قسم التخطيط في وزارة الداخلية الاسرائيلية في القدس كتاب تحت عنوان « هضاب القدس ونابلس : ارشادات لتخطيط اقليمي وطبيعي » . والكتاب عبارة عن خطوط عريضة لمحاولات الدمج الاقليمي بين فلسطين المحتلة (اسرائيل) ومناطق الضفة الغربية وغزة. والكتاب يوزع فلسطين بأكملها الى محاور اقليمية ، كل محور له مركزه الخاص به وهو عادة مدينة كبرى كالقدس ونابلس .

ثم يتابع المؤلف بحث الاستيطان الزراعي في فلسطين وما تبعه من مشاكل التكيف البشري للبيئة الجديدة ، والى الاشارة بأن المشاكل البشرية كانت أصعب دائما من مشاكل استغلال الاراضي الزراعية ، ويشير المؤلف بشكل رئيسي الى مشاكل اليهود الشرقيين الذين يعانون من نقص في نوعية القيادة .

ان على القارىء العربي ان يدرك عدة جوانب من هذا الكتاب اذ انه اولا موجه بشكل رئيسي لقارىء غربي حاولت أجهزة الدعاية الاسرائيلية ان تبقيه قابعا في زوايا من الجهل المطبق عن حقيقة الكيان الاسرائيلي ، وثانيا فانه تحت ستار كونه « عملا علميا » يحاول القاء الضوء على قدرة خارقة لمستوطنين صنعوا من الصحراء وكثبان الرمل حدائق غناء وجنائن زراعية ، وثالثا فان الكتاب يصور فلسطين على انها بيئة جغرافية مرتبطة تاريخيا بالشعب اليهودي وهو بذلك يحذف كل اشارة الى شعب عربي تمتد جذوره في عمق التاريخ الحضاري للانسان. ان الشعب الفلسطيني في نظر هذا الكتاب هو استمرار للنظرة الصهيونية الضيقة والبالية التي حاولت تحت الخداع الدعائي ان تصور فلسطين بأنها واقع جغرافي بلا شعب اعطيت لشعب بلا واقع جغرافي .

مثال لهذه المغالطات المتعمدة والضاربة بعرض الحائط لكل اساس علمي هو الوصف التالي لعملية الاستيطان اليهودي : « انه لمن السخرية ان نلاحظ بأن المستوطنين اليهود الحديثين ، الذين هم انحدار من الاسرائيليين الذين سكنوا هضاب القدس ونابلس، قد استوطنوا المناطق الساحلية والداخلية المغطاة بكثبان الرمل والمستنقعات. ان هذه المناطق كانت مناطق « خالية » و « متخلفة » غير مستغلة من عرب الهضاب والتلال ولكنها أصبحت منتجة بفضل الاستيطان الصهيوني خلال عمليات الصرف واستصلاح التربة ، ومشاريع الري » .

ان هذا الوصف ما هو الا جزء صغير في سلسلة حلقات قدمتها المؤسسة الصهيونية تحت رداء العلم للقارىء الغربي وهدفها دائما واحد وهو طمس عروبة فلسطين وابعاد أي ارتباط بين الشعب الفلسطيني وبيئته الجغرافية ، ثم تصوير الوضع بطريقة توحي بأن الاسرائيليين لم يأتوا كطلائع استيطانية استعمارية من اوروبا وامريكا ، بل انهم سكان أصليون لهضاب الضفة الغربية ، وهم بوجودهم في هذه المناطق انما هو عودة « طبيعية » الى بيئة جغرافية اصلية طالما سكنها اليهود .

عبد الاله ابو عياش

The Letters of Chaim Weizmann, Vol. IV (1905 - 6).
Edited by Camilo Dresner and Barnet Litvinoff. (Oxford University Press and Israel University Press).

صدر في لندن اخيرا الجزء الرابع من مجموعة رسائل حاييم وايزمان ، ويحتوي هذا الجزء على الرسائل التي كتبها وايزمان وهو طالب في جامعة مانجستر ، بين سنتي ١٩٠٥ و١٩٠٦ واغلبهـــا موجه الى « فيرا » التي كانت تدرس الطب في جنيف ، والتي أصبحت زوجته فيما بعد . وتتناول هذه الرسائل ، بصفة عامة ، امورا يومية تافهة، او ذات أهمية ثانوية ، كما ان الاشارات التي تتضمنها الى الاحداث المهمة جاءت مختصرة وعابرة. فهو يصف لها مثلا مقابلة له مع آرثر بلفور في فترة مبكرة من المحاولات الصهيونية (كانون الثاني من سنة ١٩٠٦) قائلا : « قابلت بلفور اليوم ، واجريت معه حديثا طويلا وممتعا عن الصهيونية . وقد ابدى لي انه لا يتوقع صعوبات سياسية دون الحصول على فلسطين ، بل صعوبات اقتصادية . وتحدثنا عن « الاقليمية » فشرحت له لماذا كانت غير ممكنة ، وقد وعدته بأن ارسل اليه مذكرة بهذا الموضوع » . وهذا كل ما جاء في الرسائل عن ذلك الحديث « الطويل والممتع عن الصهيونية » .

ويبدو من هذه الرسائل ان تعيين وايزمـــان محاضرا في الكيمياء العضوية في جامعة مانجستر كان مبعث تشجيع كبير له للمضي في نشـــاطه الصهيوني ، واتصالاته مع الاوساط السياسية العليا في بريطانية في ذلك العهد . ومع ذلك ، فان تقدمه في المجال الاكاديمي كان أبطأ مما توقع وايزمان لنفسه . فهو لم يصبح محاضرا أصيلا في الجامعة حتى سنة ١٩٠٧ ، وفي هذه الفترة وجد وايزمان لنفسه عملا آخر يستعين بدخله منه على مواجهة تكاليف معيشته ، فعمل مع شركة تجارية برأسها « تشارلز دريفوس » — من كبار الصهيونيين البريطانيين ومن أقوى مؤيدي وايزمان — ، وبالرغم من دخله من العملين فانه كان يعيش في عسر شديد بسبب اضطراره الى ارسال بعض المبالغ الى « فيرا » والى حضور المؤتمـــرات الصهيونية من وقت لآخر . ولذلك فان وايزمان كان يستبق الوقت احيانا للسفر الى لندن واقتراض مبالغ صغيرة من صديقه « موزس فاستر » .

واخذ وايزمان بشعر — وهو في مانجستر — انه منقطع عن العالم وعن المراكز الحيوية للنشاط الصهيوني ، ويجد هذه المدينة غير مستثيرة ، ومسيرة الحياة فيها بطيئة ، كما انه كان يرى يهود مانجستر مجموعة خاملة ضيقة الافق ، وزعماء الصهيونيين في لندن (أمثـــال ليوبولد غرينبرغ وجوزف كاون) أشبه بالهواة ، واهتمامهم بالحركة الصهيونية سطحيا وفهمهم لها ضحلا .

ان موجة الاعتداءات التي انتشرت في روســـيا ضد اليهود على أثر فشل ثورة سنة ١٩٠٥ هي التي انتزعت وايزمان من حالة القنوط التي سيطرت عليه زمنا . وخلال هذه الفترة كان وايزمان يحارب « زانغويل » و « غرينبرغ » و « الاقليميين » الذين يدعون الى توطين اليهود في يوغندا او امريكا الوسطى او الجنوبية . وفي تشرين الاول ، حينما اشتدت موجة الاعتداءات على اليهود في روسيا القيصرية (البوغرومات) فان رســـائله كانت تعكس ما استولى عليه من يأس ، لبقائه متفرجا مكتوف اليدين ، وعاجزا عن مدهم بأية مساعدة . وكان نشاطه قاصرا على محاربـــــة « الاقليميين » و « الاندماجيين » الذين كانوا يرون ان الطريقة الوحيدة لحل مشكلة اليهود تكمن في اندماجهم الكلي بسكان البلاد التي يعيشون فيها .

واذا كانت محاولات « الاقليميين » لم تسفر عن اية نتيجة ايجابية ، فان احلام الصهيونيين بتحسن احوال اليهود في روسيا القيصرية انتهت بالخيبة ايضا . ويظهر من رسائل وايزمان انه لم يكن حسن الظن بـــ « دافيد ولفسن » الذي خلف هرتزل في رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية . وفي المؤتمر الصهيوني السابع انتخب وايزمان لعضوية « لجنة العمليات » ودافع عما كان يراه من ان النشاط الصهيوني « العملي » في فلسطين يجب ان يسير جنبا الى جنب مع الدبلوماسية ، من اجل اثارة اهتمام الجماهير اليهودية واجتذابها نحـــو الصهيونية .

وفي نهاية هذا الجزء نشهد تحسنا ملحوظا يطرا على احوال وايزمان الشخصية . فهـــو يتزوج « فيرا » ، وتنتهي عزلته في مانجستر ، ويحصل على درجة « الماستر » ، ويتطلع للحصول عـــلى « الدكتوراه » .

وبالرغم مما يطغى على هذا الجزء من مجموعة رسائل وايزمان من الامور الشخصية ، وقلة المعلومات التاريخية الاخرى التي تضمنها ، فانه — مع ذلك — يعد من الوثائق التي لها أهميتها في دراسة تاريخ الحركة الصهيونية ، وسيرة وايزمان ، وهو يلقي بعض الاضواء على عدد من النقاط التي كانت غامضة او مجهولة . ولعل من أبرز هذه النقاط ، وأكثرها دلالة ، هي ان وايزمان ، خلال أشهر اليأس والقنوط التي مرت به في سنة ١٩٠٥ ، كان يفكر في الهجرة الى فلسطين بصورة جدية . ولا شك في انه لو لم يقرر البقاء في انكلترة اخيرا ، فأغلب الظن ان الحركة الصهيونية لم تكن لتحصل على وعد بلفور (بصيغته التي صدر بها على الاقل) ذلك الوعد الذي تمكن وايزمان من حمل بريطانية على اصداره بالحاحه المتواصل ، وبما قدمه للمجهود الحربي البريطاني من خدمة اتخذها سلما لاتصالاته ، وثمنا لذلك الوعد الغريب الذي أصدرته الحكومة البريطانية واهبة به ما لا تملك ، الى من لا حق لهم فيه . ولو هاجر وايزمان الى فلسطين فعلا ، فربما كان تطور الحركة الصهيونية مختلفا جدا عن المراحل التي مرت بها منذ صدور ذلك الوعد حتى قيام اسرائيل على الارض العربية ، بل حتى يومنا هذا .

نجدة فتحي صفوت

خالد علي مصطفى ، **سفر بين الينـابيع** (شعر) (منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٢)

حين نتعامل ، نقديا ، مع اي عمل فني فلسطيني (بقصد دراسته ، واكتشاف مضامينه التي يتحدد في ضوئها موقف الفنان من قضيته ، وتتضح طبيعة تعامله معها) فاننا نضع باديء ذي بدء بعض الاعتبارات الموضوعية التي تتعلق بعمل كهذا : **اولا** : ان هذه القضية قد دخلت حياته من بابها الاوسع . وعلى هذا فلا يمكن ، بحال من الاحوال ، النظر الى شخصيته (الفنية) بمعزل من معطيات هذه القضية . **ثانيا** : ان نتاجه ، في جوهر تكوينه ، ليس الا استجابة طبيعية لما وجهه عبر رحلة الحياة .. وردا على تحديات مصير يواجهه . **وثالثا** : فان هذه « الاستجابات » و« الردود » ترتبط ارتباطا مباشرا بطبيعة الموقف الذي اتخذه الفنان ، ويتخذه من القضية ، من خلال جميع اطوارها . فهي عند « فنان السجن » — الواقع تحت سطوة الارهاب الصهيوني — استجابات تحد مباشرة وعنيفة . وهي عند « فنان المنفى » تتراوح بين احد اتجاهين : احتراف الحنين والذكرى ، من خلال ما يلتهب في أعماقه .. او الشوق الى لقيا الارض ، والعودة اليها ، حتى ولو عن طريق الشهادة . وفي الموقف الاخير يكون النزوع الى تغيير ما هو قائم كبيرا ، عبر الحلم بشرط انساني افضل .. من خلال وعي دقيق لطبيعة القضية .

لقد حمل واقع النكبة والتشرد الى الانسان الفلسطيني عذاب النفي ، وقسوة الاغتراب، وأزمة التشتت ، ومأساة الضياع .. واخيرا توهج النفس التي تمردت على واقعها لتحيل الصمت والانتظار الى تحرك فعلي مرتكز على أسس واضحة (ايديولوجية ونضالية) ، والنفي والتشتت الى لقاء على ارض واحدة .. وحرقة الاغتراب الى عمل يومي منظم . وضمن هذه العلاقات الجديدة ، والمؤثرة في مسار القضية على اكثر من صعيد ، ولو قدر الانسان الفلسطيني الجديد ، ليخلق طاقة هائلة تنبثق من هذا الواقع ذاته ، وتتجسد اليوم في صيغتين : صيغة الثورة الفلسطينية المسلحة ، وصيغة الكلمة الفلسطينية المناضلة التي تأبى الا ان تمثل واقع الثورة ، او ، على الاصح ، تقترب منه ، بعد أن تمثلت واقع التشرد ، والنواح ،

والبكاء المأزوم .

لقد كان للواقع الفلسطيني — بكل ما انطوى عليه ، عبر رحلة تمتد من التشرد الى الثورة — ان ساهم مساهمة فعلية في ابتداع وصياغة «الشخصية الفلسطينية » ، ان على صعيد النضال ، او على صعيد الفكر ، او على صعيد الكلمة والعطاء الفني . وتعاملنا هنا مع « الكلمة الشاعرة » ، من خلال مجموعة شعر لواحد من ابناء القضية .

لعل أخصب تجربة عاشها الشعر العربي في ربع القرن الاخير هي « التجربة الفلسطينية » التي مثلت عاملا كبيرا من عوامل الحيرة ، والقلق ، والتساؤل .. والثورة ، ايضا ، في الحياة العربية .. وقف الانسان ، بفعلها ، على تخوم عالمين : عالم الهزيمة والانكسار ، وعالم الرفض والثورة .. فتشكلت منهما أضخم دراما انسانية ، كان الشاعر حيالها في موقف المشدوه مرة ، غير مصدق ما يرى .. وفي موقف من يعيش غصة روحية ، مرة اخرى . وفي موقف ثالث راح يتمثل الانسان والثورة ، ككل متوحد ، وموحد لقضية واحدة ، باجتماعهما ، على هذا النحو ، يتشكل محورها الحقيقي . وفي كل من هذه المواقف الثلاثة حاول الشاعر ان يجعل من شعره اكتشافا للذات ، والحقيقة معا .

أضع هذا منطلقا لأبدأ الحديث عن مجموعة الشاعر خالد علي مصطفى : « سفر بين الينابيع » التي أرادها « سمفونية » تتشكل من خمسة أناشيد .. تكاد تقتصر ، في منظورها الشعري والرؤيوي ، على نوع من « تجسيد واقع الحال » الذي يمتزج فيه السرد بالاحاسيس والمشاعر . وهو ، من هذه الزاوية ، يجيء اقرب الى « القصيدة الفلسطينية » في طورها الثاني ، اذا استثنينا أسلوب التناول الذي اختلف قطعا . وكأن « خالدا » هو الوريث لتلك « النشوة الفنية » المحرضة ، الداعية ، المتأسية .. وان لم يكن وريثا لصدى الاشجان التي غاض بها الشعر الفلسطيني .. انما ورث منها « الحالة » المتمثلة بالوصف والتجسيد . وكأني به يمثل « النموذج الثالث » الواقع بين تيارين عرفهما الشعر الفلسطيني : تيار الكفر بالحياة ، والنقمة ، والالام .. وتيار الايمان بالنضال والثقة بالانتصار الاخير للثورة التي بدأت . اذ يأتي شعره ليمثل الحياة التي يرفدها التياران .. لا باتجاه دفع شعره الى موقع جديد .. وانما بالصور المستخلصة من عيش الحالتين ، وتمثلهما :

من البداية يتدم لنا الشاعر « خلاصة سفره » :

« ظامئا عدت من سفري والينابيع ثوبي
ورثت كل وشم يلوح على جسدي
ورثت شموع القوارب قبل انتهاك الحصاد ،
فكان التجلي

وردة ، والهبوط
خرقة خصفتها على يدي .
بين هذا وذاك ارتحلت
فاستحالت دمائي طريقا وزاد » ..

.. ليكون « الظمأ » شعاره ، و« السفر » داره ..

وبحسب هذا « المفتتح » الذي يتقدم « خمس سفرات » ، وربما هو يتقدم تلخيصا لها ، يمكن تحديد أبعاد المجموعة ، او محاور تجربتها بـ :

— الظمأ الملح الذي أصبح رفيق الشاعر في رحلته ، حيث تمزقت الطرق في أقدامه ... وهنا يكون نداء الارض :

«أرضنا — جزر العشق — تسأل عشاقها موعظة
بعدما هجر الضوء أكواخنا »
(قصيدة « القاتل الفدائي »)

— ثم تجلي واقع هزيمة الانسان في مسيرة حياة لم يكن له فيها اختيار .. واستسلامه لحالة من خدر الضياع :

« خلعتنا العشيرة من صلبها
فأتينا المقاهي نحدث حصرانها
حالمين بغزو يفك الرهائن عن
شمسنا الملجمه »
(القاتل الثائر)

— وبين واقع الظمأ للمجهول ، والسعي وراءه .. وبين الهزيمة والضياع يقف الفداء (الثورة) بديلا :

(فاستحالت دائي طريقا وزاد ..)
.. فيه الحل لمعضلة قائمة :

.. « وأعالج قفلا على شفتي بعدما
خالط السوط جلدي ،
ونما الشوك تحت لساني

نسي الماء صورة مستقبلي
وطوى مستهل الكتاب عن الفرس الجامحة
حاطبا عشقي الابدي طعاما
لينابيعه المالحه »

(القاتل الثائر)

ومن خلال هذا التفسير الذي نستخلصه عبر هذه المحاور الثلاثة ، سننظر للديوان بهدف تقويم تجربته (فنيا وموضوعيا) ..

عندما اقرأ عملا شعريا ، فان اول ما افترضه، للحكم له او عليه ، هو مدى تحقق العالم الذي يتحدث عنه الشاعر ، او يبنيه من خلال شعره ، او يحاول تغييره .. وهو عالم افترضه خصبا بحكم اختياره أساسا لتعامل شعري ، يبني عليه الشاعر رؤياه .. اذ الشعر ، في تكوينه الحقيقي ، ليس الا ضربا من الرؤيا ..

وشعر هذه المجموعة يقوم على « الرؤيا الفلسطينية » ، لكننا نجد الشاعر يعقد هذه الرؤيا في اطار لغوي يمسح الحدود بين الاشياء ، حتى لتبدو متساوية . وفنيا يقوم شعره على تعامل موحد مع كل الاشياء ، وكأن قصائده خطوط تلتقي جميعها عند نقطة واحدة ، او هي تنطلق من هذه النقطة ، لتتشعب امتداداتها . فهو « يموضع » تجربته بحيث يمزج التلقي الخارجي بالاحساس الذاتي .. ولكن هذا « الاحساس » يحجر ما يتلقاه ، لتبقى الاضاءات الداخلية قليلة .. ومن هنا تفتقد القصيدة ما يسمى بـ « التفجر الداخلي » لتجربة كهذه .. لتغرق في تفاصيل كثيرة لا تجعل للقصيدة بؤرة محددة ، ويطغى عليها حشد من الصور .. والصور الذهنية المجردة مما لا طاقة لتكوينها الداخلي به .

هذا ذاته يقود شعر خالد علي مصطفى الى الوقوع في أحابيل كثيرة ..

ــ فهو في الوقت الذي يبتعد فيه عن « الشعر الهتافي » ، يقع في احبولة « المعاضلة اللفظية » ، والنحت .. ليجعل قصيدته تبدو وكأنها جسم منحوت بدقة تقترب من دقة مهندس ! ، ولكنه لا يضع « الاحجار » في مواضعها ..

لنتأمل هذا « التضمين اللفظي » البارد :

« للناقة الذمول حيزوم سفينة
أغرقها ابن يامين في الدمع .
وجدتها في جبل التوباد
يطردها الحداة شرق النهر حيث تزهر الاوتاد »

(رسالة القاتل الى أهله وذويه) .

ــ ونتيجة الضياع في متاهات اللفظ المجرد ، تبدو صوره وهي تعاني نفس المعضلة .. لتتبدد ــ وبسبب من هذا ــ صورة ذلك العالم الذي كان يطمح ان يقطره في قصيدته . ان تمثلــه للغة ، بصيغتها التي عرفتها مع اكثر نماذج الشعر العربي سلفية ، لم يكن في صالحه ، او في صالح شعره .. ذلك ان هذا التمثل جاء ، وفي كثير من الاحيان ، تمثلا ناقصا ، لم تتحقق فيه حريته الفنية ، ولم يظهر ابداعه وأصالته .

لنتأمل :

« البحر في خاصرة الثياب ينحني
مقبلا كل مآقي الصخر ، يبتني
من حجرة المياه منزلا ، ويعتني
بالعشب خوف الهاجره . »

(رسالة القاتل الى أهله وذويه)

.. فهل هي اكثر من تراكم صوري ، لفظي ؟
او :

« أيتها الذاكرة التي سطت على بقايا الماء في الضريح » ..

أو :

« .. أي صوت ورث الاشباح
عن الكهوف خوف ان يختمر الزيتون في الجراح »

أو :

« فاستراح كل جرح
على أخيه ، أشعلا تنينة التاريخ والزمان في المساجلات »

(القصيدة نفسها)

.. ان الدلالة الرمزية ضعيفة في مثل هذه الصور المجردة ، المبنية على استعارة جامدة .. وهي صور جاءت بعين العقل .. مبنية على ادراك حسي .. فلم تبلغ المستوى الذي يمكن ان تكون فيه « تحت امكان الرؤية الكاملة » لتوحي « بالمعنى المحسوس دون ان تسقطه بشكل نهائي وتوضحه » (اوستن وارين ــ نظرية الادب) .

وحتى حين تقترب صوره من جوهر موضوعه ، فانها لا تتجاوز حدود التقريرية :

« كنت اعمى وحيدا
قادني من يدي الدليل في الصحراء .
أغرق الليل وجهي ، فقال الدليل :
ـ « قد عبرنا سياج الحديقه
هو ذا النبع لا تبتئس ! »
عثرت قدماي ، سقطت ، فلامس وجهي صديقه
وتراخت على الرحل أهدابي .
عندها صحت الشمس في عيني
فرأيت الدليل يوقع حلفا مع الصحراء » .

.. لكن ايماضا شعريا يطلع من بين هذا التهشيم لكل الابعاد المحركة ، الذهنية والشعورية ، حين يقول :

« كانت الارض منفية والسماء
ركبتها عيون الدليل على ما تشاء
فضح الرمل سر المكان
فسياج الحديقة والنبع اسطورتان ! »

هنا فقط يتحقق ذلك التلاؤم الحميم بين المعطى والاحساس ، في سياق شعري يحافظ على تتابعه ، ولا يجزىء نفسه في تفصيلات وامتدادات جانبية ..

ان الشاعر يمسك ، وفي كثير من الاحيان ، بداية مسار قصيدة جيدة التركيب (الرؤيوي في الاقل).. لكنه يبدد هذا ، ويضيعه في « تراكيب صورية » لا تقوم بينها تلك العلاقة من امتزاج العقل والشعور (الاحساس الداخلي) بما يمكن ان يخدم تنامي القصيدة ، تجربة وبناء . وفي حالة كهذه تصبح القصيدة « صياغة شكلية » . بينما الشعر الحقيقي ، او الشعر الذي يكتب في عصر كهذا ، يقوم ، او يفترض به ان يقوم على توازن وانصهار ثلاثة عناصر : التجربة ، والرؤيا التي تشكل هذه التجربة على نحوها الخاص ، واللغة .. حيث يتحقق ما يمكن ان نعبر عنه بالتلاحم بين « الصيغة » التي تتخذها التجربة ، وبين « الجوهر » الذي يشكلها ، او تتشكل من خلاله ... لتصبح اللغة ، كما يصبح الرمز والاستعارة ، جزءا من هذه التجربة .

ان لغة كهذه التي يستخدمها الشاعر لغة يتقلص تحت غطائها الثقيل مخزون كبير من المشاعر ، وتكبت تحت وطأتها وبفعل صلابتها حوافز كبيرة . فهي لغة متعسفة على الشعر .. كثيرا ما كبتت قدرات « النطق العصري » للشعر في فم الشاعر..

هذا ذاته يؤكد « مسألة شكلية » اخرى في شعر خالد .. هي أنه في أغلب قصائد مجموعته هذه يجمع بين : معطيات التجربة الشعرية الجديدة (من حيث المفهوم) ، والقيم الشعرية الكلاسيكية (البناء اللغوي . الاستعارة . الاسلوب السردي) التي كانت تمازج النماذج الاولى التي تفجرت عنها حركة الشعر الجديد . والشاعر واقع تحت تأثيرات هذه القيم ، على الرغم من انتمائه الى جيل جديد في الكثير من قيمه . وعلى الرغم من تطور حركة الشعر الجديد في السنوات العشر الاخيرة تطورا ملحوظا ، ألغى الكثير من اعتبارات المرحلة الاولى (الخمسينات) ، الا ان شاعرنا ، كما يبدو ، ما يزال متشبثا بها ، بهذا الشكل او ذاك .

من هنا لم تستطع المجموعة ان تقدم مصطلحا شعريا خاصا بها .. وان تكن هناك ملامح لوجه غير واضح القسمات . فقد بدا ضعيف القدرة على استيعاب تراث القضية (النفسي والانساني) .. ليظل جانبيا في اكثر ما كتب ، سواء في معاناته ، او في قلقه ، او في أزمة تشرده التي ظلت ، بالنسبة له ، ازمة تشرد ، ولم تستحل الى ثورة . والتمرد الذي يظهر هنا وهناك على « واقع التشرد » ، يظل حبيس الوضع ذاته ، على الرغم مما يعتمده من تمويه صوري ، ورمزي . وهذا يشير الى « طبيعة موقف » يتخذه الشاعر ، يبدو فيه قليل الامل ، او التفاؤل بالكثير مما يحدث .. وكأن الصورة الغائمة للخروج ما تزال في عينيه .. وهذا ما جعل الانسان ـ القضية يبدو وكأنه شبح في ذهنه . وهي « حالة » قد تكون لها ظروفها الفكرية (الموقفية) والموضوعية التي لا نستطيع ان نقطع بها في موقف كهذا ..

تبقى هناك الدراسة التي الحقها الشاعر بمجموعته هذه ، والتي كتبها الاستاذ علي عباس علوان .. وهي دراسة تحاول ان تقدم بعض الاضاءات في « تفسير » القصائد .. وهي تفسيرات أجدني اخالفه في كثير مما جاء فيها . كأن يجد « ان دور اللاوعي في تشكيل بناء (سفر بين الينابيع) اكبر من دور الوعي المهندس » .. وهي مغالطة يرتكبها الناقد ، اذ الشاعر يقدم نقيضها في شعره .

اما « الغموض الكثيف والتعقيد الشديد اللذين يلفان صور الشاعر ولوحاته العامة ، والكبيرة »..

فاجدني أخالفه الرأي والموقف ثانية في « حيرته الشديدة » في تعرفه على المراحل الفنية للعمل . ذلك أن غموض القصيدة في هذه المجموعة ليس غموضا متأت من تعقيد رؤيا الشاعر .. وانما هو غموض سببه عدم الوضوح الرؤيوي ... وان كنت اتفق معه في ان « موضوع القصيدة العام يطرق النموذج العربي الانساني للثائر الفلسطيني من خلال تجربة الشاعر الشخصية » (وهي تجربة ضيقة المدى ، محدودة الابعاد ، تنطوي على كثير من التردد والشك ، ولا تكاد تمتلك حوافز اليقين الثوري) .. ولكنني لا اجد تلك « المحاور الثلاثة » ، التي وجد الناقد هذا الموضوع يدور حولها ، « محاور جدلية » . فالجدلية ، كما يطرحها الفكر الماركسي ، تجعل من الفكرة تعبيرا عن الواقع ، وانعكاسا له .. على ان لا يقلل هذا من فاعلية الفكرة في الواقع ..

ثم ان الشاعر لم يقدم لنا من خلال هذه « الجدلية » ، التي يفترض الناقد وجودها في شعره ، اية « معرفة موضوعية يقينية » بالقضية التي شكلت محور شعره .. اضافة الى انتفاء عناصر التغير والتداخل والتناقض في تجربته ، والتي هي من أسس ومقومات « الموقف الجدلي » ، و« النظرة الجدلية » .

من هذا الاستخلاص يمكن القول بأن ما يحاول الناقد تقديمه من « تفسيرات جدلية » للقصائد ، عبر ثلاثة محاور ، هي تفسيرات تدور في فضاء من المعنى الذي لا يجد قرينته في القصائد . فما يراه من وجود « محور جدلي بين الذات والموضوع، ويتطور الى الخاص والعام ، ثم الى الوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي ، وبالعكس » .. هو محور وهمي ... وان كان هناك محوران تتحقق بعض سمات هذا المفهوم (الجدلي) فيهما ، هما :

— المحور الذي « يدور بين محاولة الوصول الى الثورة والسقوط ، وبين شمس المستقبل التي يجدها في الرؤيا والحلم » .. وان كانت المسألة اكثر وضوحا في قضية « محاولة الوصول الى الثورة والسقوط » منها في « شمس المستقبل » .

— والمحور الذي يراه متحققا « ما بين رفض الموت — الهزيمة » ، وبين « مواجهة اليأس والانسحاق والدمار الانساني للوصول الى خلاص العالم » ... وهو أمر غير متحقق بشكل واضح.. باستثناء بعض الاضاءات التي لم تفصح عن نفسها من خلال وعي فعلي لموقف كهذا ..

وباستثناء الصفحات الثلاث الاولى من الدراسة (٢١ صفحة) ، فان ما تبقى ليس اكثر من تفسير للقصائد . وكأني بالشاعر ، وقد ارتأى حشر مثل هذا التفسير في ديوانه ، انه أراد تقنين منظور القارىء لشعره .. وربما انقاذا لنفسه من لوم ما قد يجابه به .. وهي مسألة لا تمتلك التبرير ، كما لا تمتلك المسوغ الحقيقي لها ؟

ماجد صالح السامرائي

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

تجربة البحث عن افق

مقدمة لدراسة الرواية العربية بعد الهزيمة

بقلم : الياس خوري

وهي محاولة لتحليل تطور البنية الروائية العربية في بحثها عن افق تعبيري يحمل تحولات المرحلة .

اطلبه من : مركز الابحاث — قسم التوزيع
ص.ب ١٦٩١ — بيروت .

الفلسطينيون كما يبدون في الذهنية الاسرائيلية

عبد الحفيظ محارب

(١)
نظرة المستشرقين الاسرائيليين تجاه مستقبل الشعب الفلسطيني

في غمرة الحديث عن التسوية السياسية للصراع العربي الاسرائيلي عقب حرب اوكتوبر ، أخذت أقلام المستشرقين الاسرائيليين ، كما درجت في السابق ولكن بشكل اكثر ، تنهمك في معالجة هذا الصراع ، للخروج باستنتاجات وفي بعض الاحيان بتوصيات ، بغرض المساهمة في توجيه السياسة الاسرائيلية تجاه جملة الموضوعات ذات الصلة بالنزاع . ولسنا هنا في مجال تحليل وجهة نظر هؤلاء تجاه الصراع ، بل نحن بصدد القاء الضوء على وجهة نظرهم تجاه موضوع معين غدا يعرف باسرائيل بـ « الكيان الفلسطيني »، وقبل الخوض في هذا الموضوع ، نجد من المفيد تسجيل الملاحظات التالية :

١ ــ اهتمام السلطات الاسرائيلية بالمستشرقين بسبب الحاجة الملحة الناجمة عن الصراع العربي الاسرائيلي ، لدراساتهم واستنتاجاتهم وتوصياتهم، ولذا ، فانهم من أكثر الباحثين قربا من الاستخبارات العسكرية لحاجة هذه الى تقييماتهم للاوضاع في العالم العربي ، وليس غريبا ان يكون الدكتور يهوشفاط هركابي ، من بين المستشرقين البارزين ، من اوائل رؤساء الاستخبارات العسكرية .

٢ ــ ازاء هذه المكانة التي يحظى بها هؤلاء المستشرقون نجد ان نصيب مكانة تحليلاتهم واستنتاجاتهم ــ وخاصة المنشورة منها ــ تقل عن المكانة الاولى ، فهي في احيان كثيرة تبدو متناقضة ، وفي أحيان اخرى مغلوطة . وفيما يتعلق بالتناقض ، فان ذلك يعود الى وجهات النظر الصهيونية المتباينة في المجتمع الاسرائيلي تجاه الصراع العربي الاسرائيلي،ومن الطبيعي، والحالة هذه ، ان تنحى وجهة النظر التي يتبناها كل واحد الى التوصل الى استنتاجات وتوصيات مغايرة . وعلى سبيل المثال فاننا نجد ان المنطلق لوجهة نظر هركابي يكمن في الفهم القائل بأن الظروف الراهنة ليس فيها ما يمكن من التوصل الى سلام حقيقي للنزاع، لانالعرب لايزالون يصرون فيأعماق نفوسهم على ازالة اسرائيل ، ولذا فانه يوصي بتوفير عمق استراتيجي أي بالتوسع في الاراضي العربية . أما الدكتور متتياهو بيلد فانه يرى العكس من ذلك ، اذ يرى ان « الضم الزاحف » و « الاحتفاظ بالمناطق » لا يوصلان الى السلام ، ولذا فانه يوصي بالامتناع عن سياسة الضم والتوسع .

وعلى صعيد المغالطة فهنالك نوعان منها ، الاول يتمثل في مجانبة الحقيقة في التحليل بدون قصد لاسباب ذاتية تعود في الاساس الى حالة الحرب التي يمر فيها المجتمع الاسرائيلي ، حيث تتدخل العواطف القومية وتتداخل في توجيه الكاتب وتخرجه عن دائرة البحث العلمي ، او كما يقول رؤوبين ماروز احد المهتمين في القضايا العربية في مجلة « حوتام » ٧٣/١١/٢٣ : « من المعروف انه يوجد في اسرائيل اشخاص يتبوأون مكانة مرموقة في عالم الاستشراق . واذا ما استثنينا كون هؤلاء الاشخاص علماء مشهورين فاننا نجدهم يعملون في موضوع يعتبر الحل الصحيح لاحجياته بمثابة قضية حياة او موت بالنسبة للشعب الاسرائيلي . وعليه

فان تمسكهم بعدالتهم ولياقتهم لاثبات نظريتهم وتوجههم ، يصبح من الشدة بحيث يتجاوز المجال البحثي العلمي الصحافي السائد في معظم الاحيان في قاعات مكتبات الجامعات ، وذلك بفضل **التداخل العاطفي والقومي لدى المستشرقين الاسرائيليين بما يدور حولهم »** . وهنالك امثلة كثيرة على مغالطة الواقع تتمثل في التحليلات الجمة قبيل حرب اوكتوبر والتي أجمع كاتبوها بدون استثناء على أن الحرب بعيدة الوقوع ، وان كل ما يقال من تهديدات يجيء « للاستهلاك المحلي » ، او أن ما يجري من تحشدات في الجانب العربي « ناجم عن الصراعات الداخلية » .ومثال اخر على تسرع المستشرقين الاسرائيليين في الحصول على استنتاج خاطىء يتمثل فينظرتهم تجاه الاجتماع الثلاثي الذيعقده السادات والاسد مع الملك حسين لتحييده او زجه في المعركة، عشية حرب اكتوبر ، هذه النظرة التي رأت في هذا الاجتماع فقط « محاولة ناجحة من قبل الملك حسين للخروج من عزلته » . والانكى من ذلك انهم اخذوا يركزون على تاريخ انعقاد الاجتماع الذي صادف وعقد في الذكرى الثالثة لمجزرة ايلول ، ليخرجوا باستنتاج بأن الملك تمكن من انتزاع اعتراف كل من مصر وسوريا بانتصاره على « المخربين » ، ولم يدر ببال احد منهم بالرغم من الايحاءات الكثيرة ، بأن هذا الاجتماع يجيء في سلسلة الاعدادات للمعركة من قبل مصر وسوريا ، ولعل سبب ذلك يعود الى تجاوز هؤلاء في كثير من الاحيان المجال البحثي العلمي الصافي « بفضل التداخل العاطفي والقومي لدى المستشرقين الاسرائيليين بما يدور حولهم » كما أشرنا .

أما على صعيد مجانبة الحقيقة عن قصد فهنالك أمثلة كثيرة ، نكتفي بذكر ثلاثة منها لالقاء ضوء على المنطلقات الخاطئة المتعمدة والتي تجيء لخدمة هدف اعلامي تريده المؤسسة الحاكمة او لاستهواء اذان الجمهور الاسرائيلي ، درن ان يكون لها نصيب في الصحة والواقع :

(١) التصوير الخاطىء خلال حرب اوكتوبر للدور الذي تقوم به القوات العراقية على جبهة الجولان ، فقد ركز المعلق العسكري هرتسوغ حديثه اثناء المعركة وجاراه عدد من المهتمين بالقضايا العربية عن المهمة « الحقيقية » للوحدات العراقية واكد أن هذه المهمة تتمثل في العمل على تغيير نظام الحكم في سوريا لاختلاف وجهات نظر جناحي البعث في سوريا والعراق ، ومساعدة « المخربين » للتسلل للاردن بغرض قلب النظام هناك .

(٢) النظرة للامور من خلال مقولات للمستشرقين عفا عليها الزمن ، كالتركيز على العوامل الطائفية للخروج باستنتاج خاطىء ومضلل ، مثل قول البروفيسور موشيه ماعوز رئيس معهد العلوم الشرقية في الجامعة العبرية في القدس اثناء تقييمه للخطوات التي يمكن ان يتخذها الرئيس حافظ الاسد قبل حرب تشرين « ... على حافظ الاسد العلوي ، لكي يكون مقبولا لدى الاكثرية الاسلامية في سوريا ، ان يثبت طيلة الوقت انه كاثوليكي اكثر من البابا ، وكأبن لاقلية طائفية عليه أن يكون على رأس المتطرفين ، وبناء على ذلك فان **الاعتقاد المعقول** ، انه الى جانب محاولته تغذية الوطنية السورية ، لن يتردد الاسد في اتخاذ اعمال متطرفة **واستعراضية »** .

(٣) تشويه سمعة الاعداء بالصاق تهم اليهم بغرض الطعن في المبادىء التي ينادون بها ، مثل الصاق تهمة « التكسب من استمرار الصراع » التي الصقها احد المهتمين بالشؤون العربية ، برئيس اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ناجي علوش، ومنير شفيق احد الكتاب الفلسطينيين البارزين ، ليطعن من خلال هذه الفرية موقفهما الرافض لمؤتمر جنيف . فقد ذكر روبين ماروز في ملحق « عل همشمار » ١٩٧٤/٢/١٥ اثناء معالجته لوجهات النظر الفلسطينية المتباينة تجاه المعطيات الجديدة لحرب اكتوبر ، وبعد أن حلل وجهة النظر الاولى ، ذكر « لقد ثار المثقفون الذين **يتكسبون من استمرار الصراع »** .. مثل ناجي علوش ومنير شفيق ... ضد اتفاق فك تلاحم القوات ومحادثات جنيف » .

نعود الان للحديث حول نظرة المستشرقين الاسرائيليين الى القضية الفلسطينية على ضوء المعطيات الجديدة الناجمة عن حرب اوكتوبر . سنكتفي في هذا التقرير عرض اراء اربعة من المستشرقين الاسرائيليين تجاه هذا الموضوع ، هؤلاء الاربعة هم البروفيسور شمعون شمير رئيس كلية التاريخ في جامعة تل ابيب ورئيس معهد شيلوح للدراسات الشرقية ، البروفيسور موشيه ماعوز رئيس معهد العلوم الشرقية في الجامعة

العبرية في القدس ، ميخائيل اساف من انصار الحزب الحاكم ، الدكتور متتياهو بيلد يسار صهيوني .

يعتقد البروفيسور شمير في مقالة له نشرت في هآرتس ٧٤/٢/٢٢ ان « الهوات بين رؤوس مثلث التناقضات» ويعني اسرائيل والاردن والفلسطينيين، قد تقلصت قليلا ، ويعزز وجهة نظره بالوقائع التالية :

« أ ـ يبحث الملك حسين عن جسور مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو على استعداد اليوم للاعتراف بها كممثلة للشعب الفلسطيني بالنسبة لموضوعات معينة .

ب ـ يميل رؤساء منظمة التحرير الفلسطينية بشكل اكثر الى قبول فكرة اقامة دولة فلسطينية في أعقاب المفاوضات في جنيف .

جـ ـ ان القيادة الاسرائيلية ، اذا ما حكمنا حسب النقاط الـ ١٤ للتجمع [التي تبناها بعد حرب تشرين وجاءت بمثابة برنامجه الانتخابي] مستعدة الان ان ترى الفلسطينيين كاحدى القضايا التي ينبغي ان تجد لها حدا في التسوية مع الاردن » .

وفي حين نجد أن شمير يعتقد بتقلص الهوة بين الاطراف الثلاثة ، اسرائيل والنظام الاردني والمقاومة الفلسطينية نتيجة معطيات اوكتوبر ، ويستدرك « ان هذه التطورات لا تعبر ، مهما كانت اهميتها، عن تبدل جوهري في مواقف الاطراف الثلاثة ، نجد في المقابل ان البروفيسور موشيه ماعوز ينكر ان يكون قد طرأ لين على الموقف المبدئي لما يسميها ـ خلافا لبروفيسور شمير ـ « منظمات التخريب » فقد جاء في مقال له في صحيفة هآرتس ٧٤/٢/٢٢ : « لم تؤد حرب يوم الغفران الى تليين الموقف المبدئي لمجموعة منظمات التخريب الفلسطينية ، هذا الموقف الذي يدعو الى تصفية دولة اسرائيل عن طريق الكفاح المسلح ، واقامة دولة عربية فلسطينية على كامل ارض اسرائيل الغربية ، وفي الواقع ، عززت الحرب هذا الموقف » ... ويؤكد ماعوز على « ان الخلاف الذي انفجر مؤخرا بين منظمات التخريب الفلسطينية بخصوص موقفها تجاه مباحثات جنيف واقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية لا يدور مطلقا حول مبادىء هذه الاستراتيجية ، المقبولة لدى جميع المنظمات . ان الخلافات في وجهات النظر بين سائر المنظمات الفلسطينية يدور حول التكتيك ، أي التوقيت والمراحل لتصفية اسرائيل » .

ومن ناحية احتمال قيام دولة فلسطينية ، فقد أعطى كل منهما تصورا مختلفا في بعض الجوانب ومتشابها في جوانب معينة ، يعتقد شمير انه ينبغي على اسرائيل ان تعمل للتوصل الى تسوية مع النظام الاردني والفلسطينيين معا في وقت واحد « فبدون تسوية مع الاردن ، من الصعب تصور كيف يمكن احلال ترتيبات امنية ملائمة على امتداد الحدود الشرقية لاسرائيل ، وابعاد خطر نمو قوة متطرفة مرتبطة مع انظمة عربية راديكالية ومع الاتحاد السوفييتي ، ولكن بدون تسوية مع الفلسطينيين لن يكون من الممكن اضفاء اية شرعية على هذه التسويات ، تمكن مصر ودولا عربية اخرى من التقدم نحو تسوية سلام مع اسرائيل ». ولذا فان الحل حسب رأي شمير يحتاج الى « ابداء خيال وجرأة سياسيين » بحثا عن قاسم مشترك يجمع بين مثلث التناقضات ، الذي تقلصت الهوة بين تناقضاته نتيجة حرب اوكتوبر كما يعتقد . فهو يرى ان « هنالك عناصر كافية في مشروع حسين الفدرالي ، وفي المصالح العملية للفلسطينيين ، وفي المشاريع الاسرائيلية ، مثل مشروع الون ، لتبرير تجربة هذه الطريق » .

أما ماعوز فيرى ان معطيات اوكتوبر قد دفعت اكثرية المنظمات الفلسطينية الى تبني ما يسميه « الدولة المرحلية » ويعزو هذا التغيير الى عدة عوامل منها الضغوطات المصرية والسورية والروسية الموجهة لمنظمة التحرير الفلسطينية لكي تلين من موقفها ، ورغبة المنظمة اقامة « سلطتها على اجزاء من ارض اسرائيل الغربية » (فلسطين) للحيلولة دون ضم هذه الاجزاء الى المملكة الاردنية ضمن اطار تسوية اسرائيلية اردنية .

كيف تنظر اسرائيل الى هذه الدولة؟ يعتقد ماعوز انه « من ناحية اسرائيل ، فمن المحتمل انها ترى في اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة خطرا شديدا لامنها، الى جانب أمل ضعيف جدا لتسوية النزاع العربي الاسرائيلي » ولاثبات وجهة نظره ، ومن ثم للخروج باستنتاج وتوصية يقول ماعوز .. « ان دولة فلسطينية في الضفة الغربية

والقطاع تكون ذات سيادة قولا وعملا ، قوية ، تسيطر عليها منظمات التخريب وعلى رأسها منظمة التحرير الفلسطينية — المقبولة لدى الدول العربية ومعظم الجمهور السياسي الفلسطيني — الممثل المعترف به للشعب الفلسطيني ، دولة كهذه ، قد تتحول خلال مدة وجيزة الى كيان قومي عدواني ، يتمتع بتأييد وبتسليح من قبل الاتحاد السوفييتي ، يكون بمثابة سوريا جديدة . ان هذا الكيان سيشكل في الظروف العادية قاعدة لاعمال مزعجة بدون انقطاع ضد اسرائيل ، وسفك دم سكانها — ظاهرة موسعة وكاملة للفدائيين — فياواسط الخمسينات — وحين صدور التعليمات ، تتحول حدود هذه الدولة الى خطوط هجوم سهلة جدا للجيوش العربية نحو قلب دولة اليهود » .

اذن ما الحل بالنسبة لاسرائيل : يعتقد ماعوز « ان التسوية التي تعتبر اهون الشرين من ناحية اسرائيل تتمثل في « الحل الاردني » للمسألة الفلسطينية . وبكلمات اخرى تسوية تكون معتمدة على ضم مشروع الون مع « مشروع حسين » بعد تعديله . وبمقتضى هذه التسوية تجرد الضفة الغربية من السلاح وتعاد الى المملكة الاردنية او « المملكة المتحدة » عقب تعديلات على الحدود وترتيبات أمن مناسبة » .

من الملاحظ ان شمير وماعوز يلتقيان في نهاية المطاف على حل « حسين — ألون » الا ان شمير يختلف عن زميله بتطعيم هذا الحل « بالمصالح العملية » للشعب الفلسطيني . ومن الجدير بالذكر هنا هو أن ماعوز ، علاوة عن تجاهله « للمصالح العملية » للشعب الفلسطيني ، نجده يبدي تخوفا من احتمال سيطرة الفلسطينيين في المستقبل البعيد على الاردن ، اذ يقول « انه من المحتمل ان يسيطر العنصر الفلسطيني على الدولة الموحدة بالقوة او بطريق ديمقراطي ليقيم الشخصية الفلسطينية الكاملة . ان احتمالا كهذا ، مع انه يحمل بين طياته مخاطر لامن اسرائيل ، ليس وشيك الوقوع ، ويمكن تطويقه في الوقت المناسب » .

اما ميخائيل أساف ، وهو اقل من زميليه السابقين شأنا في عالم الاستشراق فيرى كما جاء في مقالة له نشرت في صحيفة دافار ١٩٧٤/٣/١ تحت عنوان « تخبطات الكيان الفلسطيني » ان هناك أربعة خيارات امام الفلسطينيين .

« أ — انضمام من جديد للاردن باضافة (او بدون) القطاع .

ب — ابراز الكيان الفلسطيني من خلال الاتحاد الفدرالي مع الاردن .

جـ — اقامة دولة فلسطينية مستقلة .

د — دولة فلسطينية مستقلة — مرتبطة بالاردن وباسرائيل او باحداهما » .

يتهرب أساف من معالجة وتحليل الخيارات أ ، ب ، د ، ويكتفي بالقول « ان الرأي السائد حتى الان يدعو الى عدم العودة الى المملكة الاردنية كالسابق » ومع ذلك يضيف « ان هنالك ميلا قويا بين صفوف الجيل البالغ والتقليدي واصحاب الاملاك داخل المناطق المحتلة لقبول اقتراح حسين الداعي الى اقامة اتحاد فدرالي اردني فلسطيني بما في ذلك قطاع غزة مع تأمين اكبر قدر من الاستقلال الذاتي للحكم المحلي الفلسطيني » . وفيما يتعلق باقامة دولة فلسطينية مستقلة فيرى اساف ان ذلك بمثابة عودة الى مشروع بورقيبة لعام ١٩٦٥ الذي يعتمد على اسلوب المراحل ، ويعتقد ان هذا المشروع يثير بالفعل قلقا وتخوفات كثيرة لدى ساكن المناطق المحتلة ، ذلك «لان هذا المشروع في حالة تطبيقه لن يجلب السلام، ذلك أن عرفات استنادا الى دعم مصر ومؤتمر الجزائر سيعتبر نفسه مخولا لتوجيه هذه الدولة المستقلة ، **هذا في الوقت الذي يعتبر هو وانصاره في نظر سكان المناطق المحتلة كاناس من الخارج يريدون السيطرة باسم الثورة العربية »** ليصل بعد ذلك الى استنتاج بأن الاردن علاوة على سكان المناطق المحتلة لا يقبل به ، كما وان اسرائيل ترى فيه خطرا يهدد سلامتها ، لانه « ليس هنالك شك ان الكتلة التي يعتمد عليها الملك في الاردن لا زالت قوية ، وهذه الكتلة ليست على استعداد للتنازل عن المناطق ولو بشكل فدرالي فقط (عقب استفتاء شعبي) فكم بالحري تكون مسألة عدم اقامة دولة فلسطينية مستقلة مسألة مهمة بالنسبة لاسرائيل » ويفسر اساف هذه الاهمية بقوله : « من الواضح ان نظرية المراحل ، التي تضمن وجود صداقات وحروب بدون انقطاع بين العرب واليهود في المستقبل ، ستقوي وتعزز من قيام الدولة الاخرى التي يمتلك فيها عرفات والمخربون وزنا كبيرا مهما كان موقفهم الان » .

من الملاحظ ان اساف الذي ذكر بأن هنالك اربعة خيارات ماثلة امام الفلسطينيين اخذ ينسف تلك الخيارات الواحدة بعد الاخرى ولم تمتد يد النسف الى الخيار الاخير — « دولة فلسطينية مرتبطة بالاردن او باسرائيل او باحداهما » .

مقابل هؤلاء المستشرقين الثلاثة ، يقف متتياهو بيلد طارحا فكرا مختلفا ومميزا دون الخروج عن المفاهيم الصهيونية . وقد عبر بيلد عن فكرته في قال نشر في صحيفة معاريف ١٩٧٤/٢/١ تحت عنوان « المشكلة الفلسطينية على جدول الاعمال ». يعتقد بيلد انه يتوجب على اسرائيل خلال المرحلة القادمة بلورة موقفها من القضية الفلسطينية ويتمنى « ان يكون من بين الاوهام الكثيرة التي تطايرت في حرب يوم الغفران الوهم القائل بأن بوسعنا دفع القضية الفلسطينية « تحت البساط » واخفاءها عن انظار العالم » لاعتقاده « ان المشكلة الفلسطينية ، بدون شك، ستصبح المشكلة المركزية في المرحلة القادمة من الاتصالات بيننا وبين الدول العربية ، وبناء عليه لا يكفي ان نعود كما درجنا في السابق ونكرر الحل المفضل بالنسبة لنا فقط ، بل ينبغي ان ندرس الحل الذي يأخذ بالحسبان مصالحنا الحيوية وينطوي ايضا على اشباع لطموحات ورغبات الطرف الاخر الاساسية » .

ويرى بيلد ان من اخطر الامور التوهم بحل القضية من خلال تسوية مع الاردن ويقرر « بامكاننا حل القضية الفلسطينية فقط من خلال اتصال مباشر مع الفلسطينيين انفسهم وبموافقة مصر » . لاعتقاده ان حل القضية الفلسطينية من خلال الاتفاق مع النظام الاردني من شأنه ان يؤجج الصراع العربي الاسرائيلي في المستقبل « وحتى لو نجحنا في نهاية الامر في التوصل الى حل متفق عليه مع الاردن فان هذا الحل لن يضع حدا للنضال الفلسطيني بل يجعله اكثر شدة وهذا هو السبب الرئيسي لاعتبار « الحل الاردني » حلا مرفوضا ».

من المعروف ان السياسة الاسرائيلية المعلنة تؤكد على ضرورة عدم تواجد جيش عربي غربي نهر الاردن في حالة التسوية وتدعو الى حل القضية الفلسطينية من خلال التوصل الى اتفاق مع الاردن يعيد اليه السيطرة الاسمية على الضفة الغربية ، ومن المناسب ان نذكر هنا تساؤلا تطرق اليه متتياهو بيلد ، من سيقمع سكان الضفة الغربية وقطاع غزة في حال انسحاب الجيش الاسرائيلي وعودة السلطة الاردنية اليها بدون جيش ؟ ذلك ان بيلد يرى ان الدور الاساسي للجيش الاردني يتمثل في قمع الفلسطينيين « ليس هنالك اي مبرر اليوم لنتجاهل حقيقة كون المهمة الاساسية للجيش الاردني قبل حرب الايام الستة ، انها كانت قمع السكان الفلسطينيين ، كما وان تشكيلاته كانت موجهة الى هذا الهدف اكثر من هدف الدفاع عن الضفة الغربية امام اسرائيل » . ويغدو السؤال ملحا لاعتقاد بيلد بأن السكان الفلسطينيين سيثورون في حال عودة النظام الاردني الى الضفة والقطاع ، حينئذ ستجد اسرائيل نفسها امام خيارين مؤسفين ، وخيار ثالث خطير ، الاول ، السماح لجيش الملك بالعودة الى مناطق مملكته غربي النهر ، الثاني ان يلقى على كاهل الجيش الاسرائيلي مسؤولية قمع السكان المتمردين ، والثالث والاخطر ، عدم دخول جيش اسرائيل او جيش اردني لقمع السكان المتمردين .

وازاء ذلك يعتقد بيلد انه من الافضل لاسرائيل ان توافق على فكرة اقامة دولة فلسطينية تعترف بحق اسرائيل في الوجود من خلال اتفاق مع مصر . ولذا فانه يطالب بتغيير السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة بغرض تشجيع ظهور زعامة فلسطينية تكون مستعدة لتأخذ على عاتقها دورا نشطا سواء في صياغة الموقف الفلسطيني او في تمثيل الفلسطينيين في جنيف .

(٢)
مستقبل الشعب الفلسطيني كما يرتسم في الذهنية الصهيونية بجناحيها المعتدل والمتطرف

قبل حرب اوكتوبر كانت النظرة الاسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية او تجاه « الفلسطينيين » كما يحلو لمعظم الكتاب الاسرائيليين ، تتمحور حول وجهتي نظر ، الاولى تقول بأن لا وجود للشعب الفلسطيني ولا وجود لهوية او شخصية فلسطينية كما كانت تتفوه غولدا مئير وموشيه ديان وبعض

العناصر الرسمية المتطرفة ، والاخرى تقول عكس ذلك ، اي بوجود شعب فلسطيني وشخصية فلسطينية ، ويتزعمها عناصر معتدلة من حزب العمل وحزب مبام وكذلك بعض رجال الفكر مثل متتياهو بيلد وعاموس كينان وشمعون سمير .

كان الحوار بين الفريقين يتركز في الاساس ، وتحت ظلال التفوق العسكري الاسرائيلي في المنطقة ، بين وجود الشيء وعدمه ، مع محاولات طفيفة لايجاد علاج في حالة « وجود الشيء » . لقد وصل الفريق الاول ، وهو الاقوى والمسير لمجريات الامور في اسرائيل الى اعتناق فكرة « العدم » من خلال الغطرسة التي خلقتها معطيات حرب حزيران، ووصل الثاني الى فكرة « الوجود » من خلال الدفاع عن « الاخلاقية الصهيونية » ولكن مع الانكار بالحق لهذا « الموجود » .

اما بعد حرب اوكتوبر ، وبفضل استمرارية الثورة الفلسطينية ، فقد تغيرت الصورة، واصبحت تتناسب وتتلاءم مع الوضع الجديد ، هزيمة نسبية للتفوق العسكري ، واهتزاز في مفاهيم ونظريات ومنطلقات ، مما أدى بالفريق الاول الى زحزحة موقفه السابق وجعله متأرجحا بين « الوجود والعدم » ، وخير دليل على ذلك ما يعرف بوثيقة الاربعة عشر بندا ، التي تحدثت عن وجود « الشخصية الفلسطينية » دون الحديث عن وجود الشعب الفلسطيني . ومن الجدير بالذكر ان انصار هذا الفريق كفوا منذ حرب اوكتوبر عن ترداد مقولتهم السابقة المتعلقة بالشعب الفلسطيني والتزموا الصمت ، الامر الذي مكن الفريق الاخر ، الاضعف ، من توجيه النقد اللاذع ، دون ان يلاقوا ردا من قبل الفريق الاول . ومن بين الانتقادات اللاذعة تلك ، ما ورد على لسان رئيسة تحرير صحيفة « دافار » حانا زيمر (دافار ٧٤/٣/٢٢) حين شبهت ما درج على ترداده اولئك ، قبل حرب اوكتوبر ، بذاك القروي الذي زار حديقة الحيوانات في المدينة الكبيرة « وعند مشاهدته عنق الزرافة الطويل وقف مشدوها ، وقرر : لا يوجد شيء كهذا ! » .

كان من نتيجة حرب اوكتوبر ، والمعطيات الجديدة التي تمخضت منها ، ان غدت فكرة الدولة الفلسطينية هي مثار الجدل والحوار بين وجهات النظر الاسرائيلية القائمة الان والتي يمكن تقسيمها تجاه هذه النقطة الى ثلاث : ١ — وجهة النظر الرسمية التي لا زالت متمسكة بـ « الحل الهاشمي » مع الاعتراف بالشخصية الفلسطينية . ٢ — وجهة نظر المتحمسين مع قيام دولة فلسطينية ضمن الاراضي الفلسطينية التي احتلت في حرب حزيران ١٩٦٧ . ٣ — وجهة نظر المتطرفين .

سنركز الحديث في هذا التقرير حول وجهتي النظر الثانية والثالثة .

يقف على رأس المجموعة الداعية الى اقامة دولة فلسطينية ، بعض العناصر اليسارية الصهيونية من حزب مبام شريك حزب العمل في « التجمع العمالي » وكذلك عناصر معتدلة من حزب العمل وبعض رجال الفكر . بيد انه من الجدير بالملاحظة هنا انه لا توجد صورة واضحة عن هذه الدولة وحدودها في كتابة هؤلاء ، بينما الشيء الواضح فقط هو ان حدودها لن تكون حدود الرابع من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، ناهيك عن اشتراط قيام هذه الدولة بحسن الجوار والتعايش مع الكيان الاسرائيلي مع الاغفال التام للحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني ، او حتى « حقوق اللاجئين في العودة او التعويض » ، هذا علاوة على تخوفاتهم وتحفظاتهم تجاه الدولة الفلسطينية ، ففي مقال للكاتب المبامي « مردخاي أورين » تحت عنوان « لا مناص من قيام دولة فلسطينية » (عل همشمار ٧٤/٣/٢٩) يخلص الكاتب في نهاية المقال بتساؤلات واستقراء حين يقول : « هل تقف اسرائيل في وجه العالم كله مدعية بأنه لا مكان لدولة ثالثة ؟ هل تستمر في طلب « الحل الهاشمي » حتى بعد ان تنازلت المملكة الهاشمية او انها في طريق التنازل عن حل كهذا من خلال نظرة سياسية موضوعية ؟.. ربما كانت الامور تتطور بشكل آخر لو ان اسرائيل انتهجت خلال الاعوام الاخيرة سياسة تتسم بمزيد من المبادرات الايجابية (الاستجابة للمفاوضات مع الاردن ، التأثير على الضفة الغربية من خلال انتهاج خط ديمقراطي سياسي) وتحررت من الوهم القائل بأن ليس هنالك قوة بوسعها زحزحتنا عن « ارض آبائنا » . والان يبدو انه يتوجب علينا دفع ثمن تقصيرنا السياسي الخطير ، التقصير في توجهنا الخاطيء الى المملكة الاردنية والضفة الغربية » ليصل بعد ذلك الى الاستقراء : « يبدو ، انه يتوجب علينا ان نعد انفسنا من الناحية النفسية والسياسية لقبول — سواء عن طيب خاطر او بدون

طيب خاطر — قيام دولة فلسطينية ، مع الامال والمخاطر الكامنة فيها . وعلينا ان نهتم في تحصين أمن حدودنا ، وضمان وحدة القدس عاصمة اسرائيل . كما وينبغي علينا ان نبدي استعدادنا للسلام وحسن الجوار ، والتعاون مع الدولة الجديدة عندما تقام في نطاق احلال السلام في المنطقة » . اما بالنسبة لموضوع تمثيل الفلسطينيين وبالتالي طبيعة نظام هذه الدولة ، الذي تجاهله مردخاي اورين ، فقد مسه زميله في الحزب امنون كابيليوك في مقال له تحت عنوان « في اعقاب مقابلة حواتمه لصحيفة اسرائيلية » (عل همشمار ٢٩/٣/٧٤) حين قرر بأن المنظمات الفلسطينية هي الممثلة للفلسطينيين بقوله « بدون مشاركة الفلسطينيين لن يكون سلام في المنطقة . والفلسطينيون المعترف بهم كممثلين للشعب الفلسطيني من قبل الدول العربية ، واكثرية دول العالم، **هم عرفات ورفاقه.** هذا هو الوضع ، سواء كنا نحبذه ام لا . وربما لو حدث وقامت فئة تمثل الفلسطينيين في المناطق في الفترة الواقعة بين حرب الايام الستة وحرب يوم الغفران لكانت قضية التمثيل مختلفة . وهذا أيضا بحد ذاته يعتبر تقصيرا ليس بسيطا لسياستنا » . الا ان البروفيسور أفني سجرا ، الذي يرى « بأن النظرية القائلة بدولة عربية واحدة ونفط واحدة بين حدودنا والصحراء ، هي سخيفة ، سخيفة . لان تجزئة الامة الفلسطينية بالذات هي التي تمنحنا امكانية تجزئة الثمن السياسي الذي نستطيع طلبه من الفلسطينيين مقابل موافقتنا بأن يقيموا دولة في الضفة الغربية (وربما) في قطاع غزة » يعتقد بنظرية جديدة تتمثل في الاعتراف بـ « حقوق الفلسطينيين المشروعة » ويعني بهذه الحقوق اقامة دولة في الضفة الغربية وربما في القطاع مقابل اعتراف الفلسطينيين بـ « خوفنا المشروع » . وخوف البروفيسور « المشروع » او الهاجس الذي يلاحقه ويراوده يتمثل في جورج حبش ، فهو يقول (يديعوت احرونوت ٢٩/٣/٧٤) : « ان المبدأ الاساسي الذي ينبغي ان يسود سياستنا تجاه الفلسطينيين يجب ان يكون ليس مبدأ « مناطق مقابل أمن » بل اعترافنا في حقوقهم الشرعية مقابل اعترافهم بتخوفاتنا الشرعية ، ومن الواضح ان مخاوفنا من دولة فلسطينية يقف على رأسها مثلا ، جورج حبش ، ستكون اكبر بكثير من مخاوفنا من مصر والاردن » .

من الملاحظ ان المتمشين مع قيام دولة فلسطينية ضمن الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ هم من التيار الصهيوني المعتدل ، هذا التيار الذي رافق نشوء الحركة الصهيونية ، ونشوء ما يعرف بالييشوف اليهودي في فلسطين وظهور دولة اسرائيل حتى الان ، وكان ولا يزال يعمل على تلطيف الحركة الصهيونية واظهارها بمظهر معتدل بهدف تقوية الغرسة الصهيونية رويدا رويدا ، وبتعقل لتمكينها من النمو الهادىء القوي ، ومن هنا تجيء المطالبة بالاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، ومنحه دولة مشروطة ضمن الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ استمرارا لمواقفه السابقة واضعا في عين الاعتبار المعطيات الجديدة لكل ظرف . وقد عبر البروفيسور « تسفي البيلج » في مقال له (يديعوت احرونوت ١٧/٢/٧٤) تحت عنوان « ينبغي ان لا نطمس الرؤوس في الرمال » عن هذه الاستمرارية للتيار الصهيوني المعتدل بقوله : « ان الذي يدعي ذلك (اي القول بعدم وجود شعب فلسطيني) لا يتصف بفهم قيم الحركة الصهيونية ، وغير متعمق في جوهر هذه الحركة . ان الصهيونية لم تخلق الشعب الفلسطيني ، ولم تجعله شعبا من لا شيء. من المؤكد ان القادة الصهيونيين سيكونون سعداء اكثر لو انهم وجدوا ارض اسرائيل خالية من العرب الا انهم فهموا الواقع ، وعلى ضوء ذلك كان الواقع منطلقا لوجهة النظر الصهيونية ان الرؤية الموضوعية التي ميزت الصهيونيين منذ جيل او جيلين ، يفتقر لها الزعماء الحاليون لاسرائيل ، آنذاك لم يغرقوا في الاوهام ، بينما في هذه الايام يبدو لمهندسي الدولة انه يمكن بواسطة الهراء محو واقع قائم » .

وجهة نظر المتطرفين : واجه المتطرفون فكرة اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بالرفض القاطع من قبل بعض الكتاب ، وبالقبول المدروس من قبل البعض الاخر ! بالنسبة لفئة الرفض القاطع ، نجدها تشدد على ان قيام دولة فلسطينية ضمن الاراضي الفلسطينية المحتلة يعني تصفية اسرائيل على مراحل ، او كما يقول أوري دان (معاريف ٢٦/٣/٧٤) «لقد وافق كل من عرفات وحواتمه على الفكرة القائلة بنشوء وضع دولي من شأنه ان يساعدهما في تلقي قسم من « الاراضي المحتلة » بدون حرب بل بواسطة حل سياسي اي الذهاب الى مؤتمر جنيف » . ويضيف : انهما

ينطلقان بذلك من الفهم القائل بأنه لا يمكن تصفية اسرائيل من خلال « الاعمال الارهابية » حتى ولو تعاظمت تلك الاعمال ، ولكن يمكن الحصول على الضفة والقطاع من خلال مؤتمر جنيف ، ليصل بعد ذلك الى القول « بالنسبة للهدف النهائي لا يوجد فارق بين مفاهيم جورج حبش وياسر عرفات واحمد جبريل ونايف حواتمه ، يوجد فقط فارق في التكتيك . وحتى الان لا يوجد بين قادة الفلسطينيين شخص يملك القوة والنفوذ ، على استعداد للدخول في مفاوضات مع اسرائيل ، من خلال رغبة صادقة للتوصل الى حل سلمي حقيقي مع تنازلات متبادلة ، هل يمكن دولة اسرائيلية وفلسطينية من العيش جنبا الى جنب . حتى الان لم يظهر اريه الياف فلسطيني » ولذا فان الكاتب يتوقع اذا ما اقيمت دولة فلسطينية ، بأن « الصراع سيستمر بشكل اسهل عندما تكون الضفة الغربية بيد الفلسطينيين ، **وتستخدم كنقطة انطلاق للمرحلة القادمة من النضال ضد اسرائيل** » . ومن هنا تأتي معارضة الكاتب للدولة الفلسطينية .

وقبل الانتقال الى الاسباب التي يتسلح بها كاتب يميني اخر في معارضته للدولة الفلسطينية ، تجدر الاشارة الى الجملة التي وردت على لسان اوري دان والقائلة « حتى الان لم يقم اريه الياف فلسطيني » ، وكان الياف قد خرج بافكاره الصهيونية المعتدلة عن الخط العام للمشروع الصهيوني . لسنا هنا بصدد عرض وتحليل آراء الياف وافكاره ، الا انه لاهمية هذه الافكار في الساحة الاسرائيلية سنتقدم عرضا تحليليا لها في تقرير اخر من « شؤون فلسطينية » .

اما الاسباب التي يوردها كاتب يميني في معارضته لقيام دولة فلسطينية ، فتتلخص بما لا يخطر على البال في الدور « الشيطاني الاستعماري ... » لهذه الدولة ، ذلك ان الكاتب اليعيزر ليفني يرى في مقال له تحت عنوان « اعدام عقب تعذيب متواصل » (معاريف ٧٤/٣/٢٦) انه « مع تأسيسها ستكون هذه الدولة الفلسطينية بمثابة مرجل للشياطين ، وللمؤامرات الدولية ، والمكائد الاستعمارية ، بما في ذلك الاستعمار الصغير ، كفرنسا ويوغوسلافيا وتجار السلاح على مختلف انواعهم ، يد الجميع فيها ، ويدها في الجميع ، والهدف الاول والحاسم لهذه الدولة الفلسطينية سيكون واضحا : تصفية اسرائيل ، وتبدأ العملية بواسطة اعمال الشغب على الحدود ، وتسلل « المخربين » داخل اسرائيل ، اعمال ارهابية مكشوفة ، واعمال قتل خافية . وسيطلب من المناطق المأهولة بالعرب في « المثلث الصغير » والجليل للانضمام الى فلسطين ، كما سيستدعى الشباب العرب لتأدية واجبهم الثوري ، وستكون هذه بمثابة تعذيب مستمر حتى تغدو دولة اسرائيل في نظرهم جاهزة للاعدام . ان فلسطين ليست فقط تجيء لتكون دولة قتلة ، بل آلة قتل : قتل الدولة اليهودية » .

الا ان « آلة القتل » هذه يمكن ان تكون آلة لتصفية القضية الفلسطينية ورافعا للتوسع الاسرائيلي في الاراضي العربية كما يستشم من اراء وافكار بعض الكتاب الاسرائيليين المتطرفين مثل البروفيسور يوسف دان الذين يواجهون فكرة قيام دولة فلسطينية بالقبول المدروس كما ذكرنا سابقا .

بروفيسور يوسف دان « ووحدة فلسطين — ارض اسرائيل » : في غمرة الاحاديث الجارية حول الكيان الفلسطيني والدولة الفلسطينية المرتقبة ، أثرى البروفيسور يوسف دان تلك الحوادث بتقليعة جديدة تتسم بالطرافة ، وتعبر تعبيرا حسنا عن محاولة التفكير الصهيوني في التكيف وفق المعطيات الجديدة وتسخيرها لصالحه ، مخضعا استراتيجيته لمراحل ، لا ترحم اشد المتعاونين معه، حتى ولو أصروا على البقاء حتى النهاية يقدمون له العون والخدمة .

ينطلق البروفيسور يوسف دان ، ويقف في الصف الاول من الجناح اليميني الصهيوني ، من النظرة القائلة بأن فلسطين هي ليست تلك المنطقة الواقعة بين نهر الاردن والبحر المتوسط ، بل تلك المناطق الواقعة — حسب القانون الدولي كما يدعي البروفيسور — « بين البحر الابيض المتوسط وبين العراق والسعودية ، نفس المنطقة التي تسيطر عليها الان كل من اسرائيل والاردن » . وبعد ان يحدد دان الخريطة الفلسطينية (أرض اسرائيل) يطرح سؤالا من هم الفلسطينيون ، ويجيب مقسما الفلسطينيين الى ثلاثة اقسام : (١) عرب سكان فلسطين الذين يسكنون فيها (٢) عرب ليسوا سكان فلسطين ويسكنون فيها (٣) عرب فلسطينيون

هاجروا من فلسطين ويسكنون في بلدان اخرى . وحسب رأيه يصل عدد سكان فلسطين اليوم الى اربعة ملايين معتبرا ان معظم سكان الاردن هم فلسطينيون . اما بالنسبة « للعرب الذين ليسوا من سكان فلسطين ويسكنون فيها » فانه يقصد العائلة الهاشمية مع مجموعة صغيرة من العشائر البدوية التي قدمت معها من الحجاز الى عمان .

ويقول الكاتب في مجال تحليله لهذه الفئة غير الفلسطينية في مقالة له نشرت في يديعوت احرونوت ٧٤/٣/٢٩ « على رأس هذه المجموعة يقف وريث عبدالله الملك حسين الهاشمي . واذا ما تحدثنا عن الكولونيالية في الشرق الاوسط فان مملكة حسين هي النموذج الواضح للعمل الامبريالي الكولونيالي للاستعمار البريطاني ، الذي يعمل لتأمين مصالحه الضيقة على حساب شعوب المنطقة، واذا ما تحدثنا عن الغرسة الغريبة في فلسطين، فان عرب فلسطين ليسوا غرسة كهذه ، وكذلك ليس يهود ارض اسرائيل العائدين الى وطنهم بل الاسرة الهاشمية، حكام الحجاز الذين طردوا على يد ثورة ابن سعود ، واقام لهم الاستعمار البريطاني حصنا وملجأ في العراق وشرق الاردن » .

وبعد ان ينفي الكاتب وجود خلفيات تاريخية للكيان الاردني او الشخصية الاردنية التي حاول الملك عبد العزيز خلقها من خلال « الشعب الفلسطيني » في شرق الاردن « بواسطة الحزازات والالاعيب التي لا نهاية لها » يصل الى النقطة الاساسية التي يسعى اليها وهي « ان فلسطين — ارض اسرائيل هي ، اذن ، وطن لشعبين . ان واقع كون الشعبين يخوضان صراعا دمويا منذ جيلين يشكل مأساة ، كما أن واقع كون قسم كبير من وطنهما — حوالي ٧٠ ٪ — خاضعا لسيطرة حاكم اجنبي ، توج على يد استعمار اجنبي فظ يشكل مأساة اخرى » ليخرج بعد ذلك بنصيحة او دعوة « عرب فلسطين ويهود اسرائيل الى التعايش جنبا الى جنب في فلسطين — ارض اسرائيل » كلها ، ولكنه يقرن التعايش في فلسطين الكبرى ، بتقسيمها بين شعبيها الى دولتين ، اذ يقول : « ليس هنالك ادنى شك ، بأنه يتوجب على عرب فلسطين واليهود الموجودين في اسرائيل ان يتعايشا جنبا الى جنب في دولتين مستقلتين تقسمان بالضرورة فلسطين الى قسمين ، يهودي وعربي ، ولكن قاعدة هذا التقسيم يجب ان تكون فلسطين كلها ، بما في ذلك الجزء الذي سلب منها على يد الاسرة الهاشمية بفضل حراب الجيش البريطاني » .

ومن اجل التوصل الى حل « حقيقي وعادل لقضية الشعبين » يرى البروفيسور ضرورة ازالة ادعائين من الاذهان ، الادعاء القائل « كأن الفلسطينيين نفوا من بلادهم » لان هذا القول حسب رأي البروفيسور غير صحيح لان الفلسطينيين يعيشون في فلسطين الكبرى — ارض اسرائيل ، باستثناء اقلية خارج فلسطين والادعاء القائل « بوجود شعب اردني يحكم بواسطة اسرة ملكية شرعية ، الاسرة الهاشمية » لاعتقاده ان ذلك « بمثابة حدث عابر يقوم بفضل المكائد والخداع والرقص الحذر على الحبل الرفيع »

يبدو للوهلة الاولى وكأن الكاتب يقف ضد النظام الهاشمي من الناحية المبدأية ، لكونه نظاما اشيد على حراب الجيش البريطاني ولخدمة المصالح البريطانية الاستعمارية ، الا انه سرعان ما يكشف موقفه الذي يمثل الفكر الصهيوني اليميني الناكر لجميل الاسرة الهاشمية ، تماما كما وقفت الاجنحة اليمينية الصهيونية في اواخر فترة الانتداب تجاه السلطات البريطانية ، فبالرغم من المسبات والاهانات التي يكيلها يوسف دان للنظام الاردني نراه يستدرك في مقاله ويدعو الى عدم ادارة ظهر المجن للنظام الاردني في الوقت الحاضر ، لان خدماته وأدواره لخدمة اسرائيل لم تستنفد بعد ، اذ يقول : « ان هذا لا يعني بأنني اوصي بعمل اسرائيلي لطرد الملك حسين ، ففي هذه الساعة ينبغي ان لا نتغاضى عن واقع كون حكم الملك يقدم مساعدة عظيمة لمنع النشاط التخريبي على امتداد حدودنا الشرقية الطويلة ، لان ذهابه في هذه الساعة من شأنه ان يجلب قوات كبيرة عربية واجنبية الى حدودنا هذه ، ويعرض أمننا لخطر كبير . ان السياسة الحكيمة تتطلب اتخاذ تسويات تكتيكية مع الواقع ، ينبغي عدم تأبيدها على المدى البعيد » .

يمكن تلخيص ما يريد ان يقوله البروفيسور دان بالتالي : فلسطين الكبرى الواقعة بين العراق والسعودية والبحر المتوسط اي المنطقة التي يسيطر عليها النظام الاردني واسرائيل هي وطن

للفلسطينيين وليهود « فلسطين — ارض اسرائيل » وكحل للصراع الدامي بين « الشعبين » يجب تقسيم هذه البلاد الواسعة بينهما حيث تقام دولة فلسطينية مستقلة ودولة اسرائيلية يجمعهما الوئام والسلام في « فلسطين — ارض اسرائيل » .

اذا استثنينا المغالطات التاريخية التي يقع فيها الكاتب بغرض توظيفها لخدمة فكرته ، نجد انه يسعى لخدمة التوسع الصهيوني في الارض العربية، بتقليعة ونمط جديدين ، ذلك الاعتراف بحق الشراكة لحركتين على وطن ، يحاول الكاتب تضخيه حجمه ، يتطلب تقسيمه مناصفة بين دولتين ، تبتلع الاولى الممثلة لمجتمع المهاجرين والمستوطنين كل فلسطين ، وربما ايضا المرتفعات الجبلية لشرق الاردن المحاذية للنهر ، لتنحصر الثانية الممثلة للمجتمع الفلسطيني خلف تلك المرتفعات بحكم وبمقتضى المناصفة والتعايش بين عرب ويهود « فلسطين الكبرى ارض اسرائيل » . وخشية ان يفهم من اكتفاء دعوته بفلسطين،ترك البروفيسور دان المجال مفتوحا امام شهوة التوسع في اراض مصرية وسورية حين قال : ان التقسيم يجب ان يشمل خريطة الانتداب البريطاني لعام ١٩٢٠ ، اي فلسطين وشرق الاردن، مع امكانية حدوث تعديلات على الحدود مع سوريا في هضبة الجولان ، ومصر في سيناء . ولكنه لم يفصح اذا كانت متطلبات المناصفة تستدعي ايضا، اقتسام الشعبين اللذين يسكنان في فلسطين الكبرى ، تلك الاراضي !

(٣)
منطق وآراء اليآف تجاه مصير الشعب الفلسطيني

عندما يبحث المرء في افكار وآراء اليآف تجاه الشعب الفلسطيني ، يعاني من صورتين تحومان حول مخيلته ، تعبران عن موقفين شبيهين من حيث الجوهر الا انهما يختلفان حول التفاصيل والمنطلقات . الاول موقف الحبيب بورقيبة الذي عبر عن نفسه في المشروع الذي يحمل اسمه والقائل بأن حل القضية الفلسطينية يتأتى من خلال مفهوم جديد ، تعتبر فلسطين بموجبه ليست تلك البقعة التي احتل قسم منها عام ١٩٤٨ ، واستكمل القسم الاخر عام ١٩٦٧ فحسب ، بل تشمل ايضا شرق نهر الاردن، اي ان الخريطة « الحقيقية » لفلسطين هي التي تشمل فلسطين والاردن معا ، وان نهر الاردن هو بمثابة نهر يقسم فلسطين الى شطرين شرقي وغربي وان السكان في الضفتين هم فلسطينيون ، والحل برأيه يتمثل في اقامة دولة فلسطينية على الضفتين الشرقية والغربية مع علاقات جوار حسنة مع اسرائيل . الثاني موقف البروفيسور يوسف دان والقائل بأن الخريطة الفلسطينية ليست الخريطة المتعارف عليها ، بل هي من ناحية « القانون الدولي » تلك المنطقة التي تشمل الخريطة الفلسطينية وخريطة شرق الاردن ابان فترة الانتداب البريطاني عليهما ، وان هذه المنطقة التي سماها « فلسطين — ارض اسرائيل » تحتوي على شعبين هم سكان البلاد الشرعيين ، اليهود العائدين الى وطنهم فلسطين ارض اسرائيل ، والفلسطينيين الذين يعيشون في وطنهم « فلسطين ارض اسرائيل » وان النشاز الموجود في هذه المنطقة او « الغرسة الغريبة » تتمثل في الاسرة الهاشمية التي قدمت من الحجاز ، وليس مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، ولذا فانه يرى ان الحل الامثل يكمن في اعادة تقسيم فلسطين الموسعة الى دولتين تمثلان « الشعبين » سكان البلاد ، ليعيشا في بلدهما في سلام ووئام وحسن جوار . لسنا هنا بصدد البحث عن الدوافع المتباينة وراء الموقفين او التباين في رسم الحدود بين تلك الدولتين ، بل الاشارة فقط الى الموقفين اللذين يحشران نفسيهما لدى المرء عندما يتطرق الى آراء اليآف تجاه الشعب الفلسطيني .

وقبل البدء في الدخول الى موضوعنا هنالك بعض الملاحظات :

١ — اننا سنكتفي في هذا التقرير بالوقوف على آراء اليآف تجاه الشعب الفلسطيني كما وردت في كتابه « ارض الغزال » وخاصة في الفصل الذي يحمل عنوان « نحن والعرب الفلسطينيين » الذي صدر في صيف عام ١٩٧٢ ، وكما وردت في مقالات

له بعد الحرب الاخيرة ، وسنلحقه بتقرير آخر حول تصورات الياف للعلاقات المستقبلية بين كل من مصر وسوريا من جهة وبين اسرائيل من جهة اخرى.

٢ — هنالك نوع من الاجماع في اسرائيل بأن اريه اليآف يعتبر من اكثر العناصر في حزب العمل اعتدالا وبأنه « حمامة » وديعة ، وقد حدا هذا التصور الى دفع بعض الكتاب الاسرائيليين الى القول بأنه « لم يظهر حتى الان الياف فلسطيني » بعد أن اعتاد هؤلاء على القول انه لم يظهر بين العرب مجموعة كمجموعة « متسبين » وكأن اليآف يحمل فكرا متمايزا نوعا ما عن جوهر الفكر الصهيوني السائد .

ويبدو ان النظرة الاجماعية تلك قد اجتازت الحدود وأخذت تفعل فعلها في الجانب الاخر .

٣ — ان خوضنا لهذا الموضوع لا يجيء ردا على ادعاءات بعض الكتاب داخل اسرائيل او دحضا لتصور خاطىء ، بل استكمالا لمحاولات تهدف الى القاء الضوء على المواقف الاسرائيلية المختلفة تجاه مصير الشعب الفلسطيني من خلال حلقات متتالية، في سبيل خلق وعي أفضل ، لمواقف التيارات الاسرائيلية ، ولا سيما في هذه الفترة الحرجة .

٤ — ان صفة الاعتدال والتطرف ، او كنية « الحمائم والصقور » في اسرائيل هي صفة عائمة متموجة ، وليست ساكنة ، ففي كثير من الاحيان يكون « المعتدل » متطرفا تجاه كثير من الموضوعات ويكون « المتطرف » متساهلا تجاه كثير من الموضوعات ، وفي بعض الاحيان يتداخل التطرف والاعتدال في جميع الموضوعات ! ومن هنا ، فاننا، سنجد اليآف ليس من عداد الفئة الاولى او الثانية، وانما من فئة اخرى تجمع خصائل الفئتين يتداخل فيها الاعتدال والتطرف ، وربما يجده البعض ، خلافا لما يشاع عنه ، متزمتا متطرفا لا يختلف في شيء من حيث الجوهر عن البروفيسور اليميني يوسف دان تجاه الموضوع المطروح .

يعتبر اليآف من الشخصيات المركزية التي ساهمت في المشروع الصهيوني في فلسطين قبل وبعد قيام اسرائيل ، فقد كان له نشاط بارز ابان الانتداب في تسريب اليهود الى فلسطين من خلال « تهريبهم » بواسطة السفن عن أعين سلطات الانتداب، ثم شغل. مهمات أخرى بعد قيام الدولة، حيث اوكلت له مهمة تشجيع هجرة يهود الاتحاد السوفييتي ، وتعزيز العلاقات الاسرائيلية الايرانية كما اوكلت اليه مهام تصنيع قرى التطوير واستيعاب المهاجرين ، الا ان أهم مركز شغله في حياته علاوة على كونه عضوا في الكنيست ، تربعه لفترة على منصب السكرتير العام لحزب العمل .

نصل الان الى وجهة نظر اليآف تجاه الشعب الفلسطيني . ومن الطبيعي ان يكون مدخل اليآف للموضوع بتساؤل حول وجود او عدم وجود الشعب الفلسطيني باعتبار ان هذا الموضوع « مشحون بمواد متفجرة من الناحيتين العاطفية والسياسية » فهو يقول : « ان قضية الفلسطينيين (هل هم قائمون بالفعل ؟ من هم ، الى أين تصبو أنظارهم ؟ ما هي نظرتنا تجاههم) ، مشحونة بمواد متفجرة لدرجة كبيرة حتى غدت تقريبا مشكلة داخلية بالنسبة لنا ، وعقدة تلازمنا ، بدون انقطاع ، وخاصة عقب حرب الايام الستة » .

ثم ينتقد اولئك الذين يتغاضون عن وجود القضية والذين ينكرون وجود الشعب الفلسطيني ، لان ذلك حسب رأيه لا يفيد في شيء ، لينتقل بعد ذلك الى قضية تسمية الامور بأسمائها ، وفي هذه الناحية يحاول اليآف تذكير الاسرائيليين بقادة العرب الفلسطينيين « المتطرفين » الذين وضعوا نصب أعينهم هدف تصفية اسرائيل ويقولون بأن « اسرائيل ليست دولة حقيقية ، وليس الشعب اليهودي شعبا حقيقيا » كما وتتردد على ألسنتهم « العصابات الصهيونية » ليصل بعد ذلك الى القول بأن قسما من الاسرائيليين يحاولون الاجابة عليهم بنفس الاسلوب : لا يوجد فلسطينيون ، ولا توجد فلسطين » ويصف كثير من الاسرائيليين هؤلاء بـ « العصابات » او بـ « المخربين » ، وهنا يدافع اليآف عن قضية تسمية الامور بأسمائها ، فبالنسبة للشعب الفلسطيني الذي ينكر وجوده البعض ، والذي يطلق عليه « الحياديون » اسم « عرب البلاد » او عرب ارض اسرائيل ، يقترح تسميته باسمه ، أما فيما يتعلق بالفدائيين فيطالب بعدم الصاق كنية « العصابات »او « المخربين » بهم ويدعو الى تسميتهم بالمقاتلين الفلسطينيين او المنظمات الفلسطينية المسلحة، ومع ذلك ، وبالرغم من الحماس الظاهر في قضية الاسماء فان اليآف يقع في بعض الاحيان في نقيض ما يدعو اليه ،

فبعض الاحيان ترد على لسانه كنية « مخربين » او « أهل البلاد » مع انه يتهم القائل بهذه النعوت بأنه « يقترف قبل كل شيء ، ظلما بالنسبة للجيش الاسرائيلي ولاجهزة الامن الذين قاتلوا ويقاتلونهم من خلال تعريض أنفسهم للخطر وبأكبر قدر من المقدرة والجرأة . ان هذه هي حرب قاسية باناس قساة ، تسيطر عليهم المرارة ، واثقين بأنهم يقاتلون من أجل قضية عادلة ، ولا تنقصهم بالبتة ، الجرأة والفهم » ...

بعد قضية الاسماء والصفات والنعوت ، وتحاشيه من ولوج قضية الكنية العالقة بفلسطين واراض عربية اخرى « ارض اسرائيل » ، يتطرق اليآف الى أصل الفلسطينيين ، ومن اين قدموا الى هذه البلاد ليصل بعد سرد تاريخي بسيط الى القول بأنه « قبل مئة عام لم يكن السكان العرب في البلاد شعبا عربيا متميزا ، ولم تكن له مطامح سياسية منفصلة » وقد شملت اليقظة القومية العربية التي برزت في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين « عرب البلاد » مثلما شملت مصر وسوريا ولبنان ، الا انه يعتقد بأن ولادة المشروع الصهيوني مع ولادة اليقظة القومية العربية في المنطقة اذكت وجسدت الروح القومية لدى « عرب البلاد » . وبعد الحرب العالمية الاولى « انتصبت في البلاد في وجه حركة البعث اليهودي ، حركة قومية عربية فلسطينية » الا ان هذه الحركة فشلت في تحقيق أهدافها وهزمت في عام ١٩٤٨ . ويرجع اليآف أسباب الفشل والهزيمة الى رفض الحركة الوطنية الفلسطينية قبول المشروع الصهيوني وتصميمها على « القاء اليهود في البحر » او كما يقول : بسبب عدم تساهلها وعدم رغبتها في اعطاء الصهيونية ولو شبر ارض تحت نفس الشمس ، وفي نفس البلاد . وبسبب عقدها العزم على القاء اليهود في البحر جلبت الى نفسها هزيمة قاضية » . ومن الجدير بالذكر ان جملة « القاء اليهود في البحر » قد اوردها اليآف مرات كثيرة عندما يتحدث عن رفض الحركة الوطنية الفلسطينية او العربية للمشروع الصهيوني .

ثم ينتقل الكاتب الى « المأساة » التي حلت بالشعب الفلسطيني ويعترف بمدى فداحتها ، والذنب في ذلك طبعا يعود الى عدم التمشي مع الفكرة الوليدة ، ويرى ان من بين العوامل التي زادت شدة المأساة ، تحول نصف الشعب الفلسطيني الى لاجئين ، « واحتلال » غزة على يد الجيش المصري « واحتلال » الضفة الغربية على يد رجال المملكة الهاشمية « وبقاء » قسم من العرب الفلسطينيين داخل دولة اسرائيل، هذا علاوة على ان الدول العربية لم تعمل على استيعاب الفلسطينيين استيعابا حقيقيا باستثناء المملكة الاردنية التي لم تستطع الا ان « تستوعب » العرب الفلسطينيين الذين زاد عددهم على عدد الاردنيين الاصليين ، ويرى ، انه منذ ان ضمت المملكة الاردنية اليها الضفة الغربية ، شرع الفلسطينيون « بضم » الضفة الشرقية على الصعيدين الديموغرافي والاجتماعي . ولو استمر هذا الوضع ولم تحدث حرب حزيران ، فان اليآف يعتقد بأن المملكة الاردنية كانت ستتحول الى دولة فلسطينية ، وكان يمكن لهذه الدولة ان تحل القضية الفلسطينية ، الا انه يستطرد قائلا : « ولكن ليس هذا ما يريده الزعماء العرب الفلسطينيون الشباب ومؤسسو « فتح » وسائر تنظيمات المقاومة . ذلك انهم ارادوا وفق نظريتهم المكتوبة « الميثاق الوطني » « العودة » والانتقام. لقد ارادوا دفع العرب الفلسطينيين والعالم العربي كله الى جولة ثالثة ورابعة وخامسة ضد اسرائيل لقد ارادوا ابادتها ليحلوا محلها ». وبعد ذلك يتحدث عن ظاهرة الفدائيين ، ويحذر اسرائيل من تقليل خطورة هذه الظاهرة بقوله : « ينبغي على اسرائيل في أي حال من الاحوال ان لا تستخف وتنتقص من ظاهرة المقاومة المسلحة الفلسطينية... وينبغي ايضا ان لا يستهان بهذه التنظيمات من ناحية المعنوية والجرأة ، ذلك اننا نقترف خطأ كبيرا اذا لم نر ، انهم نجحوا على الاقل لفترة معينة ، في رفع معنوية العرب بشكل عام ، والعرب الفلسطينيين بشكل خاص ، وغدوا بمثابة رمز للبطولة والفداء ... » ليعيدنا بعد ذلك الى قضية الاسماء والى قضية وجود او عدم وجود الشعب الفلسطيني ، ويقرر مرة اخرى بانه موجود قائلا : « ان الشعب الفلسطيني يمتلك تاريخا خاصا به ، وله ذكريات خاصة به ، حروب ، تضحيات ، آلام وابطال ، براعم شعر وأدب خاصة به ، كما يمتلك هذا الشعب منطقة متصلة ومركزية تضم أكثرية ، كما ان لهذا الشعب الذي يصل تعداده الى ثلاثة ملايين ، منفى وشتات يخصانه ،

وقد عززت حرب الايام الستة الهوية الفلسطينية ، وتعاظم الاحساس بالكارثة المشتركة عقب هزيمة اخرى وعقب تضحيات اخرى ولاجئين اخرين » .

كتلخيص لما سبق يمكن القول ان الياَف ركز على ثلاثة امور :

١ — الشعب الفلسطيني قائم موجـــود .
٢ — ضرورة تسمية الامور بأسمائها مع انه في بعض الاحيان لا يتقيد بذلك . ٣ — اظهار وابراز مأساة الشعب الفلسطيني .

تستوقفنا هنا ملاحظة قبل الدخول في القسم الاخر من اراء الياَف ، تتمثل في اعتراف الكاتب بالمأساة التي لحقت بالشعب الفلسطيني ، وبالرغم من انه يوعز أسباب هذه المأساة الى الحركـة الوطنية الفلسطينية لرفضها بشكل مطلق المشروع الصهيوني ، الا ان المأساة تتردد كثيرا في كتابه لدرجة قد يشعر معها البعض — واسمح لنفسي القول بانني قد شعرت — بأن « عقدة الذنب » التي طاردت الشعب الالماني لما اقترفته الحركة العنصرية النازية بحق اليهود في الحرب العالمية الثانية ، قـد اخذت تطارد اليـاَف ، الا أنه بعد الوقوف على الجوهر وليس على الشكل ، يتضح العكس تماما . ففي حين نجد ان عقدة الذنب الالمانية كانت بين العوامل التي دفعت المانيا الى مســاعدة حركة عنصرية تكفيرا عن ذنوب حركة عنصريـة اخرى ، نجد الياَف لا يسعى الى التكفير او يتحرك من خلال وخزة ضمير ، وانما يسعى الى شيء اخر ، هو نفس الشيء الذي سعى وعمل من أجله وطبقه قادة اليشوف الصهيوني في فلسطين ، ولكن هذه المرة في الضفة الشرقية والغربية .

الدولة الفلسطينية

بعد تطرقه للمعطيات الجديدة لحرب حزيران ١٩٦٧ ، وما تأتى عنها من احتلال اسرائيل لاراض عربية واسعة ، وسياسة اسرائيل تجاه تلـك المناطق ، يتحدث عن وجهة نظر اسرائيلية تجــاه مصير المناطق العربية المحتلة تدعو « الى العمل بأقصى سرعة لاستيطان هذه المناطق ، ان تبنى فيها قرى ومدن يهودية وان تضم بشكل واضح لدولة اسرائيل المستقلة ، لكي تغدو جزءا لا يتجزأ من صلب اسرائيل ، وبذلك يستكمل العمل التاريخي لاعادة ارض اسرائيل الغربية كلها للشـــعب اليهودي » . وفي مجال تعليقه على تفكير هــذا التيار اليميني الصهيوني « انه ليس هنالك شك بأن هذه النبرات تنطوي على استقامة ... » ولكنه يعتقد بأنها لا تنطوي على حـل للقضيـة الفلسطينية ، ليصل بعد ذلك الى دعوة الاسرائيليين الى عدم تبادل التهم بين أصحاب وجهتي النظـر بقوله : « ومثلما لا يجوز — ويا ويلنا اذا وصلنا الى ذلك — ان نلصق صفة « الخيانة » بجميع اولئك الذين لا يفكرون بمفاهيم « ولا شبر » ، لا يجوز ايضا ان نلصق بدون تمييز صفة «الشوفينية والتوسعية » بأولئك الذين يعتقدون بانه ينبغي عدم التنازل واعادة مناطق في ارض اسرائيـل الغربية » .

اذن ما هو الحل الذي يقترحه الياَف ويوصي اسرائيل ان تسير على منواله ؟ هنا نبدأ باستشفاف الجوهر . يجيب الكاتب : « ان الطريق التي ينبغي على اسرائيل ان تسير فيها هي ان تعلن مبدئيا عن استعدادها لاعادة (« لاعادة » وليس « للانسحاب ») ، ذلك انه يوجد فرق كبير بين هذين المفهومين) **معظم** مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة للعرب الفلسطينيـين ، لكي يقيموا لهم عليها وعلى **الضفة الشرقية** للاردن دولة مستقلة ذات سيادة » .

وقبل الخوض في طبيعة الدولة ومدى استقلاليتها وسيادتها والشروط المصاحبة لقيامها تجدر الاشارة هنا الى ملاحظتين ، الاولى هي ان الياَف يرى ان فلسطين « أرض اسرائيل » تشمل فلسطين وشرق الاردن ويعيش تحت كنفها شعبان لكل منهما حقوقه التاريخية على تلك الارض ، والثانية انه يرى في الحل الذي يعطيه او التصريح الذي يطلب من حكومة اسرائيل ان تتبناه ، تصريحا — كما يقول — شبيها بتصريح بلفور ولكنه هذه المرة صادر مـن اسرائيل وموجه للشعب الفلسطيني ، هو أقصى ما يمكن ان تذهب اليه اسرائيل ، لانها بذلك قد تنازلت كثيرا ولا يمكن لها ان تتنازل أكثر من ذلك . وربما يتبادر الى الذهن تساؤلات حول هـــذه التنازلات خاصة وانه يشترط في تصريحه « عودة معظم ... » ويفسر « الاعادة » بأنها لا تعني « الانسحاب » ويعرض اراضي دولة عربية الى شعب طرد من وطنه ، هذا فضلا عن شروطه التي سنتحدث عنها فيما بعد ، لقيام دولـــة فلسطينية .

تتمثل هذه التنازلات في المفهوم الاسرائيلي لخريطة ارض اسرائيل والحقوق التاريخية لليهود على هذه الخريطة . فهنالك ثمة نظرتان اساسيتان تجاه الحقوق والخريطة ، الاولى توراتية تعتبر ان الخريطة تمتد بين نهر الفرات ونهر مصر الكبير (البعض يقول نهر النيل ويقول آخرون وادي العريش) وتربض فوقها الحقوق التاريخيـة ، والاخرى ارض الاثني عشر سبطا وحدودها غير واضحة المعالم ، الا ان الياَف يحددها كالاتي : تمتد من سفوح جبال لبنان وجبل الشيخ في الشمال وحتى البحر الاحمر وخليج ايلات وعتسيون جابر في الجنوب ، من البحر الكبير ، البحر المتوسط وحتى الحدود الشرقية لاراضي سبطي رؤوبين وجاد ونصف سبط منشية أي حتى مرتفعات الجسولان والجلعاد والباشان » .

ويعترف الياَف بأن هذه الخريطة تتسم بعدم الوضوح ، ويعرفها بشكل أوضح : « ان هذه المنطقة هي بشكل او بآخر مطابقة لحدود ارض اسرائيل الغربية وشرق الاردن ابان فترة الانتداب » وفي أحيان كثيرة يعود ويزيد الوضوح دقة ويجعلها مطابقة تماما لحدود فلسطين وشرق الاردن ، وان حقوق اليهود التاريخية تمتد على هذه الرقعـة بالذات . وبما ان العرب قد سكنوا في هذه المنطقة طيلة فترة تزيد على الالف وثلاثمائة عام ، فانه لا يعتبرهم « عابري سبيل » كما يقول ، بل لهم حقوق تاريخية في فلسطين ارض اسرائيل ، ومن هنـا تجيء دعوته الى « تصريح بلفور » جديد من قبل اسرائيل تجاه الفلسطينيين ، تتنازل فيه اسرائيل كثيرا ، تتنازل عن « تحقيق حقوقها التاريخية على بقية ارض اسرائيل » أي تتنازل عن تحقيق حقوقها على الاراضي التي ستقام عليها الدولة الفلسطينية.

ويعتقد الياَف ان موقعه هذا يعتبر استمرارا لمواقف قادة المشروع الصهيوني ، ويعزز ذلك بقوله ان « قادتنا » اقترحوا على قادة العرب تقسيـم هذه الارض « نحن نقيم على جزء منها دولة يهودية وانتم تقيمون على جزئها الاخر دولة فلسطينية ، الا ان قادة العرب الفلسطينيين اجابوا : لن يحدث ذلك ابدا ! نحن أصحاب البلد ، ونمتلك الحقوق عليها ، ليس لكم شبر ، وستلقوننا في البحر » ويضيف انه في عام ١٩٤٨ لم يقبل العرب التقسيم وقالوا مرة اخرى « لا ، لا توجد لكم حقوق على هذه الارض ، اننا سنتازلكم ، وبمؤازرة الـدول العربية سنلقيكم في البحر » ثم يأخذ بتبرير الموقف الاسرائيلي تجاه القضية الفلسطينية ويقول ان اسرائيل عرضت تعويضات على اللاجئين ، ليصل بعد ذلك الى القول بانه يجب العودة على هذا الاسلوب الذي اتبع حتى حرب الايام الستة : « هنالك مكان بين البحر والصحراء في أرض الاثني عشر سبطا ، لدولة اسرائيل ولدولة عربيـــة فلسطينية ، مقابل السلام ، سنتنازل عن تحقيق قسم من حقوقنا التاريخية على هذه البلاد ، واذا كنا جميعا نؤمن بان لنا حقوقا تاريخية قومية في شرق الاردن ايضا ، فانه من المؤكد ، ينبغي علينا ان نعود ونكرر استعدادنا للتنازل عن تحقيقهـا مقابل السلام ، لكيلا يسألوننا ، وبحق : هل نحن حقا على استعداد للتنازل عن تحقيق أية حقوق ، او ان رغبتنا الحقيقية هي ان نضم لاسرائيل ليس فقط الضفة الغربية وقطاع غزة ، بل ايضا عندما « يحين الوقت » اراضي شرق الاردن » ؟

الحقيقة ان السؤال الذي يقفز من خلال الوقوف على صورة طرح الياَف للحل ، ليس ذاك السؤال الذي اورده ، وليس هو العالق في ذهن الانسان العربي او غير العربي ، بل ، ما هي الحـدود التاريخية والحقوق المتأتية عنها لليهود ؟ هل هي الحدود التوراتية ، واذا كان الامر كذلك فهل تنتهي عند وادي العريش او نهر النيل ؟ هل هي الحدود غير واضحة المعالم للاثني عشر سبطا ، واذا كان الامر كذلك فما هي هذه الحدود ؟ هل تقتصر على الخريطة الفلسطينية وشرق الاردن ابان الانتداب ؟

ان طرح هذه الاسئلة يفرضها منطق الحل الذي يقدمه الياَف ، والاجابة عليها تريح شعوبا كثيرة وتزيل عنها شبح التوسع ، واقتطاع أجزاء من اراضيها ، واذا ما بقيت الخريطة مبهمة مطاطة تمتد حينا الى تلك البقعة لتشمل بعد ذلك بقعة اخرى ، فانها ستكون سيفا مسلطا على المنطقة وورقة مساومة لاحتلال او لتكريس احتلال اراض عربية ، كأن تقول اسرائيل مثلا لمصر وفق منطق الياَف : ان لنا حقوقا تاريخية على أجزاء معينة في مصر ، واننا مستعدون للتنازل عن « تحقيق » تلك الحقوق مقابل ابقاء سيطرتنا على سيناء او أجزاء منها . او كأن تقول للبنان مثلا في حالة

احتلالها لنهر الليطاني وجنوب لبنان : اننا على استعداد للتنازل عن « تحقيق » حقوقنا على سفوح جبال لبنان ، ونكتفي بما استعدناه من حقوق لنا مقابل السلام . او ان تقول لسوريا : هضبة الجولان بأيدينا الان وهي من ضمن مجال حقوقنا التاريخية واننا مقابل السلام مستعدون للتخلي عن « تحقيق » حقوقنا التاريخية في الباشان ، وحوران مقابل تقسيم الهضبة . هذه أمثلة اوردناها تنسجم مع منطق اليآف ، ولكي لا يبدو بأننا نظلم منطق الرجل باعطاء الامثلة ، فاننا سنقف على رأيه في الحل تجاه مرتفعات الجولان السورية . يقول اليآف : « من الناحية الثانية علينا ان نقول للسوريين ان حكم الجولان بالنسبة لحقوقنا التاريخية ، هو كحكم ارض الاثني عشر سبطا ، اننا نمتلك ، وكذلك السوريون ، حقوقا كاملة على هضبة الجولان » ويرى الكاتب ان الحل يكمن في استعداد اسرائيل للتنازل عن « تحقيق » حقوقها التاريخية على اجزاء معينة في الاراضي السورية مقابل تقسيم الجولان ، بحيث تسلخ من الاراضي السورية مناطق في الهضبة لتضم الى اسرائيل (سنتوسع في هذا الموضوع في تقرير لاحق) .

من هنا فان السؤال المطروح ، ما هي حدود أرض اسرائيل قبل ان يكون هل اسرائيل مستعدة للتنازل عن تحقيق حقوقها التاريخية في هذه المنطقة أو تلك ! هل يمكن ان يتبلور اجماع اسرائيلي وصهيوني حول الحدود التاريخية خاصة وانه قد مر اكثر من ٧٥ عاما على المشروع الصهيوني الرامي الى استعادة الحقوق التاريخية للشعب اليهودي في ارض اسرائيل دون ان يكون هنالك اجماع واضح على حدود واضحة لتلك « الارض »؟ ولنفترض ان اليآف سيعجز عن ايجاد موقف اسرائيلي وصهيوني واضح موحد تجاه الحدود التاريخية وما يترتب عليها من « حقوق تاريخية » بحكم وجود تصورات وشطحات مختلفة ضمن الحركة الصهيونية واسرائيل تجاه تلك الحدود (أحيانا تصل الشطحات الى حد اعتبار اوغندا بمثابة ارض اسرائيل ، كما فكر ذات يوم مؤسس الحركة الصهيونية هرتسل) فهل يعجز عن تفسير عدم استطاعته التخلص من ازدواجية الشخصية وبالتالي ازدواجية المواقف بالنسبة له هو بالذات ، فهو من ناحية يرى ان ارض اسرائيل هي تلك المنطقة التي تشملها خريطة الانتداب البريطاني على كل فلسطين وشرق الاردن فقط ، ومن ناحية اخرى يرى ان الجولان هو من ضمن ارض اسرائيل، ويطالب بتقسيمه مع ان الجولان هو أرض سورية ولم يكن ضمن خريطة الانتداب البريطاني بل ضمن خريطة الانتداب الفرنسي على سوريا ، وهذا الامر لا يجهله اليآف .

نعود الان لاستكمال الحديث عن « وعد بلفور » الاسرائيلي للشعب الفلسطيني بخصوص اقامة دولة فلسطينية على معظم الضفة الغربية وقطاع غزة وجميع الاراضي الاردنية والذي يدعو اليآف اسرائيل للاخذ به .

يقول اليآف ان هذه الدولة ستكون « مستقلة ذات سيادة » الا انه يرفق الاستقلال والسيادة بشروط ، ويكبلها بقيود ، لا تمس الاستقلال والسيادة فحسب ، بل تمس صميم الدولة بالذات وأهم هذه الشروط :

١ — اقتطاع أجزاء معينة من الضفة الغربية وقطاع غزة وضمها بشكل رسمي الى اسرائيل ، فهو يريد ان يعيد « معظم » وليس « جميع » وما بين المعظم والجميع يعطى لاسرائيل ، ومما تجدر ملاحظته هنا ان اريه اليآف يبقي حدود تلك الاراضي التي يشترط ضمها لاسرائيل كحدود خريطة ارض اسرائيل ، مبهمة غير واضحة المعالم .

٢ — اقتطاع مدينة القدس العربية وضمها الى اسرائيل ، فهو يشترط « ان تكون القدس كلها (هنا حدد الخريطة بكل وضوح ع٠ م) كمدينة كاملة وموحدة وهي الان عاصمة لاسرائيل ، وستبقى كذلك . في السابق ولغاية حرب الايام الستة كانت القدس مقسمة الى مدينتين ، وبما اننا لم نرضخ في أي يوم لحظر الوصول الى المبكى والحي اليهودي في المدينة ، لن نرضخ ثانية الى الى ذلك . لن نسمح بتقسيم هذه المدينة ، لن نسمح بأن يسيطر عليها حاكمان ، لن نعيد اليها سلطة عربية دنيوية ، ولن نكشف مرة اخرى شوارعها ومبانيها وسكانها ومؤسساتها للقناصة . وان هذا الثمن ، وهو ثمن غال ، ينبغي على العرب الفلسطينيين دفعه مقابل السلام معنا...»

٣ — تجريد الضفة الغربية وقطاع غزة من السلاح تجريدا كاملا ومطلقا ، لا لبس فيه ، ولا يكتفي اليآف بتعهد مكتوب من قبل الفلسطينيين باحترام هذا التجريد ، بل يرفق « التجريد المطلق »

بـ « ضمانات فعلية » يسمح بموجبها للقوات الاسرائيلية بالاشراف على الضفة الغربية . فهو يقول في هذا الخصوص : « ان هذا التجريد المطلق للقطاع وللضفة ، ينبغي ضمانه ليس فقط من خلال الاتفاقات المكتوبة ... بل ايضا من خلال الضمانات الفعلية ، والضمانات الفعلية هي اشراف اسرائيل او اشراف مشترك لدولتين ، ويمكن له ان يتم من خلال قواعد او بواسطة دوريات مشتركة على الخط الذي سيوقع عليه في الضفة ، وبشكل شبيه ايضا في قطاع غزة » .

وخشية ان يتهم اريه الياف بأنه يمس بذلك سيادة الدولة الفلسطينية ، يقول في مجال تبريره : « لكي لا يمس استقلال الدولة الفلسطينية ، والى جانب ذلك منح اسرائيل أكبر قدر من الامن يمكن تحديد فترة استخدام هذه القواعد والدوريات المشتركة لعشر او عشرين سنة ، وبعد انتهاء هذه الفترة سيكون موضوع القواعد والدوريات المشتركة مفتوحا مرة اخرى للمفاوضات ، حتى يحين الوقت الذي يرى فيه الطرفان ، انها قد مضى وقتها ولا ضرورة بها » .

من الملاحظ ان القواعد الاسرائيلية في الضفة الغربية والقطاع لن تزال بعد فترة معينة محددة سواء كانت هذه الفترة عشر او عشرين سنة ، بل تكون خاضعة للمفاوضات من جديد ، وتزال بموافقة **الطرفين** ، اي ان الشرط الاساسي لازالتها موافقة الطرف الاسرائيلي .

٤ ــ لا يغفل الياف اشتراط تكريس الاستيطان الاسرائيلي في جزء من الدولة الفلسطينية ، فبالنسبة لهذا الموضوع يرى « ان مصير المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة مفتوح أمام عدة احتمالات : قسم يضم رسميا ونهائيا عقب مفاوضات مع الدولة العربية الفلسطينية الى اسرائيل (على سبيل المثال غوش عتسيون) وقسم يتحول الى قواعد مؤقتة للجيش والدوريات في نطاق ترتيبات الامن بين الدولتين ، وقسم يبقى ضمن حدود الدولة العربية الفلسطينية » .

٥ ــ اضافة الى اشتراطه اقتطاع اجزاء من الضفة والقطاع وضمها الى اسرائيل ووضع قواعد عسكرية اسرائيلية ودوريات مشتركة في قطاع غزة وما تبقى من الضفة ، وضرورة تواجد مستوطنات اسرائيلية هناك ، يشترط الياف بأن تكون الضفة الشرقية لنهر الاردن مفتوحة امام التواجد اليهودي ، لكي تتكون فيها جالية يهودية واستيطان يهودي ، أي انه يريد موضوعيا ، ان تصبح الضفة الشرقية لنهر الاردن بمثابة فلسطين اواخر القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن ! ولكن بدون نزاعات وصراعات ، بل وسط جو من « العلاقات الوثيقة ــ الاقتصادية والتجارية ... » فهو يقول : « بشكل عام ، من المفترض ، ان يكون في الدولة العربية الفلسطينية ، سواء في الضفة الغربية أم في الضفة الشرقية جالية يهودية قائمة ، ذلك انه من غير المعقول ، خلافا لما هو قائم في جميع بلدان العالم ، ان تكون الدولة الجارة بالذات ، دولة التوأم بالنسبة لنا ، « نظيفة من اليهود » . الواقع لا يحتمل ذلك . ان العلاقات الوثيقة ــ الاقتصادية والتجارية والاخرى ، التي ستسود بالضرورة بين الدولتين عقب السلام ، ستؤدي مع مرور الزمن ، وبموافقة الدولة العربية الى استيطان يهود في مدن الضفة والقطاع **وشرق الاردن**. وبوسع هؤلاء انيبقوا مواطنين اسرائيليين، ذلك انهم بحكم أعمالهم واشغالهم يقيمون مؤقتا في الدولة العربية ويحافظون على جنسيتهم الاسرائيلية ، وسيكون هنالك من سيحولون اقامتهم الى اقامة دائمة ويصبحون مواطنين في الدولة العربية ، ويقومون بالواجبات كسائر مواطنيها ، وكما هو الحال في اسرائيل حيث توجد هنالك أقلية عربية يبلغ تعدادها مئات الالوف ، وانفقوا على التجنس بالجنسية الاسرائيلية ، فانه من الممكن ايضا ان تتشكل مع مرور الزمن ، وفي ظروف السلام ، أقلية من بضعة الاف او عشرات الالوف من اليهود في الدولة العربية المجاورة » .

ان اشتراط الياف بتواجد يهودي في الضفة الشرقية علاوة على الضفة الغربية والقطاع « استيطان يهود في مدن الضفة الغربية والقطاع **وشرق الاردن** » أي ضمن اراضي الدولة الفلسطينية المقترحة بحجة واهية وهي انه من غير المعقول ان تكون الدولة الجارة والتوأم نظيفة من اليهود في الوقت الذي يتواجد فيه اليهود في جميع دول العالم يثير سؤالا : لماذا يسعى الياف ويبذل قصارى جهده لـ « تنظيف » بلدان العالم من اليهود بغرض جمعهم في اسرائيل ، ويتباكى من قيام أي يهودي

بالهجرة من اسرائيل الى بلدان العالم ، في الوقت الذي يدعو فيه الى هجرة « عشرات الالوف من اليهود » الى دولة معينة ؟ هل نظرة الياف الى هذه الدولة المقترحة ، هي كنظرته الى سائر دول العالم او انه لا يزال يعتبرها بمثابة جزء من « أرض اسرائيل » تنازلت اسرائيل عن تحقيق حقوقها عليها ؟

ليس منطق الياف هو الذي يثير السؤال السابق بل الحجة الواهية التي اعتمد عليها ، فوفق منطقه تبقى اراضي الدولة الفلسطينية المقترحة جميعها شرقي وغربي النهر ضمن مجال الحقوق التاريخية لليهود ، ذلك انه دعا الى تنازل اسرائيل « عن تحقيق جزء من حقوقنا على ارض اسرائيل » وهذا لا يعني في أي شكل من الاشكال التنازل عن الحقوق ذاتها ، وبين التنازل عن « تحقيق » الحقوق ، والتنازل عن الحقوق ، مجال واسع يمكن الياف من الدعوة لتواجد استيطاني يهودي على الضفتين .

طبعا ، لم يكتف الياف بالحجة الواهية آنفة الذكر ، بل اعتمد ايضا على حجة اخرى تتسم بالمغالطة والخطورة معا ، فهو يقول بما انه توجد أقلية عربية في اسرائيل، ينبغي كذلك، وفي المقابل، ان تكون هنالك أقلية يهودية في الدولة الفلسطينية. للوهلة الاولى يبدو الامر منطقيا بالنسبة لاولئك الذين لم يقرأوا حرفا عن القضية الفلسطينية . ولكن السؤال من الذي عمل على خلق الاقلية العربية ؟ لقد خلقت الاقلية العربية نتيجة ظهور أقلية يهودية صهيونية في فلسطين في اواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، فهل لا يؤدي ظهور أقلية يهودية في الاردن بالاضافة الى الضفة والقطاع الى خلق اقلية عربية هناك في القرن الواحد والعشرين ؟

واذا ما أخذنا بعين الاعتبار توقعات الياف لعدد سكان اسرائيل بعد عشرين عاما (٩ ملايين نسمة) فاننا سندرك حجم الاقلية اليهودية في الدولة الفلسطينية المقترحة ، هذا فضلا عن الاماني التي يعلقها الياف على الدولة الفلسطينية لكي يتخلص من الاقلية العربية في اسرائيل ، من خلال استقطاب تلك الدولة لمن يشاء من ابناء الاقلية العربية . حول ذلك يقول الياف : « اذا ما قامت بالقرب منا دولة عربية فلسطينية تقيم علاقات سلام معنا ، سيشعر العرب الاسرائيليون أنفسهم مواطنين اسرائيليين ، وكتابعين ايضا لشعب فلسطيني ، له هويته الخاصة به ، ومن المحتمل ان تكون لدى قسم منهم رغبة في الانتقال ، مؤقتا او بشكل دائم الى الدولة العربية الفلسطينية ، وهذا من حقهم. ومن المحتمل ان تبقى أكثريتهم بين صفوفنا . ولكونهم بين ظهرانينا ، فانهم سيشكلون جسرا بين الدولتين ، مثلما تشكل الاقليات والمستوطنات اليهودية في الدولة العربية الفلسطينية جسرا كهذا » .

الى جانب تلك الشروط والقيود ، لا يتوانى الياف عن رسم صورة مضيئة للتطور الحضاري المرتقب لدولة الفلسطينية المقترحة ، هذا التطور الذي يشمل جميع الميادين والمجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، والذي من شأنه ان يقفز بتلك الدولة الى المراتب العليا من التطور الانساني ، بقدرة قادر او بقدرة خيال الياف وطبعا بالتعاون مع اسرائيل . ولعل الكاتب استهدف من وراء تقديم تلك اللوحة الحضارية البراقة للدولة الفلسطينية ثلاثة امور : ١ — حل قضية اللاجئين داخل الدولة الفلسطينية الواسعة المزدهرة . ٢ — اثارة لعاب ضعاف النفوس من ابناء شريحة البرجوازية الفلسطينية . ٣ — اثارة المطامح الكامنة بين صفوف البرجوازية الاسرائيلية. يرسم الكاتب اللوحة بالشكل التالي: « اذا ما منح هذا الشعب الذي يمر فيطور التكوين سندان لمطرقته على شكل دولة ، فانه قادر على تحويلها خلال مدة قصيرة الى دولة تستوعب بشكل مشرف جميع اللاجئين ، وتصل ، وربما تكون الاولى من بين الدول العربية ، الى العصر الحديث بوسعهم اقامة زراعة عصرية متطورة ، تصدر معظم انتاجها الى اوروبا والاقطار العربية ، واقامة مدن جديدة وتطوير القائمة منها في الضفتين والقطاع . كما بوسعهم ، بواسطة مساعدات دولية ، تأسيس صناعة عصرية ، واشادة موانىء ومطارات جديدة، وتطوير السياحة ، واقامة مؤسسات في ميادين البحث والعلم ، ورفع شأن الثقافة والفنون في بلدهم، وان يكونوا بمثابة الدولة العربية النموذجية التي تخطو بكبرياء وشمم نحو القرن الواحد والعشرين ، بل أكثر من ذلك : يمكن لدولتهم المستقلة من خلال تعاونها معنا الوصول الى اقامة

منشآت جبارة تدفع دولتهم واسرائيل معا الى الامام .

« ان دولة اسرائيل الواقعة على شواطىء بحرين، وجارتها العربية الفلسطينية الواقعة هي ايضا على شواطىء ، بوسعهما مع مرور الزمن خلق سوق مشتركة ، قد تكون بمثابة حجر الرحى للدول العربية وغير العربية . وبامكان الدولتين ان يصبحا منطقة سياحية ، من أجمل واعظم المناطق في العالم . كما بوسعهما دمج المنشآت البحرية وكذلك خدمات المواصلات والطيران في كل منهما ، والقيام بتزويد الخدمات والمعرفة الفنية والاموال للمنطقة بأسرها ، وربما ايضا لخارج المنطقة ... » .

ربما يتبادر الى الاذهان بأن وجهة نظر اليآف التي اوردناها تجاه مستقبل الشعب الفلسطيني ، قد تبلورت ونشرت قبيل حرب اوكتوبر ، أي في صيف ١٩٧٢ ، وانه من المحتمل ان تكون المعطيات الجديدة للحرب الاخيرة قد أحدثت تعديلات على مواقفه السابقة ، اسوة بما حدث لكثير من المواقف سواء داخل اسرائيل او خارجها ، الا ان ذلك لم يحدث بالنسبة له ، وجميع مقالاته بعد الحرب تؤكد ذلك . فبالنسبة لمستقبل الشعب الفلسطيني قال اليآف في مقالة له نشرت في معاريف بعد الحرب (٧٣/١١/١٩) « ينبغي علينا التوجه للعرب الفلسطينيين والاردن الذين تكمن بهم جذور النزاع ، ونقول لهم بأننا سنتقاسم ميراث آبائنا وآبائهم ، ارض اسرائيل الكبرى ، من البحر الى الصحراء على ضفتي الاردن ، كما ويتوجب علينا ان نكون على استعداد لمفاوضة مندوبين معتمدين من قبلهم لخلق أساس لدولة ، وربما دول لهم تضم شرق الاردن ومعظم مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة ، شريطة ان تكون الضفة والقطاع مجردتين من السلاح وتحت مراقبة مشتركة » ، أما بالنسبة للقدس فيدعو الى ابقائها موحدة وعاصمة لاسرائيل مع تأمين حرية الوصول الى الاماكن المقدسة ، وفيما يتعلق باللاجئين فيدعو الى توطينهم في الدولة الجديدة .

لم يعدل او يغير اليآف من آرائه ، لايمانه بالفوائد الجمة التي تجلبها تلك الاراء للكيان الاسرائيلي ، فهو يرى « ان هنالك ضرورة بتصريح كهذا تجاه أنفسنا ، وتجاه العرب وتجاه العالم ، وسيكون لهذا التصريح الذي هو بمثابة « تصريح بلفور » للعرب الفلسطينيين ، أهمية بسيكولوجية ، ومع مرور الوقت ، أهمية فعلية عظيمة ...» ومع ان هذا التصريح ، لا يختلف في جوهره عن تصريح بلفور من الناحية العملية والموضوعية ، بل استكمال له ، ولكن صادر هذه المرة ليس من قبل وزير خارجية بريطانيا ، بل من قبل منظر حزب العمل الاسرائيلي سابقا ، تحت ستار انه موجه للشعب الفلسطيني ، مع انه موجه بالفعل لخدمة مجتمع المستوطنين والمهاجرين، فان اليآف لا يكل ولا ييأس من الدعوة له ، مدركا صعوبة الطريق ، ممنيا نفسه ان تحدث معجزة ، اذ يقول : « حقا، ان تصريحا اسرائيليا كهذا اليوم ، أشبه بخطاب من فوق منصة مسرح مضاءة ، امام مشاهدين صامتين يجلسون في الظلام ، ولكن هنالك دلائل أولية ، بانه سيقوم ، وسط الظلمة والصمت ، عرب فلسطينيون شجعان ليقولوا : نحن على استعداد للتحدث معكم ، ونقيم السلام معكم ».

[٤]

كيف ينظر اليآف الى حل النزاع مع مصر وسوريا

وفق المنطق الذي طرحه اليآف لايجاد حل للصراع العربي الاسرائيلي ، واحلال السلام ، وتمشيا مع هذا المنطق الغريب ، يخال للمرء بأن اليآف سيقول لمصر : الان نقع سيناء بأيدينا واننا نمتلك حقوقا تاريخية في الاراضي التي تقع غربي نهر النيل ، باعتبار ان هذه الاراضي هي جزء من خريطة ارض اسرائيل الكبرى التي وعد الله بها نسل اسرائيل واننا مستعدون للتنازل عن تحقيق الحقوق التاريخية لبني اسرائيل على الاراضي الواقعة بين القناة والنيل ، مقابل تقسيم سيناء واحلال السلام بيننا ، كما نفعل مع الفلسطينيين والسوريين . ان هذا التخيل الذي يفرضه منطق اليآف غير وارد عند صاحبنا ، لانه لا ينظر الى مصر من خلال الخريطة التوراتية او خريطة

الاثني عشر سبطا او أية خريطة خرافية أخرى ، بل من خلال منظور آخر ، من خلال فهمه وادراكه بأن مصر هي مركز الثقل في المنطقة سواء في الماضي او الحاضر ، وان ما يحدث فيها سلبا او ايجابا ينعكس بالضرورة على سائر الدول العربية ، ولذا فانه يعفيها من الترهات الخرافية المتمثلة في الحقوق الوهمية، في محاولة منه لتطويقها وتحييدها وعزلها عن العالم العربي .

يعتبر اليآف في كتابه « أرض الغزال » في الفصل « اسرائيل ومصر » ان النزاع مع مصر ينطوي على جانب كبير من الخطورة . يقول في مطلع حديثه: « اذا كانت قضية العرب الفلسطينيين هي القضية الشاقة والمأساوية ، وحلولها هي حلول طويلة الامد في الصراع بيننا وبين العرب فان النزاع والحرب بيننا وبين مصر هي القضية الكبرى من زاوية القوى المتداخلة فيها ، والاخطر على المدى القصير ، وحبلى بالاخطار الفورية على صعيد المنطقة والعالم » . ثم ينتقل للتحدث عن العلاقات التاريخية بين مصر واليهود ، وعن ظهور موسى في مصر ، ومن ثم خروج اليهود من هناك الى سيناء ، حيث وقعت « الحادثة التاريخية » هناك ، وبعد ذلك يمر مرا سريعا على التطورات التي مرت على مصر ، ليصل الى فترة محمد علي، وظهور الحركة الوطنية المصرية ، حتى وقوع ثورة يوليو وبروز عبد الناصر ، « وتوريطه » لمصر ، لتغدو في طليعة الدول العربية المتصدية لاسرائيل، وسقوط سيناء في أيدي القوات الاسرائيلية ...

قصد الكاتب اثناء عرضه ، التركيز على ان سيناء كانت ولا تزال بمثابة « موقع » هجومي او دفاعي ، وعلى ان القضايا الداخلية هي التي تستحوذ على تفكير مصر ، ليخرج بعد ذلك بأن كراهيتها للصهيونية لا تصل بها الى حد الجنون : « حقا ان مصر وقفت على رأس الجامعة العربية ، الا انهم في كراهيتهم للصهيونية لم يكن زعماؤها متطرفين حتى درجة الجنون ، مثل الفلسطينيين والسوريين والعراقيين... » وفيما يتعلق بالقضايا المتعلقة بين مصر واسرائيل فانه يمسخها الى قضيتين اثنتين ، متجاوزا واقع مصر العربي ، القضية الاولى غزة ، والثانية سيناء .

بالنسبة للاولى ، يرى انه لا توجد لمصر في قطاع غزة أية « حقوق » وان « احتلالها » الذي استمر ١٩ عاما لا يمكنها من الادعاء بان لها حقوقا في القطاع ، لان هذه الفترة تعتبر بمثابة « حدث عابر فقط في الصراع الطويل بيننا وبين الفلسطينيين » .

أما أصحاب الحقوق في قطاع غزة فهم « الفلسطينيون واليهود فقط » ويذهب اليآف أبعد من ذلك ، اذ يرى ان الشعب الفلسطيني والشعب المصري شعبين مختلفين وأكثر من ذلك « غريبين ». فهو يرى ان « للعرب الفلسطينيين ولنا فقط حقوقا في قطاع غزة . واذا كان الامر يحتاج الى برهان بأن المصريين والعرب الفلسطينيين هما شعبان مختلفان ، او حتى غريبان عن بعضهما البعض ، فان سني الاحتلال المصري لغزة هي برهان قاطع على ذلك » . ثم يأخذ بكيل التهم على المسلك « الاحتلالي » المصري الذي عبر عن نفسه « في كل شيء » ، ويضرب امثلة على ذلك ، مثل عدم منح الفلسطينيين الجنسية المصرية ! كما ان « المحتلين » لم يعملوا لمصلحة السكان الفلسطينيين بشكل عام واللاجئين بشكل خاص ، بل استخدموا القطاع كورقة ضغط ضد اسرائيل وقاعدة تهديد لها ، ليقرر بعد ذلك « ان أي طلب من جانب مصر للعودة الى القطاع هو بمثابة تهديد لكيان اسرائيل » . ان مستقبل ومصير قطاع غزة ، مسألة تخصنا نحن والعرب الفلسطينيين فقط . أما قضية ان يكون جزء منها او معظمها او كلها، جزءا من دولة عربية فلسطينية ، فهي موضوع للمفاوضات بيننا وبين الزعامة الفلسطينية او الفلسطينية الاردنية ، وفي أية حال سيكون هنالك فصل سياسي **وجغرافي** بين قطاع غزة ومصر » .

بهذا الشكل يجد اليآف حدا للقضية الاولى ، « احتلال » مصر لقطاع غزة لا يمنحها حقوقا تاريخية او راهنة ، والشعبان الفلسطيني والمصري مختلفان وغريبان عن بعضهما البعض ، والحقوق على القطاع يتمتع بها الاسرائيليون والفلسطينيون وفي أية حال سيكون هنالك فصل سياسي وجغرافي بين القطاع ومصر .

ان الهدف من وراء الفصل السياسي واضح ، فهو يسعى وراء الاستفراد بالشعب الفلسطيني من خلال عزل مركز الثقل في المنطقة ، أما قضية الفصل الجغرافي بين مصر والقطاع فهي غير واضحة ، ومناقضة لنظرة اليآف تجاه مستقبل

ومصير سيناء . ذلك ان الفصل الجغرافي في هذه الناحية يتطلب اقتطاع شريط من سيناء عند مشارف رفح ، ومنحه لطرف ثالث للفصل جغرافيا بين القطاع ومصر ، ومع انه لا يفصح عن هوية الطرف الثالث المرشح ليكون عازلا جغرافيا ، فاننا لا نحتاج الى جهد جهيد لمعرفة هذا الطرف الذي لا يمكن ان يكون مصريا او فلسطينيا .

أما القضية الثانية الاساسية في نظر الياف فهي قضية مستقبل ومصير سيناء . وبعد ان يغوص في تاريخ سيناء وعلاقتها بمصر ، يصر على ان هذه الارض الخالية والصحراوية كانت ماضيا وحاضرا فقط بمثابة « موقع » ، وفيما يتعلق بالحقوق التاريخية عليها فانه « من الصعب القول بان شبه جزيرة سيناء كانت « تابعة » في يوم من الايام الى أي شعب » ويرجع سبب ذلك الى ندرة سكانها ومياهها ولكونها ممرا حيويا لشعوب ودول كثيرة . وليس من المعروف اذا كان المنطق الالياڤي ينسحب على صحار اخرى كثيرة في العالم أم يقتصر فقط على سيناء دون الربع الخالي او بادية الشام مثلا .

اذا كان الوضع كذلك فالى أي بلد او أية جهة تتبع سيناء ؟ يعود الكاتب هنا الى قضية الحقوق التاريخية ليعفي اسرائيل من هذا الحق، مع ان الخريطة التوراتية تشمل جميع سيناء والاراضي المصرية الواقعة شرقي النيل ، ويقول بهذا الخصوص : « بيد ان شبه جزيرة سيناء لم تشمل ضمن ميراث الاثني عشر سبطا ، ومن هذه الزاوية ، لا تقع ضمن مجال الحقوق التاريخية القومية للشعب اليهودي . ليس اليها تاق وصلى اليهود في المنفى ، ولم تكن ضمن حدود الاهداف الصهيونية الحديثة . ولو لم يحول المصريون شبه جزيرة سيناء الى قاعدة لهجوم عسكري ضد اسرائيل التي بعثت من جديد ، لم يكن ليخطر على بالنا احتلالها وشملها ضمن حدود مناطقنا » .

ويعود الياف مرة اخرى ويكرر عدم وجود حق تاريخي لاسرائيل في سيناء ، ويقرر بأن مصر تمتلك هذا الحق بفضل سيادتها على سيناء عند مطلع هذا القرن : « لم تدّع الصهيونية ابدا لنفسها حقوقا تاريخية قومية في شبه جزيرة سيناء ، ولسنا ندعي هذه الحقوق اليوم . ان تثبيت شبه جزيرة سيناء كمنطقة خاضعة للسيادة المصرية قد جرى قبل أكثر من ٦٥ عاما . ومنذ ذلك الحين لم يحتج شخص على ذلك . كما انه بالنسبة لمؤسسي المشروع الصهيوني ولنا لم تكن هنالك اية نوايا للاحتجاج على ذلك . لقد كنا على استعداد بأن نرى في الحدود الدولية كحدود ثابتة بيننا وبين مصر ، وان نوقع معها على معاهدة سلام على هذه الحدود في عام ١٩٤٨ وكذلك طيلة سني قيام اسرائيل حتى حرب الايام الستة » .

بعد ذلك يصل الكاتب الى الحل المرفق باشتراطات ، أهمها اذا استثنينا تبادل السفراء واقامة العلاقات التجارية والثقافية والسياسية والرياضية ، سحب مصر يدها من القضية الفلسطينية وابقاء هذه القضية « بيننا » وبين الفلسطينيين ، ويكمن الحل في التصور التالي لالياف : « لو ان وضعا جديدا يطرأ — وهذا الامر يبدو لنا اليوم غير ممكن — تغير فيه مصر ، حكومة وشعبا نظرتها الينا تغييرا جذريا ، حيث يجلسون معنا على مائدة المفاوضات ويعقدون — اتفاق سلام ، لو كانوا يتبادلون معنا السفراء ، لو ان سفننا تمر في القناة ، وتجارنا يجلسون في القاهرة وتجارهم في القدس ، لو ان سواحنا يصعدون على الهرم ، وسواحهم يجوبون مستديرة ديزنجوف، لو كانوا يجرون معنا مباريات في كرة القدم وكرة السلة ، باحثوهم يعلمون في جامعاتنا ، وباحثونا يجلسون في معاهدهم العلمية ، أكثر من ذلك ، لو ، استنادا الى تصريحنا تجاه العرب الفلسطينيين ، يسحبون يدهم ، ويبقون هذه القضية بيننا وبين هؤلاء ، لو ان كل ذلك يحدث فجأة ودفعة واحدة ، حيث تقوم بيننا علاقات سلام حقيقي ، حينئذ علينا ان نعيد شبه جزيرة سيناء الى مصر » . لا يكتفي الياف بهذه الاشتراطات المصاحبة لعودة سيناء الى مصر ، بل يضيف شرطا آخر يتمثل في « تجريدها من السلاح تجريدا كاملا وبضمانات متبادلة من قبلنا ومن قبل المصريين » .

لن نقف على الاشتراطات الاولى لوضوحها التام ، وانما سنقف قليلا حول الاشتراط الاخير في محاولة لاستجلائه .

يدعو الكاتب الى تجريد سيناء تجريدا تاما من « جنودكم وجنودنا » ولضمان ذلك ، يقترح اشرافا مصريا اسرائيليا على سيناء ، ويقول بهذا الخصوص

موجها كلامه الى المصريين مباشرة : « يحتمل ، انه عن طريق المفاوضات بيننا سنصل الى حلول على شكل اشراف متبادل او اشراف مشترك ، او دوريات مختلطة في ارجاء سيناء لو لفترة محدودة على كل ممر حساس في شبه جزيرة سيناء ، ويحتمل ان يصل على مائدة المفاوضات رجالنا ورجالكم الى استنتاج بأنه من أجل تجريد تام للجزيرة ينبغي هدم ، قبل اعادة ، كل معسكر ، وكل مطار ، وكل قاعدة ، أكثر من ذلك ، كل طريق كل جسر ، كل بئر وكل انبوب مياه . ولكن ربما ايضا ، من خلال المفاوضات سيعثر الطرفان على طريق آخر : عدم هدم ما هو قائم بل تحويل شبه الجزيرة بمنشآتها وقاعدتها الجبارة الى شبه جزيرة للسلام ، تكون طرقاتها طرقا جميلة ، وممراتها ممرات سلام ، وربما يقوم خبراء الجانبين باعادة ربط شبكات المواصلات وخطوط السكك الحديدية — الى مصر غربا والى اسرائيل شرقا — وتحويل المطارات الى تشكيل مصري اسرائيلي للطيران المدني ، وكذلك تحويل جميع ارجاء شبه الجزيرة الى قاعدة جبارة للسياحة الدولية حيث ستستقبل مئات الالوف والملايين من السياح والمصطافين في طريقهم الى القاهرة والاسكندرية او للقدس وتل ابيب » .

أي ان سيناء « الموقع » ينتظرها خياران ، الاول تحويلها الى ربع خال جديد ، حيث تهدم فيه الطرق والابار مع اشراف مصري اسرائيلي للحفاظ على حرمة تجريدها من السلاح ، او ان تتحول الى جنة عدن تستقبل السياح والمصطافين من خلال تعاون مصري اسرائيلي . وفي كلا الحالين يرى الياف ان هنالك ضرورة بابقاء مضائق تيران تحت السيطرة الاسرائيلية . يقول بهذا الصدد : « اذا قلنا نحن ، على سبيل المثال ، ان السيطرة على مضائق تيران مسألة حيوية بالنسبة لنا ، فينبغي على المصريين ان يدركوا بأننا لا نتحدث عن شرم الشيخ تلك التي أبقوها لنا ، بل عن شرم الشيخ التي اقمنا فيها ميناء ومطارا جديدين ، وقاعدة عسكرية بحرية ممتازة اشدناها ، والتي ينبغي علينا الحفاظ عليها ليس فقط ضد تهديد مصري ، بل ايضا في وجه اي تهديد من قبل عنصر أجنبي ، عربي او آخر ، سواء كان قائما اليوم او **قد يقوم في المستقبل** ، ويريد خنقنا في مضائق تيران او في البحر الاحمر او في باب المندب . وفي مقابل ذلك ، اذا ما قال المصريون بأن شرم الشيخ هي جزء من سيناء وان جميع سيناء هي جزء من مصر ، فانه من الضروري ايجاد حل يرضي الطرفين ، ويمكن العثور على مثل هذا الحل عن طريق استئجار شرم الشيخ لمدة طويلة او باشكال قانونية كثيرة اخرى » .

نصل هنا الى بيت القصيد او « بيت التناقض » الصارخ في المنطق الاليآفي ، فهو من ناحية يعترف بالسيادة المصرية على جميع ارجاء سيناء ، مشفعا ذلك بشرط تجريدها تجريدا تاما ومطلقا من السلاح مع اشراف مصري واسرائيلي للحفاظ على حرمة « التجريد المطلق » ، ومن ناحية اخرى يدعو الى احتفاظ اسرائيل بشرم الشيخ ضد أي تهديد موجه لاسرائيل سواء كان قائما في الوقت الحاضر او « قد يقوم في المستقبل » (هذه الجملة الاخيرة تعني ان منطقة شرم الشيخ ستبقى تحت السيطرة الاسرائيلية الى أبد الابدين) مع وجود ميناء ومطار وقاعدة بحرية ممتازة . والسؤال الذي يطرح نفسه ، الا يعتبر التواجد العسكري في شرم الشيخ والقاعدة البحرية الممتازة عملا مناقضا لدعوة اليآف بتجريد سيناء تجريدا مطلقا وتاما ؟ ولنفترض جدلا بأن العلاقات السلامية حدثت بين مصر واسرائيل كما يتخيلها اليآف ، فهل وجود مطار عسكري وقاعدة بحرية اسرائيلية في شرم الشيخ موجهان ضد الدول العربية الاخرى ، او لحماية اسرائيل من تلك الدول لا يعتبر بمثابة عمل ماس بالسيادة المصرية ؟ والاهم من ذلك كله ، هل يمكن لمصر ، وهي صاحبة السيادة على سيناء ان تبني مطارا عسكريا او قاعدة بحرية عسكرية في سيناء او هل يحق لها ان « تستأجر » من ذاتها قطعة ارض خاضعة لسيادتها لتشيد عليها قاعدة بحرية ، ولنقل ليس ضد اسرائيل ، بل ضد عدو « قد يقوم في المستقبل » ؟

لم تحدث الحرب الاخيرة تغييرا على موقف اليآف تجاه الحل مع مصر ، فقد ذكر في مقالة له نشرت في معاريف ٧٣/١١/٩ : « بهامة منتصبة وباعتزاز ودون التزحزح عن شبر واحد ، علينا ان نقول للشعب المصري العظيم ، اننا سنعيد اليه سيادته على مراحل وبعد مفاوضات ... وبعد التجريد التام لشبه الجزيرة وتحت مراقبة مصرية اسرائيلية مشتركة ، ومع وجودنا في المضائق ، هذه المراقبة

تزيل من قلوبنا تدريجيا الشكوك الرهيبة التي ازدادت بعد حرب يوم الغفران » .

في ختام تقريرنا لعرض آراء اليآف تجاه الحل مع مصر لا بد من الاشارة ثانية الى انه يحاول في حله ــ سيادة مصرية اسمية على سيناء وسيطرة اسرائيلية على بعض اجزائها ــ تطويق وعزل مصر ، كمركز ثقل عن العالم العربي ، ويدعوها الى التخلص من « عقدة » صلاح الدين وبيبرس ، والانكباب على قضاياها الداخلية ، وعدم التخوف من التوسع الاسرائيلي ، وعدم التدخل في القضية الفلسطينية « علينا ان نقول لهم بشكل واضح اننا لا نسعى للتوسع في سيناء ، لاننا لا نريد الاحتفاظ بها الى الابد ، وكذلك لانها بالنسبة لنا ليست المكان الذي نحل فيه مشاكل ملايين مهاجرينا ، اننا نطلب من المصريين ان يتفهمونا ويدرسوا ماضينا ، ومصيرنا ، وخاصيتنا وأهدافنا . وان يثقوا بأننا لسنا فقط لا نريد «التوسع على حسابهم» بل ان قضية العرب الفلسطينيين هي قضيتنا أكثر مما هي قضيتهم ، واننا سنجد لها حلا غير اعتيادي ، في الوقت الذي يظهر فيه شركاء لنا من بين صفوفهم » .

باختصار ، انه يريد ويسعى الى عزل وتحييد مركز الثقل ، ويدفعه في ذلك عقدة او هاجس صلاح الدين وبيبرس ، ليستفرد بالفلسطينيين والسوريين .

اربه اليآف والحل مع سوريا

يبدو ان اليآف عندما كتب الفصل الخاص بسوريا (السوريون الذين يواجهوننا مصدر التحرش والتحريض) كان غاضبا او ان مجرد ذكر كلمة سوريا تثير لديه الغضب لدرجة يصبح معها بعيدا جدا عن الموضوعية ، فالشعب السوري في نظره « خليط من هذا البشر الذي يسمى الشعب السوري » ومع ذلك فان غضبه لا يؤثر على الحل الذي يقترحه والمنسجم مع نفسه تماما .

يقول اليآف فيبداية حديثه عن الصراع مع سوريا: اذا كانت قضية العرب الفلسطينيين هي الاصعب ، وقضية مصر هي الاعظم والاخطر ، فانه يمكن القول ان قضية علاقاتنا مع سوريا هي التي تثير الغضب الاكبر . ليس لان السوريين يغضبوننا أكثر من العرب الاخرين ، بل لانهم يغضبون ايضا الشعوب العربية المتورطة معنا في النزاع الدامي ، يغضبون العرب الفلسطينيين والمصريين واللبنانيين ، فمنذ بداية النزاع والسوريون بؤرة لاتصى التحرش والتحريض ضدنا ، واذا ما كانت الدول العربية تمر في سياق عدم الهدوء المستمر على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، فان سوريا هي النموذج الواضح في هذا المجال » .

ربما يكون الكاتب واضحا في منطقه الذي يعيد غضبه وغضب الاسرائيليين من سوريا لكونها تشكل « بؤرة لاتصى التحرش والتحريض ضدنا » الا ان الامر الضبابي ــ كضبابية ارض اسرائيل ــ هو كيف يغضب السوريون الشعوب العربية ، الفلسطينيين والمصريين واللبنانيين ؟

ثم ينتقل المنظر السابق لحزب العمل الى أسباب « عدم الهدوء » في سوريا ويعيده الى العوامل التاريخية الخاصة بها ، فهو يرى ان سوريا قد تعرضت مرات عدة لغزوات من قبل شعوب مختلفة ، وأبقت هذه الشعوب فيها « نسلها ونفوذها » ليقول بعد ذلك وكأنه يتحدث عن بلد لم يسمع به انسان ، انها « تتشكل من قبائل وشعوب كثيرة تحركها روح الكراهية والعداء ، تتنافس فيما بينها على السيادة والسلطة » كما وانها في الوقت نفسه « تعتبر بؤرة ومهد حركة القومية العربية المتطرفة جدا . . . » ويرى بأن الهوة بين « الخليط البشري » الذي تسيره روح الكراهية والعداء والتنافس ، ومطامح حركة القومية العربية واسعة . ليقرر بعد ذلك أحد الاسباب التي تدفع السوريين لـ « التحرش والتحريض » : « من هنا ندرك بحثهم الدائم عن عدو خارجي يمكن ان يكون بمثابة كبش المحرقة لغضبهم واحباطهم الداخلي ، وفي نفس الوقت بمثابة عامل موحد ومكتل لهذا الخليط البشري الذي يسمى بالشعب السوري » .

وتجدر الملاحظة هنا ان اليآف الذي بذل قصارى جهده في الدفاع عن قضية تسمية الامور بأسمائها ، وانتقد اكثر من مرة اولئك الاسرائيليين الذين يصفون العرب بأنهم « خليط من . . . » لم يلزم نفسه بهذا النقد ، فعندما يتحدث عن الشعب السوري يتحاشى تماما ذكر كلمة شعب ويكتفي بكلمة « السوريين » ، ومن هنا فان السؤال المطروح ، هل الشعب السوري موجود او نصفه موجود ؟

ثم يتطرق الكاتب الى الكراهية المتأصلة بين صفوف السوريين تجاه الحركة الصهيونية ، وبعد ان يتحدث بشكل سريع عن فترة الانتداب الفرنسي، ينتقل الى فترة الاستقلال مركزا حديثه عن « التحرشات » السورية من خلال هضبة الجولان ، ليصل الى سقوط الهضبة بأيدي الجيش الاسرائيلي ، تلك الهضبة التي « أغضبت » الاسرائيليين كثيرا والتي لا يهتم السوريون باعادتها بل يسعون الى « القاء العصابات الصهيونية في البحر » انهم غير معنيين ابدا باعادة هضبة الجولان ، ولم يقولوا ابدا انه اذا ما أعيدت الهضبة « سيقيمون سلاما » مع اسرائيل ، فبالنسبة لهم لا زالت الصيغة القديمة قائمة ... ان اسرائيل غير قائمة ، فقط هنالك عصابات صهيونية وينبغي القاؤها في البحر » .

ولذا فان الحل الذي يقترحه اليآف لازالة اثار « الغضب » واحلال السلام مع سوريا ينبع من مصدرين، الاول أخف وطأة: «الامن الاستراتيجي»، ولا يتحدث حوله كثيرا ، والمصدر الثاني : خريطة ارض اسرائيل — خريطة الاثني عشر سبطا ! وفي هذا المجال يتوجه للسوريين كما توجه للفلسطينيين من قبل : « من الناحية الثانية علينا ان نقول للسوريين ، ان حكم الجولان بالنسبة للحقوق التاريخية ، كحكم ميراث الاثني عشر سبطا ، نحن وكذلك السوريون نمتلك حقوقا كاملة على هضبة الجولان . لقد كنا على استعداد للتنازل عن تحقيق هذه الحقوق ، ولم نتحدث عنها البتة طيلة السنون حتى حرب الايام الستة ، ولكن الان يجب علينا ان ننظر الى هضبة الجولان كـ« رقعة » وان نفكر عن حل تقسيم يضمن لنا سيطرة عسكرية في الحصون على الجبل من ناحية ، ويزيل تخوفات السوريين الكبيرة الناجمة عن مرابطتنا مقابل دمشق من ناحية اخرى . هذا الحل ينبغي ان يمكننا من الاحتفاظ بقبضة استيطانية على الجبل ، ويمكن السوريين من اعادة لاجئيهم — ليسوا كثيرين — او قسما منهم الى الهضبة ، وسيكون هنالك مكان لهم من خلال الاستيطان الحديث ».

اما فيما يتعلق بالمستوطنات الاسرائيلية القائمة فحكمها ومصيرها ايضا كحكم ومصير المستوطنات الاسرائيلية الواقعة في الاراضي الفلسطينية ، ولا يمكن ان يكون غير ذلك وفق المنطق الاليآفي ، لان هذه المستوطنات جميعا سواء الواقعة في الضفة او القطاع او هضبة الجولان انما تقع ضمن خريطة الاثني عشر سبطا ، ولذا فان « مصير المستوطنات اليهودية في الهضبة سيكون في المستقبل كمصير المستوطنات اليهودية في مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة ، قسم منها سيكون ، عقب السلام ، داخل حدود دولة اسرائيل ، وقسم سيكون ، مهما بدا هذا الامر خياليا اليوم ، داخل سوريا التي تعيش بسلام مع دولة اسرائيل » .

وكما ان حرب اوكتوبر لم تحدث تغيرا او تبدلا في نظرة اليآف تجاه الحلول المستقبلية مع الفلسطينيين والمصريين ، فانها لم تخدش نظرته ايضا تجاه الحل المستقبلي مع سوريا . ففي مقالة له في صحيفة معاريف ١٩٧٣/١١/٩ يرى الكاتب انه «يجب علينا ان نتوجه للسوريين ونقترح عليهم تقسيم الجولان ، وتوطين لاجئيه ، وبعد مفاوضات على مراحل ، يجري تجريد المنطقة وخلق مراقبة متبادلة تجاه المناطق التي تعاد » .

*

هذه باختصار خريطة الفكر الاليآفي ، مستمدة من خريطة او مجموعة خرائط وهمية خرافية ، تسعى وتهدف لخلق خريطة امبريالية اسرائيلية في قلب الوطن العربي ، نتركها للقارىء والتاريخ ليحكما عليها .

ثقافة

ماذا تقول الكلمات ؟

ماذا تقول الكلمات ؟

حين يسقط الجسد على الارض ، ويستقر الرصاص في الفم . ماذا تستطيع الكلمات ان تفعل؟

حين يتحول سلاح النقد الى نقد السلاح ، تتراجع الكلمات لتتحول الى رصاص يبحث عن فاعليته ، خارجا من بحار الدماء التي تنزف داخل جسد التمرد والثورة .

ماذا تقول الكلمات ؟

على أطراف القافلة الفلسطينية التي علمتنا ان الكلمة جسد يخرج منه الرصاص . تتجمع الكلمات لتشهد ان الكلمة سلاح . وان نقد السلاح هو الجزء المتمم لسلاح الكلمات . وان الثقافة فاعلية نضالية ، تخترق حجاب الموت الى الموت نفسه . فكمال ناصر ورفاقه الذين سقطوا وعلى جسدهم يختلط الحبر بالدم ، رسموا للثقافة العربية مجدا نقف أمامه لنتمثل دروسه .

ماذا تقول الكلمات ؟

حين يصبح الادب شكلا من أشكال الموت. صليبا على مدرجات الرصاص نحمل الكلمات ونخترق المدرجات ، وصولا الى شكل الموت . هنا الفعل لا ترتب الفعل . هنا الموت في معلقة ثورية للفرح . هنا يتراجع كل شيء ، ويقف الجسد الملطخ بالحطم الدموي وحده . ويصبح للكتابة مذاق الارض نفسها ، ويلون الفم جميع الاوراق ، حيث تستقر الاقلام في البنادق .

---

* كمال ناصر : **الآثار الشعرية** . أعدها وقدم لها د. احسان عباس .
كمال ناصر : **الآثار النثرية** . أعدها وقدم لها ناجي علوش .
المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . الطبعة الاولى آذار ـــ نيسان ١٩٧٤ .

عندما نقف أمام ذكرى كمال ناصر ورفاقه ، لا نتساءل عن الموت ، بل عن شكل الفجيعة التي جبلت الجسد بالاوراق واخرجت زمنا جديدا يصل الارض بأجساد الرجال . لذلك حين نقرأ كلمات كمال ناصر نكتشف ان الموت لا يسمح للكتابة بالتعامل مع النصوص كما تتعامل مع الشعر عادة. بل تصبح الكتابة لحظة تأمل للجسد الذي تتناثر عليه الابجدية في مئة احتمال لشكل القصيدة . لا نستطيع ان نتعامل مع كمال ناصر بوصفه شاعرا او كاتبا . انه جسد يؤشر للاحتمالات جميعا ، ويرسم بين لحظة واخرى صرخة نسميها شعرا او ذكريات ، لكنها صرخة لا تكتشف شكل الشعر ، بل تبحث عن شكل الموت . هكذا نصطدم حين نكتب عن آثار كمال ناصر باستحالة اي شكل من اشكال النقد . فلقد ترك القصيدة امكانية وذهب يبحث عن الثورة . تاركا لجسده حرية الصليب .

نفتح الكتابين ونقرأ . تخرج القضية عارية ، ونسمع صراخ الحقد الذي ينفجر :

« أما يعود اللاجئون او ان يموت اللاجئون »

ونستمع الى الجراح وهي تغني ، تكتشف كيف يصبح الموت بابا للوصول الى الارض ، وكيف تمشي قافلة الشهداء نحو الثمار :

« وقل لوحيدي ، اذا زار قبري
وحن لذكري
بأني سأرجع يوما اليه
لاجني الثمر !! »

وعندما يخفت الصوت في مخاطبة حميمية مع الام ، فان المعركة وحدها هي الافق . هي المصير وقد تجمع في زمن اللحظة الواحدة . لذلك يسكت صوت الحنين ويرتفع صوت التحدي :

« صلبت مصيري هناك
هناك بين الشعاب
والمحه باسما هازجا

يرفرف بين الحراب
مصيري مصيرك بين الحراب
وهذا الذهاب !! »

اذا كان شعر كمال ناصر يتمحور حول الوطن ، فان لهذا التمحور عذابات لحظات الفشل والعزلة . تلك اللحظات التي يستجمع فيها المناضل كل الحنين الى النضال ، طعم المرارة الذي يمتزج فيه صوت العزلة ، بالصبر والالم . هنا يتخلى كمال ناصر عن الكلمة — الصدى ليبحث عن الكلمة الحميمة التي تصل الحزن بالانتظار :

« يا من رأى مظلتي تضيع
تهجرني في موسم البكاء والدموع
تهجرني ،
ومقلة السماء لم تزل
تجتاحني ،
تغمرني ،
بالماء والصقيع » .

يشير د. احسان عباس في مقدمته الى أزمتين كبيرتين تعصفان بهذا الشعر . « أزمة الخضرمة »، و« أزمة الموضوع الكبير » . والواقع ان التعامل النقدي مع هذا الشعر مستحيل ، لاننا نكتشف ان كمال ناصر لم يكن يهتم للانصراف الى العمل الشعري ، لصقل صوته الشعري والاهتمام به . لذلك جاءت قصائده لحظات استراحة تتحلق حول اولوية الممارسة ، فهي شهادة على الجسد الذي ينزف حبا ودما .

في احدى افتتاحيات « فلسطين الثورة » يكتب كمال ناصر مقالا بعنوان « على طريق الشهادة » بعد استشهاد غسان كنفاني « عبرة جديدة يجب ان يعمقها استشهاد غسان في نفوسنا ، وهي ان لا ننتظر الموت والاستشهاد احيانا . بل نمشي اليه ، يجب أن نمشي اليه في كل مكان قبل فوات الاوان وحتى لا نعطش كما عطشنا في أيلول ، وتشرين ، وكانوا على مدار الاعوام نحن ومعنا كل الشرفاء والثوار في العالم ... »

هكذا كانت افتتاحيات فلسطين الثورة . محاولة من موقع المسؤولية الثورية للتشديد على ضرورات العمل الفلسطيني الاولية . الوحدة الوطنية ، ضرورة استمرار الثورة . اكتشاف عبر النضال الثورية لا سيما في فياتنام . وبروحية مسؤولية الكلمة تحولت « فلسطين الثورة » التي كان كمال ناصر يرئس تحريرها الى أداة حقيقية من أدوات النضال .

في القسم الاخير من الآثار النثرية ، نقرأ مجموعة من الصفحات بعنوان « على صدوركم باقون . مذكرات اسير فلسطيني في السجن الكبير » . نتعرف على الشق الآخر من « سداسية الايام الستة » التي كتبها اميل حبيبي ليؤرخ بشكل فني مذهل للاحتلال ، من قبل عرب المناطق المحتلة ١٩٤٨ . هنا ، مع مذكرات كمال ناصر نكتشف القسم الثاني ، الطرف الآخر ، وقع الهزيمة على أهل الضفة الغربية ، والبدايات الصعبة للمقاومة الجماهيرية والمسلحة. نقرأ عن اللقاء بمدن فلسطين وقراها . تلك الرعشة الوطنية التي خلقها الاحتلال في سكان المناطق المحتلة بعد الهزيمة . ونكتشف مع كمال ناصر التجارب النضالية المريرة التي عاشها العرب في اسرائيل ، وعن الروح القومية العالية التي لا تلين ولا تستسلم . الحوار الوحيد الممكن كان ذلك الحوار الذي أجراه كمال ناصر بوصفه معلما في الضفة مع موشي دايان . عندما بدأ دايان جولاته الارهابية المبطنة في المناطق المحتلة . هنا نكتشف ان الحوار كان مقدمة القتال الذي لا بد منه . فالحوار مستحيل كما في قصص كنفاني ، لان القتال وحده والمقاومة الجماهيرية المسلحة هو الذي سيسحق العدو . في السجن الكبير ، نكتشف مع تجربة كمال ناصر شباب الثورة العربية وهو يولد من جديد ، في اصرار الشعب الفلسطيني على رفض الذل والانسحاق . هكذا وببساطة كاملة تصبح الكلمات مجرد اشارات للايصال ، والتركيب يمزج بين الطابع الصحفي السريع وطابع الذكريات الحميمة ، لنتعرف على آلام الولادة الاولى بشكل واضح وبسيط . يخرج الينا البطل الفلسطيني وهو يمسك بالسخرية حين لم يكن هناك بندقية ويجلس على شاطىء حيفا ، ثم حين يلتقي بالنصف الاخر من جسده الممزق ، تعود اليه الحياة مبشرة بالقتال الذي يعيد صنع الانسان من جديد .

في « مذكرات اسير فلسطيني » ، نكتشف لماذا طرد كمال ناصر من الارض المحتلة . ولماذا اطلقت الرصاصات في فمه . ونكتشف ان الشعب يستطيع كل يوم ان يجدد شبابه ، لان الثورة قادرة على خلق مسار خاص وجدلية ثورية خاصة .

لم نكتب نقدا ادبيا لآثار كمال ناصر . فالصرخة الحادة لا تبحث لنفسها عن اطر تصب فيها . تخرج هكذا ، عندما تكون الحنجرة مهددة بالانفجار او الاختناق . فيخرج الصراخ عاليا ليؤلف التزاما ثوريا وتوترا قادرا على التمرد .

يرتفع صوت الشهيد فينا ، فنحمل الرسالة ، تصنع الاجساد التي سقطت على الارض ، شكل الرؤيا المستقبلية . فالشعر هنا ، يصبح رسالة مباشرة ، وتتحول الكتابة الى التزام من موقع المسؤولية الجماهيرية المباشرة . فكمال ناصر رسم بكلماته اطار الالتزام ، ثم جاء دمه وجسده ، ليعطي لهذا الاطار حجم الموت .

« يصبح ملء دربنا

يصبح ملء شعبنا

يصبح ملء حشدنا

رسالة الشهيد ... ان ينتصر الشهيد » .

عندما سقط القادة الثلاثة في شوارع بيروت ، كانوا يحملون في دمهم بذرة التجدد . كتبوا بحناجر عشرات آلاف الذين خرجوا لوداعهم قصة الاستمرار والصمود . فهم جزء من قافلة طويلة من الاجساد التي تلتف على الارض وتعيد اليها حرارة العشب وارتعاشة اللقاء . فالقافلة التي تصدرها القادة الثلاثة ورفاقهم تستمر في العطاء وتنتشر لتشمل الارض العربية بأسرها . هنا تتجدد الثقافة فيما يتجدد كل شيء. فرغم كل المحن ، والمصاعب ، يرتفع الصوت العربي ليرسم من داخل الاطار الدموي لوحة الاستمرار والتخطي .

صيادون في شارع ضيق

قبل ان يجتمع ابطال جبرا ابرهيم جبرا في « السفينة » ويشهدوا بشكل تراجيدي لنهاية حلم التطور التحديثي الذي حملته شرائح من المثقفين والبرجوازيين . كان صوته يبحث في شارع ضيق من شوارع بغداد عن تفسخ الطبقة الاقطاعية وضرورة خروجها من المسرح بشكل عاجل . لذلك اختار المؤلف لروايته اطارا محددا بغداد بعد هزيمة ١٩٤٨ . ورسم الدائرة التي تتحرك داخلها احداث روايته ... شبكة معقدة من الشخصيات تنتمي في غالبيتها الى نفس الطبقة الاجتماعية — الاقطاع — أو زعماء العشائر . وجعل صيغة المفرد التي تجري على لسان البطل ، تغلف الرواية بأسرها ، وتروي الاحداث من منظورها الشخصي. وترك الطبقة الاقطاعية تتفتت من داخلها ، جاعلا من بطله جميل الفران — الفلسطيني المثقف الذي درس في انجلترة وعاد الى وطنه ليجده حطاما وعائلته تحولت الى جزء من جيش اللاجئين — شاهدا من الداخل والخارج على هذه العملية المعقدة . فهو في الخارج ، لانه لا ينتمي الى الآلية الخاصة التي تفتت هذه الطبقة وتجعلها تنهار . وهو في الداخل ، لانه يلعب دور المسرع الثقافي لهذه العملية . ويتحكم كذلك بالتقاط المشاهد التي تعرض أمامنا ، في لوحة بالغة الغنى والدلالات ، من لوحات ادبنا العربي الحديث .

١ — صيغة المفرد والاسقاط الثقافي :

الصيغة الوحيدة التي يستعملها الكاتب في سياق روايته هي صيغة المتكلم المفرد . فتجري الرواية بأسرها على لسان البطل ، رغم ما يتخللها من الحوارات التي تحل هنا محل شريط الذكريات او التأملات الذاتية . رغم ان هذا الشريط لا يغيب بشكل كامل من سياق الرواية ، فيأتي بشكل سريع ، ليشير الى لحظة لا بد من استرجاعها ، حتى تكتمل دلالات الموقف الدرامي الذي يقودنا اليه الكاتب . ولا يشذ عن هذه القاعدة العامة سوى في لحظتين . **الاولى** حين يستلم جميل الفران رسالة من حبيبته سلافه ، حيث نقرأ الرسالة عبر المؤلف . **والثانية** حين نتوقف لقراءة مذكرات عدنان

* جبرا ابراهيم جبرا ، **صيادون في شارع ضيق**، ترجمة محمد عصفور ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى كانون الثاني ١٩٧٤ .

طالب، الشاعر قبل وبعد أن يقتل عماد النفوري والد سلافة ورمز الاقطاع في الرواية، ان هـذا التشديد على الصيغة الواحدة في الرواية بأسرها يحمل في الواقع معنيين :

أ — ضرورة جعل العامل الثقافي — السياسي المتمثل بجميل الفران جزءا من العمل الروائي ، مع احتفاظه بالقدرة على الحركة وعلى حمل وجهة نظر الكاتب نفسه في أغلب الاحيان .

ب — افساح المجال امام الشخصيات الاخرى بالتعبير عن نفسها بواسطة الحوار ، الذي يصل الى حدود الكشف عن نوازع الشخصيات الرئيسية في الرواية ، ويحل دائما مكان الحدث الخارجي الذي يجري على اطـراف علاقة جميـل الفران بالعائلة الاقطاعية التي نشهد تفسخها وانهيارها في نهاية الرواية .

ضمن هاتين الوجهتين يتحرك عاملان اساسيان من عوامل التغيير الذي يصنع المجتمع العراقي في اعقاب هزيمة ١٩٤٨ .

العامل الاول هو **فلسطين** ، بكل ما تمثله من وقع الهزيمة علـى مجتمع لم يتخلص بعد مـن السيطرة الاستعمارية . فلسطين حاضرة هنا في ذكرياتها ، ودلالاتها على استحالة المصالحة مع الغرب الامبريالي « لقد سرقوا مسيحنا ورفسونا في اسناننا » كما يقول جميـل الفران للكاهن . وتتحول فلسطين الى رمز للهزيمة العربية الشاملة. هنا لا يأخذ هذا الرمز مدلولا سياسيا فقط ، بل يتحول الى رمز اجتماعي . ضرورة التخلص من العادات والتقاليـد التي تمنـع مسيرة التقـدم الاجتماعية . لذلك تأتي ليلى — خطيبة جميل في فلسطين — من بين انقـاض بيتها الذي هدمـه الصهاينة ، تخرج من قبرهـا لتتحول الى رمـز اجتماعي كامل : « تلك الليلة حلمت انني رأيت ليلى مرتدية عباءة سوداء كبنـات بغداد ، كنت اتعارك معها يائسا طوال الليل . حاولت ان انزع عباءتها ، ولكنها رفضت ان تنتزع . حاولت المرة تلو المرة الا ان الثوب الاسود تشبث بجسدها بعناد . فضحكت . ضحكت كما كان من دأبها دائما ان تضحك قبل ان يضع لغم الديناميت اليهودي حدا لضحكها وضحكي » . يتحرك هذا العامل في خلفية الرواية ، بوصفه رمزا صارخا على ضرورة التغيير . لكن جبرا ، لا يقحمه في كل شيء ، بل يترك الاحداث تتراكم لتؤدي بنفسها الى العودة الى هذا العامل .

العامل الثاني هو **الثقافة** . الثقافة هنا بمعناها الغربي الحديث . لكنها تتحول الى صيغة العلاقات الاجتماعية . فقدرة جميل الفران على ترك حياة النزوح مرهونة بكونه درس دراسـة عالية في انكلترة . وسيصبح استاذا في احدى كليات بغداد، وعلاقاته الاجتماعية في بغداد تتوزع في اتجاهين : اتجاه اساسي يتمثل في العلاقة مع سلمى الريبفي وعالمها الذي سمح له بالوصول الى سلافة بصفته استادا يعطيها دروسا خصوصية. هنا تبدأ العلاقة بالانعكاس الاجتماعي للثقافة ، سلمى مثقفة ، وسلافة تدرس الانكليزية . هذا الانعكاس هو الذي يلعب دور المفجر الرئيسي للعلاقات الاجتماعية . فالمثال الثقافي العقلانـي يفسخ العلاقات داخل الطبقة الاقطاعية ويؤشر الى انهيارها . كما انه يشير الى امكانية اخـرى للنظر الى العلاقـات الاجتماعية ، وللتعامل مع الزمن . ففي الحوار الذي يجريه جميل الفران مع توفيق نجل احد زعماء العشائر نكتشف الاصرار على التعامل مع الزمن بوصفه تحركا سريعا . والرفض القاطع لمفهـوم الزمن السكوني البدائي . واتجاه ثانوي ، يمثل العلاقات التي يقيمها جميل الفران مع شلة مـن المثقفين في بغداد . هنا نكتشف ضرورة التغيير من خلال التخبط امام اكتشاف طرق هذا التغيير . وهنا يأتي المثال الثقافي العقلاني ليتحد مع ضرورة اجتماعية ملحة ، يمثلها تحرك الطلاب ، ومحاولة المثقفين الاندماج بالحركـة الاجتماعية بطـرائق وأساليب مختلفة . وحين نصل الى حرقة الفشل ويكتشف المثقف الانتحار فانه يرتد الى الاقطاعي ليقتله عوض ان يستسلم .

يتوحد هذان العاملان بشكل رمزي في شخصية جميل الفران . فهو الممثل الشرعي الوحيد للهزيمة بوجهها الايجابي . وهو المثقف الغربي الوحيد الذي يجمع احتراف العمل الثقافي بتمثل كامل للثقافة الغربية . لذلك يتزايد دوره كلما توغلت الاحداث في الوصول الى لحظة الانفجار الاجتماعي . فهو حين يصبح الملجأ الوحيد لسلافة بعدمـا رفضت مشروع تزويجها بالقوة وتمردت عليه يتساءل « ما هي علاقاتي بهذه الميلودراما المؤلمة » لكن هذا التساؤل نفسه يقوده الى مزيد من الالتزام بمصير

ابطاله حتى يتوحد هذا المصير بمصير الرسالة التي يحملونها جميعا ، وتتقدم الحركة لتصل الى الرفض الكامل لقيم المجتمع القديم والاصرار على بناء قيم اجتماعية جديدة .

هنا يصبح لصيغة المتكلم المفرد مبررها الحقيقي، لانها تسمح لهذين العاملين (فلسطين والثقافة) بالتوحد ، داخل مسار انفجاري يلعب فيه الوعي (الثقافي) الدور الاساسي المحرك. فالتناقض داخل الطبقة السائدة لا يأتي كانعكاس لصراع طبقي حاد في المجتمع ، بل هو انعكاس للتفاوت بين مستوى تطور الوعي (الثقافة) ومستوى التطور الاجتماعي. ومن داخل هذا التفاوت يحدث الانفجار . أي ان الحركة المركزية في الرواية تفترض الجانب التغييري وحده في الثقافة الحديثة ، وتفترض بالتالي ان هذا الجانب يتناقض بشكل حاد مع العلاقات الاقطاعية. لذلك تستخلص دروس فلسطين بضرورة تحديث المجتمع .

٢ — الثوابت وعجلة الحركة :

تضع الرواية على أطرافها ثوابتا تجعل للحركة ايقاع التطور المتوازن . فالحركة الاجتماعية ، التي تتطور في الرواية ، تتوقف عند ثوابت محددة، لتأخذ منها توازنا فنيا يسمح لها بالمتابعة . الثابت الاساسي هنا هو فلسطين . لا تلعب القضية الفلسطينية دورها في الرواية بوصفها الخلفية التي تحدد حجم الحركة فقط . بل يستعين بها المؤلف ، ليسمح لنفسية بطله بالتطور في اتجاه واحد ، نحو الاندماج بالحركة الاجتماعية . لذلك تأتي ليلى خطيبته القتيلة لترمي بظلها على تطور علاقته الجديدة بسلافة « كنت لا ازال أسمع من بعيد التنهدات الطويلة من خلف الباب المغلق، وانتشرت أصابع ليلى الصفراء كالحاجز أمام عيني » . لكن هذه الاصابع لا تلبث ان تكسب حيوية ولونا لانها تتوحد بجسد سلافة ، وتصبح فلسطين اطار التغيير ومحركه الرئيسي في آن . هذه اللازمة التي تتكرر في سياق الرواية تصل في النهاية الى اندماج البطل الكامل في عملية تغيير اجتماعية معقدة ويخفت صوتها تدريجيا حتى لا تعود متميزة في خاتمة الرواية . كما تلعب أصوات باعة اليانصيب دور ثابت سماعي ، يسمح للفواصل بين حركات الرواية بضبط هذه الحركة من جهة وتطبيعها الى أصوات متعددة مؤتلفة داخل موقف واحد . فالثوابت هنا لا تمنع عجلة الحركة ، بل تؤكدها ، لانها تعطيها شكلا تطوريا لا ينحل بالتوازن الدقيق المفترض في عمل روائي واقعي . بل هو يشحن هذه الواقعية بأفق الاستمرار من داخل الصيرورة . من هنا تصبح الحركة واقعية تتطور بتطور المواقف نفسها ، وتأتي الاحداث لتشكل من ضمن تطور الحوادث نفسها ، انعطافات تصل الى حدود الانعطافات المفاجئة ، (كما في نهاية الرواية عندما تهرب سلافة من منزل والديها الى بيت جميل) . لكن القدرة على ربط هذه الانعطافات بثوابت محددة ، تحفظ للعمل الروائي وحدته التطورية بشكل عام ، بل وتجعل من هذه الانعطافات نقاط تلاق بالتجربة الاساسية التي تحرك العمل الروائي بأسره . فانهيار القيم الاجتماعية ، وتداعي العلاقات الانسانية يسمحان لنقاط التوازن (ذكريات فلسطين ورسالة شقيق جميل عن وضع النازحين وأصوات الباعة) بشد مفاصل الرواية الى اطار اوسع وأكثر شمولا . اطار المعركة العامة مع العدو .

٣ — حول مفهوم التغيير :

اذا كان القانون الاساسي الذي يحدد تطور الرواية (قانون التفاوت بين التطور الثقافي والواقع الاجتماعي) صحيحا ، فان مفهوم التغيير يرتبط هنا بسد فجوة التفاوت هذه عبر ثورة اجتماعية كاملة . لذلك يلعب المثقفون هنا هذا الدور الكبير ويجري اهمال أي اطار صراعي آخر . فحين يصف جميل الفران مظاهرات الطلبة والشعب ، فانه يبقى اولا خارج هذه المظاهرات ، ويتعامل معها بالتالي بوصفها احداثا خارجية . فيصفها وصفا خارجيا مئة بالمئة مهملا كل الآلية النفسية الفردية والجماعية التي تتحكم بالمظاهرات الصدامية . ولذلك ايضا يأتي مفهوم التغيير في درجتين ، النقد، ومحاولة ردم الهوة .

أ — **النقد** : يأخذ النقد شكل رفض القيم الثابتة التي لم تعد تجاوب على متطلبات الحياة الحديثة . « قال عدنان مفسرا : نحن نعيش في المدن ولكننا نتبع شريعة الصحراء . والتقاليد القبلية الشريرة تمسك بتلابيبنا . سمعت ما قاله البدوي » . هكذا يبدأ النقد من العادات الاجتماعية ليصل الى المستوى السياسي . فالنضال يفترض العقلانية والتكنولوجيا « قلت هذا لا يقنعني .

اعتمدنا دائما على الرعاع بدون فائدة . وهذا هو سبب فقدنا للجزء الافضل من فلسطين. ان البندقية الواحدة في اليد المدربة ، لافضل من ألف رجل يصرخون بالشعارات فيالشوارع » . هكذا يأخذ النقد شكلا شاملا . فهو دعوة كلية لتبني القيم البرجوازية . لا بد من تحديث المجتمع وفرض نتائج هذا التحديث على المستوى الاجتماعي . لكن هذا النقد الذي لا ينظر الى اولوية التفاوت ، لا يتنبه الى المزالق التي يقع فيها . فهي مزالق الديمقراطية البرجوازية التي تصل الى نقطة تجد فيها نفسها موحدة مع الاقطاعية التي ثارت عليها أو تقف في نفس المواقع الفكرية . فجميل الفران ، الثوري ، يستعمل نفس التعبير — الرعاع — الذي يستعمله عماد النفوري — الاقطاعي — في تبرير عدم ارساله لابنته الى الجامعة . « لن اجعل الناس يقولون ان ابنتي قد ذهبت للمدرسة مع حشد من الرعاع » .

ب — **الممارسة ومحاولة ردم الهوة** : تأخذ عملية ردم الهوة شكلا واحدا . انفجار الطبقة الاقطاعية نفسها ، وقيام مثقفيها بالاجهاز عليها من الداخل . أي ان التناقض « الثقافي » هو المحرك الرئيسي لعجلة التاريخ هنا . هكذا يتحول عدنان المثقف المتحدر من اسرة اقطاعية من مجرد متسكع « بودليري » الى ثوري حقيقي حين يقوم بنفسه بقتل عمه عماد النفوري ، مفسحا المجال أمام تتابع حلقة الانفجار التي تصل الى مقاومة يائسة يقوم بها أحمد الربيضي زوج خالة سلافة لتفادي زواج سلافة — المسلمة — بجميل — المسيحي . لكن هذه المحاولة تتحطم أمام انهيار العائلة الاقطاعية نفسها . فسلمى زوجة الربيضي هي نموذج هذا الانهيار ورمز لجميع تمزقاته .

هكذا يأتي ردم الهوة من داخل انفجار العلاقات نفسها ، ويتحقق التغيير من داخل المفهوم الثقافي الذي تمثله علاقة جميل بسلافة .

٤ — لعبة الشعر :

« أسرع ، أسرع ، أسرع ، والا فاتك الركب ، فاتك الحب ، الحرية ، العذاب . أسرع ، أسرع. انها تفوتك . أقول لك انها تفوتك » . هنا في يوميات عدنان طالب ، يقع الشعر على أطراف الرواية . أي انه لا يدخل في صلب حركتها المركزية الا من الاطراف . اي بعد التخلي عن الصيغة الرئيسية التي توحد السياق الروائي ، والسماح للتجاوز بأن يأتي هنا معبرا عن لحظة التفجر المركزي في الرواية . هنا يصل الصوت الثقافي الى ذروته المأساوية . المأساة بأسرها ، عدم الفعالية ، الوصول الى حافة الانتحار ومحاولته فعلا ، تؤدي الى سلسلة من التأملات الشعرية التي تدين ممارسة اجتماعية بأسرها ، وتطرح بدائلها لحظة فشل الانتحار امام غريزة الحياة . فتكمل الحياة دورتها ، لتصل الى القضاء الكامل على معوقات التقدم . تبقى لعبة الشعر خارج بناء الرواية . نتعرف على الشعراء وعلى مشاكلهم الاجتماعية ، لكننا ننتظر حتى نهاية الرواية حتى نقرأ شيئا من نتاجهم الشعري . هكذا يحافظ جبرا بشكل دقيق على مستلزمات بناء رواية واقعية — فكرية . أي ان البناء الروائي الواقعي يأتي لخدمة حاجة فكرية ، شخصيات فكرية . وهنا يلعب الحوار الدور الرئيسي . فالحوار هو مفتاح فهم الرواية . فنحن لا نكتشف الشارع الضيق من خلال الاحداث وحدها ، بل بواسطة الحوار الذي يجري على ألسنة شخصيات الرواية ، فينتقل الحدث من حدود السيكولوجية الذاتية الى عمومية الحوار الشامل . فالبناء الواقعي الذي لا يسمح للغة باكتشاف منطقها الخاص ، يقوم باخضاع شامل لجميع عناصر الرواية ، حتى نصل الى لحظات التحول التي يبشر بها بطل الرواية .

تأتي ترجمة رواية « صيادون في شارع ضيق » التي كتبت أساسا بالانكليزية وصدرت عام ١٩٦٠ ، ضرورية لدراسة تطور الرواية العربية .« فهي ملك الادب العربي قبل ان تكون ملك اللغة التي كتبت بها » كما يشير الى ذلك مترجم الرواية محمد عصفور . اذ انها تقع وسط هم البحث عن محركات التغيير الاجتماعي الذي تحاوله روايتنا العربية منذ ولادتها . لذلك تأتي الترجمة العربية لتضيء جانبا هاما من تطور البناء الروائي العربي ، وتسمح بالكشف عن مفاصل التجربة التي تحاولها روايتنا العربية .

تتلخص الاشكالية العامة التي تطرحها هذه الرواية في مسألتين :

١ — كيفية فهم عوامل التغيير الاجتماعي . يأتي هنا البناء الروائي الواقعي ، ليصف لنا حياة طبقة اجتماعية في علاقاتها الخاصة ، مركزا على

السلوك الاجتماعي والاخلاقي . أي ان واقعية جبرا لا تصل الى نهايتها لتكشف لنا علاقة هذه الطبقة ببقية الطبقات الاجتماعية الا تلميحا وبشكل سريع . مما يؤكد الفرضية الاساسية التي ذهبنا اليها في اعتبار آلية التغيير عند جبرا آلية ثقافية بشكل اساسي . وهذا ما يعود فيؤكده لنا الدكتور فالح في انتحاره على ظهر « السفينة » . هكذا تتلخص الواقعية بالافكار والمواقف . ويخفت صوت الفجيعة الفلسطينية في عملية اندماج سريعة بالتغير الاجتماعي .

٢ — الشخصيات المتعددة النوازع ، والتي نكتشف انها تنتمي في آخر تحليل الى نفس الطبقة الاجتماعية . لكنها تنفصل عنها في مسار تدمير الذات ، داخل تفسخ شامل. نكتشف قدرة الروائي على تحريك عدد كبير من الشخصيات في تواز مذهل مع تطور احداث الرواية .

في خاتمة الرواية ، يرتفع صوت جميل الفران ملخصا : « خلال الاشهر الطويلة التي تلت ، وبينما كنا ننتظر ، وبينما كان امثال عدنان وحسين وتوفيق يقذفون بأنفسهم على صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية ، كانت الحدآت والغربان تطير أسرابا ناعقة فوق غياض النخيل التي تعمر ارضا تتجدد ببطء يوما بعد يوم » .

هكذا ، تصبح الخميرة الفلسطينية عامل تغيير هادىء وبطيء . لذلك يتراجع الشعر امام الواقع، يخفت صوت البحث التشكيلي ليرتفع مكانه صوت الحوار العقلاني . وتكتشف الرواية نفسها ارض ممارسة ايديولوجية ، لكنها هنا ، لا تسمح لجميع التناقضات بالبروز ، لانها خاضعة لمنطق مسبق محكم الاغلاق .

عندما نعيد قراءة جبرا نكتشف بعده عن خط الرواية الفلسطينية الملتزمة (كنفاني ، حبيبي) ، فهو يحمل التزاما من نوع خاص . لذلك يغلب عنده الطابع الثقافي على كل شبكة الممارســـــة النضالية ، ويخفت صوت اللاجئين امام أصوات الطبقات القديمة .

البحث عن زمن جديد

يقيم حيدر حيدر في زمنه الموحش ، حالة زمنية جديدة في تركيب الرواية العربية . فهو لا ينطلق من الذات ليتوقف عندها ، او ليجعلها محورا نرجسيا للعلائق مع الاخرين ، بل يمد الذات على مساحة شاسعة من العلاقات والخيبات ، حيث تصبح الأنا ، مكانا نسمع في داخله صوت ارتطام العالم بالموت . شبكة من العلاقات تبدأ بالأنـــا (الراوي) وتمتد لتشمل منى وميسالينا ، امينة، سامر ، وائل حتى تصل الى لحظة الانفجار مع صوت مناحيم بيغن الذي يرتفع ليمزق اوصالنا الاجتماعية ، لنصل في النهاية الى مراثي ارميـــا ومراثي الزمن العربي .

الشعر والحدث الروائي

تبدأ الرواية بالشعر ، صراخ يصل لحظة الموت بامتداد كاسح على جسد الآخرين . « ها هم قادمون من الجبال والسهول زحفا باتجاه المدن . في عيونهم غضب ، وعلى جباههم غبار ومجـــد منتظر . في الريح تخفق راياتهم وأصواتهم الجليلة تملأ سمع العالم ... مباركة الفقراء والرعاة ، والمنبوذين والحفاة ، وجميع الذين هبوا على صوت التاريخ فيمموا شطره فجر ذلك اليوم المدهش » . وتنتهي في لحظة شعرية كذلـــك ، حيث ينحل كل شيء في زمن الهزيمة : « حزينا وعميقا أتاني صوت صمت الجرح :

للحزن وقت

وللرعد وقت » .

وبين هذين الحدين ، تمتد اللغة الشعرية بشكل دائري ، لتقوم بالتقاط لحظة الحزن كاملة في علاقات مجموعة من المثقفين ، يوحدهم زمن موحش، يمتد على اجسادهم ، يخترقها ، ويجعل للفشل

---

* حيدر حيدر : **الزمن الموحش** ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٣/١٢/١ .

طعم الجنس الذي تحترق في داخله شهوة الحياة . شهوة الحياة هي مفتاح اللحظة الشعرية في رواية حيدر حيدر . حيث تمتد الى ما لا نهاية . تهز البرك الآسنة ، تحرك الخفايا ، ثم حين تلملم اغراضها لتمشي ، نكتشف اننا لم نكن خارج لحظة واحدة محددة . فالزمن المتداخل الذي تصيغه أحداث الرواية، يعطي شعورا بالرتابة الصحراوية. تتحرك الرغبات في رمل لا تصله مياه البحر المالحة . لكن الزمن عوض ان يتثاقل ليلف دفعة واحدة الماضي والمستقبل فانه يقع في لحظة حاضرة . لذلك كانت الكثافة الشعرية انفجارا داخل موقف واحد . أي انها لا تدعي لنفسها قدرة على صياغة حدث روائي داخل سلسلة من المواقف . بل تكتفي بالمواقف ، تكسرها من داخلها في زمن سيكولوجي متحرك . نحن امام مجموعة من الاحداث . علاقات اجتماعية . خواطر . لكننا حين ننتهي من قراءة الرواية ، ونحاول القبض على احداثها لنستعيدها، تفلت الاحداث من بين ايدينا ، ولا يبقى سوى الصوت الشعري الذي يوحد ازمانا متداخلة في انشداد كامل نحو الداخل. لا هدف للحدث الروائي سوى الوصول الى أحد امرين : الحلم او الكابوس . لذلك لا يعلق في الذاكرة سواهما . ونعيد نحن صياغة هذا الحلم او الكابوس في حياتنا اليومية . هنا يقفز الشعر حاملا لغة الدلالات ، ثم ينكسر امام الدلالات نفسها ، أي لا يبقى من الشعر سوى دلالاته وتسقط اللغة وحيدة في الخارج . نحن مع حيدر وابطاله في عالم غريب من الرموز والدلالات . ننساق خلف الحلم ، ثم حين تأتي العناصر الواقعية التي تلتقطها الرواية من احداث سياسية عشناها يفلت الحلم من أيدينا ونبقى في كابوس مرعب ، تعتصره شهوة الحياة . « في الحالة النواسية بين الشهادة والانسحاب كنت أتمع » . ويصير العربي « في خسر » .

داخل الموت

هذه العلاقات التي تجعل من الحدث الروائي ، مجرد صدى للشعر ، تقوم بنقلنا الى داخل الموت، حيث نعود الى عملية اكتشاف ذاتية حسادة : « العربي مصاب بعقدة استحلاب الالم » . ثم حين نصل الى فلسطين ، نستمع الى رؤيا الضحايا :

« وقلت بسرعة : انك احد ابطال فلسطين
وقال : بل قل أحد الضحايا
وهممت : ولكن ما الفائدة » .

هكذا نتعرف على علاقات الضحايا وهي تتلمس الافق ، وسط دخان كثيف من الشعارات الكاذبة . وتتوالى الدوائر . والناس في داخلها يبحثون عن نقاط ارتكاز ، لا نجدهـا خـارج علاقـاتهم ببعضهم . أي تتسع هذه الدوائر دون ان تنكسر فيضيق الخناق . وتتحرك الاحداث برتابة حتى نصل الى سكونية كاملة في نهاية الرواية . لا يتداخل الزمن من أجل الولادة ، بل يتداخل كما في لحظة الموت . هنا تقع الرواية بأسرها . الخيبة كاملة تجثم بجسدها ولا تتزحزح ، لذلك لا قيمة للزمن . القيمة لسيكولوجيا الخيبة التي تنسحب من منى الى أمينة ، وتصل الكبت بالعجز ، فيتجمع الامل الثقافي بأسره حرقة .

ماذا يقع داخل هذا الزمن الميت سوى الموت نفسه ؟ وما قيمة العلاقات التي لا تستطيع الخروج من جدار الموت ؟ قيمتها في وجودها نفسه . لا قيمة خارج هذا المنطق الموحد . وأخيرا يصل البعد الروائي تاريخنا بسكونية الحاضر ، عند هذه اللحظة ، يتشقق الشعر ، ويبدأ في الامتداد حتى يسلب اللحظة فجائيتها .

المدى الطويل

يكتب حيدر حيدر على مدى شاسع ، لا يضغط اللحظة ، بل يتركها تنساب بين الاصابع . فيتكرر الحدث الواحد بصيغ مختلفة . وتتكرر المواقف . ويدخل الملل ركانا ليس له من حيث المبدأ . هذا المدى في الكتابة يحمل موقفا ، يكرر ، وليس النقد هنا . لكن التكرار حين يفقد معناه الرتيب ويصبح مجرد رتابة ، فانه يسلب رواية الموقف موقفها نفسه . ويجعلنا نضيع داخله متاهة من الاحداث التي يمكن حذف بعضها دون الاخلال بالرؤية الواحدة التي تجعل من هذا العمل رواية تجدد في صياغة الحزن والشهوة .

يلعب التكرار في بداية الرواية ، دور القدرة على طي المواقف داخل الانا . لكن حين يصبح سمة عامة ، يعيق الجانب الاخر من الرواية . جانب الحركة الخلفية ، الحركة الواقعية ، التي تتجاوز الزمن السيكولوجي. فلو تحرك هذا الجانب بفعالية اكثر ، لاستوعب الحركة الرتيبة وقعرها في آلية واقعية مركبة . لكن اعاقة هذه الحركة في

ظل كابوس الصراخ الشعري وحده ، جعل من الدوائر عالما ذاتيا ، شهادة شعرية . لكنه حرم العمل بأسره من القدرة على التكامل . ورغم ان حيدر يتوقف في بعض اللحظات ليستعمل التضاد والتوازي (الكبت الجنسي والكبت السياسي) لكنه حين يقف عند التضاد والتوازي ولا يخترقهما الى منطق الحركة ، فانه يسرق من الموقف في الرواية قدرته على الامتلاء .

مع حيدر حيدر ، تنطلق التجريبية من القصة القصيرة والشعر لتصل الرواية بجدارة . فنحن لسنا أمام رواية واقعية مشوهة — نصف واقعية او ربع واقعية — بل نحن امام سياق جديد . محاولة لبناء الرواية من داخل اللحظة الشعرية نفسها . هذه المحاولة هي التي جعلت للقصة القصيرة مدى القدرة على التجاوز . وهي هنا تفتح للرواية العربية منافذ تعبيرية جديدة . أي ان الانعطاف الهائل الذي يفرض نفسه على القصة القصيرة ، ينتقل الان الى الرواية مع محاولة اختراق جديدة ، تساهم في تأسيس بداية ممكنة للرواية العربية .

في قمر رواية حيدر حيدر ، تجلس فلسطين ، الحرب ، وهي حين تبقى خلفية للرواية ، تؤشر للمزاوجة بين الفعل المغير والواقع الموضوعي ، ولن تتكامل هذه المزاوجة الا بمزيد من الايغال في التجربة ، ومزيد من التخلي عن المواقف الاسقاطية. حيث تبلور التجربة الجديدة نتائجها ، وتكتشف بالممارسة الابداعية نفسها القدرة على التجاوز وانتاج رواية عربية جديدة ، تشارك في بلورة البحث عن اطارات ثورية ، من ضمن عملية البحث الشاملة التي تفجرها صراعاتنا الوطنية — الطبقية.

مواقف

بعد توقف عن الصدور دام حوالي سنة كاملة . أصدرت مجلة « مواقف » عددها الجديد ٢٧ ، واضعة نفسها في عودتها الى الصدور، دوريا ، داخل صميم المشكلات التي تعصف في حياتنا الثقافية . أي ان المجلة كما يقول ادونيس «ليست مؤسسة او تنظيما ، انها مناخ تلتقي فيه الطلائع ، الفنية بخاصة والثقافية بعامة ، لكي تقول ما لا تستطيع قوله في أي مكان آخر ». ضمن هذا المناخ الثقافي الطليعي ، تتعدد المواقف وتتصارع على أرض الحوار الديمقراطي المعلن . وهذا يسمح للمشكلات الاساسية بالبروز والتبلور . ان محاولة القاء نظرة سريعة على محتويات العدد ، تسمح لنا باكتشاف ظاهرتين متلازمتين .

١ — الظاهرة الاولى التي يمكن ان نسميها الهم الفلسطيني او الالتزام الثوري العام ، والتي تظهر واضحة في سلسلة المقالات القصيرة بعنوان « حرب تشرين ، ما قبل وما بعد » . شارك في كتابتها ، سمير الصايغ ، عصام محفوظ ، مهدي عامل ، زاهي شرفان ، عباس زكي ، ناهدة الدجاني وحليم بركات . هنا تتعدد المواقف والاجتهادات والرؤى الفكرية والثقافية ، لكنها تلتقي جميعا عند قاسم مشترك هو البحث من ضمن واقع الحركة الثورية العربية المعاصرة ، عن المجاري الرئيسية التي يسير فيها الواقع وعن حركة الصراعات الوطنية والطبقية التي تحدد أشكال هذه المسيرة .

٢ — الظاهرة الثانية التي تتمثل في خط «مواقف» الفكري والثقافي العام ، هذا الخط الذي تمثله تعددية الاهتمامات وتعددية المناهج الفكرية التي تبلور هذه الاهتمامات في دراسات وبحوث نظرية وتطبيقية ، تعالج المسائل الاساسية في ثقافتنا العربية، الصورة الشعرية ، المسرح ، اعادة النظر في تقييم الثقافة العربية الحديثة ، تجتمع لتشكل ارضا لصراعات ايديولوجية حادة ، يجمعها منبر ديمقراطي ، وارادة للحوار ولاستخلاص النتائج المترتبة على هذا الحوار وتحمل مسؤولياتها.

في صلب هاتين الظاهرتين ، تنمو الممارسة نفسها . اي الانتاج الثقافي ، شعر ، رواية ، قصة ، لتؤكد على طابع اساسي ، هو الطليعية في طرح المسألة ليس فقط تحت مجهر الممارسة النظرية ، بل داخل الانتاج نفسه . لذلك نتعرف على صوت شعري جديد ، عباس بيضون ، يمسك

باللغة ويجعلها نشيدا ثوريا يتداخل مع صراعات جماهيرنا . لا يقف على شرفة الاحزان ، بل يقف داخل الارض التي تسيل عليها الدماء . في نبرة شعرية تجمع البساطة الى الرؤيا المتحركة لتصبها في بيان شعري ثوري . كما نتعرف على الطاهر بن جلون ، في روايته « حرودة » ونستمع الى شكل يمكن ان يتخذه الصوت الثقافي في المغرب ، ونجلس مع ريتسوس داخل آلام الشعر نفسه .

ليس هناك ظاهرة ثقافية تستطيع ان تعزل نفسها عن ارض الصراعات الواقعية . فالممارسة الثقافية ، هي ممارسة للصراع الطبقي ، داخل المستوى الايديولوجي . اي أنها نقل وتتمة للصراعات التي تجري على ارض الممارسة الجماهيرية نفسها . من هنا تتحدد أهمية أي منبر ثقافي في قدرته على ان يكون أحد أطراف هذا الصراع ، أو معبرا عن أكثر من طرف واحد . و « مواقف » كما تطرح نفسها في همها الفلسطيني (السياسي) والثقافي ، تريد ان تكون ممثلة لاكثر من طرف واحد . انها مجموعة من المواقف التي تمثل اطرافا طليعية ديمقراطية وثورية منخرطة في الواقع وفي صراعاته (هذا لا يقود الى التبسيط والى الوصول الى دراسة تمثيلية الاحزاب السياسية هنا). لكن الحوار الايديولوجي والثقافي، لا يمكن ان يجري هكذا بلا ضوابط تقوده الى تحديدات أكثر عينية وواقعية . أي ان ايصال النقاشات ووجهات النظر الى نهايتها المنطقية ، من خلال اعادة تقييم شاملة لثقافتنا العربية هي التي تقود من ضمن اشكالية البحث نفسه الى تحديد صارم للمناهج المختلفة وتبرر بالتالي الممارسة النظرية والادبية ، بوصفها ليست ترفا او نخبوية تستعين بالورق لتبرر عزلتها . بل هي في الواقع ممارسة نضالية وثورية، لانها تشارك من داخل موقعها نفسه في صياغة الاسئلة الاكثر جذرية من ضمن محاولة الاجابة عليها .

ان المنبر الثقافي ، الذي يضع نفسه في صلب الهم الفلسطيني والتغييري، بوصفهما اطارا لعملية واحدة ، هي الثورة العربية ، يبتعد دائما عن الكلام المرسل الكثير ، الذي يغطي حياتنا الثقافية، بركام التنظيرات الفجة ، التي لا تجد أسسا نظرية تستند اليها ، فتبقى معلقة في فراغ ثقافي واسع ، تسمح بها خفة في العمل لا يفسرها سوى الغياب شبه الكامل للعمل العلمي الجاد ، الذي لا يمكن ان يجد طريقه في البلاد التابعة في المؤسسات « العلمية » التي لا وجود لها خارج شكلها الرمزي الحالي ، لذلك لا يتطور هذا البحث ويخترق ركام الورق والكلمات الفارغة الا داخل العملية الثورية نفسها . هذه العملية لا تتوقف ابدا . تخفت او تتراجع في بعض الاحيان ، لكنها تبقى المحرك الوحيد لعجلة المجتمعات البشرية . من هنا ضرورة ايجاد وخلق منابر ثقافية جدية ، تستطيع استيعاب التجربة الواقعية لا سيما على مستوى الاداب والفنون والعلوم الانسانية . من هنا تنبع ضرورة « مواقف » بوصفها احد المناخات الممكنة لتبلور هذه العملية المعقدة . ومن هنا ضرورة السير بالعملية الى نهايتها المنطقية . التحديد الصارم ، حتى لا يكون الانتاج الثقافي في فراغ ، بل داخل الثورة نفسها . وكجزء اساسي وفعال من الصراعات الطبقية — الوطنية التي تحدد مسيرة المجتمع العربي .

الادب والمعركة

لقد كانت ولادة اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ضرورة من اجل ايجاد هيكل تنظيمي، يضم في صفوفه الكتاب والصحفيين المرتبطين بالثورة من ضمن ضرورة ايجاد الاشكال التنظيمية الجماهيرية المرتبطة بحركة المقاومة . من هنا كان نشر ابحاث ومقررات هذا المؤتمر ضرورة هامة . لانها تحمل سمة التوجهات الاولى التي وضعها هذا التنظيم الجماهيري .

ان الالتزام الاساسي ، المبدئي والسياسي ، بأهداف الثورة الفلسطينية ، وبضرورة تصعيد النضال والمشاركة فيه ، هي السمة الرئيسية التي تطبع وثائق المؤتمر بطابعها . وهذه النقطة الايجابية

* اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين : **الادب والمعركة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، كانون الثاني ١٩٧٤ .

المبدئية ، يجب ان لا تحجب ضرورة مناقشة المسائل الفرعية والتي تدخل هنا ضمن المهمات الاساسية التي يضعها اتحاد الكتاب على نفسه . بوصفه شريحة اجتماعية ، تساهم من خلال الحركة الثورية في الوعي الجماهيري العام. وفي الانتاج الايديولوجي الذي يقوم به الكتاب عادة . ورغم العوائق الكثيرة والصعوبات التي جرى تخطيها ، فان ضرورة مناقشة محتويات وثائق المؤتمر ، تتأكد من ضرورة اخضاع ممارساتنا الفكرية للمناقشة الواسعة ، لان المناقشة الديمقراطية وحدها هي التي تفسح للفكر الثوري ، مجالا واسعا للنمو ولكسب مواقع جديدة .

لذلك فاننا لن نناقش الموضوعات التنظيمية والمهنية والسياسية ، على أهميتها البالغة . لكننا من خلال الالتزام بأطروحات الحركة الثورية الفلسطينية الاستراتيجية ، سوف نحاول القاء بعض الاضواء على الموضوعات الثقافية او الابحاث التي قدمت الى المؤتمر .

تبدأ الابحاث بدراسة د. نادرة السراج « سيرة عزام في ذكراها الرابعة » . والدراسة محاولة للتعريف بالقصاصة الفلسطينية وبمساهمتها على المستويين الادبي والسياسي ، مع تركيز على تطور القصة القصيرة في أدب عزام . والواقع ان هذه الدراسة تقوم بسد نقص كبير ، لانها تعرف بشكل واضح على جزء هام من الادب الفلسطيني ، بقي غائبا عن الكثير من الدراسات النقدية . لكن د. سراج كانت تستطيع ان تضع انتاج عزام داخل سياق القصة القصيرة العربية والفلسطينية ، حتى نستطيع من داخل اللوحة العامة ، اكتشاف موقع سميرة عزام في أدبنا المعاصر . ورغم هذا النقص ، فان الدراسة تبقى وثيقة هامة ، تصلح ان تكون أساسا لدراسات نقدية لاحقة ، تقوم بعملية تبويب الادب الفلسطيني وتقييمه بشكل هام .

ثم تأتي دراسة احمد خليفة « عالم القضية الفلسطينية في ادب غسان كنفاني » ، ليرسم لوحة بيانية عن تطور أدب كنفاني ، الذي يرافق تطور القضية الفلسطينية في انعطافاتها المختلفة . وهذه الدراسة هي جزء من الملف الذي نشرته « شؤون فلسطينية ١٣ » عن أدب كنفاني بعد استشهاده .

واخيرا تأتي أكثر دراسات المؤتمر أهمية واثارة للجدل « الادب والفن في معركة التحرر الوطني » التي كتبها ناجي علوش . ان طموح دراسة علوش هو الوصول الى اطار مبدئي عام لدور الادب في حرب الشعب الوطنية . لذلك يبقى البحث عاما وغامضا في سمته الغالبة ، رغم انه يحاول الوصول الى ثلاثة مقاييس معيارية :

١ — المقياس الاول هو اطار عام للنظرة الماركسية الى الادب ، مفهوم الانعكاس ، مفهوم كون الادب والفن معبران عن الصراعات الاجتماعية، فهناك أدب الاسياد وهناك أدب العبيد . ثم يصل الى نتيجة العلاقة الوثيقة بين الادب والفن والسياسة . « لان جبهة الادب والفن جزء اساسي من الجبهة السياسية الشاملة » .

٢ — ثم ينتقل الباحث الى تحديد المعركة على الصعيد السياسي على أساس ثلاث مهمات : معركة ضد السيطرة الاجنبية، معركة ضد الابادة القومية، معركة من اجل الاستقلال والوحدة والتقدم ، تصب هذه المهمات الثلاث في المعركة الاساسية او المركزية التي هي الصراع ضد الصهيونية والامبريالية المتمركز في القضية الفلسطينية . يسمح هذا التحديد السياسي بالانتقال الى نمذجة سريعة للثقافة العربية في مراحلها المختلفة . وهنا تغلب العمومية على التحليل بشكل واضح . فيعطي ناجي علوش صورة سريعة للتطور العام للثقافة العربية منذ محاولات التتريك مرورا بالغزوة الاوروبية الغربية وحتى السيطرة الامبريالية الاميركية . تفترض هذه النمذجة ثلاث مهمات : أ — معركة ضد السيطرة الثقافية الاجنبية . ب — معركة ضد العدمية القومية . ج — معركة من اجل ازدهار الثقافة .

٣ — بعد هاتين المقدمتين ، نصل الى دور الادب والفن في المعركة لنكتشف ثلاثة ادوار: أ — **التعبئة الثورية** : بوصفهما محرضين ومعبئين . ب — **خلق الراي العام** . ج — **تكوين الوعي** . ترتبط هذه الادوار الثلاثة بمهمتين : الالتزام . « انه ليس التزاما تجريديا ولا عائما . انسان هذا الالتزام معروف ومحسوس وقضاياه قضايا سياسية واجتماعية يعيشها مجتمع معين في مرحلة تاريخية » . الالتحام بالجماهير أي الالتزام بقضاياها اليومية والمصيرية . ثم نصل على اساس هذا الدور الى ما يسميه علوش بالمدرسة **الواقعية**

الثورية . تنمو هذه المدرسة داخل الكفاح الوطني وهي تعتبر **المقياس السياسي** ، مقياسها الاول في الحكم على الادب والفن . وتتحدد مواقفها من التراث بضرورة تمثله والاستفادة من ينابيعه . وتؤكد اخيرا على كون الالتزام مصدرا لانتاج أدب وفن خالدين .

حاولنا ان نقدم تلخيصا شاملا لاهم الافكار الواردة في بحث ناجي علوش ، والتي تمثل في الواقع تيارا فكريا ادبيا لا بد من الوقوف عنده قليلا .

١ — الواقع ان المنطلقات الاساسية التي يفترضها هذا البحث صحيحة من حيث المبدأ . ولا تزال هذه المنطلقات تخوض صراعات حادة من اجل دحر المفاهيم الميتافيزيقية والبرجوازية في ميداني النظرية الادبية والممارسة الادبية والفنية . غير ان ميدان معركة هذه المنطلقات ، ليس التحليل العام ، بل النقاشات الواسعة التي في تعاملها مع موروثنا الثقافي ، ومع الانتاج الادبي والفني الحالي ، تستطيع من خلال الالتزام الثوري انتاج تحليل تفضيلي صحيح يصلح ان يكون مقياسا نقديا . اي ان المنطلقات المبدئية وحدها لا تكفي ، لانها تسمح بأكثر من تفسير على ساحة مستوى نظري غير دقيق وغير محدد . من هنا كانت ضرورة نقل هذه المنطلقات الى ساحة التاريخ الثقافي العربي والممارسة الحالية ، لاغنائها وتوسيعها .

٢ — على ضوء الملاحظة الاولى ، فان نمذجة تاريخ الثقافة العربية الحديثة تصبح عملية بالغة التعقيد . فالعلاقة بين تطور المستويين السياسي والاقتصادي من جهة وتطور المستوى الثقافي الايديولوجي ليست علاقة تساو او تواز ، بل هي تحمل جميع سمات التطور المتفاوت . ويعود هذا الى طبيعة التطور العربي الذي جرى من خلال الارتطام بالكولونيالية اولا ومن ثم بالامبريالية ، وتطور مفهوم المهمات من الحفاظ على التراث القومي وخاصة اللغة الى محاكمة هذا التراث على ضوء حاجات التغيير الثوري . وهذا يعني ضرورة دراسة تطور نشوء شرائح المثقفين في المجتمع العربي . تغير المفهوم من علماء الى مثقفين مرتبطين بجهاز الدولة (محمد علي) على المنهجية الغربية . ثم تعددية النشوء باختلاف انماط واساليب المواجهة مع الاستعمار وانحلال جهاز الدولة الذي حاول محمد علي اقامته في مصر . ان دراسة هذه العملية المعقدة وفرز نتائجها الكاملة ، تسمح بنمذجة للتيارات الثقافية العربية ، اي ان ادانة هذه التيارات لا يمكن ان تتم من خارج فهم مسار عملية التطور هذه وصولا الى مهمة التصدي للغزوة الاسرائيلية الاميركية .

٣ — وهذا يعني ان المقاييس النقدية للممارسة الادبية والفنية لا تأتي الا من مسارين مؤتلفين :

أ — التطور العام للمفاهيم العلمية التي يعاد انتاجها على المستوى الثقافي — الادبي. هذا التطور هو في بلادنا التابعة ثمرة علاقة تطور حركة المثقفين بالمستوى السياسي النضالي . اي لا يمكن ان نبحث عنه خارج الممارسة السياسية اساسا . وهذا التطور يعكس نفسه على الممارسة الادبية التي تعود بدورها لتشارك في صياغته .

ب — الاشكال المختلفة التي يأخذها الادب والفن . هذه الاشكال ، لا تأتي بشكل اعتباطي . انما هي ثمرة التعامل المعقد مع الممارسة الادبية والفنية نفسها.من هنا فان المقاييس النقدية لا يمكن ان تسقط من خارج هذه الممارسة، والا تحولت الى مجموعة من المفاهيم العامة التي تريد احداث ثورة في الشكل الادبي دون ان تجد الارض التي تقف عليها . فالتطور العام في الادب العربي الحديث (استحداث الرواية والمسرح) لم يكن فقط نتيجة ارادية لاستعارة هذه الفنون من الغرب . بل جاء كذلك تلبية لحاجة موضوعية (توسع المدن، التعليم ، العقلنة ...) التي لولاها لبقيت الرواية معلقة في فراغ التقليد . من هنا فان تجاوز الممارسة الادبية والفنية لا يتم الا داخل هذه الممارسة نفسها .

تقودنا هذه الملاحظات الى التوقف عند مفهوم المدرسة الواقعية الثورية . اذ انه كمفهوم نظري يبقى بالغ الغموض . أي ماذا يميزه نظريا عن « الواقعية — الاشتراكية » سوى استبدال المعطى الطبقي بالمعطى الوطني. هذا الغموض الذي يرافق مفهوما نظريا جديدا يعامل بسرعة بالغة ، ينسحب على نمط الممارسة الادبية التي يفترضها . فمن هم الممثلون الادبيون لهذا المفهوم ؟ اذا كان هناك من تطبيق انتاجي لهذا المفهوم فان المناقشة تصبح أوضح ونستطيع من خلال النماذج الادبية نفسها دراسة ملامح هذه المدرسة . غير ان الدعوة التي

يحملها هذا المفهوم تصبح خطيرة جدا اذا لم تاخذ بعين الاعتبار مسألتين هامتين :

١ ـ علاقة الادب والفن الثوريين بالجماهير لا يمكن ان تتم خارج النضال الثوري . وهذا يعني ان آلية هذا النضال الخاصة ، سوف تفرز وعيا متقدما لا يستعير الثقافة « الشعبية » الا ليقوم بنقدها واعادة انتاجها داخل منطق رؤيوي مستقبلي . هذا يعني ان النتيجة المباشرة للثقافة الطليعية لا تأتي بسهولة او حتى بشكل مباشر وواضح . بل تتداخل بمهمة اعادة النظر بشكل شامل بالممارسة الادبية المعاصرة وعلى ارض المهمات الثورية .

٢ ـ يفترض النضال الايديولوجي صراعات محددة داخل بنية الايديولوجية السائدة نفسها . فالايديولوجيا السائدة تحمل داخلها جميع تناقضات المجتمع وان كانت تقوم بعملية تنظيم لهذه التناقضات في سبيل تغليب مفهوم عام للصلح الاجتماعي الذي تسيطر عليه الاتجاهات الرجعية بشكل عام . لذلك فان النضال من اجل تحليل هذه التناقضات وتفجيرها من خارجها ، يصبح مهمة نظرية وعملية في آن . اي ان الانتاج الايديولوجي الثوري في ميدان الادب والثقافة بشكل عام يستطيع من خلال اعادة محاكمة الاشكال الايديولوجية السائدة اي من خلال النقد ان يقوم بانتاج اشكال ممارسته الخاصة . من هنا فان دور الادب والفن على مستوى شرائح المثقفين يبقى بالغ الاثر لانه ينعكس بشكل مباشر على الممارسة العملية التي تقودها جبهة وطنية مفترضة يلعب فيها المثقفون في المجتمعات الكولونيالية والتابعة دورا هاما . فتثوير الثقافة لا يؤدي الى الابتعاد عن الجماهير ، لانه يفترض تثويرا في وعي الجماهير من خلال اعادة انتاج تجربة الجماهير نفسها .

عدا عن هذه الابحاث الثلاثة يضم الكتاب دراسة خليل حنا « القضايا المهنية للكتاب والصحفيين الفلسطينيين » ودراسة د. سعيد حمود « الوضع الراهن للثورة الفلسطينية ومهماتها » ودراسة فريد الخطيب « دور الاعلام في مرحلة التحرر الوطني ».

يطرح كتاب الادب والمعركة ضرورة عقد ندوات الى جانب مؤتمرات الاتحاد ، تكون مجالا واسعا للنقاشات التي تستخلص دروس الممارسة الادبية الفلسطينية والعربية . لان النقاش الديمقراطي الواسع كفيل وحده ببلورة الاتجاهات الثقافية التي تلتقي على أرض الثورة .

حول الممارسة النقدية

كيف تستطيع الممارسة النقدية الاحاطة بالمسألة التي تطرحها ، محافظة على طابعها العلمي العام ؟ هذا هو السؤال الاساسي الذي يخرج منه قارىء دراسة د. احمد سليمان الاحمد : « الشعر العربي والقضية الفلسطينية » غير أن هذا السؤال الاساسي ، لا يلبث ان يتحول الى سلسلة من الاسئلة التفصيلية حين نشرع في تحليل الدراسة بشكل هادىء : كيف يستطيع العمل النقدي ان يربط بين مسألتين مختلفتين من حيث التركيب الشعر والقضية الفلسطينية ، دون ربطهما ضمن اطار البنية الفوقية ، كاطار صراعي . أي ان هذا السؤال يؤدي الى طرح المسألة في نقاطها المبدئية.

هل الشعر هو مجرد تواز مع الواقع السياسي او الاقتصادي . أو أن العلاقة بينهما ، هي اكثر تعقيدا من هذا . بعد هذا التساؤل المبدئي ، نصل الى تساؤل عملي ، لماذا هذا السياق الواحد ؟ هل صحيح اننا نستطيع ان نضع الشعر العربي منذ مطلع القرن وحتى يومنا هذا ضمن سياق واحد؟ ولماذا ؟ ألم تحدث في شعرنا الحديث والمعاصر انقطاعات تدفعنا الى التساؤل حول شرعية السياق الواحد ؟ . وأخيرا نصل الى أكثر الاسئلة صعوبة وتعقيدا : ما هو الشعر ؟ طبعا نحن لا نطرح هذا السؤال في الفضاء لكننا نطرحه من ضمن مبحث د. الاحمد نفسه . اي هل يحدد الشعر موضوعه ، بشكل اساسي ، ام ان الشكل هو الذي يحدد الشعر ؟ أي هل يتحدد الشعر من خارجه ، في علاقاته بموضوعاته ، ام يتحدد من داخله ، وتصبح الموضوعات اطارا لهذا الشكل الذي نسميه

---

* د. أحمد سليمان الاحمد : **الشعر العربي والقضية الفلسطينية** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، دمشق ١٩٧٣ .

شعرا ؟ ان مشروعية طرح هذه المسألة هنا تكمن في طريقة معالجة المؤلف للشعر ، اي في تأكيده على أولوية الموضوع . الجواب الجاهز على هذا التساؤل هو في رفض التساؤل نفسه ، أي في القول كما يقول اغلب الدارسين والنقاد انه لا يمكننا فصل الموضوع عن الشكل . لكن هذا الجواب الجاهز والذي ينقذ من المأزق يفترض تطبيقا نقديا . وهذا ما لا نجده الا نادرا . عدا عن انه لا يلغي المسألة ، لانه لا يجيب على اشكالية عامة ، تفترض الادب بشكل عام شكلا للصراع الايديولوجي .

١ — يبدأ المؤلف بتحديد وجهة دراسته . « لا شك ان اية دراسة لشعرنا العربي المعاصر تظل ناقصة اذا لم تعالج الخط الفكري الذي قطعه هذا الشعر انطلاقا من وعد بلفور الى النكسة ». بعد هذا التحديد الحصري لوجهة الدراسة يبدأ البحث في اتجاهين :

— الاتجاه الغالب ، الذي يحاول قراءة الشعر العربي في موقفه من وعد بلفور وهزيمة ٤٨ ، وفي ثوريته وتفجعه .

— اتجاه آخر ، لا ينفصل عن مسار هذا الاتجاه ، يحاول ان يتوقف ، بسرعة كبيرة على الشكل الشعري . فلا يتوقف سوى عند المفهوم النقدي العربي القديم . أي دراسة المحسنات اللفظية ودلالات الكلمات ، دون الوقوف عند الشكل الشعري بشكل متكامل سوى في بعض اللمحات الخاطفة .

وأخيرا نصل الى خاتمة الكتاب ، حيث يقيم الناقد موازنة بين شاعر كلاسيكي هو بدوي الجبل، وشاعر « حديث » هو نزار قباني ، ليؤكد على افضلية شعر بدوي الجبل بشكل كاسح .

٢ — ضمن هذا الهيكل الذي تتدرج فيه الدراسة ، يمكننا ان نسجل بعض الملاحظات :

أ — في القسم الاول الذي يمتد من وعد بلفور الى النكسة ، لا نجد بنية واحدة ، او مجموعة من البنى التي توحد المقاطع الشعرية التي يثبتها المؤلف . اي ان التمييز لا يتم الا من خلال طابع اقليمي لا أعتقد انه يصح ان يكون معيارا نقديا . الشعر في سوريا أو لبنان او العراق كما يقول المؤلف ، بل ربما تكون اشكالية البحث عن وحدة « الفكر الشعري » من خلال وحدة الايديولوجية السائدة والشكل السياسي المتقارب في هذه الاقاليم والذي يسمح باكتشاف نقاط تناقض واحدة في البنية الاجتماعية العربية في العشرينات والثلاثينات مقياسا ممكنا . فالتقسيم الذي اختاره المؤلف هو أسهل الاحتمالات النقدية المتوفرة.كما انه حين تطرق للبحث في الشعر الفلسطيني — طوقان — محمود — الكرمي ، فانه لم يتوقف لحظة لدراسة متأنية عن الوضع الفلسطيني القائم برمته.بل حاول اكتشاف نصوص تشير الى دلالات فكرية متفاوتة في فهمها للمسألة الفلسطينية . ان هذا المنهج الذي اختاره المؤلف ، ينعكس انعكاسات سلبية جدا ، على سياق البحث بأسره . أي انه يزيل عنه طابع جهد الاضافة الذي تفترضه الممارسة النقدية بوصفها ممارسة ، ليحولها الى تجميع لنصوص شعرية . وحتى في هذا التجميع نفسه ، فاننا نفتقد الجهد الشمولي ، ومحاولة عقد المقارنات على أسس فنية .

ب — ان الزاوية الضيقة التي وضع فيها المؤلف نفسه منذ البداية ، تنعكس انعكاسات سلبية على مجمل الدراسة . فهو لا يبدأ من تطور الحركة الشعرية الحديثة منذ شوقي ، ولا يتوقف عند دراسة المفاهيم المختلفة التي يمكن ان تنتجها المدارس الشعرية التي نشأت في هذا القرن . بل قام بعملية دمج تعسفية ، بين مختلف التيارات الشعرية . وهنا نصل الى نقطة هامة . ما هو اثر التحولات الفنية في بنية القصيدة على فهم المسألة الفلسطينية ككل ؟ لا جواب في سياق الدراسة ، سوى محاولات وعظية تصحح مفاهيم بعض الشعراء ، حول قضية النضال الفلسطيني .

ج — كما ان المؤلف ، لا يتوقف عند الدور « الجماهيري » الذي لعبه هذا الشعر ، بوصفه شعر منابر . بل لم يحاول طرح مسألة الشكل الشعري من خلال مفهوم فعالية الشعر ، اي علاقته بالناس وبالنضال اليومي . لذلك لم يتوقف مثلا عند ظاهرة الاناشيد الشعرية التي استعملها بعض الشعراء ، كقالب يستطيع ان يتسع لمهمة التعبئة الجماهيرية التي كانت تجري في شتى اشكال النضالات .

د — وأخيرا ، لا بد من ملاحظة ، بعض الغيابات الكبيرة من دراسته ، لا سيما فيما يتعلق بالشعر الفلسطيني بعد هزيمة ١٩٤٨ . هنا لا نجد اثرا

سوى لفدوى طوقان وعبد الكريم الكرمي . أما يوسف الخطيب ومعين بسيسو وغيرهما ، فلا وجود لهما في هذه الدراسة النقدية . ان هذا التعسف النقدي ، يبقى بلا مبرر . فالاختيار ليس خطأ في حد ذاته ، اذا جاء ضمن رؤية فكرية محددة ، تريد ان تثبت توجها نظريا عاما في النقد ، وتتخذ بعض الامثلة لاثبات صحة هذا التوجه . أما حين تكون أمام دراسة عامة ، تريد الوصول الى اكتشاف توجه فكري شامل ، فان الغيابات الكبيرة ، لا تجد تبريرها سوى في تعسف نقدي ارادي .

٣ ـ تسمح هذه الملاحظات بالوصول الى النقطة الثانية الاساسية التي يطرحها المؤلف . الشعر بعد « النكسة » . هنا تصل الغيابات الشعرية الى ذروتها ، الانتقاء تعسفي مئة بالمئة ، والا كيف يبرر المؤلف وتفته القصيرة عند درويش والقاسم وقباني وبدوي الجبل وتوفيق زياد وملك عبد العزيز وخليل الخوري دون غيرهم من الشعراء العرب . وهو حين يقوم بالاشارة الى انتاج هؤلاء الشعراء فانه لا يتوقف عند انتاجهم ليدرسه لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون ، سوى بعض الملاحظات العامة المعروفة جدا ، والتي لا تضيف جديدا ، ابتداء بالثناء على مقالة درويش « انقذونا من هذا الحب القاسي » هذه المقالة التي اصبحت لازمة عند جميع المتعاطين بالنقد في بلادنا ووصولا الى الموازنة بين بدوي الجبل وقباني .

أ ـ ان الملاحظة الاساسية التي ترتفع هنا تلقائيا ، تأتي لتضع علامة استفهام كبيرة على المنهجية التي يتبعها الناقد منذ بداية بحثه . فالتركيز على الموضوع وحده ، ورفض الاعتراف بثورة الشكل والمضمون التي احدثتها حركة الشعر المعاصر منذ السياب والبياتي وحتى اليوم ، يؤدي الى معاملة الحركة الشعرية ، بوصفها وحدة منطقية ، ويؤدي بالتالي الى اعدام التيارات التجديدية في الحركة الشعرية المعاصرة . والوقوف عند شعراء الارض المحتلة لا يجد هنا تبريره الا في « الحب القاسي » الذي لا يبرر فنيا والذي يشارك الناقد في تبني رفضه .

ب ـ حاولت سلمى الجيوسي (شؤون فلسطينية ٣٠) اعتبار عام ١٩٤٨ بوصفه عام التحولات الكبرى في الشعر العربي ، اي انها افترضت ان بدايات التحول ظهرت مع ضرورة التغيير الجذري التي برزت واضحة بعد الهزيمة . ان هذا المنطلق يفترض مراجعة جذرية للحركة الشعرية العربية في سبيل اعادة اكتشاف نمذجتها . غير ان د. احمد سليمان الاحمد لا يتوقف عند ظاهرة التجديد اساسا ، لذلك لا يبحث عن اسبابها . من هنا يسقط الشعر العربي بأسره ، ولا يتوقف الا عند شعر الارض المحتلة . وبعض النماذج الشعرية الهزيلة، التي لا تعبر عن المجاري الرئيسية لحركتنا الشعرية المعاصرة . هكذا يسقط جميع الشعراء . ولا يبقى في سبيل سحق الشعر سوى عقد مقارنة بين شاعرين : بدوي الجبل الذي يمثل احدى قمم الكلاسيكية الشعرية وبين نزار قباني .

٤ ـ حين نصل الى هذه المقارنة التي لا يبررها السياق العام ، فاننا نتساءل اولا عن مبرر عقد مثل هذه المقارنات . ثم نرفع سؤالا آخر : لماذا نزار قباني وحده ؟ لماذا لا يأخذ ادونيس او درويش او البياتي او ... هنا وفي السؤالين لا نجد جوابا عند المؤلف . ثم نقرأ . نكتشف ان المقارنة تدور في محورين : المعنى والمبنى ، كما يقول القدماء . نتوقف عند المعنى لنجد معيار القيم الاخلاقية متصدرا . « الشاعر ـ رغم كل شيء ـ لا يستنيم الى اليأس » . وقباني « لا يحاول أن يستخلص شيئا ايجابيا وانما همه أن يكتب لشعره الرواج ». ثم حين نصل الى المبنى نرى ان بدوي الجبل « يأتي الى المعاني ويخلع عليها من شاعريته واسلوبه » . « بينما يصف نزار في « الاستجواب » اساليب التعذيب والقمع بما لا يعدو ما يجيء في الاحاديث العادية » . ثم يختم هذه المقارنة بتبني قصائد لابي سلمى يدمج فيها القتال بالشاعر المقاتل .

ان هذا الاسلوب في عقد المقارنات ، لا يؤدي الى نتيجة ، لانه يضع النتائج امامه دون المقدمات. فبدوي الجبل الذي هو فعلا قمة كلاسيكية لا يمكن مقارنته بأي شاعر حديث آخر تخلى عن الشكل الكلاسيكي جزئيا كما فعل قباني او كليا كما يفعل غيره . فالمقارنة مستحيلة من حيث المبدأ . والواقع ان التجديد الجذري الذي يعصف بشعرنا لا يمس الشكل وحده ـ التخلي عن الديباجة العربية ـ لكنه يصل الى المضمون ليتشكل داخل الصورة او الرمز . اي داخل ما نسميه بالموقف الشامل . « اذا فقد الشعر ديباجته الصافية، لم يبق شعراء ان الديباجة الصافية وطن الشعر اذا صح

التعبير .. » هكذا يقول بدوي الجبل (مواقف ١٨/١٧) . وهو حين يحدد الفرق بين الشعر والنثر يعود الى القيم القديمة « الوزن والقافية اولا ، والابداع والالهام والنغم » . بين هذا المفهوم للشعر الذي يتبناه الناقد كذلك وبين المفاهيم الجديدة التي طرحتها الحركة الشعرية المعاصرة مسافة شاسعة ، لا يستطيع موضوع كبير وبالغ الاهمية كموضوع كتاب د. الاحمد ان يتجاوزها . لذلك تبقى ضمن دائرة تقليدية لفهم الشعر ، تساهم في اضاءة بعض الجوانب الهامشية . لكنها لا تستطيع مس الموضوع الاساسي . الانقلاب الكبير الذي نعيشه على المستوى الشعري .

حين يطرح كتاب د. الاحمد ، جميع هذه الاسئلة ، فانه يستفز الحركة النقدية الجديدة على بلورة اجوبتها بشكل مكثف وواضح . اي بلورة مفهوم العلاقات الداخلية في النص وارتباطها بمفهوم الشكل الايديولوجي وبحلقة الصراعات العنيفة التي تخوضها الجماهير على جميع الجبهات . من هنا تكمن مهمة اعادة طرح الاسئلة مجددا للوصول الى رؤية متكاملة ، تستطيع ان تتعامل مع الحركة الادبية ، دون استنزاف خاصيتها الاساسية اي فنيتها . هذه الموضوعة تفترض اساسا تعاملا نقديا مع موروثنا النقدي حتى تتم بلورة موقف منه لا يكتفي بتجاهله او الارتماء في احضانه ، بل يدرسه بوصفه ظاهرة تاريخية محددة .

ان العلاقة الوثيقة للشعر العربي بمسألة النضال الفلسطيني ، تبدو دائما كظاهرة خاصة ، فالشعر العربي ينفجر داخل الجسد الفلسطيني مفجرا جميع ثوابته،في سبيل الوصول الى الصوت الشعري الذي ينزف دما . لذلك تبدو المسألة التي يطرحها د. الاحمد في كتابه بحاجة الى الكثير من الدراسات .

الياس خوري

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

احصاءات فلسطينية

اعداد

الياس خوري

لاول مرة يصدر كتاب شبه شامل عن احصاءات الفلسطينيين في جميع البلاد العربية وفي فلسطين المحتلة ... وهي عن النواحي الاجتماعية والسكانية والديمغرافية والاقتصادية والتعليمية للفلسطينيين في كل قطر عربي . وهناك احصاء عن الفلسطينيين المستفيدين من خدمات الاونروا من النواحي التعليمية والوظيفية والخدمات الاجتماعية .

نحو ٤٠٠ صفحة من الجداول بعشر ليرات لبنانية . يضاف اليها اجور البريد الجوي : ١ ل.ل. في العالم العربي ، ٢٥٠ ق.ل. في اوروبا ، ٥ ل.ل. في سائر الدول .

اطلبه من : مركز الابحاث — قسم التوزيع .
ص ب ١٦٩١ — بيروت .

رسالة من الضفة الغربية

ج. هـ. جانسن

خص الصحافي الهندي ج. هـ. جانسن « شؤون فلسطينية » بهذه الرسالة التي بعث بها من الارض المحتلة .

قمت في نهاية نيسان (ابريل) بأول زيارة الى القدس والضفة الغربية منذ حرب تشرين (اكتوبر)، وهي رابع زيارة اقوم بها منـــذ حرب حزيران (يونيو) ، وربما كانت العاشرة منذ ١٩٦٠ الى الاراضي الواقعة تحت السيطرة الاسرائيليـــة . وهذه المرة وجدت روحا تختلف الاختلاف كله فـــي الضفة الغربية بل أنها اكثر اختلافا ، من الناحية النفسية ، بين الاسرائيليين ذاتهم .

كان الوجه الاكثر مدعاة للكآبة في الزيـــارات الى القدس بعد ١٩٦٧ هو ان الاسرائيليين تركـــوا الانطباع البالغ الغطرسة بأنهم سيبقون هناك الى الابد . وكان الامر الاسوأ هو أن بعض الفلسطينيين أعطوا الانطباع احيانا بأنهم يقبلون بذاك الادعـــاء كحقيقة واقعة . هذه المرة وجدت ان الفلسطينيين قد رفضوا ذلك الاحتمال ، وبعض الاسرائيليين على الاقل ابتدأوا يشكون في (أبدية) حكمهم للقدس .

كان هذا جزءا من ثقة جديدة بالنفس بين أبناء الضفة الغربية في أعقاب حرب تشرين (اكتوبر). وهي ثقة بالنفس لا تنبثق عن الاعمال البطولية للجيوش العربية فحسب ، ولكنها ناشئة ايضا عن خبرتهم المباشرة لفقدان الاسرائيليين لاعصابهم .

ولنبحث اولا في ردة الفعل الفلسطينية ، تبرز الثقة الجديدة بالنفس في فعلي ايمان يتمسك بهما الفلسطينيون تمسكا شديدا . أحـدهما هو ان الاسرائيليين سيخرجون من الضفة الغربية بنهاية السنة ، والاخر هو ان القدس ستكون عاصمة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة . ومن الطبيعي ان يعني هذا ان الضفة الغربية لن تعود الى الحكم الهاشمي ، وكان هذا ايضا يؤخذ على انه أمر مفروغ منه . وبدا لي ، انا الاتي من الخارج ، حاملا بعض المعرفة عن مدى اتقان الاسرائيليين لتكتيكات التأجيل و « خلق حقائق جديدة » و «أمور واقعة » ، وكأن هذين الاعتقادين مغاليـــان في التفاؤل وربما كانا من قبيل التفكير الرغبي ليس الا . واعتقد انه كان ثمة بعض التفكير من هذا النوع في موقف الضفة الغربية ، وهذا أمر مفهوم، ومحتوم بالفعل . لقد كنت في القدس قبيل « عيد الاستقلال » الاسرائيلي ، وبدا كأن الاسرائيليين تعمدوا رفع أكبر عدد ممكن من أعلامهم فـــوق المباني العامة في القدس العربية . ومجرد رؤية رموز الاحتلال تلك ساعدت المرء على ادراك مدى الحاجة اليائسة التي يشعر بها ابناء الضـــفة الغربية للتخلص من الحاكم الاسرائيلي . وكان بامكان هذا التوق اليائس الى التحرير ان ينتج التفكير الرغبي . ولكن كانت هناك ، ايضا ، حجج عقلانية لدعم الاعتقادات الفلسطينية . كانت الحجة الاولى ان عمليات صنع السلام قد استجمعت زخما قويا ، بصورة رئيسية لان الدولتين المتفوقتين مصممتان على ازالة فوضى الشرق الاوسط ، بحيث انه من غير الممكن ايقاف هذه العمليات بمجرد ترتيب مصري او سوري . ثانيا ، لا يمكن ان يكون هناك حل سلمي نهائي دون تسويـــــة للمشكلة الاساسية ، مشكلة الضفة الغربيـــــة والقدس اللذين كانا وجهين من اوجه القضيـــة الفلسطينية ، وهي بدورها كانت السبب الاصلي للوضع المعقد كله في الشرق الاوسط . لذلك لن يكون سلام دون انسحاب اسرائيلي هناك ، ولن تكون ثمة تسوية دون سلام . ولكن ستكون هناك تسوية ، ولو فرضت فرضا بالضرورة : لذلك سيكون هناك انسحاب . هذا فيما يتعلق بالحجج الايجابية .

أما الحجج السلبية فكانت ترتكز على فقدان الاسرائيليين لاعصابهم بعد تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، فقد ارتعد الاسرائيليون مما حدث آنئذ الى حد انهم، ولاشهر بعد ذلك، تركوا الفلسطينيين وشأنهم الى أقصى حد ممكن . فقد أوقفوا عمليا تنمرهم واستئسادهم ووخز الابر والمضايقات . ولما عاد الوجود الاسرائيلي ، ببطء ، ليؤكد نفسه من جديد ، كان من نوع مختلف ، فقد خفت الغطرسة والسلوك السيء . والروح التوكيدية الجديدة للفلسطينيين ، التي كانت ستجلب التوبيخ وحتى العقاب في الماضي ، صار يصغى اليها الان بتهذيب على الاقل . وكما قال لي احد ابناء الضفة الغربيــة : « عندما تكون لدي أية معاملات مع المسؤولين الاسرائيليين الان ، انفخ دخان سيجارتي في وجوههم » — وهي ايماءة تافهة ، وربما كانت مراهقة بعض الشيء ، ولكنها ذات دلالة بالغة رغم ذلك . ذلك انه عندما يفقد المحتل الاجنبي ارادته في الحكم ، المرتكزة على ايمانه في قدره الامبريالي ، فان نظام الاحتلال ذاك ينهار .

واستنادا الى ما سمعته من مصادر معلوماتي الاسرائيلية الخاصة ، يمكنني القول بوثوق ان هناك ، يقينا ، بين طبقات الانتليجنسيا والمثقفين الاسرائيليين شكا عميقا على الاقل في قدر اسرائيل الصهيوني ، أي الامبريالي ، ومع ان مكوثي في القدس كان قصيرا ، للاسف ، فانني لم أتطلب وقتا أطول لاكتشف ان الاسرائيليين والمجتمــع الاسرائيلي قد سببت لهما حرب تشرين (اكتوبر) هزة أعمق بكثير مما حملتنا على الاعتقاد كل التقارير الخارجة من اسرائيل . والاسئلة التي تطرح وتناقش باسهاب في الصحف والراديو والتلفزيون هي التالية : ما هي غاية اسرائيل ؟ ما هو موضع دولة صهيونية في الشرق الاوسط ؟ هل يجب ان تكون اسرائيل في الشرق الاوسط على الاطلاق ؟ هل الصهيونية حركة قومية أم وكالة ســفريات ؟ (أنا ، شخصيا ، سررت بنوع خاص لهذا السؤال الاخير اذ كنت قد الفت كتابا حاولت فيه ان اثبت ان الصهيونية هي مجرد وكالة سفريات وليست حركة قومية) . وابديت ملاحظة حول عمق الشك الذاتي لمصادر معلوماتي الاسرائيلية فأجابوا جميعا بأنني ، كغريب ، لا يسعني ان افهم الى أي حد عميق هزت حرب تشرين (اكتوبر) اسرائيل وما زالت تهزها ، وقال لي احدهم : « كانت زلزالا ، والارض عينها مادت تحت أقدامهم ومــا زالت تتحرك ». وحين سألت عن سبب ردة الفعل المفرطة في نظري ، أعطيت ثلاثة أسباب . اولا ، الصورة الفجائية والمفاجئة للهجوم العربي ، نظرا لعدم وجود أي تزايد في التوتر قبله . ثانيا ، وهو الامر الاهم ، كان الفرق بين حالة الحرب والمزاج السائد في اسرائيل قبلها . فذاك المزاج كــان اقتناعا راسخا بأن اسرائيل قد حققت أخيرا هدفها النهائي — السلام لجيل آخر على الاقل ضمن حدود مثالية . ثم جاءت الحرب التي تبين انها اول حرب حقيقية خاضتها اسرائيل ابدا ، فهي المرة الاولى التي اضطر فيها الجنود الاسرائيليون الى خوض قتال ضار قتلوا فيه وتشوهوا بأعداد كبــيرة . واكتشفوا انهم في حين ابتهجوا وتفاخروا بالنزهتين العسكريتين لعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ، فانهم لم يحبوا اطلاقا الحرب الحقيقية ، والقتال الحقيقي. من يحبهما ؟ ولذا عاد الجنود الاحتياطيون المثقفون الشبان حاملين معهم أسئلة : اذا كنا سنجبر على خوض حرب من هذا النوع ، حرب قاتلة حقا ، مرة كل خمسة اعوام او ستة ، وستكون دموية أكثر على الارجح في المرة التالية ، فأي نوع من الدول هي تلك الدولة التي زجتنا في حالة كهذه ؟ لماذا يكون لي أي دور في هذه الحالة الرهيبة ؟ ومن هنا الزيادة الصغيرة ولكن البالغة الدلالة في الهجرة من اسرائيل . ومن هنا ، ايضا ، ادراك أقسام كبيرة من القيادة الاسرائيلية ، ومن الانتليجنسيا ورسال وسائل الاعلام بأن حلا وسطا مع العرب ، وخصوصا مع الفلسطينيين ، هو الطريق الوحيدة الى السلام . وأضيف بسرعة هنا ان الحل الوسط يتصور استمرار اسرائيل كدولة يهودية منفصلة ، أقل اقتصارا على اليهود ، ولكن ليس بالضرورة كدولة صهيونية. واني أشك في ما اذا كان هناك ، حاليا ، أكثر من ٢٠٠ اسرائيلي يقبلون بفــكرة دولة علمانية ، ديموقراطية ، وقد قرئت مقالــة نايف حواتمة على نطاق واسع وبصورة جدية ولكنها لم تكسب انصارا كثيرين ، هذا اذا كسبت أي نصير . ولكن حينما سألت الاسرائيليين اذا كان هذا الموقف الجديد يعني انه يمكن الان التوصل بسهولة وسرعة الى تسوية كان الجـــواب ، المستغرب ، « كلا » . وشرحوا قائلين ان السبب هو انه ، في حين حدث اهتزاز كبير للافكار المكونة

سلفا على صعيد رجل الشارع الاسرائيلي ايضا ، فهو لم يؤد الى الاستنتاج المنطقي بأنه لا بد من القيام بتغييرات وتسويات في سياسة اسرائيل العربية . وكان الامر الوحيد الذي افضى اليه هو الاعتقاد بأن قوات الدفاع الاسرائيلية ، في المرة التالية ، يجب ان تكون أكثر يقظة ، ويجب ان تضرب اولا ، وتربح الحرب بسرعة ودون خسائر كبيرة في الارواح . وهكذا استنتجت مصادر معلوماتي الاسرائيلية : « يجب ان نخوض حربا أخرى لنعلم شعبنا ان الحرب من نوع حربي عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ لم تعد ممكنة ، وكل حروبنا من الان فصاعدا ستكون حروبا دموية . وربما احتاج الامر لحرب او حتى لحربين أخريين ليتعلم شعبنا تلك الامثولة . وبعد ان يحدث هذا سيكون الشعب الاسرائيلي ، فضلا عن قيادته ، مستعدا للسلام . وفي الوقت الحاضر ستجد القيادة صعوبة فائقة لاقناع الشعب الاسرائيلي بفكرة تسوية حل وسط » .

وباختصار ، لقد وقعت القيادة الاسرائيلية في فخ دعاوتها هي المعادية للعرب . فقد نجحت أيما نجاح في غسل أدمغة الاسرائيليين وجعلهم يعتقدون ان العرب لا يريدون الا التصفية المادية للشعب الاسرائيلي . فان رجال المقاومة ، بالنسبة لهم ، هم مجموعة غيلان تأكل الاطفال في الفطور . وما حدث في كريات شمونة عزز هذا الموقف بالطبع . وان خمس عمليات أخرى من نوع عملية كريات شمونة يمكنها ان تجعل السلام مستحيلا من الجانب الاسرائيلي . لكن عشر عمليات من نوع عملية كريات شمونة يمكن ان يكون لها تأثير حرب أخرى — فتجعل حتى أكثر الاسرائيليين عنادا وخوفا يدركون ان تسوية حل وسط ليست أفضل فحسب بل هي محتومة .

لنعد الى ابناء الضفة الغربية . ان ما يحبون رؤيته هو دولة فلسطينية ضمن حدود تقسيم ١٩٤٧ . واذا ما أصر الاسرائيليون على عدم تسليم الاراضي المحتلة الا للملك حسين ، فلا بد عندئذ من القبول به مؤقتا ، لكن أي استطلاع للرأي العام سيسفر عن أكثرية ساحقة تؤيد الاستقلال التام . وبعد بضعة أعوام قد تختار الضفة الغربية ان يكون لها ارتباط رسمي من نوع ما مع الضفة الشرقية . وكان هذا ، ايضا ، هو رأي كل أبناء الضفة الشرقية الذين تحدثت اليهم ، ولاحظت انهم يسلمون تماما بفكرة استقلال الضفة الغربية .

وفي الختام ، لا بد لي من ذكر فعل ايمان آخر بين ابناء الضفة الغربية . وهو ان منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثلتهم الوحيدة ويجب ان تذهب الى جنيف كوفد منفصل ، لكي تعبر امام العالم عن السيادة الفلسطينية الجديدة . ووجدت هذا الايمان مؤثرا ومفاجئا في آن معا ، لانني اعتقد انه ما يزال على منظمة التحرير الفلسطينية ان تكسب هذا الايمان وتستحقه . وعندما أتيت على ذكر الخلافات في الرأي بين المنظمات المختلفة ، أزاحها أصدقائي في الضفة الغربية جانبا بنفاد صبر غاضب . قالوا : « لقد مضى وقت مثل هذه الامور، وما عليهم الا الالتقاء معا ». وذاك الرأي، الاتي من الفلسطينيين الذين تحملوا بشجاعة سبعة أعوام من الاحتلال الاسرائيلي الصارم ، يحدد مدنا يحتم الواجب على منظمة التحرير الفلسطينية ان تحققه .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

معلوت : اختبار الارادة الفلسطينية

اذاعة اسرائيل في اللغة العبرية لخصت أحداث اليوم الخامس عشر من ايار كما يلي : « يوم من القلق والفزع يمر علينا اليوم . فان يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ ، يوم اعلان دولة اسرائيل ، أصبح ذكرى للعدوان في العالم العربي . وقد ذكرتنا الشرطة وحذرتنا من هذا التاريخ ، منذ بضعة ايام . واليوم هو ١٥ ايار . وكنا أمس فقط قد أقمنا ذكرى مرور ثلاثين يوما على مجزرة كريات شمونة . واليوم نتابع بقلق ونزع أحداث النهار ، منذ ساعات ليل أمس وصباح اليوم » . ومنذ ما قبل الخامس عشر من ايار بمدة كافية كانت وكالات الانباء تتناقل الاستعدادات الاسرائيلية تحوطا لمواجهة الهجمات الفدائية المتوقعة في ذلك اليوم . وعلى الرغم من ذلك فقد استطاعت المقاومة الفلسطينية ان تثبت انها قادرة على تجاوز تلك الاستعدادات التي كانت جدرا من ورق أمام تصميم الارادة الفلسطينية ، وهنا صلب المعجزة الفلسطينية . المعجزة ؟ بلى اذا استحضرنا ان تاريخ الشعب الفلسطيني المعاصر — بخلاف تاريخ كل شعب آخر — هو تاريخ نضاله ولا شيء سوى نضاله بكل ما يتمخض عنه هذا النضال من افراح انتصارات او مرارات هزائم ، المشمولة جميعا (الانتصارات والهزائم) بناظم واحد هو ، منذ ان كان هذا الشعب فلسطينيا ، تصميم الارادة وارادة التصميم. والخامس عشر من ايار الاخير كان اختبار تصميم الارادة الفلسطينية امام استعدادات العدو من جهة فاجتاحتها هذه الارادة ، وامام محاولات الاستسلام التصفوي من جهة ثانية ، فاثبتت انها قادرة على الفعل فيها وهزها حتى الجذور .

الخامس عشر من ايار كانت امتداداته في القدس حيث اكتشفت صواريخ موجهة الى قلب المدينة ، وفي ميناء حيفا حيث شب حريق في خزان نفط ، وفي الجليل الاعلى حيث وقع هجومان احدهما على أحد منازل المستوطنين والثاني على سيارة ركاب، غير ان الخامس عشر من ايار كانت قمته في معلوت، المستعمرة الصهيونية القريبة لترشيحا العربية ، وقد اوصل ذلك اليوم قمته وحدة الشهيد كمال ناصر التابعة للجبهة الديمقراطية الشعبية . زياد عبد الرحيم وعلي احمد حسن واحمد صالح نايف ، افراد الوحدة ، قاموا في الساعة الرابعة من فجر ذلك اليوم باحتلال مدرسة في معلوت واحتجاز الطلاب فيها البالغ عددهم نحو مئة ، وطلبوا مقابل اطلاق الرهائن ان تفرج اسرائيل عن ستة وعشرين مناضلا معتقلا في سجونها . هنا مفصل مهم في العملية. ان قائمة المناضلين المطلوب اطلاق سراحهم تضم مناضلات ومناضلين فلسطينيين ، ولكنها تضم كذلك اسمي يهوديين (رامي ليفنه ومالي ليبرمان) كانت السلطات الاسرائيلية قد حكمت عليهما بالسجن لانتمائهما الى تنظيم « الجبهة الحمراء » التي ضمت عربا ويهودا غيرصهيونيين ويعادون اسرائيل. المفصل هنا ان الثورة اثبتت مصداقية شعارها (الهدف : اقامة دولة ديمقراطية يتعايش فيها الجميع دون تمييز بسبب دين او جنس)، ومصداقية الثورة تجلت في انها لم تميز بين المناضلين بسبب دين او جنس .

السياق اتخذ الشكل التالي . ابلغت الوحدة الفدائية القيادة الاسرائيلية عن قرارها في كيفية تنفيذ اطلاق سراح المعتقلين : « لقد اخترنا لتنفيذ الشروط بيننا كلا من سفير رومانيا وسفير فرنسه ومندوب الصليب الاحمر الدولي . كلمة السر سيأخذونها لدى الافراج عن رفاقنا المعتقلين ثم الاتصال بنا . لديكم الوقت الكافي من الان حتى

الساعة السادسة مساء فقط . يجب ان ينفذ الاتفاق بالخطوات الاتية : ينقل رفاقنا بواسطة طائرة خاصة الى مطار دمشق . سيأخذ السفراء ومندوب الصليب الاحمر الدولي كلمة السر بعد الافراج عن رفاقنا ويستطيع الوسطاء الاتصال بنا على انفراد وان أي اتصال بنا من دون كلمة السر مرفوض . سنطلق فقط نصف المحجوزين فور الافراج عن رفاقنا وننقلهم الى دمشق ثم ننتقل نحن والنصف الباقي والسفيران ومندوب الصليب الاحمر في الباص الى أحد المطارات . سنفرج عن النصف الاخر بعد ان نصعد جميعا الى الطائرة وسنبقي السفيرين ومندوب الصليب الاحمر الدولي حتى نصل الى دمشق » . وعند الظهر أعلنت الاذاعة الاسرائيلية ان الحكومة الاسرائيلية في جلستها صباح اليوم نفسه قررت ان تفرج عن الفدائيين المطلوبين .

هل كانت اسرائيل تنوي فعلا تنفيذ هذا القرار ؟ هناك شك كبير في ذلك بل جزم بعكسه ، فالحركة الصهيونية التي أسهمت في اطعام اللحم اليهودي للافران النازية من أجل تحقيق غاياتها ، هي الصهيونية نفسها الان التي تستبيح مضغ لحم أطفالها ولا تتنازل عن تلك الغايات . ان الغطرسة الاسرائيلية التي انتهكت في تشرين ــ لا تزال بحاجة الى اكثر من تشرين كي تعترف بأنها قابلة للهزيمة ، ومستعدة لتقديم تنازلات والاعتراف بانتصارات الاخرين . اسرائيل تدرك ولا شك ان التنازل الاول هو بمثابة الضربة التي تدحرج كرة الجليد من قمة الجبل الى قعر حضيضه والتي تكبر بمزيد من التنازلات حتى التسليم الاخير . وهكذا كان يبدو منذ البداية ان الموافقة لم تكن تستهدف سوى المناورة وكسب الوقت . لقد « خدعت القيادة الاسرائيلية [كما جاء في بيانات الجبهة] سفيري رومانيا وفرنسه باتخاذهما كتغطية لاهدافهما الاجرامية . فقد استمرت طوال اليوم ، وخصوصا في فترة بعد الظهر ، في ابلاغ السفيرين بأنها تجهز طائرة لنقل المناضلين الذين طالبنا بالافراج عنهم. وطلبت في البدء ان يتم توجيه الطائرة نحو بوخارست فرفضنا الطلب الذي يهدف الى كسب الوقت بسبب بعد المسافة . ثم ادعت اسرائيل انها لا تملك طائرات وانها تنتظر طائرة تابعة للامم المتحدة تأتي من القاهرة ، وعادت اسرائيل في الساعة الخامسة والربع وابلغت سفير فرنسه وسفير رومانيا في تل ابيب ان المناضلين الاسرى غادروا بطائرة اسرائيلية الى قبرص ، وطلبت الحصول على كلمة السر التي يتم بموجبها التفاهم مع الفدائيين في شأن اطلاق سراح الرهائن » . كان الخداع واضحا اذن لقيادة الجبهة الديموقراطية التي كانت تجري اتصالاتها من خلال سفارة فرنسه في دمشق وعندما لم تخدع القيادة ولا الوحدة الفدائية اتخذت الحكومة الاسرائيلية قرارها في الساعة الخامسة والنصف تقريبا كما صرح بذلك وزير الاعلام الاسرائيلي ، أي قبل نصف ساعة من الموعد النهائي المحدد . وكان يتوجب على الحكومة ان تختار بين امرين ، كما قال بيرس ، اما ان تنتظر لنهاية الساعة السادسة فتخاطر بحياة جميع الاولاد ، او ان يتم اقتحام المبنى . و « اتخذ قرار اقتحام المدرسة » ، كما أعلنت جولدا مئير للاذاعة الاسرائيلية . وفجر الرجال الثلاثة أنفسهم ومن حولهم بعد ان قاتلوا القوة المهاجمة .

لقد اوجز نايف حواتمة ، الامين العام للجبهة الديمقراطية ، الاستخلاص الرئيسي للعملية كما يلي : « ان عملية ١٥ ايار المجيدة تمت صباح الذكرى السادسة والعشرين لاغتصاب جزء من وطننا الفلسطيني مؤكدة ان الوطن الذي يقف ابناؤه للدفاع عنه لن يضيع وسيتحرر مهما بلغت التضحيات . ان عملية ١٥ ايار المجيدة تؤكد الارادة الفلسطينية الثورية التي ترفض محاولات كيسنجر ، رسول الامبريالية الاميركية ، لتمرير حل استسلامي تصفوي على شعبنا وقضيته الوطنية المقدسة » . (حديث لـ « النهار » ٥/١٦) . ولم يكن هذا الاستخلاص تحليلا فقط ، وانما تجسد واقعا في ردة فعل كيسنجر تجاه العملية . ففي تعازيه لجولدا مئير قال « اننا نعتقد ان عنفا كهذا لا يمكن ان يكون له أي تأثير سوى عرقلة السلام في الشرق الاوسط » ، و « السلام » هنا هو شكل التصفية التي تريد اميركا الخروج بها . واذا كانت هذه العملية قد تمكنت ــ على السطح ــ من تأجيل هذا «السلام» يوما ، بتأجيل سفر كيسنجر الى دمشق يوما ، فان تفاعلاتها الحقيقية وعواقبها والمضامين التي حملتها والتي أبرزها تصميم الشعب الفلسطيني على القتال ورفض شكل التسوية الاميركية ــ كل

ذلك سيجعل حلم التسوية كابوسا ، والمقاومة اثبتت انها قادرة على ذلك ، قادرة على ان تكون الصاعق الذي يفجر الاوضاع من أجل اعادة ترتيبها بما يخدم مصلحة حركة التحرير العربية . ولقد بدأت العواقب تتفاعل منذ اللحظة التي بدأت فيها اسرائيل بغاراتها الجوية على مخيمات الفلسطينيين والقرى اللبنانية في اليوم التالي مباشرة لعملية معلوت . فقد اثبتت هذه الغارات الانتقامية — الابادية (مخيم النبطية تعرض لثلاث غارات ابادية متتالية خلال ساعات) حقيقة النقيضين اللذين لا يمكن ان يستمر الواحد منهما في الوجود الا بفناء الاخر : الفلسطينيون واسرائيل . وكما عززت عملية معلوت روح الانتقام في اسرائيل ، فان التجارب السابقة التي مرت بها حركة المقاومة في تعاملها مع الجماهير الفلسطينية وانعكاس عذابات هذه الجماهير ايمانا باهداف حركة المقاومة ونهجها، هذه التجارب تجعل الاطلالة على المستقبل من خلال الغارات الاسرائيلية الاخيرة واثقة وواضحة: المزيد من الالام يعني المزيد من التصميم الفلسطيني على ان تكون الارادة الفلسطينية هي في المقام الاول لدى حسم الارادات المتناقضة وتقرير المصير.

القمة الفلسطينية

المجلس الوطني الفلسطيني حسب قواعد العمل فيه والقصد من وجوده هو الجهة التشريعية الشرعية الفلسطينية التي تحدد الخطوط العامة واحيانا التفصيلية لكي تنهج نهجها القيادة الفلسطينية ، كما انه رسميا هو السلطة العليا صاحبة القرار في الشأن الفلسطيني ، كذلك من ناحية عملية فان المجلس هو الحكم في ما يعرض عليه من وجهات نظر واجتهادات يخرج منها على الاغلب بموقف توفيقي ضمن اطار ميثاقه الوطني وبرامجه العامة . ومن خلال تجارب المجلس الوطني — وخاصة دوراته الاخيرة — فان آلية صنع القرار فيه كانت تتجه نحو الاخذ بما هو متفق عليه باجماع في ظل الحرص على الوحدة الوطنية دون ان يسمح للاختلافات المذهبية او التكتيكية ان تنتهك أسس هذه الوحدة او تقوض — واقعا او احتمالا — صورتها التي تحرص الفصائل جميعا على ابقائها سليمة . ومن هنا كان يجري تطويق جميع التعارضات التي تنشأ ، لاسباب ذاتية او موضوعية ، وحصرها في أضيق نطاق وعدم السماح لها بأن تتصاعد الى درجة الاختلاف المؤثر على صورة اللقاء الجبهوي الذي ناضلت الفصائل جميعا من اجل الوصول اليه وارتضت بمنظمة التحرير وأجهزتها التشريعية والتنفيذية ان تكون اطاره .

هكذا من خلال هذا التقليد في العمل الفلسطيني تتوضح أسباب تأجيل انعقاد المجلس الوطني — دورته الثانية عشرة — غير مرة كان آخرها الى مطلع حزيران . فالقضايا المفروض ان تواجهها هذه الدورة جرى حولها حوار عريض وكثير، وخلال أشهر عدة ، دون ان يتم التوصل بشأنها الى موقف موحد — او حد ادنى من الموقف الموحد — يحفظ للمجلس الوطني قدرته على ممارسة دوره ضمن قواعد العمل فيه والاعراف التي تتحكم بهذه القواعد ، ودون ان يتحول هذا الحوار الى **خلاف رسمي** تكرسه الجهة التشريعية الرسمية . وبذلك فان التأجيل كان — في واحد من جوانبه — **محاولات ايجابية** لتدارك الصدع اكثر منه **هروبا سلبيا** من مواجهة الحقائق . كما كان التأجيل — في جانب منه آخر — مرتبطا بما يجري في المنطقة من أحداث، خاصة ترتبات ما يجري في الجانب السوري . فاذا كان من الخطأ الايحاء باستمرار بأن الموقف السوري هو مفتاح الموقف الفلسطيني ، فانه يظل صحيحا والى أبعد مدى ان التطورات في سوريا — من ناحية تاريخية ومن حيث تحليل المعطيات العربية والفلسطينية الراهنة — تترك آثارها الواضحة في الصفحة الفلسطينية سلبا وايجابا . وبذلك فان انتظار ما تسفر عنه مساعي فك الالتحام على الجبهة السورية ، بالاضافة الى اشتعال هذه الجبهة في حرب هي خامسة بالتأكيد ، ونتائج ذلك كله على الموقف العربي والاخر الفلسطيني كانت سببا آخر في تأجيل عقد المجلس الوطني .

غير ان القضايا الملحة التي أفرزتها حرب تشرين كانت تقتضي من المقاومة اجابات محددة واضحة تأخذ في الاعتبار متغيرات الساحة العربية (والدولية ايضا) ولكنها في الوقت نفسه تسترشد بالمصلحة الوطنية الفلسطينية اولا واخيرا ، وهو شأن لخصه الاخ ابو عمار أكثر من مرة بقوله ان القرار سيكون فلسطينيا . لقد استحدثت مسائل بعد حرب تشرين ، منها ما أخذ بالفعل حيز التنفيذ ومنها ما زال في نطاق الامكان (ان يكون او لا يكون)

وقد جرى تقدير بأن بعضه واقع فعلا . وعلى الجانب الفلسطيني تلخصت هذه المسائل باثنتين : مصير الارض الفلسطينية التي ساد اعتقاد بشأنها بأن اسرائيل منسحبة منها (أو من بعضها) والموقف من المشاركة في الجهود الدبلوماسية المفترض فيها ان تؤدي الى ذلك الهدف ، وهي مشاركة ترتبط بالتالي وبالضرورة بمؤتمر جنيف العتيد ، حضوره أم عدم الحضور . وكان الحوار الفلسطيني — الذي هو ديموقراطي وصحي — يستهدف الاجابة على هاتين المسألتين بالتحديد ، وكان لا بد ان يصل الحوار الفلسطيني الى الحسم فيهما من خلال اطره الشرعية التي يمثل المجلس الوطني المقام الاول فيها والرسمي ، بحيث يظل للمجلس — وهنا التعارض — تقاليده القديمة في العمل : الحد الادنى من وحدة الموقف .

من هنا اكتسبت اجتماعات القادة الفلسطينيين في بيروت في الشهر الماضي أهمية خاصة ، فهي المحاولة الاكثر مسؤولية للخروج باجابات محددة تلتقي حولها الافكار المتباينة جميعا ، على المسائل المطروحة في الساحة الفلسطينية . وقد بدأ اجتماع القادة في بيروت في ٨ ايار (مايو) بحضور قادة الفصائل جميعا وعدد من القياديين المستقلين . وقد ذكرت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) في يوم الاجتماع نفسه « ان هذه الاجتماعات ستستمر عدة ايام للتوصل الى القرار الفلسطيني المنشود». وحاولت بعض المصادر الصحافية ان توحي بأن الاجتماع كان بطلب من اندريه غروميكو ، وزير الخارجية السوفياتي ، في اثناء لقائه بالاخ ابوعمار في دمشق في وقت سبق الاجتماع (« النهار » ٥/٩) الا ان الاخ محمد زهدي النشاشيبي ، سكرتير اللجنة التنفيذية ، اوضح ان الدعوة الى الاجتماع « كانت بمبادرة من جميع اعضاء اللجنة التنفيذية للوصول الى تصور موحد حول النضال المرحلي للشعب الفلسطيني مع ضرورة استمرار النضال من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجي وتحديد المهام المرحلية للنضال » («المحرر» ٥/١٠) ، كذلك أكدت الجبهة الديمقراطية في بيان لها (« المحرر » ٥/١١) انه « جرى تقرير عقد هذه الاجتماعات من خلال اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قبل اكثر من اسبوع »، كما ذكرت صحيفة « بيروت » (٥/١٠) المقربة من مصادر جبهة التحرير العربية ان اللجنة التنفيذية دعت الى الاجتماع في جلستها المنعقدة في ٢ ايار .

ما الذي دار في تلك الاجتماعات التي عقدت في الايام ٨ و٩ و١١ ايار ؟ ذكرت « وفا » (٥/٩) « ان النقاش والحوار الذي دار قد اثمر ... ارضية مشتركة يمكن القول ان الجميع **بدون استثناء** يستطيعون من خلال الوقوف فوقها الوصول الى نتائج حاسمة فيما يتعلق بالقرار الفلسطيني واتجاه هذا القرار » . وأكدت الوكالة الفلسطينية ان هذه الاجتماعات سوف تحقق للقيادة الفلسطينية ان تذهب الى المجلس الوطني الفلسطيني وهي تملك **توجهات واحدة** تستطيع من خلال طرحها على المجلس اغناء هذه التوجهات وصولا **الى القرار الفلسطيني الحاسم** » . وقد أبرزت الصحف أنباء هذه الاجتماعات واوردت بعض تفصيلات عنها . فذكرت « المحرر » (٥/١٠) ان المصادر الفلسطينية أكدت « ان الاجتماع الاول سادته روح ايجابية **واتفاقات شاملة** حول كل ما طرح في الاجتماع بشكل يكرس الوحدة الفلسطينية بما يكفل مصلحة الشعب الفلسطيني وحقوقه ، خاصة فيما يتعلق بمؤتمر جنيف والسلطة الوطنية على أي جزء من الارض الفلسطينية التي يتم تحريرها والرد على ما أعلنه الملك حسين في خطابه الاخير يوم الاول من ايار ». وذكرت « السفير » (٥/١٠) انه « برز في الحديث **شبه اتفاق على موضوع السلطة الوطنية** » وان الدكتور جورج حبش قال « ان لا احد يمكن ان يعترض على شعار السلطة الوطنية ولكنه ركز على ضرورة تحديد المهمات » . كما أعلن ياسر عرفات انه يرفض مطلقا قرار مجلس الامن ٢٤٢ لانه لا يمكن ان يكون اساسا لاية تسوية يقبل بها الشعب الفلسطيني ، كما اكد « **ان المنطلق الاول لدينا هو رفضه [القرار ٢٤٢] ورفض كل تسوية او لقاء او مفاوضات يكون هذا القرار أساسها** » وقد عزز الدكتور حبش في حديثه « **الاجماع الفلسطيني على عدم حضور مؤتمر جنيف على اساس قرار مجلس الامن ٢٤٢** » . من خلال المصادر الصحافية اذن يمكن القول ان التوجهات داخل الاجتماع كانت كما يلي : **شبه اجماع على قيام السلطة الوطنية ، الاستمرار في رفض قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ ، رفض حضور مؤتمر جنيف اذا كان على اساس هذا القرار .**

وقد اثار ما نشرته « النهار » (٥/١٠) تحت عنوان « محضر مؤتمر القمة الفلسطيني » ونسبت فيه كلاما للسادة ابو عمار وجورج حبش ونايف حواتمه وابو حاتم وزهير محسن وابو اللطف وماجد أبو شرار ، اثار ردود فعل مختلفة وغاضبة من جانب المقاومة . فقد صرح ناطق اعلامي فلسطيني تعقيبا على ذلك بقوله « ان هذا التصرف من « النهار » يسيء اساءة بالغة الى الجهود المبذولة لرص الصفوف في الساحة الفلسطينية كما انه يتضمن جملة مغالطات وتحويرات مكشوفة مما يتنافى مع الامانة الصحفية » (« المحرر » ٥/١١) كذلك أصدرت اللجنة التنفيذية بيانا (٥/١١) قالت فيه « ان جميع فصائل الثورة الفلسطينية وهي تعي كامل مسؤوليتها وتدرك أهمية تبلور الموقف الفلسطيني الموحد وتسعى اليه تجاه جميع القضايا المطروحة على ساحة المنطقة ، تود ان تناشد جميع وسائل الاعلام العربية عدم نشر أي اخبار عن أي اجتماع لا تصدر عن رئيس المجلس الوطني ، وهي في مناشدتها هذه تدين وتحذر مقدما من كل مخالفة لمضمونه » . وقد ذكرت « السفير » (٥/١٢) انها علمت « ان لجنة تحقيق قد شكلت لمعرفة مصادر توزيع الانباء المتضاربة حول اجتماعات قيادة المقاومة ولاتخاذ الاجراءات المناسبة لمنع تكرار ذلك » .

هذا ، وقد نقلت « وفا » (٥/١١) تصريحا للسيد خالد الفاهوم جاء فيه «استأنفت القيادة الفلسطينية في الساعة ١٠،٣٠ من صباح اليوم اجتماعها الذي بدأته يوم الاربعاء الماضي ، وذلك لمناقشة كافة الظروف التي تمر بها القضية الفلسطينية على ضوء التطورات في المنطقة . وقد سادت الاجتماع نفس الروحية البناءة التي سادت الاجتماع السابق، والمتوجهة نحو تحقيق وحدة الموقف الوطني الفلسطيني . وقد تم خلال هذا الاجتماع الاتفاق على جملة قضايا أساسية ستكون مدار بحث وصياغة بين لجنة مصغرة تضم الاخوة أبو عمار والدكتور جورج حبش ونايف حواتمة وزهير محسن وعبد الوهاب الكيالي وعبد المحسن ابو ميزر وأحمد جبريل » . وقد ذكرت « السفير » (٥/١٢) ان مهمة « اللجنة السباعية » التي تشكلت هي غربلة المناقشات والخروج منها بموقف موحد جماعي يستند الى ما اتفق عليه خلال الاجتماعات او ما يمكن الاتفاق عليه لاحقا .

الجديد في الموقف الاردني

كانت عناصر الموقف الاردني تجاه مسألة التمثيل الفلسطيني حتى نهاية شهر نيسان (ابريل) الماضي كما كشفت عنها تصريحات حسين والمسؤولين الاردنيين والبيان المصري — الاردني المشترك الصادر في ٤/٦ كما يلي : ان الضفة الغربية جزء من المملكة الاردنية وبذلك فليس من حق منظمة التحرير ان تتحدث بشأنها ، غير ان المنظمة يحق لها التحدث عن حقوق الشعب الفلسطيني التي تتجاوز « مسؤولية » الملك ، أي كل ما ليس له علاقة بالضفة الغربية . وهكذا فان الاعتراف الاردني بمنظمة التحرير لا يعني ان المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وانما النظام الاردني شريك في هذا التمثيل ، ونصيب النظام في هذه « الشركة » فلسطينيو الضفة الغربية وشرقي الاردن . من هذه الحيثيات « يوافق » الاردن على ذهاب وفد من المنظمة الى جنيف ، بعد ان كان الموقف الاردني في السابق ان الوفد الفلسطيني يجب ان يكون ضمن اطار الوفد الاردني ، غير ان هذه الموافقة مشروطة بألا يكون من اختصاص الوفد بحث مسألة مصير الضفة الغربية ، لان الوفد الاردني سيكون قد بت فيها في دورة سابقة في غياب وفد المنظمة . (راجع شهريات « شؤون فلسطينية » العدد ٣٣) .

كانت هذه هي عناصر الموقف حتى ٥/١ عندما القى الملك حسين خطابا لمناسبة عيد العمال برزت فيه النقاط التالية :

لقد أكد الملك ان اعترافه بمنظمة التحرير قائم منذ ان قامت المنظمة في العام ١٩٦٤ ، غير انه عاد الى التمييز بين « مسؤولياته » ومسؤوليات المنظمة في مؤتمر جنيف . فوجود وفد المنظمة في مؤتمر جنيف « أمر طبيعي كي يبحث في ما يتعدى صلاحياتنا ومسؤولياتنا المحددة في نطاق قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ . ويستطيع وفد المنظمة ان يطالب بالحقوق الشرعية لشعب فلسطين ، تلك الحقوق التي نصت عليها قرارات الامم المتحدة على مدى القضية » . ويلاحظ ان الملك حصر حقوق شعب فلسطين الشرعية بتلك التي نصت عليها قرارات الامم المتحدة ، وهي قرارات لم يكن لها علاقة بالضفة الغربية من حيث انها جزء من المملكة الاردنية من وجهة النظر الدولية ، كما ان

« المسؤوليات » التي سيضطلع بها الملك تقع في نطاق قرار مجلس الامن ٢٤٢ الذي يتعامل مع الاراضي **العربية** المحتلة (الضفة الغربية هنا) التي هي من « صلاحياته » واختصاصه . وهكذا يفهم رفض الملك « كل محاولة بعيدة او قريبة ، اسرائيلية او عربية ، تلتقي بوعي او بغير وعي لجعل التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف يتمثل بغير منظمة التحرير بالذات » ، يفهم من خلال ارتباطه بما سبقه عن تمثيل المنظمة لما يتعدى « صلاحيات » الملك و « مسؤولياته » وهو هنا منسجم مع المواقف السابقة التي أشرنا الى عناصرها .

غير ان الجديد الذي دخل في الموقف الاردني هو ما عبر عنه الملك بقوله : « اذا اتجهت ارادة الدول العربية وقادتها الى ايجاد **وضع جديد** يلقي على منظمة التحرير الفلسطينية **وحدها** مسؤولية البحث والسعي والعمل **لاسترجاع الارض الفلسطينية المحتلة بما فيها الضفة الغربية والقدس** ، والحقوق الفلسطينية ، وضع يكون من شأنه تغيير المسؤوليات وتبديل الاوضاع ، فلا نملك ازاءه أمام الاخوة العرب ، اذا اتجهوا الى الاخذ بمثل هذا القرار ، الا ان نستجيب **لاجماعهم** ونعتبره اعفاء لنا من مسؤولياتنا ونجعل الحكم على هذا القرار للتاريخ وحده » .

ان عناصر الموقف كما تبدو هنا هي كما يلي : لم يصرح الملك باعترافه بأن المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني بل أبدى استعداده للقبول بأن تكون مسؤولية المنظمة « البحث والسعي والعمل لاسترجاع الارض الفلسطينية المحتلة بما فيها الضفة الغربية والقدس » بجانب « الحقوق الفلسطينية » ، وقد جعل هذا الاستعداد مرهونا باتجاه الدول العربية الى ايجاد **وضع جديد** بمعنى **قرار جديد** فيه **اجماع جديد** . وفي هذه الحالة يتنازل الملك عن « مسؤولياته » تجاه الضفة الغربية ليكون **استرجاعها** من مسؤولية المنظمة ، وهي مسؤولية تقع ، كما يفهم من نص الخطاب ، ضمن اطار مؤتمر جنيف ، وبذلك فان هناك تضمينا بأن الاردن لن يذهب الى جنيف وهو ما اعتبره الملك « اعفاء لنا من مسؤولياتنا » . وهذه المسؤولية عن استرجاع الضفة الغربية في هذا الاطار هي الجديد الوحيد — في تقديرنا — في الموقف الاردني وليس الاعتراف بالمنظمة كما حاولت الصحافة — المصرية على الاخص — ان توحي . فان اعتراف الملك بأن المنظمة هي الممثل الشرعي **الوحيد** للشعب الفلسطيني سيفتح المجال واسعا امام التساؤل عن « **حق** » الملك ونظامه ليس في تمثيل فلسطينيي الضفة الشرقية فحسب وانما في **حكمهم** ايضا . وبذلك فان صميم مسألة **الرعوية الاردنية** للفلسطينيين في شرق الاردن ، وبالتالي مسألة الكيان الاردني نفسه حيث فيه الفلسطينيون — ديموغرافيا — أكثرية السكان ، ستكون مطروحة للبحث .

ما هي الاسباب التي دفعت الملك الى اتخاذ موقفه « الجديد » هذا وهو جديد بقدر ما هو مرهون بشروط حددها الملك . يمكن هنا ان يطرح عدد من التفسيرات ، احدها او بعضها او هي مجتمعة ، تلقي ضوءا على هذا الموقف المستجد .

١ — باسترجاع الاسلوب التاريخي الذي واجه به الملك تيارات المعارضة او الحركة الوطنية في البلد نستنتج ان اوضح خاصيات هذا الاسلوب ان الملك كان احيانا يضطر لاحناء رأسه للعاصفة عندما يجد ان موقعه أضعف من ان يقاومها والا تقتلعه من جذوره ، وبذلك فهو يقدم بعض التنازلات ، او التراجعات ، تربصا لفرصة قادمة ينقض فيها على المعارضة او الحركة الوطنية من موقع متمكن . أبرز تجاربه في هذا الصدد كانت في العامين ١٩٥٦ و١٩٥٧ عندما اضطر أمام مد الانتفاضة الجماهيرية التي حدثت في اواخر العام ١٩٥٥ في اثناء مسعى بريطانية لضم الاردن الى حلف بغداد ، اضطر الى التراجع امام الحركة الوطنية والى تقديم بعض التنازلات كان أبرزها طرد الجنرال كلوب من الجيش والسماح باجراء انتخابات حرة أسفرت عن قيام حكم وطني. غير انه عاد فانتقض على الحركة الوطنية بانقلابه المضاد المشهور في العام ١٩٥٧ عندما وجد الدعم والتأييد من جانب الولايات المتحدة بعد اعلان مبدأ ايزنهاور في « سد الفراغ » في الشرق الاوسط . ومن تجاربه البارزة كذلك انحناؤه أمام حركة المقاومة الفلسطينية ، بالتحديد بعد معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ ، والتسليم — بالامر الواقع — بحقها في الوجود العسكري والسياسي في شرق الاردن . الا ان هذا الانحناء لم يدم زمنا الا بمقدار

ما استطاع الملك ان يعبيء قواعده داخل الجيش والعشائر ويبني ادواته القمعية التي استخدمها بكفاءة في هجمته على المقاومة في العامين ١٩٧٠ و١٩٧١ . باستحضار هذا التاريخ هل يمكن القول ان موقف حسين الجديد — المشروط هو شكل من التراجع ، تحينا لفرصة مناسبة أكثر ، أمام ضغط فكرة حق المنظمة في تقرير مصير الارض الفلسطينية؟

٢ — بالاضافة الى ذلك — او ربما بديلا لذلك — فانه يمكن ان يؤخذ في الاعتبار لدى تفسير هذا الموقف ، ما تناقلته الانباء وركزت عليه وسائط الاعلام الفلسطينية في الفترة الاخيرة ، عن وجود تيارين داخل المؤسسة الحاكمة في الاردن (بالاخص داخل القصر) بالنسبة لما يجب ان يكون عليه الموقف من الضفة الغربية . التيار الاول يجسده حسين نفسه ويرمي الى التمسك بالضفة الغربية والابقاء على « مسؤولية » الاردن تجاهها ، اما التيار الثاني الذي ذكر انه بدأ يتبلور بعد مجازر تموز ١٩٧١ والذي يقوده الامير حسن ، فيهدف الى « اردنة » الاردن والتخلي عن كل مطالبة بالضفة الغربية والانعزال ضمن حدود شرق الاردن القديمة، وبذلك اسقاط خصوصية الاردن تجاه المسألة الفلسطينية . وقد استفاد هذا التيار من بوادر الشرخ الاقليمي في شرق الاردن الذي غذاه النظام نفسه لكسب معركته مع المقاومة . وقد كانت الانباء تشير الى تصاعد هذا التيار الثاني وازدياد تصلبه بحيث تعدى شكل ان يكون « خلافا في القصر » وانما هو بالفعل انعكاس لقواعد اجتماعية يستند اليها النظام. باسترجاع ذلك يطرح هنا الاستخلاص المتسائل : هل هذا الموقف الاخير من الملك يعتبر تنازلا للتيار الثاني — تنازلا مشروطا — ونوعا من المهادنة معه وتراجعا جزئيا امامه ؟ يضحي هذا التفسير مقبولا اذا أخذ في الاعتبار التركيز من جانب السلطات الاردنية على امكان الاستغناء عن الضفة الغربية اقتصاديا . ومن أمثلة ذلك ما نقلته صحيفة « الرأي العام » الكويتية (٥/٦) عن الدوائر الاردنية « شبه الرسمية » عن « ان الضفة الشرقية لنهر الاردن تعد اليوم قادرة على البقاء والحياة بفضل الفوسفات والنحاس بصفة خاصة ، وانه نتيجة لذلك فان المملكة الاردنية الهاشمية لن تنهار من جراء انفصال الضفة الغربية لنهر الاردن عنها » .

٣ — احد التفسيرات المحتملة لموقف الملك تتعدى العوامل المحلية والذاتية وترتبط مباشرة بما يرتب للمنطقة من اوضاع جديدة بتأثيرات من نتائج حرب تشرين ، وخاصة بالنسبة لمصير الضفة الغربية . ويبدو هذا الاحتمال ممكنا اذا كان الملك قد توصل الى « قناعة » ما بأن الضفة الغربية لن تكون من نصيبه في أية تسوية قادمة نتيجة لموازين القوى كما ظهرت بعد تشرين . وبذلك فان الملك هنا يستبق الاحداث حفاظا على عرشه من ان تطاله يد التغيير في حال تمسكه بأن يكون له نصيب من المكاسب الاقليمية في أية تسوية ، وبذلك فهو « يقنع بما له » حفاظا على الوجود نفسه .

٤ — فسر الاخ ابو أياد موقف حسين بثلاثة احتمالات : « الاول ان يكون الملك قد عرف من خلال اتصالاته بالعدو واميركه بعد كل التنازلات التي قدمها ان الانسحاب من الضفة الغربية لن يكون لانه ليس عليه اجماع . ولذلك يمكن ان يكون هذا التنازل الملكي التكتيكي لاحراج منظمة التحرير . الثاني : يريد الملك حسين ان يحرج منظمة التحرير ، او بمعنى آخر يريد ان يعرف هل ستتبنى منظمة التحرير مسؤوليتها وتتحدى الملك وتقبل بتحرير الارض المحتلة من خلال التسوية . والملك يعتقد ان هذه المناورة ستفجر الموقف الفلسطيني وستضعفه . ويعتقد الملك بعد ذلك ان الدول العربية ستلجأ الى الاردن وتتخلى عن منظمة التحرير . والثالث ان يكون هناك اتفاق بين الملك حسين وبعض الدول العربية على هذا الطرح من أجل عدم اعطاء المنظمة هذا الحق ، من خلال رفض بعض الدول العربية اعطاء المنظمة الحق في المطالبة بالاراضي التي سيجلو عنها الاحتلال » . (مقابلة مع صوت فلسطين في القاهرة نشرتها « السفير » ٥/٣) .

أي ان الموقف هنا لا يزيد عن مناورة لا تبطل الموقف الاساسي للنظام الاردني في التمسك بالضفة الغربية ، بل هي تعزز هذا الموقف وتقود اليه . ويبدو من تصريحات عدنان ابو عودة ، وزير الاعلام والثقافة الاردني ، في تفسيره لموقف حسين الاخير رائحة المناورة هذه واضحة . فقد صرح لـ«النهار» (٥/٩) ان الاردن يفرق بين امرين : « الاول هو الضفة الغربية باعتبارها جزء من المملكة نعمل لاستعادتها بمختلف الوسائل وابرزها الان علاقتنا

المباشرة بالمساعي السلمية في اطار مؤتمر جنيف والمجسدة في جولات الدكتور كيسنجر . والامر الثاني هو حقوق الشعب الفلسطيني . وموقف الاردن هو موقف الدول العربية ، أي حق منظمة التحرير في التحدث باسم الشعب الفلسطيني والسعي الى نيل حقوقه». ويظهر **الابتزاز السياسي** في شروحات الوزير الاردني بقوله « اذا أكملت الدول العربية اعترافها بالمنظمة كممثل وحيد وشرعي للشعب الفلسطيني وقالت انها هي الجهة الصالحة لحضور مؤتمر جنيف للتفاوض على استعادة الاراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية فلها منا المباركة . لكن ذلك يعني ، بالنسبة الينا ، اننا خرجنا من مؤتمر جنيف ولا علاقة لنا به بعد الان » .

ومهما تكن التفسيرات ، فان موقف النظام الاردني من مسألة التمثيل الفلسطيني ومصير الارض الفلسطينية لن يتعدى مهام الوظيفة الكيانية للاردن التي صممتها تاريخيا المصالح الاستعمارية في المنطقة . وهي وظيفة دخلت في الماضي في صميم الاستراتيجية البريطانية ، وهي تدخل حاضرا في صلب الاستراتيجية الامريكية . وبذلك فان أي دور مستقبلي للنظام ستحدده طبيعة هذه الوظيفة وافاقها وتتحكم به ارادة خارجة عن كل ادعاء ذاتي وهذه الارادة بدورها تظل خاضعة لجملة موازين القوى وقوانين الصراع في المنطقة .

الفلسطينيون والكويت

في شهر نيسان وايار الماضيين تعرضت العلاقات الفلسطينية الكويتية لشبه ازمة ظهرت علائمها اعلاميا . وقد بدأت هذه عندما نشرت « السفير » اللبنانية (٤/٢٧) نبأ قالت فيها ان مصادر فلسطينية مطلعة أبلغت الصحيفة ان حكومة الكويت اجرت مؤخرا اتصالات مع عدد من الدول الغربية وخصوصا فرنسا وبريطانيا لاقناعها بتأييد مشروع المملكة العربية المتحدة الاردني بدلا من دعم منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني حسب قرارات مؤتمر القمة العربي . واضافت المصادر كما اوردت الصحيفة ان حكومة الكويت اوضحت لبريطانية وفرنسة ان سير الامور بشكل مغاير سيؤثر على الوضع العام للمصالح البترولية الغربية لديها ، كذلك فانه سبق لوفد الكويت في مؤتمر القمة العربي الاخير في الجزائر ان مارس نوعا من الضغط في كواليس المؤتمر لاقناع الوفد الفلسطيني بالتنازل عن كلمة «الوحيد» في متن القرار المتعلق بتمثيل الشعب الفلسطيني ، كما ان الوفد الكويتي الى مؤتمر القمة الاسلامي في لاهور حرص على تشجيع السيد عبد المنعم الرفاعي ، رئيس الوفد الاردني ، لتسجيل تحفظه على قرار المؤتمر الداعي لاعتماد منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وذكرت الصحيفة بأن الكويت كانت قد أعادت المساعدات للاردن في اثناء حرب تشرين وهي التي قطعت بعد مجازر ايلول ١٩٧٠ كما قررت في ١٣ آذار الماضي تقديم معونة للاردن مقدارها ٢٥ مليون جنيه استرليني .

ردا على ذلك نفى السيد عبد العزيز حسين ، وزير الدولة الكويتي ، ان تكون الكويت قد أجرت اتصالات لتأييد مشروع الملك حسين الخاص باقامة مملكة عربية متحدة وقال ان هذا النبأ لا أساس له من الصحة « والكويت تدعم كليا القضية الفلسطينية » (« النهار » ٤/٢٩) ، غير ان « السفير » (٤/٢٩) عادت فأكدت ان هذه المصادر الفلسطينية « وثيقة الاطلاع » قالت ان لديها ما يثبت ان حكومة الكويت تتجه الى الضغط على بعض الدول الاوروبية لتقديم دعمها السياسي لمشروع الملك حسين وتخفيف الدعم السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وان هذه المصادر لديها معلومات مستقاة من مصادر كويتية مطلعة تفيد بأن الحكومة الكويتية سوف تقوم خلال الايام القادمة بتحرك نشط لصالح النظام الاردني . وقد أبرزت « وفا » (٤/٢٩) ما نشرته السفير ووضعته تحت عنوان « مصادر فلسطينية تؤكد : الكويت تتجه لدعم مشروع الملك المؤامرة » وكانت السلطات الكويتية قد منعت في وقت سابق مدير وكالة «وفا» من دخول الكويت واحتجزته طوال الليل في المطار قبل تسفيره الى بيروت يوم ٢/٢٤ . وذكرت « المحرر » (٤/٢٥) ان « م.ت.ف. أبدت اهتماما بالغا بالحادث واعتبرته تصرفا غريبا من الحكومة الكويتية التي أعلنت تأييدها في مناسبات عديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة وحيدة وشرعية للشعب الفلسطيني ، كما خلق الحادث نوعا من الاستياء الشديد لدى قادة المنظمة الذين قرروا التحقيق في الحادث واستفسار السلطات الكويتية عن أسباب منع المسؤول الفلسطيني المذكور من

دخول الكويت ، وعما اذا كان الحادث يعتبر فرديا أم تحولا جديدا في سياسة الكويت تجاه منظمة التحرير » . وقد ذكرت صحيفة « الرأي العام » الكويتية (٤/٢٨) أن مدير « وفا » منع من دخول الكويت لانه مدون في « اللائحة السوداء » منذ ابعاده عن الكويت في العام ١٩٦٦ لاسباب سياسية .

في ٥/١ شاركت « فلسطين الثورة » في الحملة فكتبت مقالا تحت العنوان « لماذا هذا الموقف لحكومة الكويت ؟ ملايين الدنانير الى الاردن يقابلها قطع المعونة عن مدارس منظمة التحرير » . وقد ذكرّت المجلة في مقالها بالنداء الذي نشرته الصحف الكويتية قبل ذلك باسبوعين ودعا فيه مكتب المنظمة في الكويت الجالية الفلسطينية الى جمع مبلغ مئة وخمسين الف دينار كويتي لتغطية نفقات تعليم أبناء فلسطين في مدارس منظمة التحرير في الكويت . وعلقت الصحيفة على ذلك بقولها «يبدو ان الاسباب الكامنة وراء مثل هذا الاعلان ليست مالية بحتة بل ان الاسباب الحقيقية أسباب سياسية اولا وقبل كل شيء . فالكويت تريد الفلسطينيين أدوات عمل عندها ، وهذا لا يمكن ان يتحقق الا في ظل استمرار الفلسطينيين في واقعهم السياسي والاجتماعي والتعليمي نفسه ، أي بمعنى أوضح ، في ظل بقائهم مشردين ومقهورين وطنيا ، وتحت حكم النظام الهاشمي العميل في عمان ، بينما الفلسطينيون يريدون وجودهم السياسي وكيانيتهم المستقلة المتحررة من أي وصاية عربية . اذا كان ثمة شيء غير هذا فلتقل لنا السلطة الكويتية لماذا يتعلم ابناء الشعب الفلسطيني في كل البلدان العربية الفقيرة والغنية في كل مدارسها وجامعاتها بالمجان الا في الكويت الغنية ؟ ثم لماذا تقدم الكويت ملايين الدنانير الى الاردن بحجة الصمود العربي وتضن على شباب الغد الفلسطيني ، ابناء النضال والصمود الحقيقي ، ببضعة من الدنانير الكويتية ولا تلتزم لا بل تقطع المعونة التي تعهدت بتقديمها الى مدارس المنظمة » .

كانت ردة الفعل الاولى على الصعيد الكويتي ان السيد عبد العزيز حسين أكد ان بلاده تقدم تأييدها لمنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد لشعب الفلسطيني ، كما أكد ان الكويت لن تتردد في تقديم كل المساعدات اللازمة للمنظمة وأوضح ان هناك تعاونا وثيقا بين الكويت والمنظمة وخاصة في مجال التعليم ثم نفى نبأ الغاء الكويت المنح التي تقدمها للطلبة الفلسطينيين (« وفا » ٥/٢) .

غير انه يبدو ان هذا التصريح كان يخفي خلفه جوا من الانفعال والتوتر في العلاقة الفلسطينية — الكويتية مما تطلب زيارة الى الكويت قام بها الاخ ابو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح وعضو المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية استمرت ثلاثة ايام واختتمت في ٥/٥ . وقد ذكرت « الرأي العام » الكويتية (٥/٥) ان ابو مازن قام بزيارة للسيد سعد العبدالله ، وزير الداخلية والدفاع ، وقد دار البحث فيها حول موضوع مشكلة التعليم التي اثارتها « فلسطين الثورة » . وذكرت الصحيفة الكويتية ان « الجانب الفلسطيني أوضح ان ما حصل لا يعبر عن حقيقة العلاقة ولا عن الشعور الحقيقي الذي يكنه الفلسطينيون للكويت ، وان الكلام الذي قيل لا يعبر عن رأي قيادة المقاومة » . كما قال السيد علي ياسين مدير مكتب المنظمة في الكويت والذي حضر اللقاء ان المنظمة راغبة في حل مشكلة التعليم بمساعدة الكويت . وطرح فكرة لتوفير نفقات التعليم الفلسطيني ذاتيا ، عن طريق فرض ضريبة خاصة بمساعدة اجرائية من الحكومة ... وقالت الصحيفة كذلك ان الوزير الكويتي أكد ان مجلس الوزراء سيبحث في جلسته صباح اليوم نفسه مشكلة التعليم الفلسطيني في ضوء المقترحات والدراسات التي ستدرسها لجنة تتمثل فيها الجهات المعنية الكويتية والفلسطينية .

وقد عقد مدير مكتب منظمة التحرير في الكويت في وقت لاحق مؤتمرا صحافيا أطرى فيه العلاقات الكويتية — الفلسطينية وتحدث عن المشكلات التي يواجهها المواطن الفلسطيني في الكويت وتوسع في مشكلة التعليم « التي أثيرت أخيرا ولكنها أثيرت للاسف بصورة سيئة لا تساعد على حلها اللهم الا اذا كنا أكبر بكثير من ان تؤثر فينا مثل تلك الحملة. ونحن نعتقد ان العلاقات القائمة بيننا وبين اخواننا في الكويت وحرصنا وحرصهم على حل هذه المشكلة لا يمكن ان يتأثر بزوبعات خارجية طارئة لا تهدف الى حل المشكلة » (« السياسة » الكويتية ٥/٧). وتلخص مشكلة التعليم الفلسطيني في الكويت

حسبما ورد في المؤتمر الصحافي المذكور بما يلي : نتيجة هجرة عدد كبير من الفلسطينيين من الضفة الغربية في أعقاب ١٩٦٧ وجد نحو ٦٠٠٠ طالب في مختلف مراحل الدراسة ليست لهم أماكن في مدارس وزارة التربية الكويتية وآباؤهم من العمال الذين لا يزيد أجر الواحد منهم عن دينار ونصف الدينار في اليوم . وكان الحل ان تولت المنظمة انشاء مدارس في الكويت اضطلعت بادارتها على امل ان تنتهي المشكلة سريعا . غير ان المشكلة تفاقمت بعد أحداث الاردن ١٩٧٠ — ١٩٧١ وهجرة عدد آخر من الفلسطينيين الى الكويت ، فبلغ عدد الطلبة في مدارس المنظمة ١٥ الف طالب . وهذه المدارس تحتاج الي نصف مليون دينار سنويا لدفع رواتب المعلمين والمعلمات وهي رواتب رمزية (بين ٤٠ و٦٠ دينارا في الشهر) . وكان تأمين هذا المبلغ يتم كما يلي : ٢٥٠ الف دينار يدفعها الطلاب أقساطا . في السنوات الاربع الاولى ، وكان عدد الطلاب نصفه الان ، قدمت الدولة ٢٠٠ الف دينار في كل السنوات ، وفي السنة الخامسة قدمت ١٥٠ الفا ، وفي السنة السادسة قدمت ١٠٠ الف وفي العام الحالي قدمت ١٥٠ الفا . اما الجزء الباقي وهو ١٠٠ الف دينار فيقوم مكتب المنظمة بتغطيته بحملة تبرعات . وقال مدير المكتب « اصبح تأمين نصف المليون بالطريقة السابقة غير ممكن لاننا حين ضغطنا على اولياء الامور ليدفعوا القسط الذي يبلغ نصف التكلفة افهمناهم ان المشكلة مؤقتة وانها ستجد حلها بتحقيق مجانية التعليم او بعودتهم الى الضفة الغربية » .

كان رد الفعل الكويتي على ما أعلنه مدير مكتب المنظمة تصريحا ادلى به السيد جاسم المرزوق ، وزير التربية الكويتي (« الرأي العام » الكويتية ٥/٩) . قال فيه ان « الفلسطينيين في الكويت ليسوا لاجئين بل انهم يحتلون مراكز رفيعة في الوزارات والدوائر والشركات المختلفة وانهم ليسوا من الطبقة الاقل دخلا في هذا البلد » . واضاف « ان الذين تقبلناهم في مدارس وزارة التربية يشكلون ٣٧ ٪ من مجموع الكويتيين وان عدد الطلبة الفلسطينيين يبلغ ٣٠ الفا في حين ان معظم الجاليات العربية تساوي العدد نفسه » وحذر الوزير من « اننا لا نقبل الدس او الاثارة ويجب على الاخوان ان ينتبهوا الى ذلك » .

وبطبيعة الحال فان مثل هذا التحذير لا يفيد في حل المشكلة وانما هي تحتاج الى دراسة عميقة ومسعى جاد من جانب المنظمة لحلها . ولتبيان حجم المشكلة سنورد هنا ارقاما عن اوضاع الفلسطينيين في الكويت ومسألة التعليم بينهم (مستقاة من بلال الحسن ، الفلسطينيون في الكويت ، مركز الابحاث ١٩٧٤) .

بلغ عدد الفلسطينيين في الكويت حسب احصاء ١٩٧٠ ، ١٤٧٦٩٦ نسمة من مجموع ٧٣٨٦٦٢ نسمة (بينهم ٣٤٧٣٩٦ كويتيا) . أي ان نسبة الفلسطينيين الى مجموع السكان هي ٢٠ ٪ ونسبتهم الى الكويتيين هي ٤٢ ٪ . وقد بلغ عدد العاملين الفلسطينيين في الاحصاء نفسه ٤١١٠٢ منهم ١٨٨٣٣ في القطاع الحكومي ، ١٧٩٩٠ مستخدما في القطاع الخاص، ٣٤٥٧ يعمل لحسابه، ٧٩٦ صاحب عمل ، ٢٦ يعمل للاسرة . ومن الملاحظ ان متوسط أجور الكويتيين هو دائما أعلى من متوسط اجور غير الكويتيين (بمن فيهم الفلسطينيون) . ففي القطاع الاداري يبلغ متوسط أجر المستخدم الكويتي ١٥٣ دينارا بينما يبلغ متوسط أجر غير الكويتي ١١٢ دينارا . ويزداد هذا الفارق في قطاع العمال ، اذ يبلغ متوسط اجر العامل الكويتي ٧٢ دينارا بينما متوسط اجر العامل غير الكويتي ٣٨ دينارا .

بلغ عدد الطلاب الفلسطينيين في العام ١٩٧١/ ١٩٧٢ في المدارس الكويتية ١٨١٣٥ طالبا بنسبة ١٢،٠٤ ٪ من مجموع الطلاب العام وهي نسبة تقل كثيرا عن نسبة عدد الفلسطينيين الى مجموع السكان التي تجاوزت في ذلك العام ٢٠ ٪ . أما في مدارس منظمة التحرير فقد بلغ عددهم في العام نفسه ١٤٤٠١ طالب . منهم نسبة ٦٨،٨١ ٪ في الابتدائي ، ٢٦،١٧ ٪ في المتوسط ، ٥،٠١ ٪ في الثانوي . وتتقاضى مدارس المنظمة اقساطا من الطلاب كما يلي : في المرحلة الابتدائية تتراوح الاقساط السنوية بين ٦ دنانير لمن لا تتعدى رواتبهم ٢٠ دينارا و٤٠ دينارا لمن تزيد رواتبهم عن ١٦٠ دينارا . في المرحلة المتوسطة الحد الادنى ٩ دنانير والاعلى ٦٠ دينارا . وفي المرحلة الثانوية الحد الادنى ١٢ دينارا والاعلى ٦٥ دينارا . وبذلك فان جدول الاقساط يتأثر بالدخل ويراعي الوضع الاجتماعي لاولياء امور الطلاب . امـا رواتب

المدرسين فهي منخفضة جدا بالقياس الى مثيلاتها في الكويت وبالنسبة الى ارتفاع مستوى المعيشة هناك ، فهي في حدود ٥٠ دينارا لحامل الشهادة الجامعية و٤٠ دينارا لحامل شهادة دار المعلمين و٣٥ دينارا لحامل الشهادة الثانوية . ويضطر المعلمون الى قبول هذه الرواتب لعدم توفر فرص العمل وكمرحلة انتقالية يبحثون خلالها عن عمل أفضل وهذا بالتأكيد يعكس نفسه على عطاء المعلم انعكاسا سلبيا .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

كان اهم تطور دولي بالنسبة للقضية الفلسطينية في الشهر الماضي جولة كيسنجر في المنطقة لتحقيق اتفاق لفصل القوات في جبهة الجولان. وحتى كتابة هذه السطور لم تكن جهود الوزير الامريكي قد أسفرت عن أية نتائج ملموسة على الرغم من أنها دخلت اسبوعها الرابع وشملت ما لا يقل عن عشر جلسات من المحادثات والمفاوضات مع الزعامة السورية والسلطات الاسرائيلية .

بدأ كيسنجر جولته في جينيف حيث قابل اندريه غروميكو قبل توجهه الى الشرق الاوسط . وعقد الوزير الامريكي مؤتمرا صحفيا في جينيف ذكر فيه: ١) انه ليس متأكدا من انه سيستطيع التوصل الى الاتفاق المطلوب خلال هذه الجولة . ٢) ان بلاده على استعداد للاخذ بعين الاعتبار وجهات النظر السوفياتية حول موضوع فصل القوات . وكان ذلك اشارة الى الدور الذي يفترض ان يلعبه الاتحاد السوفياتي في مساعي التسوية والى الضغط الذي مارسه والتلاحم مع سوريا والمقاومة الفلسطينية كي لا تنفرد الولايات المتحدة بالاشراف على تحقيق الاتفاق كما جرى على جبهة قناة السويس . وهذا ما يفسر قول كيسنجر في مؤتمره انه على استعداد لنقل مركز الثقل في الجهود الدبلوماسية من اجل السلام الى جينيف . ٣) ان الولايات المتحدة على استعداد لان تمنح سوريا مساعدات اقتصادية بقيمة ١٠٠ مليون دولار « حالما تلزم نفسها بالسلام وفك الارتباط العسكري » اذ ان الحكومة الامريكية تنوي اتباع سياسة « مساعدات نشطة » في المنطقة بهدف اعادة بنائها سلميا و« لمصلحة كل الشعوب فيها » على حد قول الوزير الامريكي . وقد تناولت محادثات كيسنجر وغروميكو ، وفقا للانباء الصحفية التي ترددت ، موضوع تحقيق اتفاق فصل القوات في الجولان على أساس ربطه بجدول زمني للانسحاب الاسرائيلي من كل الاراضي السورية المحتلة ومسألة نقل محادثات فصل القوات الى جينيف كي تكون باشراف امريكي — سوفياتي . وفي ٣٠ نيسان صدر بيان مشترك عن المحادثات جاء فيه ان الجانبين تبادلا الاراء حول الوضع الحالي لمفاوضات فصل القوات والتسوية السلمية في الشرق الاوسط وأنهما اتفقا على استخدام نفوذهما للوصول الى نتيجة بناءة في هذا الميدان . كما ذكر البيان تأييد الجانبين لاستئناف اعمال مؤتمر السلام في جينيف في وقت قريب .

توجه كيسينجر من جينيف الى الجزائر حيث عقد اجتماعات مع السلطات المسؤولة على اعلى المستويات . وترددت أنباء صحفية في لبنان تقول ان كيسينجر أبلغ الرئيس الجزائري بأن الولايات المتحدة تسعى لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة مع بعض التعديلات الطفيفة على الحدود مع اسرائيل وان مؤتمر جينيف سيستأنف اعماله في المستقبل القريب وسيكون وفد المقاومة الفلسطينية حاضرا مع الوفود الاخرى بما فيها وفود سوريا والاردن ومصر ، وعلى أثر ذلك توجه كيسينجر الى القاهرة حيث قابل الرئيس السادات وتناول معه موضوع زيارة الرئيس نيكسون الى مصر وعرض عليه مشروعا لفصل القوات في الجولان يشكل حلا وسطا بين وجهتي النظر السورية والاسرائيلية . ثم انتقل بعد ذلك الى تل أبيب حيث عقد اجتماعات مع رئيسة الوزراء ومساعديها في جو وصفته الصحافة بالفتور بسبب عدم رغبة السلطات الاسرائيلية تقديم أية تنازلات وتخوفها من ضغوط قد يمارسها كيسينجر في هذا الاتجاه . وذكر ناطق رسمي

بلسان وزارة الخارجية الامريكية ان النقاط التي بحثها كيسينجر في تل ابيب شملت خط فصل القوات ، وتبادل اسرى الحرب والافراج الفوري عن الجرحى منهم ، اقامة منطقة منزوعة السلاح بين الجانبين السوري والاسرائيلي بالاضافة الى الدور المحتمل لهيئة الامم في التسوية . ثم انتقل الوزير الامريكي الى دمشق حيث عقد اجتماعات استمرت ٧ ساعات مع الرئيس الاسد لكنها لم تؤد الى اكثر من تصريحات تقول « بأنه تم احراز بعض التقدم في المحادثات » التي كانت « بناءة وشاملة » وذكرت الاوساط الامريكية المرافقة لكيسينجر ان هذه المحادثات ركزت على الخطوط العامة لفصل القوات تاركة التفاصيل للزيارات اللاحقة.ومع أنه كان من المتوقع ان ينتقل كيسينجر من دمشق الى تل ابيب مباشرة الا ان ذلك لم يحدث اذ أنه سافر أولا الى الاسكندرية حيث اجتمع مطولا بالرئيس السادات مرة ثانية . ولم تصدر أية معلومات عما جرى في هذه المحادثات باستثناء كونها تناولت الشوط الذي قطعته جولة الوزير حتى ذلك الحين . أما القسم اللاحق من الجولة فقد امضاه كيسينجر متنقلا بين تل ابيب ودمشق (وهو ما زال يفعل ذلك حتى كتابة هذه السطور) في محاولة « لتقريب وجهتي النظر المتعارضتين » على حد قول الاوساط الامريكية المرافقة لكيسينجر . وجدير بالاشارة انه تخللت تنقلات كيسينجر بين دمشق وتل ابيب زيارات سريعة لكل من عمان والرياض والقاهرة وقبرص حيث أجرى محادثات اضافية مع غروميكو . كان الهدف من زيارة عمان اطلاع الملك حسين على نتائج محادثاته العربية — الاسرائيلية حتى حينه . وقد تناولت محادثاته هناك بالاضافة الى مشكلة التسوية السلمية في المنطقة العلاقات الثنائية بين البلدين التي وصفها بأنها ممتازة . وقد أشارت تصريحات كيسينجر الى أن المحادثات في عان شملت ايضا مسألة ما يسمى « بفصل القوات الاردنية — الاسرائيلية » ، وموضوع المساعدات الامريكية الاقتصادية والعسكرية للاردن . اما في قبرص فقد صدر بيان مشترك على اثر المقابلة التي جرت بين كيسينجر وغروميكو جاء فيه ان موضوع فصل القوات في جبهة الجولان هو « جزء من القضية العامة لمسألة تحقيق تسوية في الشرق الاوسط » مما اعتبره المراقبون انتصارا للموقف السوري — السوفياتي حول هذا الموضوع . وفي الرياض اجرى كيسينجر محادثات استغرقت ٦ ساعات مع الملك فيصل والمسؤولين السعوديين حيث بحث معهم في جولته وما تمكن من تحقيقه وما لم يتمكن حتى حينه . وأعلن كيسينجر ان الرئيس نيكسون هو الذي طلب عقد الاجتماع بالملك فيصل وابلاغه عن تطورات محادثات فصل القوات لان الحكومة الامريكية تعلق اهمية كبرى على نجاح الجولة وعلى آراء ووجهات نظر الملك فيصل وحكومته في هذا الشأن . وتجدر الاشارة هنا الى النقاط التالية بالنسبة لمهمة كيسينجر : ١) الانباء الصحفية القائلة بأن الرئيس نيكسون بعث بثلاث رسائل شخصية الى جولدا مائير منذ بدء جولة وزير خارجيته الحالية حيث طلب من السلطات الاسرائيلية تسهيل مهمة كيسينجر مؤكدا اهتمامه الشخصي بجولته ، كما أشار على اسرائيل بضرورة التحلي بالمرونة وبعدم تحمل مسؤولية التفريط بالفرصة المتوفرة الان لاحلال الهدوء في المنطقة . ٢) في كل تنقلات كيسينجر بين دمشق وتل أبيب كانت جملة تتردد باستمرار وتقول « لقد حققنا بعض التقدم لكننا لم نتوصل الى اتفاق » . ٣) الانباء التي ترددت عن ان التعارض بين وجهتي النظر السورية والاسرائيلية يتركز حول أ) مدى الانسحاب الاسرائيلي خارج الجيب الذي احتلته القوات العدوة في حرب اوكتوبر ١٩٧٣ وما اذا كان سيشمل هذا الانسحاب التلال الاستراتيجية المحيطة بمدينة القنيطرة . ب) اصرار سوريا على ربط اي اتفاق للفصل بين القوات بالتزام اسرائيلي بالجلاء عن الجولان بالكامل ضمن اطار تسوية شاملة للازمة . ج) مشكلة وضع قوات طوارىء دولية او مراقبين دوليين في المنطقة العازلة بين قوات الطرفين .

بالنسبة للنشاطات السياسية الامريكية الاخرى في المنطقة فقد ذكر مسؤولون رسميون في واشنطن أن شحنات الاسلحة الامريكية الى الاردن سترتفع الى ثلاثة اضعافها في السنة المقبلة بعد موافقة الكونغرس على ذلك . واوضح هؤلاء ان الاردن سيتلقى ما قيمته ١٢٠ مليون دولار من هذه المساعدات خلال ١٩٧٥ وسيخصص ١٠٠ مليون دولار من أصل هذا المبلغ للمساعدات العسكرية المباشرة بينما يتم تقديم الباقي بصورة قروض لشراء اعتدة عسكرية ايضا . وكجزء من هذا السلاح

الامريكي سيتلقى الاردن طائرات من نوع ف ٥ (فانتوم) مقاتلة ودبابات من نوع م ٦٠ ومدفعية وسيارات مصفحة لنقل الجنود . وطلب الرئيس نيكسون من الكونغرس، كجزء من مشروع ما يدعونه بالمساعدات العسكرية والاقتصادية الامريكية الخارجية ، تخصيص مبلغ ٢٥٠ مليون دولار لمصر بهدف « دعم قوى الاعتدال في الشرق الاوسط » . وقال نيكسون في طلبه ان المساعدة المطلوبة ستعين مصر على تطهير قناة السويس وتعمير المدن القريبة منها واعادة التبادل التجاري مع امريكا .

وكان جوزيف سيسكو قد أدلى بحديث شامل في التلفزيون الامريكي تناول فيه مشكلة الشرق الاوسط من كل جوانبها حيث اوضح النقاط الهامة التالية :

(١) ان بلاده تقوم بدور الوساطة بين الطرفين العربي والاسرائيلي بناء على رغبة الجانبين لان هناك اتفاقا عاما بأن الاستقرار في المنطقة هو لصالح الطرفين المعنيين كما انه لصالح الولايات المتحدة والدول الكبرى الاخرى .

(٢) ان المضاعفات المترتبة على اي فشل قد تمنى به الوساطة الامريكية ستكون خطيرة جدا . وهذا يعني امكانية نشوب حرب اخرى في المنطقة وما تعنيه من مجابهة خطيرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

(٣) ان مفاوضات فصل القوات في الجولان ستكون اصعب كثيرا مما كانت عليه في الجبهة المصرية لان سوريا واسرائيل تتصارعان على مساحة ضيقة قريبة من المناطق الآهلة بالسكان وتتعرض كل منهما الى ضغوط داخلية .

(٤) ان الجانب العربي قد تخلى تماما عن الفكرة القديمة القائلة بضرورة انسحاب اسرائيل الى حدود ما قبل ١٩٤٨ (اي قرار التقسيم) مما يعني ان القضية لم تعد تتعدى سوى استعادة كل من مصر وسوريا والاردن للاراضي التي احتلت في حرب ١٩٦٧ .

(٥) أشار سيسكو الى وجود تفاهم واضح بين بلاده والاتحاد السوفياتي على منع نشوب اي حرب اخرى في الشرق الاوسط . كما اكد على اهمية الدور السوفياتي لتحقيق التسوية السلمية في المنطقة . واوضح ان الولايات المتحدة تأخذ بعين الاعتبار المصالح السوفياتية والاوروبية في تعاملها مع المنطقة .

(٦) بين سيسكو ان فصل القوات لا يمكن ان يكون نهاية المطاف بحد ذاته . وأبرز هنا التصور الامريكي للحل على اساس تجزئته الى خطوات متتابعة بسبب التعقيد الذي تتصف به القضية على حد قوله . لذلك قال ان موضوع القدس يجب أن يكون المادة الاخيرة على جدول الاعمال لانه حتى الان لا توجد صيغة مرضية لمعالجة مشكلة المدينة المقدسة .

(٧) بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة قال سيسكو ان هذا الموضوع يثير مشكلة من يمثل الفلسطينيين اذ أن كل من الملك حسين من ناحية والمنظمات الفلسطينية من ناحية ثانية يطالب بالضفة الغربية والقدس وذكر ان الانقسامات ما زالت قائمة ومستمرة داخل الحركة الفلسطينية نفسها ومن الضروري ان يجري نوع من التفاهم بين المنظمات الفلسطينية حول من سيتحدث باسمهم اذا اراد الفلسطينيون ان يلعبوا دورا في الاجتماعات المقبلة لمؤتمر جنيف . يضاف الى ذلك ان الدول العربية نفسها مختلفة في الرأي حول الدور الذي يجب ان يقوم به الفلسطينيون . واعترف سيسكو أنه ليس بالامكان تحقيق سلام دائم في المنطقة بدون « تلبية الاماني المشروعة للفلسطينيين » . لكنه أضاف ان هناك انقسامات عربية وفلسطينية حول موضوع هذه الاماني وكيف ستعكس نفسها سياسيا بالاضافة الى غير ذلك من الامور الهامة . كما أكد أنه اذا اتفق الفلسطينيون بين انفسهم فسيكون لزاما عليهم ان يتفاهموا مع الملك حسين من اجل التوفيق بين مطالبهم ومطالبه .

بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي لا بد من الاشارة الى البيان المشترك الذي صدر على اثر الزيارة الاخيرة للرئيس حافظ الاسد الى الاتحاد السوفياتي والذي كان قد تأخر صدوره بسبب قيام الاسد بزيارة بعض ارجاء الاتحاد السوفياتي بعد انتهاء زيارته الرسمية في موسكو . فذكر البيان في اهم نقاطه :

(١) اتفاق الجانبين على عقد اتفاقات وبروتوكولات جديدة حول التعاون في مجالات التخطيط وتعزيز التعاون الاقتصادي والفني وزيادة حجم التجارة بين البلدين ، وحول التدابير التي تستهدف

تدعيم القدرة الدفاعية لسوريا .

(٢) التأكيد على مواصلة المشاورات الدولية والتعاون في المجال السياسي والدولي وخاصة فيما يتعلق بتطوير العلاقات السورية السوفياتية .

(٣) مناقشة الجهود الجارية حاليا من اجل التوصل الى سلام عادل ودائم في منطقة الشرق الاوسط . وتأكيد الجانبان ان اقامة مثل هـذا السلام غير ممكن الا على اساس انسحاب القوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني .

(٤) وأشار البيان الى أن الاساليب الجزئية الحالية المستخدمة في البحث عن حل للنزاع في المنطقة لا تشتمل على المقومات الحقيقية لحل الازمة . وان اي اتفاق حول فصل القوات لا بد ان يكون جزءا لا يتجزأ من الحل العام لمشكلة الشرق الاوسط .

(٥) أكد البيان من جديد اهمية مشاركة الاتحاد السوفياتي في كل مراحل الحل وميادينه وعلى دور الاتحاد السوفياتي في تقديم الدعم الشامل لقضية العرب العادلة في المستقبل .

هذا وقد أشارت صحيفة « النيويورك تايمس » الى أن الزعيم السوفياتي بريجينيف قد أبلغ الاسد خلال زيارته ان بلاده لن تتردد في ارسال قوات برية الى سوريا لحماية مواقع الصواريخ في حال وقوع هجوم اسرائيلي ارضي على سوريا .

وأثناء جولة كيسينجر في المنطقة قام غروميكو بزيارة دمشق على رأس وفد سوفياتي لبحث القضايا المتعلقة بفصل القوات وتسوية النزاع في المنطقة. وقد أدلى الوزير السوفياتي بتصريح قال فيه انه يقوم بزيارة ودية لدمشق هدفها مواصلة المشاورات وخاصة مسألة التسوية في المنطقة وموضوع فصل القوات ، واكد غروميكو ان العنصر المهم في موقف بلاده هو انهاء الاحتلال الاسرائيلي لكل الاراضي العربية . وعلى أثر انتهاء الزيارة صدر بلاغ مشترك أشار الى ان السلام العادل والدائم في المنطقة يجب ان يرتكز الى أساس هو الانسحاب الاسرائيلي الكامل من كل الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني . كما ذكر البيان ان غروميكو أيد في المحادثات موقف سوريا الحازم من موضوع فصل القوات باعتباره مجرد خطوة نحو تحقيق الانسحاب الاسرائيلي الكامل ونحو التوصل الى الحل الشامل والعادل للازمة في المنطقة .

على صعيد آخر استمر الوضع المتدهور للعلاقات المصرية السوفياتية على حاله وقد عبر ذلك عن نفسه في الانتقادات المصرية الموجهة على أعلى المستويات الى الاتحاد السوفياتي من ناحية وكيل المديح للولايات المتحدة ونيكسون وكيسينجر من ناحية اخرى. على سبيل المثال ذكر الرئيس السادات في مقابلة مع مجلة « شترن » الالمانية (في الاسبوع الثاني من نيسان) ان الاتحاد السوفياتي حد من شحن الاسلحة الى مصر اثناء حرب تشرين الاخيرة. وفي مقابل ذلك أكد ان السياسة الامريكية قد تغيرت تماما في الفترة الاخيرة وانه واثق كل الثقة بكيسينجر باعتباره رجل حافظ حتى الان على كل وعوده . وفي مناسبة اخرى شدد السادات في لقاء مع الطلاب المصريين بأنه قرر تنويع مصادر أسلحة الجيش المصري وانه كان على وشك الغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي التي تعتبر بحكم المجمدة حاليا . وقد توسع الرئيس السادات في شرح هذا الموقف في خطاب ألقاه في اجتماع مشترك لمجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي حيث اتهم الاتحاد السوفياتي بالتأخر في مد مصر بالاسلحة مما دعاه لاتخاذ قرار باستيراد الاسلحة من مصادر متعددة اخرى تجنبا للاعتماد الكلي على الاتحاد السوفياتي . كذلك أشار الى قراره السابق باخراج الخبراء السوفيات من مصر في تموز ١٩٧٢ قائلا بأنه « يأمل في أن يكون الاتحاد السوفياتي قد أفاد من ذلك الدرس واصبح يدرك ان سياسة مصر نابعة من مصر وهي لمصلحة مصر وليس لمصلحة اية دولة اجنبية » . وفي مقابل ذلك أشاد السادات بالتغيير الذي طرأ على السياسة الامريكية في المنطقة وبجهود كيسينجر . وفي مقابلة اجرتها معه صحيفة « النيويورك تايمس » (٢٢ نيسان) ذهب الرئيس السادات الى ابعد من ذلك حيث اتهم الاتحاد السوفياتي باستغلال وضعه كمصدر وحيد للسلاح والذخيرة الى مصر ليمارس ضغوطا سياسية على الحكومة المصرية مما أدى الى فتور في العلاقات بين البلدين . وعبر السادات في المقابلة عن رغبته في ان توافق الولايات المتحدة على تزويد مصر

بالسلاح حيث قال « سأكون سعيدا جدا اذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لان تبيعنـي السلاح ... وفي حال شراء مثل هذه الاسلحة يسر الحكومـة المصرية ان توقع اتفاقات للحصول علـى قروض تسهل عمليات الدفع » . كذلك اشاد السادات « بالنصائح الحكيمة » التي تقدم بها الـرئيس نيكسون والتي مكنت كيسينجر من تخطي المأزق في المفاوضات بين مصر واسرائيل عقب حرب اوكتوبر. كما أضاف السادات قائلا « ان الرئيس نيكسون لعب شخصيا دورا كبيرا . وهذه اول مرة تتوصل ادارة امريكية الى معرفة مصالحها الحقيقية فـي هذه المنطقة التي تعد من أخطر مناطق العالم . انني اثق بكيسينجر ، فهو مخطط استراتيجي حقيقـي تمكن من تثوير السياسة الامريكية فـي الشرق الاوسط » . وقد علقت « النيويورك تايمس » على حديث السادات قائلة ان اكثر الدلائل تشجيعـا على طريق الوصول الى تسوية مع اسرائيل هـي خروج مصر من نطاق السيطرة السوفياتية » كما علق وزير الدفاع الامريكي قائلا ان بلاده تدرس عن كثب امكان بيع أسلحة لمصر . وفي مقابلة مع احدى الشبكات التلفزيونية الامريكية (٢٨ نيسان) ذكر الرئيس السادات اكثر من مرة ان علاقـات بلاده مع الاتحاد السوفياتي متوترة جدا . وفـي الوقت نفسه رحب بأية مساعدات عسكرية امريكية يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة . ثم عاد الى الاشادة بكيسينجر واصفا اياه « برجل المعجزات » مؤكدا بأن الوزير الامريكي « سينجح في فصـل القوات في الجولان خلال جولته هذه » .

في هيئة الامم وافق مجلس الامن على قـرار (٢٩ نيسان) يدين اسرائيل بسبب هجومها على الاراضي والقرى اللبنانية على أثر العملية التـي قام بها الفدائيون الفلسطينيون في كريات شمونة . وقد دعا القرار كل الحكومات المعنية الى احترام التزاماتها وفقا لميثاق المنظمة الدولية والقانون الدولي . وطلب من اسرائيل الامتناع عن القيام بأية اعمال او تهديدات عسكرية ضد لبنان واطلاق سراح المدنيين اللبنانيين الذين اعتقلتهم خـلال غارتها الاخيرة « واعادتهم الى لبنان فورا » . كما دعا كل الاطراف الى الامتداح عن القيام بأي عمل يمكن ان يعرض للخطر المفاوضات الجارية حاليـا لاحلال السلام في المنطقة . وانزعجت اسرائيـل الى حد كبير من القرار لانه لم يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظرها مما جعل الوفد الاسرائيلي ينسحب من جلسة مجلس الامن احتجاجا على قرار الادانة وعدم اشارته الـى هجوم الفدائيين على كريات شمونة . وكان ابرز ما ازعج اسرائيل في الواقع هو تصويت امريكا الى جانب القرار مما جعـل العديد من الوزراء الاسرائيليين يعتبـرون الموقف الامريكي صدمة كبيرة لبلادهم . فقد أعلن ابا ايبان ان تصويت الولايات المتحدة الى جانب القرار «هو عمل خطير بمغزاه السياسي والمعنوي » . واعتبره تغيرا في سياسة الولايات المتحدة التي كانت تصوت دائما ضد القرارات « المعادية لاسرائيل » . الا ان ناطقا امريكيا في الامم المتحدة نفى أن يكون الدعم الامريكي للقرار بشكل اي تحول في سياسة بلاده. ومن المفيد الاشارة هنا الا ان قرار مجلس الامن يرفع عن لبنان اي مسؤولية عن العمليات الفدائية التي تقوم بها المقاومة الفلسطينية فـي الاراضي المحتلة .

صادق جلال العظم

(٣) المناطق المحتلة

ما زالت المناطق المحتلة تشهد نضالا وطنيا متصاعدا لكافة طبقات وفئات الشعب الفلسطيني الرازحة تحت الاحتلال والتي لها مصلحة مباشرة في زواله.وفي الوقت نفسه، الذي تشدد فيه جماهير الارض المحتلة من نضالها وتلاحمها بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، يقوم العدو برفع درجة ارهابه وعسفه ويزيد من حملاته الارهابية ، مستهدفا في هذه الفترة النضالية المصيرية من حياة شعبنا الفلسطيني ، القادة النقابيين والعمال والطلاب ومختلف كوادر وعناصر المنظمات الجماهيرية في الارض المحتلة . واذا كان العدو يهدف من وراء حملاته الارهابية هذه الى محاصرة النشاط الفدائي وعزله عن الجماهير ، فان العدو يهدف من وراء ذلك ايضا ، تكرار محاولاته الرامية الى تمرير المشاريع المشبوهة ، والتي تتخذ في هذه المرحلة شكل الادارة المحلية او المدنية .

الاعتقالات ونسف البيوت

خلال الايام الاخيرة من شهر اذار (مارس) واوائل نيسان الماضي ، كان عدد الذين تم اعتقالهم في قطاع غزة فقط ١٥٠ مواطنا بتهم تتعلق جميعها بالقيام باعمال فدائية او الاتصال بمنظمات المقاومة الفلسطينية . ورغم انقضاء فترة التحقيق لمعظمهم ، فقد منعت سلطات الاحتلال محاميهم من الاتصال بهم . والحقت السلطات حملاتها هذه بحملة اخرى من هدم البيوت وخاصةفي حي الزيتون بمدينة غزة ، وتعود البيوت المنسوفة الى كل من: مصطفى عاشور ، مسعود سعد الراعي ، سعد الراعي ، فرحان عرفات وابنه، اسماعيل محمود الهجين ، بيت كشكو ، بيت عاشور ، بيت طلب، تدمير بيت موتور ومضخة تعود الى نمر حسين ازعاط . وذكر ان معظم هذه البيوت ليست ملكا لاي من المعتقلين وانما مشغولة بطريق الاستئجار من بعض المعتقلين .

اما في مدينة نابلس ، فقد اعتقلت سلطات الاحتلال اكثر من سبعين شخصا بعد أن القى احد الفدائيين قنبلة على دورية لحرس الحدود الاسرائيلي وفرض منع التجول في مركز المدينة . وفي جنين وطولكرم قامت السلطات كذلك باعتقال عدد من طلاب المدارس الثانوية بتهمة القيام باعمال « عدائية » للاحتلال (الشعب ١٩٧٤/٤/٥) .

وعلى اثر تصاعد حملات نسف البيوت في مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والاجراءات الخطيرة التي تحدث في القدس بحجة الحفر على الاثار ، بعثت الهيئات النسائية في الضفة والقطاع مذكرة الى السكرتير العام لهيئة الامم المتحدة ، ولجنة حقوق الانسان ، وهيئة الصليب الاحمر الدولي ، وتناصل الدول الصديقة في القدس ، واتحاد المحامين العرب في القاهرة ، ونقابة الصحفيين العرب في القاهرة ايضا . وجاء في المذكرة :

١ — منذ الاحتلال وحتى اليوم والسلطات الاسرائيلية تمارس سياسة نسف البيوت وتشريد أصحابها في الضفة والقطاع ... الامر الذي ألحق التأثيرات الخطرة في الممتلكات والنفوس والاستقرار الاجتماعي ، حيث تعاظمت سياسة النسف بعد حرب اكتوبر ، ومنذ شهر ١٩٧٣/١٢ ، حتى بلغ عدد البيوت المنسوفة منذ سنة ٦٧ وللان حوالي تسعة آلاف بيت مما نجم عنه تشريد الالوف من العائلات .

٢ — لم يكن الضرر الذي ألحق بكل هذه القطاعات الكبرى من المواطنين في الضفة والقطاع، يقتصر على بيوت ذوي المتهمين ، بل لقد امتد الى البيوت المجاورة . حتى انه ازاء كل بيت ينسف يتضرر معه اربعة بيوت على الاقل من بيوت السكان الاخرين في كل حي . ولم تتضرر القرى دون المدن من هذه الاجراءات . فقد نسفت السلطات في ٢٢ ، ٧٤/٣/٢٤ منزلا في رفيديا وآخر في خلة العامود . اما في القرى فنذكر على سبيل المثال ما نسف من المنازل في القرى التالية :

في دير ابو ضعيف في الضفة الغربية نسفت السلطة الاسرائيلية عشرة منازل وتضررت من هذا النسف عشرة منازل اخرى مجاورة . وتكرر هذا في قرى : كفر الديك ، جماعين ، سيلة الظهر ، بيت نوريك ، دير غزالة ، وقبلان .

وطالبت المذكرة بالعمل الجدي لوضع حد لسياسة نسف البيوت في الضفة والقطاع ولايقاف الحفريات في القدس .

وبقيت حملة الاعتقالات قائمة على قدم وساق ، فقد ألقت سلطات الاحتلال القبض على مجموعة من الشباب في طولكرم بتهمة الانتماء الى منظمة فتح . وقال متحدث باسم الجيش الاسرائيلي ان قوات الامن تعتقد بأن لهذه الجماعة صلة بوضع العبوة الناسفة التي انفجرت يوم ٤/٤ في حانوت بتل ابيب . وادعى الناطق انه عثر بحوزتهم على مواد متفجرة (القدس ١٩٧٤/٤/٨) .

وعندما انفجرت في احدى حدائق ناتانيا شحنة موقوتة يوم ٤/١٤ ، ألقت الشرطة القبض على ٥٠ شخصا للاشتباه بصلتهم بالحادث (الشعب ١٥/ ١٩٧٤/٤) .

ومن ناحية اخرى امتدت سياسة مصادرة الارض وتفريغها من السكان لتشمل اراضي البدو جنوبي رفح . فقد نقلت « الشعب » عن مجلة المرصاد التي تصدر في اسرائيل تقريرا تلقته الاخيرة من « عوديه ليفشز » من مستوطنة نيرعوز يقول فيه : بتاريخ ٧٣/١٠/٨ اي ثاني ايام حرب تشرين ، بدأت السلطات المحتلة بعملية سلب جديدة تشمل ٣٦ الف دونم في المنطقة المسماة « الجورة » . وتقع هذه المنطقة على مسافة ١١ كيلومترا جنوبي الشارع الجديد المؤدي الى « نيتسانا » ويسكن فيها حوالي ٨٠٠ شخص من ابناء عشيرة « السواكرة » . ويقيم سكانها الان خارج السياج الذي اقامته السلطات حولها . وتعد في هذه الايام خطتان جديدتان للمصادرة ، واحدة في منطقة الجورة وأخرى في منطقة الخروبة الواقعة شمالي العريش — رفح على مسافة ٢٠ كيلومترا غربي رفح . اما برنامج الترحيل والمصادرة في رفح فهو يشمل مساحة تتراوح بين ٨٠٠ الف الى مليون دونم هي مساحة المثلث الذي تشكل العريش ونيتسانا ورفح رؤوس زواياه (الشعب ٧٤/٤/١٥).

وفي نابلس نسفت السلطات ظهر يوم ٤/١٦ منزل الحاج عادل ابراهيم الدردوك بحضور حاكم المدينة العسكري ومساعديه ، بعد أن اعتقلت نجله بسام — ٢١ سنة — قبل شهرين من تاريخه ، بتهمة قتل جندي اسرائيلي واخفاء جثته في احد المحاجر القريبة من نابلس واخذ سلاحه بالاشتراك مع تسعة اشخاص آخرين . ويذكر ان المنزل مؤلف من ثماني غرف وتعيش فيه اربع عائلات (الشعب ٧٤/٤/١٧) .

وفي القدس اعتقلت الشرطة خلال ليلة ٤/١٨ ، خمسة اشخاص من سكان القدس العربية بتهمة حادث سيارة الاجرة التي قتل فيها سائقها تسيون ابرغيل ووضعت فيها شحنات من المواد المتفجرة. والى جانب ذلك اوقفت العشرات للتحقيق معهم . وداهمت الشرطة عددا من المنازل بحجة ان اصحابها يشتبه بعلاقاتهم بالحادث دون تحديد للاشخاص المطلوبين . كما اقامت حواجز التفتيش بين شطري المدينة ، وزادت من اعمال الدورية في الشوارع والاماكن العامة . واقيمت هذه الحواجز على طريق القدس — الخليل حيث كان حرس الحدود يقومون بانزال الناس من السيارات وتفتيشهم واعتقال عدد من الشبان . وكان الامر كذلك على طريق بئر السبع — غزة ، رام الله — القدس ، البيرة — نابلس . اما في بيت لحم فقد شنت السلطات حملة اعتقالات شملت عددا من الشباب وطلاب المدارس ، وذلك اثر توزيع منشورات ضد الاحتلال في عدد من الشوارع والمدارس (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

وعلى اثر تزايد اعمال المقاومة واصلت سلطات الاحتلال حملاتها ضد المواطنين العرب اما بتهم توزيع المنشورات او بتهم القيام بأعمال مسلحة . فذكرت جريدة معاريف ان ١٦٠ عربيا اكثرهم من ابناء المناطق المحتلة اعتقلوا بتهمة الاشتراك في الانفجار الذي وقع في بني براك وادى الى جرح ١٣ شخصا (الشعب ٧٤/٤/٢١) .

اضراب السجناء

واصل المعتقلون في سجن نابلس الاضراب الذي كانوا قد بدأوه منذ مدة . فامتنعوا عن مقابلة ذويهم بمناسبة عيد المولد النبوي احتجاجا على سوء المعاملة داخل السجون (الشعب ٧٤/٤/٥).

وقد اوجد استمرار الاضراب هذا داخل السجون حالة نشطة من التحرك الوطني الهادف الى دعم اضراب المعتقلين وكسر حد الارهاب وسوء المعاملة التي يتعرضون لها داخل السجن . فقد طالبت الجبهة الوطنية الفلسطينية المواطنين في الاراضي المحتلة دعم ومؤازرة السجناء وذويهم . وطالب بيان الجبهة ببذل كل الجهود والقيام بالحملات الاستنكارية والمذكرات لوقف التعذيب وتحسين الاوضاع في السجون واطلاق سراحهم (الشعب ٧٤/٤/٥) . وقد دفعت التحركات الجماهيرية

الداعية الى دعم مطالب السجناء المضربين الى موافقة شلومو هليل وزير الشرطة على استقبال الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس ، للبحث في مطالب السجناء . وكانت امهات السجناء قد قمن بالاشتراك مع عـدد من السكان بالقيام بمظاهرات لدعم اضراب ابنائهـن يوم ٧٤/٤/٥ (القدس ٧٤/٤/٨) . وفي يوم ٤/٨ اعتصم عدد كبير من امهات المعتقلين وسيدات من المدينة بدار بلدية نابلس طوال اليوم احتجاجا على اوضاع السجناء . واستقبل الحاكم العسكري خمسا منهن واستعرض معهن مطالب المعتصمات في دار البلدية فطالبن بتحسين اوضاع السجناء الصحية والغذائية وتوفير العلاج واجراء العمليات الجراحية وتوفير الكتب والمجلات والسماح لبعض الطلاب بالاشتراك في الامتحانات النهائية (القدس ٤/٩/ ٧٤) .

وفي الخامس عشر من نيسان بدأ اعتصام أمهات ذوي المساجين في قاعة بلدية نابلس ، وكان مقدرا له ان يستمر اسبوعا كاملا حتى تستجيب السلطات العسكرية لجميع مطالب المساجين . فوجه الحاكم العسكري للمدينة «اليعازر سيغب» تحذيرا لرئيس البلدية بالوكالة عادل الشكعة ، من أي اضراب او « تشويش » قد يقوم به الطلاب والطالبات ، وهدد بانه سيقمع بالقوة أي اخلال بالامن (الشعب ٧٤/٤/١٥) . واستجابة من البلدية لتحـذير السلطات قامت هي بمنع أمهات السجناء من الاعتصام ، معتمدة على وعود الحكم العسكري بتسوية الاوضاع داخل السجون . فعقد ظهر يوم ٤/١٧ في مقر البلدية اجتماع بين شلومو هليل واعضاء المجلس البلدي في نابلس لاستعـراض اوضاع السجناء واضرابهم المستمر . وقد عرض أعضاء المجلس على الوزير الاسرائيلي الطلبـات التي كانت قد تقدمت بها أمهات السجناء من قبل . وسمح هليل لثلاثة من اعضاء المجلس البلدي بزيارة المساجين « برغبة وتكليف منه » لفهم مطـالب المساجين ومن ثم رفع انطباعاتهم اليه لدراستها والبحث فيها (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

وبالفعل قام وفد من البلدية مؤلف من عـادل الشكعة وحافظ طوقان وجمال الخياط بزيارة سجن نابلس المركزي وقابل المساجين المضربين عـن مقابلة ذويهم . وكانت مطالب السجناء محددة فيما يلي :

١ ــ ضرورة تنويع اصناف الطعام وزيادة كميته للفـرد .

٢ ــ توفير المعاملة الانسانية مع حفظ الكرامة لكل مواطن سجين .

٣ ــ تحسين الخدمات الطبية وتقديم العـلاج اللازم واجراء العمليات الجراحية بالسرعة الممكنة اذا لزم الامر .

٤ ــ توفير المزيد من الكتب العملية والثقافية بالاضافة الى صحيفة الشعب أسوة بصحيفـتي القدس والانباء المسموح بهما يوميا .

٥ ــ السماح بادخال الكتب المدرسية لطـلاب التوجيهي لهذا العام حسب المنهاج المقرر ، وكذلك كتب دار المعلمين لمن انهوا التوجيهي وغيرها من الكتب المقررة للجامعيين .

٦ ــ تمديد مدة تعريض اجسام المساجين لاشعة الشمس يوميا .

٧ ــ الافراج عمن انتهت مدة سجنهم والبحث في قضايا الموقوفين بدون محاكمة .

٨ ــ توسيع النوافذ التي تدخل منها أشـعة الشمس .

وذكرت « الشعب » انه من المتوقع ان يعود السجناء الى مقابلة ذويهم في اوقات الزيـارة المسموح بها (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

● في محاولة للخروج من المازق الذي وجـدت اسرائيل نفسها فيه عقب حرب تشرين ، عـادت لطرح مجموعة من المشاريع والقيام بعدد مـن الاجراءات أبرزها مشروع الادارة المحلية او المدنية ومحاولة احياء فكرة « صوت الضفة والقطاع » ، وتعيين مدراء عامين لشؤون التربية والصحة والدين تمهيدا لتشكيل مجلس مدراء عـامين او ادارة تنفيذية .

١ ــ مشروع الادارة المحلية

جاء طرح الافكار الاسرائيلية حول مشروع الادارة المحلية ، مترافقا مع ظاهرة محلية في الضفـة الغربية تلقي شكوكا واسعة حول مغزى القائمين عليها والمحركين لها . وهذه الظاهرة تتلخص في مجموعة الاستقالات والخلافات والطعون امام المحاكم لعدد كبير من مجالس البلديات. فقد نشرت «الفجر» في عددها الصادر يوم ٤/١٧ ، ان ستة اعضاء

من مجلس بلدية قلقيلية تقدموا بمذكرة الى الحاكم العام للضفة الغربية يطلبون فيها سحب الثقة من رئيس بلدية قلقيلية مصطفى نـزال . ورشحـوا بدلا منه عضو المجلس البلدي حسين صبري . وفي عددها الصادر يوم ٤/١٨ ذكرت « الشعب » ان ستة اعضاء من مجلس بلدية بيت لحم قدموا استقالاتهم الى رئيس البلدية الياس فريج ، مع نسخ للحاكم العسكري العام والحاكم العسكري لمنطقة بيت لحم . وهؤلاء هم : عفيف البطارسة ، ايوب مسلم ، ابراهيم ابو حمود ، حنا جميل ناصر ، جورج ابو ردينة ، وجورج سمور . ولم يبين الاعضاء الاسباب المحددة لاستقالاتهم . وقد اثارت هذه الاستقالات والخلافات في هذه البلديات وغيرها — دير دبوان — ردود فعل واسعة في الضفة الغربية . وتدخل عدد كبير من المواطنين لاصلاح ذات البين لقطع الطريق على أية محاولات قد يقدم عليها العدو، مستفيدا من هذه الحالة التي عمت معظم بلديات الضفة الغربية . فقد نشرت « الفجر » تحت عنوان « لا للادارة المحلية ... ولماذا » تعليقا مطولا جاء فيه : « ان الدعوة للادارة المدنية في المناطق المحتلة ، تتجاهل تجاهلا تاما ان تقرير المصير للشعب الفلسطيني لا يمكن ابدا ان يكون محصورا في المناطق المحتلة . وعلى هذا الاساس فان هذه الدعوة تعتبر حلا اقليميا ». وقـالت الصحيفة وهـي تشير الى المتعاونين مع الاحتلال لفرض مشروع الادارة المحلية : « نستطيع القول ان هذه الفئة تلعب الورقة الاخيرة في جعبتها ، وهي على يقين من ان الخسارة عندها تساوي النهاية المنطقية حسب تطور التاريخ ومساره الطبيعي . ولذا نستطيع ان نقول كذلك ان صراعها هو صراع البقاء ... » (الفجر ٧٤/٤/٣) . وعالجت صحيفة الشعب هذه المسألة بكثير من الوضوح والمباشرة في افتتاحيتها الصادرة يـوم ٤/٢١ ، حيث قالت : « لعل ما يدعو للغرابة والتساؤل ، هذه الظاهرة التي انطلقـت او افتعلت لتشمل معظم بلديات الضفة الغربيـة المحتلة ، فمن استقالات في بيت لحم وقلقيلية ، الى خلافات في نابلس واريحا ودورا ، وطعون ومحاكم في يطا ودير دبوان ، وقد يكون هنالك ما لم يعلن بعد او يعرف حتى الان . والسؤال : هل لهذه الظاهرة من علاقة مباشرة بما يخطط له من مؤامرة (الادارة المحلية) ؟ ، خاصة وان خيوط هذه الادارة قائمة في تكتم شديد رغم النفي الرسمي ... ولعل بعث الخطة المؤودة المسماة باذاعة صوت الضفة والقطاع أقرب دليل على ان المشروع يسير نحو التنفيذ بخطوات وئيدة لكنهـا غير متراجعة او مترددة... فالتلويح مثلا بانتخابات جديدة تحت شعار ان الاردن اباح للمرأة حـق الاقتراع بعد انتخابات الضفة المحتلة ، او ان الخلافات الحادة والمتفاقمة بين اعضاء هذا المجلس او ذاك تعرقل أعمال السكان وتشغل دوائر الحكم العسكري ، فلعبة مكشوفة تهدف امرين : امـا اتخاذها عامل ضغط على بعض الرؤساء والاعضاء لقبول مشروع الادارة المدنية، واما لاجراء انتخابات يتيسر للسلطات معها اخراج وجوه جديدة تكون مطواعة ، سهلة الاحتواء والولاء ... » .

٢ — اذاعة « صوت الضفة والقطاع »

ذكرت صحيفة الشعب في عددها الصادر يوم ٤/٢١ ، ان سلطات الاحتلال قامت بحبس بعض المواطنين في الضفة الغربية للعمل في اذاعة ما يسمى بـ « صوت الضفة والقطاع » حيث تخطط السلطات في هذه المرحلة لاعادة العمل من محطة الارسال في رام الله لتكون الصوت الناطق بلسان الاحتلال نيابة عن عرب الارض المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة . وقالت الصحيفة أن مدة البث ستكون في هذه الاذاعة لمدة اربع ساعات وعلى فترات صباحية ومسائية ، وستقتصر على اذاعة الانباء والتعليقات الموجهة ، وستشرف عليها لجنة تسمى « لجنة الثقافة والارشاد » .

ويربط المراقبون والمتتبعون لسير التحركـات الاخيرة بين المحاولة الجديدة هذه وبين ما يسمى بالادارة المحلية في الاراضي المحتلة ، بحيث ستكون الوجه الاعلامي لهذه اللعبة الجديدة .

ويذكر ان الفكرة كانت قد نشأت اولا عند قيام بعض المتعاونين مع الاحتلال ودعاة الحكم الذاتي تحت سيطرته بالتفاوض مباشرة مع اسرائيل حول انشاء اذاعة ناطقة باسم سكان المناطق المحتلة . لكن الفكرة نامت في حينها نظرا لعدم تجـاوب سلطات الاحتلال . ثم اعيدت الفكرة للوجود مرة أخرى عقب مجازر ايول الداميـة في الاردن ، مستغلين الفورة العارمة التي استحوذت وسيطرت على الفلسطينيين في الارض المحتلة وكرههم للنظام الاردني . وكان قد رشح لهذا الصوت المشبوه في

حينه خمسة من العرب الذين قبلوا العمل فيها ، وهم من نابلس ورام الله والقدس والخليل . ثم أعيدت المحاولة في ربيع عام ١٩٧٣ وكان مقدرا لها ان ترى الوجود في خريف العام نفسه . لكن حرب تشرين حالت دون تحقيقها ، مما اعتقد معه البعض ان الاحتلال قد صرف النظر عن هذه الفكرة نهائيا . غير ان السلطات بدأت منذ شهر اذار الماضي بجس نبض عدد من المواطنين المرشحين للعمل بها . واستمزجت في هذا الاطار حوالى ١٧ شخصا قد تختار من بينهم سبعة اشخاص بين مذيع ومراقب ومعلق ، بشرط ان يكونوا جميعا يحملون هوية الضفة والقطاع باستثناء شخص واحد من القدس سيكون مسؤولا عن التعليق السياسي في هذه الاذاعة . ويذكر ان بعض الذين فوتحوا بالامر في الفترة الاخيرة قد اعتذروا عنه ، كما ان جميع الذين روجعوا يعملون حاليا في مختلف أجهزة الاعلام الاسرائيلي من تلفزيون واذاعة وصحافة . اما الذين قبلوا بالعمل في هذه الاذاعة فهم من القدس ورام الله والخليل ونابلس وبيت لحم وجنين وطولكرم .

٣ — المدراء العامون

قامت السلطات الاسرائيلية في الفترة الاخيرة بمحاولة تعيين مدراء عامين لعدد من الدوائر ، يتكون منهم في النهاية مجلس مدراء عامين . وتقدر السلطات لهذا المجلس ان يكون ادارة تنفيذية يتمتع بمزيد من الصلاحيات . وتراهن سلطات الاحتلال على هذا المجلس في حال قيامه ان يعطي للسكان العرب في الاراضي المحتلة شعورا «بالاستقلال» النسبي عن سلطات الحكم العسكري، الامر الذي قد يجهض الشعارات الوطنية المرفوعة الان حول بناء السلطة الوطنية الفلسطينية المستقلة . والدوائر التي استقر رأي سلطات الاحتلال على تعيين مدراء عامين لها هي دائرة التعليم ودائرة الصحة ودائرة الشؤون الدينية . ولم يتوفر لدينا المزيد من التفاصيل حول هذه الخطة الاسرائيلية الجديدة . الا انه علم ، نقلا عن بعض الصحف الاسرائيلية ، ان الدكتور يعقوب السلطي ، وهو مدير مستشفى رام الله ، قد رشح لتولي منصب مدير عام عن الدوائر الصحية والمستشفيات في الضفة الغربية (الشعب ١٨/ ٧٤/٤) . وذكرت الصحف الاسرائيلية ايضا ان مستشار وزير المعارف الاسرائيلي « أوري طهون » قد اجتمع الى كل من أكرم فضة الذي عين مؤخرا مديرا للتربية والتعليم في محافظة نابلس ، وعبد الرحيم كتانة المعين حديثا مديرا للتربية والتعليم بمحافظة الخليل خلفا للمدير السابق ابراهيم قادري الذي بقي مديرا لمعهد دار المعلمين بالعروب . وقد استعرض معهم شؤون التعليم والامور الادارية الخاصة بمحافظتي نابلس والخليل، دون ذكر أية تفصيلات اخرى (الشعب ٧٤/٤/١٨).

صرف رواتب موظفي الضفة الغربية

نقلت جريدة القدس عن مصدر رسمي في وزارة المالية الاردنية ان الوزارة مستمرة في دفع رواتب ستة آلاف موظف في الضفة الغربية ، طبقا لقرار الحكومة الاردنية بشأن استئناف دفع الرواتب لموظفي الضفة ابتداء من شهر شباط (فبراير) الماضي . وقالت الصحيفة ان كل موظف يريد صرف راتبه ، يجب ان يقدم شهادة تحمل امضاء رئيسه الاداري وختم المجلس البلدي في موقع عمله في الضفة الغربية (القدس ٧٤/٤/٨) .

الا ان صحيفة الشعب ذكرت بعد ذلك باسبوع ، ان وزارة التربية والتعليم الاردنية ، لم تصرف رواتب المعلمين الذين عادوا الى الضفة الغربية عن طريق جمع شمل العائلات وزاولوا أعمالهم في الضفة . اذ اعتبرتهم الحكومة الاردنية انهم قد فقدوا وظائفهم في الاردن بعودتهم الى الضفة الغربية . كما انها لم تصرف رواتب قسم آخر من المعلمين بدون بيان الاسباب التي من أجلها لم تصرف الرواتب (الشعب ٧٤/٤/١٦). وذكرت « الشعب » في العدد نفسه ، ان بعض رؤساء البلديات والغرف التجارية والهيئات المختلفة ، قد بعثوا بمذكرة الى رئيس الحكومة الاردنية مع نسخ لوزير العدلية ووزارة شؤون الوطن المحتل في عمان ، تتعلق بقضاة المحاكم في الضفة الغربية الذين كان قد صدر قرار من الحاكم العسكري العام سنة ١٩٦٧ بفصلهم من العمل بموجب تعليمات الادارة العرفية . وطالب الموقعون على المذكرة ، ومن بينهم رئيس بلدية نابلس ورئيس الغرفة التجارية ورئيس الهيئة الاسلامية ، من رئيس الحكومة الاردنية اعادة النظر في هذا القرار ، ومعاملتهم أسوة بباقي الموظفين الذين عملوا من مختلف الوزارات والدوائر (الشعب ٧٤/٤/١٦).

أما فيما يتعلق برواتب موظفي امانة القدس الذين لم يشملهم قرار استئناف دفع الرواتب ، فقد ذكرت « الشعب » ان روحي الخطيب امين القدس الذي أبعدته سلطات الاحتلال منذ سنوات قد بذل جهودا لدى الحكومة الاردنية لغرض حملها على الرجوع عن قرارها بتجميد رواتب موظفي أمانة القدس ، وان الحكومة لم تبت في هذا الامر بعد (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

وتأكيدا على الكيفية التي تم صرف رواتب الموظفين بموجبها ، عاد يوم ٤/١٦ من عمان وفد من معلمي ومعلمات القدس القدامى بعد ان قضى في عمان تسعة ايام ، أجرى خلالها محادثات مع المسؤولين الاردنيين تتعلق بقرار اعتبارهم مفصولين عن العمل وبالتالي قطع رواتبهم . ولم يتوصل الوفد خلال اتصالاته هذه الى نتيجة ملموسة بصدد مسألة استئناف دفع الرواتب (الشعب ٤/١٧/ ٧٤) . وجاء في انباء صحف الضفة الغربية ، ان امرا قد صدر الى وزارة المالية الاردنية مؤخرا ، بعدم صرف راتب أي موظف في الضفة الغربية بواسطة التواكيل التي ترسل عنهم كما جرت العادة في السابق . وطالبت وزارة المالية كل موظف بفتح حساب له في أحد البنوك المرخصة في عمان ، ومن ثم تقوم المالية بتحويل الرواتب الى هذه البنوك ، وذلك اعتبارا من شهر حزيران (يونيو) (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

وقد دفعت الكيفية التي يتم بها صرف رواتب الموظفين في الضفة الغربية ، بصحيفة الشعب الى التساؤل عبر افتتاحيتها : هل « الرواتب الاردنية: حق أم رشوة » . فقالت انه لم يعد في جعبة الحكومة الاردنية من دورات ترمي بها في الضفة الغربية غير قضية « رواتب موظفي الارض المحتلة من القسم الشرقي من فلسطين ، لتتخذ من هذه الرواتب سلعة تتاجر بها في كسب الانصار وشراء الذمم واعلان الطاعة والولاء . وواضح من هذا التهافت على استعمال هذه (الانشوطة) الاخيرة ، انها فضلا عما أسلفنا ، ترمي الى الالتفاف من حول التمثيل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني في منظمة تحريره ، مستهدفة بذلك ، وبلغة الارقام المشتراة ، اعطاء الفكرة ان هناك استفتاء غير مباشر تمارسه الحكومة الاردنية ، بتسهيل من الاحتلال ومشاركته ، بان لها رصيدا كذا حجمه ، وكذا تعداده » .

والراتب كما ذكرت ذلك « الشعب » هو حق للموظف في الارض المحتلة من حيث المبدأ ومن ناحيتين :

الاولى : ان الموظف كان قائما على رأس عمله. وسواء أكان متقاعدا او مستمرا في عمله فهو بهذا صاحب حق مكتسب « لا يعفي الذين سلموه لسلطة اخرى من مسؤولية استمرار الاعتراف به ، لانه لم يسع للاحتلال ويأتي به » .

الثانية : ان الاموال التي تنفق منها هذه الرواتب تأتي من مصدرين : الضرائب المباشرة التي يشكل المكلف الفلسطيني بالضفة الشرقية فيها ما يعادل الثلثين ، والمعونات العربية من السعودية والكويت التي تدفع « للصمود » في الارض المحتلة بواسطة الحكومة الاردنية. ...وعليه فان الالتزام الاردني يظل قائما بالنسبة لموظفي « كادره في عهده وفق حقوقه المكتسبة ، وحتى بعد قيام الدولة الفلسطينية على أساس الحق الفلسطيني التاريخي والقومي » (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

اختطاف يوسف نصر

في اوائل شهر نيسان وبعد مرور حوالي شهرين على جريمة اختطاف الصحفي الفلسطيني يوسف نصر — صاحب جريدة الفجر — ذكرت مصادر الشرطة الاسرائيلية ان اماطة اللثام عن « لغز » اختطاف ومصير يوسف نصر ، قد اصبح وشيكا . ففي يوم ٤/٢ مثل امام قاضي الصلح ثلاثة مشبوهين جدد هم : باجس الجعبري — ٣٠ عاما — ، شمس الدين الجعبري — ٣٢ عاما — ، سمور الجعبري — ٥٠ عاما — . وقرر القاضي توقيف هؤلاء الاشخاص لمدة ١٥ يوما . وفي الاول والثاني من شهر نيسان قامت مفارز الشرطة بالبحث عن مكان يوسف في منطقة بيت لحم وضواحي القدس . وقد احضر يوم ٤/٢ الى مقهى زعترة في باب العامود بالقدس ثلاثة اشخاص اخرين ، في عملية تشخيص احدى الاجتماعات التي عقدها مختطفو يوسف . ونقلت « الفجر » عن صحيفة معاريف الاسرائيلية خبرا منسوبا الى مصادر رسمية تحت عنوان « خاطفو يوسف نصر قتلوه قرب اريحا » جاء فيه : عقب توقيف ثلاثة متهمين يوجد الان رهن التوقيف كل المتهمين بتخطيط وتنفيذ عملية

اختطاف صاحب الفجر . وحسب ما ذكرته الشرطة فان خمسة من المتهمين اختبأوا داخل بيت يوسف نصر . ومن المفترض ان الخاطفين قد حصلوا على مفتاح البيت من زميله جميل حمد المتهم بتخطيط عملية الاختطاف . وحين دخل يوسف البيت خرج الخاطفون من مخبأهم وهدده أحدهم بالسلاح بينما شد الاخرون وثاقه وكمموا فمه. أما المتهم السادس وهو فتوح الجعبري — سائق سيارة رئيس بلدية الخليل — فقد انتظرهم في الخارج دون ان يوقف السيارة امام البيت بل قام بعدة جولات حول المنطقة حتى لا يجتذب انتباه احد من الجيران . وحسب معلومات الشرطة ، فان الخاطفين ارادوا في اول الامر أخذ يوسف الى جبال الخليل ولكنهم صادفوا في طريقهم دوريات اسرائيلية تبحث عن فدائيين ، فغيروا طريقهم وتوجهوا الى اريحا . وفي منطقة مقفرة قتلوا يوسف ودفنوا جثته . وعلم ان القتل تم على يد احد الخاطفين ، وان صفقة تمت بين الخاطفين ومخطط العملية ، اتفق بموجبها انه اذا اعترف احد الخاطفين على الاخر فان الباقين سيقضون على أسرته بكاملها . وحسب الخطة كان على بعض المختطفين السفر الى عمان لاستلام اجرتهم وهي ٢٤ الف ليرة . وقال مصدر ان عملية الاختطاف وربما القتل أغرى بهما اثنان من رجالات رام الله ، أحدهما محامي وسياسي فلسطيني معروف ، والثاني رجل أعمال ثري يعتبر من ذوي المواقف السياسية . ولم يتم توقيف اي منهما بعد . وقامت الشرطة بعرض ساعات وخواتم على أسرة يوسف للتعرف عليها . كما قامت بجلب صديقة يوسف من سجن الرملة وهي سهير هاني للتعرف على هذه الساعات والخواتم . أما شقيقة يوسف وهي عفاف العجلوني فانها تعتقد ان مختطفي شقيقها قد سلموه الى السلطات الاردنية (الفجر ٧٤/٤/٣) .

وذكرت صحيفة الشعب بعد ذلك ان احد المتهمين باختطاف صاحب الفجر قد حاول الانتحار في السجن مما ادى الى نقله الى المستشفى لاسعافه (الشعب ٧٤/٤/٤). وفي عددها الصادر يوم ٤/١٠ ذكرت الشعب ان قاضي الصلح بالقدس قد قرر توقيف أحد محرري « الفجر » مدة خمسة عشر يوما اخرى بناء على طلب المستشار القانوني لرئيسة الحكومة الاسرائيلية . وفي نفس الوقت طالبت الشرطة بتمديد توقيف متهم اخر وهو ياسر الكركي لمدة ١٥ يوما اخرى . وكان هذا الشخص احد الذين اعترفوا بقضية الاختطاف . ونقلت « الشعب » على الصحف الاسرائيلية المزيد من تصريح مفتش الشرطة العام في مؤتمره الصحفي الذي عقده عندما حل ضيفا على رئيس بلدية حيفا يوسف الموجي . فقال المفتش : معلوم لدينا الان من هو الذي اختطف يوسف نصر ... لكننا لا نستطيع القاء التهمة على هذه العناصر او تلك . أما الصورة الان فهي على الاقل واضحة (الشعب ٧٤/٤/١٠). ونقلت الصحيفة عن معاريف الصادرة يوم ٤/١٥ ، ان لدى الشرطة قناعة بان الموقوفين في قضية يوسف نصر هم الذين اختطفوه ولكن ليست هنالك ادلة قاطعة على ذلك . وتضيف الصحيفة الاسرائيلية بان مصدرا في الشرطة صرح لمراسلها بأن الصعوبة الاساسية الان ، هي اكتشاف مكان يوسف ، وان أغلب المتهمين يرفضون الاعتراف باسهامهم في تنفيذ العملية (الشعب ٧٤/٤/١٦) .

الا ان الشرطة بعد توصلها الى هذه المعطيات عادت فامسكت عن ذكر أية تفاصيل حول حادث الخطف . ومن ناحية اخرى أصدرت محكمة الصلح بالقدس امرا بتمديد توقيف ثلاثة متهمين اخرين لمدة ١٥ يوما . وقال ممثل الشرطة في معرض طلبه هذا ان هؤلاء الاشخاص قاموا بعملية الاختطاف . (الشعب ٧٤/٤/١٧) .

وصرح شلومو هليل وزير الشرطة في لقاء مع الصحفيين يوم ٤/١٨ ، ان الشرطة أمامها مهمة كبرى للكشف عن ملابسات هذه القضية . وردا على سؤال حول تمويه الشرطة لصلة الحادث باحدى الشخصيات المعروفة بالمناطق المحتلة ، قال هليل : ان الشرطة تعمل جهدها لكشف الحقائق ، ومن تثبت ضده التهمة سيقدم للمحاكمة مهما تكن شخصيته (الشعب ٧٤/٤/١٨) .

واذاع راديو اسرائيل يوم ٤/١٨ ان مجموعة من رجال الشرطة قامت بناء على معلومات لديها بحملة تفتيش عن صاحب الفجر في أحد الكهوف الواقعة بين قريتي قلندية والجديرة شمال القدس ، وان التفتيش لم يسفر عن نتيجة . وأفاد مساعد مدير الاطفائية الاسرائيلية في لقاء اذاعي بأنه حاول جهده لكن الكهف عميق وليس من السهولة تفتيشه

بسرعة ، وانه على استعداد لمعاودة البحث اذا ما رغبت الشرطة في ذلك (الشعب ٧٤/٤/١٩) .

وبعد خمسة وسبعين يوما من اختطاف يوسف نصر ظلت الشرطة تميع القضية عن طريق تلميحها تارة بان يوسف قد نقل الى الاردن حيا وتارة بالتفتيش عليه ميتا ، وثالثا بان الشرطة لم تحصل على الادلة الكافية بعد لاعداد لائحة الاتهام... الخ وبعد خمس وسبعين يوما ما زالت المحاولات جارية لانقاذ الموقوفين على ذمة التحقيق بعد ان اعترف قسم منهم بالاشتراك والتخطيط لاختطاف صاحب الفجر ، وان الرؤوس المدبرة — كما ذكرت صحيفة الفجر — تحاول من جديد الضغط على بعض الموقوفين والمعترفين لسحب اعترافاتهم خشية ان تنكشف الحقيقة (الشعب ٧٤/٤/٢١) .

وقالت صحيفة القدس في عددها الصادر يوم ٤/٢٩ ان السلطات الاسرائيلية قامت بهدم ثلاثة منازل في قرية نقوعة تعود لثلاثة شبان من سكان القرية اعتقلوا قبل هذا التاريخ بشهرين ، وذلك بتهمة وضع مجموعة من القنابل في الشوارع الرئيسية ومحطة الباصات . وذكرت « الشعب » الصادرة في اليوم نفسه ذلك الخبر وقالت ان المنازل الثلاثة تعود الى محمد احمد وابنه عبدالله ، محمد ياسر وابنه المعتقل مصطفى ، وليد مصطفى سعيد المعتقل حاليا .

القادة النقابيون والعمال

شددت سلطات الاحتلال خلال الفترة الماضية من حملتها التعسفية ضد قادة الحركة العاملة الفلسطينية والمنظمات الجماهيرية . واتخذت هذه الحملة طابع الشمولية بحيث امتد نطاقها الى مختلف مدن الضفة الغربية ، مستهدفة بشكل محدد قادة الجبهة الوطنية الفلسطينية التي تخوض كفاحا سياسيا ضد مشاريع الاحتلال ومحاولات الالحاق والضم الاردنية .

وفيما يلي أسماء عدد من هؤلاء المناضلين الذين تم اعتقالهم على يد الاحتلال ، في أواسط شهر نيسان الماضي ، كما اوردتها صحيفة القدس ، مع نبذة عن حياة كل واحد منهم :

— خلدون عبد الحق ، وهو من قادة الجبهة الوطنية الفلسطينية ، انتسب لعصبة التحرر الوطني (الحزب الشيوعي الفلسطيني) قبل عام ١٩٤٨ ، ثم لرابطة المثقفين فرع نابلس عام ١٩٤٦ . واعتقله الجيش العراقي سنة ٤٩ اثر قيامه بتوزيع منشورات لعصبة التحرر الوطني ضد المؤامرة الصهيونية الرجعية على الشعب الفلسطيني .

— الدكتور فرحان ابو الليل ، عضو لجنة نقابة الاطباء في لواء نابلس . بدأ دراسته الجامعية في القاهرة لكنه طرد منها في حملات ١٩٥٩ فانتقل الى بغداد حيث تخرج منها عام ١٩٦٢ . وقد تعرض طوال سنوات الاحتلال الماضية الى الملاحقة والاستجواب .

— خليل حجازي ، امين صندوق نقابة المؤسسات العامة في نابلس وأحد القادة البارزين في اتحاد النقابات الفلسطيني في الضفة الغربية . وكان قد قضى في سجون الاردن قبل عام ١٩٦٧ مدة سبع سنوات ولم يطلق سراحه الا بعد شهر حيث غادر سجن الزرقاء الى نابلس .

— لبيب فخر الدين ، من أعضاء رابطة المثقفين في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، وقد عمل بعد اغتصاب فلسطين مدرسا في الكويت . وعندما عاد الى الضفة الغربية بعد وقوعها تحت الاحتلال ظل ملاحقا ومعرضا للاضطهاد . وفي حرب تشرين الاول اعتقلته سلطات الاحتلال خلال الحرب . وكان ابنه قد سجن لمدة عام في سجن نابلس لمقاومته الاحتلال.

— غسان حرب ، كاتب وصحفي فلسطيني حاصل على دبلوم في الاقتصاد السياسي من جامعة موسكو سنة ١٩٧٢ . كان نشيطا في الحركة الطلابية سنة ١٩٥٦ . وقضى في سجن النظام الاردني ثمان سنوات وكان عمره لدى دخوله السجن لا يزيد على ١٧ عاما . وقد قدم امتحانات الثانوية العامة عام ١٩٥٨ وهو في السجن .

— تيسير العاروري ، يحمل دبلوم في الفيزياء الحديثة من جامعة موسكو التي تخرج منها عام ١٩٧٣ . وعند عودته الى الضفة الغربية عمل مدرسا في كلية بير زيت .

— راغب البرغوثي ، مستخدم في مدرسة التدريب المهني التابعة للاتحاد اللوثري في قلنديا .

— عادل البرغوثي ، فلاح فلسطيني سجن ثمان سنوات في الجفر بالضفة الشرقية وسنة لدى الاحتلال في الضفة الغربية .

— محمود شقير ، كاتب وأديب فلسطيني واحد

قادة اتحاد المعلمين ، سجن في الضفة الغربية بين عامي ٦٨ ــ ١٩٦٩ . وهو سكرتير لجنة الدفاع عن الارض في سوامرة الواد .

ــ محمد ابو غربية ، قائد نقابي وجماهيري بارز في القدس وسكرتير نقابة عمال الاحذية في المدينة . سجن عدة مرات في عهد الحكم الاردني للضفة الغربية .

ــ يعقوب فراج ، سكرتير نقابة الخياطين في القدس ، وقد سجن عدة مرات بعد احتلال الضفة الغربية عام ١٩٦٧ .

ــ فاروق السلفيتي ، محام وتاجر ، وقد سبق أن سجن لمدة عامين في عهد الحكم الاردني .

ــ خالد الاشهب ، اعتقلته سلطات الاحتلال عام ١٩٦٩ بعد اشتراكه في مظاهرة ضد الاحتلال .

ــ محمد سعاده ، مدرس فلسطيني سبق له ان سجن لمدة ثمان سنوات في سجن الجفر الصحراوي بالاردن .

ــ المهندس حسني حداد ، سكرتير لجنة نقابة المهندسين في لوائي بيت لحم والخليل ، وسبق ان سجن في لبنان عام ١٩٤٩ لنشاطه الوطني وسجن في الاردن لمدة ثمان سنوات وفي ظل الاحتلال لوحق وسجن عدة مرات .

ــ عطاالله الرشماوي ، امين صندوق نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في بيت لحم ، وسبق ان سجن لمدة ثمان سنوات في عهد الحكم الاردني ولوحق وسجن عدة مرات في عهد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية .

ــ روبير حنا حنظل ، طالب فلسطيني .

ــ يوسف الهباب ، طالب فلسطيني .

ــ ايدي حزبون ، طالب فلسطيني جامعي .

كما اعتقلت سلطات الاحتلال الصحافي غسان طبوب وزياد الحموري وماهر القدومي ورفعت عبده . وقالت القدس في عددها الصادر يوم ٤/٢٦ ، ان جنود الاحتلال قاموا بتفتيش العديد من المنازل في بعض قرى نابلس واعتقلت بعض الاشخاص بتهمة حيازة منشورات ممنوعة .

عيسى الشعيبي

صدر حديثا عن مركز الابحاث كتاب

الحركة الوطنية الفلسطينية

امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢ ــ ١٩٤٨

بقلم

ناجي علوش

٢٩٦ صفحة باربع ليرات لبنانية يضاف اليهم اجور البريد الجوي

٥٠ ق.ل. في العالم العربي ، ١٠٠ ق.ل. في اوروبا ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول

اطلبه من مركز الابحاث ــ قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ ــ بيروت

(٤) اسرائيليات

اختيار رابين لتاليف الحكومة الجديدة

لا نكون مغالين او بعيدين عن الصحة ، اذا قلنا ان حرب تشرين كان لها فضل ، او بشكل أدق ، هي التي أتاحت الفرصة للجيل الجديد في حزب العمل للحلول محل القيادة التقليدية للحزب او ما يسمى هناك بجيل المؤسسين . فمنذ وقف اطلاق النار ، بدأت المطالبة باقالة المسؤولين والمتهمين بالتقصير . وقد تركزت المطالبة آنذاك — شابيرا وزير العدل السابق — على استقالة او اقالة وزير الدفاع موشي دايان . لكن وقوف جولدا مئير آنذاك الى جانب دايان بحزم ، حرصا على وحدة الحزب قبيل الانتخابات العامة ، وما ترتب عن ذلك من ربط مستقبلها السياسي بمستقبل دايان ، جعل جهاز الحزب الذي يتحكم فيه سابير يقف الى جانب رئيسة الوزراء ، في وجه الاصوات المعارضة داخل الحــزب ، التي طالبت آنذاك — قبيل الانتخابات — باعادة فتح لوائح المرشحين وباعادة توزيع الحقائب الوزارية بشكل آخر . وقد كان واضحا ان المفتاح بيد رئيسة الوزراء ، وان استقالتها فقط من شأنها ان تفتح الباب لمثل تلك التغييرات التي نادت بها الاصوات المعارضة في الحزب . وقد بدأ آنذاك ، لدى اقرار وثيقة البنود الاربعة عشر ان القيادة التقليدية قد ربحت الجولة الاولى . وجاءت نتائج الانتخابات للكنيست الثامنة ، فعززت المحاذير التي حالت دون جولدا والتضحية بدايان في سبيل الحفاظ على مركزها الشخصي والسياسي داخل الحزب وخارجه . لكن تفاعلات الاحداث اللاحقة — حركات الاحتجــاج الجماهيرية وازدياد نشاط مجموعات الاحتجاج داخل حزب العمل — « وسط التحدي » بزعامة رابين وياريف وبارليف ، وازدياد المطالبة باجراء انتخابات داخلية ، وبالغاء الكتل داخل الحزب ، بالاضافة الى ما توصلت اليه لجنــة اجرانات في تقريرها الاولي ، ذلك التقرير الذي اوصى الحكومة باقالة بعض كبار الضباط في الجيش وعلى رأسهم رئيس الاركان ، وما نتج عن ذلك من العودة الى المطالبة باقالة دايان ثانية بالحاح اكثر من خلال المطالبة بتطبيق مبدأ المسؤوليــة الشخصية — رغم ان التقرير برأه من ذلك — والمسؤولية الوزارية — المتمثلة فيما ذكر اعلاه جعلت جولدا مئير تخطو الخطوة الوحيدة الممكنة ، سيما وان دايان اصر على موقفه بوجوب رحيل الحكومة بأسرها ، فأعلنت استقالتها من رئاسة الوزارة . وقد عبرت مئير عن الوضع الذي آلت اليه الامور باختصار حيث قالت « بدايان لا توجد حكومة وبدون دايان لا توجد حكومة » (ر أ أ — ٧٤/٤/١٥ عدد ٥٠٣ ص ١١٠).

عزوف الورثة

باستقالة مئير ، طرحت مسألة الوراثة نفسها من جديد ، بشكل جدي وواقعي اكثر مما كانت عليه في أي وقت مضى ، حتى عندما كانت مئير تعبر عن رغبتها في ذلك ، كما حدث في اوائل السنة الماضية . لكن حرب الوراثة الخفية التي كانت تتمحور منذ سنين حول سابير ودايان وألون كأكثر ثلاثة مرشحين محتملين ، دخل في دائرتها كنتيجة للمعطيات الجديدة، أسماء اخرى لم تكن في السابق مطروحة ، او بالاحرى لم يكن لهــا حظ كبير في النجاح ، أمثال : رابين ، الموجي ، تسادوك ، بيرس وابا ايبن ، حيث كان بعضها (امثال رابين وبيرس) يعتبر من رجالات الصف الثاني في زعامة حزب العمل ، والبعض الاخر يرهن ترشيحه لنفسه بعزوف سابير ومباركته ، لانه كان معلوما للجميع ان رئاسة الوزارة عدا كونها من نصيب المباي كأكبر كتلة في حزب العمــل ، فان المرشح لهذا المنصب يجب ان يحظى بتأييد هذه الكتلة وبالذات بتأييد كتلة تل ابيب وجهاز الحزب الذي يسيطر عليه سابير .

سابير يرفض ترشيح نفسه

على اثر استقالة جولدا ، كان هناك داخل حزب العمل وجهتا نظر : واحدة تدعو الى استمرار الحكومة الحالية كحكومة انتقالية الى حين اجراء انتخابات جديدة في الخريف المقبل ، وثانية دعت الى ضرورة تشكيل حكومة جديدة . وكان سابير ، استمزاجا منه لرغبة جولدا مئير في البقاء في الحكم، حتى اجراء الانتخابات ، مؤيدا لاستمرار الحكومة السابقة كحكومة انتقالية ، لكنه ازاء لمسه للضغوط الداعية الى وجوب تشكيل حكومة جديدة داخل اللجنة المركزية للحزب، وبالذات في اوساط مجموعة

المباي ، اضطر للتجاوب مع رغبة مؤيديه في اللجنة المركزية . وبقي سابير لائذا بالصمت ورافضا ترشيح نفسه ، رغم كافة الجهود التي بذلها العديد من الاعضاء في كتلة تل ابيب لحثه على تغيير موقفه . لكنه قبل موعد اجراء الانتخابات بثلاثة ايام ، أعلن رسميا انه يدعو الى تأييد رابين بعد ان اقتصرت المنافسة على المنصب بين رابين وشمعون بيرس . وقد ادى موقف سابير المتردد في البداية الى احداث بلبلة في صفوف مجموعة المباي ، واحدوت هعفودا ، فنتيجة لموقفه هذا أحجم ورفض بعض اعضاء المباي واحدوت هعفودا امثال تسادوك وابا ابين وألون ترشيح أنفسهم ، على امل ان يستجيب سابير في آخر لحظة لطلبهم بترشيح نفسه . ومن ناحية اخرى فقد ساهم موقفه هذا في الانقسام الذي تجلى في مجموعة المباي اثناء التصويت ، حيث رفض البعض السير وراءه بعد أن أعلن عن تأييده ليتسحاق رابين .

وكان موقف سابير مثارا للتكهنات والتحليلات ، فبينما اعتبره هو مسألة تعنيه شخصيا ومعبرا عن رفضه القديم والمستمر لاشغال هذا المنصب (يديعوت احرونوت ٧٤/٥/٣) حاول البعض الاخر ايجاد اسباب وعلل له . وقد عزت احدى الشخصيات المركزية في كتلة تل ابيب موقف سابير هذا ، الى ان جولدا مئير هي المسؤولة عنه : « يعتقد الرفاق ان جولدا لم تعامل سابير بشكل لائق . وليس هناك اساس لاقوالها بأنها لا تريد له مصيرا شبيها بما فعلوه معها . لقد اظهرت روحا غير رفاقية ازاء سابير . فبينما تصرف معها « كجنتلمان » حتى النهاية واحيانا قام بأعمال خلافا لرغبته ، لا لشيء ، الا لكونها تريد ذلك ، فانها لم تمد له حتى أصبعا صغيرا للمساعدة » . (يديعوت احرونوت ٧٤/٥/٣) .

ويمكن تلخيص موقف سابير الرافض بنقطتين اثنتين :

أ — فمن ناحية ، فان اخلاصه ووفاءه لجولدا ، جعله يرى انه من غير اللائق الاسراع بترشيح نفسه لخلافتها ، طالما لم تطلب منه ذلك (رغم تأكيده على انه لم يكن ليستجيب لها حتى لو فعلت ذلك) ، نظرا للشكل والاسلوب الذي اضطرت به للاستقالة .

ب — انسجام سابير مع نفسه في مطالبته باجراء انتخابات جديدة ، واستمرار الحكومة السابقة في الحكم كحكومة انتقالية ، وشعوره بأن هذا هو ما ترغب به جولدا مئير .

أما احد انصاره فقد علل امتناعه بقوله : « لا اعلم تماما ولكن باستطاعتي ان اتكهن بالسبب . فالمسؤولية ثقيلة جدا . ويحتمل ان هذا هو السبب الاساسي لرفضه ترشيح نفسه لهذا المنصب » . (ر أ أ — ٧٤/٤/١٩ ، عدد ٥١٣ ص ٤١٠) .

اما دايان وألون ، المرشحان الاوفر حظا قبل الحرب لخلافة جولدا ، فقد عزف كلاهما عن ترشيح نفسيهما . فالاول حرقته الحرب ، ولم يعد بمقدوره حتى الاحتفاظ بوزارة الدفاع ، فكيف التطلع الى رئاسة الوزارة . والثاني ، رغم طموحه الشديد لهذا المنصب فقد آثر عدم ترشيح نفسه طالما لم يلمح له سابير بذلك . لكنه في نفس الوقت عزا موقفه هذا الى المطلب الذي تبنته أحدوت هعفودا في حزب العمل ، ذلك المطلب الداعي الى اجراء انتخابات جديدة : « ان ما تطلبه المرحلة والجماهير منا اليوم ، هو خطوة حاسمة ، اي الانتخابات العامة فقط . فلن تفيد الخطوات البديلة ، والمفتاح والمخرج الحقيقي للازمة هو فقط في الرجوع الى الشعب » (ر أ أ — ٧٤/٤/٢١ عدد ٥١٥ ص ٤٦٨) .

وأعرب الون في مقابلة اذاعية اخرى أجريت معه عن عدم ارتياحه من الوضع الداخلي الذي يسود الحزب، ولعدم الجرأة على استخلاص العبر السليمة والصحيحة بشأن الحاجة لاجراء انتخابات جديدة عامة للكنيست في أشهر الخريف المقبل . وقال معبرا عن معارضته لتشكيل حكومة جديدة : « ... ولكني اريد ان استبعد قيام حكومة ترى ان من واجبها الاستقالة بعد مدة قصيرة . وعندها نتأسف مرة اخرى لاننا لم نفعل الامر الصحيح في الوقت الصحيح » (ر.أ.أ. — ٧٤/٤/٢٠ ، عدد ٥١٥ ، ص ٤٥٣) .

وهكذا بقي في الساحة عمليا يتسحاق رابين عن المباي ومدعوما من قبل أحدوت هعفودا ، وشمعون بيرس مدعوما بشكل اساسي من كتلة « رافي » . وقد فاز رابين في الانتخابات التي جرت في اللجنة المركزية في ٧٤/٤/٢٢ على شمعون بيرس

بأغلبية ٢٩٨ : ٢٥٤ من أصل ٥٥٨ صوتا شاركوا في الاقتراع ، وضع ستة منهم اوراقا بيضاء (عدد أعضاء اللجنة المركزية ٦٠١ عضو) .

مغزى انتخاب رابين

يتفق معظم المراقبين والمختصين بالشؤون الحزبية الاسرائيلية على ان جلسة اللجنة المركزية لحزب العمل التي انتخب فيها رابين مرشحا عن الحزب لتشكيل الحكومة الجديدة ، تمثل منعطفا مهما في حياة الحزب . وقد أشارت بعض الصحف (معاريف ٧٤/٤/٢١) الى ظاهرة التنافس على منصب رئاسة الوزارة فقالت : « ... وهذه المرة سيجري تنافس بين مرشحين (خلافا للسابق) . وهذا لا يدل ، بالذات على « غروب شمس الالهة » وعلى هبوط في مستوى الزعامة ، بل هذا دليل على نضوج أكبر في كل ما يتعلق بالاجراءات الديمقراطية وتطبيقها على ارض الواقع » . وأضافت معاريف « ان حقيقة التنافس بين رابين وبيرس هو على المكانة في القيادة » .

وترى بعض الصحف ايضا انه بقدر ما يعود فضل انتخاب رابين لجهود سابير فان الاصوات التي حصل عليها شمعون بيرس ، والتي لم تكن متوقعة ، تعود ايضا لموقف سابير الذي أفقده سيطرته وتحكمه بأكبر كتلة في اللجنة المركزية لحزب العمل ، أي المباي . وقد عزت (معاريف ٢٢/ ٧٤/٤) أسباب تأييد سابير لرابين الى ما يلي :

أ — من الاسهل على الكتلة (كتلة تل ابيب) الاحتفاظ بالسلطة في حالة وجود رابين على رأسها، بينما العكس ، اذا كان بيرس .

ب — ان رابين يشكل قوة جذب انتخابية .

واضافت معاريف قولها : « ومنذ الان تقررت حقيقة جديدة : فسيكون هناك رئيسا للوزارة من جهة ، ورئيسا للحزب من جهة اخرى . وكرئيس للحزب يرى سابير نفسه مناسبا واكثر قدرة على حسم الامور حتى لو كان خارج الحكومة » .

أما دان بتير فكتب في صحيفة دافار ٧٤/٤/٢٤ يقول : « ان الخطوط المميزة للقرار الذي اتخذ في اللجنة المركزية لحزب العمل جديرة بالتنويه بها ، وليس هذا فقط للتجديد المحض بالنسبة لكل ما كان متبعا في الحزب حتى الان ، بل للابعاد الجذرية النابعة منها بالنسبة لاستمرار ونوعية طريق الحزب » . وفي تحليله لمدلولات اختيار رابين وللشكل والاسلوب الذي تم به يحدد بتير خمس ظواهر :

* ان التنافس المفتوح الذي جرى للحصول على ترشيح الحزب لرئاسة الحكومة ، مكن العديد من الاراء والاعمار من الاشتراك فيه ، وفي نهاية الامر بقي اثنان من خيرة الجيل الجديد في صفوف القيادة ، وهم الاكثر شبابا ، حيث الاول لم يكمل بعد ثمانية أشهر من العمل السياسي (الحزبي) بعد سنين طويلة ، من اشغال مناصب رسمية ، عسكرية ودبلوماسية . أما الثاني فاكثر منه تقدما في النشاط السياسي والحزبي .

* ان الظاهرة الاكثر بروزا كانت ظاهرة « الصوت العائم » الذي وجد تعبيرا عنه بالذات في أكبر الكتل التي يتألف منها حزب العمل ، في مجموعة المباي سابقا . وهذه الظاهرة هي التي جسدت بداية غروب شمس الحواجز الكتلوية وأبعدت أخطار الانشقاق . كما وتميزت هذه الظاهرة ، بين ما تميزت به ايضا بواسطة القرارات الرسمية لبعض القطاعات الحزبية ، مثل قطاع الشباب وجيل الاستمرار واتحاد « الكفوتسوت والكيبوتسيم » ، المستوطنات والوية حزب العمل الكبيرة مثل لواء حيفا وتل ابيب ، القاضية بعدم اتخاذ قرارات تأييد ملزمة سلفا ازاء أي واحد من المرشحين .

* وعلى الرغم من سرية التصويت ، تدل النتائج النهائية على انه ازاء تصويت كتلوي موحد تقريبا لمجموعتي « رافي » و « أحدوت هعفودا » فان توزع الاصوات داخل مجموعة المباي بالتساوي تقريبا بين المرشحين ، يدل ، بين ما يدل عليه ، ليس على تصويت مضاد للجهاز الحزبي وربما مضاد للوصاية فقط ، بل هو تعبير عن رغبة في اعتبار القيادة المنتخبة الجديدة ممثلة لاتجاه فوق الكتل .

* واعتقد انه بالامكان ان نلاحظ في مجرد تفضيل المسار الملزم بمحاولة تشكيل حكومة جديدة ، حيث انه كان في غالبيته ثمرة تأييد من اوساط مجموعة المباي سابقا ، ارادة لتجسيد قوة حيوية حزب العمل كحزب حاكم باستطاعته نقل زمام الزعامة من عصر الى عصر ، بالذات في أكثر الاوقات صعوبة .

* وظاهرة اخرى للاسف ـ لم تقدر حتى الان حق قدرها في حزب العمل ، وهي تتمثل في الاسلوب الجديد المنضبط والمحترم في العلاقة الشخصية بين المرشح وناخبيه وبين المرشحين انفسهم .

أما دان مرجليت (ملحق هآرتس ٧٤/٤/٢٦) فكتب حول الدلالة الاساسية لعملية الترشيح فقال : « لقد كان ترشيح رابين وبيرس اشارة الى تغيير معين ، الى وصول « المطبخ » الى نهاية الطريق . جولدا ستعتزل . دايان والون شاب شعرهما ، وهما يستعدان لمعركة على الوراثة لم تجر ابدا ، ومن المشكوك فيه ان تجري في يوم من الايام . وجيل كامل من رجال الاحزاب ينزل من على خشبة المسرح » (نشرة م.د.ف. السنة الرابعة ٧٤ ، العدد ٩) .

مشاكل وصعوبات

يواجه رابين مهمتين عاجلتين يتوجب عليه فيهما ان يتخطى المصاعب القائمة في طريقه فيهما او التي ستوضع في طريقه . المهمة الاولى هي مهمة تشكيل الحكومة الائتلافية الجديدة في أقرب وقت ممكن . والمهمة الثانية توطيد مركزه داخل الحزب من خلال تكتيل الحزب حوله واختيار كادر او طاقم من الوزراء يرضي كافة الكتل في الحزب . وقد أشار يوئيل ماركوس (هآرتس ٧٤/٤/٢٦) الى الصعاب التي يواجهها رابين في مهمتيه المذكورتين فقال : « اولا وقبل كل شيء ، يجب ان نذكر ان الفراغ المطلوب من رابين ملأه ليس مكان جولدا مئير التي لا تزال حيويتها وردود فعلها ورئاستها للحكومة بارزة جدا فقط ... [وانما ايضا] مكان الرعيل القديم الذي تم تحييده [في جلسة حزب العمل] ... » .

وتابع ماركوس متحدثا عن الصعوبة الثانية أمام رابين ، فقال انه يشغل الان منصب وزير في حكومة ترئسها جولدا مئير : « انه وريثها (دون مباركتها)، وفي الوقت نفسه ملزم بالولاء لها كواحد من وزرائها ــ وهذا وضع سيرغمه على السير على أطراف أصابعه حتى لا يستثير ... غضبها ... انه لا يستطيع مثلا ان يعقد مؤتمرات صحافية ويعبر عن آراء تناقض آراءها او تختلف عنها . وعليه ان يكون حذرا ايضا في المفاوضات الائتلافية كي لا يتنازل أكثر مما كانت جولدا مئير ستتنازل عنه .

ومن الصعب معرفة كيف يمكن لرابين ان يتخلص من هذا الوضع ، الا ان الامكانات ليست كثيرة : أما تقصير الفترة المرحلية ، او ان تعتزل جولدا منصبها جزئيا وتخوله معظم صلاحياتها » .

والصعوبة الثالثة في رأي ماركوس ، ستكون علاقة رابين ببنحاس سابير الذي يصعب التصديق انه فقد قوته بترشيح رابين . وهناك من يعتقد ان كل ما حدث في اللجنة المركزية كان خطوة محكمة من سابير « لحرق » رابين ، كي يدعى الى انقاذ الوضع ، بعد فشل رابين في تشكيل الحكومة .

أما الصعوبة الرابعة ، في رأي ماركوس ، فهي شمعون بيرس ، الذي كان يكفي ان ينتخبه ٢٢ عضوا آخر ليتم اختياره مرشحا لتشكيل الحكومة . والرأي السائد هو ان رابين سيحول منافسه الى حليف مهم له ، ولكن « ماذا سيقول في ذلك مبام وأحدوت هعفودا ، وسابير ؟ وبالمقابل اذا استمع الى ما يقولونه ــ ماذا ستقول كتلة رافي ؟ » .

وانتقل ماركوس اخيرا الى الصعوبة المباشرة التي يواجهها رابين : تشكيل الحكومة ــ الائتلاف والمناصب : « فيما يتعلق بتشكيل الحكومة ، لا يستحق الامر عناء التنبؤ . هناك من يقول ان فرصه معدومة ، وهناك من يقول ان في جيبه ، منذ الان ، حكومة مستندة الى ٦١ صوتا ، وتستطيع الاعتماد على خوف المفدال من اجراء الانتخابات ... ولكن هذه مسألة ثانوية ، حيث ان في نية رابين الامتناع عن جرجرة الامور ، وتعيين موعد محدد لجهوده . اذا نجح ، حسنا ــ واذا فشل يختار الانتخابات (...) وربما كانت المسألة الاعقد هي في مجال الفريق الذي سيختاره من بين صفوف الحزب للعمل معه . ماذا سيحدث لايبن ؟ لدايان ؟ هل سينضم ألون الى الحكومة؟..» والنتيجة التي يصل اليها ماركوس : ليس واضحا ما سيحدث . ويشاركه في هذا الرأي معظم المعلقين السياسيين ، وان كان ترجيحهم هو فشل رابين في تجاوز كل هذه الصعاب . (نشرة م.د.ف. السنة الرابعة ٧٤ ، العدد ٩) .

تعثر المفاوضات الائتلافية

جاءت استقالة حكومة جولدا مئير فرصة مناسبة للمفدال لتوحيد صفوفه من جديد ، بعد ان كادت

موافقة الحزب على المشاركة في الحكومة السابقة ان تودي بوحدته . وهكذا فعودة المفدال الى طرح مطلبي اقامة حكومة طوارىء وطنية وتعديل قانون من هو اليهودي ، هي في جوهرها محـاولة لتحقيق هدفين محددين :

١ ــ اصلاح الحال مع مجلس الحاخامين الاعلى الذي اوصى في حينه بعدم دخول الحزب الى الائتلاف الحكومي الا اذا تم التعهد بتعديل القانون.

٢ ــ اعادة الوحدة والتماسك الى صفـوف الحزب ، وذلك بالاصرار على المطلبين المذكورين اعلاه .

وكان هذان المطلبان قد تقررا في اجتماع لادارة الحزب عقد في ٧٤/٤/١٨ ، بعد ان كانت كتلة الحزب في الكنيست قد اتخذت قرارا مماثلا . وبالنسبة للقرار المتعلق بالسعي لاقامة حكومـة طوارىء وطنية ، فعلى ضوء موقف المفدال المعارض لاجراء انتخابات عامة ، فقد كان هذا القرار موضع خلاف في تفسيره بين كتل الحزب المختلفة . فبينما رأى وزير الاديان يتسحاق رافائيل ان القرار يحتم على المفدال المبادرة لتأليف حكومة طوارىء وطنية ، قال سكرتير هبوعيل همزراحي (أحـد جناحي المفدال) انه اذا لم يستجب لمطلب الحزب بتأليف حكومة طوارىء وطنية ، وتوجب الاختيار بين الانضمام الى حكومة مستقرة او اجراء انتخابات جديدة ، فينبغي الاخذ بالاختيار الاول . أما شباب المفدال الذين يطالبون باصرار بتأليف حكومـة طوارىء وطنية فيعتقدون ان معنى القرار الذي اتخذ في ادارة الحزب هو ان باستطاعة ممثلي المفدال خلال مفاوضاتهم مع ممثلي المعراخ وسائر الكتل في الكنيست بحث موضوع واحد فقط وهو اقامة او تشكيل حكومة طوارىء وطنية .

أما بالنسبة للمطلب الثاني ــ تعديل قانـون من هو اليهودي ــ فقد برر وزير الاديان يتسحاق رافائيل عدم موافقة حزبه الدخول في الائتـلاف الجديد على اساس الحل الذي تم التوصل اليه سابقا بقوله : « ... فعندما انضممنا الى الحكومة قبل شهرين ، كنا مقتنعين انها حكومة مسـتقرة ، وسوف تبقى في الحكم طيلة ولايتها ، أي لمدة اربعة أعوام . وان اللجنة الوزارية لحل قضية من هو اليهودي ، من شأنها ان تعمل بهدوء دون ضغوط انتخابية ودون غليان ، كما كنا مقتنعين ان جميع الاطراف ستعمل لايجاد حل لهذه القضية. ولكن الان ولكوننا نعتقد ان الحكومة التي ستؤلف هي في الواقع حكومة انتقالية جديدة ستمـارس الحكم نصف عام او عاما واحدا على أبعد تقدير، لغاية الانتخابات الجديدة . ففي جو الحمـلة الانتخابية ، تضيع النوايا الحسنة المطلوبة ، لعمل لجنة وزارية كهذه ، ولحل مسألة جديـة ومعقدة كهذه ، لهذا لا ارى احتمالا لحل المشكلة داخل اللجنة ، ولهذا بالضبط ، نريد حل المشكلة قبل انضمامنا للحكومة » (ر.أ.أ ــ ٧٤/٤/٣٠ ، عدد ٥٢٢ ، ص ٥) .

ونظرا لموقف حزب العمل القاطع ــ رغم بعض الاستثناءات ــ الرافض لحكومة طوارىء وطنية ، فان المفاوضات الائتلافية تركزت عمليا حول مطلب تعديل القانون . وكان واضحا ان المفدال يسعى بذلك لتحقيق مكسب يسجله لصالحه ، لخوض معركة الانتخابات القادمة او على الاقل تكتيـل الجمهور المتدين في اسرائيل حول هذا المطلب فيها.

وقد تقدمت لجنة المفاوضات التابعة للمعراخ بثلاثة اقتراحات للمفدال بهدف تذليل العقبة التي تحول دون انضمامه الى الحكومة :

١ ــ اختصار مدة عمل اللجنة الوزارية لشؤون التهويد الى ستة اشهر ــ بعد ان كانت المدة في الاصل سنة ــ وهذا يعني عمليا انجاز مهمتها خلال ثلاثة أشهر بعد ان مضى على اقامتها ثلاثة أشهر .

٢ ــ تعيين الوزير يتسحاق رافائيل رئيسا للجنة الوزارية (في السابق كانت ترئس اللجنة رئيسة الوزارة جولدا مئير) .

٣ ــ ان يعلن رئيس الحكومة من على منصة الكنيست ، ان اللجنة لشؤون التهويد ستعمل من خلال هدف التوصل الى حل يتمشى مع العادات المتبعة منذ اجيال بعيدة . وقد أضيفت الى هذه الفقرة بناء على طلب المابام فقرة تحدد ان اللجنة ستبحث عن حل يرضي جميع التيارات الدينيـة اليهودية .

وكان نصيب هذه المقترحات الفشل ، اذ ان ممثلي المفدال رفضوا قبولها مقدمين اقتراحا بديلا يقضي بتعديل قانون العودة بناء على الشريعة خلال

ستة أشهر ، ذلك الاقتراح الذي رفضه المعراخ بدوره .

وفي ٧٤/٥/٦ قررت ادارة المفدال ان الحزب لا يستطيع بناء على ما تم في المفاوضات الائتلافية، الانضمام الى حكومة جديدة على اساس الشروط التي اقترحتها المعراخ . وأعرب سكرتير المفدال ، على اثر صدور قرار الادارة ، عن رأيه بان القرار قد تأثر بما جرى داخل حزب العمل من تغيير في القيادة ، حيث قال : « نعم ، يجدر بي القول ان قضية الاشخاص ، قد لعبت دورا في قرارنا الليلة ، لاننا نعتقد — من ناحية الاخلاص لقضية الحدود التاريخية لاسرائيل — ان حكومة دون جولدا ودايان وجليلي واشخاص آخرين ، تجذبنا اقل بكثير من حكومة يشترك فيها هؤلاء الاشخاص . ولا اؤمن حاليا بأن حكومة مقلصة دون اشتراكنا فيها هي أفضل من الحكومة الانتقالية الحالية » (ر.أ.أ — ٧٤/٥/٦ ، عدد ٥٢٦ ، ص ١٣١) .

الاتجاه نحو حكومة مقلصة

وعلى اثر قرار ادارة المفدال برفض مقترحات المعراخ المتعلقة بايجاد حل لقضية « من هو اليهودي » ، تركزت الجهود في سبيل اقامة ائتلاف مقلص يعتمد على ٦١ صوتا (الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن) . ففي ٧٤/٥/١٠ قرر مكتب حزب العمل تأليف حكومة على اساس الخطوط الاساسية الحالية ، وعلى اساس قرارات اللجنة المركزية ، الا انه طبقا لاقتراح وزير المالية، لم يجر التصويت في مكتب الحزب على خياري حكومة تستند الى أغلبية ٦١ صوتا او حكومة اقلية من ٥٨ عضوا ، وتقرر ايضا بأغلبية ٣٢ صوتا ضد ٢٠ عدم تقديم اقتراحات جديدة للمفدال.

وقد نتجت خلافات شديدة في وجهات النظر على اثر طلب رئيسة الحكومة ان يطرح للتصويت اقتراحها ضد تأليف حكومة تقوم على ٦١ صوتا ، وذلك بسبب معارضتها المبدئية لضم حركة حقوق المواطن . وزعمت ان ضم حركة حقوق المواطن سيؤدي الى زعزعة خطوط الحكومة الاساسية، لكن الدافع الحقيقي لدى مئير هو موقفها الشخصي من رئيسة الحركة عضو الكنيست شولميت ألوني . وعلى اثر رفض طلبها، خرجت من الجلسة غاضبة. وكانت مئير في خطابها الذي سبق اتخاذ القرارات، قد أكدت بأنه اذا تألفت حكومة بدون المفدال وبالاشتراك مع حركة حقوق المواطن ، فانها ستطلب اجراء مناقشة سياسية في اللجنة المركزية للحزب ، قبل تأليف مثل هذه الحكومة . لكن مئير اشارت في خطابها ايضا الى انها ستصوت برضى تام الى جانب حكومة مؤلفة من ٥٨ عضوا ، شريطة ان يكون هناك ٥٨ مؤيدا بالفعل .

لم تقتصر الصعوبات التي تواجه رابين في مهمته لتشكيل حكومة مقلصة على مواقف بعض اعضاء حزبه ، فالمفاوضات مع الشريكين المحتملين (الاحرار المستقلين وحركة حقوق المواطن) ، اصطدمت ايضا ببعض الصعاب . فمن جهة معارضة الاحرار المستقلين لاقامة حكومة اقلية ، ومن جهة ثانية مطالبة حركة حقوق المواطن بتعديل بعض خطوط الحكومة الاساسية ورفضها ابقاء حقائب شاغرة للمفدال . ذلك المطلب الذي لاقى تأييدا من الاحرار المستقلين . وقد شرح عضو حركة حقوق المواطن عضو الكنيست بوعز موآب الاقتراح المشترك بقوله: « سمعنا امس اقوال المرشح لرئاسة الحكومة يتسحاق رابين،وقررنا انه بالنسبة لخطوط الحكومة الاساسية ، نحن على استعداد للموافقة على خطوط الحكومة الاساسية السابقة ، وان يذكر رئيس الحكومة المقبل المواضيع المحددة التي طرحناها ، في خطابه أمام الكنيست لدى عرض الحكومة على الكنيست . ويبدو لنا انه لا يوجد مجال لتوقع حركة حقوق المواطن اتفاقا ائتلافيا مماثلا للاتفاق الذي وقع عليه المفدال . فلا بد من ادخال تعديلات معينة على هذا الاتفاق الائتلافي. مثلا ، الغاء البند الذي ذكر فيه اسم المفدال ، وكذلك تجميد الموضوع المتعلق بقضايا الدين لمدة ثلاثة اشهر ، واذا لم ينضم المفدال الى الحكومة خلال هذه الفترة سنكون احرارا لاعادة بحث موضوع الاتفاق الائتلافي » (ر.أ.أ — ٧٤/٥/١٤، عدد ٥٣٣ ، ص ٢١٨) .

وازاء هذا الوضع ، حيث كان رابين يتعرض لضغوط من الداخل ، ومن الشركاء المحتملين لم يستطع تشكيل الحكومة والتوصل الى اتفاق في المدة الاولى المحددة مما اضطره الى الطلب من رئيس الدولة امهاله اسبوعا آخر لاتمام عملية تشكيل الحكومة .

هاني عبدالله

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

كيسنجر بين حرب الاستنزاف ومباحثات فصل القوات في الجولان .

في الثلاثين من شهر نيسان وصل وزير الخارجية الاميركية الدكتور هنري كيسنجر الى القاهرة، ليبدأ جولته الخامسة في الشرق الاوسط . وبدأت مرحلة من المفاوضات المسلحة غير المباشرة . وكان العالم ينتظر ان تصمت المدافع على جبهة الجولان منذ ان يضع كيسنجر قدمه في المنطقة ، حتى يتم عمله الديبلوماسي في جو هادىء يساعد على الوصول الى اتفاق . ولكن السوريين آثروا التفاوض من قلب المعركة ، وقرروا متابعة حرب الاستنزاف ، التي بدأت في ١٢ اذار ، والبحث عن السلام بآن واحد. مطبقين بذلك اسلوب المفاوضات المسلحة الذي اشتهر باسم « الاسلوب الفيتنامي » ، مع ان الكوريين كانوا أول من طبقه بنجاح في مطلع الخمسينات ، خلال مباحثات بانمونجوم . ويمكن القول ان محادثات فصل القوات على الجبهة المصرية التي جرت في كانون الثاني من هذا العام، والمحادثات التي أجراها كيسنجر على طريقته ، خلال جولته الخامسة الحالية ، هي أول مرة في تاريخ الصراع العربي — الاسرائيلي يدخل العرب فيها المفاوضات وهم يحملون السلاح بأيديهم كوسيلة من وسائل الحوار، وأسلوب من أساليب الضغط، مع استعدادهم للعودة الى الحرب بشكليها المحدود او الشامل عند تعثر المفاوضات .

ويعتمد « الاسلوب الفيتنامي » الذي يطبقه السوريون خلال حرب الاستنزاف ، على التأثير المتبادل للحرب والسياسة . واذا نظرنا الى حرب الاستنزاف السورية « كاستمرار لحرب تشرين الاول » لوجدنا صورة حية لهذا التأثير المتبادل . فلقد أعدت السياسة والديبلوماسية العربيتين الظروف الملائمة لحرب تشرين . وخلقت حرب تشرين الحقائق المعروفة التي كان من عناصرها تحطيم الجمود السياسي واعطاء السياسة والديبلوماسية العربية حقل عمل اوسع ، مع تحديد حقل عمل السياسة والديبلوماسية المعاديتين . وعندما اصطدمت المناورة السياسية العربية بالرفض الاسرائيلي الناجم عن دخول سياسة تل ابيب في طريق مسدود ، تهيأ ظرف جديد لعمل عسكري محدود طويل الامد ، لا تود اسرائيل الاستمرار فيه ، ولا تقدر على تصعيده . على حين تسعى القيادة العسكرية السورية الى استخدامه لمتابعة تفتيت العدو سياسيا ، وانضاج ظروف « حرب اليهود » ، واعطاء السياسة العربية سلاحا ضاغطا خلال مباحثات السلام .

وبالاضافة الى هذا الغرض السياسي الهام فان لحرب الاستنزاف في الجولان اغراضا عسكرية بحتة، تعمل القوات المسلحة السورية على تحقيقها لتوظيفها في خدمة السياسة . ومن هذه الاغراض:

١ — الحاق الخسائر بقوات العدو يوميا وبشكل مستمر . واذا كانت الولايات المتحدة قادرة على تعويض خسائر اسرائيل بالمعدات ، فان الخسائر البشرية المتراكمة أمر يصعب تعويضه ، رغم دعم الولايات المتحدة البشري للدولة الصهيونية بواسطة الفنيين من يهود الولايات المتحدة المزدوجي الولاء . ولا يعني هذا القول أن الخسائر تقع في جانب واحد ، وان السوريين لا يخسرون رجالا او عتادا ، ولكنه يعني ان مفهوم الخسائر (المادية والبشرية) لدى الشعوب المعتدى عليها لا يتماثل مع المفهوم نفسه لدى الشعوب المعتدية ، كما أن تأثيرات الخسائر البشرية على شعب تعداده أقل من ثلاثة ملايين لا تعادل تأثيرات هذه الخسائر على شعب تعداده (٦،٧٧٥،٠٠٠) ملايين . واذا كان بوسع اسرائيل تعويض خسائرها المادية بفضل المساعدات الاميركية ومساعدات الصهيونية العالمية ، فان سورية تؤمن التعويض بفضل المساعدات العسكرية السوفييتية ، والمساعدات المالية التي تقدمها الدول العربية البترولية الغنية.

٢ — خلق حالة انعدام الامن بالنسبة لمستوطنات هضبة الجولان . ومن المعروف ان القصف السوري المستمر بالمدفعية بعيدة المدى يجبر سكان المستوطنات السبع عشرة على العيش فترة طويلة كل يوم في الملاجىء ، ويحرمهم من امكانية القيام بأعمالهم العادية ، ويثبت لهم أن وجودهم في هذه المنطقة يهدد حياتهم ويعرضهم لخطر دائم .

٣ — تثبيت عدم قبول سورية بأي استيطان في الجولان ، واصرارها على استعادة الارض العربية

المحتلة ولو دام القتال عشرات السنين . ومن المؤكد أن هذا الهدف نابع من تصميم السوريين على منع اسرائيل من خلق حقائق جديدة ، وفرضها على العالم كأمر واقع . خاصة وان تاريخ الصراع العربي — الاسرائيلي الطويل ، أثبت ان صمت العرب أمام الحقائق الجديدة التي تخلقها اسرائيل، يعطي هذه الحقائق مع الزمن شرعية واعترافا دوليين .

٤ — منع العدو من تحصين مواقعه وتحسين خطوطه القتالية ، وتدمير وحداته الهندسية التي تحاول انشاء التحصينات او اعداد الحواجز . الامر الذي يبقي القوات الاسرائيلية المحشورة داخل الجيب مكشوفة ومعرضة للضربات ، ويحرمها من فرصة بناء خط دفاعي قوي قادر على الصمود في حالة تحول حرب الاستنزاف الى حرب حركة .

٥ — اجبار اسرائيل على استنفار جيشها العامل بشكل مستمر ، وابقاء جزء من قواتها الاحتياطية تحت السلاح بغية تأمين التوازن الاستراتيجي في الجولان . نظرا لان الجيش العامل الاسرائيلي (قوات نظامية ومجندين في الخدمة) وتعداده ١١٥ الف رجل لم يعد كافيا لتأمين التوازن الاستراتيجي، خاصة وان اسرائيل مضطرة للاحتفاظ بجزء من قواتها في سيناء — رغم تطبيق اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة المصرية — ومضطرة للاحتفاظ بقوات احتياط استراتيجي ، ومجموعة مخافر مقابل الجبهة الاردنية ، بالاضافة الى القوات اللازمة لتأمين التوازن مع القوات السورية المحتشدة على طول خطوط وقف القتال ، والتي أخذت وضعا قابلا للتحول بسرعة من الدفاع الى الهجوم .

٦ — العمل للسيطرة على قمم جبل الشيخ لتحسين الوضع الاستراتيجي للترتيب الدفاعي السوري . وتنبع صعوبة هذا العمل القتالي من وعورة الجبل الذي تجري المعارك على سفوحه وقممه ، وقسوة الطقس ، الامر الذي يجعل الاعتماد على المقاتل أهم من الاعتماد على المعدات الحربية . ولقد وصف المعلق العسكري الاسرائيلي زئيف شيف هذا القتال بقوله : « لم يضطر الجيش الاسرائيلي في السابق الى القتال في ظروف ارضية صعبة كتلك التي في جبل الشيخ » ، ولقد اضطرت هذه الظروف القاسية اسرائيل من قبل الى الانسحاب من قمة جبل الشيخ بعد حرب ١٩٦٧ ، لان امداد جنودها وتموينهم بالوسائط العادية صعب جدا ، ولان شدة الرياح تمنع الامداد والتموين بطائرات الهليكوبتر التي كانت تلقي الامدادات من الجو ، فتسقط في معظم الاحيان بعيدة عن المواقع .

وتأتي اهمية جبل الشيخ الاستراتيجية والتكتيكية من أنه يضمن للمسيطر عليه مراقبة مسرح العمليات في الجولان ، ومراقبة الحشود الاسرائيلية في سهل الحولة ، والحشود السورية شرقي خطوط القتال . كما يسمح بالرصد الجوي الى مسافات بعيدة . ويحاول السوريون شق الطريق الى القمم ، ولم يبق من هذا الطريق سوى ٨٠٠ متر . وتستطيع القوات السورية ، اذا ما سيطرت على القمم بشكل كامل ، وشقت الطريق من مواقعها الى هذه القمم ، وضع الرادارات التي تغطي اجواء مسارح العمليات ، وتكشف الطائرات بزاوية ٣٦٠ درجة ، وتحرم الاسرائيليين من امكانية التسلل بحرية عبر الاجواء اللبنانية . كما أن السيطرة على القمم وايصال الطريق اليها يعني امكانية نقل المواقع والدبابات والصواريخ ، ووضعها في مواقع مشرفة على ميسرة القوات الاسرائيلية .

وتأخذ حرب الاستنزاف في الجولان وجبل الشيخ اكثر من شكل ، وهي في جوهرها مبارزة بالوسائط النارية تتخللها عمليات دوريات تكتيكية عبر خطوط وقف القتال . وتشترك في المبارزة المدفعية والصواريخ والدبابات ، ويستخدم السوريون خلالها بشكل كثيف القذائف الصاروخية من طراز « كاتيوشا » المحمولة على عربات « زيل » . ولقد دخل الطيران ميدان هذه المبارزة النارية . ويذكر المراقبون انه أصبح من المألوف ان يبدأ السوريون فتح نيران الوسائط البرية ، فيرد العدو برمايات معاكس البطاريات ، وتتحرك الدبابات لاخذ مواقع رمي متقدمة معدة مسبقا وتفتح النار على العدو، ويتدخل الطيران الاسرائيلي لقصف مواقع السوريين ومرابض مدفعيتهم ، فتتصدى له وسائط الدفاع الارضية من مختلف الانواع ، كما تحلق الطائرات السورية المعترضة من طراز « ميغ — ٢١ » أحيانا للتصدي لطائرات العدو ، ولا تمضي فترة قصيرة على اختفاء الطيران الاسرائيلي حتى تظهر الطائرات السورية « ميغ — ١٧ » ، و« سوخوي — ٧ » على ارتفاعات منخفضة ، وتبدأ مهاجمة المواقع

المعادية تحت حماية مظلة من طائرات « الميغ ــ ٢١ » . وتستخدم المدفعية السورية اسلوبي « رمي التدمير » و« رمي الازعاج » بحيث تفاجىء العدو في اوقات لا يتوقعها ، وتدمر قواته او تجبرها على الالتجاء الى الملاجىء ، وتحرمها من فرص الراحة .

ومن المظاهر الجديدة في حرب الاستنزاف الدائرة ، ١ ــ تزايد عدد الدوريات المكلفة بالاستطلاع او خطف الاسرى ، وتزايد العمق الذي تتوغل فيه وراء خطوط وقف القتال ، ٢ ــ تمركز الجيش اللبناني في قطاع العرقوب بحيث يكشف تسلل الاسرائيليين البري عبر الاراضي اللبنانية لتهديد جناح القوات السورية العاملة في الجولان، وقيام القوات اللبنانية المنتشرة بقصف دوريات العدو التي تجتاز الحدود في هذه المنطقة ، ٣ ــ تسليح وحدات من المشاة (مغاوير سوريين او فدائيين فلسطينيين) بصواريخ ارض ــ جو فردية من طراز « ستريلا » ، ودفعها الى السفح الغربي لجبل الشيخ بغية التصدي للطائرات الاسرائيلية التي تتسلل عبر الاجواء اللبنانية لتصف قوات السوريين في الجولان وجبل الشيخ .

في ظل هذا المناخ المتوتر والعمل العسكري المستمر بدأت جولة كيسنجر الخامسة في الشرق الاوسط . ولم يكن وزير الخارجية الاميركية يحس بتفاؤل كبير ، وكانت طموحاته منذ البداية محدودة بالتوصل الى تفاهم حول بعض النقاط ، وتقريب وجهات النظر المتباعدة استعدادا لجولة أخرى مقبلة . والتوصل قبل مغادرة الشرق الاوسط الى اتفاق حول وقف اطلاق النار على الاقل ، مع ترك الانطباع لدى العرب والسوفييت بأن الامور تتقدم نحو الانفراج بخطوات بطيئة ولكنها مؤكدة، لان اعلان فشله الكامل يعني بالنسبة اليه : ١ ــ اهتزاز موقفه وموقف الرئيس نيكسون داخل الولايات المتحدة ، ٢ ــ ضعف موقف الزعماء العرب الذين وثقوا به ، ووضعوا حل الامور بين يديه ، ٣ ــ تدعيم وجهة نظر الزعماء العرب المتشددين الذين يدعمهم الاتحاد السوفييتي ، ٤ ــ عودة النفوذ السوفييتي الى المنطقة بشكل اقوى، ٥ ــ اعادة طرح مسألة حظر النفط في حزيران بشكل يهدد باثارة أزمة الطاقة من جديد ، ٦ ــ احتمال اندلاع الحرب من جديد على نطاق واسع.

ولقد كان مع كيسنجر عند قدومه مجموعة من الاوراق الرابحة . فهو يعتمد على ثقة الحكومة المصرية ورغبتها في مساعدته على فصل القوات في الجولان ، ويستطيع استخدام المساعدات الاميركية الضخمة للضغط على اسرائيل ، كما يستطيع طمأنة اسرائيل حول نوايا مصر بواسطة شرح خلفيات المساعدة الاميركية المقدمة لمصر (٢٥٠ مليون دولار) في سبيل اعادة تعمير مدن القناة وتطويرها . وتفسير مغزى سعي القاهرة لتنويع مصادر السلاح، والحصول على السلاح الاميركي .

ومقابل هذه الاوراق الرابحة فقد كان امامه الكثير من الحواجز والصعوبات . فهو مضطر لان يتفاوض في اسرائيل مع حكومة مائير المستقيلة المثقلة بالتصريحات المتشددة السابقة حول عدم الانسحاب من الجولان ، والتي لا تريد ان تنهي حياتها السياسية بتقديم التنازلات . بدلا من التفاوض مع اسحاق رابين المكلف بتشكيل الحكومة الجديدة منذ يوم ٢٦ نيسان ، والذي اصطدم بأكثر من معضلة داخلية منعته من التوصل الى تشكيل حكومة قوية قادرة على اتخاذ قرارات مصيرية . وبالاضافة الى ذلك فان على وزير الخارجية الاميركي ان يصطدم بتصلب سورية المبدئي المدعوم بموقف السوفييت المصممين على مراقبة المفاوضات عن كثب ، والمشاركة الفعلية في ايجاد حل يضمن انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضي العربية المحتلة وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة .

ولقد سبق قدوم كيسنجر الى المنطقة انباء متعددة عن وجود مشروع اميركي لفصل القوات ، يتضمن انسحاب الاسرائيليين من بعض مناطق الجولان بما في ذلك القنيطرة . بيد أن وزير الخارجية الاميركي نفى هذه الانباء فور وصوله ، واعلن انه لم يأت لفرض الحلول او طرح المشروعات ، ولكنه جاء لسماع المقترحات المتبادلة، بغية ايجاد وسيلة يمكن بواسطتها تقريب وجهات النظر المتباينة . وانطلاقا من هذه النقطة بدأ كيسنجر « رحلاته المكوكية » بين مصر وسورية واسرائيل والمملكة العربية السعودية والاردن ، وكان يحاول في كل لقاء مع المسؤولين العرب او الاسرائيليين سماع وجهات النظر ، وطرح وجهة

النظر المقابلة ، وسماع الملاحظات ونقلها الى المعسكر الاخر . مطبقا خلال هذه الرحلات أسلوبه الخاص في معالجة الازمات . وكان يبدي في كل مرة وبعد كل لقاء مزيدا من التفاؤل بامكانية التقدم في حل الازمة ، دون ان يصل به التفاؤل الى التصريح بامكانية التوصل الى توقيع اتفاق فصل بين القوات . حتى ان موظفا كبيرا من مرافقي وزير الخارجية الاميركي ذكر في القاهرة ، في يوم ٥/٩ « ان المفاوضات التي يجريها الدكتور كيسنجر الان هي اكثر صعوبة ومشقة من المفاوضات التي أنهت حرب فيتنام » .

ولم يترك السوفييت كيسنجر وحده في المنطقة ، فلقد حضر وزير الخارجية السوفييتي اندريه غروميكو الى دمشق ، ومكث فيها يومي ٥ و ٦ ايار ، وأجرى مع الزعماء السوريين مباحثات مطولة ، صدر على أثرها بيان سوفييتي — سوري يؤكد في احدى فقراته « ان عملية الفصل بين القوات يجب ان تعتبر خطوة نحو تحقيق الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة ونحو التوصل الى الحل الشامل والعادل لمشكلة الشرق الاوسط » . وفي السابع من ايار اجتمع وزيرا خارجية الدولتين الاعظمين في قبرص ، وتباحثا في عدد من المسائل المتعلقة بالعلاقات السوفييتية — الاميركية ، كما تباحثا في فصل القوات على جبهة الجولان ، واحلال السلام في الشرق الاوسط . وصدر بعد اجتماعهما بيان مشترك يعتبر ان فك الالتحام في جبهة الجولان هو « جزء من القضية العامة لمسألة تحقيق تسوية في الشرق الاوسط » ، ثم غادر غروميكو قبرص عائدا الى بلاده . وكانت عودته دليلا على ان السوفييت أعادوا طرح تصوراتهم حول الخطوط الرئيسية لحل الازمة ، ثم اخذوا موقف المراقب الحذر المستعد للتدخل في كل لحظة ، وتركوا لوزير الخارجية الاميركي الفرصة ليحاول من جديد في سبيل التوصل الى مخرج يرضى به الطرفان .

ولقد كثرت الانباء حول الاقتراحات، والاقتراحات المعاكسة ، والتعديلات ونقاط اللقاء ونقاط الخلاف بين وجهتي النظر السورية والاسرائيلية . ومن الواضح ان السوريين أبدوا خلال المفاوضات حنكة ودراية سياسيتين ، وتمسكوا بموقفهم المبدئي المنسجم مع قرارات مجلس الامن ، على حين كان الاسرائيليون يفاوضون من موقع ضعيف بعد ان تكلس موقفهم السياسي بحكم اوضاعهم الداخلية والوضع العالمي ، وفقدوا حرية المناورة السياسية ، وأصبحت سياستهم التوسعية المبنية على العدوان والضم مرفوضة في العالم كله ، وعاملا يهدد بتصادم المصالح الاميركية والاسرائيلية. وكانت الدلائل تشير الى ان كيسنجر استطاع التوصل الى نقاط لقاء حول الافكار العامة المتعلقة بانسحاب اسرائيل الى ما وراء الخط البنفسجي ، وخلق منطقة عازلة تفصل بين الطرفين ، وتحتلها قوات دولية (يعتبرها السوريون مراقبين دوليين على حين يعتبرها الاسرائيليون قوات طوارىء دولية) ، وتخفيض حجم القوات على جانبي المنطقة العازلة ، وعودة سكان المناطق التي يتم الانسحاب منها الى اراضيهم . وتمسك السوريون بضرورة اعتبار الانسحاب الاولي لفصل القوات مرحلة من مراحل الانسحاب الكامل ، على حين اعتبر الاسرائيليون ان هذا الانسحاب هو التنازل الاخير الذي يستطيعون تقديمه دون ان يعرضوا أمنهم للخطر .

ثم ظهرت المشكلة الرئيسية عندما انتقلت المباحثات من الافكار العامة الى التطبيق العملي على الارض . وكان الخلاف يدور حول تحديد خط الفصل . فلقد رأى الاسرائيليون ان الحفاظ على وضع استراتيجي سليم ، وضمان امن مستوطناتهم في الجولان لا يتحقق الا اذا احتفظوا بالتلال الثلاثة المحيطة بمدينة القنيطرة ، على حين اعتبر السوريون ان استرجاع القنيطرة دون العودة الى المرتفعات سيجعل خط الفصل متعرجا ، ويجعل القنيطرة المحررة جيبا صغيرا تسيطر عليه المرتفعات من ثلاث جهات (الشمال والجنوب والغرب) .

والحقيقة ان طبيعة الارض في هضبة الجولان تعطي المرتفعات الثلاثة اهمية بالغة ، ولا تؤمن لمن يسيطر عليها تفوقا تكتيكيا فحسب ، بل تمنحه تفوقا استراتيجيا حاسما . ذلك لان السطح المستوي لهضبة الجولان ينقطع فجاة عند هذه المرتفعات ويبدأ بعدها بالانحدار غربا باتجاه سهل الحولة . وتشكل مدينة القنيطرة والارض المحيطة بها امتدادا (على شكل لسان) لسطح الهضبة المنبسط . وهو لسان تحيط به ثلاثة مرتفعات يبدأ بعدها السفح المعاكس لهضبة الجولان . لذا فان وجود القوات الاسرائيلية على خط المرتفعات

المتعرج يعني سيطرتها على سطح الهضبة المنبسط، بما في ذلك لسان القنيطرة ، على حين ان وجود القوات السورية على خط المرتفعات او على خط فصل مستقيم غربي المرتفعات يعني سيطرتها على السطح المعاكس المنحدر غربا ، وعودتها الى الاشراف على سهل الحولة كله .

من هنا جاءت الاهمية الاستراتيجية للمرتفعات ، وعدم اهمية القنيطرة كموقع استراتيجي . ومن هنا جاء استعداد اسرائيل للتخلي عن القنيطرة وعدم استعدادها للتراجع وراء خط المرتفعات حتى ولو بقيت هذه المرتفعات بيد القوات الدولية ولم تعد القوات السورية اليها . لان سيطرة القوات الدولية على المرتفعات ، لا تحرم السوريين من الاشراف على السفح المعاكس وسهل الحولة فقط ، ولكنها تحرم اسرائيل في الوقت نفسه من ميزات استراتيجية هامة ، وتضعها على السفح المعاكس في موقع سيىء لا تستطيع منه الاشراف على سطح الهضبة المستوي ، ولا تستطيع فيه الصمود امام اي هجوم سوري في المستقبل .

وبناء على هذه المعطيات قدم الاسرائيليون مشروعهم الذي حمله كيسنجر الى دمشق في الثامن من شهر ايار . ويشمل هذا المشروع، على ما يبدو، النقاط التالية : ١ ــ ضم القطاع الشرقي من منطقة القنيطرة (بعد الانسحاب منها) الى المنطقة العازلة التي سترابط فيها قوات الامم المتحدة ، ٢ ــ عودة السكان الى المناطق التي سيتم الانسحاب منها غربي الخط البنفسجي ، ٣ ــ الانسحاب من الجيب وضم جزء منه الى المنطقة العازلة ، ٤ ــ تحتفظ اسرائيل بالتلال الاستراتيجية الثلاثة المحيطة بالقنيطرة، والمشرفة على مستعمرات ميروم هاغولان ، وال روم ، وعين زيوان ، ٥ ــ تستلم القوات الدولية جبل الشيخ وتحتفظ اسرائيل ببعض المواقع الهامة عليه ، ٦ ــ تنسحب اسرائيل عدة كيلومترات غربي الخط البنفسجي في القطاع الجنوبي مع الاحتفاظ بتل فرس، ٧ ــ تبادل الاسرى .

ومن الواضح ان هذا المشروع المبني على مبدأ « قطع أرض مقابل قطع سلام » ، قد اخذ بعين الاعتبار مسألة أمن اسرائيل ، والحفاظ على الوضع الطبوغرافي الجيد ، وحماية مستوطنات الجولان . ولكن كل هذه الميزات لم تجعله مقبولا داخل اسرائيل . ولقد وجهت اليه المعارضة عدة انتقادات أهمها : ١ ــ انه يتضمن تراجعا وراء الخط البنفسجي ، وهذا مخالف لكل تصريحات الحكومة وتعهداتها ، ٢ ــ انه يفتح الباب امام تراجعات جديدة ، ويشجع السوريين على المطالبة بمرحلة ثانية من الانسحاب اسوة بالمصريين الذين يطالبون الان بتنفيذ المرحلة الثانية والانسحاب من مناطق تشمل آبار النفط في سيناء ، ٣ ــ انه لا يحمي سكان مستوطنات الجولان التي ستبقى تحت رحمة المدفعية السورية بعيدة المدى ، ٤ ــ ان طرح فكرة تقسيم مدينة القنيطرة لا يتناسب مع معارضة اسرائيل المبدئية لفكرة الحدود الدولية التي تمر داخل اية مدينة . وهو عمل سيستخدم ضد اسرائيل عند النقاش حول مصير القدس .

وكان من المحتمل ان تصمد الحكومة الاسرائيلية أمام المعارضة الداخلية لو ان السوريين قبلوا المشروع ، ولكن دمشق رفضته بشكل قاطع ، لان بنوده لا تتضمن عناصر يمكن ان تؤدي الى فصل حقيقي للقوات . كما اكدت ان عدم التوصل الى فصل حقيقي للقوات سيبقي الوضع كما هو عليه ، وستستمر حرب الاستنزاف التي يمكن ان تتحول في كل لحظة الى حرب محدودة في بعض نقاط الجولان او جبل الشيخ ، او تتفجر على شكل حرب شاملة لن تبقى فيها سورية لوحدها .

وأدى الرفض السوري الى تمديد مهمة كيسنجر الذي عاد الى رحلاته بين دمشق وتل ابيب . وفي يوم ١٤ وصلت المباحثات الى نقطة حرجة ، وحمل وزير الخارجية الاميركي الى اسرائيل وجهة النظر السورية النهائية حول الفصل ، وأكد أحد مرافقي كيسنجر انه سيعود في يوم ١٥ الى دمشق ، وان الساعات الست والثلاثين القادمة ستحدد ما اذا كان وزير الخارجية الاميركي سيتابع جولته في المنطقة ، أم انه سيعود الى الولايات المتحدة . ولكن اندلاع عملية « معلوت » أجلت سفره الى يوم ١٦ ايار .

ثم بدأ وزير الخارجية الاميركي منذ ذلك التاريخ بتحرك بين سورية واسرائيل ، محاولا التوصل الى نقاط لقاء محددة . وكان بقاؤه في المنطقة ، رغم مشاغله كوزير خارجية دولة عظمى ، دليلا على ان لديه بعض الامل بالوصول الى حل .

ولقد طرح كيسنجر خلال هذه الفترة ، ولاول

مرة منذ بداية جولته ، مشروعا اميركيا يتضمن — حسبما نقلته صحيفة نيويورك تايمز (٥/٢٠) — النقاط التالية :

— تنسحب اسرائيل من الاراضي السورية التي احتلتها اثناء حرب تشرين الاخيرة .

— في منطقة القنيطرة ، يتراجع الاسرائيليون الى ما وراء خط وقف اطلاق النار للعام ١٩٦٧ ، ويستعيد السوريون ادارتهم المدنية على مدينة القنيطرة وكذلك على رقعة ضيقة من الاراضي تقع الى الغرب من القنيطرة . وهذه الرقعة المعروفة بجنائنها يحتلها الان المستوطنون الاسرائيليون .

— تعتبر منطقة القنيطرة جزءا من المنطقة العازلة التي ينص اتفاق التسوية على انشائها . وستكون هذه المنطقة محرمة على دخول أي قوة سورية ، ولكن في استطاعة ٦٠ الف لاجيء سوري ان يعودوا الى منازلهم في منطقة القنيطرة الخالية من السكان حاليا .

— تقبل اسرائيل الانسحاب من قريتي الحميدية وبطنية ومدينة الرفيد الى الجنوب .

— تتخلى سوريا عن مطالبتها بالتلال الثلاث المشرفة على القنيطرة وكذلك عن احدى المستعمرات الاسرائيلية .

— تقبل اسرائيل التخلي عن اثنين من المواقع الاربعة التي تحتلها في جبل الشيخ لمصلحة الامم المتحدة .

ولقد اعتبرت الحكومتان السورية والاسرائيلية المشروع الاميركي مقبولا ويمكن ان يشكل منطلقا قابلا للمناقشة . ثم ترددت الانباء عن اتفاق الطرفين على خط فصل القوات ، وبهذا تم حل أعقد نقطة ظهرت منذ بداية المباحثات . وبقي على جدول أعمال الدكتور كيسنجر مجموعة من المسائل المعلقة وهي :

— حجم المنطقة العازلة التي سيتم انشاؤها بين القوات السورية والقوات الاسرائيلية .

— دور الامم المتحدة الخاص بمراقبة المنطقة العازلة .

— عدد القوات السورية والقوات الاسرائيلية في المناطق العازلة المتاخمة للمنطقة العازلة .

— الافراج عن أسرى الحرب .

وبالاضافة الى ذلك ، تأمل اسرائيل في الحصول على بعض الضمانات من الولايات المتحدة . وهكذا يعتقد الاسرائيليون انه على الاميركيين ان يقبلوا القيام برحلات استكشاف فوق المنطقة واستخدام حق « الفيتو » لمنع أية محاولة لالغاء وجود قوة الامم المتحدة في الجولان .

وحتى يوم ٥/٢٣ كان وزير الخارجية الاميركي يتابع جهوده لايجاد الوسيلة اللازمة لحل عدد من المصاعب القائمة بالنسبة الى بعض نواحي فصل القوات ، وذلك بعد ان أبلغه الرئيس نيكسون ضرورة البقاء في الشرق الاوسط ، ريثما يحقق مهمة فصل القوات في الجولان ، نظرا لتمتع هذه المهمة بالاولوية بالنسبة الى جميع مهمات وزارة الخارجية الاميركية . ويؤكد المراقبون الذين يستقون معلوماتهم من مرافقي الدكتور كيسنجر ، انه بالرغم من استمرار العمليات الحربية في الجولان وجبل الشيخ ، فان احتمال التوصل الى اتفاق لفصل القوات أمر قريب الوقوع ، الا اذا وقع خلال الاسبوع المقبل ما يوقف سير المباحثات ، ويعيد المنطقة الى نقطة البداية .

المقدم الهيثم الايوبي

ملحــق القضية الفلسطينية عسكريا
تقرير حول سعي اسرائيل لاستخدام طائرة الهليكوبتــر « كوبرا »

يلعب التسليح دورا أساسيا في طبيعة التكتيك والاستراتيجية اللذين تتبعهما الجيوش . فالتسليح هو الذي يبلور الامكانات القتالية لاي جيش ، وهو الذي يفرض ، والى حد بعيد ، نوعية العمليات التي تستطيع الوحدات المقاتلة انجازها . فليس بالامكان شن حرب خاطفة دون توفر معدات تؤمن سرعة الحشد ، وقوة نارية كبيرة قادرة على توجيه ضربة قوية وسريعة . كما ان اختيار نوع معين من السلاح تفرضه رؤية واضحـــة لاحتياجات الدولة الدفاعية او الهجومية . وليست هذه الرؤية في حقيقة الامر سوى احد حلول المشاكل العسكرية المطروحة .

وتتفاوت أهمية السلاح وامكانية الاستفادة منه حسب طريقة وضعه في الاستخدام ، التي تتأثر الى حد بعيد بفهم دور هذا السلاح وفاعليته ، وينعكس كل ذلك على طريقة توزيع الاسلحة على الوحدات وحشد هذه الوحدات . فاستخدام الالمان لحشود من الدبابات في فرق وفيالق مدرعة حقق نتائج افضل بكثير مما حققه الفرنسيون عندما وزعوا الدبابات على قطعات المشاة ، او ما حققه السوفيات في استخدام الدبابات ضمن كتائب مدرعة ، في بداية الحرب العالمية الثانية . او في انسجامه مع باقي اسلحة الوحدة واخذ قدرات العدو بعين الاعتبار ، فقد نجحت الخطة الاسرائيلية في استخدام الدبابات « كسفن في البحر » حسب طريقة يسرائيل تال في حرب ١٩٦٧ ، ودون اي دعم من المشاة . وفشلت الخطة ذاتها في حرب ١٩٧٣ حين دخل عامل جديد ، هو الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات . او في استغلال كل قدرات وطاقـــات السلاح بعمليات ملائمة ، فما كان باستطاعة اسرائيل القيام ببعض العمليات الخاصة ، مثل عمليـــة اختطاف جهـــاز الرادار المصري ابان حرب الاستنزاف ، لولا توفر طائرات الهليكوبتر الضخمة ، واستغلال هـــذه الطائرات بشكل مناسب .

ومن جهة اخرى ، كان لحصول اسرائيل على طائرات الفانتوم الاثر الاكبر في تطوير استراتيجيتها بشكل عام . فمن تهديد المواقع التكتيكية القريبة من الحدود ، في الفترة التي سبقت حصولها على هذه الطائـــرات ، انتقلت الى تهـــديد اهداف استراتيجية في عمق الاراضي العربية . وبالمقابل تأثرت الاستراتيجية العربيـــة بصواريخ ســـــام السوفياتية التي حصلت عليها القوات العربية . فقد قللت هذه الصواريخ مـــن سيطرة الطائرات الاسرائيلية على الاجواء العربية ، ومنحت القوات العربية قدرة اكبر على التحرك، والمبادرة بالهجوم، في المناطق التي تقع ضمـــن مجال عمل هـــذه الصواريخ . من هنا يمكن القول ان كل سلاح يحتل له مكانا في المنظومة العسكرية لاي بلد ، وقد يبقى هذا المكان ثانويا ، او يصبح رئيسيا . وبروز هذا المكان او عدمه تابع بشكل رئيسي من اهمية الاسلحة الاخرى ، ودرجة اعتماد الخطة العسكرية على هذا السلاح او ذاك .

ومع تطور القوات العربية المسلحة ، سواء من ناحية العدد ، او المعدات التـــي تستخدمها ، والاساليب التي تتبعها ، سعت القيادة الاسرائيلية الى تطوير معداتها واساليبها ، واعتمدت على هذين العاملين نظرا لصعوبة زيادة اعداد القوات المجندة لديها ، حيث وصلت التعبئة بين صفوف سكان اسرائيل خلال حرب تشرين الاول الى حدها الاقصى الذي لا تستطيع تجاوزه بسهولة . ولا يمكن تجاوزه الا عن طريق جلب مهاجرين شبان من يهود العالم ذوي الولاء المزدوج . وقد اعتمدت عملية تطوير الاساليب القتالية على تطوير المعدات التي تستخدمها القوات الاسرائيلية وزيادة عددها ، وراعت في عمليتها هذه ان تتماشـــى الاساليب الجديدة مع ميكانيكية الردع ، والمبادىء العسكرية الاسرائيلية الاساسية في الحرب قصيرة الامد .

وفي اطار هذه الخطة ، قام موشي ديان ، قبيل الحرب الاخيرة وبعدها ، بعدة رحلات الى الولايات المتحدة ، للحصول على طائرات هليكوبتر مقاتلة من طراز « كوبرا » ، وصواريخ ارض — ارض تكتيكية من طراز « لانس » . وقويت مطالبة اسرائيل بطائرات « كوبرا » بعد الحرب . وذكرت بعض الصحف ان اسرائيل قد حصلت فعلا على طائرات من هذا الطراز . (نشرة رصد اذاعة اسرائيل ١٩٧٤/٥/١) .

ولهذه الحقيقة دلالات خاصة . فطائرة « كوبرا » ليست مجرد سلاح تقليدي يضاف الى الترسانة الحربية الاسرائيلية ، مثل شحنة جديدة من طائرات فانتوم ، او دبابات سنتوريون . بل هو سلاح يشكل الحصول عليه انعطافا مهما في تطور التكتيك العسكري بشكل عام . وهو ثمرة اتجاه بدأ يظهر بعد حرب كوريا ، وتبلور بشكل واضح في اواسط الستينات ، وتجلى في تسليح طائرات الهليكوبتر العادية بالرشاشات والقذائف الصاروخية ، والصواريخ المضادة للدبابات ، بالاضافة الى تسليح بعض هذه الطائرات بمعدات محاربة السفن . ولم تكن هذه الطائرات ملائمة تماما للقيام بهذه المهمة ، فهي لم تبن في الاصل لانجاز مهمات مشابهة . ولذلك فهي لم تأخذ في الحسبان عدة عوامل مثل الاقتصاد في اعداد طواقم تشغيلها ، فتسليح طائرة هليكوبتر عادية بمدفع رشاش من عيار ٢٠ ملم يتطلب اضافة رجل او رجلين الى الطاقم ، لكون الطائرة غير مجهزة بشكل يسمح للطيار او مساعده باطلاق النار . كما ان زيادة حمولة الطائرة البشرية كان يأتي على حساب حمولتها بشكل عام ، لا بسبب وزن الرجلين فحسب ، بل بسبب الوزن الزائد في هيكل الطائرة الذي تفرضه المساحة الواجب توفرها لاستيعاب الرشاش وطاقمه أيضا . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت فاعلية اسلحة هذه الطائرة اقل من المطلوب ، نظرا لصعوبة التنسيق بين الطيار ورامي المدفع ، وعدم توفر اجهزة احكام الرمي . وبسبب محدودية مجال عمل طائرة الهليكوبتر العادية ، وعدم قدرتها على العمل في الاحوال الجوية السيئة او في الليل، وعدم تجهيزها بمعدات ملاحة متطورة .

لذا طورت الولايات المتحدة طائرة الهليكوبتر المقاتلة وبنت طائرة هليكوبتر تمتلك كل مواصفات الهليكوبتر العادية ، من ناحية الاقلاع والهبوط العمودي ، والقدرة الكبيرة على المناورة . بالاضافة الى انها تتفوق عليها من ناحية السرعة والاداء بشكل عام وتتفوق كذلك في قدرتها على الطيران في جميع الاحوال الجوية ، وفي الليل والنهار ، وفي اجهزة الملاحة المتطورة التي زودت بها . ولها في الوقت نفسه كل مواصفات الطائرة المقاتلة وقوتها النارية .

فطائرة هوي كوبرا بيل ٢٠٩ تحمل مدفعا رشاشا ذا ثلاث سبطانات ، ولها اربع نقاط تعليق خارجية لحمل حاضنات قذائف صاروخية من عيار ٧٠ ملم ، او لحمل حاضنتي صواريخ مضادة للدبابات من طراز « تاو » تحمل كل حاضنة ٣ صواريخ . او لحمل قاذفي قنابل من عيار ٤٠ ملم مع ٣٠٠ قذيفة لكل قاذف . او حمل حاضنتين تحمل كل واحدة رشاشا من عيار ٧٫٦٢ ملم مع ٤٠٠٠ طلقة لكل رشاش . ويقود هذه الطائرة طاقم من رجلين ، طيار في المقعد الخلفي ، الذي يرتفع قليلا عن المقعد الامامي حيث يجلس ملاح آخر .

ولقد زودت المناطق الحساسة في الطائرة بصفائح اضافية لحمايتها من نيران الاسلحة الصغيرة . وزودت بصفائح من الاسبست تخفي مصدر الحرارة فيها ، وضبط اتجاه عادمها (الاكزوست) الى أعلى لتضليل الصواريخ ارض — جو الصغيرة التي تطلق من الكتف وتوجه بتتبع مصادر الحرارة ، وتشكل خطرا كبيرا على الطائرات غير السريعة مثل طائرات النقل والهليكوبتر .

ويرجع سبب الحاح الاسرائيليين في الحصول على هذه الطائرة الى قدراتها التكتيكية، والميدانية، والى احتياجات القوات الاسرائيلية في قتالها ضد القوات العربية بشكل عام . سواء لاستخدامها في محاربة الفدائيين الذين يستخدمون تكتيك العصابات ، او لمحاربة القوات العربية النظامية بمختلف اسلحتها . فهي تحمل لمحاربة المشاة الميكانيكية او المشاة الراجلة ، المدافع الرشاشة والرشاشات والقذائف الصاروخية ، وتحمل لمحاربة القوات المدرعة الصواريخ المضادة للدبابات . ويمكن استخدام الطائرة بفاعلية في العمليات الخاصة ، وهي العمليات التي كانت القوات الاسرائيلية تركز عليها قبل حرب تشرين الاول كوسيلة نفسية تثبت بها تفوقها ، والتي قد تستخدمها في المستقبل لارباك القوات العربية ، وضرب نقاط استنادها ، وتموينها ، وخطوط مواصلاتها ، ومراكزها الحيوية . وتعتبر الكوبرا من طائرات الدعم التكتيكي القريب ، لان تسليحها يمكنها من ضرب مواقع مدفعية الخصم ومرابض رشاشاته وتجمع آلياته ودباباته . وهي لا تحتاج الى مدارج واستعدادات خاصة لاقلاعها وهبوطها ، ويمكن تزويدها بالذخيرة والوقود من مراكز ميدانية،

وهذه ميزات اساسية يجب توفرها في طائرات الدعم التكتيكي القريب .

وبمقدور الكوبرا العمل كطائرة استطلاع ومراقبة ميدانية او طائرة استطلاع مسلح . وباختصار يمكن القول ان سبب لهفة الاسرائيليين في الحصول عليها راجع الى ان اوجه استخدامها تزيد عن اوجه استخدام اية طائرة مقاتلة اخرى ، وكذلك تزيد فاعليتها فيمجالات عديدة عـــن فاعلية اية طائرة اخرى .

وتكاد هذه الطائرة ان تكون افضـــل الحلول المتوفرة لمشاكل اسرائيل الدفاعية التي نجمت بعد حرب تشرين الاول ، والمتمثلة اولا فـــي وحدات الصواريخ أرض — جو التـــي حرمت الطـــيران الاسرائيلي من تفوقه ، وتسببت بما اصاب اسرائيل في الحرب الاخيرة . وهذه الطائرة مهمة لانها قادرة على دعم الوحدات الاسرائيلية المحمولة جوا ، والتي قد توكل اليها مهمة ضرب هذه القواعد . وقد تقوم بالمهمة اسراب الهليكوبتر نفسها ، فهي افضل في هذا المجال مـــن الطائرات المقاتلـــة النفاثة . لان بامكانها التحليق على ارتفاعـــات منخفضة جدا ، ولها قدرة على المناورة تبطل فاعلية الصواريخ الكبيرة . ورغم قدرة المدافع المضادة ، التي تحمي هذه القواعد ، على التصدي لهـــذه الطائرة ، فان تحليقها على ارتفاعات منخفضة يجعل من الصعب كشفها بواسطة اجهزة الرادار ، وهذا ما يؤمن لها المفاجأة الضرورية التي تسهل مهمتها . اما المشكلة الاسرائيليـــة الثانية التي تحلها الكوبرا فتتمثل في وحـــدات المشاة المزودة بقواذف ر.ب.جي — ٧ وصواريخ ساغر المضادة للدروع . ودور طائرة كوبرا في حل هذه المشكلة لا يتمثل في قدرتها الافضل علـــى محاربة وحدات المشاة ، او في القيام باستطلاع مسلح ومهاجمة هذه القوات فحسب ، بل وفي مهاجمة وحـــدات المدرعات المعادية او التصدي لها ومنعها مـــن التقدم ايضا ويمكن اعتبارها في هذا المجال بمثابة قاعدة طائرة للصواريخ المضادة للدبابات .

وليس هناك اية معلومات حـــول الكمية التي تطلبها اسرائيل من هذه الطائرة . ولكن يبدو انها تحشد بأعداد كبيرة في الجيوش التي أوصت عليها. فقد طلبت ايران شراء ٢٠٢ طائرة من طراز كوبرا الذي ذكرناه . وقبول الولايات المتحدة تزويدها بهذا العدد الضخم يدل ، الى حد ما ، على طريقة استخدامها . والاحتمالات المطروحة هي : ان تكون في الوحدات المحمولة جوا بمثابة الدبابة في وحدات المشاة الآليين . أو أن تكون سلاحا رئيسيا لاسناد وحدات المشاة وترتبط بها عضويا ، الامر الذي سيخفف من حاجة هذه الوحدات الى سلاح الطيران وسيقلل الى حد كبير مـــن مصاعب التنسيق بين اسلحة الجيش المختلفة . وليس من المستبعد ان تستخدم طائرة كوبرا في تشكيلات مثل الطائـــرات المقاتلة ذات الاجنحة لضرب اهداف معادية .

لقد كان الاتجاه نحو بناء طائرة هليكوبتر مقاتلة هو احد الحلول الامريكية لمواجهة قوات الفيتكونغ في فيتنام . وهو اتجاه يصعب القـــول بأنه تبلور بشكل تام . فلـــم ينشب اي صراع حقيقي بين وحدات تتسلح بهذه الطائرات . وقد استخدمت طائرات الهليكوبتر العادية — التي لم تبن كطائرة مقاتلة — المجهزة بصواريخ مضادة للدبابات من طراز س س — ١١ من قبل الاسرائيليين في حرب ١٩٧٣ . وحققت بعض النجاح في حربهـــا ضـــد الدبابات العربية . ويعود سبب نجاحها الى عدم استعداد القوات العربية الى مواجهة حرب كهذه. وليس الى قدرات هذه الطائـــرات الاستثنائية . والحقيقة ان القوات العربية تمتلك فـــي الوقت الحاضر وسائل عدة لمواجهة طائرات كوبرا . كما ان بامكانها تطوير وسائل اخرى فعالة ، وأحد أهم هذه الوسائل هي المدافع الرشاشة ذاتية الحركة المضادة للطائرات من طراز زد. س. يو — ٢٣—٤ الفعالة جدا ضد الطائـــرات التـــي تحلق على ارتفاعات منخفضـــة والرشاشات الثقيلة بشكـــل عام ، وصواريخ سام — ٧ التي تطلق من الكتف ، والتي تقلل من فاعليتها الاجراءات التي اتخذت لحماية الطائرة منها ولكنها لا تلغي هذه الفاعلية رغم ما تتمتع به طائرة كوبرا من قدرة على المراوغة والمناورة .

هشام عبدالله

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٤/١٦ ــ ١٩٧٤/٥/١٤

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	ــ ٤/١٥	١٩،٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير باص تابع لشركة ايجد	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٧٩	٤/١٦
٢	ــ ٤/١٣	ــ	رام الله	تفجير	عبوات ناسفة	ــ ــ	تدمير المقسم الرئيسي في بريد رام الله المركزي	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٠	٤/١٦
٣	ــ ٤/١٥	٩،٣٠	القدس	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	اشعال النيران في كاراج سوسيتا واحراق سيارات وجرافات وتراكتورات في الكاراج	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨١	٤/١٨
٤	ــ ٤/١٧	١٦،٠٠	القدس	تفجير	عبوات حارقة	ــ ــ	اشعال النيران في محتويات سينما تمسيون(١)	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٢	٤/١٨
٥	ــ ٤/١٣	ــ	الفارعة/نابلس	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	حرق واعطاب باص تابع لشركة ايجد	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٣	٤/١٨
٦	ــ ٤/١٨	٦،٣٠	بني براك/ تل ابيب	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اصابة عدد من افراد العدو	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٤	٤/١٨
٧	ــ ٤/١٦	١٧،٠٠	بين ديرحنا وشيفر	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير باص لشركة ايجد	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٥	٤/٢٠
٨	ــ ٣/١٧	ــ	المجدل	تفجير	عبوات حارقة	ــ ــ	اشعال النيران في خزانات بترول حليقات	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٦	٤/٢١
٩	ــ ٥/ ١	ــ	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اعطاب سيارة عسكرية واصابة من فيها	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٧	٥/١
١٠	ــ ٤/٢٣	ــ	نحال توت/بيسان	تفجير	لغم مسيطر الكترونيا	٨اصابات	تدمير شاحنة عسكرية	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٨	٤/٢٥
١١	ــ ٣/٢٥	ــ	بين مستعمرة	تفجير	لغم	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية	ــ	ــ	ــ	رقم ٧٤/٨٩	٥/٥

١٢ — ٤/١٠	—	المعتدة/وادي عربة	تفجير	لغم	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٨٩	٥/٥
١٣ — ٤/١٩	—	طريق القصاص/ مسبح السورة	تفجير	لغم	غيرمحدد	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٨٩	٥/٥
١٤ — ٤/٢٥	—	ماعوز هاتيكار	قصف	مدفعية الهاون	غيرمحدد	اصابة بعض المنشآت	—	—	—	رقم ٧٤/٩٠	٥/٥
١٥ — ٥/ ٥	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير واشعال النيران في محل رهسم للاثاث	—	—	—	رقم ٧٤/٩١	٥/٥
١٦ — ٤/٢٨	٢١٤٣٠	جبل الشيخ (المرصد)	كمين	قذائف صاروخية	غيرمحدد	تدمير آلية للعدو	—	—	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
١٧ — ٤/٣٠	١٥٤٠٠	جبل الشيخ (معسكر فشكول)	كمين	قذائف صاروخية	غيرمحدد	تدمير آليتين نصف مجنزرتين	—	٢	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
١٨ — ٥/ ٢	١٤٠٠	جبل الشيخ (المرصد)	هجوم	أسلحةمختلفة	١٠اصابات	تدمير بلدوزرن ودبابة	—	—	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
١٩ — ٥/ ٢	—	جبل الشيخ	هجوم	اسلحةمختلفة	٨ اصابات	تدمير بلدوزر واعطاب ثلاث آليات نصف مجنزرة	—	١	—	رقم ٧٤/٩٢	٥/٣
٢٠ — ٥/ ٧	—	القدس	تفجير	عبوات حارقة	— —	تدمير سيارة أحد ضباط المخابرات	—	—	—	رقم ٧٤/٩٣	٥/٨
٢١ — ٥/ ٨	٥٤٠٠	بات يام/يافا	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير بوابة مبنى منزل ابراهام تيـاك الـذي يعمل مـع المخـابرات الصهيونيـة واصابة المبنى بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٩٤	٥/٨
٢٢ — ٥/ ٣	١٧٤٠٠	جنوب لبنان وجبل الشيخ	اشتباك وقصف	أسلحة مختلفة	— —	—	٥	١٦	—	رقم ٧٤/٩٥	٥/٨
٢٣ — ٥/ ٨	١٥٤٣٠	بناح تكفا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير سيارة واصابة المباني المجاورة بأضرار	—	—	—	رقم ٧٤/٩٦	٥/٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٢٤ —	٥/١١	١٦٠٠	جنوب لبنان	غارة على قواعدنا من قبل طائرات العدو		—	—	—	—	١	—	رقم ٧٤/٩٧ ورقم ٧٤/٩٨	٥/١١
٢٥ —	٥/١٠	—	طولكرم	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	رقم ٧٤/٩٩	٥/١٣
٢٦ —	٥/١٢	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد		—	—	—	—	رقم ٧٤/١٠٠	٥/١٣

ملاحظة : ١ — تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

٢ — قامت سلطات العدو باعتقال عدد من المواطنين خلال هذه الفترة ، وبعد العمليات العسكرية ، كما يبين الجدول المرفق من مكتب الارض المحتلة :

البلــد	عدد المعتقلين
١ — نابلس	٥١
٢ — كفر الديك	١٠
٣ — الخليل	٣
٤ — حيفا	٢
٥ — جنين	٣
٦ — القدس	٢٦٠
٧ — غــزة	٣٠
المجموع	٣٥٩

١ — اعترف العدو بالحادث ، راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٥١٢ ، ص ٣٩٢ بتاريخ ١٩٧٤/٤/١٨ .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٤/١٦ — ١٩٧٤/٥/١٤

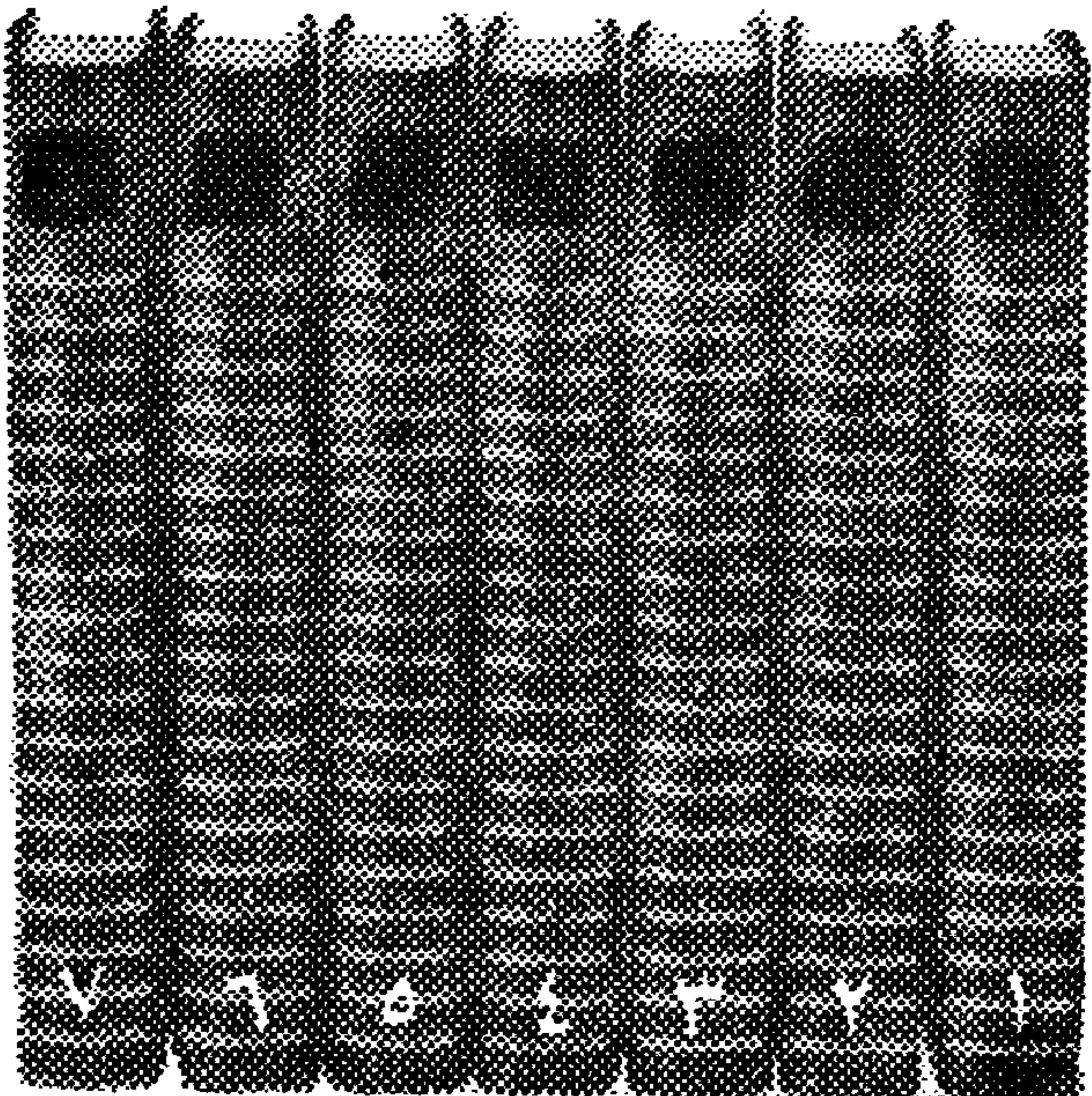
الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	٤/١٤	—	ناتانيا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة الحديقة العامة باضرار	—	—	—	ن. عدد٥١١ ص٣٦٠	٤/١٧
٢	٤/١٨	٦،٣٠	بني براك	تفجير	عبوة ناسفة	—	١٢	—	—	—	—	ن. عدد ٥١٢ ص٣٩٧	٤/١٨
٣	٤/١٧	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	تدمير سيارة نقل وقتل صاحبها تسبون ابراجيل	—	—	—	ن. عدد٥١٢ ص٣٩٩	٤/١٨
٤	٤/٢٣	—	ناحال جتيت	تفجير	لغم	٤	٣	اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	ن. عدد٥١٨ ص٥٤٧	٤/٢٦
٥	٥/ ١	—	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	ن. عدد٥٢٢ ص٣٥	٥/٢
٦	٥/ ٨	—	بتاح تكفا	تفجير	عبوات ناسفة	—	٥	تدمير شاحنة عسكرية	—	—	—	ن. عدد٥٢٨ ص٢٠٠	٥/٩
٧	٥/١٠	—	زرعيت	قصف	قذائف البازوكا	—	—	—	—	—	—	ن. عدد٥٣٠ ص٢٦٢	٥/١١

ن. نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

صدر المجلد السنوي السابع من

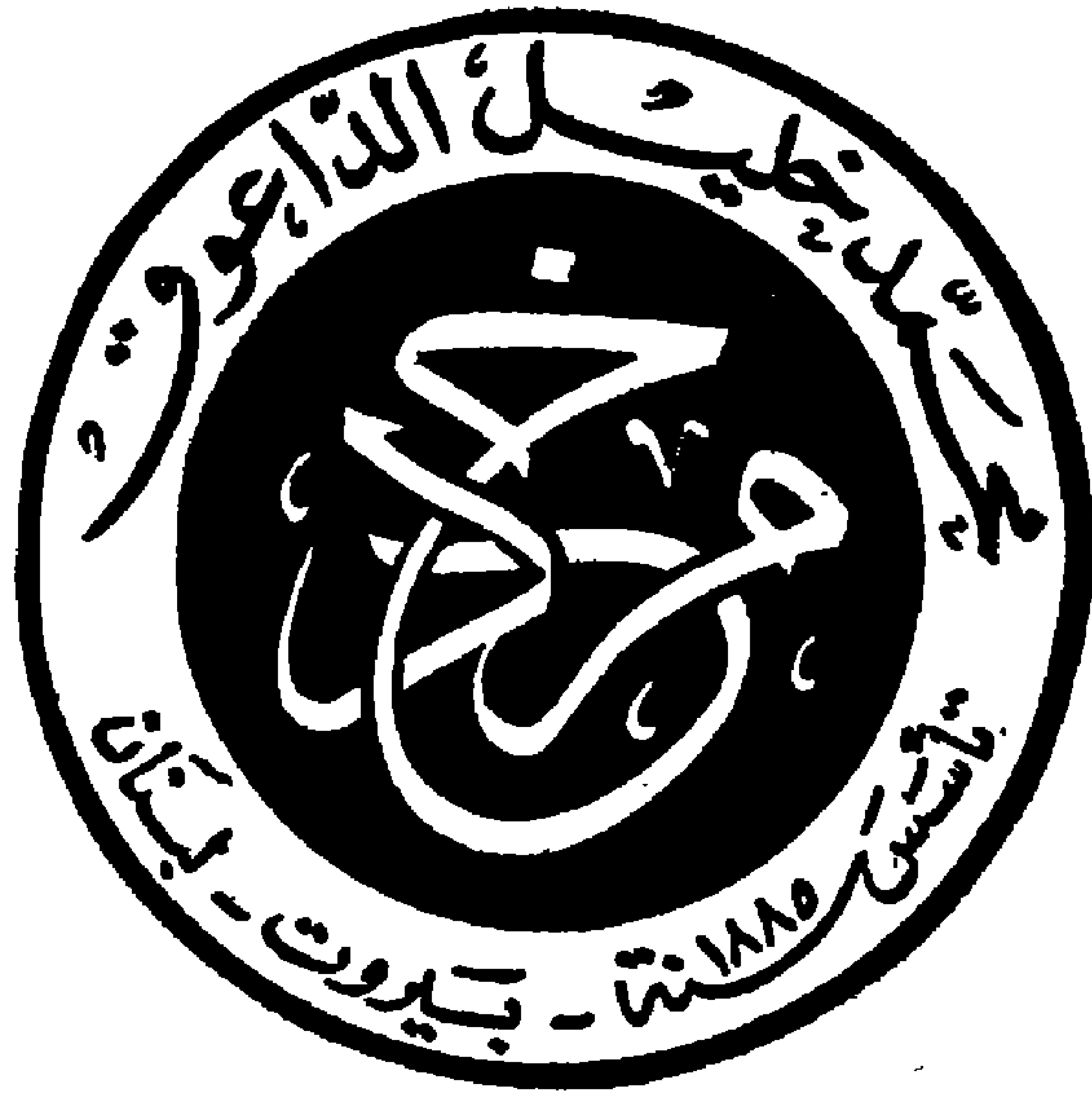
السياسة الدولية



- مرجع علمي للعاملين في الحقل السياسي والدبلوماسي والإعلامي .
- المجلد مزود بفهرس تحليلي وفهرس للمعاهدات والاتفاقات الدولية .
- ١٠٠٠ صفحة ... الثمن ١٠٠ قرش
- يطلب من قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام ومكتبة الأهرام بشارع محمد فريد والمكتبات الكبرى في الوطن العربي
- يضم الأعداد ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ الصادرة خلال عام ١٩٧١

رئيس التحرير
د. بطرس بطرس غالي

مدير التحرير
د. عبد الملك عودة



إستيراد وتصدير
لجميع أنواع الورق والكرتون
للمجلات والكتب

محمد خليل الذاعوق

شارع المعرض — بيروت — لبنان
مكتب تلفون : ٢٣٤٦٤٥ ٢٢٨٠٤٢
مستودع تلفون : ٢٩٣٩٣٢



شركة الالبان اللبنانية
"فورموست"

ش.م.ل.
صندوق البريد ١١ - ٦٣٧٢ - بيروت، لبنان - تلفون ٤٣١٨٣٣ - ٤٣١٩٣٠
سجل تجاري جبل لبنان ٢٠٦٣ - العنوان البرقي : فورموست - بيروت

Lebanese Foremost Dairies

S.A.L.

KFARCHIMA

في العالم أجمع
هذه الأعمدة هي رمز بعلبك

في العالم أجمع
رمز جودة السجاير

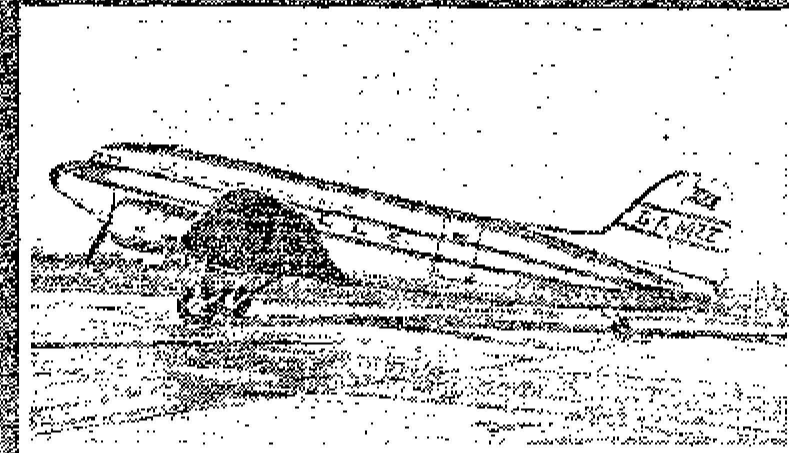
مارلبورو



Soft Pack or Flip Top Box

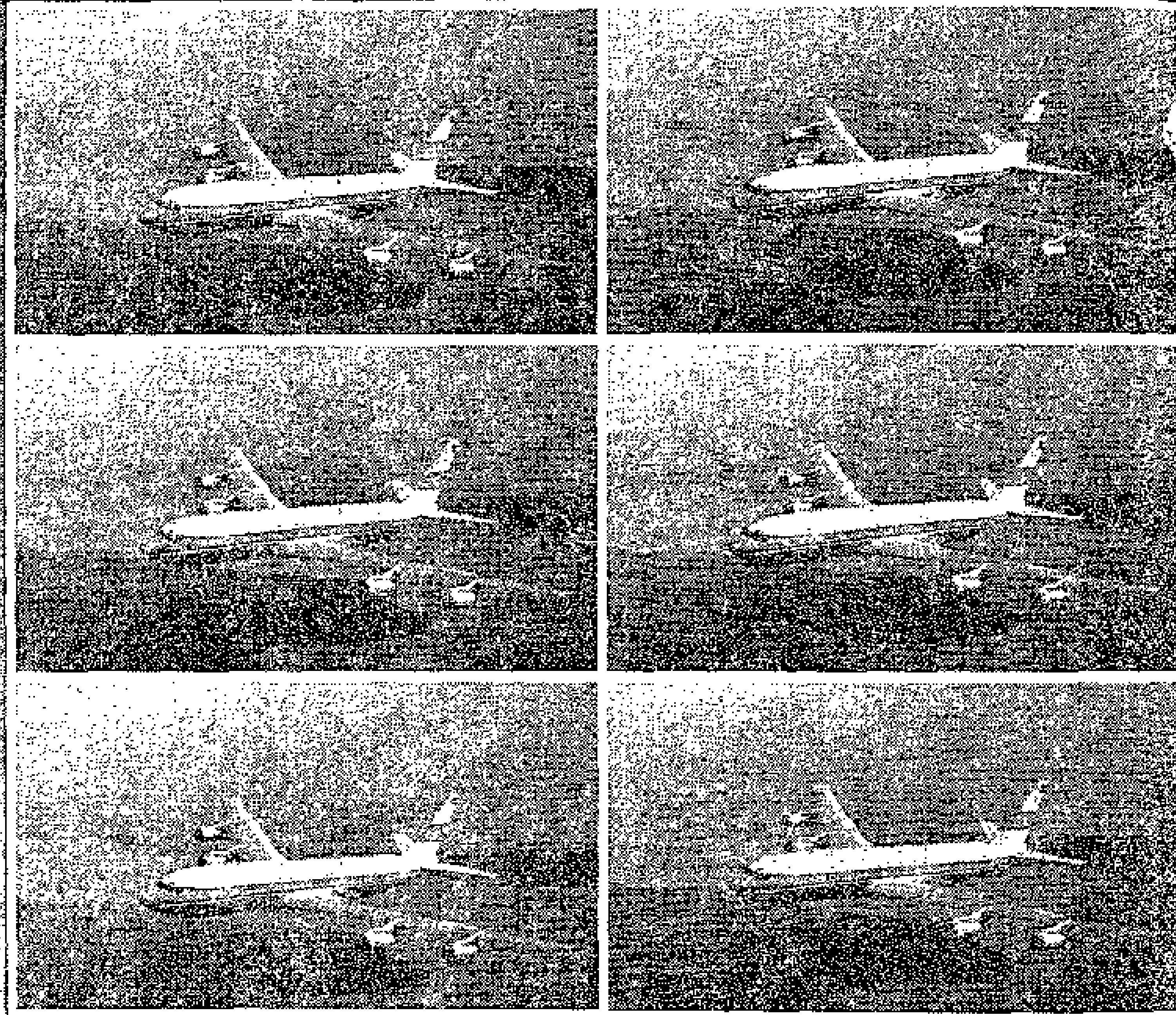
A quality product from PHILIP MORRIS Inc., Richmond, Va., U.S.A.

١٩٥٤



في عام ١٩٥٤ بدأت الخطوط الجوية الكويتية [illegible]

١٩٧٤



وفي عام ١٩٧٤، بعد مرور ٢٠ عاماً، اتسعت هذه الآفاق فتجاوزت [illegible] الأعمال [illegible] بالخدمات آفاق جديدة للمزيد من التقدم والازدهار. هذا هو ما يدفع باستمرار الخطوط الجوية الكويتية على وضع كل ثقتها في المستقبل. وما يدفع الخليج على وضع كل ثقته في الخطوط الجوية الكويتية.



الخطوط الجوية الكويتية

عروض سينمائية بـ ٦ أقنية مختلفة من الموسيقى المذيعة

توّج متعتك بنكهة ونستون..
ونستون.. الكمال بالمتعة



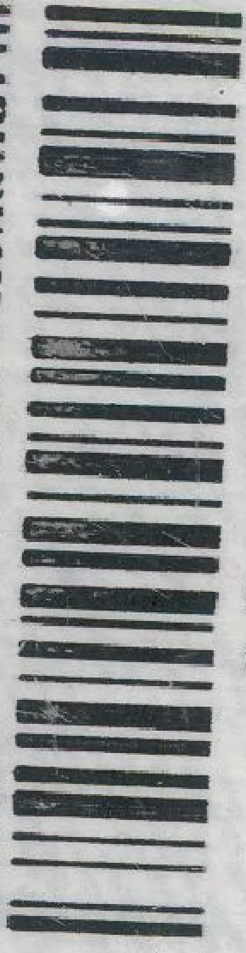
R.J. Reynolds - "The Best Tobacco makes the Best Cigarettes"

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon L L 40, Syria S L 50, other Arab countries LL 50 or equivalent, Africa and Europe LL 55, elsewhere LL 90; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World LL 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ½ ل.ل. في لبنان
٤ ½ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية





Bibliotheca Alexandrina
0535856